الأخلاق المتبولية
الفائضة من الحضرة المحمدية

تأليف

الإمام سيدي عبد الوهاب بن أحمد الشعراني

المتوفى سنة ٩٧٣ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

الأخلاق المتبولية
المفاضة من الحضرة المحمدية

تأليف

الإمام سيدي عبد الوهاب بن أحمد الشعراني

المتوفى سنة ٩٧٣ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : AL-ʾAḪLĀQ AL-MATBŪLIYYAH AL-MUFĀḌAH MIN AL-ḤAḌRAH AL-MUḤAMMADIYYAH

Classification: Sufism
Author : Sidi ʿAbdul-Wahhāb al-Šaʿrāni
Editor : AL-šayḫ Aḥmad Farid al-Mizyadi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 704
Size : 17*24
Year : 2010
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب : **الأخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية**
التصنيف : تصوف
المؤلف : الإمام عبد الوهاب الشعراني
المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات : 704
قياس الصفحات: 17*24
سنة الطباعة : 2010
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى

DKi
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-6177-2
ISBN 2-7451-6177-6

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، الملك الحق المبين، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله، سيد الأولين والآخرين، اللهم فصلِّ عليه وسلم، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحابتهم أجمعين.

وبعد .. فهذا كتاب نفيس جدًا من أعظم وأقيم كتب الأخلاق الغريبة التي دأب الشيخ الشعراني على تصنيفها، فهو لا شك مجدد الزمان ومربي المريدين والعارفين من وقته إلى هذه الأيام، فقد جمع مصنفات شتى في كيفية السلوك وتربية ذوي العرفان والتحقيق، وإرشاد المرشد ونصح ذوي الطريق.

ومن منطلق عزمنا منذ فترة ليست بقريبة عهد على تحقيق تراث الشيخ الشعراني، وحثنا شيخنا – رحمه الله تعالى وقدس سره العزيز- على ذلك، وأيضًا أحد حفدة الشيخ وهو الأستاذ الفاضل محمد الشعراني، علمًا بأن الفقير قد أذن له الشيخ فكانت الأخلاق المتبولية نبراسًا للمهتدين، لا سيما وصاحبه المفاض عليه من حضرة المصطفى الأمين، هو سيدي العارف بالله مربي العارفين الشيخ إبراهيم المتبولي.

هذا.. ونشير إلى أن الفضل في إخراج هذا الكتاب على نفقة ولي عهد أبو ظبي- رحمه الله- مساهمة كريمة منه في نشر الثقافة الإسلامية الأصيلة، وذلك سنة 1975 هـ.

حيث قام الشيخ الدكتور منيع عبد الحليم محمود – حفظه الله ونفع به- بتحقيقه فجزاه الله خيرًا على جهده المبارك هذا.

وإن لم أقف على إشارة منه إلى أي نسخة اعتمدها في تحقيق الكتاب!.

ونظرًا لما بالكتاب من ضرورة تدعو إلى إخراجه في حُلة وثوب جديد حديث يُناسب ما عليه التحقيق في هذه الأيام، فقمت بالضبط والتصحيح والتحقيق لما تعرضت له المطبوعة من سقط وتصحيف وغير ذلك، عن غير قصد.

فاعتمدنا أيضًا نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية تقع تحت رقم (47) تصوف حليم- ميكروفيلم (59157)، وعدد أوراقها (505) ورقة ذات وجهين.

واعتمدنا أيضًا كلام المصنف في كثير من كتبه مثل: تنبيه المغترين، والمنن الكبرى، وتطهير الزوايا، والكوكب الشاهق، والطبقات الكبرى والصغرى، وغيرها، وكذلك مصادر التراجم مثل الكواكب الدرية للمناوي، والكواكب السائرة للغزي، والضوء اللامع للسخاوي، كلها كانت بمثابة العون في ضبط النص وتصحيحه، حيث إشكالية بعض كتب الشيخ الشعراني أنه يوجد بها بعض التصحيفات والأخطاء الواقعة والحاصلة من كثير من النساخ.

وقد أشرت لبعض الفروق بين الطبعتين والنسختين.

وقد قمت أيضًا بالتعليق الصوفي، والتعريف اللغوي، والتخريج العلمي، والعزو للبعض والتوثيق، والترجمة لكثير من الأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب.

ولا يدعي أحدٌ منّا الكمال في مثل هذا المجال، فإنه في الغالب محال، وما هو إلا جهد المقل، ومحاولة الاقتراب من دخول الباب، وحصول بركة الأعتاب، وطمعًا في ورثة أُولي الألباب.

وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ هادي العباد، ولباب اللباب، وموصل الألباب لحضرة القدوس الوهاب.

❁❁❁

ترجمة المصنف

هو العالم المحقق، والفاضل المدقق، الحبر الهمام، والفرد المقدام، شيخ الطريقة، وكشاف كل حقيقة، سيدي **عبدالوهاب الشعراوي** «الشعراني»[1]:
عبد الوهاب بن أحمد الشعراوي.

شيخنا الإمام العامل، والهمام الكامل، إنسان عين ذوي الفضائل، وعين إنسان الواصلين من ذوي الوسائل، العابد الزاهد، الفقيه المحدث، الصوفي المربى المسلك، وهو من ذرية الإمام محمد بن الحنفية.

ولد ببلده، ونشأ بها، ومات أبوه وهو طفل، ومع ذلك ظهرت فيه علامة النجابة، ومخايل الرئاسة والولاية، فحفظ القرآن، وأبا شجاع، والأجرومية، وهو ابن نحو سبع أو ثمان، ثم انتقل من الريف إلى مصر في غرة سنة إحدى عشرة وتسعمائة، فقطن بجامع الغمري، وجدّ واجتهد، فحفظ عدة متون منها منهاج النووي، والألفيتين، والتوضيح، والتلخيص، والشاطبية، وقواعد ابن هشام، بل حفظ الروض إلى القضاء على الغائب،

-وذلك من كراماته- فقد وقفت على مالا يكاد يحصى من الطبقات والتواريخ فلم أر في ترجمة أحد من الأعيان أنه حفظه- ولا حتى بعضه- وعرض محفوظاته على مشايخ عصره، ثم شرع في القراءة، فأخذ عن الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري شرحي المنهاج، وجمع الجوامع للمحلي، وحاشية لابن أبي شريف، وشرح ألفية العراقي للسخاوي، وألفية ابن مالك لابن عقيل وسمّع عليه الكتب الستة وغيرها.

وقرأ على الشمس الدواخلي: شرح الإرشاد، والروض، وشرح الألفية لابن المصنف، وشرح التوضيح، والمطول، وشرح جمع الجوامع وحاشيته، وشرح المعلقات السبعة، وشرح المقاصد، وغيرها، وشرح ألفية العراقي للمؤلف.

وقرأ على النور المحلي: شرح جمع الجوامع.

وعلى النور الجارحي: شرح ألفية العراقي، والشاطبية.

وعلى مُلاّ علي العجمي: عدة كتب نحوية.

---

(1) انظر: الكواكب الدرية (793)، شذرات الذهب (372/8)، هدية العارفين (641/1)، كرامات الأولياء (134/2)، الكواكب السائرة (176/3)، ومناقبه للمنبجي (طبع دارة الكرز).

وعلى القسطلاني: غالب شرحه للبخاري، وقطعة من المواهب.
وعلى الأشموني: قطعة من المنهاج، والألفية، وجمع الجوامع.
وعلى شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: شرح رسالة القشيري، والروض، والتحرير، وآداب البحث، وغيرها. ثم على الشهاب الرميلي: ثلاثة أرباع الروضة.

وحُبِب إليه الحديث فلزم الاشتغال به، ومع ذلك لم يكن عنده جمود المحدثين ولا كدونة النقلة، بل هو فقيه النظر، صوفي الخبر، له دراية بأقوال السلف ومذاهب الخلف.

وكان ينهي عن الحط على الفلاسفة، وينفر ممن يذمهم بحضرته ويقول: هؤلاء عقلاء.

ثم أقبل على الاشتغال بالطريق، فجاهد نفسه مدة، وقطع العلائق الدنيوية، ومكث سنين لا يضطجع على الأرض ليلاً ولا نهارًا، بل اتخذ له حبلاً في سقف خلوته، فيجعله في عنقه ليلاً حتى لا يسقط.

وكان يطوي الأيام المتوالية ويديم الصوم، ويقتصر على الفطر بأوقية من الخبز، ويجمع الخروق من الكيمان فيتخذها مرقعة يستتر بها، وكانت عمامته من خرق الكيمان وقصاصات الجلود، واستمر على ذلك حتى قويت روحانيته، فصار يطير من سطح جامع الغمري إلى سطحه.

وكان يفتتح مجلس الذكر عقب العشاء فلا يختمه إلا عند الفجر.

ثم أخذ عن مشايخ الطريق، فصحب الخواص والمرصفي والشناوي فتسلك بهم.

وكان على الخواص فطامه، ولما مات الخواص جاءت جماعته وقالوا له: اجلس مكانه فقال: هو ما عملني شيخًا قالوا: نحن نعملك شيخًا علينا. قال: أمهلوني الليلة حتى أنظر، فلما أصبح قال لهم: رأيت الليلة أني أخيط النعال العتق، وكلما خطت شيئًا تفتق وعاد كما كان، ولا خلاص لي في ذلك.

ثم تصدى للتصنيف فجال قلم الشعراني في كل أُفق من آفاق المعرفة العلمية والذوقية. فكتب في الأصلين، في التصوف، والتوحيد، والفقه والأصول، والتفسير، والحديث، والتاريخ والمناقب، واللغة، والنحو، والطب، وغيرها، فنذكر منها:

1- الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم.

2-الدرة المنثورة في زبد العلوم المشهورة.

3-لواقح الأنوار في طبقات الأخيار الكبرى، والوسطى، والصغرى.

4-المقدمة النحوية في علم العربية.

5-شرح جمع الجوامع للسبكي.

6-الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين ومقلديهم في الشريعة المحمدية.

7-إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين (بتحقيقنا).

8-مدارج السالكين (بتحقيقنا).

9-لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق.

10-رسالة في آداب تلقين الذكر.

11- الفلك المشحون.

12-الجواهر والدرر الصغرى، والكبرى، والوسطى. تحت قيد التحقيق.

13-بهجة النفوس والأحداق. يسر الله لنا تحقيقه.

14-الأخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية (كتابنا هذا).

15-البحر المورود في المواثيق والعهود.

16-كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان.

17-خبايا الزوايا عن خبائث المطايا (بتحقيقنا).

18-الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر.

19-تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس.

20-رسالة في العقائد.

21-رسالة في التسليك.

22-الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية.

23-إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين (بتحقيقنا).

24-مختصر تذكرة السويدى في الطب، (بتحقيقنا).

25-مختصر اعتقاد أهل السنة للبيهقي. تحت قيد الطبع بتحقيقنا.

26-الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع (بتحقيقنا).

27-الدرر السنية على الوصية المتبولية.

28-البدر المنير في غريب أحاديث البشير.

29-منحة المنة في التلبس بالسنة.

30-تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر.

31-المنهج المبين في مذاهب الأئمة المجتهدين.

32-إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى شروط صحبة الأمراء.

33-مفحم الأكباد في مواد الاجتهاد.

34-مختصر تذكرة القرطبي.

35-لوائح الخذلان على من لم يعمل بالقرآن.

36-حد الحسام على من أوجب العمل بالإلهام.

37-البرق الخاطف لبصر من عمل بالهواتف.

38-الاقتباس في القياس.

39-لواقح الأنوار القدسية مختصر الفتوحات المكية. تحت قيد الطبع بتحقيقنا.

40-مختصر السنن الكبرى للبيهقي.

41-الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية.

42-ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى.

43-سير المسير والتزود ليوم المسير.

44-الطراز الأبهج على خطبة المنهج.

45-طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بالله تعالى والعباد.

46-علامات الخذلان على من لم يعمل بالقرآن.

47-فتح الوهاب في فضائل الآل والأصحاب.

48-القواعد الكشفية الموضحات لمعاني الصفات الإلهية.

49-الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق (بتحقيقنا).

50-اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر.

51-مختصر المدونة الكبرى لسحنون.

52-مختصر الألفية لابن مالك في النحو.

53-هادي الحائرين إلى رسوم أخلاق العارفين.

54-المنن الوسطى. تحت قيد التحقيق.

55-المنن الصغرى. تحت قيد التحقيق.

56- الفتح في معنى الشطح.

57- مختصر القواعد الكشفية.

58- الميزان الذرية المبينة لعقائد الفرقة العلية (طبع بتحقيقنا).

59- العهود المحمدية.

60- مختصر القواعد للزركشي (أتم الله تحقيقه).

61- مختصر اليواقيت والجواهر. وغير ذلك كثير وبعضها نعده للتحقيق والله الموفق.

وقرض له على بعضها علماء عصره، فغلب الحسد على طائفة من الفقهاء والصوفية، فدسوا عليه في بعضها كلمات تخالف ظاهرها الشريعة، وعقائد زائغة، ومسائل تخالف الإجماع، وأقاموا عليه القيامة، وشنّعوا وسبوا، ورموه بكل عظيمة، وبالغوا في الأذى والنميمة، فخذلهم الله تعالى وأظهره عليهم.

وكان مواظبًا على السنة، مجانبًا للبدعة، مبالغًا في الورع، مؤثرًا ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه، محتملاً للأذى، سالكًا طريق العفو، موزعًا أوقاته على العبادة، ما بين تصنيف وتسليك وإفادة.

وكان يجتمع عنده بزاويته من العميان وغيرهم نحو مائة، فيقوم بهم، نفقةً وكسوة.

وكان عظيم الهيبة، وافر الجاه والحرمة، يأتي إلى بابه أكابر الأمراء، فتارةً يجتمعون به وتارةً لا.

وكان يُسمع لزاويته دوي كدوي النحل ليلاً ونهارًا، ما بين ذاكرٍ وقارئٍ ومتجهدٍ ومطالعٍ للكتب وغير ذلك.

وكان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفى ﷺ، ويستمر جالسًا من العشاء إلى الفجر لا يفتر ولا ينعس، ولا يخلّ بالحضور مع الفقراء ولو كان مريضًا.

ولم يزل قائمًا على ذلك، معظَّمًا في صدر الصدور، مبجلاً في عيون الأعيان بالخير والحبور، حتى نقله الله إلى دار كرامته في سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة، وكانت جنازته جمع حافل من العلماء والفقهاء والأمراء والفقراء، ودفن بجانب زاويته بين السورين.

ومضى وخلف ذكرًا باقيًا، وثناءً عطرًا ذكيًا زاكيًا، ومددًا لا ينكره إلا معاندٌ محروم، ولا يجحده إلا مباهتٌ مأثوم.

وأقام بالزاوية بعده ولد الشيخ العالم الصالح عبد الرحمن، فقام عليه أولاد أخي الشيخ-ومقدمهم الشيخ عبد اللطيف- وسلك سبيل الشيخ في التكرم والبذل والإيثار حتى بملبوسه، فضلاً عن طعامه.

وكان ولد الشيخ يُزان بحب الإمساك، ويرمي بما قال المصطفى ﷺ : «**لا داء**

أدوى منه»[1] لاسيما للنساك، فمال فقراء الزاوية عليه مع عبد اللطيف، فترافعوا للحكام غير ما مرة، وكاد أمره يتم، فلم ينشب عبد اللطيف أن مات، فاستقر الأمر لولد الشيخ، فصار معظمًا عند الحكام، وأمر الزاوية في انتظام، لكنه أقبل على جمع المال- والظاهر أنه لما له من الأطفال- ثم ترك المدرسة والدراسة وتحول بعياله، فسكن على بركة الفيل- أعظم بها من متنزه!- وصار لا يأتي إلى الزاوية إلا يوم الجمعة غالبًا، فتلاشت أحوالها جدًا، حتى صار مجلس ليلة الجمعة يجلس فيه نحو اثنين أو ثلاثة أول الليل، ثم يغلب عليهم النوم، وكان في زمن الشيخ يصعد المؤذنون من نحو نصف الليل، فيحصل من إيقاظ النيام، والاشتغال بالذكر والتهجد والقيام والأنس التام ما يثلج الصدور، ويحث على فعل الحبور، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: 38].

ثم مات الشيخ عبد الرحمن -ولد الشيخ- في أواخر سنة إحدى عشر بعد الألف.

ومن كلامه: دوروا مع الشرع كيف كان، لا مع الكشف، فإنه قد يخطئ.

وقال: حكم الرياء ونحوه، واقع للكمل من الأمة، بقدر ما بقي فيهم من البشرية، فإن الجزء البشري يرق ولا ينقطع.

وقال: سمعت هاتفًا في سجودي يقول: إن أردت أن تكون من أهل الله، فلا تكن من أهل الدنيا ولا من أهل الآخرة. قلت كيف؟ قال: لا تحب شيئًا في الدارين إلا لأجله.

وقال: غير التوحيد من صلاة النفل والقراءة، فالوصول به بعيدٌ جدًا، لأنه إنما هو من أوراد الكمل بعد معرفة الله، وزوال الحجب، وأما المريد فليس المطلوب منه إلا العمل على جلاء قلبه.

وقال: ما واظب أحد على الدعاء للخضر ﷺ إلا واجتمع به قبل موته، وهو لا يجتمع بأحد إلا ويعلمه ما ليس عنده، وما من ولي إلا ويجتمع به، لكن يأتي العارف في اليقظة والمريد في النوم، فإنه لا يطيق صحبته في اليقظة.

وقال: من لم يكن له حال يحميه من تصرف الولاة فيه ليس له التظاهر بالمشيخة.

---

(1) روى الطبراني في الأوسط (219/3) نحوه.

وقال: ينبغي إكثار مطالعة الفقه، عكس ما عليه بعض المتصوفة الذين لاحت لهم بارقة من الطريق فتركوا مطالعته وقالوا: إنه حجاب! جهلاً منهم.

وقال: إذا حصل للعبد ثقل من العبادة، كان علامة على إشرافها على الانقضاء، فيأخذ في التحلل منها، وذلك مشاهد.

وقال: للتلقين ثمرة عامة وخاصة، فالعامة: الدخول به في سلسلة القوم، فيصير كأنه حلقة منها، فإذا تحرك في أمر تحرك معه جميع السلسلة، ومن لم يتلقن فهو كالحلقة المنفصلة، إذا تحرك في شيء يدهمه لا يتحرك معه أحد؛ لعدم ارتباطه بأحد.

والخاصة: تلقين السلوك بعد دخول السلسلة. وصورته أن يتوجه الشيخ، ويفرغ على المريد، مع قوله له: قل لا إله إلا الله، جميع ما قسم له من علوم الشريعة، فلا يحتاج بعده لمطالعة كتاب.

وقال: للأنبياء عليهم السلام، سماع كلام ملك الوحي ورؤيته، وللأولياء سماع كلام ملك الإلهام فقط أو رؤيته فقط، فلا يجمع بينهما إلا بنبي، وأما الولي فإن رآه لا يكلمه، وإن كلمه لم يره.

وقال: صرح المحققون بأن للأولياء الأسر الروحاني، بمنزلة منام يراه الإنسان، ولكل منهم مقام لا يتعداه، وذلك حين يكشف له حجاب المعرفة.

وقال: كل إنسان لا يعذب في النار إلا من الجزء الناري الذي هو أحد أركان بدنه.

وقال: ذهب بعض أهل الكشف إلى أن جميع الحيوان لهم تكليف إلهي برسول منهم في ذواتهم، لا يشعر به إلا من كشف عن بصره؛ فإن لله الحجة على خلقه، فلا يعذب أحدًا إلا جزاء، فلا إشكال في إيلام الدواب.

وقال: الخبر آخر ما تنتهي إليه المعاذير، وذلك سبب مآل أهل الرحمة إلى الرحمة.

وقال: تكلم الشبلي رحمه الله في علوم القوم جهارًا، فأنكر عليه الجنيد -رحمه الله- صيانة لذلك وزجره، ولذلك جعلوا طريق الجنيد طريقًا مقوّمًا.

وقال: ذرة من العبادة مع الإقبال على حضرة الله، خير من أمثال الجبال منها مع الملل.

وقال: من يرى له ملِكًا، واعتقد أنه عبدٌ يأكل من مال سيده، استراح وأراح.

وقال: إذا حجب الكامل عن شهود بعض أعماله، أراه الله المنامات الرديئة

- رحمة به- وإذا فترت همة مريد أراد الله رقية، أراه الله منامات صالحة ليجدّ في الطاعة؛ لأنه في مقام التآلف.

وقال: الكامل يشهد الأعمال خلقًا لله وحده، فلا يفرح بزيادتها ولا يعرج على نقصها.

وقال: أسباب انقياد الخلق بعضهم لبعض ثلاثة: الصلاح، والإحسان، والعصي، فالعصا ليست للعالم، فبقي اثنان: فمن لم يحسن لجماعته ولم يكن صالحًا وطلب منهم الانقياد فقد رام محالاً، قال: كما هو مشاهد في أولاد مشايخ الزوايا، يسلك أحدهم البخل وقلة العمل الصالح، اعتمادًا على مشيخة أبيه، ويطلب انقياد الفقراء له -كما كانوا مع أبيه- فلا يجيبه أحد. انتهى

وكلامه رحمه الله كثير، وإنما ذكرت هذا للتبرك.

إشارة مسألة الدس عليه في بعض كتبه: فمما قال في مقدمة هذا الكتاب: وأسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يحفظ هذا الكتاب من كل حاسد وعدو يدس فيه ما ليس من كلامي مما يخالف ظاهر الشريعة؛ لينفر الناس عن النظر فيه كما فعلوا ذلك في كتاب «العهود» وثارت فتنة في جامع الأزهر وغيره، وما خمدت إلا بإرسال نسختي السالمة من الدَّسّ التي عليها خطوط العلماء كما بينته في خطبة «العهود» فالله تعالى يغفر لهؤلاء الحسدة ما جنوه آمين اللهم آمين والحمد لله رب العالمين. ثم قال في موضع آخر منه: ولولا أنه كانت عندي النسخة الأصلية التي عليها خطوط العلماء السالمة من الدَّسّ لما برأني أحد من ذلك؛ لعدم تثبت غالب الناس الآن فيما ينقلونه.

وفاته: انتقل الشيخ ﷺ في جمادى الأولى من سنة 973 هـ.

ودفن بجانب زاويته بحي باب الشعرية، بالقرب من بين السورين، وضريحه الشريف بمسجده المبارك، الذي نجد التربية والسعادة بمجرد وزيارته والمكث في مسجده.

انظر ترجمته في:

1- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (372/8).

2- لطائف المنن للشعراني (32/1)، (236/2).

3- الكواكب الدرية للمناوي (69/4).

4-كرامات الأولياء للنبهاني (793).

5-الكواكب السائرة للغزي (3/176).

6-هدية العارفين للبغدادي (1/641، 642).

7-جامع الكرامات لتوفيق الطويل (138، 142).

8-الشعراني إمام التصوف في عصره ليوسف العش.

9-الشعراني والتصوف الإسلامي لطه سرور.

10-الأعلام للزركلي (4/331، 332).

11-معجم المؤلفين لكحالة (2/339).

12-فهرس الفهارس للكتاني (2/405، 407).

13- مناقب القطب الرباني الشعراني للشيخ المليجي.

❁❁❁

ترجمة سيدي إبراهيم المتبولي

هو سيدي إبراهيم بن علي بن عمر الأنصاري المتبولي الأحمدي الصوفي، الخبير الناقد البصير.

كان ذا معرفة تامة بالتربية مع كونه أميًا، وعقل راجح، وتمكن قوي من نفسه، حتى لا تحكم عليه الأغراض النفسانية، وكان يجعل القرآن إمامه.

وقد قال الشيخ ابن عربي: الصوفي من قام في نفسه وفي خلقه، وخُلُقه قيام الحق في كتابه وكتبه، فما أصابك من حسنة فمن الله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:79] فقد رميت بك على الطريق، وليس التصوف بشيء زائد عند القوم على ذلك انتهى.

قدم الشيخ إبراهيم من بلده متبول إلى «طندتا»، وأقام بضريحها مدة، ثم قدم القاهرة، فأقام بالحسينية، وصار يبيع الحمص المسلوق، بقرب جامع شرف الدين، ثم أقام بزاوية بدرب التتر -تعرف بالشيخ رستم- ثم تحول لزاوية بقرب درب السباع، وصار الفقراء يردون عليه فيها، فيقوم بهم من زرعه، فاشتهر صيته، وتزايد خيره.

وحج مرارًا، ثم تحول لبركة الحاج، فعمّر بها الجامع والغيط المعروفين، وكثر أتباعه بحيث صار يخبز لهم كل يوم نحو أردب، بل ربما بلغ ثلاثة أردب، سوى عليق البهائم التي لزراعاته، فإنه كان نحو ثمانية أرادب كل يوم.

وفزع الأكابر فضلاً عمن دونهم لزيارته والتبرك به، واستفاضت له كرامات كثيرة، ولم يلزمه غسل قط، لا من جنابة ولا احتلام.

وذكر أنه أخذ عن الشيخ يوسف البرلسي الأحمدي، وانتفع به، وأنه فتح عليه في سطح جامع الظاهر، فإنه أقام به مدة.

وكانت أمه من الصالحات، ربّات الأحوال، وكان الشيخ على الخواص -مع علو مقامه في التصريف- إذا جاءته حملة شديدة، يذهب إلى قبرها، ويحكي لها ذلك عند القبر، فتقضي الحاجة، قال الشعراوي: ..وقبرها معروف بذلك إلى الآن.

وكان الشيخ إذا سئل: من شيخك في الطريق؟ يقول: أمي.

وكان يرى المصطفى ﷺ في نومه كثيرًا، فيُعلِم أمه فتقول: الناس شركاؤك في ذلك، أما الرجل فهو من يراه في يقظة.. فكان يراه بعد ذلك يقظة ويحادثه ويشاوره في أموره، حتى أنه حفر بئر غيطه ببركة الحاج فانهارت، فشكا له فقال: غدًا أرسل عليًا ابن

عمي، يخط لك على بئر شعيب نبي الله، التي كان يسقي منها غنمه، فخطها له، فوجد الجدار.. وهو الذي أمره بعمارة زاويته بالبركة وقال: ما دام فيها اللقمة، فالبلاء مدفوع عن أهل مصر، وما دامت عامرة، فمصر عامرة.

وكان مبتلى بالإنكار عليه لكونه لم يتزوج، وكان كثير العطب لمن يؤذيه أو يؤذي أحدًا من جماعته، أو ينكر عليه.

وكان يحزن على عدوه إذا مات أشد الحزن ويقول: مات من كان يحصل لنا على يده الإدمان على تحمل الأذى، ويحصّل على يده الأجر.

وقيل له: الفقراء شأنهم الاحتمال فقال: صحيح، لكن الحق ينتصر لهم لاستنادهم إليه، فإنهم كالطفل في حجر وليه.

وكان يقول: نفسي مشغولة عن الشهوات بما بين يديها من أهوال القيامة.

وكان كثير التعبد، لا يفتر ليلاً ولا نهارًا ، وبه مرض الحصى وأسر البول، فكان يجعر كالثور ويقول: يا رب، لا أسألك تحويل ما قدرته، ولكن أسألك اللطف بي.

وكان إذا ذهب لأحدٍ من الأمراء لا يأخذ أحدًا من جماعته ويقول: ارجعوا، فإني عازم على أكل السم ولا تطيقونه، وإذا كان طعام الفقراء سمًا، فكيف طعام الملوك؟! وكان لا يصلي المغرب كل ليلة إلا في مكة.

وكان إذا أخبر بشيء لا يتخلف.

وقال: أنا أمان لمصر ما دمت فيها.

وسئل: من لهذه الوظيفة بعدك؟ قال: شاب اسمه محمد بن عنان.

ودخل عليه رجل ومعه ولد صغير، فبكا، فقال لوالده: هزّ هذه النبقة، فسقط منها ثلاثة وثمانون واحدة، فقال: ولدك يتزوج من النساء بعددها، فكان كذلك.

وقال: «حُكْم أولاد الفلاحين الذين يقرءون بالجامع الأزهري، حكم من سافر ليتعلم آلة الجهاد من الرمي وغيره، فلما تعلم سافر ليجاهد، فقطع الطريق واكتفى بذلك، فهم اتخذوا علمهم آلة لحرب من يخاصمهم، ونسوا ما شرع العلم لأجله من العمل والخشية، والورع والزهد ونحو ذلك».

قال: الفقير لا يكون عمله إلا بقلبه، ولا يد له ولا لسان، فمن لا قلب له لا يتصدى للشفاعة عند الظَلَمة، فيضحكون عليه.

وقال: الشريعة كالشجرة، والحقيقة كالثمرة، فلا بد لكلٍ من الأخرى، لكن لا يدرك ذلك إلا من تم سلوكه.

وقال: لا ينبغي للفقير أن يمكن أحدًا من تقبيل يده، أو التمسح بثوبه، إلا إن صار في مقام الحجر الأسود، قيل: ما مقامه؟ قال: حفظ عهود جميع من استلمه، وتحمل خطاياهم، وفداءهم بنفسه، ولو اسود بذلك وجهه بين الناس.

وقال: الفقراء كبيت الخلاء، لا يأتيهم إلا مخروق.

وقال: كل فقير افتخر بزيارة أمير أو سلطان، فهو مراء وشيطان، لم يشم لطريق الفقر رائحة انتهى.

ولهذا كان السلطان قايتباي يزوره في بكرة الحج، فلا يذكره بعد خروجه من عنده بمدح ولا ذم.

وقال: الخيانة تذهب البركة، ومن خان في درهم، خان في ألف، وما رأينا خائنًا إلا قصير الذيل، ممحوق البركة.

وقال: من أدب العبد ألاّ يخاطب ربه إلا على أكمل حال من طهارة الظاهر والباطن، ولذلك فرش الأكابر السجادة في مصلاهم تعظيمًا لحضرة الله، والناس عن ذلك بمعزل.

وقال: شروط دوام الولاية أن يحرر صاحبها نيته، ويقول بنية نفع العباد، لا بنية نفع نفسه بالثواب إلا تبعًا، ولا يخون من ولاّه، وهو الله يحكم الأمثال، ثم السلطان الوزير مثلاً، فلا يعصى ربه سرًا ولا جهرًا، فمن عصى إمامه انقطعت صلته به، وانقطع استمداده من الله، فإن سنده متصل إلى حضرة الله، فمن وفّى بهذه الشروط من الولاة والأمراء، لا ينعزل إلا بالموت، كما وقع للخلفاء الأربعة.

وقال: لا يعمل الفقير إلا بقلبه، وأما يده ولسانه فأمرهما سهل.

وقال: سلموا على أصحاب الأحوال بالقلب دون اللفظ، فإنهم في حضرته لا يقدرون على خطاب أحد باللفظ، وربما سألهم الدعاء فدعوا عليه.

وكان يوصي أصحابه بعدم كلام المجاذيب ويقول: سلموا عليهم بالقلب.

ودخل عليه رجل من أرباب الأحوال، فتحدث معه، وقال: إن الله أعطاني نفوذ البصر فأنظر مسيرة سنة، ولا تنزل قطرة من السماء، ولا يطلع نبت من الأرض إلا وأعلم به. فقال: وعزة ربي، هذا أمر أعطيته وأنا طفل فلم أرض به، فتب إلى الله، ولا تقف عنده فتقف.. فتول الرجل وهو يقول: جزاك الله خيرًا يا مكمل الرجال.

وكان يصلي الظهر دائمًا بالجامع الأبيض برملة «لد» وأوصى الدشطوطي والخواص بذلك، فكانا يحافظان على ذلك دائمًا .

وقال: لا يتقدم للإمامة في الفرض والجنازة إلا من ظاهره كباطنه، ولا سريرة له يفتضح بها في الدارين، أما من ارتكب في الباطن ما لو اطلع عليه المقتدي لكره الصلاة خلفه.

وقال: يقال في المثل: نظف القناة، يجري الماء، وكذا الفقير، إذا نظف قلبه من مكروهات الحق تعالى جرى ماء الإيمان في قلبه جداول.

وكان يكره من يشتغل بكلام البوني والسهروردي. ويتريض لها لحصول ولاية أو دنيا ويقول: عباد الأوثان أكبر همة من هؤلاء، اشتغلوا بأسماء الله لتقربهم إلى الدنيا زلفى.

وكان يتعمم بالصوف، ويتطيلس بشملة حمراء، ويقول: أنا أحمدي المقام.

وله كرامات منها أنه شفع عند الكاشف فردّه، وقال: إن كان شيخًا ينفخني. فقال: ينفخه الله. فانتفخ تلك الليلة، فصار كالزق، فتمزقت بطنه ومات.

ومنها أن الوزير رتب على فاكهة غيطه مكسا، فاستعفاه فقال: هذا مال السلطان. فوقع تلك الليلة بالخلاء، فاندقت عنقه، فمات.

ومنها أنه أخلى رجلاً فدخل عليه يومًا، فلم يلتفت إليه، ولم يكترث به، فلم يزل به حتى قال له: قد استغنيت عنك، وذلك أن حائط الخلوة تنشق كل ليلة، فيدخل شيخ عظيم الهيبة، عليه ثياب خضر فيأخذ بيدي فيدخلني الجنة. فقال: خذني معك الليلة -ولا تُعلمه- ففعل، فأدخلهما إلى جنة قطوفها دانية، فقال البرهان للتلميذ: قل لا إله إلا الله، فقالها معه فذاب ذلك كما يذوب الرصاص، ووجد التلميذ نفسه على مزبلة بجوار خرارة حمام، مزروع عليه قصب فارسي، فبهت، فقال له الشيخ: ذاك الشيطان، ولو مت على تلك الحالة، لكنت من الهالكين، فاستغفر الله وتاب.

وكان إذا رأى أنف إنسان، عرف كل ما هو مرتكبه من الفواحش.

منها أن أحد فقرائه أحب زيارة أمه بالعجم -وهو عند الشيخ ببركة الحاج- فاستأذنه في السفر فلم يأذن، فدخل خلوته بالجامع -والناس يقرءون القرآن- فرأى نفسه بالعجم عند أمه، فأقام عندها أربعة أشهر، ثم اشتاق للشيخ، فرأى نفسه في خلوته، فخرج، فرأى القراء في تلك المدة قرءوا ربع القرآن.

وهذا من طي الأرض، وإنكار اتساع الزمن القليل دون طي الأمكنة.

ومر يومًا ببستانه ببركة الحاج فقال: ما هذا؟ فقالوا: بستانك.

قال: وعزة ربي لي ثلاثون سنة ما خرجت من حضرة الله.

قالوا: أنت الذي غرسته وحفرت آباره.

قال: لم أتذكر شيئًا من ذلك، وإنما خطر ببالي مرة أن أغرس بستانًا بالبركة، وأبني بها زاوية يأوي إليها الفقراء، ففعل الله ذلك.

ولما وقع الغلاء زمن قايتباي، فاجتمع عنده خمسمائة نفس، فصار يطعمهم خبزًا بغير أدم، فطلبوا أدمًا، فقال لنقيبه: اذهب إلى الخص الذي في النخل، فارفع الحصير، وخذ حاجتك. ففعل فوجد قناة تجري ذهبًا من علوٍ إلى أسفل، فأخذ قبضة، فاشترى بها أدما ذلك اليوم، ثم قال له: تأذن نوسع على الناس؟ قال لا. فذهب بغير علمه، فلم يجد القناة.

وكان إذا جاءه رجل يطلب تسكين شهوته يقول: تطلب مدة أو دائمًا ؟ فإن قال مدة، شد وسطه بخيط، فما دام كذلك لا تتحرك شهوته، وإن قال أبدًا، مسح ظهره، فلا يشتهي النساء حتى يموت.

وسأل أحد فقرائه: مالك كثير التعبد ناقص الدرجة؟ لعل والدك مات غير راضٍ عنك؟ قال: نعم، فتوجه لقبرهِ وقال: جئنا شافعين، فخرج من القبر، وقال: رضيت عنه. فقال: عُد مكانك.

وأتته امرأة قالت: ابني أسره الفرنج فادعُ له، فدعا ثم قال: هذا ولدك، فأخذته ومضت، فقال: اشهدوا أن لله رجالاً في هذا العصر يجيب سؤالهم حالاً.

وخرج رجل اسمه شعشاع، فصار يضر الناس، فشكوه إليه، فقال لفقيرٍ عنده اسمه العفش: ارمه بنشابة. فأخذ عودًا ونشبه نحو الشرق، فوقع في نحره، وخرج من ظهره، فجاء الخبر بأنه قتل ذلك الوقت.

وغصب ابن البقري بقرة رجل، فأتاه الشيخ شافعًا، ومعه شيخه ابن الرفاعي، فكلمه بعزة بحضرة شيخه فقال: شيخك هذا كان أبوه قرَادًا في بلاده.

فما قاله إلا والقرد والدب والحمار والكلب في وسط الدار حتى شهدهم الحاضرون، فارتعد ابن البقري، ورد البقرة.

ونام عنده جماعة من فقهاء الأزهر ببركة الحاج، فوجدوا عنده أمردين من أولاد الأمراء ينامان عنده بالخلوة، فأنكروا عليه، وطلبوه إلى الصالحية، فحضر وقال: ما لكم؟ قال القاضي: يدعون عليك أنك تختلي بالمرد.

فقبض على لحيته بأسنانه، صاح فيهم، فخرجوا صاعقين، فلم يعرف لهم خبر ولا أثر، ثم جاء الخبر بأنهم أسروا، وتنصروا، فشفعوا عند الشيخ، فلم يقبل.

ورماه أهل بيت من متبول باللواط بأولادهم، فقال: هتك الله ذريتهم، فصار أولادهم مخانيث، وبناتهم زانيات.

ورماه رجل بفاحشة، فقال: سود الله وجهه، فصار له خد أبيض وآخر أسود، كذا ذريته.

وكان سُمًّا ناقعًا على الولاة، فإذا غضب على أمير أو وزير مات حالاً، أو في ليلته.

وأراد الأمير قانم التاجر، إحداث مظلمة على جماعته وقال: إن شيخنا ينفخني. فقال: أنا ما أنفخ، وإنما أفوق سهمي، فدخل الخلاء، فتأخر، فدخلوا فوجدوه ميتًا.

وقعد يومًا بالمطرية في جماعة من الجند، فقعدوا يشربون خمرًا فقال لجماعته: من يزيل المنكر؟ فوضع فقير رأسه في طوقه، فوقع الجند في بعضهم بالسيوف، وانصرفوا.

وكان إذا حصل بين المجاورين نكد، يدخل المطبخ، ويضرب الدست بعصاه، ويقول: أنت الذي جمعت عندي هؤلاء المخاميل، فما تطلع الشمس حتى يخرجوا من المكان من غير إخراج.

وكان لا يراه أحد يصلي الظهر بمصر، فأنكر عليه بعض الفقهاء، فسافر الشام، فوجدوه بالجامع الأبيض برملة لد يصلي الظهر، فسأل عنه قيم المسجد، فقال: هو دائمًا يصلي هنا.

وأتته امرأة بولدها ليقرأ عنده بالجامع فقال: ما أجمع عندي أحدًا من الحرامية المقطوعي اليد، فخرجت به إلى الخانكاة، فسرق، فقطعت يده.

وكان يقول: كل فقير لا يقتل بعدد شعر رأسه من الظَلَمة، ليس بفقير.

ولما وقع للبقاعي الكلام في ابن الفارض قالوا له: أمثل سلطان العارفين يتكلم فيه؟ قال: من سلطانهم؟ قالوا: ابن الفارض. قال: هذا وأمثاله ملأوا الدنيا عياطًا، وما أعطى أحدهم من سر الله ما يعطي شارب ناموسة.

وكان يعترض على قايتباي فقال له: أما أنا بمصر أو أنت فغضب.

وجاءه رجل يطلب الطريق فقال: تريد مشيخة سوقية أو بيتية؟

- أما السوقية: أن أجلسك بلباس الصوفي، وإرخاء العذبة على السجادة، تصير تخبط عشواء، وتصطاد الدنيا بالدين، وكل من نازعك في مريد حوله بر، قامت عليه القيامة منك وزبانيتك، ومن هذا حاله فمن إخوان الشياطين

- والبيتية: أن تجلس على قدم الإتباع للسنة تخلقًا وتحققًا، فلا تدع مأمورًا إلا

فعلته، ولا منهيًا إلا اجتنبته، ثم ترى نفسك بعد ذلك أنك استحققت الخسف والمسخ، ولو سجدت لله على الجمر من افتتاح الوجود إلى انتهائه، لا تؤدي شكر ذرة مما تفضل به عليه، ثم تعلق قلبك بحضرة الله، فلا تلتفت لغيره من نعيم الدارين حتى تلقاه.

قال: لا طاعة لي بهذا. قال: اذهب فاحترف، ولا تزاحم الصادقين بالدعاوي الكاذبة.

وكان ربما فعل فعلاً باطنه حكمة، وظاهره بدعة.

زاره الشيخ زكريا مرة في بضعة عشر عالمًا، فشق لهم بطيخة، فصار يعطي واحدًا ويدع آخر، بدأ بالجانب الأيسر، فأنكره أحد الفقهاء، فقال الشيخ زكريا: لا تنكر، وكتب أسماء من ناولهم على الترتيب، وأسماء من أخرهم، فوقع بعد ذلك أن من أعطاه أولاً مات، ومن أعطاه ثانيًا مات بعده.. وهكذا، فكانت تفرقته عليه حسب أعمارهم.

وسقط إليه رجل من الهواء، وجلس بين يديه وقال: يا سيدي، أعطاني الله أنه لا يسقط حيوان من بطن أمه من جن وأنس ووحش وطير وغيرها، ولا تخرج ورقة من نبات الأرض إلا ويُعلِمني بذلك قبل ظهوره. فقال: وعزة ربي، قد أعطاني الله هذا وأنا دون البلوغ، فلم أقف معه، إنما الشأن في الإقبال على الله والإعراض عن سواه، ووالله إنّ قول العبد «سبحان الله» مرة واحدة أفضل من اطلاعه على ملكوت الدنيا والآخرة.

ورأى أطفالاً يلعبون بالحمام في طريق البركة، وفيهم طفل تركي على رأسه زنط، فسلم عليه وقال له: أهلا بشيخ الإسلام - مع كون أبويه من الأتراك العوام - فشب الولد، واشتغل بالعلم ، فبرع حتى صار شيخ الإسلام، وهو الشيخ كمال الدين الطويل.

وحضر وليمة رجل ببيت على الخليج، فاشتغل الرجل بمد السماط، فسقط له ولد ابن ثلاث سنين في الخليج أول الليل، فلم يتذكروه إلا آخر الليل، فأخبر الشيخ به فقال: اذهبوا إلى القنطرة تجاه جامع الظاهر تجدوه بجنب الجرف، والروح فيه، فوجدوه كذلك، وعاش طويلا.

وكان يحث أصحابه على الحرفة ويقول: من لا كسب له كالمرأة لا حظ له في الربوبية.

وترك رجل الاحتراف وقعد بزاويته، فقال له: لم؟ فقال: رأيت بومة عمياء في طاقة يأتيها صقر كل يوم بلحم، فقلت: أتوكل على الله، فإنه لا يضيعني. فقال له: لأي

شيء تجعل نفسك كبومة ولا تجعلها صقرًا، تأكل من كسبك وتطعم غيرك؟

وكان إذا دخل بستانًا، نادته أشجاره وحشيشه، وأخبرته بما فيها من المنافع والمضار.

ووقع له أن رجلاً من جماعته أراد جماع زوجته، فصاح أحد أولاده - وكانوا سبعة - فقال: اسكت.. أماتكم الله. فمات السبعة، فبلغ المتبولي: فأحضره وقال: أماتك الله. فمات حالاً، وقال: لو عاش، أمات خلقًا كثيرًا.

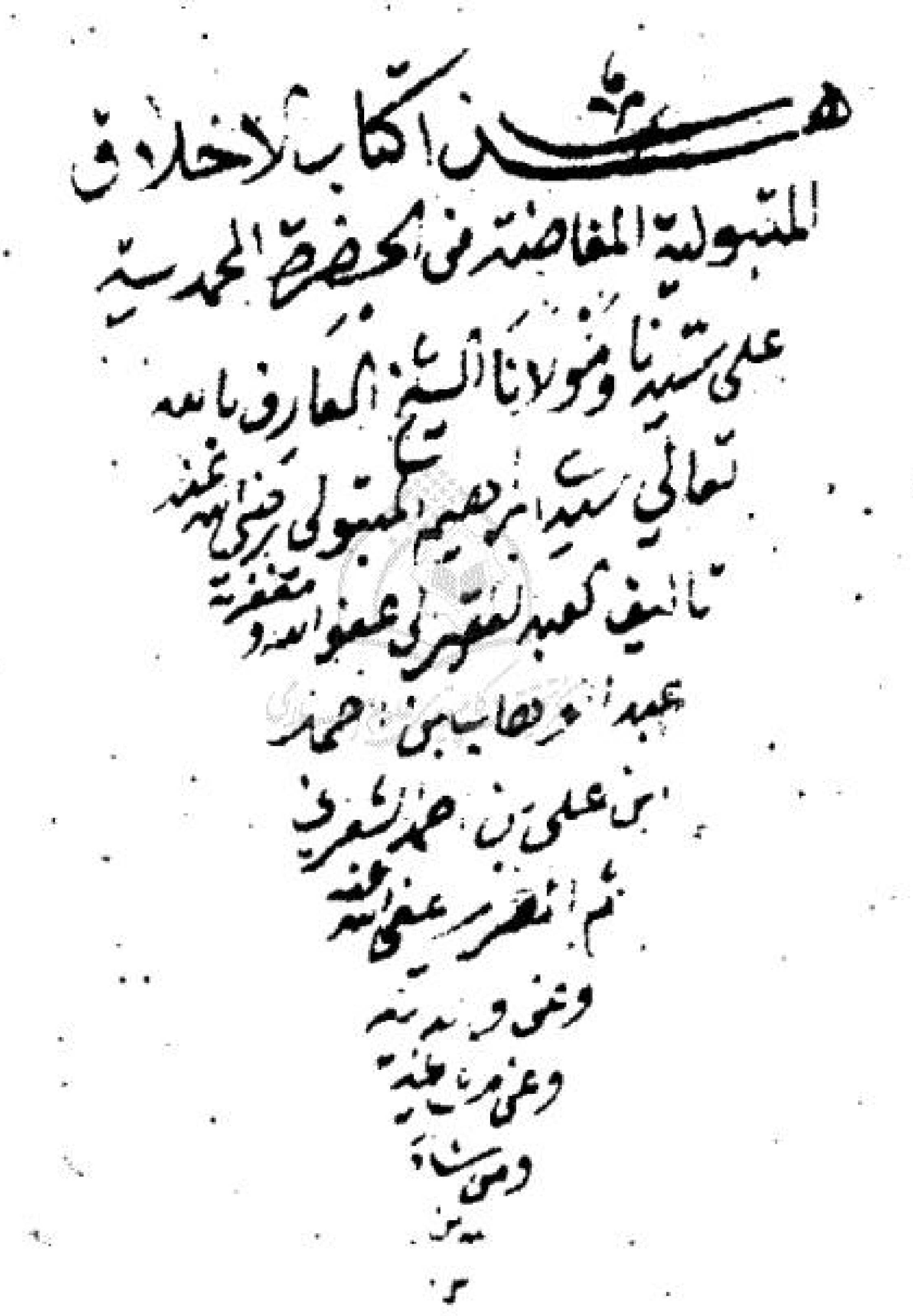
وكان يقول لأصحابه: من أدرك النصف من القرن العاشر، فلا يشدد في إزالة منكرات الولاة إلا إن كان له نصير يعضد، أو حال يحميه، وقد قتل خلق كثير، ونفوا بإنكارهم على الولاة بدون ذلك.

وكان يقول: لا ينبغي لفقير أن يظهر كرامة إلا بقدر حماية أصحابه، فإن من لا كرامة له، لا يحمي له صاحب.

خرج إلى القدس، فمات في الطريق، فدفن بسدود، عند سلمان الفارسي، سنة نيف وثمانين وثمانمائة، نحو ثمانين سنة، كما جزم به بعضهم، لكن في الأخلاق المتبولية أنه عاش مائة وتسع سنين.

وانظر: طبقات الشعراني (83/2)، الكواكب الدرية (662)، وجامع الكرامات (1/ 243)، وبدائع الزهور (145/2)، ونظم العقيان (23)، والضوء اللامع (85/1).

نماذج من صور المخطوط


هذا كتاب الأخلاق
المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية
على سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله
تعالى سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه
تأليف العبد الفقير إلى عفو الله ومغفرته
عبد الوهاب بن أحمد
بن علي بن أحمد الشعراني

صورة عنوان المخطوط


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين واشهد ان لا اله
الا الله الملك الحق المبين واشهد ان سيدنا
ومولانا محمدا عبده ورسوله سيد الاولين
والاخرين اللهم فصل وسلم عليه وعلى
سائر الانبياء والمرسلين وعلى الهم وصحبهم
اجمعين وبعد فهذا كتاب
نفيس صغير الحجم عظيم القدر
فيه جملة نافعة من اخلاق سيدنا
ومولانا الشيخ العارف بالله تعالى
شيخ مشايخنا الشيخ ابراهيم المتبولي
الاحمدي صاحب الزاوية ببركة الحجاج
بمصر المحروسة رضي الله تعالى عنه
التي اخذها اشياخنا عنه وذكروا انه
اخذها من حضرة رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقظة ومشافهة بالشروط
المعتبرة بين القوم كما سيأتي بيانه
في الكتاب ان شاء الله تعالى
لا يكاد يجدها
عند غالب فقراء هذا الزمان
في هذه العصور
بها خوفا ان تذهب بذهاب اهلها
بالنيات وقد قال العلماء كل
من لم يفتح الله تعالى على قلبه بالعلوم اللدنية
الجديدة فليس له ان يؤلف كتابا الا ان
غاية مثل هذا انه جمع بين كلام الناس
وجعله مؤلفا وقد كان الشيخ ابو مدين
رضي الله عنه يقول لاصحابه اذا حكوا
له كلاما عن احد من السلف لا تطعمونا القديد
واطعمونا اللحم الطري اي اسمعونا الكلام

صورة الورقة الأولى من المخطوط

مؤلفها وانفعنا به وبعلومه في الدارين
واغفر اللهم لمن كتبها ولوالديه ولكافة
المسلمين آمين آمين آمين يارب العالمين ٥
تم الكتاب تكاملت ٥ نعم السرور لمالكه ٥
وعفى الاله بجوده ٥ وبفضله عن كاتبه ٥
اودعت في هذا الكتاب من يومي هذا
الي يوم القيامة اشهد ان لا اله الا الله ٥
واشهد ان محمدا رسول الله صلى الله
عليه وسلم ٥ وحسبنا الله وكفى
وسلام علي عباده الذين
اصطفى ولا حول ولا
قوة الا بالله
العلي العظيم
والحمد لله وحده

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المصنف

أحمد الله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله سيد الأولين والآخرين.

اللهم فصلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين.

وبعد... فهذا كتابٌ نفيس، صغير الحجم، عظيم القدر، جمعت فيه جملة مانحة[1] من أخلاق سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله تعالى شيخ مشايخنا الشيخ إبراهيم المتبولي المحمدي صاحب الزاوية ببركة الحجّاج بمصر المحروسة، التي أخذها مشايخنا عنه، وذكروا أنه أخذها من حضرة رسول الله ﷺ يقظة ومشافهة بالشروط المعروفة بين القوم كما سيأتي بيانه في الكتاب إن شاء الله تعالى، وهي أخلاق غريبة[2] لا يكاد الإنسان يجدها عند غالب فقراء هذا الزمان.

فأحببت تقييدها في هذه الطروس[3] رجاء النفع بها خوفًا أن تذهب بذهاب أهلها والأعمال بالنيات، وقد قال العلماء بالله تعالى: كل من لم يفتح الله تعالى على قلبه بالعلوم الغريبة الجديدة فليس له أن يُؤلف كتابًا؛ لأن غاية مثل[4] هذا أنه جمع بين كلام الناس وجعله مؤلفًا، وقد كان الشيخ أبو مدين ﷺ يقول لأصحابه إذا حكوا له كلامًا عن أحد من السلف: «لا تطعمونا القديد، وأطعمونا اللحم الطري» أي: أسمعونا الكلام الذي ورد على قلوبكم من حضرة الله ﷻ؛ لأن هذا هو النافع المفيد لنا ما ليس عندنا، وما درج السلف الصالح إلا على تأليف ما لم يسبقهم أحد إليه، وكانوا يقولون: من أراد جمع كلام الناس فليدل المريدين على الأصول التي أخذ مؤلفه، ويسترح من

---

(1) في المطبوعة (صالحة).

(2) في المطبوعة (شريفة).

(3) كتب في الطرس وفي الطروس وهو الصحيفة، وطرس الكتاب تطريسًا: أنعم محوه.

(4) في المطبوعة (ملاك).

التعب في الكتابة وتضييع الزمان وتسويد الورق، **فهذا كان السبب في تأليفي لهذا الكتاب؛ ليدوم النفع به على ممر الزمان، ويكون نائبًا عني في النصح بعد موتي أسوة للعلماء «والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه»**[1] فاسع يا أخي في تجميع مقام التخلق بها على يد شيخ صادق، ولا يضرك غرابتها منه حيث غرابة طريقها فإنها أخلاق محررة على الكتاب والسنة وأخلاق السلف الصالح كتحرير الذهب والجوهر كما سبق إن شاء الله تعالى، لا يقدح في معانيها إلا جاهل أو معاند أو مائل عن طريق الحق لأجل غرضه الفاسد، وإن كان كلام البشر من الأمة لا يخلو عادة عن خطأ وسهو، ولكن الحكم للأغلب فافهم.

وقد تلقيت هذه الأخلاق التي أذكرها في هذا الكتاب عن نحو سبعين شيخًا من أصحاب سيدي الشيخ إبراهيم المتبولي ﷺ وعنهم أجمعين، كشيخنا وقدوتنا إلى دخول حضرة الله تعالى الأمي المحمدي صاحب الكشوفات والمعارف والتصريف العظيم في مصر وقراها الشيخ على الخواص ﷺ، وكسيدي وشيخي العارف بالله تعالى الذي انتهت إليه الرياسة في تربية المريدين في مصر: الشيخ علي المرصفي - رحمه الله تعالى - وكسيدي العارف بالله تعالى المجذوب الصاحي صاحب الكشوفات والمعارف والكرامات والخوارق سيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي ﷺ، وكسيدي الشيخ العالم العامل الورع الزاهد الذي كان اشتغاله بنفع الأمة ليلاً ونهارًا سيدي محمد المنير الذي حج إلى بيت الله الحرام اثنين وستين حجة منها أربعين ماشيًا، ويركب جماله العاجزين ﷺ، وكان من الجماعة الذين يشفعون في الموقف بعرفات كل سنة في عصاة الحجاج، وكسيدي الشيخ العابد الناسك المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهارًا، وصيفًا وشتاءًا سيدي محمد بن عنان خادم الحجرة المحمدية من طريق الروحانيات، فلا يدخل على رسول الله ﷺ من الأحياء والأموات إلا بإذنه ﷺ، وكسيدي الشيخ الصالح الوارث المحمدي الشيخ أبو بكر الحديدي ﷺ، وكانوا يشتمونه بخانة الفقراء بمصر، وكسيدي الشيخ الصالح العابد الناسك الأمي المحمدي سيدي محمد العدل بنواحي البحر الصغير بمصر، وكانوا يسمونه جليس رسول الله ﷺ على الدوام؛ لما هو عليه من الطهارة الظاهرة والباطنة ﷺ، وكسيدي الشيخ العالم الصالح الأمي المحمدي سيدي الشيخ محمد السروي صاحب الكرامات والخوارق، من كان يطير في الهواء،

---

(1) رواه مسلم (4867).

ويمشي على الماء جهارًا إلى أن يغيب عن العيون، ثم يأتي ويداه مخضوبتان بالدم ويقول: توجه إلينا شخص قد أسره الإفرنج في البحر المالح فخلصناه منهم بعد أن قتلنا كذا وكذا نفس من الكفار ﷺ.

وكسيدي الشيخ عبد الحليم بن مصلح قطب زمانه في التواضع والكرم والإيثار وخدمة الضعفاء والمساكين، وكان ينفق من الغيب بمشاهدتي له حين يقبض الذهب والفضة من الهوى ﷺ، وكان لا يختص عن الفقراء بشيء، وربما عملت له عياله الدجاجة فيفرقها على نحو سبعين نفسًا ويقول: إن الله تعالى يكره العبد العامل المتميز عن أخيه ﷺ، وكسيدي الشيخ العالم الزاهد قوام الليل، وصوام النهار الشيخ يوسف الحريثي كان يسمع لعشرة من الأطفال القرآن، ويرد على كل واحد الغلط واللخمة[1] لا يشغله واحد عن الآخر، وهذا المقام من التخلق بأخلاق الله ﷻ خلعه عليه.

وكسيدي وشيخي العارف بالله تعالى مربي المريدين الشيخ محمد الشناوي الأحمدي، وكان دأبه قراءة القرآن، والذكر ليلاً ونهارًا لا يفرغ من الذكر إلا ويستفتح القرآن، ولا من القرآن إلا ويستفتح الذكر، وقد لازمته عشرين يومًا وليلة فما رأيته نام مضجعًا ليلاً ونهارًا ﷺ.

وكسيدي وشيخي العابد الزاهد المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهارًا منشئ جميع مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ في مصر وقراها واليمن والقدس والشام ومكة والمدينة ومكث في مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ في جامع الأزهر في بلد سيدي أحمد البدوي – رحمه الله – مدة ثمانين سنة كما أخبرني عن ذلك في مرض موته ﷺ وقال: عمري الآن مائة سنة وإحدى وعشرين سنة، وكان من أصحاب الخُطوة، وكانوا يرونه كل سنة في عرفات، ولو لم يكن له من المناقب إلا الذكر في حضرة رسول الله ﷺ صباحًا ومساءًا لكان في ذلك كفاية في علو شأنه، فإني لما حججت سنة ثلاث وستين وتسعمائة حضرت مجلس نائبه وتلميذه الشيخ عبد الله اليمني في الروضة الشريفة، وكان كلما فرغ من مجلس الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وذكر الله يقول بأعلى صوته: الفاتحة للشيخ نور الدين الشوني فيقرؤها الحاضرون ورسول الله يسمع، وهذه مناقبه ما سمعنا بمثلها لأحدٍ من الأولياء إلى عصرنا هذا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكسيدي ومولانا الشيخ زكريا الذي ما كان جليسه يضبط عليه ساعة غفلة

---

(1) اللخمة: بالتحريك (العقبة).

عن مصالح دينه ودنياه، وما كنت أمثله إذا جالسته إلا بالإمام الشافعي لما هو عليه من الخفر والحرمة والهيبة والوقار، وما خطر ببالي شيء بين يديه إلا وأخبرني به.

وكان مجاب الدعوة جاءه شخص قد عمي سنين وقال له: ادعُ الله تعالى أن يرد عليَّ بصري فدعا له فرد الله عليه بصره ثاني يوم ﷺ، وكسيدنا ومولانا شيخ الإسلام العامل بعلمه، المقبل على شأنه الحافظ للسانه الشيخ برهان الدين بن أبي شريف ﷺ، وكسيدنا ومولانا شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين القلقشندي، وكشيخنا العالم الصالح الشيخ كمال الدين الطويل[1] شيخ الإسلام الذي بشَّره سيدي إبراهيم المتبولي، وهو دون سن التمييز وقبل أن يقرأ القرآن بأنه يصير شيخ الإسلام، وكالشيخ العالم والعامل الورع الزاهد الشيخ عبد الحق السنباطي[2]، وكالشيخ الصالح الذي كان يجتمع بالحضرة ﷺ كثيرًا الشيخ يوسف الكردي، وكالشيخ الصالح أحمد الزواوي[3] الذي

---

(1) قال المصنف: هو شيخنا الشيخ كمال الدين الطويل، كانت الأنوار تخفق على وجهه، وكان إماما في العلوم والمعارف، متواضعا عفيفا ظريفا لا يكاد جليسه يمل من مجالسته، انتهت إليه الرياسة في العلم، ووقفت الناس عند فتاويه، وكانت كتب مذهب الإمام الشافعي نصب عينيه، لا سيما كتب الأذرعي والزركشي. [الطبقات الصغرى ص28].

(2) قال المصنف: هو شيخنا وقدوتنا الإمام العالم العلامة الصالح الورع الشيخ عبد الحق السنباطي الشافعي، كان صالحًا طارحًا للتكلف، انتهت إليه الرئاسة في الفقه والأصول وغيرهما من العلوم، وكنت إذا رأيته شهدت له بالصلاح قبل أن تخاطبه، مات بمكة المشرفة ودفن بباب المعلا سنة ثلاثين، انتهى.

وقال العيدروس: وفي سنة إحدى وثلاثين عند طلوع فجر ليلة الجمعة مستهل شهر رمضان توفي الشيخ العلامة عبد الحق بن محمد بن عبد الحق السنباطي القاهري الشافعي ويعرف كأبيه بابن عبد الحق بمكة فجهز في يومه، وصلي عليه عند باب الكعبة عقيب صلوة الجمعة بعد النداء له على زمزم، وشيعه خلق بحمل جنازته على الرؤوس وطابت برؤيتها النفوس ودفن بالمعلاه، ورثاه جماعة بمراثي مطولة منهم تلميذه الأديب الزيني عبد اللطيف الديري الأزهري. انظر: الطبقات الصغرى (ص31)، والنور السافر عن أخبار القرن العاشر (80/1).

(3) وقع في المطبوعة (الغزاوي)، والمثبت هو الصواب، وقال المصنف في الطبقات الكبرى (375/1): كان رضي الله عنه على قدم عظيم وكان ورده في اليوم، والليلة عشرين ألف تسبيحة وأربعين ألف صلاة على النبي ﷺ، ولما سافر الغوري لقتال ابن عثمان جاء إلى القاهرة، وقال: جئت لأرد ابن عثمان عن دخول مصر فعارضه الأولياء فلحقته البطن فأشرف على الموت فحملوه إلى بلده فمات في الطريق، وكانت له كرامات في الطريق اجتمعت به مرات عديدة، ودعا لي بدعوات، وأرشدني إلى ورد الصلاة على النبي ﷺ. مات ﷺ سنة ثلاث وعشرين وتسعماية.

كان يُصلي المغرب كل ليلة بمكة المشرفة مع سيدي إبراهيم المتبولي، وغيرهم ممن ذكرناهم في كتاب «الطبقات» ﷺ أجمعين، وقد ذكرت نبذة من كلام جماعة من تلامذة هؤلاء أيضًا كسيدي عمر البجائي المغربي المدفون بحوش عبد الله بن وهب بالقرافة، وكسيدي الشيخ أبي العباس الحريثي، وكالشيخ سليمان الخضيري، وكالشيخ الكامل الراسخ سيدي أفضل الدين الأحمدي تلميذ الشيخ علي الخواص ووارثه في عدة مقامات، وقد خدمت بحمد الله تعالى جميع هؤلاء الأشياخ، وقرأت عليهم كتب الشريعة فقه وتفسير وحديث وتصوف وغير ذلك حتى درجوا كلهم إلى رحمة الله تعالى وهم علي راضون، وذلك من أكبر نعم الله تعالى عليّ، ولما درجوا أظلمت مصر وقراها فإن بعضهم كان كالشمس، وبعضهم كان كالقمر، وبعضهم كان كالنجوم يهتدى بهم في ظلمات الجهل ليلا ونهارًا، فلما خفت على نسيان الناس أحوالهم وأخلاقهم، ولم أعلم أحدًا من تلامذتهم دوّن لهم كلامًا ولا أخلاقًا وضعت هذا الكتاب كالمبين لما اندرس من أخلاقهم، وخفي من أنوارهم، فلا تظن يا أخي أنهم كانوا على صورة بعض من برز في هذا الزمان بالمشيخة بغير حق فيخطئ الطريق ويسيء الظن بالصادقين ﷺ، والله ما كنت أمثل سيدي محمد بن عنان وسيدي عمر البجائي[1]، وسيدي أبا العباس الحريثي إلا كأن أحدهم بشر الحافي، وما كنت أمثل سيدي علي الخواص إلا كأنه معروف الكرخي، وما كنت أمثل سيدي علي المرصفي إلا كأنه الإمام أبو القاسم الجنيد، وما كنت أمثل الشيخ برهان الدين بن أبي شريف إلا كأنه إمام الحرمين، وما كنت أمثل سيدي علي النبتيتي إلا كالفضيل بن عياض، وما كنت أمثل الشيخ عبد الحق السنباطي إلا كأنه الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وما كنت أمثل

---

(1) هو سيدي عمر البجائي المغربي. كان ذهنه صافيًا، وفكره بحل المعضلات وافيًا، جيد المباحث، أطرب في وعظه من المثاني والمثالث، صحيح الاعتقاد، مليح الانتقاد، قدم مصر أيام الغوري، وصار له الحظوة التامة عند الأكابر. وكان كثير الكشف، يخبر بالحوادث الآتية فتقع كما أخبر.

فمن ذلك: إنه أخبر بزوال دولة الجراكسة، وإقبال الدولة العثمانية. ومر وهم يعمرون القبة الزرقاء للغوري، فقال لهم: ليس هذا قبره، فإنه يقتل، ولا يُعرف له قبر. وكان جميل الصورة، طيب الرائحة، يحفظ «المدونة»، ويصوم الدهر، وسمع الحديث الكثير. ولم يكن يلبس عمامة، بل يلتحف بملاءة على رأسه وظهره، وعليه جبة سوداء. وأقام بجامع آل ملك، ثم بجامع محمود بالقرافة، ثم انتقل لقبة المنصور بين القصرين، فمكث بها حتى مات سنة تسع عشرة وتسعمائة، دفن بحوش ابن وهب بقرب قبر القاضي بكار بالقرافة.

انظر: الكواكب السائرة (286/1)، الشذرات (92/8)، طبقات الشعراني (143/2).

سيدي الشيخ محمد المنير - رحمه الله - إلا كأنه سهل بن عبد الله التستري، وما كنت أمثل أخي أفضل الدين إلا كأنه الشيخ نجم الدين الكبرى، أو الشيخ محيي الدين بن العربي في تحقيق العلوم، فطوبى لعبد نظر أحد من هؤلاء إليه ولو مرة واحدة في عمره، أو نظر هو إلى أحد منهم حينًا من الدهر، وقد كان سهل بن عبد الله التستري يقول: من أولياء الله من إذا مر على قوم من العصاة فسلم عليهم أو سلموا عليه فرد عليهم السلام غفر الله لهم جميعًا ذنوبهم وأمنهم من عذابه، ومنهم من لا تأكل النار من جالسهم ولو في وقت من الأوقات أو حضر جنازتهم، انتهى.

فإياك يا أخي إذا عملت شيخًا في هذا الزمان أن تظن بنفسك أنك على قدم واحد من هؤلاء الأشياخ الذين أدركناهم في الصف الأول من القرن العاشر، أو يخطر ذلك ببالك، وإن كان ولا بدّ لك من رؤية نفسك فلا تظن بنفسك ذلك إلا بعد مرورك على أخلاقهم التي ذكرناها عنهم في هذا الكتاب ورؤيتك نفسك متخلقًا بها، ولعلك يا أخي تجد نفسك منسلخة من غالبها كما تنسلخ الحية من ثوبها، وربما تأثرت من واضعها غاية التأثر لكشفها لك ما لبسته نفسك عليك، ولإظهاره للناس نقائصك بعد أن كانوا سلموا لك دعوى أنك من الصالحين جهلاً بأخلاقهم، فإن هذه الأوراق التي رقمناها في هذا الكتاب كالسيف القاطع لعنق كل مدع الطرق في هذا الزمان لما فيها من الموازين والمحكمات التي تفلس المدعين للطريق مما لا يكاد أحدهما يجده الآن في رسالة أحد من أهل العصر، وها هي كلها بين يديك في مصر وقراها فليطالع فيها من يشك في قولي يعرف صدق قولي فإني والله ناصح للإخوان ما أنا متعنت، وأود لجميع إخواني أن يتخلق أحدهم بمثل هذه الأخلاق؛ ليفوز برضى الله تعالى عنهم في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى، واعلم يا أخي أن كل من تخلق بأخلاق هذا الكتاب كان معدودًا من متصوفة القوم وكأنه صحب جميع الأشياخ الذين أخذوها عن سيدي إبراهيم المتبولي عن رسول الله ﷺ وانتفع بصحبتهم، وقد منَّ الله ﷻ عليَّ بالتخلق بها فلم أذكر في هذا الكتاب إلا ما تخلقت به وربما وجدت ذلك الخلق عزيزًا فأنبه على عزته بنحو قولي: وهذا الخل لم أجد له فاعلاً من أقراني إلا القليل، وربما ظن بعض من لا علم عنده بأحوال الفقراء أن ذكري لذلك إنما هو من باب الافتخار للنفس واحتقارًا للأقران، معاذ الله أن أقصد ذلك، وقد نظر بعض علماء العصر في مسودة هذا الكتاب فقال: هذه الأخلاق لا تكون إلا للأنبياء، وأنكر أن أحدًا يقدر على التخلق بها في هذا الزمان حين ظن بنفسه أنه من العلماء العاملين، ولم يقدر على التخلق بها

فذوقه صحيح وحكمه غير صحيح على أن جميع ما ذكرته فيه إنما هو من أخلاق المريدين سيأتي بسطه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، ولم أذكر فيه شيئًا من أخلاق العارفين إلا استشهادًا، كما أني لم أذكر فيه شيئًا من أخلاقي إلا ما أذن لي في إفشائه بين الإخوان؛ ليقتدوا بي فيه كما أوضحته في مقدمة كتاب «المنن الكبرى» فإن كل من دعا إلى خير ولم يكن هو متخلقًا به قبل الناس ربما قالوا بلسان الحال والمقال: كيف تدعونا إلى التخلق بشيء عجزت أنت عن التخلق به مع علمك وصلاحك وقدم هجرتك؟ فيقل نفع الناس به عادة، وإن كان ذلك ليس بشرط الداعي إنما هو كمال فافهم.

وقد ذكرت في التقرير مرارًا أن سبب ذكري للأخلاق التي تخلقت بها، وعدم كتمي لها لما سمعته من جماعة من الإخوان حين أمرتهم بالزهد في الدنيا والتورع في المطعم والملبس والمنطق وغير ذلك فقالوا لي: أرنا أحدًا تخلق بذلك حتى نقتدي به وها هي معي كلها بين يديك، فتأثرت لذلك غاية التأثير وشرعت بعون الله تعالى في ذكر بعض ما منَّ الله تعالى به عليَّ، وقلت لهم: انظروا في هذه الأخلاق فكل خلق رأيتموني متخلقًا به فاتبعوني فيه، وما لم أتخلق به فأنا وإياكم فيه على السواء، فهذا هو سبب ذكري للأخلاق التي كان الأولى بنا كتمها عادة لولا حرصي على حصول الخير للإخوان فإياك أن تظن بي سوءًا، أو تنازعني في قصدي فتقع في الإثم، لوقوعك في أعراض الفقراء بغير علم ولا غرض صحيح، واعلم يا أخي أن تخلق المريد بأخلاق العارفين إنما يصح منه بعد انتهاء سيره في المقامات، كما أن تخلق العارف بأخلاق رسول الله ﷺ لا يكون إلا بعد انتهاء السير كذلك وطول المجاهدة فيوفق الله تعالى المريد في بداية أمره لرعاية أقواله ﷺ، ثم في وسط سيره لحال الاقتداء بأعماله ﷺ وأحواله، فيثمر له ذلك الأخذ في طريق التوصل إلى مقام النهاية ليقدر على التخلق بنظير أخلاقه ﷺ على وجه الاحتياط، وفي الحديث: «**تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ**»[1] أي: بنظيرها في الاسم فقط دون التخلق بالكنه، والحقيقة فإن ذلك لا يصح لأحد من الخلق ولو ارتفعت رتبته، وقد سئلت السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[2]، ولم تقل: كان متخلقًا بأخلاق الله تعالى أدبًا منها

(1) أورده السيوطي في «تأييد الحقيقة العلية» (ص37)، وابن الحاج في «المدخل» (25/1).

(2) رواه أحمد (91/6).

مع الله ﷻ فصح حينئذ تخصيصه بقوله ﷺ في حقها: «**خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء**»[1] وكان السهروردي رحمه الله يقول: في قول عائشة: كان خلقه القرآن شيء غامض، وإنما خفي عن الأخلاق الربانية فاحتشمت مع الحضرة الإلهية أن تقول: كان متخلقًا بأخلاق الله ﷻ وعبرت بالمعنى بقولها: كان خلقه القرآن من سبحات الجلال، وسترًا للحال وهذا من شدة وفور علمها وكمال أدبها، قال: وبين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87] وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] مناسبة مشعرة بقول عائشة: كان خلقه القرآن، انتهى.

وكان سهل بن عبد الله التستري - رحمه الله - يقول: من السر الأكبر أن قلب العارف يصير بدوام الإقبال على الله تعالى ودوام ذكره بالقلب واللسان بمثابة العرش والعرش قلب الكائنات في عالم الخلق والحكمة وهناك يرتقي إلى ذكر الذات ويصير بحرًا موّاجًا من نسمات القرب، ويجري في جداول أخلاق النفس صفاء النعوت

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء (374/1) وقال: قال الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث ابن الحاجب من إملائه»: لا أعرف له إسنادا ، ولا رأيته في شئ من كتب الحديث إلا في النهاية لابن الأثير ذكره في مادة ح م ر ، ولم يذكر من خرجه ورأيته في الفردوس بغير لفظة وذكره عن أنس بغير إسناد بلفظ خذوا ثلث دينكم من بيت الحميراء، وذكره ابن كثير أنه سأل الحافظين المزي والذهبي عنه فلم يعرفاه، وقال السيوطي في الدرر لم أقف عليه، لكن في الفردوس عن أنس خذوا ثلث دينكم من بيت عائشة انتهى، وقال الحافظ عماد الدين في تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب: هو حديث غريب جدًا ، بل هو منكر ، سألت عنه شيخنا المزي فلم يعرفه ، وقال لم أقف له على سند إلى الآن، وقال شيخنا الذهبي: هو من الأحاديث الواهية التي لا يعرف لها سند انتهى، قال القاري: لكن في الفردوس من غير إسناد وخذوا ثلث دينكم من بيت عائشة، لكن معناه صحيح ، ثم قال وقد اشتهر أيضا حديث كلمتين يا حميراء، وليس له أصل عند العلماء، وقال ابن الغرس: رأيت في الأجوبة على الأسئلة الطرابلسية لابن قيم الجوزية أن كل حديث فيه يا حميراء أو ذكر الحميراء فهو كاذب مختلق كحديث يا حميراء لا تأكلي الطين ، فإنه يورث كذا وكذا، وحديث خذوا شطر دينكم عن الحميراء، والحميراء تصغير حمراء، وكانت عائشة بيضاء، والعرب تسمي الأبيض أحمر، ومنه حديث بعثت إلى الأحمر والأسود انتهى ملخصا ، وأقول فيه إن الحديث الذي رواه البيهقي والدارقطني وغيرهما عن عائشة في الماء المشمس أن النبي ﷺ قال لها: لا تفعلي يا حميراء ، فإنه يورث البرص ليس بكذب مختلق بل ضعيف ، قال فيه الرملي وهذا وإن كان ضعيفا لكنه يتأيد بما روي عن عمر أنه كان يكره الاغتسال فيه ، وقال: إنه يورث البرص انتهى.

والصفات، ويتحقق العارف بالتخلق بأخلاق الله، انتهى.

وكان الشيخ أبو القاسم الجرجاني[1] يقول: إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافًا للعارف، انتهى.

ونقل ذلك أيضًا عن الشيخ الكبير أحمد بن الرفاعي[2] ولفظه: إذا بلغ

---

(1) في المطبوعة (الكركاني)، والصواب ما أُثبت، وهو الشيخ الجليل العالم أبو القاسم الجرجاني التاجر الصدوق، صاحب سماع كثير، ومسانيد جياد، وكان أجود الناس كفا في مواساة الفقراء، وكان والده يضرب به المثل، ويقال: أبو حرب، حاتم وقته في السخاء. توفي أبو القاسم في ثالث عشر رمضان سنة ثمان وثمانين وأربع مائة، وانظر: سير أعلام النبلاء (41/19).

(2) الغوث الكبير سيدي أحمد الرفاعي، من انتهت إليه الرئاسة في علوم الطريق وشرح أحوال القوم، وكشف منازلاتهم، وبه عُرف الأمر بتربية المريدين بالبطائح، وتخرّج بصحبته جماعة كثيرة، وتلمّذ له خلائق لا يُحصون، وهو أحد من قهر أحواله، وملك أسراره، وله كلامٌ كثيرٌ عالٍ على لسان أهل الحقائق، وهو الذي سُئل عن وصف الرجل المتمكن فقال: هو الذي لو نُصب له سنان أعلى شاهق في الأرض، وهبّت الرياح الثمانية ما غيّرته.
وكان يقول: الزهد أساس الأحوال المرضية والمراتب السنية، وهو أول قدم الصادقين إلى الله ﷻ، والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده. وكان يقول: الأنس بالله لا يكون إلا لعبدٍ قد كملت طهارته، موصفًا ذكره، واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى، فعند ذلك آنسه الله به، وأورده بحر حقائق الأنس، فأخذ عن وجدٍ طعم الخوف لما سواه. وكان يقول: لو تكلّم الرجل في الذات والصفات كان سكوته أفضل، ولو خطا من قافٍ إلى قافٍ كان جلوسه أفضل. وكان يقول: لما مررت وأنا صغيرٌ بالشيخ عبد الملك الخرنوبي أوصاني وقال لي: يا أحمد احفظ ما أقول لك، فقلت: نعم، فقال: ملتفت لا يصل، ومتكبّل لا يصلح، ومن لم يعرف من نفسه بالنقصان فكل أوقاته نقصان، فجعلت أكرّرها سنة، ثم رجعت إليه فقلت: أوصني، فقال: ما أقبح الجهل بالألباء، والعلة بالأطباء، والجفاء بالأحباء، ثم خرجت وجعلت أردّدها سنة، فانتفعت بموعظته.
وكان يقول: الشفقة مما يقرب إلى الله. وكان يقول: أخوك الذي يحل لك أكل ماله بغير إذنه هو الذي تسكن نفسك إليه، ويستريح قلبك. وكان يقول: إذا صلح القلب صار مهبط الوحي والأسرار والأنوار والملائكة، وإذا فسد صار مهبط الظلم والشياطين، وإذا صلح القلب أخبرك عمّا وراءك وأمامك، ونبّهك على أمورٍ لم تكن تعلمها بشيءٍ دونه، وإذا فسد حالك بباطلات يغيب عنها الرشد وينتفي معها السعد.
وكان ﷺ لا يجازي بالسّيئة السّيئة، ولكن يعفو ويصفح تخلّقًا بأخلاق رسول الله ﷺ، وكان إذا تجلّى الحق تعالى على قلبه بالتعظيم يذوب حتى يصير بقعة ماء، ثم يتداركه باللطف فيصير بحمد الله شيئًا فشيئًا حتى يرد إلى جسمه المعتاد، ويقول: لولا لطف الله بي ما رجعت إليكم.
قال يعقوب الخادم: ولمّا مرض السيد أحمد مرض الموت قلت: تجلّى العروس في هذه المرة؟
-

العبد الكمال صار صفة من صفات الحق - جلا وعلا - انتهى.

ولعل المراد من قول هذين الشيخين - رضي الله عنهما - : أن العارف يأخذ من كل اسم إلهي وصفًا يناسب ضعف بشريته وقصورها مثل أن تأخذ من اسم الله تعالى (الرحيم) معنى من الرحمة على قدر قصور البشر، وكل إشارات المشايخ في الأسماء والصفات التي هي أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير، وكل من توهم بذلك شيئًا من الحلول تزندق وألحد فتأمل ذلك فإنه نفيس.

واعلم يا أخي أنني حيث قلت: ومن أخلاقهم كذا وكذا فمرادي بمرجع الضمير إلى المريدين الصادقين كهؤلاء المشايخ الذي قدمنا ذكرهم ممن كان مريدًا لسيدي الشيخ إبراهيم المتبولي ﷺ دون مطلق المريدين من تلامذة الأشياخ الذين هم من سلسلة الإمام أبي القاسم الجنيد فإن أخلاق هؤلاء تنزل عن درجة من بينه وبين رسول الله ﷺ رجل واحد فقط وهو سيدي إبراهيم ﷺ، وربما كان تلامذة هؤلاء الأشياخ لا يعرفون شيئًا من أخلاق هذا الكتاب إما جهلاً به لكونه من غير طريقهم، أو لكون سببه لم يكن في عصرهم، وكل مؤلف لا يذكر في مؤلفه إلا ما يحتاج إليه أهل عصره إذ

فقال: نعم، فقلت له: لماذا؟ فقال: جرت أمور اشتريناها بالأرواح، وذلك أنه أقبل على الخلق بلاء عظيم فتحملته واشتريته بما بقي من عمري فباعني، وكان يمرغ وجهه الشريف وشيبته الكريمة في التراب ويبكي ويقول: العفو العفو، اللهُمَّ اجعلني سقف البلاء عن الخلق.

وكان مرض الشيخ بالبطن، فكان يخرج منه كل يوم ما شاء الله تعالى، فبقي في المرض شهرًا، فقيل له: من أين هذا كله، ولك عشرون يومًا لا تأكل ولا تشرب؟! فقال: يا أخي هذا اللحم يندفع ويخرج، ولكن قد ذهب اللَّحم وما بقي إلا المخ، اليوم يخرج وغدًا نعبر إن شاء الله تعالى، فخرج منه شيءٌ أبيضُ مرّتين أو ثلاث، ثُمَّ تُوفي يوم الخميس وقت الظهر، ثاني عشر جمادى الأوّل سنة سبعين وخمسمائة، وكان يومًا مشهودًا.

وكان آخر كلمة قالها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وهو الشيخ الجليل الحسيب النسيب أحمد بن أبي الحسين عليّ الرفاعي بن محيي بن ثابت بن حازم بن أحمد بن محيي بن خازم بن حسن بن مهدي بن أبي القاسم محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن إبراهيم المجاب ابن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام محمد الباقر، ابن الإمام زين العابدين، ابن الإمام الحسين السّبط، ابن الإمام عليّ بن أبي طالب، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وانظر: طبقات الشعراني الكبرى (121/1)، وقلائد الزبرجد شرح حكم مولانا أحمد له أيضًا، بتحقيقنا.

الأخلاق في كل عصر بحسب حدوث الوقائع الواقعة من أهله فترى «رسالة القشيري» مثلاً لا يغني عنها كتاب «القوت» لأبي طالب المكي، ولا «الرعاية» للحارث المحاسبي، ولا «الحلية» لأبي نعيم، وترى كتاب «الأحياء» لا يغني عنه كتاب «عوارف المعارف» للسهروردي، كما لا تغني هذه الكتب كلها عن كتابنا هذا؛ لأنه أسلوب غريب كما يعرفه من نظر فيه، وربما أكرر فيه الخلق الواحد مرارًا بقصد الاعتناء به لا ذهولاً ولا نسيانًا لكن بعبارة أخرى، وربما استشهد به في أبواب متعددة تتميمًا للفائدة كما فعل الإمام البخاري وغيره، وقد رتبته على عشرة أبواب وخاتمة، وضمنت كل باب منه جملة من الأخلاق في معانٍ مختلفة فإني ألفته بحسب الوقائع والحوادث، ولم يتفق لي أن أختم كل نوع إلى شكله كما يفعل المؤلفون في الفقه والأصول والنحو وغيرها، وخصصت الخاتمة بذكر جملة صالحة مما قاساه أهل الله تعالى من تحمل البلايا والمحن والأذى من الخلق تشجيعًا للإخوان على التحمل وعدم مقابلة أحدهم من آذاه بسوء طول عمرهم، فإن كل من صدق في طلب فلا بدّ له من أن ينجذب على الأذى له جماعات كثيرة من أشقياء الإنس والجن؛ لينفروه عن طريق أهل الله تعالى، وأما الكذب في طلبه فقد كفى إبليس المؤنة لإحباط عمله بالرياء والنفاق فلم يحوجه لأن يوسوس لأحد بالأذى له؛ لأنه لم يدخل الطريق ولا شمها فأكرم به من كتاب جاء على حين فترة من موت الأشياخ الذين أدركناهم في النصف الأول من القرن العاشر مجددًا لما اندرس من معالم طريقهم كما هي سنة الله تعالى في عباده في كل عصر، فتجدد كل عالم ما اندرس من علوم العلماء قبله إما بإيضاح معانيها، وإما بأن يرجح خلاف ما رجحوه بأدلة أخرى لم يطلع عليها من قبله فلا يقال: أي فائدة لتأليف فلان الكتاب الفلاني وقد سبقه الناس إلى ذكر ما فيه لأنا نقول لا يغني مؤلف عن مؤلف؛ لأن كل متأخر لا بدّ أن يكون فيه تعقيب لكلام المتقدم بذكر قيد أو شرط كما هو مقرر بين العلماء.

وأسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يحفظ هذا الكتاب من كل حاسد وعدو يدس فيه ما ليس من كلامي مما يخالف ظاهر الشريعة؛ لينفر الناس عن النظر فيه كما فعلوا ذلك في كتاب «العهود» وثارت فتنة في جامع الأزهر وغيره، وما خمدت إلا بإرسال نسختي السالمة من الدَّسِّ التي عليها خطوط العلماء كما بينته في خطبة

«العهود»[1] فالله تعالى يغفر لهؤلاء الحسدة ما جنوه آمين اللهم آمين والحمد لله رب العالمين، فتأمل يا أخي في أخلاق هذا الكتاب بين الاعتبار والإنصاف تعرف الصادق من الفقراء من غيره، وكذلك أقول في غالب الأخلاق فاعرض يا أخي ما ذكرناه لك في هذا الخلق على مريدي عصرك تعرف حالهم وحالك وذلك لأن الصادقين اختفوا من شدة فساد الزمان، وما ظهر إلا بعض المدّعين لرسوم أهل الطريق من أمثالنا، بل سمعت سيدي الشيخ أبا السعود الجارحي [2] مع شدة ما كان عليه من المجاهدة

(1) قال سيدنا المصنف في «العهود المحمدية» (ص 2): إعلاما لك يا أخي بأن عهود الكتاب مأخوذة من الكتاب والسنة نصا واستنباطا لئلا يطعن طاعن فيها وسداً لباب الدس من الحسدة في هذا الكتاب كما وقع لي ذلك في كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود الذي جمعت فيه عهود المشايخ التي أخذوها علي فإن بعض الحسدة لما رأى إقبال الناس على تلك العهود وعرف عجزه عن الوفاء بها مع ادعائه المشيخة عمل حيلة واستعار من بعض المغفلين من أصحابي نسخة وأوهمه شدة الاعتقاد في جنابي وكتب منها عدة عهود ودس فيها أمورا مخالفه لظاهر الكتاب والسنة وأشاعها عني في مصر فحصل بذلك فتنة عظيمة في الجامع الأزهر وغيره وانتصر لي الشيخ ناصر الدين اللقاني والشيخ شهاب الدين الرملي وجماعة وأجابوا عني بتقدير صحة ذلك مني وما سكنت الفتنة حتى أرسلت للعلماء نسختي التي عليها خطوطهم ففتشوها فلم يجدوا فيها شيئًا مما دسه الحسدة وأشاعوه عني ومن تلك الواقعة ما ألفت كتابا إلا وتعرضت فيه لما دسته الحسدة في كتبي وتبرأت فيه من كل شيء يخالف الكتاب والسنة طلبا لإزالة ما في نفوس بعض الناس لئلا يحصل لهم الإثم بذلك، فهذا كان سبب تشييدي لعهود هذا الكتاب بالأحاديث والآثار فإن الحاسد لو دس فيه شيئا يخالف الأحاديث التي أذكرها لا يروج له أثر عند الناس وكيف يستدل مؤلف لكلامه بالأحاديث التي يخالفه منطوقها أو مفهومها هذا أمر بعيد فالله يحفظ هذا الكتاب من مثل ذلك إنه سميع مجيب.

(2) عارف علومه جمة، وصوفي ذو أحوال وكرامات مشهورة بين الأمة، قدوة في علمه ودينه، فريد في عصره وحينه. أخذ عن الشيخ أحمد المرحومي، عن الشيخ مدين، عن الزاهد، وجد واجتهد، وترقى في المقامات حتى ارتقت روحه، وسمت عن مقعر فلك القمر، وارتفع إلى الحضرة التي لا ليل فيها ولا نهار، وضوءها وضاح كحال أهل الجنة في الجنة، ولما دخلها، صار يكتب الكراريس العديدة حال ظلمة الليل كما يكتب نهارًا بغير فرق. وكان له قبول تام عند الأكابر، تقف الأمراء بين يديه، فلا يأذن لهم بالقعود، وحملوا في عمارة زاويته، الحجر والتراب.

وكان كثير المجاهدة، مكث نحو عشرين سنة صائمًا، وانتهى أكله إلى لوزة، ثم تركها، وذلك قبل اجتماعه بالمرحومي، فلما اجتمع به لقنه، وأخلاه في بيته سنة، في غرفة من كوم الجارح ثم خرج، فأظهر العجائب، وكان لا يلقن أحدًا الذكر ولا يقربه حتى يمتحنه سنين، ولا يأخذ العهد على من تلمذ لفقراء الأحمدية والبرهانية ونحوهم ويقول: نسبتك إلى طريق الفقراء لبس الزي، ثم يقول: الحكم للداعي الأول، ومن دَوْغة هؤلاء الفقراء القانعون بالزي، لا يفلح في طريق

والإقبال على الله تعالى ليلاً ونهارًا يقول: من أراد أن ينظر إلى مدعٍ كذاب على الله تعالى فينظر إليّ، وكان يقول: والله إن لحيتي هذه لم تبلغ مقام مريد، انتهى.

فإذا كان هذا قول هذا الشيخ فكيف يكون حال أمثالنا؟ والله إن أمثالنا لمن المغرورين.

وسيأتي في الكتاب مواضع أنه لا بدّ أن يتقدم الدجال الأكبر جماعة من الدجاجلة ليمهدوا له الطريق فيظهر أحدهم الباطل في صورة حق إذ الدجل في اللغة هو: تمويه الباطل بصورة الحق فطالب يا أخي نفسك وإخوانك بالتخلق بهذه الأخلاق ترى قدمك في مقام الإرادة وبعدك عنه، ولو تأمل أحدنا حاله بعين التحقيق لوجد نفسه لم تشم من طريق القوم رائحة إنما هي دعاوى وجلاس فقط والقلب خراج.

وسمعت سيدي علي الخواص[1] - رحمه الله تعالى - يقول: لا تنظروا إلى

الصوفية أبدا لقصور همته. وكان يقول: ينبغي للعارف أن يجعل في بيته دائمًا شيئًا من الدنيا - ولو كيمياء- خوفًا أن يقع في رائحة الاتهام لله في أمر الرزق.وكثيرًا ما كان ينظر للمريد بحال، فيتمزق لوقته.

سأله أجل جماعة البوصيري أن يسمعه شيئًا من علوم الأسرار فقال: لا أئتمنك على ريح أخرجه وأنت حاضر، فكيف بسر الله؟.

وكان يتكلم على الخواطر، وكان إن توسم من تلميذه محبة المشيخة، نفّره عنها بحيلة، وكان يقول: طول الشّعر في النوم للفقير زيادة دين، وللغنى غم وهم.

وقال: من كان يوفي بالعهود فلا يستطب باليهود، فإياك أن تستطب بكافر، فتقع في الميل إليه قهرًا.

وقال: إذا ذكرت اسم ربك فلا تنطق به إلا مع تعظيم وخشية، فقد كان رجل يطير في الهواء ويمشي على الماء، فعاد مريضًا فقال: قل يا لطيف، فسلب، فلم يعرف كيف أتي، فقال له بعض أهل الكشف: لكونك نطقت باسمه اللطيف وأنت غافل عن التعظيم. وكان له شطح هائل، وكان كثير العطب، فكان عطبه يحميه، ولما احتضر، أشهد عليه قاضي القضاة الحنفي وغيره أنه لم يأذن لأحد في السلوك. مات سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة.

وانظر: الطبقات الشعرانية (129/2) جامع الكرامات (274/1) الكواكب الدرية (757)، والكواكب السائرة (47/1).

(1) هو سيدي علي البرلسي، الأمي، المعروف بين الخوّاص بالخوّاص. كان من أكابر أهل الاختصاص، ومن ذوي الكشف الذي لا يخطر، والاطلاع على الخواطر على البديهة فلا يطئ. وكان عليه للولاية أمارة وعلامة، متبحرًا في الحقيقة، أشبه البحر إطلاعه، والدر كلامه. وكان في ابتداء أمره يبيع الجميز- وهو شاب- عند الشيخ إبراهيم المتبولي بالبركة، ثم أذن له أن يفتح

دكان زيات، فمكث بها نحوه أربعين سنة، ثم ترك، وصار يضفر الخوص حتى مات. وكان يسمى بين الأولياء النسابة لأنه يعرف نسب بني آدم- مع كونه أميًا- وكذلك جميع الحيوان. وكان معه تصريف ثلاثة أرباع مصر، والربع مع محيسن المجذوب. وكان إذا شاوره أحد لسفر يقول: قل بقلبك عند الخروج من السور أو العمران: دستور يا أصحب النوبة، اجعلوني تحت نظركم حتى أرجع؛ فإنهم يحبون الأدب معهم، ولهم اطلاع على خواطر من يمر في دروبهم وعلى معرفة أعمالهم، ولهم تأديب من حصلت منه زلة. وكان يرد ما يأتيه من الظَّلَمة والأكابر، ثم قبله آخر عمره وفرقه على العميان والعاجزين.

وكان يزجر من يريد تقبيل يده ويقول: إنما يليق بأرباب المناصب، أما الفقير فاللائق به الذل حتى يجاوز الصراط ويدخل الجنة. وكان يربي بالنظرة تارة، ويأمره المريد أن يشرب من إبريقه تارة، فيقوم مقام التلقين وأخذ العهد. وكان يطوف على المساجد يومي الخميس والجمعة، فيكنس وينظف احتسابًا، وينظف المقياس كل سنة- صبيحة نزول النقطة- فيكشط سلمه من الطين، ثم ينزل يتوضأ ويصلي ويدعو ويبكي ويتضرع إلى الله في طلوع النيل، ويقول لإخوانه: زوروا محل نزول الرحمة لأهل مصر، ولا يطلع الروضة إلا على طهر. وكان يقرأ من لوح قلبه، ومطمح بصره اللوح المحفوظ من المحو. وكان له طب غريب يداوي به ذوي العاهات-كبرص وجذام- فكل ما أشار باستعماله فيه الشفاء. وطلب منه بعض أصحابه تدوين ذلك في كتاب فقال: إنما هي أمور بحسب الإذن، فإن استعملت بغير إذن لم تؤثر. وأكل رجل سُمًّا فقال له: كل من النارنج ما تقدر عليه بشحمه من الشجر، ففعل فبرئ. وكان إذا زار المقياس حمل معه كعكًا كثيرًا، يطعم منه الآدمي والكلاب، ويرمي للسمك. ورأى ابن عنان- وهو يصلي الضحى- بلاءً نازلا على أهل مصر، فأرسل للشيخ يقول له: ما هذا؟ قال: يرسل الله له من يحمله. فنظر ابن عنان في صلاة الصبح أنه ارتفع، فوقع ذلك اليوم أن شيخ الإسلام ابن النجار الحنبلي شكا الشيخ الخواص- وكان زيّاتًا في حارته- إلى المحتسب، فضربه، وخزمه في أنفه وكتفه، وطاف به مصر وبولاق، حتى كاد الشيخ يموت من شدة ما فعل به، فقال ابن عنان: الحمد لله الذي جئنا في زمن فيه رجل يحمل بلاء مصر كاملاً وحده.

وكان إذا نزل بالناس بلاء لا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام حتى ينكشف. وكان إذا سأل الله رفع البلاء كشف رأسه حتى من العرقية، ووقف منكس الرأس حافيًا، يبكي ويتضرع.

وله كلام في الطريق كالبحر الزاخر، فمنه ما قال: شرط الشيخ أن يكون عنده علم بكشف الحقائق والدقائق، فارقًا بين الحق والحقيقة والوهم والخيال، يعلم ما جاز ووجب واستحال، له سريان في العوالم العلوية والسفلية، يعرف الفرق بين لمسة الشيطان والملك والنفس ونزغات المريد، له قدرة على التلبس في الصور والتطور في الرتب، ومعرفة بأمراض القلوب والنفوس والأسرار، وتطهير النجاسة النفسانية وما يدخل من الظلمات على العوالم الروحانية. وقال: ينبغي للرجل تفقد محفوظاته العلمية خوف النسيان، فإن كتب العلم حاوية لما تعبدنا به، ومن نسيها فكأنه نسي القرآن. وقال: ما درس ضريح ولي قط، إلا لاختياره الخفاء على الظهور. وقال: الكمل لا تصريف لهم، بخلاف أرباب الأحوال، فإنهم جلبان الحضرة، وهي فياضة بالجود على

كل وارد، فكل من طلب شيئًا أعطاه، وربما نقص به مقامه، ولهذا لما عقد الفقهاء لحسين الجاكي مجلسًا لكونه يلحن في الحديث وتم ومنعه، فخرج للسلطان من حائط بيت الخلاء- وهو فيه- فقال: اعزله وإلا خسفت بك الخلاء.. فارتعد وعزله. وقال: روحانية الولي، إذا دخل مكانًا أو مشى فيه تبقى فيه ستة أشهر، كما يشهده أرباب القلوب، فكيف بمكان يسكنه؟ هذا بعكس بيوت الظَّلَمة والعصاة، تجدها موحشة، لا أنس بها ولا روحانية. وقال: كل فقير لا يدرك سعادة البقاع وشقوتها، فهو والبهائم سواء. وقال: من الأماكن التي تظهر فيها الروحانية لغالب الناس في مصر قبة الشافعي﷜ وضريح ذي النون، وقبور بني الوفا، وجامع محمود، وزاوية الشيخ مدين، وجامع الظاهر، وجامع نائب الكرك بالحسينية وقال: فهذه أماكن لم يزل النور فيها طافحًا لما يرد عليها من الملائكة والأولياء.

ومن الأماكن التي لا يظهر نورها إلا للخواص، القطعة من الشارع المقابلة لسوق الكتبيين وأنت ذاهب لباب الزهومة، وكذلك القطعة المقابلة لجامع الفاكهاني، وأيضًا القطعة المقابلة لجامع الميدان، والأخرى المقابلة للجامع الأخضر. وقال: ينبغي عدم الإنكار على من قام وتواجد،- ولو من الظَّلَمَة أو من لا عادة له- فقد تكشف الحجب عن بعض القلوب فتحن إلى وطنها الأول، فتتمايل كشجرة تريد قطع عروقها. وقال: لو ولي الخضر أو القطب شيئًا من ولايات هذا الزمان، ما أمكنه أن يفعل بالناس إلا ما يستحقونه «إنما هي أعمالكم ترد عليكم». وقال: صرحوا بأن من شرط الشيخ أن يسمع نداء مريده له ولو كان بينهما مسيرة ألف عام. وقال: شرط صحة بداية المريد أن يمشي على الماء والهواء، وأن تطوى له الأرض، ومن لم يقع له ذلك فليس في مقام الإرادة.

وقال: رأيت القطب يبيع الفول الحار بالأمشاطيين، وهو شاكر لله على كثرة ما يؤذيه الناس.

وقال: الخلعة الخضراء الصوف في المنام، علامة على ولاية صاحبها. وقال: قال العارفون: ينبغي لكل إنسان أن يختم علمه بالاستغفار ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33].

وقال: سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر والتلاوة، أن الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها إذا سمعت اسمه أو كلامه، فتكاد تلحق بعالمها السماوي. وقال: وشكا له أفضل الدين الأحمد، قسوة قلبه فقال: أحمده الذي أطلعك عليها، وحجب عنك كمالك خوف العجب.

وقال: طعام المتكلفين يورث ظلمة القلب، كطعام البخيل. وقال: حكمة الأمر بالاستعاذة باسم الله دون غيره، أن المكلف لا يعرف من أي حضرة يأتيه إبليس من طرق حضرات الأسماء الإلهية، فأمر أن يستعيذ بالاسم الجامع لحقائق الأسماء كلها؛ ليسد على الشيطان جميع الطرق.

وقال: يكرم المؤذن، ويقول ربما أقبل الحق عليهم في السَّحَر بالرضا، وقبل دعاءهم فيمن آذاهم، وربما كان نائما ذلك الوقت على جنابة. وقال: لا ينبغي لمتمشيخ التلاعب بالطريق، فيأخذ العهد على المريد صورة، وليس معه مدد يمده به، فإنه نفاق، والمنافق لا يكون داعيًا إلى الله.

وقال: من يشتغل برعاية مخارج الحروف والترقيق والتفخيم والإدغام ونحوها، لم يحصل له

جلّاس فقراء هذا الزمان فانظروا إلى أفعاله وأقواله وأحواله وخذوا الطريق عن المتخلق بأخلاقها لا عن المتجلسين بجلاس أهلها، وإياكم أن تقفوا مع إذن أشياخ هذا الزمان لتلامذتهم أن يلقنوا الذكر، فإن تلقين الذكر ليس بإذن في إرشاد المريدين وإنما هو رواية سند، وسمعته يقول: جاء رجل إلى سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يطلب الطريق إلى معرفة الله تعالى فقال له: تريد مشيخة سوقية ولا مشيخة بيتية؟ فقال: يا سيدي بينوا ذلك لنا حتى نعرف المراد من ذلك فقال: المشيخة السوقية: أن أجلسك بجلاس الفقراء الظاهر من لباس الصوف، وإرخاء العذبة، وآذن لك بالجلوس على السجادة فتصير تخبط عندي، وتصطاد الدنيا بذلك، وكل من نازعك في مريد حوله إحسان وبر قامت عليه القيامة منك ومن زبانيتك، ومن كان هذا حاله فهو من إخوان الشياطين، وهو حال أكثر المدعين للطريق في هذا الزمان.

وأما المشيخة البيتية: فأن تجلس عندي على قدم الاتباع للسنة المحمدية تخلقًا وتحققًا فلا تدع مأمورًا إلا وفعلته، ولا منهيًا إلا واجتنبته، ولا معروفًا إلا عملته، ثم ترى نفسك بعد ذلك كله أنك قد استحقيت الخسف بك والمسخ بصورتك، وأنك لو سجدت على الجمر لله تعالى من افتتاح الوجود إلى انتهائه لا تؤدي شكر ذرة واحدة مما تفضل الله تعالى به عليك من الحلم وعدم معاجلتك بالعقوبة، ثم تعكف بقلبك

حضور مع الله الذي هو روح الصلاة؛ لأن النفس ليس في قدرتها الاشتغال بشيئين في آن واحد.
وقال: رؤيا المنام جند من جنود الله تقوى إيمان صاحبها بالكشف إذا كان أهلاً، وإن كان ذلك نقصًا لكامل الإيمان. وقال: إذا طال زمن العبادة على النفس، حنت إلى مفارقه حضرة ربها، كما يحن العطشان إلى الماء، فلو وزن ثواب ذلك العمل الواقع، قبل الملل وبعده، لوجد إثم محبته لفراق حضرة ربه يرجح على ثوابه. وقال: لو كان كمال الدعاء إلى الله موقوفًا على إطباق الخلق على تصديقهم واعتقادهم كان الأنبياء أحق بذلك، وقد صدقهم قوم فهداهم الله بفضله، وكذبهم آخرون فأشقاهم الله بعدله. وقال: النفس إذا مُدحت اتسخت، وإذ ذُمت نظفت.
وقال: إياك أن تصغى لقول منكرٍ على أحد من الفقراء، فتسقط من عين رعاية الله وتستوجب المقت.
مات سنة تسع وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاوية الشيخ بركات، خارج باب الفتوح، تجاه حوض الصارم.
وانظر: شذرات الذهب (233/8)، طبقات الشعراني (150/2)، كرامات الأولياء (193/2)، الكواكب السائرة (220/2)، والكواكب الدرية (807)، وجميع كتب سيدي الشعراني في التصوف لا تخلوا من ذكره وعلمه.

على حضرة الله ﷻ فلا تلتفت لغيره من نعيم الدارين حتى تلقاه فهذه هي المشيخة البيتية، فقال الرجل: لا طاقة لي بهذا الطريق، فقال له سيدي إبراهيم: فاذهب إلى عمل الحرف والصنايع ولا تزاحم الصادقين بالدعاوى الكاذبة فقال: سمعًا وطاعة، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين[1] - رحمه الله - يقول: والله لو أن أحدنا شم رائحة مقام فسقة الزمان الماضي لادعى القطبية الآن، وسمعته مرارًا يقول: قد صار الموت اليوم تحفة للمؤمن فقد ذهب الصادقون، وبقي الكاذبون على الله حتى أنني عددت من ادعى القطبية الكبرى فوجدتهم عشرة أنفس في مصر، وسكت على ذلك أتباعهم لجهل أحدهم بمقام القطبية، فإن له ألف علامة كل علامة تحتها ألف علامة، وله ألف عالم كل عالم له ألف عرش وألف كرسي وألف سبع سموات وألف سبع أرضين مضروب ذلك في ألف ألف ألف /ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف عشر مرات، ولا يعطى أحد للقطبية حتى يعرف جميع عوالم هذه العروش والكراسي والسموات والأرضين بأسمائهم وأعمارهم وأعمالهم، انتهى.

وسمعته يقول: جاء رجل إلى سيدي إبراهيم المتبولي ؓ فقال: يا سيدي لقد أعطاني الله تعالى الاطلاع على عدد من كان في ظهر آدم من الذرية لا يزيدون واحدًا ولا ينقصون عنه، وأعطاني علم عدد ما يخرج من النبات والأزهار، فلا يخرج نبات ولا زهر ولا ورق إلا ويعلمني الله به، فقال: وعزة ربي قد أعطاني الله ذلك وأنا ابن أربع سنين فلم ألتفت إلى ذلك لأننا لم نخلق لذلك، وإنما خلقنا للعمل بالكتاب والسنة واقتفاء أثر الأئمة فقال له إنسان: إن هذه الأمور من علم الله لم يبلغنا أنه أعطى علمها سيد المرسلين مع جلالته، فقال: ألا تقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255] وهذا مما شاء قال: وقد نزلت وأنا صغير إلى تخوم التخوم بعد أن جاوزت سبعمائة ألف ألف أرض، وصعدت إلى العلو حتى جاوزت ألف ألف عرش دون العرش العظيم، واطلعت على مدائن لا تحصى كل

---

(1) هو الشيخ القدوة العارف سيدي أبو الفضل الأحمدي. تلقى عن سيدي علي الخواص وعن الشيخ بركات وكان أخاً للمؤلف في الطريق، ووقع لهما اتحاد لم يقع له قط مع غيره. قال عنه رضي الله عنهما: لو أخذ يتكلم في أفراد الوجود لضاقت الدفاتر توفي في بدر في بعد الحج ودفن هناك ؓ سنة 942 هجرية.

مدينة أوسع من هذه الدنيا، انتهى.

ويؤيد ذلك قول سيدي أحمد بن الرفاعي - رحمه الله - : إن الله تعالى خلق بحرًا من رمل تجري بين السماء والأرض منذ خلق الله الدنيا إلى يوم القيامة لله تعالى بعدد كل رملة منه مدينة قدر دنياكم هذه، وفي كل مدينة جميع ما في الدنيا من العوالم والأحكام قال: ولله تعالى في كل مدينة أنبياء وأولياء، ومؤمنون وكفار وأطال في ذلك، ثم قال: وهذه الأمور لا يثبتها ويؤمن بها إلا من ثبته الله تعالى بالقول الثابت، وكان يقول: لا يكون الفقير عندنا رجلاً حتى يعرف ثمانين ألف أمة بأسمائهم وأنسابهم وأعمالهم الإنس والجن عالم واحد منهم، انتهى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي صاحب أخلاق هذا الكتاب يقول: لا يكمل الفقير عندنا في الصفا حتى يصير يعرف أعمال جميع العباد من حسن وقبح، فلا تخفى عليه ما يفعلونه في قعور بيوتهم، فقيل له: ومن أين تعرف ذلك وما ثم وحي؟ فقال: يعرف الفقير ذلك من رؤية أنف أحدهم، فإذا رأى أنفه عرف جميع ما فعله طول عمره حتى كأنه كان حاضرًا معه، وكان يقول: إذا صفى قلب الفقير صار مهبط الوحي ومحل الأنوار، وإذا تكدر كان محل الظلمة ومهبط الشياطين، وكان يقول: قد أعطاني الله تعالى من الأخلاق المحمدية على لسان محمد ﷺ ما لم يعط لأحد من أولياء عصري، وكان يقول: آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سيد أحمد البدوي وقال: يا إبراهيم لو علمت أحدًا أكبر قوة من أحمد البدوي في الأولياء لآخيت بينك وبينه، وكان يقول: أعطاني الله مقامًا لم يُعطَ لأحد من الأولياء وهو: سماطي الذي تمد كل سنة علي فلا يتخلف عنه أحد من الأولياء الأحياء والأموات فيحضرون مع رسول الله ﷺ فيأكلون فيه طعامًا روحانيًا جبرًا لخاطري، ونقباء هذا السماط الخضر وإلياس وعمار بن ياسر والمقداد بن ربيب الأسود وأبو هريرة، انتهى.

وقد ذكرت ذلك لسيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي فقال: صدق سيدي إبراهيم وقد حضرت هذا السماط مرارًا أنا والشيخ علي الخواص، وجماعة من أصحاب سيدي إبراهيم ﷺ وكان سيدي إبراهيم يقول: كنت أرى النبي ﷺ وأنا صغير في المنام فكانت أمي تقول لي: يا إبراهيم كل الناس يرونه في المنام، ولا تكون رجلاً إلا إذا صرت تراه في اليقظة ويحدثك وتشاوره على أمورك كما يشاور المريد شيخه، قال: وما وصلت هذا المقام حتى قطعت مائتي ألف مقام، وسبعة وأربعون ألف مقام وتسع مائة وتسعين مقامًا، فقيل له: وكذلك الحكم في غيركم لا يصل إلى مقام الأخذ

عن رسول الله ﷺ يقظة إلا بعد مجاوزة جميع هذه المقامات؟ فقال: نعم لا يصح لأحد مقام الأخذ عنه ﷺ إلا بعد مجاوزتها، وكان يقول ﷺ: أعطاني الله تعالى معرفة ذنوب كل من توضأ من مطهرة من زوية غسالة أعضائهم فأعرف غسالة الكبائر والصغائر والمكروهات وخلاف الأولى فأفرق بينهما، وكان يقول: وعزة ربي هؤلاء الذين يتكلمون في طريق المحبة كعمر بن الفارض لم يعطوا من سر الله ﷻ ما يعطى شارب ناموسة، وكان يقول: وعزة ربي كل فقير لم يمد صاحب الوليمة التي حضرها بالبركة الخفية طول عامه، ويتحمل عنه جميع البلايا النازلة عليه في ذلك العام فليس له أن يمد يده إلى لقمة، وكان يقول: إياكم أن تروا نفوسكم كبرتم فتفطموا عن الرضاع من ثدي الإمداد الإلهية، وكان ﷺ يجوع حتى تصب على بطنه الحجر، ويطعم طعامه للمحتاجين إليه، وكان إذا شكا أحد إليه ضرب العزوبة يعطيه خيطًا يشده في وسطه فلا تنشر له جارحة حتى يتزوج، وإن طلب أن يكون ذلك دائمًا يمسح بيده على ظهره فلا يشتاق إلى نكاح حتى يموت، وكان إذا شكا أحد إليه فقرًا أو دينًا يقول له: اذهب إلى الخص الذي في الغيط فارفع الحصا وخذ حاجتك فيرفعها فيجد قناة من ذهب تجري من علو وتنزل في سفل فيأخذ منها حاجته ومناقبه كثيرة ﷺ.

مقدمة في بيان عدة أمور يتعين على مطالع الكتاب الوقوف عليها قبل الخوض فيه بغير فهم ليعرف اطلاع القوم

اعلم يا أخي أن مرادنا بالأخلاق المحمدية حيث أطلقناها في هذا الكتاب وغيره ما يعم الصريح والمستنبط من نص أو قياس كما أطلق العلماء لفظ الشريعة على ما يشمل الصريح والمستنبط، وكما أطلقوا مذهب المجتهد على ما صرح به وعى ما فهمه المقلدون له من كلامه أي: فكما يسمى ما ذكرناه شريعة ومذهبًا كذلك يسمى ما استنبط العارفون من أخلاقه ﷺ بأخلاق المحمدية فافهم والله أعلم.

ولنبين لك يا أخي ما اشتملت عليه هذه المقدمة بأوضح بيان فنقول:

بيان كون طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة

اعلم أن القوم كلهم قد أجمعوا على أن من خرج عن السنة المحمدية قيد شبر في ملبسه أو مأكله أو منامه، أو قوله أو فعله، فليس هو من القوم ولو تزيَّ بزيهم وهم برئاء منه في الدنيا والآخرة كما تبرأ المجتهدون كذلك من كل قول يخالف ظاهر

الكتاب والسنة، وقالوا: إذا خالف قومنا ما صح عن رسول الله ﷺ فارموا بقولنا، وأعملوا بقول رسول الله ﷺ، وكان الإمام أبو حنيفة ﷺ يقول كثيرًا لا ينبغي لمن لم يعلم دليلي أن يفتي بكلامي، وتأمل يا أخي إذا كان علماء الظاهر يخطئون بعضهم بعضًا مع إنهم في مذهب واحد وشريعة واحدة ظاهرة للأفهام، فكيف لا يخطئون كلام من جاوز الفهم إلى الأمور الكشفية، ومعلوم أن دائرة الكشف تبتدي من بعد دائرة الفكر والفهم، فلا سبيل لصاحب الفكر أن يذوق من طريق الكشف إلا ما وافق صريح السنة، مع أن العلوم الكشفية لا تأتي قط إلا موافقة للشريعة؛ لأنها إخبار بالأمور على ما هي عليه في نفسها كما هو الأمر في الشريعة المطهرة، ومن شهد خطأ في الشريعة فذلك الخطأ راجع قطعًا إلى فهمه هو لا إلى الشريعة، ويؤيد ذلك قول من قال: إن حكم الحاكم ينفذ ظاهرًا وباطنًا؛ أي: في الدنيا والآخرة لكن ينبغي تقييده بما إذا حكم بصريح النص ،أما إذا حكم بما فهمه فقد يوافق الأمر الأخروي، وقد يخالفه وقد تتبعت بحمد الله تعالى أدلة أقوال المجتهدين، فرأيت القول لا يخلو من أن يكون مسندًا إلى آية أو حديث أو مفهوم لهما أو أثر أو قياس صحيح على أصل صحيح، وقد كان أبو القاسم الجنيد ﷺ يقول: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة وكل من لم يفهم القرآن والحديث لا يقتدى به في طريقنا ولو كان على عبادة الثقلين.

قلت: وإنما لم يذكر الجنيد - رحمه الله - القياس مع الكتاب والسنة؛ لأنه لا يثبت وتعم دلالته إلا بالكتاب والسنة وكذلك الإجماع في نفس الأمر والله أعلم، وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: من لم يحبس نفسه في قمقم الشريعة، ويختم عليها بخاتم الحقيقة فليس هو من أتباعنا، ولو مشى في ركابنا، وكان يقول أيضًا: أول من يتبرأ من الفقراء المبتدعة من السهروردية والقادرية والرفاعية، وغيرهم مشايخهم يوم القيامة، وسمعت سيدي علي المرصفي ﷺ[1] يقول: سبب ظن بعض الناس أن طريق

(1) هو سيدي على المرصفي، كان أبوه إسكافيًا يخيط النعال، ونشأ هو تحت كنفه كذلك، فوفق للاجتماع بالشيخ مدين، وهو ابن ثمان سنين، فلقنه الذكر، ثم أخذ عن ولد أخته، وأذن له في التصدر للمشيخة وأخذ العهد على المريدين في جملة من أجاز- وكانوا بضعة عشر رجلاً- فلم ينبت ويشتهر منهم إلا هو. أخذ عنه خلق، ودانت له مشايخ عصره، واختصر رسالة القشيري.
قال الشيخ المصنف: لقنني الذكر ثلاث مرات متفرقة، بين الأولى والثانية سبعة عشر سنة، وذلك أني جئته وأنا أمرد- كنت أظن أن الطريق نقل كلام كغيرها- ثم قعدت بين يديه وقلت: يا سيدي، لقنّي بحال. فقال: اجلس متربعًا وغمض عينيك واسمع مني «لا إله إلا الله» ثلاثًا ثم
=

القوم خارجة عن الشريعة بعدهم عن مخالطة أهلها، ولو أنه خالطهم لوجدهم متقيدين بالكتاب والسنة، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام قبل اجتماعه بالقوم يقول: وهل ثم طريق يتقرب بها إلى الله تعالى غير ما بأيدينا من العلم؟ فلما اجتمع بالشيخ أبي الحسن الشاذلي، وقطع السلسلة الحديدية بالكراس؛ أي: صار يقول: من أدل دليل على

-

اذكرها أنت ثلاثًا.. ففعلت، فما سمعت منه إلا المرة الأولى وغبت من العصر إلى المغرب.
وعاش حتى انقرض جميع أقرانه، ولم يبق بمصر من يشار إليه في الطريق غيره.
ومن كلامه: أجمع أهل الطريق على أن الملتفت لغير شيخه لا يفلح.
وقال: إذا ذكر المريد ربه بقوة طويت له مقامات الطريق بسرعة، وربما قطع في ساعة مالا يقطعه غيره في شهر. وقال: السالك من طريق الذكر كالطائر المجد إلى حضرات القرب، والسالك من غيره-كالصلاة والصوم- كمن يزحف تارةً ويسكن أخرى مع بعد المقصد، فربما قطع عمره، ولا يصل.
وكان الجنيد إذا دعا لفقير قال: أسأل الله أن يدلك عليه من أقرب الطرق. وقال: ما كل أحد يطيق شهود أنه بين يدي الله، فهو خاص بالأكابر، وربما منع غيرهم من دخولها. وقال: إياك والأكل من طعام الفلاحين، فإنه مجرب لظلمة القلب. وقال: من ابتلى بجمع الناس على مجلس ذكر قبل خمود نار بشريته، فليكثر من الاستغفار، ليجبر ما لعله حصل من عجب، وحب محمدة الناس.
وقال: لا ينبغي لشيخ أخذ العهد على مريد أنه لا يقع في معصية، بل أنه يتزع كلما أذنب.
وقال: لا ينبغي التصدر لمشيخة الطريق حتى يمتحن نفسه بالصدق بينه وبين ربه. فيمشي على الماء والهواء، ويمسك النار فلا تحرقه-ولو مرة- ويطلع على أسرار الخلائق، ويعرف ما يفعلونه في بيوتهم، ومتى لم تقع له كرامة فهو من العامة، وحسن الظن بالنفس لا يكفي، كما عليه غالب الفقراء، فبمجرد ما أن يصير له ورد ونظام وناموس وأتباع، يظن أنه بلغ الكمال بغير كرامة.
وقال: أربع مراتب تزاحم الناس عليها بغير حق: تلقين الذكر، وإلباس الخرقة، وإرخاء العذبة، وإدخال الخلوة. أمّا التلقين فشرطه أن يقوم الشيخ- بقدرة الله- بأن يفرغ على المريد حال تلقينه جميع ما قسم له من علوم الشرع، فلا يحتاج بعد إلى مطالعة كتبا. وأمّا الخرقة فشرطها أن يسلبه جميع الأخلاق الرديئة حال قوله: انزع ثوبك أو طاقيتك مثلا. وأمّا إرخاء العذبة فشرطه أن يخلع عليه سر النمو والزيادة في كل ما نظر إليه أو مسه- حتى لو مس حجرًا أو خشبًا امتد معه-.
أمّا إدخال الخلوة فشرطها العلم بالكتاب والسنة ومعرفة الخواطر، ومن أين تنبعث حضرات جميع الأسماء-أو بعضها- وحفظ المريد من النزعات، ومعرفة ماله من أنواع الفتوح.
مات سنة ثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته بقنطرة أمير حسين، بمصر، ولم يخلق بعده مثله.
وانظر: الكواكب السائرة (269/1)، طبقات الشعراني (127/2)، الشذرات (174/8)، كرامات الأولياء (190/2).

أن القوم قعدوا على أساس الشريعة، وقعد غيرهم على الرسوم ما يقع على يدهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيء من ذلك على يد أحد من الفقهاء إلا إن سلك طريقهم، وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: كيف ينسب القوم إلى مخالفة السنة وهم مجمعون على أنه لا يجوز لأحد منهم الإقدام على فعل أو قول حتى يعلم مستنده من الكتاب والسنة؟ فإن كان مثل هؤلاء لا يصح تسميتهم مبتدعة، فما بقي على وجه الأرض من المسلمين الآن سني.

وكان سيدي علي المرصفي يقول: من تأمل بعين الإنصاف وجد ما ينكره بعض المجادلين على الصوفية جهل وجحد، وعناد وحسد، فإن حقيقة الصوفي أنه عالم عمل بعلم على وجه الإخلاص لا غير، ويؤيده ما ورد عن السيد عيسى ﷺ أنه كان يقول: من عمل بما علم فهو من أولياء الله تعالى، وكذلك يؤيده قول الإمام الشافعي - رحمه الله - : إن لم تكن العلماء العاملون أولياء الله تعالى فليس لله ولي، انتهى.

فكذب والله وافترى من قال: إن طريق القوم لم يأتِ بها كتاب ولا سنة، وذلك أكبر علامة على جهل هذا القائل بالحقيقة والشريعة، والحمد لله رب العالمين.

بيان نفاسة طريق سيدي الشيخ إبراهيم المتبولي التي بنينا عليها غالب أخلاق الكتاب ﷺ وبيان بعض عقوبة من أنكر على أهل الطريق، وبيان أن كل من لم يخالط القوم بعد عن معرفة اصطلاحهم فأخطأ طريق الصواب:

وقد قال الشيخ أبو تراب النخشبي ﷺ: إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله؛ أي: لأنه لو أقبل على حضرة الله لعرف أهلها ومن هو المقدم فيها وكان يحترمهم ضرورة، فإنه ما عادى أحد أولياء الله، وهو يعتقد ولايتهم أبدًا، وإنما يعاديهم حين يحجب عن مقامهم، وحينئذ يرميهم بالنفاق والرياء والزندقة فافهم.

وكان الشيخ أبو عبد الله القرشي[1] أحد الرجال الأكابر من أولياء مصر: يقول من

(1) قال التادلي: وأما أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم بن هاشم القرشي قال ابن بادس: هو
-

أحد المشهورين من أكابر المشايخ العارفين، والأولياء المذكورين، والأفعال الخارقة، والأحوال الصادقة، والأنفاس المحققة، ومات الإمام القرشي عام سبعين في السادس والعشرين من ذي الحجة وخمسمائة كذا قال ابن بادس في شرحه، وهو كما قدمنا من أصحاب الشيخ أبي مدين أدركه في إفريقيا قبل استقراره ببجاية، وكان أبو مدين يثنى عليه، ويعظم قدره كثيرًا، وقال أبو عبد الله القرشي ﷺ لقيت قريبًا من ستمائة شيخ اقتديت منهم بأربعة:

أبو يزيد القرطبي، وأبو الربيع سليمان بن عمرو المالقى ، وأبو العباس أحمد بن عطاء الله بن العريف الطنجي المرى الخزرجي، وأبو إسحاق إبراهيم بن طريف.

قلت: وبعد هؤلاء التقى بأبي مدين وصحبه، ولازمه مدة، فانتفع بصحبته ورُوي عنه.

قال أبو عبد الله القرشي: كان أبو مدين يلحظني ببرّه وكل مَن لقي من شيوخه كانوا يعظمونه حتى قال أبو إسحاق بن طريف: الناس ينسبون القرشي إليّ والله لقد انتفعت به أكثر مما انتفع بي، وانكشف لي بسببه أمور كثيرة. وقال أبو الربيع لقد ذكرتني رؤية القرشي أمورًا غابت منذ أربعين سنة.

وتخرّج بهذا الإمام جماعة كثيرة من الصديقين: كابن القسطلانى جمال الدين أبو العباس أحمد بن علي، وبهاء الدين. وسكن مصر ﷺ مدة طويلة وله فيها كرامات أضربنا عنها اختصارًا، وحجَّ مرات، وجاور بالحرمين الشريفين، وفي كل موضع ينزل تظهر عليه وعلى يديه كرامات وآيات، ونزل في آخر عمره أرض القدس وبه تُوفي وقبره هناك شهير بالبركة يُقصد في المهمات، ويلجأ إليه في الشدائد والأزمات، وتكشف في الحين ببركاته. وقال- أي الشيخ القرشي -: كنت بمنى فعطشت ولم أجد ماءً ولا شيئاً أشتريه به، فمضيت إلى بئر وجدت عليه أعاجم فقلت لأحدهم: ضع لي في هذه الركوة ماء، فضربني وأخذ الركوة من يدي ورمى بها بعيدًا فمضيت إليها لآخذها وأنا منكسر القلب، فوجدتها في بركة ماء حلو فاستقيت وشربت وجئت بها لأصحابي فشربوا، وأعلمتهم بالقصة، فمضوا إلى المكان؛ ليسقوا منه، فلم يجدوا ماءً ولا أثره، فعلمت أنها آية.

وقال أيضًا: كنت مرة في بدر متوجهاً إلى مكة وكان هناك رجلاً معه تَمرٌ يبيعه للحجاج على أن يأخذ ثمنه بمكة، فدفع إليّ منه شيء وألح عليّ في أخذه، وقال: أنا أصبر عليك بثمنه، وإن مت أنا أجعلك في حل، أو قال: فأنت في حل منه، ولم يزل بي حتى أخذته منه، ثم إنه عرض له السفر قبلنا فطالبني بالثمن، فقلت له: ما عندي شيء وأنت قلت: لا تطلب الثمن إلا بمكة، فقال: لا بدَّ من الثمن، وضيق عليّ وآذاني وشتمني فدخلت المسجد، فدعوت وتضرعت إلى الله تعالى، ثم خرجت فلقيني رجل؛ كأنه أعرابي عليه ثياب الإحرام، فناولني دراهم وعدها في كفي، فذهبت إلى صاحب الدين فقضيت، فتضاعفت أذيته وجعل يقول: يخبئون الدراهم ويكذبون ويحلفون والدّراهم معهم فسكتُ ولم أجاوبه بحرف.

قلت: الرجل الذى ناوله الدراهم هو الخضر ﷺ وله معه مواقف شهيرة، ومشاهد عظيمة عند الصديقين والعارفين منها: إنه أتاه مرة بزيتونة من نجد، قال: كُلْ هذه الزيتونة فإن فيها شفاؤك، فإني أتيت بها من نجد قال: فقلت له: لا حاجة لي بك ولا بزيتونتك اخرج عني.

غضب من ولي لله ﷺ ضرب بسهم مسموم في قلبه، ولم يمت حتى تفسد عقيدته، انتهى.

وهذا من أكبر العقوبات؛ لأن من ضرب في قلبه بسهم مسموم لا يقدر أحد من الأطباء يداوي له مرضًا، فيقاسي من العذاب ما لم يعذب به أحد من العالمين إن كان في أجله فسحة، ومن فسدت عقيدته صار لا يعتقد في الله تعالى، ولا في رسوله ولا في أوليائه خيرًا، فيجني ثمرة سوء ظنه بالله وأنبيائه وأوليائه، فلا أحد يأخذ بيده في شدة لا في الدنيا ولا في الآخرة، نسأل الله العافية من ذلك، إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق.

-

وله كلام على طريق القوم عجيب، وكان له مجلس يُقرأ عليه فيه كتب القوم من كتب الرقائق كالإحياء، والقوت، ورسالة الأستاذ، والرعاية وغير هذه الكتب، وكان آية الله في المعارف والحقائق.

قال صاحب النجم: ومن غُر مناقبه: إنه كان إذا سافر مع أصحابه في بر أو بحر واحتاج أصحابه الماء واشتد بهم العطش، فإن كانوا في بر عدل بهم عن جادة الطريق، وسأل الله أن يسقيهم فيجدون ماءً عذبًا لا عهد لهم به في ذلك المكان وإن كان في البحر أخذ الركوة من يد أصحابه، واستسقى بها الماء من البحر المالح فيشربون منه، فيجدونه أحلى من العسل.

ومن كلامه ﷺ: مَنْ صدّق بكرامات الأولياء وأحبهم فهو ولي، ومَنْ أدرك شيئًا من مقاماتهم أو حالاً من حالاتهم فهو من الأبدال.

ومن أدعيته ﷺ: اللهمّ امنن علينا بصفاء المعرفة، وهب لنا صحيح المعاملة فيما بيننا وبينك على السُنة، وارزقنا صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك، وامنن علينا بما يقربنا إليك مقرونًا بالعافية في الدارين برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهمّ إنا نستغفرك من كل ذنب أذنبناه واستعمدناه أو جهلناه، ونستغفرك من كل ذنب تُبنا لك منه، ثم عدنا فيه، ونستغفرك من الذنوب التي لا يعلمها غيرك ولا يسعها إلا حلمك، ونستغفرك من كل ما دعت إليه نفوسنا من فعل الرخص فاشتبه ذلك علينا وهو عندك حرام، ونستغفرك من كل عمل هو لوجهك فخالطه ما ليس لك به رضا، لا إله إلا أنت يا أرحم الراحمين.

ويُحكى عنه: إنه كان يثابر على هذا بالبكور والآصال والله أعلم.

قال صاحب النجم: وللشيخ أبي عبد الله القرشي مشيخة عظيمة، وأخذوا بيده ودلوه على الطريق المستقيم، فمنهم: الشيخ سيدي أبي مدين لقيه ببجاية، ولازم مجلسه وخدمه إلى أن فتح الله له على يديه. وحاصل أمر هذا الإمام وكراماته، كلها عجب العجاب لا يأتي على جميع تفاصيلها هذا المختصر. المعزي في أخبار ومناقب أبي يعزى (160) بتحقيقنا، روض الرياحين (14)، السير (400/21).

كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ من أكابر الأولياء أصحاب الدوائر الكبرى وكان يقول: ليس لأحد من الأشياخ في رقبتي منة في طريقي وإنما المنة علي لرسول الله ﷺ، وكان في بداية أمره يبيع الحمص المسلوق بالقرب من جامع الأمير شرف الدين خارج الحسينية، ويأكل من كسبه، ولا يقبل من أحد شيئًا، ولو كان أعز أصحابه، ومات أبوه وهو صغير فربته والدته، وكانت من الصالحات، ولها حال عظيم مع الله ﷻ، ورأيت سيدي علي الخواص ﷺ مع علو مقامه في التصريف، إذا جاءته حملة شديدة، يذهب على قبر والدة سيدي إبراهيم، ويحكي لها ذلك الأمر عند القبر فتقضي الحاجة، وقبرها معروف بذلك إلى الآن، وكان سيدي إبراهيم وهو صغير يرى رسول الله ﷺ في المنام كثيرًا، ويحادثه فتقول له أمه: يا ولدي كل الناس يرونه في النوم، وإنما الرجل من يراه في اليقظة، فلازال ﷺ يترقى في المقامات، حتى صار يجتمع به في اليقظة، ويشاوره في أموره كلها كما يشاور التلميذ الصادق شيخه، والولد الموفق والده، ويعمل بإشارته ﷺ، ولما عمَّر سيدي إبراهيم زاويته ببركة الحاج، وغرس البستان الذي هناك صار كلما يحفر بئرًا تنهال، فشاور رسول الله ﷺ على ذلك فقال له: سأرسل لك علي بن أبي طالب يخط لك بجريدة على جدار بئر أخي شعيب نبي الله التي كان يسقي منها الغنم، وكانت قد ردمت ولا يعلم أحد مكانها، فأصبح سيدي إبراهيم ﷺ قد خط له عليها، فحضر فوقع على أساسها، فهي دائرة يشرب منها الغيط إلى الآن.

وأخبرني سيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي ﷺ[1] وكان من أعز أصحاب

---

(1) هو سيدي عبد القادر الدشطوطي: المعروف بالكرامات، المشهور بخوراق الآيات البينات والكشف، والقبول التام عند الملوك فمن سواهم من الأعلام، ذو الصفات التي اشتهرت، والعجائب التي بهرت عندما ظهرت، وكان ضريرًا، وعمر عدة جوامع بمصر وقراها، ووقف الناس عليها أوقافا كثيرة.

ومن كلامه: أوصيك بعدم الالتفات إلى غير الله في شيء من أمر الدارين، فإن جميع الأمور لا تبرز إلا بأمره، فارجع فيها لمن قدرها. وقال: إذا استحكمت هيبة الله في قلب عبد، أخذ عن إدراك التكليف، وقامت به حالة حالت بينه وبين الحركة والصلاة، وصار عليه كل بلاء أهون من صلاة ركعتين. وقال: رأيت في بعض الكتب المنزلة يقول الله: يا عبدي، لو سقت لك ذخائر الكونين، فنظرت إليها بقلبك طرفة عين، فأنت مشغول عنا لا بنا.

وكان صاحيًا، لكنه كان حافيًا مكشوف الرأس، عليه جبة حمراء، وكان لقبه بين الأولياء «صاحب مصر».

وتوقف النيل، ثم هبط أيام الوفاء ثلاثة أذرع، فخاض في البحر وقال: اطلع بإذن الله. فطلع فورًا،

سيدي إبراهيم، قال: قد خص الله تعالى سيدي إبراهيم المتبولي بخصيصة لم تكن

فأقبل الناس يتبركون به.

وحج ماشيًا حافيًا طاويًا، فلما وصل إلى باب السلام، وضع خده على العتبة، فما أفاق إلا بعد ثلاث.. وكان يُرى مع الدليل تارة ومع الساقة أخرى، ويختفي ويظهر.

وكان لا يُرى يصلي فيقول: الناس معذورون، يقولون عبد القادر لا يصلي، والله ما أظن أني تركت الصلاة منذ جذبت لكن لنا أماكن نصلي فيها.

وكان قايتباي إذا زاره، يمرغ وجهه على أقدامه.

وقال لشيخنا العارف الشعراوي: كل من قال: إن السعادة بيده كذب.

وكنت في دشطوط لا أهجع من السعي على الدنيا، وأنا على ظهر فرس، من الغيط إلى السواقي، إلى التقدمة، وكان المثل يُضرب بي في الجهد على الدنيا، فبينما أنا كذلك، حصل لي جاذب إلهي، فصرت أغيب عن حسي ليومين وثلاثة ثم أفيق، فقلت: اللهم إن كان هذا وارد حق فاقطع علائقي من الدنيا؛ فأخذت في السياحة إلى يوم هذا. وقال: طلبت من الله تعالى مقام الحضور بين يديه، فتجلى لي من حضرته أمرٌ ذابت منه مفاصلي، وصرت أطلب طلوع روحي فلا أجابُ، فتوسلت بالمصطفى ﷺ فرحمني، وأسدل عليّ الحجاب. ولما عمّر القبة التي دفن فيها بزاويته، صار يقول للشيخ جلال الدين البكري: أسرع، فالوقت قرب، وقال له: لا تجعل لأحد من الشهود والقضاة وظيفة في زاويتي، إنما جعلت وقفها لمكشفي الركب من كل مقيم ووارد. وكان ينام عند نصراني بباب البحر، فيسأله جاره القاضي أن ينام عنده فيأبى، ويقول: هذا ما هو نصراني؛ فأسلم بعده.

وكتب مرة ورقة إلى شيخ الإسلام ابن أبي الشريف، يسأله في أن يقرئ شابًا فتمنع، ثم أرسل الإلحاح عليه فأجاب، فأقرأ الشاب مجلسًا واحدًا ثم قال: أنا لست بمفرغ لإقراء الأطفال، وحجبه عنه، فعاد إلى صاحب الترجمة، فتوجه معه بنفسه إلى شيخ الإسلام، فتوانى في الإذن له- لكونه كان مشغولاً بالعشاء- فاضطرب الموضع الذي هو فيه حتى كاد يسقط، فخرج إلى الشيخ وقال: يا سيدي، بالأرواح.. فقال: ماذا أعمل؟ أنت مشغول باللذة، والوقت أمسى.

قال الجلال السيوطي: رفع إلي سؤال في رجل حلف بالطلاق إن وليّ الله الشيخ عبد القادر بات عنده ليلة كذا، فحلف آخر بالطلاق أنه بات عنده تلك الليلة بعينها، فهل يقع الطلاق على أحدهما؟ فأرسلت قاصدي إلى الشيخ، فسأله عن ذلك، فقال: ولو قال أربعة إني بت عندهم لصدقوا، فأفتيت بأنه لا يحنث واحدٌ منه انتهى.

وقال بعضهم: كان قد خلعت عليه خلعة التطور، فيدير ما شاء من الأجساد المعددة، بحيث نام عند رجلين في بلدين متباعدتين في ليلة واحدة، وأكل عند كل منهما لبنًا.ونظير ذلك ما حكى عن الشيخ محمد الخضري-المدفون بالبهنسا- أنه خطب في خمسين بلدًا في يوم واحد خطبة الجمعة.. مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته. خارج باب الشعرية.

وانظر: طبقات الشيخ الشعراني (138/2)، جامع الكرامات (95/2) الشذرات (129/8)، الكواكب السيارة (246/1).

لأحد من الأولياء وهي: أن له كل سنة وليمة عظيمة يمد سماطها على سد اسكندر ذي القرنين فلا يتخلف عن تلك الوليمة أحد من الأنبياء والمرسلين وصالح المؤمنين، قال: وقد حضرتها كذا كذا مرة، وصحبت الخضر وإلياس من هناك، وأخبرني أن نقباء السماط هناك: الإمام علي وأبو هريرة والمقداد بن الأسود وأعوانهما، فيمتد من ذلك السماط الأحياء من الأولياء والأموات، وقال: وأما حضور الأنبياء فإنما هو جبر خاطر منهم له، فقلت لسيدي عبد القادر: فهل يسع سد اسكندر هؤلاء الخلائق كلهم؟ فقال لي: نعم طول السد سبعمائة ميل، وعرضه خمسة أميال انتهى.

وأخبرني شيخ الإسلام زكريا[1] - رحمه الله - قال: كان سيدي إبراهيم المتبولي

(1) هو شيخ الإسلام سيدي زكريا بن أحمد بن أحمد، شيخ الإسلام، زين الدين، الأنصاري، السنيكي، نسبة إلى سنيكة - قرية من أعمال الشرقية- ثم القاهري، الأزهري، الشافعي.
ولد سنة ست وعشرين وثمانمائة بسنيكة، ونشأ بها، فحفظ القرآن والعمدة، ومختصر التبريزي، ثم تحول للقاهرة سنة إحدى وأربعين، فقطن بالجامع الأزهر، وحفظ به المنهاج والألفية والشاطبية والرائية وبعض ألفية الحديث والتسهيل، ولم يعكف على أحد من الناس، فكان يجوع، فيخرج ليلاً، فيجمع قشور البطيخ فيأكله، فسخر الله له رجلاً يعمل في الطواحين، فصار يتعهده بالطعام والكسوة سنين، ثم أتاه ليلة فأوقفه على سلم الوقادة وقال: اصعد. فصعد ثم قال: انزل. فنزل ثم قال: تعيش حتى يموت جميع أقرانك، وتصير طلبتك مشايخ الإسلام في حياتك حتى يكف بصرك. قال: لا بدّ من العمى؟ قال: لا بدّ. ثم فارقه فلم يره بعد. ثم أخذ الفقه والأصول والمعاني والبيان عن القاياتي والشرف المناوي ولازم درسه، والعلم البلقيني والونائي والحجازي والبوتيجي وابن حجر والزين رضوان والكفايجي والشرواني والعز البغدادي وابن الهائم والعلاء البخاري وابن الهمام، وابن المجدي. وأخذ التصوف عن الشيخ الغمري والإدكاوي والنبتيتي والبلقيني والخليلي، وتلقن عليهم، وجد واجتهد، وأكبَّ على الاشتغال على طريقة جميلة من التواضع وحسن العشرة والأدب والعفة، والانجماع عن أبناء الدنيا، مع التقلل وشرف النفس ومزيد العقل وسعة الباطن والتحمل، والمدارة، إلى أن أذن له غير واحد في الإفتاء والتدريس، فتصدى لذلك في حياة جمع من شيوخه، وانتفع به الفضلاء، طبقةً بعد طبقة. ثم تصدَّى للتصنيف، فشرح البهجة والروض وغيرهما مما هو معروف مشهور، حتى بلغت مؤلفاته نحو الستين. وكان يميل إلى الصوفية، ويذب عنهم، سيما ابن عربي وابن الفارض، وهو ممن كتب في نصرتهما، وجزم بولايتهما، وذلك لأنه لما استفتى السلطان في كائنة البقاعي العلماء، أفتى أكثرهم بتصويبه في تكفيرهما، فتوقف صاحب الترجمة، ثم اجتمع بالشيخ محمد الاسطنبولي المجذوب فقال له: اكتب وانصر القوم، واذكر في الجواب أنه لا يجوز لمن لم يعرف مصطلحهم ذوقًا أن يتكلم فيهم؛ لأن دائرة الولاية تبتدئ من وراء طور العقل، لبنائها على الكشف الصحيح. وكان فيه بر وإيثار لأهل العلم والفقراء، ويخير مجالستهم على مجالسة الأمراء. وكان له تهجد وصبر واحتمال، وتعرك للقيل والقال، وأوراد واعتقاد،
=

وكتابته أميز من عبارته.
وولي عدة مدارس، والميعاد بالجامع الأزهر، ولم يزل في ازدياد من الترقي حتى ولاه قايتباي الصلاحية، ثم استقر به في القضاء الأكبر بعد صرف الأسيوطي، فباشره بعفة ونزاهة، وعمي آخر عمره، ومع ذلك لم يترك الإفتاء والتدريس، وعمّر نحو مائة سنة حتى انقرض جميع أقرانه، وألحق الأصاغر بالأكابر، وصار كل من في مصر من أتباعه أو أتباع أتباعه وقرئ عليه شرحه لـ«البهجة» سبعًا وخمسين مرة، حتى كان الشيخ الرملي - رحمه الله - يقول: هذا شرح أهل بلد، لا شرح رجل واحد.
وكان مجاب الدعوة. جاءه شخص عمي سنين فقال له: ادع الله أن يرد بصري. فدعا له فأبصر ثاني يوم.
ومن كلامه: ينبغي للمريد ألاّ يجيب عن نفسه إذا رمي ببهتان، إلا إن كان فيه ما يوجب حدًا أو تعزيرًا.
وقال: علامة الإخلاص في العلماء أن ينقبض خاطر أحدهم إذا وصف بعلم أو صلاح، وينشرح إذا وصف بجهل أو نقص؛ لأن المخلص إنما يعامل الله لا العباد.
وقال: ينبغي تنظيف البدن والثوب وتطييبها؛ لئلا يؤذي أهل الحضرة الإلهية من الأنبياء والملائكة والأولياء. وقال: أهل الفُتوة في الآخرة قليلٌ جدًا ، كالشعرة البيضاء في الثور الأسود؛ لأنه في ذلك اليوم يود أن لو كان له حق على والديه فيدخلهما النار مكانه.
وقال: إياكم والطعن في أشياخ أزمنتكم، ولوذوا بهم في الدنيا ليأخذوا بيدكم في الآخرة، ومن أشقى الناس رجلٌ غير صالح يقع في أعراض الصالحين.
وقال: إياكم ومخالطة من يقع في أعراض العلماء والأولياء، كما عليه المقاريض الذين جعلوا جُلّ قصدهم شهوة البطن والفرج، فلا تكاد تذكر لأحد منهم عالمًا أو صالحًا، إلا ويعارضك فيه بذكر عيوبه.
وقال: يثقل الجسم ويخف بحسب تناول الشهوات- قلة وكثرة- فخفته بقدر ميله للآخرة، وثقله بقدر ميله للدنيا، ولا يشترط في حصوله الطيران الإسلام، فقد وقع لجماعة من الرهبان.
وقال: إذا مل العبد من العباد، حنت نفسه إلى الفراق من حضرة ربها، فصارت واقفة بين يديه بجسمها دون روحها أو قلبها أو سرّها- على اختلاف المقامات- فهي إلى الإثم أقرب.
وقال: شرط من يكون أعزّه الله أن يزداد بالطاعة ذلاً، كما أن شأن من يعتز بغيره أن يزداد بها كبرا، كما عليه أهل الطرد عن حضرته.
وقال: النبي معصوم من العمل بوسوسة إبليس.
وحكي عنه في اللواقح أنه- أعنى صاحب الترجمة- قال له: كان أخي الشيخ على النبتيتي يجتمع بالخضر عليه السلام، فباسطه يومًا فقال: ما تقول في الشيخ يحيى المناوي؟ قال: لا بأس به. قال: ففلان؟ قال: لا بأس به. قال: فما تقول في الشيخ زكريا؟ قال: لا بأس، إلا أن عنده نفيسه. قال صاحب الترجمة: فلما أرسل الشيخ علي بذلك، ضاقت نفسي، وما عرفت ما أراده بالنفيسة فأرسلت أقول له: استفهم منه. فسأله فقال: إذا أرسل قاصده إلى أحد يقول له: يقول

من الراسخين في العلم، مع أنه كان أميًا لا يعرف الخط، وكان يحل مشكلات الكتاب والسنة بحسن عبارة، وعاش مائة سنة وسبع سنين لم يغتسل قط من جنابة؛ لأنه لم يتزوج ولم يحتلم، وكانوا إذا قالوا له تزوج يقول: يا أولادي ليس في ظهري ذرية تخرج منه إلى الدنيا، وهم أهوال يوم القيامة لم يدع شهوة إلى الجماع، قال: وكان إذا شكا إليه أحد العزوبية يقول له: تريد أن تخمد شهوتك طول عمرك أو حتى تقدر على مؤنة النكاح، فإن قال: طول عمري مسح بيده على ظهره، فلا يشتهي الجماع إلى أن يموت، وإن قال: حتى أقدر على القيام على المرأة يشد له على بطنه بخيط، ويقول مادام هذا على بطنك لا تنتشر لك جارحة، فإذا درت على التزويج فانزع الخيط، قال: الشيخ زكريا وكنا لا نهمل من أحواله شيئًا، فربما فعل فعلاً باطنه حكمة، وظاهره بدعة قال: وقد زرناه يومًا، وكان معي خمسة عشر من العلماء فشق لنا بطيخة بيده، وصار يعطي واحدًا ويدع آخر أو اثنين، ويبدأ بالجانب الأيسر فأراد بعض الفقهاء أن ينكر عليه، فقلت له: لا تنكروا كتب لي أسماء من فرق عليهم على الترتيب، وأسماء من أخرهم، ففعل قال شيخ الإسلام فمن أعطاه أولاً مات أولاً، ومن أعطاه ثانيًا مات ثانيًا بعده وهكذا، قال: وكان أعطاني آخر الكل، فماتوا كلهم ولم يبق منهم غيري، وكانت تفرقته عليهم على حسب أعمارهم ﷺ.

وكان ﷺ يصلي الظهر دائمًا بالجامع الأبيض برملة لد، وكان بعض الفقهاء ينكر عليه عدم حضوره الجماعة معه في مصر لجهله بحاله، قال سيدي علي الخواص: وقد أوصاني بذلك أنا والشيخ عبد القادر الدشطوطي، فما تخلفنا عن صلاة الظهر في هذا الجامع من حين أوصانا سيدي إبراهيم إلى وقتنا هذا، قال: وقد حضرت مع الشيخ مرارًا في حياته، وكان إمام الجامع نحيفًا بلا لحية ولونه كالزعفران، فأمره بالدعاء لنا فدعا لنا، وهكذا أخبرني أيضًا الشيخ يوسف الكردي[1] أحد أصحاب سيدي إبراهيم،

لك الشيخ زكريا؛ فيلقب نفسه بالشيخ. مات سنة نيف وعشرين وتسعمائة.

وانظر: الطبقات الشعرانية (2/122)، والنور السافر (120)، والبدر الطالع (2/252)، الضوء اللامع (3/234)، الكواكب السائرة (1/102)، وشذرات الذهب (8/118)، نظم العقيان (26)، والكواكب الدرية (777).

(1) بيت الكردي، نسبة إلى «الكرد» الشهير. وهو جبل كبير. وإليه ينتسب كثير بالمدينة المنورة. ولنذكر المشهورين منهم من أهل العلم والدين. وأشهرهم الشيخ يوسف الكردي، نائب الأئمة

وأخبرني أيضًا: أنه اشتاق إلى أمه يومًا وهو مقيم عنده في بركة الحاج، فشاور سيدي إبراهيم، فقال: إن شاء الله تزورها في هذا اليوم قبل الغروب، فتعجب من قول الشيخ، ولم أجد بدًا من تصديقه، فصليت معه العصر بالزاوية، ثم دخلت خلوتي ورددت الباب، فبينما أنا أقرأ وردي، إذ رأيت نفسي داخلاً بلدنا، ووالدي وأهلي يتلقوني بالأعلام والذكر، فسلمت عليهم ودخلت على الوالدة، ففرحت بي فرحًا شديدًا، وأقمت عند أهلي تسعة شهور، أقرئ أطفالاً وأخطب وأصلي بالناس، وكان الإمام مريضًا، فلما مضت عليّ تسعة أشهر تحرك شوقي إلى سيدي إبراهيم، ولم أقدر أقيم عند أهلي بعد ذلك فودعتهم وخرجت للسفر، فشيعوني إلى المحل الذي كانوا تلقوني منه، وزودوني فاكهة ففتحت عيني، فإذا أنا جالس في وردي في الخلوة والفاكهة بين يدي، فخرجت أُسلم على الإخوان سلام المسافرين، فضحكوا علي فصرت أحلف لهم أني كنت مسافرًا ولم يصدقوني، فعلم الشيخ بذلك فقال لي: اكتم ما رأيت، قال: فكتمت ومكث الفقراء يضحكون زمانًا، ثم بعد سنة جاءتني أمي ووالدي من بلاد الأكراد بهدية للشيخ، وقال الشيخ: قد عجزنا في يوسف أنه يكمل عندنا سنته فلم نقدر عليه، وقال: يكفي تسعة أشهر، فتعجب الفقراء من ذلك، فقال سيدي إبراهيم: لا تتعجبوا فإن القدرة صالحة لأعظم من ذلك، وأخبرني سيدي علي الخواص: أن شخصًا من الأولياء نزل من الهوى، وجلس بين يدي سيدي إبراهيم مناديًا، فقال: يا سيدي مما أعطاني الله تعالى أنه لا ينزل حيوان من بطن أمه من جن وإنس، ووحش وطير وغير ذلك، ولا تخرج ورقة من العود أو نبات من الأرض إلا ويعلمني بذلك قبل ظهوره، فقال له سيدي إبراهيم: وعزة ربي هذا أمر قد أعطانيه الله ﷻ وأنا دون البلوغ فلم أقف معه، وإنما الشأن يا ولدي في الإقبال على ربك بحيث لا يكون لك عنه إعراض في ساعة من ليل أو نهار، ووالله إن قول العبد: سبحان الله مرة واحدة أفضل من إطلاعه على ملكوت الدنيا والآخرة على التفصيل، انتهى.

-

الشافعية في الحضرة النبوية. قدم المدينة المنورة سنة 1120هـ، وكان رجلاً فاضلاً عالماً، عاملاً، وكان يدرس في المسجد النبوي. وغالب تدريسه في فقه الشافعية. وأعقب من الأولاد: محمداً، وعبيداً، وإسماعيل، وسليمان. [تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب (ص 95)].

وقد بلغنا أن الله سبحانه وتعالى يقول في بعض كتبه المنزلة: يا عبدي لوسقت إليك ذخائر الكونين فنظرت بقلبك إليها طرفة عين فأنت مشغول عنا لا بنا، انتهى.

فتاب ذلك الولي وقبَّل رجل الشيخ، وطار في الهوى ونحن ننظره، وأخبرني أيضًا أن فقيرًا كان في زاوية سيدي إبراهيم على قدم الجد والاجتهاد في العبادة فدعاه سيدي إبراهيم يومًا، وقال لي: ما لي أراك كثير الأعمال ناقص الدرجات؟ فقال: لأن والدي مات وهو ساخط عليَّ، فقال له سيدي إبراهيم: هل تعرف قبره؟ فقال: نعم، فذهب بالولد إليه، ونادى والده من القبر، فأجاب وانشق القبر وخرج مرعوبًا لاعتقاده أن الساعة قد قامت، فقال الشيخ: لا روعة عليك إنما دعوتك لترضى عن ولدك هذا، فقال: اللهم إني أشهدك أني قد رضيت عن ولدي، فقال له: ارجع سالمًا وسأله عن أحوال أهل القبور، فأعلمه بأحوال بعضهم، فبكى حتى بلَّ الثرى، ثم نزل والده إلى قبره، وفاق ذلك الولد حتى صار من أهل الكشف التام من ذلك اليوم، وأخبرني الشيخ يوسف الكردي المتقدم ذكره قال: كنت أمشي خلف حمارة سيدي إبراهيم، وهو ذاهب من مصر إلى بركة الحاج فتلقته امرأة، وعانقت حمارته، وقالت: يا سيدي ولدي أسره الفرنج، ولا أعرف ولدي إلا منك، فقال سيدي إبراهيم: هذه هي الكرامة إنما هي لسيدي أحمد البدوي، فلم تطلق الحمارة فطأطأ الشيخ رأسه ساعة لحظة وقال: انظري هل هذا ولدك؟ فإذا هو يمشي نحوها فتلاقت هي وإياه، وعانقته فقالت له: كيف جئت؟ فقال: كنت جالسًا في دار التفتيش ففتحت عيني فإذا أنا أمشي بالقرب منكم، وأخبرني أيضًا أن سيدي إبراهيم رأى الصغار الذين يلعبون بالحمام في طريق البركة فسلم على صغير منهم وعلى رأسه زنط من أولاد الترك، وقال: أهلاً بشيخ الإسلام فتعجب الفقراء من تلقيبه بذلك، قال الشيخ يوسف: فتبعت الولد حتى دخل مصر، فعرفت بيت والده وصرت أتردد إليه كل قليل، فاشغله والده بالقرآن والعلم فبرع حتى صار شيخ الإسلام، وهو الشيخ كمال الدين الطويل الشافعي، وقد تولى مشيخة الإسلام أيام السلطان الغوري، وقرأت أنا عليه العلم، ولما دنت وفاته رأيت سيدي إبراهيم في المنام وهو يقول لي: قل للشيخ كمال الدين يتهيأ للموت فقد دنا أجله فأرسلت له شخصًا أعلمه بذلك، فقال: سمعًا وطاعة، فعاش بعدها نحو شهر فتعجبت من اعتناء سيدي إبراهيم به في صغره وعند وفاته حتى تهيأ لقاء الله ﷻ، وأخبرني سيدي الخواص قال: كنا مع سيدي إبراهيم في وليمة على الخليج الحاكمي أيام النيل، وهناك ولد لصاحب الوليمة فالتهى والده بالسماط، فوقع الولد في الماء في الليل، وكان عمره نحو

ثلاث سنين، فلم يتذكروه إلا آخر الليل، فأخبروا الشيخ بذلك فقال: اذهبوا إلى القنطرة تجاه جامع الظاهر تجدوه بجنب الجرف عائمًا على الماء والروح فيه، فذهبوا فإذا هو حي، كما قال الشيخ، لم يصبه أذى من الماء، ببركة سيدي إبراهيم، وكان ﷺ يلبس شملة الصوف الحمراء على عمامته، ويقول: أتبرك بزي أخي أحمد البدوي فقد آخى رسول الله بيني وبينه، وأمرني أن أصغر جرم خبزي كخبز سيدي أحمد، وقال: وعزة ربي لو وجدت لك يا إبراهيم أحدًا من الأولياء أكبر فتوة من أحمد البدوي لآخيت بينك وبينه، ولكن ما ثم في أولياء مصر بعد محمد بن إدريس أكبر فتوة منه، فقلت له: يا رسول الله فمن بعده في الفتوة من أولياء مصر؟ فقال: السيدة نفيسة وبعدها الشيخ شرف الدين الكردي بالحسينية وبعده الشيخ عبد الله المنوفي، انتهى.

وكان ﷺ يعيب على من يشتغل بالأسماء الإلهية لعلة دنيوية، ويقول: من فعل ذلك فهو كعبدة الأصنام، بل عبدة الأصنام أكبر همة منهم؛ لأنهم قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:3] وهؤلاء عبدوا الله تعالى بالأسماء طلبًا للقرب من الدنيا، وكان يقول لأصحابه: لا تكبروا تفطموا، وانظروا أنفسكم بغير الطفولية يدوم رضاعكم من الأمداد الإلهية بواسطة وبلا واسطة، وكان يقول: لو احتجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من جملة المسلمين يعني (الكاملين)، وكذلك بلغنا مثل هذا القول عن الشيخ أبي العباس المرسي ﷺ.

وكان سيدي إبراهيم إذا سألوه: من شيخكم في الطريق؟ يقول: شيخي أمي؛ لأنها ربته في الصغر، وربما عني بذلك رسول الله ﷺ، وتارة يقول: شيخي أبونا إبراهيم الخليل، وأجاب سيدي علي الخواص عن ذلك فقال: ملة إبراهيم ﷺ ترجع إلى ملة محمد ﷺ ؛لأنها فرع منها وإن كانت أمًّا لها من وجه آخر من حيث قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: 123] وسألت سيدي علي الخواص: هل بلغكم أن أحدًا من الأولياء السابقين أخذ عن رسول الله ﷺ كما وقع لسيدي إبراهيم المتبولي؟ فقال: نعم ما من ولي حق له قدم الولاية إلا ويصير يستمد من رسول الله ﷺ بلا واسطة ويستغني عن جميع الوسائط، فقلت له: حتى المجتهدين؛ لأنه ما ثم أحد حق له قدم الولاية المحمدية إلا ويخرج عن التقليد؛ لأن غايته الظن، وعلوم الأولياء من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وذلك فوق علوم الظن، ومن اشتهر عنه من الأولياء

أنه كان حنبليًا أو حنفيًا كالشيخ عبد القادر الجيلي وسيدي محمد الحنفي، فذلك كان حاله قبل كماله، وإلا فما ثم ولي كامل مقلد لغير رسول الله ﷺ أبدًا.

قال: وممن بلغنا من المتقدمين أنه لم يكن له شيخ غير رسول الله ﷺ أربعة لا خامس لهم في الشهرة وهم: الشيخ عبد الرحيم القناوي، والشيخ أبي السعود بن أبي العشائر، والشيخ أبو مدين، والشيخ إبراهيم المتبولي رضي الله عنه، وأما من لم يشتهر بذلك بين العلماء فكثير.

قلت: وممن أدركته أنا من الأشياخ الذين اشتهر عنهم رؤية رسول الله ﷺ يقظة ومشافهة سيدي محمد المغربي شيخ الجلال السيوطي، ولكنه كان يقول: المراد باليقظة انكشاف الحجاب عن القلب بطي المسافة بينه وبين رسول الله ﷺ كان يأتي إلى ذلك الولي؛ لأن ذاته الشريفة منزهة عن كلفة المجيء والرواح في البرزخ، قال: وهذا هو الحق الصراح، وإن الكامل يراه ﷺ ملء الوجوه بحسب عموم دعوته وسريان نور شريعته، فلا يوجد نور شريعته في مكان إلا وهو ﷺ حاضر فيه، هكذا يدركه أهل الكشف، وكذلك مما أدركته أنا من أهل هذا المقام الشيخ محمد بن داود، والشيخ علي الخواص، والشيخ أفضل الدين، والشيخ جلال الدين السيوطي، والشيخ علي النبتيتي الضرير، والشيخ محمد العدل، الشيخ أحمد الزواوي، والشيخ نور الدين الشوني، والشيخ محمد الصوفي بنواحي الفيوم، والشيخ عمر البتنوني المغربي، ووِرده في الصلاة على رسول الله ﷺ في كل يوم وليلة مائة ألف صلاة، هكذا أخبرني من لفظه رضي الله عنه، وأخبرني الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري أن سيدي محمد الغمري لما أراد أن يعمر جامعه برأس سوق أمير الجيوش بمصر أرسل خادمه يستأذن رسول الله ﷺ على لسان شخص كان يبيع لبن المعز، فقال له: تعال غدًا خذ الجواب عند عتبة باب النصر بعد الفجر فجاءه في الموعد، فقال له: قل للشيخ: قال لك رسول الله ﷺ: عمِّر الجامع وتوكل على الله، ففعل: فلا أدري أكان سيدي محمد الغمري إذ ذاك لم يبلغ مقام الكمال، أو أنه يشاور بالواسطة حياء من رسول الله ﷺ، ولعل الثاني هو الواقع، فإن سيدي محمد هذا كان من المشهورين بالكمال، حتى كانوا يسمونه فقيه الصوفية من كثرة متابعته السنة، وقد قلت مرة لسيدي علي الخواص - رحمه الله - : ما شروط الاجتماع برسول الله ﷺ يقظة على الوجه الذي قررناه بحيث يصير يراجعه ويسأله عن أحواله، وعن الأحاديث التي قيل بضعفها هل قالها أم لا؟ ونحو ذلك، فقال: بين العبد وبين هذا المقام مائتا ألف مقام، وتسعمائة وتسعة وتسعون مقامًا إلا واحدًا، فلا بدّ لمن

حق له مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ أن يجاوز المقامات كلها، فهو أمر عزيز وجوده، في هذا الزمان، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين - رحمه الله - يقول: كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: لا يكمل الرجل عندنا في الطريق حتى يصير يستخرج جميع مذاهب المجتهدين من القرآن العظيم، ثم يستخرج جميع أحكام القرآن من سورة الفاتحة، ثم يستخرج جميع علوم الفاتحة من أي حرف شاء من حروف الهجاء، وهناك يصح له مقام الكمال والأخذ عن رسول الله ﷺ، وقال: وقد منَّ الله تعالى عليَّ بذلك، فاستخرجت من سورة الفاتحة مائتي ألف علم، وعلمت من كان في ظهر آدم من السعراء حال كونهم ذرات، فلا يزيدون على ما علمت ولا شخصًا واحدًا، كذلك أطلعني الله تعالى على جميع ما يفعله كل عبد حين أرى أنفه فأعرف ما وقع فيه في الماضي، وما يقع فيه في المستقبل من خير وشر.

قلت: ينبغي التسليم لكل من ادعى أن الله أطلعه على ذلك؛ لأنه ادعى ممكنًا، والله أعلم.

وقد ادعى شخص مرة بأنه يجتمع برسول الله ﷺ يقظة، فقال له سيد أفضل الدين: إن بينك وبين مقام الأخذ كذا كذا ألف مقام، ومقصودي تخبرنا بعشر مقامات منها، فتلجلج الشخص وما درى ما يقول، فقال له: تب إلى الله يا أخي فإن هذا مقام الأكابر كسيدي إبراهيم المتبولي وأضرابه، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: سمعت سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: وعزة ربي معي سبعون وظيفة، وستفرق بعدي على سبعين رجلاً ويعجزوا عن القيام بها، ومنها تحمل البلاء عن جميع أهل مصر وقراها ودوام السماط في زاويتي ببركة الحاج، والبلاء الذي يأتي من بلاد المشرق مدفوع عن أهل مصر فياوليهم إذا انقطع السماط من زاويتي وخربت، قال سيدي علي: فقلت له: فمن يأخذ بعدكم خدامة الحجرة النبوية؟

فقال: هي لمحمد بن عنان، فقلت له: وما محمد بن عنان هذا[1]؟ فقال: شاب

---

(1) هو سيدي محمد بن عنان إمام تقدم في جامع الإيمان، وعارف أشرقت بضوء شمسه الأكوان، كثير التعبد، غزير التهجد، وافر الجلالة، عليه للقبول أي دلالة، غالي التربية، علي المرتبة، لا يقاس به غيره، ولا يشبّه. وكان عظيمًا في الديانة، ممدودًا من الله بالإعانة، سلك طريق الهداية، =

وعني بالتصوف أتم عناية. أخذ عنه الشيخ المصنف، وقال: ما رأيت مثله. وكان مشايخ عصره بين يديه كالأطفال. قال: وأخبرني الشيخ نور الدين المشتولي، قال: سمعت الشيخ عبد القادر الدشطوطي يقول: محمد بن عنان يعرف طبقات السماوات وأزقتها وملائكتها. هكذا قال.

وله كرامات منها: أنه أشبع خمسمائة فقير من عجين أمه- وكان نصف ويبة- وقال: وعزة ربي، لو شئت لملأت البلد خبزًا من هذا العجين.

وأرسل نقيبه إلى الشيخ أبي العباس الغمري في المحلة بعد العشاء، وقال: لا تصل الصبح إلا عندي. فذهب وعاد، فقال له: عديت من أي المعادي؟ قال: ما درت بالي للبحر، ولا علمت به. فقال لأصحابه: طوي البحر بهمته، فلم يجده في طريقه.

وأخبر أن رجلاً يصيح في القبر الليل كله، فأتى قبره، وقرأ تبارك، فمن ذلك الوقت لم يسمع.

وأراد رجل من الشرقية أن يتزوج زوجته، فنام بعد العصر بجامع المقسم قبالة ضريح الشيخ، فرآه، فقال له: ضاقت عليك الدنيا، ما وجدت إلا فرشي؟ وطعنه بحربة في جنبه، فاستيقظ مرعوبًا، وهي بجنبه بارزة كالكبد المشوي، فحمل لبلاده، فمات في الطريق؛ وذلك لأن من خصائص جروح الفقراء أنها لا تختم قط، ولا يفيد فيها دواء، وليس فيها إلا روح صاحبها، ولا ينبئك مثل خبير.

وأرسل له أحد أهل الدولة ثماني جرار عسلاً في الوقت، فانصبّت كلها على الأرض، وضاق الوقت عن شراء عسل، فخرج إلى الخليج، وقال: اتبعوني بالجرار. فملأها كلها من الماء، فوجدوها كلها عسلاً، فطبخوا بها، فقال: الحمد لله الذي حمانا من عسل الولاة.

وأخبر بأن رجلاً زمنًا بالإسكندرية إذا غضب على رجل قال: يا قمل، رح إليه. فيمتلئ قملاً فلا ينام، ويعجز عن تنقيته، فذهب إليه، وقال له: ما رأيت تعمل إلا شيخ القمل؟ وأخذه بيده، ورماه في الهواء، فلم يعرف له خبر. وسافر هو والشيخ أبو العباس الغمري فاشتد الحر، وعطش الغمري وليس هناك ماء، فأخذ ابن عنان طاسة وغرف بها من الأرض اليابسة ماء، وقال اشرب. قال: يا شيخ محمد، الظهور يقطع الظهور. فقال : لولا خوف الظهور جعلتها بركة يشرب منها البهائم إلى يوم القيامة. وأتى برجل أكل موهيتين فسيخًا، وموهيتين تمرًا في ليلة، فألقى له رغيفًا صغيرًا في فمه، فلم تزل أكلته كل يوم حتى مات. وكانت أوقاته مضبوطة لا يصغي لكلام أحد ويقول: كل نفس مقوم علي بسنة. وغضب من أهل بلاده لعدم قبولهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقدم مصر وسكن بسطح جامع الغمري. وكان كل جامع أقام به لا يقيم إلا على سطحه شتاءً وصيفًا.

وقال عنه المصنف: كان خادم الحجرة النبوية في طريق الروحانيات، فلا يدخل أحد على المصطفى ﷺ من الأحياء والأموات إلا بإذنه. وكان من أصحاب الخطوة، والتطوير.

ذكر المرصفي أنه لم يزل واقفًا بين يدي المصطفى ﷺ وهو معتمد على قضيب أخضر مع كونه في عدة أمكنة. وكان يغزو بلاد الفرنج كل ليلة ويرجع إلى بلده قبيل الفجر ويقول: لا يكون الفقير كاملاً حتى يطوف المشرق والمغرب وهو مضطجع على جنبه. وزاره طومان باي فسمع الشيخ رجلاً من جماعته يقول لآخر: السلطان زار سيدي الشيخ. فمقته وأخرجه، وقال: إن كنت

لا ترى تعظيم شيخك إلا بزيارة السلطان فلم يحصل لك شيء من الطريق. وكان إذا خرج لحاجة يقصد المشي في الطريق القليلة الناس، وليس معه إلا من يمسك الحمارة فقط، ويغضب ممن يركب، ويمكن جماعته من المشي حوله كزفة الصبي في الختان، ويقول: هذا إما تسادج، أو طالب للظهور. وكان يخرج إلى الجنائز والمحافل بثياب مهنة، ويقول: من آداب الفقير ألاّ يغير حالة في الملبس من داره للناس إلا لحاجة بنية صالحة. قال المصنف: أخبرني أنه قام بسطح جامع عمرو ثلاث سنين، وابن طولون سنة.

وقال: كنت لا أنزل منه إلا لصلاة الجمعة، أو سماع درس الشيخ يحيى المناوي، وكان جامعًا بين طريق الفقهاء والصوفية. وسخر الله لي الدنيا مدة إقامتي بسطح جامع عمرو في صورة امرأة عجوز، فكانت تأتيني كل ليلة بإناء فيه طعام ورغيفين، وما خاطبتها قط. وقال: منذ دخلت الطريق لم أقعد على حدث قط. ومن ادعى مجالسة الله وهو يمكث على حدث لحظة واحدة فهو قليل الأدب. وقال: لا ينبغي لفقير أن يمكن من تقبيل يده إلا بعد مجاوزته الصراط سالمًا. وكان أشد الناس طهارة لذلك. وقال: من أعظم فتنة دخلت على المطاوعة معاداتهم الفقهاء، فلا معهم علم يمشون في نوره، ولا يسمعون للعلماء. فاستحوذ عليهم الشيطان حتى أمر بعضهم بالوضوء بالبول والسجود للشمس. وصار يخبره بما يقع للناس في بيوتهم، فلولا أدركته العناية باجتماعه بأبي العباس الغمري مات على كفره. وقال: ليس لفقير رأس مال إلاّ قلبه، فكل من أدخل على قلبه شيئًا يكدره من الدنيا، فما عليه من دينه. قيل له: ما يكدره؟ قال: يكون بزاوية، أو دار، فينازعه رجل، فالأدب تركها له. وشكا إليه الشمس اللقاني الوسوسة، فقال: يقال: إن المالكية ليس عندهم وسواس، فبمجرد قوله ذلك ذهب عنه. وسأله رجل: كم عدد الخواطر؟ فزجره، وقال: ما كنت أظن أن نعيش إلى زمن يصير فيها الطريق كلامًا بلا عمل. وكان لا يلقن الذكر إلا نادرًا ويقول: من يلقن الذكر لمن لا يصلح له كالمستهزئ بالطريق. وكان لا يكاد يصلي الجمعة بجامع مرتين، ويزور القرافة كل جمعة ويختم بالشافعي، ويزور الفقراء الصادقين، ويكره الفقراء المتسلقين على الطريق بالشعرة، والعذبة، ولبس الصوف. وكل من رآه عكف الناس عليه من حين زيارته. وكان إذا مرض من ينفع الناس حمل عنه المرض، فينام هو، ويقوم المريض. وكان يقول لصحبه: احرصوا على إيمانكم في هذا الزمان؛ فإنه لم يبقَ مع غالب الناس عمل يعتمد عليه غيره، وأما الأعمال الصالحة فقد تودع منها لكثرة العلل فيها. وقال: من أراد أن يسمع كلام الموتى في قبورهم فليعمل على كتم الأسرار فإن المانع من سماع كلامهم عدم القدرة على الكتمان. وكان يكره أن يتبعه جماعته إذا ركب.

ولا ينام على طراحة، ويقول: من نام عليها لا يجيء منه شيء. ويستدل بحديث الترمذي في «الشمائل»، وقال: لا ينام على طراحة إلا من عزم على النوم عن تلك المواكب الإلهية. وذكر الشيخ أمين الدين: إنه كان بناحية سلمون رجل أسود بدوي اسمه فرج يقعد بالبرية، وحوله شوك، وعنده حيوانات متعادية كقط وحمام، وفأر وحيّة، وعقرب ودجاج، وعنده جرر فيها قمح وشعير. فإذا جاءه ضيف أخذ قبضة منها وطحنها وألقاها في ماء وحركها، ووضعه له، فبعضهم يأكل، وبعضهم يستقذر، فيقول: قم، ما حصل لك شيء. وكان لا يمكن القعود عنده للحيات،

يظهر من بلاد الشرقية لا يكون في عصره أحد على قدمه في العبادة وقيام الليل وحفظ الأنفاس مع الله تعالى إلا القليل، فلا يدخل أحد من الأولياء حجرة رسول الله ﷺ بالروح أو بالجسم، حتى يستأذنه، انتهى.

ولا يلزم من ذلك أنه أفضل ممن يساويه من جميع الأولياء كما هو مشاهد في نواب الملك إذا دخل عليه أمير كبير، فافهم.

وقد كان سيدي محمد بن عنان من أصحاب الخطوة والتطوير، فأخبرني سيدي علي المرصفي: أن سيدي محمد هذا كان لم يزل واقفًا بين يدي رسول الله ﷺ وهو معتمد على قضيب أخضر مع كونه في عدة أمكنة أخرى، ومن حين كان صغيرًا وهو يغزو بلاد الفرنج كل ليلة، يرجع إلى بلاده قبل الفجر، وسمعته يقول: لا يكون الفقير كاملاً حتى يطوف الشرق والمغرب، وهو مضطجع على جنبه، انتهى.

وسمعت سيدي محمد بن عنان ﷺ يقول: كان سيدي إبراهيم المتبولي يحث أصحابه على عمل الحرفة، ويقول من لا كسب له فهو كالمرأة لا حظ له في الرجولية، وترك شخص مرة الحرفة وجلس عنده في الزاوية، فقال له الشيخ: لم تركت حرفتك؟ فقال: رأيت مرة بومة عمياء في طاقة في سقف الزاوية ورأيت صقرًا يأتها كل يوم بلحم فيطعمها، فقلت في نفسي: أتوكل على الله فإنه لا يضيعني، فقال له: ولأي شيء تجعل نفسك كالبومة العمياء؟ لم لا جعلت نفسك صقرًا تأكل من كسبك وتطعم غيرك؟ انتهى.

فإن قيل: فهل للعلوم والآداب التي يأخذها الولي عن رسول الله ﷺ على ما قررناه مرتبة الأحاديث الواصلة إلينا على يد الرواة من المحدثين؟ فالجواب: ليس لها مرتبة الشريعة الظاهرة؛ لعدم عصمة الولي في كشفه، لكن للمولى العمل بها في نفسه بعد عرضها على قواعد الشريعة وليس له أن يأمر الناس بالعمل بها، فإن قيل: فإذن

-

ويقول إذا سئل في حاجة: اقضوا حاجته، فتقضى. فزاره ابن عنان أول مرة، فقال: مرحبًا بالجنيدي. وثانيًا: مرحبًا بالأمير. وثالثًا: بالسلطان. ورابعًا: براعي الصهب. فكانت آخر تحيته.
ولما احتضر ابن عنان بسطح جامع باب البحر مات نصفه الأسفل، فصلى قاعدًا، فلما فرغ أضجعوه، فما زال يهمهم بشفتيه والسبحة بيده حتى مات، وصعدت روحه سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وعشرين سنة. وانظر: الكواكب السائرة (39/1)، شذرات الذهب (116/8)، كرامات الأولياء (174/1)، طبقات الشعراني (117/2)، والكواكب الدرية (818).

المدار على الشريعة الثابتة عندنا من طريق النقل، فأي خصوصية لما أخذه الولي عن رسول الله ﷺ بلا واسطة؟ فالجواب: وجه الخصوصية فيه زيادة اليقين بصحة ما قال بعض العلماء إنه ضعيف من الأحاديث مثلاً، أو النقول إذ لا يأتينا علم قط من طريق الكشف الصحيح إلا وهو مؤيد بالشريعة؛ لأن سائر دوائر علوم الأولياء من باطن دائرة علم رسول الله ﷺ، ومن المحال أن يوحي الحق تعالى إلى رسول الله ﷺ بأمر، ثم يسارر أحدًا من الأولياء من طريق الإلهام بخلافه، فافهم.

فهو فوق ما يراه النائم ودون شريعته الظاهرة، وقد أجمع القوم كلهم على أن الشريعة التي بين أظهرنا أصح مما يأخذ الولي من طريق الإلهام عن الله تعالى بلا واسطة، فإن إبليس قد يلبس على الولي، ويقيم له سماء أو كرسيًا أو عرشًا أو غماء مثلاً بحسب ما يعرف أن مقام ذلك الولي يصل إليه في مقام الأخذ، وما كل ولي يعرف الفرق بين السمات المتحلية مثلاً وبين المحققة، وقد أقام إبليس مرة لسيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني عرشًا حين كان قلب الشيخ عرشًا وناداه منه: يا عبدي قد أسقطت عنك التكليف، فناداه سيدي عبد القادر: اخسأ يا لعين فاضمحل ذلك العرش، فلولا أن العناية حفت السيد عبد القادر لحصل له فتنة في دينه، وفي هذا القدر كفاية من التلويح بمقام سيدي إبراهيم وأصحابه، فأقبل يا أخي على طلب التخلق بأخلاقه من غير توقف فإنها أخلاق رسول الله ﷺ بالأصالة والله أعلم.

وأما بيان الدهليز الذي يدخل العبد منه إلى مقام التخلق بأخلاق هذا الكتاب فهو السلوك على يد شيخ كامل في علم الشريعة والحقيقة[1]، ومحال أن يقدر الإنسان على صعود السطح العالي بلا سلم إلا أن تحصل له جذبة إلهية إذا علمت ذلك فاعلم يا أخي أن المريد لا يؤمر بالتخلق بأخلاق الكمال إلا بعد انتهاء سلوكه، ومن هنا وحد الأشياخ وجوبًا قصد المريد ونهوه عن الشركة في القصد من حيث أن ذلك يقنطه

(1) قال سيدي الشعراني في «الكوكب الشاهق»: ومن أخلاقهم: إذا أراد أحدهم أن يدخل في الطريق على يد شيخ أن يسأل من فضل شيخه أن يذكر له ما يجب على المريد إذا دخل في صحبة الشيخ؛ ليعرض ذلك على نفسه؛ خوفًا من الدخول في صحبته بالجهل فيسرع إليه العطب. وهذا من باب التعظيم لطريق أهل الله، والاحتياط للنفس، ويؤيد ذلك أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: «يا رسول الله، ما حق الزوج على المرأة؟ فقال لها: من حق الزوج على المرأة أن لو سال من منخره دم وقيح فلحسته بلسانها لم تؤدِ حقه..»، إلى آخر ما قال ﷺ، فقالت: «والذي بعثك بالحق نبيًا لا أتزوج ما بقيت الدنيا» انتهى.

ويبطئ سيره إلى المقصود الأعظم الذي هو معرفة الله ﷻ، وتأمل في قول العلماء بحرمة عقوق الوالدين يعني مخالفتهما فيما يطلبانه من الولد من المباحات، ثم لما أوجبوا عليه تعلم العلم الشرعي لم يلتفتوا إلى قولهما لو منعاه من ذلك لكون معرفة العبد مما يصحح عباداته ويقيم به شعار شريعة نبيه مقدمًا على غرض الوالدين، فما حرم على الولد العقوق إلا إذا كان مشتغلاً بأمر مباح أو مستحب أو مفضولاً بالنسبة إلى حق الوالدين، وقد أجمع علماء الشريعة والحقيقة على وجوب مجاهدة النفس الأبية على يد شيخ حتى تخرج عن الرعونات النفسية، وتنقاد إلى فعل الأوامر الشرعية على الوجه المأمور به شرعًا، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب اللهم إلا أن يحصل للعبد جذبة من جذبات الحق تعالى فإن مثل هذا قد لا يحتاج إلى شيخ، وكذلك أجمعوا على أن علاج الأمراض الباطنة واجب بدليل ما ورد في الآيات والأخبار عن عقوبة من كان في قلبه شيء من أمراض الباطن من حسد، ومكر، وكبر، ونفاق، وخداع، وعجب ، ورياء، وغل، ونحو ذلك في الدار الآخرة، مع ما في ذلك من منعه من دخول حضرة الله تعالى في دار الدنيا، ولو في صلاته، فيجب جزمًا على كل مكلف أن ينظف باطنه من صفات الشياطين، ويحلها بصفات الأنبياء، والعلماء، والصالحين، وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: مقصود جميع الداعين إلى الله ﷻ من المريدين أن يطابقوا في جميع عباداتهم بين ظاهرهم وباطنهم؛ ليخرجوا عن صفات المنافقين ويتخلقوا بصفات المخلصين، فهذا معظم قصدهم، فطلبوا بتسليكهم أن يلحقوهم برائحة ما كان عليه السلف الصالح من الصدق والإخلاص في جميع أعمالهم الظاهرة والباطنة مع رؤية التقصير، واتهام نفوسهم في دعوى الإخلاص بعد ذلك، وهذا الذي ذكرناه من التخلص من صفات النفاق أمر لا يهتدي الإنسان بغير شيخ إلى الخروج منه، كما أنه لا يهتدي إلى الترقي إلى مقامات العارفين ولو كان على عبادة الثقلين.

وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: لو أن مريدا عبد الله تعالى كما بين السماء والأرض بغير شيخ فعبادته كالهباء المنثور؛ لأنه لا يهتدي لمعرفة تطهيره من دسائس الأعمال الظاهرة، فضلاً عن الباطنة، بل ولا يعرف الطريق الموصلة إلى ذلك، حتى يطلب معرفة كيفية التطهير؛ لأنه طريق القوم غالبها غيب غير محسوس، ولا يكاد يدركها إلا من كشف الله تعالى حجابه، وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لو أن العبد قرأ ألف كتاب في العلم، ولا شيخ له فهو

كمن حفظ كتب الطب مع جهله بالداء والدواء، فكل من سمعه وهو يدرس كلام الحكماء يقول: إنه لطبيب عظيم، ثم إذ سأله عن اسم الداء وتنزيل الدواء عليه، ولم يجد عنده معرفة بذلك يقول: إنه جاهل، وكذلك حكم من يحفظ مثل كتاب «الإحياء» للغزالي بغير فهم ولا شيخ لا يعرف يتداوى من مرضه، ولا يداوي غيره، فعلم: أن كل من لم يكن له شيخ في هذا الزمان يخرجه من ظلمات الشكوك والأوهام، ويبغضه في شهوات الدنيا التي تحجبه عن الله تعالى، فيبدو عليه الإخلاص في شيء من أعماله، بل يرى الأعمال الخالصة وهي تقع على أيدي الصالحين فلا يقدر على الوصول إلى العمل بمثلها، ولذلك جعلت لكل عهد من عهود كتابي المسمى بـ«مشارق الأنوار القرعية» في بيان الأخلاق المحمدية دهليزًا يدخل منه من يريد التخلق بذلك العهد وكثيرًا ما أقول فيه: وهذا العهد لا يصح لأحد التخلق بشيء من أخلاقه إلا بعد السلوك على يد شيخ صادق، فإن غاية أمر من لا شيخ له في الإخلاص مثلاً أن يرى نفسه قد خلصت من الشوائب الفادحة في مقام الإخلاص من الرياء والعجب وحب الشهرة بالصلاح وغير ذلك، لكنه يطلب من الله الثواب على عمله، ولو أنه تعالى أحبط عمله ولم يعطه ثوابًا لتكدر في نفسه، وإيضاح ذلك أن كل من لم يسلك الطريق على يد شيخ حكمه حكم ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج:11] كما ورد في حديث العابد الذي عبد الله تعالى في جزيرة خمسمائة عام وقال له الحق تعالى: ادخل الجنة برحمتي فقال: بل بعملي، فلو أن هذا العابد كان سلك الطريق على يد عارف لعرف من أول ما دخل في الطريق أن العبد لا يدخل الجنة إلا برحمة الله دون عمله، وكان لزم الأدب مع الله تعالى، فإن أول ما يتجلى العبد إذا اشتغل بالذكر توحيد الفعل لله، ثم توحيد الملك لله، ثم توحيد الوجود لله، فإذا تجلى له توحيد الفعل لله تعالى، وخرج كشفًا ويقينًا عن شهود كون الفعل له، وخرج به أيضًا عن طلب الثواب عليه وعن الكبر، والعجب، الرياء، ودخل في قضاء الإخلاص لله، وما بقى له عمل يعتمد عليه، وأما من يشهد الفعل لنفسه فمن لازمه غالبًا الوقوع في سائر الآفات المحيطة له إذ لا يصدر عن الناقص إلا ناقص، وسيأتي في مواضع من هذا الكتاب أن من شرط الكامل أن يشهد أعماله كلها خلقًا لله تعالى وحده لا مدخل للعبد فيها سوى نسبة التكليف إليه لا غير، وتأمل يا أخي لو أن جارك قام الليل، أو صام النهار وأنت نائم مفطر لا تراءَ قط بفعله، ولا تعجب ولا ترى نفسك على الناس به لشهودك إن ذاك الفعل لغيرك لا لك، فكذلك

من يوحد الفعل لله كشفًا لا يصح له دعواه لنفسه أبدًا، فلا بدّ للكامل من عينين: عين ينظر بها كون الفعل لله، وعين ينظر بها نسبة الفعل لنفسه، فيشكر من جهة تلك النسبة، ويستغفر الله من حيث كسبه لما فيه من النقص، ولذلك قالوا: من نظر بعين البصيرة وجد أعماله كلها رياء ونفاقًا، وأحواله كلها دعاوى، وسمعت سيدي عليا الخواص - رحمه الله - يقول: لا يصح لعبد ذوق شيء من أحوال القوم إلا بعد أن يتجلى له التوحيد الكشفي، وهناك يطلب الشيخ ضرورة ليرقيه إلى المقامات التي شم روائحها بالتوحيد، ومادام لم يتجلَ له التوحيد فهو واقف مع نفسه لا يرى فوقه مقامًا؛ لعدم شمه وزكامه، ولو أن أحدًا دعاه إلى الرُقي لا يجيب لاستحسانه حاله، فهو كمن كان سائرًا في برية ومعه جراب من الفلوس الجدد، ثم سار فإذا هو بكوم من فضة، فأفرغ الجدد وملأه من الفضة، ثم لما سار وجد كومًا من ذهب، فأفرغ الفضة وملأه من الذهب، ثم لما سار وجد كومًا من جواهر ومعادن، كل فص يساوي مائة ألف دينار مثلاً، فإنه يفرغ جرابه من الذهب ويملأه جواهرًا وفصوصًا ومعادن ضرورة، ولو أنك قلت له: لا تفرغ أبدًا جرابك من الفلوس الجدد، ودُمْ على حمله ولا تملأه فضة مثلاً لا يجيبك وربما سفّه عقلك، كما أنه يسفّه عقلك لو قلت له قبل رؤيته كوم الفضة مثلاً: أفرغ جرابك من هذه الفلوس رجاء أنك تعثر على كوم فضة، وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: لا ينبغي لشيخ أن يأمر أحد برمي الدنيا حتى يمهد له بساطًا قبل ذلك ويعصف عليه ريح التوفيق، فإن مثال من لا يرى ما يدعوه الشيخ إليه من الخير مثال قوم ركبوا سفينة ومعهم أموالهم وأمتعتهم، فقال لهم رئيس المركب: إن في غد يهيج ريح شديدة كل من لم يرمِ متاعه غرق، فارموا متاعكم في البحر في هذا الوقت فلا يجيبه أحد، ثم إذا جاء الغد وهاجت الريح يصير كل واحد يرمي متاع نفسه طلبًا لسلامته من الغرق، ولو أنك قلت له: لا ترمِ متاعك واغرق أنت فلا يجيبك، فهكذا مثال من وقف على قدم الحجاب من الفقهاء وغيرهم، انتهى.

وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: لو لم يكن من شرف الطريق إلا أن العبد لا يعرفها بغير شيخ ولو صار شيخ الإسلام لكان فيه كفاية في علو مقدارها، ثم يكفينا في شرفها قول موسى للخضر - عليهما السلام - : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66].

فإن موسى ﷺ مع سعة علمه، وكونه نبيًا ومرسلاً طلب الإرشاد لطريق الحقيقة

من الخضر، وكذلك مما يدل على شرفها أن الإمام أحمد بن حنبل كان إذا توقف في مسألة سأل عنها الشيخ أبا حمزة البغدادي، وقال له: ما تقول في هذه المسألة يا صوفي؟ فيحل أبو حمزة إشكالها فيتعجب الإمام أحمد من ذلك، وكان يقول كثيرًا: إن القوم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة وعلو الهمة، مع أنه كان يقول لولده قبل اجتماعه بأبي حمزة: يا ولدي عليك بالحديث وإياك ومجالسة هؤلاء الذين يقولون إنهم صوفية فإنهم جهلة، ذكره ابن أيمن في رسالته قال: ولما صحب الإمام أحمد أبا حمزة أرسل له أبو حمزة في الليل جماعة من الفقراء الطيارة، فنزلوا له من دور القاعة فتحادث معهم طويلاً، وأظهروا له علومًا ومعارف لم يسمع بها قط، فاعترف بفضل أهل الطريق، فلما أرادوا الانصراف قالوا له: يا أحمد اصعد معنا في الهواء فقال: لا أطيق، فقالوا له: قد أثقلك أكل الشهوات، ثم صعدوا وهو ينظر فصار يتأسف قالوا: ولم يأكل أحمد بعد ذلك شهوة إلى أن مات، وكان إذا ضعف من الجوع يأتدم بالشحم والعدس، ويجعله في جرة ويضعه في النار، حتى يستوي، ثم يأكله، وكان الإمام الشافعي: يجالس الصوفية كثيرًا، حتى صار يعرف اصطلاحهم فقيل له مرة: لم تجالس هؤلاء مع غنائك في العلم عنهم؟ فقال: إني أسمع منهم فوائد لم أكن أعرفها، وقيل له مرة: ماذا استفدت من مجالسة الصوفية؟ فقال: استفدت منهم شيئين: قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: إن لم تشغل نفسك بالخير شغلك غيره من الشر، انتهى.

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ يقول: كل فقيه لا يعرف مصطلح القوم فهو كالخبز الجاف من غير إدام. وكذلك يكفينا من شرف طريق القوم إذعان الإمام أحمد بن شريح للجنيد واعترافه بفضله، وذلك أن جماعة من طلبته تركوا حلقته، وصاروا يحضرون حلقة الجنيد فتكدر من ذلك، ثم إنه تنكر يومًا وحضر الجنيد بين المغرب والعشاء، فقالوا له: ماذا وجدت حال هذا الرجل؟ فقال: لم أفهم من كلامه شيئًا إلا أن صولة كلامه ليست بصولة مبطل، ثم إنه أتى إليه بكرة النهار بقصد مناظرته، فكان من جملة ما قال للجنيد: طريقنا أقرب إلى الله تعالى من طريقكم، فقال له الجنيد: بل طريق أصحابنا أقرب، فقال له ابن سريج: ما الدليل على ذلك؟ فقال: إن كل إنسان لا ينطق إلا بما هو الغالب على قلبه فخذ هذا الحجر وألقه في حلقة هؤلاء الفقهاء، فذهب بالحجر وألقاه في حلقتهم على غفلة، فصاحوا كلهم: هذا حرام عليك، فلما أخبر بذلك الجنيد، فقال له: ألقه في حلقة هؤلاء الفقراء ففعل فصاحوا بأعلى صوتهم:

الله الله الله.

فرجع ابن سريج إلى قول الجنيد واعترف بفضله وتتلمذ له فقال له الجنيد: طريقكم هي أساس الصوفية التي بنوا طريقهم عليه، ولكنهم زادوا عليكم بكثرة الزهد والورع ومراعاة أنفاسهم مع الله تعالى، فلو راعيتم قلوبكم كما راعوا كنتم أنتم الصوفية وفهمتم اصطلاحهم من غير توقيف، انتهى.

وقد قالوا مرة لسيدي علي بن وفا - رحمه الله - : لم ساد الصوفية؟ فقال: لكونهم عملوا بما علموا، فإن حقيقة الصوفي عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غيره، وكذلك يكفينا في شرف الطريق طلب الإمام الغزالي له شيخًا يدله على الطريق مع كونه كان قد لقِّب بحجة الإسلام، وكذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام طلب الشيخ مع تلقيبه بسلطان العلماء، فكان شيخ الغزالي الشيخ أبو محمد الباذعاتي، وكان شيخ الشيخ عز الدين الشيخ أبو الحسن الشاذلي.

ولما ذاق الغزالي الطريق على يد شيخه قال: قد ضيَّعنا عمرنا في البطالة يعني بتأليفه «الإحياء» وغيره من كتب التصوف، ولما ذاق الشيخ عز الدين الطريق على يد الشاذلي صار يقول: مما يدلك على شرف طريق القوم ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيء من ذلك على يد فقيه ولو بلغ في العلم ما بلغ إلا أن سلك طريقهم.

وحكى اليافعي في كتابه «المنهاج» له قال: مكثت خمس عشرة سنة وأنا في نزاع من نفسي، فداعٍ يطلب مني الدوام على الاشتغال بالفقه، وداعٍ يدعوني إلى الاشتغال بالذكر وآداب الطريق، فبينما أنا يومًا أمشي في شارع من شوارع مدينة (زبيد) إذ لقيني شخص من أرباب الأحوال فقال: إلى كم أنت في علاج؟ أقبل على طريق أهل الله فإنها تجمع طريق الفقهاء وزيادة وثمرتها أشرف، فأجبته إلى ذلك، فقال: اذهب معي حتى أوضح لك ثمرة كل طريق منهما، قال: فمضيت معه إلى الزاوية، فلما جلس أرسل النقيب إلى شخص من علماء البلد وأمر الفقراء ألا يردوا عليه السلام على الفور، فلما جاءوا به قال: السلام عليكم، فلم يرد أحد عليه السلام، فقال: هذا حرام عليك، فقال له الشيخ: اجلس معنا يسيرًا، فجلس فقال الشيخ: الفقراء في نفوسهم منك شيء، فقال: وأنا أيضًا في نفسي منهم أشياء وأشار بأصابع كفه كلها فقام وهو ساخط يسب الفقراء، ثم إن الشيخ أرسل خلفه فقير من فقراء البلد، وأمرهم ألا يردوا عليه السلام ولا يفسحوا له، فلما جاء وقال: السلام عليكم، فلم يرد أحد عليه السلام فتبسم وأعاد

السلام ثانيًا وثالثًا كل ذلك وهو يبتسم، ثم جلس عند نعالهم، فقال له الشيخ: يا أخي الفقراء في نفسهم منك شيء، فقال: أنا أقول: استغفروا الله، ثم علق النعال في عنقه وعلى رأسه، فقال الشيخ لليافعي: انظر ثمرة طريق الفقراء ورياضة نفوسهم ولومهم أنفسهم بمجرد إظهار إخوانهم التشويش وهي: تبسمه حين لم يردوا عليه السلام ثلاث مرات؛ وجلوسه عند النعال، ثم جعلها في عنقه وعدم مطالبتهم بدليل على تشويشهم عليه، بخلاف ما فعل الفقيه، قال: فمن ذلك الوقت أقبلت على الاشتغال بطريق الصوفية، حتى كان أمري ما كان، وكنت قبل ذلك أقول: وهل ثمّ طريق يتقرب به إلى الله غير ما عليه الفقهاء؟ ولا أكاد أسلم للصوفية في شيء، انتهى.

ووقع لسيدي مدين[1] تلميذ سيدي أحمد الزاهد أن جماعة من طلبة الشيخ عبادة المالكي تركوا الشيخ عبادة، وتتلمذوا لسيدي مدين، فتكدر الشيخ عبادة لذلك، وصار يحط على الصوفية ويقول: هذا طريق لم يأتِ بها كتاب ولا سنة، فلما عمل الشيخ

---

(1) هو سيدي مدين الأشموني، خليفة سيدي أحمد الزاهد. كان له في التصوف يد طولى، وإذا تكلم في الطريق بلغ المريد مرامًا وسؤلا . أصله من ذرية الشيخ أبي مدين، فرحل من المغرب جده الأدنى-وهو مغربي فقير- فأقام بطبلاي بالمنوفية، فولد له بها والد مدين، ودفن علي بطبلية؛ ثم انتقل إلى أشمون، فولد له بها مدين، فاشتغل بالعلم حتى صار يفتي، ثم تحرك لطلب الطرق، فخرج يطلب شيخًا بمصر، فوافق خروجه خروج الشيخ محمد الغمري يطلب مطلوبه، لقيهما رجل من أرباب الأحوال فقال: اذهبا إلى أحمد الزاهد، فتحكّما على يديه، ولا تطلبا الأبواب الكبار-يعني الشيخ محمد الحنفي- فدخلا على الشيخ الزاهد فلقنهما وأخلاهما، ففتح على مدين في ثلاثة أيام، وعلى الغمري بعد خمس عشرة سنة، وقيل أنه بعد موت الزاهد تبع الحنفي، فكان عليه فطامه، وأنكره بعضهم. وكان صاحب الترجمة صاحب همة، وله عز في الطريق وعزمه، انتفع به خلق كثير من العلماء والصلحاء والفقراء والأجناد وغيرهم، وقام من بعد شيخه الزاهد في زاويته خليفة على جماعته، وانتصب للتربية وتلقين الذكر، واشتهر صيته، وقصد من الأقطار، وكثر مريدوه وعظم معتقدوه من جميع الطوائف. ومع ذلك، ما سلم من الكلام لصحبته الأمراء، وقبوله ما جاءه، وعمّر له الكمال البارزي وأخته خوند مغل، زاويته التي دخل بها بقرب جامع الزاهد عمارة حسنة، ووقفوا عليها أوقافًا معتبرة. وكان لا يخرج من بيته إلا لصلاة أو بعد عصر كل يوم.

ولم يزل دأبه ذلك إلى أن حوّمت عليه المنية، وعظمت فيه على الملمّين الرزية، في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثمانمائة، وصلى عليه بالشارع من المقسم في محفل عظيم جدًا، ثم أعيد إلى زاويته فدفن بها، كذا ذكره جمع مؤرخونا نظر: طبقات الشيخ الشعراني (101/2)، طبقات الشاذلية (129)، الضوء اللامع (150/10)، الكواكب الدرية (731).

مدين مولده الكبير وامتلأت الزاوية من العلماء والأكابر أرسل سيدي مدين خلف الشيخ عبادة، وقال للقاصد: قل له: فلان يسألكم في الحضور ليحصل له بركتكم، فجاء الشيخ عبادة فأمر سيدي مدين الجماعة ألا يفسحوا له ولا يقوموا، فجلس في صحن الزاوية متكدرًا نادمًا على مجيئه، فرفع سيدي مدين رأسه وقام إلى الشيخ عبادة، ومسكه بيده وأجلسه بجنبه ولاطفه حتى خمدت أخلاقه، ثم قال له: سيدي هل يجوز لمسلم أن يقوم في مذهبكم لمشرك مع عدم الخوف من شره؟ فقال: عندنا لا يجوز ومن قام له فسق، فقال له سيدي مدين: فالله عليك أما تكدرت من عدم القيام لك؟ فقال: نعم، فقال: كيف تقوم لمن يقول لنا قوموا لي كما تقومون لله رب العالمين؟.

وقد قال رسول الله ﷺ: « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1] فدارت هذه الكلمة فيه، ثم قام منتصبًا ونادى بأعلى صوته: أشهدوا عليَّ يا جميع من حضر أنني أسلمت إسلامًا جديدًا على يد سيدي مدين، ثم قبَّل رجل الشيخ، وتلقن عليه في ذلك المحفل، ولم يزل يخدم الفقراء عنده، وترك جميع وظائفه إلى أن حضرته الوفاة، فأوصى أن يدفن تحت عتبة تربة فقراء سيدي مدين بسوق الخشب، ففعلوا فهو مدفون تحتها الآن تواضعًا للفقراء وهضمًا[2] لنفسه، وكان يقول في حياته: لولا سيدي مدين لربما كنت من أهل النار الذين هم أهلها، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من فوائد الشيخ اختصار الطريق على المريد، وإراحته من شدة التعب من غير ترقي، فهو كما قال سيدي عمر بن الفارض - رحمه الله - في حق من لا شيخ له:

رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحب دعوًا فما ابتلوا

فهم في السرى لم يبرحوا عن مكانهم وما ظعنوا في السير عنه وقد كلُّوا

وقال سيدي علي بن وفا في حقهم أيضًا تسبحوا من قبل أن يولدوا؛ أي: لأن أول عمر العبد ولادته في الطريق، فمن لم يدخل طريق القوم فكأنه في بطن أمه لم يولد.

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير (272/14)ولفظه: (مَنْ سَرَّهُ).

(2) في المطبوعة: (وهضمها)، والصواب ما أثبت.

ومن كلام المسيح عيسى ﷺ للحواريين: بحق أقول لكم: لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين، انتهى.

فإن حكم المريد بلا شيخ حكم من يريد أن يدخل في زقاق لا يدري هل ينفذ أم لا؟ فهو يدخل فيه إلى آخره فإذا رآه مسدودًا رجع، ولو أنه كان سأل أحدًا ممن له معرفة بالزقاق لقال له من أول دخوله: ارجع فإن هذا زقاق مسدود، فكان يريحه من التعب بغير منفعة، ومثل ذلك واقع للمريد الذي لا شيخ له، فإن أعماله في الغالب كالدرب المسدود؛ لاحتفافها بالعلل والآفات القادحة في الإخلاص المانعة من الترقي، فافهم انتهى.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي - رحمه الله - يقول: طلب الشيخ في الطريق واجب على كل مريد ولو كان من أكابر العلماء، وكان يقول: لو أن طالب العلم كان يأتي بالمأمورات الشرعية على وفق ما أمر به من الإخلاص لما احتاج إلى شيخ كما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، لكنه أتى بها محتفة بآفات وعلل تقدح في صحتها أو قبولها، فلذلك احتاج المريد إلى شيخ يبين له العلل والآفات التي في أعماله، فلا يقال: لو كان علاج هذه الأمراض الباطنة واجبًا لوضع السلف الصالح من التابعين والأئمة المجتهدين كتبًا في ذلك، ولم نر لهم كتابًا واحدًا في ذلك.

لأنا نقول: إن هذه الأمراض التي حدثت في أهل زماننا لم تكن ظاهرة في عصر السلف، ولو أنها ظاهرة فيه لاستنبط المجتهدون في ذلك كتبًا كما فعلوا في أحكام الدين الظاهرة، بل أولى لما هم عليه من الخشية لله ومراعاتهم أنفاسهم معه تعالى، ولا يقول عاقل قط: إن أحدًا من الأئمة ينظر عند أحد كبرًا أو نفاقًا أو رياء ويقره عليه أبدًا، بل كان يستنبط له الدواء من الكتاب والسنة ليخرجه من تلك الكبائر التي توعَّد الله تعالى عليها بالنار، وأيضًا فإن الأئمة المجتهدين ﷺ كانوا مشغولين بما هو أهم وأعم نفعًا للإسلام وللمسلمين وهو: جمع أدلة الشريعة وتحريرها بعد تفرقها في البلاد وظهور تناقضها، وكان مع كل طائفة من الناس شيء منها، ولا شك أن هذا أمر أهم من الاشتغال بعلاج بعض أمراض في بعض الناس فلولا، جمع الأئمة للأدلة والبحث عن ناسخ الأحاديث ومنسوخها وعامها وخاصها لما عرف أحد يمشي في طريق الظاهر ولا الباطن؛ لأن تلك الأدلة هي مادة موازين الأعمال والأقوال في طريق الشريعة والحقيقة، ثم لما تعددت أدلة الشريعة كما ذكرنا وتمهدت قواعدها قيَّض الله تعالى

لطريق الباطن أقوامًا كالحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي، وأبي القاسم القشيري وغيرهم، فصنفوا في علاج أمراض الباطن كتبًا، واستدلوا على بطلان عبادة كل من لم يوافق باطنه لظاهره فيها بأدلة قاطعة كحديث: «كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] فشمل الأعمال الظاهرة والباطنة، فكما أبطل علماء الشريعة الصلاة لمخالفة أفعال الصلاة الظاهرة كذلك أبطلها علماء الحقيقة بمخالفة الأعمال الباطنة، فإن قوله ﷺ «ليس عليه أمرنا» شامل، لذلك فهل كان ﷺ يرائي بعبادته أو يتكبر بها أو يعجب؟ لا والله فكما أنه معصوم كذلك من يتبعه يكون محفوظًا، فامتحن يا أخي جميع أحوالك بهذا الميزان تجد جميع ما ورد من الثواب في عمل من الأعمال إنما هو في حق من أخلص فيه دون من دخله الدخل من الرياء والنفاق مثلاً، فعلم من جميع ما قررناه أن يجب على من غلب عليه مرض من الأمراض الباطنة من عجب أو كبر أو حسد أو رياء، أو غل أو حقد أو مكر أن يطلب له شيخًا.

وإن لم يجده في بلده وجب عليه السفر إليه، وإن من رزقه الله تعالى سلامة الباطن من هذه الأمراض المهلكة كالأئمة المجتهدين وأضرابهم لا يحتاج إلى شيخ في الطريق؛ لأن هذا قد عمل بما علم وفق السنة، وهذا هو غاية ما يطلب بالسلوك كما مر أول المبحث.

قال الإمام القشيري - رحمه الله - : وأول ما حدثت هذه الأمراض الباطنة أواخر المائة الثالثة لقوله ﷺ: «خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[2] فمن شهد له ﷺ بالخيرية فقد حاز رتبة الكمال، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: كان لأهل القرن الأول كمال الإيمان، ولأهل القرن الثاني كمال العلم، ولأهل القرن الثالث كمال العلم، ثم تغيرت الأحوال والمراسم في أكثر الناس، فاجتمع رأي العلماء العاملين على تسمية

---

(1) رواه البخاري (60)، ومسلم (4590).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة (6/404، رقم 32407)، وأحمد (1/434، رقم4130)، والبخاري (2/938، رقم 2509)، ومسلم (4/1962، رقم 2533)، والترمذي (5/695، رقم 3859) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (2/791 ، رقم 2362). وأخرجه أيضًا: النسائي في الكبرى (3/494، رقم 6031)، وأبو يعلى (9/40، رقم 5103)، وابن حبان (16/205، رقم 7222)، والبيهقي (10/ 45، رقم 19696)، والطبراني (10/165، رقم 10338).

كل من جاهل نفسه وتبع سلفه الصالح في الأعمال والأقوال صوفيًا، ومن نزل عنه في المقام عابدًا، ومن نزل عن ذلك عاميًا، وقارئ يعني: يتلو القرآن، ولا يطالب نفسه بالعمل بما فيه، بل قنع في الغالب بتلاوته والعمل ببعض أحكامه دون بعض، ولم تزل الناس يتنازلون في كل قرن إلى أن صاروا كما ترى، وربما ادعى بعضهم أنه على قدم السلف في أحواله لجهله بأحوالهم، بل سمعت بعضهم يقول في مجلسه: لو أدركت بحمد الله الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وسفيان الثوري، ومالك بن دينار، وبشر الحافي لسلكتم الطريق، ولكنا لم ندركهم فماتوا بحجابهم، انتهى.

وهذا القول من قائله زور وبهتان، وهو فوق الجنون بطبقات، مع أنه أبلغني أن هذا القائل يفطر في شهر رمضان في بيوت المساكين، ولو علمت أن يهتدي لقول مثلي لبينت له أنه لا يصلح أن يكون تلميذًا لأحد من هؤلاء الأشياخ الذين ذكرناهم، وقد بلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يأكل الطعام حتى يفتشه إلى عاشر يد يتداول عليه في الحل، فإن لم يجد الأيدي العشرة تداولت عليه في الحل امتنع من أكله وطوى، وبلغ من ورعهم أن أحدهم لم يأكل من سمك الدجلة بعد أن نقص جندي سفرته فيها للسمك إلى أن مات، وكان كل واحد يقول: يحتمل أن هذه السمكة أكلت من ذلك الفتات أو أحدًا من أمهاتها، وبلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يأكل من زرع أرضه بعد أن دخلت بهيمته طين جاره في المطر ورجعت إلى أرضه؛ وفي قوائمها من طين الجار فاختلط بطينه، وبلغ من ورعهم أنهم كانوا لا يمشون في ظل عمارة أحد من الولاة أو حاشيتهم فضلاً عن الجلوس فيه أو في ذلك البناء، وبلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يسقي دابته من بئر حفرها أحد من الظلمة إلا لضرورة كأبيار طريق الحجاز ونحوها مما تركه يفضي إلى الهلاك، وبلغ من ورعهم أن جماعة إبراهيم بن أدهم كانوا يحصدون بالأجرة إلى آخر النهار؛ ثم يردون تلك الأجرة على صاحبها، ويقولون: نخاف أن نكون ما بذلنا طاقتنا وجهدنا في الحصاد هذا اليوم، ثم ينامون طاويين، وجاءوا يومًا من الحصاد وكان باب فرنهم قد تهدم بعضه فوجدوا شخصًا أصلحه لهم يخبزوا فيه بعد ذلك، لأجل الطين الذي لطخه به، وبلغ من ورعهم أنهم كانوا تركوا الأكل مما وصلت إليه يد بني آدم مطلقًا وصاروا يأكلون من حشيش البراري إلى أن صار بدن أحدهم ترى خضرة البقل من ظاهره، وبلغ من عقوبة أحدهم على شربه من ركوة جندي في طريق الحجاز أن قلبه قسى عليه ثلاثين سنة حتى صار لا يستلذ بعباده مع صيامه الدهر، ثم نودي في سره بعد ثلاثين سنة: الآن قد خلصت

من تبعة تلك الشربة، وبلغ من ورعهم أنهم كانوا يقولون لأصحابهم: إياكم أن تقتدوا بنا في جميع أحوالنا، فإننا قد خلطنا في أحوالنا وأعمالنا، وبلغ من ورع جدي الشيخ علي الشعراوي - رحمه الله - أنه لم يأكل من عسل النحل ببلده إلى أن مات بعد أن قال له أهل البلاد المجاورة: أن نحل بلدكم يأكل زهر فواكهنا، فاستفتى له والدي شيخ الإسلام يحيى المناوي فقال: هذا تنطع، فقال له جدي: بل هو ورع، فقال شيخ الإسلام: قد قال الله تعالى وهو المالك الحقيقي للنحل: ﴿كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: 69] فقال له جدي: إن هذا محمول على الثمرات المباحة دون المملوكة، وقد رأيت أهل الزهد لا يسمحون بذلك، فقال شيخ الإسلام: إن الحق أطلق، فقال جدي: للعبد أن يترك الحلال إذا شاء، وكذلك بلغ الناس من خوف السلف من الله تعالى: أن أحدهم كانوا يشمون جوفه رائحة الكبد المشوي منهم أبو بكر وعمر المشهود لهما بالجنة، ومنهم سفيان الثوري، والحسن البصري، وعطاء السلمي، وكانوا إذا اسمعوا شيئًا من أحوال القبر أو يوم القيامة يمكث أحدهم الأيام والليالي يبكي ولا يأكل ولا يشرب، وخرج الحسن البصري في جنازة فلما رآهم وهم ينزلون الميت صاح وخر مغشيًا عليه فما رجعوا به إلى بيته إلا في النعش، وبكى عمر بن عبد العزيز ليلة حتى جرت دموعه ونزلت من ميزاب غرفته، وكان يغلب عليه البكاء فيصير يرش دموعه على الأرض حوله حتى يأتي الرجل فيظن أن ذلك ماء الوضوء، وبكى الفضيل، وبشر الحافي، وسفيان الدم بعد نفاذ الدموع، ولما مرض سفيان ذهبوا ببوله إلى حكيم من اليهود فقال: هذا بول رجل قد قطع الخوف من الله تعالى كبده، ثم مات سفيان بعد ثلاثة أيام، وكان السري السقطي ﷺ كلما استيقظ من نومه يبادر إلى مسح وجهه بيده، فقيل له في ذلك فقال: أخاف أن يكون الله تعالى قد مسخ صورتي لسوء ما أتعاطاه من الأعمال، وكان معه مرآة لم يزل كل قليل ينظر وجهه فيها ويقول: إني أخاف أن يحول الله صورتي صورة خنزير، وكثيرًا ما كان ينظر كل قليل إلى أنفه ويقول: إني أخاف أن يكون وجهي قد اسود من المعاصي، ولما مرض قال لأصحابه: أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد مخافة ألا يقبلني قبري فافتضح، وكذلك بلغنا عن شيخه معروف الكرخي، وكان مالك بن دينار لا يخرج مع الناس في الاستسقاء، ويقول أخاف أن يمطر السماء عليهم حجارة بسببي، وأخرجوه مرة مكرهًا فقال: أنتم تستبطئون المطر وأنا استبطئ الحجر، وكان سفيان الثوري إذا مرت به سحابة وهو يملي الحديث يقطع الحديث،

ويقول: اصبروا حتى تمر، فإني أخاف أن يكون فيها حجارة ترجمنا بها، وطلب جماعة كرامة من سيدي عبد العزيز الديريني ﷺ[1] فقال: وهل ثم لعبد العزيز كرامة في القرن السادس أعظم من أن الله تعالى يمسك الأرض تحت رجله إذا مشى ولم يخسفها به؟ ثم قال: والله ما أرفع رجلي عن الأرض ثم أضعها وأرى الأرض ثابتة تحتها وفي عيني قطرة، انتهى.

وكان آخر من أدركته أنا على هذا القدم، سيدي علي الضرير النبتيتي، وشيخ الإسلام زكريا، وسيدي علي الخواص، وسيدي محمد بن عنان، والشيخ

---

(1) هو سيدي عبد العزيز بن أحمد الديريني، عالمٌ عامل، وأديبٌ كامل، وعابدٌ يمنه شامل، وزاهدٌ يشار إليه بالأنامل.

كان حسن الأقوال، جميل الصفات والأحوال، علي المقامات، جلي الكرامات، له الأحوال المذكورة والخوارق المشهورة.

أخذ عن ابن عبد السلام وغيره ممن عاصره، وصحب ابن أبي الغنائم، وتخرّج به، وتكلم على الناس، وغلب عليه الميل إلى التصوف، واشتهر بذلك، ونظم التنبيه، والوجيز، وغرائب القرآن، والسيرة النبوية، وعمل تفسيرًا منظومًا في مجلدين.

وكان متقشفًا مخشوشنًا، سليم الباطن جميل الأخلاق، لما دخل المحلة كانت عليه عمامة متغيرة اللون، فظنها بعض الناس زرقاء فقالوا له: تشهد فتشهّد، فنزع عمامته، وقالوا: اذهب للقاضي، تسلم على يديه، فذهب، فلما رآه القاضي قام إليه، وقبّل يديه وقال: ما هذا؟ قال: قالوا لي تشهد فتشهدت، وقالوا امض للقاضي فجئت، فماذا؟ وكان مقيمًا بالريف، ينتقل من بلد إلى بلد، ويقصد للزيارة من كل قطر. وكان كل كتاب يصنفه في بلد يتركه فيها، ولا يحمله.

وطُلب منه كرامة فقال: وأي كرامة لعبد العزيز أعظم من أن الله يمسك به الأرض، ولم يخسفها به، وقد استحق ذلك، والله ما أرفع رجلي وأضعها على الأرض، وأجدها ثابتة، وفي عيني قطرة.

وكان يحسن علم الكلام على مذهب الأشعري، ويقرره أحسن تقرير، وله فيه عدة قصائد وأراجيز.

ومن تصانيفه: كتاب «طهارة القلوب في ذكر علام الغيوب» وهو حسن، وكتابا «أنوار المعارف»، «وأسرار العارف» كلاهما في التصوف، و«شرح الأسماء الحسنى»، و«الوسائل والرسائل في التوحيد»، وغير ذلك.

ومن كلامه: إلهي، عرفتنا بربوبيتك، وغرقتنا في بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعمتنا بذكرك وأنسك.. إلهي، إن ظلمة ذنوبنا لأنفسنا قد عمّت، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمّت، فالعجز شامل، والحصر الحاصل، والتسليم أسلم، وأنت بالحال أعلم.

وله مناجاةحسان، قال ابن حبيب: ومؤلفاته تدل على إعانة إلهية. وانظر: طبقات السبكي (8/ 199)، الوافي بالوفيات (468/18)، طبقات الأولياء (447)، طبقات الشعراني (202/1)، كرامات الأولياء (72/2).

عبد الحليم بن مصلح، والشيخ علي النجدي، وأخي أفضل الدين، كان كل واحد من هؤلاء يغلب عليه البكاء والخوف، فيصير يتمرغ في الأرض كالطير المذبوح، وبلغ من هضمهم نفوسهم مع شدة إخلاصهم وكثرة أعمالهم أن أحدهم كان يقول: من أراد أن ينظر إلى مراءٍ فلينظر إليَّ، وقالت امرأة لمالك بن دينار يومًا: يا مرائي، فقال: لقد عرفت يا هذه اسمي الذي أضله أهل البصرة فلم يعرفوه، وقال له شخص يومًا: يا شيخ السوء فقال: ما أبعدت عن صفتي، وبلغ من شدة مراقبتهم الله تعالى، وإقبالهم على عبادته أن أحدهم كان يصلي الصبح بوضوء العشاء الأربعين سنة وأكثر، وكان أحدهم يمكث السنة وأكثر لا يخطر في نفسه الطعام إلا إن أحضروه بين يديه، وقال أبو القاسم الجنيد مرة للشبلي: يا أبا بكر إن خطر في بالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فلا تعد قانتًا، فإنه لا يجيء منك شيء في الطريق، وكان لا يجتمع بالجنيد إلا يوم الجمعة فقط، وكان سهل بن عبد الله التستري - رحمه الله - يقول لي: منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالى، والناس يظنون أني أكلمهم، ومكث الشيخ عبد القادر الجيلي في بداية أمره سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام كما أخبر بذلك عن نفسه، وممن أدركته على هذا القدم مرشد مكث خمسين سنة لم يزد على زبيبة كل يوم كما أخبر بذلك عن نفسه، وكان الشيخ تاج الدين الذاكر[1] يمكث على الوضوء الواحد من يوم الجمعة إلى الجمعة،

---

(1) هو سيدي تاج الدين الذاكر المديني، إمام حسن تاجه، وفتح له من التصوف رتاجه، وأنارَ بدرُ دُرِّ كلامه، وتبرج زهر نثارهِ ونظامه. كان صوفيًا مجيدًا واعظًا مفيدًا، عليه مهابة وخفر، وجمال وبهر، بحيث كان وجهه كأنه قطعة قمر، وكان معروفا بالفضيلة، موصوفًا بسلوك الطريق الجميلة، وكان يفرش زاويته بلبابيدَ سود لئلا يسمع الفقراء الذين بالخلوة وقع أقدام المشي، ويقول: حضرة الفقراء، ولا ينبغي أن يكون في حضرة الحق علو صوت، ولا حركة لها حس.

وكان في تلامذته كثرة من أمراء وغيرهم، كثير الشفاعة عند السلطان فمن دونه، دائم الطهارة، لا يتوضأ إلا في كل سبعة أيام.

قال الشعراني: وهذا أمر ما ظهر عن أحد من مشايخنا إلا أن يكون الجارحي- رحمه الله- فإنه بلغنا أنه كان يمكث رمضان بوضوء واحد، وأقام خمسًا وعشرين سنة لا يضع جنبه على طراحه، إنما ينام قاعدًا على حصير.

لما قيل له: من بعدك في الطريق؟ قال: الطريق تعرف أهلها، ولو هربوا منها تبعتهم، وغير أهلها، وإن تبعوها فرّت منهم.

مات سنة اثنين وعشرين وتسعمائة، ودفن بزاويته بقرب حمّام الدود، حين سافر الغُوري لقتال ابن عثمان. انظر: الطبقات الكبرى (129/2)، والكواكب الدرية (766).

وكان لا يدخل الخلاء إلا كل خمسة عشر يومًا مرة، وسائر وضوئه إنما هو تجديد كما أخبرني بذلك خادمه الشيخ عبد الباسط الطلخاوي، وكان يقول: كان الإمام الأوزاعي ﷺ لا يدخل الخلاء إلا كل شهر مرة، فرقت بطنه فصار يدخل كل خمسة عشر يومًا مرة، فكانت والدته تقول لأصحابه: ادعوا لعبد الرحمن فإنه مبطون.

وكانت هي كذلك لا تدخل الخلاء إلا في كل ثلاثين أو أربعين يومًا، وكذلك بلغنا عن الإمام مالك، والإمام البخاري أنهما كانا لا يدخلان الخلاء إلا كل ثلاثة أيام، وكانا يقولان: والله استحينا من الله تعالى، من كثرة ترددنا إلى الخلاء في كل ثلاثة أيام، وبلغ من حيائهم أنهم كانوا يرخون الطيلسان على وجوههم من الحياء، حتى لا يراهم أحد من الناس ولا يرونه، فقل لهؤلاء المدعين الذين جلسوا في زماننا هذا بغير إذن من أشياخهم: بالله عليكم هل شممتم رائحة من ورع هؤلاء القوم، أو خوفهم من الله، أو هضمهم نفوسهم؟ لا والله ما شم أحد منهم ذلك إنما هي دعاوى كاذبة، ولو أن هؤلاء كان لهم شيخ لبيّن لأحدهم عيوبه ونقائصه، وكان يخاف من الله تعالى أن يدعي كمال مقام الإسلام فضلاً عن غيره، وقد درج السلف الصالح الذين لم ندركهم، ومن أدركناهم من مشايخ مصر على هضم نفوسهم مع شدة الاجتهاد في العبادة ليلاً ونهارًا حتى لو أنه قيل لأحدهم: غدًا تقوم القيامة ما وجد زيادة من استغراقه الزمان كله بالعبادة، ومع ذلك كان الحسن البصري يقول: والله لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب لقلت له: صدقت يا أخي لا تكفر عن يمينك، وسُئِل الإمام أبو حنيفة عن الأسود وعلقمة أيهما أفضل؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم، فكيف نفاضل بينهم؟.

وقال رجل لإبراهيم التيمي: ما تقول في هذه المسألة يا فقيه؟ قال إبراهيم: والله إن زماننا صار مثلي فيه ينادى بالفقيه لزمان سوء، وبلغ مالك بن دينار أن بعض الناس يصفه بالصلاح فقال: والله إن زمانًا صار مثلي فيه موصوفًا بالصلاح لزمان ما بقى لأهله صلاح، وكان ابن أبي رواد يقول: إذا ذكرت أحوال الصالحين بين أمثالنا افتضحوا.

فعُلِم من جميع ما قررناه من أحوال السلف الصالح: أن غالب هؤلاء المدعين الذين برزوا في هذا الزمان عن طريق الصالحين بمعزل، وما بسطت لك يا أخي هذا المحل إلا مبالغة في زجر هؤلاء المدعين عن الدعوى لإرادة الطريق فضلاً عن كونهم من المشايخ فضلاً عن كون أحدهم قطبًا، وقد أفتى بعض المتأخرين بأنه لا يجوز لنا الاقتداء بغالب هؤلاء المشايخ الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن العاشر، ولا

الوقوف عند أقوالهم؛ لجهلهم بقواعد طريق القوم، فإن من قواعدها التضلع من الكتاب والسنة حتى يصير يقطع مشايخ الإسلام بالحجج في مجلس المناظرة، وأما هؤلاء فهم كما ترى لعجز أحدهم أن يقرأ مثل كتاب أبي شجاع في الفقه، وعلم التصوف الذين يزعمونه، فقد أجمع مشايخهم على أنه مشيد بالكتاب والسنة كما سيأتي بيانه أوائل ذكر الأخلاق، في الباب الأول إن شاء الله تعالى. والحمد لله رب العالمين.

ذكر أن القوم يبلغون درجة الاجتهاد المطلق

فاعلم - رحمك الله - أن هذا المقام يبلغه المريد في حال سلوكه قبل أن يصل إلى درجة الكمال كما صرّح بذلك الشيخ محي الدين في باب صلاة الجنائز من كتاب «الفتوحات».

وإذا بلغ المريد مقام الاجتهاد هل يعمل بما ظهر له أو يقف عند شيخه؟ الذي أراه أنه يقف عند قول شيخه؛ لارتفاع شيخه عن الظن بوصوله إلى علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، انتهى.

ثم أن المريد يرتقي من مقام الاجتهاد في الأحكام الظاهرة إلى الاجتهاد المطلق في الأحوال الباطنة، فلكل عبادة عنده شروط في مقام الإسلام والإيمان، والإحسان والإتقان يخالف شروط المقام الآخر كما أن لهم في مقام الاجتهاد في طريق علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين أركانًا وشروطًا، وسننًا وآدابًا تخالف ما في العلم الآخر، فللوضوء والصلاة، والزكاة والصيام، والحج في كل مقام شروط وأركان تخصه لا يمكن العبد أن يرقى إلى ما بعد ذلك المقام حتى يعرف تلك الشروط والأركان، وهذا أمر ما رأيت أحدًا نبّه عليه إلا إن كان ذلك وقع ولم يبلغنا، ومن تأمله وجد كثيرًا من مشايخ هذا العصر من قسم العوام، وإنما فتحت لك يا أخي هذا الباب ليقل إنكارك على القوم إذا رأيت لهم كلامًا لم تفهم معناه، فتجعله من جملة ما استنبطوه باجتهادهم في طريق الباطن من علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، ولما صنعت كتابي المسمى بـ«أسرار الطريق» لم أجد له ذائقًا من إخواني إلا القليل، فأشعت في مصر أني غسلته حتى سكنت نفوسهم مع أنه كله حقائق، وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا ينبغي لأحد الإنكار على شيء من كلام القوم إلا إن رآه مخالفًا لصريح الأحاديث وقواعد الشريعة، وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا - رحمه الله - يقول: لا

يخلو كلام القوم من ثلاثة أحوال: إما أن **يوافق صريح السنة**: فهذا لا كلام لأحد فيه، وإما أن **يخالف صريح السنة**: فهذا لا يجوز لأحد العمل به، وإما أن **لا يظهر لنا موافقته ولا مخالفته**: فأحسن أحواله للوقف، انتهى.

وحيث علمت أن في القوم مجتهدين في طريقهم فسلِّم لهم يا أخي ما أدى إليه اجتهادهم كما تسلم للمجتهدين في الشريعة الظاهرة من غير مطالبتهم بدليل، لاسيما ما حكوا فيه الإجماع، وإياك أن تقول كما يقول القائل: هذا منزع صوفي كهيئة المتبرئ منه، فإن ذلك سوء أدب. وإن كنت ولا بدّ قائلاً ذلك فقل عقبه: لا نطيق المشي عليه، فإن ما شرطوه محمود بلا شك، وكل عن مقام يتكلم، فمما شرطوه في صحة الوضوء والغسل: ألا يكون على عضو من أعضاء التطهير لمعة من المعصية الباطنة والظاهرة ولا بقية ميل إلى معصية، وذلك بالتوبة النصوح عند غسل كل عضو ليطهر العضو باطنًا وظاهرًا، ومن كان عليه بقية ميل إلى تلك المعصية المتعلقة بذلك العضو، فوضوؤه باطل عندهم، ومما شرطوه في الصلاة الخشوع، وإن كان لا يشتغل عن شهود الحق تعالى بقلبه فيها إذا تدبر في معاني الآيات، وقالوا: إنما أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن؛ ليجمع بذلك قلوبنا عليه لا ليفرقنا بوجه من الوجوه فآية تذهب بنا إلى الجنة، وآية تذهب بنا إلى النار، وآية تذهب بنا إلى تخيل قوم نوح وما جرى لهم، وقوم موسى وما جرى لهم، فإذا تخيلهم المصلي في ذهنه حُجِب بذلك عن الله تعالى، وإذا تعارض عندنا أمران راعينا الأفضل منهما، ولاشك أن الإقبال على مشاهدة الحق تعالى أعظم من الإقبال على أحكامه وعباده، وقد قالوا: من شأن النفس عدم القدرة على اشتغالها بمراعاة شيئين معًا في آنٍ واحدٍ بحيث لا يشغلها أحدهما عن الآخر، انتهى.

فإن مدَّ الحق تعالى بعض أوليائه بالقوة على مراعاة شيئين في آنٍ واحدٍ فذلك فضل عظيم من الله تعالى، ومما شرطوه أيضًا في صحة الصلاة: ألا يكون في باطن العبد غل، ولا حقد ولا مكر ولا بغي، ولا شحناء ولا رياء، ولا نفاق، ولا عجب، ولا كبر، بل يكون طاهرًا مطهرًا من هذه الأمراض كلها، ويجمعها كلها محبة الدنيا، فكل من رجَّح الذهب على التراب فصلاته باطلة عندهم إلا إن كان الترجيح من حيث الحكمة التي جعلها الله فيه دون التراب، فإن الله تعالى شرَّف الذهب على التراب من حيث المعاملة به لا غير، وإلا فالتراب أب للذهب وغيره من سائر ما خلق منه أو استخلص منه، ويتفاوت الناس في هذه الطهارة، فمنهم من يؤاخذ بخطور شيء من أمراض الباطن على قلبه في الصلاة، ومنهم من يسامح بيسير الحقد أو العجب مثلاً،

ومنهم من لا يسامح على صورة النجاسة الظاهرة على البدن على حد سواء، بل مراعاة الطهارة منها في الباطن أولى؛ لأنها محل نظر الله ﷻ كما ثبت في صحيح مسلم مرفوعا: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[1]، ومنهم من يشترط في صحة الحضور مع الله من حين يحرم إلى حين يسلم، ومنهم من لا يشترط في حقه إلا الحضور في أكثرها فقط، ومنهم من يسامح بالغفلة في قيراط من أربعة وعشرين قيراطًا، ومنهم من لا يسامح به وهكذا، ومنهم من إذا سلم من صلاة الفرض يستمر معه الحضور مع الله الصلاة التي بعدها كالملامتية من الأولياء الذين هم على قدم أبي بكر ﷺ، ومنهم من يستمر معه الحضور بعد سلامه إلى أواخر وقت تلك الصلاة، ومنهم إلى الدرجة أو الدقيقة.

فعُلِم أنه من يصدق على من دام حضوره إلى الصلاة الآتية أنه من: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝ ﴾ [المعارج:23] ويؤيده حديث «**إن أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة**»[2] كما أن المراد ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ من يفتح صلاة أخرى كلما حصل عنده غفلة عن الله.

وعُلِم أيضًا أن من يستمر معه الحضور إلى الصلاة الآتية لا يطالب بكثرة النوافل؛لأنه لا معنى للاشتغال بالقيام والجلوس في حضرة الشهود، معلوم أن سائر العبادات ما شرعت بالأصالة إلا ليحضر العبد فيها مع ربه ويصير مشاهدًا له، وهذا المعنى قد حصل له بصلاة الفريضة، ومن هذا قلت نوافل الملامتية، وربما كان بعض من لا ذوق عنده بأحوال القوم يرجع العباد الذين يكثرون من النوافل على الملامتية، مع أن كل ذرة من أعمال الملامتية يرجح على جبال العبادات من العباد، اللهم إلا أن يكون من حصل له مقام الشهود داعيًا إلى الله تعالى، فله أن يقوم في الحضرة ويصلي، ويفعل جميع الأمور التي أمر الله تعالى بها مطلقًا؛ ليقتدي به الناس في ذلك، ويتلذذوا

---

(1) رواه أحمد (284/2، رقم 7814)، ومسلم (1987/4، رقم 2564)، وابن ماجه (1388/2، رقم 4143)، وإسحاق بن راهويه (369/1، رقم 379)، وابن حبان (119/2، رقم 394)، والبيهقي في شعب الإيمان (328/7 ، رقم 10477)، والديلمي (166/1، رقم 614)، وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات (ص282 ، رقم 807) ، وابن عساكر (193/18).

(2) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (88).

بنعيم مشاهدتهم له تعالى، ويشكروه على تأهيله لهم في الوقوف بين يديه، فإن ذلك أعظم نعيم في الدارين، ولولا نعيم مشاهدته في الجنة ما أحبها أهل الله تعالى؛ لأن غاية ما فيها أكل وشرب وجماع ونحو ذلك، وليس هو مقصود القوم، ولم علم ﷺ أن في أمته من لا يطيق الدوام على الحضور مع الله تعالى من صلاة الفريضة إلى أختها شرع لأمته النوافل فيما بين الفريضتين مصلحة لهم ليقع لهم شهوده بعد ذلك الحجاب الذي وقع لهم بعد سلامهم من الفريضة، وشرع لهم قيام الليل وصلاة الضحى؛ لبعد الزمن بين صلاة العشاء والصبح وبين الصبح والظهر، وأوجب الله تعالى ذلك على رسول الله ﷺ وجوب رحمة وتقريب لئلا يطول زمن الحجاب على أمته، وليكون له ثواب كل من قام الليل، أو صلى الضحى مثلاً، فإنه رأس الدعاة إلى الله تعالى، واعتياد باطنه ﷺ أنه لا يمكنه مفارقة حضرة ربه، ولو لم يوجب الحق تعالى عليه ذلك؛ لأن ذلك نعيمه ﷺ فالألف سنة عنده فيها كلمحة، وجميع ما سماه العلماء تكليفًا هو نعيم للخواص، والكلفة فيه من حيث ما يحصل للخواص من عظيم هيبة الله وإجلاله، لا من حيث مطلق القيام والركوع والسجود مثلاً، فإنه لا يتكلف لذلك إلا المنافقون الذين خذلهم الله تعالى وأضلهم على علم ولم يكن عندهم رائحة محبة الله، نسأل الله العافية فقد بان لك وجه تسميتها تكاليف في حق الخواص، والله أعلم.

ثم لما كان جميع الدعاة إلى الله أمناء الرسل على الأمم كان لهم مقام الاستحسان والاستنان، فلهم أن يستنوا لتلامذتهم ويستحسنوا لهم ما يرونه أصلح لهم مما هو داخل تحت أصل ورد في الشريعة، فربما رأى الداعي إلى الله تعالى أنه لا يتحصل من صلاة المريد أربع ركعات من النافلة ثواب ركعة واحدة مثلاً، فقال له: صلِ قبل العصر ثمان ركعات أربع أصلية هي السنة، وأربع كالجبر لها مثلاً، فلا ينبغي لأحد المبادرة إلى الإنكار على الشيخ كما لا ينبغي الإنكار على من أعاد صلاته بخلل ظاهر رآه فيها، وفي الحديث «**الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ**»[1] فلا يسمى بدعة إلا ما لم يكن مندرجًا تحت أصل؛ لأن مثل ذلك هو الذي ينكر؛ لأنه زيادة لم يأذن بها الله، فصور يا أخي كمال عبادة عبد، ثم انهه عن الزيادة على المشروع التي تشق، وقد سن الشيخ أبو مدين بالمغرب لأصحابه صلاة

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (84/1، رقم 243) ضعفه المنذري (153/1) وقال الهيثمي (249/2): فيه عبد المنعم بن بشي ، وهو ضعيف.

ركعتين بعد الطعام فهم يفعلونها إلى الآن، وأقره على ذلك علماء المغرب؛ لأنهما شكر الله على تلك النعمة، وسن الشيخ محي الدين بن العربي صلاة الاستخارة صباحًا ومساء لجميع ما يقع على يديه من الحركات والسكنات في ذلك اليوم أو تلك الليلة، وقال: من لم يقدر على فعلها كل يوم فليفعلها في كل جمعة أو شهر أو سنة، ويقول في نيتها: اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه أو أسكن من وقتي هذا إلى مثله ومن الغد أو من الجمعة أو الشهر أو السنة، خيرًا لي في حق نفسي وحق غيري، أو يتحرك فيه غيري، أو يسكن في حق نفسه وغيره خيرًا لنا في ديننا ومعاشنا، وعاقبة أمرنا عاجله، وآجله فاقدره لنا، ويسره لنا إلى آخر الدعاء.

ثم إن هذا الذي قررناه، وبطلان الصلاة من الوضوء، بعدم التوبة من الذنوب الظاهرة وتوبة القلب من الكبائر الباطنة، هو في مقام الإسلام الباطن ولهم في مقام الإيمان والإحسان الباطن من شروط أُخَر أرقى من هذه كما أوضحناه في كتابنا المسمى بـ«النور المبين في بيان مقامات كمل العارفين» وهو كله يرجع إلى قولهم: «**حسنات الأبرار سيئات المقربين**»[1]، فما يتقرب به البر يستغفر منه المحسن، وربما

(1) ذكره القاري في المصنوع (111)، وفي الموضوعات الكبرى (ص186)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (733)، وأوردته في كتابنا «أحاديث مشهورة لكنها لا تصح» وعزوه لأبي سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وأورده السندروسي في الكشف الإلهي (351)، وعزاه للزهري.

قلت: وحُكي أيضًا عن ذي النون المصري، وقد عزاه الزركشي للجنيد، والقرطبي في التفسير (309/1)، وانظر: كشف الخفاء (428/1).

فائدة: قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني: واختلفوا في الصغائر في حقّ الأنبياء والكُمّل والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائزٍ عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة.

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوبٍ من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها، وأشفقوا منها، وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرةٍ لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على وجه الندور، وعلى وجه الخطأ والنسيان، أو تأويلٍ دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسناتٌ، وفي حقهم سيئاتٌ بالنسبة إلى مناصبهم وعلوّ أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق، ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ فهم -صلوات الله وسلامه عليهم- وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوبٍ منهم فلم يُخلّ ذلك بمناصبهم، ولا

كان بعضهم يستغفر من حضوره مع الله تعالى، وذلك لأن ما حضر مع الله تعالى حتى مثله في ذهنه وأقام ذلك في مخيلته، وتعالى الله في علو ذاته عن مثل ذلك، فالكمال: أن العبد يعبد ربه على الغيب فإنه اللائق بالتنزيه، ومن هنا قال المحققون في حديث: «أنْ تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تَرَاهُ» (1) أنها حالة التعليم، ثم إنه يترقى منها إلى حالة الكمال وهو: أن يعبده على أنه تعالى هو الذي يرى عبده فيبقى مع نظره تعالى المحقق إليه لا مع نظره هو المتوهم، وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: إياكم أن تنكروا على شيخ أمر تلميذه بتقديم صلاة النافلة على العلم؛ لأنه طلب له الحضور مع الله تعالى حين رأى قلبه قد مات من طول الحجاب، وقليل من الناس من تحصل له الحضور مع الله تعالى حال مطالعة العلم أو الحضور مع الله تعالى في العلم، ولا يكون إلا للكمل الذين انتهى سلوكهم وعرفوا الله تعالى، وثم من المريدين من لا يقدر على طول المكث في حضرة الله تعالى، فهو طول الليل والنهار يخرج ثم يدخل فيؤمر بالصلاة كلما دخل الحضرة، كما قالوا في الداخل إلى مكة: أنه يستحب له الإحرام بلبيك كلما دخل إلا أن يتكرر دخوله كحطاب وصياد، ومنهم من يطول مكثه في الحضرة، ثم مرادنا بالحضرة الإلهية التي يدخلها الفقراء هو شهودهم أنهم بين يدي الله تعالى وهو ناظر إليهم، فمادام أحدهم يشهد ذلك فهو في الحضرة، فإذا احتجب عنه هذا الشهود خرج من الحضرة فافهم.

ومما شرطوه في قبول الزكاة والصدقة: عدم المن بها على من يأخذها من الفقراء والمساكين وبقية الأصناف ولو بالقلب، فمتى خطر له أن له فضلاً على ذلك الآخذ ولو بالقلب فقد منّ وحبط عمله كما أطلقته الشريعة(2).

قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحهم، وزكّاهم، واختارهم، واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه. وانظر: تفسير القرطبي (309/1).

(1) رواه البخاري (27/1، رقم50) ، ومسلم (39/1، رقم 9).

(2) قال الشعراني في «تطهير الزوايا»: ألا يتكلم بكلام يفهم منه المن على الفقراء بما اصطاده لهم من الأوقاف، والطعام، والثياب، ونحو ذلك في الزمن الماضي؛ هروبًا من إحباط الأجر، ولو لم يتلفظ به؛ لأن الباطن عند الله كالظاهر على حد سواء، ويكون على علم سيدي الشيخ أنه لولا إقامة الفقراء عنده في الزاوية، ما ساق الله تعالى ذلك الرزق الواسع الذي كفى مائة نفس وأكثر؛ فالمسألة مركبة من شيخ ومن فقراء، حتى صح النصب على ذلك الرزق، وبتقدير أن يكون الشيخ سببًا في تحصيل ذلك الرزق؛ فمرتبة تقتضي أن يطلب أجره من الله تعالى لا من الفقراء، =

ومما شرطوه في صحة الاعتكاف: عدم خروج اللب من حضرة الله تعالى، من حين يدخل في الاعتكاف إلى أن يخرج، ومتى مال إلى شهوة بقلبه وهو بين يدي الله، أو حجب عن شهود أن الله يراه، فقد بطل اعتكافه، فيجب عليه تجديد النية إلا أن يكون ممن أعطاه الله تعالى القوة على الاشتغال بالله وبالخلق معًا لا يشغله الخلق عن الحق، وعكسه بحكم الإرث لرسول الله ﷺ والله أعلم.

ومما شرطوه في صحة الصوم: عدم ارتكاب العبد مكروهًا فضلاً عن المحرم؛ لأن شرط صحة الصوم ألا يخرقه صاحبه بارتكاب ما يكرهه الله، فيدخل الشيطان جوفه فينجسه، ومعلوم أن الصوم صفة صمدانية مطهرة من الشوائب النفسانية والشيطانية، فيقطعها كل شيء ليس هو من جنسها على حكم أوزان الصلاة عندهم فكما تقطع الصلاة نية الخروج منها كذلك يبطل الميل إلى فعل مكروه فيه فضلاً عن فعله المحقق، وقد أجمع القوم على أن الله تعالى ما فرض صوم رمضان إلا ليحفظ العبد من دخول الشيطان جوفه من العام إلى العام، ومتى وقع الشخص في مكروه أو حرام فقد خرق للشيطان خرقًا يدخل منه إلى قلبه فيهلكه، ثم لا يخفى أن الله تعالى ما فرض صوم رمضان إلا طهرة لبني آدم، وحفظًا من دخول الشيطان جوفهم بخرقة صومهم، وأما الأنبياء وأكابر الأولياء فهم في حجاب عن إبليس؛ لعصمتهم أو حفظهم كما سيأتي إيضاحه في الجواب عن أهل الحضرة الإلهية إن شاء الله تعالى.

ومما شرطوه في صحة الإحرام بالحج وفعل تلك المناسك: أن يفتح لعقدة الإحرام كل عقد يضاده مما يفعله منذ وعى على نفسه، فلا يبقى عنده ميل من شهوة من الشهوات، وأن يتجرد عن كل شيء دون الله حين ينزع المخيط، وأن يزول عنه كل علة ظاهرة أو باطنة بالغسل للإحرام، وأن يجد في نفسه جواب التلبية بقوله تعالى: لبيك عبدي، وأن يجزم إذا دخل الحرم بترك كل محرم أبدًا ما عاش، وأن يشرف عليه من الحق تعالى إذا أشرف على مكة حال يغيبه عن حسه إذا دخل البيت أو المسجد أو الحجر بحيث يصير لا يشهد سوى ربه من شدة القرب، وأن يشهد عند رؤية الكعبة ما

= فما ساق الله تعالى إلى الزاوية رزقًا واسعًا إلا على اسم الشيخ والفقراء معًا، فإن إرسال بعض الأمراء بقرةً، أو خمسة قناطير عسلاً، أو خمسين إردبًا من القمح، أو عشرة من البسلة يقضي العقل أن الشيخ وزوجته لا يقدران على أكل ذلك كله؛ فالقرينة تشهد بالاشتراك في ذلك بين الشيخ والفقراء.

قصدت له وما مقامها في الموجودات، وأن يشهد في رمله ثلاثًا: هروبه من الدنيا حتى ينفصل عنها، وينقطع عن محبتها بحيث يصير يتكدر كلما دخلت عليه، ويشهد عند مشيه أربعًا الأمن مما هرب منه ليزداد شكرًا بذلك.

وأن يجد في نفسه الأمان من العذاب، ومن الحجاب عن الله تعالى في الدنيا والآخرة إذا صافح الحجر الأسود، وأن يطلع على مكانته من ربه، وقبول قصده حين يصلي ركعتين خلف المقام ويعرف معنى كون الحجر يمين الله حين يقبله، وأن يسمع تكبير الملائكة إذا كبّر الله سبعًا على الصفا حتى يكبّر معها، ويجد حقيقة التكبير ذوقًا، وأن يتصفى من كل علة إذا نزل من الصفا إلى بطن الوادي، وأن يرى في هرولته فراره من الكون إلى الحق، ثم يفر من فراره بوصوله إلى وجوده، وأن يرى السكينة على المروة إذا وصل إليها فيأخذ منها حظه إن لم تكن تنزل عليه، وأن يتمنى على الله غير الحالة التي كان عليها من المعاصي وسوء الأدب إذا خرج إلى منى، وأن يجد من الخوف من الله ما لم يكن عنده قبل ذلك إذا دخل إلى مسجد الخيف، وأن يعرف الحالة التي خلق لأجلها، والحالة التي تصير إليها إذا وقف بعرفات، ويعرف المعرف له هذه الأحوال، ويرى المكان الذي إليه الإشارات، وتقيس الأنفاس كلها هناك في كل حال، وأن يذكر الله تعالى عند المشعر الحرام ذكرًا ينسيه ذكر ما سواه في الدنيا والآخرة حتى يصير لا شغل له بما سواه، وأن يذبح نفسه بسيف المخالفة إذا رجع إلى منى تقربًا إلى الله تعالى، وأن يرمي جهله عنه بزيادة العلم الذي ظهر عليه عند رمي الجمرات، وأن يحس بنص أمله إذا حلق رأسه أو قصره، وأن يكاشف بشيء من الحقائق عند طواف الزيادة، ويرى زيادة الكرامات عليه إذا زار، فإن في الحديث: «**الحجاج والعمار زوار الله، وحق على المزور ان يكرم زواره**»[1] وأن يعزم حين يحل من إحرامه، على أكل الحلال الخالص أبدًا ما عاش، وأن يخرج عن نفسه وروحه بالكلية إذا طاف طواف الوداع، انتهى.

فانظر في نفسك يا أخي هل فعلت بهذه الشروط حين حججت أم أخللت بها فيكون عليك الحج ثانيا لتأتي بهذه الشروط؟ وهذه شروط ذكرها السبكي، وهي على قدر مقامه حين حج، وإلا فللحج شروط أخرى أعلى من هذه الشروط، فإن الأذواق تتفاوت وما أعلمتك بذلك إلا لتعرف أني لم أبتدع هذه الشروط التي ذكرتها في

---

(1) رواه أبو داود في الزهد (465)، وهناد (946)، بتحقيقنا، وأحمد في الزهد (2081).

الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج، وإنما أنا تابع لغيري في ذلك من القوم وأني لم أخترع من عند نفسي شيئًا لم يذكره غيري.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: غاية صوفية زماننا هذا أن يصلوا إلى العمل بظاهر الشريعة فضلاً عن باطنها على وجه الظن، وأما عملهم بالشريعة على وجه علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين فذلك كالمحال، وسمعته مرة أخرى يقول: ما ثم كامل في طريق الولاية إلا وقد خرج من تقليد غيره في العلم ما عدى رسول الله ﷺ فيصير يأخذ العلم بالأحكام من حيث يأخذها المجتهدون، وبعضهم لا يقنع بالظن في عمله إنما يطلب الوصول إلى علم اليقين وحق اليقين التي هي علوم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فيصلون إليها بحكم الإرث للأنبياء لا استقلالاً، وهناك لا تزلزلهم الأدلة ولا يرجعون عن قول قالوه لظهور دليل آخر، ولا يبدو لهم في الآخرة علم آخر خلافه لم يكن في حسابهم، وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: إياكم أن تبادروا إلى الإنكار على أحد من أهل الطريق إذا رأيتموه يتكلم بكلام يخالف ما فهمه بعض العلماء، فإن دائرة الفهم واسعة، وتربصوا في ذلك القول وانظروا فيه، فربما كانوا أخذوه من مفهوم الأدلة ولغة العرب تشهد لذلك، وقد روى الطبراني مرفوعًا: **«إن شريعتي قد جاءت على ثلاثمائة وستين طريقة ما من طريق يسلكها العبد المؤمن إلا نجا من النار»**[1] انتهى.

كل ذلك فتحًا لباب التسليم للأئمة المجتهدين، والعلماء العاملين في طريق الظاهر والباطن، فإن أعطاك الله تعالى يا أخي العلم بهذه الطريق كلها على وجه الكشف واليقين، ونظرت فيها ولم تجد لذلك الكلام الذي قاله ذلك الشخص مسندًا يشهد له من جميع هذه الطريق فأنكره حينئذ كما تنكر على من خرق الإجماع على حد سواء.

واعلم يا أخي أن علم التصوف ليس هو بأمر زائد على السنة وأقوال الأئمة، هو مشيد بالأدلة ولكن غالب الناس لما قل اعتناؤهم بالعمل بمخالفة النفوس لم يمعنوا النظر في أدلة كلام القوم كما يمعنون النظر في المسائل الفقهية، وإن كان عين الفقه هو عين التصوف، وما ثم تمييز بين الطريقين إلا بالمقاصد في الأعمال، فالفقيه مثلاً يطلب بعلمه الثواب من الله ﷻ على أعماله من دخوله الجنة والحور والقصور، والمآكل

---

(1) لم أقف عليه.

والمشارب.

والقوم يطلبون من الله ما يطلبونه إظهار الكفافة والحاجة من باب المنة والفضل لا من باب مقابلة الأعمال بالثواب، ثم إن منهم من يطلب من الحق مجالسته لا غير، ومنهم من يستحي من ذلك، ويقول: أنزه ذلك الجمال البديع عن مجالسة مثلي، وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ما ثم عند المحققين حقيقة تخالف شريعة أبدًا إنما كل واحدة تأتي مؤيدة للأخرى في نفس الأمر، حتى أنهم أجمعوا على قولهم: حقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا حقيقة عاطلة، وكل من رأى بين الشريعة والحقيقة مخالفة فإنما هو لقصوره عن درجة الكمال كما هو مشهود بين القاصر من الفقهاء وبين القاصر من الفقراء، فإن الحقيقة غاية مراتب الشريعة، ولا تكمل الشريعة إلا بمراعاة الحقيقة، فإذا صلى الإنسان ظاهرًا وهو غير مقر بوجوبها عليه حملناه على المحامل الحسنة وأنه مقر بها، ولو أنه قال لنا: أنا لا أقر بوجوبها عليَّ أبطلناها في الحقيقة والشريعة، ويظهر لك ذلك أيضًا في بينة الزور في نفس الأمر، فإنه ينقد فيها حكم الحاكم بها، ولو أنه صرح له الشهود بأنهم شهودًا زورًا لم ينفذ حكمه لا ظاهرًا ولا باطنًا، وإذا كانت البينة صادقة نفذ حكمه ظاهرًا وباطنًا نظير الأعمال الخالصة، والأعمال التي دخلها الرياء إذا جوزي العبد بها في الآخرة، فلا تخالف الشريعة الحقيقة إلا من حيث القصد في الباطن لا غير، ولم يتعبدنا الله بالاطلاع على القلوب، فافهم.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ[1] يقول: الشريعة كالشجرة، والحقيقة كالثمرة

(1) هو من أجلاَّء المشايخ المكرَّمين وصدور المقرَّبين، صاحب كراماتٍ ظاهرة، ومقامات فاخرة، وسرائر زاهرة، وبصائر باهرة، وأحوال خارقة، وأنفاس صادقة، وهمَمٍ عالية، ونفحات روحانيَّة، وأسرار ملكوتيَّة، ومحاضرات قدسيَّة، وله المعراج الأعلى في المعارف، والمنهاج الأسنى في الحقائق، والطُّور الأعلى في المعالي، والقدم الراسخ في أحوال النِّهايات، واليد البيضاء في علوم الموارد، والباع الطويل في التَّصريف النافذ، والكشف الخارق عن حقائق الآيات، والفتح المضاعف في معنى المشاهدات، وهو أحد من أظهره الله ﷻ إلى الوجود، وأبرزه رحمةً للخلق، وأوقع له القبول التّام عند الخاص والعام، وصرفه في العالم، ومكَّنه في أحكام الولاية، وقلب له الأعيان، وخرق له العادات وأنطقه بالمغيبات، وأظهر على يديه العجائب، وصوَّمه في المهد، وكان يتكلَّم بالعجمي والسّرياني، والعبرانّي، والزنجي، وسائر لغات الوحوش والطيور، وله كلامٌ كثيرٌ عال على لسان أهل الطريق.

فلا بدّ لكل واحدة من الأخرى، ولكن لا يدرك ذلك إلا من كمل سلوكه، وأما غالب الناس فيشهدون الحقيقة مخالفة للشريعة كما نبه على ذلك السيد موسى ﷺ بإنكاره

وكان يقول: الشريعة أصل، والحقيقة فرع، فالشريعةُ جامعةٌ لكل علمٍ مشروعٍ، والحقيقة لكل علمٍ خفيٍّ، وجميع المقامات مندرجة فيهما.

وكان يقول: العلم كله مجموع في حرفين: أن يعرف العبد ربه، ويعبده، فمن فعل ذلك فقد أدرك الشريعة والحقيقة، وليس في هذا تعطيل للعلم، بل العمل أس العلم، وإنما قلنا ذلك من أجل قول الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل:20]. ولكل فرقةٍ منهاج، وإلا فقد يجمع الله العلم والعمل في رجلٍ واحدٍ يفيد الناس كل الفوائد، فالشريعة هي الشجرة، والحقيقة هي الثمرة.

وكان يقول: ما قطع المريد ورده يومًا إلاّ قُطع عنه الإمداد ذلك اليوم، واعلم يا ولدي أن طريقتنا هذه طريق تحقيق وتصديق وجهد وعمل، وتنزُّه، وغضّ بصر، وطهارة يد وفرج ولسان، فمن خالف شيئًا من أفعالها رفضته، فلذلك آثروا العزلة إلا في صلاة الجماعة، وحضور مجالس العلم التي لا رياء فيها ولا جدال، ولا عجب ولا مدارة، والسلامة من هذه الأمور في زماننا هذا قلّ أن توجد، فعليك بالوحدة بعد معرفة ما أوجب الله تعالى عليك، فإنك يا ولدي في القرن السابع الذين أكثرهم يجعلون شريعة السالك قدح في الشريعة. وحقيقة المحبّة بدعًا في الطريقة، كأنهم ما علموا قط عطاء الله تعالى، ومواهب مدد الله تعالى، وخوارق عجائبه، بل رأوا من سوء حالهم أن باب العطاء قد غُلق، فمن اعتقد ذلك فإنما هو معترضٌ على الله تعالى في فعله، ونعوذ بالله من التعرض، فإنه لا بدّ لأهل حضرته تعالى من التمييز عن المعرضين عنها؛ ليشتاق المعرضون عنها حين يرون الخوارق تقع على يد أوليائه، فما أجهل من جهل قدر الفقراء، وما أعماه أيش يُقال في قوم كلهم طالبين الله تعالى، أينكر عليهم مسلم؟ كلا والله. وقد قيل للجنيد: قومًا يتواجدون ويتمايلون، قال: دعهم مع الله يفرحون ولا تنكر إلا لعصيان المفرج به في الشريعة، أما هؤلاء القوم فقد قطعت الطريق أكبادهم، ومزّق التعب والنصب أجسادهم، وضاقوا ذرعًا فلا حرج عليهم، إذا تنفّسوا مداواة لحالهم، ولو ذقت يا أخي مذاقهم لعذرتهم في صياغتهم، وشق ثيابهم، فالله يلهمكم يا أولادي سلوك طريق الرشاد إنه سميعٌ مجيبٌ، وهو السيد إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن أبي طنجا بن زين العابدين بن عبد الخالق بن محمد بن أبي الطيب بن عبد الله الكاتم بن عبد الخالق بن أبي القاسم بن جعفر الزكي بن عليّ بن محمد الجوّاد بن عليّ الرِّضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين السبط بن عليّ بن أبي طالب الهاشمي القرشي، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

تفقّه على مذهب الإمام الشافعي ﷺ، ثم اقتفى أثر السادة الصوفية، وجلس في مرتبة الشيخوخة، وحمل الراية البيضاء، وعاش من العمر ثلاثة وأربعين سنة، ولم يغفل قط عن المجاهدة للنفس والهوى والشيطان، حتى مات سنة تسع وسبعين وستمائة ﷺ.

الصورى أولاً على الخضر - عليهما السلام - ثم إنه لما ترقى في درجة الحقيقة أقره ولم ينكر عليه؛ ليعلم قومه بمرتبة الكمال فإن ظاهر الشريعة لا يبيح لنا خرق سفينة غيرنا بغير إذنه إذا خفنا أن يغصبها منه ظالم، ولا قتل غلام إن خفنا أن يرهق أبويه طغيانًا وكفرًا في المستقبل، وكذلك القول في الجدار، فلولا أن موسى ﷺ علم أن ما يفعله الخضر له وجه في الشريعة وإلا كان دام على إنكاره عليه وكان لا يقبل للخضر عذرًا.

فتأمل في هذا المبحث، فإنك لا تجده في كتاب والحمد لله رب العالمين.

بيان نبذة صالحة من مصطلح القوم من حيث أخذهم بالعزائم دون الرخص ذكرناه هنا ليطلع عليه من يطالع هذا الكتاب قبل الخوض فيه بغير علم، فربما بادر من لا يعرف مصطلحهم إلى الإنكار عليهم بغير علم:

قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: 39].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: 11].

ويكون على علم كل من طالع في هذا الكتاب أن طريق القوم محررة على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر كما مر أوائل الكتاب، ولكن سبب مبادرة بعض المجادلين إلى الإنكار بعدهم عن مخالطة أهل الله ﷺ، وإقبالهم على العلوم المتعلقة بالأحكام الظاهرة دون العلوم المتعلقة بأمراض القلوب ودوائها، حتى لا تكاد تجد أحدًا من طلبة العلم يتطلبها، خلاف ما كان عليه السلف الصالح ممن أدركناهم كشيخ الإسلام زكريا، وشيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف[1]،

(1) هو سيدي إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن مسعود بن رضوان، شيخ الإسلام، قاضي القضاة، برهان الدين المُرِّيّ -بضم الميم وشد الراء- المقدسي ثم المصري الشافعي، المعروف بابن أبي شريف.

إمام جليل المقدار، جميل الأخبار، ذو همة وافرة، ومعارف رياضها ناضرة.

ولد ببيت المقدس في القعدة سنة ست وثلاثين وثمانمائة، ونشأ بها، فحفظ القرآن وعدة متون، ثم لازم الشيخ سراج الدين الرومي في العربية والأصول، والمنطق والمعاني والبيان، وأخاه الشيخ كمال الدين في الفقه والأصول. وأجاز له ابن حجر باستدعاء أخيه. وقدم القاهرة، فأخذ عن الأمين الأقصرائي شرح العقائد للتفتازاني، وعن الجلال المحلي شرحه لجمع الجوامع، ولازم العلم البلقيني والشريف المناوي في الفقه، وصاهر الشريف المناوي على ابنته -التي كانت زوجًا لابن الطرابلسي- وجل انتفاعه في الفقه بالبلقيني.

قال المناوي: قال لي شيخنا الشمس الرملي: قدم الشيخ كمال الدين والشيخ برهان من القدس، للأخذ عن علماء الديار المصرية، فحضرا درس العلم البلقيي، فحضره ملازمًا لحضوره، وبه كان انتفاعه، وأخذ الفرائض والحساب عن البوشينجي والأبشيطي، وأخذ التفسير عن السعد الديري، والتصوف عن جماعة، منهم الشريف المناوي- صهره- وبرع في عدة فنون، وأفتى وأفاد، وجاد بالعلم فأجاد، وكانت فتواه مسددة، ولياليه وأيامه بالعدل مجددة، وهو آية في الحفظ الذي لا يحاكيه فيه نظير. وكان ينشئ الخطبة البليغة وهو على المنبر ارتجالاً بغير تقديم ولا تأخير.

ومن تصانيفه: شرح الحاوي، والمنهاج، والتنبيه، وقطعة من البهجة، والقواعد لابن هشام، والعقائد لابن دقيق العيد، وشرح شرح العقائد للتفتازاني، والنفحة القدسية لابن الهائم، ونظم النخبة لابن حجر وشرحها، وعمل منظومة في القراءات، ومنظومة في السيرة النبوية واختصر طبقات الشافعية لابن السبكي، وشرح قطعة من جمع الجوامع، وقطعة من عقائد النسفي ونظمها، ونظم جامع المختصرات، واختصر رسالة القشيري في نحو كراسين، وعمل عدة رسائل في التصوف، وأنشأ عدة خطب، وفسر سورة الرحمن، ونظم: «منطق التهذيب» و«لقطة العجلان»، وقرّظ عليها الأعيان، وعمل غير ذلك مما كمل وما لم يكمل.

وكان يميل إلى التصوف جدًا، لكنه ينفر من كلام ابن عربي رحمه الله، بحيث كتب على كتاب الفصوص بخطه ما نصه: قال الفقير محمد بن أبي شريف، حسبنا كتاب الله، أمّا ما تضمنه هذا الكتاب فلا أعلم ما هو، غير أن ظاهره في غاية الإشكال، وما أوضح كتاب الله، القرآن العربي المبين، الهادي للطريق الواضح الذي لا خفاء به، وكذلك الأحاديث النبوية، وكل منها يشرح الخاطر، ويقرّب من جناب الحق، وهل أفضل من كلام الله وكلام رسوله، وأصحابه نجوم الهدى؟ كيف يترك العاقل كلام المعصوم وما أنزل عليه، ويشتغل بما فيه ريب وقلاقة وإشكال؟ ولست أنكر ما أخذه منهما السادة الصوفية من أسرار لا يخرج عنهما، في غاية الجلاء الوضوح -نور الله بصائرهم- فأطلعهم عليها، وحجبها عمّن سواهم.. إلى هنا كلامه. من خطه نقلت(1).

قال في الضوء: قدم القاهرة، واختص فيها بالشريف المناوي رحمه الله، وأخذ عنه الطلبة بالجامع الأزهر وغيره، ثم ولي بعد ذلك القضاء الأكبر بالديار المصرية، في القعدة سنة ست وتسعين وثمانمائة، ثم انفصل، ووقعت له تلك الكائنة، وهي أن أحد نواب الحكم كُبس مع امرأة، وُجدا متعانقين داخل ناموسية، فاعترفا بالزنا ثم رجعا، وحكم شافعي بصحة رجوعهما،

والشيخ شمس الدين السمنودي[1]، والشيخ جلال الدين بن قاسم

-

فحسّن أحد المفسدين للسلطان الغوري رجمهما وقال: هذا أمر لم يفعله أحد من السلاطين قبلك، فتُذكر بذلك، فاستفتى، فأفتى الشيخ برهان الدين بصحة رجوعهما وعدم جواز قتلهما، فأمر السلطان بعقد مجلس بحضرته، فاجتمع العلماء عنده، وجلس شيخ الإسلام زكريا من جانب، والبرهان من جانب، ووقع الكلام في ذلك، وآخر الأمر أن الشيخ برهان الدين أغلظ على السلطان وقال: من قتلهما يقتل بهما. فقال: ائتني بالنقل. فقال الشيخ زكريا: هو مؤتمن على النقل، ولا يلزمه ذلك، وقوله حُجة. وأشار بيده، وكان مكفوفًا ، فأصابت عين السلطان، وقام وقاموا، فأمر أن يصلبهما على باب الشيخ برهان الدين فلما أتي بهما الوالي إلى باب بيت الشيخ - والجلاد ينادي عليهما- ظن الشيخ أنه هو المقصود بالقتل، فانزعج هو وأهل بيته، وأيقن بالتلف، ثم أسفر الأمر عن شنقهما فقط، فشنقا على بابه، متقابلين، وجه الرجل إلى وجه المرأة. فكانت تلك الواقعة إحدى الكبر المؤدية لخراب دار السلطان، وذهاب دولة الجراكسة.

ولم يكتف بشنقهما حتى أرسل يقول: اخرج من بلدي، فإنك رجل مقدسي، اذهب إلى بلدك.. فأخذ في التأهب للسفر، فدخل عليه على الأثر شخص أشعث أغبر - مع كون الباب كان مغلقًا عليه وخلفه البواب - فقال له: يا إبراهيم، هو الذي يخرج، أنت لا تخرج.. وبتمام كلامه، اختفى عن بصره، فصاح الشيخ: أبو بكر - وكان هذا اسم بواب قاعة جلوسه - فقال: نعم، قال: من هذا الرجل الذي دخل علينا؟ قال: يا سيدي، الباب مغلق، وما دخل أحد.. فعلم الشيخ الحال، وأنه من الرجال، فترك التأهب للسفر. ففي ذلك الشهر، ورد كتاب ابن عثمان على الغوري، يعلمه بأنه قد تجهز للسفر إليه، فاشتغل بنفسه وشرع في أهبة السفر للقائه، وأرسل يستعطف الشيخ، فأغلظ عليه ولم يلتفت إليه، وخرج بعد نحو ستة أشهر فهلك، وكان ما كان، وتحولت دولة الجراكسة لابن عثمان.

ومات الشيخ بعد ذلك بمدة يسيرة عن نحو ثلاث وثمانين سنة.

وقال المناوي أيضًا: قال لي شيخنا -خاتمة الشافعية الرملي رحمه الله-: رأيت الشيخ برهان الدين، وهو قاعد إلى هيئة السجود وأقرب إلى الهرَم، ورأيت الشيخ زكريا كالألف في الانتصاب وقد قارب المائة، فسألت والدي: ما بال الشيخ زكريا- مع كونه أسن من الشيخ برهان الدين- أصح جسمًا ومنتصب القامة دون ذاك؟ قال: كان الشيخ برهان الدين يكثر الجماع جدًا، فأسرع إليه الهرَم، وأما الشيخ زكريا فكان معرضًا عن ذلك بالكلية؟وانظر: جامع الكرامات (246/1)، البدر الطالع (26/1)، الضوء اللامع (134/1)، الكواكب السائرة (102/1)، شذرات الذهب (118/8)، نظم العقيان (26)، والطبقات الصغرى (37)، والكواكب الدرية (735).

(1) في المطبوع: (السمالودي)، وهو سيدي محمد الشيخ الإمام المحدث شمس الدين السمنودي الشافعي خطيب الجامع الأزهر. كان ورعاً زاهداً لم يأكل من معاليم وظائفه الدينية شيئاً. إنما كان ينفقه على العيال، وكان يقول: جهدت إني آكل من معلوم، فلم يتيسر لي إنما آكل من حيث لا أحتسب، وكان يفتي بمصر مدة طويلة، ثم انتقل إلى المحلة الكبرى، فأقام بجامع السر يفتي ويدرس به إلى أن مات، وكان لا يفتي في الطلاق أصلاً، ويقول: إنهم يسألونني في مسائل

-

المالكي[1]، وكانوا لايقرءون أحدًا العلم إلا إن رأوا نيته صالحة في طلبه، وكان الشيخ شمس الدين اللقاني يسأل الطالب: ماذا تريد بالاشتغال بالعلم؟ فإن قال له: أريد أتولى القضاء يكف عن تعليمه، ويقول له: اذهب فاقرأ على غيري، وهذا أمر أغفله أهل هذا الزمان الآن لأمور يطول شرحها، ومعلوم أن كل علم أو عمل لا يبتغي به صاحبه وجه الله؛ أي: مرضاته فهو مضمحل.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: جميع ما ورد في ثواب الأعمال إنما هو في حق المخلصين فيها، وأما غير المخلصين فقد توعدهم الشارع ﷺ بالنار، فمن زعم أن له ثوابًا في علمه أو عمله الذي دخلته النية الفاسدة، فقد افترى على الله الكذب ومثاله مثال التجار الذين يبيعون بالفلوس طول عامهم، ثم ينادي عليها السلطان بإبطالها، فلا تسأل يا أخي عما يقع لهم من شدة الندم، فهذا مثال من يقصد بعلمه وعمله غير الله ظهر له فساد نيته يوم القيامة، انتهى.

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق: من مصطلح القوم الذي ربما بادر المجادل إلى إنكاره أخذهم العهد على المريد بتركه المباح، ويقول المجادل: كيف يأخذ هؤلاء العهد بترك المباح الذي جعله الشارع مباحًا، ويخرجه عن حكمه إلى حكم المنهيات؟ انتهى.

وهو إنكار بغير علم؛ لأن جميع مشايخ الطريق إنما هم معدون لترقية المريد إلى المقامات العالية، ومعلوم أن المباح من حيث هو مباح لا ترقي فيه لأحد؛ لأنه حظ

الطلاق خلاف الواقع، فيعملون بسبب فتياي بالباطل. توفي - رحمه الله تعالى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة، ودفن بمقبرة الشيخ الطريني. وانظر: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (52/1)، والطبقات الصغرى للمصنف (ص36).

(1) وهو سيدي محمد بن قاسم قاضي القضاة جلال الدين بن قاسم المصري المالكي. قال الشعراوي: كان كثير المراقبة لله في أحواله، وكانت أوقاته معمورة بذكر الله عز وجل. شرح المختصر والرسالة، وانتفع به خلائق لا يحصون، ولاه السلطان الغوري القضاء مكرهاً، وكان حسن الاعتقاد في طائفة القوم. قال: وكان أكثر أيامه صائماً لا يفطر في السنة إلا العيدين وأيام التشريق، وكان حافظاً للسانه في حق أقرانه. لا يسمع أحداً يذكرهم إلا ويجلهم. توفي بمصر سنة خمس وعشرين وتسعمائة، وصلي عليه صلاة الغائب بالجامع الأموي بدمشق رابع عشر صفر سنة ست وعشرين وتسعمائة. وانظر: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (41/1)، والطبقات الصغرى للمصنف (ص47).

النفس تتنفس فيه من مشقة التكليف وحصول الملل من الطاعات، ومن شأن النفس أنها تحب كل حالة لا تكون فيها تحت حكم أمر ولا نهي، وفي المثل السائر: يشيب العبد وفي خاطره أن يهرب من تحت حكم سيده هربة يكون فيها مطلق العنان لا تحجير عليه.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ما جعل الله تعالى المباح إلا تنفيرًا لبني آدم من مشقة التكليف حين ركب الله تعالى في ذواتهم الملك من التكاليف، ولو أن الله تعالى لم يركب في ذواتهم الملك لم يشرع لهم المباح كما فعل بالملائكة؛ لأنهم لا يعرفون للملك طعمًا فلذلك كانوا ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:20]

قال: ولما كان القوم من شأنهم الأخذ بالعزائم دون الرخص طلبًا للترقي كما هو معلوم من أحوالهم طلبوا من المريدين العمل على تقليل المباحات جهدهم، ويجعلون مكان ذلك طاعة يثابون عليها، فإن لم يجدوا طاعة نووا بالمباح خيرًا من أكل وكلام ونحو ذلك، كالتقوي على العبادات بأكل تلك الشهوة، أو زوال العبوسة بمباسطة إخوانهم ببعض كلام، ونحو ذلك، وقد أجمعوا على أن كل من مهد لنفسه ارتكاب الرخص دون العزائم لا يجيء منه شيء في الطريق، وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: لا يصح لمريد قدم في الإدارة حتى يترك فعل المباحات، ويجعل مكان كل مباح تركه مأمورًا شرعيًا من مندوب أو أولى، ويجتنب المباح كأنه منهي عنه كراهة تنزيه، ويجتنب المكروه كأنه حرام.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - تعالى يقول: لا يبلغ المريد مقام الصدق حتى يزيد في تعظيم أمر الله ونهيه، فيفعل المندوب كأنه واجب، ويجتنب المكروه كأنه حرام، ويجتنب الحرام كأنه كفر وينوي بجميع المباحات خيرًا ليثاب على ذلك، فينوي بالنوم في القيلولة التقوي على قيام الليل، ويتناول بعض الشهوات للمداواة لنفسه إذا نفرت من العبادات بالكلية، فإن لسان حال النفس يقول لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتك، وفي الحديث مرفوعًا: «**المنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى**»[1].

---

(1) رواه البزار كما في مجمع الزوائد (62/1)، والبيهقي (18/3، رقم 4520)، والحاكم في معرفة -

والمراد بالمنبت: هو الذي حمَّل دابته فوق طاقتها في السفر حتى رقدت، فلا هو قطع الأرض، ولا هو أبقى معها قوة يسير بها، وكذلك ينوي بلباس الثياب الفاخرة إظهار نعمة الله عليه دون الحظوظ النفسانية، وكذلك بأكل اللذيذ من الطعام والبارد الحلو من الشراب لأجل استجابة أعضائه؛ ليشكر الله تعالى بعزم، وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رحمه الله - يقول لأصحابه: كلوا من أطيب الطعام، واشربوا من ألذ الشراب، وناموا على أوطأ الفراش، والبسوا ألين الثياب إن أحدكم إذا فعل ذلك، وقال: الحمد لله يستجيب كل عضو فيه للشكر، بخلاف ما إذا أكل خبز الشعير بالملح، ولبس العباة، ونام على الأرض، وشرب الماء المالح السخن، وقال: الحمد لله، فإنه يقول ذلك وعنده اشمئزاز، وبعض سخط على مقدور الله ﷻ، ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد الاشمئزاز والسخط الذي عنده يرجح في الإثم على من تمتع بالدنيا بيقين، فإن المستمتع بالدنيا فعل ما أباحه الله، ومن كان عنده اشمئزاز وسخط فقد فعل ما حرم الله، وسمعت سيدي علي الشاذلي - رحمه الله - ربيب الشيخ أبي المواهب يقول: طريقنا إظهار النعمة في الملبوس وغيره دون التقشف لما فيه من رائحة عدم انشراح النفس به، فثياب أحدنا كثياب الأغنياء، وقلبه من أفقر الخلق إلى الله تعالى، فلا يكاد أحد ينسبه إلى الفقر لما هو عليه من الفخامة، وأكل الأطعمة الفاخرة.

وقد كان سيدي إبراهيم المواهبي ﷺ [1] إذا أتاه دينار مثلاً يشتري به لحمًا،

علوم الحديث (95/1)، والقضاعي (184/2، رقم 1147).

(1) هو سيدي إبراهيم أبو الطيب بن محمود بن أحمد بن حسن الأقصرائي الشاذلي، المشهور بالمواهبي، أحد أتباع الشيخ محمد المغربي، والشيخ أبي المواهب الشاذلي.
كان حسن الخلق والخلق، سالكًا من الزهد والورع أوضح الطرق، ومع ذلك كان ينفق نفقة الملوك ويلبس ملابسهم، ولا يعلم له جهة يأتيه منها بعض ذلك.
وعمل الموشحات، وشرح الحكم العطائية، ليس على طريقة الشروح بل هو فوائد مجموعة بمعزل عن شرح الكتاب، وحكايات عن الصالحين، ونحو ذلك.
وله كتاب «كشف الجليل عن سر التمويل وبيان مشاهد يا مولاي يا واحد» وكتاب «البارق الأسنى بسر الكني»، وكتاب «الأذكار والدعوات»، وكتاب «التفريد وضوابط عقائد التوحيد» ورسائل عدة.
ولما احتضر أتاه الشيخ محمد المغربي فقال له: ما تشهد؟ قال: وحدة مطلقة. قال: هنيئًا لك؟ فصعدت روحه فورًا. ودفن بزاويته بقرب قنطرة سنقر سنة أربع عشرة وتسعمائة.

ويطبخ ذلك اليوم ويدعو إخوانه فيأكلون، فربما حضر أحد معهم فرأى طعامه أوسع من طعام التجار، فيبسط لسانه فيه بغير حق، والحال أنه أطيب نفسًا وأخرج من صاحب المرقعة وفي الحديث: «**المعونة من الله تأتي على قدر المؤنة**»[1].

فربما أتت مثل هذا المعونة من الله السنة المتوالية لكونه يطعم الناس بكل ما دخل له يوم بيومه لا يبيت على دينار ولا درهم، وكان سيدي محمد بن عنان - رحمه الله - يقول: لا يكمل الفقير حتى يكثر من الطاعات بحيث لا يجده ساعة في ليل أو نهار إلا وهو في واجب، وما ألحق به من المندوب والأولى، أو في اجتناب حرام وما ألحق به من المكروه وخلاف الأولى.

وسمعته مرة أخرى يقول: من شرط الصادق من الفقراء ألا تجده في غفلة عن عبادة ربه، فإن سكنت جوارحه تحرك قلبه، فلم يزل في عبادة ظاهرة وباطنة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: يحتاج صاحب المباح أن يكون له عدة أعين: عين ينظر بها أنه من صدقات الحق تعالى عليه فيشكره على ذلك، وعين ينظر بها إلى أنه يكون استدراجًا وحيالة للمكر الإلهي به في هذا الدار فيخاف من فعله، وعين ينظر بها إلى رؤية كونه استدراجًا للمكر من باب سوء الظن بالله ﷻ فيستغفر منه، وعين ينظر بها إلى أن المباح من جملة ما اختص به الحق - جل وعلا - فإنه هو الذي يفعل ما يشاء، ولا يدخل تحت التحجير، وأما العبد فشرفه كونه تحت تحجير سيده إما في فعل مأمور به، أو في اجتناب منهي عنه، وقد درج السلف الصالح كلهم على الخوف من المباح لكونها حالة يكون العبد فيها مع نفسه لا مع ربه غالبًا فيكون كالبهيمة السارحة انتهى.

فاعلم ذلك وتأمله فإنك لا تجده في كتاب.

وبعد أن علمت أن للقوم أخذ العهد على المريد بترك المباح؛ لكونه لا ترقي فيه علمت من باب أولى أن لهم كذلك أخذ العهد على المريد أو فعل ما سكت عنه

-

الطبقات السنية (241/1)، جامع الكرامات (246/1)، الكواكب السائرة (110/1)، النور السافر (49)، بدائع الزهور (63/3)، هدية العارفين (24/1).

(1) رواه البزار كما في كشف الأستار (195/2، رقم 1506)، والبيهقي في شعب الإيمان (191/7، رقم 9956)، وابن عدي (115/4، ترجمة 961 طارق بن عمار.

الشارع ﷺ، ولم يصرح فيه بحل ولا إباحة؛ لأن الشارع قد أمنهم على شريعته بعده، وجعلهم نوابًا عنه في إرشاد الأمة كثيرًا ما ينهون المريد عن المباح تنزيهًا كما نهى رسول الله ﷺ فاطمة - رضي الله عنها - عن لبس الحرير، والتحلي بالذهب تنزيهًا من حيث أن ذلك من زينة الدنيا الفانية، وقال لها: **«يا فاطمة من لبس الحرير والذهب في الدنيا لم يلبسهما في الآخرة»**[1] مع أنه ﷺ صرح في الأحاديث الصحيحة بحل الذهب والحرير لإناث أمته، وكما نهى ﷺ عائشة - رضي الله عنها - عن الأكل في يوم واحد مرتين، وقال لها: **«يا عائشة أكلتان في نهار واحد سرف، والله لا يحب المسرفين»**[2] مع أنه ﷺ أباح لأمته الجمع بين الغذاء والعشاء في اليوم الواحد كثيرًا، ممن بلغنا أنه كان يأخذ بالتشديد من الصحابة عبد الله بن عباس وأبو ذر ﷺ فشدد عبد الله بن عباس على نفسه لما نزل الماء في عينيه، وقال له الأطباء: إن تركت السجود أمكننا مداوتك فاختار العمى على ترك السجود مع أنه لو أومأ بالسجود كان ذلك كافيًا له، وحرم أبو ذر الادخار للقوت مع علمه بأن رسول الله ﷺ ادخر قوت عامهم، وتبعهما أشياخ الطريق على ذلك التشديد في حق أنفسهم، وفي حق تلامذتهم، فأخذوا المريد بأكله الشهوات المباحة؛ لكونها توقفه عن الترقي، وأخذوه بالنوم من غير ضرورة، وبالأكل من غير جوع، وبالكلام من غير حاجة، وبمخالطة الناس إلا لضرورة، فأرادوا أن يثاب مريدهم ثواب الواجبات في سائر أحواله، فيأكل حين يجب عليه الأكل، ويتكلم حين يجب عليه الكلام مثلاً، فإن نزل عن ذلك فلا ينزل عن

---

(1) رواه الطيالسي (ص 10، رقم43)، وأحمد (1/37، رقم 251)، والبخاري (5/2194، رقم5496) ، ومسلم (3/1641، رقم 2069) ، والترمذي (5/122، رقم2817) وقال: حسن صحيح، والنسائي (8/200، رقم 5306) ، وأبو عوانة (5/230، رقم8511) ، والطحاوي (4/252)، عن عمر.

ورواه أحمد (3/101 ، رقم 12004)، والبخاري (5/2194، رقم 5494)، ومسلم (3/1645، رقم 2073)، والنسائي في الكبرى (5/465، رقم 9582)، وابن ماجه (2/1187، رقم 3588) عن أنس.

وراه الطيالسي (ص 294 ، رقم 2217)، والطحاوي (4/246)، وابن حبان (12/253، رقم 5437)، والحاكم (4/212، رقم 7404)، والنسائي في الكبرى (5/470 ، رقم 9607).

(2) ذكره العجلوني في كشف الخفا (518)، وعزاه للبيهقي في الشعب (5425).

الاستحباب، فيأكل حين يستحب الأكل، ويتكلم حين يستحب الكلام، وكذلك آخذوا المريد بالنسيان وبالاحتلام وبمد الرجل في ليل أو نهار إلا لحاجة، وأخذوه بالخواطر ولو لم تستقر وغير ذلك مما هو مذكور في كتبهم كرسالة القشيري وعوارف المعارف ونحوهما، ومما استدلوا به على مؤاخذتهم المريد بأكل الشهوات المباحة كون الحق - جل وعلا - نعى على الكفار شهواتهم بقوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأحقاف:20] وقال: ما نعاه الله على أهل النار، وأدخلهم إليها بسببه فنحن أولى بتركه والتباعد عنه، ويؤيد ذلك ما قاله ابن مسعود ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59] قال: هو وادٍ في جهنم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات، وفي زبور داود ﷺ: يا داود حذِّر وأنذر قومك أكل الشهوات فإن قلوب أهل الشهوات غير محجوبة، وكما أن أكل الشهوات يطرد العبد عن حضرة الله ﷻ فكذلك مد المريد رجله من غير حاجة بجامع سوء أدب، ومما اشتدوا إليه في مؤاخذة المريد بالنسيان كون المريد لا يقع في النسيان إلا لتساهله في المقدمات بدليل أن الإنسان لما تتوجه همته إلى تحصيل أمر يصير لا يكاد يأخذه نوم، بل ينام يحلم بذلك طول ليلته، ويؤيد ذلك قول علمائنا في التيمم: إذا نسي الماء في رجله، أو أضله فيه وفتش عليه فلم يجده فتيمم أنه يقضي في الأظهر، ونسبوه إلى التقصير في نسيانه أو إضلاله، وكذلك يؤيده قولهم أيضًا: ولو صلى بنجس كان علمه، ثم نسيه وجب القضاء على المذهب، وقالوا: لو أتلف إنسان مال إنسان، أو أكل طعامه نسيانًا وجب عليه ضمانه، والنظائر في ذلك كثيرة، مع أن قاعدة الشريعة التي أتى بها الشارع رفع حكم الخطأ والنسيان والإكراه عن الأمة إلا فيما استثنى.

وأجابوا عن حديث: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان والأمر يستكرهون عليه**»(1) بأن المراد رفع الإثم لا رفع الضمان، والعلماء ﷺ أمناء الرسل على الشرائع والناس لهم تبع.

وذكر الشيخ محي الدين بن العربي في «الفتوحات المكية» ما نصه: إنما آخذ القوم المريد بالنسيان؛ لأن مبنى طريقهم على الحضور الدائم مع الله تعالى والنسيان فيها نادر، والنادر لا حكم له مع أن قاعدة الشريعة رفع حكم النسيان عن الأمة إلا ما

---

(1) رواه الطبراني في الكبير (97/2، رقم1430)، وفي الشاميين (152/2، رقم1090).

استثناه العلماء من ذلك لتذكرك ما نسيته من الصلاة وأركانها، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: نسيان الأكابر تشريع لقومهم كما أشار إليه خبر: **«إنما أنسى ليتسنن بي»**(1).

وأما نسيان الأصاغر فقد يكون للتساهل في ذلك الأمر وقد يكون لغيره.

قال: وليتأمل من يعتذر من المريد عن النسيان، وأنه لم ينس ذلك الأمر استهانة به لو أن شخصًا من الأكابر الصادقين وعده بألف دينار إن قام تلك الليلة للتهجد، وإن لم يقم لم يعطه شيئًا كيف يصير يحدث نفسه بذلك في نومه ويقظته؟ وإن خاف استغراقه في النوم أوصى من يوقظه ولو بأجرة، كل ذلك حرصًا على الدنيا الفانية، ولاشك ولا خفاء أن ما وعد الله تعالى به قائم الليل من الأجر والثواب أفضل، بل كل ذرة منه لا يقاومها ملك الدنيا كلها؛ لأن كل ما فيه مرضاة الله لا يقابل بالأغراض الدنيوية وكم فات النائم من الغنائم، وكأن غرض القوم من رياضة المريد والتضييق عليه أن يحولوا قلبه إلى محبة الله والدار الآخرة، ويقلب تلك الداعية التي عنده للدنيا إلى مرضاة الله ﷻ، وكما أنه يعطي الأجرة لمن يوقظه للتهجد مثلاً لأجل الألف دينار كذلك من باب أولى أن يعطي الأجرة لمن يوقظه ليناجي ربه ﷻ بارتفاع الوسائط، وتبارز بذلك النعيم الذي لا يقاومه نعيم الدارين، فإن قال قائل: فما حكم من يقدم أعمال الدنيا على أعمال الآخرة في اليقظة؟ فالجواب: أن هذا لم يصح له قدم في محبة الآخرة، فلا يجيء منه شيء في بدايات الطريق فضلاً عن نهاياتها، وقد سمعت سيدي محمد المغربي الشاذلي - رحمه الله - يقول: لا يصح لمريد عندنا قدم في طريق الله ﷻ إلا بعد أن يزهد في شهوات الدارين ونعيمها، وهناك أول سيرة فإن **الناس ثلاثة أقسام**: عوام، وخواص، وخواص الخواص.

فالعوام: هو كل من يصبح والدنيا أكبر همه، فلا يلتفت لورد بعد الصبح ولا غيره.

والخواص: من يقدم أعمال الآخرة على الدنيا طلبًا للثواب الذي وعده الله له.

وخواص الخواص: من يعمل لله امتثالاً لأمره لا خوفًا من عذابه ولا طمعًا في ثوابه، انتهى.

ومما استندوا إليه في مؤاخذتهم المريد بالاحتلام كون الاحتلام لا يقع من مريد

(1) ذكره ابن المنذر في «الأوسط» (85/5) بنحوه.

إلا بعد إطلاقه بصره في النظر لما لا يحل له والتفكير فيه، وإن وقع الاحتلام في حلائله فلا بدله كذلك من إطلاق البصر إليهن والتفكر في كيفية الاستمتاع بهن، ثم إن إبليس إذا رآه متفكرًا في ذلك وحيل بينه وبين شهوته أتاه بذلك الذي تعلق خاطره به في النوم ليسخر به ويمنعه من الصلاة وتلاوة القرآن حتى يصح له التطهر، وربما منعه من ذلك الليلة كلها لكونه احتلم بعد العشاء، ولم يجد ماء يتطهر به أو ما يصلح أن يتطهر به، فعلم أن كل من لا يطلق بصره لا يقع منه احتلام، وكذلك لم يبلغنا أن أحدًا من الأنبياء احتلم، وكذلك من حفظ من الأولياء وذلك لعصمة الأنبياء، وحفظ الأولياء من أن يلعب بهم الشيطان في يقظة أو منام، لكن لا يخفى أن لعبه بالمريدين في النوم أخف من لعبه بهم في اليقظة، فينبغي لهم شكر الله على ذلك فافهم.

ثم إن قدر أنه وقع من أحد الأولياء احتلام فإنما يكون ذلك في حليلته دون ما يحل له، وسبب ذلك ما يتجلى لقلوبهم من عظمة الله ﷻ، فيذهبون عن تدبير أبدانهم، وقد وقع أن عمر بن الخطاب ﷺ احتلم مرة في جارية له فاغتسل وقال لقد ابتلينا بهذا الأمر منذ ولينا أمر المسلمين واشتغلنا بمصالحهم، انتهى.

وذكر سيدي علي الخواص ﷺ أن سيدي إبراهيم المتبولي لم يحتلم قط إلى أن مات بعد مائة وسبع سنين، وكان يقول: من زعم أنه تاب من الزنا، ثم احتلم بعد ذلك فيما لا يحل له فهو دليل على عدم توبته النصوح، إذ من شروط التوبة النصوح ألا يصير في قلبه حلاوة لتلك المعصية التي تاب منها واحتلامه يدل على بقاء حلاوة تلك المعصية في قلبه، فلولا وجود تلك الحلاوة في قلبه لما تفكر ولا احتلم انتهى.

ومما استندوا إليه في مؤاخذتهم المريد بمد رجله بغير حاجة في ليل أو نهار كون العبد دائمًا بين يدي الله ﷻ إيمانًا أو شهودًا شعر بذلك أم لم يشعر، فطلبوا من المريد أن يواظب على عدم مد رجله بغير حاجة، بحكم الإيمان بأنه بين يدي الله ﷻ حتى ينكشف عنه الحجاب بعد انتهاء سلوكه ويصير حجاب إيمانه كلا حجاب، وهناك يكون دخول النار عليه أو ضربه بالسيف أهون عليه من مد رجله بغير حاجة، وقد بلغنا عن السيد إبراهيم بن أدهم ﷺ أنه مد رجله في ليلة بغير حاجة فسمع هاتفًا في الحال يقول: يا إبراهيم تأدب فإنك بين يدي ربك جالس، وما هكذا أحد يجالس الملوك، فقال: فما مد إبراهيم بعد ذلك رجله في ليل أو نهار حتى مات، انتهى.

وقد أخبرني أخي أفضل الدين - رحمه الله - أنه وقع له في بدايته رقة حجاب، فصار يرى نفسه بين يدي الله لا يتحجب ذلك عنه قال: فصرت لا أنجو أن أدخل

الخلاء، ولا أكشف لي عورة عند الاستنجاء، ولا يخرج لي بول ولا غائط من شدة الحياء من الله تعالى فما كنت إلا هلكت، ثم إني استغثت بالله ﷻ أن يسدل عليّ الحجاب فأسدله عليّ رحمة بي، وكان - رحمه الله - بعد ذلك يقول: لولا أن الله تعالى حجب الخلق عن شهوده لما وقع أحد في معصية ولكادوا يموتون كلهم من هيبته تعالى نحو يوم واحد، انتهى.

وسمعت شيخ الإسلام زكريا - رحمه الله - يقول: إنما أخذ الفقراء المريد بتهمة الخلق له بالسرقة مثلاً - وإن كان الشرع يقضي بعدم المؤاخذة على ذلك - لأنهم إنما أخذوه بتعاطي مقدمات التهاون بحقوق الناس فما أخذوه إلا بأمر محقق وقع منه، ولو أنه خاف من حقوق الناس وتكرر منه ذلك لشهد الناس ببراءته وكذبوا من اتهمه، انتهى.

فعلم من جميع ما قررناه أن طريق القوم كلها أدب وخير وأنها أجل الطرق، خلاف ما يظنه بعض الأجلاف (الذين كشف حجابهم فالله تعالى يتفضل عليهم بالعفو) فإن الطعن في طريق أهل الله طعن في أخلاق الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، وقد قدمنا عن أبي تراب النخشبي ﷺ أنه كان يقول: إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله، أي: لأنه لا يحترم جلساء الملك إلا من أقبل على الله، ودخل حضرته من المتطهرين من الأدناس، أما المتلطخون بشيء من المعاصي الظاهرة أو الباطنة من حسد، وكبر، وعجب، ونفاق، ورياء، وحقد، ومكر، وحرص على الدنيا، فلا يمكن الملائكة أحدًا منهم يدخل حضرة الله أبدًا، ومعلوم أن أهل حضرة الله ﷻ ثلاثة أصناف: أنبياء وملائكة وأولياء، وليس أحد من هؤلاء يحب الدنيا ويقع في الحرص عليها أبدًا، وإن وقع من أحد من الأولياء شيء من ذلك فهو قبل كماله أو بعده، ويتوب منه على الفور ليدخل حضرة الله تعالى التي هي قوت قلوبهم، وقد انعقد إجماع أهل الله قاطبة على أن المعاصي الباطنة كالنجاسة الظاهرة على حد سواء فكما لا يصح صلاة من في ثوبه أو بدنه نجاسة، كذلك لا تصح صلاة من في قلبه نجاسة إلا ما عفا عنه العلماء في دولة الظاهر والباطن ليسير كبر أو عجب قياسًا على يسير دخان نجاسة أو غبار زبل، لكن هذا العفو إنما هو في حق العوام من أهل الطريق، أما الخواص فلا يسامحون نفوسهم بمثل ذلك كما لا يسامحونها في ارتكابها المكروه أو خلاف الأولى، فالكامل من طابق بين الظاهر والباطن في التطهير من الأدناس، وسيأتي في الكتاب أن الشيخ أبا الربيع المالقي - رحمه الله - سمع تلميذه الشيخ الكامل أبا

عبد الله القرشي يقول: اللهم لا تفضحني بسريرتي على رءوس الخلائق في الدنيا أو الآخرة، فقال له: ولأي شيء تجعل لك سريرة تفتضح بها لم لا تظهر سريرتك كما تظهر ظاهرك لتطابق بين باطنك وظاهرك، وتخرج عن صفة المنافقين، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول كثيرًا: قد أجمع المحققون من أهل الله ﷻ على أن حضرة الله محرم دخولها على من بقي عليه بقية من ارتكاب المحظورات إلا بقدر ما يعفى من النجاسة الظاهرة، فكما أجمعوا على أن من صلى وفي ثوبه أو بدنه نجاسة لا يعفى عنها، أو ترك لمعة من غسل أعضاء طهارته لا تصح له صلاة، وكذلك من صلى وفي باطنه صفة مخفية، بل النجاسة الباطنة عندهم أولى بالبطلان؛ لأن القلب محل نظر الله تعالى من العبد، وكان ﷺ يقول: من صلى وفي قلبه غل، أو مكر أو حقد، أو محبة للدنيا فينبغي له إعادة تلك الصلاة؛ لأن أهل الله لا يعبدون بمثل هذه الصلاة؛ لأنهم يشهدون أن تلطخ باطنهم بشيء من المعاصي الباطنة لتضخمهم بالنجاسة الظاهرة على حد سواء، فلا يسقط عنهم الفرض فهي صلاة صورية لا حقيقة، ولكن لما كان مبنى أحكام العامة على ظاهر الشريعة رحمة بهم حكمنا بصحة صلاتهم في الظاهر وحسناتهم على الله تعالى بخلاف مبنى طريق القوم فإن مبناها على مطابقة الظاهر للباطن في الدنيا والآخرة، فإنهم قد خرقوا بصرهم إلى الدار الآخرة، ورأوا بنور الكشف الأعمال التي تقبل هناك، والأعمال التي لا تقبل كأنه رأي عين لهم من هذه الدار، ولكل مقام رجال.

فإن قال قائل: ما مرادكم بحضرة الله تعالى التي يمنع من دخولها من تلطخ بنجاسة ظاهرة أو باطنة؟

فالجواب: المراد بحضرة الله تعالى حيث أطلقت بين القوم هي شعور العبد أنه بين يدي ربه ﷻ ويصير تعالى يراه، فمادام يتشعر ذلك فهو في حضرة الله فإذا حجب عن هذا المشهد خرج من الحضرة سواء كان في الصلاة أم خارجها، وإذا خرج من الحضرة بطلت صلاته؛ لأن من شروط صحة الصلاة عند أهل الله ﷻ دوام الحضور معه تعالى من حين يحرم بها إلى أن يسلم منها قال: وهذه هي حضرة الإحسان المشار إليها بحديث: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1] كما مر تقديره مرارًا.

---

(1) تقدم تخريجه.

فعُلِم أن دخول هذه الحضرة إنما هو بالقلوب والأجسام تبع لها، وعلم أيضًا أن من لم يتطهر من النجاسات الظاهرة والباطنة لا يقدر على دوام استحضاره أنه بين يدي الله تعالى أبدًا،ولو قدر أن تكلف ذلك زهقت روحه من تلك الحضرة، وخرجت قهرًا عليه بواسطة الملائكة الواقعين في تلك الحضرة يعلمون الناس الأدب مع الله، فلا يمكنون أحدًا يشهده تعالى وهو متلطخ بحدث ظاهر أو باطن غيرة على جناب الحق جل وعلا، بل لو خالف ولحظ جمال نور الحق تعالى في تلك الحضرة من غير علم الملائكة مثلاً احترق بشهاب من شهب الحضرة، أو طرد منها لو بقي جسمه كما يطرد الشياطين حين ترمي بالشهب من السماء، فلهذا تسارع أهل الله تعالى إلى تطهير قلوبهم، ولم يعبأوا بطهارة ظاهرهم فقط دون باطنهم، بل طهّروا باطنهم من كل صفة نهاهم الشرع عنها ولو تنزيهًا، حتى أن منهم من دخله عمل على عدم خطور معصية على قلبه السنة والستين، وكان الشيخ سليمان الديلمي ﷺ يقول لي: منذ خمسين سنة ما أظن أني ملت إلى معصية ظاهرة ولا باطنة، انتهى.

وذلك لأن العبد مادام عنده ميل إلى المعاصي فهي تخطر على قلبه ضرورة، فإذا لم يكن عنده ميل ذهب الخطور ضرورة كما هو مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم من ثمرة تطهير العبد من المعاصي الباطنة عدم وقوعه بعد ذلك في سوء الظن بأحد من المسلمين قياسًا على نفسه هو فإن كل صفة لم يتطهر العبد منها فمن لازمه سوء الظن بالناس غالبًا إذ لو تطهر منها لم يبقَ عنده تصور لها، وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول مرارًا: لا يكمل العبد حتى يصل إلى مقام لا تخطر الفحشاء فيه على قلبه، قال: ومن هنا أجمع الأشياخ على أنه لا يشترط في الشيخ أن يكون يطلع على معاصي المريد الباطنة حتى يكاشفه بها، بل أوجبوا على المريد أن يذكر هو أمراضه للشيخ ولا يحوجه إلى المكاشفة بها، وأن قدر أن أحدًا من الكمل أخبر مريده بشيء من عيوبه الباطنة فليس ذلك من باب قياس الشيخ المريد على نفسه وإنما ذلك من باب الإلهام إلى الله تعالى بواسطة صدق المريد في الطريق فافهم.

وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: محل حسن الظن بالناس إنما هو في الأعمال التي يحتمل الخير والشر من الأعمال القلبية المتعلقة بالنيات، أما الأقوال التي صرح الشارع بتحريمها فلا يجوز لمؤمن أن يحمل صاحبها على محمل حسن كشرب الخمر، والأكل من الحرام فافهم.

وقد أجمع علماء الشريعة، وعلماء الحقيقة على وجوب مجاهدة النفس الأبية

حتى تنقاد لما يأمرها به أهل الله تعالى، وينهونها عنه مما يمنع صاحبه دخول حضرة الله ﷻ، ويصير يؤدي المأمورات من غير خلل فيها ظاهرًا وباطنًا بحسب مقامه، لا يصح له ذلك إلا بأحد شيئين: إما جذب إلهي من الله تعالى بلا واسطة شيخ، أو بواسطة شيخ قد تضلع من علوم الشريعة والحقيقة، وهذا من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وسمعته ﷺ يقول أيضًا: قد أجمع العلماء كلهم على وجوب علاج أمراض الباطن حتى تخمد حركتها عن الاستعمال، وأما زوالها لا يصح إلا للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لأن الحق تعالى قد طهر طينتهم من الأكدار بسابق العناية لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه.

وقد أنشد سيدي علي بن وفا - قدس سره - في حق الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قال:

عبادك يا مولى الموالي الذين هم عبادك محفظون حفظ الحبايب

من الذر لم يظهر بصافي ذواتهم سوى نورك الماحي لجنح الغياهب

مياه صفت ذاتًا ومجرًا ومنبعًا وصينت عن الأكدار من كل جانب

وسمعت أخي أفضل الدين - رحمه الله - يقول: قد جعل الله تعالى في طينة بني آدم سائر الأضداد، فجميع الصفات الحسنة والقبيحة تشرق وتغرب في ذاتهم، ولكن مادامت العناية الربانية تحف العبد، فجميع الصفات القبيحة خامدة متعطلة عن الاستعمال فإذا تخلفت عنه العناية تحركت للاستعمال وخمدت صفاته الحسنة، ولذلك قال الله تعالى في حق جميع الخلق ما عدا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام-: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] لم يقل تعالى: ومن يزول شح نفسه، بل أبقى الشح فيها إلا أن العبد يوقى العمل به بعناية الله ﷻ، انتهى.

وسيأتي بسط ذلك في الأخلاق إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين، وليكن ذلك آخر المقدمة، ولنشرع بعون الله في أخلاق رسول الله ﷺ الذي أخذها سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ عن رسول الله ﷺ من طريق الكشف مصدِّرين ذلك بنبذة من أخلاقه ﷺ الثابتة من طريق النقل الظاهر استئناسًا وتبركًا وتعطيرًا للأكوان، فأقول بالله التوفيق.

الباب الأول

في ذكر جملة من الأخلاق

كان رسول الله ﷺ أورع الناس، وأزهد الناس، وأعف الناس، وأعلم الناس، وأكرم الناس، وأحلم الناس، وأعبد الناس، وأبعدهم عن مواطن الريب، لم يمس يده يد امرأة أجنبية قط تشريعًا لأمته واحتياطًا لهم.

وكان ﷺ إذا وعظ الناس يرسل الكلام في حق كل الناس، ولم يكن ينص في وعظه على أحد معين خوفًا أن يخجله بين الناس فيقول: ما بال أقوام يفعلون كذا.

وكان ﷺ أقنع باليسير من الدنيا، وأيسرهم بلغة كان يكفيه اللعقة من الطعام والكف من الحشف، وكان يستحي من الله إذا أراد دخول الخلاء، حتى كان يتقنع بردائه من شدة حيائه ﷺ، وكانت الأرض تبتلع ما يخرج منه ﷺ.

وكان ﷺ أشفق الناس على أمته، وكان يقول: «**اللهم لا ترني في أمتي سوءًا**»[1] وقد فعل الحق تعالى معه ذلك، فلم يره في أمته سوءًا حتى توفاه الله ﷻ.

وكان ﷺ معمضًا عن رؤية زينة الدنيا، فلم يمد عينيه إلى زينتها قط.

وكان معصومًا من خائنة الأعين.

وكان ﷺ يستتر في غسله من الجنابة وغيره، ولم يغتسل عريانًا قط حياء من الله ﷻ، وكان إذا طلب البراز يبعد عن الناس حتى لا يرى شخصه ﷺ.

وكان ﷺ يلبس ما وجد فمرة شملة، ومرة برد حبرة يمانيًا، ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس.

وكان إذا كساه أحد ثوبًا لا يغيره عن هيئته من سعة أو ضيق، ولبس مرة جبة ضيقة الكمين لا يستطيع أن يخرج يده من كمها إلا بعسر.

وكان إذا توضأ فيها أخرج يده من ذيلها ليغسلهما بالإحسان إليهم.

وكان يكرم ذووا رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم.

وكان ﷺ لا يقطع على أحد حديثه، ولا يجفو على أحد كلام ولا غيره، ولو فعل معه ما يوجب الجفاء.

---

(1) ذكر المتقي الهندي في الكنز (351/11)، نحوه.

وكان ﷺ يقبل عذر المعتذر، وإن كان مبطلاً ويقول: «**من أتاه أخوه متنصلاً من ذنب فليقبل ذلك محقًا كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض**»[1].

وكان ﷺ يمزح مع النساء والصبيان، ولا يقول إلا حقًا لقوله للعجوز، وهو مبتسم: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَجُوزٌ**»[2] أي: لأن أهل الجنة أبكار عرب.

وكان ضحكه ﷺ التبسم فقط، من غير رفع صوت.

وكان ﷺ يرى اللعب المباح فلا ينكره، وكان الأعراب يرفعون عليه الأصوات بالكلام الجافي فيحتمله، وكان ﷺ لا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولم يكن له أناء يختص به عن خدمه وإمائه، بل كان يأكل معهم في إناء واحد تواضعًا معهم وتشريعًا للمتكبرين من أمته.

وكان يجيب إلى الوليمة كل من دعاه، ويشهد جنائز المسلمين من عرفه ومن لم يعرفه، وكان منديله باطن قدميه ﷺ إذا أكل.

وكان له ﷺ إماء وخدم، وكان لا يرتفع عليهم في مآكل ولا مشارب.

وكان ﷺ مقبلاً على عبادة ربه ليلاً ونهارًا لايمضي له وقت إلا في عمل طاعة الله ﷻ أو فيما لا بدّ له معه مما يعود نفعه عليه وعلى المسلمين.

وكان ﷺ يخرج إلى بساتين أصحابه فيأكل من ثمارها ويحتطب، ثم يحمل ﷺ الحطب إلى بيته تواضعًا منه ﷺ.

وكان لا يحقر مسكينًا لفقره، ولا يهاب ملكًا لملكه، ويدعو هذا وهذا إلى الله ﷻ دعاءً وحدًا.

وكان ﷺ أرحم خلق الله على الإطلاق، وأشفقهم على دين أمته.

وكان ﷺ إذا سبق لسانه إلى شتم لأحد قال: اللهم اجعله عليه طهورًا وكفارة ورحمة، ولم يلعن ﷺ قط امرأة معيبة، ولا خادمًا ولا بعيرًا.

وكان ﷺ إذا سُئِل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه ودعا له، وما ضرب ﷺ قط امرأة ولا خادمًا ولا غيرهما إلا أن يكون في الجهاد، أو في حد من حدود الله فيأمر الجلاد بذلك تطهيرًا للمجلود، ودعا مرة خادمًا له فلم يجبه فقال: «**والله لولا خشية**

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك (4/170، رقم 7258).

(2) رواه البيهقي في البعث والنشور (335).

القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك»[1].

وكان ﷺ لا يأتيه أحد من حر ولا عبد، ولا أمة ولا مسكين يسأله في حاجة إلا قام معه وقضى حاجته ولو في أقصى المدينة أو في القرى التي خارجها جبرًا لخاطره.

وكان ﷺ لا يعيب قط مضجعًا، وكانوا إن فرشوا له شيئًا جلس عليه واضجع، وإن لم يفرشوا له شيئًا جلس على الأرض واضجع عليها.

وكان ﷺ هينًا لينًا مع جميع أصحابه ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق ،أي: صيَّاح فيها.

وكان ﷺ يبدأ كل من لقيه بالسلام من المسلمين.

وكان إذا أخذ بيده ﷺ أحد سايره حتى يكون ذلك الشخص هو الذي ينصرف.

وكان ﷺ إذا لقي أحدًا من أصحابه صافحه، ثم شابكه وشد قبضته على يده على عادة العرب.

وكان ﷺ لا يقوم عن مجلس، ولا يجلس إلا على ذكر الله ﷻ.

وكان ﷺ إذا جاءه أحد وهو يصلي خفف ﷺ صلاته، ثم سلم منها وقال له: **«ألك حاجة»** فإن قال؟ لا، عاد إلى صلاته، وإن كان له حاجة قضاها له بنفسه أو بوكيله.

وكان أكثر جلوسه ﷺ أنه ينصب ساقيه جميعًا، ويمسك بيده عليهما شبه الحبوة.

وكان ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس حتى أنه لم يكن يعرف من بين أصحابه قال أنس ﷺ: وما رُئِي ﷺ قط مادًّا رجليه يضيق بهما على أحد، ولم يكن يمدهما إلا إن كان المكان واسعًا.

ولما كان ﷺ لا يعرف من بين أصحابه كان الأعرابي إذا جاء يسأل عن دينه، لا يعرفه حتى يصير يسأل عنه فتكلم الصحابة في عمل شيء يميزه ﷺ حتى تصير الأعراب تأتي إليه وتسأله ولا تحتاج إلى من يعرفه به، فاتفق رأيهم على أن يبنوا له دكانًا من طين، ثم فرشوا له حصيرًا من خوص النخل.

وكان ﷺ يجلس عليها حتى مات.

وكان ﷺ أكثر جلوسه إلى القبلة ويقول: **«هو سيد المجالس»**[2] وكانوا يجلسون

---

(1) رواه الطبراني (23/76د ، رقم 889) ، وأبو نعيم في الحلية (378/8).

(2) رواه الطبراني في المعجم الكبير (206/19) بلفظ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَيِّدًا، وَإِنَّ سَيِّدَ الْمَجَالِسِ قُبَالَةَ الْقِبْلَةِ»

بين يديه متحلقين.

وكان ﷺ يكرم كل من دخل عليه، ويؤثره بالوسادة التي تكون تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يقبلها، وربما بسط ﷺ ثوبه أو رداءه لمن لم يكن بينه وبينه معرفة ولا قرابة، ليجلسه عليه تألُّفًا لقلبه.

وكان ﷺ لا يدخر عن الضيف شيئًا، بل يخرج إليه كلما وجد.

وكان ربما لم يجد له ما يكرمه به، فيصير يعتذر إليه تطييبًا لخاطره.

وكان كثيرًا ما يخرج إلى بيوت أصحابه من غير دعوة ويتفقدهم إذا انقطعوا عن مجلسه، وإذا رأى عند أحد منهم جفاءً أرسل إليه بهدية.

وكان ﷺ يداعب الحسن والحسين، وربما أركبهما على ظهره وصار يمشي على يديه ورجليه ويقول: نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما.

وأخذ ﷺ مرة بيد الحسن بن علي ووضع رجليه على ركبتيه وهو يقول: «**حزقة حزقة برقة عين بقة**»[1] هكذا كان أبو هريرة ؓ يقول.

وكان ﷺ يعطي كل من جلس إليه حظه من البشاشة حتى يظن ذلك الجالس أنه أكرم عليه من جميع أصحابه، وكان ﷺ يكني أصحابه ويبتدئهم بالكنى، ويدعوهم بها إكرامًا لهم، واستمالة لقلوبهم، وكان يكني النساء اللاتي ولدن واللاتي لم يلدن، ويكني الصبيان يستلين بذلك قلوبهم.

وكان ﷺ أبعد الناس غضبًا، وأسرعهم رضًا.

وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس.

وكان إذا قام من مجلسه يقول: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**» ثم يقول: «**علمنيهن جبريل ؑ**»، وقال: «**هُنَّ كفارة لما وقع في ذلك المجلس**»[2].

وكان ﷺ قليل الكلام سمح المقالة، يعيد الكلام مرتين أو أكثر ليفهم.

---

(1) رواه الطبراني (3/49، رقم 2652)، وابن عساكر (13/194)، وابن أبي شيبة (6/380، رقم 32193)، والرامهرمزي (ص 129، رقم 99)، والحاكم في معرفة علوم الحديث (ص 89).

ومن غريب الحديث: "حزقة": الحزقة هو القصير الضعيف المقارب الخطى من ضعفه "عين بقة" : كناية عن صغر العينين.

(2) رواه الحاكم (1/721).

وكان كلامه كخرزات النظم.

وكان يُكنِّي عن الأمور المستقبحة في العرف إذا اضطره الكلام إلى ذكرها، ويعرض عن كل كلام قبيح.

وكان ﷺ إذا سلم سلم ثلاث مرات.

وكان كثير البكاء، لم تزل عيناه تهملان من الدموع كأنه حديث عهد بمصيبته، قال أنس ﷺ: وكسفت الشمس مرة فجعل ﷺ يبكي في الصلاة وينفخ ويقول: **«يا رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم، وأن لا تعذبهم وهم يستغفرون، ونحن نستغفرك يا رب»**[1].

وكان ضحك أصحابه عنده التبسم من غير صوت اقتداء به ﷺ وتوقيرًا له[2]، وكانوا إذا جلسوا بين يديه كأنما على رءوسهم الطير من الهيبة والوقار.

وكان ﷺ أكثر الناس تبسمًا ما لم ينزل عليه قرآنًا، أو يذكر يوم القيامة، أو يخطب خطبة موعظة.

وكان ﷺ إذا نزل به أمر فوض أمره فيه إلى الله ﷻ، وسأله الهدى واتباعه، والبعد من الضلال واجتنابه، ويبرأ من حوله ومن قوته.

وكان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدي.

وكان ﷺ يجلس للأكل كالعبد يجمع بين ركبته وبين قدميه كما يجلس المصلي إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم.

وكان كثيرًا ما يقول: **«أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما**

---

(1) رواه الترمذي في الشمائل (315).

(2) قال سيدي الشعراني في «تطهير الزوايا»: وينبغي للشيخ أن يعلم فقراء الزاوية شدة توقير رسول الله ﷺ واحترامه وتعظيمه فلا يتعاطى أحدهم قراءة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر:1]، أو الإكثار من الصلاة عليه ﷺ مثلاً ليراه في منامه بل ينزه ذلك الكمال عن رؤية مثله، وعن تكليفه للمجيء من المدينة المشرفة إلى مكان ذلك الشخص الذي يطلب رؤيته؛ بل لو كان صادقًا في محبته له ﷺ فطلبه رسول الله ﷺ أن يجيء إليه لكان من الأدب تقبيل نعله وسؤاله ﷺ بالله ألا يأتيه تعظيمًا وإجلالاً فإنه ﷺ أكثر الخلق تواضعًا ولو سأله أخس الناس في حاجة لأجابه إليها كما كان في حياته ﷺ وقد قررنا مرارًا أن من أدب الزائر لقبر رسول الله ﷺ أن يقول له أعطني يا رسول الله يدك لأقبلها إلا بإذن سابق منه ﷺ فإن الأدب أن ينزه العبد النبي ﷺ عن مسه بعضو قد تدنس بالمخالفة ولو مرة واحدة في العمر، والحمد لله رب العالمين.

يجلس العبد»[1].

وكان ﷺ لا يأكل الطعام الحار ويقول: **«لأنه غير ذي بركة فأبردوه، وإن الله لم يطعمنا ناراً»**[2].

وكان ﷺ يأكل مما يليه، ويأكل بأصابعه الثلاث، وربما استعان بالرابع.

وكان لا يأكل قط بأصبعين ويقول: **«إنه فعل الشيطان»**[3].

وكان ﷺ يأكل القثاء بالرطب والملح.

وكان ﷺأحب الفاكهة الرطبة إليه الرطب والعنب.

وكان ﷺ يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر، وربما يأكله بالرطب ويستعين باليدين جميعًا.

وكان ﷺ يأكل العنب خرطًا يرى زواله على لحيته كحدر اللؤلؤ، وهو الماء الذي يتقاطر منه، وكان أكثر طعامه ﷺ التمر والماء.

وكان ﷺ يجمع بين التمر واللبن ويسميهما: «الأطيبين».

وكان ﷺ أحب الطعام إليه ﷺ اللحم، ويقول: **«إنه يزيد في السمع، وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة»**[4].

وكان ﷺ يكره إدمان أكل اللحم ويقول: **«إنه يقسي القلب»**[5].

وكان ﷺ يأكل الثريد باللحم والقرع، ويحب القرع ويقول: **«إنه شجرة أخي يونس»**[6] وكثيرًا ما يقول لعائشة: **«إذا طبختي دباء فأكثري من مرقتها، فإنه يشد قلب الحزين»**[7].

وكان ﷺ لا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين، يقول له: **«لبيك»**، ولا يغضب

---

(1) رواه ابن عساكر (76/4)، وهناد (411/2، رقم 799)، والبزار كما في مجمع الزوائد (21/9)، والبيهقي في الكبرى (101/2).

(2) ذكره الغزالي في الإحياء (197/2).

(3) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (18/3) .

(4) ذكره العجلوني في كشف الخفا (461/1).

(5) رواه البيهقي في الشعب (5479)، والطبراني في الدعاء (1762).

(6) ذكره الغزالي في الإحياء (433/3).

(7) رواه أبو بكر الغيلاني في «الفوائد الغيلانيات» (912).

لنفسه، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله ﷻ.

وكان ﷺ ينفذ الحق حيث كان، وإن عاد عليه بالضرر، أو على أصحابه، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، ويكتم ذلك عن أصحابه وأهل بيته تحملاً للمشقة عنهم إذا علموا بجوعه ﷺ.

وكان ﷺ يأكل ما وجد ولا يرد ما قدم إليه من الحلال، وكان لا يتورع قط عن مطعم حلال، بل يأكل منه توسعة على أمته.

وكان ﷺ يأكل ما وجد، فإن وجد تمرًا دون خبز أكل، أو لحمًا مشويًا أكل، أو خبز بُر أكل، أو خبز شعير أكل، أو حلوى أو عسلاً أكل، أو لبنًا دون خبز أكل واكتفى به ويقول: **«ليس شيء يجزي عن الطعام والشراب غير اللبن»**[1].

وكان ﷺ يأكل البطيخ والرطب، ولحم الدجاج، والطير الذي يصاد.

وكان لا يشتري الصيد ولا يصيده، ويحب أن يصاد له فيأتي به فيأكله.

وكان ﷺ إذا أكل اللحم لم يطأطئ رأسه إليه، بل يرفعه إلى فيه ثم يأكله.

وكان ﷺ يأكل الخبز والسمن.

وكان يحب من الشاة الذراع والكتف، وكانت عائشة تقول: لم يكن الذراع أحب إلى رسول الله ﷺ وإنما ذلك لكونه أعجل الأشياء نضجًا، وكان يعجل به إليه لكونه كان لا يجد اللحم إلا غبًا[2].

وكان ﷺ يعجبه طعام الدباء، ويحب من التمر العجوة، ودعا في العجوة بالبركة، وقال: **«إنها من الجنة وشفاء من السم والسحر»**[3] وكان ﷺ يحب من البقول الهندبا والشمار والرجلة، وكان يكره أكل الكليتين لمكانهما من البول، وكان لا يأكل من الشاة سبعًا: الذكر والأنثيين، والفرج، والدم، والمثانة والمرارة، والغدد، ويكره لغيره أكل هذه المذكورات، وكان يقول: **«أطيب اللحم لحم الظهر»**[4].

وكان ﷺ لا يأكل الثوم ولا البصل، ولا الكرات وقال لعلي: **«يا علي كل الثوم**

---

(1) رواه الترمذي في الشمائل (206)، بتحقيقنا.

(2) لحم غاب: بائت، وإبل غابة وغواب: واردة غباً، وأغبها صاحبها و"رويد الشعر يغب" وأغببته إغباباً: زرته غباً.

(3) رواه أبو عوانة (346/16)، وذكره الغزالي في الإحياء (372/2).

(4) رواه أحمد (203/1).

نيئًا، فإنه شفاء من سبعين داء، ولولا أن الملك يأتيني لأكلته»[1] وما ذم ﷺ طعامًا قط، بل إن اشتهاه أكله وإلا تركه، وكان له ﷺ قصعة يقال لها: «الغراء» لها أربع حلق يحملها أربعة رجال بينهم، وكان له صاع ومد وسرير قوائمه من ساج، وكان له ﷺ ربعة يجعل فيها المرآة والمشط والسواك والمقراضين - وهما المقص والملقاط - وكان له ﷺ سبع أعنز منائح[2] ترعاهن له أم أيمن حاضنته ﷺ، وكان ﷺ يعاف الضب والطحال ولا يحرمها، ويقول: **«إن الضب لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه»**[3] وأما الطحال فإنما كرهه ﷺ؛ لأنه مجمع أوساخ البدن وكان يلعق الصحفة بأصابعه ويقول: **«آخر الطعام أكثر بركة»**[4].

وكان يلعق أصابعه حتى تحمر. وكان لا يمسح أصابعه بالمنديل حتى يلعقها واحدة واحدة، وكان يقول: **«إنه لا يدري في أي الأصابع البركة»**[5].

وكان ﷺ إذا أكل اللحم والخبز خاصة غسل يديه بالماء غسلاً جيدًا، ثم يمسح بفضل الماء على وجهه.

وكان ﷺ إذا شرب لا يتنفس في الإناء، وإنما ينحرف عنه، وأتوه مرة بإناء فيه لبن وعسل فأبى أن يأكله وقال: **«شربتان في شربة، وإدامان في إناء واحد لا حاجة لي بهما، أما إني لا أحرم ذلك، ولكني أكره الفخر بفضول الدنيا، والحساب على ذلك، وأحب التواضع لربي ﷻ في جميع أحوالي، فإن من تواضع لله رفعه الله»**[6].

وكان ﷺ في بيته أكثر حياء من العذراء في خدرها، وكان لا يسألهم طعامًا، ولا يتشهاه عليهم، إن أطعموه أكل وأطعم غيره وما أطعموه قبل، ولو كان قليلاً، وكثيرًا ما كان ﷺ يقوم فيأخذ ما يأكل وما يشرب بنفسه.

وكان ﷺ إذا اعتمّ أرخى عمامته بين كتفيه، وفي أوقات كان يغرزها في عمامته،

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس (5/330).

(2) المنيحة: بفتح فكسر،والجمع: منائح وتطلق على الناقة الممنوحة، وكذلك الشاة، ثم سميت بها كل عطية.

(3) رواه البخاري (5/2060)، ومسلم (3/1543).

(4) رواه أحمد (1/293).

(5) حديث لعق أصابعه الشريفة رواه مسلم (3/1605)، والطبراني في الكبير (6/35).

(6) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (3/319).

وفي أوقات كان لا يرخيها جملة هكذا قال بعضهم، والجمهور على أنه ﷺ لم يترك العذبة حتى مات.

وكان كمه ﷺ إلى الرسغ وهو المفصل بين الكف والساعد، ولبس ﷺ القبا، والفرجية، والجبة الضيقة الكمين في سفره.

وكان ﷺ إذا أُهدِيَ إليه ثوب يخالف هيئة ثيابه لا يغيره عن هيئته، بل يلبسه على هيئته توسعة على أمته ﷺ كما مر في الجبة الضيقة الكمين.

وكان له رداء طوله ستة أذرع في عرض ثلاثة أذرع.

وكان إزاره ﷺ أربعة أذرع وشبرًا في عرض ذراعين وشبر.

وكان ﷺ يلبس الأبراد التي فيها خطوط حمراء، وخضراء.

وكان ينهي عن لبس الأحمر الخالص.

وكان له ﷺ سراويل، ولبس النعل التي يسميها الناس الناسومة.

وكان له ﷺ بردان أخضران يصلي فيهما الجمعة والعيدين.

قال بعض العلماء: ولم يلبس ﷺ البرد الأخضر الخالص للخضرة أبدًا، قالوا: وكان أكثر لباسه ﷺ في الجمعة البياض، قالوا: وقوله: «أخضران» أي: فيهما خطوط.

وكان ﷺ يتقنع بردائه تارة ويتركه أخرى، وهو الذي يسميه الناس الآن الطيلسان أو البشنفة.

وكان أكثر لباسه ﷺ ولباس أصحابه ثياب القطن.

وكان له ﷺ عمامة قطرية وهي الغليظة من القطن.

وكان ﷺ يلتحي كثيرًا بالعمامة من تحت الحنك على طريق المغاربة الآن في بلاد مصر، وكان يلبس الشعر الأسود، ولبس ﷺ مرة بردة من الصوف، فوجد لها رائحة الضأن فتركها، قال أنس: وتوفي رسول الله ﷺ وله بردة تنسج عند النساج.

وكان ﷺ يحب الرائحة الطيبة، ويكره الرائحة الخبيثة.

وكان ﷺ يأكل من الكبد إذا شويت.

وكان مع أهل بيته في الخدمة كأنه واحد منهم من حسن خلقه وحسن معاشرته، وكانت عائشة - رضي الله عنها - تقول: لم يكن أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ كنت إذا هويت شيئًا تابعني عليه، قالت: وكنت إذا شربت من السقاء يأخذه يضع فمه على موضع فمي ويشرب، وربما كنت حائضًا وكان ينهش فضلتي من اللحم الذي على العظم، قالت: وكان ﷺ يتكئ في حجري ويقرأ القرآن، قالت: وربما أكون حائضًا.

وكان ﷺ له غنم، وكان لا يحب أن يزيد الغنم على مائة فإن زادت ذبح الزائد، وكان ﷺ يبيع ويشتري، ولكن كان شراءه أكثر من بيعه، وآجر ﷺ نفسه قبل النبوة في رعاية الغنم، وكذلك آجر نفسه لخديجة - رضي الله عنها - في سفره لتجارتها، واستدان ﷺ برهن وبغير رهن، واستعار وضمن ووقف أرضًا له، وحلف ﷺ بالله تعالى في أكثر من ثمانين موضعًا توسعة بذلك على أمته مع أنه كان أكثر الخلق تعظيمًا لربه ﷻ، ولولا توسعته على أمته ما حل ﷺ قط تعظيمًا له.

وكان ﷺ يستثني في يمينه تارة، ويكفرها أخرى، ويمضي فيها أخرى.

وكان ﷺ يثيب الشاعر على شعره، وإذا مدحه وضع الثواب في حق غيره لئلا يتجرأ الشعراء على المدح ويبالغوا فيه فيؤدي إلى الكذب بغير حق وأمر أن يحثي[1] في وجوه المداحين التراب وصورة ذلك أن الممدوح يأخذ ترابًا بأصابعه من الأرض، ثم يذريه بين يدي المادح على الأرض ويقول له: «ماذا تمدح فيمن خُلِقَ مِنْ هذا؟» لا أنه يرمي التراب في وجه الشاعر فيؤذيه بذلك كما فهمه بعضهم، وكان ﷺ يصارع لأجل معرفة مكائد حرب العدو، وصارع ركانة كما قاله بعضهم، وكان ﷺ يفلي ثوبه من القمل الذي يصعد على ثيابه من مواضع الفقراء، ولم يكن ثوبه ﷺ يقمل، وكان ﷺ أحسن الناس مشيًا، وأسرعهم فيه إذا مضى للصلاة حتى كأنه ينحط من صبب من غير التراب، ولا تعب منه ﷺ، وكان أصحابه يمشون بين يديه وهو خلفهم ويقول: **«دعوا ظهري للملائكة»**[2] إذا سافر يكون ساقة أصحابه لأجل المنقطعين وإردافهم والنظر في حالهم، وكانت ثيابه ﷺ كلها مشمرة فوق الكعبين يشد وسطه إذا كانت طويلة وأكثر أحوالها أنه كان يفصلها قصيرة فلا يحتاج إلى تشمير، وكان إزاره فوق ذلك إلى نصف الساق.

وكان قميصه ﷺ مسدود الأزرار، وتارة كان يتزرر بالأزرار المعهودة، وتارة بشوكة أو إبرة، وربما أحدث التزرر في الصلاة، وكان له ﷺ ملحفة مصبوغة بالزعفران، وربما صلى بالناس فيها وحدها، وربما لبس الكساء الأسود، أو المخطط، وما عليه

---

(1) يحثي: وَفِي حَدِيث حَدِّ الشَّارِبِ أَحْثُوا عَلَى وَجْهِهِ التُّرَابَ أَيْ: ارْمُوا، وَهُوَ بِالْوَاوِ وَالْيَاءِ جَمِيعًا يُقَالُ: حَثَا يَحْثُو حَثْوًا وَحَثَى يَحْثِي حَثْيًا.

(2) رواه الدارمي (1/37)، وأحمد (3/397).

غيره، وكان يلبس الكساء المرقع ويقول: **«إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد»**[1].

وكان له ثوبان للجمعة خاصة كما مر سوى ثيابه في غير الجمعة، وربما لبس إزارًا واحدًا ليس عليه غيره يعقد طرفيه بين كتفيه، وربما أمَّ به الناس على الجنائز، وربما صلى به في بيته ويلتحف به إذا كان واسعًا، وربما كان ذلك الإزار هو الذي جامع فيه يومئذ، وربما صلى في الليل في وسطه إزار يرتدي بطرفه مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه لطوله ويصلي فيه، وكان لا يتحرك بحركة ركوعه ولا سجوده.

وكان له كساء أسود ليس عنده غيره فاستسكاه شخص فكساه له ﷺ.

وكان له ﷺ ملاءة مصبوغة بالزعفران كما مر، وكانت تنقل معه إلى بيوت زوجاته فترسلها المرأة التي كان نائمًا عندها لصاحبة النوبة فترشها بالماء فيظهر رائحة الزعفران فينام معها فيها ﷺ.

وكان ﷺ كثيرًا ما يخرج وفي إصبعه الخيط المربوط في خاتمه فيستذكر به الشيء.

وكان يختم بخاتمه على الكتب ويقول: **«الخاتم على الكتاب خير من التهمة»**[2].

وكان ﷺ يلبس القلانس تحت العمائم، وتارة يلبسها من غير عمامة، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه وصلى إليها وكانت صوفًا، وتارة كان يجعلها قطنًا محشوة مضربة، ولم يبلغنا أنه ﷺ لبس الزنط، قال العلماء: وهذا يؤذن بأن طولها كان ثلثي ذراع حتى يصح كونها سترة للمصلي.

وكان له ﷺ عمامة تسمى «السحاب» فوهبها لعلي ؓ فربما طلع علي ؓ وهي على رأسه يقول ﷺ: **«هذا علي قد أقبل في السحاب»**[3].

وكان له ﷺ فراش من أدم حشوه ليف، وطوله ذراعان أو نحوهما، وعرضه ذراع وشبر ونحوه.

وكان له ﷺ عباءة تفرش له حينما تنقل تثنى له طاقين فيجلس عليها، وفرشتها له

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (155/7)، والطبراني في الكبير (147/12).

(2) ذكره الغزالي في الإحياء (198/2).

(3) رواه ابن عدي في الكامل (390/6).

عائشة مرة بعد أن ثنتها أربع طاقات فنام ﷺ تلك الليلة عن الوقت الأول من ورده، فقال: «**أعيدوها من طين، فإن لبثها أو وطئها كاد أن يمنعني قيام ليلتي**»[1].

وكثيرًا ما كان ﷺ ينام على الحصير وحده ليس فوقه شيء.

وكان له ﷺ مطهرة من فخار يتوضأ منها ويشرب.

وكان الناس يرسلون أولادهم الذين لم يبلغوا الحلم فيدخلون عليه ﷺ فلا يمنعون، فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه، ومسحوا منه على وجوههم وأجسامهم يبتغون بذلك البركة.

وكان ﷺ إذا صلى الغداة جلس في مجلسه يجيء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فسألوه ﷺ أن يضع يده في أوانيهم فيفعل، وربما جاءوه في الغداة الباردة فيغمس يده في الماء.

وكان ﷺ إذا بصق يتسارع الناس إلى تلقي بصاقه ونخامته بأكفهم ولا يقع له ﷺ نخامة على الأرض، فكانوا يدلكون بتلك النخامة وجوههم وجلودهم طلبًا ألا يمسهم النار يوم القيامة، وكانوا يقتتلون على غسالة ماء وضوئه.

وكان أصحابه يتكلمون عنده بخفض صوت مع الهيبة والإطراق، وكانوا لا يحدقون النظر إليه ﷺ، ولا يحدقون بصرهم إليه تعظيمًا له وتوقيرًا[2].

وكان ﷺ لا يؤذي من يؤذيه، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يذكر أحدًا بغيبة ولا يشمت بمصيبة.

وكان إذا بالغ أحد في إيذائه صبر واحتمل ولم يقابله بنظيره، وربما قال: «**رحم**

---

(1) رواه مسلم (1977/4)، وأحمد (385/2) بنحوه.

(2) وينبغي للشيخ أن يعلم فقراء الزاوية شدة توقير رسول الله ﷺ واحترامه وتعظيمه فلا يتعاطى أحدهم قراءة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر:1]، أو الإكثار من الصلاة عليه ﷺ مثلاً ليراه في منامه بل ينزه ذلك الكمال عن رؤية مثله، وعن تكليفه للمجيء من المدينة المشرفة إلى مكان ذلك الشخص الذي يطلب رؤيته؛ بل لو كان صادقًا في محبته له ﷺ فطلبه رسول الله ﷺ أن يجيء إليه لكان من الأدب تقبيل نعله وسؤاله ﷺ بالله ألا يأتيه تعظيمًا وإجلالاً، فإنه ﷺ أكثر الخلق تواضعًا ولو سأله أخس الناس في حاجة لأجابه إليها كما كان في حياته ﷺ وقد قررنا مرارًا أن من أدب الزائر لقبر رسول الله ﷺ أن يقول له أعطني يا رسول الله يدك لأقبلها إلا بإذن سابق منه ﷺ فإن الأدب أن ينزه العبد النبي ﷺ عن مسه بعضو قد تدنس بالمخالفة ولو مرة واحدة في العمر، والحمد لله رب العالمين.

الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[1].

وكان ﷺ يكره من يبلغه السوء عن أصحابه ويقول: **«لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيراً فإني بشر أغضب كما يغضب البشر»**[2] وقسم مرة قسمًا بين أصحابه، فلما انصرف قال شخص من القوم: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى، فلما رجع ﷺ أخبره شخص بما قيل في حقه، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيراً إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»**[3].

وكان ﷺ إذا رأى أحدًا يفعل ما لا يليق لا يبادر إلى الإنكار عليه ولكن يثبت وينظر فإن رآه جاهلاً علَّمه برفق ورحمة كما في قصة الأعرابي الذي دخل فبال في المسجد، فإنه نهى أصحابه أن يزعجوه عن بوله وقال: **«إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»**[4] فلما فرغ الأعرابي من بوله كلمه بخفض صوت، وقال: **«إنما جعلت المساجد للصلاة، ولم تجعل للبول»**[5].

وكان ﷺ يركب الحمار موكوفًا وعليه قطيفة، وإذا مر على الصبيان سلم عليهم وباسطهم، وأتوه مرة برجل فأرعد من هيبته ﷺ فقال: **«هون عليك يا أخي لست بملك ولا جبار، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»**[6].

وكان ﷺ إذا جلس لا يتميز عن أصحابه بشيء، ربما أتى الغريب فلا يعرفه تواضعًا مع أصحابه وإجلالاً لهم، فأتاه يومًا أعرابي يسأله عن أمر دينه فصار يسأل ويقول: أين محمد؟ فتكلم الصحابة ﷺ في شيء يميزه حتى لا يحتاج الغريب إلى سؤال فأدى رأيهم أن يجعلوا له دكانًا من طين يجلس عليه، ففعلوا وفرشوا له عليه حصيرًا من خوص كما مر، وكان من تواضعه ﷺ أنه لا يدعوه أحد من أصحابه إلا قال له: **«لبيك»**.

وكان ﷺ مع أصحابه على ما يريدون ويحبون، فإن تكلموا في أمر الآخرة تكلم

---

(1) رواه البخاري (1148/3)، ومسلم (739/2).

(2) رواه ابن أبي عاصم في الآحاد (200/2).

(3) رواه الترمذي (710/5)، وأحمد (395/1).

(4) رواه البخاري (89/1).

(5) رواه أحمد (328/2)، وابن ماجه (262/1).

(6) رواه الحاكم (506/2).

معهم، أو في أمر الدنيا تكلم معهم، أو في الطعام أو شراب تكلم معهم رفقًا بهم واستمالة لخواطرهم، وكان هينًا لينًا ﷺ، وكان لا يزجر أصحابه إلا عن حرام أو مكروه.

وكان ﷺ يسابق عائشة بالعدو والهرولة يسبقها فإذا رآها غضبت تثاقل لها حتى تسبقه، وكان ﷺ معتدل الخلق في السمن، ثم بدن في آخر عمره، ومع ذلك كان لحمه متماسكًا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن،قالت عائشة - رضي الله عنها: وما مات ﷺ حتى كان أكثر صلاته النفل جالسًا، وكان إذا تعب من القيام يجلس فيقرأ وهو جالس، فإذا قارب الركوع قام فقرأ ما كتب له ثم ركع، وكان كثيرًا ما يفتتح قيام الليل بركعتين خفيفتين، ثم يطيل بعدهما ما شاء، ويجعلها كالنافلة التي قبل الفريضة، ويكثر فيهما من الاستغفار أدبًا مع ربه وتشريعًا لأمته ﷺ انتهى ما ذكرناه من أخلاقه مع أصحابه ﷺ.

وكان من خلقه ﷺ تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه.

وكان اسم رايته ﷺ العقاب، وكانت سوداء، وكان له راية أخرى صفراء، وأخرى بيضاء فيها خطوط سود.

وكان اسم جفنته ﷺ الكافور، واسمه السكن، واسم قضيبه الممشوق، واسم قدحه الريان، واسم ركوته الصادر، واسم سرجه الراح، واسم مقراضه الجامع، واسم سيفه الذي يحضر به الحروب ذو الفقار، وكان له أسياف أُخَر.

وكان له ﷺ منطقة من أدم فيها ثلاث حلق فضة.

وكان اسم ناقته القصواء وهي التي يقال لها العفينا، وكان اسم بغلته ﷺ دلدل، واسم حماره يعفور، واسم شاته التي كان يشرب لبنها عينه.

وأما **صفته** ﷺ فلم يكن بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، وإذا مشى مع الطويل ساواه، وكان يقول: «**جعل الخير كله في الربعة**»(1).

وكان لونه ﷺ أزهر، ولم يكن بالأسود ولا شديد البياض، والأزهر: هو الأبيض المشرب بحمرة، وكان عرقه ﷺ أطيب من المسك الأذفر يعني الخالص.

---

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (3/350).

وكان شعره ﷺ يضرب إلى منكبيه، وفي بعض الأوقات إلى شحمة أذنيه.

وكان مائلاً إلى الصهوة، وكان شيبه ﷺ في رأسه ولحيته نحو ثمان عشرة شعرة.

وكان ﷺ صافي البشرة، وكان إذا غضب أو رضي يُرَى رضاه وغضبه في بشرته ووجهه، وكان له ﷺ أواخر عمره ثلاث عكن: يغطي الإزار منها واحدة.

وكان كفه ﷺ ألين من الحرير، وكانت رائحتها كرائحة كف العطار مسها بطيب أم لم يمسها، إذا صافح شخصا يظل يومه ذلك كله يجد ريحها.

وكان ﷺ معتدل الخلق في السمن، ثم بدن أواخر عمره كما مر، وكان مع ذلك لحمه متماسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن، انتهى.

وفي هذا القدر كفاية في فتح باب التأسي به وبأخلاقه ﷺ والحمد لله رب العالمين إذا علمت، فأقول وبالله التوفيق.

من أخلاق سيدي إبراهيم المتبولي وأخلاق أصحابه رضي الله عنهم أجمعين

أن يربوا أصحابهم بالتدريج رحمة بهم، فيشغلوا المريد أولاً بالعمل على جلاء مرآة قلبه من الصدأ بكثرة ذكر الله تعالى، وبالجد والاجتهاد في السير إلى الحضرة الإلهية بالأعمال المرضية، ولا يأمروه بالتخلق بالأخلاق العظيمة التي لا يقدر في بدايته على التخلق بها، فإنها تبطئ عليه السير إلى مقام الكمال، ثم إذا انتهى سلوك المريد إلى مقام الكمال فهناك يُصبغ في تلك الحضرة بالأخلاق المحمدية بالخاصية من غير كلفة ولا مشقة، ثم إذا أمر بالرجوع إلى الكون فلا يشغله بعد ذلك شيء منه؛ لشهوده أن الحق تعالى هو القائم بكل شيء ومع كل شيء، فلا يعتزل عن شيء، ولا يهرب من شيء، ويقضي على نفسه بالجهل في حال سيره، وقد كان الحق تعالى قادرًا على أن يعطي العبد هذه الأخلاق بغير انتهاء سلوك، ولكن ذلك لم يسبق به علمه، إنما سبق أن يكون الستر والترقي على هذه الحالة، ولو أن العبد كان يشهد الحق تعالى خالقًا لكل شيء في أحسن تقويم، ومع كل شيء ما فر في بدايته من شيء، وصورة المنتهي صورة المبتدئ، ولكن المشهد مختلف، ومن هنا جهل الناس مراتب الكاملين، وظهر لهم الناقصون لتميزهم بالأعمال البدنية بخلاف الكاملين فإنهم إنما يتميزون بالأخلاق القلبية.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إنما لم يؤمر المريدون بالتخلق بأخلاق القوم في بدايتهم؛ لضيقهم وعسر ذلك عليهم بخلافهم بعد انتهاء كمالهم ومجاهداتهم وفطامهم على يد شيخ صادق ناصح، فلذلك كانوا لا يشغلون المريد في بداية أمره إلا بالتوحيد سرًا وجهرًا ليلاً ونهارًا، فلا يزال أفراد العالم ينقص في شهوده شيئًا فشيئًا كلما أكثر من الذكر إلى أن يصير لا يشهد إلا الله وحده، كما هو الحال في صورة وجود الله تعالى قبل خلقه الخلق، فإن الله تعالى كان ولا شيء معه أصلاً، ثم إنه لما خلق أول مخلوق رأى ذلك المخلوق نفسه مع ربه فقط، ثم لما خلق المخلوق الثاني صار يرى نفسه، ورفيقه مع الحق، ثم لما خلق المخلوق الثالث صار يرى نفسه، ورفيقيه مع الحق وهكذا إلى انتهاء الأعداد في الذهن، ثم كلما صارت دائرة الخلق تتسع في شهود العبد كذلك صارت دائرة الحق تضيق في شهوده، إذ لا حلول ولا اتحاد حتى ربما صار العبد لا يشهده إلا الخلق، فلما انتهى الأمر إلى شهود هذه الكثرة التي حجبت العبد عن شهود عظمة ربه تعالى، أرسل الله تعالى رسله إلى الناس، وأمرهم بالسلوك على مدرجة شرائع الرسل بالأعمال المرضية والأخلاق الذكية، فصارت أفراد العالم تنقص في شهودهم شيئًا فشيئًا، حتى رجع العبد إلى حالته الأولى التي لم يكن معه هناك أحد إلا الله تعالى، وهناك صحت له مراقبته ومعاملته، فإن المحجوب عن الله بشهود الخلق لا يهتدي لمعاملته، ولا مراقبته، انتهى.

وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: لو أن الأشياخ أمروا المريد بتأدية حقوق العباد في حال سلوكه إلى حضرة ربه لا يقطع عن السير؛ لأن حكم ذلك حكم من يحمل في عنقه صخرات عظيمة، ويطلب سفرًا بعيدًا نحو عشرين سنة مثلاً، فربما قطع على عدد حقوق العباد عمره كله ولم يصل إلى حضرة ربه، فلذلك قالوا له: لا يعول على حق أحد من الخلق إلا إن كان عونًا لك على السير وإياك أن تخالط الخلق، أو تشفع، أو تنام، أو تكثر من الكلام، أو تمسك شيئًا من الدنيا إلا لضرورة، أو تأكل شهوة من الشهوات، فإن ذلك كله يحجبك عن الله ﷻ؛ ولكن إذا انتهى سيرك وعرفت الله تعالى المعرفة المعروفة بين القوم، فهناك لا يشغلك شيء عن الله تعالى، فترجع تخالط الناس، وتأكل الشهوات، وتمسك الدنيا بحذافيرها، وتتكلم باللغو مع الخلق، وغير ذلك بما كنت منهيًا عنه في حال بدايتك، وتصير ترى الملك في الأمور كلها لله تعالى، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين - رحمه الله - يقول: إياكم أن تنكروا على عارف

بالله تعالى إمساكه الدنيا، أو نكاحه المنعمات، أو بناءه الدور، أو غرسه البساتين، أو ركوبه الخيول المسومة، أو أكله اللذيذ من الطعام أو الشراب ونحو ذلك، فإن له مشاهد صحيحة في ذلك، بخلاف المبتدئ، فإن كل شيء من هذه الأمور تحجبه عن الله، وتوقفه عن السير إلى حضرته لضيقه وضعفه، انتهى.

واعلم ذلك يا أخي، وأعمل عليه واعرضه على مريدي زمانك تعرف حالهم، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يشهدوا نفوسهم وتلامذتهم حال تربيتهم لهم أنهم كلهم من جملة تلامذة رسول الله ﷺ، وهو الشيخ الحقيقي لهم، فإن جميع ما يربون به التلامذة إنما شرعه ﷺ صريحًا واستنباطًا كما مر في خطبة الكتاب، وكأن لسان حال كل شيخ يقول لمريديه: يا أولادي إنما أربيكم بشرع نبيكم ﷺ، وأنا مبلغ لكم شرعه الصحيح، وما استُنبِط منه فأقول لكم: قال نبيكم ﷺ: كذا، أو قد استَنبطَ العلماء من شرع نبيكم كذا، وليس لي من ذاتي شرع أتمشيخ عليكم به.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول لتلامذته: قد أمركم نبيكم بكذا، أو نهاكم عن كذا، فعُلِمَ أن كل شيخ غاب عن هذا المشهد الذي ذكرناه من شهوده، وتلامذته من جملة تلامذة رسول الله ﷺ فهو جاهل قليل الأدب، وإنما الواجب عليه أن يجعل جميع استمداده من رسول الله ﷺ بالأصالة، ثم يصير يمد تلميذه من مدد رسول الله ﷺ كما أن رسول الله ﷺ أُعطِي علم الأولين والآخرين، ومع ذلك كان يأتيه جبريل بالوحي، فيصغي إليه كأن ما علمه إلا منه إثباتًا للأسباب والوسائط، وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه:١١٤]، أي: لا تسابق جبريل بما تعلمه منا سابقًا من الوجه الخاص بيننا وبينك، بل أصغِ إليه كأنك ما علمته إلا منه، هكذا رأيته في كلام بعض العارفين، انتهى.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول للمريدين: استمعوا لأشياخكم، ولا تطالبوهم في قبولكم قولهم بدليل كما لا تطالبون بذلك من قلدتموه من المجتهدين ﷺ، فإن شيخكم له مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ بلا واسطة، فإن فاته الأخذ من طريق النقل أخذ من طريق الكشف، وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ما من شيخ تحقق له قدم الولاية المحمدية إلا ويرى نفسه نائبًا لرسول الله ﷺ في جميع ما يأمر به وينهي عنه، ويرى الفضل في ذلك لرسول الله ﷺ لا لنفسه، ومنهم من يصير يربي

مريده وهو يشهد في نفسه أنه دون ذلك المريد في الدرجة كما هو معروف بين أهل الذوق منهم، فاعلم ذلك، واعرضه على مريدي زمانك تعرف حالهم، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: رميهم الدنيا وشهواتها من يدهم، ومن قلبهم أول دخولهم في الطريق، فلا يصير لهم ميل إلى شيء من الدنيا، ذلك ليحصل لهم صحة بناء الأعمال الأخروية، فإنه لا يصح لمريد أن يبني في الآخرة شيئًا من أعماله إلا بعد كمال الزهد في ضرتها التي هي الدنيا، وكل من تلقى على شيخ، أو أخذ عنه العهد وهو يميل إلى الدنيا، فلا بدّ أن يرجع من حيث جاء وترفضه الطريق، وكان سيدي محمد المغربي الشاذلي شيخ جلال السيوطي - رضي الله عنهما - يقول: لا يصح لمريد قدم في طريق أهل الله ﷻ إلا بعد أن يزهد في الدنيا ونعيم الآخرة، وهناك يبتدئ في سيره في الطريق، فإذا رأيتم شيخًا يطلب الدنيا، ويزاحم عليها ويتكدر لمفارقتها فاعلموا أنه لم يشم من طريق أهل الله تعالى رائحة، بل هو مدعٍ كذاب، انتهى.

فاعرض يا أخي ما ذكرناه على مريدي عصرك، تعرف حالهم، ولا تنس نفسك.

ومن أخلاقهم: ألا يصدوا لأخذ العهد ولا لإلباس الخرقة ولا لتلقين الذكر إلا بعد اجتماع شروط هذه المراتب، وكثيرًا ما سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: أربع مراتب زاحم الناس عليها في هذا الزمان من غير قيام بشروطها وهي: أخذ العهد على المريدين، وتلقينهم الذكر، وإلباسهم الخرقة، وإرخاؤهم العذبة، فقلت له: وما شرط من يأخذ العهد على المريدين؟ فقال: من شرطه أن يزهد في الدنيا، ويتوب عن كل شيء يكرهه الله تعالى ظاهرًا وباطنًا، وذلك ليقتدي به المريد ويهتدي بهديه، فإن الراغب في الدنيا الواقع في المعاصي لا يصلح أن يكون داعيًا إلى طريق الله ﷻ، ومن هنا أجمعنا على عصمة الأنبياء لكونهم مشرعين بجميع أفعالهم وأقوالهم، فلو أنهم صح في حقهم شيء من المعاصي الحقيقة لصدق عليهم بشرائع المعاصي لقومهم، ولا قائل بذلك، فقلت له: هذا مقام عزيز في غالب مشايخ هذا الزمان، فقال: نعم هو مقام عزيز؛ لأن صاحبه نائب لرسول الله ﷺ وخليفة له، ومن شرط الخليفة أن يكون على صورة من استخلفه في التنزه عن الرذائل الظاهرة والباطنة، وإن لم يلحق به، وجميع ما نقل عن بعض الأنبياء من اسم المعصية فهي أمور صورية لا حقيقية، فيجري الله تعالى على أيديهم أمورًا تشابه بعض ما يقع فيه قومهم؛ ليروا قومهم كيف يتخلصون من المعاصي إذا وقعوا فيها، مع كون الأنبياء منزهين عن سائر الرذائل

بإجماع الأمة هذا اعتقادنا الذي نلقى الله تعالى به، انتهى.

وقلت: وسيأتي بسط ذلك قريبًا في الجواب عن أكابر أهل الحضرة الإلهية والله أعلم.

وسمعت سيدي محمد الشناوي - رحمه الله - يقول: من شرط الداعي إلى الله تعالى أن تتساوى سريرته وعلانيته، بل ترجح سريرته في الخير على علانيته، وكذلك من شرطه أن يكون عفيفًا عن الدنيا غير ناظر إلى ما في يدي من يدعوهم منها، وهي الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

قال بعض العارفين: الحكمة هي غناء الداعي عن مال المدعو، فإنه إذا كان محتاجًا إليه هان في عينه، ولم يبقَ لكلامه في قلبه موقع، وأما ﴿ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ فهي: أن يمهد الداعي للمدعو بساطًا قبل أن يدعوه ويعلمه بما لَهُ في ذلك من المصلحة في الدنيا والآخرة، حتى يكون ذلك المريد يشكر فضل مربيه على ما يرشده به من الخير، لما يرى لنفسه فيه من الحظ والمصلحة، واعلم ذلك فإنه نفيس ولترجع إلى تمام بقية الشروط، فنقول: قال سيدي علي الخواص: وأما شرط من يلقن المريد كلمة لا إله إلا الله على وجه التحقيق دون التبرك: فهو أن يقدره الله تعالى أن يفرغ على المريد حال قوله له قل: لا إله إلا الله جميع أحكامها، فلا يصير يحتاج بعد التلقين إلى مطالعة كتاب، بل يصير يعرف جميع أحكام الشريعة المتفرقة في جميع مذاهب المجتهدين، ويدرس الناس فيها، وأما شرط من يرخي العذبة للمريد في عمامته بأن يقدره الحق تعالى على أن يعطي ذلك المريد الذي أرخى له العذبة سر النمو والزيادة في كل شيء نظر إليه أو مسه، حتى أنه لو مد العمود، أو الخشب امتد معه، فيكون إرخاء العذبة له إشارة إلى أنه من أصحاب هذا المقام من باب التحدث بالنعمة.

قلت: ومما يشهد لمشروعية العذبة ومقدارها ولبس الخرقة ما رواه البيهقي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف من كرابيس مصبوغة بسواد، لما أمره على سرية عقد له اللواء فأخذها ﷺ فحلها، ثم عممه بيده، وأفضل موضع أربع أصابع أو نحو ذلك، وقال: «**هكذا فاعتم فإنه أحسن وأجمل**»[1] وروى أبو داود عن

---

(1) رواه البيهقي (363/6).

عبد الرحمن بن عوف قال: «عممني رسول الله ﷺ فسدلها بين يدي ومن خلفي»، انتهى.

وأما شرط من يُلبِس المريد الخرقة من ثوب أو عمامة أو طاقية، أو قلنسوة أو رداء: فأن يقدره الله على نزع جميع الأخلاق الردية من ذلك المريد حال أمره له بنزع شيء مما عليه من الثياب، ثم يفرغ عليه حال إلباسه له تلك الخرقة جميع الأخلاق المحمدية التي هي من مقامه، فلا يصير يحتاج بعد ذلك إلى علاج في تحصيل خلق من الأخلاق، انتهى.

قال السهروردي[1]: وإلباس الخرقة الزرقاء للمريد أولى عند الجمهور، ولكن إن

---

(1) هو الشيخ الجليل السيد الحفيل أستاذ زمانه وفريد أوانه، مطلع الأنوار ومنبع الأسرار. دليل الطريقة، وترجمان الحقيقة، أستاذ الشيوخ الأكابر، الجامع بين علمي الباطن والظاهر، قدوة العارفين، وعمدة السالكين، العالم الرباني، المربي أبو حفص عمر بن محمد البكري الصوفي السهروردي، مصنف كتاب عوارف المعارف المشتمل على مكنونات المعارف، ومصونات المحاسن، واللطائف، وغير ذلك من التصانيف الحسنة الجامعة بين بداعة الملاحة، وبراعة الفصاحة، وحلاوة العبارة المشتملة على درر المعارف ومواقيت الحكم، وطلاوة الإشارة المحتوية على حياة القلوب، وشفائها من السقم، وعقيدته معروفة مشهورة موصوفة مشكورة، وكان إذا أشكل عليه شيء من أمرها منها، يرجع فيه إلى الله تعالى ويستخيره حول بيته ويتضرع إليه في التوفيق لإصابة الحق والتحقيق، وكان فقيهاً شافعي المذهب، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة. تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره مثله. صحب عمه الشيخ الإمام أبا النجيب، وعنه أخذ التصوف والوعظ. وذكر بعضهم أنه صحب أيضاً قطب الأولياء وقدوة الأصفياء الشيخ عبد القادر الجيلي، ثم انحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد بن عبد، ورأى غيره من المشهورين، وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ عليه قبول وله نفس مبارك.

قال ابن خلكان رحمه الله: ورأيت جماعة ممن حضروا مجلسه وقعدوا في خلوته فكانوا يحكون غرائب مما يطرأ عليهم فيها من الأحوال الخارقة.

وكان كثير الحج، وكان أرباب الطريق من مشايخ عصره يكتبون إليه من البلاد صور فتاوى يسألونه عن شيء من أحوالهم، وسيأتي آخر الفصل إن شاء الله تعالى.

قال ابن نقطة: كان شيخ العراق في وقته صاحب مجاهدة وإيثار وطريقة حميدة ومروءة تامة، وأوراد على كبر سنه.

وقال ابن النجار: كان شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعا الخلق إلى الله تعالى، قرأ الفقه والخلاف والعربية، وسمع الحديث، ثم انقطع، ولازم بيته، وداوم الصوم والذكر والعبادة إلى أن ظهر له قبول من الخاص والعام، وعلا شأنه، وتكلم على الناس، وعقد مجلس الوعظ في مدرسة عمه على دجلة، فحضر عنده خلق عظيم وظهر، واشتهر اسمه
-

اختار الشيخ أن يلبس المريد غير الأزرق فلا اعتراض عليه؛ لأن الأشياخ بحكم الوقت في كل ما لم يرد في الشرع تصريح به، وللشيخ أن يلبس المريد خرقًا على دفعات، انتهى.

فعُلِم أن كل من لم يقدر الله تعالى على ما ذكرناه في هذا المراتب: فليس له المزاحمة على مراتب العارفين اللهم إلا أن يقصد بذلك التبرك أو التشبه بالقوم بشرط أن يعلم الناس بأنه متشبه بأهل الطريق لا متحقق بمقامهم، فلا بأس بذلك، وقد كان شيخنا الشيخ محمد الشناوي - رحمه الله - إذا لقن أحدًا يقول له: اسمع يا ولدي قولي ثلاثًا - تشبهًا وتبركًا برسول الله ﷺ وبالسلف الصالحين ﷺ - ثم يلقنه بعد ذلك، انتهى.

قلت: قد اختلف المحدثون في إثبات لبس الخرقة من طريق الحسن البصري عن علي بن أبي طالب، حتى أن الشيخ محي الدين بن العربي لبسها من يد الخضر ﷺ، ومن يد رسول الله ﷺ ليتصل سنده بها، ولكن قد صحح الحافظ ضياء الدين المقدسي، والجلال السيوطي اتصال سندها من عليّ، وأن رسول الله ﷺ ألبس أم خالد خميصة فيها خطوط صفر وسود، وقال لها: «ابلي واخلقي»[1] وثبت في الحديث أنه ﷺ ألبس عبد الرحمن بن عوف عمامة، وكذلك علي - رضي الله عنهما - كما مر، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم لتقبيل أحد يدهم فضلاً عن رجلهم، فإن في محبتهم لمثل ذلك ازدراء بإخوانهم، ورضا بإظهار السيادة عليهم، وما هكذا درج السلف الصالح ﷺ كما سيأتي بسطه في مواضع من هذا الكتاب.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: لا ينبغي لفقير أن يمكن أحدًا من تقبيل يده أو التمسح بثيابه، إلا إن صار في مقام الحجر الأسود، فقيل له: وما مقام

وقصد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه في توبة العصاة، ورأى من الجاه والحرمة عند الملوك ما لم يره أحد.

ويحكى عنه من طي حروف القرآن وقراءته في الزمن القصير ما يعجز عنه غيره في الزمن الطويل عجائب بطول زهدها، وهذه كرامة من الله تعالى في مقام الخلة، والمحبوبية، وقوة شهود القلب، وتلاطم أمواجه منادى إلى اللسان. وانظر: «روضة الحبور» لابن الأطعاني- بتحقيقنا- مصر.

(1) رواه البيهقي في الشعب (5/182).

الحجر الأسود؟ فقال: من مقام حفظ عهود جميع من استلمه، ويحمل خطايا بني آدم عنهم، وفداؤهم بنفسه، ولو أسودَّ بذلك وجهه بين الناس، ومن مقامه: أن يتطهر من تلويث قلبه بشيء من الأوهام، حتى لا يصير يلتبس عليه أمر في الدنيا والآخرة، وأن يتحقق بترك الشهوات كلها، حتى لا يصير يقع في شهوة تحجبه عن شهود الحق تعالى في ساعة من ليل أو نهار، ومن مقامه أن يكون مجالسته للناس مذكِّرة لهم بربهم وبنعمته عليهم، حتى يبيض بذلك وجوههم وقلوبهم، ومن مقامه ألا يخطر في باله أن له مزية على من يقبل يده مثلاً من جميع العصاة إلا من حيث الشكر لله الذي حماه مما وقعوا فيه، ومتى غفل عن هذا المشهد فلا ينبغي له أن يمكن أحدًا من تقبيل يده، انتهى.

فلينظر الذي يمكن الناس من تقبيل يده في نفسه، فإن رأى فيها هذه الشروط فله أن يمكن الناس من تقبيل يده، وإن كان الأولى له المنع من ذلك، وسمعت محمد بن عنان وسيدي علي الخواص - رحمهما الله - يقولان: لا ينبغي لفقير أن يمكن أحدًا من تقبيل يده إلا بعد مجاوزته الصراط سالمًا، وكان أشد الناس كراهية لذلك.

وبالجملة فعلى العبد هضم نفسه، وعلى المريدين التعظيم له من حيث كونه واسطة لهم فيما بينهم وبين حضرة الله تعالى ﷻ، التي يريدون أن يكونوا من أهلها، والحمد لله رب العالمين.

فاعرض يا أخي ذلك على مريدي عصرك تعرف مقامهم، ولا تنس نفسك والله يتولى هداك.

ومن أخلاقهم: كثرة تفتيشهم كل ساعة من ليل أو نهار؛ ليعلموا هل الحق تعالى راضٍ عنهم، أو ساخط عليهم، فيفرحوا ويستبشروا، أو يندموا ويستغفروا، ويعرفون ذلك بوزن الأعمال البارزة على يديهم بالكتاب والسنة، ولا يخلو عن ثلاثة أحوال: إما موافقة، أو مخالفة، أو لا تظهر فيها مخالفة ولا موافقة.

فأولى أحوال هذه الوقف، فإن كان أحدهم ممن يتوب من شهوات النفس المباحة رجع ذلك إلى قسم الذم، فيستغفر صاحبه كما يستغفر من المكروه أو خلاف الأولى، ثم لا يخفى أن أحدنا إذا رأى أفعاله مخالفة لظاهر الكتاب والسنة وندم واستغفر فليس هو على يقين من قبول توبته، ورضا الله عنه أو مسامحته بذلك الذنب، وحيث لا يقين فمن الأدب دوام الخوف والخجل من الله ﷻ؛ لأن الذنب قد يتحقق بمخالفة الشريعة، وأما القبول للتوبة ليس مع أحدنا بذلك علم، وقد بلغنا أن الله تعالى

أوحى إلى داود ﷺ: يا داود قل لفلان العابد: مالي لا أراك نائحًا على ذنبك أتظن أنك بتقادم عهدك به أني قد غفرته لك ومن أخبرك عني أنني قد غفرته؟ انتهى.

وسيأتي قريبًا أن ذنوب الأنبياء كلهم صورية لا حقيقة فافهم[1].

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إذا أذنب أحدكم فليكثر من التوبة والاستغفار على الفور خوفًا من الإصرار، فيطبع الله على قلوبكم فلا يصير تصح لها توبة من عدم الندم، قال: ولعل أحدنا يكون ربه ساخطًا عليه على الدوام، وذلك لتعاقب الأعمال القبيحة عليه فلا يتوب من ذنب إلا ويعقبه ذنب آخر، وربما أسخط العبد ربه بالذنب الواحد اليوم واليومين، وأكثر وهو مصرٌ عليه من غير توبة، فمثل هذا لا يزال الحق ساخطًا عليه حتى يقع في ذنب آخر يسخط به ربه، فمثل هذا سخط الحق تعالى عليه دائم، وربما كان نظر في نفسه أنه من الصالحين فليتنبه الفقير لمثل ذلك، فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم، نقص وخذلان وشيب وعيب ودعاوى عريضة بعد ذلك.

وقد كان السري السقطي ﷺ على أعمال يعجز غيره عنها، حتى قال أبو القاسم الجنيد كان السري السقطي يقول لنا: يا أولادي عليكم بالأعمال الصالحة، قبل أن تصيروا عاجزين مثلي.

قال الجنيد: وكنا مع ذلك لا نلحقه في العمل وهو في آخر عمره، وقد أتت عليه ثمان وتسعون سنة فما رُئي مضطجعًا إلا في علة الموت، قال الجنيد: وقد سمعته مرارًا يقول لي: يا محمد لي منذ ثلاثين سنة وأنا أظن أن الله تعالى ينظر إليّ نظر

---

(1) قال القرطبي: قال بعض المتأخرين من علمائنا والذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم وتنصلوا منها، واستغفروا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم، وإنما تلك الامور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالامن والامان والسلامة.

قال: وهذا هو الحق.

ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الابرار سيئات المقربين، فهم - صلوات الله وسلامه عليهم - وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبتهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم وهداهم، ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم، صلوات الله عليه وسلامه. [تفسير القرطبي (11/255)].

الغضب، انتهى.

قلت: وهذا القول من السري السقطي ﷺ من باب الاتهام لنفسه وإلا فاعتقادنا فيه بحسب ما تواتر عنه أنه كان مطهرًا من الذنوب، بل بلغنا عنه أنه كان يؤاخذ نفسه بخلاف الأولى فضلاً عن المكروه لو لم يكن له من الفضل إلا كون الإمام الجنيد الذي أجمع القوم كلهم على فضله وجلالته من جملة تلامذته.

وسمعت أخي أفضل الدين - رحمه الله - يقول: إذا كان الشيطان يركب أحدنا كلما غفل عن ذكر الله تعالى مع طهارة سرائرنا، فكيف لا يركب أحدنا إذا فعل ما يسخط الله ﷻ عليه؟ فإنه دائمًا واقف تجاه قلب العبد، وكلما غفل عن الله استحوذ عليه، وكلما ذكر الله تعالى ترك عنه، قال: فلو كُشِفَ لأحدنا لرأى إبليس يركبه وينزل عنه طول الليل والنهار كلما غفل، وكلما ذكر الله تعالى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: مادام العبد مستحضرًا أنه بين يدي الله ﷻ فلا سبيل لإبليس عليه، فإذا حجب عن هذا المشهد عبث به، فاعلم يا أخي ذلك واعمل عليه، واعرضه على مريدي زمانك تعرف حالهم، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: توطين نفوسهم على كثرة التعب فالمريد الذي تقدمت له صحبة بأحد من الفقراء الذين لا قدم لهم في الطريق كغالب الأحمدية، والبرهانية، والمطاوعة، فإن الحكم غالبًا للداعي الأول والداعي الثاني طارئ، وقد صحبتُ بعض من صحب المطاوعة، فذاب قلبي من التعب فيه فأقرر له معالم طريق الصوفية، وقواعد طريقهم حتى أقول أنه ما عاد يخرج عنها ثم يرجع إلى واعد المطاوعة في أسرع ما يكون، واعلم ذلك واعرضه على مريدي عصرك تعرف حالهم ولا تنس نفسك.

ومن أخلاقهم: كثرة شفقتهم ورحمتهم على جميع عصاة هذه الأمة المحمدية من شربة الخمر والمكاسين، وسائر من عليه تبعة للخلق، فإنه كالأسير لأصحاب الحقوق، ومحبوس عن الجنة حتى يوفي ذوي الحقوق حقوقهم، ولعل غالب الناس لا يعد تبعات الخلائق بلاء، ويعتقد أن البلاء إنما هو الأوجاع والآلام من زمانه وجذام وبرص ونحو ذلك، وكان سفيان الثوري ﷺ[1] يقول: إذا رأيتم أحدًا من أعوان الظلمة

---

(1) هو سيد الحفاظ، أمير المؤمنين في الحديث، عالم الأمة في القديم والحديث. الإمام الرضي، الورع الزاهد الدري، له النكت الرائعة، والاستنباطات الشريفة الفائقة، والهمم التائقة، والنفس
-

فاسجدوا لله شكرًا فإنهم من أهل البلاء، وبلاؤهم أعظم من البلاء في الجسد، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: البلاء في الدين أشد من البلاء في الجسد، فارحموا العصاة، وادعوا لهم، فإن غالب الناس لا يكاد يرحم أحدًا منهم كما يرحم من ابتلى ببلاء في جسده أو تحولت عنه نعمة، وقد أطلق رسول الله ﷺ البلاء في قوله: «ارحموا أهل البلاء»[1] فلم يخص بلاء دون بلاء، انتهى.

ثم اعلم يا أخي أنه لا فرق في رحمتنا للعصاة بين أن يكون أحدهم متلبسًا بالمعصية أو في عقوبتها، ولا يجوز لنا الشماتة به، أو التشفي منه إلا على وجه أن ذلك تطهير له من ذنبه، فتفرح له بتلك العقوبة من حيث كونها مطهرة له من دنس المعصية لا لعلة أخرى[2].

الشائقة.

العلم حليفه، والزهد أليفه، والفقه عريفه، والفقر تشريفه، والقناعة حريفه، والصبر قرينه، والرضا خدينه، والتوكل مسلكه والتفويض مطلبه ومدركه. وقد قيل: التصوف براعة في المعارف وبلاغة في المخاوف. قال الذهبي رحمه الله وغيره: كان سيد أهل زمانه، لم ير مثل نفسه.

قال: وقال الأئمة في فضله وزهده وعبادته تحتمل مجلدين.

ونقل السهروردي عنه أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن بلا زاد، ويعتمد على السؤال في الطريق. وكان يحط على المنصور فظلمه فهم بقتله فلم يمهل. وانظر: الثقات لابن حبان (6/ 401)، وطبقات ابن سعد (371/6)، وصفة الصفوة (147/3) والجرح والتعديل (713/4)، والتاريخ الكبير (92/4)، والتاريخ الصغير (139/2) وتهذيب الكمال (154/11)، والعبر (1/ 235)، والشذرات (250/1)، وطبقات الشعراني (47/1)، وسير أعلام النبلاء (229/7)، والوافي بالوفيات (278/15).

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (340/6)، والبيهقي في الشعب (263/4)، والرواية المشهورة «أهل الأرض» بدل «أهل البلاء» رواه أبو داود (285/4).

(2) وقال الشيخ المصنف: ومن أخلاقهم: مسامحتهم لكل من اغتابهم في حياتهم وبعد مماتهم مما بلغهم وما يبلغهم حتى السامعين المصدقين على الغيبة، لاسيما المقاريض فإن حكمهم لآخرة حكم من أركبته الديون من سائر الخلق، وداروا حوله يطلبون منه ديونهم مع إفلاسه، ومثل هذا ينبغي لكل من عنده طرف من الفتوة أن يسامحه بدينه رحمةً به، فإنه أهل بلاء، وقد قال ﷺ: «ارحموا أهل البلاء».

وقال سيدي الإمام النووي رحمه الله عن شخصٍ مشهورٍ بالفتوة، وله دين على معسر فضيق عليه في الطلب، هل يقدح ذلك في فتوته؟ فقال: نعم يقدح ذلك في فتوته انتهى.

وقد روى الطبراني مرفوعًا: «**من لا يرحم لا يُرحم، ومن لا يغفر لا يُغفر له، ومن لا يتب لا يتب الله عليه**»[1].

وفي الحديث أيضًا: «**ومن أتاه أخوه متنصلاً من ذنب فليقبل ذلك محقًا كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لم يرد الحوض**»[2] وروى البيهقي: «**إن بدلاء أمتي لم يدخلو الجنة بالأعمال، وإنما دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس، وسلامة الصدور، والرحمة لجميع المسلمين**»[3] انتهى.

والظلمة والعصاة كلهم من المسلمين، وما خرج إلا الكفار فإياك يا أخي وقولك لمن هو في عقوبة ذنب: فلان يستحق ذلك وأكثر، فإنه تحصيل الحاصل مع أنه فيه رائحة الشماتة بالمسلمين، ولولا عفو الله وحلمه لأهلك كل عاصٍ على وجه الأرض عقب معصيته، فضلاً عن كونه يحبسه أو يضربه مثلاً، وإياك والقساوة على أحد من عصاة المسلمين، فإن ذلك ينافي أخلاق الصالحين، وعاملهم ظاهرًا معاملة القاسي زجرًا لهم، وأنت راحم لهم في الباطن عملاً بالشريعة والحقيقة.

فقد قالوا: من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة رحمهم، وقد كان أبو سليمان الداراني يقول: اللهم إنك قد أدخلت في قلبي الرحمة على العصاة، فإن شئت أن تفديني عنهم فافعل، وانتهى.

وهذا من أبي سليمان من باب إظهار النعمة، وقيامًا بما كلف به العبد من حمل هموم المسلمين، وإلا فهو يعلم أن الله تعالى أرحم بالعصاة منه، وقد رتب الله الأسباب على مسبباتها، وأمر العبد بالشفاعة عنده في أخيه، وجعل له الثواب في مدافعته الأقدار الجارية عليه بالمعاصي، وإن كانت متحتمة الوقوع فافهم، واعرض ذلك على مريدي عصرك تعرف حالك، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مساعدة أحد من إخوانهم على تولية شيء من الوظائف التي لا خلاص لهم فيها

بميزان الشرع الشريف الآن كالحسبة والقضاء، وهذا الأمر ربما يخل به كثير من فقراء الزمان فيسعى لمن يتولى القضاء أو الحسبة مثلاً عند الباشا أو الدفتر أو قاضي

---

(1) رواه البخاري (2235/5)، ومسلم (1808/4)..

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه ابن أبي الدنيا في الأولياء (58)، والبيهقي في الشعب (439/7).

العسكر، ولا ينظر لكونه يضر ذلك المتولي والساعي أم لا، فينبغي لمن يريد مساعدة أحد في توليه المناصب التي لا خلاص فيها ألا يبادر إلى مساعدته إذا سأله في ذلك، بل يتربص ويتروى ويشاور الإخوان في ذلك، ثم إن وثقوا كلهم بدينه وخيره، وقلة بلصه وعدم أخذه الرشا، ولم يروا في البلد من هو أصلح لذلك منه، فهناك يساعدونه على التولية من باب ظلم دون ظلم.

فعُلِمَ أنه لا يجوز لأحد مساعدة القاضي مثلاً إذا لم يثق بدينه، ولكن إن أراد مساعدته، فليسأل الله تعالى في إصلاح حاله، فإن صلح حاله ساعده، وإلا وكَّل أمر ذلك إلى ولي الأمر، ولا ينبغي لنا مساعدته ولو ساق علينا الساقات، فإنه كالطفل الذي لا يدري ما يضره ولا ينفعه، ولا يقع في توليه القضاء في هذا الزمان إلا من يحتط لنفسه، فإنه ولو كان دينًا يدخل عليه التلبيس من الأخصام وغيرهم، فيحتاج إلى حذق زائد؛ لأنه في النصف الثاني من القرن العاشر صاحب العجائب والغرائب.

وقد امتنع من تولية القضاء خلائق من السلف ﷺ، كالإمام أبي حنيفة، وصلة بن أشيم، وسفيان الثوري، والإمام الشافعي وغيرهم.

وأما الإمام الشافعي فدعاه المأمون إلى القضاء بالمشرق والمغرب فأبى، وأما الإمام أبو حنيفة فضُرِب وحُبِس ولم يتولَ، وكان الذي دعاه إلى القضاء الخليفة المنصور، وأما سفيان فهرب إلى بلاد اليمن متنكرًا.

وأما صلة بن أشيم فتحامق على الخليفة فتركه، وكان من شهامته أنه لما دخل على المنصور لم يسلم عليه، بل قال له: أيش طبخت اليوم؟ وكم عندك حمار؟ فقال: أخرجوه عني.

وقد كان سبق من الإمام أبي حنيفة ﷺ أنه قال: حين طلب للقضاء بعد موت القاضي شريح هو وسيان، وصلة بن الأشيم وشريك: إني أخمن لكم تخمينًا: أما سفيان يهرب، وأما أنا فأجلس ولا ألي، وأما شريك فيقع، وأما صلة بن أشيم فيتحامق ويتخلص، وكان الأمر كما قاله الإمام ﷺ قالوا: ولم يكن بعد القاضي شريح في العلماء أعلم ولا أورع ولا أزهد من هؤلاء الأربعة ﷺ.

ولما تولى أحمد بن شريح[1] القضاء عاب عليه ذلك الشافعية، وهجره تلميذه

(1) هو شُريح بن الحارث الكندي أبو أمية القاضي، كان حاله التسليم والتراضي، والقيام على نفسه بالمحاسبة والتقاضي.

أبو علي حتى مات، وقال: لم يكن هذا الأمر في أصحاب الإمام الشافعي إنما كان في أصحاب غيره، ولما مات شريح طلبوا أبو علي للقضاء، فدخل بيته واختفى منهم، فطينوا عليه الباب عشرين يومًا، ثم فتحوا الباب، فإذا هو قائم يصلي فأنشدوا في ذلك:

وطينوا الباب على أبي علي عشرين يومًا ليلي فما ولي

وكذلك بلغنا عن الشيخ أبي الحسن الششتري المغربي[1] صاحب «الموشحات الربانية» ﷺ أن سلطان المغرب طلبه للقضاء، لما اشتهر للناس من زهده وعفته وسعة علمه، واعدهم إلى بكرة النهار، ثم دخل الفجر إلى الحمام، وأرمى شعر لحيته وحواجبه بالنورة[2] وخضّب يديه ورجليه بالحناء، ولبس ثوبًا معصفرًا، وجعل على رأسه طرطورًا، فلما أتوه بالبغلة والغاشية، خرج لهم على هذا الحال، وركب البغلة وذهب إلى السلطان، قال: لا حاجة لنا بمثل هذا، وعرف السلطان أن ذلك إنما عمله حيلة حتى لا يتولى، فبكى السلطان ورق لحاله وأطلقه، فمِنْ ذلك اليوم خرج الشيخ سائحًا في الأرض يعمل الموشحات والزجل إلى أن مات كما أشار إلى ذلك في أول ديوانه، ولما بلغ علماء عصره ما فعله من الحيلة حمدوه على ذلك وعرفوا دينه.

ويلغنا عن الإمام أبي حنيفة أن المنصور أخرجه من الحبس وقال له: لم لا تتولى

ومن كلامه: الرضا هو السرور بمر القضا، ومن عرف الله تحسر على ما مضى.

وقال: ثبات الإيمان الورع، وزوالة الطمع. أسند الحديث عن علي وعمر -رضي الله عنهما- وغيرهما.

انظر: حلية الأولياء (132/4)، وطبقات ابن سعد (131/6)، والجرح والتعديل (332/4)، والتاريخ الكبير (228/4)، والاستيعاب (701/2)، والعبر (89/1)، وتاريخ الإسلام (160/3).

(1) هو العارف الكبير، الصوفي الشهير، إمام تعين في وقته، وتقدم في حسن وصفه ونعته، وهو نسبة إلى ششتر قرية من عمل آش بجزيرة الأندلس، طلبه سلطان المغرب للقضاء لما اشتهر من زهده وسعة علمه فوعدهم إلى غد، ثم حلق لحيته وحواجبه، وخضب أطرافه بحناء، ولبس ثيابًا معصفرة ومزوقة، فأتوه بالبغلة، فركبها على هذا الحال، ودخل للسلطان فقال: لا حاجة لنا بمثل هذا، فخرج من وقته سائحًا، يعمل الجزل والموشحات الربانية حتى مات، كما أشار إلى ذلك في أول ديوانه.

أخذ عن ابن سبعين وغيره. وكان يسمى عروس المتجردين، وهو من كبار أهل الوحدة المطلقة. مات الشيخ في هذا القرن، ودفن بالقرافة، وقبره بها ظاهر يزار. انظر: نفح الطيب (185/2)، شجرة النور (196)، جامع الكرامات (178/2)، والكواكب الدرية (741).

(2) النورة: بضم النون وفتح الراء حجر كلسي يطحن ويخلط بالماء ويطلى به الشعر فيسقط.

وتنفع الإسلام؟ فقال: لا أصلح لذلك، فقال له الخليفة: بلى تصلح، فقال: لا يخلو إما أن أكون صادقًا فلا يصلح من قضاء وإما أن أكون كاذبًا، فالكاذب كذلك لا يصلح أن يكون قاضيًا فأعجز الخليفة، انتهى.

ولما طلبوا أبا قلابة للقضاء هرب إلى الشام وقال: ليس القضاة اليوم قضاة وإنما هم شرطيون، ومن علامة ذلك أن أحدهم يستغني ويكثر ماله إذا تولى، انتهى.

قلت: ويؤيد ذلك قول إمامنا الشافعي ﷺ: من ولّي القضاء ولم يفتقر فهو لص، ولما غضب أحمد بن طولون على القاضي بكار على القضاء كان يقضي بين الجن والإنس احتسابًا وهو متخلل بالرداء وعلى رأسه قطعة لبد، وكان ابن طولون يعطيه كل سنة ألف دينار يضعها عند أمه في صندوق، لما وقع بينه وبينه، وحبسه قال له: يا بكار أين جوائزي؟ فأرسل لأمه فحملوها له، وكانت اثني عشر ألفًا عدد السنين التي تولاها، فلم يزل القاضي بكار في الحبس حتى مات فيه، ولما حبس انقطع التحديث من مصر، فمضى العلماء إلى ابن طولون وقالوا له: أطلقه لنا يوم في الجمعة يملينا الحديث، ثم يرجع إلى الحبس فأبى، فسألوه ثانيًا فأمر لهم بفتح طاقة من الحبس بقدر ما يرون وجهه فقط، وكان يلبس ويتطيب كل يوم جمعة ويقول للسجان: دعني أجيب داعي ربي ثم أرجع، فيقول له: ما معي بذلك إذن، فيرجع إلى داخل الحبس ويقول: اللهم أشهد، وبلغ من ورع القاضي بكار أن رسول الخليفة لما أتاه من بغداد يطلبه للقضاء وجده يخبز في الفرن فانتظره حتى خرج، فقال له الرسول: قف حتى أكلمك، فقال: إن الرداء الذي عليّ لوالدتي وقد استأذنتها أن أخبز فيه فقط، فقف حتى أدخل وأستأذنها فدخل فأذنت له، وأخّر مرة القضاء بين اثنين في جمل تنازعا فيه، فمات الجمل بعد ساعة، فوزن لهما ثمنه، وقال: لو كنت حكمت لأحدهما به لمات على ذمته، انتهى.

فإذا كان أهل المائة الثانية والثالثة من زمنه ﷺ قد امتنعوا من تولية القضاء مع إكراههم عليه وشدة ورعهم وزهدهم ولم يتقوا بخلاص نفوسهم فيه، فكيف بأهل النصف الثاني من القرن العاشر كما مر تقريره؟!

وقد كان قضاة السلف يجوعون، ويلبسون الثياب الخلقة، ويرقعونها بالخيش؛ لتعطلهم عن الكسب بالاشتغال بالقضاء بين الناس، وعدم أخذهم مالاً على القضاء، وكان أحدهم لا يجد غداءً ولا عشاءً في أكثر أيامه، وكانوا يصومون؛ ليكونوا في عبادة فيها ﷺ خوفًا أن يسوء خلقهم بالجوع فيلتبس عليهم الحكم ﷺ.

فعلم من جميع ما قررناه أنه لا ينبغي لفقير أن يتوجه إلى الله تعالى في تولية أحد

من أصحابه إلا بطريق شرعي بعد تربص واستشارة فربما توجه الفقير إلى الله في تولية من لا يصلح؛ فأخذ الرشاء[1] في الأحكام، وكان ذلك الفقير شريكًا له في الإثم؛ لأنه كمن أعان ظالمًا على ظلمه، لاسيما إن كان قد أقسم على الله تعالى بأنبيائه ورسله حال توجهه إليه أنه يوليه.

وقد كان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إياكم أن تقسموا على الله تعالى في تولية أحد من أصحابكم شيئًا من هذه الوظائف المشحونة بالظلم، فتُهْلِكوا نفوسكم وتُهْلِكوا صاحبكم، ولكن إن كان ولا بدّ لكم من سؤال الله تعالى، فقولوا: اللهم إن كان سبق في علمك أن يتولى وهو أهل لذلك فولِّه، وإن لم يكن أهلاً لذلك فدبره فيما سبق به علمك، وارزقه القناعة والعفة حال ولايته، وتسلموا من مشاركته في الإثم، ثم من أقل ما يحصل لمن يتولى القضاء في هذا الزمان أنه يصير كالعبد لمن سعى له في تلك الولاية، ويزدري ثيابه ومركبه وزوجته، ويطلب أعلى من ذلك لأجل مجالسة الأكابر، ولا يصح له ذلك إلا إن أخذ معلومًا على القضاء، وربما وقع في الحكم لبعض الأمراء بالباطل مراعاة لخاطره لاسيما إن كان ذلك الأمير ممن يحسن إليه عادة.

وقد رأيت قاضيًا يبالغ في مدح بعض الظلمة، ويطعن في بعض العلماء والصالحين، فقلت له: أعكس الحال يا أخي فصار يقيم البراهين على تفضيل ذلك الظالم، نسأل الله العافية.

فاعرض يا أخي هذه الآفات على من تساعده، فلعله يرجع عن طلب القضاء وقد زكيت مرة قاضيًا عند قاضي عسكر، فظهرت قلة أمانته، فلا تسأل يا أخي ما حصل لي من الندم، وقد عزمت على أني ما عدت أشفع لأحد في تولية القضاء إلى أن أموت إلا إن خالطته مخالطة شديدة، فاعرض يا أخي ما قررناه لك على مريدي زمانك تعرف مقامهم، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: المواظبة على قيام الليل، ولا يتركون ذلك إلا لعذر شرعي

---

(1) ومنه الحديث: «لعن الله الراشي والمرتشي والرائش»، قال ابن الأثير: الرشوة الوصلة الى الحاجة بالمصانعه وأصله من الرشاء الذى يتوصل به الى الماء فـ(الراشي) الذى يعينه على الباطل، و(المرتشي) الآخذ للرشوة، و(الرائش) من يسعى بينهما يستزيد لهذا أو يستنقص لهذا، فأما ما يعطى توصلا الى أخذ حق أو دفع ظلم فغير داخل فيه وروى عن جماعة من أئمة التابعين قالوا لا بأس أن يصانع الرجل عن نفسه وماله إذا خاف الظلم.

دون الكسل ويفتتحون قيام الليل بركعتين خفيفتين يقرءون في الركعة الأولى بعد الفاتحة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64]، وفي الركعة الثانية بعد الفاتحة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110] ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:112] وتسمى هاتان الأيتان آيتي الاعتراف بالذنوب.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يصلي بعدهما ركعتين أخريين يقرأ في كل منهما بعد الفاتحة سورة القدر مرة، ثم سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد:1] ست مرات، ثم المعوذتين مرة واحدة، ويقول: قد ورد في ذلك حديث حسن، وأن من واظب عليهما حفظ الله تعالى عليه إيمانه حتى يلقاه، وقد علمتهما لجماعة وهم الآن مواظبون عليها لكن بعد طلوع الشمس وارتفاعها كرمح.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: لأن يلقى أحدكم ربه بالإيمان الكامل عن النقص خير له من أن يلقاه بعبادة الثقلين وفي إيمانه ثلمة، انتهى.

ولعل مراد الشيخ بالإيمان الكامل؛ أي: بالنسبة لمقام كل عبد، وإلا لا يكمل إيمان عبد حقيقة إلا إن كان لا يخل بشيء من الأمورات الشرعية، ومتى خل بمأمور واحد صدق عليه نقص الإيمان فافهم.

وأما حكمة الركعتين الخفيفتين التي يقرأ فيهما آيتي الاعتراف: هو فتح باب الصفح أو العفو أو الرضا، فيعرفوا بذلك أهل الحق أنه صفح عنهم أو عفا أو رضِيَ عنهم قبل أن يمتثلوا بين يديه في الصلاة حال التجلي الإلهي فيهما كالإدمان للوقوف الخاص بين يديه السالم من التفات القلب فيه لغير الله تعالى، أو كالسنة التي قبل الفريضة.

وقد نقل الشيخ أحمد الزاهد[1] أن رسول الله ﷺ كان يفتتح بهاتين الركعتين صلاة

---

(1) هو سيدي أحمد بن محمد بن سليمان الزاهد. أصله من فاو - بلدة بالصعيد بقرب هو، من الجانب الشرقي - نشأ بمصر على قدم الصلاح والعبادة. تفقه أولاً على مذهب الإمام الشافعي حتى بلغ رتبة الإفتاء، ثم تصوف وصنف عدة تصانيف. له «رسالة النور»، تشتمل على عقائد =

وفقه وتصوف، في أربعة أسفار كبار، و«هداية المتعلم» مجلد، و«طلب الزاد ليوم المعاد»، و«العدة عند الشدة»، و«هدية الناصح»، و«الستين مسألة» وعم النفع بكتبه.

وانتهت إليه رئاسة تربية المريدين بمصر، وكان متصديًا لذلك، لا يبيت في بيته أصلاً، ولا يدخله إلا يوم الجمعة عقب صلاتها، فيجلس عند أهله إلى العصر فيخرج. وكان ذا حكمة بديعة في تربية السالكين.

وشيخه في الطريق الشيخ حسن التستري، وعنه أخذ الشيخ محمد الغمري والشيخ مدين وطبقتهما، وكان يقال: هو جنيد عصره، لم يحفظ عنه كلمة شطح أبدًا.

قال رضي الله عنه: مكثت ثلاثين سنة أرى نفسي في ألواح السماء من الأشقياء، فلم أتغير حتى مُنَّ علي بمحو اسمي من ديوان الأشقياء.

وكان يعظ النساء بالمسجد، ويخصهن دون الرجال، ويقول: هن لا يحضرن الدروس، وأزواجهن لا يعلمونهن. وكان لا يعظهن إلا من الكراسي، إظهارًا للضعف مع كونه من الراسخين في العلم، فيعلمهن أمر دينهن.

وكان قد قسم الفقراء عنده ثلاثة أقسام: كهول وشبان وأطفال، وجعل لكل قسم مكانًا لا يختلط بالآخر، وكان لا يأذن للفقير أن يجلس على سجادة إلا إن ظهرت له كرامة جلية.

وكان ابتداء أمره أنه لقيه رجل وهو صبي ذاهبًا للمكتب، فطلب منه غداءه، فأعطاه إياه فقال له: ستصير قدوة بمصر، وتلقب بالزاهد، وتبني جامعًا بمصر بالمقس، ويعارضك في عمارته جمع، ويخذلهم الله. فوقع ذلك.

عارضه جمع من العلماء، وأركان الدولة، منهم الحافظ ابن حجر، وجمال الدين صاحب الجمالية، بقرب الخانقاه، ومنع التراب أن ينقل تراب عمارة الجامع وشدد، فقال الشيخ: كل فقير لا يظهر له برهان لا يحترم. فوضع رأسه في طوقه وتوجه، فما رفعها حتى أرسل السلطان خلف جمال الدين، وحبسه حالاً بغير سبب، فقال الشيخ للترَّاب: انقل بطيب قلب، فإنا لا نطلقه حتى تفرغ. فكان كذلك.

قال المقريزي: وكان محل هذا الجامع كوم تراب، فنقله الشيخ، وأنشأ الجامع مكانه، فكمل في زمان سنة ثمان عشرة وثمانمائة، وهدم بسببه عدة مساجد قد خرب ما حولها، وبني بأنقاضها هذا الجامع انتهى.

قال في الأخلاق: ولم يدع أحدًا من الولاة يساعده فيه بحجر واحد، وكذا الشيخ أبو العباس الغمري.

وأنكر عليه الإمام البلقيني، وقال: إنه يلحن في الحديث، ومنعه من الجلوس للوعظ، فدخل الجامع الأزهر، وقعد على كرسي في صحنه، وعيناه كالجمر، وقال: من سألني عن كل علم نزل من السماء؟ فاجتمع عليه خلق، ثم أفاق فقال: من أجلسني هنا؟ فذكروا له القصة فقال: هل سألني أحد؟ قالوا: لا. قال: الحمد لله، لو خرج لي رجل لاختُطف، ثم خرج، فبلغ البلقيني، فجاءه واعتذر.

وسبب تلقيبه بالزاهد أنه أتاه رجل علمه الكيمياء في ليلة، فعمل منها خمسة قناطير ذهبًا، ثم نظر

إليها فقال: أفٍّ للدنيا. فأمر خادمه في صبيحتها أن يرميها بالخلاء، وألاّ يتكلم بذلك، فأصبح الناس يقولون الزاهد، ولا علم لهم بذلك.

واعترض على نصراني غافل عن الله، وعن حكم تصريفه فيه، فألقى في قلبه أنه من الأشقياء، فصار يسارع إلى محو ذلك بكل طريق، ويبكي وينتحب، فنودي في سره: يا أحمد، العبد عبد يتصرف فيه سيده كيف شاء. فرجع إلى اختيار الحق، فمحا عنه ما كان أشهده من الشقاء.

وكان إذا أراد الشفاعة عند من لا يعرفه، يقول لذي الحاجة: خذ أحدًا من الأكابر واقعد عنده، وإذا جئت، قوموا وعظموني لتمهدوا لي مكانًا لقبول الشفاعة، فإني مجهول الحال.

وكان إذا تكلم بشيء من علوم الكشف، يقول: كشف لبعضهم، ولا يضيفه لنفسه.

وكان يقول: ما دخل أحد مسجدي وصلى فيه ركعتين إلا أخذت بيده يوم القيامة.

وكان كل قليل يخلي ولده أحمد، فلا يُفتح عليه بشيء فيقول: القسمة أزلية، ولو كان الأمر بيدي ما قدّمت عليك أحدًا، ويقول: الطريق مواهب، ولو كانت بالاختيار، كان ولدي أحق، يا من يربي ولدنا، ونربي له ولده.

وكان إذا أتاه رجل بولده الطفل قال: اللهم لا تجعل له كلمة، ولا حرمة هذا الدار.

وكان يهجو الفقراء كثيرًا ، وربما يأمر الفقير بالإقامة في الميضأة عام، وإذا أتاه رجل يريد المجاورة عنده يقول له: يا ولدي، ما نحن معدّين لذلك، اذهب إلى الجامع الأزهر.

وأخلى مريدًا، فرأى نفسه من أهل النار فتكدر، وخرج من الخلوة فقال له الشيخ: العبد عبد، وقد رأيت نفسي من أهل النار كذا كذا سنة فما تغيرت، ولا سألت الله في التغيير، فتتغير أنت من رؤيتك ساعة واحدة؟!

وكان لا يجيب أحدًا إلى أخذ العهد إلا بعد سنة، ويقول: الطريق عزيزة، وأخاف أن أدخله العهد بغير صدق، فيمقت إذا خانه.

وأتاه الشيخ عبد الرحمن بن بكتمر، فأخذ عنه، فأقام سنين لا يضع جنبه الأرض، وجاهد مجاهدة عظيمة، حتى فتح له.

وأتاه مدين بعد اشتغاله بالعلم، فأخلاه، ففتح عليه ثالث يوم، فقال: كل الناس جاءونا وسراجهم مطفأ إلا مدين، جاء وسراجه موقود، فقويناه.

وأتاه الشيخ محمد الغمري يطلب الطريق، فوجد الجامع مغلقًا فاستفتح، فقال الشيخ للنقيب: لا تفتح، فقال الغمري: إن المساجد لله. فقال: هذا نفس فقيه، ففتح له وقال: ما تطلب؟ قال: الطريق. قال: ما أنت أهلاً قال: ببركتكم أكون فلقنه، وجعله خادم الميضأة، ثم نقله إلى البوابة، ثم النقابة، ثم الوقادة، فمكث بها عشر سنين، فنام يومًا عن الإيقاد إلى الفجر، فخرج الشيخ فأيقظه، فانتبه مذعورًا، فأشار بيده إلى القناديل فاشتعلت، فقال له الشيخ: اذهب، فأقم ببلبيس فما بقي لك عندنا إقامة. فذهب فلم يستقم أمره بها، فقال: امض إلى المحلة الكبرى، ولا ترجع حتى تأمن عليه. فدخل به، فمنعه أولاد الطريني أن يقيم بها، فسكن بجامع السد، فصار كلما يأتي اللصوص إلى المحلة يعارضهم، فأجمعوا على قتله، فأتوه ليله، فكسروا باب الزاوية فقال لجماعته: لا يخرج لهم أحد غيري، فلما وقع بصرهم عليه تابوا كلهم، وألقوا سلاحهم، فقوي

الليل، ثم يطيل بعد ذلك ما شاء الله تعالى، ولم يكن عليه ﷺ ذنب، ولم يكن الحق تعالى غير راضٍ عنه قبل فعلهما، وإنما فعلهما تشريعًا لأمته.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه إذا فعلهما يصير يردد كل آية حتى يظن أن الله تعالى قَبِلَ استغفاره، واستغفار نبيه في حقه.

شأنه بالمحلة، فرجع مدين إلى مصر، فأخبر الزاهد، فدعا له بأن يكون جميع شيوخ مصر متفرغة عنه.

وأجلّ جماعته ثلاثة: مدين، والغمري، وعبد الرحمن بن بكتمر. وعَمَّرَ كل من مدين وبكتمر زاوية بقربه، وعَمَّرَ الغمري الجامع برأس سوق أمير الجيوش. ولما أراد عمارته قال رجل يبيع لبن المعز: شاور لي رسول صلى الله عليه وسلم في عمارته. فقال: انتظرني غدًا عند عتبة باب النصر، فانتظره، فقال: يقول لك عَمِّرْه وتوكل على الله. وذلك قبل استقراره بالمحلة بالكلية.

وكان الزاهد يخرج كل يوم على باب جامعه بالسحر، يطلب الدعاء ممن دخل من ناحية قليوب الذين يحملون اللبن والجبن، ويقول: هؤلاء مر عليهم نسيم الأسحار.

وكان إذا أتاه فقير يطلب الطريق، يقول: لا، حتى يتضلع من علوم الشرع؛ فإن النفس لا تحمل الشغل بطريقين معًا، قال: وقد عجز الشيوخ الماضون أن يسلكوا طالب العلم وهو مشتغل به، فما قدروا.

ومناقبه مشهورة، وكراماته مأثورة، منها أن الغمري سافر إلى دمياط، فاستصحب له منها علبة حلاوة هدية، فقوى الريح، فاختطفها جبل الراجع، فألقاها بالبحر. فلما سلم عليه، قال: يا محمد، أين هديتك؟ قال: في البحر فقال لنقيبه:أدخله الخلوة، فوجدها فيها تقطر ماءً. ولما احتضر تطاول أحد أتباعه للإذن له بالجلوس بالجامع بعده. فجمعهم وقال:

لا تتنازعوا، أنا أقسم ميراثي في حياتي، فقال للغمري: أنت خيرك في الطريق لذريتك، ما لأصحابك منه شيء، ولمدين: أنت خيرك لأصحابك، ما لذريتك منه شيء، ولابن بكتمر: خيرك لنفسك، ما لذريتك ولا صحبك منه شيء.

وفي الأخلاق أنه قال في مرض موته: إني خارج من الدنيا وما أحد من أصحابي شرب من مشروبي. فقالوا له: ولا مدين؟ فقال: ولا مدين.

ومن كلامه: من لم يكن له حال يحميه من المعارضين له في بيوت الحكام، فشفاعته ناقصة؛ لأن عدوه الذي عند الحاكم يعارضه في كل شفاعة، ويحمله في المحامل السيئة.

ومع جلالته، والاتفاق على صلاحه وولايته، غلب على الحافظ ابن حجر الغض من هذه الطائفة، فقال في شأنه: صار يتبع المساجد المهجورة، فيبني بعضها، ويستعين بنقض البعض في البعض، ثم أنشأ جامعًا، وصار يعظ الناس -- خصوصًا النساء - ونقموا عليه فتواه برأيه من غير نظر جيد في العلم.

مات سنة عشرين وثمانمائة، ودفن بجامعة، نفعنا الله به. وانظر: طبقات الشعراني (81/2)، وجامع الكرامات (319/1)، ذيل الدرر الكامنة (251) بتحقيقنا، الضوء اللامع (111/2).

وكان إذا قرأ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: 64] يمثل أنه بين يدي رسول الله ﷺ ويصير يقول:

اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فإذا تم الورد قال: يا سيدي يا رسول الله ﷺ استغفر لي ربك، فلا يزال يكررها حتى يفرغ الورد من العدد ثم يقول: اللهم إني أسألك بك أن تقبل استغفار نبيك ﷺ في حقي قاصدًا بذلك مساعدة نبيه ﷺ من باب: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**»[1] وربما كان ﷺ يستحي من الله تعالى أن يسأله في ذلك الوقت لكونه كان أشد حياءً من العذراء في خدرها.

واعلم يا أخي أن كثرة تكرار سؤال المغفرة ليس هو من باب سوء الظن بالله تعالى، ومن ظن ذلك فعليه الاستغفار من ذلك، وإنما هو من باب عدم استحقاقنا لإجابة دعائنا.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول عن هاتين الركعتين: أنهما كالوقوف بعرفة بالنسبة للوقوف في المسجد الحرام، انتهى.

ثم إذا أحس العبد بأن الله تعالى قَبِل منه استغفاره، واستغفار نبيه ﷺ بنور الكشف أو بنور الإيمان من خلف حجاب ركع إذ ذاك؛ لأن الركوع كالباب الأول من باب الملك بالنسبة للسجود، ثم إنه يقوم من السجود وقد غلب على ظنه أن الله تعالى قد غفر له غالب ذنوبه، فيقوم للركعة الثانية ليغفر له بقية ذنوبه، وإن كان غلب على ظنه مغفرتها كلها بالركعة الأولى قام الركعة الثانية شكرًا لله، ويكون استغفاره في الركعة الثانية إظهارًا للفقر والفاقة، وقيامًا بشعار العبودية كما هو الحكم في استغفار الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ثم إذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110] يصير يرددها حتى يغلب على ظنه من باب الإلهام أن الله تعالى قد قَبِل توبته، وكيفية ذلك أن يقول: اللهم إني عملت سواء وظلمت نفسي، وأنت العليم الحكيم فاغفر لي، فلا يزال يكررها حتى يفرغ الوارد، ويغلب على ظنه أن الله تعالى قبل استغفاره عن بقية ذنوبه التي لم تغفر في

---

(1) رواه مسلم (353/1).

الركعة الأولى، ثم يقول: اللهم إني قد اكتسبت الخطيئة والإثم، وربما رميت به أحدًا من البراء من عبادك زورًا وبهتانًا، فاغفر ذلك لي من فضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إذا ظن أحدكم أن رسول الله ﷺ ممن غلب عليه الحياء من الله تعالى في الوقت أن يسأل الله لأحد المغفرة، فمن الأدب الصبر حتى يخف عنه ﷺ وارد الحياء الشديد من ربه ﷺ لئلا يكون نبيه بسؤاله له في ذلك الوقت ثم لا بأس باعتذاره لرسوله ﷺ بعد ذلك ويقول: يا سيدي يا رسول الله أعذرني في إلحاحي عليك أن تستغفر لي ربك، إنك رحمة بأمتك، وأنا شخص مضطر إلى سؤال العفو عني، وليس لي وجه عنده إلا بواسطتك.

وكان أخي أفضل الدين - رحمه الله - يقول: ينبغي للعبد إذا سأل ربه أن يقبل استغفار نبيه في حقه ألا يقصد بذلك حظ نفسه، وإنما يقصد بذلك المسارعة إلى مساعدة نبيه ﷺ خوفًا ألا يقبل الله تعالى في ذلك الوقت استغفاره في حق العبد فيخجل ﷺ، انتهى. فاعرض ذلك على مريدي عصرك، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: أن لا يقرءوا قرآنًا ولا حديثًا ولا يسبحون الله تعالى، ولا يفعلون شيئًا من الأذكار إلا جالسين ماداموا قادرين على ذلك، فإذا عجز أحدهم فليستأذن ربه بقلبه، ثم يضطجع ويقرأ أو يذكر، فإن حكم ذلك حكم من أرسل له السلطان مرسومًا يقرأ عليه، فلا يليق به أن يكون مضطجعًا حال قراءته عليه إلا بعذر واضح يعذر بمثله، فافهم وأعرض ذلك على مريدي عصرك، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: إذا نام أحدهم عن قيام الليل، وفاته الوقوف في تلك المواكب الشريفة والحضرات المنيفة أن يندم ويستغفر، ثم يشكر الله تعالى على العافية التي خلعها عليه حتى نام وشبع من النوم، فإن فاته من جهة ذلك التهجد فقد حصل له الخير من جهة شكر الله تعالى على العافية، فإنه هو الذي يمكن تداركه بعد فوات وقوفه في تلك المواكب، وإن كان الشارع ﷺ قد جعل الثواب لمن قضى ورد الليل قبل الزوال.

فافهم فليس حكم النائم حكم القائم، وإنما قال ﷺ: «فكأنما» فعله في الليل خيرًا لمصيبة من حصل له ندم مع أن قوله: «فكأنما» هو التشبيه، وذلك لا يقتضي المساواة

من كل وجه، وسيأتي في الكتاب أن الأكابر كلهم يعظمون أوامر الله، ويخافون من تأخيرها عن وقت الفضيلة حتى أن الخليل ﷺ لما أمره الله بالاختتان بادر إلى الفأس فاختتن بها ولم يتمهل حتى يجد الموسى، وقال: إن تأخير أمر الله عظيم، انتهى.

فلكل مقام رجال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا سافروا إلى بلاد الريف، وخافوا أن يتبعهم الناس أن يسافروا ليلاً تخفيفًا على أهل البلاد وقد تساهل بعض إخواننا في ذلك فما وصل بلاد الغربية حتى صار معه نحو خمسمائة نفس، وممن كان يكره السفر في النهار سيدي محمد بن عنان، وسيدي محمد الشناوي، وسيدي أبو الحسن الغمري ﷺ فافهم ذلك.

ومن أخلاقهم: ألا يظهروا الكسل، والنوم بحضرة مريديهم، فيمدونه بالنوم والكسل؛ لأنه ليس للمريد مادة يستمد منها غير الشيخ، فإن نام مد مريده بالنوم، وإن غفل عن الله مد مريده بالغفلة، وإن أقبل على الدنيا مد مريده بذلك، وهكذا في سائر الحركات والسكنات والصفات، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا قصر أملهم أو ضاق الوقت عن تأدية تلك العبادة عادة أن يبدأوا بقراءة جوامع الكلم الواردة في السنة، أو بقراءة تلك الآيات والسور التي ورد تفضيلها على غيرها؛ أي: من حيث تلاوة التالي لها لا من حيث المتلو؛ لأنه كله في مرتبة واحدة بالنظر لرجوعه إلى الذات، وذلك كقراءة آية الكرسي، أو آخر سورة الحشر أو ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:1] فإنه ورد أن كل واحدة من ذلك تعدل قراءة ألف آية، فمن صلى بآية الكرسي، فكأنه قرأ في صلاته بألف آية وفي الحديث أنه يكون من المقنطرين يعني الآخر، وقد عددت الألف من أول البقرة إلى قريب من قوله تعالى في الأنفال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال:41] وكذلك ورد أن سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:1] تعدل ربع القرآن أو نصفه، وسورة الكافرون تعدل نصف القرآن، وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد:1] تعدل ثلث القرآن لو قسم أرباعًا أو أنصافًا أو أثلاثًا هكذا قال الشيخ محيي الدين بن العربي - رحمه الله - وهذا الذي ذكرناه من قراءة هذه الآيات والسور وإن لم يرد هو من باب الحزم، وربما كان الحق تعالى جعل ذلك اعتناء بأمة محمد ﷺ، وكما قال الإمام مالك في حكمة كون قيام ليلة القدر خيرًا من ألف شهر: إن الله تعالى لما جعل أمة محمد

خير أمة أُخرِجت للناس مع قصر أعمارهم أعطاهم في كل قيام ليلة القدر في كل سنة أجر نيف وثمانين سنة، الذي هو العمر الغالب، فمن قامها خمسين سنة مثلاً كان كمن عبد الله تعالى نحو خمسمائة سنة، ونظير ذلك قوله ﷺ: **«من أدرك ركعة من الوقت فقد أدرك»**[1] فإنه إنما جعل له ذلك جبرًا لمصيبته حين فاته فرط الحرص وإلا فمعلوم أن فضله دون فضل من أدركها كلها في الوقت فضلاً عن فضل من صلاها أول الوقت.

فعلم أن من غلب عليه النوم حتى كاد الفجر أن يطلع فمن الحزم أن يصلي بآية الكرسي، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأضرابهما، وكذلك القول في جوامع الكلم في الأوراد نحو سبحان الله وبحمده عدد خلقه إلى آخره، وكذلك القول في الصلاة على رسول الله ﷺ ومن أجمع الصلاة وأخصرها في كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ: اللهم صل على محمد النبي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

ومما أُلهمته أنا من الكيفيات الجامعة للصلاة والاستغفار: اللهم إني أسألك بك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، وأن تغفر لي ما مضى، وتحفظني فيما بقي، انتهى.

فأقولها ألفًا كل صباح أو مساء، وقد وجدت بركاتها، وأحب للإخوان أن يعملوا بها فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على مريدي زمانك تعرف مقامك، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة محبتهم لأهل العلم، ولو أنكروا عليهم من حيث أنهم حملة شرع رسول الله ﷺ، وذلك لأن محبة الفقراء لأهل العلم يزدادون بها علمًا إلى علمهم، وقد خالف في ذلك بعض المتصوفة فبعدوا عن العلماء، فازدادوا جهلاً إلى جهلهم، وقد أدركنا بحمد الله تعالى أكثر من مائة شيخ فكانوا يجلون العلماء ويتبركون بهم، منهم سيدي محمد بن عنان، وسيدي محمد الشناوي، وسيدي علي المرصفي ﷺ، وإن قُدر أن العلماء أنكروا عليهم شيئًا من أحوالهم فلا يقدح ذلك في كمالهم ودينهم، فقد أنكر موسى على الخضر - عليهما الصلاة والسلام - وما بلغنا عن أحدهم أنه

---

(1) رواه مسلم (423/1)، بلفظ: (الصلاة) بدل (الوقت).

تكدر من الآخر أبدًا، كان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا لوم على الفقيه في إنكاره على الفقير، وإنما اللوم على الفقير الذي لم يحفظ ظاهره من مخالفته السنة في أقواله وأفعاله وعقائده، ولو أنه كان كاملاً لم يظهر للناس إلا ما وافق ظاهر الشريعة كما كان عليه أبو القاسم الجنيد[1] وأضرابه ولذلك أجمعوا على جلالته؛ لأنه كان يكلم كل جليس بما يناسبه ﷺ انتهى.

وكان ﷺ يقول من سعادة الفقير خلطته بالفقهاء، فإنهم لا يكادون يقرونه على شيء فيه رائحة بدعة، بل ينكرونه عليه فهم من جملة جنود الله له، فيا سعادة من كان ساكنًا في مثل جامع الأزهر، فإن العلماء الذين هناك يقومون عوجه كلما اعوج، ويقومون له مقام الشيخ المرشد، ونِعْمَ الصديق الذي يقوِّم معوج أخيه فلا يتكدر من الإنكار عليه إلا كل غاشٍ لنفسه محب للرياء والنفاق، ثم أقل ما في إنكارهم عليك يا أخي من النفع أنهم يمنعونك عن أن تصير من أئمة الضلال، لاسيما إن كان لك معتقدون فإنهم يقتدون بك في كل أمر، ولو كان مخالفًا لظاهر الشرع ويقولون: لولا أن

---

(1) هو الولي الكامل العارف بالله تعالى أبو القاسم بن محمد الجنيد سيد الطائفتين.

قال عنه الشيخ الأكبر ﷺ: هو سيِّد الطائفة، وكان من الفقهاء المعتقدين الشافعية، تفقه على أبي ثور، وكان يفتي بحضرته وهو ابن عشرين سنةً، لم تزل أعناق الفريقين له خاضعة، وعلى تبجيله مجتمعة.

أخذ التصوف عن خاله السري السقطي والحارث المحاسبي رضي الله عنهما، وتحدَّث عن ذلك قائلا: قال لي شيخي السري: إذا قمت من عندي فمن تجالس؟ فقلت: المحاسبي. قال: نعم، خذ من علمه وأدبه، ودع عنك تشقيقه للكلام ورده على المتكلمين. ثم لما وليت سمعته يقول: جعلك الله صاحب حديثٍ صوفيٍ، ولا جعلك صوفيًا صاحب حديث اهـ.

قال الشيخ الأكبر ﷺ: يريد أنه نتيجةٌ عن العمل عليهما، وهما الشاهدان العدلان.

وله ﷺ في طريق القوم أقوالٌ كثيرةٌ، ومنها: علمنا هذا مضبوطٌ بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يُقتدى به.

وقال: رضوان الله على أمير المؤمنين عليّ ﷺ لولا أنه اشتغل بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معاني كثيرةً.

ذاك امرؤ أعطي علمًا لدنيًا، والعلم اللدني هو العلم الذي خُصَّ به الخضر ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65].

وانتقل ﷺ إلى الحياة البرزخية في آخر ساعةٍ من الجمعة سنة سبعٍ وتسعين ومائتين ببغداد، ودُفن بالشونيزية عند خاله سري السقطي، نفعنا الله به في الدارين، آمين. انظر: كتابنا: الإمام الجنيد سيد الطائفتين.

لسيدي الشيخ دليلاً على الأمر الفلاني ما فعله، وقد ورد الأثر أنه لا بدّ أن يتقدم الدجال الأكبر دجاجلة كثيرة يمهدون له طريق الدجل، وهو تمويه الباطل بالحق حتى يكاد قليل العقل يجزم بأنه حق، وقد دخل عليّ شخص من الثقات حال كتابتي لهذا الموضع، فأخبرني أنه في حصر عظيم من شيخ برز في حارته.

فقلت له: وما ذاك؟ فقال: أنه يقبل النساء الأجانب بحضرة أصحابه ويقول لهم: وأنا لي حال آخر مع الله تعالى خلاف ما يظهر لكم مني، فقلت له: كذب هذا على الله، فإن الله تعالى أرسل رسوله بالشرع العام لسائر الخلق، ومن قال: أنا لي حال مع الله تعالى خلاف ما ظهر مني، وكأنه يقول أن الله تعالى سارّرني بشرع آخر بيني وبينه خلاف ما أوحى به إلى رسوله، وذلك كفر فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وسمعت سيدي محمد بن عنان - رحمه الله - يقول: من أعظم فتنة دخلت على المطاوعة معاداتهم للفقهاء، فلا معهم علم يمشون في نوره، ولا هم يسمعون لما يقوله لهم العلماء، فاستحوذ عليهم الشيطان حتى أن منهم من أمره الشيطان بالوضوء بالبول والسجود للشمس كل يوم، وصار يخبره بما يقع من الناس في بيوتهم، فلولا عناية الله تعالى له باجتماعه على سيدي أبي العباس الغمري لكان مات على كفره، انتهى.

وقد منّ الله تعالى عليّ بمحبة جميع علماء عصري، وكل من أنكر عليّ أكثر أحببته أكثر، كما سيأتي إيضاحه في الخاتمة إن شاء الله تعالى، فاعرض يا أخي ما قررته لك على مريدي عصرك تعرف حالهم، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم التي أجمعوا عليها ونفذت بها وصاياهم إلى سائر أقطار الأرض: أنه لا يجوز لأحد التصدر في طريق القوم لإرشاد المريدين إلا بعد تبحره في علوم الشريعة المطهرة والحقيقة من: تفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وبعد اطلاعه على أقوال المجتهدين سلفًا وخلفًا، وأقوال المحققين من العارفين كذلك، بحيث يعد لمناظرة العلماء ورد المبتدعة، فإن لم يصل إلى ما ذكرناه فما يفسده أكثر مما يصلحه، وقد تقدم في المقدمة أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة، وإن لهم في كل حركة وسكون ميزانًا شرعيًا، فلا يقدم أحد منهم على قول أو فعل حتى يعرف ميزانه من كتاب أو سنة[1]، وأنهم لا يسامحون نفوسهم في تركهم إقامة الميزان على أحوالهم

(1) قال سيدي الشعراني في تطهير الزوايا: وسمعت سيدي الخواص ﷺ يقول: من لم يتبحر في علوم الشريعة فلا يصلح للتصدق، وإن وقع أنه تصدر فما يفسده أكثر مما يصلحه، وسمعته يقول:
-

كلها في حال من الأحوال اكتفاء بعمل الناس، فقد يكون ذلك العمل من جملة البدع التي ابتدعت، وهم ﷺ منزهون عن ارتكاب البدع أو الأهواء، وكل من أنكر عليهم فإنما هو لجهله بدليلهم، ولم يزل أكابر السلف ﷺ يخافون من التدين بشيء زائد على السنة خوفًا من الوقوع في البدعة، حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ ربما كان يهم بالأمر يفعله فيقول له شخص: إن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك، فيرجع عنه لوقته، وقد همَّ ﷺ مرة أن ينهي الناس عن لبس ثياب بلغه أنها تصبغ ببول العجائز، فقال له شخص في أذنه: قد كانت هذه الثياب في عصر رسول الله ﷺ، وكان يراها على الناس لا ينكرها، فاستغفر عمر ﷺ ورجع عن ذلك، وقال في نفسه: لو كان ترك لبسها من الورع لكان رسول الله ﷺ نهى أصحابه عنها.

وكذلك بلغنا عن الإمام زين العابدين ﷺأنه قال يومًا لولده: يا ولدي اتخذ لي ثوبًا ألبسه عند قضاء الحاجة أنزعه وقت الصلاة فلا أصلي فيه؛ لأني رأيت الذباب يجلس على العذرة، ثم يقع على ثوبي في الخلاء، فقال له ولده: إنه لم يكن لرسول الله ﷺ إلا ثوب واحد لخلائه ولصلاته، فرجع الإمام عما كان عزم على فعله، انتهى.

وأما ما بلغنا عن الشيخ أبي يزيد ﷺ من أنه كان له ثوب لخلائه وثوب لصلاته، فليس هو لأجل وقوع الذباب المذكور على ثوبه، وإنما ذلك حتى لا يكون ثوب خلائه ثوب صلاته؛ لأن الخلاء بيت الشياطين يقصد بذلك تعظيم حضرة الله الخاصة أن يقف فيها بثوب تدنس بحضرة الشياطين من حيث أنها رجس، وهو نظير ما ورد من النهي عن استقبال القبلة ببول أو غائط بشرطه وقال ﷺ: **«شرقوا أو غربوا»**[1] حتى لا يجعل العبد جهة خلائه جهة صلاته، وتقدم أوائل المقدمة قول أبي القاسم الجنيد ﷺ: طريقنا

قبيح بالشيخ أن يأتيه مريد مذهب مخالف لمذهبه؛ فيقول: أخرج عن مذهبك حتى أربيك، وسمعته يقول: مرارًا ما من مذهب من مذاهب المجتهدين إلا وهو موصل من عمل به إلى باب الجنة، انتهى.

وقد بسطنا الكلام على هذا المبحث في كتاب «الميزان الخضرية» المدخلة لجميع مذاهب الأئمة المجتهدين، ومقلديهم في الشريعة المطهرة، فراجعه ترى العجب، والحمد لله رب العالمين.

ومن علامة كمال الشيخ أيضًا: أن يكون جامعًا بين علم الشريعة، والحقيقة وإن كان العلم بإحديهما يستلزم العلم بالأخرى عند المحققين.

(1) رواه البخاري (66/1)، ومسلم (224/1).

هذا مشيد بالكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7] وكان يقول أيضًا: لو رأيتم رجلاً متربعًا في الهوى فلا تعتدوا به إلا إن رأيتموه واقفًا عند حدود الله تعالى.

ومما وقع للشيخ أبي عبد الله القرشي أنه قال يومًا: اللهم لا تفضحني بسريرتي على رءوس الخلائق، فقال له شيخه: يا محمد ولأي شيء تجعل لك سريرة تفتضح بها يوم القيامة لم لا تنظف باطنك من الأدناس حتى لا يكون لك سريرة تفتضح بها، ومما وقع أن معروف الكرخي نظر يومًا إلى السماء فتكدر قلبه، فشكا ذلك للحسن البصري، فقال: لعلك نظرت إلى السماء وأنت عاطل عن الاعتبار وعن الله تعالى، فانظر يا أخي هذا الضبط العظيم، فإذا كان هذا في الأمور المباحة فكيف بالأمور المكروهة أو الحرام؟.

وقد بلغنا أن السري السقطي - رحمه الله - رفع طرفه مرة إلى سقف بيته فعوقب على ذلك بوجع الضرس مدة أيام؛ لكونه لم يحرر له نية صالحة قبل رفع بصره إلى السقف، ولعل مثل ذلك هو المراد بحديث: «**كانت خطيئة أخي داود النظر**»[1] لم يبلغنا في حديث صحيح، ولا ضعيف إن المراد به النظر إلى ما لا يحل، فإن العصمة تمنع من وقوع ذلك.

وإذا كان آحاد هذه الأمة يعاقب على مثل ما ذكرناه، لاعتناء الحق تعالى به، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أولى وأحق بذلك الاعتناء، وليست المؤاخذة الواقعة على ذلك بغضًا للمعاقب، وإنما هو تكريم له واعتناء به، كما يربي الوالد الشفيق ولده بالضرب والصفع محبة فيه، وإذا رآه واقفًا على شفير بئر لا حصير على فمها وهو صغير يعرك أذنه ويجذبه جذبًا عنيفًا، ويقضي عقول الناس كلهم أن ذلك من شدة محبته خوفًا عليه من الهلاك، وما ينقل عن الزبور الذي غيرته اليهود من أن داود ﷺ كانت له خطيئة النظر إلى امرأة لما سافر زوجها في بعض الغزوات من تحريف اليهود وتبديلهم، فاستحلوا أعراض الأنبياء بمثل ذلك، فعلم من جميع ما قررناه أن التبحر في الشريعة هو أساس طريق الحقيقة، وإنهما متلازمان ملازمة الظل للشخص، وأن من جلس لإرشاد المريدين من غير تبحر في الشريعة، فقد ضل وأضل، وأول من

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (68/7).

يتبرأ منه أشياخه الذين يزعم أنه من أتباعهم، وقد قررنا مرارًا أن سيدي إبراهيم الدسوقي كان يقول: من لم يتقيد بالكتاب والسنة فلا يلم بنا ولا يمشي في ركابنا، وكل من عمل على وفق الكتاب والسنة فهو ولدي لصلبي، وإن كان من أقصى البلاد، ومن خالف السنة فهو عدوي ولو كان من صلبي، وقد دخل شخص مرة على الجنيد ﷺ، فقال له: قد بلغنا أنك تقول: طريقنا هذه مشيدة بالكتاب والسنة، فما دليلكم في قراءة الحكايات التي تتداولونها في أحوال القوم من القرآن، فقال: دليلها قوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:120].

فكما ثبّت الله تعالى فؤاد محمد ﷺ بما قص من أحوال الأنبياء قبله، فكذلك نثبت فؤاد المريدين على الطريق بما نقصه عليهم من حكايات سلفهم، فقال له: فما الدليل على قولكم: إن الله تعالى لا يعذب حبيبه؟ فقال: الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: 18] أي: لو كنتم أحباؤه ما عذبكم في النار وقد أخبر تعالى على لسان الصادق المصدوق أنه يعذبكم بالنار أبد الآبدين.

فقام الرجل وقبّل رأس الجنيد ﷺ وقال: أنت أستاذ الناس، فمن ذلك اليوم لقب الجنيد بين القوم بالأستاذ.

وعلم أيضًا مما قررناه أن من جلس بغير إذن من شيخ لإرشاد المريدين مع جهله بشيء من أحكام الشريعة التي صرح بها الشارع ﷺ فإنه مدعٍ كذاب لا ينبغي لأحد الاقتداء به؛ لأنه يخطئ في كل شيء جهله من الشريعة، فربما صادف الأمر الذي يحكم به على المريد خلاف الشرع، فزن يا أخي كل من رأيته تصدُّر لإرشاد المريدين بهذا الميزان، فإن رأيته متبحرًا في علم الشريعة فسلِّم له وإلا فأعرض عنه من غير ازدراء، وكل أمره إلى الله تعالى، كما هو شأن كثير من فقراء هذا الزمان فترى أحدهم يعجز عن تدريس مختصر في الفقه، مما يفهمه أضعف الطلبة، وهو مع ذلك يدّعي المشيخة والكمال وله عمامة صوف وعذبة.

وقد دخل عليّ شخص وأنا أكتب في هذا المحل فصار يتكلم في الفناء والبقاء والهجر، فقلت له: يا أخي هذا الذي تقوله إنما يكون معرفته للإنسان بعد السلوك على وفق الشريعة المطهرة بالأعمال الذكية، والأخلاق المرضية اللائقة بالسالك فقل لي: ما شروط الوضوء؟ وما شروط الصلاة؟ وما شروط الصوم؟ وما واجبات الحج؟

فتلجلج وما درى ما يقول فقلت له: لم لا تجبني عما سألتك؟ فقال: لم اقرأ شيئًا في علم الفقه، فقلت له: فإذن أنت من إخوان الشياطين، ثم إنه انقطع عني من ذلك اليوم.

فإن جاءك يا أخي أحد من هؤلاء، فلا تسأله عن شيء من أحكام الدين، فإنه يخجل ويسكت، وقد كثر هذا الحال في المتسبين إلى الفقر في هذا الزمان، وربما يقول أحدهم: الفقهاء محجوبون عن الله بعلمهم وذلك كفر، فإنه جعل الهدى يحجب عن الله، والضلال يوصل إلى حضرة الله نسأل الله العافية.

وقد درج السلف الصالح من أبي القاسم الجنيد إلى أبي القاسم القشيري، إلى الشيخ عبد القادر الجيلي، إلى الشيخ عمر السهروردي، إلى سيدي أحمد بن الرفاعي، إلى سيدي أحمد الزاهد، إلى سيدي محمد الغمري، إلى سيدي علي المرصفي ﷺ على تدريسهم في علوم الكتاب والسنة من فقه ونحو وأصول، وغير ذلك إلى أن ماتوا ومؤلفاتهم في الحقيقة والشريعة تدل على ذلك، ولكن لما توعَّرت طريق العمل بالكتاب والسنة على غالب الناس أشغلهم إبليس بشقشقة اللسان بألفاظ اصطلح القوم عليها لا يفهم هؤلاء معناها، فظنوا أنهم صاروا بذلك صوفية، وقال لهم الفقهاء محجوبون عن طريقكم فأضلهم وأعمى أبصارهم.

فأهل الطريق كلهم مجمعون على وجوب الاشتغال بالعلم، وإن وقع أن أحدًا منهم منع مريدًا من الاشتغال به، وأمره بالذكر فليس ذلك راجعًا لذات العلم، وإنما هو لأمور عرضت للمشتغل به من رياء وعجب، وكبر وازدراء للعامة لكثافة حجابه، فقالوا له: اشتغل بالذكر حتى يرق حجابك، ويستنير قلبك، وتخرج عن الحجاب، ويزول عنك العجب بالعلم والرياء، ثم بعد ذلك اشتغل بالعلم على وجه الأدب والإخلاص، فإن صح عن أحد من أهل الطريق أنه قال: العلم حجاب، أقلناه على وجه حسن أدبًا مع العارفين ﷺ[1].

---

(1) قال الشيخ المصنف: وقد جاءني مرة ثلاثة من طلبة العلم الشريف من جامع الأزهر، يطلبون الطريق فتفرست فيهم عدم الصدق، فقلت لهم: هل بلغ أحدكم مرتبة الإفتاء والتدريس؟ فقالوا: لا، فقلت لهم: لا تطلبوا الطريق حتى تبلغوا ذلك. فرجعوا في الحال عمّا كانوا جاءوا لأجله، وعلمت أنهم إنما جاءوا بشهوة نفس، فإن الطريق كلها مبنية على مخالفة الهوى والنفس. وقد قال القوم: لا يمتثل لشيء دخلته النفس وإن كان علمًا أو عملاً؛ لأنه إلى الإثم أقرب، ولكن غالب طلبة العلم الآن محجوبون عن شهود عدم إخلاصهم في العلم والعمل. ولو أن الشيخ

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول كثيرًا: إنما قال بعضهم: العلم حجاب أي: لأن صاحبه لا يكاد يستحضر حال قراءته وإقرائه ومجادلته أنه بين يدي الله تعالى أبدًا إنما ذهنه فيما يقرره فقط، كما هو حال أكثر المريدين، بخلاف العارفين فإنهم يحضرون مع الله تعالى في كل علم قرروه من فقه ونحو، وأصول، ومعاني وبيان ونحو ذلك لجلاء مرآة قلوبهم من الصدأ والرعونات البشرية هذا معنى كلامهم، وإلا فكيف ينكرون على شيء هو أساس طريقهم ومنشأها.

وقد ذكرنا في كتاب «المنن» عدة الكتب التي طالعناها، فراجعها وإياك ونسبة القوم إلى ما يخرج ظاهر الشريعة، واعرض يا أخي ذلك على من يدعي الصدق من مريدي عصرك تعرف حالهم، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

من أخلاقهم: سترهم لزلات من تاب على يديهم تخلقًا بأخلاق الله ﷻ، ولا يعلمون أحدًا من جماعتهم بزلاتهم التي تاب منها وحكاها لهم، وهذا أمر يقع من غالب فقراء هذا الزمان، فليحذر الفقير من مثل ذلك، فإنه خلاف ما جبل الله تعالى أولياءه عليه من كثرة سترهم على العباد، وقد وقع لبعضهم أن شخصًا كان يستحسن على عياله زمانًا طويلاً، ثم جاء وتاب على يده، وجلس عنده في الزاوية، فصار كل من سأله الدعاء يقول له: اسأل الله تعالى أن يتوب عليك كما تاب على هذا المستحسن، فجاء إلى الشيخ وقال له: ما كان لي حاجة بالتوبة على يديك، فإن لي نحو ثلاثين سنة وأنا مرتكب ذلك الأمر والله يسترني فيه، وأنت قد هتكتني في يوم واحد، انتهى.

-

قال لأحدهم: اترك هذا العلم حتى يصح لك مقام الإخلاص فيه لم يطعه، بل يصير يمزق في عرض الشيخ، فيقول في هذا: إن الشيخ يمنعني عن الاشتغال بالعلم الذي يقربني إلى الله تعالى، كما وقع ذلك في كثير من طلبة العلم، وقد درج الشباب الصالح كله على دوام اتهامهم أنفسهم في الإخلاص، حتى إن الإمام النووي رحمه الله أوصى بغسل كتاب الروضة، وقال: في نفسي منها شيء، وكان يذهب إلى الشيخ حسن المراكشي خارج دمشق ويشاوره في المسائل التي رجحها في مذهب الشافعي قبل أن يضعها في كتبه، ويقول: أخاف أن أنفرد بترجيح حكم فيكون وباله عليّ يوم القيامة انتهى.

واعلم أن كل مريدٍ لم يقبل عليه شيخه أو هجره بغير سببٍ ظاهرٍ فتقلقل، فهو كذابٌ في طلب الطريق، لا يجيء منه شيء.

فاعرض يا أخي هذا الخلق على من يدَّعي الصدق من مريدي زمانك تعرف حاله، ولا تنسَ نفسك، والحمد لله رب العالمين. [الكوكب الشاهق ص87] بتحقيقنا.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا ينبغي لفقير أن يتصدر لأخذ العهد على الناس، إلا بعد كماله وإذن شيخه له، وبعد أن يصير أشفق على المريد من نفسه في كتم سيئاته، وأشفق عليه من أمه، فاعرض يا أخي ذلك على مريدي عصرك تعرف حالتهم، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يتولى أحدهم نظرًا على مسجد أو يتيم ونحو ذلك مما تشترط فيه العدالة إلا أن يكون عدلاً في الباطن، وذلك ليعينه الله تعالى على المشي بالاستقامة، وحماية ذلك المال من الظلمة، وصرفه في مصارفه الشرعية وغير ذلك، فإن من لبس على الناس وأظهر الصلاح والورع، وهو في الباطن على خلاف ذلك فهو عدو الله، وعدو الله من لازمه تخلف نصرة الحق عنه، وإن وقع له نصرة فهي استدراك ومكر به.

وسمعت سيدي الشيخ زكريا - رحمه الله - يقول: لا ينبغي للناظر على وقف أن يكون له سريرة سيئة، بحيث لو اطلع الولاة عليها لمنعوه من ذلك النظر، قال: وهذا أمر يخفى على كثير من النظار فيصير يأخذ معلوم نظره من قبيل الشبهات، انتهى.

فاعلم ذلك، واعرضه على نفسك، وعلى أقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الاعتناء بنظم الشعر في رسائلهم، وإنما يتمثلون به فقط من كلام غيرهم، قال الله تعالى في حق رسوله ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: 69] ونهى ﷺ بعض الصحابة عن الشعر وقال: «**لأن يملأ أحدهم جوفه قيحًا خير له من أن يملأه شعرًا**»[1] وما وقع له ﷺ من تقرير حسان بن ثابت، وغيره على هجاء المشركين بالشعر، فذلك رخصة لكونه أقطع في المشركين من النثر؛ لسهولة حفظ النظم وسهولة التمثل به على النفوس، وأيضًا فإن الشعر يحتاج عادة إلى إتعاب فكر فيه، ونظر في كتب اللغة، وغير ذلك مما يشغل القلب عن الله حال نظمه عادة، وربما جازف في وصف من مدحه أو هجاه، فوقع في الذم، قال ﷺ: «**لا غيبة في فاسق**»[2] قال بعض العارفين: أي لا تستغيبوه، هذا وإن كان خلاف المفهوم الظاهر

(1) ذكره الهيثمي في مجمع الزائد (425/3).

(2) ذكره العجلوني في كشف الخفا (114/1).

فيؤيده ما رواه الحافظ أبو نعيم عن محمد بن سيرين أن رجلاً وقع في عرض الحجاج بن يوسف عنده فقال: يا أخي اعلم أن الله تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ، فكما ينتقم من الحجاج كذلك ينتقم للحجاج، انتهى.

وأما من شطح في نظمه من أرباب الأحوال كسيدي عمر بن الفارض وغيره، فلا كلام لنا معه؛ لأنه مغلوب على عقله، وهو تحت حكم حاله، وكلامنا إنما هو في حق أرباب التمكين المتقيدين بالسنة في جميع أحوالهم، فإنهم يقولون: لو كان الشعر محمودًا مطلقًا لكان رسول الله ﷺ أولى به، وفرق بين كلام الصحاة والسكارى، وقد بلغنا أن عصفور راود عصفورة عن نفسها في قبة سليمان بن داود - عليهما السلام - فأبت فقال لها: تأبين عليّ وأنا لو شئت لقلبت القبة على سليمان، فأرسل وراءه، فجاء وهو يرعد فقال: ما حملك على الكذب في قولك: كذا وكذا وأنت عاجز عن مثل ذلك، فقال: مهلاً يا نبي الله أنا عاشق لها والعشاق إنما يتكلمون غالبًا بلسان العشق والسكر، لا بلسان العلم والتحقيق فعفا عنه، انتهى.

ففي ذلك عذر لسيدي عمر بن الفارض في نحو قوله:

فطوفانُ نوحٍ عندَ نَوْحِي كأدمعي وإيقادُ نيرانِ الخليلِ كلوعتي

إلى آخرها قال: فاعلم ذلك، واعرضه على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ارتباط قلبهم بكل إمام صلوا خلفه حتى إن أحدهم لو سمع صوت من يشبه إمامه كل الشبه يكبر مثلاً لا يطاوعه؛ لأن قلبه يعلم أن ذلك ليس بالإمام له، وهذا أمر قل من يراعيه الآن من الفقراء، فيصلي خلف كل من رآه يصلي بالناس من غير ارتباط قلبه به، ويكتفي بارتباطه الظاهر، وهذا نقص في مقام الفقراء لعدم مطابقتهم بين الظاهر والباطن، وصاحب هذا المقام لا يحتاج إلا إلى مبلّغ يبلغه أفعال إمامه، ولو كان بينه أكثر من ميل، وهو في ظلمة لإدراكه بلبه حركات قلب إمامه فضلاً عن أفعاله وأقواله الظاهرة.

وقد نبّه ﷺ على هذا الارتباط تشريعًا لأمته لما صلى بأصحابه، وقرأ في صلاته سورة الروم والتبست عليه الآية فلم يعرفها، فقال: إذا جاء أحدكم إلى الصلاة ليحكم طهارته، فإنكم لبستم عليّ قراءتي أو كمال قال.

فانظر يا أخي كيف سرى عدم إحكام الطهارة من المأموم إلى الإمام، فإن من ترك لمعة من أعضائه بغير غسل فصلاته باطلة، فلما تعلق بالإمام من لبس هو في

صلاة لبس عليه لعدم استحقاق المأموم سماعه القرآن على وجهه الذي أنزل، فعلم أن من ادعى تخلقه بهذا الخلق في صلاة، وسمع تكبير غير إمامه للركوع مثلاً فتبعه على ذلك فهو لم يتحقق بهذا الخلق، وقد امتنع بعض العارفين من الصلاة خلف كل من يخطر بباله غير الله فيها؛ لبطلان صلاته عنده، فاعلم ذلك، واعرضه على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: استنادهم في سائر أوقاتهم إلى كبير من أهل الحضرة الإلهية؛ ليحميهم من الآفات التي تصيبهم في الدنيا والآخرة، ولا يكتفون بكثرة الأعمال الصالحة من غير استناد إلى من ذكر، ويقولون: إن الأعمال الصالحة تنهض بنا كما يقع فيه كثير من المتعبدين، وغاب عنهم أن العبد يصل بخدمة الأكابر ومحبتهم إلى ما لا يصل إليه بالأعمال.

وتأمل يا أخي إلى غلام الوالي إذا رآه الخفراء سكرانًا لا يتعرضون إليه بسوء إكرامًا للوالي لشدة لصوقه به، بخلاف العابد الزاهد الذي لم يستند إلى الوالي إذا رآه الخفراء على فاحشة يمسكونه ويصفعونه، ولا يوقرونه لعبادته، بل يضربونه ويحبسونه، ويغرمونه المال، وفي الحديث ما يؤيد ما أومأنا إليه فورد أن عبدًا يأتي يوم القيامة فيوقف بين يدي الله ﷻ، فيؤمر به إلى النار، فتقول الملائكة: يا ربنا كان من عبادته كذا وكذا، ويذكرون ما شاء من صيامه وقيامه، وصدقته وحجه وعمرته، فيقول الله ﷻ: **«بلى ولكنه كان لا يُوالي من والاني ولا يعادي من عاداني»**[1] انتهى.

فانظر يا أخي إلى هذا العابد كيف لم تنفعه عبادته؛ لعدم استناده إلى الله تعالى ولو بواسطة نبي أو ولي، ولو أنه كان استند إلى نبيه ﷺ أو شيخه استنادًا حقيقيًا بحيث أنه والى من والاه، وعادى من عاداه لكان أخذ بيده وشفع له عند الله تعالى، فافهم.

فعُلِم أنه لا يكفي العبد في ادعاء المحبة لله ولرسوله كثرة الأعمال الصالحة مع عدم نصرته لشرع الله ولشرع رسوله ﷺ، وأن المحبة أنجح في قضاء حوائجه في الدنيا والآخرة من كثرة العبادات لاسيما إن دخلها العلل كطلب الثواب عليها، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: حثهم لأصحابهم على كثرة العبادة من حيث كونها ترجع ثمرتها إلى صحائف رسول الله ﷺ بالأصالة دون صحيفته هو عملاً بحديث **«لا يؤمن**

---

(1) لم أقف عليه.

أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين»[1] ومن أحب كثرة الأعمال لتزيد في صحيفته وهو غافلاً عن كونها ترجع إلى صحيفة رسول الله ﷺ فهو ناقص الإيمان، كما سيأتي بسطه في هذه الأخلاق إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: زيادة الستر على الأكابر من العلماء والصالحين؛ لأنهم رءوس الأمة، وذكر نقائصهم ينفر الناس عن الاقتداء بهم، وعن الاهتمام بأمرهم، ونهيهم لهم لتشكل نقائص الداعي لهم إلى خير في قلوبهم.

اللهم إلا أن يترتب على كثرة الستر إحداث خرق في الشريعة، فمثل ذلك يجب علينا إظهار الإنكار على فاعله مصلحة له وللشريعة خوفًا أن يصير ذلك العالم من أئمة الضلال، لكن لا بدّ لنا مع الستر عن زلات من ذكر إذا رأيناها بعيننا من زجره عنها فيما بيننا وبينه، قيامًا بما كلفنا به.

وقد رأيت مرة شخصًا من الوعاظ في عصرنا سعى على وظيفة، فقلت له: إن الواعظ من قسم الصالحين، فلا يليق به مزاحمة الفقهاء على الوظائف، فقال: إني فقير، فنمت فرأيته تلك الليلة، وقد تطور تمساحًا في تليس مخيط عليه من جهة رأسه وذنبه، فعرفت أنه غير صادق في الفقر.

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تعظيمهم للسنة الواردة، واعتناؤهم بالعمل بها أكثر من عملهم بأقوال الأئمة المجتهدين التي أخذوها من الكتاب والسنة من طرق الاستنباط، وإن رجع كل ذلك إلى الشريعة أدبًا مع رسول الله ﷺ، حتى أن بعضهم كره أن يجمع بين رسول الله ﷺ، وبين غيره في ضمير واحد تعظيمًا.

وكذلك من شأنهم أنهم يأخذون ما صرح به القرآن ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3، 4].

وبذلك أخذ الإمام أبو حنيفة قوله بالفرق بين الفرض والواجب، وأنهما غير مترادفين هروبًا من مساواة الخلق للحق في الاصطلاح، فجعل الفرض ما جاء في

---

(1) رواه مسلم (1/67).

القرآن والواجب ما جاء في السنة أدبًا مع الله تعالى.

ونظير ذلك اصطلاح العلماء على تخصيص الصلاة على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بلفظ الصلاة دون لفظ الرحمة، وإن كانت الصلاة من الله هي الرحمة.

وسمعت سيدي علي المرصفي -رحمه الله - يقول: من أدب العارف أن يأخذ ما فرضه الله تعالى ابتداءً من غير سؤال من الخلق بشدة اعتناء أكثر مما فرضه الله عن سؤال من الخلق بالحال أو القال كآية الحجاب، انتهى. وهو كلام غوره بعيد فليُتأمل.

فعُلِمَ من باب أولى أنه ينبغي لقارئ القرآن أن يزيد في طهارة الباطن والأدب حال تلاوته أكثر مما يكون حال قراءة الحديث، ويزيد من ذلك إذا قرأ الحديث أكثر مما يكون حال قراءة كلام المجتهدين وهكذا، فيجالس صاحب كل كلام قرأه بمزيد التعظيم اللائق به، ومتى غفل عن شهود مجالسته لصاحب ذلك الكلام فقد أخل بتعظيمه وفاته الحظ الأوفر من ذلك الكلام، وما شرع الله تعالى عبادة من العبادات إلا طلبًا لحضور عبيده معه فيها، وما زاد على ذلك فهو بحكم التبع، فعلم أن من لم يحضر مع الله في عبادته فكأنه لم يفعلها.

وسمعت سيدي محمد المنير - رحمه الله - يقول: من تأمل بنور البصيرة وجد ما شرعه الشارع ﷺ أكثر نورًا وأنسًا مما شرعه المجتهدين، كما أن ما شرعه المجتهدون أكثر نورًا مما شرعه من بعدهم على اختلاف طبقاتهم وذلك لأن الشريعة هي النور الأعظم، وجميع ما زاد عليها مقتبس من نورها، وكلما قرب المقتبس منها كان نوره أضوء، ثم مازال المقتبسون يبعدون عن ما صرحت به الشريعة حتى خفيت مداركهم، وجُهِلت أقوالهم لبعد زمانهم عن نزول الوحي، بل ربما خطئوا أصحاب تلك الأقوال، ولو اتسع بصر الناس لوجدوا جميع أقوال العلماء ترجع إلى الشريعة المطهرة، لكن ثم قول قريب وقول أقرب، فالشريعة كالعين الأولى من شبكة الصياد، وأقوال علمائها كالعيون المتفرعة عنها إلى دائرة الشبكة الأسفل، فكل عين سلكت منها أوصلتك إلى العين الأولى كما هو معروف بين أهل الكشف، فعلم أن كل من حُجِب عن شهود تفاضل نور أقوال العلماء فلينظر إلى قلبه حال فعله لما شرعه الشارع وحال فعله لما شرعه غيره، فإنه يجد النور والأنس الذي في قلبه حال فعله لما شرعه الشارع أكثر بيقين، وكذلك الحكم فيما شرعه المجتهد بالنسبة لما شرعه من بعده، وهكذا.

وقد أقيمت صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة مرة بحضرة سيدي علي الخواص،

فقال: أين نور هذا الظهر من نور الجمعة؟ وأين الأنس الذي يجده الإنسان حال صلاة الجمعة من الوحشة التي يجدها مصلي الظهر بعد الجمعة؟ مع أن إعادة الظهر من جملة الاحتياط في الدين، انتهى.

واعرضه على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تفقدهم تكرار محفوظاتهم في العلم خوف النسيان، فإن كتب العلم حاوية لما تعبدنا الله تعالى به من أحكام القرآن، فمن نسيها فكأنه نسي القرآن، فعليه من الإثم كمثل إثم من قرأ القرآن ثم نسيه، وهذا الخلق قد أغفل به غالب الفقهاء اليوم فضلاً عن الفقراء، فلا تكاد تجد أحدًا منهم يكرر محفوظاته؛ لاشتغاله بمطالعة الشروح ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد حفظه لمتن كتاب المنهاج مثلا أنفع له من مطالعته في كتب العلم طول عمره مع نسيانه متن المنهاج، فإن من حفظ حجة على من لم يحفظ، ولو نظر في نفسه لوجد المسائل التي تعرفها من متن المنهاج يقينًا أكثر من المسائل التي استفادها من المطالعة، ولو سئل من يكثر مطالعة العلم بلا حفظ للمتون عن مسألة، هل هي ذات قول أو ذات وجه مثلاً؟ لا يهتدي لذلك.

وقالوا: علم الإنسان هو ما يدخل به الحمام، وقالوا: ليس بعلم ما حوى النظر، ما العلم إلا ما حواه الصدر، وذكر الغزالي أنه سافر في طلب العلم من طوس إلى بغداد، فكتب علمًا كثيرًا ووضعه في جراب، فلما رجع به إلى بلده لقيه اللصوص فأخذوا الجراب، فصار يقول: ردوا علمي وخذوا ما عداه، فضحك منه اللص وقال: كيف يكون علمك في الجراب؟ إنما علمك ما كان في صدرك، قال: فأخذت من ذلك ما اعتبرت به، وشرعت بعد ذلك في حفظ العلم حتى لو عرّاني اللصوص لم يفارقني علمي، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ربما أكثر الفقيه من مطالعة الكتب الواسعة فضعفت قوته الحافظة عن معرفة الجواب عن كل ما يُسأل عنه على سبيل الجزم به، فصار علمه كالمشكوك فيه فقل نفعه وفائدته، ولو فتش نفسه لوجد جميع ما يريد تحصيله بالمطالعة دون المسائل التي في كتابه الذي نسيه، انتهى.

وسمعته مرة أخرى يقول: لو تأمل حافظ «المنهاج» مثلاً لوجد نفسه أعرف بالراجح والمرجوح ممن طول عمره يطالع الشروح من غير حفظه للمتون، ولو أنه قبل لحافظ «المنهاج» مثلاً وهو في الحمام عريان: هل هذه المسألة ذات قولين، أو ذات

وجهين، أو هل فيها نص للإمام الشافعي أم هي من كلام الأصحاب؟ لأجاب عن ذلك بأحسن جواب في الحال فيسود ذلك الباب في ذهنه، ويخبرك بالمنقول فيها ويعرف موضعها من الكتاب بخلاف من لا يحفظ فإنه يقول لك: حتى أخرج من الحمام وأكشف لك عنها.

وكثيرًا ما يذكر العلماء مسائل في غير أبوابها المعقود لها فيصير الذي يحفظ المتون تائهًا لا يعرف موضعها، وربما صار يفتش عليها نحو الشهر حتى يجدها، وقد صنف الزركشي - رحمه الله - كتابًا في المسائل المذكورة في غير أبوابها سماه «خبايا الزوايا»(1) وأستحضر أني لما حفظت «الروض» أطلعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا على اثني عشر مسألة كان ذكر في شرحه أنها من «زوائد الروضة» على «الروضة» والحال أنها مذكورة في «الروضة» في غير أبوابها، فضرب على قوله أنها من زيادته على «الروضة».

وكذلك لما كنت أقرأ على شيخنا الشيخ نور الدين المحلي(2) - رحمه الله -

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفا (427/2).

(2) قال السخاوي: هو الشيخ علي بن محمد بن محمد بن محمد بن علي النور أبو الحسن المحلي، ثم القاهري الشافعي تلميذ يعرف بابن قريبة - بقاف مضمومة ثم راء بعدها تحتانية ثم موحدة - ويعد ذلك بالمحلي. قيل: إنه ولد سنة خمسين ونشأ فقرأ القرآن عند الشهاب بن جليدة وحفظ المنهاج وألفية النحو وسافر البرلس فأقام بزاوية هناك معروفة بابن قصي فأخذ عن ابن الأقيطع في النحو والمعاني والبيان ثم تحول إلى القاهرة فأقام بزاوية ابن بكتمر إلى أن طرده منها جماعة الشيخ مدين بسبب ذكر فأقام بجامع الزاهد وأخذ عن إمامه الشمس المسيري في الفقه وغيره ثم ترقى إلى ابن قاسم وابن القطان والمقسي ثم صحب البقاعي واختص به وارتبط بجانبه وخاض معه في جميع أسبابه وقرأ عليه مناسباته وغيرها من الحديث وغيره وكذا أخذ فيما زعم عن التقي الشمني في حاشية المغني قليلاً وعن الأمين الأقصرائي والتلويح من أصولهم وعن الكافياجي في شرح العقائد ثم طرده وحضر عند إمام الكاملية في بعض دروس الشافعي وعند أبي السعادات وابن الشحنة الصغير ولازم التقي الحصني في الرضى وشرح المواقف وأخذ عن المحب بن الشحنة بل عن الكمال بن أبي شريف وأخيه البرهان وقرأ في التقسيم على العمادي والفخر المقسي والجوجري وتكرر له ذلك عليه بخصوصه مع ما ضبط عنه من تنقيصه له بالكلمات الفظيعة والتلويحات القبيحة حتى وهو بين يديه وكذا جحد ابن قاسم أتم الجحد مع قوله قرأت عليه ما ينيف على عشرين كتاباً في فنون ما علمته أحسن تقرير شيء منها وكون جل انتفاعه فيما قيل إنما هو به وادعى ممن لم يعلم له عنه أخذ كالمناوي بحيث سمعت ثقات أصحابه يكذبونه في ذلك نعم يمكن حضوره مع شيخه عنده في درس الشافعي، ودخل الشام

وكانت المسألة تأتي إليه فلا يدري جوابها، ولا أين هي في «المنهاج» فيقول لي: هذه المسألة في أي باب من «المنهاج»؟ فأقول له: في الباب الفلاني فيكشف عليها ويفتي السائل، ولو أنه كان يحفظ متن «المنهاج» لاستغنى عن سؤالي.

وقد اشتغلت مرة بمطالعة الكتب عن تكرار محفوظاتي، فنظرت فإذا أنا صرت أغلط فيها، فرأيت شيخ الإسلام زكريا بعد مماته وهو ماسك كتاب «المنهاج» وهو يقول لي: تعال أسمع لك الذي نسيته من «المنهاج» ثم قال لي: أما علمت أن من نسي كتابه الذي حفظه في الفقه أو بعضه فهو كمن نسي القرآن بعد حفظه، وإن عليه من الإثم مثل ما على من نسي القرآن، أو بعضه فأصبحت واشتغلت بتكراره حتى صرت أحفظه مثل القرآن، وأعرف متشابهاته كالقرآن.

وممن أدركته من الأشياخ على هذا القدم سيدي الشيخ عبد الحليم بن مصلح،

= مع شيخه البقاعي حين اضطراره إلى الخروج إليها ثم لأخذ ما أوصى له به من كتبه وغيرها بعد موته، وتنزل في الجهات في حياته وبعده وتمول جداً، وحج غير مرة منها مرة على السحابة المزهرية لمزيد تردداه إليه حتى قرأ بين يديه الحلية والأحياء وغير ذلك ونزله في عدة وظائف بمدرسته منها قراءة الحديث بل توجه في سنة اثنين وتسعين شريكاً لغيره في السحابة ومشرفاً على عمارته في المدينة النبوية وفعل ما لا يجمل وكذا قرأ دلائل النبوة وغيرها عند يشبك الجمالي بسفارة اليمن بن البرقي لاختصاصه به وانضمامه بعياله إليه ولذا أعطاه مشيخة التصوف بمدرسة أستاذه الجمالي ناظر الخاص بعد إسماعيل الحياني وأقرأ جماعة من الصغار بل قسم الفقه بالأشرفية برسباي في سنة تسع وثمانين واستمر وكذا عظم اختصاصه بشيخه ابن الشحنة الصغير وعشرته معه بحيث أنه لما تجاذب هو ونسيبه النجم القلقيلي وادعى عليه عند قاضي المالكية البرهان اللقاني أحضره للشهادة له فلم يقبل القاضي شهادته لأجل من شهد بعداوتهما ولغير ذلك مما صرح به القاضي في كائنة شهد فيها عنده أيضاً مع شيخه وبالجملة فعنده من الجرأة ما اقتفى فيه أثر شيخه ولكن امتاز عليه بمزيد النفاق بحيث لا يثق به أحد من الناس لا له ولا عليه مع مزيد المجازفة وإيمانه الحانثة ولقد أفسد بهما عليه دينه ودنياه ووالله إن في تعاليق شيخه ما ليس له أصل أصلاً مما هو أصله ومن مجازفات شيخه أنه يكون مع الكوراني الرومي على محقق العصر ووليه الجلال المحلي وينقل عن هذا واصفاً له بالعلامة المحقق مع كونه حقيقة أمره ما أشرت إليه وما ركن خاطري إليه يوماً من الدهر حتى حين اجتماعه علي وعلى أخي وما علمت من يزاحمه في مجموعه أو يساويه في مساويه وقد عرف بالاستهزاء والسخرية بالناس مع الملق ظاهراً والإيذاء باطناً وتناوله على المشي في بعض الحوائج وانحطت منزلته عند كثير من الناس حتى عند بعض الأكابر ممن كان أبوه كثير الإحسان إليه لتلونه وركونه ظاهراً إلى بعض مبغضيه باطناً. [الضوء اللامع (3 / 146)].

وسيدي أبي الفتح الغمري الذي قيل أنه قطب قبل موته، فكانوا لا يغفلون تكرار محفوظاتهم، ويقولون: قد صار علم كل من لا يحفظ المتون في لسانه لا في قلبه، فلا يقدر على إلقاء درس إلا إن طالعه ولو أن علمه كان في قلبه لاكتفى بما عنده من النور وقرر كلام ذلك المتن أو ذلك الشرح؛ لأنه بلسان عربي وهو طول عمره يطالع فيه، فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: التصدق بكل ثوب أو عمامة أو قلنسوة أو سراويل أو رداء عصوا ربهم فيه، حتى إن بعضهم يود أن الله يبدله جسمًا غير جسمه الذي عصى به ربه، وبعضهم كان إذا عصى كان يود لو أن الله تعالى يميته لوقته حتى لا يعصيه مرة ثانية إيثارًا لجناب الحق تعالى.

وبعضهم يحلق رأسه وحواجبه ولحيته؛ لأنه هو الذي يمكنه إزالته من جسده بغير ضرر يمنع أنه مخلوق، وهذا وإن كان فيه تعظيم جناب الله فاتباع السنة الأولى، وأما التصدق بثيابه التي عصى فيها فهو لا بأس به لأنه كالكفارة، والله أعلم.

ومن اخلاقهم: كثرة أجوبتهم الحسنة عن أكابر الحضرة الإلهية من رسل، وأنبياء، وصحابة، وتابعين، وأئمة مجتهدين، وجميع أتباعهم من المقلدين أدبًا مع الله ﷻ، الذين هم في حضرته على اختلاف طبقاتهم كل منهم على قدر حظه ونصيبه من القرب من شهود الله ﷻ، وخوفًا أيضًا على أنفسهم من المقت إذا خاض أحدهم في حق أكابر الحضرة بغير علم ولا إرث لهم في المقام كما يقع في ذلك كثيرًا من المجادلين، فيبادر أحدهم إلى الكلام على معنى خطيئة آدم وداود - عليهما السلام - ويحمل ذلك على حسب ما يتبادر إليه همه، وأين المقام؟ وأين الحال من الحال؟

وقد قال الشيخ محيي الدين في «شرح ترجمان الأشواق»: ليس لنا ذوق في مقامات الأنبياء حتى نتكلم على أحوالهم، وليس لأحدنا من مقامهم الإرث من مقامهم إلا كما يرى خيال النجوم على وجه الماء، وقد طلب أبو يزيد من الله تعالى أن يدخله مقام نبي من الأنبياء، فأعطاه الله منه مقدار الشعرة البيضاء من الثور الأسود، فكاد أن يحترق، وسأل الله الحجاب عن ذلك المقام، قال: لا طاقة لأمثالنا بدخول مقام أحد من الأنبياء، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لو أن أحدًا من هؤلاء المجادلين رأى شخصًا مقربًا عند سلطان أو أمير لأكرمه لأجله رجاء إحسانه أو خوفًا منه فالله أحق بذلك من عبيده.

وسمعته أيضًا يقول: يجب على كل مؤمن أن يجيب عن أولياء الله، ويحملهم على أحسن المحامل كما يفعل في المقربين عند أكابر ملوك الدنيا، بل الأولياء أولى بالوجوب.

وسمعته أيضًا يقول: من الواجب على كل مسلم الذب عن أعراض الصحابة فضلاً عن الأنبياء، وعن أعراض التابعين فضلاً عن الصحابة وهكذا؛ لأن هؤلاء هم حماة الدين والقدح فيهم طعن، في جميع ما كانوا واسطة لنا فيه من الأحكام، فكان من نسبهم إلى نقص يريد أن يهدم أركان الدين كلها، وقد لعن الله تعالى من غير حدود الأرض فكيف بمن يغير حدود الدين؟ انتهى.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بحس الأجوبة عن الأئمة ومقلديهم من الفقهاء والصوفية من حداثة سني إلى وقتي هذا، حتى ربما ظن بعضهم من كثرة توجيهي لأفعالهم وأقوالهم أنني لا أتقيد بمذهب، والحال أني مقلد الإمام الشافعي ﷺ، وإنما أجيب عن الأئمة من باب حسن الظن بهم، وكثرة اطلاعي على أدلتهم، لا تعصبًا لهم بغير علم معاذ الله أن أقع في ذلك، فلكل فعل أو قول ورد عن نبي أو ولي أو فقيه عندي محمل صحيح بحمد الله تعالى لا تأباه العقول السليمة، وأرجو من فضل الله تعالى أن كل من أجبت عنه من الأنبياء والعلماء والصالحين يتبسم في وجهي يوم القيامة إذا رآني، ويأخذ بيدي بخلاف من كان يرمي الأكابر بما لا ينبغي، ويحملهم على حال نفسه هو، فربما عبسوا كلهم في وجهه يوم القيامة، أو نظروا إليه شزرًا، أو لم يتبسموا له كل ذلك التبسم أو تبسم المغضب.

وأيضًا وكما وجب علينا حمل آيات الصفات، وأخبارها على محامل تليق بالبارئ - جل وعلا - فكذلك يجب علينا الذب عن رسله - عليهم الصلاة والسلام - وحملة شريعتهم من الفقهاء والمحدثين وغيرهم؛ لأن مقام هؤلاء لا ذوق لأمثالنا فيه لحجاب أحدنا من دائرة شيخه الأدنى فضلاً عن الأعلى؛ ولأن النبوة يبتدئ مقامها من بعد نهاية مقامات الأولياء، فإذا كان لا ذوق لأعلى الأولياء في مقامات الأنبياء حتى يتكلم عليها على وجه المطابقة فكيف لأمثالنا ذوق فيها؟.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا يجوز لأحد من الأولياء أن يتكلم على مقام نبي إلا بحسب ما ورث من مقامه فقط، فإنه محال لولي أن يرث مقام نبي على الكمال، انتهى.

فإن كنت يا أخي وارثًا لأحد منهم فتكلم في مقامه بحسب الإرث، وإلا وجب

عليك السكوت خوفًا من دخولك في مقت الله تعالى بخوضك في أعراض أهل حضرته بغير علم، وبالله التوفيق.

إذا علمت ذلك فقد أجيب به عن أبينا السيد آدم ﷺ في أكله من الشجرة التي جعلها الله تعالى لبنيه من بعده، كالحبة في الفخ للطائر هو أن تعلم يا أخي أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121] هم بنوه الذين كانوا في ظهره ﷺ وبذلك قال جماعة من العلماء نظير قوله تعالى في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:65] ونحوها من الآيات.

وقال الشيخ عبد العزيز الديريني ﷺ: لم تكن معصية أبينا آدم ﷺ حقيقية، وإنما كانت صورية كأنه يعلم بنيه بصورة ما وقع على يديه كيف يفعلون إذا وقع أحدهم في معصية ربه ﷻ من التوبة والاستغفار وعدم الاحتجاج بالقضاء السابق الذي لا مرد له، فإن آدم ﷺ قال بعد ما وقع في الأكل من الشجرة صورة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] مع علمه يقينًا بأن ظاهر ما وقع فيه كان بقضاء وقدر لا مرد له، وأن الله تعالى قدره عليه قبل أن يخلقه من التراب، ففتح ﷺ بذلك لبنيه باب التوبة والاستغفار، وفتح إبليس لبنيه وجنوده بالاحتجاج بالقضاء والقدر، والإباية عن السجود باب الشقاء والدمار، والاستكبار والافتخار ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:42]

ولذلك قال تعالى في آدم ﷺ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:121] وفي إبليس ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

وفي ذلك حكمة لا تذكر إلا لأهلها مشافهة؛ لأن الكتاب يقع في يد أهله وغير أهله، فاعلم ذلك.

وسمعت سيدي أفضل الدين - رحمه الله - يقول: كان في أكل أبينا آدم من شجرة النهي بيان حكم حضرتي الأمر والنهي، وإن من كمال العبد المؤمن ذوقه لهما ليعرف مقدار الوصل والهجر، ومن هنا قالوا: إن بني آدم أكمل في المقام من الملائكة؛ لأنهم لا يذوقون للنهي طعمًا لعدم وقوعهم فيه وعدم ميلهم إليه، ففاتهم الأجر الذي جعله الله لبني آدم في نظير اجتنابهم النهي، وفاتهم مقام محبة الله تعالى لهم في قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: 222]. فعلم أنه لولا ذوق بني آدم النهي ما عرفوا قدر ما أنعم الله عليهم في امتثالهم الأمر، إذ لا يعرف مقدار شيء إلا بضده.

ولو أن آدم ﷺ لم يأكل من الشجرة الأكل الضروري لكانت ذريته المؤمنون ناقصين من الأجر والثواب والشكر لله، وأما هو ﷺ فكان كاملاً في كل حال، والله تعالى رضي عنه في حال أكله من الشجرة كحال توبته وندمه على حد سواء؛ لأن تلك المعصية كان المراد بها غيره من ذريته لا هو.

وقد أجمع أهل الكشف قاطبة على أن ترقي الأنبياء في المقامات دائم، فلا ينتقلون من حال إلا لأعلى منه وأكمل، وأن هبوط آدم ﷺ إلى الأرض كان هبوط كرامة وشرف، وترقٍ في مقامه؛ لأن الأرض هي محل خلافته التي شرف بها، ولم يجعل الحق تعالى له في تلك الجنة التي كان فيها خلافة ولا خروج ذرية من أنبياء ولا غيرهم، فكان فيها كالعقيم الذي لا ولد له.

وقد امتن الله تعالى على الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بالذرية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: 38] وأما وصف الحق تعالى يحيى بن زكريا - عليهما الصلاة والسلام - بأنه حضور فليس ذلك صفة كمال كما قاله الشيخ محيي الدين ﷺ، وإنما هي حكاية عن الحال التي كان عليها، انتهى.

قلت: ويحتمل أن ذلك صفة كمال ليحيى ﷺ من باب الخصوصية له، وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: لو لم يكن من فائدة هبوط آدم ﷺ إلا كون حسنات جميع بنيه في صحيفته لكان في ذلك كفاية في شرفه؛ لأنه حسنة الولد من حسنات الوالد، وليس على الوالد من وزر بنيه شيء، انتهى.

وسمعت بعض أهل الكشف يقول: جميع ما وقع من آدم ﷺ كان الحق تعالى قد أعلمه به قبل ذلك، وقال له: إنه قد سبق في علمي خلقك، وإخراج ذرية من ظهرك فيهم أنبياء ورسل، وأولياء وصالحون، ومؤمنون وكافرون، ومقرون وجاحدون، وأرسل رسولي جبريل إلى الرسل من أولادك بكتب وصحف، وأحكام وتكاليف، وكذلك سبق في علمي أن أخلق لذريتك وغيرهم من الجن دارين اسم إحداهما الجنة، والأخرى جهنم، فأجعل الجنة للأنبياء والمرسلين ومن أطاعهم وصدقهم، وجهنم لكل من خالف كتبي ورسلي ويكون شرفك بذلك، وسبق في علمي أن أوقع على يديك صورة ما يقع

من بعض بنيك من المعاصي، وأعلمك كيف يتخلصون منها إذا وقعوا فيها، وإن من تاب منهم واستغفرني وندم قلبه، ولم ينقص ذلك من مقامه عندي ولا بدّ لك من حجة أقيمها عليك في الظاهر، وأنادي عليك بالعصيان تقبيحًا في عين بنيك لئلا يستهينوا بمحارمي فاثبت ولا تضجر فإنك عندي مصطفى مختارًا.

واعلم يا صفي بأني كريم، ولا ينبغي للكريم أن يخرج عبده من جواره إلا بحجة تقام عليه، ليتميز سيده بالكمال المطلق، ويتميز نفسه بالنقص المقيد النسبي، انتهى.

لما أعلمه الحق تعالى بما ذكرناه صار ﷺ مترقبًا لخروجه من تلك الجنة إلى دار خلافته، وليرتب الله تعالى الأسباب على مسبباتها كما سبق في علمه، وأيضًا فإن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31] قال: علّمه كل اسم إلهي وكوني حتى القصعة والقسية والمقسية والمحراث والطاحون والفأس والقدرة، ونحو ذلك مما لا يحتاج إليه أهل تلك الجنة التي كان فيها.

وكان آدم ﷺ منتظرًا خروجه إلى الأرض؛ ليستعمل تلك الأسماء والمسميات فيها، ويكون آلة في تنفيذ قضاء الله وقدره في عباده، وكان لسان حال الإرادة الإلهية يقول لآدم ﷺ: لا أخرجك من جواري إلا بحجة تقام عليك، ونهيك من الأكل من الشجرة هو قرب أوان إخراجك من جواري إلى محل آخر في جواري تكون فيه خلافتك، وقد قدرت عليك الأكل الصوري من الشجرة دون أن آمرك بالأكل منها، فإن ذلك تصير القبضتين إلى قبضة واحدة، وهو خلاف ما سبق في علمي من جعلهم قسمين شقي وسعيد، فإني أريد المعاصي من عبادي ولا آمر بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:28] انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - تعالى يقول مرارًا: كانت معصية آدم ﷺ صورية لا حقيقية، فإن الحق تعالى كان قد ألهم آدم من الوجه الخاص الذي بينه وبينه، وقال له: إني أريد أن أبرز ما كان في مكنون علمي من ترتيب الأسباب على مسبباتها، وأقدر على يديك صورة ما يقع من بنيك السعداء، دون الأشقياء، ولا أؤاخذك بصورة ما يقع على يديك من صورة ما يقع فيه بنوك، وأجعل صورة ما يقع على يديك صورة تقود الأقدار التي لا انتهاك فيها لمحارمي خلاف ما يقع من بعض

بنيك، فكانت المسألة بمثابة جماعة قال لهم الملك: إني أريد أن أحدث في ملكي أمرًا، وأرتب عليه أحكامًا وأنهي خليقتي عن شيء في الظاهر، وأريد منهم في الباطن، وأجعل عدم الأذن له في المنهي إذنًا له باطنًا، وكل من كان حاضرًا هذا الاتفاق من المقربين، أو اطلع عليه من طريق كشفه لم يسمِ ذلك معصية حقيقة، ومن كان غائبًا عن هذا الاتفاق، أو لم يكشف له عنه جزم بأنه معصية ظاهرًا وباطنًا قال: فما ثمّ إلا مطيع من وجه واحد أو من وجهين وكل من لم يطع الأمر أطاع الإرادة ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93] حتى أن من ادعى الألوهية من العبيد ما ادعاها إلا بإرادة الله تعالى له أن يدع ذلك، وإن كان الشرع نهى عن الاحتجاج بالإرادة إذا تجردت عن الأمر، فإن أحدًا لا يطيع ولا يعصي إلا بالإرادة، ولكن إذا أرادت الدرة الإلهية للعبد امتثال الأمر امتثله لا محالة، وسُمِي ذلك العبد مطيعًا لله تعالى ظاهرًا وباطنًا من وجهين؛ لأن الأمر وافق الإرادة، وإن لم ترد القدرة الإلهية للعبد امتثال الأمر ظاهرًا لم يصح منه طاعة، وسُمِي عاصيًا للأمر مطيعًا للإرادة باطنًا.

فعلم أن نداء الحق تعالى على آدم ﷺ بالمعصية إنما هو لأجل المحجوبين عن الاتفاق المذكور؛ لأنهم هم الذين يتعدون حدود الله تعالى، ويقعون فيها وأما المقربون هم يعرفون الأمر على ما هو عليه، ويعلمون إنما وقع من آدم ﷺ كان مرادًا به غيره، وقد يضرب الملك عبده المقرب عنده تخويفًا لبعض العبيد الخارجين عن طاعة الملك برضًى منه مع الملك واتفاق على ذلك ليقول الخارجون عن طاعة الملك إذا كان هذا فعله في عبده المقرب، فكيف بالعبد المطرود عن حضرته؟ فيتحرك هؤلاء المارقون عن الطاعة لفعلها، ويخافون منه إن تركوها، فكان آدم ﷺ فاتحًا لباب أحكام الدنيا، وحاملاً عن بنيه شدة الندم، والخوف والبكاء[1].

---

(1) فائدة: قال الشيخ المصنف في العهود المحمدية (54/1): إن قيل : إن الأكابر من الأنبياء بكوا حتى نبت العشب من دموعهم . وبكى آدم حتى صارت دموعه بركة ماء يشرب منها الدواب والهوام نحو ثمانين سنة كما ورد وهؤلاء لا يتصور في حقهم أنهم يرون شركة نفوسهم في الفعل مع الله تعالى إلا بقدر نسبة الفعل إليهم لأجل التكاليف وذلك القدر ضعيف جدا لا يكون لأجله الدم ولا الدموع الكثيرة وهذا الأمر هو بالأصالة للأنبياء لأن النبوة تأخذ بدايتها من بعد منتهى الولاية.

فالجواب : إن بكاء كل داع إلى الله تعالى إنما هو تشريع لقومه فيجري الله تعالى عليه صورة =

فقد نقل الكسائي أن آدم ﷺ بكى حتى صار من دموعه بركة عظيمة، ومكثت الوحوش والطيور والبهائم تشرب منها مدة ثمانين سنة، فكان من فتوته وعزمه وشفقته على بنيه أن تحمل عنهم هذا البكاء العظيم، ولولا ذلك لاشتد البكاء والنحيب والحزن على بنيه أكثر مما يقع لهم الآن، وربما كانوا يتعطلون عن أمر معاشهم، فجزاه الله تعالى عن بنيه خيرًا.

وسمعت أخي أفضل الدين - رحمه الله - يقول: أجمع أهل الكشف على أن نداء الحق تعالى على أبينا آدم ﷺ بالعصيان والغواية كان المراد به غيره نظير قوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:65]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1] ونحو ذلك، انتهى.

وقد مر بعض ذلك فمن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل فيهم أنبياء؟، وأعطاهم القوة على تحمل صولة خطابه مما لو يحمله غيرهم لهلك وذاب، وأيضًا فلما سبق في علم الله تعالى إعراض العصاة عن أوامر الله كذلك أعرض تعالى عنهم بالخطاب، وخاطبهم في غيرهم بغضًا لهم، ومقابلة للإعراض بالإعراض، وجميع أهل الكشف من المقربين يعلمون من الله تعالى شدة اعتنائه بأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - وأنه قد عصمهم من الوقوع في كل شيء يكرهه تعالى، وأنهم ليسوا بمحل لوقوع المخالفات الحقيقية، ومن كان كذلك لا يحتاج في ترك المخالفات إلى نهي، فافهم.

وكذلك أجمع أهل الكشف كلهم على أن مقام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -

---

-

الندم حتى لا يسأل يوم القيامة عن تفريطه في شيء من أحوال قومه التي كلفه الله تعالى ببيانها لهم ولا عن بيان كيفية خروجهم من ذنوبهم إذا وقعوا فيها ويحتمل أن يكون بكاء الأكابر من باب الفتوة على قومهم فحملوا عنهم ببكائهم ذلك البكاء الذي كانوا مأمورين به بعد وقوعهم في الذنوب فكانت تلك البركة التي نشأت من بكاء آدم عليه السلام هي دموع بنيه التي كانت متفرقة فيهم ودفعها عنهم وهذا ما ظهر لي في هذا الوقت من الجواب عن الأكابر فعلم أن أحدا لا يستغني عن الاستغفار سواء كشف له الحجاب أو لم يكشف فإنه إن شهد له مدخلا في شركة الفعل، فالواجب عليه سؤال المغفرة وإن لم يشهد له مدخلا فيه فالواجب عليه أيضا سؤال المغفرة قياما بواجب نسبة التكليف إليه كما قال أبونا آدم عليه الصلاة والسلام مع معرفته بما الأمر عليه من القضاء المبرم الذي لا مرد له (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فلا يخلو حال المستغفر من أحد أمرين : إما تحقيق الذنب وإما للتشريع ويكون ندمه صورة فتأمل ذلك وحرره والله يتولى هداك.

حضرة الإحسان التي يعبد العبد فيها ربه كأنه يراه، وتلك حضرة لا يصح للعبد أن يعصي ربه فيها أبدًا، فلا بدّ للعاصي من حجاب حتى تقع منه المعصية، ولا يصح لعبد أن يعصي ربه على الكشف والشهود بأن الله تعالى يراه أبدًا، فما وقع أحد في معصية إلا وهو محجوب عن ربه بسبعين ألف حجاب.

وإذا كان الولي إذا دخل حضرة الإحسان يحفظ من الوقوع في المعاصي، فكيف بمن هو مقيم فيها من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - على الدوام؟

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ يقول: من أعظم دليل على عصمة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - كون الحق تعالى جعلهم مشرعين لأممهم بأقوالهم، وأفعالهم كلها، فلو أنه كان يصح من أحدهم معصية حقيقة لصدق عليهم تشريع الوقوع في المعاصي ولا قائل بذلك، انتهى.

وكان يقول أيضًا: قد أجمع أهل الكشف الصحيح على أن الأسباب المانعة للعبد من الوقوع في المعاصي أربعة لا خامس لها: وهي العصمة أو الحفظ، والحياء، والخوف، والرجاء، وهذه الأربعة مجموعة في كل نبي لله بلا شك، انتهى.

قلت: ومن هنا تعرف معنى حديث: **«نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»**[1] أي: لو قدر أنه لم يخف الله تعالى لكان معه ثلاثة أسباب مانعة من الوقوع في المعصية وهي عدم التقدير في علم الله تعالى والحياء والرجاء، وقس عليه بقية الأربعة كما لو قيل: نعم العبد صهيب لو لم يستحِ من الله، أو لم يرج ثواب الله، أو لم يقدر الله تعالى عليه معصية لم يعصه.

ومما يؤدي قولنا أن معاصي الأكابر تورثهم الاجتباء والاصطفاء من غير أن ينقص مقامهم حال وقوعهم في مسمى المعصية عند الله تعالى، قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ:

لو عرف آدم أنه إذا نزل إلى الأرض يعود إلى الجنة بمائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي منهم محمد رسول الله ﷺ لأكل الشجرة بكمالها.

وكذلك يؤيد ما ذكرناه ما ذكره الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ في الباب التاسع والثلاثين من «الفتوحات المكية» من أن هبوط آدم ﷺ عقب أكله من الشجرة إلى الأرض، هو وحواء لم يكن عقوبة لهما كما وقع لإبليس - لعنه الله - وإنما كان

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفا (427/2).

هبوط شرف، فإنه أهبط بالوعد السابق أن يكون هو وبنوه خليفة في الأرض؛ أي: يخلفون الجن والبن الذين كانوا قبلهم في الأرض وكانوا ملائكة أرضيين، ولو أنهم كانوا من ملائكة السماء لما قالوا ذلك لعدم ذوقهم للقتل والفساد في السموات، فافهم.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ما بلغنا قط في كتاب ولا سنة، أن أحدًا من أهل السماء يفسد فيها، أو يسفك دم أخيه من الملائكة أبدًا بخلاف الملائكة الأرضية؛ لقربهم من أحكام أهل الأرض، قال: ثم بتقدير أن معصية آدم المذكورة لم تكن صورية، فما أنزل إلى الأرض إلا بعد وقوع توبته المقبولة وندمه وبكائه وتلقيه الكلمات من ربه بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: 23] إلى آخره تعليمًا لبنيه أن يعترفوا بذنوبهم إذا وقعوا فيها، ولا يحتجون بالقضاء والقدر، فإنه ﷺ لم يحتج بالقضاء والقدر، بل قال مع علمه بأن مع وقع على يديه بقضاء وقدر لا مرد له ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

فعلم أولاده أدب العبيد مع سيدهم - جل وعلا - إذا خالفوا أمره بسبق إرادته، وكان اعترافه ﷺ في مقابلة قول إبليس للحق - جل وعلا - كيف تؤاخذني على ذنب قدرته عليّ قبل أن أخلق؟ فسعد آدم باعترافه وشقي إبليس بجداله بغير حق، وقد بلغنا أن الحق تعالى أدحض حجته بقوله تعالى له: متى علمت إني قدرت عليك الإباية عن السجود قبل وقوعك في الإباية أم بعدها؟ فقال: بعدها، فقال له الحق - جل وعلا - : بذلك أخذتك.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا - رحمه الله - يقول: إنما أخبرنا الحق تعالى باعتراف أبينا ﷺ بالذنب، وأعلمنا تعالى بشدة اعتنائه به، ووعده على ذلك بالاجتباء؛ لنفعل مثل صورة فعل أبينا ﷺ إذا وقعنا في الذنب، ونعترف بذنوبنا، كما أنه تعالى ما عرفنا بمقالة إبليس إلا لنحذر من الوقوع في مثلها عند وقوعنا في المخالفة لأمر الله بإرادة الله، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: أقبح من كل قبيح قول العاصي لربه: كيف تؤاخذني على أمر قدرته عليّ قبل أن أخلق؟

فكل من اعترف بذنبه، ولم يحتج على ربه أنسه تعالى يوم القيامة جزاء على أدبه، وقال له: يا عبدي لا تخف في هذا اليوم من ذنبك، فما كان ذلك في دار الدنيا إلا بقضائي وقدري.

قال: وعند ذلك يكاد العبد يطير من الفرح والسرور حين صار الحق تعالى يعتذر عن عبده، ويقيم له الحجة، فانظر يا أخي ما أحسن جزاء أدب العبد مع سيده في دار الدنيا، انتهى.

وسمعته أيضًا يقول: لا يعتذر الحق تعالى يوم القيامة إلا عن عباده الموحدين، فإياك والغلط.

وكان ﷺ يقول: من ندم على ذنبه واستغفر ربه منه، واعترف به فقد صحت توبته؛ لأن الله تعالى لم يقص علينا في توبة أبينا آدم ﷺ إلا الاعتراف والندم، فلو كان ثم أمر زائد لقصه علينا.

وقول العلماء: إن من شروط التوبة الإقلاع، وعزم ألا يعود إنما أخذوه بطريق الاستنباط إذ النادم على شيء من لازمه الإقلاع وعزم ألا يعود، انتهى.

وسمعته ﷺ يقول مرارًا: من زعم أن هبوط آدم وحواء - عليهما الصلاة والسلام - من الجنة كان عقوبة لهما فقد افترى إثمًا عظيمًا إنما كان الله هبوطهما لزيادة الكرامة والتقريب، وليخرج الله من ظهر آدم ﷺ وبطن حواء الذرية التي بها يعمر الدنيا كما سبق في علم الله تعالى، وليكون ثواب طاعات جميع بنيهما في صحائفهما من الأنبياء والمرسلين وصالحي المؤمنين من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وأما أوزار بنيهما فليس عليهما منهما شيء كما مر، ولا يكون الوزر إلا على من تسبب فيه بالقصد.

وقد كان الشيخ أبو مدين المغربي ﷺ[1] يقول: لو كنت مكان أبينا آدم ﷺ، وأطلعني الله تعالى على ما أطلعه عليه من عدم المؤاخذة بما يقع على يديه من صورة

---

(1) هو سيدنا الغوث، منصِّب الأولياء، من أعيان مشايخ المغرب وصدور المقرَّبين، وشهرته تغني عن تعريفه. مات بتلمسان ودُفن بها، وقد ناهز الثمانين وقبره ثم ظاهر يُزار، وكان سبب دخوله تلمسان أنّ السُّلطان لما أبلغه خبره أمر بإحضاره من بجاية؛ ليتبرَّك به، فلما وصل إلى تلمسان قال: ما لنا وللسُّلطان الليلة نزور الأخوان، ثم نزل واستقبل القبلة وتشهَّد، وقال: ها قد جئت، ها قد جئت، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:84]، ثم قال: الله الحيُّ وفاضت روحه.

قال الشيخ أبو الحجَّاج الأقصري: سمعت شيخنا عبد الرزاق يقول: لقيت أبا العباس الخضر ﷺ فسألته عن شيخنا أبي مدين فقال: إمام الصديقين في هذا الوقت، وكان ﷺ جميلاً ظريفًا متواضعًا زاهدًا ورعًا، محقِّقًا مشتملاً على كرم الأخلاق، واجتمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله، وتأدَّبوا بين يديه.

انظر في ترجمته: طبقات الشعراني (133/1)، والانتصار للأولياء الأخيار للموصلي (ص451) بتحقيقنا.

ذنوب بنيه؛ لأكلت الشجرة كلها لما ترتب على أكلها من الخير والبركة، فإنه ﷺ كان فاتحًا للقبضة في حق أولاده لا في حقه، ولذلك لم يتكرر منه الذنب إنما وقع مرة واحدة، انتهى فليتأمل.

وكان يقول أيضًا ما وقع من آدم ﷺ كان كالحتم الواجب وقوعه، إذ لا بدّ من فاتح يفتح الباب حتى لو لم يقع ما وقع من آدم ﷺ لكان وقع من غيره لا محالة، وكان آدم ﷺ بما وقع فيه، كالآلة التي تنفذ فيها أحكام القضاء والقدر من غير أن ينقص له مقام بذلك، انتهى.

وكان يقول أيضًا: إنما أهبط آدم من الجنة ليتخلق بالذل والمسكنة والحاجة التي هي أعلى أوصاف العبيد في دار التكليف، فإن الجنة التي كان فيها ليست بمحل لذلك، وإنما محل ذلك الأرض، وقد بلغنا أن أبا يزيد ﷺ كان يقول: رأيت ربي ﷻ في المنام، فقلت له: يا رب بم يتقرب إليك المتقربون؟ فقال: بما ليس من صفتي، فقلت له: يا رب وما ذلك؟ فقال - جل وعلا: الذل والانكسار. وسيأتي قريبًا أن هذا من أعجب الأمور؛ لأن القرب عادة إنما يكون بالتخلق بصفات المحبوب، ومن بعد عنها بعد عنه، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إنما نسب آدم الأمر القبيح إلى نفسه بقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23] ليعلم بنيه الأدب مع علمهم بتمام العلم عليه، انتهى.

وكان ﷺ يقول أيضًا: قد يجرب الحق تعالى عبده بوقوعه في الزلة ليرى العبد صدق دعواه العبودية، أو كذبه فيها ليرقيه في مقامات العبودية، والرضا عنه في قضائه.

كما وقع أن إبراهيم بن أدهم ﷺ[1] نام ليلة عن ورده، فأصبح حزينًا على ذلك، فعوقب بحرمان القيام سبعة أيام، حتى كاد قلبه يتفطر من الجفاء والبعد عن حضرة الله تعالى، ثم نودي في سره: يا إبراهيم كن عبدًا لنا تسترح فإن أنمناك نم، وإن أقمناك قم، وليس لك في الوسط شيء، وأنا غني عن عبادة خلقي، انتهى.

---

(1) هو سيدي إبراهيم بن أدهم البلخي الحازم الأحزم العارف الأعزم، كان عم المقطوع المرذول ذاهلاً، والمرفوع الوصول متشاغلاً، لقِّب بأمير الزهاد. وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (367/7)، والطبقات الشعرانية (81/1)، والرسالة القشيرية (ص9)، صفة الصفوة (127/4)، وطبقات السلمي (27)، وطبقات الأولياء (ص5)، والكواكب الدرية (142/1).

قال إبراهيم: فمن تلك الليلة ما حزنت على شيء فاتني إلا من حيث ما فيه من مشاهدة الحق - جل وعلا - إذ الحق تعالى لا يجالس عبده قط إلا فيما شرعه وأمره به لا غير، انتهى.

وكان سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: من كمال أدب العبد مع الحق تعالى أن يشكره إذا أحجبه عن مشاهدته من باب إحسان الظن بربه ويقول: لولا أن في ذلك مصلحة لي ما حجبني عنه.

وكان يقول أيضًا: قد يوقع الله تعالى وليه في الزلة رحمة به إذا خاف عليه ما هو أقوى وأخفى من تلك الزلة كالعجب بعلمه، والكبر على الناس، والإدلال بعلمه على الله تعالى، فيتحصل له بذلك غاية التأديب، ويصير يستحي من مجالسة الناس، ويرى نفسه أحقر عباد الله تعالى، انتهى.

قلت: ومن هنا قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: **«ربَّ مَعصيةٍ أورثتْ ذُلاً وافتقاراً خيرٌ منْ طاعةٍ أورثتْ عزّاً واستكباراً»**[1]؛ أي: بالنظر للأثر المترتب عليهما، فإن الله تعالى ما شرع التكاليف إلا ليذل بها نفوس المتكبرين، ويزكي بها نفوس المقربين، فمن تكبر بعبادته فقد قلب الموضوع وطلب عكس الحكمة، فاستحق الطرد والمقت بما يقرب غيره من النفوس الذكية، فلو كان عنصر العبد طيبًا لم يزدد بالطاعات إلا تواضعًا، فاعلم ذلك.

وكان الشيخ محيي الدين ﷺ يقول: لو لم يكن في وقع أهل الله تعالى في الزلات إلا ترك العجب والكبر اللذين يحصلان للمطيعين عادة لكان في ذلك غاية التأديب لهم والاعتناء بشأنهم، فإن العجب والكبر هما الذنبان اللذان أخرج بهما إبليس من الحضرة.

وقال في الباب التاسع والثلاثين من «الفتوحات المكية»: اعلم أن الله تعالى ما قص علينا ما قص من خطيئة أبينا آدم الصورية، وما انبنى على ذلك من توبة والاجتباء

---

(1) قال الأقصرائي: لذلك كان العمل المنسوب بهما غير مقبول، والذنب بذلك سببًا القيد قد يكون للوصول بياناً لمحض الفضل في العطاء وتحقيقًا لإطلاق التعرف حتى في كشف الغطاء؛ لئلا ييئس العبد بمعصيته، ولا يدل على السيد بطاعة، ويعلم أن المقصود من الوجود الذل والفقر والمسكنة للمعبود، وإذا كان ذلك في المعصية قد تكون به سببًا في الوصول، فكيف إذا كان ذلك في العمل المطلوب على لسان الرسول، ويتحقق لمن كلا من القابل والمقبول وجوده وجود الله من الأزل وجوده من فيض وجوده تعالى ولا يزال. [أحكام الحكم].

إلا لنظن بالله خيرًا إذا زل أحدنا زلة، ونزل عن مكانه العلي الذي كان يشهده في نفسه من استشعار الرب من حضرة الله والأنس به، وأن تلك الزلة لا تقضي بشفائنا الأبدي، ولا بدّ بل يجب علينا أن نظن بربنا الخير أن هبوطنا عن مقامنا الظاهر بين الناس كهبوط أبينا آدم من الجنة على حد سواء من حيث ترقينا بالذل والانكسار في المقامات العبودية إن شاء الله تعالى، فإنه ما ثم قرب إلى حضرة الحق - جل وعلا - إلا بكثرة الذل والافتقار، والانكسار سواء كان ذلك في العلويات، أو في السفليات إذ الحق تعالى لا يتحيز، والقرب منه قرب بالقلوب لا غير.

قال في موضع آخر: وهذا من أعجب الأشياء أن يكون القرب من المحبوب بالتخلق بضد صفاته كالذلة والافتقار وبعده عن حضرته بالتخلق بصفاته كالكبرياء والعظمة، وأطال في ذلك.

ثم قال: فعين هبوط الولي منا عند الزلة، وما يقوم به من الذلة، والحياء والخجل هو عين ترقيه إلى أعلى مما كان عليه فيه؛ لأنه استفاد من وقوعه في تلك الزلة علمًا آخر بالله لم يكن عنده قبل ذلك، وعرف مقدار الوصل الذي كان فيه، ومقدار الأنس الذي كان يجده في قلبه من الطاعات كما قالوا: من سبقت له العناية لم تضره الجناية، انتهى.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رحمه الله - يقول: ما سلط الله تعالى إبليس على عباده المقربين، إلا ليردهم إلى حضرته إذا شردت قلوبهم منها، فقربهم تعالى إلى حضرته بعين ما طرد به أهل شقوته، وإذا حقت على عبد كلمة الشقاء فما حسناته إلا ذنوب لحبوطها بالكفر، بخلاف من سبقت له السعادة، فإنه كالزرع الذي يميله الريح يمينًا وشمالاً، وأصله ثابت في الأرض فلا يخلد في النار موحد لله تعالى، وأطال في ذلك.

ثم قال: هذا حكم زلات أهل الله الذين سبقت لهم منه السعادة والحسنى، وأما من فقد الذل والانكسار والتوبة النصوح على الفور، وبقي على الإصرار فليس هو من أهل هذا المقام.

قال: ونحن إنما نتكلم على زلات أهل الله تعالى إذا وقعت منهم، أما زلات غيرهم فهم إخوان الشياطين لا يزدادون بالزلات إلا طردًا وبعدًا، انتهى.

وقال في «الفتوحات» في موضع آخر: ربما ظن بعض الأولياء أنه يزل عن مقامه العلي بالزلة التي وقع فيها، والحال أنه ترقي بها مقام لم يكن ذاقه؛ لأن علو مقام الولي

إنما هو بزيادة المعرفة والحال وقد زاد من العلم بالله بالذلة والانكسار ما لم تكن عنده قبل ذلك.

قال: وإنما أخفى الله تعالى عن بعض الأولياء شهود ترقِّيه بالذلة والانكسار الحاصلين بالذنب؛ لئلا يجترئ أحدهم بعد ذلك على المعاصي، ولا يصير يندم على فعلها فيهلك مع الهالكين، لذلك كان الحق تعالى يجلس وليّه في مقام الندم والقطيعة حتى يكاد يذوب جسمه وقلبه كما وقع لآدم ﷺ ظاهرًا من كثرة بكائه وندمه، ومن تطاير الحُلل والتاج من على رأسه والنداء عليه بأنه: لا يجاورني من عصاني.

كل ذلك كان منه ﷺ صوريًا أو حقيقيًا، وحمل ذلك كله عن بنيه فتوة منه عليهم، فكانت تلك الدموع الكثيرة في صورة دموع جميع بنيه الذي يقعون في الزلات إلى يوم القيامة، فكان كثرة تلك الدموع، وذلك البكاء، وشدة ذلك الندم حكاية صورة حال بنيه إذا وقعوا في الزلة كما مر تقريره مرارًا، انتهى.

فإن قيل: قد ورد في الأثر أن آدم ﷺ لما أكل من الشجرة اسودَّ جسده كله، ولو أن المعصية كانت صورية لم يسود جسده.

فالجواب: أنا نقول: إن اسوداد جسده أيضًا كان صوريًا أيضًا؛ لينزجر بنوه عن الوقوع في معاصي ربهم، ويحتمل أن يكون اسوداد جسده ﷺ حقيقًا، ويكون علامة على سيادته بأكله من الشجرة إذا رجع إلى الجنة التي خرج منها حيث أنها لم تكن محل خلافته كما قالوا في الحجر الأسود، فإنه خرج من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم، فإن بعض العارفين قال: معنى قوله: فسودته خطايا بني آدم؛ أي: جعلته سيدًا بالتقبيل له، وكان أدل شيء على سيادته إذا رجع إلى الجنة لون السواد فكساه الله اللون الأسود؛ لتعلم أهل الجنة أنه سود بهذا اللون وبذلك الخروج فكما زاد مقامه بالسواد عما كان عليه في الجنة، فكذلك القول في سواد جسد آدم ﷺ، ثم إن ذلك السواد زال عن آدم ﷺ بصيام الثلاثة أيام البيض كما ورد كان بمثابة نزع من خلع عليه الملك خلعة السيادة بعد أن طاف على الناس بها حتى علموا كلهم بها.

فعلم من جميع ما قررناه أن هبوط آدم ﷺ كان هبوط خلافة وسيادة وتقريب، لا هبوط بعد وقطيعة، بخلاف إبليس كان هبوطه هبوط طرد ومقت وخذلان واكتساب أوزار؛ لأن جميع معاصي الجن وبني آدم في صحيفته من شرك وكفر ونفاق وغير ذلك.

ومعلوم أن الجنة التي كان فيها مع آدم ليست بدار شرك وكفر، ولم تكن

معصيته صورية كما وقع لآدم ﷺ إنما كانت حقيقة لشدة ظلمة قلبه وغلظ حجابه، ولذلك خلد في النار، ولو أن قلبه كان مستنيرًا لما وقع في الافتخار والمعصية الحقيقية، ولكان سعد كما سعد آدم ﷺ.

وقد اختلف العلماء في إبليس هل يصح أن يسلم؟ والجمهور على عدم وقوع إسلامه، ووافقهم أهل الكشف كلهم على ذلك؛ إذ لو صح إسلامه في دار التكليف لتعطلت قضية أهل الشقاء، ولم يبق لهم من يوسوس لهم بالمعاصي إذ لا يعصى أحد إلا بواسطته، فهو الذي يسن الكفر والشرك في الأرض، ولو أنه يصح منه إسلام لما دخل النار أبدًا، وقد جاءت النصوص القطعية بدخوله النار، وأنه يخطب فيها لأتباعه، ويتبرأ منهم ويقيم الحجة عليهم، لكن لا ينفعه ذلك التبرئ؛ لأنه لم يكن في دار التكليف، فافهم.

كما لا ينفع قوله للكافر إذا وسوس له بالكفر: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر:16] لأنه خوف نفاق، فإنه ما وسوس لأحد بالكفر أو الشرك، حتى يصوره في نفسه زورًا على الصورة التي إذا حصلت في نفس المشرك مثلاً زالت عنه صورة التوحيد، فإذا تصورها في نفسه على هذه الصورة، فقد خرج عن التوحيد ضرورة، وحصل له بذلك الشقاء الأبدي، وإلا فغاية امتناعه من السجود لآدم ﷺ أنه عصى أمر الله تعالى، وعصيان الأمر مرة واحدة لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وما خلد في النار إلا بالشرك.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لو صح توحيد إبليس بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لذهبت صفة الشرك في العالم، ولما وجد المشرك من يحدثه بذلك في قلبه؛ لانقطاع من يمد المشرك بصفة الشرك.

فعلم أن إبليس مشرك بلا شك ولا ريب، وهو أول من أشرك بالله، وأول من سن الشرك في الأرض، وهو أشقى العالمين، انتهى.

وسمعته كثيرًا يقول لأصحابه: إياكم أن تقروا أحدًا من أهل الشطح على جوابه عن إبليس نظير ما أجبنا به عن آدم ﷺ؛ لأنه لعنه الله قد أصر على ذنبه ولم يستغفر منه ولم يتب، ثم لو قدر أنه ندم وبكى لم يقبل منه ذلك؛ لأنه نفاق كما قررناه مرارًا، انتهى.

وهذا يقع فيه كثير ممن لم يتقيد بالكتاب والسنة، ولم يسلك على يد شيخ، وقد جادلني مرة شخص في شأن إبليس، وأورد على قوله ﷺ: **«إذا سجد ابن آدم اعتزل**

الشيطان يبكي وقال: يا ويلي أمر ابن آدم بالسجود فسجد؛ فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»[1] انتهى.

وقال قوله: «يا ويلي» ندم منه، والندم توبة كما ورد، فقلت له: لو صح له الندم حقيقة لصارت قبضة الشقاء سعيدة، ولم يدخل أحد النار، وقد وعد الله تعالى بأنه يملؤها من الجِنَّة والناس أجمعين، فسكت ولم يدر ما يقول.

وقد ضبط جمهور المحدثين قوله ﷺ: **«ولكن أعانني الله عليه فأسلم»**[2] بضم الميم؛ أي: سلمني الله من وسوسته مع بقائه مع الكفر، وبتقدير أن شيطانه أسلم وتوحد فذلك من خصائصه ﷺ على أن كلامنا في القرين ليس هو في حق الشيطان الأكبر صاحب المرتبة بإجماع، وقد اجتمع بي شخص آخر من أهل الشطح، فقال لي أن قول إبليس: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: 16] يقتضي جمعه بين الشرك والتوحيد، فهو يوسوس بالشرك للناس؛ لتنفيذ قضاء الله تعالى في عباده، وهو في نفسه يعلم ويتحقق أن الله تعالى واحد لا شريك له.

فقلت: في هذا جمع بين الضدين وهو محال، فإنه إذا وجد الشرك خرج التوحيد وبالعكس، فلا يجتمع توحيد وشرك في قلب أبدًا، ولذلك كان الكفار لا يوزن لهم أعمال يوم القيامة، ولو قالوا: لا إله إلا الله في دار الدنيا؛ لأنهم لم يقولونها عن إيمان، ولا قالوها لقول الشارع لهم قولهم: (لا إله إلا الله).

فعلم أن إبليس - لعنه الله - مشرك بالله ظاهرًا وباطنًا، انتهى.

وكذلك دخل عليّ مرة شخص من أهل الشطح، وله تلامذة ومعتقدون، فقال: من أين أخذتم الدليل على شقاء إبليس مع قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: 16]؟

فقلت له: أخذناه من قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: 94، 95] فقال: ليس في هذا دليل له، وإنما ذلك لجنوده، فقلت

---

(1) رواه مسلم (87/1)، وأحمد (443/2).

(2) رواه مسلم (2168/4 ، رقم 2815)، والطبراني (187/1، رقم494)، والنسائي في الكبرى (5/ 287).

له: لولا رضاه بالكفر ما كانوا جنوده، والرضا بالكفر كفر، انتهى.

وقد بلغنا أن إبليس اجتمع بسهل بن عبد الله التستري ﷺ وحصل بينهما مناظرة من بعد صلاة الصبح إلى أن تعالى النهار، وكان من آخر ما قال: يا سهل الله تعالى يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156] وأنا شيء بلاشك فبأي دليل يقولون أن رحمته لا تناولني؟

قال سهل[1]: فغصصت بريقي ولم أرد له جوابًا، وصرت أردد الآية مرارًا وولى

---

(1) هو الشيخ الأمين، الناصح المكين، الناطق بالعقل الرصين، من أعاظم المشايخ والمشهورين، ولم يبرز للناس حتى وقع الإذن له من الله وأطلعه على عدد مريديه وأسمائهم وأنسابهم، ومن يفتح عليه منهم ومن يموت قبل الفتح. حبر تجمل الإسلام بوجوده، وزين طريق الصوفية بقلائد فوائده وعقوده. وكان أوحد زمانه في علوم الرياضات، صحب خاله محمد بن سوار ولقي ذا النون وأخذ عنه الأكابر طبقة بعد طبقة، وطبق الأرض من علوم الحقائق، فحسده فقهاء بلده فقاموا عليه ونسبوه على عظائم وقبائح بسبب قوله: «التوبة فرض على العبد في كل نفس»، ولم يزالوا به حتى أخرجوه وجماعته من بلده إلى البصرة، فمات بها. وحفظ القرآن وهو ابن سبع، وكان يسأل عن دقائق الزهد والورع ومقامات الإرادة وفقه العبادة، وهو ابن عشر فيحسن الإجابة. وكان لا يفطر إلا كل خمسة عشر يومًا. وإذا دخل رمضان يأكل أكلة واحدة في أول ليلة منه ثم يطوى بقيته لكنه يفطر كل ليلة على الماء القراح أوعلى زبيبة ليخرج عن الوصال المنهي عنه. وكان يكفيه لطعامه في السنة كلها درهم، وإذا جاع قوي وإذا شبع ضعف، وكان إذا دخل عليه ضيف يأكل معه وإن لم يكن له شهوة إلى الأكل ذلك الوقت. وكان يسمع القرآن وغيره فلا يتحرك، فلما كان أواخر عمره صار يتواجد ويقول: ضعفنا والله عن التحمل، وصار واردنا أقوى منا. وكان يطوى ثلاثين وأربعين، وقيل سبعين ليلة لا يأكل شيئًا.

وقال الحجة الغزالي: «وقد انتهى إلى ذلك جماعة يكثر عددهم منهم محمد بن عمرو المغربي، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، وإبراهيم التميمي، وحجاج بن قراقص، وحفص العابد المصيصي، وزهير وسليمان الخواص، وإبراهيم الخواص.. كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة، وذكر بعضهم أن من طوى أربعين يومًا من الطعام ظهرت له قدرة من الملكوت -أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية» انتهى.

قال الشيخ ابن عربي: وكان بدأ سهل في هذا الطريق سجود القلب- وكم من ولي كبير الشأن طويل العمر مات وما حصل له سجود القلب، ولا علم أصلاً أن للقلب سجودًا مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه فيها- وكان سجوده إذا حصل لا يرفع رأسه أبدًا من سجدته، فهو ثابت على تلك القدم الواحدة التي تتفرع منها أقدام كثيرة، وأكثر الأولياء يرون تقلب القلب من حال إلى حال- ولهذا سمي قلبًا- وصاحب هذا المقام، وإن تقلبت أحواله، فمن عين واحدة هو عليها ثابت يعبر عنها بسجود القلب، ولهذا لما رأي سهل في ابتداء دخول الطريق أن قلبه سجد، وانتظر أن يرفع، فبقى حائرًا فما زال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته فما وجد أحدًا

عني بعيدًا بظهره، ثم إنني رأيت الحق تعالى قد أخرجه بقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: 156] إلى آخر النسق، فناديته: تعالَ خذ جوابك، فالتفت إليَّ مبتسمًا وقال: لعلك تقول أنه تعالى قيدها بالكتابة للذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى آخرها. فقلت له: نعم: التقيد صفتك لا صفة الحق - جل وعلا - فإنه يفعل ما يشاء.

ثم قال يا سهل: ليتك تسكت فإنك أظهرت لي جهلك، وما كنت أظن أنه يبلغ بك الجهل إلى هذا الحد مع شهرتك العظيمة بالعلم والصلاح، ولم أرد له جوابًا غير ذلك.

ثم قال لي: يا سهل اللعن في لسانكم ما معناه؟ فقلت له: هو الطرد عن حضرة الله ﷻ، فقال: من كان لا يتحرك إلا أن حركته القدرة الإلهية فكيف طرده.

قال: فقلت له: أنت مطرود عن حضرة الأمر إلى حضرة الإرادة المجردة عن امتثال الأمر، وتلك لا تقتضي السعادة، وإنما تقتضي الشقاء.

قال: أما تقرأ القرآن.

فقلت: بلى، فقال: أما قال لي تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: 64] وهذا أمر بيقين وما وسعني إلا امتثال أمره.

قال سهل: فقلت له: إنما كان ذلك القول لك من الحق جوابًا لإقسامك عليه بعزته تعالى ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:39] ولم يكن ذلك ابتداء أمر منه سبحانه وتعالى، فإنه تعالى لا يأمر بالفحشاء، فكان شقاؤك بطلب الغواية للعباد فرد شؤم ذلك

= يعرفها، فإنهم أهل صدق لا ينطلقون إلا عن ذوق محقق.. فقيل له: إن في عبادان شيخًا معتبرًا لو رحلت إليه؟ ففعل فقال له: أيها الشيخ، أيسجد القلب؟ فقال: إلى الأبد، فوجد شفاءه عنده فلزم خدمته. فالله تعالى يؤتي ما شاء من علمه من يشاء من عباده، ﴿ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:15].

وله تصانيف نفيسة منها «رقائق المحبين»، و«مواعظ العارفين»، و«جوابات أهل اليقين»، والتفسير، وغير ذلك، مات سنة ثلاثة وثمانين ومائتين،عن ثلاث وثمانين سنة.

انظر: الحلية (189/10)، وسير أعلام النبلاء (532/11)، وطبقات الصوفية (ص206)، ووفيات الأعيان (273/1)، والطبقات الكبرى للشعراني (90/1)، والكواكب الدرية (254).

عليك كما هو جزاء كل من يطلب السوء للعباد، فلا يصح أن يكون ذلك حجة لك.

ثم قال لي: يا سهل كيف تزعمون أنكم أكثر مراقبة لله تعالى مني، وأكثر إخلاصًا ولو أن أهل بلد أحدكم قاموا عليه بالنكير، ورموه بالعظائم بين المحبين والمعتقدين لتكدر ولم يكتف بعلم الله فيه، وأنا جميع الوجود يلعنني ويخزيني ليلاً ونهارًا، ولا يتغير مني شعرة اكتفاء بعلم الله تعالى في؟!.

قال سهل: فقلت له: ليس يكدر أحدنا على رميه بالعظائم لمراعاتنا الخلق دون الحق تعالى من حيث حظوظ نفوسنا وإنما ذلك؛ لأننا دعاة إلى الله تعالى ومن هنا أجابت الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - عن أنفسهم؛ لأن كل رسول يطلب براءة ساحته عند قومه ليقبلوا ما جاء به، وكذلك الحكم في كل داع إلى الله تعالى يأمر الناس بالخير محبة في طاعة الله تعالى، وهروبًا من معصيته، ولو أنه أظهر الرضا بالتجريح، أو سكت عليه بحضرة أتباعه لربما ظنوا فيه السوء، فعدموا النفع به وعدم النفع بهم بخلافك أنت إنك رأس قبضة الشقاء ليس لك قدم في محبة الله، ولا محبة أهل طاعته، فسكت إبليس.

ثم قال: يا سهل كيف تزعمون أنكم أنصار نبيكم وحملة شريعته، وأنتم ليلاً ونهارًا تسعون في تكذيبه؟.

فقلت له: كيف سعينا في تكذيبه؟.

فقال: قد أخبر نبيكم أنه لا تقوم الساعة حتى يكثر الزنا والربا، وترك الصلاة ومنع الزكاة، ويترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، فأنا أوسوس لهم بفعلها، وأزين لهم الوقوع فيها؛ ليصدق نبيكم فيما أخبركم، وجميع علمائكم يقولون للناس كلهم لا تقعوا في شيء من ذلك، ومن لازم ذلك تكذيب نبيكم، ولو أنه لم يبق للساعة إلا يوم واحد لمنعتم الناس من الوقوع فيما أخبر نبيكم بوقوعه، وإن كان في ذلك تحقيق ما وعد الحق به.

قال سهل: فقلت له: قد يتعبدنا الله تعالى بحث الناس على امتثال أمره، ولم يتعبدنا بحثهم على وقوع معصيته، وإن كان في ذلك تحقيق ما وعد الحق به، وكما أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، فكذلك كل من هو تحت طاعته لا يأمر بالفحشاء من سائر الدعاة، وما يأمر بها إلا من أشقاه الله من أتباعك، فأنت ولو قصدت إيقاع العباد في المعاصي لا يصح لك نصرة محمد ﷺ فأنت شقي، ولو لزم من وسوستك لهم بالمعاصي تصديق رسول الله ﷺ والأجر والثواب والرضا من الله تعالى دائر مع صحة

القصد لا مع اللازم، فإن لازم المذهب ليس بمذهب عند جمهور العلماء، ولذلك لم يقل أحد بإشقاء الدعاة إلى الله تعالى حيث كانوا سببًا لعصيان العباد وعقوبتهم في الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15] فأخبر أنه لولا إرسال الرسل ما عذب أحدًا، وكما لا يؤاخذ الله تعالى الدعاة إلى شرعه باللازم كذلك لا يرضى عنك باللازم.

فقال: قطعتني بالحجة، ثم انصرف انتهى كلام سهل ﷺ.

فإياك يا أخي من أن تصغي إلى وسوسة إبليس، فإن كلامه كله غرور ومكر بالعبد واستدراج، فربما استدرج العبد حتى صار يقيم العذر لإبليس، ويجيب عنه فيستوجب النار بذلك، وقد علمت من جميع ما قررناه أنه لا يمكن رفع المعاصي من الأرض إذ لو رفعت لتعطل كثير من حضرات الأسماء الإلهية، وذلك لا يصح فإنه تعالى سمى نفسه المعز والمذل، ولا عز إلا بالطاعة، ولا ذل إلا بالمعصية، وإن زلات غير أهل الله تعالى لا تزيدهم إلا طردًا ومقتًا؛ لكونهم يأتونها بحكم الغفلة والطبع والميل والشهوة بخلاف زلات أهل الله تعالى إذا وقعت فربما يكشف لأحدهم عن تقديرها عليه فيذوب عظمه وجسمه من هيبة الله ﷻ هروبًا من مواطن سخطه، فيصير يسأل الله تعالى في التخفيف عنه، وفي كلامهم ليس من يأتي المعاصي وهو يبكي كمن يأتها وهو يضحك.

وكان علي الخواص - رحمه الله - يقول: لو كشف لولي عن تقديره معصيته على تلميذه، لا يجوز له أن يقول له: افعلها، بل يجب عليه الصبر وسؤال الإقالة ومحو تلك المعصية، فإن الولي ولو بلغ الغاية في الولاية لا يعرف ما في علم الحق تعالى، وغاية وصوله إلى اللوح المحفوظ، وذلك معدود من عالم الشهادة لا من علم الغيب المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59]، قال: وقد يكون ذلك اللوح الذي طمح بصر ذلك الولي إليه من تمثيل إبليس له فإن الله تعالى قد جعل له قوة التخييل، فيخيل للولي سماء وكرسيًا وعرشًا وغمًا بحسب ما يرى قلب يستمد منه، فإن أيد الله تعالى ذلك الولي بالتأييد الإلهي أعطاه التمييز بين السماء الحقيقية أو الكرسي الحقيقي مثلاً، وبين السماء المتخيلة والكرسي المتخيل، فيرجع إبليس خائبًا، وإلا فتنه وأهلكه فقد يكون ما كشف لذلك الولي في اللوح المحفوظ من معصية تلميذه متخيلاً لا حقيقة له، ومن هنا حرمت على الولي المبادرة

إلى فعل ما كشف له من المعاصي، وكل من أمر تلميذه بفعل ما كشف له فهو حينئذ ليس من أتباع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لأن الرسل متخلقون بأخلاق الله تعالى، فافهم.

وكان الشيخ محيي الدين - رحمه الله - يقول: كما أنه تعالى لم يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها، فيقال: قضاها وقدرها ولا يقال أرادها، بيان كونه لا يريدها أن كونها فاحشة ما هو عينها، وإنما حكم الله تعالى فيها، وحكم الله في الأشياء غير مخلوق كما هو القول في القرآن العظيم، فتوجه الإرادة لا يكون إلا على غير المعصية لا على وصفها بالتحريم الذي هو حكم الله، فإن ذلك قديم لم يجر عليه الخلق، وما لم يجر عليه الخلق لا يكون مرادًا للحق تعالى.

قال: فإن ألزمنا بذلك في جانب الطاعات إلتزمناه وقلنا: الإرادة للطاعة ثبتت سمعًا لا عقلا، فأثبتوها في الفحشاء ونحن قبلناها إيمانًا كما قبلنا وزن الأعمال مع كونها أعراضًا، فلا يقدح ذلك فيما ذهبنا إليه لما اقتضاه الدليل، انتهى.

وهو أمر دقيق فليتأمل، وقد تلخص ما قررناه أنه يجب على العبد، ولو شهد أنه لا يتحرك إلا أن حرك، ولا يفعل إلا قدره الله تعالى عليه قبل أن يخلق أن يتوب من كل مخالفة، ويقوم بما كلف، ولا يحتج بالإرادة المجردة عن امتثال الأمر، فإنها حجة إبليس وإن من لم يتب طبع الله على قلبه فلا يزداد بالمعاصي إلا مقتًا، ويكون تطهيره يوم القيامة إن لم يعفُ الحق تعالى عنه بالنار كما أن تطهير التائب في هذه الدار بالتوبة والاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

ومما أجيب به عن السيد يوسف ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:24] أي: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ لتقريره على فعل ما تريده منه، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ليقهرها بالدفع عنه بشدة وعنف، فكان البرهان له من ربه أن الحق تعالى قال له في سر: ادفعها برفق ولطف، فإنها امرأة ضعيفة الحال على كل حال لا تحتمل شدة عزمك، وقوة بطشك بها فهناك ساسها ﷺ برفق ولطف وعذرها في شدة شغفها بذلك الجمال العظيم، فـ(الهم) منها ومنه لفظ مشترك والقصد مختلف، فعلم أنه لا يجوز أن يقال الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - غير معصومين من الهم بالمعاصي كما وقع فيه بعضهم، فإنهم معصومون من شهوة الميل فضلاً عن وقوع الميل.

وإذا كان أبو سليمان الداراني[1] الذي هو من آحاد أولياء هذه الأمة يقول: لي منذ خمسين سنة ما خطر لي خاطر مكروه فضلاً عن الحرام، فكيف يكمل الرسل - عليهم الصلاة والسلام؟.

وكذلك بلغنا عن الإمام الليث بن سعد ﷺ [2] أنه كان يقول: منذ وعيت على نفسي وأنا دون البلوغ ما خطر في بالي معصية لله قط، انتهى.

وكذلك بلغنا من أبي سليمان الداراني أنه كان يقول: ما أتذكر أنني فعلت شيئًا أستحي منه طول عمري سوى قربي من أهلي، انتهى والحمد لله رب العالمين.

ومما أجيب به عن داود ﷺ في خطيئته المشهورة في نحو حديث: «**خطيئة أخي داود النظر**»[3] أن المراد به أنه رفع بصره مرة إلى السماء غافلاً عن الاعتبار بغير قصد؛ لأن الأكابر من الأولياء إذا كانوا يؤاخذون بكل حركة أو سكون وقعت مع غفلة عن الله تعالى، فكيف يكمل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام؟

وكان أحمد بن رزين يقول: من رفع بصره إلى شيء بغير نية الاعتبار كتبت

---

(1) هو سيدي عبد الرحمن بن عطية أبو سليمان الداراني: الإمام الكبير الشأن في علوم الحقائق ومعاني بديع البيان، ارتفع قدره وعلا ذكره حتى صار تشد إليه الرحال لإقامة شعار الدين ونصره حزب الموحدين على حزب النفوس الأمارة والشياطين.
قال النووي في بستانه: كان من كبار العارفين وأصحاب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة والحكم المتناظرة، وهو أحد مفاخر بلادنا دمشق وما حولها.
حلية الأولياء (254/9)، وصفة الصفوة (197/4)، والرسالة القشيرية (19)، ووفيات الأعيان (1/ 347)، وطبقات الشعراني (91/1)، والبداية والنهاية (255/10)، وطبقات السلمي (75-82)، وشذرات الذهب (13/2)، وتاريخ بغداد (248/10)، والكواكب الدرية (259).

(2) هو شيخ الديار المصرية وعالمها أبو الحارث الليث بن سعد الفهمي، مولاهم، الفقيه. وأصله فارسي أصبهاني. روى عن عطاء بن أبي رباح، وابن أبي مليكة، ونافع، وخلق كثير. توفي يوم الجمعة يوم نصف شعبان عن إحدى وثمانين سنة. وكان إماماً ثقة حجة رفيعاً واسع العلم سخياً جواداً محتشماً.
قال الشافعي: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وكان أتبع لأثر مالك.
وقال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك لكن الحظوة لمالك. وقال محمد بن رمح: كان دخل الليث في السنة ثمانين ألف دينار، فما أوجب الله عليه زكاة درهم. وقال غيره: كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث. وإذا رابه من أحدهم شيء كاتب فيه فيعزل. وقد أراده المنصور أن يلي إمرة مصر فامتنع.

(3) تقدم تخريجه.

عليه خطيئة.

وسمعت سيدي شيخ الإسلام زكريا يقول: رفع عمر بن عبد العزيز ليلة بصره إلى السماء، فحصل في قلبه قساوة، فشكا ذلك لأمه - رضي الله عنها - فقالت: لعلك يا ولدي نظرت إليها على غير وجه الاعتبار والحضور مع الله تعالى، فإن الله تعالى إذا اعتنى بعبد أخذه بكل حركة أو سكون لم تقع عن حضور أو اعتبار، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: قد أطلق ﷺ النظر في الحديث فيحمل على ما يليق بمقام الأنبياء، ولا يجوز حمله على ما يليق بمقام غيرهم، فلما رأينا الحق تعالى أخذ الأولياء برفع البصر مع غفلة حملنا خطيئة داود ﷺ على ذلك.

ولذلك ورد في الحديث أنه لم يرفع طرفه إلى السماء بعد أن عوتب على ذلك حتى مات حياء من الله تعالى أن يرفع بصره إلى قبلة الدعاء، وإلا فهو ﷺ يعلم أن الحق تعالى لا يتحيز لكن غض الطرف مطلوب من العبيد بين يدي ربهم ﷻ، وقد تبع الشرع العرف في كثير من الأحكام.

قال: ولم يبلغنا في حديث صحيح ولا ضعيف أن المراد بخطيئة النظر المذكور في الحديث نظره إلى امرأة أوريا حين سافر إلى بعض الغزوات؛ لأن الأنبياء معصومون عن النظر إلى ما لا يحل، وإنما جاء ذلك في بعض نسخ الزبور التي حرفتها اليهود - لعنهم الله تعالى - قصدوا بذلك استحلال أعراض الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

وكانوا قد عادوا داود ﷺ لما تلا عليهم صفة محمد ﷺ التي أنزلها الله في الزبور، وأن كتاب محمد ينزل ناسخًا للكتب التي قبله.

وكان الشيخ محيي الدين بن عربي ﷺ يقول: لا يجوز لواعظ أن يتكلم على رءوس الأشهاد، بما حرفته اليهود على داود ﷺ، فإن ذلك يفتح باب الاستهانة بالأنبياء وتجرئ العامة على الوقوع في النظر إلى ما لا يحل لهم ويقولون: إذا كان داود وهو نبي، فأين نحن حتى نقدر على منع نفوسنا من النظر؟!.

قال: ولم يأت لنا تفسير الخطيئة بالنظر إلى ما لا يحل في كتاب ولا سنة ولا عن أحد من علماء الصحابة والتابعين، وإنما ذلك من تحريف اليهود كما مر، انتهى.

فكان بكاؤه ﷺ حتى نبت العشب من دموعه إنما هو لكونه رفع بصره إلى السماء قبل تحرير نية صالحة ويا ليت شعري أي فائدة فيمن يخوض في عرض الأنبياء بغير حق، ويثبت في حقهم النقائص وأيش يضره إذا سد عنهم باب المخالفات جملة أما يخاف مثل هذا أن يغضب الله تعالى عليه، ويمسخ صورته بقلة أدبه مع أكابر

حضرته، ولكن أهل الأدب مع الله، ومع أهل حضرته قليل فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومما أجيب به عن أيوب ﷺ في قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83] ولم لا كان دام على صبره فإنه أعلى كما قيل، بل وقع من بعض الأولياء أنه قال: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه، فإذا كان هذا يقع من بعض الأولياء، فالأنبياء أولى بذلك.

والجواب اللائق بأيوب ﷺ أن قوله: رب إني مسني الضر أعلى من دوامه على التجلد والصبر؛ لأن العبد كلما ترقى في مراتب الكمال والقرب ضعفت نفسه حتى ربما صار يتألم من قرصة البرغوث، ويعجز عن حمل قميصه فكان من جملة اعتناء الحق تعالى بنبيه أيوب ﷺ أنه حبسه في مقام التجلد والصبر، حتى ينيله أجر الصابرين، ثم إنه نقله منه إلى مقام الرضا حتى صار يتلذذ بالبلاء؛ لينال بذلك أجر الراضين، ثم رده بعد ذلك إلى التألم بالمرض لكن مع الصبر من غير مقاومة القهر الإلهي كما كان في بداية أمره قبل رقة حجابه اللائق به، فإنهم قالوا: شدة الصبر على البلايا إنما هو من قوة النفس وكبرها وإظهارها القوة، ومقاومتها للقهر الإلهي، ثم إذا صفت ورق حجابها مالت إلى الضعف، وألقت السلاح.

وقد سُئِل محمد بن علي الحكيم الترمذي ﷺ [1] عن حقيقة هؤلاء الخلق، فقال:

---

(1) محمد بن علي بن الحسن الترمذي الصوفي الشافعي: صاحب التصانيف المشهورة، زاهد اشتهر بملازمة العبادة، وتفرد بين الصوفية بكثرة الرواية وعلو الإسناد، وناسك سلك طريق القوم وهجر في وصله التهجد وصل النوم، رحل في طلب الحديث والعلم، وتلفع بمروط التقوى والحلم، ولقي الأكابر وأخذ عن أرباب المحابر، ومع ذلك كان صدرًا معظمًا وصوفيًا محدثًا مفخمًا، كثير الكيس واللطافة غزير المعارف التي تحف أخلاقه وأعطافه، تحلى بعقوده جيد زمانه وتأرجت الأرجاء بعرف عرفانه، لقي أبا تراب النخشبي والبلخي وتلك الطبقة وسمع الكثير من الحديث بالعراق وغيره وهو من أقران البخاري.

قال الحافظ ابن النجار في تاريخه: كان إمامًا من أئمة المسلمين له الصفات الكبار في التصوف وأصول الدين ومعاني الحديث وفي شيوخه كثرة.

وقال السلمي في طبقاته: له الشأن العالي والكتب المشهورة.

نفوه من ترمذ وشهدوا عليه بالكفر بسبب تفضيله الولاية على النبوة، وإنما كلامه في ولاية النبي ﷺ.

وقال أبو نعيم في الحلية: له التصانيف الكثيرة في الحديث، وهو مستقيم الطريقة يَرُدُّ على

ظاهر ودعوى عريضة، انتهى.

فعلم أن صبر العبد على البلاء كمال بالنسبة لمقام العامة الذين لا صبر عندهم، نقص بالنسبة لما فوقه من المقام الآخر الذي هو أساسه الأصلي كما أن التألم بالبلاء أعلى من التلذذ؛ لأنه إذا به خرج عن كونه بلاء، وصار من قسم النعم فالواجب على العبد فيه الشكر لا الصبر، والله أعلم.

ومما أجيب به عنه أيضًا ﷺ حين أمطرت السماء الذهب فصار يحثو في ثوبه منه، وقال له الحق تعالى يا أيوب ألم أكن أغنيك عن مثل هذا؟ فقال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك.

أعلم يا أخي أن كمال العبد إنما هو بإظهار الحاجة والفاقة لربه ﷻ، فأراد أيوب ﷺ بحثوه الذهب في ثوبه إظهار كثرة الفاقة إلى فضل ربه ﷻ، وذلك أكمل ممن قنع ورضِي باليسير من الدنيا، لإظهاره قلة الحاجة إلى ربه، وما رد من رد الدنيا من الأكابر إلا خوفًا على قومه أن يقتدوا به في ذلك فيهلكوا ولا يعرفون كيف يتخلصون كما رد نبينا ﷺ جبال الذهب والفضة لما عرضها عليه جبريل بإذن الله، فاحتاط لأمته ﷺ شفقة عليهم، وإلا فاعتقادنا أنه ﷺ لا يشغله عن الله شيء من الكونين، ويصح أن يحمل حثه الذهب في ثوبه لما نزل من السماء على تبركه به لكونه قريب عهد بتكوين ربه، كما قالوا في المطر إذا نزل أول السنة أو غيره.

المرجئة وغيرها من المخالفين، تابع للآثار.

قال ابن الجوزي: من أكابر مشايخ خراسان له التصانيف المشهورة، وكان يقول: ما صنعت شيئًا ينسب إليَّ لكن إذا اشتد عليَّ وقتي أتسلى بمصنفاتي. وقال القشيري في الرسالة: هو من كبار الشيوخ.

وقال الكلاباذي في التعرف هو من أئمة الصوفية. وقال ابن عطاء الله: كان الشاذلي والمرسي يعظمانه جدًا، ولكلامه عندهما الحظوة التامة ويقولان: هو أحد الأوتاد الأربعة، فلا يلتفت لخرافات بعض المخرفين وطعنهم فيه بالبهتان. وله حكم عليه الشأن، فمنها قوله: كفى بالمرء عيباً أن يسره ما يضره. وسئل عن الإنسان فقال: ضعف ظاهر حاضر ودعوى عريضة.

ومن كراماته: أنه لما قام عليه معاصروه وكفروه، جمع كتبه كلها وألقاها في البحر، فالتقطتها سمكة وابتلعتها ثم لفظتها بعد سنين وانتفع الناس بها. وقال الحافظ ابن حجر: مات في حدود العشرين وثلاثمائة. وانظر: طبقات الصوفية (217)، صفة الصفوة (167/4)، سير أعلام النبلاء (439/13).

ولا يجوز حمله ﷺ على أنه إنما حثا الذهب في ثوبه محبة في الدنيا، فإن ذلك لا يجوز في حق الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لأنه إذا كان المريد في طريق القوم لا يصح له قدم في طريق أهل الله تعالى حتى لا يصير له ميل إلى شيء من الدنيا وشهواتها، ويتساوى عنده الذهب والتراب.

فكيف بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وقد قررنا غير ما مرة أن للعبد ثلاثة أحوال:

الأول: أن يحبها بحكم الطبع ويجب جمعها، وعدم إنفاقها في مرضاة الله وهذا مذموم شرعًا.

الثاني: أن يخرج حبها من قلبه فلا يصير عنده ميل إليها ويتساوى عنده الذهب والتراب على حد سواء، وهذا أكمل بالنسبة للحال الذي قبله.

الثالث: أن يحب الدنيا بتحبيب الله تعالى من مال وولد وجاه وزوجة لا بحكم الطبع، فيجمعها وينفقها في سبيل الله، ويعف بها نفسه عما في أيدي الخلائق، ويتخلق بالأدب مع الله تعالى الذي عظم الذهب في قلوب عباده مثلاً على غيره، فيعظمه على التراب؛ لئلا يخطئ الحكمة الإلهية، ويفوز أيضًا بلذة خطاب الله ﷻ له بقوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:12] لأنه تعالى لم يخاطب بذلك إلا أهل الجدة وأصحاب الأموال، دون العباد والزهاد المجردين عن الدنيا، ففاتهم لذة مجالسة الحق تعالى حال خطابه لهم، وما ذمت الأمور بالأصالة إلا أن كانت تحجب عن الله تعالى.

والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مقامهم منزه عن تعاطي شيء يحجبهم عن الله تعالى كما سيأتي في الجواب عن سليمان ﷺ، ونظير ما وقع لأيوب ﷺ ما ورد في السير أن رسول الله ﷺ قسم مرة ذهبًا، وقال لعمه العباس: «يا عم خذ لك ما شئت من هذا الذهب» فحثا في برده شيئًا لا يستطيع أن يحمله صار يعالج نفسه في حمله فلا يستطيع، وصار النبي ﷺ ينظر إليه شزرًا، فيجب حمل ذلك على أن العباس، إنما فعل ذلك إظهارًا للفاقة والحاجة؛ لأن مثل العباس لا يجوز حمله على محبة الدنيا على الوجه المذموم.

وأما قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152] أي: الله فيحب الدنيا لإنفاقها في مرضاة الله، ويحب الآخرة لكونها دارًا يشاهد فيها ربه ﷻ إذ لذة نعيم الأكل والشرب والجماع وغير ذلك إنما هي بحكم التبع

لمشاهدة الله ﷻ لا بحكم القصد الأول عند الأكابر.

وكان نظر النبي ﷺ للعباس شزرًا؛ ليقبح الدنيا في أعين المحجوبين عن مشهده ﷺ، وإلا فهو محب لفعل العباس راض عنه لصحة مشهده، ولو قدر أنه لم يكن هناك إلا من تعرف مشهده من الأكابر كأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - لم ينظر إلى عمه شزرًا، فافهم.

وكذلك يجب استثناء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من قوله تعالى فيما نسخت تلاوته: «لو أن لابن آدم واديين من ذهب وفضة لابتغى ثالثًا، ولو أن له ثالثًا لابتغى رابعًا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»، فإن الإجماع قد انعقد على زهد الأنبياء في الدنيا، فكيف يبتغي أحدهم الزيادة منها؟

وأيضًا فإن (الآدم) هو ظاهر الجلد، فكأنه تعالى يقول: لو أن لبني الدنيا الذين قصروا أعينهم على شهودها، ولم يخرق بصرهم إلى الآخرة ونعيمها واديان من ذهب لابتغوا ثالثًا؛ لحجابهم عن الآخرة.

وقد خرج إبراهيم بن أدهم وغيره من الملوك عن الدنيا اختيارًا، فكيف بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ؟ وكلام الله تعالى في غاية البلاغة والتحقيق، وما من عام إلا ويقيده التخصيص إلا أن أجمع العلماء على عدم تخصيصه، وعدم إخراجه عن عمومه، فاعلم ذلك فإنه نفيس.

ومما أجيب به عن سليمان ﷺ في قوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص:35] هو أنه اطلع من طريق كشفه أن جميع ما يأتي بعده من الأنبياء كلهم زهاد لا ينبغي لهم هذا الملك الذي سأله لعلو مقامهم فكأنه فهم إنما طلبه من الملك أمر يفنى فلم يرضه لمن بعده من الأنبياء، وثم مقام يقتضي سؤال العبد ربه أن يعطيه الدنيا كما أنه ثم مقام يقضي طلب العبد رؤية ربه، كما وقع لموسى.

وسمعت سيدي علي الخواص ﷺ يقول مرارًا: سبب سؤال سليمان ﷺ الملك إنما هو إظهار للفاقة والحاجة كأنه ﷺ يقول: أنا محتاج إليك يا رب بحيث يعم حاجتي، كلما طلبت ملكه منك يعني استخلافي فيه، وكلما عظمت حاجة العبد وفاقته إلى سيده كلما علا مقامه، وازداد به تقريبًا من ربه ﷻ، فما ازداد سؤاله الملك إلا فقرًا، وذلك مطلوب للأكابر، وإلا فمحال أن يسأل نبي ما يحجبه عن ربه وينقص به مقامه، فإن ذلك سفه يجب تنزيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عنه.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إنما طلب السيد سليمان الملك؛ ليعترف لله تعالى بنعمه الكثيرة ويزداد شكرًا، وكأنه يقول: لك الفضل يا رب عليّ بعدد ذرات الوجود كلها؛ لأني محتاج إليها كلها، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين - رحمه الله - يقول: كلام السيد سليمان في غاية الأدب والصدق؛ لأنه ذكر قوله ملكًا فلم يخص شيئًا في طلبه وقال لا ينبغي لأحد من بعدي؛ أي: لأن ما يعطيه الله للعبد من الملك ما هو عين ما يعطيه لعبد آخر لا بدّ فيه من زيادة ونقص في كبر المنة وصغرها، وطول عمر ذلك وقصره حتى لو سقطت ورقة من شجرة أو شعرة من رأس مملوك له، خرج عن كونه مثله؛ لأن المثلية في الوجود منقولة غير معقولة، إذ لو كانت معقولة ما يميز شيء في الوجود عن شيء، ولكان عين زيد هي عين عمرو، فافهم.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ما قال سليمان ﷺ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ حتى كشف له أن تسخير الريح والشياطين لا يقع لأحد بعده من الأنبياء، فما سأل إلا عن أمر محقق يكون له من باب الفضل والمنة، وإلا فهو يعلم أن أحدًا لا يملك مع الله شيئًا في الدارين، انتهى.

في القرآن العظيم ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: 6، 7] فما ذم الحق تعالى الغنى إلا لمن كان يحجب به عن الله ﷻ، ويطغى به عن مقام عبوديته.

وأما من يشهد فاقته وحاجته كلما كثرت الدنيا عليه ذلك محمود، بل كلما ازداد الولي مالاً كلما ازداد فقرًا وحاجة في مشهده، فاعلم ذلك.

ومما أجيب به عنه أيضًا في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۞ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: 32، 33] أن مراده ﷺ أنه أحب الخيل حين عرضت عليه بالعشي لكن ليس ذلك الحب لذاتها، وإنما هو لكونها هدية من ربه إليه وقريبة عهد بإرسالها إليه.

كما ورد عنه ﷺ في المطر حين اغتسل منه وقال: إنه حديث عهد بربه وكانت الخيل مذكرة لسليمان بربه؛ لأنها نعمة منه إليه، ولذلك أحب مشاهدتها ولما توارت عنه بالحجاب، وكان نسي أنه يتبرك بها على عادة الملوك مع سيدهم تعظيمًا وإجلالاً له

ولنعمته، فلذلك قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ [ص:33] لأشاهدها ثانيًا، فلما ردوها عليه طفق يمسح أعناقها ويسوقها بيده تبركًا بخير ربه، وليس المراد أن الخيل أشغلته عن صلاة العصر، حتى توارت عنه الشمس بالحجاب، وأن الشمس ردت عليه بعد غروبها هكذا ذكره بعض العارفين، وقال: ليس الضمير في ﴿رُدُّوهَا﴾ علي للشمس ولا ثم ما يدل عليه، قال: إنما قلناه أولى مما قاله غيرنا من أنه قطع أعناق الخيل وسوقها بالسيف، فإن ذلك سفه وإتلاف مال لا يليق بالأنبياء، أو يحتاج إلى تأويل أنه لما تعارض عنده مصلحة دينه ومصلحة دنياه قدم مصلحة دينه، وذلك مقام دني بالنسبة لمقام الأنبياء، فإنه إذا كان بعض الأولياء لا يشغله عن الله شيء في الكونين، فكيف أشغلت الخيل نبيًا رسولاً عن عبادة ربه؟! هذا بعد من العبد.

ومما أجيب له عن نبينا محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2] مصدرين ذلك بما أجاب به غيرنا ليستفاد، فقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة.

أحدها: ما قاله ابن عباس وغيره: إن الله تعالى غفر لمحمد ﷺ ما تقدم من ذنبه قبل النبوة وما تأخر بعدها.

ثانيها: إن معنى الآية ما وقع، وما لم يقع على طريق الوعد بأنه مغفور له.

ثالثها: قول سفيان الثوري: ما تأخر هو ما لم يعلمه.

رابعها: فهو أنه المتقدم والمتأخر معًا ما كان قبل النبوة.

خامسها: هو تأكيد للمبالغة كما تقول: أحسِنْ لمن عرفك، ولمن لم يعرفك.

سادسها: ما تقدم من ذنبك يعني ذنب أبيك آدم ﷺ، وما تأخر من ذنوب أمتك.

سابعها: إن المعنى لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرته لك هذا ما بلغني عن العلماء من الأجوبة.

وأما جوابي أنا بحسب فهمي وأرثي منه ﷺ: فهو أن المراد بذنبه ﷺ ما لزم من إرساله من تعذيب من خالفه من الكفار والمسلمين، فأضيف ذلك إليه من حيث تشريعه ﷺ له، إذ لولا تشريعه الحرام وبيانه للأمة ما عذب الله تعالى منهم أحدًا عليه قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:15] ولما كان من مرتبة الأكابر أنهم يؤاخذون نفوسهم بما كانوا سببًا فيه، وإن لم يقصدوه طمن الله قلب نبيه

ﷺ، وأخبره بأنه تعالى لا يؤاخذه من حيث كونه كان سببًا في شقاوة من خالفه بلازم رسالته، فهو مظهر لما سبق في علم الله من شقاوة من شقي، وإلا فليس بيد عبد أن يشقي غيره بإجماع، فلما تأمل ﷺ فيما لزم من رسالته من تعذيب من حق عليه الشقاء من أمته خاف من المؤاخذة بذلك، فأخبره الحق - جل وعلا - بأنه غفر له ذلك ولا يؤاخذه به.

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول مرارًا: من مرتبة الأكابر الاستغفار مما لعله يقع في المستقبل، فإذا توهم أحدهم ذلك استغفر منه قبل وقوعه، وقد فسر العلماء الغفر بأحد شيئين: إما المسامحة بالذنب بعد وقوعه، وإما الحيلولة بين العبد وبين الذنب فلا يقع، واللائق بالأنبياء الثاني دون الأول لعصمتهم، وإيضاح ما قلناه من أن المراد من الذنب المغفور ما لزم من رسالته هو أن تعلم يا أخي أن كل داعٍ إلى الله تعالى مأجور بالأصالة سواء أطاعه قومه أو خالفوه، وليس قصد أحد من الدعاة إشقاء أحد من قومه، فهو وإن لزم من رسالته إشقاء من خالفه فهو غير مؤاخذ بذلك، وأيضًا فإن لازم المذهب ليس بمذهب عند الجمهور، ولا يؤاخذ العبد إلا بما قصده كما هو مقرر في الفقه، فالداعي وإن خالفه قومه فهو مأجور بسبب مخالفتهم كأجر من أصيب في ولده وأصحابه فمعنى الآية: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ من مؤاخذة قومك بسبب رسالتك في حال حياتك، وبعد وفاتك فطمن قلبك فإنك غير مؤاخذ بما وقع فيه أمتك من مخالفة شرعك، ولك من حيث نيتك أجر كل من أطاعك، وكل من عصاك؛ لأنك تود الخير للناس كلهم، وليس عليك من أوزارهم شيء، فعلم أن الداعي إلى الله لا يثاب من حيث من عصى أمره إلا من حيث النية فقط لامتناع وقوع الطاعة من أهل هذا القسم هذا ما ظهر لي في الجواب عن سيد الخلائق أجمعين الذي لولاه ما خلق الله تعالى لا علوًا ولا سفلاً ولا جنة ولا نارًا، ومقصودنا بالأجوبة عن الأنبياء إزالة ما يتوهمه أصحاب القلوب المحجوبة عن حضرة الله ومن أهلها وإلا فطينة الأنبياء لا تقبل أن يصدر عنها شيء يكرهه الله تعالى أبدًا، وإذا تعارض عند المؤمن أمران أحدهما فيه ريبة، فمن الواجب عليه أن يذهب إلى ما لا ريبة فيه نظير ما قررناه في صفات الحق - جل وعلا - التي توهم التشبه فإن ذلك لا يصح، وقد أجمعوا على أنه لم يأت لنا في كتاب ولا سنة شيء يكون نصًا في التشبيه أبدًا، إنما يحتمل ذلك عدة معان فيضاف إلى كل ذات بما يليق بها، وحمل ذلك في جانب الحق تعالى كما هو في

جانب الخلق جور على اللفظ، فإذا سمعنا حديث: **«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»**[1] حملناه على النعمة، وتنبيه الإصبع إشارة لنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، فلا شيء يحمل الإصبع في جانب الحق كما هو في جانب الخلق حتى يحتاج إلى التأويل، ولم لا حملوه ببادئ الرأي على ما يليق بالحق - جل وعلا - فعلم أن الذب عن أكابر حضرة الله تعالى طلبًا لرضا الله ﷻ واجب، وهذا الذي جنحنا إليه من أن المراد بذنبه ﷺ ما حدث من رسالته بحكم اللازم وجه مضى لا إشكال فيه هو نظير ما قاله أبو القاسم الجنيد في معنى حديث: **«إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله تعالى في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة»**[2] وهو أن المعنى أنه ليغان على قلبي بسبب ما يقع فيه أمتي من بعدي من الفتن والحروب ومخالفة شريعتي، فأستغفر الله تعالى لهم أكثر من سبعين مرة بحسب ما يخطر على قلبي ذكرهم.

وليس في الحديث ما يستدل به على أن الغين[3] الذي يقع لقلبه الشريف من الذنب يقع هو فيه فتأمل والزم الأدب، ولا تخض في حق الأنبياء إلا بخير، وإذا كان الله تعالى يمقت من وقع في حق أحد من الأولياء، فكيف بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ؟.

وفي الحديث: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين»**[4] فيتشرط في كمال الإيمان أن يزيد في محبته على محبة الوالدة لولدها، وما رأينا والدة تكاد تنسب إلى ولدها ذنبًا، وإنما تقول: خزاك الله يا إبليس أوقع ولدي في الشيء الفلاني.

فإذا كان هذا قول الوالدة في حق ولدها مع أن حبها لولدها بحكم الطبع لا بحكم الإيمان فكيف بمن صحبه إيمان؟ وكيف يدعي مؤمن محبة رسوله ﷺ، وهو يتوهم فيه العيب؟! وإذا كان من يتشرب قلبه حب إنسان من آحاد الخلق لا يصير يرى فيه عيبًا، بل يراه كله محاسن صرفًا فكيف لسيد الأولين والآخرين، الذي فرض الله

---

(1) رواه مسلم (2045/4).

(2) رواه مسلم (2075/4) .

(3) وغِينَ على قلبه غَيْنًا تغشَّته الشَّهوةُ، وقيل: غِينَ على قلبه غُطِّيَ عليه وأُلْبِسَ، وغِينَ على الرجل كذا أي: غُطِّيَ عليه.

(4) تقدم تخريجه.

تعالى محبته على الخلق أجمعين، وأحوجهم كلهم إلى شفاعته؟.

وقد سألت وأنا صغير شيخنا الشيخ محمد الشناوي(1) - رحمه الله - عن المراد بمعاصي الأنبياء؟ فقال: يا ولدي تلك الأمور يؤاخذ الله تعالى بها أحبابه لا تتعقلها عقولنا، بل ربما تقربنا نحن بها إلى الله تعالى ورأينا لأنفسنا المقام العالي عند الله بها، فلا يجوز لأمثالنا الخوض فيها بحسب ما تعقله عقولنا أبدًا، ثم أنشدني كلام سيدي علي وفا:

عبادك محفوظون حفظ الحبايب

من الذر لم يظهر بصافي ذواتهم سوى نورك الماحي للج الغياهب
مياه صفت ذاتًا ومجرىً ومنبعًا وصينت عن الأكدار من كل جانب

فاعلم ذلك واحفظ لسانك في حق الأكابر، والحمد لله رب العالمين.

ومما أجبت به عن الصحابة ﷺ في قوله تعالى في حقهم لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:159] هو كفرض المحال مثل قوله

(1) محمد الشناوي الأحمدي المحمدي، الصوفي، المسلك، المربي، أخذ عن جماعة كثيرين، أجلهم الشيخ أبو الحمائل، وعنه آخرون أجلهم الشيخ الشعراوي.

وعظم قدره، وعلا صيته، وصار لا ترد شفاعته، وكان يقول: لا ينبغي لفقير أن يطلب الظهور عند الأمراء والملوك إلا إن أمكنه إظهار كرامة، وإلا فالتستر له أولى.

وكان يلقن الرجال والنساء كلمة الشهادة ببلاد الريف، ويقول للرجل: اذكر بإخوانك، وللمرأة: اذكري بجيرانك. ويقول: أشعلنا في البلاد نار التوحيد، فلا تطفأ إن شاء الله إلى يوم القيامة.

وكان لا يقبل شيئًا من هدايا أهل الدولة، ويقول: شرط الداعي إلى الله أن يطعم الناس، ولا يطعموه.

وكان يقول: الطريق إلى الله أخلاق، لا أقوال ودعاوي. وكان أكثر تربيته بالنظر، ينظر إلى قاطع الطريق وهو مار، فيتبعه حالاً. وكان يفتتح مجلسه بالعشاء، ويختمه مع الفجر، فإذا صلى الصبح افتتحه إلى ضحوة النهار، واقتفاه شيخنا الشعراوي في ذلك.

ومن كراماته: أنه كان يكلم الشيخ أحمد البدوي، فيجيبه من القبر. ومنها: إنه كان من أصحاب الخطوة، وكان يرونه كل سنة في عرفة. ومناقبه كثيرة، وفضائله شهيرة. مات سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته بمحلة روح. الكواكب السائرة (97/1)، كرامات الأولياء (179/1)، طبقات الشعراني (132/2)، الكواكب الدرية (825).

تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: 4] مع أنه تعالى قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: 91] وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: 111].

وكما فرض الله تعالى المحال في قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: 4] وكذلك القول في وصف نبيه ﷺ بالفظاظة وغلظ القلب على المؤمنين، ووصفه أصحابه بأنهم لا يحبون مجالسته إلا إن كان حسن الكلام لهم رقيق القلب هو على سبيل الفرض والتقدير أيضًا، إذ لا يصح وصفه ﷺ بالفظاظة وغلظ القلب حقيقة؛ لأن ذلك ضد ما يثبت من صفته ﷺ.

وكذلك لا ينبغي وصفه لأصحابه بأنهم ينفضوا عنه، إذا لم يرق قلبه لهم، فإنه أحب إليهم من أهلهم وولدهم والناس أجمعين.

وقد قالوا في المثل السائر: «المحب لا يصرفه صارف ،ولا ترده السيوف والمتالف»، هذا في حق المريدين مع أشياخهم وكيف بمحبة الصحابة نبيهم ﷺ.

وقد كان أحدهم ينظر إليهم سائرًا نحو رسول الله ﷺ فيتلقاه عنه بصدره، ويفديه ﷺ بنفسه فعلم أن قوله: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ إنما هو بحكم الفرض والتقدير تشريعًا لنبيه ﷺ ليشرعه لأمته، والحمد لله رب العالمين.

ومما أجبت به عن الصحابة أيضًا في قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152].

اعلم أنه إذا كان المريد في بداية أمره يخرج عن حب الدنيا أصلاً ورأسًا، ويرمي ما معه منها في بحر الإياس حتى يصح له قدم في طريق القوم، فكيف بالصحابة ﷺ الذين هم فوق مقام سائر أشياخ الطريق بيقين.

وإن كان الزاهد منا في الدنيا لا يريدها فكيف يريدها أصحاب رسول الله ﷺ؟! وقول الله تعالى حق وصدق، ولكن فيه تقدير وإضمار تقديره ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ليفعل بها خيرًا يثاب عليه في الآخرة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: يشاهد فيها ربه، فما أحبوا الدنيا لذاتها، ولا أحبوا الآخرة لذاتها فثم مقام رفيع ومقام

أرفع من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ففي الآية مدح للصحابة كلهم كل على قدر مقامه ونصيبه لا ذم لهم كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، فإنه ما منهم أحد إلا وهو زاهد في الدنيا.

وأما قول سفيان الثوري أن معاوية بن أبي سفيان كان رجلاً عالمًا، ولكنه غلب عليه حب الدنيا، فالمراد به أنه زاحم على الخلافة؛ ليقوم فيها بالعدل على حسب اجتهاده، فهو مأجور وإن أخطأ؛ لبذله وسعه في نصرة الشريعة.

وفي حفظ نظام العالم عن الانخرام، فسمى سفيان الخلافة بهذا الحكم ديني بالنظر لمن يريد الله ﷺ فما أحب معاوية الدنيا إلا للآخرة، ولا يجوز حمل حاله على حال غيره من الملوك الذين قاتلوا على الدنيا، فإنه أعلى مقامًا بيقين من إبراهيم بن أدهم، وغيره من الأولياء الذين أجمع الناس على عدم محبتهم للدنيا، فاعلم ذلك واحفظ لسانك في حق أصحاب رسول الله ﷺ، وإذا كانت الوقيعة في آحاد الأولياء سم قاتل، فكيف بالوقيعة في الصحابة؟ والحمد لله رب العالمين.

ومما أجبت به عن الإمام علي ﷺ في قوله: «سلوني عن طرق السماء فإني أعرف بها من طرق الأرض» أن مراده بطرق السماء المقامات والأحوال كالتوبة والزهد والخشية وغير ذلك، فإن السالك لهذه الطريق يصير قلبه سماويًا فهي طرق السماوات في الأرض، وليس مراده أنه صعد بجسمه إلى السماء؛ لأنه ليس لغير نبي قدم محسوس في السماء، والله أعلم.

ومما أجبت به عن الإمام أبي حنيفة ﷺ في نسبته إلى القول بالرأي في دين الله وغير ذلك وأنه يقدم القياس على النص: اعلم يا أخي أنه ما ثم أعز من الورع في المنطق في كل زمان لاسيما كلام الأسافل في حق الأكابر، وقد أدرك الإمام أبو حنيفة الصحابة، وأخذ عن خيار التابعين كعطاء، ومجاهد، والأسود، وعلقمة، ونحو من ثلاثمائة عالم، ولو لم يكن من مناقبه إلا قول الإمام مالك لما سُئِل عنه ماذا أقول في رجل لو ناظرني في أن نصف هذه الأسطوانة ذهبًا، ونصفها فضة لقام بحجته؟.

وقول الإمام الشافعي ﷺ: الناس كلهم عيال على أبي حنيفة في الفقه، لكان في ذلك كفاية في غزارة علمه ودينه.

وقد قال عبد الله بن المبارك[1]: لما دخلت العراق سألت من أعلم الناس عندكم؟

(1) المروزى فخر المجاهدين، قدوة الزاهدين، السخي الجواد، الممهد للمعاد، المتزود من الوداد،
=

فقالوا: أبو حنيفة، فقلت لهم: فمن أورع الناس عندكم وأزهدهم في الدنيا؟ قالوا: أبو حنيفة، فقلت لهم: فمن أعبد الناس عندكم؟ قالوا: أبو حنيفة فما سألتهم عن فضيلة إلا وأضافوها لأبي حنيفة.

ومن ورعه أن الخليفة لما منعه الفتيا سألته ابنته عن الدم الخارج من الأسنان هل ينقض الوضوء؟

قال لها: سلي عمك حمادًا عن ذلك، فإن إمامي منعني الفتيا، ولم أكن أخنه بالغيب، ومن ورعه أيضًا أنه كان لا يجلس في ظل جدار غريمه ويقول: كل قرض جر نفعًا فهو ربًا.

وأما قولهم أنه يقدم القياس على النص فكلام صدر من متعصب عليه بغير حق وقد اجتمع به جعفر الصادق وسفيان الثوري، وجماعة من العلماء في جامع الكوفة، فناظروه فقطعهم بالحجج، فقالوا له: فما دليلك في تقديمك القياس على النص؟

فقال: معاذ الله أن يقع مني ذلك إنما أنظر الحكم في القرآن، فإن لم أجده نظرت

ألِيف القرآن والحج والجهاد، وجاد فساد، ورجع فزاد.

وقد أجمعوا على جلالته وتقدمه في كل شيء، وأنه ممن تستنزل الرحمة بذكره، وترجى المغفرة بحبه.

قال: سفيان الثوري ﷺ: جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما كان عليه ابن المبارك فلم أقدر. وسمع سفيان رجلاً يقول: أين ابن المبارك عالم المشرق والمغرب وما بينهما؟ وقال الفراء: ابن المبارك إمام المسلمين أجمعين. وقال ابن عياش: ما على وجه الأرض مثله، ما خلق الله خصلة من خصال الخير إلا وجعلها فيه، وهو من أتباع التابعين. وكان أبوه تركيًا مملوكًا لرجل من همدان.

وجمع الفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشعر والفصاحة، والصيام والقيام، وقلة الكلام فيما لا يعنيه. وكتب الحديث عن مائة وألف شيخ. وكان يسبح وحده شديد الورع جدًا، بحيث سافر من مرو إلى الشام في رد قلم استعاره ونسيه في رحله وسافر. وما دخل حمامًا قط لشدة تقشفه.

وقال له خياطًا: أخيط ثياب السلاطين فهل يخاف علي أن أكون من أعوان الظلمة؟ قال: لا، إنما أعوان الظلمة من يبيع الخيط والإبرة، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم. قال الذهبي رحمه الله: كان يتجر وينفق على الفقراء في العام مائة ألف درهم. وقال أبو أسامة: ابن المبارك في أصحاب الحديث كأمير المؤمنين في الناس. وانظر: حلية الأولياء (162/8)، الثقات لابن حبان (7/7)، والتاريخ الكبير (212/5)، وطبقات الشعراني (59/1)، والكواكب الدرية (131).

في السنة، فإن لم أجده فيها، نظرت في أقضية الصحابة، فإن لم أجده فيها قست حينئذ مسكوتًا عنه على منطوق به بجامع العلة فقام سفيان وقبل رأسه، فلم يقع منه قياس إلا بعد أن لم يجد ذلك الأمر في كتاب، ولا سنة، ولا في أقضية الصحابة، وهذا أمر لا يختص به، بل سائر العلماء يقيسون كذلك.

وأما ما نقله أبو مطيع البلخي[1] عن الإمام مالك بتقدير صحته أنه سأله من عالم بلادكم اليوم؟ فقال: أبو حنيفة، فقال: فإذن لا يحل لعالم سكناها، فالمراد مدح الإمام أبي حنيفة بالعلم والزهد والورع، وأنه يكفي أهل بلاده علمًا وعملاً، ولا يحتاجون معه إلى عالم آخر يسكن بلادهم يساعده في نشر العلم فيها، بل كل عالم سكن في بلده فقد عطل علمه لعدم حاجة الناس إليه مع وجود الإمام أبي حنيفة، وقد ضعف المحدثون رواية أبي مطيع هذا، وأما ما نقل عن سفيان الثوري من قوله: إن أبا حنيفة قد حل عرى الإسلام عروة عروة، وقول الإمام أحمد لما سُئِل عن أبي حنيفة؟ فقال: لا رأي ولا حديث، فلم يصح عنهما وحاشا أن يطعنا في إمام أجمع الناس على جلالته، ثم بتقدير أن قياسه خالف النص في بعض المسائل فهو معذور؛ لعدم وجود جميع الأدلة في عصره لأنها كانت متفرقة في المدائن والقرى، والثغور مع الصحابة والتابعين، فكان معذورًا في قياسه بخلاف ما في زمن الإمام الشافعي وأحمد، فإن الناس كانوا سافروا في طلب الحديث، وجمعوا الأدلة فجاويت الشريعة بعضها بعضًا هذا هو الحق، ولا يقول عاقل قط أن الإمام يجد نصًا في المسألة ويتركه، ثم يأخذ بالقياس أبدًا، واعلم ذلك.

ومما أجبت به عن تجريح الحفاظ للحديث بعض الرواة، إن ذلك إنما وقع منهم نصرة للشريعة المطهرة، فكان لهم من الثواب في ذلك التجريح مثل ثواب من يسبح الله تعالى ويحمده، ولا يجوز حمل أحد ممن جرح غيره منهم على حظ النفس

---

(1) هو الحكم بن عبد الله أبو مطيع البلخيّ الفقيه، صاحب كتاب الفقه الأكبر. تفقّه بأبي حنيفة، وروي قضاه بلخ. وكان بصيراً بالرأي، وكان ابن المبارك يعظِّمه. عن النَّضر بن شميل، قال أبو مطيع: نزل الإيمان والإسلام في القرآن على وجهين. وهو عندي على وجه واحد. قلت: ممَّن ترى الغلط، منك أو من الرسول عليه السّلام أو من جبريل أو من الله تعالى؟ فبقي باهتاً. وقيل: كان من رؤوس المرجئة قال ابن معين: هو ضعيف. وقال أبو داود: تركوا حديثه لأنه كان جهمياً. وتوفي سنة تسع وتسعين ومائة.
وانظر: الوافي بالوفيات (307/4).

حاشاهم من ذلك، وقد كان الإمام البخاري ﷺ يقول: أرجو من فضل الله تعالى أنه لا يطالبني بغيبة أحد من المسلمين يوم القيامة، فقيل له: فماذا تصنع في تجريحك لبعض الرواة؟ فقال: ذاك من الدين نثاب عليه ثواب الواجب، وما حرمت الغيبة إلا لغير غرض شرعي، كالتشفي من الأعداء والحسدة.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: في ضمن تضعيف الحفاظ لبعض رواة الحديث منطوية للمسلمين؛ لأنهم لو صححوا جميع الأحاديث، التي قيل بضعفها لشق على الأمة العمل بها، ولم يكن لهم عذر في تركها بخلاف ما ضعف، فإن للناس فيه فسحة؛ لكون العمل به راجع إلى اختيارهم.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول أيضًا: قد قيّض الله تعالى بعض الناس، فعمل بما ضعفه المحدثون حتى يفوت الأمة العمل بشيء من السنة، فكان ذلك من جملة ما حفظت به الشريعة عن النقص، انتهى.

فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومما أجبت به عن عموم الناس أنه لا يجوز حمل أحد منهم على المحامل السيئة، وكل ما رأيناه حمل أحدًا على محمل قبيح، فإنما ذلك صورة نفسه هو، فكأنه يقول: أنا من أهل ذلك القبيح، وقد أجمعوا على أنه لا يخرج أحد عن المحامل السيئة في الناس إلا أن طهر الله باطنه من سائر الرذائل، ومتى بقيت فيه رذيلة واحدة فمن لازمه غالبًا سوء ظنه بالناس، وأنهم لا يسلمون من مثلها قياسًا على نفسه هو، فمن تطهر باطنه من سائر الرذائل فهو الذي يصح منه حسن الظن بالمسلمين كلهم، وأما حديث علي وعائشة مرفوعًا متصلاً **«من الحزم سوء الظن»**[1] وفي رواية أخرى عن أنس مرفوعًا **«احترسوا من الناس بسوء الظن»**[2] فالمراد به كما قاله شيخنا: أن يعامل العبد الناس، وهو محترز منهم ومن شرهم كمعاملة من يسيء الظن بهم من غير أن يسيء الظن بهم.

وذكر الإمام النووي في مقدمات «شرح المهذب»: أنه ينبغي للإنسان أن يحمل أفعال شيخه التي ظاهرها الفساد على نحو من سبعين محملاً حسنًا، ثم إن لم يقبل قلبه تلك الأجوبة كلها رجع على نفسه باللوم، وقال: يحتمل فعل أخيك سبعين محملاً

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (360/6).

(2) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (ص242)، والبيهقي (129/10).

حسنًا ولا تقبل ذلك، فأنت إذن أسوأ حالاً منه، قال: ولا يعجز عن هذه الأجوبة إلا قليل التوفيق، انتهى.

إذا علمت ذلك يا أخي فإياك أن تحمل أحوال الناس على أحوالك السيئة، مادمتَ لم تتنظف من الرذائل، بل يجب عليك أن تنتحل لهم الأجوبة الحسنة ما أمكن، فإذا رأيت يا أخي نقصًا في أحد فارجع إلى نفسك وجاهدها بالرياضة، حتى لا تصير ترى في أحد إلا تبعًا للشرع، وكلامنا كله إنما هو في الأخلاق التي تخفى، أما الظاهرة كالمكس وأخذ الرشا والزنا مثلاً، فلا يجوز لنا حمله فيها على المحامل الحسنة، فإن ذلك مكابرة في المحسوسات بخلاف ما يحتمل ويحتمل، ومن هنا قل إنكار طائفة الصوفية على الناس، وذلك لعدم رؤيتهم منكرًا محققًا، وربما كان الناس يظنون بهم قلة الدين، وأنهم يقرون على المنكر ولا يغيرونه.

وقد بلغنا عن سيدي أحمد الزاهد أنه أخرج فقيرًا من زاويته، لما رأى جرة مع غلام تشبه جرار الخمر فضربها بحجر فكسرها فقالوا للشيخ في ذلك فقال: إنما أخرجته لكونه ظن بصاحب الجرة سوءًا، ولأي شيء ما كان يظن أنها خل، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من علامة من صحت رياضة نفسه أن يصير يبادر لحسن الظن بالناس عكس من لم يكن عنده رياضة، فإذا رأى شخصًا يكلم امرأة في طريق مثلاً ويغمزها بيده ويضحك معها، قال: هذه أخته أو محرمة.

وإذا رأى عالمًا أو صالحًا يحضر مواضع المعاصي، أو يصغي لشيء من الملاهي حملناه على أنه حضر العصاة؛ ليحوطهم بأسماء الله خوفًا أن يقع بهم العذاب، أو على أنه خالطهم؛ ليعظهم ويخوفهم ونحو ذلك، وإذا رأى امرأة جميلة تشبه بنات الخطاء داخلة بيت أحد من الأكابر حملها على أنها داخلة لعياله لحاجة دينية أو دنيوية لا لذلك الرجل ليفعل بها ما لا يحل.

وإن كان صاحب ذلك البيت عالمًا أو صالحًا حمله على أنه أرسل وراءها؛ ليتوبها عن الفواحش مثلاً.

وإذا رأى أحدًا من الطوافين يبيع حال صلاة الجمعة حمله على أن له عذرًا شرعيًا في عدم حضور الجمعة، كأن ضيّق عليه صاحب الدين، أو حلف إن لم يوفه حقه في هذا اليوم حبسه.

وإذا رأى أحدًا من العلماء يمنع من الفتوى على ما يتعلق بأعوان السلطان حمله

على عذر شرعي يرخص في مثل ذلك.

وإذا رأى أحدًا من العلماء والصالحين يحج في محفة حمل على أن له عذرًا في ذلك، وأن المحمل مثلاً لا يكفيه في مد رجله ولا يجوز حمله، على أنه فعل ذلك ترفهًا كما سيأتي إيضاحه عقب هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

وإذا رأى شخصًا يقرأ القرآن، وهو في السوق في حانوته أو مارًا راكبًا أو ماشيًا، فيجب حمله على الإخلاص أو على أنه جهر بالقرآن؛ ليذكر الناس بربهم في مواطن الغفلة.

وإذا رأى شخصًا يصلي في آخر صف مثلاً، ويترك الصفوف أمامه ناقصة حمله على أنه إنما فعل ذلك حياء من الله ﷻ، ولا يجوز حمله على أنه إنما فعل ذلك تهاونًا بالسنة والثواب، وهذا الذي ذكرناه لا ينافي حديث: «**خير صفوف الرجال أولها**»[1]؛ لأن المراد بالرجال هنا الكمل في مراتب الإيمان، فمن علم من نفسه ذلك فليتقدم.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد، وسيدي محمد المغربي[2]، وسيدي مدين، وسيدي أبو العباس الغمري يصلون دائمًا في آخر صف في مساجدهم، ويقولون: لا يقف بين يدي الملك عادة إلا أكابر حضرته كما أشار إليه قوله ﷺ: «**ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»[3] ومعلوم أن النهى هي العقول، وفي حديث الترمذي مرفوعًا: «**الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له**

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) هو سيدي محمد المغربي، القاطن بالقلعة، صوفي مجذوب، يغلب عليه الصحو. له من الأحوال ما يقصر عن استقصائه العبارة.

ومن كراماته أنه لما فحش أمر جند مصر شكي له ذلك فقال: سيأتيهم رجل يكون زوال سطوتهم على يده، وربما أراق دماء بعضهم وأذل آخرين. فكان كذلك.

وهو ممن يتحمل مدلهمات مصر، فيما أخبرني به الولد، وإذ بدا ما سيقع من المكروه في الظهور طاف حوانيت مصر، وأخذ منهم الدراهم، وفرقها على محاويج الفقراء، فيندفع أو ينحل.

قال الحمصاني: ودأبه أنه إذا رأى ولدك قال: أدام الله هذا المدد- وربما قبل يده- ووقف تجاهه مطرق الرأس ويقول: ما أقول في حق سلطاننا يا سيدي؟ إن ترض عني فلا أبالي، وإلا فلا حال لي، ولا موالي. وانظر: كرامات الأولياء (195/1)، والكواكب الدرية (867).

(3) رواه مسلم (323/1).

يجمعها من لا عقل له»[1] فجعل من يجمع الدنيا لا عقل له، وكل إنسان يعرف حاله نفسه هل هو يحب جمع الدنيا أو يكرهه؟ فهو أمر راجع إلى قلبه ونيته.

وفي الحديث أيضًا: «**صفوا كما تصف الملائكة عند ربها**»[2] أي: في التقدم والتأخر، فكما لا يتقدم آحاد ملائكة التسخير مثلاً على أكابرهم كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وإسماعيل، وكذلك لا ينبغي لمن يعلم من نفسه رقة الدين أن يتقدم على أحد من المسلمين، وكل أحد يجب عليه أن يرى غيره أفضل منه؛ ليخرج عن الكبر كما درج عليه السلف من الصحابة والتابعين.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إياكم أن تبادروا إلى الإنكار على من رأيتموه لا يصلي في الصف الأول، فربما كان ذلك الشخص ممن يعلم من نفسه أنه يجمع الدنيا، ويحكم على نفسه بقلة العقل، أو يحمله على أنه ربما فعل ذلك خجلاً واستحياء من رسول الله ﷺ خوفًا أن يخالف قوله: «**ليليني أولوا الأحلام والنهى**»[3] أي: وكذلك كل من صلى إمامًا بقوم لا ينبغي أن يليه إلا الزهاد في الدنيا.

وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: لو أوصى رجل بمال لأعقل الناس صرفته إلى الزهاد في الدنيا، فعلم منه أن من لم يكن زاهدًا في الدنيا فلا حرج عليه في الوقوف آخر الصفوف.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول أيضًا: حكم كمل العارفين إذا وقف أحدهم بين يدي ربه في الصلاة حكم من كان فسق في حريم الوالي، ثم أتوا به إليه فهو يخاف من القرب من حضرته حتى يحصل رضا الوالي عنه أو العفو والمسامحة.

قال: وكثيرًا ما يذنب العبد الذنب العظيم فيظن بتقادم عهده أن الله تعالى غفره له والحال أنه لم يزل ساخطًا عليه إلى ذلك الوقت، فيصير مثل هذا يزاحم على الوقوف في الصف الأول؛ لظنه أن الله تعالى قد غفر ذنوبه حتى لا يكاد يستحضر ذنبه أصلاً، وما هكذا درج السلف الصالح ﷺ، فإن أحدهم إذا وقع في ذنب لا يزال خجلاً من الله تعالى خائفًا من عقابه حتى يلقاه.

---

(1) رواه أحمد (371/6).

(2) رواه الطبراني في الأوسط (218/8).

(3) تقدم تخريجه.

قال: وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - : مالي أراك لا تبكي على ذنبك بكاء الثكلى على ولدها أتظن أني قد غفرت لك حين تقادم عهدك بالذنب، ولم أعاقبك عليه؟ ومن أين لك أني قد غفرت لك؟ وأي ملك أخبرك بذلك عني؟ وعزتي وجلالي لأوقفن العصاة يوم القيامة موقف تذوب فيه أجسامهم وتنقطع فيه مفاصلهم، انتهى.

وكان أخي أفضل الدين - رحمه الله - يقول: إياكم أن تسيئوا الظن بما رأيتموه من الأمراء والمباشرين والتجار يتغالى في ثمن المماليك والعبيد، وتقولوا: لولا أنه ممن يقع في الفاحشة فيهم ما يغالي في ثمنهم، فإن ذلك لا يجوز بإجماع إلا أن حفت بذلك القرائن، وليس كل من يتغالى في ثمن العبيد يفعل ذلك للفاحشة، وإنما الأكابر إذا وسع الله عليهم الدنيا يصير أحدهم يحب الجمال في ثيابه ومراكبه وداره وغلمانه مشاكلة لحاله، فلا يكاد أحدهم يحب عجوزًا شوهاء، ولا عبدًا وجهه غير صبيح عادة، ولا يحب أن يستخدم من العبيد والمماليك إلا صباح الوجوه، ويحصل عنده غم برؤية غيرهم.

وقد بلغنا أن من أدب جماعة السلطان معه ألا يوقفوا بين يديه أجذم ولا أبرص، وإن وقع أن أحدًا من الوزراء حصل له شيء من ذلك عزلوه أو استنابوا عنه رجلاً سالمًا من مثل ذلك غيرة على السلطان أن يقع بصره على ناقص، فالأكابر غائبون عما يظن الفسقة فيهم من السوء قياسًا على نفوسهم الغوية.

وقد بلغنا أن القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي الذي أفتى بقتل الحلاج - رحمه الله - دخل يومًا على أمير المؤمنين المعتضد فرأى على رأسه جماعة من المماليك الصباح الوجوه، فوقع في نفس القاضي شيء، فلما أراد القيام قال له المعتضد: والله يا قاضي ما خلعت سراويلي قط على فاحشة منذ وعيت على نفسي من الصغر، فخجل القاضي، واستغفر من سوء ظنه.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: عليك يا أخي بحسن الظن بالمسلمين ما استطعت، فإن الله تعالى لا يسألك في الآخرة: لم حسنت ظنك بعبادي؟ وإنما يسألك عن سوء ظنك بهم، فإذا انقطع أخوك عن زيارتك مثلاً أو عيادتك، فلا ينبغي لك أن تتكدر منه، بل الواجب عليك حمله على أنه لم يجد له نية صالحة مثلاً يزورك أو يعودك بها، ولا يجوز لك حمله على أنه فعل ذلك استهانة بحقك، وإذا دعاك إلى وليمة وأجلسك عند النعال، وقدم إليك فضلة الغلمان والخدام، فمن

الواجب عليك حمله على أنه ظن فيك الخير والتواضع، وزوال الكبر والرعونات النفيسة، ولولا أنه ظن بك ذلك لأخذ حذره منك، وصدرك في المجلس خوفًا منك، وأكرمك كل الإكرام في الطعام.

وقد وقع لسيدي عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل صاحب «المختصر» أنه دُعِي إلى وليمة، فأجلسوه هو وأصحابه عند النعال، وقالوا له ولأصحابه: اصبروا عن الأكل حتى يفرغ الناس، فقالوا: سمعًا وطاعة، فلما قدموا لهم فضلة العبيد والأطفال صار سيدي عبد الله يلحس الأواني، ويقول: اغتنموا بركة جميع من أكل، ثم يقول لأصحابه: تعلموا حسن الظن بالناس، فإن هؤلاء لولا أحسنوا بنا الظن وجعلونا من الصالحين الذين ماتت نفوسهم ما أجلسونا خلف النعال ولا أطعمونا الفضلة.

ووقع أن امرأة سيدي مجاهد النبراوي دعت زوجة سيدي عبد العزيز إلى طهور أولادها، ففرشت لها البيت بالبسط والمقاعد لظنها أنها من أهل الدنيا، فلما دخلت عليها ورأت عليها ثيابًا خلقه طوت البسط وأرسلتها إلى المطبخ، فلما جاء سيدي عبد العزيز ليأخذها شكت إليه شدة ازدرائهم لها، فقال لها سيدي عبد العزيز مبادرًا: هذا تعظيم ما فعلوه مع أحد غيرك أجلسوك عند الطبيخ، وكلما طبخوا شيئًا أطعموك منه بغير تعب، انتهى.

وكان سيدي محمد الشناوي - رحمه الله - يقول: إذا زار تلميذ أحدكم شخصًا من أقرانكم فلم يبشر في وجه مريدكم، ولم يقدم له طعامًا، فلا يجوز لكم حمله على أنه يكرهكم، وإنما يجب عليكم حمله على أنه إنما فعل ذلك مع تلميذكم وفاء بحقكم ومصلحة لمريدكم، فخاف إذا أكرمه أن يميل بالمحبة فيعدم النفع بكم حين يصير مذبذبًا في أي الشيخين أعلى من الآخر.

وكان سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: إذا رأيتم أحدًا من العلماء والصالحين يمدح نفسه، أو يجيب عنها فاحملوه على المحامل الحسنة، فربما رأى من طلبته عدم الاعتناء بما يقوله لهم من العلوم المحررة، أو خاف تزلزلهم عنه إذا رماه الناس بالعظائم، ولم يجب عن نفسه، فيعدم الناس النفع به، ولو أنه علم من طلبته أنهم يعرفون نفاسة ذلك الكلام، أو لا يتزلزل اعتقادهم فيه إذا لم يجب عن نفسه لكان سكت، ولم يمدح نفسه ولا علمه.

وكذلك سمعت سيدي أفضل الدين - رحمه الله - يقول مرارًا: إياكم أن تسيئوا الظن بمن رأيتموه يجيب عن نفسه من العلماء والصالحين، وتقولوا: لو أن هذا كان

صالحًا لاكتفى بعلم الله تعالى فيه، أو لم يلتفت إلى الناس فإن للعلماء والصالحين مشاهد في ذلك صحيحة، فمنهم من يكون مشهده أن أفعاله وأقواله التي نقصه الناس كلها لأجلها خلق لله تعالى، فيغار لله أن ينتقص أحد خلقه وحكمه وتقديره، ومنهم من يكون مشهده أن نفسه خلق لله تعالى، فيتكدر لمن يقول له يا أعور مثلاً من حيث أنه يعيب خلق الله تعالى، ومنهم من يكون مشهده أن بنته أمة لله تعالى، وأنها وديعة عنده قد أمنه عليها، وأمره بكف الأذى عنها ودفع كلما يحصل لها به تكدير وتشويش.

ومنهم من يكون مشهده الشفقة على أعدائه، فيخاف إن سكت عما يقولونه فيه أن ينقص دينهم، فيرد عن نفسه حتى يكذبهم الناس، فيخفف الإثم عنهم.

ومنهم من يكون مشهده أنه عبد لله تعالى ليس له من نفسه شيء، وأنه يجب على كل أحد احترام عبد الله تعالى، فيغار لنفسه من حيث كونه عبد الله لاحظ نفسه، بل ربما لم يخطر ذلك على باله.

ومنهم من يكون مشهده محبة الخير والنفع لإخوانه على يديه أو يدي غيره، فيخاف إن سكت على تنقيص الأعداء والحاسدين له أن يجعل له استهانة في نفوس تلامذته، فلا يصيرون ينتفعون به.

وهكذا في جميع الأمور التي تسق إلى الذهن فيها بسوء الظن يجب على العبد أن ينظر فيما يترتب عليها من جواب أو سكوت فلا يقال الجواب أولى مطلقا ولا السكوت أولى مطلقا، إنما ذلك دائر بحسب ما يترتب عليه من المصالح، وقد كان أخي أفضل الدين إذا بلغه أن أحدًا نقصه في مجلس يذهب إليه، ويقبل رجله ويقول: يا أخي ما يجازيك عني إلا الله فيما بلغني عنك، فإنك نبهتني على نقائصي لأتوب عنها أو آخذ حذري منها في المستقبل، وحميتني من الوقوع في العجب بأحوالي، وربما أن ذلك الشخص المنتقص له لم يخطر في باله قط ما حمله سيدي أفضل الدين عليه إنما قصد محض تنقيصه بين الناس بغضًا فيه وحسدًا له وعدوانًا.

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي - رحمه الله - يقول: لا يسلم من سوء الظن بالناس إلا من طهر الله باطنه من سائر المخالفات، بحيث يصير لا تخطر الفحشاء على باله، فإنه حينئذ يصير يعتقد في الناس كلهم الخير قياسًا على نفسه هو.

قال: وتأمل من خلق عنينًا ولم يذق لذة الجماع قط، لو أنه رأى شابًا يكلم أجنبية كيف لا يخطر بباله أنه يريد الفاحشة بها أبدًا؛ لأنه لم يذق ذلك في نفسه، بخلاف الشاب الفاسق إذا رأى شيخًا يكلم أجنبية فضلاً عن الشاب لا يكاد يسلم من سوء الظن

به قياسًا على نفسه هو، فقلت له: فما حكم الشيخ، إذا اطلع على شيء من نقائص المريدين، هل ذلك قياسًا على ما عنده أم لا؟ فقال ﷺ: للشيخ طريق أخرى يطلع بها على نقائص المريد، وهي الإلهام له من الله تعالى،انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص ﷺ يقول: إذا بلغكم عن امرأة قد مات أحد من أهلها، أو جيرانها، إن زوجها قرب منها ليلة موت ذلك الميت، فاحملوها على إظهار الرضا عن الله بذلك، لا على غلبة الشهوة الطبيعية، فإن ذلك من سوء الظن بها، انتهى.

وهذا الخلق العظيم لم أر من تخلق به من أقراني إلا القليل.

وقد سمع أخي أفضل الدين شخصًا يحكي أن أشعب الطماع، كان يفت الخبز على دخان جاره، فقال: شيء لله من مدده، فإنه لولا حسن ظنه بجاره ما فت خبزه على دخانه ﷺ، فاعلم ذلك وتأمل فيه فإنه نافع جدًا. والحمد لله رب العالمين .

الباب الثاني

جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم: غيرتهم لله تعالى إذا انتهكت محارمه، ولا يخافون في الله لومة لائم ولو كان ولدهم البكري، فإن الله تعالى بالمرصاد على قلوبهم.

وفي الحديث أن شخصًا يؤتى به يوم القيامة ومعه أعمال كأمثال الجبال فيؤمر به إلى النار، فتقول الملائكة: يا ربنا إنه كان من أعماله كذا وكذا، فيقول الله تعالى: بلى، ولكنه كان لا يغضب إذا انتهكت حرماتي، ولا يغضب لغضبي، انتهى.

وذكر وهب بن منبه: أن شخصًا من علماء بني إسرائيل كان يعظ الرجال والنساء، فبينما المجلس غاض بأهله، والناس يبكون ويتنحبون، إذ غمز ولده امرأة من الأجانب.

فقال له: لا يا ولدي لا تفعل، فأرسل الله إليه ملكًا فقلب به الكرسي فوقع على وجهه، فانفلقت رأسه، وتقطعت أعضاؤه، وأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان: أما كان من غضب فلان لمحارمي وانتصاره لشرعي لا أن قال: لا يا ولدي؛ أي: فإنها كلمة لا تشعر بتعظيم محارم الله، ولا بإيثار جناب شرعه على حكم الطبع النفساني، فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تخفيفهم الصلاة إذا كانوا أئمة الناس

عملاً بقوله ﷺ: «**من أمَّ الناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا**

الحاجة»[1] انتهى.

فلا يقدر على طول الوقوف بين يدي الله ﷻ إلا رسول الله ﷺ وكمل ورثته، ولذلك كان يقول: **«أرحنا بها يا بلال»**[2]، ثم إن المصلي لا يخلو إما أن يكون قلبه حاضرًا مع الله أو غافلاً عنه، فإن كان حاضرًا فقد شق عليه بالتطويل؛ لأنه ليس كل الناس يقدرون على طول الوقوف بين يدي الملوك، بل يصير أحدهم يرعد من هيبته، وربما أحس أحدهم أن مفاصله تنقطع من شدة الهيبة، وإن كان ذلك المصلي غافلاً بقلبه عن ربه فهذا لا ثمرة له وهو إلى العقوبة أقرب، وربما زهقت نفس المصلي من تلك الحضرة، فخرجت إلى أهويتها وشهواتها، ولم يبق واقفًا مع الإمام سوى الجسم من غير روح، وقد شمل ما قلناه قوله ﷺ: **«فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة»**[3] فذكر الضعف وسكت عن سببه، فشمل الضعف العادي من المرض، وشمل الضعف الذي يطرأ على العبد من هيبة الله تعالى.

فعلم أن التخفيف مطلوب للإمام بكل حال بخلاف ما إذا صلى لنفسه فإن يطول ما شاء كما صرح به الحديث، فإن أقدره الله تعالى على طول الوقوف بين يديه وقف وطوّل وإلا اقتصر.

وقد صليت مرة خلف الشيخ أحمد المنشاوي عندنا بالزاوية، فطوّل فصرت أحس بأن شخصًا يطعنني بحربة في قلبي وأحشائي فلولا أني فارقته لهلكت، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاقه.

فاعرضه وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم سفرهم إلى الحجاز في محفة إلا لضرورة شرعية، وإن قوي عليهم الشوق العظيم إلى زيارة بيت الله الحرام، وإلى زيارة قبر رسول الله ﷺ مع كبر سنهم وضعف أبدانهم، ووجدوا أجرة ذلك من وجه حلال، وخلصت النية في ذلك.

ولا ينبغي لأحد من الفقراء والعلماء أن يحج في محفة ترفهًا وتفاخرًا، فإن

---

(1) رواه مسلم (341/1).

(2) رواه أبو داود (296/4).

(3) رواه البخاري (46/1)، ومسلم (341/1).

المحرم أشعث أغبر، وكل فقير سافر في محفة على وجه الترفه والخيلاء فهو خارج عن الطريق.

وقد حج رسول الله ﷺ على رحل رث يساوي ثلاثة دراهم، ثم قال: «**اللهم اجعله حجًا لا رياء فيه ولا سمعة**»[1] وإنما فعل ذلك ليقتدي الناس به.

وكذلك حج الأنبياء على الحمر والجمال بلا مرقد، ولا هودج، وخطم دوابهم الليف، وأحرموا في العباءة الخشنة الغليظة، وهم خائفون من عظمة الله ﷻ.

وكل من حق له قدم الولاية فمن لازمه أن يرى نفسه، كالعبد الآبق الذي استحل الخسف به، ويرى حجه إنما هو كالمصالحة لسيده ليرضى عنه أو يعفو ويصفح، ويقبح على العبد المحرم أن يذهب إلى مصالحة سيده في محفة، وعليه ثياب رفيعة مبخرة وهو جالس في المحفة كالمرأة المخدرة.

فاعلم ذلك والزم الأدب مع ربك إن كنت عبدًا له.

وقد حجّ سفيان الثوري ﵁ من البصرة ماشيًا، فلما سلم عليه الفضيل بن عياض بمكة قال له: هلا صحبت معك ظهرًا تركبه؟ فقال له سفيان: أما يرضى العبد الآبق[2] أن يأتي إلى مصالحة سيده إلا راكبًا؟ والله إني لفي غاية الخجل مع مشي فكيف حالي لو أتيت راكبًا؟ انتهى والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: شمهم لروائح المعاصي من أنفسهم ومن غيرهم في بدنهم وثيابهم ومكانهم مدة طويلة من يوم وجمعة وشهر وأكثر، بحسب قبح تلك المعصية وخفتها، فللكبيرة عندهم رائحة، وللصغيرة رائحة، وللمكروه رائحة، ولخلاف الأولى عندهم رائحة، وكلما قبحت المخالفة كان ريحها أشد نتنًا.

وكذلك يشمون رائحة الطاعات على اختلاف درجاتها فأزكاها رائحة الواجبات إذا حفها الإخلاص، ثم المندوبات، ثم ما كان أولى من سائر الآداب الشرعية، مع تفاوت المراتب في الكل بحسب الأدلة، وكلما عظمت الشهوة في المعصية كلما زاد نتنها، وكلما عظم الإخلاص في الطاعات كلما زاد طيب ريحها، وهذا الخلق قل من يتخلق به من الإخوان، وقد تخلقنا به ولله الحمد، لكني سألت الله تعالى أن يحجب عنّي رائحة المعاصي من غيري؛ لأن الله تعالى لم يتعبدنا بمثل ذلك، وأيضًا فإن الشارع

---

(1) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (3/221).

(2) الآبق:هو المملوك الذي يفر من مالكه قصدًا.

قد ذم كشف العورات ومن هنا أوجب القوم التوبة من كل كشف اطلع صاحبه على عورات الناس، وسموه بالكشف الشيطاني.

وقد بلغنا أن هذا الخلق كان للسيد عثمان بن عفان ﷺ، ثم سأل الله تعالى أن يحجبه عنه فحجبه[1].

ومما وقع له قبل الحجاب أن شخصًا دخل عليه وقد نظر إلى ما لا يحل، فقال له عثمان بن عفان ﷺ: يدخل أحدكم علينا وروائح الزنا عليه؟ فاستغفر الرجل من ذلك وتاب، انتهى.

وقد كان بعض العارفين يقول لأصحابه - من باب الاتهام لنفسه -: لو أنكم تشمون للمعاصي رائحة ما استطاع أحدكم أن يجلس إليَّ من نتن ريحي، انتهى.

وصاحب هذا المقام لا يقدر على مجالسته إلا من كان تائبًا من سائر الذنوب، وقبل الله تعالى توبته، وأما المتلطخ بالمعاصي فربما حصل له المقت في الوقت والعياذ

---

(1) قال الشيخ الشعراني في «الكوكب الشاهق»: ومن أخلاقهم: إذا أحسَّ أحدهم بعلامات الكمال النسبي العادي في مقامات الطريق ألا يطمح بصر أحدهم إلى وقع الإذن من شيخه، بل يجب عليه الصبر حتى يكون شيخه هو البادئ له بذلك، ومتى طمح بصره إلى الإذن من شيخه فقد نكص على عقبيه، وربما رجع إلى حالةٍ هي أدنى وأرذل من حالته التي كان عليها قبل دخوله الطريق عقوبةً له.

فإن المريد كلما قرب من الحضرة الإلهية كأنما نوقش، كما أنه إذا أبعد عنها سومح.

والقاعدة: إن كل من عظمت مرتبته كبرت صغيرته. وقد سمعت سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: من نعم الله تعالى عليَّ لما قرب أوان فطامي أن نفسي لم تحدثني قط بأني أستحق الإذن لي من شيخي، ولذلك جزاني الله تعالى بالإذن من شيخي ابتداءً على لسان رسول الله ﷺ، ثم جاء الإذن له من ربه عن طريق الإلهام، وقال لي: يا علي، ما أذنت لك إلا بأمرٍ من رسول الله ﷺ، وبإذنٍ من الله ﷻ.

قال: ولما مات سيدي شيخي محمد ابن أخت سيدي مدين(1) تطاول جميع أصحابه للجلوس في مصر؛ لإرشاد المريدين، وكنت غائبًا في نواحي البلاد، فأرسل الإخوان يشاورونني في ذلك. فقلت: يجلس كل من معه إذن من الشيخ، وكل من ثبّته الله تعالى ثبت، فجلسوا كلهم، ولم يثبت في مصر منهم إلا واحدٌ، والباقون أعوانٌ له انتهى. فكان الشيخ ﷺ هو الذي ثبت في مصر، وانتفع به الناس، فعلم أن الشيخ لا يحتاج إلى تنبيه على الإذن لمريده إذا أكمل حاله واستحقَّ الإعظام؛ لأنه يعلم أن الواجب عليه إذا رأى المريد قد استقل بحاله كملت تربيته، ودخل أوان فطامه، وأتاه الإذن له من رسول الله ﷺ، أو من ربه ﷻ من طريق الإلهام أن يأذن له، ويقطع عنه الإمداد من جهته، ويتركه مع ربه إن شاء أقعده، ولا حكم للشيخ بعد ذلك عليه. قالوا: ولا يسع المريد إذا ساوى شيخه في المقام أو جاوزه إلا التأدب معه واحترامه دون الاقتداء به.

بالله؛ لأن الولي يغضب لغضب الله، فربما نظر إلى ذلك العاصي نظرة غضب من حيث انتهاكه محارم الله، فخسر الدنيا والآخرة، بل بلغنا عن سيدي محمد الشويمي[1] المدفون تجاه قبر سيدي مدين المدفون بخط المقسم ﷺ أنه كان يشم رائحة الروائح التي تنشأ من الخواطر، وكان يؤدب صاحب الخاطر بالعصا فلا يستطيع أحد يرده عنه، ودخل مرة أمير على سيدي مدين وسيدي محمد هذا جالس في المحراب وسيدي مدين في آخر الزاوية، فخطر في نفس الأمير أنه يمسك جارية زوجته، فقام له سيدي محمد من المحراب وصار يضربه بالعصا والأمير يصدق ويقول: استغفروا الله العظيم.

فإذا كان هذا في رائحة الخواطر فكيف بالأعمال الظاهرة؟

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: جميع ما هو عند الناس غيب، أو يرونه في النوم فهو عند العارفين شهادة ويقظة.

ووقع لخالد الربعي ﷺ[2]: أن ناسًا اغتابوا شخصًا في المسجد وهو جالس لم يجب عنه، فقدم إليه تلك الليلة قطعة من لحم خنزير وقيل له: كلها بما اغتبت عندك، ولم تجب عن أخيك قال: فأبيت أن آكلها من شدة نتنها، فأدخلوها في فمي كرهًا، فاستيقظت ورائحتها فائحة في غاية النتن، فصرت أشمها أنا والناس مدة أربعين يومًا، انتهى.

فعلم أن شم الإنسان رائحة المعصية من ثيابه وبدنه ومكانه من جملة نعم الله تعالى، ليتذكر بتلك الرائحة تلك المعصية، فيزيد في الندم والاستغفار، ويقع لي أنا أنني إذا ارتكبت مكروهًا أو خلاف الأولى أني أشم رائحة ثيابي عفنة، فلا أزال أستغفر حتى تزول رائحتها.

وحينئذ أرجو أن يكون الحق تعالى قد سامحني بذلك، وأقول في نفسي: لولا أنه سامحني بذلك لدام ريحه عليّ، ففي أوقات تمكث الرائحة يومًا أو ثلاثة أيام أو أكثر،

---

(1) قال السخاوي: هو سيدي محمد الشويمي: أحد المجاذيب المقيمين عند الشيخ مدين، وكان من قدماء أصحابه ممن زرته ودعا لي بالمغفرة عقب رجوعه من الحج. مات في ذي القعدة سنة سبع وستين، ودفن بزاوية صاحبه. الضوء اللامع (5 /56).

(2) صحفت في الأصل والمطبوعة (الربعي)، وهو خالد الربعي يروي عن أنس بن مالك روى عنه هشام ابن حسان وأبو الأشهب وحميد الكندي العنبري، كما ذكره ابن حبان في «الثقات» (4/ 200).

وقد اغتبت مرة شخصًا، فصرت أشم رائحة النتن من ثيابي نحو سبعة أيام، مع أني ما كنت اغتبته إلا بعد أن اغتابني، فإياك يا أخي ثم إياك.

ثم لما حجب الله تعالى عني رائحة المعاصي من غيري أبدلني مكان ذلك شمي لرائحة من عليه فريضة لم يصلها أول وقتها، فأقول له: يا فلان أصليت صلاة كذا؟ فيقول: لا، فأقول له: قم فصل.

وأهل الله يعرفون من وقف في حضرة الله وقت الصلاة برائحته الطيبة، ومن لم يقف بعدمها، وهذا أمر غريب قل من يتخلق به من الفقراء.

وكان أخي أفضل الدين - رحمه الله - يعرف قوّام الليل برؤية وجوههم، ويعرف من قام أول الموكب الإلهي، ومن قام في أثنائه على تفاوت الناس في الزيادة والنقص، وربما قال لمن نام عن قيام الليل: ما رأيناك الليلة هناك فيعترف له بالنوم إلى الفجر ﷺ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم الإكثار من حضور الولائم التي لا خلاص فيها لصاحبها شرعًا كأن يكون فيها طعام فيه شبهة كموالد المشايخ التي يعملها المعتقدون فيهم من الظلمة، أو يدخلها التفاخر ويكثر فيها ألوان الطعام، وما ثم أنفع للفقير ولا للفقيه من ملازمة بيته في هذه الأيام، إما لمراقبة الله، أو تحرير مسائل العلم التي ينتفع بها الناس، وأما حضور الموالد فإنما ذلك للمزمزمين والمداحين والبطالين من الاشتغال بالله أو بالعلم، ومن هنا قالوا: كل من رأيتموه من المريدين يحب سماع القصائد والنغمات، فاعلموا أنه بطال لا يجيء منه شيء في الطريق.

وربما استدرج إبليس بعض الفقهاء وقال له: ما عبد الله بشيء أفضل من جبر الخواطر، فيترك مطالعة العلم، أو إقراء الناس ويذهب إلى تلك الوليمة أو المشي في الزفة، ويعكس درس الطلبة، ولا يشك أن الفقيه إذا ارتقى إلى مرتبة الفتوى والتدريس يصير وقته أعز من الكبريت الأحمر، فلا يكون شيء أنفع له من العلم والعمل على وجه الإخلاص لتعدي نفع ذلك إلى الخلق في أبدانهم فينقذهم بذلك من النار، بخلاف جبر خاطرهم بحضور أكل طعامهم المخلوط بالحرام والشبهات.

وقد فتشنا في الفقراء وطلبة العلم فما رأينا أحدًا منهم أكثر من الأصحاب والمعارف وإجابتهم إلى جميع أغراضهم إلا انقطع عن الخير، وفاته الترقي في طريق الظاهر والباطن قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ

ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 116].

فكل من أكثر من الأصحاب والمعارف فهو كالفقيه الذي كثرت وظائفه من حضورات ومباشرات وقراءة أطفال، فإنه يتعطل عن الترقي في العلم إلى مقام الأكابر ضرورة بخلاف من قلت أصحابه ووظائفه، فإنه ربما ترقى إلى الإفتاء والتدريس، وشرح كتب العلم كما هو مشاهد في بعض طلبة العلم الآن.

ومن هنا فاق شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملي[1] أقرانه؛ لكونه أقبل على العلم ولم يشتغل بالتردد إلى أحد من الأكابر ﷺ فما مات حتى انتهت إليه الرئاسة في مذهب الإمام الشافعي، وغالب طلبة العلم في مصر الآن إما طلبته أو طلبة طلبته، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(1) قال المناوي: أحمد بن حسين بن أرسلان - بالهمزة كما بخطه، وقد جرى على الألسنة حذفها - الشهاب أبو العباس الرملي، الشافعي، رأس الصوفية المتشرعة في وقته. ولد برملة فلسطين كما قاله أجلّ تلامذته الكمال بن أبي شريف المقدسي، والشمس السخاوي وغيرهما. ولم يطّلع عليه بعض متفقهة زمننا ممن قصر نظره فظنه من غيرها، سنة ثلاثة وسبعين وسبعمائة، ثم رحل لأخذ العلوم، فسمع الحديث على جماعة كثيرين وبرع في الفقه حتى أجازه قاضي القضاة الباعوني، وتصدى للإقراء. قالوا: وما قرأ عليه أحد إلا وانتفع. وكان يكني جماعته بكنى كأبي طاهر، وأبي المواهب، فلا يتخلف أثرها. لزم الإفتاء والتدريس مدة، ثم ترك ذلك وسلك طريق الصوفية القويم، وجد واجتهد حتى صار منارًا يهتدي به السالكون، وشعارًا يقتدي به الناسكون. وغرست محبته في قلوب الناس، فأثمر له ذلك الغراس. وكان كثير الفقه والأدب، متمسكًا من التصوف بأقوى سبب، زائد التواضع في الرغب والرهب، أعظم أهل عصره اتباعًا للسنة النبوية، واقتفاء للآثار المصطفوية، يراعي ذلك حسب الإمكان في دقيق الأمور وجليلها، ويأخذ نفسه فاضل الأقوال والأعمال دون مفضولها، أوقاته موزعه على أنواع العبادة، ما بين قيام وصيام، وتأليف وتربية وإفادة. فمن تصانيفه النافعة: شرح سنن أبي داود، والبخاري، وجمع الجوامع، ومنهاج البيضاوي، ومختصر ابن الحاجب، وشرح أرجوزته «الزّبد» في كبير وصغير، وتصحيح الحاوي، ومختصر الروضة، والمنهاج، والأذكار، وأدب القضاء للغزي، وحياة الحيوان، وعلق على الشفا، ونظم في علم القراءات، وأعرب الألفية، وشرح الملحة، ونظم من علوم القرآن ستين نوعًا ، وعمل طبقات للشافعية، وغير ذلك.وله كرامات لا تكاد تُحصى. قال الكمال المقدسي: وقد حصل عند أهل الرملة والقدس وما حولها تواترها معنى. وكان صائمًا قائمًا، قلّما يضطجع بالليل.مات سنة أربع وأربعين وثمانمائة، ودفن في بيت المقدس، وارتجت الدنيا لموته. وصلى عليه بالجامع الأزهر صلاة الغائب. وقال ابن البارد: ولم يخلف بعده في عصره بمجموعة مثله علمًا وتصوفًا ، ونسكًا وزهدًا وسلوكًا وانظر: جامع الكرامات (321/1)، الدليل الشافي (45/1)، المنهل الصافي (278/1)، الأنس الجليل (174/2)، الكواكب الدرية (684).

ومن أخلاقهم: حرصهم في جميع مشاهدهم في أعمالهم وأحوالهم على أن تكون دائرة مع الحق لا مع حظ النفس، فلا يتحركون ولا يسكنون إلا فيها يعلمون ويشهدون رضا الحق تعالى فيه، فصورتهم صورة من يسعى في حظ، ولكن القصد مختلف.

مثال ذلك: أن يظهروا التشويش ممن أخل بواجب حقهم من زيارة أو عيادة أو خدمة أو منعهم مما طلبوه منه نحو ذلك، فيشوشون عليه من حيث تفويته على نفسه ذلك الخير مع قطع نظرهم عن عود مصلحة ذلك الأمر عليهم، ثم إذا بلغ أحدهم مقام الكمال فله إظهار التشويش لحظ نفسه أيضًا من حيث كونه أمينًا عليها، ويجب عليه الذب عنها وعن ما يضرها، فهو يرى نفسه كالأجنبية عنه وهو عنها بمعزل من باب التجريد المذكور في المعاني والبيان.

ثم إن أصل شهود العبد الإخلال بواجب حقه كونه يعامل الخلق، ولو أنه كان عامل الحق - جل وعلا - في إحسانه إلى خلقه لم يطلب منهم مكافئا، ولم ير أحد منهم أخل بواجب حقه أبدًا.

ثم إذا ارتقى الكامل إلى مقام الكمال الحقيقي، صار يرى الفضل لله تعالى عليه في كل عبادة عملها، لا يطلب منه جزاء عليها في الدارين فضلاً عن أن يطلبه من الخلق، فهو ولو أعطاه الحق تعالى الثواب يرى ذلك الثواب ملكًا لله تعالى لم يخرج عن ملكه بإعطائه لعبده.

ومن هنا خلص الفقراء من رق طلب الأجور على شيء من عباداتهم؛ لشهودهم أنه لا يخرج شيء عن ملك الحق تعالى في الدارين، فهم يأكلون ويلبسون ويسكنون في دار سيدهم في الدنيا والآخرة، ويرون ذلك كله عارية عندهم.

ولولا أن الله تعالى أوجب عليهم الشكر بنسبة المعطي لهم - اسم مفعول - ما تعقلوا أن ينتقل أن الله تعالى أعطاهم قط شيئًا؛ لأن حقيقة العطاء أن ينتقل من ملك (المعطِي) - اسم فاعل - إلى ملك (المعطَى) - اسم مفعول - وهذا محال أن يصح لعبده، فهم يشكرون الله تعالى على نسبة المعطي لهم لا على أنهم يملكون ما أعطاه لهم كما سيأتي بسطه في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

فاعرض يا أخي ما ذكرته لك في هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة توبتهم من علومهم، وأعمالهم التي دخلها الرياء والنفاق،

ويرونها من جملة المعاصي لا الطاعات؛ إذ لا يسمى طاعة إلا ما كان صاحبه مخلصًا فيه، ولذلك وردت الأحاديث بعقوبة من لم يخلص في علمه وعمله.

وقد كان رسول الله ﷺ يستغفر الله تعالى ثلاثًا كلما سلم من صلاته تشريعًا لأمته، وتنبيهًا لهم على شهود النقص فيها، وإنها إن لم يحصل فيها إخلاص وخشوع، فهي إلى الإثم أقرب.

وقد رمى الإمام مالك كتاب «الموطأ» في الماء لما اتهم نفسه في الإخلاص، وقال: إن ابتل فلا حاجة لنا به فلم يبله الماء فأبقاه.

وكذلك وقع للحكيم الترمذي ﷺ أنه رمى عدة كتب له في الماء فلم تبتل فأبقاها.

وأوصى الإمام النووي بغسل كتاب «الروضة»، وقال: إن في قلبي منها شيء فلم يفعلوا.

وهذا أمر لا يقدر على التخلق به إلا من خرق ببصره إلى الدار الآخرة، وعرف ما يصح قبوله من الأعمال وما لا يصح.

وقد سألت شيخنا شيخ الإسلام زكريا عن المراد بقول النووي: في قلبي منها شيء ما هو الشيء؟ فقال: لعل له انفراده فيها بكثرة الترجيحات والاختيارات، فأحب ألا ينفرد بحكم عن العلماء فيكون المعول عليه في الآخرة، أو قال ذلك اتهامًا لنفسه في الإخلاص، وإلا فاعتقادنا أن مثله لا يخرج عن الإخلاص في شيء من أعماله، انتهى، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة زهدهم في المطاعم والملابس والمناكح والمراكب والمساكن ونحو ذلك مع ملابستهم لها، فيأكلون ويلبسون وينكحون، فيركبون الخيول المسومة، ويسكنون القاعات المرخمة، وهم مع ذلك زاهدون فيما خوَّلهم الله فيه من النعم، فليس الزهد بخلو اليد كما يفهمه بعضهم، وإنما الزهد بالقلب فافهم، إذ لو كان المراد بالزهد خلو اليد من الدنيا لنهى الشارع عن التجارة، وعن عمل الحرف، ولم يكل بأمر أحدًا بها ولا قائل بذلك، وإنما درج جمهور الصحابة والتابعين على خلو اليد من الدنيا؛ ليقتدي بهم المحجوبون عن مشاهدة الأكابر، فلذلك أظهروا لهم الزهد في الدنيا بخلو اليد، ونهوهم عن التبسط في الدنيا خوفًا عليهم أن يدخلوا في محبتها، فلا يهتدوا بعد ذلك للخروج عن حبها والمزاحمة عليها، فإن الكمل لا يشغلهم عن الله تعالى شيء في الكونين، بخلاف القاصرين الذين هم أكثر الناس.

وممن أدركناه على قدم الزهد في الدنيا بالقلب دون اليد شيخنا شيخ الإسلام زكريا،

وشيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف، وشيخ الإسلام نور الدين الطرابلسي، والشيخ كمال الدين الطويل، والشيخ نور الدين المحلي، والشيخ برهان الدين القلقشندي[1] والشيخ محمد ابن أخت سيدي مدين، وسيدي علي المرصفي، والشيخ أبو الحسن البكري، والشيخ أبو الفضل شيخ بنت بني الوفا ﷺ.

وممن أدركناه متجردًا عن الدنيا ظاهرًا وباطنًا، في مأكله وملبسه ومنكحه ومسكنه:

الشيخ عبد القادر الدشطوطي، والشيخ محمد المنير، والشيخ العدل، والشيخ محمد بن داود[2]، والشيخ أبو بكر الحديدي، والشيخ محمد السروي، والشيخ

---

(1) هو سيدي إبراهيم بن علي بن أحمد، الشيخ الإمام العلامة الهمام، والمحدث الحافظ الرحلة القدوة شيخ الإسلام قاضي القضاة أبو الفتح الجمالي، والبرهاني ابن الشيخ العلامة علاء الدين القلقشندي القاهري، الشافعي أحد أجلاء شيوخ الوالد - رحمهم الله تعالى - أخذ عن جماعة منهم الحافظ ابن حجر، والمسند عز الدين بن الفرات الحنفي وغيرهم، وخرج لنفسه أربعين حديثاً، وقال البدر العلائي: إنه آخر من يروي عن الشهاب الواسطي، وأصحاب الميدومي، والتاج الشرايشي، والتقي الغزنوي، وعائشة الكنانية وغيرهم، وقال الشعراوي: كان عالماً صالحاً زاهداً، قليل اللهو والمزاح، مقبلاً على أعمال الآخرة حتى ربما يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل. انتهت إليه الرئاسة، وعلو السند في الكتب الستة والمسانيد والإقراء. قال: وكان لا يخرج من داره إلا لضرورة شرعية، وليس له تردد إلى أحد من الأكابر، وكان إذا ركب بغلته وتطيلس يصير الناس كلهم ينظرون إليه من شدة الخشوع والهيبة التي عليه، وكانت وفاته بمصر يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة بحصر البول عن إحدى وتسعين سنة بتقديم التاء المثناة فوق. قال العلماء: سواء لا تزيد ولا تنقص يوماً بعد أن ضعف بصره مع سلامة الحواس، وحسن الإسماع، وتوفي فقيراً وصلي عليه بالجامع الأزهر، ودفن بتربة الطويل خارج باب الحديد من صحراء القاهرة. قال الشعراوي: وكأن الشمس كانت في مصر، فغربت- أي عند موته-قال: وكانت جنازته حافلة خاصة بالأمراء والعلماء والصالحين - رحمه الله تعالى. انظر: الكواكب السائرة (66/1)، والطبقات الصغرى (ص29).

(2) هو شهاب الدين بن داود، نزيل المنزلة، العبد الصالح، الصوفي الكامل. كان قوامًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عظيم الهيبة على الحكام، لا يخاف في الله لومه لائم.

وله مكاشفات غريبة وكرامات عجيبة، منها أنه إذا أتاه ضيف وليس عنده شيء يعلق الدست بماء وأرز فقط، فيجده تارة بلبن، وأخرى بمرق ولحم. وكان يملأ الأبريق للأضياف من البئر، سيرجًا وعسلاً. مات سنة إحدى وخمسين وتسعمائة، عن نيف وثمانين سنة. ودفن بزاوية أبيه بالنسيمية. وانظر: الطبقات الشعرانية (126/2)، الكواكب الدرية (758)، جامع الكرامات (43/2).

عبد الحليم بن مصلح، والشيخ علي النبتيتي الضرير، والشيخ علي البحيري[1]، والشيخ محمد بن عنان، والشيخ أبو العباس الغمري، والشيخ يوسف الحريثي، والشيخ أبو الحسن الغمري، والشيخ أمين الدين الإمام بجامعة، وجماعة ذكرناهم في كتاب «الطبقات» فمنهم جمالي، ومنهم جلالي.

وقد يتفرع من الولي شخصان أحدهما مخالف لحال شيخه كسيدي أحمد الزاهد، فإنه خلف بعده سيدي مدين، وسيدي محمد الغمري، فجاء الغمري متجردًا من ملابس الدنيا ومطامعها ومساكنها كشيخه الزاهد، وجاء سيدي مدين على صورة الشيخ عبد القادر الجيلي ونحوه كالسادات من بني الوفا، والشيخ شمس الدين الحنفي الشاذلي، فسلم يا أخي لكل من تراه متجملاً بالثياب مثلاً من الفقراء، وإلا إن خفت على أتباعه أن يتبعوه مع الجهل بمشهده، وحينئذ فلك أن تنهاه عن ذلك خوفًا على تلامذته، أو تأمره أن يقول لهم: لا تقتدوا بي في حسن الملابس والمناكح والمراكب، فإنكم لا تبلغون حالي هذا إن وجد ذلك من مال حلال وإلا فالإنكار على ذلك الشيخ واجب.

---

(1) هو سيدي علي البحيري، قال المناوي: ذو العلم الكثير، والزهد الجم الغفير، والخوف الذي ليس له في عصره نظير، لا يكاد يغيب عنه شيء من أحوال القيامة، وكان كثيرًا ما يقول: فلنسأل الله السلامة، ومنذ نشأ لم يضع له زمان، لا وضع جنبه على الأرض على مد الأوان، ولا ظفر الفراغ منه بأمان.

قال الشيخ الشعراني: صحبته نحو عشرين سنة، وكان جامعًا بين الشريعة والحقيقة، أخذ علم الظاهر عن جماعة، منهم الأُقَيْطِع. وكان أكثر إقامته بالريف، يدور البلاد فيعلم الناس دينهم ويرشدهم، ولا تكاد تراه فارغًا من إجراء القلم. وكان يفتي في الوقائع التي لا نقل فيها بأجوبة حسنة، فيعجب منها علماء مصر. وكان يهضم نفسه، وإذا زاره عالم فقير يوبخ نفسه ويبكي ويقول: يزورك مثل فلان؟ فضيحتك بين يدي الله تعالى يوم القيامة. وكان إذا سأل الدعاء يقول: كلنا نستغفر الله ثم يدعو.

وكان يلام على كثرة البكاء فيقول: وهل خلقت النار إلا لمثلي. وكان إذا مرّ بأطفال غبطهم، وسلم عليهم.

ويحكى عن شيخه علي النبتيتي أنه كان يبكي الليل حتى يصير كالطير المذبوح، ويقول: يا نفس توبي قبل أن تموتي. قال صاحبنا زين الدين العلاف: إنه جلس عنده مدة، فطأطأ رأسه، وتمرّغ على التراب.. وقال: استغفر الله.. وكرر ذلك، وبكى فسئل عن ذلك فقال: حكت رأسي في ساق العرش في هذا الوقت. مات سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة، ودفن بزاوية المنير. انظر: الكواكب الدرية (801)، والطبقات الكبرى (402/1).

فاعرض يا أخي ما قررته لك على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة دعائهم للسلطان ونوابه من وزير وقاضٍ وباشا وكاشف وشيخ عرب ونحوهم، وعدم سبهم إلا بطريق شرعي، إذ الدعاء للسلطان ونوابه إنما هو دعاء في الحقيقة لعامة المسلمين، وقد كان الفضيل بن عياض - رحمه الله - يقول: لو أن لي دعوة مجابة لما جعلتها إلا للإمام العادل؛ لأني لو جعلتها لنفسي لكان نفعها لا يتجاوزني إلى غيري، بخلاف السلطان الذي به صلاح العباد والبلاد، وكان يقول: النظر إلى وجه العالم الإمام العادل عبادة.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: لولا السلطان ما صلح الناس.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: من أدبنا مع السلطان إذا رأينا ظلمًا وقع من جنده مثلاً أن نحمله على عدم علمه بذلك، ولا يكلف الله تعالى عبدًا بشيء لم يعلمه.

هذا ما علينا من حقه، وإن كان يجب عليه هو أن يبحث عن أحوال رعيته ليلاً ونهارًا.

وكان يقول أيضًا: أدبنا مع السلطان إنما هو في الحقيقة أدب مع الله الذي ولاه.

وروى البخاري مرفوعًا: **«السلطان ظل الله ورمحه في الأرض يأوي إليه الضعيف، وبه ينتصر المظلوم»**[1] انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إياكم أن تسبوا السلطان، وتنسوا اعوجاجكم في الأعمال والأقوال من زنًا، ولواط، وشرب خمر، وتعاون في الناس عند الظلمة، وغيبتكم للعلماء والصالحين وعامة المسلمين، فإن ذلك لا يزيدكم إلا ظلمًا وجورًا عقوبة لكم، فاستقيموا في أعمالكم يستقم لكم عمالكم، ويرفع الله عنكم هذا الذي يسمونه ظلمًا.

قال: ولا يحصل لكم الاستقامة إلا إذا تبتم من سائر الأعمال، التي تغضب الله تعالى، وتبرز من جوارحكم الظاهرة والباطنة، ومادام لكم سريرة قبيحة تفتضحون بها لو ظهرت للناس فأنتم مستحقون لجور الحكام عليكم، انتهى.

وكان يقول: جوارحكم رعيتكم، وقد ظلمتموها بالمعاصي فلم لا تدعون على

---

(1) رواه البيهقي في الكبرى (162/8، رقم16427)، وفي شعب الإيمان (18/6، رقم7375).

أنفسكم وتسبونها، كما تسبون الظلمة؟ وكل حديث ورد في ذم الظلم والجور فالعبد داخل فيه إذا وقع في ذنب واحد طول عمره، وفي الحديث الصحيح: «**كلكم راع ومسئول عن رعيته**»[1] فمن غش جارحة من جوارحه بوقوعها في معصية لم يرح رائحة الجنة كما لا يجدها من غش رعيته من الملوك.

فاعرض يا أخي ما قررته على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل المقامات الشريفة، بحيث يصير أحدهم يشرف البقاع التي يدخلها ولا يتشرف هو بالبقاع، فإن الإنسان الكامل أفضل من بقعة الكعبة فضلاً عن غيرها، ماعدا البقعة التي ضمت جسمه ﷺ فلا يدخل الولي بقعة من مسجد أو بستان مباح أو دار إلا وتناديه بقاع ذلك المكان كلها: بالله عليك صل فيّ ركعتين أو اجلس فيّ ساعة. وتناديه الأشجار: بالله عليك أكرمنا بالأكل منا، وهذا أمر مطروق بين الفقراء الصادقين، وقد ورد ما يؤيد ذلك في الأحاديث وهو أن البقاع تفاخر على بعضها بعضًا وتقول: هل مر بك اليوم ذاكر الله ﷻ كما مر بي.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله - يقول: ما دخلت قط بستانًا مباحًا للفقراء، إلا وتناديني أشجاره، وما فيه من الحشيش وتخبرني بما أودع الله تعالى فيها من المنافع والمضار.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ليس الرجل من يتشرف بطوافه بالكعبة وتقبيلها، وإنما الرجل من تتشرف به الكعبة، فقلت له: كيف ذلك؟

فقال: لأن الله تعالى ما أمر عباده بالطواف بها وتقبيل أحجارها إلا امتحانًا لهم لينظر كيف يفعلون؟ هل يقفون مع كمالهم الذي خلقهم الله تعالى عليه من الصورة الآدمية فلا يجيبون الحق تعالى إلى ما دعاهم إليه كما وقع لإبليس في قصة سجوده لآدم أم يمتثلون أمره تعالى؟ ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب لما قبّل الحجر الأسود: أما إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك، ونظير ذلك أمر الحق - جل وتعالى - الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، ولعنه

---

(1) رواه أحمد (5/2، رقم4495)، والبخاري (848/2، رقم2278)، ومسلم (1459/3، رقم1829)، وأبو داود (130/3، رقم2928)، والترمذي (208/4، 1705).

من لم يسجد، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:12]، فإن ذلك إنما كان جبرًا لما أحدث الدعوى من كمال الملائكة حين ذكرت نفسها وجرحت صفوة الله من الخلق.

ومن هنا قال الشيخ أبو مدين ﷺ: كان الأمر بسجود الملائكة لآدم عن إغضاب خفي لا يشعر به كل أحد فكان كالكفارة لما وقعوا فيه من تزكية نفوسهم وتجريحهم لآدم.

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لو أن الملائكة زكت أنفسها فقط ولم تتعرض لتجريح آدم لما عوقبت بالسجود لغير الله بإرادة الله، انتهى.

ومن هذا الباب أيضًا أمر الحق لنا بالطواف بالكعبة، ولم يخص بذلك أحدًا دون أحد، بل أمر تعالى بذلك نبيه تشريعًا لأمته وأنشدوا في ذلك:

لقد طاف خير الخلق بالكعبة التي يقول دليل العقل فيها بنقصان
وقبل أحجارًا لها وهو طائف وأين مقام البيت من قدر إنسان

فما قصد ﷺ بالطواف بالكعبة، إلا طاعة ربه وفتح باب هضم النفس للمتكبرين من أمته فإذا أمرهم السيد أن يقبِّلوا نعل أحد من خدامهم بادروا إلى امتثال أمره بانشراح صدر.

وعلم مما قررناه أنه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار على فقير رأيناه يصلي في النصف الآخر دون الأول، أو يأكل من شجرة أخرى دون التي قال له صاحب البستان كل من هذه، فربما كانت تلك البقعة أو الشجرة المباحة أقسمت على ذلك الفقير بأن يصلي فيها أو يجلس أو يأكل منها فلا يسعه إلا أن يبر قسمها.

وقد دخلت مرة مدرسة المزهرية بسويقة اللبن بمصر المحروسة لأصلي بها الظهر فنادتني بقاعها في سري، كما ينادي الكريم ضيفه ليأكل من طعامه وما رأيت أكرم نفسًا، وما أطيب قلبًا من البقعة التي على يمين الداخل من الباب الكبير منها، وهي السدلة الصغيرة المطلة على الشارع فما قدرت أتخلص منها للصف الأول، ولكن بحمد الله جاء الإمام إليها فصلى بنا فيها، وترك المحراب لمكان صدق تلك البقعة في العزومة فصرت أنا في الصف الأول ولم يفتني الوقوف فيه، وهذه الأمور لا يدركه إلا من كشف الله تعالى حجابه، ورأى حياة جميع الموجودات، وهو مقام يصله السالك أوائل دخوله في الطريق، فيصير يعامل الجماد معاملة ذي الروح، ويسمع أنين الإبريق مثلاً إذا صدم الحائط.

وذكر الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ: أن شخصًا عزم على بعض الفقراء في وليمة بمصر العتيقة، فأسقاهم في إناء من زجاج ثم بعد مدة احتاج إلى البول فيه فناداه الإناء بلسان فصيح: بالله عليك لا تنجسني بالبول بعد أن أكرمني الله تعالى بشرب الفقراء مني لما دعوتهم في وليمتك قال: فاستحى الرجل وترك البول فيه، انتهى.

وكذلك بلغنا عن الشيخ أبي العباس الحرار[1] المدفون بقرافة مصر ﷺ أنه كان في تربة فأخذ حجرًا يريد الاستنجاء به فناداه: بالله عليك لا تنجسني ثم أخذ حجرًا آخر فقال له: كذلك، ثم أخذ الثالث فقال له كذلك، فتحير فقيل له: استأذن الشارع واستعمله وقدم أمر ربك على غرض الحجر ففعل، فاعمل يا أخي على رقة الحجاب

---

(1) أبو العباس الحرار بمهملات المغربي الأشبيلي. عابدٌ موارده صافية، زاهدٌ في الدنيا بالجملة الكافية، تاركٌ لما في أيدي الناس، مستضيءٌ من أنوار المعرفة بأنوار مقباس، ذو كراماتٍ كثيرة ووقائع شهيرة، وكان كثير السياحة. وقال: وردت من سياحتي على الشيخ أبي العباس المرسي. وكان كبير القدر، فحين قعدت قال له رجل: أيهما أفضل، العقل أم الرُّوح؟ فشاهدت الشيخ أسرى بروحه وروحي معه، حتى دخلنا السماء الدنيا، فانشغلت برؤية أملاكها وأنوارها، وغاب الشيخ عني، فطلبت مستقرًا استقر فيه فلم أجد، فنزلت ووقف، ونظرت إلى الشيخ فإذا هو مستغرق، ثم بعد لحظة حضر فقال للسائل: حين أسري بالمصطفى صحبه جبريل، فانتهى إلى حده، ووقف وقال: ما منا إلا له مقام معلوم، فتقدم المصطفى إلى مقامه، فكان جبريل روحًا، ومحمدٌ عقلاً.

فأخذ العلم من معدنه، ولم يأخذه تقليدًا ولا معقولاً، وهذه عادة أرباب المعارف والعلوم اللدنية.

وقال: كنت وقت تجردي بمصر أتردد إلى مسجد قبلة مصنع الحفارين بطريق لقرافة أبيت فيه، وكنت أخرج ليلاً أمشي في الجبانة، فكُشف لي أحوال أهل القبورالمُنعمين والمُعذبين، فما رأيت أحسن من الجهة التي تلي قبلة مسجد الفتح، ولذلك دفن فيه. وقال: مرضت مرة ببلدي أشبيلية، فكنت مضطجعًا على ظهري، وإذا بطيور كبار ملونة بأخضر وأبيض وأحمر، ترفع أجنحتها رفعةً واحدة وتضعها وضعًا واحدًا، وأشخاصًا على أيديهم أطابق فيها تحف، فوقع لي أنها تحفة الموت، فاستقبلتها، وتشهدت، فقال لي أحدهم: ما جاء وقتك، هذه تحفة مؤمن غيرك جاء وقته. وقال: كنت في سياحتي احتاج للاستنجاء، فأخذت حجرًا لأستنجي به، فقال: سألتك بالله لا تنجسني فتركته وأخذت غيره، فقال كذاك، فتذكرت ما رتبه الشارع في ذلك، فأخذت حجرًا وقلت: أمرني الله أن أتطهر بك، وهو خيرٌ لك. وقال: تركت أخي بمكة، وقدمت مصر، ثم قدم، ففرحت به، فقال: أنا جائع فقلت: ما أملك شيئًا، ولا أتكلف ولا أسأل. فما أتممت كلامي، حتى دخل من الشباك طائر، وألقى لي قيراطًا، فاشتريت له به ما أكله.

انظر: روض الرياحين (ص 474)، الكواكب السيارة (151).

حتى تصل إلى هذا المقام، واعرض على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مراعاة خاطر شيخهم، وإيثار مراعاته على أعز أصحابهم، وذلك ليترقى أحدهم في المقامات على يد شيخه، حتى يتأهل لمعاملة ربه ﷻ بلا واسطة، فإن الشيخ سلم للرقي، فمن لم يصح له قدم في الأدب مع شيخه، فلا يصح له ترق إلى الأدب مع الله ﷻ.

وهذا الخلق ربما يدَّعيه بعض المريدين وهو كاذب فيه من حيث لا يشعر، فليمتحن نفسه بما لو منعه شيخه وظيفة أو خلوة أو مسكنًا كان بالأشواق إلى وصوله إليه، وأعطاه لشخص من أعداء ذلك المريد، فإن انشرح لذلك ورضِي به من غير حزازة في نفسه، فهو صادق وإلا فهو كاذب، إذ لو كان صادقًا لقدم مرضاة شيخه، وترقى من ذلك إلى تقديم مرضاة ربه على مرضاة خلقه.

وكذلك يمتحن نفسه بغضب شيخه على شخص من قرابته هو، أو من أصدقائه ممن ينصره ويخاصم معه الأعداء، ويجيب عنه إذا تكلم أحد في عرضه من ورائه، فإن رأى نفسه صارت تكره ذلك القريب أو ذلك الصديق ظاهرًا وباطنًا، لأجل عرض شيخه فهو صادق، وإلا فهو كاذب وسيأتي أنه ورد في الحديث: أن شخصًا يؤتى به يوم القيامة ومعه أعمال كالجبال فيؤمر به إلى النار، فتقول الملائكة: يا ربنا قد كان من عمله كذا وكذا من صلاة وصيام وحج وصدقة، وغير ذلك، فيقول الله تعالى: قد كان من عمله ذلك، ولكنه كان لا يوالي من والاني ولا يعادي من عاداني انتهى.

وكذلك سيأتي أن شخصًا من علماء بني إسرائيل كان يعظ الناس، فبينما المجلس غاص بأهله، إذ غمز ولده امرأة أجنبية، فالتفت الواعظ إليه وقال: مهلاً يا ولدي ما هكذا الأدب، فأرسل الله تعالى ملكًا فحمل الكرسي بالواعظ وقلبه، فقطع وجه الواعظ، وأوحى إلى نبي ذلك الزمان: أما كان من غيرة فلان لي أن يقول: مهلا يا ولدي من غير إظهار غضب عليه، انتهى. أي: فلو أن الواعظ كان عنده غيرة للحق لضرب وجه ولده بالفعل حتى قطعه كما فعل الملك حين ألقاه بالكرسي.

فاعلم ذلك واعمل به إن أردت الترقي في المقامات إلى حضرة الله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة محبتهم للأعمال الصالحة محبتهم لأن يضاف إلى غيرهم عكس المرائين، فإذا ألَّف أحدهم كتابًا وفتح الله تعالى عليه فيه بعلوم ومعارف أضافها

لغيره ممن هو أهل لذلك، وإذ أخذ أحد منهم صدقة ليفرقها على الفقراء والمساكين خلط عليها من ماله ما وجد بحيث لا يشعر به أحد، وإذا عمَّر ضريح شخص من الصالحين بعده ونورَّه، ومدحه الناس على ذلك، حتى وصل الأمر إلى الباشا مثلاً يود أنه لو كان نسب إلى غيره من أقرانه. وإذا سمع الناس يقولون عنه أنه ما عمر هذا الضريح إلا ليقال عنه أنه من الصالحين، وأنه من الخرقة ولم يعمره لله تعالى يفرح بذلك.

وقد جاء فقير يعمِّر ضريح سيدي خضر الكردي شيخ الملك الظاهر أبا الفتوحات بعد دثوره نحو ثلاثين سنة، فاشتهر في مصر أن فلانًا عمَّر ضريح فلان، فجاء فقير آخر ليساعد ذلك الفقير في العمارة، فبلغ الباشا أن ما عمَّر ضريح الشيخ الفلاني إلا ذلك الفقير الثاني فقصد الباشا زيارة ضريح ذلك الشيخ، وشكر الفقير الثاني دون الأول، فلا تسأل يا أخي ما وقع من الفقير الأول في حق الثاني، فليحذر الفقير من مثل ذلك ويحرر نيته الصالحة في كل عمل يمدح عليه وينتشر عنه في البلد.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ما دثر ضريح ولي قط وخرب وبطل مولده إلا باختياره للخفاء على الظهور، فليتنبه الفقير الذي يعمره لمثل ذلك، وينظر من طريق كشفه، فإن رأى خاطره يحب الظهور عمَّره، وإلا تركه داثرًا لا يزوره أحد تقديمًا لمرضاة ذلك الشيخ على مرضاته هو، وربما كانت العمارة من المال حرام، أو شبهة، أو من أهوية النفس، فيؤذي نفسه من وجهين: وجه مخالفة غرض ذلك الولي، ووجه مشيه هو في هوى نفسه. وقد كان شيخي الشيخ أحمد البهلول[1] يحب

---

(1) كان له كرامات وأحوال دلت على هديته، وأذنت بإنارة الكوكب الدري الذي من ولايته. وكان يقعد في حانوت بباب الحزق، وله ابنتان جالستان عنده طول النهار، وأقرأهما القرآن، وحفَّظ واحدة كتابًا في فقه المالكية، والأخرى كتابًا في فقه الشافعية. قال الشيخ الشعراني: الغائب وقبله المنهاج، فقال: ما معك دستور، تحفظ شيئًا من الروض يكفيك المنهاج، فإن صاحبه من الأولياء. فمن ذلك اليوم ما أمكن أن أحفظ شيئًا من الروض، وهذا من كراماته. ومنها أيضًا أنه قال له: تزوجت؟ فقال: لا، ما معي شيء. فقال له: زوجتك زينب بنت خليل القصبي، وأفرضت عنك المهر ثلاثين دينارًا، فقل قبلت. فقال: قبلت. وقال: عجل بالحلو، ولعلي آكل منه.. فإن موتي قرب. فجاءه خليل بلا سبب، وزوجه بلا طلب، وقال: اجعل المهر ثلاثين دينارًا، وأشهد على نفسه أنه قبضها، فعمل الوليمة ثاني يوم، وأرسل للشيخ من الحلو، ثم ذهب إليه فوجده مريضًا فقال: ما زوجتها حتى أطلعني الله على مدة إقامتها معك، ولم أعرفها. ثم مات بعد ستة أيام. مات في حدود العشرين وتسعمائة، ودفن بباب القرافة، من ناحية عرب اليسار، في وسط
=

الخفاء حتى أنه أوصى بأنه لا يجعل على قبره علامة وقال: ادفنوني خارج باب القرافة في الفسحة التي على يسار الخارج من الرميلة لباب القرافة في حارة عرب اليسار.

فقلت له: إن النبي ﷺ أمر بجعل العلامة على رأس القبر وقال: أتعلم بها قبر أخي - يعني عثمان بن مظعون - وأدفن إليه من مات من أهلي.

فقال: إني ما كرهت الظهور إلا من جهة دق الناس تابوت ذلك الفقير الذي يرون عليه سترًا وتحميله حملاتهم، ولم يكن هذا المعنى في عصر رسول ﷺ ولا عصر الصحابة لقوة الإيمان في ذلك الزمان، وأما الآن فقد أفلس غالبهم من كمال الإيمان وكثرت معاصيهم، فألقوا حملاتهم على كل من ظنوا فيه الصلاح، فربما دقوا تابوت أحد في قضاء حاجة، فقضيت موافقة قدر أو دقوه على عزل ظالم، فعزل أو مات.

فصار الناس يقولون: الشيخ الفلاني سره ظاهر، فيكثروا من دق تابوته، لا يتركونه يتهنى في قبره، فاعلم ذلك واعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الثقة بأصدقائهم في كل زمان، فكيف بمن يصحبهم على نفاق وملق فلا يظهرون سرهم لأحد إلا إن علموا من طريق كشفهم أن ذلك الصديق يكتم ما أودعوه عنده من السر بطريقة الشرعي شفقة عليه أن ينقص دينه بإفشائه. وقد كان سفيان الثوري ؓ يقول: والله ما آمن على نفسي في هذا الزمان إذا خالفت غرض أعز أصدقائي فكيف آمن غير الصديق؟ وفي رواية أخرى: ما آمن صديقي على نفسي إذا خالفت أغراضه أن يسعى في سفك دمي عند سلطان جائر فكيف آمن عدوي؟ انتهى.

وهذا بابٌ أغفله كثير من الناس فأفشوا أسرارهم إلى من ظنوا فيه الصداقة، وفي لمح البصر صار عدوًا وأذاهم كل الأذى، فيحتاج الفقير في هذا الزمان إلى صبر شديد على كتمانه أسرار الله تعالى في العالم كما أشار إليه الإمام زين العابدين بقوله:

يَا رُبَّ جوهرَ علمٍ لو أبوحُ لَهُ ... لقيلَ لي: أنتَ ممن يعبُدُ الوثنا

ولاستحلَّ رجالٌ مسلمونَ دمِي ... يرون أقبحَ ما يأتُونَهُ حَسَنا

-

الشارع، بوصية منه، وأوصى على ألا يجعل على قبره علامة، لمحبته للخفاء على الظهور. انظر: الطبقات الشعرانية (2/145)، الكواكب الدرية (747)، الكواكب السائرة (1/155).

وقد طلب الشيخ شمس الدين البوصيري[1] أحد أصحاب سيدي أبو السعود - رحمه الله - أن يطلعه الشيخ على شيء من أسرار الطريق، فقال له الشيخ أبو السعود[2]:

---

(1) هو سيدي محمد بن جامع بن إبراهيم بن أحمد الشمس البوصيري ثم القاهري الشافعي وسمي شيخنا في إنبائه والده إبراهيم. اشتغل بالفقه والعربية وغيرهما وسمع على التقي بن حاتم جزء أبي علي الصفار وعلى المعين عبد الله بن محمد بن علي قيم الكاملية ثلاثة مجالس ابن عبد كويه وعلي المطرز والمجد إسماعيل الحنفي من لفظ الجمال الرشيدي السنن لأبي داود وعلى الزين العراقي في آخرين وحج وجاور بمكة وسمع بها على الجمال الأميوطي مسند ابن أبي أوفى لابن صاعد وعلى العفيف النشاوري أجزاءً من الثقفيات في آخرين، وحدث ودرس وأفاد وانتفع به الفضلاء، وكان مذكوراً بالولاية واستفيض رؤية بعضهم للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول من قرأ عليه دخل الجنة فسارع الأماثل ممن لم يكن قرأ عليه لذلك، وممن أخذ عنه الوالد وعرض عليه محافيظه بل سافر معه إلى مكة في سنة اثنتين وعشرين وما لقيت أحداً إلا ويذكر عنه أحوالاً وكرامات. وقال لي العز الحنبل: كنت أقرأ عليه ابن المصنف فيقرره أحسن تقرير وهو نائم أو نحو هذا؛ ذكره شيخنا في إنبائه فقال: كان خيراً ديناً كثير النفع للطلبة يحج كثيراً ويقصد الأغنياء لنفع الفقراء وربما استدان للفقراء على ذمته ويوفي الله عز وجل، وكانت له عبادة وتؤثر عنه كرامات. مات في سادس ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وثمانمائة رحمه الله ونفعنا به. [الضوء اللامع - (498/3)].

(2) هو سيدي أبي السعود الجارحي عارف علومه جمة، وصوفي ذو أحوال وكرامات مشهورة بين الأمة، قدوة في علمه ودينه، فريد في عصره وحينه. أخذ عن الشيخ أحمد المرحومي، عن الشيخ مدين، عن الزاهد، وجد واجتهد، وترقى في المقامات حتى ارتقت روحه، وسمت عن مقعر فلك القمر، وارتفع إلى الحضرة التي لا ليل فيها ولا نهار، وضوءها وضاح كحال أهل الجنة في الجنة، ولما دخلها، صار يكتب الكراريس العديدة حال ظلمة الليل كما يكتب نهارًا بغير فرق.
وكان له قبول تام عند الأكابر، تقف الأمراء بين يديه، فلا يأذن لهم بالقعود، وحملوا في عمارة زاويته، الحجر والتراب. وكان كثير المجاهدة، مكث نحو عشرين سنة صائمًا، وانتهى أكله إلى لوزة، ثم تركها، وذلك قبل اجتماعه بالمرحومي، فلما اجتمع به لقنه، وأخلاه في بيته سنة، في غرفة من كوم الجارح ثم خرج، فأظهر العجائب، وكان لا يلقن أحدًا الذكر ولا يقربه حتى يمتحنه سنين، ولا يأخذ العهد على من تتلمذ لفقراء الأحمدية والبرهانية ونحوهم ويقول: نسبتك إلى طريق الفقراء لبس الزي، ثم يقول: الحكم للداعي الأول، ومن دَوْغة هؤلاء الفقراء القانعون بالزي، لا يفلح في طريق الصوفية أبدا لقصور همته. وكان يقول: ينبغي للعارف أن يجعل في بيته دائمًا شيئًا من الدنيا - ولو كيمياء- خوفًا أن يقع في رائحة الاتهام لله في أمر الرزق. وكثيرًا ما كان ينظر للمريد بحال، فيتمزق لوقته. سأله أجل جماعته البوصيري أن يسمعه شيئًا من علوم الأسرار فقال: لا أئتمنك على ريح أخرجه وأنت حاضر، فكيف بسر الله؟.
وكان يتكلم على الخواطر، وكان إن توسم من تلميذه محبة المشيخة؛ نفَّره عنها بحيلة، وكان يقول: طول الشَّعر في النوم للفقير زيادة دين، وللغني غم وهم.

والله ما آمنك على إخراج ريح بحضرتك فكيف أطلعك على الأسرار الإلهية؟ انتهى.

وكذلك بلغنا أن جماعة طلبوا من سيدي الشيخ أبي عبد الله القرشي أن يطلعهم على شيء من الأسرار، فقال لهم: كم أصحابي اليوم، فقالوا: ستمائة رجل، فقال: اختاروا منهم مائة فاختاروا، ثم قال: اختاروا من المائة عشرين فاختاروا، ثم قال: اختاروا من العشرين أربعة فاختاروا، فقال: لو تكلمت لكم بشيء من الأسرار كان أول من يفتي بضرب عنقي هؤلاء الأربعة؛ أي: غيرة لظاهر الشريعة، فاعلم ذلك يا أخي واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم كثرة امتحانهم لأصحابهم إلا لغرض شرعي خوفًا أن يفضحوهم وقد قيل لاسكندر - رحمه الله -: لم لا تمتحن أصحابك؟ فقال: إذن نخرج كلنا نحاسًا، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إياكم وكثرة الامتحان لأصحابكم، فإن الله تعالى لم يمتحن من عباده إلا النادر؛ خوفًا أن يفضحهم بين يديه بإظهار ما كان كامنًا عندهم.

قال: ومن تأمل نفسه بعين الإنصاف وجد نفسه كلها عيوب ضم بعضها إلى بعض فصارت صورة تشبه صورة الآدمي، فالعبد وإن كان خيارًا من جهة، فهو شر من جهات عديدة.

وكان ﷺ يقول لنا كثيرًا: إن كان ولا بدّ لكم من امتحان أصحابكم، فامتحنوا نفوسكم في دعاويها الكاذبة، فإن لكم فيه لشغلاً، وقد أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: يا داود إذا اطلعت على عيب أحد من بني إسرائيل، فاستح من اطلاعك، فإني أستحي من

وقال: من كان يوفي بالعهود فلا يستطب باليهود، فإياك أن تستطب بكافر، فتقع في الميل إليه قهرا.

وقال: إذا ذكرت اسم ربك فلا تنطق به إلا مع تعظيم وخشية، فقد كان رجل يطير في الهواء ويمشي على الماء، فعاد مريضًا فقال: قل يا لطيف، فسلب، فلم يعرف كيف أتى، فقال له بعض أهل الكشف: لكونك نطقت باسمه اللطيف وأنت غافل عن التعظيم. وكان له شطح هائل، وكان كثير العطب، فكان عطبه يحميه. ولما احتضر، أشهد عليه قاضي القضاة الحنفي وغيره أنه لم يأذن لأحد في السلوك، وتبرأ من جماعته. مات سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة. انظر: الطبقات الشعرانية (129/2) جامع الكرامات (274/1)، الكواكب الدرية (757)، الكواكب السائرة (47/1).

عبدي أن يشهدني في حال عصيانه لئلا يخجل مني، فلذلك ضربت الحجاب بيني وبينه حال المعصية، حتى يفرغ منها، انتهى والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم ظنهم في أحد من المسلمين بسوء ما حق من قول أحدهم: إنما امتنعت من التقدم لصلاة الجنازة مراعاة لخاطر فلان خوفًا أن يتكدر في نفسه، فإنه جعله ممن يحب الرئاسة فليمتنع أحدهم من التقدم أدبًا مع أخيه، لا لظنه فيه أنه يحب الرئاسة.

وقد وقع لي أنني حضرت جنازة الشيخ محب الدين بن الدهانة الحنفي في جامع الأزهر، فكان هناك شخص من العلماء، فوق عند النعش لظنه أنهم لا يقدمون أحدًا عليه.

فقال أولاد الشيخ: إنه أوصى بأنه لا يصلي عليه إلا عبد الوهاب، فكاد ذلك العالم أن يتميز من الغيظ حتى أدرك ذلك منه الحاضرون، فكذبتهم صيانة للخرقة عن أن يكون أحد بها، فإياك يا أخي وسوء الظن، ثم إياك وكذب ظنك السوء في الناس ما استطعت، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تمكينهم أحدًا أن يقوم لهم، أو يقبل يدهم فضلاً عن رجلهم، وكراهتهم لذلك؛ لأن عيوبهم مشهودة لهم مع تجدد الساعات، فإذا قبّل أحد يدهم يكادون يذوبون من شدة الحياء من الله ﷻ.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يزجر من يريد تقبيل يده أشد الزجر ويقول: إنما يليق ذلك لأرباب المناصب أما الفقير فاللائق به الذي حتى يجاوز الصراط، ويدخل الجنة هذا ما عليه جمهور العارفين، وقد خالف قوم منهم أبو يزيد، وكان لا يمنع أحدًا منهم من تقبيل يده ولا من التمسح بمرقعته، ويقول: إنما يعظم هؤلاء خلعة ربي التي خلعها عليّ لا أنا، انتهى.

وكان سيدي علي بن وفا[1] - قدس سره - يقول: من صار في رتبة الحجر الأسود

---

(1) هو سيدي على بن محمد وفا السكندري الأصل. الشاذلي المالكي الصوفي، الذي اشتهر قدره، وعلا على الجوزاء شرفًا، وعظ وذكر وهو خالي الوجنة من النبات، وحيّر العقول بما له من الإقدام والثبات، واجتهد ودأب، وتمسك بعُرى الفضل والأدب، ونظم ونثر، ووعظ وكتب.
كان مولده سنة تسع وخمسين وسبعمائة بالقاهرة، ومات أبوه وهو طفل، فنشأ هو وأخوه أحمد وفي كفالة وصيهما الزيلعي. فلما بلغ صاحب الترجمة تسع عشرة سنة جلس مكان أبيه، وعمل الميعاد، وشاع ذكره، وبَعُد صيته، وانتشر أتباعه وذكر بمزيد اليقظة وجودة الذهن، والترقي في

في كتمان أسرار العباد، والصبر على تقبيله ومسحه بغير صدق مع علمه بذلك منهم،

الأدب والوعظ، ومعرفة تقرير كلام أهل الطريق.
قال ابن حجر في «إنباء الغمر»: كان يقظًا حاد الذهن، وكثر أتباعه جدًا، وأحدث ذكرًا بألحانٍ وأوزان يجمع الناس عليه، وله اقتدار على جلب الخلق، ومعه خفّةٌ ظاهرة، اجتمعت به في دعوة، فأنكر على أصحابه إيماءهم عن جهة السجود، فتلا هو - وهو يدور في وسط السماع - ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115] فناداه من حضر من الطلبة: كفرت. فترك المجلس وخرج بأصحابه.
وله تصانيف منها: «الباعث على الخلاص في أحوال الخواص» و«الكوثر المترع من الأبحر الأربع» وديوان شعر، وموشحات كثيرة، والمسامع والوصايا وشرح حديث أم زرع (بتحقيقنا).
وقال في معجمه: اشتغل بالآداب والعلوم، وتجرد مدة وانقطع ثم تكلّم على الناس، ورتب لأصحابه أذكارًا بتلاحين مطبوعة، استمال بها قلوب العوام، ونظم ونثر، وصحبه يتغالون في محبته، ويفرطون في ذلك انتهى.
قال المقريزي: كان جميل الطريقة، مهاباً، معظمًا، صاحب كلام بعيد، ونظمٍ جيد سريع، وتعدد أتباعه، وداتوا بحبه، واعتقدوا أن رؤيته عبادة، وتبعوه في أقواله وأفعاله، وبالغوا في ذلك مبالغة مفرطة، وسموا ميعاده "المشهد"، وبذلوا له رغائب أموالهم، هذا مع تحجبه وتحجب أخيه أحمد التحجب الكثير إلا عند عمل الميعاد، أو البروز لقبر أبيهم، وتنقلهم في الأماكن بحيث نالا من الحظ ما لم يرتق إليه من هو في طريقهم، حتى مات بمنزله بالروضة في الحجة سنة سبع وثمانمائة، ودفن عند أبيه. قال: ولم أر قط جنازة عليها من الخفر كجنازته، وأصحابه أمامه يذكرون بطريقة تلين لها قلوب الجفاة. وقال غيره: كان مستحضرًا لجمل من التفسير، وله تفسير ونظمٌ جم، وديوانه متداول بالأيدي، وجيد شعره أكثر من رديئه، وأما نظمه في التلاحين والخفائف، وتركيزه للأنعام، فغاية لا تدرك، وتلامذته يتغالون فيه إلى حد يفوق الوصف انتهى.
وقال بعض من صنف في الطبقات: كان فقيهًا عارفًا بفنون من العلم، بارعًا في التصوف، حسن الكلام فيه على طريقة ابن عربي وابن الفارض.
من كلامه: اسمع: العارف عين معروفه، والمحقق حقيقة ما حققه، وعلى قدر شهود الكمال والتكميل تكون محبة الشاهد لمشهوده، وعلى قدر صدق المحبة يكون تحقيق المحب بمحبوبه، وعلى قدر التحقق يكون ظهور المتحقق بحكم ما تحقق به عينًا وأثرًا، ولكل مقامٍ مقال، ولكل مجالٍ رجال، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:11]، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: 54].

وهو هو بما هو هو، سيدي وربي، وهو مولاي وحسبي، ليس إلا هو يا مولاي يا واحد، يا مولاي يا دائم، يا علي يا حكيم. وانظر: المنح الإلهية (بتحقيقنا)، وطبقات الشاذلية (105)، طبقات الشيخ الشعراني (22/2)، ذيل الدرر الكامنة (159)، إنباء الغمر (253/5)، حسن المحاضرة (528/1)، والكواكب الدرية (710).

ثم يكتمه عليهم، فله أن يمكن الناس من تقبيل يده، وإلا فمنعهم من ذلك واجب؛ لعدم أهليته لذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تنفيرهم للإخوان عن أن يرسلوا إليهم طعامًا أو هدية إلا بعد استئذانهم في ذلك، فإنه ما كل طعام يصلح للفقراء أكله، لاسيما أواخر أعمارهم، ولا يقال إن إرسال الناس الطعام من حيث لا يحتسب الإنسان أكله أولى؛ لأن ذلك محله ما إذا كان صاحبه متورعًا عن الحرام والشبهات بقرينة قواعد الشريعة، فافهم وإياك والمبادرة إلى الاعتراض على من يرد ما جاءه من غير سؤال.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بالعمل بهذا الخلق، حتى أنني أتشوش ممن يرسل إلي هدية بغير إذني، ولو لم تستشرف نفسي لذلك، وأعلمت الإخوان أن في أكلي من طعامهم عدة مفاسد منها خراب قلبي إذا أكلت طعامهم، فلا يصح لي بعد ذلك توجه إلى الله تعالى في قضاء حوائجهم إذ الغالب على كسبهم الغش والخوف، والبيع على الظلمة من المكاسين وأكلة الربا ونحو ذلك، وإذا أكلت من طعامهم صرت في ضعف التوجه إلى الله تعالى كأحدهم، فطلبت لي أنا الآخر أحدًا يتوجه إلى الله في قضاء حاجتي، إذ صدق التوجه إلى الله تعالى راجع إلى قوة الحال في اللقمة والخلقة، ومنها أن قبولي إحسانًا من هداياهم يحدث عند أحدهم إذلالاً عليَّ بعد ذلك، فلا يصير يخاف من مخالفتي فيما أنصحه لأجله، فيقل نفع الصحبة بيني وبينه وغير ذلك مما ذكرناه في «المنن الكبرى»، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة مسامحتهم بحقوقهم إذا أخل بها الناس، وعدم مسامحتهم لأصحابهم إذا أخلوا بحقوق الناس الأجانب، ولكن لا يبالغون في معاتبتهم؛ لأن كثرة المعاتبة تورث إسقاط حرمة العاتب ونزع وده من القلب، وإنما كانوا يسامحون الإخوان وغيرهم بالإخلال بحقوقهم؛ لأنهم لا يرون لأنفسهم مقامًا يخافون من نقص بين الناس، فلو ذمهم الناس إلى الطرف الأقصى، فذلك عندهم دون ما يعلمونه من نفوسهم.

وقد كان عطاء السلمي يقول إذا خالفه عبده، ما أشبه حالك معي بحالي مع ربي ﷻ فعلم أن كل فقير تكدر من كلام قيل فيه، فهو صاحب دعوته ليس له في مقام الصادقين نصيب إلا أن يكون لغرض صحيح كما مر، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم اغترارهم بالمرائي الحسنة التي يراها الناس لهم؛ لأنها تؤذن بضعف إيمان من رؤيت له، ولو أنه كان قوي الإيمان عادة لما احتاج إلى شيء يقويه،

ولذلك كان المريدون يرون لأنفسهم المرائي الحسنة بخلاف العارفين فيما رأى العارف مرائي مهولة تقشعر منها بدنه، وذلك حتى لا يستحسن من أحواله شيئًا، فإن كل ما استحسنه العبد من أعماله فهو هباء منثور، فلا بدّ من مناقشة فيه يوم القيامة؛ لأن استحسان العبد لشيء من أعماله يعميه عن تلك النقائص الكامنة فيها ويمنعه من المزيد، فعلم أن اعتناء الحق تعالى بالعارفين أكمل من اعتنائه بالمريدين.

فاعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالتهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إجابتهم لمن دعاهم إلى وليمة بقصد التفاخر بحضور الناس، لاسيما المتمشيخين بأنفسهم، فربما عمل أحدهم مولدًا ودعا أكابر الأشياخ إليه ليقول الناس: لولا أن هذا شيخ عظيم ما أجابه أشياخ الطريق، ولكل شيء قرائن تدل عليه، ومن قرائن الرياء في تلك الدعوة أن صاحبها يصير يمزق عرض كل من تخلف ولم يحضر أو يعتب عليه، فأما الحضور إن كان فيه خير فذلك الممتنع هو الذي فوت نفسه الخير، وإن لم يكن في الحضور خير فقد استراح منه ولا ينبغي العتب عليه، انتهى.

ومن أخلاقهم: شهودهم أن القائمين في الكسب بالبيع والشراء وعمل الحرفة أفضل منهم ولو كانت أعمالهم كالجبال؛ لأن من لا حرفة له من الفقراء ربما أكل بدينه ويرجع ثواب تلك الأعمال التي تقوّى عليها بطعامهم في صحائفهم، فيخرج من الدنيا صفر اليدين من الأعمال الصالحة.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله - يقول: قد أكرم الله تعالى المحترفة بأمور فضلوا بها على المتعبدين من غير حرفة:

الأول: أن أعمال أحدهم له لكونه يأكل من كسبه لا من صدقات الناس وأوقافهم.

الثاني: عدم دعواه العلم وتكبره به على الجاهلين، فيشهد حقارة نفسه وتعظيم غيره.

الثالث: سلامته من الشبه العقلية في الله تعالى، وفي رسله وأحكامه.

الرابع: أنه إذا وقع في معصية يصير يشهد قبحها لا يرى أنه عمل شيئًا يكفرها حتى يلقى الله تعالى، وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مقابلة المسيء بالإساءة؛ لأنهم في مقام الإحسان يرون أنهم

في حضرة الله تعالى، ويرون أنه الخالق لأفعال عباده، فكلما سبَّهم إنسان مثلاً يشهدون الخالق لذلك لا من برز ذلك السب على لسانه، ثم لا ينقضي ذلك الشهود فلا بدّ لهم من التنزل لشهود نسبة الأفعال إلى الخلق، فينكرون عليهم سبهم بغير حق نصحًا لهم لا لعلة أخرى؛ لأن من تعدى حدود الله يجب الإنكار عليه، سواء أكان ذلك التعدي في حق المنكر أو في حق غيره، فعلم أنه لولا أن أهل الله تعالى في حضرة الإحسان لما استطاعوا تحمل السب من غيرهم؛ لأنهم إن شهدوا خالق السب وجب عليهم الرضا أو الصبر جزمًا؛ لعجزهم عن شهود من يرسلون غضبهم عليه السب، وإن نزلوا عن ذلك المشهد رأوا الخلق عبيد الله تعالى فأكرموهم لأجله، وإن نزلوا عن ذلك رأوهم من أمة محمد ﷺ شفيعهم عند الله تعالى، فأكرموهم لأجله، وإن نزلوا عن ذلك رأوهم إخوانهم في الدين، فأكرموهم لأجل الأخوة - رضي الله تعالى عنهم أجمعين -.

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف الحال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم إقامة العذر لإخوانهم إذا لم يقدروا على الصبر عن مقابلة من آذاهم؛ لعدم قدرتهم على المكث في حضرة الإحسان، فإن الأحوال قد فسدت ومراسم الأمور قد تغيرت وتبدلت، واكتفى الناس بالأقوال عن الأفعال، وعم البلاء خواصنا وعوامنا، وظهر من الناس أخلاق الذئاب تارة وأخلاق الثعالب تارة، وأخلاق السباع تارة، وأخلاق البهائم تارة، وأخلاق الجن والشياطين تارة حتى لا يكاد الإنسان يرى في أحدهم أخلاق أحد من كمل المؤمنين إلا في النادر.

فالعاقل من عذر الناس بما يعذر به نفسه، ولا ينبغي له أن يحرج عليهم في أحوالهم وينسى نفسه، ولكن ينبغي لأكابر العلماء والصالحين أن يكون لأحدهم سفيه يسافه عنه في بعض الأوقات التي يحجب فيها عن ربه؛ لأن الحياء الطبيعي وإن كان محمودًا من أصله، فقد يحتاج العبد إلى تركه في بعض الأوقات، كما هو مشاهد في مقابلة قليل الحياء بنظير فعله، لئلا يتسع الخرق في قلة الحياء بالكلية، وخرج بالحياء الطبيعي الحياء الشرعي، فذاك مطلوب لا يحل تركه وهو حياء العبد من ربه أن يراه تاركًا لأمره، أو غير مجتنب لنهيه، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم بذرهم علومهم ومعارفهم في غير محل قابل؛ لأن ذلك كالزرع في أرض السباخ.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إذا تكرم الحق تعالى عليكم بمدد من علم أو حال، فتكرموا به على من رأيتموه صادقًا في همته كامل الخلق في نشأته فإنه أزكى لزرعكم، وإياكم أن تتكرموا به على من كان بالضد من ذلك، فتكونوا كمن يبذر بذره في أرض سبخة، فلا تثمر لكم زرعًا بل لا يطلع أصلاً.

قال: ومن علامة طيب أرض قلب المريد أن يكون ذليل النفس، منكس الرأس، يفرح إذا حقره الناس وآذوه، ومن ذلك فيؤثرهم على نفسه، ولا يطلب منهم جزاء في الدارين، فمثل هذا ينبغي للشيخ ألا يدخر عنه شيئًا من المدد؛ لشدة إخلاصه، انتهى والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: أن أحدهم يزداد قلبه بالسلب تمكينًا ويقينًا، وذلك لأنهم مع الله تعالى بما أحب لا مع نفوسهم بما تحب، وكلما سلبهم الحق تعالى المقامات والأحوال كلما تمكنوا في مقام العبودية الذي هو محل تقريبات الحق تعالى، وكلما أضاف إليهم الأمور والمقامات كلما بعدوا من حضرة الله تعالى برؤيتهم الشركة لهم مع الله بنسبة الأمور إليهم، فلا يكاد يتبرأ من نسبة الأمور إليه دون الله تعالى ببادئ الرأي إلا الكمل من الرجال، فالعبد الصادق من لا يرى له ملكًا مع الله تعالى في الدارين إنما هو يأكل من مال سيده، ويلبس منه، ويسكن داره من غير شهود ملك لشيء من ذلك له، فلا على صاحب هذا المقام من كون الحق تعالى أعطاه شيئًا في الكونين أو لم يعطه؛ لأنه تعالى ولو أعطاه شيئًا يجب عليه الخروج منه فورًا إلى الله تعالى، فلا يدعه يقيم تحت تصريفه إلا بقدر ما يتحقق بنسبة العطاء له فقط، ليشكر الله تعالى على إذنه له في التصريف فيه لا غير، ثم بعد ذلك يستغفر الله تعالى ويقول في نفسه: لولا أن الحق تعالى علم مني محبة المشاركة له بدعوى الملك لما أضاف إليَّ شيئًا من الوجود، وهذا المشهد قد صار غريبًا في هذا الزمان.

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم العمل برأي النساء في هذا الزمان الذي صار رأي غالب على الرجال فيه ناقصًا فكيف برأي النساء؟! وإنما كره القوم العمل برأي النساء لعلمهم بأن محبة الرجل للمرأة تكون في الغالب بحكم الطبع والشهوة، وما ثم أميل من النساء للرجال وعكسه؛ لافتقار كل منهما للآخر شهوة وطبعًا وحالاً، وقد شرع الحق تعالى الاستخارة للعباد، فأغنتهم عن مشاورة غيرهم إلا إذا استخار أحدهم ولم يظهر له

الخيرة في ذلك الأمر، فله حينئذ أن يشاور إخوانه الذين جربوا الأمور، وخالطوا أهل الدنيا دون العباد والزهاد المقبلين على العبادة، فإنهم في الغالب لا معرفة لهم بأمور الدنيا فتدبيرهم ناقص، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم لتعلمهم علوم الفلاسفة الأول، كعلم الرمل وعلم الحرف وغيرهما؛ لأنها تطلب في الغالب للتأثير في العالم، ولتحصيل أمور دنيوية قد لا تكون مقسومة لأحدهم، وأهل الله تعالى يهربون من مثل ذلك، ثم إن وقع لأحد من الفقراء أنه تعلمها وعمل بها التأثيرات في العالم من تولية الحكام أو عزلهم أو قتلهم مثلاً، فليس ذلك من كرامته على الله تعالى، إنما ذلك من باب الخاصية كالدواء المسهل، فإنه يسهل متناوله بالخاصية لا بالمكانة عند الله تعالى، وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: وعزة ربي إن عُبّاد الأوثان أعلى همة ممن يطلب علم الحرف لأغراض دنيوية؛ لأن عباد الأوثان قالوا:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:3] وهؤلاء طلبوا علم الحرف ليقربهم إلى الدنيا، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الوسطى»[1].

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة نصحهم لإخوانهم بحكم العادة، لكن لا يخرجون إلى حد المكاشفة بعيوب الناس ونقائصهم التي يفعلونها في بيوتهم، وهذا الأمر يقع فيه كثير ممن لم يسلك على يد شيخ، ويرون أنهم صاروا على قدم عظيم، والحال أنهم إخوان الشياطين؛ لأن كل كشف اطلع صاحبه على عيوب الناس فهو كشف شيطاني يجب عليه التوبة منه فورًا، بخلاف الكشف الذي يطلع به العبد على كمالات الناس ومحاسن أعمالهم، وقد وقع لي ذلك مرة، فسألت الله تعالى الحجاب فحجبني عنه فله الفضل على كل حال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهودهم أن جميع ما معهم من العلوم والمعارف وغيرها كله عارية من الله تعالى لهم، ولذلك لو نسبهم أحد إلى الجهل لا يتأثرون منه؛ لأن لسان حال من نسبهم إلى الجهل يقول لهم: هذه العلوم التي معكم ليست لكم، فهو صادق

---

(1) أتم الله لنا تحقيقه.

في قوله عندهم فكيف يتأثرون منه؟.

وفي القرآن العظيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58] وهي وإن كانت واردة في شأن مفتاح الكعبة، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب غالبًا.

وقد كان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من أراد أن يعلم جهله ونقص مرتبته في العلم، فليرد كل قول علمه أو فهمه في سائر الأحكام إلى قائله، وينظر بعد ذلك في نفسه فما بقي معه فهو علمه قال: وأظنه لا يبقى معه إلا القليل الذي لا يسمى به عالمًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يجيبوا من طلب منهم مسألة من العلم مثلاً وقلبه غافل، بل يرشدون إلى تعلم آداب العلم ثم يجيبوه بعد ذلك؛ لأن من طلب زيادة العلم فقد طلب زيادة التكليف، فاللائق به البكاء، وحضور القلب لا الغفلة والضحك، وقد قال إبراهيم بن أدهم:

مررت على حجر مكتوب عليه أقلبني تعتبر، قال: فقلبته فإذا فيه منقوش: أنت بما تعلم لا تعمل، فكيف تطلب علم ما لا تعلم؟ انتهى. وقد تقدم بسط ذلك أوائل هذا الكتاب.

وسأل شخص الشعبي[1] - رحمه الله تعالى - عن مسألة وهو يضحك فهجره

(1) قال المصنف: هو عامر بن شراحيل الشعبي -رضي الله تعالى عنه ورحمه- كان يقول: إياكم والقياس في الدين، فإن من قاس فقد زاد في الدين، وكان يقول: لأن أقيم في حمام أحب إلي من أن أقيم بمكة قال سفيان رضي الله عنه: إعظاماً لها وخوفاً من وقوع ذنب فيها، وكان يقول: اتقوا الفاجر من العلماء، والجاهل من المتعبدين، فإنهما فتنة لكل مفتون، وكان رضي الله عنه يقول: لم يحضر وقعة الجمل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أربعة علي وعمار وطلحة والزبير فإن جاءوا بخامس فأنا كاذب وقيل له مرة يا فقيه فقال: لست بفقيه، ولا عالم إنما نحن قوم سمعنا حديثاً فنحن نحدثكم بما سمعنا، وإنما الفقيه من تورع عن محارم الله عز وجل، والعالم من خشي الله تعالى بالغيب، وكان رضي الله تعالى عنه يقول: تعايش الناس بالدين زمناً طويلا حتى ذهب الدين، ثم تعايشوا بالمروءة زمناً طويلا حتى ذهبت المروءة، ثم تعايشوا بالحياء زمناً طويلا حتى ذهب الحياء، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة، وسيأتي بعد ذلك ما هو أشد منه.

وكان يقول: ليتني لم أتعلم علماً وددت أن أخرج من الدنيا كفافاً لا علي ولا لي وكان رضي الله عنه يقول: ما بكينا من زمان إلا وبكينا عليه وكان رضي الله عنه يقول: أدركنا الناس وهم لا
=

ثلاثة أشهر حتى ساق عليه العلماء واستغفر، فقبل الشعبي توبته ثم قال له: يا ولدي إنما يطلب العلم للعمل والأدب مع الله تعالى، فلا ينبغي لغافل أن يأخذه وهو يضحك، وإنما اللائق به أن يأخذه وهو يبكي خوفًا ألا يوفي بالعمل به فيدخل النار، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إذا توقف أحدكم في فهم آية، أو حديث أو غيرهما، فليعلم أن قلبه مظلم من أكل الحرام، والشبهات وكثرة اللغو والهذيانات، فليعمل على جلاء مرآة قلبه من الصدأ والغبار، فيفهم كل كلام سمعه من كلام العرب كأنه بلغته ولسانه، ثم ينبغي للشيخ أن يرشد إلى ذلك جميع طلبته، فإن لم يرشدهم إلى جلاء مرآة قلوبهم، فجميع ما يتعلمونه منه لا يقيم عندهم حتى يعملوا به أو يعلموه للناس، بل يذهب بذهاب أحدهم من الدرس، وقد أغفل هذا الأمر جماعة من علماء زماننا، فبذروا علمهم لمن لا يصلح لحمله، وأتعبوا أنفسهم في تقريرهم، ولا يمكث مع أحدهم شيء مما يسمعه، حتى أنه يقال لبعضهم: ماذا استفدت اليوم من درس الشيخ؟

يقول: كان درسًا عظيمًا، وأبدى الشيخ فيه العجائب والغرائب، فيقال له: فقل لنا منه مسألة، فيقول: لا أقدر أتكلم به، انتهى.

وسمعته مرة أخرى يقول: اعملوا على جلاء مرآة قلوبكم؛ لتفهموا العلم فإن لم تعملوا على الجلاء فلا تطلبوا زيادة العلم، ويكفيكم العمل بما ثبت عندكم من العلم وفهمتموه ببادئ الرأي، فإن كل شيء توقفتم في فهمه دل على أنكم لستم من أهله، ولو أرادكم تعالى للعمل به لفهَّمه لكم، وكان شيخنا الشيخ أمين الدين - رحمه الله - يقول: والله ما كنا نظن أننا نعيش إلى زمان صار العالم يقول لطلبته إذا جاؤه: اذهبوا إلى غد، فإني ما طالعت لكم شيئًا، فإن ذلك يدل على أن العلم قد صار في لسانه دون قلبه، فيلقيه على أثر مطالعته ثم ينساه عن قرب، انتهى.

وكان - رحمه الله تعالى - لا يعلم العلم إلا لمن يراه عازمًا على العمل به معظمًا له خائفًا من عدم العمل به، فإن لم يره كذلك سكت عنه، ولم يجبه إلى مسألة ويقول:

يعلمون العلم إلا لعاقل ناسك وصاروا اليوم يعلمونه لمن لا عقل له ولا نسك.

انتقل رضي الله عنه بالكوفة سنة أربع ومائة وهو ابن سبع وتسعين سنة. [الطبقات الكبرى 1/ 40].

هؤلاء يستهزئون بالعلم، وقد درج السلف الصالح كلهم على ذلك.

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تعظيمهم لكل من حمل العلم والقرآن العظيم، وإن لم يكن عاملاً بذلك إكرامًا لما حمل من الوحي والعلم، ومن توقف في تعظيم العلماء على تظاهرهم بالعمل بكل ما علموه فاته تعظيمهم، فلم يزل العلماء في كل عصر يزيد علمهم على عملهم، وذلك لأن العلم مقدمه العمل، فهو دائمًا سابق زائد، وقد يكون ذلك العالم ممن يخفي أعماله الصالحة لاسيما إن رأى في بلده من يظهر عمله، ويقتدي الناس به، فإن الخفاء بعد ذلك يكون لغيره أولى؛ لأن هذا الذي أظهر العمل قد قام بشعار الدين وصار إمامًا يقتدى به، ولا ينبغي أن يكون للمأمومين في مكان واحد إلا إمام واحد.

وأنا أدلك يا أخي على شيء تعرف به العالم العامل، وتستغني به عن رؤية تظاهره بالعمل، وهو أن تراه خاشعًا لله تعالى، خائفًا منه، قليل الجدال في العلم إلا بطريقه الشرعي، يرى نفسه من أقل الناس لا يكاد يعرف أنه من أهل العلم إلا من خالطه يتوقف عن المبادرة إلى ترجيح شيء من الأقوال برأي أو قياس، فكل من رأيناه كذلك فهو دليل واضح على عمله بعلمه باطنًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم شكواهم من آذاهم إلى الله تعالى، وعدم دعائهم عليه، بل عدم شكواهم إلى نفوسهم، فضلاً عن غيرهم من الخلق اكتفاء بعلم الله ﷻ، فإنهم في حضرته على الدوام، ويعلمون أن الحق تعالى ناظر إلى جميع ما يفعله عباده مع بعضهم بعضًا، وهو المؤاخذ والمعاقب لهم حقيقة، ومن شكا منهم إلى الله تعالى في تلك الحضرة، فقد أساء الأدب لاتهامه للحق تعالى في أنه لا يأخذ له حقه، فعلم أنهم لو كانوا لا يتهمونه في ذلك ما أجابوا عن أنفسهم في حضرته ولا شكوا من آذاهم إليه ولا إلى خلقه، بل كانوا يكرمونه لله تعالى أو لرسوله كما مر تقريره مرارًا، وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا ينبغي للفقير أن يبادر إلى الشكوى من الناس إذا آذوه، فربما كان ذلك الأذى عقوبة له من ذنوبه السالفة.

وسمعت سيدي محمد الشناوي - رحمه الله - يقول: الفقير إن انتصر لنفسه تعب، وإن سلم أمره لمولاه واكتفى بعلمه فيه نصره من غير أهل ولا مال ولا عشيرة، انتهى.

وقبيح على الفقير أن يسافه من سافهه، أو يشتم من شاتمه لاسيما من كان شيخًا

في زاوية، فإن ذلك من أقبح القبيح، وربما اقتدى به في ذلك فقراء الزاوية، وصار إثم ذلك في عنقه؛ لأنهم كلهم ناظرون إلى أفعاله إليه في أفعاله، ثم ينحل الأمر بعد ذلك إلى عدم نصرة الحق تعالى لذلك الشيخ الذي شتم من شتمه وبهدله بين الناس، وعدم احترامهم له، ومن هنا يقول أهل مكة لمن شتم أحدًا: «حشم نفسك» يعني: إنك إن شتمتنا شتمناك ولو من ورائك، انتهى.

فاعرض يا أخي بالشتم من حيث تقدير ذلك عليك، وإن لم ترض فاصبر لا تزل من ذلك، فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعلم حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عملهم على تحصيل كمال مقام إيمانهم قبل كل مقام حتى يصير يوم القيامة وأهواله، وما فيه كأنه رأي عين عندهم، فإن كمال مقام العبد في الإيمان هو أن يصير الغيب عنده كالشهادة في عدم دخول الشك فيه حتى يسري منه الأمان إلى جميع العالم، فيأمنه الناس على أنفسهم وأموالهم وحريمهم من غير أن يتخللهم تهمة في ذلك، وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول:الأساس الذي يبني عليه المؤمن جميع أعماله هو الإيمان، فإذا سلم من النقص فذلك هو السعيد، وكان يقول: لأن يأتي العبد بقراب الأرض خطايا، وإيمانه كامل وظنه في الله تعالى حسن خير له من أن يأتي بالطاعات وفي إيمانه ثلمة وظنه في الله تعالى سيء، ومن هنا استنبط المريد لو وقع في حقهم كل الوقوع وهو معتقد فيهم الصلاح لسامحوه عملاً بحديث.

«**يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم جئتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**»[1] أو كما قال.

فلا يضر المريد إلا شركة غير شيخه، كشيخه في المحبة لا يضره ترك خدمة ولا ترك بر ولا إحسان، فعلم أن لهم هجر المريد إذا أشرك بهم أحدًا في المحبة المعروفة عندهم، وعدم المسامحة له في ذلك؛ لأن القوم على الأخلاق الإلهية وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 116] فافهم.

وإياك والمبادرة إلى الإنكار على من تغير على مريده لما اعتقد غيره وحمله على

---

(1) رواه أحمد في المسند (5/154، رقم 21406).

الغيرة، فإن ذلك سوء ظن بالقوم، فإنهم إنما هم في ذلك على هدى وحق خوفًا على المريد أن يتزلزل اعتقاده في أي الشيخين أكمل فلا يحصل له نفع من أحد منهما، فهو مثل من يشك في أن الله تعالى واحد واثنان لا يصح توحيده، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: قصدهم ابتغاء مرضاة الله تعالى في كل قول أو فعل دون قصد ما لنفوسهم في ذلك من الراحة والثواب، فيزهدون في الدنيا مثلاً من حيث ما بلغهم أنها مبغوضة لله تعالى، وأنه تعالى منذ خلقها لم ينظر إليها، فلذلك لم يحبوها خوفًا أن يحشروا معها يوم القيامة؛ لأن المرء مع من أحب، فلذلك كانوا لا يحبون شيئًا أخبر الحق تعالى أنه يبغضه، وكرهوا أن يحشروا مع مبغوض لم ينظر الله تعالى إليه منذ خلقه أي: نظر رضًى عنه ورحمة لا نظر تدبير، فافهم.

فعلم أن القوم لم يكرهوا الدنيا، ولم يزهدوا فيها لراحة البدن بالأصالة، فإن ذلك حاصل لهم بحكم التبعية، لزهدهم فيها ابتغاء رضوان الله تعالى.

وقد قررنا مرارًا أن الزاهدين ما زهدوا حقيقة إلا فيما لم يقسم لهم، وأما ما قسم لهم فلا يصح لأحد الزهد فيه بأن يتركه، وإنما الزهد فيه يكون بترك الميل إليه عادة بحيث يبخل به عن مستحقه ويشتغل به عن ربه، وإلا فمن كمال الولي إمساكه الدنيا، ثم يتصرف فيها تصرف حكيم عليم، فينفق منها على نفسه، وعياله، وإخوانه، وغيرهم ممن ندبه الشرع إلى الإحسان إليه، ولو كان الزهد فيها عدم إمساكها؛ لفسد نظام العالم ولم يجز لأحد إمساك شيء من المال فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: لا يتجردون عن لباس الثياب الفاخرة مثلاً، ولا يلبسون الخرقة التي تستر عورتهم فقط إلا إن كان باطنهم متجردًا عن حب الدنيا كذلك؛ خوفًا أن يكتبوا في جريدة المنافقين، ومادام باطنهم لم يتجرد عن محبة الدنيا فهم يلبسون الثياب الفاخرة من الجوخ والأصواف والمضربات؛ خوفًا أن يخالف باطنهم فإن مبنى أمرهم كله على الصدق.

وكذلك من أخلاقهم أنهم لا يلبسون النقي البياض من الثياب إلا إن علموا نقاء باطنهم من كل شيء يكرهه الله تعالى، ومادام في باطنهم شهوة يكرهها الله تعالى، فهم لا يلبسون نقي البياض إلا بأمر شرعي كلبس يوم الجمعة، فللعبد أن يلبس البياض فيه، بل يستحب ولو كان باطنه غير نقي من الأدناس، وهو من قاعدة أن الميسور لا يسقط بالمعسور.

فعلم أن اللائق بأمثالنا السود والزرق على الدوام؛ لأنه لم يصح لنا نقاء الباطن من

كل دنس وأما غيرنا، فإذا رأيناه يلبس الثياب النيقة وجب علينا حسن الظن به، وأنه ما لبس ذلك إلا بعد نقاء باطنه، ولا يجوز لنا قياس حاله على حالنا، فافهم.

واعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف مقامك ومقامهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهود الضعف في نفوسهم دائمًا حتى أن بعضهم يعجز عن حمل ثوبه، فلا يستطيع أن يلبس ثوبًا مطلقًا، ولولا أن ستر العورة واجب على أحدهم لما لبس الإزار، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاقه، فإياك والمبادرة إلى الإنكار على من رأيته عريانًا أصلاً إلا بطريق شرعي، وقد صرَّح سيدي إبراهيم الدسوقي وسيدي علي بن وفا بذلك في رسائلهما، وقال سيدي علي: بلغت من شهود الضعف في نفسي حال صحتي إلى أني لو أردت حمل ليمونة لما قدرت، وهذا الأمر يحصل لهم في أوقات لا مطلقًا حتى لا يستطيع أحدهم القيام، فيصلي قاعدًا فيظن من لا معرفة له بأحوال القوم أنهم يصلون النوافل جلوسًا، مع القدرة عملاً برخصة الشريعة، لكونهم لم يتقدم لهم مرض، بل عهدهم بهم في عافية، ولا علم لهم بالوارد الذي ورد على أحدهم فهد أركانه فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم التساهل بأخذهم أموال الناس بالباطل أو يأخذونها بحق ويتساهلون في وفائها، حتى أن بعضهم رجع من سفر فرأى في أمتعته قلمًا استعاره من البلد الذي خرج منه، فسافر مسيرة شهر في رده، وبعضهم سافر مسيرة عشرة أيام في رد إبرة، فقيل له: أرسل له أضعاف ثمنها، فقال: قد لا يرضيه ذلك يوم القيامة، ويطلب عين إبرته.

ووقع للشبلي ﷺ [1] أنه أخذ درهمًا من بائع الباقلاء أيام ولايته، فلما دخل طريق القوم تصدق عن صاحبه بألوف بعد أن فتش عليه فلم يجده، فكان يقول بعد ذلك: قد

---

(1) قيل اسمه: جعفر بن يونس، وقيل: جعفر بن دلف. أصله من الشبلية قرية، ومولده بسامراء، وكان أبوه من كبار حجاب الخلافة، وكان خاله أمير الأمراء بالإسكندرية، وولي هو حجابة أبي أحمد الموفق، ثم لما عزل أبو أحمد من ولاية حضر الشبلي مجلس بعض الصالحين، فتاب، ثم صحب الجنيد وغيره، وصار من شأنه ما صار، وكان فقيهًا عارفًا بمذهب مالك، وكَتَب الحديث عن طائفة، وقال الشعر، وله ألفاظ وحكم، وحال وتمكن، وكان يحصل له استغراق وسُكْر.

وانظر: سير أعلام النبلاء (367/15)، وتاريخ بغداد (389/14)، وصفة الصفوة (426/2)، والرسالة القشيرية (ص43)، وكتابنا الإمام الجنيد (ص80).

تصدقت عن صاحبه بألوف وما على قلبي أثقل منه، انتهى.

فعلم أن من ادعى أنه من أهل الطريق وتساهل في حقوق الناس، وأحوج صاحب الحق الوقوف على حاكم، فهو كاذب لم يشم من طريق القوم رائحة كما هو شأن أولاد المشايخ القانعين بالحدود، وشأن من ادعى الطريق بغير شيخ، فيقول: وهل لأحد مع الله تعالى ملك ويزعم أنه صار موحدًا لله تعالى، فيقال له: يا هذا إن الذي قلت أنه هو المالك الحقيقي هو الذي نهاك عن أخذ ما في يد عباده بغير طريق شرعي وهناك تُدحض حجته، وقد أجمع القوم على أن نور المعرفة لا يطفئ نور الورع، وبالجملة فلا يقع في مثل ذلك إلا من لا يؤمن بيوم الحساب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم لوقوع يدهم على فرجهم من غير حاجة؛ إكرامًا للقرآن وكتب العلم والسبحة التي يسبحون عليها، ويذكرون اسم الله عليها، بل وقع لبعضهم أن رجله صدمت مسبحته فغشي عليه، ومن هنا أدمن الفقراء الصادقون لبس السراويل، حتى لا تقع يدهم على فرجهم.

وقد بلغنا أن مريدًا من جماعة الشيخ نجم الدين الكبرى وقعت يده على فرجه في الخلوة، فتوقف عليه الفتح مدة طويلة، وهو يستحي أن يذكر ذلك للشيخ، فلما خرج من الخلوة بعد الفتح قال له الشيخ: قد علمت بوقوع يدك على فرجك، ولكن لما علمت شدة خجلك من ذلك لم أعلمك باطلاعي على ذلك.

وكل شيخ لم يعطه الحق تعالى الاطلاع على حركات مريده وسكناته فليس له أن يخلي أحدًا؛ لأنه محجوب، ثم قال: كيف يجلس العبد بين يدي الله تعالى ويضع يده على فرجه؟! أما علمت أن من كان في الخلوة فهو في حضرة الله تعالى، ولذلك يعملون له طعامًا لما يخرج من الخلوة إكرامًا له لكونه ورد من حضرة الله تعالى عليهم، انتهى والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبة المصافحة عقب مجلس الذكر لجميع إخوانهم رجاء المغفرة لهم دون تمكينهم من تقبيل اليد، ثم يمسحون باليد التي صافحت إخوانهم على وجوههم رجاء البركة، فعلم أن أحدًا من القوم لا يصح له أن يرى نفسه على أحد من مريديه فهو يسلكهم، ويربيهم، ويعلمهم الآداب حال شهوده أنهم أحسن منه حالاً عند الله تعالى، فلا تظن يا أخي أن أحدًا من القوم يرى نفسه على أحد من مريديه أبدًا، ولذلك يكاد أحدهم يذوب إذا قبل أحد يده، فالناس يقبلون يدهم إكرامًا لهم، وهم يكرهون ذلك منهم نظير القيام لهم على حد سواء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إيثارهم جناب الحق تعالى على جنابهم حتى أنهم يكرهون للمريد أن يشركهم في المحبة مع الحق تعالى في المحبة إيثارًا لجناب الحق تعالى، ولولا أن لمحبة الشيخ أثرًا في تقريب الفتح على المريد لما مكنوه من محبته لهم أصلاً، فعلى المريد أن يحبهم، وعليهم الكراهة لذلك.

وقد بلغنا عن الشيخ القطب أبي مدين التلمساني ﷺ أنه رأى الفتح بعيدًا على مريد مع شدة اجتهاده في المحبة للعبادة فنظر في سبب ذلك، فإذا هو محبة الشيخ، فقال له الشيخ: اترك محبتي يفتح عليك، ففعل ففتح عليه تلك الليلة، فرضي الله تعالى عن الصادقين. فاعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تقريرهم فقراء الأحمدية والبرهانية والرفاعية على اكتفائهم بمشايخهم الذين ماتوا، فإنهم صاروا في البرزخ لا التفات لهم إلى إرشاد أحد من الخلق، وإن وقع أنهم أرشدوا أحدًا وهم في قبورهم، فذلك من باب الكرامة كما وقع لسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي فإنهما ربيا خلقًا كثيرًا في قبرهما.

وقد درج القوم كلهم على اتخاذهم الأشياخ بعد موت أشياخهم، ولم يكتفوا بتوجههم إليهم في قبورهم، ولما مات سيدي الشيخ محمد السروي شيخ شيخنا الشيخ محمد الشناوي اجتمع سيدي محمد الشناوي بسيدي علي المرصفي ﷺ وأخذ عنه الطريق وقال: كرهت أن أمكث ساعة بلا أستاذ.

مع أنه كان مأذونًا له في تربية المريدين من أستاذه، ولقن المريدين ورباهم سنين في حياة شيخه، وهذا الأمر لا يقع إلا من الصادقين أما أصحاب الرعونات فلا يقدرون على نفوسهم تنكبس للأخذ عن أحد بعد الإذن من أستاذهم، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مبادرتهم إلى الإنكار على من أمر أحدًا من تلامذته بحلق لحيته مثلاً

فربما كان ذلك منهم امتحانًا له ينظروا إذعانه وامتثاله لما يأمرونه به لا وقوع ذلك الفعل حقيقة، كما أمر الله تعالى أبانا السيد إبراهيم الخليل ﷺ بذبح ولده، وكان المراد منه امتثال الأمر لا الذبح إذ لو أراد الله تعالى ذبحه لم يفده بالكبش، فيجب على الشخص أن يتربص في إنكاره ولا ينكر إلا بعد علم محقق، ولكن قل من يصبر من

المتشرعين على ذلك.

وقد كنا مرة في دعوة وفيها الشيخ بهاء الدين المجذوب(1) فرمانا بقلة فيها ماء، فصعدت إلى السقف ثم هبطت، فقال فقيه كسر القلة، فقال له الشيخ: تكذب يا فقيه فوقعت على الأرض جالسة صحيحة لم ينقص من مائها شيء.

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصي (2) أن بعض الأولياء كان جالسًا يعظ الناس،

---

(1) هو بهاء الدين القادري: المجذوب، كان من فقهاء الأمصار، ذا سمة حسن ووقار، ملازمًا للتقوى آناء الليل وأطراف النهار، ولا شيء يزين الإنسان مثلها، فإنها واسطة العقود في الصفات المحمودة، وزينة الوجود في السمات المشهودة، تصدق يوم القيامة إذا كذبت الظنون، وتنفع يوم لا ينفع مال ولا بنون. وأصل جذبه أنه كان خطيبًا بجامع ميدان القمح، فحضر عقدًا يوم الجمعة، فسمع قائلا: هاتوا النار. هاتوا الشهود. فصرخ، وهام على وجهه في الجبل ثلاثة أيام، ثم ثقل عليه الحال، فمكث خمس سنين لا يأكل ولا يشرب ولا ينام. ولما جُذب، تزوجت زوجته، فلما دخل عليها الزوج وتعانقا ماتا فورًا. وكان يحفظ، قبل الجذب البهجة، فلم يزل يقرأ منها أبياتًا لكونه جُذب وهو مشغول بها، وكل شيء جذب عليه الرجل يظل يذكره، وكذا من جذب في حال قبض أو بسط، لا يزال دأبه، وكل ألف سنة عند المجذوب كأنها لمحة في حضرة الله تعالى، لا يدري بمضي الزمان. ولما جذب النجائي، وأعطى درك بحر الهند، لم يزل يقول باب النكرة: كل أمر شائع في جنسه لا يختص به واحد دون واحد، لكونه جذب وهو يقرأ النحو. ولما جذب ابن عبد الكافي القاضي صار يقول: لا حقًا ولا استحقاقًا، وإذا قال الأمير عزلناك أو وليناك.. حصل عن قرب. وكان كل شيء أخبر به، وقع، فلم يحفظ قط أنه أخطأ في ذلك، وجلس مع جماعة في قاعة، فأخذ قلة وضرب السقف، فقال فقيه: كسر القلة. فقال: تكذب. فنزلت القلة إلى الأرض صحيحة.. ودخل عليه الفقيه بعد سبعة عشر سنة فقال: أهلا بشاهد الزور. مات سنة اثنين وعشرين وتسعمائة، ودفن بزاويته بقرب باب الشعرية. انظر: الطبقات الشعرانية (137/2)، الكواكب (762).

(2) هو سيدي عبد الغفار بن أحمد بن عبد المجيد بن نوح القوصي- صاحب كتاب «الوحيد في سلوك أهل التوحيد» في مجلدين- قيد بتحقيقنا لأول مرة في عالم الطباعة- عالم كماله معروف، مقاله موصوف، ووجوه مواعظه مقولة، وأخبار عرفانه منقولة، كان جامعًا بين الحقيقة والشريعة، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر.

ومن كلامه: كل فقير ليس له حال يحميه، فليس له التظاهر بالطريق.

وقال: كلام المنكرين على أهل الله، كنفخة ناموسة على جبل، فكما لا يزيل الجبل نفخة ناموسة، لا يتزلزل الكامل بكلام الناس فيه. وقال: السماع من بقية تعيب على الكامل، فلو كمل لما تحرك.

وقد سمع السهروردي والقرشي وغيرهما. مات بمصر سنة ثمان وسبعمائة، ودفن بالقرافة الصغرى. انظر: طبقات الشيخ الشعراني (161/1)، الدرر الكامنة (385/2)، حسن =

فنزل من الكرسي وضرب شخصًا على رأسه من السامعين، ثم رجع إلى الكرسي، فقال فقيه: هذا حرام عليك أيش عمل هذا حتى تضربه؟ فقال المضروب: أنا أستحق ذلك؛ لأني اغتبت في نفسي وليًا من الأولياء المدفونين فضربني تعزيرًا، فخجل ذلك الفقيه من الشيخ، ثم أنه نزل وضرب شخصًا آخر، فسألوه عن ذلك، فقال: إنه خطر في نفسه أنه أفضل من العلماء الحاضرين، وقال له: كيف تفضل نفسك أما علمت أن ذلك ذنب إبليس الذي أخرج به من الجنة؟ فقال الشخص: أستغفر الله تعالى وتاب عن ذلك، وكذلك لا ينبغي لأحد أن يبادر إلى الإنكار على من أمره شيخه بحلق لحيته وحَلَقَها، فربما كان ذلك من شيخه ليدفع به عنه الكبر والفخر، فقصد به هضم نفسه من باب ارتكاب أخف المفسدتين، فإن الكبر من الكبائر وغاية حلق اللحية أنه صغير عند بعضهم، فاعلم ذلك، واعرضه وما قبله على نفسك وإخوانك تعرف مقامك ومقامهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم التزاور لبعضهم بعضًا كلما اشتاقوا لبعضهم ووجدوا نية صالحة، وإن وقع أن أحدهم لم يزر أخاه وبخ نفسه على ذلك.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول:

الزيارة للإخوان تزيد في دين الإنسان وتركها ينقص دينه؛ لأنها كتلقيح النخل، انتهى.

وقد كان الإمام الشافعي يزور الإمام أحمد - رضي الله تعالى عنهما - كثيرًا ويزوره الآخر كذلك وأنشد الإمام الشافعي في ذلك:

قالوا: يَزُورُكَ أحمدٌ فتزورُهُ ... قلتُ: الفضائلُ لا تفارِقُ منزِلَهْ
إنْ زارَنِي فبفضلِهِ، أو زُرتُهُ ... فبفضلِهِ فالفضلُ في الحالينِ لَهْ

فأنشد الإمام أحمد ﷺ:

إنْ زُرْتَنَا فبفضلٍ منكَ تمنحُنَا ... أو نحنُ زرنا فللفضلِ الذي فيكا
فلا عدمنا كلا الحالين منك ولا ... نال الذي يتمنى فيك شانيكا

ثم لما مات الإمام الشافعي رثاه الإمام أحمد بقوله:

المحاضرة (424/1)، السلوك (50/1/2)، الكواكب السيارة (266)، الوافي بالوفيات (27/19)، الطالع السعيد (323)، والكواكب الدرية (610).

يا جوهرَ الجوهرِ المكنونِ من مُضَرٍ ومن قريشٍ ومن ساداتِها الغُرَرُ
لمّا تولّيتَ ولّى العلمُ مكتئبًا وضرَّ موتُك أهلَ البدوِ والحضرِ

وهذا الخلق قد صار غريبًا في هذا الزمان، فلا تكاد ترى فقيرًا يزور أخاه إلا قليلاً، فكثرت الضغائن بينهم وما هكذا أدركنا المشايخ ﷺ، فحرر يا أخي نيتك وزر إخوانك وإن لم يزورك وأسقط عنهم المكافأة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تعليم أصحابهم العفة عن مال الوقف الذي يتكلمون عليه، والتقلل من الأكل إذا دعاهم أحد إلى طعامه ما أمكن، وهذا باب قد أغفله غالب الناس اليوم، وقد ظفرت طول عمري بسبعة أنفس من الأمناء أحدهم الشيخ إبراهيم السند بصطي - رحمه الله - الذي كانت عمارة زاويتنا وجميع مساكنها على يديه، فتعاطى جباية وقف الزاوية نحو اثنتي عشرة سنة، فلم أعلم أنه اختلس من مالها درهمًا واحدًا مدة جبايته وعمارته وأصل ذلك اتحاده بي وسماعه لإشارتي، وكان إذا أتى بهدية للفقراء لا يلحس منها لحسة من ورائهم، ولما حضرته الوفاة أوصى ولده بوصايا منها أن جميع ثيابي لعبد الوهاب، وإن كفنني فذلك من فضله، ثم وليت بعده شخصًا آخرًا فتشرب قلبه حب الدنيا، وخالفني وأظهر لي العفة والزهد، فلما مات وجدوا بعده في مدة يسيرة نحو خمسمائة دينار ذهبًا، ومات وهو يقول: يا مالي، فأسأل الله أن يتجاوز عنه بفضله آمين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يستجلبوا أحدًا من أبناء الدنيا لصحبتهم كالدفتردار وشيخ العرب والكاشف وأعوانهم إلا إن علموا من طريق كشفهم أن له نصيبًا عندهم من التربية وتعليم الأدب، وقبول الشفاعة ونحو ذلك، وإذا لم يكشف لهم فمن الأدب عدم استجلابه، ولكن إن جاءهم هو من ذات نفسه قبلوه، وساقوه في تعليم الأدب، وتخفيف المظالم ما أمكن.

وقد برز في هذا الزمان جماعة يستجلبون صحبة مشايخ العرب والكشاف لغير غرض صحيح ظاهر، فأساء الولاة ظنهم بأمثالهم من الصادقين وبهدلوا الطريق، فالله تعالى يلطف بنا وبهم.

وقد رأيت شخصًا من تلامذة شيخ يدعي القطبية في حياة شيخه يسأل الولاة أن يعطوه الأرز، والبسلة، والعسل، والقمح، والعدس، وما هكذا درج الأشياخ الذين أدركناهم.

فإياك يا أخي أن تستجلب أحدًا من الولاة لصحبتك إلا بطريق شرعي.

فاعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وعلى أقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم كثرة سؤالهم الله تعالى أن يسلب عنهم الحال الذي يؤذي من آذاهم، فإن ذلك خروج عن طريق العارفين، فلو أن الوجود كله قام عليهم بالأذى ما تغير منهم شعرة، ثم إنهم لا يرون ذلك مقامًا عظيمًا؛ لأنه مقام إبليس فإنه اجتمع بسهل بن عبد الله التستري وقال له: يا سهل أنا أعلى مقامًا في الرضا بعلم الله تعالى منكم، فقال: كيف؟ فقال: لأن الواحد منكم إذا قام عليه أهل بلده بالتنقيص يتغير منه كل شعرة، ولا يقنع بعلم الله تعالى فيه والوجود كله يلعنني، فلم تتغير مني شعرة اكتفاءً بعلم الله تعالى فيّ.

وقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي - رحمه الله - يقول: بلغني أن النار الكبرى يوم القيامة تنزوي من المؤمن صاحب الحال وتقول: جز يا مؤمن فقد أطفئ نورك لهبي، ويمر عليها الولي الكبير فتصيب جوانبه النار، انتهى.

وإيضاح ذلك أن العارف قد سلم أمره لمولاه، وصار كالميت بين يدي غاسله، ورأى جسمه ملكًا للحق تعالى لا لنفسه، فسقطت مدافعته عنه اللهم إلا أن يكون مشهده أن الله تعالى أمّنه على جسمه، ونهاه على أن يلقي بنفسه إلى التهلكة، فهذا لا يضره دفع النار عن جسمه يوم القيامة كما هو حاله في الحياة الدنيا، وقد سرقوا مرة ستر سيدي أحمد الزاهد، فلم يعرف سارقه، فقال بعض الناس: لو كان لهذا الشيخ سر لقيد السارق حتى مسكوه، فقلت لهم: حكم الستر حكم القميص، ولو أن السارق سرق قميص الشيخ في حال حياته ما تأثر منه، بل كان يبرئ ذمته في الدنيا والآخرة، فإن حاله في البرزخ لا يخالف حاله في حياته، انتهى والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تربيتهم لأصحابهم بالنظر، فيقوم نظرهم إليهم مقام اللفظ لكن ذلك خاص بمن رق حجابه منهم، أما صاحب الحجاب الكثيف، فقد يربونه بالقول والفعل، والهجر والزجر وهيهات أن يفلح، وكان على هذا القدم سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي، وسيدي علي الخواص، فكان سيدي أبو الحسن يقول: إذا كانت السلحفاة تربي أولادها بالنظر، فكيف بالفقير منا؟.

وكان سيدي علي الخواص يربي بالنظر تارة، ويأمره المريد أن يشرب من إبريقه تارة، فيقوم ذلك مقام الثقلين، وأخذ العهد في حصول المدد، وقد منَّ الله عليّ بذلك فربيت جماعة من أصحابي بالنظر نحو ثلاثين نفسًا كما أوضحت ذلك في كتابي

«المنن» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تقريب الطريق على المريد ما أمكن، وذلك بإشغاله لهم بالتوحيد، فلا يزال يشتغل به حتى ينكشف حجابه، فإذا انكشف حجابه عرف الأمور على ما هي عليه، واستغنى عن مطالعة رسائل القوم، وصار يتكلم كما تكلموا، وإن ذكر عن أحد منهم كلامًا فإنما ذلك استشهادًا لموافقة كلامه للقوم لا غير، وقد كان سيدي الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ يقول: إنما ننظر في كلام القوم لننظر ما أنعم الله به علينا دونهم لا لنستفيد منه ما لم يكن عندنا، انتهى.

ثم لا بدّ للمريد مع اشتغاله بالتوحيد من الجوع، والعزلة، وقلة النوم، وقلة اللغو، وإلا فكل شيء حصل له من نور التوحيد يظلمه الأكل واللغو كما هو مقرر في أركان الطريق؟

وقد عجز الأشياخ أن يوصلوا مريدًا إلى شيء من مقامات الطريق مع إخلاله بالأركان فلم يقدروا، فعلم أن غير التوحيد من صلاة النافلة، وقراءة القرآن، وإن كان طاعة فالوصول به بعيد جدًا؛ لأن ذلك إنما هو من أوراد الكمل بعد أن عرفوا الله تعالى وزال عنهم حجابهم.

وأما المريد فليس المطلوب منه إلا العمل على جلاء قلبه بما يأمره به شيخه الصادق في الطريق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يرجعوا في ما خرجوا عنه في سرهم لأحد، ولو عمامتهم أو جوختهم أو مضربتهم، وربما طرقهم ذلك الخاطر وهم في بيت الخلاء فينزعونه فيه لمن خرجوا له عنه، وقد قررنا مرارًا أن الخاطر الأول لا يدخله علة، بل هو من الله تعالى بخلاف الخاطر الثاني وما بعده.

فعلم أن من خرج عن شيء في سره ورجع فيه استحق التأديب عندهم، وربما عاقبه الله تعالى بسرقة ذلك الشيء منه أو حرقه، كما وقع لسيدي حسن الأخني وذلك أنه رأى شخصًا بردانًا، فخطر في باله أنه يعطيه المضربة التي عليه، ثم نام ولم يعطه شيئًا فاستيقظ، فلم يجد المضربة عليه، فسأل عنها فكاشفه البردان، وقال: إنك لما رجعت عنها في سرك ونمت أعدمها الله تعالى لا لي ولا لك، فإياك والرجوع عن شيء تخرج عنه في سرك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا طال مكث الضيف عندهم أشهرًا وهم يطبخون له، ويقومون بواجبه، ثم وقع له نزغة شيطانية، فأنكر فضلهم وصار يحط فيهم ألا يمنوا

عليه، ولا يقولوا: هذا جزاء الخير الذي عملناه مع فلان، فمن قال مثل ذلك فهو دليل على أنه أضافه لغير وجه الله ﷻ، فإن من أطعم لوجه الله ﷻ لا يريد من الضيف جزاء ولا شكورًا، فليطعم الفقير ضيفه لله تعالى، ويفرح كلما كفر الضيف نعمته؛ لأن بذلك يتوفر له الأجر إن كان من عبيد الأجر أو يصير له المقام العظيم عند الله تعالى إن كان أطعمه لله تعالى.

فيحتاج من يتصدر للقاء الضيوف أن يكون صاحب بصيرة، حتى لا يرى له فضلاً على أحد من خلق الله تعالى، إنما هو وكيل يطعم عباد الله من مال الله تبارك وتعالى، وهناك يتخلص من ورطة الرياء ويصير يشكر الله تعالى الذي استعمله في خدمة عباده.

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة أدبهم مع كل من تزيّ بزي الفقراء، وإن لم يطلب منهم هو ذلك إكرامًا للخرقة، وقد حكى لي شيخنا الشيخ محمد الشناوي - رحمه الله تعالى - أن كلبًا مر على سيدي عبد الرحيم القنائي بصعيد مصر الأعلى فقام الشيخ له، فقيل له: أتقوم لكلب؟! فقال: انظروا لما في عنقه إنما قمت لأثر الفقراء الذي في عنقه.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: إذا ضحك الفقير في وجه أحدكم فاحذروه ولا تخالطوه إلا بالأدب، فإن الفقراء ربما مزحوا كما يمزح الناس، وهم في ذلك مع الله تعالى لا مع الناس، وربما فعلوا شيئًا تخريبًا لظاهرهم وتستيرًا لحالهم، حتى لا يعتقد أحد فيهم، فيشغلهم عن ربهم ﷻ من باب دفع الأشد بالأخف.

وقد مر إنسان طائر في الهواء على رأس سيدي عبد الله البلتاجي ولم يتواطأ له، فسلب حاله في الوقت ونزل إلى الأرض، فما كان إلا تقطع لإساءته الأدب مع سيدي عبد الله، ثم صار بعد ذلك شرطيًا عند كاشف المحلة إلى أن مات.

فالزم حتمًا يا أخي الأدب تأمن العطب، فربما كان الولي يتعاطى الحكايات المضحكات، ويصفعه الناس في الأسواق، وهو في ذلك حاضر بقلبه مع الله تعالى، وأنت في حال صلاتك ربما تكون غافلاً عن الله تعالى.

وقد حكى لي السيد الشريف العالم الصالح بزاوية الحطاب بمصر: أن شخصًا كان يدخل سوق الوراقين كل يوم اثنين وخميس، فيقف على الإنسان يطلب جديدًا، فإذا أخذه لا يفارق صاحب الحانوت إلا إن صكه عشر صكات، فوقف يومًا على شيخ

الوراقين، فأعطاه عادته، فقال: صكني، فقال له: يا أخي ما أنا منشرح لمثل ذلك، فقال: لا بدّ من ذلك، فاجتمع عليه الناس وضيقوا على المارين؛ لأنه سوق ضيق وقالوا له: صكه فقام وصكه عشر صكات بغين فطأطأ له وقال له في أذنه: حاجتك مقضية، ولكن آتِ التربة التي بجوار جامع محمود الليلة بعد الفجر، ويصحبتك أربعون رغيفًا في كل رغيف نصف رطل من الجبن المقلي، وإبريق كبير فيه ماء حلو ففعل، فلما جاء التربة بعد الفجر، وقف على الباب، ونظر من خلل الباب، فإذا جماعة بيض الثياب جالسون عند المحراب وعليهم قنديل يضيء، وإذا ذلك الرجل الذي صفعه في السوق هو شيخ الجماعة، فقال لواحد: قم خذ الذي مع هذا الواقف على الباب، واقض حاجته، ففعل ثم رفع ذيل شيخ السوق ومسح بريقه على بطنه ووركه، وكان به برص فزال البرص في الحال.

وكان أصل تكدره ذلك اليوم الذي صك ذلك الشيخ فيه أن ابنة عمه نظرت إلى البرص الذي طلع في بطنه، فنفرت نفسها منه وخافت أن تعتدي منه، فخرجت إلى بيت والدها فساق عليها الناس، فلم ترض وطلبت الطلاق، فلما قضيت حاجته من زوال البرص رجع فوجد ابنة عمه في داره وأخبروه بأنها قالت لأهلها: إن لم تخلوني أذهب إلى زوجي قتلت نفسي، وما عرفوا سبب ذلك.

فلما كان يوم الخميس دخل الشيخ على عادته يأخذ جديدًا ويصفعه الناس إلى أن وقف على شيخ الوراقين، فقال له: خذ هذه الفكة كلها فأبى إلا أن يأخذ الجديد فقط، فلما أعطاه الجديد قال له: كمل عادتي بالصك فتشفع عنده بالنبي ﷺ فترك صكه.

وقال: بشرط أن تكتم ذلك عليَّ حتى أموت، فلما جاء يوم الاثنين دخل السوق وهو يعرض لذلك الرجل ويقول: ما يضر الإنسان إلا لسانه فكل من سكت نجا وكل من تكلم رجع كل شيء إلى ما كان، ثم وقف على شيخ الوراقين، فأخذ منه الجديد، وقال له: صكني واحدة صغيرة فتشفع عنده بالأولياء، فقبل شفاعته هذه حكاية السيد لي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم وقوع الخوارق على يديهم في هذه الدار؛ لأن محل ذلك إنما هو الدار الآخرة حين يعطي أهل الجنة أن أحدهم يقول للشيء كن فيكون، فمن اختار وقوع الخوارق على يديه، فقد اختار العرض الفاني على الجوهر الباقي على أنه ما ثم خرق عادة إنما هي كوائن يخلقها الله تعالى، لا يشهدون لهم فيها فعلاً، وغاية أمرهم أنهم محل لبروزها فقط، والفعل فيها لله تعالى وحده، فلا فرق عندهم بين

الكرامة وبين سائر الأفعال الواقعة في الوجود، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة محبتهم لآل سيدهم ومولاهم رسول الله ﷺ وأصحابه، ولا يفاضلون بينهم إلا بنص أو إجماع، ويهربون من التعصب لأولاده ﷺ على أصحابه وعكسه.

وسمعت سيدي عليًا الخواص ﷺ قال: لا يكفي في محبة الشرفاء وأولاد الصحابة المحبة العادية، وإنما يكفي العبد المحبة الحقيقية، وهو أن يتحمل التعذيب بالنار، والضرب، وأخذ المال، والإخراج من الأوطان، ولا يرجع عن إظهار محبتهم ونشر محاسنهم، كما وقع لبلال وعمار وصهيب، ولم يرجعوا عن دين الإسلام، فإن محبة أولاده ﷺ والصحابة من الدين بيقين، ونظير ذلك ما وقع للإمام أحمد بن حنبل ﷺ في مسألة القول بخلق القرآن، فاحتمل الضرب الشديد والحبس، ولم يوافقهم على القول بخلق القرآن ولو بقصد التأويل، فحقق يا أخي المحبة في أولاد رسول الله ﷺ وأصحابه، فربما تكون محبتك عادية، وإياك والتفاضل بينهم بالهوى، فإن ذلك من قسم الغيبة للمفضول، وقد قال سفيان الثوري في طبيبين دخلا عليه: لولا أخشى أن تكون غيبة لقلت: إن أحدهما أعرف بالطب من الآخر، انتهى.

فلا ينبغي لأحد أن يقول: فلان أعلم من فلان إلا بطريق شرعي.

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالكما، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تفتيشهم لأعضائهم الظاهرة والباطنة صباحًا ومساء هل حفظت حدود الله تعالى التي حدها، أو تعدت حدوده؟ وهل قامت بما أُمِرت به من غض البصر وحفظ اللسان والأذن والقلب وغير ذلك على وجه الإخلاص أو لم تقم؟

وذلك ليحمدوا الله تعالى إن رأوا جوارحهم محفوظة، ويستغفروا الله تعالى إذا رأوها وقعت في محظور أو مكروه، وكان هذا من خلق سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ، ولم أر له فاعلاً بعد سيدي علي الخواص، وأخي الشيخ أفضل الدين إلى وقتي هذا، وبه يعرف العبد مقدار ما أنعم الله تعالى به عليه عادة من استعماله في الحسنات، وحفظه من الوقوع في الزلات، فإن رأى جارحة من جوارحه أطاعت شكر الله تعالى ولم ير نفسه أهلاً لها، وإن رآها تلطخت بمعصية من معاصي الله تعالى يستغفر الله تعالى منها، ويشكره إذا لم يقدر عليه أكثر من تلك المعصية.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي إذا دخل مصر بدأ بالبيمارستان، فيطوف على المرضى واحدًا واحدًا، فلا يخرج من عند المرضى إلا وهو يرى نعم الله تعالى قد غمرته، فيشكر الله تعالى الذي لم يبتلِ جوارحه التي عصت بالأمراض والجراحات، والدمامل والقروح، فإن كل عضو عصى استحق نزول سائر البلايا به.

وكان سيدي علي الخواص إذا وجد في قلبه قساوة يدخل على المرضى بالبيمارستان، ثم يدخل بيت الوالي فيجلس فيه وينظر ما يقع فيه من العقوبات على أصحاب الجرائم والتهم، ثم يخرج إلى حبس الديلم والمقشرة، فينظر إلى المقيدين فيه والموعودين بالقتل وغيره، فلا يخرج إلا وهو رقيق القلب يبكي ويشكر الله تعالى الذي لم يؤاخذه على ما وقع فيه، فإن العبد ربما يستحق أن يفعل به جميع ما رآه في البيمارستان، وبيت الوالي، وحبس المجرمين، فكم عصى العبد بفرجه ولسانه، وسمعه وبصره، ويده ورجله، وفمه وقلبه فاستحق العمى وطلوع القروح في عينيه، وتربية الدود في قبة أجفانه من الداخل حتى يصير لا يهنأ بأكل ولا نوم، واستحق طلوع القروح والخراريج في باطن أذنه حتى أنه يحس بأن خازوقًا من حديد تدق في أذنه ليلاً ونهارًا، ومنهم من تدود أذنه ويصير فيها دود كأذناب المغازل، ومنهم من يطلع في لسانه الذي اغتاب به الناس طلوعات فذاب لسانه وشفتاه وتقرح فمه ونتن حتى صار طاقة وأسنانه بارزة وأنفه أكل حتى صارت زوجته لا تقدر على القرب منه من القيح والنتن، ومنهم من طلع في محاشمه الأكلة حتى رمت ذكره وأنثييه، وصار موضعه كالطاق، والدود يغلي فيه كالقدر، ومنهم من طلع في دبره أكلة فأكلت المحيط به، وصار روثه دائمًا نازلاً لو لم يشده بخرقة ومشاق، ومنهم من طلع به بواسير ونواصير داخلة وخارجة وشقاق، فصار يحس بأن دبره يشرح بسكين كالة ليلاً ونهارًا ولا يهنأ بنوم، ومنهم من ضربه البرص والجذام حتى تقطعت أعضاؤه، وقذرته زوجته التي يحبها وأصحابه، ومنهم من طلع عليه الحب الفرنجي، وصار عظمه يضرب عليه ليلاً ونهارًا يتمنى الموت لا يجاب، وينام الجن والإنس وهو لا ينام، ومنهم من أبتلى بأسر البول والحصاد، وجرد الكلا حتى صارت كلاه تقع قطعًا قطعًا من دبره، ومنهم من تورم قلبه كما بسطنا الكلام عليه في كتاب «العهود المحمدية».

فاعمل يا أخي بهذا الخلق صباحًا ومساء؛ ليحميك الله تعالى من هذه الأمراض إن شاء الله تعالى، وأكثر من الشكر والاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الاستغفار ليلاً ونهارًا سواء تذكروا ذنوبًا معينة أم لم

يتذكروا، لاسيما أول النهار وآخره، وأول الليل وآخره، فينام أحدهم على الاستغفار ويصبح على الاستغفار، وبذلك يأمن العبد من نزول البلاء عليه قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33] والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: خدمة زوجاتهم وأمهاتهم إذا مرضن، ولا يأنفون من شيل القذر من تحتها، فإنه لو مرض لفعلت معه ذلك إذا عجز عن الذهاب إلى بيت الخلاء، وإذا طال مرض زوجة أحدهم السنة وأكثر صبر على العزوبة وفاء بحقها، ولا يتزوج ولا يتسرى إلا لغرض شرعي ظاهر، وإن احتاج إلى الجماع تعاطى أسباب تخميد الشهوة بقلة الأكل، والاشتغال بالعبادة ونحو ذلك.

فعلم أن من لم يخدم زوجته أو جاريته أو غلامه إذا مرض، فهو لم يشم من أخلاق الصالحين رائحة، فإن من أخلاقهم الخدمة لمن ليس له خدمة ولا فضل عليهم، ولا يرون بعد ذلك لهم عليه فضلاً، فكيف بمن خدمهم الدهر؟ وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة كراهتهم للخلوة بالأجنبية، ولو غلب على ظنهم السلامة من الوقوع في فاحشة احتياطًا لأنفسهم، وإذا كان النظر حرامًا إلى الأجانب فكيف بالخلوة بهن؟ فإن الخلوة أقرب إلى الفتنة من النظر، وفي الحديث: **«ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»**[1] ومن كان الشيطان حاضرًا عنده فلا يأمن وقوعه في كل فاحشة، فقد عمل الشيطان على أعظم منا من العباد والزهاد، ثم أقل ما يحصل من الخلوة بالأجنبية سر العبد، وحرمانه لذة العبادة كما جرب، وأقبح من ذلك التعرض للفتنة، واستبعاد العبد أن مثله لا يخاف من مثل ذلك فإنه غرور من إبليس وحبل يستدرجه به.

وقد سُئِل الشيخ أبو القاسم النصر أباذي شيخ خراسان في عصره عن شخص يقول: ما عليَّ لوم في مجالستي للنساء؛ لعدم ميلي إليهن، فقال الشيخ: مادامت الأشباح باقية فإن الأمر والنهي باقٍ في حق كل مكلف، ولا يجترئ على الشبهات إلا من هو معرض المخالفات، انتهى.

---

(1) رواه الطبراني (205/8، رقم 7830)، قال المنذري (26/3): غريب. وقال الهيثمي (326/4) : فيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف جدًا وفيه توثيق.

وقد خالف قوم فاغتروا بدينهم، فوقعوا في المخالفات كما هو مشهور عن بني إسرائيل، وفي هذه الأمة.

وإذا كان الحق تعالى يقول لخيار الناس من الصحابة في حق خيار الناس من زوجات النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:53] فكيف يدعي أحمق وحمقى أن مثلهم لا يخاف على نفسه؟ فالصادق من نفرت نفسه من خلطة الأجانب، وقامت كل شعرة منه عند رؤيتها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مطالبة نفوسهم بحقوق الناس، وعدم مطالبتهم الناس بحقوقهم، فإذا عملوا عرسًا أو مات لهم ميت، ولم يحضر أحد من إخوانهم حملوه على أحسن المحامل، ولم يعاتبوه، وإذا عمل أحد من إخوانهم مهمًا، ولم يحضروا ولم يساعدوه يوبخون نفوسهم على ذلك، ويراعون إزالة ضرورات الناس ويرون تقديمها على ضروراتهم، ثم إن وقع أن أحدًا أعلم إخوانه بالصلاة على ميته مثلاً، فلا يعلمهم إلا بعد انتهاء تجهيز الميت؛ ليخفف عليهم الأمر، فإن من دعا إخوانه من بكرة النهار مثلاً والجنازة لا تخرج إلا بعد الظهر عادة فقد غير نيتهم من كثرة تقلقهم، فلا يصير لهم كمال توجه إلى الدعاء لذلك الميت بالقلب، فيريد أحدهم أن يدعوا للميت بتوجه تام فلا يصح له ذلك؛ لتشتت قلبه في أودية حوائجه، لاسيما إن كان أحدهم معيلاً، وذلك اليوم يوم سوق، أو طالب علم ممحون[1] بدرسه، ونحو ذلك فإنه يصير حاضرًا بجسمه وقلبه غائب، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مساعدة إخوانهم الذين تصدوا لحملات الناس؛ سترة لإخوانهم بين الناس فلا ينام أحدهم، ولا يجامع، ولا يلبس ثوبًا نظيفًا ولا يبني دارًا، ولا يضحك، ولا يضع جنبه للأرض، ولا يتفرج في بستان ولا غير ذلك، حتى تنقضي تلك الحملة، لاسيما حملات الولاة وأعوانهم من الظلمة إذا عزل أحدهم من ولايته أو وظيفته، ولم تأخذ العقوبة حدها فيهم فإن الفقير يكاد أن يهلك، وهذا الخلق قل من

---

(1) ممحون: وقع في محنة ومحن، ومحن فلان وامتحن، ورجل ممحون وممتحن، ومن المجاز: ثوب ممحون: خلق، وقد محن هذا الثوب إذا محق بطول اللبس، ومحن الأديم: مدّه حتى وسّعه، وبه فسّر قوله تعالى: (امتحن الله قلوبهم) أي: شرحها ووسّعها، ومحنت ناقتي: جهدتها بالسير.

يفعله الآن في حق أخيه، بل ربما شمت أحد بأخيه إذا انتكب صاحبه من الأمراء والأكابر، وصار يضحك ويود بخس أخيه، وفضيحته عند ذلك الأمير الذي حمله الحملة كما وقع لي ذلك معهم، هذا في حق أمير لا يحسن إليهم ولا يعرفهم، وإنما هو من أصحاب صاحبهم، فكيف بهم وكان ذلك الأمير فضل وإحسان إليهم؟.

وكل هذا من تعظيمهم الخرقة فيحبون ألا يخذل أحد ممن انتسب إلى أهلها، فعلم أن من لم يساعد أخاه في حملته فهو مدعٍ كذاب في الطريق، وإن كان له شعرة وعذبة وعمامة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم قبولهم هدية ممن حملوا عنه حملة كان دفعها عنه معلقًا على توجه الفقراء إلى الله تعالى، وإلا فالأمور المبرمة لا يصح لأحد ردها عن نفسه فضلاً عن أن يردها عن غيره، ثم إن ذلك لا ينافي التسليم كما توهمه بعضهم، فالعبد يحمل هم إخوانه من حيث كسبهم الذنوب التي استحقوا بها ذلك البلاء النازل عليهم، ويسلم لله تعالى من حيث التقدير الإلهي الذي سبق به العلم، إذ لا يمكن رد ذلك، فافهم.

فإنه قد غلط في ذلك جماعة من أهل عصرنا، فلا يحملون هم أحد من المسلمين زاعمين أنهم مسلمون لله تعالى، ويخرجون على من يرونه يحمل هموم إخوانه، ويقولون: ما لفلان ومعارضة الأقدار، ويتوهمون أن ما هم عليه أكمل وهو جهل.

فقد كان عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، وسفيان الثوري وغيرهم إذا نزل بالمسلمين بلاء لا يهنأ أحدهم بنوم ولا بأكل ولا بشرب حتى يرتفع ذلك البلاء، فهل كان أولئك الذين ذكرناهم ناقصين وأنت يا مرعي كامل؟.

وقد دخلت مرة في حملة رزق الفقراء والمساجد لما وقع فيها التفتيش في سنة ثمان وخمسين وتسع مائة فما كنت إلا هلكت، ولم يساعدني فيها أحد من الفقراء الظاهرين في مصر إلا ثلاثة فقراء، فجزاهم الله عن المسلمين خيرًا.

وقد تقدم في هذه الأخلاق أن مقام تحمل هموم المسلمين ليس هو لكل أحد إنما هو لأفراد من الفقراء، وغالبهم يقول إذا شكى أحد له بلاء نزل به: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم يغفل عنه ويأكل وينام ويجامع كما هو مشاهد، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبتهم للوحدة أواخر أعمارهم، وكراهتهم لتردد الناس إليهم

فضيق عمرهم عن إعطاء الواردين حقوقهم من أبناء الدنيا وغيرهم، فإن غالب المترددين لا يكابدون أمر آخرتهم، وإنما حديثهم في أمور الدنيا، والفقير الصادق قد النهى عن مثل ذلك بالتأهب للقاء الله تعالى، وتمهيد فراشه في قبره، وما يقاسيه بعده من الأهوال إلى أن يجاوز الصراط، وقد منَّ الله تعالى عليَّ بذلك من سنين، فكل يوم لا يزورني فيه أحد من أبناء الدنيا أشكر الله تعالى عليه، ولما بلغ الإمام الشافعي ﷺ أربعين سنة صار كأنه غريب بين الناس وأنشد:

صديق ليس ينفع يوم بأس ... قريب من عدو في القياس
وما يبغي الصديق بكل عصر ... ولا الإخوان إلا للتآسي
خبرت الدهر ملتمسًا بجهدي ... أخا ثقة فأكواه التماسي
تنكرت البلاد عليَّ حتى ... كأن أناسها ليسوا بناسي

ولما طلع الشيب في لحيته أدمن إمساك العصا، فقيل له في ذلك، فقال: لأذكر أني مسافر من هذه الدار، ثم أنشد قوله:

خبت نار نفسي باشتعال مفارقي ... وأظلم ليلي إذ أضاء شهابُها
أيا بومة قد عشّشت فوق هامتي ... على الرغم مني حين طار غرابُها
رأيتِ خراب العمر مني فزرتني ... ومأواك من كل الديار خرابُها
أأنعم عيشًا بعدما حل عارضي ... طلائعُ شيب ليس يغني خضابُها؟!
وعزة عمر المرء قبل مشيبِهِ ... وقد فنيت نفس تولى شبابُها
إذا اصفرَّ لون المرء وابيضَّ شعره ... تَنغَّص من أيامه مستطابُها
فدع عنك سوءاتِ الأمور فإنها ... حرام على نفس التقيِّ ارتكابُها
ولا تمشِيَنْ في منكب الأرض فاخرًا ... فعمّا قليل يحتويك ترابُها
ومن يذق الدنيا فإني طعمتها ... وسيق إليّ عذبها وعذابُها
فلم أرها إلا غرورًا وباطلاً ... كما لاح في ظُهر الفلاة سرابُها
وما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ ... عليها كلابٌ همُّهنَّ اجتذابُها
فإن تجتنبها عشت سِلْمًا لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابُها
فطوبى لنفس أُوطِنَتْ قعر دارها ... مغلقةَ الأبواب مُرخىً حجابُها

فعلم أن كل فقير تأثر من إدبار الناس عنه أواخره، فهو مدعٍ كذاب لمخالفته أخلاق العارفين أواخر أعمارهم.

وقد بلغنا أن سيدي أحمد بن الرفاعي ﷺ لما حضرته الوفاة قال ليعقوب الخادم: يا ولدي والله ما كان لي خيرة إلا في الوحدة، فياليت حميدًا لم يعرف أحدًا ولم يعرفه أحد، فقال له يعقوب في ذلك، فقال: يا ولدي إن فضيحة الآخرة عظيمة، فإذا كان من يعرف الفقير في الآخرة قليلاً كان ذلك أستر له، ثم صار يبكي ويقول: وافضيحتاه مما فرطت في جنب الله، ولما حضرت الوفاة الإمام عمر بن الخطاب ﷺ قالوا له: استخلف ولدك عبد الله فقال: يكفي واحد من آل الخطاب يأتي يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه، وكان ﷺ يقول: لو أني خيرت قبل أن أدخل الدنيا بين أن أخلق وأقاسي أهوال يوم القيامة، وبين ألا أخلق لاخترت ألا أخلق.

وكان أبو بكر الصديق ﷺ يقول: لقد وددت أني تبنة ملقاة تحت النعال، وكان إذا تنفس يشم من جوفه رائحة الكبد المشوي.

وكان سيد المرسلين ﷺ يسمع من صدره أزيز كأزيز الرحى، وغليان كغليان القدر على النار من شدة الخوف من سطوات الحق - جل وعلا - وهكذا كل من كان من أتباعه ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهودهم قبيح زلاتهم، وخوفهم أن الله تعالى يخسف بهم الأرض، أو يمسخ صورهم صورة كلب أو خنزير على الدوام، ولو أنه تعالى خسف بهم الأرض لرأوا ذلك من بعض ما يستحقونه.

وممن أدركته على هذا القدم سيدي علي الخواص، وأخي الشيخ أفضل الدين، وسيدي علي النبتيتي الضرير، سيدي علي البحيري، وسيدي محمد المنير، وسيدي محمد الشناوي، والشيخ عبد الحليم بن مصلح[1]، والشيخ محمد بن داود، والشيخ ابن

---

(1) هو عبد الحليم بن مصلح المنزلاوي، العبد الصالح، الورع الزاهد. كان يؤدب الأطفال أولاً ولا يأخذ على ذلك أجرًا، فاشتهر لذلك بالصلاح ببلاد المنزلة، وصار يقصد للزيارة والتبرك، فلقيه رجل من أرباب الأحوال اسمه العبيدي فقال له: لا تكون من الصلحاء إلا إن صرت تنفق من الغيب، ثم قال: اطلب مني شيئًا آتيك به. فقال: دينارًا.. فقبض من الهواء فأعطاه دينارا. فأثر ذلك فيه، فجد واجتهد، ومكث عامًا يصوم النهار ويقوم الليل، فآتاه العبيدي وقال: الآن صح لك اسم الصلاح، مد يدك هات لي دينارًا. فمد يده في الهواء فآتاه به، فاشتهر من يومئذ شهرة تامة، وعمّر عدة جوامع بالمنزلة وغيرها، ومارستان، وجعل زاويته سماطًا للوارد، وصار كلما يُطلب منه نفقة، يخرجها من كيس من رأسه. مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة. انظر: الطبقات الشعرانية (134/2)، الكواكب الدرية (790).

عنان، وشيخ الإسلام زكريا، والشيخ شمس الدين السمنودي، والشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي، وجماعة ذكرناهم في كتاب «الطبقات» وسيأتي بسط ذلك آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

فاعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله الذي منَّ علينا بذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبة إخوانهم المسلمين محبة أخوَّة وإسلام وإيمان، ولا محبة طبع وإحسان، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10] فآخى بين المؤمنين، فالمؤمن الكامل لا يحتاج في محبة أخيه إلى إحسان بعد أن آخى الله تعالى بينه وبينه.

ومن احتاج من محبة أخيه إلى إحسان أو موافقة أغراض فما أحبه امتثالاً لأمر الله ﷻ، وهذا الخلق غريب في هذا الزمان، ولم أر له فاعلاً إلى وقتي هذا كما بسطت الكلام على ذلك في «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يفيدوا كل من جلس إليهم من الفقهاء والفقراء والعوام شيئًا من الفوائد، فلا يفارقهم جليسهم إلا بفائدة، وممن أدركته على هذا القدم سيدي أفضل الدين تلميذ سيدي علي الخواص، ويحتاج من يعمل إلى علم وافر، ونفوذ بصر إلى قلوب الجالسين عنده، فيفيد كل إنسان ما يراه عاريًا عن علمه ومعرفته، وما يراه يعلمه لا يتعب نفسه في تعليمه إياه، ومن لم يكون كذلك فهو يبدر الكلام سواء احتاج جليسه إليه أم لم يحتج.

وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - له علم بسائر الحرف، فكان إن جلس إليه خياط استفاد منه، أو فيخراني استفاد منه، أو مسلك استفاد منه، أو طباخ استفاد منه، أو فقيه استفاد منه وهكذا في سائر الحرف ﷺ فاعلم ذلك واعمل على تحصيله، ثم اعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم التعشق إلى معرفة الأمور المستقبلية، فلا يطلبون شيئًا من ذلك بخلاف أرباب الأحوال، ولذلك كان الكمل يعطون أرباب الأحوال كلما يسألونهم فيه إذ الكاملون لا كشف لهم رحمة من الله بهم، لاسيما اطلاعهم على زلات الناس، وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي - رحمه الله - يقول: من الأولياء من يكشف له عن ملكوت السماوات والأرض على التفصيل، ومع ذلك لا يدري ما في

جيبه؛ لأنه مع الله تعالى بحسب ما يطلعه عليه، لا تعشق له إلى حال ولا مقام، انتهى.

وربما ظن بعض الناس أن صاحب الكشف من أرباب الأحوال أعلى مقامًا من ذلك العارف الذي لا كشف له وليس كذلك؛ لأن علو المقام إنما هو بحفظ الأنفاس مع الله تعالى، والاستقامة على الشريعة المطهرة، وأما الكشف والطيران في الهواء والمشي على الماء، فليس في ذلك أجر، فإنه لم يرد لنا قط حديث: إن من كشف له عن كذا كتبت له حسنة، وقد حكى لي الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري: إن مجذوبًا طلب من سيدي أبي العباس الغمري نطعًا جديدًا فأعطاه له فقال: هات آخر فأعطاه له، فقال له: هات آخر، فقال له: أنت طماع ولم يعطه النطع الثالث، فبعد مدة جاء الخبر أن مراكب الخواجه بن عليبة الثلاثة ببحر الهند غرقت، ولكن جاءهم طائر كبير ومعه نطعان، فسد كل مركب بنطع، فسلما وغرقت الثالثة.

وكان قد حمل سيدي أبو العباس الغمري حملة المراكب لكونه من أصحابه، فندم سيدي أبو العباس الذي لم يكن أعطاه النطع الثالث، فانظر يا أخي اطلاع ذلك المجذوب دون سيدي أبي العباس، وأعط أرباب الأحوال كل ما طلبوه منك، ولو كنت شيخًا من مشايخ الطريق فربما رأوا بلاءً نازلاً عليك، فطلبوا دفعه عنك بالتصدق بما يأخذونه منك، فإن من عادتهم إبهام الأمور على الإنسان، ولو أنهم قالوا له: أعطنا كذا؛ لندفع عنك كذا لكان يعطيهم من غير توقف، ولكنهم يغلب عليهم الامتحان للناس.

وأخبرني الشيخ جمال الدين ولد شيخنا شيخ الإسلام زكريا: أن الشيخ فرج المجذوب[1] طلب منه وهو خارج إلى الحمام نصفًا فأعطاه له، ثم آخر بعد آخر، حتى

---

(1) قال المناوي: هو من له الكشف التام، والكرامات الخارقة. كان جنديًا فجذب وهو مشغول بأمر الإقطاع. وكان دائمًا يقول: عندك إقطاع سفرية، بشرط أن يكون فيه ضيافة من فراخ وأوزّ وغنم. وكان يجمع الدراهم ويفرقها على المحاويج. وله وقائع كثيرة مع أهل مصر.
أخبرني والدي أنه جاءه، وقال له: أعطني ثلاثين نصفًا فلم تسمح نفسه إلا بخمسة أنصاف، فأخذها، وصار كل حانوت مر بها يرمي فيها نصفًا، ثم ذهب.
قال: فجاءني رجل بكتاب من الصعيد من الشهابي أنه أرسل إلي ثلاثين إردبا قمحًا في ذلك اليوم بعينه، فجاءني رجل دفع إليّ منها خمسة ، ولم أقف لبقية الثلاثين على أثر ولا خبر.
وقال الشيخ جمال الدين بن شيخ الإسلام زكريا: خرجت للحمّام فرآني، فقال: نصف. فأعطيته، وقال: آخر، وهكذا إلى تسعة وثلاثين نصفًا، فقال: هات. قلت: ما بقي غير نصف للحمام. فقال: كتبت لك وصولاً على شموال اليهودي، فلما عدت من الحمام جاءني يهودي بتسعة وثلاثين دينارًا، فقال: أقرضني والدك أربعين دينارًا، ولم أقدر إلا على تسعة وثلاثين. فأعطانيها.

بلغ تسعة وثلاثين نصفا فقال: أعطني نصفًا آخرًا، فقال: يا شيخ فرج هذا على اسم الحمام، وأبى أن يعطيه له، فقال: خذ لك من شموال اليهودي على تسعة وثلاثين دينارًا، فلما خرج من الحمام وجلس في خلوة والده بالمدرسة السابقة دق عليه داق الباب فإذا هو يهودي، فقال له ما حاجتك؟

فقال: كنت أقترض من والدك أربعين دينارًا، وليس بيني وبينه شاهد إلا الله تعالى، وقد عجزت عن دينار منها وأعطاه التسعة وثلاثين دينارًا، فندم سيدي جمال الدين الذي لم يكن أعطاه النصف الذي مسكه على اسم الحمام، انتهى.

فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إطعام الفقير ما يطلبه منهم بالشرط، فقد يكون ذلك امتحانًا من الله تعالى لهم، وربما دخل عليهم فقير بعد العشاء الآخرة، وبعد أن تعبوا في عشاء ضيوفهم، وقال: أنا ما آكل إلا خبزًا سخنًا وطعامًا جديدًا، وردَّ عليهم الخبز اليابس البارد، والطعام الذي فضل من الضيوف امتحانًا لهم، فيكون ذلك سبب زوال النعمة عنهم، كما وقع في بني إسرائيل في قصة الأقرع والأبرص والأعمى المشهورة.

فليحذر من صار موردًا للناس في هذا الزمان من التقلق من الفقير إذا تشرط عليه وعدم إجابته إلى ما سأل، فربما تحولت النعمة عنه فلا ترجع، وصار يسأل على الأبواب، كما وقع لابن الزرازيري وغيره كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن».

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الدعاء لسيدنا ومولانا أبي العباس الخضر فما واظب أحد على الدعاء له إلا واجتمع به، بل موته وأفاده فوائد لم تكن عنده، فإنه ﷺ لا يجتمع بأحد إلا ويعلمه من العلم ما لم يكن عنده، وهو غني عن علم العلماء بما علمه الله تعالى له، وما من ولي حق له قدم الولاية إلا ويحصل له به اجتماع، لكن يأتي للعارفين

-

وله وقائع كثيرة مع أهل مصر. انقطع آخرًا بالمارستان، ثم مات. ودفن بزاوية الشيخ بهاء الدين بباب الشعرية.

انظر: طبقات الشعراني (2/142)، الكواكب الدرية (815).

في اليقظة وللمريدين في المنام؛ لأنهم لا يطيقون صحبته في اليقظة، ويحتاج من يريد لقائه مع كثرة الدعاء له إلى ثلاثة أمور إن لم تكن فيه لا يصح اجتماعه به يقظة ولو كان على عبادة الثقلين:

الأول: أن يكون الإنسان على سُنّة لا يتدين برأي.

الثاني: ألا يكون له حرص على الدنيا حتى أنه لو خبّأ درهمًا إلى غد لا يجتمع به.

الثالث: أن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام، فلا يكون عنده شحناء ولا بغض لأحد من المسلمين إلا بطريق شرعي خالٍ من حظ النفس، فهذه شروط رؤيته في اليقظة والاجتماع به، وقد كان سيدي محمد القرشي يطبخ شوربة القمح كثيرًا، فقيل له في ذلك، فقال: إن الخضر ﷺ بات عندي ليلة، فاشتهى عليَّ شوربة قمح، فلم أزل أحبها لمحبة السيد الخضر لها.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: اجتمعت بالخضر ﷺ، وأفادني عدة مسائل فلو جادلني ألف فقيه الآن على أنه مات لم ألتفت إليهم.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي - رحمه الله - تعالى يقول: خصلتان أكرههما من الفقيه: قوله بموت السيد الخضر ﷺ، وقوله بكفر الحلاج، انتهى.

والحمد لله رب العالمين.

الباب الثالث

في جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم: عدم إنكارهم على أرباب الأحوال في أكلهم من أطعمة الظلمة؛ لأنهم من أقسام المجاذيب في عدم التكاليف، وربما يكون الحق تعالى يستخلص لهم الحلال من الحرام، كما يستخلص لنا اللبن من بين فرث ودم، وقد أدركت من أرباب الأحوال جماعة كانوا على هذا القدم، منهم الشيخ أفضل الدين، فصنعت له يومًا فطيرة وقدمتها بين يديه، فصار يفتت منها، ويرمي للكلاب والقطط يمينًا وشمالاً، ويضع بين يديه شيئًا اجتمع منها نحو الربع في حجره، فأكل منه، فقلت له في ذلك، فقال: كان فيها قمح مخلوط من حرام وحلال، فسألت الله تعالى فميز لي الحلال من الحرام، فقلت: وهو دقيق؟ فقال: وهو دقيق، إن شاء الله على كل شيء

قدير، انتهى.

فانظر يا أخي هذا الأمر العجيب، ومثل هؤلاء الأولى بنا التسليم لهم؛ لأن الإنكار لا يتأكد إلا على من يتبع على أفعاله والمتشرع لا يتبع هؤلاء في مثل ذلك أبدًا، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إنكارهم على من يقول اجتمعت بملك الموت في اليقظة، وقال لي: كذا، وقلت له: كذا، أو على من يقول: اجتمعت بالسيد المسيح ﷺ في اليقظة، فإن ذلك ممكن على وجه الكرامة.

وقد كان الشيخ محمد الشربيني - رحمه الله - يجتمع بملك الموت كثيرًا، ويسأله عن أعمار الناس وما بقي منها، فيخبره كما أخبرني بذلك أصحابه.

وفي بعض الأوقات يقول لملك الموت إذا جاء يقبض روح أحد من أهله: ارجع إلى ربك فإن الأمر الذي أنزلت به نُسِخ وبقي من أجله كذا، وكذا يوم أو جمعة أو شهر أو سنة.

وأخبرني ولده سيدي أحمد أنه مرض حتى أشرف على الموت، فنزل ملك الموت وجلس عند رأسه قال: فجاء والدي، وقال له وأنا أراه: بقي من أجل ولدي ثلاثون سنة، فرجع عزرائيل وطبت من ذلك المرض، ولي بعد ذلك عشرون سنة ويقي عشرة، فكان الأمر كما قال.

وكذلك كان أخي الشيخ أفضل الدين يرى ملك الموت ويحادثه كثيرًا، وكذلك أخبرني أنه اجتمع بالمسيح ﷺ في سوق الوراقين بمصر المحروسة يقظة سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة، وسأل الشيخ أفضل الدين عن بعض علامات الساعة التي وقعت فسر بذلك، ولم يزل الناس يخبطون عشوى في مثل ذلك من غير دليل، فبعضهم يجوز ذلك، وبعضهم يمنعه.

وقد ذكر ابن سيد الناس في سيرته في قصة سلمان الفارسي من رواية الطبري وغيره أن المسيح ﷺ نزل بعدما رفع، فوجد أمه وامرأة أخرى عند الجذع الذي فيه المصلوب يبكيان عليه، فكلمهما وأخبرهما أنه لم يقتل، وإنما الله تعالى رفعه إلى السماء، ثم أرسل الحواريين ووجههم إلى البلاد.

قال الطبري والسهيلي: وإذا جاز أن ينزل بعد الرفع مرة، جاز أن ينزل مرارًا، ولكن لا يعلم المحجوبون أنه هو حي ينزل النزول الظاهر والموعود به، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير كما جاء في الأحاديث الصحيحة، قال الطبري: ويروى أنه إذا

نزل يتزوج امرأة من جذام، ويدفن إذا مات في روضة سيد الخلق ﷺ، انتهى.

وكذلك ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي أنه اجتمع بالمسيح عليه السلام يقظة، وتاب على يديه وأمره بالسياحة والزهد في الدنيا، قال: فهو أول أشياخي عليه السلام، انتهى.

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصي في كتابه المسمى بـ«الوحيد» أن الشيخ تاج الدين بن شعبان كان إذا سأله إنسان في حاجة يقول له: اصبر حتى يجيء جبريل.

قال الشيخ عبد الغفار القوصي: ولا ينبغي الإنكار على مثل ذلك؛ لأنه ليس بمستحيل؛ لأن قلوب الأولياء جوالة بالملكوت ولها مخاطبات لملائكته، ومحادثة جبريل ليست بنبوة ولا وحي ولا إرسال، انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» في الباب الثالث عشر فراجعه وسلِّم للأولياء ما يخبرون به من جميع الممكنات، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تعظيمهم للفقير بادئ الرأي بمجرد رؤيتهم لمرقعته مثلاً، ولا يتوقفون على معرفة مقامه في الطريق كما أن أبناء الدنيا يعظمون من رأوه لابسًا ملبس جند السلطان بمجرد رؤيته، ولا يتوقفون على معرفة وظيفته هل هي كبيرة أو صغيرة؟.

فعظِّم يا أخي الفقراء ولا تتوقف على معرفة مقامهم، فإنهم كالسهم القاتل.

وربما كان أحدهم ممن يغضب الحق تعالى لغضبه ويرضى لرضاه، وربما وقع منك يا أخي ازدراء له، فدعا عليك فاستجاب الله دعاءه ولو مزحًا كما وقع لبعضهم أنه أراد القرب من زوجته فصاح واحد من أولاده وكانوا سبعة، فقال: اسكت أماتكم الله تعالى، فمات السبعة لوقتهم فبلغ ذلك سيدي إبراهيم المتبولي، فأرسل وراء الفقير، وقال له: أماتك الله تعالى فمات الفقير لوقته، فقال سيدي إبراهيم المتبولي: لو بقي لأمات خلقًا كثيرًا انتهى.

وفي الحديث: «**إن الله تعالى أخفى أولياءه في عباده**»[1] فقد يكون ذلك الجندي أو القاضي أو التاجر أو المحترف مثلاً من أولياء الله تعالى الذين أخبر أنه تعالى يحارب من حاربهم، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) انظر: الفتوحات المكية (2/168).

ومن أخلاقهم: نداؤهم لأصحابهم بالقلب فيأتون أو يمتنعون من المجيء إليهم، إما عقوبة لهم على ذنوبهم، أو إراحة لهم من تعب المجيء مثلاً، فليحذر الإنسان من وقوعه من عدم التردد إليهم، فربما عاقبوه بذلك على ذنوب سلفت منه، أو لعدم انتفاعه بهم كما هو الغالب في المترددين للفقراء في هذا الزمان.

وأعرف جماعة لا يقدر أحد منهم أن يحضر معنا الورد يومًا واحدًا، وربما يتوقف أحدهم عن المجيء إليّ حتى يغلب على ظنه أن الورد فرغ، ومثل هؤلاء لا فائدة في ترددهم؛ لعدم شربهم من مسقاتنا، بل الذي ينبغي لنا أن نسأل الله تعالى أن يعوقهم عنا مادمنا في قيد الحياة، كما أوضحنا ذلك في كتاب «المنن الكبرى».

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يجددوا معالم الطريق كلما خلقت كما فعلت أنا في هذا الكتاب، فإنني بحمده تعالى جددت به غالب ما خلق واندرس من أخلاق الصالحين الذين أدركناهم في أول النصف الأول من القرن العاشر، وما بقي إلا العمل بها، وأظن أن غالب فقراء هذا الزمان كان لا يعرف شيئًا من هذه الأخلاق قبل ذكري لها كما يعرف ذلك كل منصف خالٍ عن العصبية والدعوى، وكذلك القول في علماء الشريعة لم يزالوا يجددون الشريعة، وأقوال علمائها كما اندرست إما بالتأليف، وإما بالتدريس، وإما بترجيح ما خفي دليله على المتقدمين ونحو ذلك.

وممن علمته يجدد الشريعة في هذا الزمان بأفعاله وأقواله سيدي محمد البكري، وسيدي محمد الرملي، والشيخ شمس الدين الخطيب، والشيخ نور الدين الطندتاوي، والشيخ شمس الدين البرهمتوشي، والشيخ سراج الدين الحانوتي، والشيخ بدر الدين الشهاوي، ونحوهم ممن ذكرناه في كتاب «الطبقات» فكل واحد منهم لو انفرد في أمة من الأمم لهداهم بإذن الله إلى الصراط المستقيم، فأسأل الله تعالى أن يفسح في أجلهم وأجل تلامذتهم؛ ليحيوا الذين بعدهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الجد والاجتهاد في العبادة؛ ليجددوا الطريق بعد موت أشياخهم الذين كانوا يجددون آداب الطريق، فإنه لا بدّ من حصول الفترة بين كل جماعة وجماعة من الأولياء كما كان يقع بين الرسل فإنهم على أقدامهم، والاجتهاد وإن كان في زمن أشياخ الإنسان فرض كفاية، فهو في حقه بعد موت أشياخه فرض عين.

وقد كان للطريق حرمة وهيبة في زمن الأشياخ الذين أدركناهم في مصر وقراها كسيدي علي المرصفي، والشيخ أبي السعود الجارحي، والشيخ تاج الدين الذاكر، والشيخ محمد الشناوي، والشيخ محمد بن داود، والشيخ محمد العدل، والشيخ أبي بكر الحديدي، والشيخ عبد الحليم، والشيخ محمد المنير، والشيخ عبد القادر الدشطوطي، وسيدي علي الخواص ونحوهم - رضي الله عنهم أجمعين - فلما درج هؤلاء إلى رحمة الله تعالى خلت الديار المصرية وقراها ممن يحيي الطريق عدة سنين حتى أظهر الله تعالى بعدهم الجماعة الموجودين في مصر الآن، فأسأل الله تعالى أن يفسح في أجلهم وأجل تلامذتهم، فإن الدين لا يقوم إلا بدولة العلماء والصوفية فبهم يكمل الدين في دولة الظاهر والباطن، وتكون عبادة الإنسان سالمة من النفاق، فإن خشع ظاهرا طولب بالخشوع في طريق الحقيقة باطنًا أيضًا، فتكمل عبادته بذلك في طريق الحقيقة باطنًا أيضًا فتكمل عبادته بذلك في طريق الحقيقة والشريعة، وكذا القول في سائر مقامات الطريق، فلو أن الفقيه راعى الباطن كما راعى الظاهر، وطابق بينهما كان هو الصوفي حقًا، ولكنه ترخّص ولم يناقش نفسه في الباطن ففرق الناس بينهما وصاروا يقولون: هذا حقيقة وهذا شريعة، فهو العالم العامل الصوفي حقًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شد الخط والزجر والتوبيخ والهجر لمن يقول: ما ثم إلا الله تعالى، فإن إطلاق هذا اللفظ يبنى عليه هدم الشريعة كلها.

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد ﷺ يقول: ما ثم إلا الله، أو ما ثم فاعل إلا الله؛ لأن صاحب هذا القول إن اعتقد صحة إطلاقه، ولم ينسب إلى الخلق وجودًا ولا فعلاً، فقد رد التكاليف الشرعية كلها، وبتقدير وقوعه في المعاصي فلا يصح له توبة منها ويقول: كيف أتوب من فعل ليس هو لي؟ فيهلك مع الهالكين، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لما كانت الأصنام تُعْبد بين فترات الرسل كذلك لا بدّ أن يعبد الهوى بين فترات الأولياء، بل ربما وقعت بين فترات الأولياء أمور هي أقبح من كل قبيح، وهو نفي الإله جملة، أو نفي المألوه جملة كما وقع فيه بعض الطوائف ، فقالوا: ما ثم إلا فروج تدفع وأرض تبلع، وقال بعضهم: ما ثم موجود إلا الله تعالى، وما ترونه عالمًا فهو الله حتى الأشياء التي لا تقال، فهؤلاء أبخس الطوائف كما بسطنا الكلام على ذلك في الباب الثالث عشر من كتاب «المنن الكبرى».

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الجزم بترجيح أحد من العلماء أو الفقراء على غيره أدبًا مع الله تعالى، فإنه يمحو ما يشاء ويثبت، وقد قالوا: من شأن الفقير ألا يرجح ولا يجرح؛ أي: لكثرة إقباله على الله تعالى فلا يصير له كثير معرفة بأحوال الناس، وإن وقع أنه رأى في أحد عيبًا يقول: إنما ذلك العيب لي؛ لأن المسلم مرآة المسلم، ولا يرى الإنسان في المرآة إلا صورة نفسه هو، ولو جهد كل الجهد أنه يرى جرم المرآة من تحت صورته التي ارتسمت فيها لا يقدر، فلذلك كان لا يجرح أحد، وإن وقع أنه زكّى أحدًا إنما ذلك صورة نفسه كذلك، فلا يحصل بها الغرض عند الحكام؛ لأنه لم يرَ فيه إلا صورة نفسه، وهو عدل ثقة ليس مرتكبًا كبيرة ولا مصرًا على صغيرة.

فعلم أنه لا يليق بفقير أن يتصدى لتزكية ولا تجريح، وإن اضطر إلى تزكية فليزك بطريق شرعي كما قدمنا ذلك مبسوطًا في هذا الكتاب بالنظر لتزكية الحكام في المحاضر، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الستر على من يدعي الطريق بغير حق إلا إن ترتب على الستر محظور، ثم وجوب النصح له فيما بينهم وبينه، ولهم في قلوبهم علامات يعرفون بها المحق والباطل، فلا يكاد يخفى عليهم الصادق من غيره، فإن بواطن الخلق مكشوفة لهم حتى أنهم يعرفون الخواطر التي تخطر للناس في قعور بيوتهم، ولكن يكتمون ذلك تخلقًا بأخلاق الله تعالى، فإنه يرى العيب ويستره، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة شفقتهم على الأيتام والمساكين والعميان وأصحاب العاهات كالمجذومين ومن بهم برص، فيأكلون مع الأجذم، ويفلون له رأسه ولحيته وثيابه، ويأكلون معه المائعات، ويشربون فضلته ثقة بالله وتوكلاً عليه، ويحبون المجاورة لهؤلاء عندهم في زاويتهم، ويعدون اليوم الذي يأتيهم فيه أعمًى أو مبتلًى يجاور عندهم كأنه يوم عيد.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بذلك، فأود أن لو كان المجاورون عندي كلهم عميان وعرجان ومجذومين، ولا أستثقل منهم إذا كثروا عندي في الزاوية، ولو صاروا ألف نفس، بل أتكدر كلما ينقصون بموت أو سفر لعلمي بأن الرحمة لا تفارقهم من كثرة قراءتهم وذكرهم وكسر خواطرهم، وإنما كنت لا أستثقل بهم كغيري لعلمي بأن رزقهم على الله تعالى لا عليَّ، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تعظيمهم العلماء، فلا يمرون عليهم وهم راكبون إلا لعذر، بل ينزلون ويسلمون عليهم ويقبلون أيديهم، بخلاف ما عليه جماعة من فقراء هذا الزمان، فربما رأى بعضهم نفسه أعلى من العلماء، وقال: هؤلاء محجوبون عن الله ﷻ، وذلك سوء أدب وهو نوع من الكبر الذي هو حرام بإجماع المسلمين، وغاب منهم أنه ما ثم أحد إلا وهو محجوب عن الله تعالى بحسب مقامه.

فعظم يا أخي حملة العلم والقرآن فإن عليهم مدار الدين، ولا يستخفن بهم إلا كل جاهل، وربما كان طلبة العلم أعلم منهم بالشريعة، بل ذلك واقع، فلو قلت لأحدهم: مقصودي أقرأ مختصرًا في الفقه لا يقدر على تفهيمه لذلك القارئ.

فاعلم ذلك واعرض هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم للقرب من الملوك والأمراء إلا إن أعطاهم الله تعالى الكشف الصحيح، فإنه لا يطيب لهم عيش مع الأمراء إلا إن كانوا يكاشفونهم بالأمور المستقبلية مما يفرحهم أو يحزنهم، وإذا لم يكن لهم كشف فحالهم معهم ناقص، وربما كانوا يحسنون إلى أحدهم بالفلوس والطعام، فيسألونه عن شيء يقع لهم في المستقبل فلا يدري، فيقطعون إحسانهم عنه ويردون شفاعاته التي هي المقصود الأعظم من صحبتهم.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يكره القرب من الأمراء من حيث عدم قيامه بواجب حقهم في الأدب معهم، ويقول: أنا لا أعرف ما يستحقه آحاد الناس من الأدب فكيف أعرف آداب الملوك والأمراء وأكابر الناس؟

وكان يقول: من إجلال الأمير عدم الأكل معه على سفرة واحدة، أو كثرة مجالسته بلا ضرورة.

وقد وقع أن الشيخ أبا العباس المرسي لما اجتمع بسلطان تلمسان ذكر بعض الناس من العامة للسلطان كراماته فقال: لا بدّ من امتحانه، فذبح له دجاجًا ودس فيه واحدة مخنوقة، فلما قدمت للشيخ أبي العباس قال: أطعموا هذه للكلاب وميزها من بين الدجاج، فاعتقده السلطان اعتقادًا تامًا، فلولا هذا الكشف لما كان اعتقده ولا عظمه.

فاعلم ذلك يا أخي ولا تصحب أحدًا من الأمراء إلا إن كنت صاحب كشف تام إذا أخبرتهم بشيء وقع لا محالة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم طلبهم كثرة الأتباع؛ إظهارًا للعجز عن القيام بحقوقهم من أكل وشرب وكسوة، ونصح وتأديب، وكأن لسان القدرة الإلهية يقول: من طلب كثرة الأتباع فليستعد للبلاء، وربما كثرت أتباع الفقير وعظموه فكاتبوا السلطان فيه بأنه يخاف على المملكة منه، فأرسل بقتله أو نفيه من بلده، كما وقع للشيخ علي الكازواني، وللشيخ أبو يس بالشام.

فعلم أن من عقل الفقير إذا رأى أتباعه تكثر، وخاف من جهتهم على نفسه ينفرهم بالقلب والقالب، ويمنعهم من الاجتماع به رحمة بهم، وربما رمى الشيخ بعمل الزغل[1] مثلاً فمسكوا جماعته فغطوا أيديهم كما وقع للشيخ صنطباي، ثم نفوه إلى القدس حتى مات.

وبالجملة فمن لم يكن له حال يحميه من تصريف الولاة فيه، فليس له التظاهر بالمشيخة في هذا الزمان، ولا إخبار الناس بمن يعزل أو يتولى من الولاة.

ووالله إني لأكتم كثيرًا مما اطلعت عليه في المستقبل وأُسأل عنه فلا أجيب، ومع ذلك فقد كاتب الحسدة من مصر فيَّ إلى باب السلطان، وذكروا أن أتباعي في مصر نحو ثلاثين ألفًا، وأني ادعيت الاجتهاد المطلق، وأنه يخاف على المملكة مني، فلولا أن ولد شيخي الشيخ أبو اللطف كان هناك وكذَّب المنهي في ذلك لحصل لي غاية التكدر، وبينما يجيء الدرياق من العراق مات الملسوع، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مبادرتهم للإنكار على من رأوه يأخذ مال الولاة من كمل العارفين إلا بطريق شرعي، بل يتربصون في ذلك فربما كان يفرق ذلك على محاويج المسلمين ممن يحل له مثل ذلك، كالذي ارتكبته الديون وهو ذو عيال وطلع عليه مع ذلك الحب الفرنجي، وكالعميان والأيتام الذي لا مال لهم ونحو ذلك.

وإذا رأيناه يأكل مما يأخذ من الظلمة حملناه على الضرورة الشرعية، وإن كانت القرائن تعطي غير ذلك، طلبًا للسلامة مع حصول الإثم بسوء الظن فتحقق يا أخي المنكر ثم أنكر.

وقد بلغنا أن الشيخ أبا عبد الله القرشي ﷺ وكان من أصحاب الخضر ﷺ، وكان ينام عنده كثيرًا أنه مر بأصحابه على صبي يقرط الفريك، فقال: خطية عليك يا ولدي

(1) (زغل) الشراب زغلاً صبه دفعة دفعة ومجه، ويقال: زغل ببوله رمى به متقطعًا (الزغل) الغش.

تقرط من قمح الناس، فقال له: بل خطية عليك يا عم في إساءتك الظن بي إنه والله زرعنا من غير شريك وقد أرسلني والدي أقرط منه شيئًا نعمله فطيرًا لضيف فكلح الشيخ وتأدب من المبادرة إلى الإنكار من ذلك اليوم.

وتقدم تقديرنا: أن الشخص لا يسلم من المبادرة إلى الإنكار ويصير يحمل الناس على المحامل الحسنة إلا بعد أن يطهر باطنه من سائر المخالفات، وإلا فمن لازمه غالبًا الإنكار، حملاً للناس على المحامل السيئة، قياسًا على ما عنده هو.

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وعلى إخوانك، تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن سياستهم لصاحبهم إذا صحب أحدًا من الظلمة وصار يأكل من طعامه خوفًا أن يهجر أصحابه إذا عارضوه في صحبة ذلك الظالم، حتى تشربت محبته قلبه، وكذلك من أخلاقهم حسن سياستهم لذلك الظالم فيكتبون لصاحبهم: قد بلغنا يا أخي أن صرت تأكل من مال الظلمة، والمسول من فضل الأخ ألا يأكل إلا من الطعام الذي يأكل منه الأمير، فقد بلغنا أنه يتورع في مأكله ولا يجعل فيه شيئًا من البلص والجرائم، وذلك هو الظن به فإنه رجل عاقل، والعاقل لا يأكل حرامًا، ويعرض نفسه لدخول النار ونحو ذلك من الألفاظ فيستفيد صاحبنا، ومن هو في خدمته من هذا الكلام النصح من غير أن يجزم في حقه بأنه يأكل حرامًا، فإنه ربما تنفر نفسه من ذلك الكلام ويقول: ما يأكل حرامًا إلا هذا النصاب الشيطان ونحو ذلك، ويصير يعارضنا في شفاعاتنا عنده في المظلومين، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم معاداتهم لأحد ممن يحضر المواكب الإلهية كالمؤذن والمتهجد في الأسحار والذاكر لله تعالى، فربما حفت هؤلاء العناية الربانية، فغفر الله تعالى لهم جميع ذنوبهم وصاروا محبوبين له ﷺ من جملة أوليائه، وقد قال الله تعالى: **«ومن آذى لي وليًا فقد آذنته بالمحاربة»**[1] ومن حاربه الله تعالى هلك مع الهالكين في الدنيا والآخرة، ولم يأخذ بيده في شدة فقد ثبتت عداوته لله ورسوله، فكيف يعادي العبد من يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ؟

وأيضًا فقد قال الله تعالى: **«أنا جليس من ذكرني»**[2] فكيف يعادي الإنسان

---

(1) رواه أحمد في المسند (256/6، رقم 26236).

(2) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (138/1).

جليس ربه تعالى أو لم يكرمه لأجله؟!.

وربما جعل الحق تعالى دعاء ذلك المؤذن مثلاً لا يرد في حق كل من آذاه، وربما كان ذلك الذي آذاه نائمًا في الأسحار على جنابة، والمؤذن يمجد الله تعالى ويثني عليه، وهو على طهارة فليحذر الفقير من مثل ذلك، وهذا الخلق لم أجد له فاعلاً في أقراني غيري فالحمد لله رب العالمين.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا ينبغي لعاقل أن يعادي أحدًا من خدام المساجد وعمارها لحظ نفس من إمام وخطيب، ووقاد وفراش وبواب وغيرهم؛ إكرامًا لصاحب البيت - جل وعلا - وأقل ما يكون من إكرامهم أن يكرمهم كما يكرم بواب السلطان وفراشه وإمامه وخطيبه، ولله المثل الأعلى.

فعلم أن كل من ادعى أنه من أهل الطريق وآذى أحدًا من خدام المساجد، ولو بسوء الظن فهو كذاب لم يشم للطريق رائحة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: المبالغة في الأدب مع ولاتهم، فلا يطعنون عليهم إذا ولوا أحدًا أمور المسلمين إلا بطريق شرعي؛ لأن الولاة أتم نظرًا من آحاد الناس، وقد وعظ الأصمعي هارون الرشيد بملأ من الناس، فقال له هارون: يا أبا عبد الله إن كنت أعلم منا فنحن أعقل منك وأتم نظرا فلا تنصحنا في ملأ ولا تغشنا في خلاء.

وهذا الأدب من محاسن أخلاقهم فإن من طعن على إمامه فقد خانه بالغيب، وذلك مذموم بل يكون مع إمامه بالتعظيم والتبجيل على حد سواء في الغيبة والحضور.

وقد بلغنا أن الخليفة لما منع الإمام أبا حنيفة من الفتوى سألته ابنته في الليل عن الدم الخارج من بين الأسنان هل ينقض الطهارة؟ فقال لها: سلي عن ذلك عمك حمادًا فإن الخليفة قد منعني أن أفتي ولم أكن ممن يخون إمامه بالغيب، انتهى.

وهذا الخلق خلق غريب لم أجد له فاعلاً من أقراني إلا النادر، وأكثر الناس يطعن على السلطان في ولايته قضاة العساكر، وعلى الباشا في توليته أرباب المناصب، ويخوضون في ذلك بغير علم، وذلك لا ثمرة فيه أو الباشا مثلاً تحت طاعة ذلك الطاعن، فالعاقل من عرف زمانه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أدبهم مع طلبة شيخ إمامهم كما كان إمامهم يتأدب مع شيخه، فيتأدب من قلد الإمام الشافعي مع طلبة مذهب الإمام مالك، ويتأدب الحنابلة مع طلبة الإمام الشافعي، وهكذا إلى مشايخنا الذين قرأنا عليهم العلم من أهل عصرنا؛ لأن

حرمة الوالد وإن علا مطلوبة شرعًا؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: 26] فنسبهم إلى جدهم الأصلي لينبههم على كثرة الصلاة والدعاء له كلما رأوا ودعوا قيامًا بواجب بره ﷺ، ولم أجد لهذا الخلق فاعلاً غيري إلا القليل، فاعرض هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حمايتهم من الأكل من طعام المتهورين في مكاسبهم كما تقدم بسطه مرارًا كالذي يبيع على الظلمة أو يقبل هداياهم، ومن أكبر علامة للمتهورين أن يطبخ أحدهم اللونين والثلاثة في بيته، فإنه لو تورع لم يجد لونًا واحدًا إلا بعسر، ومتى دُعِي الفقير في هذا الزمان إلى ذلك فهو نصاب هالك، وربما قال: إن الإمام أبا حنيفة يقول: الحرام لا يتعدى ذمتين، وأنا آكل على مذهب هذا الإمام الأعظم.

فنقول له: قد سألنا المحققين من أهل مذهبه فقالوا لنا: هذا نقل باطل عن إمامنا أو هو محمول عن من لم يعلم بذلك، وإنما شك فيه فقط، أما من رأى الظالم يأخذ من أحد طعامًا غصبًا، ثم قدمه لنا فلا يجوز لنا أكله بالإجماع.

وقد بلغنا أن الحسن البصري زار الإمام عمر بن عبد العزيز فقدم له عمر كسرة يابسة ونصف خيارة، وقال: كل يا حسن فإن هذا زمان لا يحتمل فيه الحلال السرف، انتهى.

فعلم أن هؤلاء الذي يأكلون في بيوت الظلمة كاذبون في دعواهم أنهم من أهل الطريق لا ينبغي لهم التصدر في مقام المشيخة، ولا أن يأخذوا العهود حتى يتوبوا توبة نصوحًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم أكلهم من طعام من يعتقد فيهم الصلاح، فإنه لولا اعتقاده الصلاح فيهم ما كان أطعمهم شيئًا فلا يأكلون إلا من طعام المحب لهم فقط، والفرق أن المحب تكون محبته كمحبة الوالدة لا يتوقف محبتها لولدها على كونه صالحًا بل تحبه على أي حال كان، وإن رأت منه أفعالاً ناقصة قالت: خزاك الله يا إبليس، ولا تكاد تضيف إلى ولدها شيئًا من النقائص، ثم إن الفقير لا يخلو حاله من أمرين لأن إن كان صالحًا في نفس الأمر كما يظنه المعتقد فقد أكل بصلاحه طعامًا، وإن كان غير صالح فقد أكل حرامًا بنص الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مسالمة الظلمة وعدم الركون إليهم إذا قالوا للفقير: نحن والله محبون فإنهم كاذبون، وذلك لأن أفعال الظلمة بالضد من أفعال الفقراء فأين الصدق

في المحبة؟ وأين علاقتها؟.

فإن الفقير الصادق لا يحب الدنيا، ولو أعطاها الظالم له ما قبلها منه، فليكن الفقير الساذج على حذر من الركون إلى إظهار الظالم المحبة له، وقد رأيت شخصًا من مشايخ العرب إذا دخل بيته فقير يقول له: نحن أحق بالسعي، ولكن كما وثقنا بعمارة بيتنا الذي دخله سيدي الشيخ ويصير يقبل رجله، ثم إذا أراد الشيخ الانصراف يعطيه شيئًا من الذهب، ويكتب له وصولات بعسل وسمن وقمح وبسلة ودجاج وأوز، ويقول للشيخ: يا سيدي اجبروا بخاطري لله تعالى، واقبلوا ذلك من عبدكم، فتدخل رأس سيدي الشيخ الساذج الجراب ويصير يقول في نفسه وللناس والله: وما كنت أظن أن هذا يحبنا هذه المحبة العظيمة، فيفارقه الشيخ وهو يحب ذلك الظالم أشد المحبة، ويركن إليه أشد الركون، ويصير يجيب عنه كل من وصفه بالظلم، ويقول: إنه مسكين أيش يعمل؟ الأحزان الولاة يطلبون منه شيئًا لا يفرغ، فلا يكاد يجعل له عذرًا في ظلمة أبدًا، والحال إن ذلك الظالم أول ما يخرج الفقير يقول: أسأل الله تعالى ألا ينفعني ببركة أحد منكم أين صلاحكم وأين حياؤكم وأنتم لا تشبعون من السؤال بالحال والقال؟!.

ورأيته في مولد سيدي أحمد البدوي نزل له شيخ من مشايخ مصر في حجة حضور المولد يشحت منه، فقام له وبجله وأكرمه وكتب له وصولات بعسل وسمن وقمح ودجاج، فلما خرج من عنده قال: قطعكم الله عن بكرة أبيكم تأتونا لماذا؟ ما أنا عالم فتأخذون مني علمي، ولا أنا صالح فتأخذوا دعائي، ولا عندي مال حلا فتأكلون منه هذا شيء سمعته بأذني فأخذت لنفسي منه عبرة.

وسمعته مرة أخرى يقول: ليس أحد في هذا الزمان يصلح اعتقادنا فيه، ولولا قبولنا شفاعاتهم ما جعلهم الناس مشايخ ولا اعتقدوهم، فنحن الأشياخ على الحقيقة، وهو من تحت أمرنا؛ لأنهم يحتاجون إلينا ونحن لا نحتاج إليهم.

وقد دخلت عليه مرة فأكرمني وقبّل نعلي، فلما وليت وخرجت من عنده استحى أن يواجهني بهدية فعوق النقيب، وأعطاه لي شيئًا يساوي أكثر من أربعة آلاف نصف، فرددتها عليه فأرسلها ورائي إلى المولد فرددتها.

فقال: ما غلبني في الفقراء إلا فلان، وقضى للناس على أسمي عدة شفاعات.

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الأكل من طعام من يأكل بدينه من الفقراء الذين لا كسب لهم، وإنما يكرمهم الناس لأجل صلاحهم ودينهم، لاسيما أن عمل ذلك الفقير مولدًا أو طهورًا أو عرسًا، فإن ذلك الطعام لا يخلو من الشبهات قطعًا، اللهم إلا أن يكون من كمل الأولياء أصحاب التصرف، فهذا لا اعترض عليه لحفظه بفضل الله تعالى.

وقد كان الفضيل بن عياض يقول: لأن آكل الدنيا بالطبل والمزمار أحب إلي من أن آكلها بديني.

ومن شك من هؤلاء الفقراء في أنه يأكل بدينه فليقدر نفسه متجردة من جميع صفات الصالحين متخلقة بصفات الفاسقين وينظر فإن أطعمه الناس وعملوا له وليمة من مالهم فهم محبون قد أطعموه لله تعالى، وإن تركوا إطعامه فليعلم أنه يأكل بدينه.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا ينبغي لفقير أن يأكل من طعام أحد إلا إن كان بحيث لو أخبره بجميع زلاته السابقة التي عملها بينه وبين الله تعالى لم يتغير اعتقاده عليه ولا حرَّم عليه الأكل، انتهى فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم أكلهم من طعام النذور، أو الأعراس الواسعة، أو طعام العزاء والجمع في المقابر وتمام الشهر ونحو ذلك؛ لغلبة التكلفة في مثل ذلك، وقلة الإخلاص فيه عادة، لاسيما إن كان طعام النذر عملته امرأة من غزلها وخياطتها، فإن في ذلك دناءة همة لا تليق بالرجال، وقد نفذت وصايا جميع الأشياخ إلى مريديهم في سائر الأقطار ألا يأكلوا من طعام النساء ولا يقبلون لهم رفقًا، اللهم إلا أن يطلع الله تعالى أحدًا من الأشياخ على حل ذلك الطعام وإصلاح نية فاعلة فلا حرج في أكل ذلك.

وقد كان ﷺ يذهب هو وأصحابه إلى دار عجوز كل جمعة، فتضع له طعامًا فيأكلون منه حتى قال أبو هريرة: كنا نفرح ليوم الجمعة لأجل طعام تلك العجوز، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا ينبغي لفقير ولا فقيه أن يجلس يأكل من طعام العزاء وأم الميت وأخوه وابنته مثلاً كأنهم غمسوا في نار من فرقهم إلى قدمهم، فإن ذلك في غاية القبح، بل الذي ينبغي له تعزية أهل الميت وتسليتهم، ووعدهم بالأجر على ذلك ويقول لهم: كلنا راحلون عن قريب، وأقبح من الأكل تخاصم الفقهاء على فلوس القراءة، وأهل الميت يسمعون كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الأكل من طعام الصنايعي الذي يعمل القوت، لاسيما إن كان قد طعن في السن إلا إن كافأوه عليه إما بإعطائهم ثمنه، أو بتوجههم إلى الله تعالى أن ينزل له البركة في رزقه، ويرزقه العافية في بدنه، ويستره بين العباد إلى آخر دقيقة.

وربما كان ذلك الطعام ممن كلفته زوجته بعمله، لما ولدت أو شفيت من مرضها، ووصلت معه فيه إلى الطلاق حتى عمله، وقد حماني الله تعالى من أكل مثل ذلك إلى وقتي هذا ولم أجد له فاعلاً من أقراني إلا القليل، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم أكلهم من طعام من علموا أن عليه دينًا سواء أكان قادرًا على وفائه أو عاجزًا؛ لأن في الأكل من ذلك مساعدة له على عدم إعطائه الحق الذي عليه، إذ الواجب على المديون صرف كل ما زاد على ضروراته في الدين فمن أكل من ذلك الطعام، فقد أكل شبهة لكون الحق في ذلك لغيرنا من حيث الأمر بتقديمه علينا، ولو أن المديون دعانا إلى ذلك بطيبة نفس فلا نجيبه؛ لأنه جاهل بما قررناه، فهو كالطفل في حجر وليه لا يجاب إلى كل ما يطلب، ولم أجد لهذا الخلق فاعلاً في مصر غيري إلا قليلاً، وغالب الناس يأكلون ما قدم لهم، ولا يكادون يسألون هل على صاحبه دين أم لا؟ بل لا يهتدون لكون الدين مانعًا للمتورعين من الأكل أم لا؟.

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف الحال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم المبادرة إلى الإنكار على من يروه يسعى على وظائف الناس من طلبة العلم؛ لأن الساعي ربما كان أهلاً لذلك، وصاحب تلك الوظيفة عامي مات أبوه الفقيه فلم يزل واضعًا يده عليها بحكم الإرث له في ذلك، لاسيما إن كانت عمامته كعمامة الفقيه، بل الذي ينبغي للعبد أن يتربص في مثل ذلك حتى يظهر له أن من في يده تلك الوظيفة ليس بأهل لها أو هو أهل لها، ثم بعد ذلك ينكر على المبطل منهما كما أوضحنا ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مزاحمتهم على شيء من مناصب الدنيا كتدريس علم أو وعظ، أو تسليك للمريدين، أو مشيخة حضور ونحو ذلك إلا بطريق شرعي، فلا يكون له علاقة دنيوية تعوقهم عن دخول حضرة الله تعالى أبدًا إلا عدم القسمة لا غير، وبذلك تميزوا عن غيرهم.

فمن كانت له علاقة من الدنيا تقطعه عن الله ﷻ فليس هو من أهل الطريق، ولو لبس الصوف والمرقعات، ثم من علامة العلاقة أن يحتاج إلى وقوف عند حاكم لأجل

مزاحمة أحد له في تلك العلاقة؛ لأن الصادق يعطي كل مدعٍ عليه ما طلبه منه، ولو بغير حق هروبًا مما يشغله عن الله تعالى، ثم أنه يبرئ ذمة من أخذه منه في الدنيا والآخرة، ولو رزقته أو بيته أو زاويته؛ لأنه يعول على فضل الله تعالى في أمر رزقه وجميع حاجاته لا على شيء من الكون، ومقصوده الأعظم أن يرى نفسه بين يدي ربه ليلاً ونهارًا لا غير، وهذا لا مزاحم له عليه.

فليفتش الفقير هل زاحم أحدًا ولو بقلبه على شيء مما ذكرناه؟ وهل هو صادق في قطع العلائق أو كاذب؟ والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: شدة حيائهم من الله تعالى أو من جميع الكون أن يقعوا في معصية من المعاصي وهو يراهم حتى أنهم يستحيون من جوارحهم، ومن الحائط والأرض،كما يستحيون أن يعصوا ربهم بحضرة جماعة من الصالحين.

وقد روى ابن عدي عن أبي أمامة مرفوعًا: «**استح من الله تعالى استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك**»[1] انتهى.

فكل فقير ادعى الحياء من الله تعالى أو من خلقه فمن علامة صدقه عدم وقوعه في المعاصي جملة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: من علامة كمال الفقير توالي مراقبته لله تعالى، وكثرة الحضور بين يديه ليلاً ونهارًا، قال: وقد سمعت سيدي إبراهيم المتبولي يقول كثيرا: لي ثلاثون سنة وأنا مقيم في حضرة الله تعالى لم أخرج، وجميع ما أتكلم به إنما أكلم به الحق سبحانه.

فقيل له: فمن غرس لكم النخل الذي في بركة الحاج؟

فقال: إن الله تعالى أرسل ملكًا على صورتي، فغرس ذلك حين خطر ذلك ببالي، وأنا في حضرته.

قلت: يحتمل أنه غرس ذلك وهو حاضر مع الله تعالى؛ لأنه أمر مندوب إليه، والله أعلم.

وبالجملة، فأقرب شاهد على العبد من الخلق جوارحه، فلا يصح له أن يخفي عنها شيئًا من معاصيه، ومن عمل على تحصيل مقام المراقبة لأعضائه لم يصح منه

---

(1) رواه ابن عدي (136/2، ترجمة 335 جعفر بن الزبير الشامي)، وقال: الضعف على أحاديثه بين. قال المناوي: (487/1): إسناده ضعيف.

الوقوع في معصية أبدًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تسليمهم للنفس ما تدعيه من مقامات الكمال؛ لأن في طي دعاويها غوائل قل من يسلم منها، ولذلك طالت الطريق على بعض المتعبدين، وأفنوا عمرهم في العبادة ولم يحصلوا على شيء من مقامات الرجال كما أشار على ذلك سيدي عمر بن الفارض ﷺ ونفعنا به بقوله:

تعرض قوم للغرام فأعرضوا ... بجانبهم عن صحتي فيه واعتلوا
رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم ... وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا
فهم في السرى لم يبرحوا عن مكانهم ... وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا

وأشار إلى ذلك أيضًا سيدي علي بن وفا ﷺ بقوله:

تمشيخوا من قبل أن يوجدوا ... فعمرهم ضاع ولم يولدوا
رضوا بأن يعتقدوا سادة ... وهم لأدنى وهمهم أعبد
مشوا مكبين على وجوههم ... عميًا من العلياء لا يهتدوا
قد حسبوا الأرض سماء لهم ... فاستقربوا ما هو مستبعدُ
وكلما مالوا بأهوائهم ... قالوا صعدنا وهم أخلدوا
فاعجب لمن شاخوا على صغرهم ... في أرذل العيش نشوا يجهدوا
فلا تحاول طبهم إنهم ... لكل من خالطهم يفسدوا

إلى آخر ما قال، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «العهود» وغيره.

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق الشريفة على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن ظنهم بربهم إذا سلط عليهم الخلق بالأذى، وأطلق ألسنتهم فيهم بالذم، ويقولون: لولا أنه تعالى يريد تقريبنا إلى حضرته ما فعل معنا ذلك؛ لأنه لا يصطفي عبدًا إلا بعد أن ينفر من أبناء الدنيا كلهم، ويقبل على مولاه ولا يصح له ذلك إلا بعد أن يبالغوا في إيذائه، فهناك ينكشف له أنه لا نافع ولا ضار إلا الله تعالى وحده، فيراعيه وحده ويداوم على مراقبته ليلاً ونهارًا فيصطفيه الله تعالى حينئذ، وينصره على كل ما عاداه، ولو أنه تعالى أطلق ألسنة عباده بالثناء والتعظيم لذلك العبد لركن إلى الخلق ضرورة، ففاته الاصطفاء كما سيأتي بسطه في خاتمة الكتاب إن شاء الله

تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبتهم في كثرة التلامذة؛ ليعلموهم الأدب مع الله تعالى محبة من الله ﷺ، فيفيدون الحق تعالى بأنفسهم، ويقولون للتلامذة: إنما نحن لكم كمرتبة الإدمان فنجربكم بها معنا في تصاريف الأمور المخالفة لأهوائكم، ونأمركم بالرضا عنها بها، والصبر عليها لتترقوا بذلك إلى صحة معاملتكم مع الله تعالى، فإن كل من لم يحكم الأدب مع شيخه لا يشم من الأدب مع الله تعالى رائحة، فما ثم داعٍ إلى الله تعالى من القوم يدعو إلى حظ نفسه أبدًا حاشاهم من ذلك.

وكان سيدي يوسف العجمي يقول لتلاميذته: تعالوا حتى أعلمكم الأدب مع الله تعالى، ثم يتنكر عليهم، ويخالف جميع أهويتهم حتى أنه يطلق امرأة هذا فيعطيها للآخر،ويعزله من الإمامة ويعطيها للآخر ويقول: كل من رضِي بحكمي فيه ترقى إلى الرضا التام بحكم الله تعالى فيه، ومن لم يرضَ بحكمي فيه فمن لازمه السخط على مقدور الله تعالى وعدم الرضا بأقداره، وذلك كفر بالله تعالى، فإن الحق تعالى تصرفه مطلق، فيفعل ما يشاء لكن لا بدّ للعبد من الاستغفار من كل معصية قدرها الله تعالى عليه من حيث كسبه ليقوم بآداب الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تفويضهم إلى الله تعالى في كل أمر طلبوه منه ما لم يشرع، فلا يطلبون منه شيئًا إلا مع درهم العلم فيه إلى الله تعالى عملاً بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

فلذلك كانوا يقولون: نحن لا نعرف ما نطلبه إن كان قسم لنا أم لا، ثم بتقدير قسمته فهم يقولون: اللهم أعطنا كذا، أو اصرف عنا كذا إن كان لنا فيه خيرة، فإنك ولينا ونحن كالأطفال في حجر تدبيرك، فإن أعطاهم ما طلبوا كان خيرًا، وإن منعهم ذلك كان خيرًا.

وقد خالف قوم هذا الأدب، فوقعوا في أمور تكدر عليهم أمر معاشهم، وصاروا يسألون الإقالة مما كانوا سألوا الله تعالى في إعطائه لهم فلا يجابوا ولو أنهم كانوا سألوا بالتفويض لحفظهم الله تعالى من كل سوء.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من سوء الأدب أن يسأل العبد ربه، ويقسم عليه بأنبيائه ورسله أن يعطيه كذا كذا، ثم إذا أعطاه له يتبرم منه ويسأل ربه التحويل، وما هكذا يكون أهل الأدب مع الله تعالى، فليحذر العبد من ذلك

والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مداومتهم في نهايتهم على الأعمال الصالحة التي كانوا يعملونها في بدايتهم ولا يتركونها استغناء عنها بما أعطاهم الله تعالى من دوام الشهود القلبي الذي هو أغلب أعمال العارفين، فإن الأعمال الظاهرة إنما هي وسيلة إلى حصول مثل ذلك الشهود، ولاسيما إن كان لأحدهم أتباع فإنهم لا يهتدون للأعمال القلبية حتى يقتدوا به فيها وقد قيل للجنيد ﷺ: نراك تدمن إمساك المسبحة ومثلك لا يحتاج إلى مذكر يذكره بالله تعالى، فقال: شيء وصلت به إلى حضرة ربي تعالى لا أتركه، انتهى.

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم كلما ترقوا ازدادوا معرفة بعيوبهم ونقائصهم، فلا يزالون كلما ترقوا إلى مقام ظهرت لهم عيوبهم حتى يرى أحدهم أنه قد استحق الخسف به لولا عفو الله تعالى كما سيأتي بسطه في آخر الكتاب، وإذا جلس أحدهم إلى أحد من المسلمين يرى نفسه كالفاسق الذي يجلس عند شيخ الإسلام، ولذلك كان معروف الكرخي ﷺ يقول كثيرًا: أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف ألا يقبلني قبري فافتضح، انتهى[1].

(1) قال سيدي الشعراني في «تطهير الزاويا»: اعلم أنه لا ينبغي للشيخ وجميع فقراء الزاوية ألا يرى أحدهم نفسه على أخيه إذا كثر أصحابه والمعتقدون فيه دون أخيه، وصار أحد المعتقدين إذا دخل الزاوية فلم يجد صاحبه حاضر أنزل من الزاوية ولم يجلس فيها، ومن علامة تحقق الشيخ أو غيره بهذا المقام ألا يجد في نفسه حرجًا وضيقًا إذا تحولت أصحابه عنه إلى صحبة أخيه، وصار ليس له صاحب واحد يجالسه، فإن وجود الحرج والضيق دليل على أنه كان يرى نفسه على أخيه بكثرة الأصحاب والمعتقدين وقد جاءت النصوص القاطعة يشهد بأكل عمل دخله الربا لا يقبله الله؛ أي: إما بالكلية أو لا يقبله ذلك القبول الذي يكون لمن أكثر من مراعاة الإخلاص.

وسمعت سيدي عليًا الخواص المرصفي -رحمه الله- يقول: من علامة إخلاص الشيخ في تربية المريدين أن يتساوى عنده نسبة أصحابه إليه ونسبتهم إلى أحد من أقرانه على حد سواء؛ لأن مقصود الصادقين جمع قلوب الشاردين عن حضرة الله إليها بأي وجه كان حتى لو مكث الفقير عند أحدهم سنين عديدة ولم يقبح عليه من الطريق بشيء، ثم ذهب إلى أحد من أقران شيخه فصحبه ففتح عليه في ليلة يزداد سرورًا بذلك، ومتى تغيرت منه شعرة واحدة لأجل ذلك فهو لم يشم من الإخلاص رائحة، انتهى. فاعلم ذلك يا أخي وقس نفسك قبل الموت وتداركها بكثرة
-

وهذا أمر قد أغفله غالب الفقراء في هذا الزمان، فيصحب أحدهم شيخه نحو الثلاثين سنة، ولا يتبعه في خلق من أخلاق الرجال، وربما يقول أحدهم: الحمد لله الذي جمعنا على شيخنا فلان فإنا كنا قبل اجتماعنا عليه من أشر الناس يعني: ونحن الآن من خيار الناس، وإنما الأدب أن يقول أحدهم: قد حصل لنا البركة باجتماعنا على سيدي الشيخ، فإنه عرفنا بعيوبنا ونقائصنا، وكنا قبله نظن في أنفسنا أننا من الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: كثرة الرحمة على خلق الله تعالى، وإذا دخلوا سوقًا ورأوا أهل السوق غافلين عن الله تعالى يذكرون الله تعالى، ويجعلون ثواب ذلك في صحائف كل غافل في ذلك السوق، وبعضهم يشفع في جميع أهل ذلك السوق عند الله تعالى، ولا يخرج حتى يرى أمارات قبول شفاعته فيهم كما هو معروف عندهم، وهذا أمر قد أغفله فقراء هذا الزمان، بل ربما أن أحدهم يدخل السوق وهو غافل عن ما ذكرناه، بل عن الله تعالى لم يخطر له الحق سبحانه على بال.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ كلما دخل السوق تتغرغر عيناه بالدموع أسفًا على الغافلين، ثم يدعو لهم وينصرف، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم :إذا اطلعوا على عيب جليسهم، وسريرته الخبيثة ألا يفضحوه بين الناس حكايتهم ذلك للناس، ولو تعريضًا فضلاً عن التصريح، بل يكتمون ذلك ولا يطلعون عليها إلا صاحب الواقعة فقط، فيقولون له: قد بلغنا عنك كيت وكيت وكذبنا الناقل، وفي ذلك تذكرة للأخ ليأخذ حذره من الوقوع في ذلك في المستقبل، ويأخذ في الالتجاء إلى الله تعالى أن يحميه من ذلك لنفسه ضرورة ويتوب، وهذا من أحسن السياسات، وقد قالوا: آفة الكشف التحدث به، وقالوا: من أدب العبد إذا أطلعه الله على أسرار العباد أن يسترها عليهم، ومن أفشاها فربما طرد ومقت، فإن من أخلاق الحق تعالى أن يرى العيب ويستره، فليحذر الفقير من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: طلبهم لكل حاجة طلبوها من حوائج الدنيا والآخرة من باب الله تعالى وما ثم إلا بابه، لكن تارة يكون هناك واسطة من الخلق وتارة لا يكون، فيعلق

-

الاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

أحدهم أمله بالله تعالى دون خلقه، وهو تعالى يسخر له الوسائط فيكون الواسطة كالقناة التي يجري لنا منها الماء، فالحقيق بالشكر من أجرى القناة وأنبع الماء لا القناة، وإنما أمرنا الله تعالى بشكر الوسائط من باب ربط الأسباب بمسبباتها من غير وقوف معها تنفيرًا وهروبًا من أُلُهية الأسباب علينا من دون الله تعالى، فافهم.

وفي كلام سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ: إذا طلبت حاجة فتعام على الجهات كلها حال طلبك من ربك، ولا تنص على جهة معينة منها، بغير علم فإن ربك غيور، فلا يفتح لك باب فضله وأنت محجوب عنه ناظرًا إلى جهة أحد من عبيده، انتهى.

فسد يا أخي الجهات كلها بتوحيدك، فإذا فعلت ذلك فحينئذ يفتح لك بابه الحقيقي فلا يصير عندك وقوف مع شيء من الأسباب.

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم استبعادهم على أنفسهم وقوعهم في أكبر الكبائر ولو بلغوا في المقامات ما بلغوا، فإن أحدًا لا يتحاشى عن جريان المقادير فيه، ولكن يحفظ الله تعالى من يشاء.

وقد قيل لأبي يزيد ﷺ: أيزني العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدرا مقدورًا، فلم يقل لا يزني ولا قال يزني أدبًا مع الله تعالى.

وقد حكي عن الشبلي أنه دخل خرابة فرأى فيها جارية، فصاح بأعلى صوته: يا مسلمين أدركوني فجاء أهل الحارة كلهم، فقالوا له: ما الخبر؟ فقال: خفت على نفسي من هذه الجارية حين لم يكن عندهم محرم، انتهى.

قلت: وفي هذه الحكاية تأديب لأهل حارته واتهام لنفسه ﷺ.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: كل ما وقع فيه الناس فالعبد معرض للوقوع فيه، قال: ومن أراد أن ينكشف له الأمر، فليجلس في بيت الوالي فكل مجرم أتوا به إليه بتهمة أو أمر محقق فهو جائز في حق أكبر الأولياء.

فليكن سيدي الشيخ على حذر من وقوعه فيما يغضب الله تعالى عليه، فإنه في النصف الثاني من القرن العاشر أبي العجائب والغرائب وعلامات الساعة على كاهله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تطهير الباطن من المعاصي والرذائل، وعدم غفلتهم عن ذلك، فإن الفقراء إذا ترقوا في المقامات كان وقوعهم في المعاصي الظاهرة قليلاً

أو معدومًا، فيقنع أحدهم بذلك، وينسى تفتيش باطنه، وقد أجمع الأشياخ على أنه لا يصح لأحد من الأكابر دخول الحضرة الإلهية وهو متلطخ بشيء من القاذورات المكروهة فضلاً علة الحرام؛ لأن لله تعالى ملائكة على أبواب الحضرة يشمون رائحة القلوب، فكل قلب رأوه متلطخًا بفعل حرام أوشهوة حرام منعوه من الدخول، ثم إنه لو قدر أنه دخل في غفلة الملائكة عنه في غمار الناس أخرجوه، وإن لم يخرج فهو محجوب عن ربه تعالى بسبعين ألف حجاب، فليفتش من يدعي الصلاح نفسه حتى لا يكون في سريرته شيء يقبح بين الناس ظهوره.

ولما اجتمع الإمام عمر بن العزيز ﷺ بالسيد الخضر ﷺ في المدينة المشرفة قال له: عمر أوصني، فقال: احذر يا عمر أن تكون وليًا لله تعالى في العلانية وعدوًا له في السر، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: قد جعل الله تعالى إبليس واقفًا على باب الحضرة لا يقدر على دخولها، ووكله بكل من غفل عن الله تعالى، وعن شهوده أن يركبه كما يركب أحدنا الحمارة ويصرفها كيف يشاء، فإن استشعر العبد أنه بين يدي الله تعالى كأنه يراه، وأنه هو تعالى يراه نزل عنه إبليس من لمح البصر.

فعلم أن المسلم بالذكر يدخل الحضرة وبالغفلة يخرج، وليس عند أهل الحضرة غفلة أبدًا وأعلم أن كل من أدعى الصلاح وركبه إبليس فهو كاذب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: 42] والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: قلة تناولهم الشهوات وقلة سماعهم للآلات، فكل من ادعى الصلاح وأكل الشهوات، ولبس الثياب المحررات، وترك الصلاة في الجماعات، ونام على الفراش الوطيات، وأكل اللحم الضاني والمحمرات، وركب الخيول المسومات، فقد خالف جمهور العلماء والصالحين، وأهلك من تبعه من المريدين، وإن كانت دعواه صحيحة في نفس الأمر إذ النية الصالحة في مثل ذلك أعز من الكبريت الأحمر، وغالب من يأتي هذه الشهوات يأتيها بحكم اللذة والشهوة الطبيعية مع الغفلة.

وكان الشيخ محيي الدين - رحمه الله تعالى - يقول: حكم الولي إذا تناول شهوة مع الغفلة حكم القمر إذا خسف.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من ادعى أنه يأكل الشهوات، ويتلذذ بالطيبات، وينكح النساء المنعمات مع حضور لبه مع الله تعالى من حيث أنه

أباحه، فأغضبوه فإن ملك نفسه عن الغضب، فهو يملك نفسه عند الشهوة، وقد حدث أناس يدعون الصلاح ويسمعون العود والطنبور وآلات اللهو، وذلك خروج عن الطريق الأقوم، وقل اعتقاد الناس فيهم فعدموا النفع بهم، فالحذر الحذر من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الاستعاذة بالله تعالى من شر الحسدة كلما أقبلت الخلائق عليهم بالاعتقاد، وقبول الشفاعات خوفًا أن يعمل الحسدة لهم المكائد، فيؤذوهم ويشغلوهم عن عبادة ربهم بذلك ولو لحظة، ومن تأمل من الفقراء الآن وجد نفسه كالبهلوان الذي يمشي على الحبل بقبقاب، وجميع أهل مصر مثلاً واقفون ينتظرون له زلقة من فوق الحبل، لاسيما أقرانه الذين فضل عليهم، فإنهم يودون هلاكه في طرفة عين، وهو من أغرب الغريب كيف يدعي أحدهم الصلاح ويحسد المسلمين، وكان الأولى بالفقراء إذا تورع أحد من إخوانهم أن يزيدوا في محبته وتعظيمه ومدحه، ويقولون: هذا هو الذي مشى على قواعد الشرع، وأما نحن فقد خرجنا عن سياج الفقراء وقواعد الشرع، فعلم أن كل شيخ ظهر به الحسد لأحد من أقرانه، فهو جاهل أو معاند كاذب في دعواه الصلاح؛ لأنه لو كان صالحًا لرأى وجه الحكمة الإلهية في ذلك فترك الاعتراض على حكم ربه، فإن الحاسد معترض على حكم ربه بلا شك، وما رأينا وليًا لله تعالى يعترض حكم ربه أبدًا، ثم لأي شيء لا يحسد أخاه على مجالسته لربه في أوراده صباحًا ومساء مثلاً، فإن ذلك أولى بالحسد من إقبال أمير أو جندي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فضلاً عن غيره، وبالجملة فقد خرج غالب المدعين عن الطريق وعدموا التوفيق، فاعرض هذه الأخلاق على نفسك وإخوانك تعرف الحال، وتتمنى الموت في هذا الزمان، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تعظيمهم لولاة زمانهم من أمير وقاضٍ ظاهرًا وباطنًا أدبًا مع ولاة السلطان الذي ولاهم، فإنه أتم نظرًا من جميع رعيته، وقد طعن بعضهم في بعض قضاة العسكر، فحصل له ما لا خير فيه، وحبسوه في حبس الديلم المتعلق بأرب التهم والدم، وبعضهم نفي إلى الواح[1] وبعضهم ضُرِبَ ضربًا مبرحًا.

وقد قال القوم: لا ينبغي لأحد أن يعترض على أحد من الولاة إلا إن أعطاه الله تعالى التصريف فيه بالولاية والعزل وأما من يتكلم، فهو في حقهم فيصبح في جنزير

---

(1) يقصد الواحات.

وحبس، فما هو من رجالهم، انتهى.

ولا يخفى أن أولياء الله تعالى من أصحاب التصريف موجودون، لكنهم ساكتون لعلمهم بأن الأمور التي تقع من الولاة وسكتوا عليها قد حق بها التقدير الإلهي المبرم، ولا يمكنهم أن يسألوا الله تعالى في رد ذلك، فلا ينكرون إلا ما لم يحق به القضاء المبرم كما هو مشهور في الأمور المعلقة على الأسباب.

فإياك والمبادرة إلى الإنكار، وتقول: ما بقي في البلد أحد ينكر هذا المنكر، أو لا أحد يقوم بفرض الكفاية، فربما كان ذلك حق به القضاء المبرم وأنت لا تشعر.

فعلم أن الأدب مع ولاتنا، وترك المبادرة إلى الإنكار عليهم أولى إلا بطريق شرعي واضح كالشمس مع توطين نفوسنا على وقوع العقوبة بالضرب أو الحبس في ارتكابنا المعاصي، وإن قال المنكر: إن هؤلاء الولاة ظالمون، قلنا له: وأنت الآخر كذلك ظالم لنفسك، وكما تقيم العذر لنفسك، فكذلك ينبغي لك أن تقيم العذر للولاة، وقد بسطنا الكلام على ذلك في «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا زارهم أمير أن يقوموا له، ويقبلوا يده كما يفعل هو معهم، وكذلك يستتبعونه إلى باب الدار، ولا يتركون ذلك فيكونوا أعظم كبرًا في أنفسهم من الأمير، وما نهى الشرع عن التواضع للأغنياء إلا بقصد أن ينال المتواضع لهم من دنياهم شيئًا، أما من لا يقبل منهم شيئًا ولو أعطوه له من غير سؤال فلا حرج عليه في التواضع لهم؛ لأنه لغرض شرعي.

وقد كان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقوم للأمير، ويقبل رجله ويمشي معه إلى خارج باب داره إذا زاره، وإذا أعطاه شيئًا من الدنيا لا يقبله منه، وكان يقول: إنما أفعل ذلك مكافأة على بعض فضله، فإنه قد خلع كبرياءه وعظمته لأجلي، ولو أنه وقف مع رؤية نفسه عليَّ ما دخل داري ولا زارني.

وكان يقول: ما زار أمير فقيرًا إلا بعد أن رأى نفسه دون الفقير، فما لقي الأمير الفقير إلا وهو فقير حقير.

قال: وهذه دقيقة تخفى على غالب الفقراء، فيأتيهم الباشا أو الدفتردار أو قاضي العسكر، فلا يقومون له وذلك في غاية الجهل وسوء الأدب مع الله تعالى الذي خلع عليهم تلك الولاية.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يتأدب مع الأمراء كثيرًا، ثم يقول: هذا أدبنا مع ولاتنا في دار الدنيا، وسوف يعلمنا الله تعالى إذا انتقلنا إلى الدار الآخرة أدبًا

آخرًا يناسب أهل تلك الدار.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله - يقول: من خفة عقل الفقير أن يتكبر على الأمير، وهو يقبل هديته وبره وإحسانه من قمح وعسل وأرز وبسلة وغير ذلك، انتهى.

فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم لتردد أحد من الأكابر إليهم من شدة هضمهم نفوسهم، فلا يرون نفوسهم أهلاً لأن يمشي أحد إليهم فهم يتوشوشون من مشي أحد من الأكابر إلى زيارتهم تعظيمًا للأكابر لاسيما إن أتاهم أحد من العلماء ماشيًا فإنهم يكادون أن يذوبوا من الحياء والخجل، ثم إذا كافأوا الأكابر بالزيارة لا يرون أنهم كافأوهم على مرة واحدة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لولا ظن الأمراء في الفقير الصلاح ما زاروه، فيا فضيحة غالب الفقراء يوم القيامة حين تبدو فضائحهم، انتهى.

وقد زرت مرة سيدي الشيخ علي البحيري فتكدر وتشوش من مشي مثلي إليه وصار يقول لنفسه: يا فضيحتك يا علي يوم القيامة ممن زارك حين تبدو له فضائحك، ولم يزل يحكي ذلك للناس، ويقول: مثلي لا يستحق أن أحدًا يمشي إليه، انتهى.

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يعتبوا قط على من انقطع عن التردد إليهم، بل كل يوم لا يزورهم فيه أحد يوم عيد، وهكذا درج جمهور المشايخ ﷺ فليمتحن الصادق نفسه، فإذا رأها تنشرح إذا تحول المعتقدون فيه إلى أحد من أقرانه، فهو صادق في دعواه محبة العزلة، والانقطاع لمحبة الله ﷻ وإلا فهو كاذب، وإنما كانوا يكرهون تردد الناس إليهم خوفًا على أنفسهم، وعلى إخوانهم من الوقوع في التزين وتزكية النفس منهم، أو ممن رأوهم كما هو الغالب، فإن كان فقيهًا أبدى المسائل الغريبة، وإن كان فقيرًا أبدى المقامات الرفيعة.

وقد رأيت شخصًا كلف نفسه عدم الخروج من زاويته مدة، ثم عجز عن انقطاعه عن الناس وانقطاع الناس عنه، فصار يرسل لأهل مصر السلام، ويقول: والله إني مشتاق إليكم، ولو كان معي إذن لزرتكم، فقلت له: كيف تدعي الانقطاع وتستجلب الناس؟ هذا فعل مخالف لدعواك محبة العزلة، ثم أنه صار يخرج في الليل ويدور في أسواق

مصر ويحضر مواضع التنزهات وينزل في مركب أيام النيل، ثم يصبح جالسًا في زاويته بعذبة وأطراق، وهذا كل خداع ونصب، فليحذر الفقير من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا عمل أحدهم واعظًا أو مسلكًا ألا يغفل عن تفتيش نفسه، فربما كان ذلك رياء وسمعة، فليمتحن الواعظ نفسه بما لو عزله ولي الأمر عن مجلس وعظه مثلاً إلى ذلك الواعظ الجديد، فإن رأى نفسه منشرحة فرحانة لذلك، فليعلم أنه مخلص في وعظه، فليشكر الله ﷻ على ذلك، وإلا فيعلم أنه مرائي خالص، وأن وعظه يكون زاده إلى النار، فالناس ينتفعون بعلمه، وهو يشقى به كالشمعة التي تحرق نفسها لتضيء على غيرها،فعلم أن كل شيخ أو واعظ غفل عن تفتيش نفسه فهو مغرور، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا كشف لأحد من ألواح المحو والإثبات أنه يقع في معصية ألا يغفل عن سؤال الله تعالى أن يحول ذلك عنه أدبًا مع الله تعالى وخوفًا من غضبه تعالى عليه، فقد يكون تحويلها عنه معلقًا على السؤال، وأما إذا كشف لأحدهم عن وقوعه في معصية من اللوح المحفوظ يعني عن المحو، فمن الأدب كذلك ألا يغفل عن سؤال ربه أن يستره فيها بين العباد، ولا يؤاخذه بها في الدنيا والآخرة، ويقول: يا رب أنت تعلم أني عاجز عن رد أقدارك النافذة فاسترني فيها، ولا تؤاخذني من حيث كسبي ومجاوزتي حدودك.

فإن الله تعالى إن شاء يفعل له ما طلب، ثم إذا قرب من وقوع المعصية، فمن الأدب الرعدة والخوف من الله تعالى أن يخسف به الأرض، فإن من يأتي المعاصي باكيًا أخف ممن يأتيها ضاحكًا، ثم إذا وقع بحكم القضاء والقدر، فمن الأدب ألا يزال حزينًا باكيًا، ولا يرى أن تلك المعصية محيت بطاعة من الطاعات إلى أن يموت.

وقد ورد في الآثار أن بعض الأكابر يبعث يوم القيامة وخطيئته مكتوبة في كفه مع ما جرى له في دار الدنيا من البكاء والحزن.

ثم إن هذا الكشف المذكور لا يكون إلا للكمل، فيمتحنهم الله تعالى باطلاعه لهم على تصاريف الأقدار الجارية فيهم والمخالفة لأغراضهم؛ ليريهم في نفوسهم هل هم متأدبون معه أم ساخطون على أقداره؟

ولما كشف لسيدي مدين من ألواح المحو عن اسم شيخه سيدي أحمد الزاهد أنه من أهل النار جاء إلى شيخه مرعوبًا، وقال: يا سيدي رأيت اسمكم في أهل النار،

فقال: يا مدين لي ثلاثون سنة وأنا أرى ذلك وأنا صابر، فلما كان بعد مدة قال سيدي أحمد للشيخ مدين: انظر اسمي فنظر فإذا هو في السعداء، فحمد الله تعالى على ذلك، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يؤدوا ما عليهم من الحقوق لأربابها، ولا يحوجوهم إلى وقوف إلى حاكم ولا إرسال قاصد بمرسوم ولا غيره، ومتى أحوج أحدهم صاحب الحق إلى شيء من ذلك فقد خرج عن الطريق، ولذلك لم نرَ أحدًا من أولياء الله تعالى قط عند حاكم يدعي عليه بحق زوجة أو جار أو فلاح أبدًا.

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وعلى إخوانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ردهم كل شيء يأتيهم من الولاة الذين لا يتورعون في أموالهم، وهذا ما درج عليه جمهورهم، وقد كان مالك بن دينار يأكل الكسر اليابسة بملح أو بقل، ويقول: من رضي من الدنيا بمثل هذا لم يحتج إلى مال الولاة، ولم أر أحدًا من أقراني الآن يرد ما يأتيه من الولاة إلا نادرًا، وقد رأيت بعضهم يرد ما يأتيه من الولاة فتفرست فيه أنه غير مخلص في ذلك، فقال له: يا أخي أخلص في ردك ورد خوفًا من الله تعالى لا ليشكرك الناس على ذلك فقال لي: أنا بحمد الله كذلك ولم يصغ لقولي، فبلغ ذلك الدفتردار محمد، فأرسل له ألف نصف، فأعطاها الرسول له بحضرة جماعة، فردها فلما أخبره القاصد بذلك قال الدفتردار الذي عندي: أن هذا مُراءٍ نصاب، ثم صر له صرة تراب وشقف وزبل وقطّها له، وقال: ادخل عليه بين المغرب والعشاء، وقل له: قد حصل لمملوككم الدفتردار كسر خاطر بردكم الفيتح، والمقصود أن تجبروا بخاطره وتأخذوه فمد يده إليه وقال: جزاه الله خيرًا عن الفقراء فإني والله أدعو له في سجودي، فلما رجع الرسول وأخبر بذلك الدفتردار صار يضحك هو وأصحابه زمانًا طويلاً وقال: كيف يرد الذهب بالنهار ويقبل الزبل بالليل؟! فإياك يا أخي من مثل ذلك ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: التواضع مع أولاد أشياخهم، ولا يمكنون أحدًا من أولاد أشياخهم، وإن سلفوا من القيام لهم ولا من تقبيل يدهم، ولا من الجلوس بين يديهم، كآحاد التلامذة، وإن كان تحتهم فرش وطي أجلسوا ولد شيخهم عليه وجلسوا تحته، وإن استقضاهم في حاجة بذلوا فيها مالهم وروحهم، ثم لا يرون بعد ذلك أنهم قاموا بواجب حقهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تقديم العمل على تحصيل جلاء باطنهم من سائر المعاصي الباطنة، وذلك حتى لا يقع منهم سوء ظن بأحد من المسلمين إذ الإنسان لا يسيء بأحد الظن إلا قياسًا على حاله هو، فإذا انجلى باطنه ولم يبق فيه سيئة واحدة، فهناك لا يسيء الظن بأحد من المسلمين، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 112] فإنه لولا كسبه للخطيئة أو الإثم وذوقه في نفسه ما صح رميه به للبريء، فإن قيل: هل للشيخ الكامل طريق يعرف منها نقائص المريد من غير أن يكون في الشيخ نظيرها؟ قلنا: نعم له طريق إلى ذلك من باب الإلهام لا من باب القياس على نفسه هو فيلهم الله تعالى بنقائص مريده ليسعى في تخليصه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم وقوعهم في المعاصي؛ لأنهم داعون إلى الله تعالى، والمريدون ناظرون إلى جميع ما يبرز منهم فيقتدون بهم في كل ذلك بحكم الإرث لسيدنا رسول الله ﷺ، فإنه مشرع لنا في حركاته وسكناته، فكما لا يجوز في حقه وقوع المعاصي، فكذلك أتباعه العارفون لا ينبغي في حقهم وقوعهم في المعاصي، وكما أن رسول الله ﷺ لو صح منه وقوع معصية لصدق عليه تشريع المعاصي ولا قائل بذلك، فكذلك أتباعه إذا وقعوا في معصية، فقد فتحوا لأتباعهم باب وقوع المعاصي، فافهم.

فإننا مأمورون بالناس بسيدنا رسول الله ﷺ في كل أمر فعله أو قاله إلا أن يكون ذلك خاصًا به ولم يأذن لنا فيه.

واعلم يا أخي أن الغفر على نوعين:

- ستر العبد عن الوقوع في المعصية حتى لا تعرف المعصية طريقه ولا يعرف طريقها.

- ستر بين العبد وبين وقوع العقوبة به إذا وقع، فالستر الأول: هو اللائق بالأنبياء، والثاني: هو اللائق بغيرهم هذا اعتقادنا في أنبيائنا، وبتقدير أن لهم ذنوبًا حقيقية، فهي في أمور فوق عقولنا لا تهتدي لكونها ذنبًا عندنا، ولا يجوز لنا حمل ذنوبهم على ذنوبنا؛ لأننا في دائرة تبتدئ من بعد انتهاء دائرتهم لا نجتمع معها في جزء منها، فافهم فعلم أنه لا ينبغي لشيخ أن يتصدر في الطريق إلا إن كان محفوظًا من المعاصي.

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم،

والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم خوفهم من الظلمة ولو توعدوهم بكل سوء؛ لأنهم مع الله تعالى الذي هو المقدر لا مع عبيده، فهم يرونه أقرب إليهم من عبيده كما قال في المحتضر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: 85].

ومن عقل كل عاقل أنه لا تنزل الأمور إلا بالله تعالى، فهم وإن خافوا من الخلق لا يشهدون ما يخوفهم به الخلق إلا من الحق تعالى، فهم مع المسبب لا مع الأسباب، ولهذا فضلوا على غيرهم، ثم لا يخفى عليك يا أخي أن الله تعالى لا يسلط أحدًا من الظلمة على أحد إلا إن كان معه الدنيا، والفقراء الصادقون قد خرجوا في بدايتهم عنها، فمن زهد في الدنيا خافت منه الملوك، ومن رغب فيها خاف هو من الملوك، ثم إن وقع أحد من الأكابر تسليط، فليس ذلك من حيث كونهم يحبون الدنيا، وإنما ذلك اختبارًا لهم أو ليتأسى بهم أتباعهم لكونهم قدوة لهم كما في قول السيد موسى ﷺ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: 21] فإن معناه: لما خفت أن الله تعالى يسلطكم عليّ، إذ الأكابر لا تخاف إلا من الله تعالى إما خوف إجلال وتعظيم، وإما خوف تألم على جسدهم الذي أمنهم الله تعالى عليه من حيث كونه لله تعالى لا لهم من باب التجريد في علم المعاني والبيان، وقد بسطنا الكلام على هذا الخلق في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن الظن بالعلماء والفقراء الذين يدخلون على الأمراء والظلمة، ولا ينكرون عليهم، وحملهم على أنهم لم يروا حال دخولهم عليهم منكرًا، أو رأوه وعجزوا عن إزالته بالقول أو بالفعل، ويجوز المبادرة بالإنكار على العلماء والفقراء المذكورين وحملهم على أنهم قدروا على إزالة منكر ولم يزيلوه إنما اللائق حملهم على المحامل الحسنة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إن لله تعالى أولياء يدخلون على الظلمة فيحولوا قلوبهم حتى لا يظلمون أحدًا في ذلك الوقت، فقد يكون من تنكرون عليه منهم هذا ما درج عليه جمهور العلماء المتورعين.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول لأصحابه: من أدرك منكم النصف الثاني من القرن العاشر، فلا يشدد في إزالة منكرات الولاة إلا إن كان له نصير من الخلق يشد عضده، أو يكون له حال يحمي به نفسه من أصحاب المنكر، فإن من لم

يكن كذلك يكفيه الإنكار بقلبه أو بلطافة وحسن سياسة، وقد قتل خلق كثير ونفوا من بلادهم بإنكارهم على الولاة بغير سياسة أو حال يحميهم منهم وندموا على أمرهم لهم بالمعروف، وصاروا يقولون: نحن الظالمون الذين نصحناهم، فيجعل أحدهم الواجب في معتقده ظلمًا كل ذلك لقلة سياسته، فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم خوفهم من العقارب والسباع الضواري واللصوص إذا سافروا البلاد، وإن وقع أنهم خافوا على أنفسهم من ذلك، فهو بحضور مع الله تعالى لا مع الغفلة عنه، ثم إن أصل الخوف على أنفسهم الواقع من الخلق كون العبد خرج من ضيق العدم إلى فضاء الوجود، فكل شيء رآه يلحقه بالعدم نفر منه ضرورة بحكم الطبع، وأصحاب التمكين يرون أنه لا فعل لجميع المؤذيات إلا بإرادة الله تعالى، فرجع خوفهم من المؤذيات إلى الخوف من الله تعالى كما مر في الخلق قبله.

وقد تطور إبليس مرة لسيدي عبد القادر الجيلي ﷺ في صورة حية سوداء في غلظ رجل الآدمي، ودخلت في كمه وخرجت من طوقه فلم تتغير منه شعرة، ثم بعد أيام تراءى به إبليس وقال: فتنت خلقًا كثيرًا حين تطورت لهم حية ودخلت من طوقهم، انتهى.

فعلم إن كل من ادعى الكمال وخاف من حية أو عقرب أو تمساح أو سبع بحكم الطبع، فهو غير صادق في دعوى الكمال بخلاف ما لو خاف من ذلك حفظًا لجسمه من الهلاك من حيث كونه رعيته فإن ذلك لا ينافي الكمال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة رؤيتهم المنامات الرديئة دون الحسنة، وذلك ليجدوا في العبادة، ولا يقنعوا بما عندهم فكلما استحسنوا شيئًا من أحوالهم أراهم الله تعالى في منامهم مما يجب علمه في رؤيا السالكين الذي وصلوا إلى رتبة الكمال ضد ذلك، بخلاف المريدين الضعفاء، فإن الله تعالى يريهم المنامات الحسنة ليشد عضدهم بذلك؛ لأنهم يعملون لله تعالى على طلب الجزاء ولا يكادون يجدون لإخلاص العارفين طمعًا، فلذلك كان المريد يرى أنه في مكة وأنه في السماء، وأنه في بحر من نور ونحو ذلك، وأما الكامل، فيرى نفسه في ظلمة وأرض وعرة، وأمور تنفر منها الطباع، وقد قال رجل لمالك بن دينار: إني رأيتك البارحة وأنت تتبختر في الجنة، فقال له مالك: أما وجد إبليس أحدًا يسخر به غيري وغيرك.

وكان معروف الكرخي ﷺ يقول: أما وجد إبليس لي منذ ثلاثين سنة، وأنا أرى أن الحق تعالى ينظر إليّ نظر الغضب.

وحج سفيان الثوري ماشيًا من البصرة، فقال له الفضيل بن عياض: أما وجدت لك دابة تركبها، فقال له سفيان: أما يرضى المجرم إذا أراد مجالسة سيده أن يأتي إليه إلا راكبًا؟ والله لو أني آتي ماشيًا حافيًا مكشوف الرأس لكان ذلك قليلاً، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إرخاء الطيلسان على عيونهم؛ حياء من الله تعالى ومن الخلق وكفًا للبصر عن فضول النظر، فلا ينظر أحدهم إلا بقدر مواقع قدمه فقط، وقد ثبت تقنعه ﷺ بردائه تارة في الصيف، وتارة في الشتاء، وما بين لنا علته، فكل مؤمن يفهم ما يليق برتبته، ومن لم يعرف العلة في ذلك كفاه التأسي بصورة ظاهر الفعل.

فإياك يا أخي أن تظن بأحد عمل له طيلسانًا أنه فعل ذلك بقصد التمشيخ أو لغير غرض شرعي، فتسيء في حقه الظن وذلك حرام، فإن قلت: كيف يلبس الطيلسان حياء من الله تعالى والله تعالى لا يحجبه شيء؟ قلنا: إن الشرع تبع العرف كثير من الأحكام، وأمرنا أن نستر عورتنا في صلاتنا في الظلام حياء من الله تعالى، وهذا من ذلك ولا اعتراض إلا على من خالف السنة.

وقد صحح الجلال السيوطي[1] أحاديث استحباب الطيلسان، وقال: من أنكر

(1) هو الشيخ العلامة الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين أبو بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد ابن الشيخ الهمام الخضيري السيوطي المصري الشافعي، وصلي عليه بجامع الأفاريقي تحت القلعة، ودفن بشرقي باب القرافة، ومرض ثلاثة أيام. والخضيري نسبة إلى محلة الخضيرية ببغداد. ووجد بخطه رحمه الله أنه سمع ممن يثق به أنه سمع والده يذكر أن جده الأعلى كان أعجمياً أو من المشرق، فلا يبعد أن النسبة إلى المحلة المذكورة وأمه أم ولد تركية.

وكان مولده بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة بالقاهرة، وكان يلقب بابن الكتب لأن أباه كان من أهل العلم واحتاج إلى مطالعة كتاب فأمر أمه أن تأتيه بالكتاب من بين كتبه فذهبت لتأتي به فجاءها المخاض وهي بين الكتب فوضعته. ثم سماه والده بعد الأسبوع عبد الرحمن ولقبه جلال الدين وكناه شيخه قاضي القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم الكناني لما عرض عليه وقال له ما كنيتك فقال: لا كنيه لي فقال: أبو الفضل، وكتبه بخطه. وتوفي والده ليلة الاثنين خامس سنة صفر سنة خمس وستين وثمانمائة، وجعل الشيخ كمال الدين بن الهمام وصياً عليه فلحظه بنظره ودعايته، وختم القرآن وسنه دون ثمان سنين. ثم حفظ عمدة الأحكام، ومنهاج النووي، وألفية ابن مالك، ومنهاج البيضاوي وعرضها وهو دون =

البلوغ على مشايخ عصره، وأحضره والده وعمره ثلاث سنين مجلس شيخ الإسلام ابن حجر مرة واحدة، وحضر وهو صغير مجلس الشيخ المحدث زين الدين رضوان العقبي، ودرس الشيخ سراج الدين عمر الوردي. ثم اشتغل بالعلم على عدة مشايخ، وحج سنة تسع وستين وثمانمائة، وشرب من ماء زمزم لأمور منها أن يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ بن حجر، ووصلت مصنفاته نحو الستمائة مصنفاً سوى ما رجع عنه وغسله. وولي المشيخة في مواضع متعددة من القاهرة. ثم أنه زهد في جميع ذلك، وانقطع إلى الله بالروضة وكانت له كرامات وعظم غالبها بعد وفاته. وحكى الشيخ العلامة زكريا ابن الشيخ العلامة محمد المحلي الشافعي انه عرض له مهم في بعض أوقاته قال فسألته أن يكتب إلى بعض تلامذته بالوصية علي فامتنع، وأطلعني على ورقة بخطه وفيها أنه اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة مرات تزيد على سبعين مرة، وقال له كلاماً حاصله أن كان بهذه المثابة لا يحتاج إلى مدد وأعانه من أحد. رحمه الله وحكي عنه أنه قال: رأيت في المنام كأني بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم. فذكرت له كتاباً شرعت في تأليفه في الحديث وهو جمع الجوامع. فقلت. فقلت له أقرأ عليكم شيئاً منه فقال لي: هات يا شيخ الحديث قال: هذه البشرى عندي أعظم من الدنيا بحذافيرها، ومن تصانيفه الدر المنثور في التفسير بالمأثور اثني عشر مجلداً، وتناسق الدر في تناسب السور، وحاشية علي البيضاوي إلى الإسراء، ، والمعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة، وإتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة، والديباج على صحيح مسلم ابن الحجاج وكشف الغطا في شرح الموطا، وتنوير الحوالك على مرطا مالك، والبدور السافرة عن أمور الآخرة، ونتيجة الفكر في الجهر بالذكر، وتزيين الآرائك في إرساله صلى الله عليه وسلم إلى الملائك. ومسالك الحنفا في إسلام والدي المصطفى، ونشر العلمين المنيفين. في إحياء الأبوين الشريفين، وذم القضاء، وذم زيارة الأمراء، والتنفيس عن ترك الافتاء والتدريس، والأحاديث الحسان في فضل الطيلسان، وطي اللسان عن ذم الطيلسان، والتضلع في معنى المتقنع، وعين الإصابة فيما استدركته عائشة على الصحابة، والاحتفال بالأطفال، وما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين، والأوج في خبر عوج، والوديك في الديك، والطرثوث في فوائد البرغوث، وله مختصر نهاية ابن الأثير، والينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع ومختصر الخادم، ومختصر الأحكام السلطانية، وشرح الروض لابن المقري، وشرح التنبيه مختصر، والبهجة المرضية في شرح الألفية ممزوج، والمسائل الوفية في نكت الحاجبيتين والألفية، على منوال التحرير للشيخ ولي الدين العراقي على الكتب الثلاثة في الفقه جامع لكل ما يرد على عبارتها، وما ناقضوه في غيرها من مصنفاتهم مع ما أمكن من الجواب. ومن تصانيفه. السيف الصقيل في نكت شرح الألفية لابن عقيل، والفتح القريب على مغنى اللبيب وجمع الجوامع في العربية وشرحه همع الهوامع، والمرقاة العلية في شرح الأسماء النبوية، وشرح الشاطبية ممزوج، ونظم جمع الجوامع في الأصول وشرحه، والطب النبوي، وطبقات الحفاظ وطبقات الشافعية. وطبقات النحاة. وأنموذج اللبيب في خصائص الحبيب. والحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة. والإكليل في استنباط التنزيل، وفتح الإله في التفضيل بين

سنيته كفر.

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق السابقة على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: جهرهم بالذكر محبة في الله ﷻ وطلبًا لأحد يسمعهم فيذكر الله تعالى بذكرهم، لاسيما إن كانت زاويتهم على الشارع، فإياك أن تحمل أحدًا منهم على الرياء إذا قال لمريده: قم فاذكر الله تعالى في ذلك الشباك الذي على الطريق؛ ليسمعك المارون فإن قصده صحيح في ذلك، لاسيما في حال نهايتهم ويا طول ما كتموا أعمالهم في بدايتهم، وخافوا على ظهورها حين كانوا يعتمدون عليها، فلما اعتمدوا على ربهم، ورأوا أنه خالق لأعمالهم كشفًا ويقينًا لم يبق عندهم خوف من إظهار أعمالهم كما أوضحنا ذلك في كتاب «المنن والأخلاق» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبتهم في التقلل من مجالسة الأمراء والعلماء؛ خوفًا من الإخلال بواجب حقهم إذا أكثروا مجالستهم لا لعلة أخرى نفسانية وذلك لأن كل شيء تكررت رؤيته هان في العيون، ولذلك قالوا: من أقل الناس نفعًا بالشيخ زوجته، وولده، ونقيبه لكثرة مجالستهم له، ورؤيتهم له بخلاف من يزور الأشياخ الشيخ في بعض الأحيان، أو يجالس العلماء للتعلم.

وقد كان الإمام عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: إياك والدخول على الأمراء، ولو أمرتهم ونهيتهم، وتأمل يا أخي أهل مكة لما كثرت مشاهدتهم للكعبة كيف تراهم لا يعظمونها كل التعظيم الذي يقع من الأفاقي[1] عند رؤيتها، ولا يبكون كما يبكي ولعل ذلك أيضًا هو السبب الذي جعلوا لأجله خلوة الخطابة فيجلس فيها الخطيب مراقبًا لله ﷻ، حتى يخرج للخطبة بخلعه الهيبة من الله تعالى، لأجل المراقبة التي كان فيها، فيكون وعظه أوقع في القلوب من وعظه إذا جلس بلغو أو بضحك عند المنبر مع الناس، فإنه إذا طلع المنبر لا يجدون لوعظه تأثيرًا؛ لزوال هيبته بالضحك واللغو

الطواف والصلاة. وكشف الصبابة في مسألة الاستنابة. وحسن المقصد في عمل المولد. وتشنيف الأركان في ليس في الامكان أبدع مما كان. وفجر الدياجي في الأحاجي، ونزهة الجلساء في أشعار النساء. وشرح الصدور بشرح أحوال القبور. وله تعليق لطيف على البخاري. وله غير ذلك كثيرًا من مؤلفاته الباهرة. [النور السافر 1/29].

(1) الأفاقي: القادم من بلاد بعيدة فلا يتاح له كثرة رؤية الكعبة.

واستصحاب الناس ذلك في حال وعظه لهم، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تعظيمهم للشرفاء، وإن طعن بعض الناس في صحة نسبهم، وكذلك تعظيم أولاد العلماء والصلحاء وإكرامهم وإجلالهم، ولو كانوا على غير قدم الاستقامة بطريقه الشرعي إكرامًا لسلفهم الطاهر الصالح، ثم إن رؤيتهم أن ذلك من بعض ما يستحقونه عليهم، وهذا الخلق لم أجد له فاعلا من أقراني إلا القليل.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من أقل ما يعامل به الشريف في التعظيم أن يعظم الناس نائب مصر أو قاضي العسكر أو الدفتردار.

وسمعته يقول أيضًا: من أدبنا مع الشريف ألا نفتح مجلس الذكر بحضرته ولا نجلس على مكان أو فرس أعلى منه، ولا نتزوج له مطلقة ولا بنتا إلا أن عددنا أنفسنا عبيدًا لها، ولا نمنعها شيئًا طلبته منا مما لنا قدرة عليه من سائر الشهوات المباحة، ولا نتزوج عليها ولا نتسرى، ونقدم لها نعلها، ونقوم لها إذا وردت علينا وإذا كنا نبيع على النساء لا ننظر إلى وجهها، ولا لشيء من يديها، بل ولا ننظر في الإزار خوفًا أن يبدوا شيئًا من بدنها، وإن كان أحدنا كثير الأدب أعطاها ما طلبت شراء منه هبة أو هدية لا بيعًا حتى يحتاج إلى الإشهاد عليها.

وقد بسطنا الكلام على الأدب مع الشرفاء في كتاب «العهود» وفي كتاب «المنن الكبرى» فراجعها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم للأكل من صدقات الناس الخاصة المقيدة بشروط عزيزة كأن يكون موقوفًا على الصوفية أو المشايخ أو العلماء العاملين؛ لأنهم لا يعدون نفوسهم من الصوفية المنصرف إليهم الاسم في طريقهم ولا من المشايخ، وهذا بخلاف الصدقات العامة كالموقوف على الفقراء والمساكين، فلا يكرهون الأكل منها إذا كان أصلها حلالاً لا استبدال، ولا تدليس في طريق واقفها كما يقع فيه من لا يتورع من الأمراء وأعوانهم، وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول ينهى شخصًا وقف عليه أبوه شيئًا من الأكل منه، وقال له: كل من كسبك إن كنت رجلاً، وهذا خلق غريب قل فاعله في هذا الزمان، بل رأيت كثيرًا من الفقراء يزاحم على الأكل من الصدقات مع كونه عنده ما يكفيه، وهذا خروج عن طريق القوم، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: استئذانهم لربهم تبارك وتعالى إذا كانوا يقرؤون كلامه العزيز، وطلبوا أحد من الناس أو طلبوا منهم حاجة فلا يكلمونه إلا بعد قولهم بقلوبهم: دستور يا الله أكلم عبدك هذا في حاجته، وكذلك يستأذنون رسول الله ﷺ إذا كان يقرؤون حديثه، وكذلك يستأذنون الأئمة المجتهدين ومقلديهم إذا كانوا يقرؤون في كلامهم ويقررونه، فيقولون: دستور يا رسول الله، أو دستور يا إمامي يا محمد بن إدريس أن أكلم هذا في حاجته، ونحو ذلك، ولهذا الأدب حلاوة عظيمة يجدها الإنسان في باطنه ولا يقدر قدرها.

ولم أجد لهذا الخلق فاعلاً في عصري إلا قليلاً، فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهيتهم لمد رجلهم في ساعة من ليل أو نهار إلا بعد قولهم: دستور يا رب أمد رجلي؛ لأريحها من وجع القرفصة، ثم يمدونها بعد ذلك، وكذلك القول نحو المدينة المشرفة أو نحو ولي من أولياء الله تعالى في سائر أقطار الأرض سواء الأحياء والأموات كل ذلك لشهودهم أنهم بين يدي الله تعالى، أو بين يدي أهل الحضرة على الدوام من نبي وولي، فإن لم يكن ذلك لهم كشفًا كان لهم إيمانًا.

ولهذا الأدب حلاوة عظيمة يجدها العبد في باطنه، وكلامنا في مد الرجل لحاجة أما عبثًا فهو أشد في قلة الأدب، وقد مد سيدي إبراهيم بن أدهم رجله مرة في الليل، فسمع قائلاً يقول:

ما هكذا ينبغي مجالسة الملوك، فلم يمد سيدي إبراهيم رجله حتى مات بعد عشرين سنة، وهذا الأمر وإن كان مباحًا في الشرع ففعله أدبًا أولى ولكل مقام رجال، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهيتهم للنوم على حدث أصغر فضلاً عن الأكبر سواء أكان الحدث ظاهرًا وهو معلوم، أو باطنًا كالحقد والمكر والخبث، والكبر والرياء، وتنقيص المسلمين وغيبتهم وكل شيء يضره أو يضر غيره في الدنيا والآخرة بطريقه الشرعي كل ذلك مراعاة للأدب مع الحضرة التي تنتقل إليها في النوم أرواحهم، فإن الأرواح إذا نام صاحبها ارتفعت إلى العلى، فلا يؤذن لها في السجود بين يدي الله تعالى إلا إن فارقت جسمها على طهارة ظاهرة وباطنة، فإن لم تكن كذلك وقفت ناحية عن الحضرة لا يصح منها سجود لو سجدت لكونها محدثة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إياك يا ولدي أن تنام على

محبة الدنيا، فربما أخذ الله روحك تلك الليلة، فتحشر مع مبغوض لم ينظر الله إليه منذ خلقه.

قال: ولعلك يا ولدي لا تعد محبة الدنيا خطيئة وتنسى قول السيد عيسى ﷺ: حب الدنيا رأس كل خطية، انتهى.

وفي العمل بهذا الخلق أدب مع الملائكة الكرام الكاتبين، وفتح باب الرحمة بدخولهم بيته، فإنهم لا يدخلون بيتًا فيه جنب، فينبغي للفقير إذا جامع ولم تغتسل زوجته أن يخرج من ذلك البيت الذي هي فيه إلى موضع آخر قيامًا بحق الملائكة، وطلبًا لحصول الرحمة بحضورهم، حتى أنهم لا ينامون في موضع فيه حائض أو نفساء، بل ولا يمكثون فيه لحظة لإطلاق لفظ الجنب في الحديث، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الاجتهاد في العبادة، ولا يملون منها ليلاً ولا نهارًا، ولا يكتفون بدعائهم في قراءة الأحزاب، ثم ينامون في الليل فإن هذا غرور.

وقد رأيت سيدي الشيخ أبا الحمايل السروي - رحمه الله تعالى - أقام جماعة من الفقراء من قراءة حزب شيخهم حين سمعهم يقولون: اجعلنا عندك من المقربين، وأجلسنا بين يديك مع الأنبياء والمرسلين.

وقال: قوموا واشتغلوا بالتوحيد، أو بالقيام في الأسباب حتى يبدأكم الحق تعالى بالتقريب، فإن حكم مثلكم حكم زبال دخل في غمار الناس إلى السلطان وقال: زوجني ابنتك أو اجعلني وزيرًا لك، فربما طرد ومقت بمثل ذلك القول، وما هكذا درج الصادقون من أهل الله ﷻ، انتهى فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يصغوا قط لمن يمدحهم؛ لأن المادح إن كان صادقًا فيما مدحهم به، فقد تعجلوا أجرهم، وإن كان كاذبًا فهو سخريًا بهم.

وقد وقف شخص على دكان في العنبرانيين وأشار إليّ، وقال: هذا الرجل الصالح هذا حامي مصر، فكدت أن أذوب من الخجل والحياء من الله تعالى، ثم من أصحاب النوبة الذين هم حماة البلد حقيقة، وهضم النفس هو ما درج عليه السلف الصالح.

وأما قول بعضهم: أنه ينبغي للعبد إذا مدحه أحد أن يأخذ ذلك على لسان الحق تعالى، ويشكره على ذلك، فهو خاص ببعض الأولياء مع أنه لا ينافي كونه من الله تعالى، فإن الكامل يكنى أبا العيون، ومعلوم أن الاقتداء بما عليه جمهور أهل الطريق

أولى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم للنوم في النصف الثاني من الليل، وكذلك يكرهون النوم ليلة الجمعة وليلتي العيدين، وليلة النصف من شعبان وليالي القدر.

وإن غلب أحدهم النوم نام جالسًا، وذلك أن من بركة المواهب الإلهية المغفرة لجميع من حضرها، والعافية من جميع الأمراض، والتوبة من جميع الآثام، ويحتاج استثناء المشرك والمشاحن والعشار وغير ذلك مما ورد لأن كلامنا فيمن حضر الموكب الإلهي الذي هو حضرة الله تعالى الخاصة، ودخولها محرم على من تلطخ بذنب ولم يتب، فافهم.

واعتبر يا أخي من يعكس في حضوره مواكب السلطان، وتأمل كيف يقطعون جاميكته بخلاف من يواظب على حضورها قبل الناس، فإنهم يزيدوا جامكيته تبصرة، وذكرى لأولى الألباب.

فعلم أن من واظب على النوم في الأسحار، فليس له في طريق الصالحين نصيب.

وفي الحديث أن أم السيد داود ﷺ قالت له: يا بني لا تترك قيام الليل، فإن ترك قيام الليل يدع الرجل فقيرًا يوم القيامة.

وورد أن الله تعالى أوحى إلى السيد داود ﷺ: «يا داود كذب من ادعى محبتي، فإذا جنه الليل نام عني» وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله ﷻ: يا عبدي جعلت النهار لمعاشك، وجعلت الليل لسمر معي، وقد اشتغلت في النهار بمعاشك، ونمت عني في الليل، فخسرت عمرك كله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة مجالستهم للحق - جل وعلا - طلبًا لزوال الغم والهم الواقع للناس في هذه الدار، فإن الهم والغم فيها إنما هو بقدر الغفلة عن الله تعالى فمن أراد دوام السرور، فليداوم على الحضور، فليختر العبد لنفسه ما شاء، فلا يلومن إلا نفسه إذا ترادفت عليه الغموم والهموم، فإن ذلك إنما هو جزاء بقدر إعراضه عن ربه تعالى، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة رضاهم عن ربهم إذا قتر عليهم الرزق أكثر من رضاهم عنه إذا وسع عليهم الرزق؛ لأنه إذا قتر عليهم الرزق فقد سلك بهم طريق الصالحين، وإذا وسعه عليهم، فقد سلك بهم طريق الغافلين عنه، ثم إنهم إذا تمكنوا في هذا المقام ترقوا إلى فناء اختيارهم مع الله تعالى فيرون أنه تعالى أعلم بمصالحهم من أنفسهم، فلا

يبقى عندهم ترجيح لشيء، ثم إذا ازدادوا تمكينًا رجعوا إلى صورة المقام الأول، ولكن القصد مختلف، فإن كل من تمكن في مقامه يزداد بالسلب تمكينًا وبالعطاء حجابًا من حيث إضافة الأمور إليه، فكلما ترقوا من مقام إلى مقام فلهم مشهد خلاف المشهد الماضي.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في «المنن الكبرى» وعلى رضا الله على العبد بتقدير الله تعالى عليه من حيث كونه تعالى خالقًا، وعدم رضاه من جهة كون العبد كاسبًا فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة استغفارهم لرؤيتهم النقص في عباداتهم، فلا يرون لهم قط عبادة كاملة، ومن كان هذا مشهده فهو غائب عن طلب الأجر والثواب على عبادته.

وقد كان الفضيل بن عياض يقول: إني لأنصرف من صلاتي وأنا مستحي من الله تعالى أكثر من استحيائي إذا شربت خمرًا، انتهى.

وذلك لأن الخمر ينادي على صاحبه بأنه عاصٍ لله تعالى ولرسوله ﷺ بخلاف الذنوب في الطاعات، فإنها تخفى على غالب الناس، وأيضًا فإن الغافل في صلاته قد اشتغل بغير الله تعالى في حضرته وشارب الخمر عصى في حجاب.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: والله غن أحدنا ليستحق الخسف به لولا عفو الله تعالى، وكان يقول: من تأمل نفسه بعين البصيرة من حيث كسبه وجد سداه ولحمته ذنوبًا وعيوبًا ضُم بعضها إلى بعض، فصار صورة إنسان.

وفي كلام الشيخ شرف الدين بن المقري - رحمه الله تعالى - :

ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة ... إذا عددت تكفيك عن كل زلة
تصلي بلا قلب صلاة بمثلها ... يكون الفتى مستوجبًا للعقوبة
صلاة أقيمت يعلم الله أنها ... بفعلك هذا طاعة كالخطيئة

إلى آخر ما قال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن سياستهم للمقاريض الذين يقرضون في أعراض الناس، فيقدمون لهم طعام، ويبشون في وجوههم ويظهرون لهم المحبة فإذا مالوا إليهم فهناك يعظوهم بسياسة، ويقولون لأحدهم: قد مال قلبنا إليك كثيرًا ومقصودنا الأخوة على وجه الشرع بأن تمسك على الكلام في أعراض الناس كلما تسمعني اغتبت أحدًا ولا تسامحني في كلمة واحدة، فيأخذه له من ذلك معنى.

ثم إنهم يصيرون يمدحون في المجالس، ويقولون قد حصل لنا خير بصحبتنا لفلان كان لساننا منطلقًا في أعراض الناس فمن حين صحبناه، ومسك علينا الكلام في الناس وقلت غيبتنا لهم، فهناك يصير يستحي من أن يقع في أعراض الناس خوفًا أن يخالف ما وصفوه به من ضبط اللسان.

ولو أنهم قالوا له: ابتداء تب إلى الله تعالى عن الكلام في أعراض الناس وإلا مقتك الله تعالى لربما وقع فيهم، وازداد غيبة في من نبهه على ذلك، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم رؤيتهم في نفوسهم أنهم من جملة العلماء العاملين، أو عباد الله الصالحين، فيصيرون يعلمون الجاهل وهم يرون أنه أحسن حالاً منهم، ولو أن السلطان مثلاً رسم لأهل العلم أو الصلاح بمال جزيل لا تطمح نفوسهم قط؛ لأن يعطوا شيئًا منه كمالا تطمح نفس العامي أو الفسقة إلى ذلك، وهذا الخلق قل من يتنبه له من الأقران، بل بعضهم يغضب إذا نقصوه في العطاء عن أحد من أقرانه، ويصير يقيم الأدلة على أنه أعلم وأولى بأن يزاد.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من نظر إلى علوم السلف الصالح رأى نفسه جاهلاً، وقد نقل ابن السبكي في «طبقاته» أن الحافظ بن شاهين فسر القرآن في ألف مجلدة ضخمة، وصنف «المسند» في ألف وستمائة مجلدة، وذكروا أنه حاسب الحبار فبلغ استجراره الحبر للكتابة ألف رطل وثمانمائة رطل.

وصنف الشيخ عبد الغفار القوصي كتابًا في مذهب الشافعي في ألف مجلدة، وكان محمد بن جرير الطبري يحفظ وقر ثمانين بعيرًا.

وحرقت خزانة الكتب ببغداد في المدرسة النظامية فحزن لذلك نظام الملك، فقالوا له: لا تحزن فإن ابن الصباغ يملي من حفظه جميع ما حرق فأملأ جميع ما حرق من كتب التفاسير والحديث واللغة والأصول وغيرها في مدة ثلاث سنين.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن» فانظر يا أخي نسبة علمك إلى هؤلاء تجده لا يجيء عُشر عُشر علم أحد وإياك والدعوى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: موافقتهم في مدح عدوهم إذا رأوا أحدًا يمدحه بنظم أو نثر، وإظهار البشاشة وطلاقة الوجه وكتمان عداوتهم لعدوهم حتى لا يكاد أحد يلحق بهم، وفي ذلك من حسن السياسة ما لا يخفى، وفيه سد باب الغيبة والنميمة وتخفيف عداوة عدوهم إذا بلغه فرحهم بمن مدحه، وإكرامه بالبشاشة والنقوط في ذلك المجلس،

وحكم العكس بالعكس كما جرب، وهذا خلق غريب قل أن يوجد في أحد من العلماء والفقراء الآن، بل رأيت عالمين دخل أحدهما وليمة فرأى عدوه هناك فرجع فقاموا له ليدخلوه فعجزوا في دخوله وقال: لا أدخل مكانًا فيه فلان فقام عدوه الآخر، وخرج وحصل ما لا خير فيه، فيحتاج من يخالط الناس في هذا الزمان إلى عقل وافر، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم قبولهم هدية علموا بالقرائن أن لها قدرًا عند مهديها كأن أرسلها مع غلامه وقال: لا تعطها إلا للشيخ في يده مثلاً، أو كانوا يعلمون منه أنه يصير يتذكرها كل قليل؛ لكونها فوق مرتبته مثلاً، فإن ذلك من علامة كونه بخيلاً أو ممن يتبع نفسه هديته.

وكذلك لا يأكلون شيئًا أكد على أحدهم صاحب السماط أن يأكله كأن مسك وركًا وصار يقول له: اجبر بخاطري وكل هذا، فإنهم يزدادون بذلك نفرة من أكله؛ لأنه أمارة على بخله إذ الكريم لا يبالي بأي من أكل طعامه كائنًا من كان.

وهذا خلق لم أر له ذائقًا، بل ربما يفرح أحدهم إذا أكدوا عليه في العزومة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم للأكل وحدهم لحديث: «**شر الناس من أكل وحده، وجلد عبده، ومنع رفده**»[1] كما كرهت الصلاة فردًا، فكذلك يكره الأكل فردًا لجامع أن كلاً منهما مشروع، وفي الأكل مع الجماعة فوائد:

منها: محبة الناس له، ومساعدتهم له على نصرة الدين إذا رأوه قائمًا في إزالة منكر.

ومنها: كثرة الرزق والمدد لحديث: «**إن المعونة تأتي من الله تعالى على قدر المؤنة**»[2].

ومنها: امتثال أمر الشارع، فعلم أن حكم أكلهم وحدهم بالعكس من ذلك فينحل أمر البخيل إلى كراهة كل من لم يطعمه له، وعدم نصرة الدين نكاية فيه، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (133/51).

(2) رواه ا البزار كما في كشف الأستار (195/2، رقم 1506)، والبيهقي في شعب الإيمان (191/7، رقم 9956)، وابن عدي في الكامل (115/4، ترجمة 961 طارق بن عمار).

ومن أخلاقهم: مباسطتهم للخادم وتواضعهم معه حتى يصير يجلس يأكل مع سيده، ولا يتعلل بالحياء ولا بالخوف من زجره إذا أكل معه من غير عزومة عليه كما كان عليه الجلال المحلي شارح المنهاج، ومتى كان الخادم يستحي أن يأكل مع سيده أو يخاف منه، فسيده معدود من المتكبرين، وقد دعا الإمام عمر بن عبد العزيز مرة خادمه أن يأكل معه فأبى فبكى وقال في نفسه: لولا علم منك سوء الخلق والفظاظة ما أبى وجلس يأكل معك كما كان خدم رسول الله ﷺ يأكلون معه، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم ردهم السائل ولو بلقمة أو زبيبة، أو عمامة أو جوخة عملاً بقوله ﷺ: «**للسائل حق وإن جاء على فرس**»[1] ولكونهم من شأنهم عدم الشح وعدم تمييزهم نفوسهم على إخوانهم، وكل فقير منع سائله لغير غرض شرعي فهو لم يشم من طريق الفقر رائحة، فإن الفقراء على الأخلاق الإلهية بنوا طريقهم، فلا يمنعون إلا لحكمة كأن لم يجدوا إخلاصًا في ذلك الوقت، أو علموا أن ذلك السائل يعصي الله تعالى بما يأخذه منهم، أو كان سؤاله تعنتًا لا لحاجة بل امتحانًا، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: في حال كمالهم النسبي أن يقدموا نفوسهم على غيرهم في المطاعم والملابس وغيرها عملاً بحديث: «**ابدأ بنفسك**»[2] وبحديث: «**الأقربون أولى بالمعروف**»[3] ولا أقرب إلى الإنسان من نفسه عكس ما كانوا عليه في حال بدايتهم من إيثار على نفوسهم ومدحهم على ذلك.

قال سيدي علي الخواص - رحمه الله - تعالى: وإنما كانوا يمدحون على الإيثار حال بدايتهم في الطريق؛ لأنهم كانوا في مقام المجاهدة والعمل على الخروج من

---

(1) أخرجه أحمد (201/1 ، رقم 1730)، والطبراني (130/3، رقم 2893)، وأبونعيم في الحلية (8/ 379)، والبيهقي (23/7، رقم 12983)، وابن أبي شيبة (353/2، رقم9823)، وأبو داود (2/ 126، رقم 1665)، وأبو يعلى (154/12، رقم 6784)، والقضاعي (191/1، رقم 285)، عن السيدة فاطمة بنت حسين عن أبيها عن علي رضي الله عنهم.

(2) رواه مسلم (692/2 ، رقم 997)، والنسائي (69/5 ، رقم 2546) والشافعي (327/1) ، وأبو عوانة (490/3 ، رقم 5805) ، والبيهقي (178/4 ، رقم 7544).

(3) ذكره الزرقاني في النخبة البهية (32).

ورطة الشح الذي فتحوا عيونهم عليه في الدنيا بخلاف حالهم في زمن كمالهم، فإنهم مأمورون بأن يعطوا كل ذي حق حقه بحكم العدل، وفي هذا الذي قلناه جمع بين الآيات والآيات الواردة في الإيثار وعدمه، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تسليمهم وترك تكذيبهم لكل من ادعى ممكنًا في العادة من سائر المقامات حتى القطبية؛ لأن الولاية أمر باطني لا يطلع عليه إلا الله تعالى ثم صاحبه، وقد لا يطلع الله عليها صاحبها أيضًا فيكون في نفسه أذل الناس وأحقر الناس لا يرى له شفوف على أحد من المسلمين، فيسلمون له ضرورة؛ لأن أحدهم يرى نفسه في الأرض، ويرى المدعي للقطبية كأنه في السماء، وأهل الأرض لا يعرفون ما أهل السماء فيه.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول لأصحابه: سلموا لكل مدعٍ دعواه ما لم يدع باطلاً كالنبوة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كمال التنزيه لله تعالى فلا يقولون قط بالجهة كما يقع فيه أهل الجهل بالله ﷻ آخذًا بظاهر الأحاديث التي يعطي ظاهرها رائحة التشبيه بأحوال الخلق وتعالى الحق في علا ذاته عن أن يلحقه تشبيه بخلقه، وقد أجمع أهل الحق كلهم على أن الحق تعالى لا يتحد مع خلقه في مرتبة من المراتب، وكيف يلحق المخلوق خالقه؟ كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «اليواقيت والجواهر» وفي كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تسليمهم للنفس ما تدعيه حال المرض من عجزها عن القيام في الفريضة مثلاً إلا بعد امتحانها مرات بأن تقوم فلا تقدر تقف لا بنفسها ولا باعتماد على شيء، وهناك يصلون جالسين، وهذا الخلق قل من يتنبه له في المرض، بل يبادر أحدهم إلى الصلاة جالسًا، وبعضهم يترك الصلاة بالكلية، وذلك خروج عن الدين.

وقد رأيت شيخنا شيخ الإسلام زكريا شارح «الروض» يصلي النوافل قائمًا وهو يتمايل لا يكاد يقدر على الوقوف، فقلت له يومًا: مثلكم لا يكلفه الله تعالى بالقيام في مثل ذلك.

فقال: يا ولدي كل صلاة يحتمل أن تكون آخر أعمالي في الدنيا فأخاف أن أختم عملي بالكسل، انتهى.

وفي كلام سيدي أحمد الرفاعي: كل فقير لا يحاسب نفسه في كل حركة

وسكون ويتهمها جميع ما تدعيه لا يكتب في ديوان الرجال، فالحمد لله رب العالمين.

الباب الرابع

في جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم: عدم أكلهم من طعام من شفعوا فيه شفاعة، وقبلت فضلاً عن كونها لم تقبل أو قبولهم هدية أرسلها لهم الشخص للمشفوع فيه قبل الشافعة أو بعدها، وهذا الخلق قل من تنبه له من الفقراء، بل بعضهم يتطلب حصول ذلك بقلبه أو بنفسه، وهو من أكبر الذنوب مع أنه يخرب ما بين الفقير وبين ربه؛ لأن الشفاعة تكون واجبة في واجب ومستحبة في مستحب، وأخذ العوض الدنيوي على ذلك بيع للدين بالدنيا، وإن كان مال المشفوع فيه غير حلال ضر نفسه بذلك وأوقف قضاء حاجته؛ لأنه يتلف قلب الفقير، والذي يشفع فلا يصير له كمال توجه في قضاء حاجته ولا قضاء حاجة أحد من المكروبين، فإن ترك الأكل وقبول الهدية مصلحة للشافع والمشفوع له، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم قبول هدايا الظلمة وأعوانهم وكراهة قبولها على اسمهم أو على اسم جماعتهم ولو سفوا التراب، وإنما هان عليهم عدم قبول هدايا الظلمة؛ لأنهم لا يصحبونهم قط لعلة دنيوية، وإنما يصحبونهم للأجر والثواب، ومعلوم أن هدايا الظلمة إنما هي أوزار فإن غالبها بلص وجور على رعيتهم، وأخذ جرائم ممكن يتحاكم عندهم، وقد بلغني أن شخصًا سرقوه جماعة فاشتكى إلى شيخ العرب فقال: اتهم لك واحد، فقال: لا أتهم أحدًا، فقال له حاشيته: انظر لك أحدًا في بلدك له بهائم كثيرة فاتهمه، فقال: لا أتهم أحدًا، فقال شيخ العرب: أنا أتهم لك، فأرسل جماعته فوسموا جميع بهائم رجل في البلد شهد الناس فيه كلهم له بالخير، ثم إن شيخ العرب أرسل تلك البهائم ففرقها ضحايا على زوايا مصر، صار كل من حصل له بقرة أو جاموسة يشكر شيخ العرب ويقول جزاه الله عنا خيرًا، وكذلك القول في ضحايا الغنم يأخذها شيخ العرب أو الكاشف غصبًا من البلاد، ثم يفرقها ضحايا على العلماء والصالحين، لكن بحمد الله عن قريب يصير الكاشف أو شيخ العرب يعجز عن خراج السلطان من ضيق الحال، ولا يجد شيئًا يفرقه، فإياك يا أخي أن تقبل شيئًا من ذلك، وإن شككت في قولي فأرسل استخبر من الفلاحين تعرف صدقي، ثم لا يخفى أن الفقراء الصادقين

سهامهم موتورة على الذين يظلمون الناس، ومعلوم أن قبولهم هداياهم يبطل عمل تلك السهام، مع ما في ذلك من كثرة التبعات، وعدم قبول الشفاعات.

فعلم أن كل من ادعى الصلاح وأكل من هدايا العمال ولبس من ثيابهم، فهو نصاب كذاب كما أوضحنا ذلك في كتاب «المنن» وسيأتي في الباب السادس في الوسط منه ما قاسيته من العقوبة لما أكلت حبات من عنب عيسى شيخ العرب مع شهرته بالدين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة التزاور لبعضهم بعضًا؛ وفاء بحقوق بعضهم ولو في الشهر مرة، ولا يتركون الزيارة اكتفاء باتحاد قلوبهم فإن الأجسام تطلب حظها من الزيارة مثل الأرواح، وقد درج على ذلك جمهور الفقراء، وقد حدث جماعة يدعون الفقر، ويهجرون أخاهم السنة والسنتين وأكثر ولا يزورونه، فيحصل بينهما الجفاء ويظن الناس أن بينهما عداوة فيمشون بينهما بالنميمة، فيتولد من ذلك مفاسد.

وقد قلت مرة لشخص من أصحاب شيخ من مشايخ العصر: إن شيخك أوحشنا كثيرًا فحكى ذلك لشيخه فقال له: أما تعلم أن الدفتردار يزورنا، وإذا بلغه أننا نزور فلانًا يزدرينا في عينه وينقطع عن زيارتنا، فقلت له: تبًا لكم فقراء كيف يصح من فقير أنه يتلفظ بمثل هذا العذر البارد؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يصحبوا أميرًا إلا أن وطنوا نفوسهم على القيام بشروط صحبته بحيث لا يخلوا منها بشرط واحد، فمن شروط صحبة الفقير للأمير: ألا يقبل منه هدية، ولا يعتب عليه في عدم تردده إليه، فإن صحبه بقصد إحسانه أو ليتردد إليه قيامًا بجاهه بين الفقراء فقد أخطأ الطريق، ومنها أن يتحمل عن ذلك الأمير أوزاره من مظالم العباد وغيرها، حتى يأتي ذلك الأمير يوم القيامة وليس عليه ذنب يوقف لأجله في الحساب، ومنها ألا يدخل في صحبته إلا إن كان بيده ولايته وعزله، وحماية نفسه من تصرف ذلك الأمير فيه بحبس أو ضرب؛ لأنه إن لم يحم نفسه سقط من عينه، وإنما شرطنا ذلك؛ ليخاف من الفقير إذا هدده، وطلب كفه عن المظالم، ومنها أن يكون مانعًا بتوجهه إلى الله تعالى من أن يزيد عليه أحد في بلاد ذلك الأمير مالاً للسلطان ظلمًا أو يطلب عزله من ولايته، ومنها أن يفرح بعدم زيارة الأمير له؛ لأن الأمير لا يزور الفقير إلا إذا كان في كرب وشدة، ومادام بخير فلا يأتي إلى الفقير.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله - يقول: الفقراء كبيت الخلاء لا

يأتيهم إلا مخروق، انتهى.

فإياك يا أخي أن تخل بمثل ذلك إذا صحبك أمير، وإن لم تقدر على ذلك فاترك صحبته فإنها لحظ نفس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مزاحمتهم على صحبة أحد من الولاة وأبناء الدنيا، قال سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - : وينبغي للفقير أن يكثر النفرة من صحبة الأمراء، وإن تقدم لهم بأحد منهم صحبة وطرأ عليهم فقير يريد أن يصحبهم كذلك حسنوا اعتقادهم فيه، وصاروا يتزاورون ذلك الفقير، حتى يظن ذلك الأمير أن الفقير الأول لا يصلح تلميذًا لذلك الفقير الثاني، ثم يفسح لذلك الفقير عن صحبة ذلك الأمير بسياسة بحيث لا يشعر أحد بقصده، وهذا الخلق ما رأيت له فاعلاً في أقراني إلا القليل، وهو من أعظم أخلاق الفقراء الصادقين، وربما ادعاه بعضهم وهو غير صادق فيه، فليمتحن نفسه بما لو دخل شخص من أعدائه على ذلك الأمير، وصار يقطع في عرضه وينقصه حتى غيّر اعتقاد ذلك الأمير فيه، ولا بقي يقدر ينظر له صورة، فإن انشرح لذلك فهو صادق في المقام، وإن تكدرت منه شعرة فهو مرائي منافق في حكم أهل الطريق.

وقد كان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: كل فقير يعتقد فيه ظالم ويهدي إليه شيئًا إلا ويصير يركن إليه بالقلب، ويخالف قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود:113] وإن حصل لذلك الأمير عزل من وظيفته، أو حبس على مال السلطان يمسكون ذلك الفقير ويقولون: أين ودائعه؟ أين ماله؟ فليوطن من يقبل هدايا الظلمة نفسه على خزي الدنيا وعذاب الآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يقدمون على صحبة أحد من الولاة إلا إذا رأوا صحبته ترجح على عدم صحبته يقينًا من غير تلبيس من النفس، ثم إذا رأوه كثير الظلم والبلص للناس مع صحة اعتقاده فيهم تسببوا في تجريحهم عنده بإرسال أحد من الزوالق له يقطع في عرضهم عنده حتى يتحول اعتقاده فيهم، وهذا خلق غريب قل من يفعله، بل رأيت بعضهم يفسد من رآه من الأمراء يعتقد في أخيه، ويرسل له من يقول له: إن هذا الرجل الذي نعتقده لا يصلح خادمًا للشيخ الفلاني.

كما وقع لبعضهم لما صحبني محمد الدفتردار ومحمد بن بغداد ومحمد بن عمر، وكل ذلك لشدة محبتهم في الدنيا التي هي رأس كل خطيئة، فالحمد لله الذي

عافانا من مثل ذلك، وإياك أن تظن بفقير جرحه الناس عند أمير، وتكدر أن ذلك لحظ نفس، وإنما يجب عليك حمله على أنه تكدر غيرة على الخرقة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن سياستهم لمن يشفعون عنده من الأمراء، وإذا رأوه في شدة غضب لا يفتحون له الباب، بل يتمهلون اليوم واليومين وأكثر، فإذا خمد غضبه شفعوا إذ ذاك.

ولما طلعت للوزير على باشا شافعًا في محمد العبادي حين نقم عليه من كلام الأعداء فيه قال لي: ما حاجتكم؟ فقلت له: جئت أشفع في محمد العبادي إن كان التأديب بلغ حده فنحن معكم عليه حتى يتأدب، فقال لي: إن شاء الله تعالى ننظر في أمره بخير، وكان قد عزم على قتله بعد أن شفع فيه جماعة من العلماء وردهم ولو أنني قلت له: جئت أشفع في فلان المظلوم الذي ظلمتموه بغير حق لربما انتصر لنفسه ولم يرجع لقولي، فتعلم يا أخي طريق السياسة ثم اشفع، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يأكلوا من ضحايا مشايخ الزوايا وغيرهم إلا إن علموا منهم الورع، فربما كانت ضحيتهم أرسلها لهم أحد الولاة من الذين لا يتورعون.

واعلم يا أخي أن التضحية ما شرعت إلا لدفع البلاء عن أهل البيت في تلك السنة، كما أن العقيقة تميط الأذى عن المولود طول عمره، ومعلوم أن البلاء والأذى لا يندفع إلا بذبح شيء حلال، أما مثل هدايا العمال فإنها غلول يزيد البلاء على أهل الدار وعلى المولود.

وهذا الخلق قد صار غريبًا فقل من يتخلق به، بل بعضهم يضحي بالغنم التي أرسلها له الكاشف أو شيخ العرب، ويعزم على جماعته وأصحابه، فيأكلون من ذلك وربما يقول بعضهم على وجه المدح لنفسه: لم آكل من طعام أحد في هذه السنة إلا من طعام سيدي الشيخ كأنه يعتقد أنه أحل من طعام التجار ونحوهم.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم قبولهم المساعدة في الحج من الظلمة، فلا يقبلون شيئًا فيه شبهة من جمال أو زاد أو نفقة أو غير ذلك، وقد صار هذا عزيزًا في هذا الزمان، بل رأيت من يرسل قصاده إلى الكشاف ومشايخ العرب فيسألوا منهم المساعدة لسيدي الشيخ في حجه، ويظهرون أن سيدي الشيخ مسكين، وبعضهم سافر بنفسه وسأل تعريضًا وتصريحًا، وما هكذا أدركنا المريدين من أهل الطريق فضلاً عن الأشياخ اللهم

إلا أن يكون قصد سيدي الشيخ الإنفاق من ذلك على المضطرين في طريق الحاج كمن مات جمله وليس معه شيء يكري به من يحمله وزاده ونحو ذلك فهذا لا بأس به، وكان عليه الشيخ محمد المنير والشيخ أبو بكر الحديدي[1] - رحمهما الله تعالى - فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهة المجاورة بمكة المشرفة، خوفًا من إخلالهم بأدب تلك الحضرة الشريفة، وسبقهم إلى ذلك عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - فسكن الطائف إلى أن مات، وكذلك مالك والشعبي ومن تبعهما، وكانوا يقولون: ما لنا ولبلد تضاعف فيه السيئات ويؤاخذ بالخواطر فيها.

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - ينهى عن المجاورة بمكة ويقول: لا ينبغي أن يجاور بها إلا من يقوم بشروطها، فقال شخص: وما شروطها؟ فقال: شروطها عند القوم ألا تخطر المعصية على قلب من يقيم بها، وألا يسيء ظنه بمسلم فيها في وقت من الأوقات، وألا يرى نفسه خيرًا من أحد من المسلمين في سائر الآفاق، وألا يبيت على دينار ولا درهم، ولا طعام ولا ثياب، وهو يعلم أن في مكة

---

(1) قال المصنف: هو الشيخ أبو بكر الحديدي، رفيق المنير في الحج كل سنة، وكان من أكرم الناس، وكان إذا دعا شخصاً إلى طعامه، ولم يرض يكشف رأسه ويصير يمشي خلفه حتى يجيبه، وكان من أصحاب الشيخ أحمد بن مصلح المنزلاوي أبي الشيخ عبد الحليم، وكانت طريقته سؤال الناس للفقراء سفراً، وحضراً في طريق الحاج، وغيره، وكان رضي الله عنه يحمل لأهل مكة الدراهم، والخام وما يحتاجون إليه، وهو الذي أشار علي بلبس الصوف الجبب الحمر، والسود من حين كنت صغيراً بحضرة سيد محمد بن عنان، والشيخ محمد العدل رضي الله تعالى عنه، وعن الجميع، وكان رضي الله عنه الغالب عليه البسط، والانشراح، وكان رضي الله عنه حصل للشيخ محمد بن عنان قبض لا يستطيع أحد أن يكلمه إلا إذا حضر الشيخ أبو بكر الحديدي رضي الله عنه فبمجرد ما يراه يتبسم، ولما حج هو، والشيخ أبو العباس الغمري والشيخ محمد بن عنان، والشيخ محمد المنير والشيخ علي بن الجمال نزلوا بباب المعلا، فبينا هم جلوس إذ جاءتهم امرأة من البغايا، فقال لها الشيخ ما تبغين، فقالت ما يفعله الرجال بالمرأة، فقال لها اذهبي إلى هذا الرجل يعني سيدي محمد بن عنان فجاءت إليه فقال لها: ما تبغين قالت: ما يفعله الرجل بالمرأة فأخذ العكاز، وقام لها فهربت، فضحك الجماعة فقال: من أرسل لي هذه؟ فقالوا: الشيخ أبو بكر فقال ما حملك على هذا؟ قال: حتى تنظر إليها نظرة بحال تكون سبباً لتوبتها عن مثل ذلك فلم تفعل فتبسم الشيخ محمد بن عنان وقال: لا آخذك الله بذلك. توفي بالمدينة النبوية سنة خمس، وعشرين وتسعمائة، ودفن بالبقيع، رحمه الله تعالى، ويرحمنا إذا عدنا إليه آمين. انظر: الطبقات الكبرى للشعراني (361/1).

أحدًا محتاجًا إلى ذلك، وألا يسله أحد شيئًا ويرده ولو عمامته وجوخته لاسيما أن قال له: برب هذا البيت أعطني كذا، وألا يحن قط إلى بلاده ووطنه، فيصير جسده بمكة وقلبه في غيرها، ومعلوم أن الحق تعالى لا ينظر من العبد إلا قلبه، وأن يقلل الأكل جهده، ولا يأكل قط وعين تنظر إليه إلا إن أشركها معه، وأن يلبس هناك الهديمات والعباءة دون الثياب النفيسة والمحررات لاسيما إن زاد على ذلك من البخور والروائح الطيبة، فإن صرف ثمن ذلك في طعام المحتاجين أولى بلا شك.

وقد بسطنا الكلام على شروط المجاورة بمكة في كتاب «المنن» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: التعفف عن الأكل من صدقات الناس وأوساخهم؛ عملاً بما اختاره رسول الله ﷺ لأهل بيته، فإنه ما نهاهم عن ذلك إلا لمحبته فيهم، وشيء اختاره رسول الله ﷺ لأهل بيته لا ينبغي مخالفته.

وقد كان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - لا يأكل من صدقات الناس، ويقول: إنها أوساخ ومن أكل منها فكأنه يقول للناس: بولوا عليَّ وعلى ثيابي، وتغوطوا أو ابصقوا على وجهي وتنخموا، فإن الوسخ يشمل ذلك كله لغة وتفاوت القذارة يكون بحسب ما في ذلك المال من كثرة المخبث وقلته.

وسمعته مرة أخرى يقول: صدقة الفرض تذهب الوسخ من المال والروح، صدقة التطوع تذهب الوسخ من البدن، فكأن من يأكل من صدقة الفرض يلطخ روحه بالقذر، ومن يأكل من التطوع يعرض بدنه للأوجاع والأورام والخراريج، انتهى.

فليحذر الفقراء من قبول الصدقات مادام أحدهم يجد الكسرة والخلقة، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: ألا يطلبوا من الله تعالى أن يوسع عليهم في الدنيا إلا إن وطنوا نفوسهم على كثرة العبادة ليلاً ونهارًا، فإن من طلب من الله تعالى الزيادة في الرزق طالبه الله بالكثير من العمل، ومن رضِي باليسير من الرزق رضِي الحق تعالى منه باليسير من العمل.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا يكفي الفقير الناصح لنفسه في هذا الزمان الشكر لله تعالى بالقول باللسان فقط إلا إن كان ليس عليه خطيئة، أما كثير المعاصي كأمثالنا فلا يكفيه إلا الشكر بالعمل فيصوم حتى يصير كالشن البالي،

ويقوم حتى تتورم منه الأقدام قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:13] ما قال: قولوا شكرًا وهذه الأمة المحمدية أولى بأن يشكروا بالعمل، وهيهات أن يتحصل لهم من كثرة الأعمال شيء يصلح لأن يكون شكرًا لكثرة العلل القادحة في الإخلاص، ولا يقبل الله تعالى من الأعمال إلا ما كان خالصًا وابتُغِي به وجه الله تعالى، فارض يا أخي بالقليل من الرزق فإنه أولى لك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: صحبة مشايخهم على الصدق والوفاق دون الكذب والاختلاق والنفاق، ومن لم يكن كذلك لا ينتفع بشيخه ولو صحبه طول عمره، بل ربما مقت واستحكم المقت فيه فتلف بالكلية وتعطل من أعمال الدنيا والآخرة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من علامة الصادق ألا يحوج شيخه إلى تقوية قلبه بالحضور في مجلس الذكر مثلاً، بل يداوم على ما أقامه شيخه فيه، ومتى وجد في نفسه كسلاً إن لم يحضر معه شيخه فهو كاذب لا يصح لشيخه أن يمنحه أدبًا من آداب الطريق؛ لأن وعاء المنافق المخالف يمج كل خير أُدخِل فيه لعدم قبول محله له، ومثاله مثال الصخرة التي أُلقيت في الماء فربما تمكث ألف سنة ولا تلين ولا يدخلها ماء، فهذا المريد كالصخرة، وزاوية شيخه كالبحر فكما لا يدخل جوف الصخرة شيء من الماء كذلك لا يدخل جوف هذا المريد شيء من خير شيخه ومدده الذي في الزاوية، ولو أن المريد المنافق مع شيخه أظهر نفاقه لشيخه وقال: لا حاجة لي بطريقك لكان صدق وخف مقته لكنه كابر وادعى الصدق فازداد مقتًا بتعب شيخه في نصحه، فكلما نصحه في شيء وخالف مقت، ومعلوم أن حضرة الله تعالى ما كل أحد يصلح لدخولها، ولذلك جعل الله تعالى في طريقها الموانع والمهالك كما وضع أهل المطالب من الكفار الموانع والمهالك في طريقها، فإذا كان هذا وضعوه في طريق شيء يجب الزهد فيه، فكيف بشيء يجب قطعًا الرغبة فيه؟ وأي قدر للدنيا بحذافيرها إذا تركت في طريق طلب حصول مجالسة الله ﷻ ولو لحظة من العمر؟

ومن شك من المريدين في أنه منافق مع شيخه فليعرض على نفسه ما لو قال له شيخه: إرم ما معك من الدنيا، أو طلق زوجتك، أو اخرج من خلوتك مثلاً لأدخلك حضرة الله ﷻ، فإن فعل ذلك بانشراح فهو صادق وإلا فليعلم أنه منافق، فلا يتكدر إذا قال له شيخه: أنت منافق معي.

وفي كلام الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ: إذا كان من يعمل على الوفاق لا يسلم من النفاق، فكيف بمن يعمل على الخلاف؟ انتهى.

وأكثر المريدين الآن يعملون على الخلاف ولا يوافقون شيخهم سوى باللفظ فقط.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله - يقول: لا يبعد شيء من المقامات على مريد له شيخ أبدًا إذا أطاع شيخه؛ لأنه يعرف كل طريق توصل إلى أي مقام يطلبه المريد، ولكن المانع خلاف المريد أو عدم القسمة، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا ربوا يتيمًا أو يتيمة وأنفقوا عليهما حتى تزوجا مثلاً ألا يروا لهم على اليتيم فضلاً أدبًا مع الله تعالى الذي هو في كفالته، وأيضًا فإنهم متى رأوا لهم فضلاً فقد حبط عملهم وذلك لأنه مَنٌّ والمن يحبط الأجر، فليحذر الفقير الساذج من مثل ذلك.

وقد كان الإمام مالك - رحمه الله - يقول: أهل الفضل هم أهل الفضل ما لم يروا فضلهم؛ أي: فإن رأوا فضلهم فقد خرجوا عن كونهم أهل فضل، فربِّ يا أخي اليتيم امتثالاً لأمر الله تعالى أو طلبًا للأجر من الله تعالى، فإذا فعلت ذلك رأيت لليتيم الفضل عليك؛ لأن به حصل لك الأجر والثواب، وهذا لا يصح إلا لمن كمل إيمانه بما وعد الله تعالى حتى صار الجزاء عنده كأنه رأي عين، وهناك يصح له معاملة الله ﷻ، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تعظيم الأماكن التي ورد أن الله تعالى عند أهلها حاضر كالمنكسرة قلوبهم، والمرضى، ومجالس الذكر ونحو ذلك.

قال الله تعالى في بعض الأحاديث: «**أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي**»[1].

وقال في حديث: «**جعت فلم يطعمني، ومرضت فلم يعدني أما أنك لو عدته لوجدتني عنده**»[2] قال تعالى: «**أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه**»[3].

---

(1) ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (54).

(2) رواه مسلم (1990/4 ، رقم 2569)، وابن حبان (503/1 ، رقم 269).

(3) رواه أحمد (540/2، رقم 10989)، وابن ماجه (1246/2 ، رقم 3792)، والبيهقي في شعب الإيمان (391/1 رقم 509)، وابن حبان (97/3 رقم 815).

ومن هنا كان سيدي علي الخواص - رحمه الله - إذا عاد مريضًا أو حضر مجلس ذكر، أو دخل مسجدًا يدخل بانكسار وذلة وخشية، ويلبس الثوب المرقع ويقول: نذل بين يديه تعالى في الأماكن التي أخبر أنه حاضر فيها لعله يرحمنا، وإن كان هو تعالى حاضرًا في كل مكان، ولكن هكذا تأدب الأكابر معه.

وفي الحديث: أنه ﷺ كان يخرج يعود المرضى في أقصى المدينة حافيًا راجلاً بلا قلنسوة ولا عمامة أدبًا مع الله تعالى من حيث كونه أخبر أنه عند المريض، ومشاكلة للفقراء الذين عادهم، وتشريعًا لأمته الذين يفهمون الأسرار، فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تعاطيهم الأسباب التي تميز صديقهم من عدوهم؛ ليعرفوا ما يستحقه كل واحد من اطلاعه على أسرارهم أو كتمانها عنه.

وأنا أعلمك ميزانًا تعرف به محبك الصادق من غيره، وذلك أن تمدح نفسك المدح المفرط بحضرته، فإن انشرح وصدق بباطنه فهو محب، وإن انقبض حاضره ووقف شعره منك، فاحفظ نفسك منه فإنه عدو وفي صورة صديق، ومثل هذا فليس في صحبته إلا أنه يحصي عليك نقائصك ليهجوك بها أيام سخطه عليك، فاحذر من هذا كل الحذر، ولا يغرك مدحه لك بين الناس وجوابه عنك في بعض الأوقات، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: افتخارهم بزيارة الفقراء لهم، فإذا زارهم فقير لا يؤبه له يكون ذلك اليوم عندهم عيد؛ لأنهم لا يرون نفوسهم أهلاً لأن يزورهم أحد من الصالحين خوفًا أن يقال: لولا أن فلانًا من الصالحين ما زاره الشيخ فلان.

ولما كان سيدي محمد بن عنان يزور أحدًا من فقراء مصر يكبر ذلك الفقير في أعين الأمراء والمباشرين ويقولون: لولا أنه أمر عظيم ما زاره الشيخ محمد بن عنان؛ لأن الشيخ محمد كان لا يعجبه كل أحد ادعى الطريق لكون أمره ﷺ كان مبنيًا على الصدق مع الله تعالى، فكان إن لم يعرف لفقير مقامًا عند الله تعالى لا يزوره ولو انقلب إليه جميع أهل مصر من العامة بالاعتقاد؛ لأنهم كلهم محجوبون عن حضرة الله تعالى لا يعرفون من هو المقدم فيها من غيره.

وكان سيدي محمد بن عنان - رحمه الله - يقول: أقل مراتب الفقير عند من يعرف مقامات الفقراء أن يعظمه كما يعظم أعظم ملوك الدنيا، وذلك لأنه لا أعظم ممن يجالس الحق - جل وعلا - ليلاً ونهارًا، فكل من رأوه عاكفًا بقلبه على حضرة ربه

أجلوه أكثر من إجلالهم للسلطان؛ لأن السلطان وإن كان الحق تعالى ألبسه خلعة الملك والتصريف، فقد يكون أكثر أوقاته غير مجالس للحق تعالى إنما هو مجالس لما هو مشغول به من جمع مال ومحاربة أعداء، وتلذذ بمأكل ومشرب ومنكح وغير ذلك، وهذا فإن كان مقامًا رفيعًا لجمع الحق تعالى به شتات العالم فثم ما هو أرفع منه وهو الاشتغال بالله وحده، فافهم.

فعلم مما قررناه عدم افتخار الفقراء الصادقين بتردد أحد من الولاة إليهم من باشا ودفتردار، وقاضي عسكر وشيخ عرب ونحوهم خلاف ما عليه بعض المشايخ الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن العاشر، فربما زارهم أحد من الولاة فيصير كالشاعر لكل من دخل عليه ممن لا يعلم بزيادة ذلك الأمير، فيقول: أمس كان الدفتردار أو قاضي العسكر عندنا، ويصير يفتخر بذلك كأنه اجتمع بالإمام الشافعي أو بسيدي أحمد البدوي - رضي الله عنهما - وهذا كله من علامات الإفلاس في الطريق، ولو أنه عرف طريق الفقراء ما افتخر بأحد من أبناء الدنيا المحجوبين عن الله ﷻ.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: سمعت سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله - يقول: كل فقير افتخر بزيارة أحد من الأمراء فهو نصاب مرائي لم يشم من طريق الفقراء رائحة.

قال سيدي علي الخواص: وقد كان السلطان قايتباي وأمير كبير وغيرهما يزور سيدي إبراهيم المتبولي في بركة الحاج، وما سمعناه قط يذكرهم بعد أن يخرجوا من عنده ولا يمدح ولا يذم، انتهى.

وكان سيدي محمد العدل - رحمه الله - يقول: من كان مفتخرًا بالزائرين فليفتخر بزيارة الفقراء الذين لا يؤبه لهم فإنهم هم الذين ينبغي الافتخار بمحبتهم لمدح الله تعالى لهم، أما الملوك والأمراء فصحبتهم عار يوم القيامة، وكل فقير رأيتموه يفتخر بتردد أبناء الدنيا له، فاعلموا أنه لم يدخل حضرة الله تعالى أبدًا لو كان له شعرة وعمامة صوف وعذبة.

وقد سمع سيدي محمد بن عنان شخصًا من جماعته يحكي لبعض الناس ويقول له: ما دريت أن السلطان طومان باي زار سيدي الشيخ البارحة فزجره سيدي محمد ومقته وقال: إن كنت يا فلان لا ترى تعظيم شيخك إلا بزيارة أحد من الأمراء له فأنت لم يحصل لك شيء من الطريق، انتهى.

وقد رأيت الباشا ملك الأمراء زار شيخًا في مصر، فصار كل باشا أتى بعده يزور

ذلك الشيخ إلى أن جاء الباشا علي فزار ذلك الشيخ وقال: قلبي يحدثني أن هذا الشيخ دنياوي لم يشم من طريق الفقراء رائحة، فقيل له: بما تعرفون ذلك، فقال: نعرف ذلك بالأنس الذي يحصل في قلوبنا إذا رأيناه أو جلسنا عنده، فقال له شخص: فلم تزوروه بعد ذلك؟ فقال: هذا من حكم القانون أن كل أمير جاء فمن العقل أن يزور من كان يزوره من قبله ولو لم نعتقده سترة لذلك الشيخ لا اعتقادًا في صلاحه، انتهى.

وأعرف شخصًا زاره الباشا محمد مرة ثم انقطع عنه، فصار كل من دخل عليه من الفقراء والمباشرين وغيرهم يقول له: زارني الباشا وقلت له: كذا، وقال لي: كذا، واستأذنني في التردد إليّ فلم آذن له، وذلك كله كذب وزور، ثم بعد ذلك صار كل شيخ عرب اجتمع به أو محتسب يقول له: أمس كان عندنا الباشا وأجرينا له ذكركم ومدحناكم عنده، فيفارقه ذلك الشيخ عرب أو المحتسب ويرسل له الأصواف الرفيعة والقمح والسمن والعسل والأرز وغير ذلك كأن ذلك النصاب يقول لشيخ العرب أو المحتسب: إن لم تحسن إليّ تكلمت في حقك للباشا كلمة فأخربت ديارك، ومثل هذا الشيخ معدود من جملة الظلمة الذي يأكلون أموال الناس بغير حق، فموته رحمة به وبالإسلام فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة رحمتهم لمن قدر الله تعالى عليه شيئًا من المنكرات التي هي من علامات الساعة بالنص أو الكشف أكثر من رحمتهم لغيره لكن تكون الرحمة له باطنا، ثم لا بدّ من الإنكار ظاهرًا قيامًا بواجب الشريعة، وألا يفتح باب الاحتجاج من الناس لأفعالهم المخالفة للشريعة ويقول: أيش كنت أنا هذا أمر أخبرنا الشارع أنه من علامات الساعة؟ فيقل الندم والحزن من الناس على العاصي فتنتهك الشريعة، على أنه ما كل علامات الساعة مذمومة، بل فيها ما هو مذموم ومنها ما ليس بمذموم.

فمن المذموم: استغناء الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وانتساب الناس إلى غير مناسبهم وانتماؤهم إلى غير مواليهم، وعدم توقير الصغير للكبير وعدم رحمة الكبير للصغير، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعلم الناس العلم ليجلبوا به الدراهم والدنانير، أو ليجادلوا به العلماء ويماروا به السفهاء، ويصرفوا به وجوه الناس إليهم، وبيع الدين بالدنيا، وقطيعة الرحم، وبيع الحكم، وأكل الربا، وتطويل المنارات، وتفضيض المصاحف، وزخرفة المساجد، وتشييد البناء، واتباع اللهو، وأن يطيع الرجل زوجته ويعق أمه.

ومن العلامات التي ليست توصف بذم: أن يكون المطر قيظًا، والولد غيظًا،

والغني غرًا، ويسود القبيلة فاسقها، ويركب النساء السروج، ويخرج الرجل من بيته فيقوم إليه من هو خير منه فتسلم عليه.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله - يقول لأصحابه: من أدرك منكم النصف الثاني من القرن العاشر فلا يتصدر لإزالة المنكرات إلا إن أعطاه الله تعالى الكشف الصحيح، فيعرف المنكرات التي هي من علامات الساعة والمنكرات المعلقة على إنكار من يريد إزالتها من العلماء والأكابر، فإن رآها من علامات الساعة، فليعلم أنه مغلوب ولا يقدر على ردها، فليخفف في التعب في طلبه إزالتها، وإنما طلب إزالتها ظاهرًا نصرة لجانب الشرع، وإن رآها ليست من علامات الساعة فليشدد في إزالتها جهده بخلاف ما رآه من علامات الساعة، فإن المعارضة في ذلك كالسعي في خلف ما وعد به الصادق المصدوق، انتهى.

فعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الدوام إلى قيام الساعة بحسب القدرة عليه، وإنما الكلام في التشديد وعدمه، وقد غلب أهل الباطل الآن على أهل الحق في أكثر الأحكام، وصارت المحرمات بالإجماع بين أظهرنا لا يستطيع أحد إزالتها، بل لو قدر أن أحدًا قام في إزالتها خرج الناس عليه حتى كأنه أتى منكرًا؛ لقلة من يرونه ينكر ذلك في زمانهم، وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «**لا تقوم الساعة حتى تصير السنة بدعة**»[1] يعني:عند غالب الناس، فإياك يا أخي أن تبادر إلى تجريحك لعلماء عصرك في عدم إنكارهم المنكر وتقول: ما بقي أحد يغار على دين الله تعالى، بل يجب حملهم على العذر الصحيح، وإن شككت في قولي هذا فاجمع لك جماعة واذهب بهم إلى مواضع المكوس، وامنع المكاسين أن يقبضوا المكس، وتنظر ما يقع لك مع أن المكس محرم بإجماع المسلمين، وإن قال لك شخص: لا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى إذا أمر بها، فقل له: السلطان أتم نظرًا مني ومنك فربما أخذ ذلك بوجه شرعي لا نطلع نحن عليه يرجع نفعه على المسلمين عامة، ومعلوم أن مثلك لا يكون ناصحًا لمثل مولانا السلطان إلا بعد تقديم مقدمات، وما كل ما يعلم من منكرات الشريعة يقدر الناس على إزالته إلا بتأييد من الله ﷻ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: زيادة المحبة والتعظيم لكل من ينصحهم في دينهم، وزيادة البشاشة له دون العبوس؛ لئلا يقطع عنهم النصح، وقد نصحني مرة شخص فأعطيته

---

(1) لم أقف عليه.

جوختي وأظهرت له البشاشة، فصار من أصحابي إلى الآن وقد كان متين بما ينصحني فجزاه الله عني خيرًا، فإن الناصح قد صار في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر، وقد أقسمت بالله تعالى على جماعة كثيرة من أصحابي أن ينصحوني فلم يفعلوا وصاروا يجبيون عليّ ويغشوني، وهم يحسبون صنعًا، فالله تعالى يغفر لهم ويكشف عنهم حجاب الطبع حتى يشهدوا أن نصحهم خير لي، فيرضوا الحق تعالى عنهم ويرضوني عنهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: قيامهم بواجب حق والديهم، فلا يرفعون صوتهم عليهما، ولا يبخلون عليهما بشيء يطلباه منهم، وقد جاء الأمر ببر الوالدين والنهي عن عقوقهما، ولم يخص الشارع ﷺ شيئًا معينًا من البر، بل أوجب برهما مطلقًا وحرم عقوقهما مطلقًا.

وتأمل يا أخي في السيد إبراهيم الخليل ﷺ كيف نادى أباه بالأبوة بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ [مريم:44] دون أن يناديه باسمه إجلالاً له مع أنه كان غير مؤمن، فإذا كان من دعا أباه يكون عاقًا، فكيف بمن جفاه وبخل عليه بالنفقة وغيرها؟

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من أدب الولد مع والديه ألا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا يأكل معهما في إناء إلا على وجه الإيثار لهما على نفسه؛ لأنهما أصل له وهو فرع منهما.

وقد كان الخليفة عمر بن عبد العزيز لا يأكل مع والدته، ويقول: أخاف أن تسبق عينها إلى رطبة أو عنبة فآكلها ولا أشعر، انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم سؤالهم ربهم أن يعطيهم المنازل الرفيعة في الجنة إلا بعد توطينهم نفوسهم على كثرة الصبر على البلايا والمحن في هذه الدار، فإن حصول المنازل العالية لكل مؤمن مقرون بذلك، ومن هنا كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أعلى الناس درجة في الجنة؛ لكونهم أشد الناس بلاء كما ورد.

فوطن نفسك يا أخي على كثرة البلاء في جسمك ومالك وولدك وعرضك، ثم اطلب القرب من حضرة ربك.

وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى السيد موسى ﷺ لما دخل على مبتلى، وقال: يا رب عافه من هذا البلاء: يا موسى تسلني له العافية، وقد سبق في علمي أنه من أهل الجنة، والجنة لا تنال إلا بالبلاء.

وقد بلغنا أن الله تعالى لما ابتلى عبده زكريا عليه السلام بالنشر تحت المنشار لما وصل إلى دماغه وقال: آه، فأوحى الله إليه: أما تقدم منك طلب القرب مني؟ أما علمت أن أهل حضرتي أكثر الناس بلاء؟ أما علمت أن من أسمائي الصبور؟ لئن قلت آه مرة ثانية لأمحون اسمك من ديوان النبوة.

قلت: لا يصح سلب نبي من نبوته في الشريعة لعصمته، فإن صح ذلك عن الله تعالى في حق نبي، فهو من حضرة الإطلاق التي فعل الله تعالى منها ما يشاء والله سبحانه أعلم.

فانظر يا أخي كيف كلف تعالى نبيه بالصبر تحت المنشار، وأوجب ذلك عليه لكون منزلته عنده عالية.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: اصبر على جفاء خلقي كما صبرت أنا على من يأكل رزقي ويعبد غيري، ولم أعاجله بالعقوبة، انتهى. فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إكرام الخبز ولا ينتظرون الأدم بعدما حضر الرغيف إلا لعذر، ولذلك من إكرامه تقبيله ووضعه على العين، ووضع السفرة تحته، وعدم التساهل في وضعه على الأرض أو رميه بفناء جدران البيت في الغبار.

وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ دخل بيت عائشة - رضي الله عنها - فرأى كسرة يابسة ملقاة في جانب الحائط وقد علاها الغبار فتقدم ﷺ إليها ونفخها من الغبار، ثم وضعها على عينيه وقال: «**يا عائشة أحسني مجاورة نعم الله تعالى، فإن النعمة قل ما نفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليها**»[1] انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: ما ورد من النهي عن الأكل على الخوان كما تصنع الأعاجم محله ما إذا كان ذلك على وجه الكبر، أما الأكل على خوان تعظيمًا لنعمة الله تعالى فذلك مطلوب، فإن تعظيم نعمة الله تعالى من تعظيم أمر الله، وما غلت المحبة وغيرها قط إلا باستهانة الناس بها على جاري عوائد الله تعالى في تأديب عباده إذا خرجوا عن الأدب قال الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168] فمن لم يرجع إلى الله تعالى بإحسانه رجع إليه بعقوبته، وقد بسطنا الكلام على ذلك أواخر الباب الثاني عشر من «المنن

---

(1) ذكره المصنف في العهود المحمدية (132).

الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم الاجتماع بالمريد الذي أخذ عن أحد من أقرانهم إلا لضرورة شرعية؛ خوفًا عليه أن يتزلزل عن محبة شيخه بإحسانه إليه، أو يحتقرهم ويعظم شيخه فيمقت لاحتقاره لهم، أو يعظمهم على شيخه فيخون عهده.

وما لمريد في زيارة غير شيخه فائدة مادام متقيدًا على شيخه، فإن خرج من تحت طاعته لعذر شرعي فلا بأس باجتماعه على غيره، بل قد يحب ليربيه، ومعلوم أن التربية من الأغراض الصحيحة كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «قواعد الصوفية» والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: أن أحدهم لا يقول لأخيه: إني أحبك إلا بعد أن تسمح نفسه بمقاسمته في ماله وحسناته؛ لأن لا يكذب، وقد سار هذا الخلق اليوم نادرًا في فقراء العصر، ولا أعلم الآن من تحقق به في مصر من أقراني إلا سبعة أنفس وقد امتحنتهم فوجدتهم محبين لي بحيث لو طلبت منهم مالهم كله لأعطوه لي بطيبة نفس فرضِي الله عنهم، وقد امتحنت شخصًا ادعى محبتي وله سبعين نصفًا كل يوم، وقلت له: رتب لي كل يوم نصفًا منها، فقال: لا تطيب نفسي بذلك فاصبر حتى أجد نية صالحة، فله الآن نحو عشرين سنة ما وجد نية صالحة، فالله تعالى يغفر لنا وله آمين.

فاصحب يا أخي الناس في هذا الزمان ولا تطالبهم بالحقائق إلا إن كنت متخلقًا بما تدعوهم إليه، فتعطيهم أنت الآخر ما معك إذا احتاجوا إليه، وإن كان ذلك نازلاً عن أخلاق القوم من حيث أنه متاجرة لأجل أعمالك الصالحة في الدارين، وإن كنت متجردًا عن المال فامتحن نفسك بإعطائك دارك أو خولتك، أو وظيفتك أو خوختك أو عمامتك إذا كانوا أحوج إليها منك أو نحو ذلك من أسبابك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: محبتهم لنسائهم محبة أخوة في الإسلام كغيرهن لا محبة طبع، فكلما ازدادت زوجاتهم من الأعمال الصالحة كلما زادوا في محبتها، وكلما نقصت من الأعمال الصالحة كرهاها، وإن كانت مطاوعة لهم في جميع ما يأمرونها به من أمر الفراش، والرضا بالقليل في المطعم والملبس كل ذلك إيثارًا لجناب الحق على جناب حظوظهم.

وقد كانت رابعة العدوية تقول لزوجها: لا تظن أني أحبك محبة الأزواج إنما أحبك محبة الأخوة في الإسلام - رضي الله عنها - .

فعلم أن المرأة التاركة للصلاة يجب بغضها في الله ﷻ؛ لأنها تركت عماد الدين

كله، وهذا الخلق قل من يتخلق به الآن من الأقران، بل بعضهم لم يزل يتزوج ويطلق كلما قالوا له: إن فلانة امرأة جميلة سمينة لها مال وجهاز مع أنه يدعي الصلاح، وسيأتي في هذا الكتاب عن سيدي عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل صاحب «المختصر في مذهب المالكية» - رضي الله عنهما - أنه كان متزوجًا جارية نوبية كبيرة الأنف والشفتين والقورة والأسنان سائلة المخاط، وكان يقدم لها نعلها، ويقول لها: اجعليني في حل فإني ما كنت أصلح لمثلك حتى قال بعض الطلبة يومًا: والله أن نفوسنا تتكلف لرؤيتها فكيف تقيم أنت معها وتضاجعها؟ قال: والله يا أولادي إن أهوال يوم القيامة ما تركت فيّ بقية لشيء من شهوات الدنيا، انتهى. هكذا درج الأشياخ ﷺ.

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: المرأة الحسناء تصيبك في باطنك، والشوهاء تصيبك في ظاهرك، وما يصيبك في ظاهرك أهون مما يصيبك في باطنك الذي هو محل نظر الحق تعالى إليك، انتهى.

فعليك يا أخي بالمجاهدة والرياضة لنفسك إن طلبت أن تحب زوجتك لأجل دينها لأجل الاستمتاع بها، وإلا فأنت بعيد عن هذا المقام، وبالجملة فإذا كان بعض الفقراء في هذا الزمان قد غرقوا في شهوات بطونهم وفروجهم فما بالك بغيرهم، فالله يلطف بنا وبكل غافل عن آخرته وربه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مبادرتهم لصحبة أحد إلا بعد امتحانه في أمور دينه؛ لأن من لا ينفع نفسه لا ينفع غيره اللهم إلا أن يريد أن يتتلمذ لهم ليربوه فلا بأس بذلك من غير امتحان، فكلامنا إنما هو في أصحاب الأنفس الردية الذين لا يعجبهم أحد من الفقراء في بلدهم.

وفي كلام الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: لأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه.

وقد خالف هذا الخلق أقوام، وبادروا إلى صحبة الناس من غير تجربة، ثم تقاطعوا بعد ذلك وصار كل واحد منهم يحكي عن صاحبه ما هو أهله.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من صحب الأخرق فلا يلومن إلا نفسه، فربما أراد نفع صاحبه فضره أو قتله، كما حكى أن شخصًا نحالاً صحب أخرق، فكان الذباب يعف على وجه النحال فرآه يومًا وقد نام وعف الذباب على

وجهه، فقال الأخرق: أن نشيته عنه عاد إليه ثانيًا، ولكن اقتل الذباب خير له من نشي له، فحل حجرًا عظيمًا وألقاه على وجه النحال ليقتل الذباب، فرضح[1] رأسه فمات وطار الذباب يمينًا وشمالاً لم يصب الحجر منه شيئًا، فالعاقل من اعتبر، والحمد لله رب العالمين.

من أخلاقهم: إدمان إمساك السبحة للتسبيح عليها، وإن كانت قلوبهم صارت ذاكرة لا تغفل عن الله تعالى كما مر اقتداء بالسلف الصالح في ذلك، وقد أنكر شخص على بعض الفقراء تسبيحه على المسبحة وقال له: هذا بدعة، فصنف الجلال السيوطي في ذلك مؤلفًا ذكر فيه أن أول من أحدث المسبحة التي هي الخرز الحسن البصري، ثم تداولها أشياخ الطريق من بعده إلى عصرنا هذا من غير نكير فيما بينهم، وأنها نظير ما ورد في التسبيح على الحصى وعقد الأصابع.

وكان الحسن البصري والجنيد، وغيرهما إذا قيل لهم: مثلكم لا يحتاج إلى سبحة يقولون: شيء استعملناه في بداية أمرنا لا نتركه في نهاية أمرنا، وفي رواية عن الجنيد: شيء دخلت به إلى حضرة ربي لا أتركه.

وكان يقول: أحب أن أذكر الله تعالى بقلبي ويدي وسبحتي ولساني، انتهى.

وبالجملة فالإنكار على مثل من يسبح على سبحة كالتنطع في الدين، ولا ينبغي التشديد في الإنكار إلا على شيء يهدم أركان الشريعة، وكل مريد طالب شيخه بالدليل على كل شيء أمره به شيخه أو على شيء رآه يفعله فإنه خير كثير فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الدعاء لأنفسهم، ولو شهدوا في نفوسهم أنهم أفسق الناس؛ لأنهم عبيد، والعبد لا براح له عن باب سيده، ولا غنى له عنه في وقت من الأوقات في الدنيا والآخرة، وهو تعالى يحب من عبيده إظهار الفاقة والحاجة له، وإنما كان بعض العارفين يتوقف عن الدعاء للناس حتى يتوب من كل ذنب فعله، ثم بعد ذلك يدعو احتياطيًا للسائل الذي سأله أن يدعو له حتى يجاب دعاؤه بسرعة، وإلا فالدعاء مطلوب منا في كل وقت وحال.

---

(1) رضح رأس الحيّة ورضحه، ورضح النوى ورضخه، وهم يتراضحون ويتراضخون بالنشاب: يترامون به.

وبلغنا عن سفيان بن عيينة[1] أنه كان يقول: لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلمه من نفسه، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين، وقد أجاب سؤال شر الخلق أجمعين، وهو إبليس فأنظره إلى يوم الدين أجابه لسؤاله مع أنه أبغض الخلق إليه تعالى: وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة محبتهم وإجلالهم العلماء، وإن لم يعملوا بما علموا من حيث كونهم حملة شريعة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وأمناؤه على شرعه كما مر وقد أمرنا بمحبتهم، ونهينا عن بغضهم إلا بطريق شرعي.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من أبغض عالمًا فقد أبغض من يحبه رسول الله ﷺ، ومن أشد مكائد الشيطان بالعامة أن يبغضهم في علمائهم، فلا يصير أحدهم يسمع شيئًا مما معهم من العلم حتى يضلوا، ومن هنا حط الصوفية على فقراء المطاوعة أشد الحط لكونهم يبغضون العلماء وليس مع أحد منهم كتاب ولا سنة يستضيء به في ظلمات الجهل، وصنفوا فيهم مصنفات، وأقاموا على إبطال طريقهم البراهين نصيحة لهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة استغفارهم كلما اعتقد الناس فيهم الخير وهم في الباطن على خلاف ذلك، ومادام لهم سريرة يفتضحون بها في الدنيا والآخرة لو انكشفت، فاللائق بهم كثرة الاستغفار، والخوف لتلبيسهم على الناس، فإذا تخلقوا بما ظنه الناس فيهم كان لهم حكم آخر.

فإن من شرط الكامل أن يشهد كماله ونقصه معًا ليعطي كلاً منهما حقه من الشكر والاستغفار، ومادام ناقصًا فهو تحت حكم ما شهده من نقص أو كمال في

---

(1) هو ثم المكي الهلالي، مولاهم الإمام الأمين، ذو العقل الرصين، والرأي الراجح المكين، المستنبط للمعاني المرتبط للمباني، كان عالمًا ناقدًا زاهدًا عابدًا، حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين، وكتب الحديث وهو ابن سبع، ثم برع حتى صار أوحد زمانه علمًا وزهدًا وورعًا. قال الزمخشري في «الربيع»: كان يحضر مجلسه مائة ألف. وكان يقول: أنا لكم مثل جبل أبي قبيس اصعدوا علي واطلعوا على التابعين. وكان يفعل ما يقول ولا يقول ما يفعل. حلية الأولياء (7/ 270)، الثقات لابن حبان (403/6)، وطبقات ابن سعد (497/5)، وصفة الصفوة (231/2)، والجرح والتعديل (225/4)، والتاريخ الكبير (94/4)، والتاريخ الصغير (258/2)، والعبر (1/ 326)، والشذرات (354/1)، وطبقات الشعراني (56/1)، وسير النبلاء (400/8)، والوافي بالوفيات (281/15).

حالتين مختلفتين؛ لأنه صاحب عين واحدة بخلاف الكامل فإنه صاحب عينين أو أعين لا تزاحم عين صاحبتها، وقد كان عتبة بن غزوان الصحابي ﷺ يقول: أعوذ بالله تعالى أن أكون في نفسي عظيمًا وعند الله تعالى صغيرًا، انتهى.

ثم إن هذا الخلق قليل من يتحقق به، والغالب في الناس محبتهم؛ لكثرة اعتقاد الناس فيهم فوق ما يستحقونه، ولا يكاد أحدهم يستغفر من ذلك، فليتنبه الصادق لما قلناه من التفصيل، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم أكلهم من المال المشترك إذ أتاهم به أحد الشريكين قبل القسمة، وقبل القرعة سواء كان ذلك في البقول أو الثمار كالكرات والجزر والقمح والفول الأخضر مثلاً والقصب الذي يعصر منه العسل، ولا يكفي المتورع أن يأكل مما أتى به الشريك إليه وقال: كل على ذمتي فأني جعلت له نظيره، فإن ذلك لا ينضبط بالحرص والتقدير عادة، وقد أرسل لي صاحبنا سيدي محمد بن الموفق قصبًا نحو مائة وخمسين عودًا وقال: مصوا هذا فإني عددت لشريكي مثلها، فلم أمص منه شيئًا؛ لأن الأعواد لا تنضبط بالعدد لاختلافها في الطول والغلظ والحلاوة وغير ذلك، فلو أنه قسمه بالقرعة الصحيحة لربما كنت أكلت منه.

فإياك يا أخي والأكل من الأمور المشتركة كالفول الأخضر والفريك ونحو ذلك إلا بإذن الشريكين، فإنها من قسم الشبهات، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم وقوعهم في خديعة أو غدر لأحد إلا بطريق شرعي، فإن ذلك معدود من البغي وهو يعود على صاحبه، ويتوارثه ذريته من بعده ويعاقبون عليه إلى سابع ولد كما جُرِّبَ ذلك.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من غدر صاحبه كان الكلب أشرف همة منه؛ لأنه لا يغدر صاحبه، ولا من أحسن إليه يومًا من الدهر، فإياكم والغدر فإنه يتفرع منه المكر والبغي والخديعة، ويحرم صاحبه فوائد الدنيا والآخرة إذا عُرِفَ بذلك بين الناس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يبادروا إلى الإنكار على من رأوه يأخذ مال الولاة، ويفرقها على الناس إلا إن علموا أنه لا كشف عنده يعرف به من له رزق في تلك الدراهم أو ذلك الطعام، فإن علموا أنه من أهل ذلك الكشف، فليس لهم الاعتراض عليه؛ لأنه إنما يأخذ ذلك المال ليوصله إلى أربابه الذين ظلمهم ذلك الظالم، فهو كالذي يسعى على الأرامل والأيتام، وينفق عليهم من كسبه على حد سواء وإن تفاوت التعب فاعلم ذلك،

والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يتخذوا من النقباء إلا من يكون أمينًا عفيفًا لا يسرق ولا يخون ولا يفضل نفسه على إخوانه ولو سرًا.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: الخيانة والسرقة أمران مهلكان.

قال: والفرق بينهما أن السارق: هو من يسرق ما لم يؤتمن عليه، والخائن: من سرق ما أؤتمن عليه، وقد جعل رسول الله ﷺ الخيانة من علامة النفاق، والمنافق لا يفلح يقينًا.

قال: وقد أوحى الله تعالى إلى السيد موسى ﷺ: «احذر من الأمين، ولا تؤمن الخائن، فإن القلوب بيد غيرك» انتهى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله - يقول: الخيانة تذهب بالبركة كما يذهب الحرام كثيرًا من الحلال، ومن خان في درهم أو لقمة جره ذلك إلى الخيانة في ألف، وكذلك القول في السرقة، وما وجدنا قط سارقًا ولا خائنًا إلا وهو قصير الذيل والبركة ممحوقة من يده ودينه وماله، انتهى.

وقد أقمت أنا نقيبًا في الزاوية على الفقراء، فاحتاج إلى شيء من العسل، فقلت له: خذ حاجتك، فأخذ بقدر نصيب عشرة أنفس من الفقراء، فعلمت أنه قليل الدين، فمن ذلك اليوم عزلته ولم استأمنه، وعلمت أن النقيب الأمين قل وجوده، وما بقي إلا النقباء المتفاوتون في الخيانة، فالشيخ يستعمل أقلهم خيانة عند الحاجة إليه، والفقراء وليهم الله تعالى، وكل من خانهم محق الله تعالى البركة من دينه وعمره وسائر ما يتقلب فيه، وقد كان الأشياخ المتقدمون لا يجعلون نقيبًا إلا من علموا أنه يخشى الله تعالى بالغيب بأن يكون ثاني مرتبة للشيخ في العلم والأدب، وهذا أمر قد تورع منه ما بقيت الدنيا، بل ربما كان الشيخ الآخر ممن يخون الفقراء، ويأخذ لنفسه ما جاء على اسمهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن أخلاقهم: شدة تفتيشهم على كل لقمة تدخل جوفهم لاسيما في رمضان، فلا يأكلون إلا الحلال، وإن لم يجدوه طووا حتى يحصل لهم الاضطرار قبل أكلها كما تقدم بسطه في الكتاب مرارًا، وتقدم أن أوائله بأن تصير الأمعاء تلدغ بعضها بعضًا.

وهذا الخلق قل من يعمل به في هذا الزمان، ولذلك كان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - لا يأكل قط من طعام مشايخ الزوايا ويقول: إنه أخبث الطعام؛

لكونهم يقبلون هدايا من الظلمة والعمال ومن لا يتورع من المباشرين والتجار.

ويقول: إذا كان الفضيل بن عياض يقول: إن من يأكل الحلال بدينه أقبح ممن يأكل الحرام بالطبل والمزمار فكيف بمن ليس له كثير من العبادة والنسك؟ لينصب به على الناس، بل قنع بلبس الزي وصار كالتمساح نسأل الله العافية.

وقد أوحى الله تعالى إلى السيد موسى ﷺ: «يا موسى إن أردت أن تجاب دعوتك فصن بطنك عن الحرام، وجوارحك عن الآثام».

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يأمر امرأة بالغسل من بول صبي الذي لم يأكل غير اللبن ويقول: إن غالب طعام أمه حرام؛ لأن زوجها مكاس، فقلت له: إن الشارع أطلق الرش من بوله، فقال: صحيح ولكن هذا من الورع، وسمعته مرة أخرى يقول: من أكل الحرام وأطال في العبادة وقيام الليل فهو كالحمام الذي رقد على بيض فاسد، فهو تعب نفسه في طول المقام عليه ثم لا يفرخ شيئًا، بل يخرج كله مذرًا[1].

وكان الإمام سفيان الثوري - رحمه الله - يقول: كنت وأنا آكل الحلال أقرأ الآية من القرآن العظيم فيفتح عليّ منها سبعون بابًا من العلم، فلما أكلت من طعام من لا يتورع صرت أكرر الآية زمانًا فلا يفتح لي منها باب واحد من العلم، انتهى.

فإياك يا أخي والأكل من الشبهات ثم إياك.

ومن أخلاقهم: إذا صار أحدهم موردًا للأمراء والأكابر ألا يمدح أحدًا منهم بحضرة عدوه ، وإنما اللائق أن يذكر عنه أنه يحبه بقصد التأليف بينهما حسب الطاقة، وقد أخل بهذا الخلق جماعة من الساذجين، فمدحوا العدو عند عدوه، ونقلوا ما قاله هذا في حق هذا فارموا بينهم، فاشتدت العداوة أكثر مما كان يفعله الفسقة بينهم، وذلك لأن كل واحد منهم يقول: سيدي الشيخ لا يكذب وحاشاه أن ينقل باطلاً، وما دروا أن الشيخ صار فاسقًا بذلك، فلا يقبل قوله، فيتنبه الفقير لمثل ذلك في هذا الزمان، وليعفف عما بأيدي الولاة جهده، فإنه لا يوقعه في ذم أحد أو مدحه إلا الطمع، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إقامة العذر باطنًا للأمير الذي يتولى ولاية كان عاهدهم أنه يعدل فيها إذا وليها، ولا يطالبونه بالوفاء بما كان قد عاهدهم عليه إلا إن وجدوا له

---

(1) مذر : مَذِرَتِ البيضة إذا غَرْقَلَتْ وفَسَدَتْ وقد امذَرَتْها الدجاجة.

قدرة شرعية على ذلك، فإن المعزول إنما يتكلم بلسان عزله وانكساره، فإذا تولى تكلم بلسان العز والاستكبار، ومن هنا قال الإمام الشافعي ﷺ: إذا ولي أخوك ولاية فارض منه بعشر الود الذي كان يودك به قبل ولايته.

وقد تقدم أن مقام الوفاء بالعهد إنما يكون للأنبياء وكمل ورثتهم، وأما غيرهم فقد يعاهد ربه على شيء ولا يوفي به فضلاً عن عباده

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: 75] إلى آخر النسق.

وقد قالوا: بين التحقيق والفرض والتقدير كما بين السماء والأرض، فاعذر يا أخي كل من تولى ولاية في هذا الزمان من أصحابك في عدم إقامة العدل والمعروف فيها بطريقه الشرعي، ولا تطلب منه الاستقامة بالكلية، فإن ذلك لا يتيسر لأكابر الناس فضلاً عن غيرهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يعظوا كل أمير دخلوا عليه لحاجة بقصد نفعه بذلك، لكن بشرط أن يغلب على ظنهم عمله بما وعظوه به، فإن لم يغلب على ظنهم ذلك قضوا حاجتهم منه سرعة، وخرجوا منكرين عليه بقلوبهم، وقد كان السلف الصالح يغتنمون النصيحة لكل أمير دخلوا عليه لينفعوه وينتفعوا، وهذا أمر قد صار كالمحال وقوعه من فقراء هذا الزمان لأمور يطول شرحها أقلها محبة الدنيا، فقل فقير يدخل على أمير فيه الصدقة والخير إلا ويخطر في باله أن ذلك الأمير يرتب له شيئًا من الجوالي أو الهدايا مثل ما رتب لغيره من الأقران، ومن يطلب مثل ذلك فليس له قوة يعظ بها ذلك الأمير؛ لأن من طمع في تحصيل شيء ذل، ومن ذل لا يقدر على التغليظ على من يريد تحصيل ذلك الشيء منه.

وقد بلغنا أن عبد الملك بن مروان خطب يومًا بالكوفة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس اسمعوا ما أعظكم به فقام إليه رجل، فقال: والله لا نسمع لك حتى تقضي لهذا الرجل بالحق فإن الناس قالوا له: ما يخلص لك ظلامتك إلا فلان، فجئت به إليك لأنظر عدلك الذي كنت تعدنا به قبل ولايتك هذه الخبيثة، فطال بينه وبينه الكلام، ثم قال الرجل:

يا أمير المؤمنين إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون، أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم: أطيعوا أمرنا، واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غش نفسه؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة واقبلوا العظة، ولا تلتفتوا لحالنا فعلام قلدناكم أزمة أمورنا، وحكمناكم في دمائنا وأموالنا؟ فإن كانت الإمامة قد عجزت عن إقامة العدل فيها، فخلوا سبيلها وإلا فإن بيت في يدكم عامًا لخربت البلاد، واضمحلت الحقوق، فنزل عبد الملك من على المنبر وقال: إن مثلي لا يصلح خطيبًا لكم، وصار يبكي حتى كاد وقت الجمعة أن يخرج، ثم صعد المنبر فخطب.

فإن وجدت يا أخي أميرًا يسمع من وعظك فعظه وإلا فلا حرج عليه في السكوت، وقد وجدت العلامات التي وقت الشارع ﷺ الأمر بالمعروف إليها بقوله لحذيفة ﷺ: **«مر بالمعروف، وانه عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع عنك أمر العامة»**[1] وقد وجدت جميع هذه العلامات كما هو مشاهد.

فإن رأيت يا أخي أحدًا من العلماء يدخل على الأمراء ولا يعظهم، فاحمله على العجز إذ ظنه أن الوعظ لا يؤثر فيه، وإن كان ذلك خلاف ما عليه الجمهور، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تبجيلهم وتعظيمهم لمن لاث الناس بعرضه من فقراء العصر إذا كان على قدم الاستقامة في العلم والعمل، ويجعلون تلك الإشاعة عنه لا حقيقة لها، وإنما أشاعها عنه الأعداء والحاسدون لاسيما إن رأيناه صابرًا على تحمل الأذى، ولا يقابل أحدًا بسوء، فإنه يتعين علينا إجلاله وتعظيمه؛ لأنه على قدم العلماء العاملين في تحمل الأذى.

وهذا الخلق قد عز وجوده في غالب الفقراء اليوم وصاروا يقبلون الإشاعة بالنقص على الإنسان بمجرد الإشاعة من غير تثبت حتى قل انتفاعهم بأهل عصرهم، فإنه ما من أحد إلا وله محب ومبغض.

فعلم أن من دين الإنسان إذا سمع الإشاعة عن أحد بسوء العقيدة أو غير ذلك

---

(1) رواه الحاكم (358/4 ، رقم 7912)، والترمذي (257/5، رقم 3058)، وابن حبان (108/2، رقم 385).

من النقائص أن يجتمع به وينظر حاله، فإن رآه كما أشيع عنه نصحه، وأن رآه بضد ذلك اتخذه صاحبًا وأحبه، وقد أطلق ﷺ الحديث في قوله: **«أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»**[1] ولم يفصل فشمل بلاء الأبدان، وبلاء الأعراض إذا صبر العبد على ذلك.

فإياك يا أخي ثم إياك أن تسمع كلمة عن فقير من بعض أعدائه فتشيعها عنه فتقع في الغيبة والنميمة والكذب، وفي التوراة: ما نصح عالم أهله وجيرانه، وبالغ في نصحهم إلا رموه بالعظائم، انتهى.

وعليه يحمل حديث: **«أشد الناس عداوة للعالم أهله وجيرانه»**[2] لكن يستثنى من ذلك من كان كامل السياسة للخلق من الأولياء، فإنه يبالغ في نصح أهله وجيرانه ومع ذلك فهم يحبونه فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل بأحاديث الفضائل على وجه الإيمان والتصديق، ولا يستبعدون حصول الثواب الجزيل في العمل القليل في التعب؛ لأن مقادير الثواب لا تدرك بالقياس.

وقد قدمنا في هذا الكتاب أن من عقل العاقل إذا ضاق عمره أو وقته في قيام الليل مثلاً أن يقرأ بالآيات والسور التي ورد التفصيل فيها على غيرها، ولا يقول: إن القرآن كلام الله تعالى فلا يصح التفاضل فيه لرجوعه إلى ذات واحدة فإن ذلك يرد الأحاديث.

وقد كان سيدي علي الخواص إذا ضاق وقت التهجد عليه، وخاف من طلوع الفجر يصير يقرأ الفاتحة وآية الكرسي في كل ركعة، وتارة يقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات، وتارة يقرأ أواخر سورة الحشر لما ورد أنها تعدل ألف آية وكذلك آية الكرسي، وأما سورة الإخلاص فورد أنها تعدل ثلث القرآن.

قال بعض العارفين: أي: تعدل ثلثه أي: لو فرق أثلاثًا، وكذلك الحكم في ما ورد أنه يعدل ربع القرآن أو نصفه؛ أي: لو قسم أرباعًا أو أنصافًا فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم ظنهم أن أعمالهم ولو كثرت تحمي أحدهم من وقوع

---

(1) رواه أحمد (369/6 ، رقم 27124).

(2) رواه ابن عساكر (291/37).

العذاب به في ساعة من ليل أو نهار كما كانت أعمال الناس في الزمن الماضي، فإن العزم قد ضعف عما كان عليه الناس في الزمن الماضي، وصارت أعمال الناس كالجبال في الصورة، وفي المعنى كالهباء لقلة الأخلاق فيها.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: من كشف حجابه في هذا الزمان رأى نفسه تستحق الخسف بها حال طاعاته لما يخطر على قلبه من الفواحش بين يدي الله ﷻ، ولولا رحمة الله تعالى بالعبد لأهلكه لقلة أدبه في طاعاته فضلاً عن معاصيه.

قال: وقد كنت وأنا صغير إذا عملت طاعة أحس بالحماية لي من الآفات من الجمعة إلى الجمعة، فصرت اليوم أخاف من وقوع العذاب على حال فعلي للطاعة.

وقد كان سيدي عبد العزيز الديريني ؓ يقول: الناس ينتظرون بطاعاتهم المغفرة ورفع الدرجات في الجنة، وأنا انتظر أن تمطر السماء عليَّ حجارة من قلة أدبي في تلك الطاعة.

فاعلم ذلك وأكثر من الطاعات، ولا ترى أنها أهل لأن تقبل منك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الصلاة والتسليم على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ حتى لا يكاد أحدهم يمل من ذلك في ليل أو نهار؛ لأنه ﷺ هو المشرع لهم كل خير عملوه، فله ﷺ عين أجر جميع أعمال أمته، ومن شح منهم بعين أجر عمله على نبيه كان لنبيه مثل أجره لا عينه، وذلك معدود من سوء الأدب عند أهل الأدب.

وقد قدمنا أن من أدب الفقير أن يجعل ثواب جميع أعماله لنبيه ﷺ بانشراح صدر، وينوي بذلك القربة من الله تعالى وأن من أدبه أن يفتتح العمل على اسم سيدنا رسول الله ﷺ من حيث الأجر الحاصل من تلك العبادة لا على اسم نفسه هو عملاً بحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين**»[1] ولولا أنه ﷺ دلنا على الأعمال الصالحة ما اهتدى أحد منا لفعلها، بل ولا عرف أنه تعالى أمره بها فضلاً عن معرفة كيفيتها، فجعل أحدنا ثواب أعماله لنبيه ﷺ بالإجابة من بعض حقه الواجب علينا، ولا يجوز لأحد منا أن يرى فضلاً بذلك على نبيه ﷺ فافهم فإن هذا يقع فيه خلق كثير، فيصيرون يرون لهم اليد عند سيدنا

(1) رواه أحمد (4/233، رقم 18076).

ومولانا رسول الله ﷺ بذلك، وإن دفعوه عنهم عند خطورة.

وقد روى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: أريت حمزة وجعفر وكان من بين أيديهما طبقًا كله نبق كالزبرجد يأكلان منه، فقلت لهما: ما وجدتما أفضل الأعمال والأقوال؟

فقالا: لا إله إلا الله، قلت: ثم ماذا؟ قالا: الصلاة عليك يا رسول الله، قلت: ثم ماذا؟ قالا: حب أبي بكر وعمر - رضي الله تعالى عنهما - ذكره ابن فرحون المالكي.

وقد منَّ الله تعالى بذلك عليَّ من صغري إلى الآن فليس عمل أحب إلى قلبي من ذكر الله تعالى والصلاة على سيدي رسول الله ﷺ،وحب الإمامين أبي بكر وعمر والصحابة أجمعين، فنسأل الله تعالى الدوام على ذلك إلى الممات.

وقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي ؓ يكثر الصلاة على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ،ويحث أصحابه على الإكثار منها، ويقول: بلغنا أنها تجيز صاحبها على الصراط بسرعة.

وقد حدث قوم في هذا الزمان يدعون طريق الفقر، ويثقل عليهم الصلاة على رسول الله ﷺ وربما حضر أحدهم مجلسنا فيصير ساكتًا، ويقول: هذه ليست من طريق شيخنا، وفي ذلك توبيخ لشيخه وشهادة عليه بأنه كان لا يكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ، وذلك من علامة النفاق كما ورد فكأنه يقول: إن شيخي كان منافقًا.

فليحذر الفقير من مثل ذلك، وليصل على سيد الخلق على الإطلاق ﷺ قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، وإن لم يكن ذلك من طريقة شيخه.

وقد سمعت سيدي محمد السروي - رحمه الله - يقول: ثم في الفقراء من هو أكثر أعمالاً من الشيخ نور الدين الشوني[1] ولكنه فاق أقرانه باستناده إلى سيدنا ومولانا

---

(1) هو سيدي على الشوني، شيخ الصلاة على رسول الله ﷺ بالجامع الأزهر. كان شيخًا ظاهر الوقار، باديَ الصلاح بغير إظهار، نظيف الملبس والعمامة، كان من بياض ثيابه حمامة. وهو أول من سنّ للناس الصلاة على المصطفى ﷺ جماعة.

قال الشيخ الشعراني: رأيته في النوم، في أرض من بلور، وعليها سور من بلور، شاهق نحو السماء، وهو يمشي فيها ونعله يرن، فنزلت سلسلة من ذهب وفيها قربة ماء، فوقفت بقدر ما يصل إليها فم الشارب، فشرب منها وسقاني فضلته ثم غاب، فنزلت سلسلة من فضة، وفيها شيء طوله شبر في شبر، فيه ثلاثة عيون تتفجر ماء:

مكتوب على العليا: تستمد هذه العين من الله. وعلى الوسطى: تستمد هذه العين من العرش.

رسول الله ﷺ فأكرم كما يكرم الناس غلام الأمير تبعًا للأمير، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبتهم لتحصيل مطابقة ما يرونه في النوم لما أخبر به رسول الله ﷺ من المغيبات كعذاب القبر، وأهوال يوم القيامة، بحيث يصير ذلك عندهم كأنه رأي عين، وذلك لأن الإيمان الذوقي لا ينحجب عن صاحبه، وإذا انحجب عن الإنسان إيمانه فربما وقع في الذنوب العظام، وفي الصحيح: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينًا»**[1] فذكر الرضا الذي هو من أعمال القلوب دون القول فافهم.

وفي القرآن العظيم: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: 17].

وهذا الخلق قد صار عزيزًا في هذا الزمان، وما كان غالب الناس إلا حوسبوا وفرغوا من الحساب لكون إيمانهم غير ذوقي، فالحمد لله الذي منَّ علينا بالإيمان الذوقي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مجاهدة نفوسهم بالجوع والسهر المفرطين، وأتعابها في الأعمال الشاقة في بداية أمرهم بطريقه الشرعي، ثم إذا بلغوا النهاية المعروفة بين القوم، فمن الأدب مع الله تعالى الشفقة عليها والرحمة لها، وإطعامها الطعام اللذيذ، وتنويمها على الفرش، وعدم تعاطي الأعمال الشاقة؛ إكرامًا لها من حيث أنها بلية الله تعالى وأمته وعبده وكأنه جردها عنه وجعلها كالجار له، وهو غيرها كما هو مقرر في علم المعاني والبيان، وإلا فهو واحد في نفس الأمر كما يقول الإنسان: قالت لي نفسي كذا فقلت لها: لا، وهي القائلة: أفعل أو لا تفعل لا غيرها.

وعلى السفلى: من الكرسي.. فألهمت الشرب من عين العرش، فشربت منها ماء أحلى من العسل وأبرد من الثلج وأطيب من ريح المسك، ثم انتبهت، فأخبرته ففرح، فأوّلت له بأنه يستمد منه، وأن شربه من عين العرش تخلق بالرحمة على جميع العالم؛ لأنه تعالى ما ذكر الاستواء على العرش إلا باسمه الرحمن. مات سنة أربع وتسعمائة، ودفن بزاوية الشعراوي ببين السورين. انظر: طبقات الشعراني (2/171)، الكواكب الدرية (803)، الكواكب السائرة (2/216).

(1) رواه أحمد (1/208، رقم 1778)، ومسلم (1/62، رقم 34)، والترمذي (5/14، رقم 2623).

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إنما سومح المريد بمجاهدة نفسه لكونه يرى نفسه لنفسه، ثم إذا بلغ مقام الكمال شهد نفسه ملكًا لربه، وقد وصاه الله تعالى عليها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195] ونهاه عن ظلم نفسه، وعن تحملها فوق الطاقة عادة.

فعلم أن ظلم النفس في مرضات الله تعالى بتحميلها من العبادة فوق طاقتها محمود في البداية مذموم في النهاية، إذ الكامل يجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وهو يعلم أن في مجموع ذاته من يطلب الله تعالى، ومن يطلب الآخرة، ومن يطلب الدنيا، ومن يحب الراحة، ومن يحب النوم وهكذا، فيعطي كل ذي حق حقه.

وقد بلغنا أن معروف الكرخي بردت له زوجته كوز ماء في الصيف، فنام فرأى جارية من الحور العين، فقال لها: لمن أنت؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان، فلما استيقظ تناول الكوز وضرب الأرض فكسره.

قال السري السقطي: فلقد رأيته في الأرض حتى عُفي على خزفه التراب لم يرفع من الأرض، فلما عرضوا هذه الواقعة على الشيخ محيي الدين قال: كان حاله في تبريد الماء أكمل من حاله حين شرب الماء الذي لم يبرد؛ لإعطائه نفسه حقها الذي أمره الله تعالى به في نهايته، ولكنه فعل ذلك لأجل تلامذته لترقى همتهم بعدم تبريدهم الماء، انتهى.

ثم على ما قررناه من أن ظلم النفس في مرضات الله تعالى محمود يفهم معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: 32] أي: بالتعب في مرضاتنا، وإلا فالظالم لنفسه بالمعاصي لا يكون مصطفى لله تعالى فافهم.

وقد بلغنا أن حورية جاءت إلى سيدي عبد العزيز الديريني يقظة وقالت له: قد اشتقت لك أما شبعت من الإقامة في هذه الدار، فقال: بلى، ولكن حتى ينتهي الأجل، ثم قال لها: ارجعي إلى دارك انتظريني هناك فقد قرب الانتقال فمات بعد سبعة أيام، وهذه من جملة كراماته ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة التسليم لولاة الأمور، وحملهم على المحامل الحسنة بطريقه الشرعي ومن حيث كونهم أتم نظرًا من أمثالنا، فإذا ركبوا يهوديًا أو نصرانيًا مثلاً فرسًا لا نبادر لإنزالهم، ولا نقول: الله أكبر يا كلاب، فربما كان الحكام إنما أركبوهم

الفرس لمصلحة تعود على المسلمين لا نعرفها نحن، فليفتش من يريد إنزال الكافر عن الفرس عن سبب ذلك، فإن رآه بأمر الحكام أو تقريرهم سكت، وإن رآه بغير أمرهم وتقريرهم أنزلهم، فقد يكونون علموا بذلك، وأقروه لمصلحة تعود على المسلمين.

وقد رأى فقير فرنجيًا راكبًا فرسًا فأنزله وكبّر عليه، فرفعوه إلى نائب مصر فضرب الفقير ضربًا مبرحًا، وقال له: أيش أدخلك في أمر لا تدري عاقبته؟ فأرسلت أنا إلى شخص من خواص أصحاب الباشا، وسألته عن سبب إكرام هذا الفرنجي، فقال: لأنه من خواص ملك الفرنسية، وإن عندهم من المسلمين نحو عشرة آلاف أسير، وقد أوصاه الملك وقال له: إن أكرمك نائب مصر، فأرسل أعلمنا نكرم الأسرى الذين في بلادنا، وإن لم يكرمك أهناهم واستعملناهم في الأعمال الشاقة وعذبناهم، انتهى.

فالزم يا أخي الأدب مع الحكام، فإن لهم في أفعالهم حكمًا لا يطلعونك وأمثالك عليها كهذه القضية، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم التعصب في هدم الكنائس والبيع إلا بعد مشاورة ولاة الأمور في ذلك خوفًا من إثارة فتنة أعظم من بقاء تلك الكنيسة أو البيعة، وقد خالف بعض العلماء ما قلناه، وأراد هدم بيعة لليهود بمصر، فمنعوه الإفتاء والتدريس والوعظ، وأرادوا نفيه من مصر، فحصلت فيه شفاعة، فتركوه وأفتى العلماء بأن في مثل ذلك افتياتًا على الإمام الأعظم ونوابه. فليشاور من يريد هدم كنيسة ولاة الأمور في ذلك، فإذا سمحوا له بالهدم، فهناك يشرع في الهدم بتأييد الولاة له، فإن ولاة الأمور إذا كانوا مضادين لأعظم الأولياء اتعبوا سره وغلبوه؛ لأن الله تعالى جعل بيدهم الحل والربط، والولاية والعزل في هذا الوجود.

وقد قال لي أمير مرة: لا يكمل تصريف الولي في هذه الدار إلا بموافقتنا له اللهم إلا أن يكون له حال يحميه من تأثيرنا فيه، فهذا لا يحتاج إلى مساعدتنا له، وإيضاح ذلك أننا إذا كنا عليه أتعبنا سره في التوجه إلى الله تعالى في إهلاكنا، وربما لم يجبه الحق تعالى إلى ما سأل فيدوم عليه الأذى، انتهى.

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إذا قربت الساعة أمسك الله تعالى التصريف عن أهل الحق حتى تقع الأمور التي وعد الله تعالى بوقوعها بين يدي الساعة، فيصير الولي يتوجه إليه في عزل ذلك الظالم فلا يجاب، فعلم أنه يشترط الإذن من الله تعالى للمتوجه والاستحقاق لمن يريد يدفع عنه، وذلك بأن يكون الشيخ عارفًا بالمقادير المعلقة، تائبًا هو والمشفوع فيه من جميع الذنوب، آكلاً من الحلال

دون الشبهات، وإن لم يحصل هذه الشروط فهما مغلوبان.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: يشترط في من يقوم في نصرة الدين أن يكون مخلصًا في ذلك لا يدخله هوى نفس في ذلك يأكل من الحلال، وإلا فمن يأكل الشبهات لا يصح له تأييد من الحق ﷻ فيخذل ضرورة، وقد كان شخص يقوم في إزالة المنكرات في بلاد الهند ولا يقوى أحد على معارضته، فعملوا عليه الحيلة، وأطعموه من الشبهات فبطل عمله، وذلك أنه لما عارض السلطان أمر كل واحد من الرعية أن يأتي ببيضه، حتى ذلك القائم في إزالة المنكر، فلما أتوه بالبيض خلطه، ثم فرقه على الناس، فأكل بعضهم بيضة أخيه، فبطل عملهم ودعاؤهم عليه، ثم شرع في ظلمهم، وصاروا يدعون عليه فلم يجابوا، فعلم أن من أكل من الحرام أو الشبهات، أو دخله هوى نفس خذل لأنه حينئذ إنما هو ساع في نصرة نفسه وهواه لا في نصرة الدين، وما وعد الله تعالى بالنصر إلا من نصر دينه خالصًا مخلصًا، انتهى.

فحرر يا أخي نيتك في نصرة الدين بهدم الكنيسة مثلاً، ثم اهدم بأمر ولي الأمر، وإلا عرضت نفسك للخذلان والنفي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إفتاؤهم بالتشديد لمن استفتاهم من المتورعين، وبالتسيهل لمن استفتاهم من العوام كالفلاحين، كما درج عليه الأئمة المجتهدون وكمل أتباعهم كسيدي عبد العزيز الديريني، والشيخ بدر الدين بن جماعة، والشيخ شهاب الدين بن الأقطع البرلسي، والشيخ على النبتيتي الضرير[1] وأضرابهم ﷺ.

---

(1) هو سيدي على النبتيتي الضرير، العالم العامل، الفقيه الصوفي الكامل، كان مقصودًا من الآفاق لحل الإشكالات. وكان مُقيمًا ببلده، ويأتي إلى مصر أحيانًا، فينزل عند شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وهو الذي يقال أنه عاونه في شرحه للبهجة، فلذلك سماه بعض الناس: شرح الأعمى والبصير.

كان كثير الاجتماع بالخضر ﷺ، وكان يقول: لا يجتمع به إلا من كان سليم الصدر لأهل الإسلام، وهو على السنة في جميع أحواله، ولا يحرص على الدنيا، ولا يدخر شيئا لغد.

قال الشعراني: ما كنت أمثلة إلا كالفضيل بن عياض، رحمه الله. وكان يرى المصطفى ﷺ يقظة.

وحكى عنه والده الشيخ عمر، أنه كان لا يزال يمد يديه نحو السماء ويقول: الحق عطاؤه فياضٌ ليلاً ونهارًا، يعرض بذلك في كل وقت، فكما أنه تعالى لا يمل من العطاء، فكذا لا يمل العبد - لشدة فاقته- من الأخذ. وكان إذا نزل بالناس بلاء، لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يضحك، ويبكي حتى يصير كالطير المذبوح. مات يوم عرفة سنة سبع أو ست عشرة وتسعمائة، ودفن ببلده.

وقد روى الإمام القشيري بسنده إلى الإمام أحمد بن حنبل ﷺ قال: دخلت أخت بشر الحافي على الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله تعالى عنهما - فقالت له: إن نغزل في سطوحنا في القمر فيمر علينا مشاعل الولاة، فتزداد ضوء على ضوء القمر، فنلبس ذلك الثوب الذي غزل منه خيط على تلك المشاعل، فقال لها: من أنت عافاك الله تعالى؟ قالت: أخت بشر الحافي، فقال الإمام أحمد لها: من بينكم يخرج الورع الصادق لا تلبسي ذلك الثوب.

وقد سئل الحسن البصري ﷺ عن شخص يأكل من جوائز السلطان هل يخرج بذلك من الورع؟ فقال: إن كان ممن يقتدي به خرج عن الورع.

وسأله جماعة من المتعبدين الذين يأكلون من عمل يدهم وقالوا: قد غبنا في الحصاد بالأجرة يومًا، وكان لنا فرن تهدم بابه في خرابة ننام فيها، ثم جئنا فوجدنا شخصًا لا نعرفه أصلح لنا باب الفرن أفنخبز فيه بعد ذلك؟ فقال: لا.

وسأله شخص يأكل من صيده للسمك، فقال: إني كثيرًا أصطاد سمكًا في الدجلة فنقض فيها جندي سفرته أفآكل من ثمن السمك الذي أصطاده بعد ذلك؟ فقال: لا تأكل من ذلك.

وسأله شخص آخر مرة وقال: إن لي مزرعة ورثتها من أباي الورعين، ولي فيها بئر وبقرة آكل من لبنها، وثوران أحرث عليهما، فاشتغلت في صلاتي يومًا عن حفظ البقرة، فخرجت من مزرعتي، ومشت في طين جاري في وحل، ورجعت وقوائمها متلطخة بطين أرض جاري، فاختلط بطين أرضي فآكل من زرعي فيها بعد ذلك؟ فقال: لا.

ولو أن غير المتورع سأله عن مثل هذه الأمور لأفتاه فيها بالترخيص.

قلت: ومما يقرب من هذه المسألة مسألة إخراج الكتب الموقوفة في مكان وشرط واقفها ألا تخرج منه إلا لترميم ونحوه من مصالحها، فمن تورع طالع فيها في مكانها، ومن ترخص أخرجها وحفظها من الضياع.

وقد استفتى الشيخ جلال الدين السيوطي - رحمه الله - تعالى عن جواز نقل الكتب من المدارس التي شرط واقفها أنها لا تخرج منها؟ فقال: الذي أقول به الجواز،

-

انظر: طبقات الشعراني (124/2)، الكواكب السائرة (281/1)، والدرية (808).

وقد رأيت شيخنا شيخ الإسلام البلقيني، وشيخ الإسلام يحيى المناوي يستعيران الكتب من الخزانة المحمودية ويمكث الكتاب عندهم سنين عديدة، وهما الإمامان المقتدى بهما، فأنهما كانا من الفقه بالمحل الأعلى، حتى بلغا رتبة الاجتهاد في المذهب، وكان المناوي صوفيًا له أحوال وكرامات، فلولا رأيا ذلك جائزًا ما فعلاه.

وفي قواعد الشريعة أنه يجوز أن يستنبط من النص معنى يخصصه، فإذا كان هذا في نص الشارع ففي نص الواقف أولى، فيقال هنا: إن مقصود الواقف بشرطه إنما هو تمام النفع، وتمام الحفظ، فإذا وجد من يحتاج إلى الانتفاع بكتاب منها حال تصنيفه لكتب العلم، ولا يمكنه الانقطاع لأجل ذلك في مكان الواقف ووثقنا بدوام حفظه وصونه جاز الإخراج له، وكان ذلك مستثنى من المنع تخصيصًا لعموم لفظ المواقف بهذا المعنى المستنبط كما تخصص قوله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: 43] استثنى منه المحارم بالمعنى المستنبط، وهو الشهوة ولا دليل لاستثناء المحارم من آية أو حديث سوى هذا الاستنباط، فكذلك هذا قال.

وقد ذكر الحافظ عماد الدين بن كثير في «تاريخه»: إن علماء بغداد منعوا الفقهاء في بعض السنين من قراءة الأطفال في المساجد إلا شخصًا واحدًا كان موصوفًا بالصلاح والخير، فاستثنوه من المنع، وأنهم استفتوا الماوردي من أئمتنا، والقدوري من أئمة الحنفية وغيرهما، فأفتوا باستثنائه، واستدلوا بأنه ﷺ أمر بسد كل خوخة في المسجد إلا خوخة الإمام أبي بكر الصديق ﷺ، فقاسوا استثناء هذا الرجل على استثناء خوخة الإمام أبي بكر.

قال: وهو استنباط دقيق لا يدركه إلا الأئمة، قال: وقد استندت إلى قولهم حين استفتيت قديمًا على أبنية القرافة، فأفتيت بهدمها كلها كما هو المنقول إلا مشاهد الصالحين قياسًا على ما أفتى به الماوردي والقدوري.

لكن في المسألة أمران ينبغي التفطن لهما: **أحدهما:** أنه لا يستعار من هذه الخزانة إلا ما لا يتيسر وجوده في غيرها مما ليس فيه شرط يمنع الخروج.

الثاني: ألا يمكث الكتاب عند المستعير إلا بقدر الحاجة فقط، ومدرك هذين الأمرين أن ما جاز للضرورة يتقدر بقدرها، انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» في الباب الرابع عشر منها فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تقلقهم من مؤنة من أقام عندهم من المجاورين، ولو بلغوا عند أحدهم ألف نفس وأكثر لا يستثقل منهم؛ لأنه يشهد أن رزقهم على الله تعالى لا عليه هو، وغاية أمره أن الله تعالى جعله كالوكيل الذي يفرق على العبيد ما حدده له سيدهم، فلا يصح أن يعطيهم من رزقه ذرة واحدة، وإنما الحق سبحانه وتعالى يجعل ما يشاء من الجود في قلب من يشاء من عباده بقدر حظه ونصيبه وكثرة الواردين عليه والقاطنين عنده يعمر على معرفة قدر مرتبته في الجود قلة وكثرة.

فلا تظن يا أخي أن الفقراء كغيرهم يتبرمون من إقامة الضيف عندهم طويلاً قياسًا على غيرهم.

وإن حصل من فقير صادق ثقل من إقامة أحد عنده، فإنما ذلك لقلة استحقاق الفقراء القاطنين عنده أو الواردين عليه لعدم إقبالهم على العبادة أو خروجهم من الاستقامة لا غير، فيدبرون عن الله تعالى، ويطالبون الشيخ بالقيام بهم على جاري العادة السابقة أيام استقامتهم، فلا يقدر الشيخ على ذلك؛ لأن الحق تعالى إنما يسخر لعبده الرزق ويسهله عليه إذا كان مقبلاً عليه كما أشار إليه حديث «**فكم ممن لا مطعم له ولا مؤوي**»[1] مع أنه تعالى يرزق الكافر، وإنما المراد لا كافي له بسهولة ولا مؤوي له كذلك فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن سياستهم لقاصد الأمير إذا أتاهم بشيء من الدنيا يفرقونه على الفقراء أو لأنفسهم، فلا يقولون له: فلوس أستاذك حرام فلا نقبلها؛ لأن في ذلك تنفيرًا للأمير عن الاعتقاد في طائفة الفقراء، وربما كذب الفقير في قوله إن ذلك حرام؛ لأنه ليس كل شيء يدخل يد الفقير يكون حرامًا، وإنما السياسة أن يقولوا للقاصد: سلم لنا على أستاذك، وقل له: الفقراء لا يصحبون أهل الخير مثلك لشيء يأخذونه منهم، وإنما يصحبونهم لله تعالى لأجل شفاعة في مظلوم، أو ليساعدهم في إزالة منكر حدث في بلدهم ونحو ذلك.

وقد أرسل لي مرة عامر بن بغداد مائة دينار هدية، فرددتها عليه وقلت له: هديتي عندك قبول شفاعتي في المكروبين، فإن ذلك هو الذي ينفعني وينفعك، وينفع المكروب، فأبى أن يأخذها، فقلت له: قبول هديتك يضرني ويضرك ويوقف دعائي لك عن القبول إذا حصلت لك شدة، فرضي عني بذلك - رحمه الله تعالى - رحمة واسعة.

---

(1) رواه أحمد (208/1، رقم 1778)، ومسلم (62/1، رقم 34)، والترمذي (14/5، رقم 2623).

ثم وإن قال القاصد إنما أرسل لكم أستاذي ذلك لأجل كونه مريضًا مثلاً؛ لتدعوا له قالوا له: الدعاء بلا عوض أرجى للإجابة، وكل فقير ينبغي له الدعاء لولاة الأمور سواء أعلم بذلك الأمير أم لا.

وقد أرسل لي الباشا محمد دراهم حين مرض ولده بالطاعون، وحين مرض هو في المحرم سنة اثنين وستين وتسعمائة فرددت ذلك، فأبى قاصده أن يرد إليه بذلك، فقلت له: لا يخلو إما أن يكون أجل المريض حضر فلا أقدر على زيادته أو لم يحضر أجله، فما عملت له شيئًا أستحق به الدراهم، وإن كان سبق في علم الله تعالى أن خلاصه في ذلك المرض يكون معلقًا على الدعاء فقد اخترت أن يكون أجري على الله تعالى، فقال: تذبح للفقراء قربانًا، فقلت له: ليس لنا حاجة بذلك اللحم فإن اللحم عندنا كثير، فقال: يرسل الباشا يعمل عندكم مولدًا، فقلت له: إذا خلص من مرضه أنا أعمل له مولدًا من عندي محبة فيه وفرحًا بسلامته، فولى وهو راض عني، انتهى.

فتعلم يا أخي مثل هذه السياسة واعمل بها، وإياك أن تعترض على من يرد مال الولاة، وتحمله على محامل سيئة، فتخطى طريق جمهور السلف والخلف من الصالحين، وإذا كنت أعوج، فلا تطلب من المستقيم أن يعوج معك، بل تأس أنت بالمستقيم واتبعه إن أردت أن تمشي على آثار الصالحين.

وقد بلغني أن جماعة ممن أخذوا من ذلك المال اعترضوا على ردي المال من حيث أنهم تميزت عنهم في مصر، وكان الأولى لهم مدحي على ذلك وذم أنفسهم، فإن مال الولاة في هذا الزمان لا يخفى على عاقل حاله، فلا هؤلاء تورعوا، ولا هم سكتوا عن تجريح من تورع، وأنا أعلم منهم أني لو أخذت من ذلك لأنكروا أيضًا عليّ وصاروا يقولون: ما بقي أحد يتورع، وينسون نفوسهم فهم يعترضون بكل حال، فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا وعليهم من كل ذنب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا دخلوا على أمير يشفعون عنده في إنسان استحق التعزير مثلاً بضرب أو حبس وأخذ مال أن يجعلوا اللوم على ذلك المذنب، ويصوبوا رأي الأمير في حبسه أو ضربه أو تجريسه، ويقولون: إنه يستحق أكثر من ذلك، ثم إذا سكنت نفس الأمير من الغضب على ذلك المذنب ساقوه بالحلم شيئًا فشيئًا لاسيما إن كان المشفوع فيه من ذوي الهيئات، ويقولون له: مثلكم من يتخلق بأخلاق سيدنا رسول الله ﷺ في

إقالة العثرات وقد قال: «أقيلوا لذوي الهيئات عثراتهم»[1] ثم إن رأوا الأمير مصممًا على عدم العفو عن ذلك الشخص، قالوا له: يا أمير أعطنا منديل الأمان فإذا أعطاه لهم قالوا له في أذنه بلطافة وتبسم: يا أمير لا بدّ أن يكون لك ذنوب وقعت فيها فاجعل العفو عن هذا الشخص ذنبًا من ذنوبك، واستغفر الله تعالى منه يغفر لك، فلعله يرق له ويعفو عنه.

وإياك يا أخي أن تدخل على أمير ذهقان تشفع عنده إلا وأنت عفيف عن مال ذلك الأمير إذا كان ذهقانًا يبادر الفقير الشافع عنده بالتعظيم والهدية، فيبرد قلبه من الشفاعة، وربما انقلب ذلك الشافع على المشفوع له كما وقع ذلك من محمد بن بغداد، ومن أخيه عامر مع فقيرين دخلا يشفعان عندهما، فأخذ أحدهما وصولاً بقمح وعسل ودجاج، وغير ذلك وأخذ الآخر بغلة وعدتها، فركبها في حوشه، وخرج بها يحط على المشفوع فيه، فليحذر الفقير الشافع من قبول شيء فيبيع دينه بدنياه الحرام.

وقد صار هذا الأمر متعارفًا بين غالب الولاة، فإذا دخل عليهم عالم أو صالح، وأغلظ عليهم من القول بقول أحدهم لجماعته: هذا الوقت ألقى عليه الإكسير فينقلب معي على المشفوع فيه، فيصيرون يضحكون على ذلك الشافع زمانًا، ويهون في أعينهم كما وقع لقاصدي مع ابن بغداد، فإني أرسلته مع مظلوم، فلما وصل إليه كتب له وصولاً بعسل وقمح، ثم وضع ذلك المظلوم في الجنزير بحضرته وهو ساكت لأجل قبوله هديته، فخطف بذلك لسانه، انتهى.

ولو أن قاصدي كان تعفف، فربما لم يضع ذلك المظلوم في الجنزير، ولكن من أهانه الله تعالى بمحبته للدنيا فماله من مكرم.

وقد ظفرت طول عمري بنقيب صادق اسمه إبراهيم الصنديصطي - رحمه الله تعالى - فمكث طول عمره لم يأكل للولاة مالاً، ولم يشرب لهم ماء، ولم يقبل لهم هدية، وكان يخلص منهم المظلومين إلى أن مات.

فإياك يا أخي من مثل ذلك ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) رواه أحمد (181/6، رقم 25513) ، والبخاري في الأدب المفرد (165/1، رقم 465)، وأبو داود (133/4، رقم 4375)، وأبو نعيم في الحلية (43/9)، والبيهقي في شعب الإيمان (6/ 321، رقم 8335)، والبيهقي (161/8، بعد حديث رقم 16423)، والنسائي في الكبرى (4/ 310، رقم 7294).

ومن أخلاقهم كثرة صبرهم على مجالسة الثقلاء، وإظهارهم أنهم خفاف على قلوبهم؛ لئلا يلحقهم خجل، ثم إذا قام الثقيل من عند أحدهم لا يمكنون أحدًا يذكره بسوء ولا أن يقول: إنه ثقيل فضلاً عن أن ينطق هو بذلك.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول للثقيل: حصل لنا بركتكم وفوائدكم فلا تقطعونا من المجالسة، فقالوا له في ذلك، فقال: أتحمل عن إخواني ثقل مجالسته؛ لأن غيري ربما كان لا يقدر على احتمال كلامه.

وروى الجلال السيوطي - رحمه الله تعالى - أن أبا هريرة ﷺ كان يقول إذا جلس إليه ثقيل: اللهم اغفر لنا وله وأرحنا منه.

وكان حماد بن سليمان يقول: كل من رأى نفسه ثقيلاً كان خفيفًا وبالعكس، وكان حماد بن سلمة إذا رأى ثقيلاً قال: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: 12] وكان ابن شهاب الزهري يقول: إذا طال جلوس الثقيل عندكم فاصبروا فإنها رباط في سبيل الله، وكان بعضهم يكرم الثقيل، ويقول الاجتماع مقدر لا يدفعه تعبيسي في وجهه، ولا زجري له عن العود إليَّ ، ومزح الإمام أبو حنيفة مع الأعمش يومًا وقال له: مم عمشت عيناك؟ فقال له: من النظر إلى الثقلاء مثلك، وكان له ادلال عليه فضحك أبو حنيفة - رضي الله عنهما - .

وكان الأصمعي يقول: جلس عندي ثقيل، وأطال الجلوس، ثم قال لعلي قد أضجرتكم وأثقلتكم، فقلت له: أجل ثقلاً فوق ثقل، فقال: إني راحل فقلت له: العجل ثم العجل يا جبلاً من جبل في جبل فوق جبل.

وكان شيخنا الشيخ أمين الدين[1] إذا كان جالسًا ورأى ثقيلاً يقصد الجلوس عنده

---

(1) قال المناوي: هو سيدي أمين الدين بن النجار البدراني، ثم المصري. إمام جامع الغمري، كان عابدًا زاهدًا، صوفيًا فقيها محدثًا، كتب بخطه من كتب الفقه والحديث والتفسير ما لا يحصى، وكان إذا قرأ في المحراب أبكى سماعه الناس، وكان لا يخرج من الجامع، مكث فيه سبعًا وخمسين سنة.

وكان الشيخ الغمري رحمه الله يقول: هو روح الجامع، وكان أولياء مصر-كابن عنان رحمه الله وأقرانه- يعرفون حقه ويزورونه، وكان لا يراه أحد من أهل الدولة إلا ونزل وقبل يده، ومع ذلك يحمل الخبز على رأسه ويخبزه في الفرن، وكان إذا مقت رجلاً لا يفلح أبدًا.

وكان يقول: كلما عظم الخير، كثرت عليه الموانع، فإذا تحزب عليك أحد في إبطال خير، فأقبل على ربك والجأ إليه، فإن بيده الحل والعقد، وإنما يسلط على العبد الأذى ليفر منهم إليه، ولا

-

يغلق باب خلوته عليه أو يطلع البيت ويقول: أنا رجل حديد المرارة لا أطيق أسمع كلام ثقيل، انتهى.

فقد حكيت لك يا أخي أحوال القوم مع الثقلاء، وإن من الناس من يصبر على مجالسة الثقلاء، ومنهم من لم يصبر فكن يا أخي مع الصابرين فإن الله تعالى معهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الشفقة على الدابة التي ركبوها بإجارة أو عارية زيادة على شفقتهم على الدابة التي هي في ملك أحدهم عادة، فلا ينبغي لأحدهم أن يضربها بسوط إلا بقدر تأديبها، ولا ينخسها بحديدة حتى يخرج دمها، ولا يحملها فوق طاقتها، ولو أذن صاحبها في ذلك فإنه قليل الدين.

ولا يجوز له أن يستأجرها ليركبها وحده منفردًا، ثم يحمل معه خرجًا أو يردف معه صاحبه من غير علم صاحبها.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - إذا استعار دابة ليركبها يومًا لا يأكل ولا يشرب بعد استعارتها، ويقول: إن صاحبها أذن لي في ركوبها وبطني جائع، والأكل والشرب يزيدني ثقلاً أستأذنه فيه، فلا يزال جوعانًا عطشانًا حتى يرجع آخر النهار.

ورأيته مرة يأكل وهو راكب فنبهته على ذلك، فقال: إني دخلت بيت الخلاء بعد أن استعرتها ولم يغب عن ذهني ما نبهتني عليه، ولكني آكل دون ما نزل مني في الخلاء، انتهى.

وكان سيدي عبد العزيز الديريني - رحمه الله تعالى - لا يحمل معه سوطًا إذا ركب حمارة نفسه، وإنما يردها بكمه ويقول: هيهات أن عبد العزيز يحمل من يضربه

-

يركن إليهم.

وقال: إن الله لا يصطفي عبدًا حتى يزهده في حمد الناس جملة، ويصير لا يركن إليهم

مات سنة تسع وعشرين وتسعمائة، ودفن بتربة بجوار الجعبري رحمه الله.

قال الشعراني: رأيته في النوم، فروى لي حديثًا أسنده بالسرياني ومتّنه بالعربي، فقال: قال رسول الله ﷺ:« من أدمن النوم بعد صلاة الصبح، ابتلاه الله بالبعج»، قلت: وما البعج؟ قال: وجع في الجنب.. قال: وجربته، فوجدته كذلك. انظر: طبقات الشعراني (147/2)، الشذرات (165/8)، الكواكب السيارة (33/1)، والكواكب الدرية (761).

بكمه، فإن من يضرب بهيمة بشيء ضرب في قبره بمثله.

وقد أوضحنا الكلام على ذلك أول الباب الخامس عشر من «المنن الكبرى» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: مواظبتهم على الوضوء ليلاً ونهارًا كلما أحدثوا، وكثيرًا من يتوضؤون على طهر؛ ليزدادوا به نورًا على نور كما جرب، وقيل: إنه حديث وقد بلغ سيدي تاج الدين الذاكر - رحمه الله تعالى - في تقليل الأكل إلى أن صار يتوضأ كل أسبوع مرة، وكان آخر مرة يتوضأ كل أسبوعين مرة.

والعمل بهذا الخلق متعذر جدًا على من يأكل كثيرًا من الفقراء، وذلك مؤذن بقلة مجالستهم لله تعالى؛ لأن من يجالس الله تعالى يترك استعمال كل ما يفرقه عنه أو يحجبه عنه، والحدث من جملة ما يحجب عن الله تعالى بدليل عدم صحة الصلاة معه، وكذلك من شأنهم أنهم لا يقرؤون القرآن أو الحديث أو العلم، أو يذكرون الله تعالى، أو يدخلون المسجد إلا على طهارة ﷺ أجمعين.

ومن خالف ما ذكرناه، وترخص في قراءة القرآن، وما بعده من الحديث فهو خارج عن طريق القوم، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: صحبة الحشاشين، وإلانة القول لهم ،وإطعامهم الحلاوة والكنافة المبسوسة بالقطر، وإظهار المحبة لهم، وعدم العبوس في وجههم، ثم إذا مال أحدهم إليهم بالمحبة يصير أحدهم يسارقه في تبغيضه في تلك الكتبة شيئًا فشيئًا إلى أن يقع بعضها في قلبه إن شاء الله تعالى.

وقد قدمنا في أوائل هذا الكتاب أن أصحاب الكتب ضالة كل داعٍ إلى الله تعالى، فهم لا ينفرون من أعوج ولا من مستقيم ﷺ أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تواضعهم لبعضهم بعضًا، ورؤيتهم نفوسهم أقل من تلامذة أقرانهم، وأنقص في المقام.

وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلي - رحمه الله تعالى - : من طابت نفسه أن يقرأ على أحد من أقرانه أو يتلمذ له فقد خرج من رعونات نفسه، فإن ذلك من أعلى رياضة تكون للنفس، وهو أعلى من الجوع والعري، والسهر والعزلة ونحو ذلك.

وهذا الخلق قد صار من أغرب الغريب حتى أن بعضهم ربما ترك زيارة أخيه؛ خوفًا أن يقول الناس: إن المزور أعلى من الزائر، وهذا أمر خارج عن سياج أهل الطريق، فقد زار ﷺ وأكابر الصحابة الفقراء والمساكين مع علو مقام الزائر على مقام

أعظم ملوك الدنيا بما لا يتقارب، ولم يعتذروا بعذر.

فزر يا أخي إخوانك، واقرأ عليهم رسائلهم التي ألفوها فإن كلامها محررًا فذاك، وإلا فنبههم على ما فيها بلطف وحسن سياسة، وإن كتبها عندك وأوهمت الناس حاجتك لمثلها، فقد بلغت الغاية في رياضة النفس.

فاعرض يا أخي هذا الأمر على نفسك قبل أن تتصدر للمشيخة، فإن رأيت نفسك منشرحة لتلمذها لأحد من أقرانها فاجلس، وإن انقبضت نفسك من ذلك فاتخذ لك شيخًا يربيك ويزيل منك الرعونات، وإلا ضللت وأضللت، الله الله في ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: زيادة التعظيم لكل من اختفى من أقرانهم، ونفرت عنه تلامذته؛ لأنه قد مشى على قواعد أهل الكمال؛ لأن الكامل الصادق لا بدّ أن يختفي بعد الشهرة، ويذل بعد العز.

وإيضاح ذلك أن الفقير مادام ناقصًا فهو يطلب الظهور والشهرة، فإذا حصل له ذلك حصل له العز والجاه بين الناس، فإذا أخذ في الكمال رأى أن الكمال له في هذه الدار إنما هو بالذل والانكسار والخفاء، فصار يكره الشهرة والعز بالطبع.

وقد كان الشيخ أبو المواهب الشاذلي - رحمه الله تعالى - يقول: إذا بلغ الفقير مقام الكمال في العرفان صار غريبًا في الأكوان لا يعرفه إلا من أشرف على مقامه؛ لأنه يصير أعماله كلها قلبية لا يكاد يظهر شيئًا من أعماله إلا في حال يقتدي به فيه لا غير، وربما ظن بعض من لا علم عنده له بأحوال القوم أن ذلك الفقير الذي اختفى بعد ظهور كراماته ومكاشفاته قد سلب حاله، فيحتقره ويخرجه عن دائرة القوم ،والحال أنه في أعلى مقامات الكمال.

وقد أخبرني سيدي علي المرصفي أن شيخه سيدي محمد ابن أخت سيدي مدين[1] ملك اثنى عشر نفسًا فلما انتهى سلوكهم قال لهم: ابعدوا عني وخلوني أتزود

---

(1) قال المناوي: هو سيدي محمد بن أحمد بن عبد الدايم الأشموني المالكي. ابن أخت الشيخ مدين، ويعرف بين جماعة خاله بابن عبد الدائم. ولد بأشمون سنة أربع عشرة وثمانمائة، ونشأ بها، فحفظ القرآن والرسالة، وابن الحاجب الأصلي والفرعي، وألفية بن مالك، ثم أخذ الفقه عن البساطي، والعبادة والعربية عن البرهان الأبناسي، والصحيحين عن البدر النبتيتي، والرسالة القشيرية والعوارف السهروردية عن الزين الفاقوسي، وسمع الحديث على شيخ الإسلام الشرف الماوي وابن جرير والتلواني والرشيدي، ثم صحب خاله وتلقن منه، وأخلاه مرارًا ، وألبسه =

لمعادي وأتهيأ للموت، فتفرقوا كلهم عنه كلهم حتى كأنهم لم يعرفوه، وصار يخرج إلى السوق ويشتري حاجته، ويحمل طبق الخبز والحطب على رأسه، ونزع ثياب الفقراء، ولبس ثياب التجار إلى أن مات.

فإن قال قائل: إن تسليك الناس وإرشادهم إلى طريق الأدب مع الله تعالى خير، فكيف يكون تركه أكمل قلنا له: كلاهما خير ولكنه ثم مقام كامل ومقام أكمل، وإرشاد الخلق، والاشتغال بهدايتهم، وإن كان كاملاً فالإقبال على الله وحده أكمل كما قال ﷺ:

- الخرقة، وأذن له في ذلك، وتصدى له بعده، بل ولقن في حياته، وأخذه عنه بعده خلائق كثيرة، منهم الشيخ على المرصفي والشيخ ابن أبي الحمائل. وهو الذي أحيا الطريق بعد خاله بمصر وما حولها. وكان ذا نظافة ونزاهة، أقبل عليه الأكابر. ولما أخذ عنه الجماعة، وفتح عليهم على يده طرد الناس عنه بالقلب، فلم يبق حوله فقيرًا، حتى صار كأنه لا يعرف، وترك اللباس الحسن والمآكل الفاخرة، وصار يخدم نفسه، ويحمل الخبز على رأسه للفرن حتى مات، ودفن بباب بتربة جماعة الشيخ مدين، بسوق الدريس. وتعصب عليه الفقراء عقب موت خاله، وآذوه بسبب سكناه بالزاوية، ثم أخرجوه منها لما أخذ عنه الناس وقالوا: سيدي محمد ولد الشيخ أولى.

قال شيخنا الشعراوي: وهذا الأمر لم يزل في أولاد المشايخ وجماعتهم، حمية الجاهلية.

ولما أخرجوه، أقام بمدرسة خوند، ببين السورين، وكانت واقفتها حية، فأخرجته منها بإغراء جماعة أولاد الشيخ، فرام الإقامة بزاوية الشيخ عبد الرحمن بن بتمر التي كنت إقامة خاله أولاً بها فما تمكن، ثم لا زال ينتقل من مكان إلى مكان حتى استقر بالمدرسة البقرية داخل باب النصر.

ومن كراماته أنه أتاه رجل فقال: أعلمك الكيمياء؟ فقال: ادخل هذه الخلوة، واعمل، وأطلعني عليه، فإن أعجبني تعلمت. فدخل فقال الشيخ لجماعته في هذا الوقت: يخرج عليكم محروق اللحية والوجه، فصعد الكبريت فأحرق لحيته ووجهه، وخرج كذلك، فقال له الشيخ: لا حاجة لنا بشيء يحرق الوجوه واللحاء، وأخرجه. وله تصانيف منها: «**الخلاصة المرضية في سلوك طريق الصوفية**»، تشتمل على أبواب، قرظ له عليه السراج العبادي والشيخ زكريا والأبناسي والكافياجي، والشيخ قاسم وابن الغرس، وأثنوا عليه. وكان كثير الذكر والتلاوة، سريع الدمعة متواضعًا، حسن الخلق متحملاً للأذى، فلذلك هرع الناس للأخذ عنه، والتردد إليه.وكان ينتصر للشيخ الأكبر ابن عربي. مات في جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة، وصلى عليه في جميع متوسط. ولما احتضر، أذن لاثني عشر في التسليك، فصار جماعة كل منهم يقول: شيخنا أولى، فبلغ ذلك المرصفي- وكان منهم- فقال: ابرزوا كلكم للطريق، وكل من كان صادقًا يظهره الله، فبرزوا فتمزقوا ولم يثبت إلا هو فاجتمع الناس عليه وانقادوا إليه. انظر: طبقات الشعراني (108/2)، الضوء اللامع (316/6)، .

«لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»[1] ومن عرف تفسير: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:1] عرف ما أشرنا إليه على أنه ﷺ قد كان انتهى تبليغه وهدايته للخلق بحسب القسمة الإلهية، فلم يبق من آثار رسالته ما يفاضل بينه وبين الإقبال على الله وحده، وكذا القول في ورثته فليفهم فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعتقدوا الكمال فيمن تفرق عنه تلامذته واختفى، وإياكم أن تقولوا: فلان سلب، فتقعوا في الغيبة له والكذب عليه وتتعرضوا للمقت، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: أن يحفظوا حرمة إخوانهم في غيبتهم، فلا يتكلمون من ورائهم بشيء يستحيون أن يواجهوهم به إذا لقوهم، وهذا الخلق قد صار غريبًا في هذا الزمان، فترى أحدهم يذكر أخاه بالسوء ويبين للناس فيه العجز والبجر، ثم إذا جاء ذلك الأخ يزوره مثلاً يقوم له ويبجله ويمشي معه إلى باب الزاوية، ثم يقول بعد ذلك: أيش أعمل؟ هؤلاء لا يرضيهم منا إلا ذلك يعني: أنهم لا يستحقون أن يفعل معهم ذلك فيزكي أحدهم نفسه ويجرح أخاه، ولا يخفى ما في ذلك من النفاق المنافي لطريق أهل الله ﷻ.

وقد وقع لي مع شخص مثل ذلك، فدخلت عليه على غفلة فسمعته يذكر فيَّ العجز والبجر، فلما قدمت عليه قام لي وأجلسني على فراشه، فقلت له: تب من مثل ما كنت فيه قبل دخولي فكلح وخجل، وافتضح بين الناس الذين كان يكلمهم، وإنما كلمته بمثل ذلك في الملأ توبيخًا له لينزجر عن مثل ذلك، ولو علمت منه أنه كان ينزجر بإسراري له بذلك لأسررت له بذلك.

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول كثيرًا: افضحوا إخوانكم في وجوههم حسب الاستطاعة بحسن سياسة، وناقشوهم كل المناقشة، وإذا غابوهم فاحملوهم على المحامل الحسنة عند من رأيتموه يذكرهم بسوء، فإذا سمعتم أحد يقول: كيف يدعي هؤلاء ترك الدنيا وأحدهم يسافر من مصر إلى الروم في طلب جوالي أو مسموح مثلاً؟ فقولوا له: قد يكون هذا يقصد بذلك الحفاء بين الناس حتى لا يتميز عن أبناء جنسه الذين يسافرون في طلب أرزاقهم، أو قد يكون قد اطلع من طريق كشفه أن له رزقًا في الروم لا يمكن أن يصل إليه إلا بسفره إليه، فسافر في طلب

(1) ذكره القشيري في الرسالة (ص40).

رزقه، انتهى.

وقد رأيت أنا شخصًا في «بيلاق» قال لي: كشف لي عن لقمة في دمياط لا بدّ لي من أكلها، فسافرت إليها، فلما أقبلت على البر رأيت شخصًا يأكل لحمًا فزور بلحمة فألقاها فأخذتها وبلعتها، فلما بلعتها تحركت نفسي للرجوع إلى «بيلاق» فرجعت من ساعتي، وعلمت أن من الرزق ما يأتي إلى صاحبه ومنه ما يأتي صاحبه إليه لا بدّ له من ذلك، انتهى.

فاعمل على ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تحمل الأذى عن كل من قال: لا إله إلا الله، فلا يؤذونه بظاهرهم ولا باطنهم، فالظاهر كإيذائه بالجوارح الظاهرة، والباطن كسوء الظن وتمني السوء له، وقد عد العلماء بالله تعالى الأذى للناس من السموم القاتلة، ولكن لا يكاد يشعر به كل أحد لاسيما سوء الظن بالأولياء والعلماء والعاملين وحملة القرآن الكريم.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إياك أن تنقص مقام أحد إلا إن أطلعك الله تعالى من طريق الكشف على سوء خاتمته التي يبعث عليها من الكفر، فهناك لا يكون قولك فيه أنه كافر غيبة وأما ماعدا ذلك فهو من جملة الغيبة المحرمة بشروطها المقررة في كتب الفقه، فالكامل هو من ينظر في نقائص نفسه؛ ليتطهر منها قبل موته قال الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:21] انتهى.

ويؤيده قول الشيخ محيي الدين في «الفتوحات المكية»: إياك يا أخي ومعاداة أهل لا إله إلا الله فإن لهم من الله تعالى الولاية العامة وهم أولياء الله وإن جاءوا بقراب الأرض خطايا لا يشركون بالله شيئًا إن الله تعالى يلقاهم بمثلها مغفرة، ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته فلا تعاد إلا من تحققت أنه عدو الله تعالى وليس ذلك إلا الكافر فهناك تتبرأ منه كما تبرأ السيد إبراهيم الخليل ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة:114]، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إرسالهم عيالهم في فرح من عرس وختان إلا إن وثقوا بدينهن من عدم ميلهم إلى الدنيا وزينتها، فرب نظرت عيالهم إلى ما على النساء في الفرح من الزينة فازدرت ما عليها من الثياب، وطلبت من زوجها أن يكسوها الحرير ويلبسها الحلي، فتكلف زوجها الفقير ما ليس في قدرته، أو تكلفه أن يتوجه إلى الله تعالى في أن يحجب عين عياله عن رؤية زينة الناس، أو في أن يقلب له مرقعة زوجته

أو جبتها الصوف في أعين الناس حريرًا وجواهرًا كما وقع لسيدي أبي العباس البصير ﷺ حين أرسل زوجته إلى عرس لامرأة أمير كبير بعد سياقهم على الشيخ السياقات، فقال لزوجته حين كرهت الذهاب إلى العرس بثيابها الرثة: البسي هذه المرقعة وسوف يقلبها الله تعالى في عيون النساء الحاضرات في العرس كاملية منسوجة بالذهب والفصوص والمعادن، فكان الأمر كذلك فصارت نساء الأكابر كلهن يشهدن تلك المرقعة كاملية منسوجة بالذهب والفصوص والجواهر، حتى انبهرت عقول النساء، وقالت امرأة الأمير لزوجها: ما ملك إلا الشيخ فإني رأيت على زوجته حليًا مرصعًا بالفصوص والمعادن، فصارت ثيابي عندها كثياب جواري المطبخ، فأرسل أمير كبير يبذل للشيخ في تلك المرقعة الأموال، والشيخ يقول له: والله إنها مرقعتي ولكن الله تعالى قلبها في أعين الناس كما أخبروكم سترة للفقراء بين الأكابر، انتهى.

وكذلك وقع لسيدي الشيخ عبد العزيز الديريني أن امرأة سيدي مجاهد النيراوي عزمت على زوجة سيدي عبد العزيز فدعتها إلى عرس ولدها، وفرشت لها البسط والمقاعد المطرزة؛ لظنها أنها مثلها في الزينة والفخامة، فلما دخلت زوجة سيدي عبد العزيز ﷺ ونفعنا به عليها وجدت عليها ثوبًا خلقًا ومرقعة، فطوت البسط والمقاعد وأرسلتها تجلس عند النساء في المطبخ، فلما جاء سيدي عبد العزيز يطلب زوجته سألها عن حالها؟ فأخبرته بالخير وأنها طوت بسطها لما رأت ثيابها الخلقة ووضعتها عند جوار المطبخ، فقال لها سيدي عبد العزيز ﷺ: هذا غاية الإكرام والإحسان التي جعلتك عند الطبيخ فكل شيء استوى يطعمونك منه، ثم أخرجها وسافر معها إلى ديرين فقوي عليهما الحر في الطريق، فجلس الشيخ وقال لها: اقلعي من هذا القلقيل شيئا نبني لنا حائطًا منه ونجعل عليه الرداء حتى يميل الظل، فقالت زوجته: نم أنت في الشمس، وسخطت على ثيابها ومعيشتها فنام فقامت وقلعت من القلقيل ونظرت إليه فإذا هو كله ذهبًا فاستيقظ الشيخ فوجد عقلها قد انبهر من ذلك، فقال لها: إن شئت فاحملي لك قلقيلة واصنعي لك حليًا وزينة، ولكن لا يصير لك نصيب في الآخرة، وإن شئت صبرت إلى الجنة، فقالت: اصبر إلى الجنة، انتهى.

فلولا أن الشيخ بيّن لها هذه الكرامة لفسد حالها، ثم بعد أن عرفت يا أخي ذلك، فأرسل عيالك للأفراح أو اترك ولا أرى عدم إرسالهم إلا خيرًا لك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة رحمتهم للسكران وجميع العصاة، وإذا طلع زاويتهم

السكران لا يضربونه، ولا يخرجونه إلى جماعة الوالي إلا بطريق شرعي، وإنما يجلسونه في رحبة المسجد أو الميضأة حتى يصحوا فيغسلون له ثيابه إن تنجست، ويطعمونه الطعام اللذيذ والحلوى، ثم يعظونه ويخوفونه من الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، ثم يقولون له: نحن أحببناك لله تعالى وما بقي يهون علينا مفارقتك، وذلك لينسوه صحبة من كان صحبهم من الفسقة لما يرى من كثرة شفقتهم عليه، وهذا هو اللائق بالفقر وأما الضرب فلا يجوز.

وهذا الخلق قل من يتخلق به من الفقراء، وطلبة العلم إنما يخرجون السكران، ويغلقوا دونه باب المسجد، حتى يمر عليه والي الطوف فيأخذوه ويضربه ويغرمه الدراهم، وقد قال ﷺ لهزال لما وجد رجلاً مع امرأته: «**هلا سترته بثوبك**»[1] انتهى.

وفي الحديث أيضًا أنهم أتوا النبي ﷺ بشارب خمر فشتموه، فنهاهم ﷺ عن ذلك وقال: «**لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم**»[2] انتهى.

فارحم يا أخي أهل المعاصي ماداموا يخفونها، وتخولهم بالموعظة الحسنة.

وقد روى البيهقي[3] أن شخصًا جاء إلى عبد الله بن عمر فقال: إن لي جيرانًا يشربون الخمر في بيوتهم، وقد نصحتهم فلم يسمعوا، وأنا داع الشرط إليهم ليأخذوهم، فقال له عبد الله: لا تفعل ودم على نصحك لهم، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: اهتمامهم بإكرام الضيف، وتهيئة ما يأكل وما يشرب بسرعة وطيبة نفس، فإن البطء عليه بالأكل يضجره ويذهب حلاوة الضيافة، كما أن العبوسة في وجهه توحشه، وربما ندم الذي نام عند من عبس في وجهه.

وكذلك من آدابهم إعلام الضيف بجهة القبلة وبيت الخلاء حتى لا يحوجوه إلى السؤال عن ذلك، وقد غلب الحياء الطبيعي مرة على بعض أصحابنا، فتغوط وبال في قلنسوة ولد صاحب البيت حين انحزق، فأخذها من على رأس الطفل وهو نائم، ثم هرب من الفجر، وكذلك من آدابهم تهيئة الوطاء والغطاء وتهيئة ماء الوضوء لقيام الليل.

---

(1) رواه أحمد (217/5، رقم 21942)، وأبو داود (134/4، رقم 4377)، والحاكم (403/4، رقم 8080)، والطبراني (201/22، رقم 530)، والنسائي في الكبرى (306/4 ، رقم 7278).

(2) رواه أحمد في المسند (279/9)، (4252).

(3) رواه البيهقي (331/8).

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - إذا هيئ ماء الوضوء للضيف، فنام الضيف ولم يقيم الليل، يقول له: اذهب بسلام ولا تقم عندنا، وكذلك كان لا يعطي الضيف الغطاء إذا علم منه الكسل، ويقول: إنه إذا دفئ نام عن قيام الليل، ففاتته تلك المواقف الربانية، وما فيها من الخير والهدايا والتحف، وكان تبعة ذلك عليّ لأنه لو برد في الليل لربما قلق فذكر الله تعالى ونام جالسًا، انتهى.

وهذا الطريق غير مسلوك الآن ولكل مقام رجال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: خدمة الضيف بأنفسهم أو غلامهم، وتزويده إذا رحل عنهم بالطعام وعليق الدواب، والدراهم والدنانير بحسب قدرتهم، وقد ذكر الإمام الشافعي ﷺ في رحلته إلى الإمام مالك ﷺ أنه لما زاره عزم عليه أن ينام عنده وتلقاه بالترحيب، وقال له: إن للقادم دهشة فتلقوه بالترحيب، قال الإمام الشافعي: ثم إنه أدخلني مكانًا في قعر بيته، ثم أرسل لي غلامًا يقول لي: القبلة ها هنا، وهذا إناء فيه ماء، وهذا بيت الخلاء وأشار إليه، ثم إن مالكًا دخل عليّ ومعه غلام حامل طبقًا، فوضعه من يده وسلم عليّ وقال للعبد: اغسل علينا، فوثب الغلام إلى الإناء وأراد أن يصب عليّ أولاً فصاح به مالك الغسل في أول الطعام يكون لرب المنزل؛ لأنه يدعوا الناس إلى كرمه فحكمه أن يبتدئ بالغسل، وفي آخر الطعام للضيف؛ لأن صاحب الطعام ينتظر من يدخل ليأكل طعامه.

قال الإمام الشافعي: فاستحسنت ذلك من مالك، ثم أكلت أنا وإياه، فأتينا على جميع الطعام، وعلم مالك إني لم أجد من طعامه كفاية، فقال: يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معذر، فقلت: لا عذر على من أحسن إنما العذر على من أساء فلما صلينا العشاء في مسجد سيدي رسول الله ﷺ سألني عن بعض أحوال مكة؟ ثم قال: من حكم المسافر أن يحل تعبه بالاضطجاع ثم فارقني، فلما كان الثلث الآخر من الليل قرع عليّ مالك الباب وقال: الصلاة يرحمك الله فانتبهت، فإذا هو حامل إناء فيه ماء، فشق ذلك عليّ، فقال: لا يروعك ما رأيت مني فإن خدمة الضيف عندنا فرض، انتهى.

فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إقامة العذر للعلماء إذا لبسوا الملابس الفاخرة، وركبوا الخيول المسومة، ويرون أن فعل ذلك من جملة إعزاز الدين، ولا يطلبون منهم التقشف كالفقراء؛ لأن الفقراء لا يحتاج الناس إليهم كحاجتهم إلى العلماء، ولا يكاد أحد يعرف لهم مقامًا حتى يخرج عليهم في أحوالهم، وأيضًا فإن المطلوب من الفقراء عكس

المطلوب من العلماء؛ لأن كلا منهما تابع لسلطان ما هو حامل له، فسلطان الشريعة هو الظاهر في هذه الدار، وسلطان الحقيقة هو الظاهر في تلك الدار.

وقد تقدم في هذا الكتاب أن حقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير، لكن لما عز وجود ذلك في الناس ظنوا التباين بينهما، فصاروا يقولون: فلان من أهل الشريعة، فلان من أهل الحقيقة، إذا علمت ذلك فلأهل الله تعالى الظهور بالملابس الحسنة تارة وبالثياب الخلقة تارة، ولهم الاقتصار على واحدة منهما طول عمرهم؛ لأنهم حملة الشريعة والحقيقة.

ولما دخل الإمام الشافعي على محمد بن الحسن - رحمهما الله تعالى - رأى في بيته دراه ملابس ومراكب وغلمانًا وخدامًا وسقفًا مموهة بالذهب، فبهت الشافعي من ذلك، فقال له محمد بن الحسن: يا أبا عبد الله هذا مما يسر به الصديق ويكمد به العدو.

وأما تقشف العلماء الماضيين كالقاضي بكار، والشيخ عز الدين بن عبد السلام[1]، فذلك لشدة اشتهارهم بالصلاح، فاستغنى أحدهم عن عزه بالملابس

(1) هو سيدي عبد العزيز بن عبد السلام. العلامة ذو الفنون. وحيد عصره، عز الدين السلمي الدمشقي ثم المصري، شيخ الشافعية، وقدوة الصوفية، أمام عزّه دائم، وطائر فضله حائم، وبحر كمال موجه زاخر، وجوهر علومه فاخر. كان وافر التقشف، تارك التكلف، حسن الخلق، مهاب المنظر، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، عظيم الجد والمجاهدة، احتلم في ليلة شديدة البرد، فجاء إلى جامدٍ فكسره واغتسل، فكادت روحه تزهق، ثم احتلم، ففعل مثل ذلك، فأغمي عليه وكاد يهلك، فسمع قائلاً: لأعوضنك بها عز الدنيا والآخرة؟ هذا وقد بلغ رتبة الاجتهاد، وقصد للأخذ عنه من أطراف البلاد. وله التصانيف المفيدة، والمناقب التي يبلى الزمان وهي جديدة، درس بدمشق وبها خطب، ورقى بمصر عند سكنه بها إلى أسمى الرتب، ولي الحكم بالديار المصرية، وحاز قصب السبق في ميدان طائفته العصرية. أخذ الفقه عن ابن عساكر، والأصول عن الآمدي، ورحل إلى بغداد، وكان يلبس قبعًا لباذًا، ويحضر به المواكب السلطانية بلا عمامة.
ومن مؤلفاته: تفسير مختصر في مجلد، والقواعد الكبرى والصغرى، ومجاز القرآن، وشجرة المعارف- بتحقيقنا- وشرح الأسماء الحسنى، والغاية مختصر النهاية، والجمع بين الحاوي والنهاية، والفتاوي الموصلية، والتفسير وغير ذلك.
وسمع الحديث من ابن طبر زذ وغيره، وعنه أخذ الدمياطي وابن دقيق العيد، وهو الذي لقّبَ بـ: سلطان العلماء، والتاج الفرطاح، والباجي، وخلق.
وكان أولاً ينكر على الصوفية ويقول: هل لنا طريق غير الكتاب والسنة؟ فلما اجتمع بالشاذلي وذاق مذاهبهم، وقطع السلسلة الحديد بالكراسة الورق، صار يمدحهم، بل دخل في عدادهم.

الفاخرة لصلاحه، فكان للقاضي بكار ﷺ[1] رداء على بدنه ولبدة على رأسه، وكان

ولي خطابة دمشق، فلم يلبس السواد، ولا سجع خطبة، وترك الثناء على الملوك، وأبطل صلاة الرغائب، ونصف شعبان، فكان بينه وبين ابن الصلاح بسبب ذلك ما كان. وكتب له السلطان الأشرف موسى جوابًا عن كتاب كتبه العز إليه يطلب منه عقد مجلس بسبب العقائد- وكان الأشرف متحاملاً عليه مع خصومة الحنابلة- فكتب إليه العز كتابًا في آخره: ...وبعد، فإنّا نزعم أننا من حملة حزب الله وجنده، وكل جندي لا يخاطر نفسه فليس بجندي، وافتتحه بقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:92] ولما سلّم الملك الصالح إسماعيل قلعة صفد للفرنج نال منه على المنبر ولم يدع له، فغضب السلطان وعزله وسجنه، ثم أطلقه، فنزح إلى مصر، هو وابن الحاجب، فولاه السلطان قضاء مصر، فتمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر، فشق ذلك على حاشية الملك، فعزله. مات بمصر سنة ستين وستمائة، ودفن بالقرافة الكبرى في آخرها.

انظر: ذيل الروضتين (216)، ومرآة الزمان (505/1)، وفيات الأعيان (95)، وفوات الوفيات (2/ 350)، مرآة الجنان (153/4)، البداية والنهاية (235/13)، الكواكب الدرية (527).

(1) هو بكار أبو بكرة بن قتيبة بن أبي برذعة بن عبيد الله بن بشير بن عبيد الله بن أبي بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي، صاحب رسول الله ﷺ كان حنفي المذهب، وتولى القضاء بمصر سنة ثمان أو سنة تسع وأربعين ومائتين، وقيل قدمها متولياً من قبل المتوكل يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة ست وأربعين ومائتين، وظهر من حسن سيرته وجمال طريقته ما هو مشهور.

له مع أحمد بن طولون أخبار ووقائع مذكورة، كان يدفع له كل سنة ألف دينار خارجاً عن المقرر له، فيتركها بختمها ولا يتصرف فيها، فلما دعاه إلى خلع الموفق بن المتوكل والد المعتضد من ولاية العهد امتنع بكار من ذلك فاعتقله أحمد وطالبه بجملة المبلغ فحمله إليه بختمه وكان ثمانية عشر كيساً في كل كيس ألف دينار، فاستحيى أحمد منه، وأمره أن يسلم القضاء إلى محمد بن شاذان الجوهري ففعل وجعله كالخليفة له، وبقي مسجوناً مدة سنين، وكان يحدث من السجن في طاق لأصحاب الحديث، لأنهم شكوا إلى ابن طولون انقطاع سماع الحديث من بكار، وسألوه أن يأذن له في الحديث ففعل. وكانت ولادته بالبصرة سنة اثنتين وثمانين ومائة.

قال ابن خلكان: وتوفي وهو باق على القضاء مسجوناً يوم الخميس لست بقين من ذي الحجة سنة سبعين ومائتين. وقبره بمصر، وبقيت مصر بعده بلا قاض ثلاث سنين. وقبره بالقرب من قبر الشريف طباطبا مشهور هناك عند مصلى بني مسكين على الطريق تحت الكرم بينه وبين الطريق. معروف باستجابة الدعاء. وكان القاضي بكار أحد البكائين التالين لكتاب الله تعالى. وكان إذا خلا من الحكم، تفرد بنفسه وعرض عليها قصص جميع من تقدم إليه وما حكم به وبكى. انظر: [الوافي بالوفيات 389/3].

للشيخ عز الدين ﷺ فروة يلبسها شتاء وصيفًا، ولما غضب من السلطان حمل جميع أمتعته على الحمارة، وركبت زوجته فوق ذلك، وكذلك بلغنا عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي[1]، انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في الباب الخامس عشر من «المنن الكبرى» وذكرنا عدة جماعة من علماء عصرنا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: رؤيتهم لمحاسن أعمال الناس لاسيما العلماء والصالحين، ولا يتعرض أحدهم للحكم على بواطنهم بشيء من الأمراض الباطنة، فيقول عن عالم أو صالح بعيد عن مثل هذا أن يسلم من الرياء أو النفاق، أو الحقد أو الحسد، أو الكبر أو الشك أو محبة الدنيا، ونحو ذلك، فإن الله تعالى لم يكلف داعيًا إلى الله تعالى أن يشق قلوب الناس وينظر ما فيها؛ لأن ذلك من خصائص الحق - جل وعلا - فهو الذي ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:19]. فلا تظن يا أخي أن أحدًا من العارفين يحكم على باطن أحد بشيء إذا رأيته يحط على أهل عصره إنما ذلك على سبيل الفرض والتقدير كما كان ﷺ يعرض في وعظه ولا ينص على أحد معين بل يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا، أو يقولون كذا، فكل من كان من أهل ذلك الأمر يثبته لنفسه من ذات نفسه، ويتوب إلى الله تعالى من الاستهانة بأمره أو اجتناب نهيه من غير تقريع ولا توبيخ مع كونه قد حصل به الغرض من النصح، وقد قدمنا في هذا الكتاب أن كل من حكم على باطن أحد بشيء فإنما ذلك قياس على حاله هو من خير أو شر، وإن

---

(1) أبو إسحاق الشيرازي الشافعي، صاحب التصانيف الذي سارت كسير الشمس وملأت الأقطار فما جحد فضلها إلا الذي يتخبطه الشيطان من المس، وكان فقيهًا أصوليًا ورعًا زاهدًا صوفيًا، يضرب به المثل في كل ذلك، وناهيك بقول الماوردي في حقه: لو رآه الشافعي رضي الله عنه لتجمل به.

أما الفقه فكان ملكه يأخذ بزمامه، وإمامه إذا أتى كل أحد بإمامه، وبدر سمائه الذي لا يعتريه النقصان عند تمامه. وكان مجاب الدعوة شديد الورع جدًا. نسي في المسجد دينارًا وخرج ثم تذكره فرجع فوجده فقال: لعله وقع من غيري فتركه، هذا هو الورع هكذا هكذا وإلا فلا. ولد بفيروزاباد، بلدة بفارس سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وكان بها ثم طاف البلاد ثم استقر ببغداد، وما برح يجاهد حتى صار أعلم زمانه وفارس ميدانه والمقدم على أقرانه، وامتدت إليه أعين النظار، وانتشر صيته في البلدان الكبار، ورحل إليه من جميع الأقطار. انظر: طبقات ابن الصلاح (302/1)، وفيات الأعيان (29/1)، طبقات السبكي (215/4).

باطن العبد إذا انجلى من السوء صار الناس كلهم عنده أولياء سالمين من الدسائس والنقائص لا يظن غير ذلك قياسًا على نفسه هو، وإن من كان بالعكس فهو بالعكس. فاعلم ذلك وتنبه يا أخي لنفسك وكل ما تظن في أحد سوء، فاعلم أن ذلك كله إنما هو صورة نفسك ففتش نفسك وتب واستغفر. ومما يبادر بعض المتورعين إلى إنكاره على الفقهاء وعدهم لشخص بأن يقرؤوا عنده ليلة الجمعة أو ليلة النصف من شعبان مثلاً بثلاثة أنصاف، فيعطيهم شخص أربعة أنصاف، فيفسخون على الأول، فينبغي حملهم على أنهم ما فسخوا إلا لظهور تعظيم الثاني للقرآن الكريم بإكرام أهله أكثر فقدموا القراءة عنده والأكل من طعامه؛ لأنه أكرم وأعظم مروة نظير من جعل للمصحف ثوب حرير تعظيمًا له مع فقد صيغة الإجارة في مثل ذلك غالبًا فما صحت الإجارة.

وقد بسطنا الكلام على حمل الناس على المحامل الحسنة في الباب الخامس عشر من كتاب «المنن الكبرى» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مؤاخذة نفوسهم بما يخطر في بواطنهم من السوء؛ لاحتمال أن الله تعالى يؤاخذهم به كما يؤاخذ الخواص، وذلك كالرياء والحسد، ومحبة الدنيا ورؤية نفوسهم على غيرهم لا على وجه الشكر لله تعالى ونحو ذلك، فلا يصرون على ما يخطر في بالهم من السوء، بل يتوبون منه كما يتوبون من المعاصي الظاهرة على حد سواء فإنها ظاهرة لله ﷻ لاسيما توبتهم من ذلك كلما يقومون للصلاة، فإن من وقف بين يدي الله تعالى وهو متلطخ بمثل هذه الصفات فهو كمن لطخ ثوبه وبدنه بدم وفرث وقيح، وطلب أن يجالس السلطان ولله المثل الأعلى، فهو إلى العقوبة أقرب؛ لازدرائه بالحضرة فإياك يا أخي وعدم التوبة مما يخطر على بالك ثم إياك، وفي القرآن العظيم: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [النحل: 45]. فهددهم بالخسف بالمكر وهو من أفعال القلوب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عملهم بما ورد أنه يكون سببًا لموتهم على الإيمان من الأمور المقربة إلى الله تعالى، ولا يقول أحدهم: إن كان سبق في علم الله تعالى إنني أموت على الإيمان فهو واقع لا محالة، وإن سبق في علم الله تعالى موتي على غير الإيمان فلا يفيد شيئًا، كما يقع فيه من يسلك الطريق بغير شيخ، فإن ذلك من الجهل المبين فإن الله تعالى رتب الأسباب على مسبباتها.

وقد اجتمع بعض أشياخنا بالسيد الخضر عليه السلام فحادثه، فقال له الخضر: إني كنت أحضر مجلس أبي إدريس الخولاني كلما يقص على الناس، فقال لي أبو إدريس يومًا: يا نبي الله أي عمل إذا عمله العبد أماته الله تعالى على الإيمان؟ فقلت له: أدركت مائة ألف نبي وسألتهم عن ذلك؟ فلم يجيبوني حتى أدركت محمدًا ﷺ فسألته عن ذلك فأجابني وقال: من صلى صلاة الفجر وقرأ آية الكرسي و﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة:285] إلى آخر السورة و﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:18] إلى قوله: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران:27] فمن واظب على ذلك مات على الإيمان، وذكر نحوه الإمام أبو الحسن بن فرحون في كتابه «الزاهر» انتهى، وفي هذه القصة صحة اجتماع الخضر بالنبي ﷺ خلاف ما عليه ابن تيمية وأتباعه.

وذكر صاحب كتاب «بستان العارفين» عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قلت: يا رسول الله علمني شيئًا يحفظ عليَّ الإيمان حتى ألقى به ربي ﷻ، فقال: **«صل كل ليلة ركعتين بعد المغرب تقرأ في كل ركعة منهما بعد الفاتحة سورة القدر مرة، وسورة الإخلاص ست مرات، والمعوذتين كل واحدة مرة، فإن الله تعالى يحفظ عليك الإيمان، حتى توافي به يوم القيامة»**[1] وفي رواية: **«فإذا فرغ من الركعتين سبح الله تعالى خمس عشر مرة»**[2] فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا عملوا مولدًا كبيرًا بطباخين ومنشدين ونحو ذلك أن يتوجهوا إلى الله تعالى في حفظ الطباخين وخدام الطعام والحاضرين عن إخراج الصلاة عن وقتها، وقل من الفقراء من يهتدي للتوجه إلى الله تعالى في مثل ذلك، بل ربما أخَّر الشيخ أو النقيب تلك الليلة الصلاة عن وقتها اشتغالاً بذلك الطعام، فلو وضع خير ذلك المولد بطعامه ومنشديه في كفة، ووضع إثم ترك الصلاة في وقتها في كفة لرجح ترك الصلاة على ذلك المسمى خيرًا.

فليعلم أنه لا يليق بفقير أن يعمل مولدًا إلا إن كان يقدر على حفظ الحاضرين من الآفات، كالغيبة فيه من حيث نظامه، ومن حيث مساعدة الظلمة له في ذلك الطعام،

---

(1) لم أقف عليه.

(2) لم أقف عليه.

ومن حيث تقبيل الناس رجله أو يده ونحو ذلك.

وقد حضرت مولدًا مرة، فبات غالب من حضرة يستغيب صاحب المولد، فمن ذلك اليوم ما حضرت مولدًا إلى وقتي هذا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم ظنهم بأنفسهم النجاة بأعمالهم، ولو عبدوا الله تعالى عبادة الثقلين بعد أن سمعوا قول الباريَ تعالى: ﴿لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر:47]، فكل الناس جاهلون بما يؤول أمرهم إليه من السعادة والشقاوة إلا الأنبياء، ومن يشاء الله تعالى من الأولياء، ومن هنا بكى الأولياء الدم بعد الدموع؛ خوفًا من حسرة ترك مجالسته تعالى في الآخرة، فإن أهل النار عن ربهم محجوبون وهو أشد العذاب عندهم، فخف يا أخي من النقص في طاعتك كما تخاف من المعاصي الظاهرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم حزنهم النفساني على أحد صحبهم ثم فارقهم، بل يقولون: قد أصاب فلان في مفارقة مثلنا خوفًا أن يسرق طبعه من صفاتنا الخبيثة فيهلك، فهم ينظرون للذي عليهم أولاً، ولا ينظرون للذي لهم إلا بعد ذلك عكس ما عليه غيرهم، وهذا خلق غريب في هذا الزمان، بل بعضهم يقول عن من فارقه: أن فلانًا مُقِت، ويقيم الأدلة على مقته، وذلك من علامة أنه ممن ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:8] ولو كان كاملاً لرأى حسناته ذنوبًا بالنظر لما يستحقه جلال الله تعالى.

ومن هنا كان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يزجر من يقبل يده ويقول: تقبيل اليد لا يكون إلا لمن ثبت على قدم الاستقامة إلى الممات ونحن أصحاب ذنوب، فالهرب من التعظيم أولى بكل عاقل، وربما ألفت النفس ذلك فصارت تستنكر ذلك إذا ترك الناس تقبيل يدها أو رجلها، وذلك من علامات كبرها التي تستوجب به دخول النار، فليتنبه الفقير الساذج لمثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: هروبهم من فعل كل شيء يقيم لهم ناموسًا من بين أقرانهم، ويميزهم عنهم إلا بعذر شرعي، فلا يطالب أحدهم إخوانه بالتردد إلى موضعه مع عدم أن يتردد إلى مواضعهم، أو يطالبهم بتقبيل يده ولا يقبل هو يد أحد منهم، أو يطلب منهم أن يخدموه ولا يخدم هو أحدًا منهم.

وهذا خلق غريب في غالب فقراء الزمان، فيريد أحدهم التخصيص بالحرمة عن أصحابه، وقد رأيت شخصًا خرج من بيته فركب حماره وصار جماعته يأمرون الناس بالقيام له من حوانيتهم الحوانيت وينزلون من يرونه راكبًا على دابته كما يصنعون بأهل الذمة في بعض الأوقات، ويقولون: انزلوا للشيخ، والشيخ راكب ساكت إما غارق في حب الله تعالى، أو في حب نفسه وشهواتها لا يخلو من واحدة منهما، فالله تعالى يغفر له إن كان مع نفسه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تكبيرهم بإخوانهم بحسب مقامهم في التواضع، فكلما تواضع أخوهم كلما عظموه أكثر؛ مسارعة لإظهار ما وعد الله تعالى به على لسان نبيه ﷺ في قوله: **«من تواضع لله رفعه الله»**[1]. وكان الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ يقول: تعرف منازل الناس عند الله تعالى بطريقتين لا ثالث لهما: **أحدهما:** بالكشف، **والثانية:** بكثرة الطاعات.

وكان سيدي ياقوت العرشي[2] - رحمه الله تعالى - يقول: ينبغي للفقير أن يعظم الناس بحسب دينهم لا بحسب ثيابهم.

وكان سيدي أبو العباس المرسي ﷺ[3] يقوم لبعض العصاة في بعض الأوقات،

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (5051)، وأبو نعيم في المعرفة (914) بتحقيقنا.

(2) هو سيدي ياقوت العرشي الحبشي، أجل تلامذة العارف المرسي، كان إذا شهدته، شهدت له بالولاية، وإذا أشهدك، أشهدك الهداية. أخبر به المرسي يوم ولد بالحبشة، وصنع له عصيدة أيام الصيف بالإسكندرية، فقيل: هي لا تكون إلا في الشتاء.. فقال: هذه عصيدة ولدنا ياقوت ببلاد الحبشة، وسيأتيكم. وهو الذي شفع في الشمس بن اللبان حين سلبه البدوي عمله وحاله، بعد أن توسل بجميع أولياء عصره، فلم يقبل البدوي شفاعتهم، فسافر من الإسكندرية إلى قبر البدوي، فسأله فأجابه، ورد عليه حاله وعمله. مات بالإسكندرية سنة سبع وسبعمائة. كذا ذكره أحدهم.

قال ابن حجر في أعيان المائة الثامنة: في سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة.

طبقات الشعراني (20/2)، الشذرات (103/6)، طبقات الشاذلية (101)، الكواكب الدرية (554)، وتعطير الأنفاس بمناقب الشاذلي وأبي العباس للرميلي الوفائي (بتحقيقنا).

(3) هو الإمام العارف بالله تعالى الكبير، والسيد الكامل البحر المنير العزيز، قطب الرجاء شمس الضحى، مُوزن الطريقة، نور أهل الحقيقة، صاحب الدوائر الكبرى والخلافة العظمى القطب الغوث الفرد الجامع سيدي: أبو العباس المرسي روّح الله روحه، وأوقر في حظائر القدس فتوحه، كان هو الخليفة من بعد موت الشيخ أبي الحسن.

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمه الله: كان سيدي أبو العباس ﷺ من أكابر العارفين، وكان

-

ولا يقوم لبعض المطيعين فقيل له في ذلك فقال: إني ألمح من بعض المطيعين الكبر، ومن بعض العاصيين ذل النفس، فأعامل كل واحد منهم بحسب ما في نفسه، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص يعظم الفقير الخامل الذكر بين الناس أكثر من الفقير المشهور بالكرامات، ويقول: إن هذه الدار ليست بمحل لظهور الكرامات، وإنما هي دار تكليف فكل كامل مشغول بما كلف به فيها.

وتقدم في هذا الكتاب أن شريفًا دخل على سيدي ياقوت العرشي فرأى الناس يقبلون رجله ولا يلتفتون إليه هو، فأخذ في نفسه من ذلك، فقال له سيدي ياقوت في أذنه سرًا: يا سيد إنما عظموني لأني تبعت طريق سلفك الطاهر، فاكتسبت منهم الشرف، وأنت لما خالفت سلفك في أخلاقهم وتخلقت بالرذائل أهنت، فسكت الشريف ولم يمر جوابًا، فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تكديرهم بحظ نفس ممن أمروه بأمر ولم يمتثل أمرهم؛ لأنهم نواب رسول الله ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [المائدة: 99] فالداعي إلى خير إنما هو مبلغ شرع ربه لعباده لا غير، والحق تعالى يفعل بعد ذلك ما

يقال: إنه لم يرث علوم الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ غيره، وهو أجلُّ مَن أخذ عنه الطريق، ولم يضع ﷺ شيئا من الكتب. وكان يقول: علوم هذه الطائفة علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لا تحملها عقول عموم الخلق، وكذلك شيخ شيخه سيدي أبو الحسن لم يضع شيئًا، وكان يقول: كتبي وأصحابي.

وتوفي سيدي أبو العباس ﷺ سنة ست وثمانين وستمائة، ودُفن بالإسكندرية ومشهده ظاهر تراد عليه الهيبة والوقار، ويقصده الخاص والعام للزيارة والتبرُّك بأنفاسه الطاهرة، وقد زرته مرارًا وحصل لي من الخير الجزيل والنفع الجليل، وأسأل الله تعالى بجاهه أن يرزقني زيارة شيخه سيدي أبي الحسن، ويكون ذلك وسيلة إلى حج بيته الحرام وزيارة قبر نبيه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وأمّا أتباعه فلا يحصون كثرة، وأجل من أخذ عنه سيدي ياقوت العرشي، وسيدي تاج الدين بن عطاء الله السكندري، فلذلك غالب الطريقة الشاذلية لم يأتِ إلا من جهتهما، فإن سيدي محمد وفا أخذ الطريق عن ابن باخلا، عن سيدي تاج الدين بن عطاء الله، عن أبي العباس، عن سيدي أبي الحسن.

وانظر: تعطير الأنفاس في مناقب أبي الحسن وتلميذه المرسي أبي العباس لأبي الإمداد الوفائي (تحت قيد الطبع بتحقيقنا)، وطبقات الشعراني (12/2)، ونيل الابتهاج (64)، جامع كرامات الأولياء (314/1)، وشجرة النور الزكية، (187)، والكواكب الدرية (462).

يشاء، فمن تكدر ممن خالفه بحظ نفسه فهو مع نفسه إلا أن يظهر التكدر للعاصي رحمة به رجاء أن يراعي خاطره، ويطيع أمره فيحصل له الخير.

فعامل يا أخي الخلق معاملة الحق تعالى لك، واحذر أن تقطع عنهم برك وإحسانك إذا خالفوا أمرك، فإن الله تعالى يرزقك ليلاً ونهارًا، وأنت مصر على معاصيه، وانصح إخوانك مع رحمتك بهم، والحمد لله رب العالمين.

الباب الخامس

في جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم: مبادرتهم ببادئ الرأي إلى النظر في حكمة المعاصي إذا وقعت، ولا يعترضون إلا بعد النظر في حكمة الأفعال عكس ما عليه غيرهم، فيبادر أحدهم إلى الإنكار ولا يكاد يعذر العاصي مثلاً إلا بعد تفكر وتأمل طويل، وقد قال أنس عن مالك ﷺ: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط، ولا لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته؛ أي: لأنه وقع وانقضى، وما بقي على الداعي إلا إقامة الحدود الشرعية إن كان فيها حدودًا وتأديبًا مثلاً.

فاعرض يا أخي حكمة وقوع ذلك الفعل أدبًا مع الله تعالى؛ ليقل اعتراضك على المقادير الإلهية، ثم اعترض باعتراض الشرع، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم معاتبة أحد من إخوانهم إذا دعوه إلى وليمة ولم يحضر، أو مرض فلم يعودوه أو عمل مهمًا فلم يساعدوه لا بأنفسهم ولا بمالهم إلا لغرض صحيح كتنبيههم على نقص فيهم في ترك مساعدتهم إخوانهم، وتفويتهم الخير على أنفسهم لأجله، فإن من شرط الفقير أن يرفع كلفته عن الناس بحسب الطاقة.

وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين ﷺ إذا عمل مولدًا أو مرض يقول: اللهم انس أصحابي ذلك حتى أفرغ من عمل المولد أو أشفى من المرض خوفًا من كلفتهم لأجله.

ومن أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان يكتم الجوع عن أصحابه، وكانوا لا يعرفون ذلك منه إلا بصفرة وجهه ﷺ وتعصيبه بطنه بعصابة، فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهودهم في نفوسهم أنهم دون مريديهم؛ لأن المريد شيخ

شيخه بالحال، وغاية الشيخ أنه شيخه بالقال، ومعلوم أن الحال أبلغ من القال.

وكان سيدي علي الخواص ﷺ يقول: من شرط الشيخ ألا يرى لنفسه مدخلاً في هداية الناس إلا على وجه الدلالة فقط، قال: ومحل ذلك ألا يفرق بين كون ذلك المريد مريدًا له أو مريدًا لغيره، ومتى فرق بينهما فهو يدعو الناس بحظ نفسه لا محبة في ظهور شرع الله ﷻ، فإن الهداية حيث ما حصلت، أو الشعار حيث ما حصل وقام، فهو المقصود لكل داعٍ بقطع النظر عن كون ذلك على يده أو يد غيره، وهذا الخلق يخل به كثير من الفقراء وربما ترافعوا إلى الحكام، وطلب كل واحد منهم أن يختص بذلك المريد، وقد قالوا: المريد لمن يريد، فاعلم ذلك وامش على قواعد الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبة إقامة الفقراء عندهم في الزاوية؛ ليذكروهم بالله تعالى بقراءتهم وذكرهم وعباداتهم، لا لغرض من الأغراض النفسانية، وفي ذلك اتباع السنة المحمدية، فإن أهل الصفة كانوا عنده ﷺ في المسجد لا يلوون على أهل ولا مال إنما هم جالسون للعبادة فقط، وكان إذا جاءه ﷺ صدقة بعثها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا جاءه هدية أرسلها إليهم وأصاب منها، وسيأتي ذلك في الباب الحادي عشر إن شاء الله تعالى، ولا يخفى أن الفقراء في إقامة المجاورين عندهم على أقسام: فمنهم من له حرفة أو رزقه فينفق على الفقراء منها، ومنهم من كان على ما يفتح الله تعالى، كسيدي يوسف العجمي، وسيدي أبي الحسن الشاذلي، فإنهما كان يقولان: لا نربي أصحابنا على الاعتماد على الأساليب، وإنما نربيهم على التوكل ، وقد عرض الملوك عليهما الرزق والمرتبات، فلم يجيبا إلى ذلك، فكان سيدي أبو الحسن يشتغل هو وأصحابه بالعبادة، ولا يسألون الناس شيئًا.

وكان سيدي يوسف العجمي[1] يسأل هو وأصحابه الناس، فكان كل يوم على

---

(1) هو سيدي يوسف بن عبد الله بن عمر العجمي، العارف جمال الدين أبوالمحاسن الكوراني ثم المصري. ولد ببلدة كوران، ونشأ بها على قدم التجريد، وجد واجتهد، وأخذ الطريق عن النجم محمود الأصفهاني، والبدر التشتري وغيرهما، ثم أمر بالتحول إلى مصر.
وذلك بينما هو نائم ذات ليلة إلا وقد أمر بالسفر إلى مصر، والإقامة بها للتسليك، فانتبه واستعاذ واستغفر، وتطهر وصلى ركعتين، ثم اضطجع ونام على جنبه الثاني، فأتاه آت، وأمره كذلك، ففعل كما فعل أولاً، وتكرر ذلك مرارًا ، فقال: لزم المسير.
وأخذ دلقه وقصعته، وخرج من البلد فورًا ليلاً، فأسفر الصبح وهو بشاطئ دجلة، فخاض فيها

فقير، وكان سيدي عثمان الحطاب يسأل الناس والأمراء، ويطلع للسلطان قايتباي يسأل للفقراء القمح والأرز والثياب، فقال له السلطان يومًا: أطلق هؤلاء الذين عندك تسترح منهم

فقال له: فأطلق أنت الآخر هؤلاء المماليك تسترح منهم، فقال: هؤلاء عسكر الإسلام.

فقال: وهؤلاء عسكر القرآن فتبسم السلطان وأعطاه ما طلب.

فحرر يا أخي النية الصالحة في جمع الناس عندك، ولا تطعمهم إلا حلالاً بحسب رتبتهم في كل عصر، وما أرى التعفف عن السؤال لك ولهم إلا أفضل، ولو كان مشهدك أن المعطي هو الله تعالى لا عباده فإنها هي الطريق التي درج عليها الشيخ الجنيد وأصحابه، اللهم إلا أن يكون للفقير السائل حال يحميه عن ازدراء الناس له بالسؤال فهذا لا بأس به وعليه حمل حال سيدي يوسف العجمي وغيره، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهودهم إطلاق اسم الفسق اللغوي عليهم في جميع أحوالهم، فلا يخرجون أنفسهم عن الفسق المذكور في ساعة من ليل أو نهار؛ لأن أحدهم لا يخلو من أمرين:

إما أن يكون في فعل مكروه فالأمر ظاهر، وإما أن يكون في فعل محمود فهو يشهد نقصه فيه عما أمر به، وقد قالوا: الفسق في اللغة: هو الخروج يقال: فسقت النواة إذا خرجت من قشرتها، ومن خرج عن السنة المحمدية قيد شبر مثلاً في ملبسه أو مأكله، أو نومه أو عبادته أو غير ذلك عن جميع أحواله الشرعية فقد انسحب عليه اسم الفسق اللغوي، فأي عبد يدعي سلامته من هذا الفسق فإنه أعز من الكبريت الأحمر،

إلى أنصاف ساقية وقال: اللهم إن كانت رؤياي حقًا فأرنيه لبنا، وغرف بقصعته، فإذا هو لبن، فأراق، ثم قال كذلك واغترف، فإذا هو لبن -ثلاث مرات- فسار مجدًا في السير حتى دخل مصر.

وهو أول مسلكي مصر بعد انقطاع السلسلة منها. فكثر بها أتباعه جدًا، اشتهر ذكره، وبعد صيته، وكثر معتقدوه. قال ابن حجر: وكان أعجوبة زمانه في التسليك، وله أتباع ومريدون كثيرون، ولبس الخرقة، ولقن الذكر، وسلك، فأجاد، وعم نفعه البلاد والعباد، انظر: طبقات الشعراني (2/ 65)، كرامات الأولياء (2/293)، والدرر الكامنة (4/463)، الكواكب (684).

ولكن إذا كمل حال الفقير صار يشهد الكمال النسبي والنقص في آنٍ واحد بعين واحدة أو أعين كما يعرف ذلك من ملك الطريق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: رضاهم عن الله تعالى إذا ناموا عن وردهم بالليل مثلاً، وشكرهم له حيث أنامهم في عافية لأبدانهم، وذلك لئلا تخلو أنفسهم من أدب العبودية في وقت من الأوقات، فلما فاتتهم أعمال العبودية من حيث التهجد مثلاً تداركوها من حيث نعمة النوم عليهم، فإنها من أعظم النعمة، فكان شكرهم لله تعالى من هذه الحيثية كالجبر للثواب الذي فاتهم من جهة ترك التهجد مثلاً، فلذلك كانوا يستغفرون من النوم، ويشكرون عليه من جهتين مختلفتين، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم التكدر ممن بلغهم عنه أنه ينفيهم عن طريق الصوفية، ويقول: إن هؤلاء نصابون كاذبون، بل يرون أن من شهد لهم أنهم من الصوفية كذاب، ويتكدرون منه غيرة على القوم من أن يقال بأن أحدهم على مقام أحد منهم، وكل صادق يرى مقامه بعيدًا عن مقام الصوفية أبعد مما بين السماء والأرض.

وكان سيدي أفضل الدين - رحمه الله تعالى - إذا بلغه أن أحدًا أخرجه عن طريق الفقراء يقول: والله إن هذا قلبه غير الذي عرف خبث باطني، فأين خوفي من خوف القوم؟ وأين الورع من الورع؟ وأين الزهد من الزهد؟ وأين العلم من العلم؟ وأين العمل من العمل؟.

وقد تقدم في هذا الكتاب عن سيدي عبد الله المنوفي[1] صاحب الكرامات

---

(1) هو شيخ الشيخ خليل صاحب مختصر الملكية الذي لم ينسج له من لدن مصنفه على منوال، ولم تسمع قريحة له بمثال. وأصل أبويه من المغرب، فقدما إلى إقليم مصر، ونزلا بشابور -قرية من أعمال البحيرة- فولد بها صاحب الترجمة سنة ست وثمانين وستمائة.
وكان يحسن تقريره أحسن من مشايخه ومعاصريه. ولما بلغ الأربعين، اشتغل بالتجرد والتعبد، وكان ظاهره مع الطلبة، وباطنه مع الله. وكان قليل المنام والكلام، ويمكث أيامًا لا يأكل ولا يشرب. وكان يتكلم في علوم المعارف بأحسن كلام، كأنه قطب دجاها، وشمس ضحاها. وسمع الكتب الستة وأسمعها، وكان دائم الاشتغال لا يفتر، صائم الدهر. وكان يقرئ الكتب الصعبة كابن الحاجب الأصلي والفرعي بلا مطالعة، وإذا درس يخرج من فمه نور، وإذا حسر عن ساعديه يظهر عليهما النور. وكان مع ذلك كله لا يرى نفسه أهلاً للإقراء، ويقول للطلبة: إنما نحن إخوان نتذاكر. ومع ذلك استوى عنده الأمير والوزير والفقير، والذم والمدح، بل الذم والفقر كانا أحب إليه. وكان كثير الورع جدًا، قولاً وفعلاً وشربًا وأكلاً ولبسًا، فكان لا يكتسي إلا من غزل أخته دون زوجته لشدة وثوقه بورع أخته، ويقتصر على ثوب خام غليظ وعمامة دون

والتلامذة الأجلاء منهم الشيخ خليل صاحب «المختصر» أن ناظر خانقاه سعيد السعداء دعاه إلى الإقامة بها فأبى، وقال: إن واقفها شرط خلاويها وخبزها للصوفية، وأنا لست بصوفي فانظر يا أخي إلى نظر العارفين وظنهم في نفسهم واتبع طريقهم.

وقد رأيت من جمع له رسالة ملفقة من كلام الشيخ محيي الدين، ومن «الإحياء» للغزالي وكتب اسمه عليها وظن أنه صار من الصوفية، فقلت له: اتخذ لك شيخًا يعرفك الطريق، فعاداني سنين إلى وقتي هذا، وقد سألته عن بعض مسائل في مختصر أبي شجاع، فقال: أنا ما قرأت في الفقه، فقلت له: الفقه أساس الطريق ولا يصح بناء على غير أساس، انتهى.

وقد كان سيدي علي المرصفي - رحمه الله تعالى - يقول: كل من ادعى أنه من

عشرة أذرع، يرخي لها عذبة، ويقعد في بيته على برش أو فروة، ويتغطى بعباءة لا تساوي أربعة دراهم. وبالجملة: كان يرى الدنيا كالميتة لا يتناول منها إلا بقدر الضرورة. وعرضت عليه المدارس فامتنع، وخرج من الدنيا ولم يضع حجر على حجر، ولم يصنف ورقة، ولا كتب على فتوى. وكان لا يقوم لأحد من العلماء إلا أن عرف عن حاله في العمل بعلمه. وكان يخفف صلاة الفرض ويقول: هي صلاة الأبدال، ومثلنا لا يقدر على طول الوقوف بين يديه تعالى بغير خروج قلبه إلى أمور الدنيا.

وكان يحث على الصدقة بالخير، ويقول: لا يستغني عنه أحد. وكان حمولاً للأذى، ويحمل الناس على أحسن المحامل.أشاعوا عنه أنه يعمل الكيمياء فقال: مرادهم التقوى، فإنها كيمياء الفقراء. فقيل له: قالوا أن زوج أختك يبيعها لك. قال: مرادهم أنه يتعلم مني التقوى. وكان سيره سير الفقراء، ونفقته نفقة الأمراء.

وذكر جماعته يومًا بحضرته أحد الأمراء، فأعرض عنهم ثم قال: أهؤلاء يعرفون حالكم أو مكانكم؟ فقالوا: لا قال: فاذكروا من هم أعلم بأحوالكم. وزاره أحد الأمراء يومًا، فلما أراد الانصراف قال: ألكم حاجة؟ قال: نعم، أن تأتيني بعد ذلك. وكان يذهب إلى الأماكن البعيدة في قوة الحر ماشيًا، فيقول له ولده محمد: نأتيك بحمار؟ فيقول: حمارٌ لا يركب حمار. وكان يكنس المراحيض بيده، ويملأ الماء من الصهاريج للأرامل والعاجزين. قال البرهان المتبولي: إذا كان لكم حاجة إلى الله، فتوسلوا بالمنوفي، فإن لم تقض، فبشرف الدين الكردي بالحسينية، فإن لم تقض، فبالشافعي، فإن لم تقض، فعليكم بنفيسة. انظر: الدرر الكامنة (312/2)، السلوك (2/3/ 781)، جامع الكرامات (119/2)، وقد أفرد له تلميذه الجليل الشيخ خليل بن إسحاق المالكي - صاحب المختصر المشهور بين السادة المالكية رضي الله عنهم، وعن جميع الفقهاء - كتابًا خاصًا في ترجمته ومناقبه وكراماته، وقد وقفنا على نسخة مخطوطة منه. يسر الله لنا تحقيقه، آمين، ونفعنا بمحبة الصالحين.

أهل الطريق وهو يعجز عن استنباط شيء من الشريعة وآداب القوم من الكتاب والسنة فهو مدع كذاب.

وقد قال شخص من العلماء لأبي القاسم الجنيد - رحمه الله - : أي فائدة لقراءة حكاية أحوال القوم؟ فقال: تثبت المريدين على محبة الطريق، فقال له العالم: ما الدليل على ذلك من القرآن؟

فقال مقررًا: الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:120].

فقال له العالم: قد صلح تلقيبك بالأستاذ، فاشتهر بتلقيبه بالأستاذ من ذلك اليوم فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تسليمهم لكل من ادعى أنه أُعطي مقام الكشف، ولكنه تنزه عنه وسأل الله في إزالته حتى أُزيل، ثم إن كان كاذبًا فكذبه يرجع عليه، وإن كان صادقًا فقد صدقناه.

وكذلك نسلم لكل من ادعى مقام المراقبة ونحوه من مقامات الباطن، وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: لا ينبغي لفقير أن يدعي مقام الكشف وأنه تنزه عنه، وسأل الله تعالى الحجاب فيه إلا إن كان صادقًا، فإن النفس ربما تلبس على صاحبها في ادعائها المقامات الباطنة، ويقول: إن الناس لا ينازعونك في مثل ذلك؛ لعدم إطلاعهم عليه، وربما صار أحدهم يقول لأصحابه إذا قالوا له: فلان كاشف الباشا بكذا، وصح أن هذا أمر حصل لنا من أيام الطفولية وسألنا الله تعالى في الحجاب عنه، فإنه من أحوال الناقصين المبتدئين في الطريق، والحال أنه لم يعط مقام الكشف قط بل هو باق على ظلمة قلبه؛ لأن ملكوت السماوات لا يفتح بابه لمن بقي عليه من الدنيا شهوة واحدة حلال، فكيف يصح الكشف ممن يأكل من أطعمة الظلمة والمكاسين، وطعام من يتورع في مكسبه؟! هذا أبعد من البعيد، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إنكارهم على من عمل شيخًا، وصار ينزل بلاد الريف ويأخذ العهد على الفلاحين بالوضوء والصلاة أسوة أمثالهم فقط من غير أن يرقيهم إلى معرفة آداب الطريق كما عليه المطاوعة؛ لأنه فعل خيرًا على كل حال، وقد برز شخص من الفقراء على هذا القدم فلاث الناس بعرضه، وما كان يجوز لهم ذلك، بل كان

الواجب عليهم مدحه على ذلك؛ لأنه قام بفرض كفاية عن الفقراء والفقهاء، وكذلك لا يجوز حمله على أنه إنما يفعل ذلك ليصير المريدون يتفقدونه بالهدايا من لبن وكعك وغير ذلك، فإن ذلك سوء ظن بالمسلمين وهو حرام بالإجماع فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا دخل عليهم إنسان وأحدهم يمزح مزحًا مباحًا أن يتموه ولا يقطعوه لأجل ذلك الداخل إلا بنية صالحة؛ لأن خرق ناموسهم عند من يستحي منه أولى من ارتكابهم صفة النفاق، وقد كان الفضيل بن عياض -رحمه الله- يقول: لو قيل لي: إن أمير المؤمنين داخل عليك الساعة، فسويت بيدي لدخوله لخفت أن أكتب في جريدة المنافقين.

وسمعت سيدي علي الخواص -رحمه الله- يقول: إذا دخل على أحدكم أمير وفي يده سبحة يسبح بها فلا يديمها في يده إلا بنية صالحة، وليحذر من أن يكون جالسًا يضحك وهو غافل عن الله تعالى فيدخل عليه أمير فيأخذ السبحة بيد فيسبح بها إلا بنية صالحة؛ هروبًا من الوقوع في الإثم.

وكان يقول: من إخلاص الفقير ألا يزيد في الإطراق والخشوع إذا دخل على أحد من الأكابر، ومتى زاد عن ذلك فهو مراء، فعلى المريد خالص الحذر من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا ركبوا لحاجة ألا يدعوا أحدًا من إخوانهم يمشي حولهم بحيث ينسب إليهم بالخدمة إلا لضرورة شرعية، وقد وقع أن رسول الله ﷺ ركب لحاجة فتبعه أبو هريرة فقال له: اركب أبا هريرة معي، فهم فأرمى النبي ﷺ، فقال له: اركب أبا هريرة، فهم فرماه ثانيًا، فقال: اركب، فقال: ما كنت لأصرعك يا رسول الله ثلاث مرات، فقال له رسول الله ﷺ : إما أن تتقدم، وإما أن تتأخر، انتهى.

كل ذلك شفقة منه ﷺ أن يذل أصحابه بين يديه، وقد درج السلف الصالح كلهم على كراهة حب الظهور في هذه الدار.

وقد رأيت سيدي محمد بن عنان، وسيدي علي المرصفي، وسيدي علي الخواص - رحمهم الله تعالى - إذا خرج أحدهم لحاجة بعيدة تقصد المشي في المواضع القليلة من الناس، وليس مع أحد لهم إلا من يمسك لحماره فقط.

فعلم أن من ركب وترك جماعته يمشون حوله كزفة الصبي في الختان فهو ساذج أو طالب للظهور في الغالب، فليحذر الفقير من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم محبتهم للبس ثياب مخصوصة دون غيرها إلا بعد وصولهم إلى مقام يتساوى عندهم فيه لبس المشاق ولبس المحررات، وما دام الترجيح موجودًا في نفوسهم لغير غرض شرعي فليس ما تهواه نفوسهم مذموم شرعًا، وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: من أدب الفقير ألا يتميز عن أبناء جنسه في الملبس والهيئة بطريقه الشرعي.

قال: ومن التميز في هذا الزمان ليس الفرجيات الصوف الرفيعة، وإرخاء العذبة، ونشر الرداء على ظهره دون أن يلفه على عنقه، فإن ذلك قد صار علامة المتمشيخين، اللهم إلا أن يكون الرداء كبيرًا فتقنَّع به في الحر والبرد، أو بنية كف البعض عن النظر ونحو ذلك فلا بأس، وقد كان إبراهيم التميمي، وسفيان الثوري يلبسان لبس الفتيان إذا خافا من الشهرة بالصلاح والعلم ويدخلان في غمار الناس فلا يعرفهم أحد إلا قليلاً.

وقد رأيت سيدي محمد بن عنان - رحمه الله تعالى - وهو يخرج إلى الجنائز وغيرها بثياب المهنة التي تكون عليه داخل الدار ويقول: ومن أدب الفقير ألا يغير حاله في اللبس إذا خرج من داره للناس إلا بنية صالحة، وأنا لم تحضرني نية صالحة، فقيل له: فما مثل النية الصالحة؟ فقال: أن يدعى إلى صلاة الجمعة، أو إلى لقاء الأكابر من مشايخ العرب ونحوهم، فقد كان ﷺ إذا علم بدخول الوفود عليه يأمر أصحابه بلبس أحسن ثيابهم، ويصلح طيات عمامته.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» في الباب الخامس عشر، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تحبيبهم لمن أراد أن يأخذ عن أحد من أقرانهم في الأخذ عنه حتى إن تلميذهم إذا أراد أن يتركهم ويتلمذ لغيرهم يرغبونه فيه حسب الطاقة، ولا يتكدرون منه في الباطن، وأصل ذلك صحة مشهدهم في نفوسهم أنهم دون جميع أقرانهم.

وتأمل المريد إذا رأى من يتلمذ يريد أن يتلمذ لأستاذه كيف يرغبه كل الترغيب، وذلك لأنه يرى نفسه دون شيخه، وكذلك حكم الكامل مع أقرانه يشهد نفسه معه كالمريد، وهذا خلق غريب لا يوجد اليوم إلا في قليل من الفقراء، فعلم أن كل من لم يرغب الناس في غيره وعرض لهم أنهم يأخذون عنه فهو ساذج أو مدعٍ إلا أن يكون من أصحاب القدم الراسخة في الطريق.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يرغب شخصًا قد تلمذ

له في شخص من مشايخ عصره ويقول له: يا أخي إن فلانًا أعلم مني بالطريق، ولو أنني أقدر على نشاط المريدين لتلمذت له، انتهى.

وقد رأيت مريدًا شاور شيخًا في أن يأخذ عن أحد من أقرانه فصار يقول له: أنت بحمد الله بخير، وربما تكون أحسن حالاً ممن تريد أن تأخذ عنه؛ لأنك تصلي فرضك، وتأكل من كسب يدك بخلافه هو فإنه يأكل أوساخ الناس فطال بهما المجلس، فقال: مقصودي أن آخذ عنكم.

فقال: هذا واجب، وإيش يضر الفقيه أن يكون صوفيًا؟! وصار يمدح الطريق وأهلها هذا شيء سمعته بأذني.

فاحذر يا أخي أن تقع في مثل ذلك فإنه نفاق وزور، وامش على طريق سلفك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كرهتهم لدخول الأمراء والأكابر عليهم في حال قراءة أورادهم وأحزابهم ومحافلهم كما تقدم بسطه في هذا الكتاب مرارًا، وذلك لأن دخول الأكابر عليهم في حال اجتماع إخوانهم وفقرائهم يورث عند الأكابر تعظيمًا لهم وقيام ناموس، فهم يخافون من نفوسهم أن تميل إلى دوام ذلك التعظيم فيهلك أحدهم ولا يشعر، وربما دخل عليهم أمير كبير وهم في حضرة الله تعالى يناجونه بكلامه فيصير أحدهم في حيرة إن قطع مناجاة الحق تعالى لأجلهم فقد أساء الأدب، وإن دام على المناجاة فربما استشعر تكدر ذلك الأمير الذي لا يعرف أدب الفقراء مع الله تعالى.

وقد رأيت بعض من يحب الظهور وقيل له: إن الأمير الفلاني عازم على زيارتك، فجمع له الفقراء وذكروا؛ رجاء أن يجيء وهم في ذلك المجلس، وطولوه، فلم يجئ، فلما تفرقوا جاءهم الأمير فوجد الشيخ ليس عنده أحد من الناس سوى العبد، فصارت نفسه تنازعه في أن يحكي للأمير ما كان عنده من الخلائق لا يحصون، قال له: خاطركم علينا فإنا زهقنا من الخلائق، وكان عندنا بكرة النهار خلائق لا يحصون، فقلت له في أذنه سرًا: أنت مراءٍ، حريصٌ على الدنيا، [فحينئذ استغفرت] [1] وتبت إلى الله[2].

---

(1) ما بين [ ] أشير إلى طمسه في المطبوعة، وكما في نسخة.

(2) فائدة حسنة: قال سيدي المصنف في «الكوكب الشاهق»: ألا يقيم أحدهم في موضع يعتقده الناس فيه؛ لأن ذلك سمٌّ قاتلٌ له وهو لا يشعر، وأيضًا لا يعمل الأعمال ليفوق بها على أقرانه؛ =

ومن أخلاقهم: شدة خوفهم من المواظبة على ذكر الله تعالى، وللزهد في الدنيا، وكثرة الورع، وكثرة الأوراد، وغير ذلك أن يكون ذلك استدراكًا إلى وقوعهم في العجب، فقل من يواظب على خير ويحمده الناس عليه إلا ويشق عليه ترك ذلك الخير محبة في دوام الصيت لا محبة في مجالسة الله ﷻ.

فليمتحن الفقير نفسه بما لو تغيرت أحواله وتحولت عنه تلك العبادات والخير، فإن وجد في نفسه وحشة من الناس فليعلم أن ذلك العمل كان كله رياء ونفاقًا، فيجب عليه التوبة والندم والاستغفار، وإن رأى نفسه ليس عندها خجل ولا استيحاش من الناس فليشكر الله ﷻ ولا يأمن بعد ذلك.

وقد صلى بعض السلف أربعين سنة في الصف الأول لم تفته تكبيرة الإحرام، فاتفق له أنه تخلف عن الصف الأول يومًا فوجد في نفسه استيحاشًا وحياء من الناس، فأعاد صلاة أربعين سنة وقال: أراني في هذه المدة كلها كنت مرائيًا ولا أشعر.

وكان الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى - يقول: ربما يجد بعضهم في نفسه أنسًا وتقربًا في عبادته فيظن أن بها يغفر لجميع من حضره فضلاً عنه، ولو أن الله تعالى عامله مما يستحقه على سوء أدبه فيها لأهلكه ومن حوله، انتهى[1].

= لأن ذلك دليل على العجب وعدم الإخلاص، وإنما يقيم في موضع الإنكار والاعتراض على أفعاله وأقواله حتى يتفحل ويبلغ مبالغ الرجال، وفي ذلك من الأمان ما لا يخفى على صادقٍ. ثم إذا اكتفى بعلم الله تعالى فيه، وصار لا يلتفت لذم الخلق ولا مدحهم فله أدب آخر فيه مفصل، ثم إن كثرة الاعتقاد في العبد إنما هي تابعة لصدقه وعلو همته، فإن المرائي الكسلان لا يعتقده أحد، وهو يُذل في كل محلٍ أقام فيه. وكان سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: من صدق المرء أن يكون على عبادة للثقلين، ومع ذلك لا يعتقده أحد لدفعه الناس عنه لصدقه، فإن الناس ما اعتقدوا في مريدٍ إلا لعدم صدقه، وميله إلى شكرهم له في الباطن، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:30]. فاعرض يا أخي ما ذكرناه على مريدي عصرك تعرف حالهم، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(1) قال في «الكوكب»: ومن أخلاقهم:إذا واظب أحدهم على مجلس الذكر ألا يرى له بذلك مقامًا على من لم يحضر ذلك المجلس إلا من حيث ذكر الله تعالى لا غير، بل الواجب على كل عبدٍ أن يرى الفضل لله تعالى الذي أهّله لأن يجلس بين يديه، ويجالس المجالسين لله تعالى من المشايخ والملائكة، الذين يحضرون مجالس الذكر. وهذا الخلق يقع في مخالفته غالب من لا قدم له في الطريق، ويقول في نفسه: لولا حضوري لبطل هذا المجلس، فليحذر الفقير من مثل ذلك، ولا يحضر مجلس الذكر إلا خائفًا من الله تعالى، كالمجرم إذا أتوا به إلى الوالي ليعاقبه، =

وسمعت سيدي على المرصفي - رحمه الله تعالى - يقول: لا ينبغي لفقير أن يجمع له جماعة ويعقدون مجلس ذكر في زاوية مثلاً إلا بعد إذن الأشياخ له في ذلك بشرط ألا تكون دار أولئك الذاكرين بعيدة جدًا عن مجلس الشيخ وإلا فمن الأدب للمريد إن لم يحضر مجلس شيخه ألا يعقد له مجلسًا غير مجلس شيخه، انتهى.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين يقول: إن الفقير إذا حضر مجلس شيخه الذكر ألا يستلذ في نفسه رهبة المجلس، ورائحة الخشوع، والرعدة وضم الأكتاف، وإطراق الرأس ولو في بعض الأوقات، فإن ذلك من السموم القاتلة، فليحذر الفقير من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم أخذهم أصحابهم معهم إلى وليمة دعاهم إليها من علموا بالقرائن أنه مكلف في عمل طعامها ولو من حلال فضلاً عن الحرام والشبهات إلا بطريق شرعي، وكل فقير أخذ جماعته معه إلى مثل ذلك فهو غاش لإخوانه.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي -رحمه الله تعالى - لا يدع أحد من أصحابه يخرج معه إلى وليمة لأحد من الأمراء، ويقول: إني عازم على أكل السم فارجعوا، وذهب مرة إلى وليمة فتسامع الناس وكثروا لأجل الشيخ فضاق عنهم الطعام، فأمر الشيخ صاحب الطعام ألا يغرف منه لأحد إلا أن أحضر فغرف الشيخ وكفاهم من ذلك الطعام، وقال: لو كانوا مائة ألف لكفاهم، فالفقير من فعل مثل ذلك وخفف عن صاحب الطعام كما مر تقريره مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: التورع في جميع أحوالهم، فلا يأكلون طعام من لا يتورع في مكسب من الأمراء والتجار والناشرين والفقهاء كمن يأخذ البلص، أو يبيع على الظلمة، أو لا يسد في وظائفه التي يأخذ معلومها، ومتى لم يجد أحدهم شيئًا حلالاً، فمن أدبه أن يطوي ويجوع حتى يفتح الله تعالى عليه بشيء حلالاً يأكله بعد حصوله أوائل أمارات الاضطرار كما مر تقريره مرارًا، ومتى أكل شيئًا من ذلك، أو لبسه من غير ضرورة شرعية تلجئه إلى ذلك فهو مفتر كذاب مدع نصاب ليس له في مقام الصالحين نصيب، والحمد لله رب العالمين.

فهو يخاف من العقوبة، ولا يرجوه أو يخلع عليه. فافهم واعرض هذا الخلق على من يدّعي الصدق من مريدي زمانك، ولا تنس نفسك.

ومن أخلاقهم: العمل على معرفتهم برجحاتهم في الدين أو نقصانهم كل وقت، فإن من لا يعرف زيادته ونقصه فهو جاهل، والجاهل لا يكون من الصالحين، وصورة معرفته بذلك أن ينظر إلى أحوال نفسه فإن رآها متبعة للكتاب والسنة متخلقة بأخلاق السلف الصالح من الورع والزهد، وقيام الليل وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن شهوات الدنيا المكروهة في الشرع فضلاً عن المحرمة بحيث لا يكون للشرع عليه اعتراض بوجه من الوجوه فليعلم أنه رابح وهو على خير سنة وهدى، وإن رأى نفسه راغبة في الدنيا لا ورع عندها ولا جوع، ولا سهر ولا قيام ليل، ولا خشية من الله تعالى، ولا بكاء في الصلاة ولا غير ذلك، فليعلم أنه خاسر ناقص الدين ليس له في مقام الصالحين نصيب.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: كل من ادَّعى الزهد في الدنيا وزاحم على شيء من وظائفها ومناصبها وأنظارها وسائر ما يؤول إليها، أو احتاج إلى بذل مال في تحصيل ما يطلب من مناصبها فهو محب للدنيا لا يصلح له شيء من أعمال الآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة نفرتهم ممن يدعوهم إلى شيء من شهوات الدنيا المذمومة[1]، وشدة نفرتهم ممن يطلب علم الكيمياء أو يدعي فتح المطالب؛ لأنه نصاب قليل الدين، ولذا كان من شأن الفقراء أن يزهدوا في الذهب الخالص ويردونه ولا يقبلونه، فكيف نظن بهم أنهم يتعبون أنفسهم في عمل الكيمياء التي غايتها الزغل، أو يتعبون أنفسهم في حضور الكيميائي وشراء البخورات، ويضيعوا أموالهم التي بها قوامهم في حلاوة النصابين الكذابين.؟ فكل من رأيته يا أخي يدعي علم الكيمياء أو فتح المطالب، فابعد عنه ولا تجعل بينك وبينه محبة، فإنه يتلف دينك، ويذهب مالك ولو كان له عمامة صوف، وسبحة وشعرة وعذبه فإنه شيطان في صورة إنسان، وهذا الأمر قد حدث في بعض المدعين للطريق بغير حق فإنهم لما عجزوا عن جذب المتبعين للطريق لصحبتهم زين لهم إبليس أن يدَّعوا معرفة الكيمياء؛ ليتوجه المريد

(1) قال في «تطهير الزوايا»: ومن أكد ما يؤمر به حذاق المجاورين وبها لبلهم ألا يصغوا قط إلى قول من يدعي معرفة علم الكيمياء فإنه نصّاب ومن صغى إلى ذلك خرب قلبه وصار مشغولاً بما لا نفع فيه لأحد من المسلمين؛ بل ربما يكون سببًا لخراب الزاوية وشنق جماعة من المجاورين كما وقع للشيخ اصطباي على أيام الغوري، وأيام جمال الدين البواب، والحمد لله رب العالمين..

إليهم بذلك فكثرت أتباعهم بذلك ووقعوا في النصب والتبليص وحولوا نفوسهم للنفي من بلدهم ولعمري إذا كان الواجب على المريد في بداية أمره أن يرمي ما عنده من الدنيا فكيف يأخذها الشيخ في حال نهايته؟! بل الشيخ من مقامه أن يكون أبعد الناس عن الدنيا.

وسمعت سيدي على المرصفي - رحمه الله - يقول: كل شيخ سافر في طلب الدنيا مع وجوده للرغيف وستر العورة في بلده فهو دنياوي لم يشم للطريق رائحة، لأن كل ما يشغل على الله تعالى فهو مذموم اللهم إلا أن يكشف لعبد عن رزقه في الروم مثلاً وهو متوقف على حضوره، فمثل هذا يسافر لرزقه ولا حرج عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تساوي الذهب والتراب - يعني في الميل إليه - في حال بدايتهم، ومتى رجح أحدهم الذهب على التراب في المحبة فهو خارج عن طريق المريدين، فليمتحن من يدعي أنه من المريدين الصادقين نفسه، فإن وجدها ترجح الذهب على التراب فهو من أبناء الدنيا.

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: كان السيد عيسى ﷺ لا يسمي العبد صالحًا إلا إن تساوي عنده الذهب والتراب.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين –رحمه الله - يقول: من زعم أنه مؤمن بكلام الله تعالى فليمتحن نفسه بما لو فاته ألف دينار مثلاً وفاته قول لا إله إلا الله مرة واحدة، فإن رأى نفسه تكدرت لفوات الألف دينار أكثر من فوات قول لا إله إلا الله فهو غير كامل الإيمان لقول الله ﷻ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46] إذ لو كان كامل الإيمان بقول الله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ لتكدر لفوات تسبيحه أو تحميده أو تكبيره أو تهليله أكثر، وهذا ميزان يعرف بها العبد مرتبة نفسه في الإيمان الكامل والناقص، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا مروا على تلال الذهب والفضة من غير تزاحم عليها في الدنيا ولا حساب عليها في ظنهم في الآخرة ألا يطأطئ أحدهم لأخذ شيء منها إلا بقدر الحاجة في ذلك اليوم من أكل أو شرب أو وفاء دين ونحو ذلك، وإذا دخلت البغلة محملة ذهبًا ليلاً من مطلب أو غيره، وليس معها أحد أغلقوها وأخرجوها وأغلقوا بابهم، ثم لا يرون لهم مقامًا بذلك، ومتى رجح أحدهم إخراج البغلة المحملة

ذهبًا على إخراجه ريشة من داره فهو معظم للدنيا غير زاهد فيها، فإن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدنيا لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة**»[1] أي: ناموسة، وماذا يخص العبد من جناح الناموسة إذا فرق على جميع أهل الأرض حتى يرى له مقامًا يتركه، فكأن من يزهد في الدنيا فيما لا يكاد يرى بالبصر لقلته.

وهذا الخُلق قل من يتخلق به، ولم أجد له فاعلاً من أقراني سوى الشيخ علي الحديدي أحد أصحاب سيدي محمد بن عنان مر عند الشحر على بغلة محملة من مطلب وليس معها أحد فتركها، ولم يمكن رفيقه من أخذ شيء من الذهب الذي عليها، ثم مر وتركها فرضي الله تعالى عنه ونفعنا به.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: كل فقير كتب له السلطان ألف دينار مثلاً ولم يفرح إذا جاء إنسان وسعي في منعه منها، ولم يصر يحبه لأجل ذلك فهو لم يشم من طريق الفقراء رائحة؛ لأن من شأن الفقير الصادق الذي يصح للناس أن يتبركوا به أن ينقبض خاطره إذا دخلت عليه الدنيا، ويكره كل من يستطيبها.

كما أن من شأن الفقير الكاذب أن ينشرح خاطره، ويحب كل من أتاه بها، انتهى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: من تغير على من سرق له شيئًا من الدنيا، ولو كان أردبًا من شعير فهو من أبناء الدنيا، فليمتحن من يدعي الفقر نفسه بمثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تورعهم عن الأكل من شيء من وقف الصوفية؛ لأن الصوفي هو من يكون على قدم الجنيد، وغيره من المشايخ المذكورين في «رسالة القشيري»، و«حلية الحافظ أبي نعيم»، وأي فقير يدعي وصوله إلى مقام أحد من هؤلاء.

وسمعت سيدي على الخواص –رحمه الله تعالى - يقول: الصوفي في لسان

---

(1) رواه الترمذي (560/4)، وابن ماجة (1376/2)، والحاكم في المستدرك (341/4)، والبيهقي في الشعب (325/7)، وابن أبي شيبة في المصنف (78/7)، وأحمد في الزهد (129)، وهناد في الزهد (800) بتحقيقنا، وابن أبي عاصم في الزهد (128)، وأبو نعيم في الحلية (253/3)، ولتعدد طرق الحديث حسنه السيوطي كما في فيض القدير للمناوي (55/1). عقب المصنف على الحديث بقوله في «الدرر واللمع»: فكان من الأدب عدم رؤيتها في عينيه مثلما هي في عين الحق.

السلف الصالح هو العالم العامل بما علم على وجه الإخلاص من لبس الصوف، وتجلس بجلاس الفقراء، وقبل هدايا العمال، ومشايخ العرب والكشاف، وأرسل قاصده إليهم يسأل قمحًا أو عسلاً أو أرزًا وغير ذلك، فإن هذا مخالف لطريق المشايخ الذين يزعم أنه خليفتهم أو على طريقهم.

قال: وقد جاء فقيه مرة برغيفين من خبز الخانقاه سعيد السعداء إلى سيدي عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل المالكي صاحب «المختصر» - رضي الله عنهما - وقال له: ياسيدي كُل من هذين الرغيفين فإن واقِفهما كان أميرًا صالحًا، فقال: صحيح يا ولدي، ولكن ذلك وقف على الصوفية، وأنا لست بصوفي عند نفسي، ولم يأكل منهما[1].

فرضي الله تعالى عن أهل الورع، وقد تقدم ذلك في الكتاب مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا وقف أحد ممن لا يتورع على أحدهم شيئًا فيه حق للغير ولو جزء ضعيفًا ألا يقبل ذلك، وقد سمعت سيدي على الخواص - رحمه الله - يقول:

---

(1) قال الشيخ المصنف: ومما منَّ الله تعالى به عليّ: أني لا آكل طعامًا ولا أقبل هديةً من فلاحٍ وقف تحت نظري إذا غلب على ظني أنني إذا عزلت من ذلك النظر لم يهدِ إليّ شيئًا ولم يقدم إليّ طعامًا، اللهم إلا أن أكافئه على ذلك كما يكافئ الأجانب عن طين الوقف على حدٍّ سواءٍ، فمثل هذا لا بأس بقبوله هديته والأكل من طعامه.

وسمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لمن يدعي الورع أن يأكل من ضيافة فلاح وقف تحت نظره، ولو كان الواقف جعل له ذلك، لأن الواقفين في الزمن الماضي ما جعلوا تلك الضيافة للناظر إلا لما كانوا يرون النظّار يفعلونه مع الفلاح في ذلك الزمان من إطعامه الأرز المفلفل والحلو، وإعطائه الكساوي له ولأولاده وعياله إذا جاءهم بالضيافة، فكان ذلك من باب المكارمة، وهذا أمرٌ قد عزّ في نُظّار الأوقاف في هذا الزمان، فقلَّ ناظر يفعل مع الفلاح شيئًا مما ذكرناه، بل رأيت شخصًا من أهل العلم جاءته ضيافةٌ من بلادٍ بعيدةٍ فيها أوزة عرجاء فردها على فلاحه، وقال له: خذها معك إلى بلدك وأرسل لنا غيرها، فحملها الفلاح ثانيةً إلى بلده ورد له غيرها، هكذا حكي لي الفلاح، وقال: إنها أوزة ابن أخي اليتيم. وذكر لي أنه غدّى الفلاح فولاً حارًا بخبزٍ يابسٍ من خبز الخانقاه انتهى. فالعاقل من اعتبر وتورع عن قبول ضيافة الفلاحين مطلقًا لضيق حالهم في هذا الزمان إلا أن يكافئهم بأضعاف مثل هديتهم، والله تعالى أعلم.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تقبلوا هديةً ولا تأكلوا طعامًا من فلاح وقفكم إلا إن علمتم بهذا الشرط، فإن في الحديث الصحيح: «وخَيْرُ دِينِكُمْ الوَرَعُ». «الدرر واللمع» بتحقيقنا.

من الواجب على الفقير إذا رأى في الوقف عليه أو على ذريته أو زاويته شيئًا للسلطان ولم يعلم بذلك أهل الديوان أن يرسل يعرفهم بذلك ويقول لهم: بلغني أن في وقف زاويتي شيئًا لجهة مولانا السلطان، والمسئول أنكم تفتشوا مكاتبي وأصولها، وتردوا إلى كل ذي حق حقه. ويقولوا لهم: لا تخافوا من دعاء الفقراء عليكم إذا أخرجتموها السلطان، فإن الفقراء هم السائلون في ذلك خوفًا أن يأكلوا حرامًا، وأيضًا فإن الفقراء قد نبت لحمهم من ذلك، ومن أكل حرامًا ولو في نفس الأمر يوقف دعاؤه عن الإجابة مثل ما قال بعض العارفين، وقالوا: إن الحرام كالسم فكما أن السم يمرض صاحبه ولو لم يعلم به فكذلك الحرام.

فليحذر الفقير من أن يعلم في وقفه ريبة ويسكت على ذلك، أو يبرطل أصحاب الديوان على أنهم يبقونه في يده، فإنه يفسق بذلك ويخرج عن طريق الشرع والعرف.

وقد أرسلت بحمد الله تعالى مكاتيب زاويتي أيام الباشا خصرف لما بلغني أن فيهم رزقة لا أصل لها في الديوان، فتعجب الباشا وجماعته، وقالوا: إن الإنسان يبرطل الدولة على أن يسكتوا عنه، فكيف يرسل هذا مكاتيبه من غير سؤال، ولا علم منا أن في مكاتيبه ريبه؟! واعتقدوني بسبب ذلك أشد الاعتقاد، ولم يفعل ذلك أحد من أقراني، ولما جاء التفتيش ثانيًا في أيام علي باشا أرسلت المكاتيب كذلك وقلت: اخرج ما تراه لجهة السلطان، ولو جميع الجهات، ولا تخف من دعاء الفقراء، فإن من يأكل الحرام لا يقبل له دعاء، فاعتقدوني غاية الاعتقاد، وأرسل جماعة الديوان وقال لهم: قولوا له: قد حكمك الباشا في هذه المسألة فاحكم بين الفقراء وبين السلطان، فرددت الأمر إليه فأفرج عن جميع الجهات من غير غرامة فلوس يأخذها، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم يمرضون لمرض ولاة أمورهم، ثم يخلصون من المرض إذا شفي ولاتهم من مرضهم، ووقع لي ذلك مرات مع مولانا السلطان سليمان فمرضت لمرضه، وشفيت لشفائه، وأفطرت في رمضان لأجل ذلك المرض عشرة أيام، ثم جاء الخبر أن أيام فطرى كان السلطان في أشد المرض، وكذلك وقع لي مع داود باشا، ومع على الباشا؛ وذلك لشدة ارتباط الفقراء بإمامهم.

وكان على هذا القدم سيدي إبراهيم المتبولي، وسيدي علي الخواص - رحمهما الله تعالى - ولم أجد أحدًا من أقراني من تخلق بذلك إلا قليلاً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الشفقة على خلق الله ﷻ بطريقة الشرعي حتى أنهم يحوطون كل يوم وليلة جميع الولاة الذين يظلمون الناس، ويمسكون رءوسهم بين أيديهم، ويضعون يدهم عليها، ويتلون عليها الآيات والأخيار حتى لا يظلموا أحد من رعيتهم، ويحوطون رعيتهم ليصيروا تحت حكم ولاتهم ولا يتقلقوا، فإنهم مسلطون عليهم بحسب أعمالهم. وكذلك يحوطون زروعهم حتى لا تأكلها الدودة إن شاء الله تعالى في تلك السنة، وجسورهم؛ حتى لا تقطعها العصاة قبل أوانها فتشرق البلاد، ويحوطون نهر النيل؛ حتى تتم زيادته كالعادة، وكذلك يحوطون بيوت الناس وحوانيتهم إذا غابوا عنهم في مثل يوم المحمل، أو في مولد الشيخ ونحو ذلك؛ حتى لا تسرق اللصوص من أمتعتهم وهم غافلون، وكذلك يحوطون الغافلين عن الله تعالى كل يوم في سائر أقطار الأرض؛ حتى لا ينزل عليهم بلاء حال غفلتهم عن ربهم ﷻ، وكذلك يحوطون زهر الفاكهة إذا حصل حر أو برد شديد يرمي الزهر فيضيع رأس مال كل من صاحب البستان ومن استأجره.

وكانت هذه التحويطات من وظائف سيدي إبراهيم المتبولي وتلميذه سيدي علي الخواص، ولم أر بعدهما أحد تخلق بهذا المقام غيري، فلا أنام كل ليلة ولا أصبح حتى أحوط جميع المسلمين وأموالهم وما يجلب الأموال إليهم كل ذلك عملاً بحديث الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[1] فعلم أن كل فقيه قرب من زوجته أيام نزول البلاء بأحد من المسلمين، أو دخل الحمام أو لبس ثوبًا مبخرًا أو تفرج في البساتين، أو غرس شجرًا، أو بنى دارًا ونحو ذلك فما عنده من مقام الفقراء رائحة، فإن حكم من يهتم لأمر المسلمين حكم من مات ولده العزيز الذي ليس له غيره مع وسع ماله، وكثرة دوره وبساتينه، وإقباله على الدنيا فهو لا يجد داعية تدعوه للضحك ولا للجماع، ولا غير ذلك مما ذكرناه اللهم إلا أن يكون ذلك الفقير من أهل التمكين كسيدي عبد القادر الجيلي، وسيدي أحمد بن الرفاعي وأضرابهما ممن حزنه في قلبه، فيعطي كل ذي حق حقه فلا اعتراض عليه، ولكن أين ذلك الفقير الذي على قدم هؤلاء في التمكين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يحبوا شيئًا إلا إن بلغهم أن الله تعالى يحب منهم أن يحبوا ذلك الشيء حتى أنهم لا يحبون العفو عن سيئاتهم إلا لعلمهم بأن الله تعالى يحب

(1) رواه الطبراني في«المعجم الأوسط» (270/7)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (368/2) .

العفو عن عباده، ولولا ذلك لما أحبوا العفو عنهم، بل كانوا يتلذذون بالعقوبة.

وهذا الخلق غريب في الفقراء، ولم أجد أحدًا تخلق به من أقراني إلا قليلاً كل ذلك من غلبة التفويض إلى الله تعالى والتسليم له، وعدم التدبير لنفسهم لكون نفسهم ملكًا لله تعالى ليس لهم فيها ملك، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم بداءة أحد من إخوانهم بالزيارة إذا علموا بقرائن الأحوال أنه يكافئهم ويأتي إليهم، وربما اشتاق أحدهم إلى أحد من المحبين له من أمير أو عالم أو صالح، فلا يزوره خوفًا من تكليفه، وربما أتاهم أمير زائر، فزاروه بعد ذلك ألف مرة، ولا رأوا أنهم كافئوه على زيارته لهم تلك المرة الواحدة، وما رأيت أحدًا على هذا القدم بعد سيدي على الخواص إلا قليلاً.

فعلم أن كل فقير تسبب في زيارة أحد من الأكابر له حتى زاره لغير غرض شرعي، ثم لم يكافئه على ذلك فهو لم يشم لتواضع الفقر رائحة، بل هو نصاب إلا أن يكون له عذر شرعي.

وقد كان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - إذا علم من أمير أنه عازم على زيارته يذهب هو إليه ويقول: أنا الفقير الذي عزمت على زيارتي، ويقبل رجل الأمير ويسأله الدعاء وينصرف، فقيل له: كيف تقبل رجل الأمير وأنت فقير؟! فقال: المنهي عنه إنما هو تقبيل الفقير رجل الغني؛ لينال من ماله شيئًا هو غير محتاج إليه، وأنا والله لو عرض عليّ جميع ماله ما قبِلت منه درهمًا واحدًا، وأيضًا فإن تقبيلنا رجل الأمير إنما هو أدب مع الله ﷻ الذي رفع قدره علينا في هذه الدار، وجعل أمثالنا تحت حكمه، وربما كان في الدار الآخرة أكبر منا أيضًا كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 21].

فاعمل يا أخي بهذا الخلق تنل بركته، ولا تتسبب قط في زيارة أحد من الأمراء لك، بل إن كنت محتاجًا إليه فاذهب له، وإلا فما للأمير والفقير، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة شكرهم لله تعالى إذا نزل بهم بلاء في بدنهم أو مالهم، وكثرة توبتهم واستغفارهم إذا نزل عليهم بلاء في دينهم، ولا يحتجون بالقضاء والقدر فيقولون: إن ذلك قدره الله علينا قبل أن نخلق، فإن في ذلك رائحة إقامة الحجة على الله تعالى، ولا يخفى ما فيه من سوء الأدب إذ من شأن العبد إلقاؤه سلاحه، وعدم

تدبيره بين يدي مولاه، وما كل شيء يعلم يقال بل فيه ما يقال، وفيه مالا يقال، ومن تأمل بعين البصيرة وجد الحق تعالى يتعرف لعبده متعطفًا عليه بكل شيء ورد منه إليه، فيعرفه مقدار الوصل تارة، ومقدار الهجر تارة ويستغفر تارة، وكذلك من تأمل أفعاله تعالى وجدها عين الحكمة، وربما كان هو المبادر إليها؛ أي: إلى تلك الحكمة إلا أن يكون معصية، فإنه لا يجوز المبادرة إليها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يتداوون من مرض إلا إن عجزوا عن تحمله، فإن اشتد عليهم الوجع بحيث يشغلهم ذلك عن كمال الإقبال في الحضور مع الله تعالى؛ وذلك لأخذهم بالعزائم دون الرخص والترفه، وما دام أحدهم يقدر على الحضور مع الله تعالى في عبادته من غير التفات فلا يتداوون، وسيأتي في الكتاب أنه لا ينبغي الدعاء للمريض حتى يأخذ في نقص المرض سواء كان كفارة أو عقوبة أو رفع درجة، وإن ذلك هو الأدب إلا أن يسأل له الشفاء من باب الفضل والمنة مع شهوده أن الله تعالى أرحم بعبده منه، وأنه تعالى عليم حكيم، فمثل هذا لا بأس به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم لخطاب الله تعالى إذا كان على بدنهم نجاسة، أو وقع من بعض أعضائهم معصية، ولم يتوبوا منها أو تابوا أو لم يظنوا قبولها، وذلك كله أدب مع الله تعالى، وكلما استحضر أحدهم أنه بين يدي الله تعالى تعاطى أسباب الغفلة بتحديثه أحدًا بأمور الدنيا أو نحو ذلك فلا يزال كذلك حتى يزول ذلك القذر الخفي أو المعنوي من شهود.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: من أدب العبد ألا يخاطب ربه إلا على أكمل حال طهارة الظاهر والباطن، وكذلك فرش الأكابر السجادات في مصلاهم تعظيمًا لحضرة الله تعالى ووضعوا عليها الطيب ونحوه، وغالب الناس عن ذلك بمعزل، وربما نسبوا فاعل ذلك إلى التكبر، ونسوا حديث: «**إن الله تعالى في قبلة أحدكم**»[1] فإنه أشار إلى أن العبد لنقصه وعجزه عن الإحاطة يجعل الحق تعالى متخيلاً في موضع السجادة دون غيره من الجهات، وإن كان الحق تعالى لا تحويه الجهات فافهم.

---

(1) ذكره المصنف في «العهود المحمدية» (1/286).

وقد وقع للشيخ أبي العباس السياري[1] - رحمه الله تعالى - أنه كان يذكر الله تعالى كل ليلة على سور بلد من العشاء إلى الصباح، فترك الذكر ليلة فقالوا له في ذلك، فقال: تذكرت كلمة قبيحة قلتها في صغري فلم أجرأ أن أذكر الله تعالى بلسان تكلمت به تلك الكلمة، انتهى فتذكر ذلك الخلق واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: خضوعهم لله تعالى بقلوبهم إذا تناولوا شيئًا من شهوات النفوس من أكل وشرب وجماع ولبس ثوب نظيف ونحو ذلك عملاً بحديث «**إنما الأعمال بالنيات**»[2] فلذلك كانوا لا يفعلون شيئًا من المباحات إلا بنية صالحة، فينوي أحدهم بأكل تلك الشهوة المباحة التقوى على العبادة مثلاً، أو مداوات النفس حتى تطيع صاحبها في بعض الأوقات فإنها تقول لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتك.

وهذا خلق غريب في هذا الزمان، فقل من يستحضر أنه بين يدي الله تعالى وقت أكل الحلوى والفاكهة والجماع، أو أن ذلك من جملة نعمة الله تعالى عليه، وأنه ناظر إليه حال الأكل، أو الجماع إنما الغالب على الناس الغفلة عن الله تعالى في مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مراعاتهم اليتيم بالإحسان إليه والإكرام له أكثر مما كانوا يكرمونه أيام حياة والده، وذلك ليميزوا من كان صار في كفالة الحق - جل وعلا - .

وكذلك توعد الله تعالى بالنار من يأكل مال اليتيم، وأنه إنما يأكل في بطنه نارًا؛ زجرًا للناس وتنفيرًا لهم عن أن يأكلوا أموال اليتامى ظلمًا لكونهم في كفالة الله ﷻ وليس لهم أب ولا أخ يراعونه لأجله.

فعلم أن من لم يزد اليتيم إكرامًا وإحسانًا فما قام بواجب حق الله تعالى؛ لكونه ساوى بينه تعالى وبين خلقه في المراعاة، ولم يزد في إكرام من هو في كفالة الحق تعالى.

وكذلك من أخلاقهم: أن يزيدوا في غض البصر من النظر إلى المرأة التي

---

(1) هو القاسم بن القاسم بن مهدي أبوالعباس السياري كان من أهل مرو كتب الحديث وتفقه وكان شيخ أهل مرو وأول من تكلم عندهم في حقائق الأحوال. ومن كلامه من حفظ قلبه مع الله بالصدق أجرى الله الحكمةعلى لسانه.

(2) رواه البخاري (1/3)، وأبو داود (262/2).

غاب عنها زوجها أكثر من غضهم عنها إذا كان زوجها حاضرًا؛ وذلك لأن الله تعالى خليفة المسافر على أهله كما ورد في الحديث من قوله ﷺ: **«اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل»**[1].

ونظير ذلك النظر إلى الشريفة أو ابنة ولي من الأولياء، فينبغي زيادة الغض في النظر إليها لحاجة زيادة عن الغض عن غيرها أدبًا مع سيدنا رسول الله ﷺ وأدبًا مع ذلك الولي.

ومن ساوى في الغض بين المذكورات وغيرهن فقد أساء الأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ وأوليائه، فإذا كان هذا في عدم زيادة الغض عن جارية الإنسان إذا زوجها مع أنها معه كالمحارم في النظر، فكيف بمن ينظر عمدًا أو يسارق النظر إلى زوجة جاره الغائب كالمتلصص؟ نسأل الله العافية، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: نفرتهم من كثرة اعتقاد الناس فيهم إلا لغرض شرعي، لاسيما الأمراء والأكابر، وإن وقع أن أحدًا مدحهم عند ذلك الأمير، ورفعهم فوق أقرانهم تكدروا من ذلك، ثم توجهوا إلى الله تعالى في أن يحول اعتقاد ذلك الأمير فيهم، ويرسل لهم عدوًا من أعدائهم ينقصهم عنده، ويسيء اعتقاده فيهم طلبًا لراحة نفوسهم فإن كل فقير اعتقد فيه أمير لا بدّ أن يتبعه الناس في الشفاعة عنده، وأنه لا يسع الفقير من الله تعالى إلا أن يشفع، ولا يمكن الأمير أن يجيب الفقير في كل ما يشفع فيه كما تقدم بسطه، ومن تأمل من الشافعين الآن في نفسه وجد ضرره لذلك الأمير الذي يشفع عنده أكثر من نفعه؛ لأنه يقيم عليه بشفاعته الحجة عند الله تعالى يوم القيامة في كل شفاعة ردها فيهلكه وهو يحسب أنه ينفعه.

وقد قالوا: من أدب الشفاعة أن يكون المحمل قائلاً لها، وإلا صبر الشافع حتى يزول الغضب من الأمير مثلاً ثم يشفع فيقبل إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا جلسوا للوعظ أن يأخذوا جميع معاني ما يعظون به الناس أولاً في حق نفوسهم ليتعظوا، ثم بعد ذلك يعظون غيرهم عملاً بحديث: **«الأقربون أولى بالمعروف»**[2] ولا أقرب للإنسان من نفسه، ثم بعد ذلك أهليهم وجيرانهم

---

(1) رواه مسلم في «الصحيح» (978/2)، والترمذي في «السنن» (497/5).

(2) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (183/1).

الأقرب منهم فالأقرب، لذلك كان الواعظون الصادقون يحصل لهم غاية الخجل من الله تعالى، ثم من الأولياء الذين يطلعون على ما في بطونهم من الحاضرين، فقل مجلس يكون فيه خير إلا ويحضره أحد من أولياء الله تعالى من الإنس أو الجن ليحفظوا الواعظ وأهل مجلسه من الآفات، ويسمون أولياء الرحمة، وهذا الخلق قل من يتنبه له من مسلكي هذا الزمان، وربما ينسى أحدهم نفسه حال الوعظ، ويجعل الكلام لغيره جزمًا، وما هكذا كان السلف الصالح ﭬ.

وقد كان الحسن البصري ﭬ يعظ الناس ويقول لهم: لولا حديث بلغني أنه سيأتي على الناس زمان يكون واعظ القوم فيه أرذلهم ما وعظتكم، وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: حكم من يعظ الناس، وينسى نفسه حكم من وقف على شفا جرف هار أيام زيادة النيل وجعل ظهره للبحر ووجهه للناس وصار يقول للناس: إياكم أن ينهار بكم الجرف حتى وقع به هو الجرف، فليتنبه الواعظ والخطيب عن مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن أحدهم لا يقول لمريده إذا قرب منك الشيطان فاصرخ عليه باسمي فإنه يهرب إلا إذا علم أحدهم من الله تعالى أنه لم يجعل لإبليس على جماعته سبيلاً تبعًا لشيخهم، وأما إذا كان إبليس يلعب بالشيخ نفسه كالكرة في يد اللاعب، فكيف يهرب ممن ذكر اسمه؟! ووالله ما ظهرت الأشياخ المحققون حتى هددوا بالسلب إن لم يظهروا له، وحتى لو انقلب لأحدهم النهر لبناه هناك يضرب الحق تعالى عليهم وعلى جماعتهم سرادقات الحفظ من سائر الشياطين والآفات.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: آفة مسلكي هذا العصر أن أحدهم يقول لمريده: إذا قرب منك الشيطان فاصرخ عليه باسمي، إلا أن [هذا ثابت] بحكم الإرث للإمام عمر ﭬ فإن الشيطان كان يهرب من ظله ﭬ، انتهى.

وسمعت سيدي علي المرصفي-رحمه الله - يقول: ليس السر الذي يطرد إبليس يكون من الشيخ، وإنما السر في صحة ارتباط المريد بالشيخ واعتقاده فيه أن الله تعالى يطرد عنه إبليس ببركة شيخه، وقد قال الله تعالى: **«أنا عند ظن عبدي بي»**[1] انتهى.

وهو كلام نفيس ولكن من كمال الشيخ أن يكون على قدم الاستقامة ليس عنده ميل إلى معصية فإن الشيطان لا سبيل له على من لا يميل إلى المعاصي جملة من

---

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (2694/6)، ومسلم في «الصحيح» (2061/4).

المعصومين والمحفوظين، وأما غير المحفوظ فله عليه السبيل، وإذا كان لإبليس على الشيخ سبيل قل النفع به ضرورة، وذهبت خصوصيته التي صار بها شيخًا.

وأما قول الأستاذ أبي القاسم الجنيد: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:38] لما قيل له أيزني العارف وهو في غاية التحقق؟ فإنه عنه ترك باب عدم الحفظ للولي أدبًا مع القدرة الإلهية مع أن ذلك نادر وقوعه جدًا من أهل ولاية الاصطفاء الذين منهم مشايخ القوم في كل عصر فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة زجرهم لأصحابهم من الأمراء والمباشرين وغيرهم إذا سمعوا أحدًا منهم يجعلهم من الأولياء الصالحين؛ لأن ذلك من الغرور أو الجهل، وإن كان ذلك مطلوبًا من المريدين كما تقدم بسطه أوائل الكتاب، ومن أين يعرف أحد من الأمراء أو التجار أو المباشرين الولي الصالح، وأحدهم لم يدخل دائرة الولاية قط ولا أشرف عليها.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: من أقر أحدًا من إخوانه على اعتقاد الولاية فيه جزمًا ومال إليه جره ذلك إلى المقت، وسمع مرة فقيهًا يدعو عقب قراءة الختم بقوله: اللهم ثواب ذلك في صحائف شيخنا القطب الغوث سيدي أفضل الدين فصاح به شيخه كاد أن يشق قلبه، وقال: لولا أعرف أنك جاهل ما حصل لك معي خير، فإن حكم أحدنا إذا نسب إلى الولاية حكم من يخرج في بابه الخيال في صفة قاضي أو أمير فيضحك الناس عليه، ولولا أن أولياء الله تعالى من أصحاب التوبة يجعلون هؤلاء المتمشيخين وأصحابهم كأهل بابه الخيال لأدبوهم ومقتوهم؛ لأنهم لا يحملون إقامة ميزان الأدب عليهم، انتهى.

فإياك يا أخي ثم إياك أن يبول الشيطان في أذنك وتظن أنك صرت من أولياء الله تعالى، فإن ذلك جهل وغرور، فإن الجمهور كلهم أجمعوا على أنه لا يصح لولي أن يعرف بولاية نفسه، ولو علمها كان من الأدب ألا يدعيها في نفسه إلا أن يؤمر بذلك كسيدي عبد القادر الجيلي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبتهم لكل من أحب طائفة القوم وإن لم يلحق بهم، ويحبون جماعة أقرانهم، ويودون لهم كل خير في الوجود، ويسألون الله تعالى لإخوانهم أن يرفع اسمهم ومقامهم في الدنيا والآخرة على مقامهم واسمهم، وذلك من أكبر علامات صدقهم في الطريق عكس ما عليه الكذابون الذين ظهروا في هذا الزمان، فقل ما ترى

أحدًا من أصحاب شيخ يحب جماعة الشيخ الآخر، بل ينظر أحدهم إلى أخيه شذرًا كأنه في دين غير دينه.

وقد كان سيدي علي المرصفي - رحمه الله تعالى - يقول: من علامة انتفاع المريد بشيخه أن تذهب عنه رعونات نفسه ببركة صحبته، ويصير هادي الطبقة كالملائكة ليس له لسان ولا يد، ولا يقع في نقيصة في أحد، بل يعتقد الكمال في الناس كلهم، وأما من حرج مقراضًا من صحبة شيخ في الناس من أهل الخرقة وغيرهم لا يعجبه أحد فذلك من علامة استحكام المقت فيه ولو كان شيخه حاضرًا لتبرأ منه، ومثل هذا لا ينتج على يد أحد ولو كان من أكمل الناس، انتهى.

وقد ظفرت في عمري كله بثلاثة أنفس من أهل الصدق ممن لا يعتقد في أحد من أقرانه سوء وهم: سيدنا ومولانا سليمان الخضيري[1]، والشيخ شهاب الدين السبكي، والشيخ إبراهيم الذاكر ﷺ فما سألتهم قط عن أحد من شرار الناس إلا قالوا: ونعم من فلان، ثم يذكرون صفاته الحسنة عكس ما يذكره جميع الناس عن ذلك الشخص، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يكتموا عن إخوانهم حوائجهم حتى يخفون عنهم كون أحدهم يريد أن يشتري قمحًا أو حطبًا ونحو ذلك من سائر ما يحتاجون إليه إذا علموا من أصحابهم أن أحدهم يبادر إلى شراء ذلك من مال نفسه، أو يساعدهم في ثمنه حملاً للكلفة والمشقة عن أصحابهم، وربما تكلف أحدهم واشترى ذلك بدراهم فيها شبهة أو بغير نية صالحة فيؤذى الشيخ ويؤذي نفسه، ويضيع ماله بغير طريق شرعي، وفي الأثر: إن الله تعالى لا يقبل من العبد إلا ما كان طيبًا وابتغى به وجه الله تعالى، انتهى.

والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يفتح أحدهم على نفسه باب قبول الرفق من الناس ثم يفرق

---

(1) هو سيدي سليمان الخضيري، كان على قدم عظيم في التزهد والتعبد، سمع الحديث عن الجلال السيوطي والقطب الأوجاقي، وأخذ التصوف عن المرحومي وغيره، وأذن له في التربية، وأخذ عن خلق، انتفع به الناس كثيرًا. وكان الشيخ محمد بن عنان- مع مقامه- يعظمه ويزوره وله مكاشفات كثيرة وكرامات غزيرة.مات في حدود الستين وتسعمائة، عن مائة ونحو عشرين سنة. انظر: الكواكب السائرة (149/2)، الكواكب الدرية (780).

ذلك على الناس ولا يأخذ منه شيئًا، فإن إبليس بالمرصاد لمثل ذلك، فربما استدرجه إلى محبة نشر صيته بالزهد والورع والعفة فتميل نفسه إلى ذلك فيهلك، ومحل ذلك أن يتكدر إذا بلغه عن أحد من أعدائه أنه يحمله على الرياء والنفاق ويقول: إنه لبق في العبد، وما كل أحد يعرف يصطاد الحرام والشبهات مثله، فإن تكدره من مثل ذلك يدل على ريائه إذ الصادق هو من لا يبالي بذم الناس فيه.

فليمتحن من يدعي الصدق في ذلك نفسه بهذه الميزان، فإن رأى نفسه تتكدر عن مثل ذلك فليستغفر الله تعالى وليتب من ذلك كما يتوب من الرياء بل أعظم، وقد بسطنا الكلام على ذلك أواخر الباب الخامس عشر من كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يتعاطوا سببًا يميل إليهم أبناء الدنيا إلا لغرض صحيح شرعي؛ لأن كل ما لا يبتغى به وجه الله تعالى فهو مضمحل، فليحذر الفقير من أن يكثر من مجالسة أبناء الدنيا ويقرهم على الكلام اللغو، فإن ذلك ربما جرهم إلى الغيبة في الناس، وربما يقول لمن بعد له في مثل ذلك: إنما أسامحهم في ذلك ليميلوا إلي حتى أسارقهم بالنصح والتربية، ويستدل بأنه ﷺ كان يجالس أصحابه، وكانوا إن تكلموا في أمر الدنيا تكلم معهم، وإن تكلموا في أمر الآخرة تكلم معهم، وكان لا يحذرهم إلا عن حرام، لكننا نقول له: هات لنا جماعة مثل رسول الله ﷺ ومثل أصحابه، وأين الشياطين من الملائكة؟! وأين المعصوم أو المحفوظ مما يلعب به إبليس؟ وقد قال العلماء: من شرط القياس أن يكون بين المقاس والمقاس عليه علة جامعة فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا توسط أحد لهم في شيء للفقراء من قمح أو عسل أو رزقة أو جوالي أو غير ذلك أن يشركوه معهم في ذلك بشرط الحل فيه فإن ذلك من الإنصاف، وهذا الخلق قد بخل به كثير من الطماعين المتشبهين بالفقراء فينصب لهم شخص عند الأمراء وغيرهم، ويوصل إليهم ذلك بتمامه وكماله، ثم يحرمونه منه ولا يعطونه شيئًا لأولاده، فيملأ الدنيا عليهم ويمزق أعراضهم، وقد رأيت بعض الفقراء الملاح إذا أتاه شخص بشيء من نحو ذلك يقول له: يا أخي هذا من كسبك وتعبك، وأنا لم أتعب فيه فخذه، ثم بعد ذلك إن سمحت نفسه وأعطاه شيئًا منه قبله وإلا أعرض عنه، فكن يا أخي من أهل الإنصاف، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: في حال كمالهم طلب حوائجهم من الله تعالى في الدارين من باب

الفضل والمنة، لا في مقابلة [أعمالهم، قال تعالى:] ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:96]، فالفضل للخالق الذي هدى إليه الخلق محلاً لتصريفه فيهم بما أخبر عن نفسه بأنه يحبه منهم من التوبة والطهارة مثلاً في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:222].

ومحك الصدق في التخلق بهذا الخلق ألا يحس بتقربه بالطاعات زيادة على حاله عند فقدها، بل يتساوى عنده الحالان، ومتى وجد أنسًا وتقربًا في الطاعات أو فقد ذلك بفقدها فهو لم يشم من مقام الكمال ذرة، ومن كلام ابن عطاء الله: من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل، انتهى.

فإذا بلغ العبد مقام الكمال رجح الطاعات على المعاصي بترجيح الحق - جل وعلا - لا بنفسه وإن كان الكل خلقه تعالى فافهم.

وقد قدمنا أن من أخلاق الفقراء أن يفتحوا العمل الصالح كله على اسم سيدنا رسول الله ﷺ من حيث أن الثواب له بالأصالة فلا يرون العمل وثوابه لهم أصالة، ثم يهدونه إلى رسول الله ﷺ كما يقع فيه كثير من الناس؛ لأن ذلك يطرق صاحبه المنة على رسول الله ﷺ ولا يخفى ما في ذلك من سوء الأدب، فعلى كل حال ليس للعبد أن يشهد له استحقاقًا لذلك الثواب بالعمل الواقع على يديه؛ لأنه لا يخلو أن يشهد له استحقاقًا لذلك الثواب بالعمل الواقع على يديه؛ لأنه لا يخلو أن يشهد كونه خلقًا لله تعالى ولا ثواب له وبالأصالة لسيدنا رسول الله ﷺ فلا ثواب له أو كونه عبد الله، فالعبد لا يستحق على سيده شيئًا وما بقي إلا أن يطلب ذلك الثواب من باب المنة والفضل لميزانه السابق آنفًا إظهارًا للفقراء والفاقة، ومن قال لا حاجة لي بثواب فهو كاذب مع إظهاره الغنى بذلك من فضل الله تعالى، ولا يخفى ما في ذلك من سوء الأدب، وقد قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:15] فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبة كل من زاد عليهم في الطاعات من إخوانهم أكثر من محبتهم لنفوسهم تبعًا لله ﷻ، فإنه يفضل من بينهم من كان أكثرهم طاعة له، فكل من أحب نفسه أكثر مع كونها أقل طاعة فقد خالف طريق القوم، وهذا الخلق لا يصح التخلق به إلا لمن زال عنه حب الرئاسة، وإلا فمن لازمه غالبًا التكدر ممن يزيد عليه

في الطاعات فضلاً عن محبته له لكونه يطفئ نوره بين الناس ولا يصير له كبير الطاعة يتميز بها.

فعلم مما قررناه أن من علم من نفسه يقينًا أن طاعاته لله تعالى أكثر من أخيه، فلا حرج عليه في محبته نفسه من حيث كونها أكثر عبادة لربها من التجريد في المعاني والبيان فشاباش[1] للفقراء الصادقين الذين يريدون وجه الله تعالى، ويدورون مع كل شيء يحبه الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الفرح بالفتح على مريديهم إذا فارقهم فتح عقب غضبهم عليه مثلاً، ثم فتح عليه على يد أحد من أقرانهم يفرحون بالفتح لذلك المريد على يد غيرهم أكثر من فرحهم به إذا وقع الفتح على يدهم؛ لأنه إذا وقع على يدهم لا بدّ في الغالب من شهود الفقير نسبة الفتح إليه ولو لحظة وإن ذلك إنما لحسن تربيته، ومعرفته بطريق السلوك وفي ذلك رائحة من الشرك الخفي بالله ﷻ بخلاف ما إذا وقع الفتح على يد غيرهم لا يكاد أحد منهم ينسب إلى نفسه شيئًا من ذلك.

فليمتحن من يريد معرفة كونه صادقًا نفسه بذلك، فإن رآها تنشرح بحصول الفتح على يديها فليحكم على نفسه بالرياء، فإن الصادق ليس مقصوده إلا حصول الهداية للخلق بأي وجه كان، وهذا خلق عزيز وجوده في هذا الزمان اللهم إلا أن ينشرح بحصوله بفضل الله تعالى ورحمته عليه حيث جعله أهلاً يفتح على يديه لأحد فهذا لا حرج عليه ولا يقدح في إخلاصه إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن ينشرح صدر أحدهم إذا بلغه أن الناس يقولون عنه أنه لم يرث من مقام شيخه إلا الدعاوى فقط، وأن فلانًا هو الذي ورث حال الشيخ وسره، ومتى انقبض خاطر أحدهم ممن يفضل على أقرانه الذين أخذوا عن شيخه عليه، فهو دليل على الرياء والنفاق، فإن الصادق من شأنه أن يحب نسبته إلى الرياء، ونسبة أقرانه إلى الإخلاص؛ لأنه لا يراعي ولا يراقب إلا الله تعالى دون الخلق، فكلما نسبوه إلى الرياء انشرح، وكلما نسبوه إلى الإخلاص انقبض كل ذلك خوفًا على نفسه أن تميل إلى مراعاة الناس مع الله تعالى فيشرك به.

فليمتحن الصادق نفسه بما إذا سمع الناس يقولون عنه وعن جماعته: إنهم شياطين أبالسة نصابون، وإنه ما يورث شيخهم في المقام إلا فلانًا وجماعته، فإن

---

(1) نوع من التحية للفقراء الصادقين.

انشرح لذلك فهو صادق، وإن انقبض فهو مدع كذاب.

وكان سيدي على الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: من علامة إخلاص الفقير إذا مات شيخه وبرز شخص من أقرانه بعده أن يتلمذ هو له وجماعته ويقول: الحمد لله الذي كفانا هذا الأمر، وحال بيننا وبين آفات التصدر والمشيخة بوجود أخينا فلان، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مبادرتهم للخروج من الناس في الاستسقاء فلا يخرج أحدهم حتى يفتش نفسه ويتوب ويندم على كل ذنب فعله طول عمره، ثم يخرج وهو خجل من الله تعالى مستشعر أن سبب القحط والغلاء الواقع بالناس إنما هو ذنوبه فقط كما درج عليه السلف الصالح كمالك بن دينار، والفضيل بن عياض، وسفيان الثوري وأضرابهم.

وقد تقدم أنهم طلبوا مالك بن دينار مرة ليخرج معهم للاستسقاء فأبى، وقال: أخاف أن تمطر السماء نارًا أو حجارة على الناس بسبب خروجي معهم، وأخرجوه مرة كرهًا فصاروا يستسقون فلا يسقون، فقال: أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجر.

وكان سفيان الثوري إذا أمطرت عليه سحابة وهو يملي الحديث يسكت ويقول: اصبروا حتى تمر هذه السحابة، فإني أخاف أن يكون فيها حجارة ترمينا بها.

فإياك يا أخي أن تخرج إلى الاستسقاء فيمطر الناس، فتظن أن ذلك ببركة دعائك، فإن ذلك غرور، فإن الدعاء لا يقبل إلا ممن كان الله تعالى عنه راضٍ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:28] وكل من عصى ربه تعالى استحق رد دعائه إلى أن يتوب ويقبل الله توبته، ومن أين يعلم أن الله تعالى قبل توبته؟ وقد تقدم بسط ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إجابتهم إلى الوليمة التي فيها أحد من أقرانهم، وفرحهم أكثر من انعدام دعوتهم بالحضور؛ لأن الصادقين يعدون الاجتماع بإخوانهم يوم عيد، ثم إذا دخل أحدهم ورأى أحدًا من أقرانه قد سبقه لا يجلس حتى يقبل رجله أو ركبته ويظهر الذل والمسكنة بين يديه حتى يفهم الحاضرين أنه لا يصلح تلميذًا له، ثم يجلس بين يديه لا بجنبه حتى يعزم هو عليه بذلك ويجعل الحضرة كلها له، وهذا الخلق لا يفعله إلا من تصفى من الرعونات كلها.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - إذا دُعِي إلى وليمة وقد حضر

فيها أحد من مشايخ العصر لا يدخل حتى يستأذن ذلك الشيخ، وتارة يؤثره على نفسه بالمشيخة في تلك الوليمة، ثم يستأذن صاحب الوليمة ويرجع منشرحًا سائلاً ربه ﷻ أن يستر ذلك الشيخ في ذلك المحفل، وربما يظن الناس أن بين الشيخين وقفة حين رأوه رجع وليس كذلك.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: كل فقير لا يصلح أن يخرج مع الناس في الاستسقاء تنكسر نفسه أن يتلمذ لأحد من أقرانه فهو متكبر لا المطر بسببه فليتب هذا الشيخ، ثم يخرج وليحذر من ظنه أن الناس يسقون بدعائه فإن ذلك الفقير إذا مر بمكان مر قريبًا.

وسمعته مرة يقول: من علامة المدعي بغير حق للطريق أن يرى نفسه هو الشيخ الحقيقي في البلد مثلاً، وغيره هو المدعي لها بغير حق، انتهى.

وقد رأيت شيخًا دُعِي إلى الوليمة، فقال لهم: من هناك من المشايخ، فقالوا له: فلان، فرجع وقال: مثلي لا تطلع له طالعة، فقلت له: فلأي شيء تطلب أن تطلع لك طالعة لم لا جعلت نفسك من أتباعه؟ فقال: المؤمن لا ينبغي له أن يذل نفسه، فقلت له: ليس في مثل ذلك ذل إنما هو تواضع فلم يصغ إلى قولي ورجع، فمثل هذا خارج عن الطريق من كل طريق، فالله يغفر لنا وله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إظهار الوقفة بينهم للناس؛ سترًا للخرقة فإن إظهار ذلك في غاية القبح لاسيما إذا دخل شيخ إلى الوليمة، فخرج الشيخ الذي كان دخل قبل، فإن الناس يلوثون بهما، ويقعون في غيبتهما، ويحصل لصاحب الوليمة غاية التشويش، فعلى كل من الشيخين اللوم في عدم رياضة نفسه إذ لو راض أحدهما نفسه لوسع الآخر، ثم دخل فدخوله عليه بلا تقدم مصالحة قلة سياسة، وقد كان بين حسن بن سرحان والشريف بن هاشم وقفة فأنشد حسن:

أنا ونسيبي الشريف بن هاشم ... محبين جهرًا مبغضين السريرة

فانظر يا أخي إلى أخلاق العرب كيف يظهر كل واحد منهما المحبة لأخيه بين الناس حتى لا يشمت به عدوه مع أنهم معدودون من جملة الجهلة، فأهل العلم والصلاح بهذا الخلق أولى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يحثوا أصحابهم على تنبيههم لهم كلما وقعوا في شيء من الأحوال الناقصة ليتوبوا منه كما عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء.

فعلم أن كل من قال لأصحابه: احملوني على المحامل الحسنة، فقد أغلق على نفسه باب النصح من إخوانه، وذلك خلاف ما كان عليه السلف الصالح، وقد كان الإمام عمر بن الخطاب ﷺ يذهب إلى دار حذيفة بن اليمان ﷺ يقول له: يا حذيفة انظر هل فيَّ شيء من النفاق؟ فإنك كنت تعرف المنافقين في عهد رسول الله ﷺ، فيقول له حذيفة: والله يا أمير المؤمنين لا أعلم فيك شيئًا من النفاق، فيقول: الحمد لله، ثم يرجع. وقال يومًا لأصحابه: ماذا تفعلون بي إذا اعوججت عن الطريق؟ فقالوا: كنا نضرب هامتك بالسيف إن لم تستقم. فقال: هكذا كونوا مع أصحابكم.

وتقدم عن سفيان الثوري أنه كان يقول لأصحابه: لا تقتدوا بي في جميع أحوالي فإني رجل مخلط في ديني.

وأما ما نقل عن بعض أهل الطريق من أنهم حثوا أصحابهم على الاعتقاد فيهم، وعلى حملهم على المحامل الحسنة؛ فذلك ليخلصوا أصحابهم من سوء الظن بهم فلا يحصل لهم بعد ذلك نفع على يدهم، أو ذلك في حق من كان محفوظًا من الرذائل كالشيخ عبد القادر الجيلي، وسيدي أحمد بن الرفاعي وأضرابهما، فمن وصل إلى مقام هذين الشيخين فله أن يقول مثل ذلك لأصحابه.

وقد أخبرني من أثق به أنه شهد شخصًا من المدعين أنه يقبل المرأة الأجنبية ويقول لأصحابه: إياكم أن تنكروا عليَّ فإن لي حالاً مع الله تعالى خلاف ما ترون، انتهى.

ومثل هذا من جملة حزب إبليس الداعين إلى الضلال، ويجب على كل من بلغه خبره أن ينفر الناس عنه بقدر طاقته، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم اغترار أحدهم بكثرة أتباعه، بل يحزنون إذا كثر أتباعهم؛ لإيمانهم بأنهم يسألون عن حقوقهم يوم القيامة هل وفوا بها أو لا؟ فمن شأنهم أن ينظروا للذي عليهم أولاً دون الذي لهم أولاً إلا على وجه الشكر لله تعالى في تكبيرة لأحدهم بين العباد من حيث جعله رأسًا وله أتباع.

وسمعت سيدي على الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: من علامة المغترين أن يفرح أحدهم بجماعته إذا كثروا، وينقبض خاطره إذا قلوا إلا لغرض شرعي.

وسمعته يقول أيضًا: لو أن الشيخ بالغ في نصح الفقراء الذين حوله لنفروا بأجمعهم عنه ولكنه غشهم فكثروا حوله، وقد وقع لبعض إخواننا أنه نزل الريف يطوف البلاد على اسم أنه يرشد الناس للطريق، فصار الناس يطبخون له الطعام الواسع،

ويتكلفون له في بلاد الغربية، فدعاه جماعة من بلاد الشرقية أيام الشعير، فصاروا يحمصون للشيخ الشعير والفريك في الفرن، ويطبخون له الفول الأخضر بالرب، فتفرق عنه أصحابه وكانوا نحو ثلاثمائة، فبقي معه واحد اسمه أويس فغافله وهرب الآخر هكذا حكى لي هو، فعلم أن جميع من كان حوله في بلاد الغربية إنما كان حوله لأجل بطونهم لا غير، وإن دعواهم أنهم من المحبين للشيخ كذب محض.

وقد أجمع الأشياخ على أنه ما ثم حالة للعبد أعلى من اشتغاله بالله وحده، وإن اشتغال العبد بإرشاد الخلق وإن كان فيه خير ففيه رائحة اشتغال بالكون عن الله تعالى فثم مقام كامل ومقام أكمل، ومن فهم معنى سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: 1] علم ما قلناه يقينًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة البكاء والنوح على عدم البكاء عند تلاوة القرآن الكريم لاسيما في الأسحار، فإن ترك البكاء من قساوة القلب، وذلك من أكبر علامات الشقاء، وقد قل التخلق بهذا الخلق حتى لا صرت ترى باكيًا من الفقراء إلا قليلاً، وقد بكى جماعة من الفقراء في مجمع وهناك فقير لم يبك، فقالوا له: لم لا تبكي مثل إخوانك، فقال: هؤلاء أقوام ضعفاء الحال، ونحن بحمد الله قوينا على تحمل مثل ذلك، فينبغي التسليم لمثل هذا، وهو أولى من تكذيبه بين الناس.

وقد كان في وجه الإمام عمر بن الخطاب ﷺ خطان أسودان، وكذلك عثمان، وعبد الله ابن عباس ﷺ، وكان الرسول ﷺ إذا صلى في الليل يُسمع لصدره أزيز كأزيز القدر المغلي فيه الماء، أو الرحى من شدة كتمه البكاء.

وبكي السيد داود ﷺ من خشية الله تعالى حتى نبت العشب من دموعه، وكان الإمام عمر بن عبد العزيز إذا بكي ينثر دموعه حوله حتى يظن الداخل أن ذلك من ماء الوضوء، وبكى مرة فوق السطح فجرى الماء من دموعه حتى نزل من الميزاب على وجه ضيف كان نائمًا تحت الغرفة، وقد بسطنا القول في البكائين خوفًا من الله تعالى في كتاب «هدى السلف الصالح» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إخراجهم للضعيف ما يجدونه ولو كسرة يابسة من جريش الشعير، ولا يستحيون من إخراجها ولو لأكابر الأمراء، وإذا كان الضيف ممن يعتقد الصالحين فإنه يجد في تلك الكسرة لذة عظيمة لا يعادلها لذة.

وقد أخبرني الشيخ سليمان الخضيري[1] أن جماعة من أكابر الدولة دخلوا على شيخه سيدي أحمد المرحومي زائرين، فأخرج لهم كسرًا يابسة وفتتها لهم في طعام بايت فأبت نفوسهم أن يأكلوا من ذلك، فلحقهم القولنج في الطريق فنزلوا من على دوابهم واضطجعوا من شدة الوجع، فأرسلوا قاصدهم للشيخ، فأرسل لهم الطعام البايت، وقال: كلوا منه تشفوا، فأكلوا منه فشفوا لوقتهم فتابوا واستغفروا، ومن ذلك اليوم ما قدم لهم فقير شيئًا حلالاً إلا وأكلوا منه، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة حثهم للفقراء المقيمين في زاويتهم على كثرة الذكر لله تعالى، وتلاوة القرآن العظيم، وقراءة الحديث والفقه من حيث كونهم رعيتهم، ولا يمكنوهم من القراءة على غيرهم إلا لضرورة، ويرسلوهم لمن يكون من أهل العلم بما يعمل دون المجادلين بغير عمل فإن القراءة على مثل هؤلاء يزيدهم جدالاً، وعدم احتفال بالعمل بما يعلمون إذ الولد سر أبيه.

وكان الشيخ أبو العباس الغمري يرسل جماعات للشيخ أحمد بن الأقطع البرلسي - رضي الله عنهما - يقرءون عليه؛ لكونه كان رجلاً صالحًا يأكل من عمل يده من الحياكة، وكانوا يقرؤون عليه في فقه الأربع مذاهب، وهو في النول ينسج القطن والصوف، وتارة يرسل وراءه إلى المحلة الكبرى فيقيم عنده الأشهر، والناس يقرؤون عليه، وإنما كان سيدي أبو العباس لا يقرئ جماعته لاشتغاله بمهمات الناس من المكروبين، وأيضًا فإن الشيخ إذا اشتهر سار أسير لأرباب الأحوال والحوائج والشفاعات، فلا يصير له وقت فراغ لإقراء علم، وإلا فقد قدمنا أول الكتاب أن من شرط الشيخ أن يكون عالمًا بالكتاب والسنة بحيث يكفي أصحابه في العلوم الشرعية، وأن من لم يكن عالمًا بهما فليس بشيخ ومالنا معه كلام، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حثهم لأصحابهم على كثرة تلاوة القرآن الكريم احتسابًا لله ﷻ، ولا يأخذون عليه عرضًا من الدنيا إلا لحاجة شرعية؛ خوفًا من نقص أجورهم، فإن من

---

(1) هو سيدي سليمان الخضيري، كان على قدم عظيم في التزهد والتعبد، سمع الحديث عن الجلال السيوطي والقطب الأوجاقي، وأخذ التصوف عن المرحومي وغيره، وأذن له في التربية، وأخذ عن خلق، انتفع به الناس كثيرًا. وكان الشيخ محمد بن عنان- مع مقامه- يعظمه ويزوره.

وله مكاشفات كثيرة وكرامات غزيرة. مات في حدود الستين وتسعمائة، عن مائة ونحو عشرين سنة.انظر: الكواكب السائرة (2/149)، الكواكب الدرية (780)

قواعد طريقتهم أن يقصدوا بكل عبادة التقرب إلى الله تعالى دون الأغراض الدنيوية، ومن يقرأ القرآن الكريم بالفلوس ربما نقص أجره.

وقد كثرت قراءة القرآن الكريم بعوض في هذا الزمان حتى من شيخ الحضور في الزاوية، وذلك ينافي شهامة أهل الطريق، وهو خلاف ما درج عليه مشايخ الطريق والذين أدركناهم في النصف الأول من القرن العاشر فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم اعتمادهم على معلوم من رزقة أو جوالي أو هدية من حلال أو نحو ذلك، بل هم معتمدون على الله تعالى دون الأسباب، وقالوا: إذا أقبل العبد على عبادة ربه خالصًا سخرت له الدنيا وأهلها وأخذ منها كفايته وإن شاء ردها وطوى الأيام المتوالية خوف الفتنة فإن الفقراء إنما يتركون الدنيا في بدايتهم اختيارًا لا اضطرارًا؛ وذلك لأن من تركها اضطرارًا لا يسمى زاهدًا فيها، والزهد فيها أعظم أركان الطريق إذ لا يصح لعبد الكمال في شيء من عمل الآخرة إلا بعد الزهد فيها وفي جاهها ورياستها.

فاعلم ذلك يا أخي، واسلك طريق المتوكلين الذين لا تهم عندهم لربهم في رزقهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: كثرة حيائهم وخجلهم من سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ إذا كان لهم ورد في الصلاة عليه في وقت مخصوص وحصل لهم تعويق عن فعله في ذلك الوقت من حيث أنه ﷺ ربما يصير منتظرًا لذلك العمل بتقدير التفاته إليه، وكثيرًا ما يقع لي مثل ذلك فأصلي عليه أضعاف ما كنت أصلي عليه في ذلك الوقت، ولا أرى أني وفيت بحقه ﷺ من حيث استشعاري انتظاري ﷺ لصلاتي عليه.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يكره توقيت الأذكار التي لم يعين الشارع لها وقتًا ويقول:من الأدب أن العبد يذكر الله تعالى كلما وجد عنده داعية، وإلا فربما صار يذكر بحكم العادة من غير حضور فلا يحصل له به مقصود الذكر فاعلم ذلك يا أخي واعمل، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: حسن سياستهم لزوجاتهم، وعدم الغفلة عن تعليمهن أحكام دينهن من طهارة وصلاة وصوم، وقد قالوا: يُعرف قدر نفع الفقير لإخوانه من رؤية نفعه لزوجته، وجيرانه الأقربين به بشرط نصحهم قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55] فمن لم تنفعه الذكرى فإيمانه ضعيف، وليس على المذكر إثم بعد أن ذكر من كان غافلاً، فذكِّر يا أخي زوجتك، واذكر لها عقوبة ترك الصلاة إن لم تقبل، وعقوبة جوارحها إن لم تكفها عن محارم الله تعالى.

وهذا الباب قد أغفله غالب الفقراء وطلبة العلم فتجد أحدهم يعانق زوجته ليلاً ونهارًا، وهي جنب لا تغتسل، ولا يخفى ما في ذلك من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمنع من دخول الملائكة بيته، واستحقاق العقوبات في الآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة شكرهم لله تعالى إذ جعلهم خدامًا للفقراء القاطنين عندهم، ولا يخطر ببالهم قط منة عليهم، بل يرون المنة للفقراء عليهم الذين أهلوهم لخدمتهم من طبخ، وغربلة قمح، وطحين وخبز وعجن وغير ذلك.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بهذا الخلق من نحو سبعة وثلاثين سنة إلى وقتي هذا، فلا أرى لي بحمد الله تعالى فضلاً على أحد منهم، بل أرى استعماله تعالى لي في ذلك غاية الفضل؛ لأنه عنوان على محبة الله ﷻ كما أشار إليه خبر: «**الخلق عيال الله وأحبهم إليه انفعهم لعياله**»[1] فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تخصيص أحدهم نفسه بغير طريق شرعي بشيء من الهدايا التي تأتي إلى الزاوية لا سرًا ولا جهرًا، وبذلك تدوم محبة الفقراء للإقامة عندهم، فإنهم إذا رأوهم يتخصصون عنهم نفرت نفوسهم منهم ومن الإقامة عندهم، وقل اعتقادهم فيهم ضرورة، وقد تناظر كلب السوق، وكلب الصيد، فقال له كلب السوق: أنت كلب وأنا كلب فلأي شيء يطردوني إذا رأوني، وأنت يجلسونك في مجالسهم، وعلى فرشهم، فما الفرق بيني وبينك؟ قال: الفرق ظاهر فإني أصطاد لهم، وأنت تصطاد لنفسك، انتهى. فالعاقل من اعتبر، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مساعدة الخادم والنقيب في تنقية الطحين وعجنه، وتقريصه ورصه وخبزه إذا رأوهم محتاجين إلى مثل ذلك، وكان على هذا القدم سيدي إبراهيم المتبولي، وسيدي عثمان الخطاب، وسيدي أبو الحسن الغمري، وقد رأيته وأنا مجاور عنده يقرص العجين، ويوقد تحت الفرن، ويغسل الأواني، ويكنس البيت ويقطع اللحم

---

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (42/6).

بالسكين، ويقول:

هكذا رأيت والدي - رحمه الله - يفعل وكذلك [سيدي علي الخواص] [1]، وسيدي أحمد الزاهد ﷺ أجمعين.

وفي ذلك فوائد منها: مشاركة الخادم في الأجر كما كان رسول الله ﷺ يفعل، ومنها رفع كلفة خدمتهم لهم، ومنها تنشيط قلوب الفقراء للخدمة إذا رأوا الشيخ يخدم فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبتهم لمجاورة العميان والأيتام والعرجان والأرامل، وكل عاجز عندهم؛ لأن أحدهم إن كان صادقًا في الطريق فهو يرى نفسه في المقام تحتهم لكون الحق تعالى عندهم كما قال الله تعالى: **«أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»**[2] وإن كان غير صادق في الطريق وإنما هو من النصابين كان هؤلاء العاجزون أعون له على النصب؛ لأنهم له كالشبكة للصياد يصطاد بهم الدنيا من الصدقات والهدايا، ويصير الناس يقولون: فلان له عائلة كثيرة، ولا لهم شيء يقوم بها، وما في زوايا البلد فقراء أكثر من فقراء زاوية فلان، ومن هنا كره بعض العارفين إقامة المجاورين عنده، وقال: من لبس مرقعة فقد سأل، ومن جلس في زاوية بالفقراء فقد سأل، انتهى.

ولكن ينبغي أن يقال في مثال ذلك: **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»**[3]، وتقدم أن دليل القوة في إقامة المجاورين عندهم تقريره ﷺ وسلم أهل الصفة على إقامتهم في مسجده ﷺ، وسيأتي ذلك في الباب الحادي عشر أيضًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: خزنهم قوت السنة فأكثر لأجل ضعفاء اليقين من الأرامل والعاجزين القاطنين عندهم، فإنهم لا تهدأ نفوسهم وتسكن من الاضطراب وتقبل على الاشتغال بالعبادة إلا بمثل ذلك، وكان سيدي مدين، وشيخه الشيخ أحمد الزاهد لا يخزنان شيئًا من القوت وآلات الطعام ويقولان: إن الفقير إذا صار عنده قوته يصير الحق تعالى على باله أكثر مما لو احتاج إلى شيء، وإذا خزن لكل ما يحتاج إليه عنده

---

(1) بياض في المطبوعة، وأشير إلى طمسه بالأصل.

(2) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (1/234).

(3) تقدم تخريجه .

ربما ينسى ربه ﷻ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [يونس:12] وقال تعالى:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: 7].

ولا شك أن نسيان الله تعالى من أكبر الكبائر عند القوم، ومن هنا استخار ﷺ لأهله أن يكون رزقهم قوتًا، وفي رواية كفافًا، وذلك ليدوم توجههم إلى ربهم بالفاقة والحاجة، فإن القوت الذي لا يفضل منه شيء في غداء ولا عشاء، والكفاف هو ما يكف أحدهم عن سؤال الناس، ولكل مقام رجال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة ترقيعهم الثياب والعمائم إذا لم يجدوا شيئًا يلبسونه جديدًا من وجه يرتضونه، أو ترقيعها لأجل إيثار إخوانهم عليهم بلبس الجديد، أو ليقتدي الناس بهم في القناعة من الدنيا باليسير ونحو ذلك من الأغراض الصحيحة، وكذلك من شأنهم الطي والجوع إذا لم يجدوا شيئًا يناسبهم في الأكل من حيث الحل لاسيما أواخر أعمارهم، فإن الفقير إذا دخل في معترك المنايا لا يصير كل طعام يناسبه أكله من حيث المزاج، وكذلك ينبغي للفقير إذا طعن في السن أن يزيد في الورع ليأتيه الموت على ذلك، وكل فقير لا يحصل له جوع ولا عرى فهو من أبناء الدنيا ليس له في طريق الفقراء نصيب، بل بعض الفقراء ربما كان أكثر أكلاً وشربًا وملبسًا من كثير من التجار والمباشرين.

ولما بلغ سيدي محمد الحنفي الشاذلي ﷺ[1] ما بلغ من الملابس والمآكل وأتى

---

(1) هو محمد بن حسن بن علي، الشيخ شمس الدين الحنفي الشاذلي، ولد تقريبًا سنة سبع وستين وسبعمائة، نشأ يتيمًا من أبويه، فحفظ القرآن واشتغل قليلاً، وسمع البخاري، والشفا على التنوخي وغيره، وكتب عن الزين العراقي. وأخذ عن طريق الشاذلية عن ابن الميلق عن جده الشهاب، عن ياقوت العرشي عن المرسي. وعن الشيخ حسن التستري والزاهد، وعبد الله الرطيل. ولما اجتمعوا به بالقرافة للأخذ عنه قال لهم: هلا جئتم ومعكم قضيبًا من ريحان؟ أما علمتم أن النفس لمن يجيء بشيء أميل، فإذا جئتم بعد اليوم اصحبوا معكم زيتًا للنور على الناس. وجد واجتهد حتى صار من ذوي العلوم اللدنية والأسرار الربانية، والكرامات الظاهرة والأنفاس الطاهرة، يخضع له الملوك فمن دونهم. وكان ظريفًا ، جميلاً في بدنه وملبسه، ويغلب عليه شهود الجمال. وفي الواقع .. إنه من ذريه الصدّيق. قال العيني في تاريخه: لم نجد أحدًا من الأولياء أكثر كرامات منه. وكان رفيقه في المكتب الحافظ ابن حجر، ولما بلغ أربع عشرة سنة، قعد يبيع الكتب بالكتبيين، فمر عليه رجل فقال: يا محمد، ما للدنيا خلقت.. فترك
=

الملوك إلى زيارته، حتى كان الملوك عنده كآحاد الناس، فكان تارة يأذن لهم في الدخول، وتارة لا يأذن لهم فسأل الله تعالى أن يميته على قوارع الطرق ومضاجعة الكلاب، وألا يموت حتى يصير القمل يسبح في ثيابه، ورأسه ولحيته، فأجاب الله تعالى سؤاله ومات على هذا الحال، وكان ذلك من جملة عناية الحق تعالى به حتى لا ينقص له رأس مال، والحمد لله رب العالمين.

من أخلاقهم: عدم الأكل من وقف زاويتهم إذا كان فيه شبهة كأن وقفه أحد من الأمراء الذي لا يتورعون، ثم إن كان أحدهم ناظرًا عليهم صرفه كله للمستحقين، ولا يأخذ منه شيئًا لنفسه إلا لضرورة شرعية، وكان سيدي على الخواص يقول: لا ينبغي لشيخ الزاوية أن يخص نفسه بشيء عن الفقراء القاطنين في الزاوية، بل ولا يلحس منه لحسه.

وهذا الخلق قل من يفعل به في هذا الزمان، بل يفرح أحدهم إذا وقف أحد من الظلمة على زاويته شيئًا، وقد وقع أن شخصًا أخبرني أن في وقف زاويتنا شيئًا أُخِذ من غير وجه شرعي، فسألت الله تعالى أنا والفقراء أن يعطل تلك الجهة التي فيها شبهة،

الحانوت وجميع ما فيه للناس، وذهب ولزم الزهادة والإقبال على العبادة، وحُبّب إليه الخلوة، فاختلى سبع سنين، في خلوة تحت الأرض - وهي التي دفن فيها- فسمع قائلاً يقول له: اخرج وانفع الناس وإلا سلبناك.. فقال: ما بعد السلب إلا القطيعة، فخرج، فوجد الناس يتوضؤون على الفسقية، فمنهم بعمائم بيض وصفر وزرق، وبصورة قرد وكلب وخنزير وثعلب، وغير ذلك على صورة ما في قلوبهم فقال: اطلعت على عواقب الأمور، ولا ينبغي لي ذلك، فإنه من صفاته تعالى.. فسأل الحجب عن ذلك فحجب عنه. واشتهر ذكره وعلا قدره، وعظمه الأكابر والملوك، سيما الظاهر ططر، فإنه اختص به قبل سلطنته، فلما تسلطن عظم أمره عنده، وأعطاه إقطاعا، وبنى له زاويته المعروفة، فقطنها، وعمل بها مجالس للوعظ والذكر، فكان يجلس للوعظ على غير موعد، فيجيء الناس، فتمتلئ الزاوية، وانتفع الناس بشفاعاته، وكان على وعظه رونق، ولكلامه وقع في القلوب، فهرع الناس إليه وتسلك به المريدون، واختلوا عنده، وكان يقوم بكلفة أكثرهم، وأعانه على ذلك صاحبه الشيخ أبو العباس المرسي، فكان هو القائم عنده بتربية المريدين وإرشاد السالكين، سالكًا معه مسلك الخادم، مع مزيد فضله وتفننه وصلاحه، حتى كان يرجع عليه. واستدعى الحافظ ابن حجر مرة للحضور عنده فأجاب.

انظر: طبقات الشاذلية (126)، طبقات الشعراني (88/2)، والكواكب الدرية (721)، وللشيخ الجليل نور الدين علي بن عمر البتنوني كتابًا اسمه «السر الصفي في مناقب السلطان الحنفي»، في التعريف بمناقب الشيخ ﷺ وذكر شيء من أحواله. طبع بمصر سنة 1306هـ.

فاستجاب الله تعالى دعانا وعطل من الوقف جهتين، فلم يقدر أحد من الجباة أن يأخذ منهما شيئًا إلى وقتنا هذا، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن سياستهم لإخوانهم القاصرين من أهل الزاوية حتى يصيروا يردوا ما يأتيهم من هدايا الولاة بطيبة نفس لا حياء من الشيخ أو خوفًا منه، وذلك بأن يمهد لهم قواعد السلف الصالح في الورع ويذكر لهم ما أعده الله تعالى لمن تورع في مطعمه وملبسه كما ورد من أن الله تعالى يجلهم ويستحي منهم يوم القيامة أن يوقفهم للحساب كل ذلك لكونهم كانوا يخافونه بالغيب في الدنيا، فلا يجمع عليهم خوفين، ويذكر لهم أيضًا تعظيم الملوك لمن زهد في الدنيا، وتقبيلهم أرجلهم بخلاف الراغب في الدنيا، فإن الشيخ حكيم الزمان، فيرغبهم في الورع تارة بالحظوظ الدنيوية وتارة بالحظوظ الأخروية إلى أن يقوى إيمانهم، [فمن قوي إيمانه] بالله تعالى تورع امتثالاً لأمر الله تعالى لا غير، واعلم أن هذا الخلق صار غريبًا في هذا الزمان في غالب الأشياخ مع أنه من أخلاق المريدين.

وقد رأيت شخصًا يلوم من لم يعطه من الزكاة كما أُعطِي غيره، وذلك من أقبح ما يكون؛ لأن من شرط الشيخ أن يكون أعف الناس حتى لا يقتدي أحد به في شراهة النفس، وإن قدر أن الشيخ قبل الدنيا؛ ليفرقها على جماعته لمصلحة رآها، فلا ينبغي له أن يأخذ من ذلك لنفسه ولا لولده شيئًا؛ لئلا يصير في دناءة الهمة كآحاد الناس فيخرج عن مرتبة المشايخ الذين يزعم أنه منهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم رضاهم بقراءة إخوانهم القرآن بالفلوس ليلة الجمعة في البيوت والقبور إلا بنية صالحة، فإن الفقير إذا رضع قلبه من محبة الدنيا عسر على الشيخ فطامه، ولم يكن ذلك في جماعة الأشياخ الذين أدركناهم في النصف الأول من القرن العاشر إنما حدث فيمن بعدهم حتى أنك ترى غالب الزوايا الآن تخلو ليلة الجمعة وصباحها من قارئ أو ذاكر اللهم إلا ألا يكون في الزاوية ما يقوم بأحدهم من اللقمة والخلقة كما أشرنا إليه بقولنا إلا بنية صالحة، فمثل ذلك لا يقدح في الفقر لاسيما إن ابتلى أحدهم بعيال وأولاد، وقد أشار إلى نحو ذلك حديث: **«أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى»**[1] فإنه نكر الأجر فيه فشمل الأجر الدنيوي والأخروي، وإذا أراد الله تعالى عبدًا لشيء هيأ له أسبابه، ولا سبيل إلى فطامه عنه، وقد

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (2/795)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (1/340).

سألت الله تعالى لكل مجاور يقيم عندي بنية الدنيا أن يحرمه الأكل مما يجمع عقوبة له، فإنه لا ينبغي أن يجمع الدنيا إلا من كان يتاجر فيها بالبيع والشراء، وأما الفقير الذي يظهر التجرد من الدنيا والزهد فيها وطعامه وشرابه موجود في الزاوية شتاء وصيفًا فماله ولجمعهما ولذلك قال ﷺ في فقير مات ووجدوا في داخل إزاره دينارين فقال ﷺ: «كيتان»[1] أي: من نار؛ لأنه جمعهما على نية إمساكهما شحًا على نفسه أو غيره، ولو أنه أخذهما على نية إنفاقهما في مرضاة الله تعالى من غير تلبيس لما كان عليه كيتين من نار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن سياستهم لمن شرد عنهم من أصحابهم واشتغل بالدنيا وتشرب قلبه حبها، وصار له زوجة جميلة، وثياب حسنة، وسبح في الدنيا كسباحة فقراء الفقهاء، وصار يجري ليلاً ونهارًا، فلا يقولون لمثل هذا: إنك قد ارتددت عن طريق الفقر وانسلخت من الخير، وصار على وجهك ظلمة، وإنما يقول أحدهم له: يا أخي إنك أوحشتنا كثيرًا، وكلما أتأمل في الجماعة وهم يقرؤون في الحزب ولا أراك يحصل لي وحشة فإني أحب أن يكون وردنا كل يوم في صحائف جميع أصحابنا ونحو ذلك.

فليحذر الشيخ من أن يزجر من خرج عن طاعته من المجاورين، واستغنى عن اللقمة والجبة التي كان يأخذها من وقف الزاوية، فربما فجر على الشيخ، وصار يحط عليه في المجالس، وما حذرتك إلا مما رأيته من بعض أصحابي، فإنه لما خرج عن أحكام المجاورة صار يغيب الأيام المتوالية، ويفوت قراءة العلم والورد معنا، ويقيم الحجة عليّ، ويقول: لو طلبتموني بالقلب لحضرت، وكثيرًا ما يأتيني فأصير أتكلف التبسم، وأكلمه الكلام الحلو كما أفعل بالأجانب لعلمي بأني لو كلمته كما أكلم المريد الذي هو تحت الطاعة لم يحمل، والله تعالى يصلحه أو يبعده عن الزاوية؛ لئلا يتلف بقية فقراء الزاوية فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إلقاؤهم بالهم إلى الفقراء القاطنين عندهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وينبغي لهم ألا يكلفوا الفقراء إلى ترتيب ورد زائد، فإن النفس من شأنها الميل إلى الكسل، والراحات، والغش لصاحبها، فلذلك كان الأشياخ هم الذين يرتبون لهم الأوراد التي تستغرق غالب الليل والنهار، والشيطان للفقراء بالمرصاد، فربما وسوس للشيخ وقال له: لا تحثهم على الاشتغال بالكلية ينفروا منك في هذا الزمان، بل اجعل

(1) رواه أحمد في «المسند» (1/405).

الأمر كرًا وفرًا، فأصغى الشيخ إلى كلامه فأتلف جماعته وأهلكهم من كثرة الكسل حتى صار أحدهم يستثقل المكث في مجلس الذكر عكس ما كان في الزمن الماضي، وإن جلس أحدهم فيه لا يجد للخير طعمًا.

فينبغي للشيخ شدة حث الفقراء على الخير ومعاتبتهم على كل خير فاتهم، وهيهات أن يعملوا بقوله، وقد منَّ الله تعالى عليّ بجماعة في الزاوية يقرؤون القرآن، ويذكرون الله تعالى ليلاً ونهارًا على التواصل فلا يغفل أحد إلا ويذكر آخر، ومما وقع لي أن ثلاثة من الملائكة دخلوا عليّ الخلوة ليلاً في المنام وفيهم واحد طوله نحو سبعة أذرع، وألوانهم كألوان الزعفران.

فقال الطويل للقصيرين: قد طفتم الليلة جميع الأرض مشارقها ومغربها فهل رأيتم أكثر اشتغالاً من أهل هذه الزاوية؟ فقالا: لا، ثم قال لهما: ما تقولان في حماية مجلس الذكر الذي عندهم إلى أين يبلغ من ناحية القبلة؟ فقالا: يبلغ إلى حد باب جامع الحاكم الذي من ناحية باب النصر، فقال: ومن الشرق؟ فقالا: إلى حد باب الشعرية الذي على يسار الخارج منه، ثم استيقظت حامدًا لله سبحانه شاكرًا، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا عمَّر أحدهم زاوية أن يحرز النية الصالحة في عمارتها؛ ليدوم الخير فيها بعده، فقد قالوا: إن الخير يدوم في مكان الفقير بقدر عزمه في الخير ونيته الصالحة؛ أي: غالبًا، وإلا فقد يختار الشيخ عدم الشهرة في مكانه وخلوته كحاله في حال حياته كسيدي أحمد الزاهد وسيدي يوسف العجمي، ولا أعلم الآن خارج مصر من قراها أكثر اشتغالاً عن زاوية سيدي أحمد البدوي[1] وبعده زاوية شيخنا محمد

(1) شهرته ﷺ في جميع الأرض تُغني عن تعريفه، ونذكر جملة من أحواله تبرُّكًا به فنقول: مولده بمدينة فاس بالمغرب؛ لأن أجداده الكرام انتقلوا أيام الحجّاج إليها حين أكثر القتل في الشرفاء.
فلما بلغ سبع سنين، سمع أبوه قائلاً يقول: يا عليّ انتقل من هذه البلاد إلى مكة فإن لنا في ذلك شأنًا، وكان ذلك سنة ثلاث وستمائة.
قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: وقد شاهدت أنا بعيني سنة خمس وتسعمائة أسيرًا على منارة الشيخ عبد العال، مقيَّدًا مغلولاً، وهو مختبط العقل فسألته عن ذلك، فقال: بينما أنا في بلاد الفرنج آخر الليل توجّهت إلى السيد أحمد، فإذا أنا به فأخذني وطار بي في الهواء فوضعني هنا، فمكث يومين ورأسه دائر عليه من شدَّة الخطفة. تُوفي ﷺ سنة خمس وسبعين وستمائة ﷺ وقدس روحه، وأعاد علينا من بركته آمين. وانظر: كتاب العظة والاعتبار آراء في حياة السيد البدوي الدنيوية وحياته البرزخية لسيدي أحمد محمد حجاب، بتحقيقنا، والسيد البدوي لأستاذنا
-

الشناوي ﷺ في «محلة روح»[1] وأما مصر فليس بعد جامع الأزهر فيها مكان أكثر خيرًا ولا اشتغالاً بالعلم والقرآن من جامع سيدي أبي العباس الغمري فإنه عمره بإشارة سيدنا رسول الله ﷺ على لسان شخص من أولياء الله تعالى كان يبيع لبن المعز الحليب كما أخبرني بذلك الشيخ أمين الدين الإمام به، فقد أرسل سيدي محمد الغمري خادمه إلى باب النصر، وقال: قف بعد الصبح، فإذا دخل إنسان معه معز يقول: يا لبن حليب، فقل له: إن محمد الغمري يسلم عليك ويقول لك: شاور له رسول الله ﷺ في عمارة جامع بمدق الكتان قريبًا من سوق أمير الجيوش، فقال له: عاودني غدًا فعاوده، فقال: قد أذن لك فعمّر وتوكل على الله تعالى، وإياك أن تبني فيه طوبة فيها شبهة، انتهى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: منع مريدهم من زيارة غيرهم مصلحة له إذ لا يطلب مريد زيارة غير شيخه إلا لعلة نفسانية، وأصل ذلك عدم رؤيته في شيخه الكمال أو إعجاب المريد بنفسه من جهة كثرة عبادته في شهوده فتقول له نفسه: زر فلانًا لينظر حالك ويشكرك بين جماعته، فيزدادون نشاطًا، فيخرج حينئذ للزيارة أنها بنية صالحة، فيحصل له العكس والمقت، ولو أنه غير معجب بنفسه لما اشتهت نفسه قط زيارة أحد، بل كان يستحي أن يقابل الناس، ويؤيده قوله ﷺ: «**أعدوا نسائكم يلزمن قعور بيوتهن**»[2] انتهى.

وسمعت سيدي محمد الشناوي – رحمه الله تعالى – يقول: قلت لشيخي سيدي محمد السروي[3] يومًا: مرادي أزور فلانًا، فنظر إلي شذرًا، وقال: يا محمد إذا لم أكن

الدكتور جودة المهدي حفظه الله.

(1) اسم قرية.

(2) ذكره المصنف في العهود المحمدية (27).

(3) هو سيدي العارف الكامل، الغيث الشامل، المشهور بابن أبي الحمائل، زاهد قطف قطوف الكرامات، وعارف وصل إلى أعلى المقامات. كان طودًا عظيمًا في الولاية، وملجأ وملاذًا لطلاب الهداية.

أخذ عنه خلق كثير كالشناوي، والحديدي، والعدل، وأضرابهم. وكان عالي الهمة، كثير الطيران من بلد لآخر. وكان يغلب عليه الحال ليلاً فيتكلم بألسنة غير عربية من: عجم، وهند، ونوبة، وغيرها. وربما يقول: قاق قاق، طول الليل، ويزعق ويخاطب قومًا لا يرون. وإذا قال شيئًا في غلبة الحال نفذ.

أملأ عينك فلأي شيء جعلتني شيخًا لك.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: من حكم المريد الصادق أنه كلما ازداد عبادة كلما ازدادت نفسه تواضعًا عند نفسه حتى يصير كالذي كبسوه بفاحشة وجرسوه في بلده وعلم به الخاص والعام، انتهى.

وقد سمعت أن فقيرًا كان صاحب المطاوعة وترك المطاوعة طريقهم، فصار يتعبد بين الفقراء فلا يقيمون له وزنًا، فاشتهى أن يزور أحدًا ممن يشكره ويحمده، فخرج للزيارة فرجع مركوبًا لإبليس، فنزع ثيابه وطلب أن يكون مجذوبًا بنفسه من غير وارد إلهي، فلولا حصلت فيه شفاعة لمزق إلى الممات.

-

وكان مبتلى بالأذى من زوجته، مع قدرته على هلاكها. فربما أدخل فقيرًا الخلوة، فتخرجه قبل تمام المدة، وتقول: قال لك فلان أنا ما أعمل شيخًا؟ فلا يتكلم. وقدم مصر فسكن الزاوية الحمراء، ثم زاوية إبراهيم المواهبي، وبها مات. وعزم عليه أمير، فأجلسه في مقعده، فنظر إلى السقف وقال: هذا يصلح لزاويتنا. ولم يكن عمرها، فلما عمرها أرسل من يشتري له سقفًا، فوجد ذلك السقف بعينه يباع في السوق، فاشتراه، فهو سقفها الآن. وقال: إذا غلب على الفقير الحال، وتفلت من يده، صار كالأسد إذا انفلت، يكسر كل من وجده حتى ولده وصاحبه. وقال: لقنت نحو ثلاثين ألفًا، فما عرفني منهم أحد غير الشناوي. وكان يكره للمريد قراءة أحزاب الشاذلية، ويقول: ما ثم جلاء للقلوب مثل: لا إله إلا الله. وقارئ أحزاب الشاذلية كزبال خطب بنت السلطان، وصار يقول للسلطان: أعطني بنتك، واجعلني جليسك، وهو لا يعرف شيئًا من آداب حضرته. وقال: ما رأينا مريدًا وصل مقامات الرجال بقراءة الأحزاب. ودخل مرة على جماعة إبراهيم الشاذلي، وهم يقولون: اللهم اجعل لنا كذا، وافعل كذا. فزجرهم وأقامهم، وقال: يقول أحدكم: اجعل لي، واعمل لي، وهو لا يصلح لخدمة الخلق، فكيف بالحق؟ قال الشعراوي: وسمعته يقول: كنت جالسًا عند الشيخ يحيى المناوي في خلوته بجامع عمرو، أقرأ عليه في الأصول، وإذا بشخص أسود كبير البطن جدًا، عليه خيشة، ومتحزم بحبل، وقف على رأس الشيخ، فنظر إلى الكتب التي عنده، وقال: ما أكثر هذه الكتب! هل تحفظها كلها؟ قال: لا. قال: أنا أحفظها كلها. فقال الشيخ: كيف ذلك؟ قال : أنا أعرف أن كل حرف منها يقول: كن رجلاً جيدًا. ثم اختفى، فلم نجده، فقال الشيخ: اتبعوه. فما وجده أحد. فسألت الشيخ عن كبير بطنه، فقال: يا ولدي، هذه إشارة إلى أن السيئة تضيع فيها لوسعها. فلا يؤاخذ أحدًا، بخلافنا يا ولدي، بطوننا ضيقة، أدنى شيء يظهر فيها.

وكان يقول: لا ينبغي لفقير الاجتماع بشيخ وعنده التفات لغيره. وقال: لا يكمل الفقير حتى يقتل الله بسببه وسبب أصحابه بعدد أعضائه من الظلمة الذين يؤذونهم. قال الشعراوي: لقنني الذكر وأنا طفل سنة اثنتى عشرة وتسعمائة. مات بمصر سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته بين السورين. طبقات الشعراني (126/2)، الكواكب السائرة (29/1)، الكواكب الدرية (819).

فلا تظن يا أخي أن أحدًا من الفقراء الصادقين يمنع مريده من الزيارة لغرض نفساني أبدًا حاشاهم من ذلك كما مر بسطه مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا عاتبوا مريدًا أوائل صحبته لهم فلا يعاتبوه إلا بعد تمهيدهم له بساطًا بحيث يفهم منه محبة الشيخ له، فإن العتاب للمريد المذكور على غفلة ربما لا يحتمله، فيصير يبحث عن نفسه فلا يحصل له بالعتاب فائدة، وقد قالوا: كل مريد لا يعتقد في شيخه أنه أشفق عليه من والديه ومن نفسه فبعيد عليه أن ينتفع بنصح شيخه أو بعتاب له، فيا سعادة من قبل لنصح مربيه وقلده، ويا شقاوة من أجاب عن نفسه، فإن مربيه قد خرق ببصره إلى الدار الآخرة، وعرف ما يقبل من الأعمال وما يُرد، وما يُفرح العبد يوم القيامة وما يُحزنه، والمريد محجوب عن ذلك.

فكل شيخ يود لمريده ما يفرحه يوم القيامة كما يود له الحجاب الطبيعي ليريحه من التعب، وقد قالوا: كل مريد لم ينخرق حجابه فيا طول تعب شيخه فيه، فاعلم ذلك أيها الأخ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يكون أحدهم متبحرًا في العلوم بحيث يدرس في المذاهب الأربعة حتى لا يحوج مريده إلى القراءة على غيره كما مر بسطه مرارًا، ومن لم يقدر على تدريس مريديه في المذاهب الأربعة فهو ناقص، وربما قال للمريد: تمذهب بمذهبي حتى أدرسك فيه فلا يرضى المريد أن يوافقه على ذلك، فيحتاج المريد إلى القراءة على غيره فتختلف عليه المشارب فلا يحصل له العلم من الشيخ فيعتقد المريد بنفسه أنه أعلم بمذهبه من شيخه، فتذهب حرمة شيخه من قلبه.

وقد درج السلف الصالح كلهم على الاشتغال بالعلم حتى يصير أحدهم يقطع العلماء في مجالس المناظرة، وذلك ليكفي في العلم من تلمذ له من أهل سائر المذاهب.

وهذا الخلق قد صار غريبًا في هذا الزمان، فعلم أن كل شيخ لم يكف مريده وتكدر منه إذا قرأ على غيره فهو صاحب رعونة لا يصلح أن يكون من أهل الطريق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حماية أصحابهم ممن يظلمهم؛ لأنهم ما استندوا إلى أحدهم غالبًا إلا ليحميهم ممن يؤذيهم في دار الدنيا لما رأوا الأمراء والأكابر يعتقدونهم ويترددون إليهم، فمن لم يحم مريده ممن يؤذيه فهو ناقص اللهم إلا أن يكون المريد له صبر على تحمل الظلم والأذى، فمثل هذا لا ينبغي للشيخ أن يتوجه إلى الله تعالى في

حمايته لقوته وصبره.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي -رحمه الله تعالى - يقول: لا ينبغي لفقير أن يُظهر للناس كرامة في هذا الزمان إلا بقدر حماية أصحابه بين الناس، فإن من لا كرامة له لا يحمي له صاحب، وقد وقع لسيدي إبراهيم الجعبري أن جماعة الوزير حبسوا حمول صابون جماعته لأجل المكس، فأرسل للسلطان أن يحميهم من المكس فأبى، وقال: هذا مال المعسكر، فتوجه سيدي إبراهيم إلى الله تعالى فحبس بول السلطان فاحتالوا على إدرار بوله بكل طبيب فما قدروا، وصار السلطان يتلوى كالثعبان وهو صائح، فقالوا له: اعف عن صابون أصحاب الشيخ فعفا عنه، فبلغ الشيخ ذلك، فأرسل له إبريقًا من ماء وقال استنجى منه ففعل فأطلق بوله في الحال، فمن ذلك اليوم لم يعارض أحد من جماعته في شيء.

وكذلك وقع لسيدي محمد الحنفي أنه حبس بول السلطان حتى استغاث به، فأرسل له رغيفًا مبسوسًا، فأكل منه فبرئ من وقته، فإن كان معك يا أخي حال وتصريف في رفع الظلم والناس تستند إليك، فاتخذ لك أصحابًا، وإلا فلا تصحب أحدًا خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حمل تبعة زواياهم إذا كانوا نظارًا عليه من تحكيم الظلمة والمفتشين على جباته ومباشرته، وذلك إما بالحال أو بصرفه في مصارفه الشرعية، وعدم تخصيص أحدهم بشيء لنفسه أو ولده عن الفقراء فإن الناقد بصير وإيضاح ذلك أن الحماية الإلهية لا تقع إلا لمن هو واقف في مصالح العباد من الفقراء والمنقطعين، أما من وقفة في شيء من أمور الدنيا لمصالح نفسه فقط فلا يستحق من الله تعالى.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بالحماية لوقف زاويتي بمشي فيه بنور الله تعالى أنا وناسي والحياة له، وقد رأينا غيرنا معه مربعات السلاطين، ومع ذلك فلا يقدر على حماية وقفه من الظلمة؛ لكونه يتخصص بغالبه، ويتزوج منه ويلبس، ويركب الخيول المسمومة، ويلون المطاعم.

وأخبرني بعض جباته أن ثلث مال الوقف يخرج براطيل ومغارم للكشاف، ومشايخ العرب، والفلاحين حتى يصلوا إلى تخليصه، وأنا أعلم وأتحقق أن لو تخصصت بشيء منه كغيري لم يقدرني الله على حماية شيء منه، وكثيرًا ما يزور فقراء الزوايا عنى المكاتبات للمكاسين، ويمشون لهم على أسمي حتى قال اليهودي بمجلس المكس ببولاق للشيخ عمر نائبي في النظر: نحن نستكثر شيئًا من القمح والعسل

والسمن الذي يأتي زاويتكم؛ لعلمنا بأن الشيخ لا يتخصص عن الفقراء بشيء بخلاف غيرهم، فإنهم يأخذونه على اسم الفقراء ويأكلونه، ويبيعون ما فضل عن حاجتهم، فلذلك نأخذ منهم المكس؛ لأن السلطان أولى بذلك فمن يتخصص ويحب الدنيا لا تصح حمايته منا، انتهى. فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم توقف أحدهم في وزن ما عليه من حقوق الناس، ولا يحوجون من له عليهم حق بأن يقف بهم على حاكم شرعي أو سياسي، بل لو نازعهم أحد في دار بنوها وهي جديدة لأعطوها له من غير وقوف على حاكم، فالدنيا في عين أحدهم لا تساوي جناح بعوضة، فما يخص أحدهم من جناح البعوضة إذا فرقت على جميع أهل الأرض حتى يقف لأجله على حاكم.

وقد بلغنا أن سيدي أحمد بن الرفاعي ﷺ عمّر له دارًا ورواقًا في بلدة أم عبيدة، فنازعه واحد في أرضها يوم انتقاله إليها، فأخرج الشيخ أمتعته وعياله منها في الحال، فلما رأى المدعي شدة عزمه على النقلة منها، قال: يا سيدي ليس لي فيها حق وإنما امتحنتك لأعرف ميلك إلى الدنيا أو زهدك فيها، ثم قال له: يا سيدي تخرج من دارك التي تعبت على عمارتها بمجرد دعواي من غير وقوف على حاكم، فقال له: يا ولدي الدنيا أهون عندنا من أن نقف من أجلها على حاكم، انتهى.

وقد رأيت مرة شيخًا مربوطًا مع رسول القاضي ليدعي عليه بسبب عثماني في كل شهر أخذه بغير حق، فقلت له: أف عليك بهدلت الطريق، وكان له شعرة وعذبة، فصار رسل القاضي يقولون له: في سبيل الله شعرتك وعذبتك، وأنت تحوج الناس إلى أن يشكوك من أجل عثماني كل شهر، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فقد رخصت والله الطريق وأهلها.

وقد سمع الشيخ نور الدين الحسني[1] من خلوته في مدرسة السلطان حسن

---

(1) أحد أصحاب سيدي محمد ابن أخت سيدي مدين كان رضي الله عنه من العارفين بالله عز وجل، ورأيته، وأنا صغير وأخذ عنه الشيخ تاج الدين الذاكر بعد أن مات سيدي محمد ابن أخت سيدي مدين، وكلاهما كان أخذ عنه، وسمع يوماً شخصاً يبيع خشب الشبوخ التي تسرح بها النساء، الكتان، وهو يقول: يا قفة شيوخ بنصف فضة فأخذ منها معنى، وقال: قفة شيوخ بنصف فضة، وقال: قد رخصت الطريق فلم يلقن أحداً بعدها حتى مات رضي الله عنه، وكان رضي الله عنه مرصداً لقضاء حوائج الناس عند الأمراء، والحكام، وكان بينه، وبين سيدي محمد بن عنان وُد عظيم، ومؤاخاة رضي الله عنهما. [الطبقات الكبرى للشعراني (350/1)].

شخصًا يقول: ياقفة شيوخ بعثماني، فأخذه من ذلك ما أخذ، وترك تلقين الذكر من ذلك اليوم، وكان مع الشخص خشبة الشيوخ التي يصرح بها النساء الكتان، فعلم أنه ينبغي لمن لم يقدر على شروط أهل الطريق ألا يتظاهر بلبس زيهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: معرفتهم باسم الله الأعظم، ولولا معرفتهم به ما صح لهم تصريف في أحد من ولاية أو عزل أو غير ذلك، وذلك دليل على اتصافهم بكتمان الأسرار.

ولولا علم الله تعالى بقدرتهم على الكتمان ما علمهم اسمه الأعظم الذي إذا دُعِي به أجاب وإذا سُئِل به أعطي، فما دخل النار في الدنيا من دخل من الأولياء، ولا تضره النار إلا به، ولا مشى أحد على الماء إلا به، وكذلك جميع الأفاعيل، ولكن ما كان أحد يقدر على حفظ نفسه من التعريف به في غير المحل المستحق له، ولذلك يبخل به الأشياخ على أكثر مريديهم؛ لخوفهم أن يتصرفوا به في كل من أغضبهم فيهلكوه فيمقتهم الله تعالى كما وقع لبلعام بن باعوراء وقد خدم شخص النون المصري - رحمه الله تعالى - سنين؛ ليعلمه اسم الله الأعظم فلم يفعل، فقال له يومًا: يا سيدي لي في خدمتك سنين، وأريد أن تعلمني اسم الله الأعظم.

فقال: إن شاء الله تعالى، ثم إن الشيخ دخل البيت، ووضع له فأرًا في طبق ووضع له مكبة وسد عليه بمنديل، وقال له: أوصل هذه الهدية إلى صاحبنا بمصر العتيقة، فبينما هو على الجسر الذي كان بين الجيزة والروضة إذ أحس بخفة في الطبق، فقال: إن الشيخ يسخر بي وليس في الطبق هدية، فحل المنديل ورفع المكبة فجرى الفأر ودخل في شق فرجع بالطبق، فقال له الشيخ: إذا لم تؤتمن على فأر فكيف أعلمك اسم الله الأعظم؟! وأخرجه من خدمته.

وقال له شخص يومًا: يا سيدي علمني اسم الله الأعظم، فقال: فأرني الأصغر كان الشيخ يزجره عن مثل ذلك ويعلمه أن أسماء الله تعالى كلها عظيمة، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: اسم الله الأعظم هو كل شيء عرف العبد من أين صدر، انتهى.

وأخبرني الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري بأنه رأى الباري - جل وعلا - وشخص ليلة أن يخلع عليه شيئًا من قدرته، فقال له الباري - جل وعلا - : لا تحمل القيام بحق ذلك فإني حليم على من عصاني صبور على من آذاني، وأنت لو أعطيتك

ذلك لأخربت الوجود، انتهى.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بمعرفة اسمه تعالى الأعظم، ولكن لم أتصرف به قط إلا في العفو والعافية والموت على الإسلام، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: كثرة كسوتهم لإخوانهم من غير توقف ولو كان من أنفس ثيابهم، فالحلة التي تساوي ألف نصف عندهم كالثوب الخلق على حد سواء، فلا تظن يا أخي أنه خلق عظيم عندهم كما سيأتي بسطه إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: إقبالهم على المريد بقدر إقباله عليهم، بل دون إقباله عليهم إظهارًا لعزة الطريق، فربما كان المريد يستهين بالطريق وأهلها إذا أقبل الشيخ عليه وأظهر له المحبة؛ لأنه محجوب عن ما يريد الشيخ أن يدعوه إليه، فليكن الشيخ حكيمًا يقبل عليه تارة ويدبر عنه أخرى بحسب ما يرى من المصلحة للمريد، وقد جربت أنا غالب أصحابي فرأيت بعضهم كلما قربته قل انتفاعه، وبعضهم كلما أبعدته ازداد انتفاعه، وبعضهم أسالمه مخافة شره وأظهر له المحبة والحال أنه من أبغض الخلق إليَّ في الله تعالى؛ لإعراضه عن الله، وقد قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم:29] فشمل الاعتراض بالقلب والوجه معًا، وذلك فيمن حقت عليه الشقاوة.

وأعرف جماعة ممن ينتسبون إلى صحبتي يحضرون مجالسي في الورد، والعلم نفاقًا خوفًا من أن يلوث أصحابي بهم، فيحضر أحدهم؛ ليدفع عن نفسه ظن الناس أنه غير ويدّل لا محبة في الله ورسوله ﷺ ولا محبة فيَّ، وربما يحضر أحدهم منتقدًا لي منكرًا عليَّ بالباطن فيزداد مقتًا إلى مقته،

وهذا أمر وقع فيه كثير ممن انسلخ عن المجاورة وخالط أبناء الدنيا وأحب النسبة إليَّ لغرض من الأغراض الدنيوية فقط.

وقد رأيت من يؤذي شيخه وأولاده بلسانه ويده، ثم إذا احتاج إلى حاجة عند الولاة يكتب في قصته أنه من جماعته وينتسب إليه حتى نقضي حاجته لعلمه أن الولاة إذا علموا أنه انسلخ من طاعة شيخه لا يقضون له حاجة.

وقد وقع مثل هذا لجماعة من المجاورين بالزاوية، فمنهم من مات على مقته ومنهم من هو تابع في الأثر وما كان هذا مرادي، ولكن جرت سنة الله تعالى في عباده

الداعين إليه أن تنقسم أصحابهم بحكم الإرث للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إلى شقي وسعيد بحسب القسمة الإلهية، فيجعل الله تعالى ذلك الداعي آلة لحصول المقت في جماعته، فلا يقال: لو أن الشيخ نظر إلى ذلك المريد باللطف والمحبة لكان أطاعه ولم يمقت لأنا نقول لا أحد أكمل شفقة ولا سياسة ولا رحمة من سيدنا رسول الله ﷺ ومع ذلك فقد طلب إسعاد عمه أبي طالب وجماعة من قومه فلم يجبه الحق سبحانه إلى ذلك.

فليكن المريد على حذر من مخالفة شيخه وليكن الشيخ على حذر من مقت جماعته بسببه، ومن استجلابه لقول الناس إن الشيخ مقت فلانًا فلم يفلح، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يدخلوا في صحبة أحد حتى يعرضوا على أنفسهم حقوقه، فإن رأوها تقوم بحقوقه صحبوه وإلا سالموه وأحبوه محبة الإسلام العامة.

ومن أشد الأصحاب حقوقًا وأصعبها على الفقير حقوق الظلمة وأعوانهم، والولاة وأعوانهم، والمتمشيخون بأنفسهم، أو الآباء والجدود أو المتفعلون في طريق القوم الذي هم المتصوفة لا الصوفية. فأما حقوق الظلمة وأعوانهم والولاة فلا يصح لفقير صحبتهم إلا مع مداومة النصح لهم ليلاً ونهارًا، وردهم عن أفعالهم الخارجة عن قواعد الشريعة ليلاً ونهارًا، ويحمل كل ما أخلوا به بعد النصح من عقوبة المعاصي، ومظالم العباد أو التوجه فيها إلى الله تعالى فيسأله تعالى أن يغفر ما لهم أو يحولها إلى صحيفته، وإذا أصابهم هم أو كدر بسبب تحويل نعمة عنهم من مال أو ولد أو ولاية لا يهدأ ولا ينام، ولا يأكل ولا يشرب إلا كالمضطر، ولا يجامع ولا يضحك، ولا يعصى ربه، ولا يغفل عنه ليلاً ولا نهارًا حتى ترجع عنه تلك البلية، وترجع له النعمة ومن يطيق تحمل مثل هذه الأمور.

وأما حقوق المتمشيخين بأنفسهم أو بالآباء والجدود الذين تصوفوا بالدعوى، ولم يصلوا إلى مقام الصدق في الطريق ولا يكاد من يصحبهم أن يقوم لهم عوجًا، ولا أن ينزلهم عن مقامهم الذي ادعوه، ولا أن يتلمذوا له فلا هم يعرفون الطريق بأنفسهم، ولا هم يرجعون إلى من يرشدهم، وربما تلقف أحدهم بعض كلمات من حكم القوم وحفظها وصار يطرز بها المجالس حتى يظن من لا معرفة له بالطريق من التجار والمباشرين أنه من محققي الصوفية، وهذا الأمر قد كثر وقوعه في غالب فقراء هذا الزمان، فلا تكاد تجد لأحدهم شيخًا حقيقيًا إنما يستندون إلى قولهم صحبنا الشيخ

الفلاني والشيخ العلاني، ويعينوا جماعة كانوا في عصرهم والحال أنهم لم يأخذوا عنهم، وأعرف منهم شخصًا ادعى أنه صحب شيخًا من مشايخنا فكذبه أصحاب شيخنا، فانتمى إلى شيخ آخر فكذبه أصحابه فادعى بعد ذلك أن سيدي علي المرصفي أتاه في المنام وقال له: أبرز الناس فأرشدهم وربما كان ذلك إبليس، فإن سيدي علي كان كالجبل الراسي في مصر لا يزلزله زعازع الرياح.

وقال لي مرة: أنا لا آذن لأحد من جماعتي يتصدر للمشيخة إلا بعد وقوع الإذن لي من رسول الله ﷺ، فقول هذا المدعي إن الشيخ أتاه في المنام كذب وزور لمخالفة ذلك لحال الشيخ الذي كان عليه حال حياته من الاحتياط في ذريته، ومصداق ذلك نفرة الناس عنه بعد مدة قليلة، فلم يبق حوله الآن أحد وانكشف حاله لهم لعدم من يمده من مشايخ السلسلة، فإنه دعيّ لا أب له فيها، ومعلوم أن الطريق ترفض غير أهلها بالخاصة فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم غفلتهم عن إرشاد هذه الأمة إلى طريق الرشاد، تارة بالوعظ على الكرسي وتارة بالتسليك لهم على طريق مشايخ الطريق عملاً بقوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55] ولما قربت الساعة تأكد عدم الغفلة عن إرشاد الناس لكثرة الضلال وتزلزل قواعد الدين.

وقد سمعت سيدي علي الخواص-رحمه الله - يقول: من نعم الله تعالى على عباده كونه تعالى لا يخلي الأرض من قائم له بحجة في دينه رضيه لولايته، واختاره لمعاملته يبين به دلالاته، ويوضح به طرقاته فطوبى لمن كان في هذا الزمان الذي خفي فيه نور العلماء، وقد أخذ الله تعالى الميثاق والعهد على العلماء بتبيين الحق وعدم كتمانه، ومن قدر على ذلك وتركه فهو عاص لله تعالى ولرسوله ﷺ انتهى.

فإياك يا أخي أن تنكر على أحد يعظ الناس في هذا الزمان أو تنكر عليه إكثاره من الوعظ في المساجد المتعددة، فإن ذلك منك غاية الجهل؛ لأنه قائم عن العلماء التاركين لذلك بفرض كفاية، وإياك أن تحمل الواعظ على أنه إنما قصد بذلك غير الله تعالى، فإنه حرام عليك، فإن الزمان كلما أظلم طولب العلماء بكثرة السرج العلمية؛ ليضيئوا على الناس بها ولو في حال سماعهم للوعظ فقط، وما على الواعظ من نسيانهم للوعظ إذا فارقوا مجلسه من شيء قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 69].

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي - رحمه الله تعالى - يقول: لا يجوز لمن أودعه الله علمًا وعقلاً وفهمًا وبصيرة في الدين أن يكتم ذلك عن الناس الحائرين إلا بعذر شرعي، بل الواجب عليه دعوة الخلق إلى سلوك طريق الحق، فيرشد الضال، ويهدي الجاهل، وينذر العالم، ويحذر العارف، انتهى.

قلت: قول الشيخ إلا بعذر يقع فيه بعض العلماء، والجمهور على وجوب النصح والإرشاد، وإن علم أن المحل غير قابل إما بالقرائن أو بالكشف قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29] وما ورد في الآيات من الإعراض عن الكفار إن لم يجد الداعي إلى الله تعالى أمارات القبول منسوخ والله سبحانه أعلم.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من قال: إن الوعظ بدعة فهو المبتدع فقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يذكر أصحابه ويخوفهم، ويأمر بعضهم أن يقرأ عليه القرآن، ويبكي في مجلسه، ويدعون له ويدعو لهم، ولم يزل العمل بهذه السنة في المدينة والأمصار.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: من قال إن الوعظ بدعة فمراده بذلك التسمية، فيقول: ذكرى ولا يقول وعظ؛ لأنه لم يرد: ومن أنكر الذكرى فهو جاهل؛ لأنها كانت على عهد رسول الله ﷺ، وقد ورد أنه كان لعبد الله بن رواحة مجلس على عهد رسول الله ﷺ يذكر الناس فيه إذا انصرف النبي ﷺ، ولم يزل الأمر على ذلك بين الخلفاء الراشدين إلى عصر سيدي أحمد الزاهد إلى عصرنا هذا، لكن كان سيدي أحمد الزاهد يخص النساء بوعظه دون الرجال ويقول: إنهن مخدرات في البيوت لا يجالسن الرجال في دروس العلم، ولا يخالطن الرجال من طلبة العلم بخلاف الذكور، انتهى.

وثبت أيضًا أن عمر بن الخطاب أذن لتميم الداري ﷺ أن يذكر الناس، وكان عمر يجلس إليه في مجلسه ذلك، وأذن عثمان لكعب ﷺ أن يذكر الناس، وبعث عمر بن الخطاب عبد الله ابن مسعود إلى أهل الكوفة؛ ليذكرهم ويعلمهم أحكام دينهم، وكذلك بعث أبا هريرة إلى البحرين، والأنصار في جماعة يكثر تعدادهم، لكن ينبغي لكل واعظ وكل مذكر ألا يعظ أحدًا ولا يذكره إلا بعد علمه بما وعظ الناس به وذكّرهم به، وليتأمل في قول خطيب الأنبياء ﷺ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ

أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:88].

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: ينبغي لكل داع إلى الله تعالى في طريق الظاهر والباطن من المدرسين والمسلكين ألا يصدر لذلك إلا بعد تضلعه من علوم الكتاب والسنة، ومعرفة أقوال العلماء وآدابهم، ومعرفة المعاني والإسناد، وبعد عرضه نفسه بين الجنة والنار في كل منطق وبعد علمه أنه مسئول عن كلامه ماذا أراد به؟ ويستعد بالجواب عن ذلك يوم القيامة، فلا يتكلم بكلمة إلا مع علمه بأنه بعين الله ﷻ في كل همة وطرفة وسر وعلانية ويقبح على من يعظ الناس أن يكون مرتكبًا أمرًا يخالف ما يدعو إليه، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: ينبغي للداعي إلى الله أن يكون حكيم زمانه فيدعو كل صنف من الناس من طريقهم اللائق بهم، فيدعو الملوك والأغنياء، وأهل الاغترار من طريق الخوف والانتقام، ويدعو الفقراء من طريق الصبر والرجاء، ويدعو أهل العافية والسلامة من طريق الإيثار والشكر على النعم، ويدعو أهل البلايا والمحن من طريق الصبر وحسن الظن بالله تعالى، ويدعو العلماء من طريق خوف المكر والاستدراج، ويدعو الجهال من طريق فرض العلم والقيام بالواجبات، ويدعو المريدين من طريق المجاهدة للنفس، وحفظ الجوارح من الآثام، ويدعو المتوسطين من طريق مخالفة الهوى، والهروب من الحظوظ، ويدعو العارفين من طريق الحياء من الله تعالى، ويدعو الصديقين من طريق الإجلال والتعظيم، فيذكر كل قاصد من طريقه، ومخاطبة عقله من موضع عقله عملاً بحديث: «**أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم**»[1] وهذا يقتضي أنه لا ينبغي أن يعظ الناس إلا أكابر الأولياء فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يشهدوا فضل الفقير إذا قبل منهم صدقة ويروا له اليد العليا عليهم عكس ما يشهده غيرهم فإنهم يشهدون ببادئ الرأي فضلهم على الفقير، ويقولون: الحمد لله الذي جعلنا نعطي ولا نحتاج إلى أحد، وهذا المشهد وإن كان نفيسًا فالأول أنفس منه، وكذلك من أخلاقهم استقلال ما أعطوه، وتعظيم ما أخذوه، فإذا تصدقوا بألف دينار فهي عندهم كالحصاة، وإذا أخذوا باقلة مسوسة كانت عندهم

---

(1) رواه الديلمي في «الفردوس» (398/1).

كالجبل العظيم.

وهذا الخلق غريب في فقراء هذا الزمان، بل ربما تصدق أحدهم بصدقه فتبعتها نفسه وصار يتحدث بها زمانًا، ولو أن أحدهم كان مخلصًا لم يتكلم بمثل ذلك واكتفى بعلم الله ﷻ لأن المخلص لا يعامل إلا الله ﷻ، وقد قالوا الفقراء كالملوك لا يستكثرون لهم عطاء. وذلك ورد مرفوعًا في أبي داود: **«لا تسألوا الناس شيئًا، وإن كان أحدكم ولا بدّ سائلاً فليسأل الصالحين أو ذا سلطان»**[1] أي: لأن الصالحين والملوك لا يمنون بما أعطوه؛ لشرف نفوسهم، وحقارة الدنيا في أعينهم.

فعلم أن الأجر والثواب مركب من وجود المعطي والآخذ، ولكل منهما الفضل على صاحبه، وقد بسطنا القول في ذم السؤال وعلى فضل الإسرار بالصدقة في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تشوف نفوسهم إلى مكافأتهم على هديتهم لإخوانهم إذا جاءوا من الحجاز أو الشام مثلاً وأهدوا شيئًا لإخوانهم، وإن علموا من أحد من أخوانهم المكافأة بعثوا يقولون له مع القاصد: قد حلف فلان ألا يقبل مكافأة من أحد من إخوانه في هذه السفرة، وذلك حتى يدخل على قلب أخيه الراحة، ويريحه إن كان بخيلاً من قوله: والله ما كان لي حاجة بما أهداه إليّ فلان وأنا حائر أن أكافئه بماذا؟ وهذا الأمر قل من يتنبه له كل من المهدي والمهدي إليه.

فعلم أن كل فقير تلتفت نفسه إلى مقابلة على هدية فهو مدع كذاب، وهو دنياوي خالص، ولو عامل الله تعالى لم يطلب عبادته هديته عوضًا، وقد قالوا: من شكر المسافر أهداه شيئًا إذا رجع شكر السلامة، فكيف يطلب مكافأة الناس له على ذلك ومنفعته راجعة إليه هو؟! والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم قطع برهم وحسنتهم للناس إذا علموا الخير وكفروا بواسطتهم ولم يروا لهم فضلاً عليهم، بل يزيدون في برهم وإحسانهم إليهم؛ لأنهم بكفرانهم واسطتهم قد وفروا لهم الأجر أو زادوهم قربًا من الله تعالى أن كانوا عبيد الله تعالى بخلاف من يشكرهم ويمدحهم في المجالس، فربما ذهب أجرهم بذلك المدح، فليستغنم كل من يعامل الله تعالى البر والإحسان إلى من كفر بنعمته بطريقه الشرعي، ثم إن المعين لهم على العمل بهذا الخلق كونهم لا يرون لهم من الله ملكًا في الدارين،

---

(1) رواه ابن حبان (180/8) مختصرًا.

فلا يرون لهم فضلاً على أحد إنما هم كالغلام الذي قال له سيده: اذهب بهذه الهدية إلى فلان فالفضل للمهدي لا للغلام.

وليتأمل الذي قطع بره وحسنته عن ولده أو تلميذه مثلاً نفسه في معاملة الحق تعالى له كيف الحق تعالى يطعمه ويسقيه ويكسوه ليلاً ونهارًا، وهو يعطيه وإذا خالف أي أمر لا يقطع عنه بره ولا إحسانه، بل ربما فرغ من المعصية فوجد العيال قد هيئوا له اللحم الضاني والدجاج، وذوبوا له السكر في الأواني الصيني، فالعاقل من يعامل عبيد الله تعالى كما يعامله الله تعالى من الصفح والعفو، وقد شفع الحق، فقال عن سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ في مسطح لما وقع في عائشة وخاض مع أهل الإفك بقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: 22]. فقال أبو بكر ﷺ: بلى أحب أن يغفر الله تعالى لي وأجرى على مسطح ما كان قطعه عنه من البر فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الرحمة والشفقة على من كان على التقوى من أصحابهم، ثم بدل وغيَّر وصار فاسقًا شريرًا يستعيذ الناس من شره، فإن أحوج ما يكون إليك أخوك إذا عثرت دابته، فإذا الأحوج أولى بالرحمة منك من المستقيم؛ لعدم حاجة المستقيم إلى من يأخذ بيده، وهذا الخلق من أعظم أخلاق الفقراء الصادقين، وأما الكاذبون فربما مقتوا من غير وبدل، ونفروه منهم ومن أصحابهم كل التنفير حتى صار يحط في الشيخ وفي أصحابه عند كل من سأله عن سبب مفارقته لهم ويقول: لو رأينا منهم خيرًا ما فرقناهم، فيهلك نفسه بالتزكية لنفسه، والتنقيص لشيخه وأصحابه ثم يرجع إثم ذلك على الشيخ وأصحابه لقلة سياستهم.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: طيب نفوسهم بإعطاء القط أو الكلب ورك الدجاجة، أو قطعة اللحم إذا وقف ينظر إليهم وهم يأكلون لاسيما إن كان للهرة أو الكلبة أولادًا صغار، فإنها تحتاج إلى ما يكثر لبنها لأجل كفاية أولادها وفي الحديث: **«إنما يرحم الله من عباده الرحماء»**[1].

وكذلك من أخلاقهم ألا يتبعوا الهرة أو الكلب إذا خطف الأوزة أو الدجاجة المحمرة، ويرون أن تلك الدجاجة إذا أرعبوا الهرة أو الكلبة مثلاً لا تجب كفارة

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (431/1)، ومسلم (635/2).

لإرعابها، ثم إنهم يرجعون بعد ذلك على أنفسهم باللوم ويقولون لها: لولا معرفة الهرة بخلك وعدم افتقادها كلما وقفت بين يديك وأنت تأكلين ما خطفت شيئًا فاللوم عليك لا على الهرة.

فعليك يا أخي الإحسان إلى الحيوان حتى النمل بالطريق الشرعي، فإنه ما أقام عندك إلا يرجو إحسانك وعطفك إليه، فارمِ للهرة أو الكلب شيئًا منه، وخل لها على العظام بعض لحم، وحقق ظنها فيك الخير، ثم إن أولى الناس بالعمل بهذا الخلق الفقراء وحملة القرآن؛ لأنهم قدوة للناس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حضورهم بقلوبهم مع الله تعالى حال أكلهم وشربهم، وشهودهم أن ذلك من جملة فضل الله تعالى عليهم، وأنهم لا يستحقون شيئًا من ذلك ذرة، بل لا يقومون بواجب حقه تعالى لو سفوا الرماد، ثم إن وقع من أحد منهم أكل أو شرب غافلاً استغفر الله تعالى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ما أسبغ الله تعالى علينا النعم بالأصالة إلا ليجمع قلوبنا عليه، ونراه هو المحسن الحقيقي، فلا نعول على أحد من خلقه، فمن لم يحضر مع الله تعالى بقلبه فقد أخطأ الطريق، وربما حوّل الله تعالى عنه النعمة، وأنزل به ما يسوؤه ليرجع إليه، قال الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168].

وسمعت سيدي علي الخواص –رحمه الله - يقول: الطعام كالصلاة في حضور القلب مع الله تعالى، وكفى بالمرء كفرانًا ألا يحضر بقلبه بين يدي من أحسن إليه.

وسمعته أيضًا يقول: ما واظب أحد على الحضور في أكله وشربه إلا أثمر له ذلك القناعة والرضا من الله في الدنيا، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تكدرهم ممن ذهبوا إلى زيارته فلم يأذن لهم في الدخول عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾[النور: 28] فشيء جعله الحق تعالى أزكى لهم كيف يليق بمؤمن أن يتكدر منه؟! وهذا الخلق لا يكون إلا لمن كملت رياضة نفسه حتى لم يصر يرى أحدًا دونه في قلة الدين، وأما من لم يرض نفسه فمن لازمه غالبًا التكدير، ولا يكاد يتذكر قول الله تعالى أن ذلك أزكى له

أبدًا، وربما رجع يهجو صاحب الدار ويقول: أنا الظالم الذي أمشي إلى مثل فلان، وكل ذلك جهل كما وضّحناه في كتاب «المنن الوسطى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم دق الباب على أخيهم إلا لضرورة شرعية عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: 5] وهو إن ورد في رفع الصوت من وراء الحجرات فدق الباب مثله، بل وربما كان المقصود بالزيارة في حضور قلب مع الله تعالى في حضرة خشعت فيها الأصوات فيكون دق الباب على ذلك الفقير أشد من ضربه بالسيف كما جربنا ذلك، وكثيرًا ما يضيق وقت الفقير عليه فلا يصير يقدر على لقاء أحد من الخلق إلا بتكليف زائد، فإن أقبل على الخلق وأعطاهم حظهم من الإقبال ضر نفسه، وفرق جمعيته، وإن لم يقبل عليهم فربما مزقوا عرضه، فمزق الله تعالى أديانهم، بل نفس تمزيق عرض أخيهم تمزيق لأديانهم، فينبغي للإنسان أن يحمل من لم يجبه من داخل الدار على أحسن المحامل، فربما كان له ضرورة لا يقدر على إفشائها، ثم من علامته أن له ضرورة عدم خروجه إلى صلاة الجماعة أو الورد مثلاً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: صحة توجههم إلى الله تعالى في دفع الدنيا عنهم كلما أقبلت المعتقد عليهم أن الأمراء والأكابر وخدموهم وأهدوا لهم الهدايا والتحف، وذلك خوفًا أن يكون ذلك حظهم من الأعمال الصالحة، وقد دخل بعض الصحابة على سيدي رسول الله ﷺ فرأوه يدفع شيئًا عن نفسه ولا يرى أحدًا، فقال: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «**الدنيا تطاولت لي فقلت لها: إليك عني**»[1] رواه البيهقي، انتهى.

وهذا خلق غريب في هذا الزمان، وربما ادعاه أحد بغير حق، فليمتحن الناصح لنفسه نفسه بما لو أوصى له شخص بألف دينار مثلاً، فجاء شخص من أعدائه وقال للموصي: هذا شخص فاسق لا يستحق شيئًا من ذلك ومحا اسمه، وأعطي الألف لأحد من أقرانه، فإن انشرح صدره لذلك فهو صادق في الزهد في الدنيا، وإن تكدرت منه شعرة فهو كاذب.

وسمعت سيدي علي الخواص ﷺ يقول: كل من لم يزدد محبة فيمن صد عنه الدنيا وأهلها فهو نصاب شيطان، انتهى.

---

(1) رواه البزار 3.1 في «المسند» (196/1)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (164/6).

وقد وقع لأخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - أن شخصًا أوصى له بثمانية دنانير، وكتب اسمه في الوصية، فقال لي: إن رددتها أورثني ذلك التعظيم في الدنيا، وإن قبلتها صار على حسابها، ولكن قل معي: يا الله اجعل صاحبها يحولها عني من ذات نفسه ويعطيها لغيري، فبعد ساعة جاء شخص وقال له: إن صاحب الوصية حولها إلى غيرك، فقال أخي: الحمد لله على ذلك لو كان أخي المذكور منفعلاً في الزهد ما قدر على توجه قلبه إلى محبة تحويل الدنيا عنه أبدًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تنبيه الحق تعالى ما يأكلونه من الحرام بعلامات يعرفهم إياها فيأخذوا في القيء إن أمكنهم وإلا أخذوا في التوبة والاستغفار، ومن العلامات: أن يكون للشرع على ذلك الطعام اعتراض من حيث وضع اليد عليه، ومنها وجود الظلمة في قلوبهم، والثقل في طبيعتهم حتى كأن أحدهم أكل رصاصًا، ومنها أن يقوم أحدهم من النوم فيمكث ساعة حتى يستيقظ كما يقع لمن يأكل الربا، ومنها أن تتعب نفوسهم من أكله فيتقيئوه قهرًا عليهم من غير معالجة، ويقع لي ذلك كثيرًا لمن أكل من طعام المباشرين، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الخوف من أكل الحرام والشبهات خلاف ما عليه طائفة من مشايخ هذا الزمان، فقد رأيت شخصًا منهم يفطر عند مكاس في رمضان، وهذا لا يليق بمن جعله الله تعالى قدوة للناس في هذا الزمان، ولما حدثته في ذلك فكان من جوابه: البحر لا يكدره الدلاء، ولا ينجسه بول حمار، فعلمت أنه بحاله هذا مفتون، ولو أنه كان شم رائحة طريق أهل الله تعالى لم ينطق بمثل ذلك.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله تعالى - يقول: للقمة الحرام أو الشربة أثر عظيم في قلوب الآكلين بحسب مراتبهم، فأثرها في قلوب العوام: وقوعهم في أعمال مذمومة لم يكن لهم عادة بفعلها وأثرها في طلبة العلم والمريدين: قسوة في القلب، وثقل في الطبيعة، وأثرها في المتوسطين: غفلتهم عما يعود عليهم نفعه من مصالح المدارين، وأثرها في الكمالين: كثرة الخواطر التي لا منفعة فيها لهم، وأثرها في المكملين: منعهم من دخول حضرة الله تعالى بقلوبهم بصلاة أو غيرها، وأثرها في القطب والإمامين والأوتاد والأبدال: أمور يذوقونها، ويستغفرون الله تعالى عنها، فإياك يا أخي وترك التورع ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يقولوا بتوجه تام كلما قدم لهم طعام يخافون أن يكون فيه شبهة: اللهم ارحمنا من الأكل من هذا الطعام، فإن لم تحمنا فلا تجعله يقيم في بطوننا،

وإن جعلته يقيم في بطوننا فاحمنا من الوقوع في المعاصي التي تنشأ من أكل الحرام عادة، فإن لم تحمنا من المعاصي، فاقبل استغفارنا وتب علينا من ذلك وارض عنا أصحاب التبعات التي في هذا الطعام في نفس الأمر، فإن لم ترضهم عنا فاعف عنا، فإن لم تعف عنا فصبرنا على العذاب يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إطعامهم الضيف شيئًا فيه الشبهة، فإن الله تعالى لم يكلف أحدًا أن يضيف إلا من الحلال، ولو قدر أن الضيف طلب الضيافة من الشبهات لا يجيبونه إلى ذلك كما لا يجيب الولي الطفل إلى كل ما دعت إليه نفسه مما يضر بدنه أو دينه.

فعلم أنه لا ينبغي العتب على الفقير في هذا الزمان من جهة عدم إطعامه الطعام للواردين عليه، فربما كان لا يرضى ذلك الطعام للواردين عليه، ثم إن هذا الخلق لا يقدر على العمل به إلا من خرج عن الحياء الطبيعي، وإلا فمن لازمه غالبًا إطعام الناس الحرام والشبهات كهدايا مشايخ العرب والكشاف لذلك الفقير لاعتقادهم فيه الصلاح ونحو ذلك.

وقد كان سيدي علي الخواص كثيرًا ما يقدم للضيف الإبريق ويقول له: إن شئت فاشرب، فإني لم أجد لك الآن شيئًا حلالاً أطعمك منه، وربما أعطي الضيف لقمة يابسة أو تمرة، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم التفاخر بكثرة إطعامهم الطعام حبًا في نشر الصيت بذلك كما يقع فيه من يتمشيخ بغير شيخ، فإن كثرة طعام الفقير تدل على قلة ورعه، وقد رسمت مرة للنقيب حين جاءنا قصع كبار وقال لي: مقصودنا علامة عليها لتعرف إذا سرقت، فقلت له: اكتب عليها بالنار «كبر القصع من قلة الورع»[1] فكتبها فلم تزل تلك

---

(1) قال الشيخ في «الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع»: فانظر يا أخي كم بين المتورعين الآن، وبين المتورعين في الزمن الماضي من التفاوت! واستغفر ربك من كثرة ذنوبك وتلبيسك وتهورك في مطعمك ومشربك وملبسك وغير ذلك، واقتدِ بمن مضى من سلفك، وإياك أن تقنع بمثل ما قنع به أهل زمانك في الورع تهلك، فقد كان السلف يسافرون مسيرة الشهر والشهرين يتعلمون الورع، وسافر شخص مسيرة ثلاثة أشهر إلى الحسن البصري ليتعلم منه الورع، فلما وصل إلى الحسن قال: ما جاء بك إلى بلادنا؟ فقال: جئت لأتعلم منكم الورع! فقال: قد كان عندنا بعض ورعٍ فزال، فقال له: وما ذاك ؟ فقال: أكلت مرة من طعام عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، فما بقيَ يصلح أن يؤخذ عني ورعٌ، اطلب أحدًا غيري يعلمك الورع، فدلوه على

الكتابة عليها حتى تكسرت، فكنت أتذكر فيها قلة ورعي كلما رأيتها ملآنة من الطعام، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تقليل الطعام جدًا في رمضان للضيف؛ إرشادًا له إلى الخير، ولو تكدر هو من ذلك وذمنا في المجالس لا نلتفت إليه؛ وذلك لأن سر الصوم ونوره في الجوع، وكل من قدم لضيفه في رمضان قدر ما يقدم له أيام الفطر فقد أساء في حقه وهو يحسب أنه يحسن صنعًا، فأشفق يا أخي على دين ضيفك، ولا تكن سببًا في نقصان أجره، فإنه ولو ذمك في الدنيا سوف يمدحك في الآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تكلفهم للضيف، وذلك بأن يقدموا إليه ما لا تتبعه نفوسهم مما دخل تحت يدهم، فلا يذبحون دجاجة زوجتهم، ولا عناق خادمهم مثلاً، ويقولون: نعوض عليكم، فإن ذلك من التزود في الدين، وقد وقع أن سيد عبد العزيز الديريني ذبح دجاجة زوجته لما زاره سيدي علي المليجي، فلما استوت وقدمها إليه سمع سيد علي زوجة سيدي عبد العزيز تقول: ما كان لنا حاجة بهذا الذي أكل الدجاجة التي كانت تبيض للأولاد، فتوجه سيد علي إلى الله تعالى، وقال للدجاجة: قومي بإذن الله تعالى فقامت حية، وأخذ المرق ففت فيه الخبز واكتفى به، وقال لسيدي عبد العزيز الديريني ألا يطعم فقير إلا مما ليس فيه شبهة تتبعه، انتهى.

واعلم يا أخي أن من [يتكلف لأضيافه] يكره لقاءهم ويهرب ولو كان على

= شخص من بلاد بعيدة فسافر إليه، وقال له مثل مقالة الحسن، فقال: كان عندنا بعض ورع وزال! فقال له: وما ذاك؟ فقال: استعرت من جاري وعاءً لأشتري فيه الزيت الحار من السوق مرة فنسيت، فاشتريت فيه الزيت الحار مرتين فما بقي يصلح أن يؤخذ عني ورعٌ، فاطلب لك أحدًا غيري فدلوه على شخص من البصرة، فسافر إليه وقال له [مثل ما تقدم]، فقال: كان عهد الناس بشيء وزال، فقال: وما ذاك؟ فقال: استعرت رداء والدتي لأخبز فيه وأرجع، فلقيني شخص في الطريق فكلمني فوقفت معه والرداء عليّ زيادة على مدة العارية التي استأذنت فيها والدتي، فما بقي يصلح أن يؤخذ عني ورع انتهى، ثم دله الناس على شباب في خَرِبَةٍ من بلاد العراق يحصدون ويأكلون من عمل يدهم، ويأخذون نصف ما كان يأخذه غيرهم في نظير ذلك الحصاد أو غيره، ولهم فرن يخبزون فيه في تلك الخربة، فلما دخل هذا المتورع إليهم: قال لهم، فقالوا جميعًا: كان عهد الناس بشيءٍ وزال، فقال لهم: وما ذاك؟ فقالوا: انهدم باب الفرن يومًا فرجعنا، فوجدنا شخصًا قد أصلحه لنا فخبزنا فيه مع ذلك الإصلاح الذي وقع ممن لا نعرف مقامه في الورع، فما بقي يصلح أن يؤخذ عنا ورع انتهى.

طول، ثم إن قدر أن نفس صاحب الدار طيبة بذلك، فالعيال لا يطيقون المداومة على الطبخ والعجين والخبيز، فيصير يكره زوجته مثلاً على طبخ الطعام، وهي داعية ساخطة فلا يبارك للأكل منه، ثم إن أكثر من يقع في مثل ذلك شيوخ البلاد وأولاد الفقراء الذين يطلبون الصيت لأغراض دنيوية، وقد بسطنا على ذلك في كتاب «العهود» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الصلاة في ثوب اشتغل الخياط عن الصلاة بخياطته مهما كان لأجل استعجاله له، أو كان من عادته ترك الصلاة، وكذلك لا يصلون في ثوب بلغهم أن الخياط استعمله في حرام، وقد وقع لي أن شخصًا خاط لي جبة [واستعملها فأخذتها] وخطتها عند غيره ثانيًا احتياطًا للصلاة فيها، ولم أر لهذا الخلق فاعلاً من أقراني إلا قليلاً، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إعلامهم المعارف لما يريدون أن يعملوه من الولائم، فلا يعلموهم إلا بعد طبخهم الطعام؛ وذلك خوفًا أن يتكلف أحد من معارفهم ويساعدهم بغير نية صالحة، فيصير لهم المنة عليهم، ولا يحصل للمساعد شيء من الأجر، وإن خافوا أن أحدًا من النقباء يعلم بذلك المعارف أوصوه بالسكوت عن ذلك، وهذا ما درج عليه السلف الصالح الذين أدركناهم خلاف ما عليه متصوفة هذا الزمان فإذا أراد أحدهم أن يزوج ولده أو يختنه أو يعمل عقيقة أعلم بذلك سائر المعارف والأمراء والتجار، ومعلوم أن إعلام مثل هؤلاء سؤال في المساعدة عند كل عاقل، فربما تكلف أحدهم وأرسل بقرة أو خروفًا، أو عسلاً أو أرزًا أو سمنًا أو حطبًا، وصار طعامًا مجمعًا من حرام وحلال، ثم يصير سيد الشيخ يطعم الناس من ذلك وعليه حسابه يوم القيامة، وربما يرى لنفسه المنة بعد ذلك على من أكل مع أنه أتلف أديانهم وسوّد باطنهم بذلك الطعام.

وكان سيدي علي الخواص لا يحضر وليمة عملها فقير لا يكلفها ويقول: إن هذا يأكل بدينه، هذا إذا فعل الطعام من غير سؤال الناس لا يفوته المباشرين ومشايخ العرب والكشاف، بل رأيت من يلبص في عمل مولده من جمرة المشاعل[1] فالحمد لله الذي حمانا من مثل ذلك، وقد علم مما قررناه أن كل من عمل له مولدًا وأخذ كلفته من الناس فهو نصاب شيطان مغتر كذاب لم يشم من طريق القوم رائحة، والحمد لله

(1) صُحِّفت في المطبوع بـ: حمزة المشاعل.

رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهامة النفس واليقظة لكل ما يدخل جوفهم من طعام المريدين، ولا يأكلون إلا من طعام من يتورع منهم في كسبه، ولو أنه غضب منهم لا يلتفتون إليه ولا لقوله: كسرتم خاطرنا، فإنه جاهل بمقام الأشياخ، وهذا الخلق قل من يتمسك به من مشايخ هذا العصر، بل رأيت من يأكل من طعام مريده المكاس، وإذا سئل في ذلك قال: خفت أن أكسر خاطره، وما عبد الحق تعالى بشيء أفضل من جبر الخواطر، انتهى.

وهذا من الجهل بقواعد الشريعة، ولا فرق حينئذ بينه وبين من عزم عليه شخص بأن يشرب معه الخمر فلو قال: إنما شربت جبرًا لخاطره حددناه ولم نقبل له عذرًا وحكمنا بفسقه، فالعاقل من وزن فعاله بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم التداوي بإشارة كافر؛ خوفًا أن يوافق ما وصفه الشفاء، فيحمل لهم الميل إليه فلا يصير أحدهم يقدر على عداوته كما أمر الله تعالى، وهذه نكتة تخفي على الكثير من الفقراء الساذجين، وكانوا إذا لم يجد أحدهم طبيبًا من المسلمين صبر واحتسب، هذا ما درج عليه السلف الصالح.

وسمعت سيدي أبا السعود الجارحي - رحمه الله - يقول: من كان يوفي بالعهود فلا يستطب باليهود، فإياك يا أخي أن تستطب بكافر فتقع في الميل إليه قهرًا عليك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الرضا بالبلاء، والنظر في عاقبته، وفي الحكمة [من] الحق تعالى فيه؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون عاقبة للذنب فيكون البلاء تكفيرًا له، وإما رفع درجات فلا يخلو البلاء عن واحدة منهن، ولكل واحدة علامة، فعلامة الابتلاء عقوبة على ذنب أن يشعر المذنب بالهم والقلق والسخط، وعلامة الابتلاء تكفيرًا لذنب أن يصحبه الصبر، وعلامة الابتلاء لرفع الدرجات أن يصحبه الرضا وانشراح الصدر حتى يتمنى دوامه، ثم إن هذه العلامات الثلاث تتوارد على الفقراء إذا لم يحفظوا من المعاصي، فإن حفظوا منها توارد عليهم العلامتان الباقيتان ما عدا الأولى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا دخلوا على مريض يعودونه أن يتحملوا عنه المرض أو شيئًا منه من باب تعلق السبب على المسبب، وإلا فلا يصح لأحد أن يتحمل عن أحد ما قدره الحق تعالى عليه أبدًا، ويحمله العائد للمريض حقيقة ليس هو عين مرض

المريض وإنما هو نظيره، ومع ذلك فيؤجرون عليه بالنية الحسنة كما يؤجر من عزم على فعل خير، ثم لم يقسم له فيعطيه الله تعالى أجر نيته لحديث: **«إنما الأعمال بالنيات»**[(1)] فإنه قال فيه: **«وإنما لكل امرئ ما نوى»**[(2)] وما قال: وإنما لكل امرئ ما عمل.

وهذا ما درج عليه السلف الصالح خلاف ما عليه غالب فقراء هذا الزمان فيدخلون على المريض، ثم يخرجون من عنده ومرضه على حاله ما نقص منه شيء.

ومن أدركته من أهل هذا الخلق سيدي علي الخواص، وسيدي محمد بن عنان، والشيخ محمد العدل، والشيخ عبد الحليم بن مصلح، فكانوا إذا لم يقدروا على التحمل يدعون له ولا يدخلون عليه، وقد تقدم قريبًا أنه لا ينبغي المبادرة إلى الدعاء للمريض برفع المرض عنه إلا بعد انتهائه سواء أكان عقوبة أو كفارة أو رفع درجات، لكن هذا خاص بأهل الكشف التام، وأما من لا كشف عنده فيدعو ويرجو من الله تعالى الإجابة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم غفلتهم عن الصلاة في أول وقتها أيام مرضهم أو أيام تحملهم البلايا والمحن عن الإخوان أخذًا بالعزائم، وإنما تكون الرخص لغيرهم فليس لأحدهم أن يؤخر صلاة الظهر مثلاً إلى آخر وقتها ويقول: إنما يؤمر بالصلاة في أول وقتها مثلاً الأصحاء أما المرضى فلا يؤمرون بذلك، وربما استدل أحدهم بحديث وهو دليل ضعيف [في دلالته] لأن المراد بما يكتبه الحق تعالى له من الفضائل والنوافل [كما في الصلاة] مثلاً؛ لأنه يجب عليه أن يفعل ذلك بحسب قدرته ما دام ثابتًا؛ **«إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا»**[(3)].

ويقع لي بحمد الله تعالى أن المرض يخف عني إذا دخل وقت الصلاة، ثم إذا فرغت منها عاد المرض، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الرضا عن ربهم ﷻ إذا قسم لهم اليسير من الطاعات كما يرضون عنه إذا قسم لهم اليسير من الرزق على حد سواء، فإن كلاهما قسمة الحق تعالى واختياره لهم وما قسمه واختاره لا ينبغي لعبد أن يسأل تحويله إلا بإذن منه،

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) رواه أحمد (4/410، 19694)، والبخاري (3/1092، 2834)، وابن حبان (7/191، 2929).

وهذا الخلق لا يثبت فيه إلا الصادقون المعتمدون على فضل الله تعالى لا على أعمالهم إذ من لازم كل من يعتمد على عمله التكدر ضرورة كما يقع فيه العباد الذين لم يسلكوا على يد شيخ.

وقد نام إبراهيم بن أدهم ليلة عن ورده أيام بدايته، فأصبح متكدرًا لذلك فنودي في نفسه – سره – : يا إبراهيم كن عبدًا لنا تستريح، فإن أقمناك قم وإن أنمناك نم، فليس لك في الوسط شيء، فإننا أعلم بمصالح عبادنا من أنفسهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: رؤية حقارة نفوسهم أن يقفوا بين يدي الله ﷻ، فلا يزاحمون على الحضرة الإلهية إلا بإذن خاص من طريق الإلهام الخاص، وإذا نام أحدهم عن حضور المركب الإلهي في ليلة من الليالي يقول: لك الفضل يا رب الذي ما أوقفت هذه الذات النجسة القذرة بين أهل حضرتك الطاهرين المطهرين.

قلت: وهذا وإن كان فيه خير من جهة هضم نفوسهم فينبغي لأحدهم أن يندم ويحزن على فوات حظه من الوقوف بين يدي ربه ﷻ وقت تفرق العلم ومغفرة الذنوب العظائم.

وكان سيدي علي الخواص إذا فاته قيام الليل بالنوم يشكر الله تعالى من حيث العافية، فإنه لولا العافية ما نام، فيحتاج صاحب هذا الخلق إلى عينين عين يحزن بها وعين يشكر بها كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن والأخلاق» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم يجعلون ما سمعوا من واعظ أو خطيب في حق أنفسهم بالأصالة، فلا يجعلون الخطاب لغيرهم من السوقة والعلوم وأرباب الدعوى للعلم والعمل بغير حق حتى ربما انصرف أحدهم من مجلس الواعظ وهو يقول: أفلح الواعظ اليوم من الحط على هؤلاء الذين لا يعملون بعلمهم من الفقهاء والصوفية، ولا يكاد يأخذ لنفسه من ذلك كلمة واحدة، فليحذر الفقير من ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الفرح والسرور بكل شيخ أو واعظ برز في بلدهم أو حارتهم، وصار يلتقط أصحابهم واحدًا بعد واحد حتى لم يبق حول أحدهم تلميذ واحد؛ وذلك لأنه قام عنهم بدعاء الخلق إلى الله تعالى، وأراحهم من رؤية نفوسهم والإعجاب بأحوالهم إذا تاب الخلائق على يديهم من الظلمة والعوام، وأقبل الأمراء والمباشرين

والتجار على الاعتقاد فيهم فإنه قل واعظ يسلم من هذه الآفات.

فعلم أن كل من تكدر من شيخ برز في حارته فهو شيطان نصاب لم يشم من طريق القوم رائحة، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم اعتراضهم على العالم إذا زار أحدًا من التصابين، فإنه لولا سلامة باطنه ما زار فهو مأجور من حيث قصده، وإن ترتب على ذلك إضلال العوام، لكن الأولى للعالم ألا يزور إلا من رآه على الكتاب والسنة من الصادقين؛ لئلا يضل العوام، ويقولون: لولا أن هذا من الصالحين ما زاره العالم الفلاني، فليكن العالم حاذقًا وإلا اقتدى به العوام فيهلكوا، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: حفظهم الأدب مع كبراء الوقت من علماء وصالحين، فلا يدرسون علمًا، ولا يسلكون مريدًا إلا بعد قول أحدهم: دستور يا كبراء الوقت أدرس أو أسلك الناس العلم والأدب نيابة عنكم، ويمثلهم في نفسه إن كانوا غائبين عن مجلسه.

فمن سلك ذلك مده العلماء بالعلم والأدب، وأمن مع الارتجاج عليه كما جرب ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم لبس الثياب المحرارت[1] وعدم نكاح المنعمات والسراري الناعمات، وعدم ركوبهم الخيل المسومة، ولا يرون ذلك مباحًا إيثارًا للتقشف في هذه الدار كما أن الواجب عليهم عدم الإنكار على من خالفهم ولبس المحررات ونكح المنعمات أنه أحسن حالاً منهم؛ لأن لله تعالى عبيدًا في صورة المتكبرين، وربما نعم الله تعالى عبده في الدار الآخرة أيضًا ورفع قدره علينا لقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 21] وقد أشار بعضهم في نحو ذلك:

كم عابدًا قد صف أقدامه ... بالليل يبكي بالدموع السجام
وماله حظ سوى أنه ... أشقاه مولاه بطول القيام
وآخر قد نال ما يرتجي ... وحاز في الفردوس أعلى مقام

فإياك يا أخي والمبادرة إلى إنكار على أحد من المتقشفين أو المترفهين إلا

(1) يقصد الناعم من الحرير.

بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم جلوسهم في المسجد على حدث ظاهر أو باطن كالكبر والحقد وسوء الظن بمسلم ونحو ذلك كخطور معصية على قلوبهم، فإنهم بين يدي الله ﷻ في بيته الخاص وهو ناظر إليهم، فكيف يليق بأحدهم أن يجالس ربه على حدث أو سوء أدب؟!

فينبغي للفقراء المجاورين أن يتنبهوا لمثل ذلك فربما كان قوس القدرة الإلهية بالتأديب، والمؤاخذة موترًا لا يسامح العبد في سوء الأدب مرة واحدة هذا فيمن تخطر المعصية على باله في المسجد فكيف بمن يفعلها؟!.

وكان سيدي محمد الشويمي[1] يجلس تجاه وجه سيدي مدين ؓ فكان كل من خطر في باله شيء قبيح بين يدي سيد مدين قام وضربه وقال: أما تستحي من الشيء وأنت يمر على خاطرك القبيح، انتهى.

فإذا كان هذا حال من يخطر ذلك على باله بين يدي مخلوق فكيف بمن يخطر ذلك على قلبه بين يدي الله ﷻ؟! فالعاقل من تنبه لمثل ذلك فعلم أن كل فقير ادعى الصلاح وجلس في المسجد بغير حق أو إساءة الظن فهو كذاب فاسق، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: كراهتهم لإخراج الريح منهم في المجالس أو المسجد؛ تعظيمًا

---

(1) محمد الشويمي، تلميذ الشيخ مدين، كان من أهل الكمال، وأرباب الأحوال، رباه الشيخ، وسلكه، حتى بلغ مبلغ الرجال. وكان يعمل هلال المنابر والضبب، واشتهرت كراماته في حياة شيخه.
وأتاه رجل شكى إليه أنه يحب امرأة، ويريد أن يتزوجها فتأبى فقال: ادخل هذه الخلوة واشتغل باسمها، ففعل أيامًا، فأتته إلى الخلوة بنفسها، فزهدها وقال: إن كان الأمر كذلك، فالاشتغال بالله أولى، فاشتغل به، ففُتح عليه في خامس يوم. وكان يدخل بيت الشيخ فيجس النساء بيده، فيسكتوا له فيقول: حصل لكم الخير. فاحتاج المطبخ يومًا وهم بأشمون، قلقاسًا، فقالوا له: اشتر لنا من الغيط فجاء إلى التربة، وملأ لهم من الحلفاء قلقاسًا، ملء خرج، ورجع لهم بالدراهم.
ولما مات مدين، وطلب الجماعة نصب الشيخ محمد ابن أخته، خرج له بعصا، وقال: إن لم ترجع يا محمد استفلتك، ثم أخرج أبا السعود ولد الشيخ، وعمره خمس سنين، وأجلسه على السجادة، وقال: اذكر ياجماعة! فلم يجرؤ الشيخ محمد أن يدخل الزاوية، حتى مات الشويمي، ودفن تجاه قبر الشيخ مدين.
انظر: طبقات الشعراني (103/2)، طبقات الشاذلية (129)، جامع الكرامات (170/1)، الضوء اللامع (123/10)، الكواكب الدرية (733).

لمن هم في حضرتهم كشفًا أو أدبًا، فمن جاءته حالة إخراج للريح حبسه وخرجوا من المسجد إلى طريق الميضأة وأخرجوه؛ لأن خروج الريح لا يليق إلا بالحشوش[1] ومثل ذلك حشا الفجل، وأكل ذي ريح كريهة كما ورد في الشريعة، فإن تعذر عليهم الخروج من المسجد لإخراج الريح فينبغي لأحدهم أن يقول: دستور يا عمار المسجد - يعني من الملائكة - ثم يخرج الريح فإن الملائكة يحبون من يتأدب معهم ومع بيوت الله ﷻ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهة زيارتهم لعدوهم وحسادهم من المسلمين بثياب رفيعة مبخرة؛ خشية عليه من إدخال الغم عليه بذلك، فإن العدو والحاسد إذا رأى على عدوه ثيابًا حسنة مبخرة كاد أن يذوب من الغيظ، وازداد حسدًا وعداوة، هذا من جملة أخلاق الصالحين الحسنة، ولا يصح ذلك إلا ممن كملت رياضة نفسه وتخلق بالرحمة على عباد الله تعالى والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا مرضوا أو قدموا من سفر ألا يتسببوا في زيارة الناس لهم، أو عيادتهم إلا بنية صالحة، ولا يقولون: اشتهينا رؤية فلان، فإنه إذا بلغه ذلك بادر إلى العيادة، أو الزيارة، وربما كان وراءه ضرورة أهم من عيادتهم أو زيارتهم وأسلم من العلل، فالعاقل من أشفق على دين إخوانه ولم يكن سببًا في نقصه، فحرر يا أخي النية في نحو قولك، وأنت مريض مثلاً: أوحشنا فلان وروح إليه إذا بلغك أنه قال في حقك ذلك بنية صالحة لا تطلب عليها مكافأة في الدارين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم لحضور المحافل التي لم يندب الشرع إلى حضورها، ومحبتهم لحضور ما ندب الشرع إلى حضوره لكن بنية صالحة فليحرر الفقير نيته، ثم يحضر وذلك كختوم القرآن ومجالس المناظرة بين يدي الأمراء أو حضور عقد القران، والسبب الذي يمنع الناس عدم تحرير النية في هذه المجالس، ويقع فيه الكثير منهم أنه إذا دخل أحدهم ولم يقوموا له أو كان جالسًا في صدر المجلس فأخروه لما جاء من هو أوجه منه من أقرانه أو غيرهم، وهذا وقع كثيرًا لأرباب الأنفس الغوية المدعين العلم والصلاح بغير حق، فانشق عليهم من يقطعهم

(1) الحش بفتح الحاء وضمها: البستان، والحش أيضًا بفتح الحاء وضمها: الكنيف؛ لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين وهي الحشوش فسميت بيوت الخلاء في الحضر: حشوشًا لذلك.

بالحجج أو يبين غلطهم أو جهلهم، فتدوم العداوة بينهم شهورًا وسنين؛ بسبب ما وقع لهم حين حضروا من عدم موافقة الناس لهم على أغراضهم.

وقد حضرت مرة مجلس ختم فنهاني عن ذلك سيدي علي الخواص وقال: هذه مجالس المباهاة بالعلم والمماراة فيه كما يعلم ذلك بالقرائن، ومصداق ذلك إن غلط منهم أحد قامت عليه القيامة، وإن وافق الصواب قالوا: هذا الكلام ما هو له، وإنما أخذه من كلام فلان.

قال: ومن علامة مباهاتهم بالعلم إحضارهم الأكابر من الأمراء والمباشرين وغيرهم ممن ليس من أهل العلم وليس هو أهلاً لأن يفيد علمًا أو يستفيد، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم للنوم على غير وتر؛ تعظيمًا لامتثال أمر الشارع في أمره أمته بالنوم على وتر في نحو قول أبي هريرة: أوصاني رسول الله ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام، وفي نحو قوله: **«إن الله يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن»**[1] انتهى.

فمن نام على وتر فقد نام على عمل محبوب للحق - جل وعلا - فإذا أخذ الله تعالى بروحه تلك الليلة مثلاً كان خاتمًا لعمله يحبه الحق تعالى، فيرجى له المغفرة كما أشار إليه قوله تعالى:﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة:18] أي: لو كنتم محبوبين للحق تعالى ما عذبكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: سؤالهم الحق - جل وعلا - أن يتجاوز ويعفو في حق من جنا عليهم وآذاهم من جميع المسلمين، فإذا دعوا على أحد لا يستجيب الله لهم دعاء فيه؛ لأن الله سبحانه وتعالى يستجيب لهم فيما تخلقوا فيه بأخلاق الله ﷻ، وقد كان سيدي [إبراهيم المتبولي] ؓ يحزن على عدوه إذا مات ويقول: من دعا واستجيبت دعوته فيمن ظلمه فقد خرج عن طريق القوم.

فإن من شأنهم كثرة الاحتمال، ويفرحون إذا لم يستجب لهم دعاء، لما جبلهم الله تعالى عليه الرحمة والشفقة، ولعل غالب الناس لا يقيم لهم وزنًا إذا دعوا على

(1) رواه الدراقطني في «العلل» (109/8).

ظالم ولم يستجب لهم دعاء فيه ويقولون: لو كان هذا صالحًا لأجاب الله تعالى دعاءه، وهو جهل بمقام أهل الله ﷻ، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم المجادلة لأحد من الفقهاء عند ثوران نفوسهم أو نفس من جادلوه؛ خوفًا من تعدي الحدود في أدب العلم، بل يصبرون حتى تروق نفوسهم ونفس خصمهم، وإيضاح ذلك أن كل شخص لا يجادل إلا بميزان له في نفسه ورأى أنه الحق، فلا يكاد أحدهما يرجع إلى الآخر أبدًا، فليعذر كل واحد أخاه بما يعذر به نفسه، فإن عمل كل إنسان بما رآه حقًا أولى والسلام، وبالجملة فمن لم يقرأ آداب البحث فليس له أن يجادل أحدًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة مشاورتهم لإخوانهم في كل أمر، ثم يصرح الشارع فيه بخصوصية بخلاف مثل سنة الظهر، أو جماع الزوجة، والغسل من الجنابة، فإنه لا يحتاج مشاورة في مثل ذلك، فقد سمعت سيدي علي الخواص يقول: لا يحتاج الإنسان إلى الاستشارة في شيء من المأمورات الشرعية؛ لأن الله تعالى لم يتخذها حبالة للمكر بصاحبها بخلاف ما سكت عنه، فقد يتخذ حبالة أخرى، ثم إن في المشاورة فيما ذكر تمييل خاطر الإخوان إلى محبة بعضهم بعضًا كما هو مشاهد ويقول أحدهم: لولا أن فلانًا يحبني ما شاورني في ذلك، وحكم عدم المشاورة بالضد.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: الاستشارة بمنزلة تنبيه النائم فربما كان الإنسان جازمًا بفعل شيء وعنده أنه الصواب، فيشاور أخاه فيه فيقول له: متى فعلت كذا حصل من الضرر كذا فيرجع عنه فورًا، وإن قيل له بعد ذلك: افعله، لم يرض.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: القيام بواجب حق الإخوان الصادقين والقيام بحقوقهم، وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: لا تقصر في حق أخيك اعتمادًا على مروءته، انتهى.

وكان يقول: لولا مجالسة الإخوان في هذه الدار، والتهجد في الأسحار ما أحببت البقاء فيها.

فانظر يا أخي كيف قرن ﷺ مجالسة الإخوان بمناجاة الله ﷻ وفي ذلك سر عظيم لا أبوح به ولو قطع مني الحلقوم، وقد ظفرت طول عمري بسبعة وعشرين واحدًا من الإخوان الصادقين ممن أحب البقاء في هذه الدار لأجلهم منهم سيدي محمد بن الشيخ محمد الحنفي الشاذلي بحديقة السباعين، ومنهم الشيخ سراج الدين الحانوتي،

فأسأل الله تعالى أن يفسح في أجلهما، وأن ينفعني ببركاتهما آمين.

وقد رأيت حقوق الإخوان إيثارهم بما دخل يدهم من أمور الدنيا، وإدخال الفرح عليهم بحيث كونهم في جميع ما بيدهم بحيث لا يفضلون نفوسهم عليهم، بل قد يصلوا إلى حد أنهم يطلقون إحدى زوجاتهم لمن ماتت زوجته، ويقسمون الذهب نصفين بينهم وبينهم ويأخذون منه كأحدهم، وإن لم يقسم الله تعالى للإخوان ذلك فيكون خاطرهم بذلك طيبًا لو وقع، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم رد ما يأتيهم من الهدايا الحلال إذا خافوا كسر خاطر ذلك المهدِي لاسيما الولاة الذين يشفعون عندهم في المظلومين، فإنهم لا يعرفون مصطلح الفقراء، ويظنون أن الفقراء يشكرون فضلهم على ما يرسلونه لهم من الضحايا والأرز والعسل ونحو ذلك، ولو أنهم أخبروهم بتكدرهم من إرسال شيء إليهم ربما أخذوا في نفوسهم وصاروا يعارضون الفقير في شفاعاته في المظلومين، ويتعبوا سره في التوجه إلى الله تعالى في تحويل بواطنهم.

وقد قالوا: تحويل الجبل بتوجه الفقير أهون عليه من تحويل قلب أمير، وذلك أن الجبل لا عقل له ولا رؤية في الأمور التي تطلب منه بخلاف الأمير، ثم إن كان الفقير محتاجًا إلى أكل مثل تلك الهدية بالطريق الشرعي أكل منها، وإلا فرقها على من يستحق مثلها، وقد فعلت مثل ذلك فيما يرسله الولاة إلينا من الضحايا، فحل محل ردنا لهدايا الولاة والعمال كما مر في الكتاب أنه لو ترتب على ذلك مفسدة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الإنكار على نصيحة أحد من المسلمين، فإذا نصحوا طالب علم مثلاً وقالوا له: اترك الاشتغال بالعلم الذي تشتغل به فلا ينبغي المبادرة إلى الإنكار عليهم، وإنما يسأل من الشيخ لماذا منعتم فلانًا من الاشتغال بالعلم الذي يقربه إلى الله تعالى؟ وينظر جوابه، فإن قال: رأيته غير مخلص في طلبه فهو عذر شرعي، وإن قال غير ذلك فلا يخفى حكمه وحله، وقد كان سيدي أحمد الزاهد - رحمه الله - إذا رأى عند طالب العلم تكبر بعلمه أو عجبًا واحتقارًا للناس يأمره بالإكثار من ذكر الله ﷻ ؛ ليطهر باطنه ورقة باطنه حجابه، وترك الاشتغال بالعلم والتفرغ للذكر فطهر باطنه وذهبت رعونات نفسه كلها، وأشرف ببصره على الدار الآخرة، وعرف ما ينفعه هناك من العمل وما لا ينفعه، فهناك يكون الإخلاص في العلم هو سبب مغفرة الذنوب.

وهذا الأمر قل من يقوم بفعله من طلبة العلم، بل يسارعون إلى الإنكار على

الأشياخ ويقولون: هؤلاء يمنعون الناس عن الاشتغال بالعلم الذي هو أفضل ما عُبِدَ الله تعالى به، ولا ينظرون إلى ذلك الممنوع هل هو مراءٍ بعلمه أم مخلص، فالحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم هجرة أحد من المسلمين فوق ثلاث لاسيما إن كانت الهجرة لحظ نفس لا لله ﷻ كما هو الغالب على الناس، وكل فقير هجر أخاه فوق ثلاث بغير حق فهو عاصٍ لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولا يحل لأحد الاقتداء به لفسقه، وقد كان سيدي عبد العزيز الديريني ؓ يقول: لا يليق بأمثالنا أن يهجر أحدًا من المسلمين، وإنما يليق الهجر بالعلماء العاملين الغواصين عن دسائس النفوس، فإن العبد ربما هجر أخاه لحظ نفس ويزعم أنه لله ﷻ، ولعله هجر لعدم قضاء حاجة سأله فيها عند أمير، أو لكونه لم يقم له في محفل، أو لكونه لم يهد إليه شيئًا ونحو ذلك، فيجب على العبد امتحان نفسه بما لو كان ذلك المهجور محسنًا إليه كل الإحسان لا يخل بشيء من واجب حقه لكنه مرتكب معصية من المعاصي، فإن رأيت محبته قد زالت مع ذلك الإحسان إيثارًا لجناب الله ﷻ فليعلم أن هجرته لله تعالى، وإن رأى محبته باقية مع العصيان لكونه محسنًا فليعلم أن هجرته إذا وقعت إنما هي لحظ نفس من ترك إحسان أو قيام له في المحافل ونحو ذلك وهذه ميزان تطيش على الذر.

وقد رأيت خلقًا كثيرًا لا ينكرون قط على من يحسن إليهم، ولو ارتكب من المعاصي ما ارتكبه، ثم إذا ترك الإحسان إليهم يجعلون فيه العجر والبجر، ويقولون أن هجره واجب لما هو عليه من المعاصي مع أن لهم في صحبته سنين عديدة وهو على ذلك الحال، فليحذر الفقير من مثل ذلك الحال، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: حمل أصحابهم على المحامل الحسنة، فإذا عثر صاحبهم أحدًا من الفسقة لا يبادرون الغضب عليهم وإنما ينبغي حمله على أنه صحبه ليسارقه بالنصح شيئًا فشيئًا ليرجع عما هو مرتكبه من المعاصي، وهذا الخلق قل من يثبت فيه من الإخوان حيث يبادرون بالغضب على صاحبه إذا عاشر فاسقًا ويقول: هجرته لله ﷻ من غير أن يفتش على قصده، وهو جهل ورعونة نفس.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: إذا صاحب صاحبك الذي هو عندك من الصالحين أحدًا من الأشرار فاعتقد صلاح ذلك الشخص واجعل إشاعة ذلك الشر عن ذلك الرجل لا حقيقة لها إنما إشاعة عنه الحسد، وقل: لولا أن ذلك الرجل صالحًا ما صاحبه صاحبي الذي هو صالح عندي، انتهى.

لكن ينبغي تقييده بالصاحب الحاذق، أما الساذج فلا عبرة باعتقاده الخير في الناس، فافهم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حضورهم مع الحق - جل وعلا - في حال جماعهم لحلائلهم كما يحضرون مع الله تعالى حال صلاتهم بجامع أن كلاً منهما مشروع.

وسمعت سيدي علي الخواص -رحمه الله تعالى - يقول: ما شرع الحق تعالى عبادة من العبادات إلا ليحضر العبد فيها معه تعالى، فإنه لا يصح للعبد الحضور معه إلا فيما شرع فقط.

وكان يقول: ينبغي للعارف أن يعزل شهوته لجهة نفع حليلته دون شهوة نفسه هو، وقل من يتخلق بهذا المقام من الأقران إنما يغيب أحدهم بلذته حال جماعه عن ربه، فالحمد لله رب العالمين.

الباب السادس

في جملة أخرى من الأخلاق

ومن أخلاقهم: إكرامهم عيالهم وإعطائهم كل ما طلبوه من الحوائج، وإعطاؤهم فلوس الحمام كلما قربوا منهم أو ثمن الوقود، ولا يبخل على عياله بمثل ذلك إلا من ليس له في طريق الصالحين نصيب، ثم لا يخفى أن شراء الوقود لتسخن به المرأة الماء في البيت أولى وأستر من ذهابها إلى الحمام كلما قرب منها زوجها؛ لأنه ربما تكرر قربه منها في الجمعة المرتين أو الثلاث، وذهابها إلى الحمام ثلاث مرات في الجمعة مما يلوث الناس بها فيه فيحصل لها خجل وحياء لا تطيقه.

وقد كان الصحابة ﷺ يخفون غسلهم عن أهليهم؛ لأن الحياء في مثل ذلك من الإيمان، فليحذر الفقير من أن يدع الناس يلوثوا بعياله ويطلعوا عليهن كلما يجامعهن، وليعطها أجرة الحمام أو ثمن الوقود أو يخفف عنها الجماع فيقرب منها كل خمس عشر يومًا مرة حتى يفهم أنها تفعل ذلك لتغتسل من الحيض كما أفتى به عمر بن الخطاب ﷺ بعض النساء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ذمهم لأصحابهم الصادقين في محبة الطريق إذا خافوا عليهم عُجبًا بحالهم فيقولون: إن أصحابنا هؤلاء ما شموا لطريق القوم رائحة، وليس بيننا

وبينهم في الباطن رابطة ولا مقدار شعرة ونحو ذلك ويورون ما أمكن، ثم من علامة صدق التلميذ فرحه بذلك بين الناس، ومتى تكدر فقد خان عهد شيخه، وأظهر الناس كذبه في محبة الطريق وأنه لم يشم من طريق القوم رائحة، وأن شيخه صادق في ذمه ولا يحتاج فيه إلى تورية.

وقد درج السلف الصالح الذين أخرجهم سيدي أحمد الزاهد على ذم تلامذتهم ماداموا في السلوك ولا يذكرون لهم كمالاً إلا عند انتهاء سلوكهم عادة؛ وذلك لينتفع الناس بهم ويجنوا ثمرة مجاهداتهم، بل قال سيدي أحمد الزاهد في مرض موته: إني خارج من الدنيا وما أجد من أصحابي من شرب من مشروبي، فقالوا له: ولا مدين، فقال: ولا مدين؛ وذلك لينهض همته بعده، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يكتفي أحدهم بمعيشته في حسن سلف، فإن سلفه إنما عملوا لأنفسهم وليس لذريتهم من أعمالهم نصيب، فكما اجتهد سلفهم حتى عاشوا في حسن أعمالهم عادة فكذلك يكون الحكم في حق ذريتهم، فما دام الناس يكرمونهم لأجل سلفهم فهم لم يبلغوا مقام الرجال.

وقد أخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي ﷺ قال: مكثت في بدايتي نحو عشر سنين أعتقد أن ولد الشيخ يطلع شيخًا بالخاصية من غير عمل حتى أرشدني شخص إلى طلب سيدي محمد السروي فعلمت أنني ما كنت على شيء.

وهذا الأمر قل من يتخلص منه من أولاد المشايخ، فلا يكاد أحدهم يكتسب فضيلة اكتفاء بجد، وقد انخرمت هذه القاعدة في فرع من ذرية شيخنا المذكور آنفًا فلم يكتف ولده الشيخ عبد القدوس بكونه ابن سيدي محمد الشناوي، بل جاهد بعد والده مجاهدة الرجال حتى بلغ مبلغهم في الأحوال الظاهرة والباطنة، وكذلك هي بوادر حال ولده المسمى بعبد القدوس الموجود، ولم أجد أحدًا من أهله حذا حذوه في محبة القرآن والذكر، والعلم وإطعام الطعام وإغاثة اللهفان ونحو ذلك حتى أنه عمّر الزاوية بعد والده فكأنه لم يمت، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يكون أحدهم هينًا لينًا مع إخوانه في كل معروف، فإن حضر مع قوم يذكرون ذلك المغاربة ذكر الله تعالى معهم كذلك، أو ذكر العجم ذكر الله تعالى معهم كذلك، أو ذكر المطاوعة ذكر معهم كذلك، أو ذكر الهنود ذكر معهم كذلك، أو ذكر الشناوية والأحمدية والبرهامية ذكر معهم كذلك حتى كأنه واحد منهم، وهذا الأمر

لا يفعله إلا من كان له ذوق في طريق الأدب، أما الجامد كالحجر فربما جلس بعيد عن الذاكرين، وقال: هذا الذكر ما هو طريقة شيخنا، أو: هذه الصلاة على رسول الله ﷺ ما هي طريقنا، فيفوت نفسه خيرًا كثيرًا، وربما جفاه قلوب أولئك الذاكرين.

وقد رأينا جماعة كثيرًا من الأشياخ يذكرون ذكرًا على غير طريقة أشياخهم منهم سيدي محمد السروي، وسيدي أبو السعود الجارحي، وأقرهم أشياخهم في حياتهم على ذلك؛ لعلم الشيخ أن ذلك لا يؤثر في صحة اقتدائهم بهم.

وقد دخل عليَّ مرة سيدي محمد الشناوي وأنا في مجلس الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ التي هي طريقة الشيخ نور الدين الشوني فصلي معنا وذكر على صورة ذكرنا، فقلت له: يا سيدي ندوم على هذا المجلس، أو نجعل مكانه ذكر الله تعالى على طريقكم، فقال لي: دم على ما أنت عليه، فكان ذلك من جملة طريقه لتقريره لي عليه.

وكذلك سلك سيدي مدين في الملبوس طريقة خلاف ما كان عليه شيخه سيدي أحمد الزاهد وأقره شيخه على ذلك، ودام سيدي محمد الغمري أخوه في الطريق على التقشف في الملبس كما كان الزاهد، وأقره شيخه كذلك عليه، فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: المحافظة على الفرائض والسنن الشرعية، وحفظ ظاهرهم من مخالفة الشريعة في شيء من أحوالهم خلاف ما عليه طائفة من الشياطين ظهروا في النصف الثاني من القرن العاشر، وادعوا عند العوام أنهم من أولياء الله الملامتية، ووافقهم العوام على الولاية؛ لجهلم بالشرعية أو بطريق الملامتية فاعتقدوهم مع شربهم الخمر، وأكل الحشيش، وتقبيل النساء والمردان، وصاروا يجيبون عنهم ويقولون: هؤلاء مجاذيب لا يشهدون إلا الله تعالى، وذلك زور وبهتان، وكأن لسان حال هؤلاء المعتقدين لهم يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبعث بالشريعة إلى مثل هؤلاء، وإن الشريعة التي خالفها هؤلاء كذلك كذب وليست عن الله تعالى، وذلك كفر صريح.

وأما ظنهم أن الملامتية لا يتظاهرون بأحكام الشريعة فهو كذب عليهم؛ إذ الملامتية في مصطلح القوم هم أكابر الرجال، وهم على قدم الإمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يتركون شيئًا من المأمورات الشرعية، فليتنبه الإخوان لمثل ذلك، فقد أجمع المشايخ على أننا لو رأينا شخصًا متربعًا في الهواء لا يجوز لنا اعتقاده إلا بعد أن ننظر حاله عند الأمر والنهي فربما كان ذلك المتربع شيطانًا فعل ذلك؛ ليغوي الناس.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: الملامتية عند القوم

هم من أحكم علم الشريعة وعمل به، وأخف بعض الأعمال التي تميزه عن أقرانه فقط لا من تظاهر بتعدي حدود الشريعة، فإن ذلك شيطان في صورة إنسان لا يجوز لنا اعتقاد الولاية فيه. وأما الذين يقلبون صورة الحشيش إلى الحلاوة، أو الخمر إلى السكر فأولئك أرباب الأحوال، وقد صرح أهل الطريق بعدم الاقتداء بهم، وما يفسدونه أكثر مما يصلحونه، فإياك يا أخي والخروج عن ظاهر الشريعة ثم إياك، والحمد لله رب العالمين(1).

---

(1) قال الشيخ ﷺ في الباب الخامس من «الفتوحات المكية»: «قوله: ﴿الله﴾ من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ ينبغي لك أيها المسترشد أن تعرف أولاً ما تحصل في هذه الكلمة الكريمة من الحروف وحينئذٍ يقع الكلام عليها إن شاء الله وحروفها: (ا ل ل ا الله) فأول ما أقول كلامًا مجملاً مرموزًا ثم نأخذ في تبيينه ليسهل قبوله على عالم التركيب، وذلك أن العبد تعلق بالألف تعلق من اضطر والتجأ ظهرته اللام الأولى ظهورًا ورثه الفوز من العدم والنجاة فلما صح ظهوره، وانتشر في الوجود نوره، وصح تعلقه بالسمي، وبطل تخلقه بالأسماء أفنته اللام الثانية بشهود الألف التي بعدها فناء لم تبق منه باقية، وذلك عسى ينكشف له المعمي ثم جاءت الواو بعد الهاء لتمكن المراد، وبقيت الهاء لوجوده آخرًا عند محو العباد من أجل العناد فذلك أوان الأجل المسمى، وهذا هو المقام الذي تضمحل فيه أحوال السائرين، وتنعدم فيه مقامات السالكين حتى يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل لا غير يثبت لظهوره ولا ظلام يبقى لنوره، فإن لم تكن تره اعرف حقيقة إن لم تكن تكن أنت إذ كانت التاء من الحروف الزوائد في الأفعال المضارعة للذوات وهي العبودية، يقول بعض السادة وقد سمع عاطسًا يقول: الحمد لله فقال له: ذلك السيد أتمها، كما قال الله رب العالمين فقال العاطس: يا سيدنا ومن العالم حتى يذكر مع الله؟ فقال له: الآن قله يا أخي، فإن المحدث إذا قرن بالقديم لم يبق له أثر، وهذا هو مقام الوصلة وحال وله أهل الفناء عن أنفسهم، وأما لو فني عن فنائه لما قال: الحمد لله؛ لأن في قوله: الحمد أثبت العبد الذي هو المعبر عنه بالرداء عند بعضهم وبالثوب عند آخرين، ولو قال: رب العالمين لكان أرفع من المقام الذي كان فيه فذلك مقام الوارثين ولا مقام أعلى منه؛ لأنه مشهود لا يتحرك معه لسان، ولا يضطرب معه جنان أهل هذا المقام في أحوالهم، فاغرة أفواههم، استولت عليهم أنوار الذات، وبدت عليهم رسول الصفات هم عرائس الله المخبئون عنده المحجوبون لديه الذين لا يعرفهم سواه كما لا يعرفون سواه توجهم بتاج البهاء وإكليل السناء، وأقعدهم على منابر الفناء عن القرب في بساط الأنس ومناجاة الديمومية بلسان القيومية أورثهم ذلك قوله: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: 23]، و﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج:33] فلم تزل القوّة الإلهية تمدهم بالمشاهدة فيبرزون بالصفات في موضع القدمين فلا وله إلا من حيث الاقتداء ولا ذكر إلا إقامة سنة أو فرض لا يحيدون عن سواء السبيل فهم بالحق، وإن خاطبوا الخلق وعاشروهم فليسوا معهم، وإن رأوهم لم يروهم إذ لا يرون منهم إلا كونهم من جملة أفعال الله فهم يشاهدون الصنعة والصانع مقامًا =

عمريًا كما يقعد أحدكم مع نجار يصنع تابوتًا فيشاهد الصنعة والصانع، ولا تحجبه الصنعة عن الصانع إلا إن شغل قلبه حسن الصنعة، فإن الدنيا كما قال ﷺ: «حلوة خضرة» وهي من خضراء الدمن جارية حسناء في منبت سوء من أحسن إليها وأحبها أساءت إليه وحرمت عليه أخراه؛ فهذه الطائفة الأمناء الصديقون إذا أيدهم الله بالقوة الإلهية وأمدهم فهم معه بهذه النسبة على وجه المثال، وهذا أعلى مقام يرقى فيه، وأشرف غاية ينتهي إليها هذه الغاية القصوى إذ لا غاية إلا من حيث التوحيد لا من حيث الموارد والواردات، وهو المستوى إذ لا استواء إلا الرفيق الأعلى فهنيئًا لهذه العصابة بما نالوه من حقائق المشاهدة، وهنيئًا لنا على التصديق والتسليم لهم بالموافقة والمساعدة بما ألهمنا من جواد اللسان في حلبة الكلام».

وقال ﷺ في هذا الباب من «الفتوحات»: «وصل في قوله: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ من البسملة الرحيم صفة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:128]، وبه كمال الوجود، وبـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ تمت البسملة، وبتمامها تم العالم خلقًا وإبداعًا، وكان ﷺ مبتدأ وجود العالم عقلاً ونفسًا متى كنت نبيًا؟ قال: «وآدم بين الماء والطين» فبه بدئ الوجود باطنًا، وبه ختم المقام ظاهرًا في عالم التخطيط، فقال: «لا رسول بعدي ولا نبي» فالرحيم هو محمد ﷺ و﴿بِسْمِ﴾ هو أبونا آدم ﵇ وأعني في مقام ابتداء الأمر ونهايته، وذلك أن آدم ﵇ هو حامل الأسماء قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] ومحمد ﷺ حامل معاني تلك الأسماء التي حملها آدم ﵇ وهي الكلم، قال ﷺ: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ» ومن أثنى على نفسه أمكن وأتم ممن أثني عليه كيحيى وعيسى - عليهما السلام- ومن حصل له الذات فالأسماء تحت حكمه، وليس من حصل الأسماء أن يكون المسمى محصلاً عنده، وبهذا فضلت الصحابة علينا؛ فإنهم حصلوا الذات، وحصلنا الاسم، ولما راعينا الاسم مراعاتهم الذات ضوعف لنا الأجر ولحسرة الغيبة التي لم تكن لهم فكان تضعيف على تضعيف فنحن الإخوان وهم الأصحاب وهو ﷺ إلينا بالأشواق، وما أفرحه بلقاء واحد منا وكيف لا يفرح وقد ورد عليه من كان بالأشواق إليه، فهل تقاس كرامته به وبره وتحفيه وللعامل منا أجر خمسين ممن يعمل بعمل أصحابه لا من أعيانهم لكن من أمثالهم، فذلك قوله: «بل منكم»(1)، فجدوا واجتهدوا حتى يعرفوا أنهم خلفوا بعدهم رجالاً لو أدركوه ما سبقوهم إليه، ومن هنا تقع المجازاة، والله المستعان».

وقال ﷺ في خلال هذا الباب في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:6] على الإيجاز، ثم قال: «بسط ما أوجزناه في هذا الباب: انظر كيف أخفى سبحانه أولياءه في صفة أعدائه، وذلك لما أبدع الأمناء من اسمه اللطيف وتجلى لهم في اسمه الجميل فأحبوه تعالى، والغيرة من صفات المحبة في المحبوب والمحب بوجهين مختلفين فستروا محبته غيرة منهم عليه كالشبلي وأمثاله وسترهم بهذه الغيرة عن أن يعرفوا فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ستروا ما بدا لهم في مشاهدتهم من أسرار الوصلة، فقال: لا بدّ أن أحجبكم عن ذاتي بصفاتي فتأهبوا لذلك فما استعدوا فأنذرتهم على

ألسنة أنبيائي الرسل في ذلك العالم فما عرفوا؛ لأنهم في عين الجمع، وخاطبهم من عين التفرقة، وهم ما عرفوا عالم التفصيل فلم يستعدوا، وكان الحب قد استولى على قلوبهم سلطانه غيرة من الحق عليهم في ذلك الوقت، فأخبر نبيه ﷺ روحًا وقرآنًا بالسبب الذي أصمهم عن إجابة ما دعاهم إليه فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:7] فلم يسعها غيره، ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ فلا يسمعون سوى كلامه على ألسنة العالم؛ فيشهدونه في العالم متكلمًا بلغاتهم، ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ من سناه، إذ هو النور وبهائه إذ له الجلال والهيبة يريد الصفة التي تجلى لهم فيها المتقدمة فأبقاهم غرقى في بحور اللذات بمشاهدة الذات، فقال لهم: لا بد لكم من عذاب عظيم، فما فهموا ما العذاب لاتحاد الصفة عندهم فأوجد لهم عالم الكون والفساد، وحينئذٍ علمهم جميع الأسماء، وأنزلهم على العرش الرحمانيّ وفيه عذابهم، وقد كانوا مخبوئين عنده في خزائن غيوبه فلما أبصرتهم الملائكة خرت سجودًا لهم فعلموهم الأسماء، فأما أبو يزيد فلم يستطع الاستواء، ولا أطاق العذاب فصعق من حينه، فقال تعالى: «ردوا عليّ حبيبي فإنه لا صبر له عني» فحجب بالشوق والمخاطبة، وبقي الكفار فنزلوا من العرش إلى الكرسي؛ فبدت لهم القدمان فنزلوا عليهما في الثلث الباقي من ليلة هذه النشأة الجسمية إلى سماء الدنيا النفسي؛ فخاطبوا أهل الثقل الذين لا يقدرون على العروج: «هل من داع فيستجاب له؟ هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من مستغفر فيغفر له حتى ينصدع الفجر»، فإذا انصدع ظهر الروح العقلي النُّوري فرجعوا من حيث جاءوا، قال ﷺ: «من كان مواصلاً فليواصل حتى السَّحر»فذلك أوان بعثر ما في القبور، فكل عبد لم يحذر مكر الله فهو مخدوع فافهم.

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثالث والعشرين في معرفة الأقطاب المصونين، وأسرار منازل صونهم: «اعلم - أيدك الله- أن هذا الباب يتضمن ذكر عباد الله المسمين بالملامتية، وهم الرجال الذين تحلوا من الولاية في أقصى درجاتها، وما فوقهم إلا درجة النبوة، وهذا يسمى مقام القربة في الولاية، وآيتهم من القرآن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن:72] ينبه لنعوت نساء الجنة وحورها على نفوس رجال الله الذين أقتطعهم إليه، وصانهم وحبسهم في خيام صون الغيرة الإلهية في زوايا الكون أن تمتد إليهم عين فتشغلهم لا والله ما يشغلهم نظر الخلق إليهم لكنه ليس في وسع الخلق أن يقوموا بما لهذه الطائفة من الحق عليهم لعلو منصبها فتقف العباد في أمر لا يصلون إليه أبدًا، فحبس ظواهرهم في خيمات العادات والعبادات من الأعمال الظاهرة والمثابرة على الفرائض منها والنوافل، فلا يعرفون بخرق عادة فلا يعظمون ولا يشار إليهم بالصلاح الذي في عرف العامة مع كونهم لا يكون منهم فساد فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء في العالم الغامضون في الناس، فيهم قال رسول الله ﷺ عن ربه ﷻ: «إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنَ الصَّلَاةِ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ» يريد أنهم لا يعرفون بين الناس بكبير عبادة، ولا ينتهكون المحارم سرًا وعلنًا. قال بعض الرجال في صفتهم لما سئل عن العارف قال: مسود الوجه في الدنيا والآخرة في تجليات الحق له، ولا يرى الإنسان عندنا في مرآة الحق إذا تجلى له غير نفسه ومقامه، وهو كون من الأكوان،

والكون في نور الحق ظلمة، فلا يشهد إلا سواده؛ فإن وجه الشيء حقيقته وذاته.

ولا يدوم التجلي إلا لهذه الطائفة على الخصوص فهم مع الحق في الدنيا والآخرة على ما ذكرناه من دوام التجلي وهم الأفراد، وأما إن أراد بالتسويد من السيادة، وأراد بالوجه حقيقة الإنسان أي: له السيادة في الدنيا والآخرة فيمكن، ولا يكون ذلك إلا للرسل خاصة؛ فإنه كمالهم، وهو في الأولياء نقص؛ لأن الرسل مضطرون في الظهور لأجل التشريع، والأولياء ليس لهم ذلك ألا ترى الله سبحانه أكمل الدين كيف أمره في السورة التي نعى الله إليه فيها نفسه فأنزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر:1، 2] كمل ما أريد منه من تبليغ الرسالة، وطلب بالاستغفار أن يستره عن خلقه في حجاب صونه لينفرد به دون خلقه دائمًا، فإنه كان في زمان التبليغ والإرشاد وشغله بأداء الرسالة فإن له وقتًا لا يسعه فيه غير ربه وسائر أوقاته فيما أمر به من النظر في كان توابًا، أي: يرجع الحق إليك رجوعًا مستصحبًا لا يكون للخلق عندك فيه دخول بوجه من الوجوه. ولما تلا رسول الله ﷺ هذه السورة بكى أبو بكر الصديق ﷺ وحده دون من كان في ذلك المجلس، وعلم أن الله تعالى قد نعى إلى رسول الله ﷺ نفسه، وهو كان أعلم الناس به وأخذ الحاضرون يتعجبون من بكائه ولا يعرفون سبب ذلك.

والأولياء الأكابر إذا تركوا وأنفسهم لم يختر أحد منهم الظهور أصلاً؛ لأنهم علموا أن الله ما خلقهم لهم ولا لأحد من خلقه بالتعلق من القصد الأول، وإنما خلقهم له سبحانه فشغلوا أنفسهم بما خلقوا له، فإن أظهرهم الحق عن غير اختيار منهم بأن يجعل في قلوب الخلق تعظيمهم فذلك إليه سبحانه ما لهم فيه تعمل، وإن سترهم فلم يجعل لهم في قلوب الناس قدرًا يعظمونهم من أجله فذلك إليه تعالى فهم لا اختيار لهم مع اختيار الحق، فإن خيرهم ولا بد فيختارون الستر عن الخلق والانقطاع إلى الله، ولما كان حالهم ستر مرتبتهم عن نفوسهم فكيف عن غيرهم تعين علينا أن نبين منازل صونهم. فمن منازل صونهم أداء الفرائض في الجماعات، والدخول مع الناس في كل بلد بزي ذلك البلد، ولا يوطن مكانًا في المسجد، وتختلف أماكنه في المسجد الذي تقام فيه الجمعة حتى تضيع عينه في غمار الناس، وإذا كلم الناس فيكلمهم ويرى الحق رقيبًا عليه في كلامه، وإذا سمع كلام الناس سمع كذلك، ويقلل من مجالسة الناس إلا من جيرانه حتى لا يشعر به، ويقضي حاجة الصغير والأرملة ويلاعب أولاده وأهله بما يرضي الله تعالى، ويمزح ولا يقول إلا حقًا. وإن عرف في موضع انتقل عنه إلى غيره، فإن لم يتمكن له الانتقال استقصى من يعرفه وألح عليهم في حوائج الناس حتى يرغبوا عنه، وإن كان عنده مقام التحول في الصور تحول كما كان للروحاني التشكل في صور بني آدم فلا يعرف أنه ملك وكذلك عند الله؛ لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله فليس لهم جلوس إلا مع الله، ولا حديث إلا مع الله فهم بالله قائمون، وفي الله ناظرون، وإلى الله راحلون ومنقلبون، وعن الله ناطقون، ومن الله آخذون، وعلى الله متوكلون، وعند الله قاطنون، فما لهم معروف سواه، ولا مشهود إلا إياه، صانوا نفوسهم عن نفوسهم، فلا تعرفهم نفوسهم، فهم في غيابات الغيب محجوبون هم ضنائن الحق المستخلصون، يأكلون الطعام، ويمشون في

ومن أخلاقهم: كثرة صفحهم وحملهم على من خاطبهم بقلب غافل، وإن كان الأدب من المريد ألا يخاطب شيخه إلا مع حضور القلب، وذلك تخلقًا بأخلاق الله تعالى في عدم معالجته بالعقوبة على من ناجاه بقلب غافل، ولو أن الشيخ كلف مريده ألا يخاطبه إلا على الحضور الكامل لكلفه شططًا، ثم لا يقدر على الدوام على ذلك؛ لأن ما لا يطيق غالب الناس المداومة عليه مع الله العظيم، فكيف يقدرون في المداومة عليه مع بعضهم بعضًا؟! على أن ذلك إن وقع من الأشياخ فإنما هو على وجه الإدمان فيهم؛ ليترقى المريدون به إلى مقام مخاطبة الله تعالى على الحضور، فكأنهم يقولون للمريد: لا تخاطبنا قط إلا مع الحضور بقلبك معنا؛ لتترقى إلى الحضور بقلبك إذا خاطبت ربك ﷻ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: بداءة من يرونه محتاجًا بالعطية، ومتى قالوا لهم فقد خرجوا من طريق القوم؛ لإخلالهم بواجب حق أخيهم، [ولذلك قيل لبعضهم في العطية] بمن نبدأ؟ فقال: بمن يرق قلبكم عليه أكثر، وهذا الخلق من جملة أخلاق المريدين فضلاً عن العارفين، وقل من يفعله الآن من مشايخ هذا الزمان.

وقد ادَّعى شخص من أكابر فقراء هذا العصر أنه يحبني مثل ولده وحلف على ذلك، فسألته أن يرب لي نصفًا من العشرين نصفًا التي له في الجوالي كل يوم، فحك خلف أذنه وقال: حتى أجد في نفسي واردًا بذلك فله الآن عشرون سنة ولم يجيئه وارد، فأين دعواه المحبة؟ وما هكذا درج السلف الصالح الذين أدركناهم.

وأصل ذلك إحكامهم مقام الزهد في الدنيا قبل التمشيخ، وقد عددت عائلة هذا الشيخ فوجتهم خمسة أنفس فقط اللهم إلا أن يزعم ذلك الشيخ أطلعه كشفه على أنه لا نصيب للسائل فيما سأل أو ادعى أن ذلك الشيء يطغى السائل، فينبغي التسليم له؛ لأنه لم يمنع عن بخل، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة سترهم لعورات المسلمين التي يسرون بها ولا يعلنون، وإن اطلع أحدهم على عورة لا يحدث بها أحدًا من أصحابه فضلاً عن أعدائه؛ تخلقًا

-

الأسواق مشى ستروا كل حجاب.

فهذه حالة هذه الطائفة المذكورة في هذا الباب تتمة شريفة لهذا الباب. انظر: «مرآة الأصفياء في صفات الملامتية الأخفياء» (ص13)، بتحقيقنا.

بأخلاق الله تعالى، وطلبًا لأن يستر الله تعالى عورته في الدنيا والآخرة، فإن الله تعالى يجازي العبد من جنس عمله.

وممن صحبته من أهل هذه المقام الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني[1]، والشيخ سراج الدين الحانوتي[2]، وسيدي أحمد الراشدي[3] وسيدي

---

(1) هو سيدي محمد الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام الخطيب شمس الدين الشربيني القاهري الشافعي. أخذ عن الشيخ أحمد البرلسي. الملقب عميرة، والشيخ نور الدين المحلي، والشيخ نور الدين الطهواني، والشمس محمد بن عبد الرحمن بن خليل النشلي الكردي، والبدر المشهدي، والشيخ شهاب الدين الرملي، والشيخ ناصر الدين الطبلاوي، وغيرهم، وأجازوه بالإفتاء، والتدريس، فدرس، وأفتى في حياة أشياخه، وانتفع به خلائق لا يحصون، وأجمع أهل مصر صلاحه ووصفوه بالعلم والعمل، والزهد والورع، وكثرة النسك والعبادة، وشرح كتاب المنهاج والتنبيه شرحين عظيمين جمع فيهما تحريرات أشياخه بعد القاضي زكريا، وأقبل الناس على قراءتهما، وكتابتهما في حياته وله على الغاية شرح مطول حافل، وكان من عادته أن يعتكف من أول رمضان فلا يخرج من الجامع إلا بعد صلاة العيد، وكان إذا حج لا يركب إلا بعد تعب شديد يمشي كثيراً عن الدابة، وكان إذا خرج من بركة الحاج لم يزل يعلم الناس المناسك، وآداب السفر، ويحثهم على الصلاة، ويعلمهم كيف القصر والجمع، وكان يكثر من تلاوة القرآن في الطريق، وغيره، وإذا كان بمكة أكثر من الطواف ومع ذلك كان يصوم بمكة والسفر أكثر أيامه، ويؤثر على نفسه كان يؤثر الخمول، ولا يكترث بأشغال الدنيا وبالجملة كان آية من آيات الله تعالى، وحجة من حججه على خلقه أثنى عليه الشعراوي كثيراً، ولم يؤرخ وفاته، وقرأت بخط الشيخ شمس الدين بن داود نزيل دمشق نقلاً عن بعض الثقات أنه توفي بعد العصر يوم الخميس ثامن شعبان سنة سبع وسبعين بتقديم السين فيهما وتسعمائة وهي سنة ميلادي رحمه الله تعالى. [الكواكب السائرة (394/1)].

(2) هو سيدي عمر الإمام الفاضل الفقيه المتبحر سراج الدين القاهري الحنفي، صاحب الفتاوى المشهورة، وابنه محمد بن عمر، الإمام الحبر الفقيه المفتي شمس الدين القاهري الحنفي، له فتاوى في مجلد كبير مشهور. توفي سنة 1010 [ديوان الإسلام 36/1].

(3) هو سيدي أحمد بن محمد بن شاهين الراشدي الشافعي الأزهري الشيخ الامام العالم الفقيه الفرضي الحيسوب أبو العباس نجيب الدين تفقه على الشيخ مصطفى العزيزي والشمس محمد الفرضي العشماوي وأخذ علم الحساب والهندسة عن الشمس محمد الغمري وسمع الحديث على كل من عيد بن علي النمرسي وعبد الوهاب بن أحمد بن بركات الطنتدائي والشمس محمد الورزازي النمرسي والطنتدائي عن الجمال عبد الله بن سالم البصري ومحمد الزرقاني وبرع صاحب الترجمة وأنتشر صيته ودرس وأفاد وأخذ عنه جماعة كثيرون منهم ثعيلب بن سالم الفشني وهبة الله بن محمد الناجي وغيرهما وتوفي في سنة ثمانين ومائة وألف عن ثمانين سنة

محمد الظاهري[1] موقع السلطان فجزاهم الله تعالى عن المسلمين خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة توبيخ نفوسهم إذا اطلعوا على عورة أحد المسلمين، ويقولون لها: لولا تشوقك للاطلاع على عيوب الخلق ما وقعت على عورة أحد، ولو كنت كارهه لحماك الحق من ذلك، انتهى.

وأعرف جماعة إذا اطلعوا على عورة أحد لا يحدثون بذلك نفوسهم بعد الاطلاع إنما ينسون ذلك حتى كأنهم لم يطلعوا على عورة أحد، وإن وقع أن أحدهم حدَّث بذلك نفسه ندم واستغفر الله تعالى كما يندم، ويستغفر إذا شرب خمرًا، فجزاهم الله تعالى عن إخوانهم خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم ازدرائهم الناس إذا وقعوا في معصية، وإنما يخافون أن يبتلوا بما ابتلي به من المعاصي، ومن كان هذا مشهده ألهاه عن احتقاره الناس، وفي الحديث: **«من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»**[2] انتهى.

ووقع ذلك لبعض الصحابة تصديقًا لكلامه ﷺ، فالعاقل مشغول بهم نفسه إذا رأى أحدًا في معصية وقع خوفًا أن يقع الآخر فيها، فإنه معرض لمثل ذلك لاسيما الأكابر من العلماء والفقراء لشدة اتهامهم لنفوسهم، فيقول العاقل لنفسه: إذا كان هؤلاء الذين هم في المقام قد وقعوا في هذه الرذيلة، فكيف أسلم أنا؟.

وكان سيدي علي الخواص يكني عن مثل ذلك، ويقول: إذا كان الحلو ضرب مقارع، فكيف بالحامض، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الاعتناء بستر عورة عدوهم أكثر من عورة صديقهم؛ لأن كشف عورة العدو ربما يمازجه الشماتة به، ولم تسمح نفس العدو ببراءة ذمته من

-

تقريبًا رحمه الله تعالى. انظر: [سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (137/1)].

(1) هو سيدي عمر الإمام الفاضل الفقيه المتبحر سراج الدين القاهري الحنفي، صاحب الفتاوى المشهورة، وابنه محمد بن عمر، الإمام الحبر الفقيه المفتي شمس الدين القاهري الحنفي، له فتاوى في مجلد كبير مشهورة. توفي سنة 1010 [ديوان الإسلام 36/1].

(2) رواه الترمذي (661/4 ، رقم 2505)، وابن أبي الدنيا في الصمت (170/1، رقم 288).

تنبيه: وقع في المطبوع مضطربًا، ومصحفًا. والصواب ما أُثبت كما في مصادر السنة.

مثل ذلك.

وقد قيل لمالك بن دينار[1]: هل تحب النصح في الملأ؟ فقال: أما من عدوى فلا.

فإياك يا أخي والتساهل بإشاعة كلام فيه نقص لعدوك، وتزعم أنك ما أشعت ذلك عنه إلا لكونه تجاهر به، فإن الناقد بصير، وهذا من أعظم أخلاقهم ولا يكاد يتخلق به إلا من راضَ نفسه كل الرياضة.

وقد كان سيدي علي الخواص يجيب عن أعدائه بأحسن جواب، وما سمعته قط يذكر عدوه بنقص لا تصريحًا ولا تعريضًا، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم المبادرة إلى الإنكار على عالم أو صالح نقل عنه غلطة في الشريعة أو زلة من الزلات إنما يتربصون ويفتشون حال ذلك الشخص على ما نقل عنه، فإن رأوا مثله يقع في مثل ذلك سكتوا، وإن رأوا مثله يبعد وقوعه فيه أجابوا عنه بأحسن جواب ويقولون: هذا كذب وافتراء على فلان، وهذا من محاسن أخلاقهم، وقل في هذا الزمان من يثبت في مثل ذلك من الفقراء الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن العاشر إنما يصير أحدهم يقول: ما دريتم ما جرى؟ فلان وقع منه كذا وكذا، ويجعل أن ذلك الأمر وقع منه، وربما كان كذبًا وزورًا عليه فيعتمد تلامذته القاصرون على قوله ويصيرون يحكون ذلك للناس، وإن عارضهم أحد فيه يقولون: مثل سيدي الشيخ لا يكذب ولا يحكي إلا الصحيح، وقد حدث لي ذلك لما دسوا في كتبي ما دسوا، فصار بعض المشايخ يحكون ذلك على سبيل القطع، ويقع هو وأصحابه في عرضي، فالله يغفر لنا ولهم فإياك يا أخي أن تقع في مثل ذلك ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مشاركتهم في الفرح والسرور لمن ولد له مولود، ومساعدتهم له في عمل العصيدة والعقيقة إن كان حاله ضيقًا لاسيما الجار، وهذا من

---

(1) قال الذهبي: هو علم العلماء الأبرار، معدود في ثقات التابعين ومن أعيان كتبة المصاحف، ولد في أيام ابن عباس وسمع من أنس بن مالك فمن بعده، وحدث عنه وعن الأحنف بن قيس وسعيد بن جبير والحسن البصري ومحمد بن سيرين والقاسم بن محمد وعدة، وحدث عنه سعيد بن أبي عروبة وعبد الله بن شوذب وهمام بن يحيى وأبان بن يزيد العطار وعبد السلام بن حرب والحارث بن وجيه وطائفة سواهم، وثقه النسائي وغيره، واستشهد به البخاري، وحديثه في درجة الحسن. وانظر: سير أعلام النبلاء (362/5).

أعظم أخلاقهم، وغالب الناس لا يحتفل بمثل ذلك، ولا يساعده الجار الفقير بدقيق ولا عسل ولا غير ذلك، ونسي قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: 36] وغير ذلك من الآيات والأخبار.

فعلم أن كل من ادَّعى الولاية وأخلَّ بحق جاره تساهلاً مع القدرة على وفاء حقه فهو كاذب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حفظهم مقام إخوانهم في غيبتهم فضلاً عن حضورهم، فإذا رأوا مريدًا لم يفتح عليه مع طول صحبته لأحد من إخوانهم يعتذرون عنه، ولا يقولون: لو كان هذا صادقًا في دعواه الطريق لفتح على مريده، وإنما يقولون: لو قسم الله تعالى للمريد الفلاني على يدهم شيئًا لنا له، ولكنه لم يقسم لهم شيئًا على يدهم.

قال تعالى في حق رسوله ﷺ الذي هو أكمل المرسلين: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة:99] ولما تكدر ﷺ لعدم قبول قومه ما جاء به من الهدى أنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: 35]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: 13].

فعلم أن كل من ادَّعى الولاية وأنكر على كل شيخ لم يفتح على مريده، فهو جاهل بالشريعة حسود لإخوانهم لم يشم من طريق الصالحين رائحة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يسألون ولا يردون ما أعطوه من الحلال ولا يدخروه، وهي طريقة مستقيمة وأدلتها مشهورة في الكتاب والسنة، وقد يخالفونها كذلك لأدلة أخرى وأغراض صحيحة؛ لأنهم لا يخرجون عن الشريعة في شيء من أحوالهم غالبًا، بخلاف غيرهم حيث يفتي في غير محل لم يؤمر فيه بالسؤال، ويرد في موضع أمر فيه بالأخذ، ويدخر لغير غرض شرعي، فعلم أنه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار على من رأيناه يسأل منهم أو يرد أو يدخر، بل نسلم له حاله بالطريق الشرعي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن سياستهم لزوجتهم إذا تزوجوا عليها، وعدم شكر الجديدة بحضرة العتيقة بقصد تميل خاطر العتيقة إليها، فإن ذلك مما يزيدها منها نفرة؛ لأن شكرها يؤذن بزيادة محبتها، فكأنه يقول للعتيقة: أنا أحب الجديدة أكثر منك لدينها وصلاتها ونحو ذلك، وهذا يقع فيه كثير من الفقراء الساذجين، وقد أنشد سيدي عبد العزيز الديريني ﷺ في ذلك:

تَـزَوَّجْتُ اثْنَتَيْنِ لِفَرْطِ جَهْلِي ... عَسَى بِزَوَاجِهِنَّ تَقَرُّعَيْنِي

فَقُلْتُ أَعِيشُ بَيْنَهُمَا خَرُوفًا ... لأَنْعَمَ بَيْنَ أَكْرَمِ نَعْجَتَيْنِ

فَجَاءَ الحَالُ عَكْسَ الحَالِ دَوْمًا ... عَذَابٌ دَائِمٌ بِبَلِيَّتَيْنِ

رِضَا هَذِي يُحَرِّكُ سُخْطَ هَذِي ... فَلاَ أَخْلُو مِنَ إِحْدَى السُّخْطَتَيْنِ

لِهَذِي لَيْلَةٌ وَلِتِلْكَ أُخْرَى ... نِقَارٌ دَائِمٌ فِي اللَّيْلَتَيْنِ

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيدًا ... مِنَ الْخَيْرَاتِ مَمْلُوءَ الْيَدَيْنِ

فَعِشْ عَزْبًا وَإِن لَّمْ تَسْتَطِعْهُ ... فَوَاحِدَةٌ تُكَفِّي عَسْكَرَيْنِ

ولكن لم يزل الأولياء في كل عصر يبتلون بسوء خلق زوجاتهم إما اختبارًا من الله تعالى، وإما ليتأسى بهم أصحابهم إذا صبروا، وإما تحملاً منهم لأذى تلك المرأة عن الناس الذين يتزوجونها بحكم الفرض والتقدير. وأما قول الفضيل بن عياض: إني لأعصى الله تعالى، فأعرف ذلك في خلق حماري وزوجتي، فهو جرى على الغالب فلا يلزم من سوء خلق المرأة سوء خلق ذلك الولي، وقد أجمع الفقراء في عصرنا هذا على حسن خلق سيدي علي الخواص، وسيدي محمد السروي، والشيخ عثمان الخطاب وعثمان الديمي[1]، ومع ذلك فقد كانت زوجاتهم في أسوء الخلق.

ومن ذلك أن زوجة سيدي علي الخواص كانت تعتقد نجاسته، وحكي لي مرة أنه غلط مرة فشرب من كوزها فصارت تحكه بشقفة حتى ظهر أثر الحك في فم الكوز،

(1) هو عثمان الديمي، هو ابن محمد بن عثمان بن ناصر، عثمان المغربي نزيل القاهرة، صحب الظاهر جقمق وقربه معتقدًا فيه الصلاح والخير بحيث صار ذا وجاهة وقصد في الشفاعات والحوائج ثم أبعده وأهين من ناصر الدين ابن المخلطة بما نسب إليه في القاياتي ونحوه واستمر خاملاً حتى مات، وقد أسن في أول جمادى الأولى سنة تسع وسبعين أو في أواخر ربيع الثاني وكان قد عمل شيخ المغاربة بيت المقدس وقتاً ولم يكن بالمرضي عفا الله عنه. [الضوء اللامع (3/ 10)].

وكانت تهجره في الفراش السنة وأكثر، ومع ذلك لما ماتت تبع جنازتها براية بيضاء على جريدة إلى أن أدخلها القبر، وقال: خاطركِ علينا في عدم الوفاء بحقك، ونحن نسألك بالنبي ﷺ أن تسامحينا، ثم انصرف حزينًا عليها، فقلت له: ما وجهه الحزن عليها مع ما كانت عليه من سوء الخلق؟ فقال: كان يحصل لنا على يديها الخير والأجر، ونتمرن عليها في الصبر، وما في أحد يخلفها في ذلك، ونحن نحب أن نفارق الدنيا على البؤس والشدة، فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: سترهم لأحوالهم ما أمكن، ولا يظهرون شيئًا من كمالاتهم إلا إن أمرهم الشرع بذلك كأن كانوا في محل يقتدى بهم فيه، فإن الإنسان كلما كتم أحواله كلما استنار قلبه، وكلما أفشاه أظلم قلبه؛ لخروج نور الأعمال منه، وفرق عظيم بين الصادق الذي يتمنى أنه ينزل تحت الأرض السابعة حتى لا يعلم به، ومن يحب الظهور ويود أن الناس كلهم يعرفون فضله.

وقد درج السلف الصالح كلهم على محبة الخفاء؛ لأنها طريق السلامة فلا يجوز أن يتميزوا عن أقرانهم بخلق غريب محمود إلا لغرض شرعي حتى كان أحدهم إذا درس أو وعظ يمسك الكتاب ويعظ منه أو يدرس إيهامًا للحاضرين أنه عاجز عن الوعظ والتدريس على ظهر قلب مع أنه لو تكلم بما في قلبه ما حمله مركب إذا الكاملون لا تنحصر علومهم فيما وضعه الناس في الكتب.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد شيخ الطريق لا يعظ النساء إلا من كراس؛ إظهارًا للضعف مع أنه كان من الراسخين في العلم، ولما أنكر عليه الشيخ سراج الدين البلقيني ورماه بالجهل وكان إذ ذاك في جامع الأزهر خرج له الشيخ في حال كالدم الأحمر إلى أن دخل الجامع ونصب الكرسي في صحن الجامع وصاح في الناس بأعلى صوته من يسألني عن كل علم نزل من السماء إلى الأرض أخبره به، فاجتمع عليه خلائق، فلما صحا قال للناس: من جاء بي إلى هنا وأجلسني على الكرسي؟ فقالوا له: لم يفعل ذلك أحد وأنكم عملتم كذا وكذا، وقلتم كذا وكذا، فقال: هل خرج لنا أحد يسألنا فقالوا له: لا، فقال: الحمد لله لو أن أحدًا خرج لنا لافترسناه، أو قال اختطفته الجن، انتهى.

فاجتهد يا أخي أن تبلغ مقام الكمل في العلم، ثم استتر وإياك أن تعظ الناس من كتاب عجزًا وتوهمهم أنك قادر على وعظهم وتدريسهم من غير كتاب فتقع في النفاق والرياء وتحرم بلوغ ذلك المقام والناقد بصير.

وقد كان سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: والله ما خرجت للناس إلا بعد أن هُددت بالسلب مرات.

وطلب أهل مدينة بجاية بالمغرب من سيدي الشيخ أبي مدين ﷺ أن يعظهم فأبى فألحوا عليه، فخرج وكان على بابه شجرة نبق، فطارت العصافير لما رأوه فرجع وقال: إن من نفرت منه الطيور لا يصح أن يكن داعيًا إلى الله تعالى، فلم يزل في بيته حتى خرج فتبعته العصافير إلى مجلسه، وصارت تضرب بمناقيرها في الأرض حين سمعت وعظه حتى ماتت.

ولما أتى الوارد إلى سيدي يوسف العجمي أنه يأتي إلى مصر من مدينة «كوران» عاوده الوارد فقال: خاطر نفساني، فسمع هاتفًا يقول: يا يوسف اذهب إلى مصر مرتين أرشد الناس، وهو يقول: هذا شيطان، فلما خاطبه الثالثة قال: اللهم إن كان هذا وارد حق من قبلك يا رب فاقلب لي هذا النهر لبنًا حتى أغرف منه بقصعتي هذه وأشرب فانقلب ذلك النهر لبنًا وشرب منه وأسقى الناس، ثم ذهب إلى مصر ملحقه سيدي حسن التستري[1]، وقيل أنه كان في مصر قبله، فقال لي سيدي يوسف: يا أخي الطريق في كل عصر لا تكون إلا لواحد والباقي مساعد له، فإما أن تبرز أنت لإرشاد الناس وأكون أنا خادمك، وإما أن أبرز أنا وتكون أنت خادمي تفخيمًا لي حتى يعظمني الناس فيقبلوا نصحي وإرشادي، فاستقر الأمر على بروز سيدي يوسف وشدَّ سيدي حسن وسطه، ووقف لخدمة سيدي يوسف مع أنه كان أرقى في المقام من سيدي يوسف كما

---

(1) في المطبوع: (حسين)، وهو سيدي حسن التستري رفيق الشيخ يوسف العجمي وتلميذه.

كان عظيم الشأن واضح البرهان، تصدى للمشيخة بعد العجمي بإقليم مصر، وقصد من الآفاق، وانتهت إليه رئاسة الطريق بالاستحقاق. وأخذ الناس عنه طبقة بعد طبقة، وهرع إليه الأكابر، وزراء السلطان فمَن دونه. وله أحوال عجيبة، وكرامات غريبة، منها أن العسكر أقبل عليه وانقاد إليه، حتى قدم طاعته على طاعة السلطان، فاضطرب السلطان، وأمر بنفيه. وكان قد خرج بفقرائه إلى المطرية، فنزل الوزير ليقبض عليه فلم يجده، فجاء إلى باب زاويته فجعله مسدودًا، فلما رجع الشيخ ووجده كذلك قال: نحن نسد منافذ بدنه، فانسد مخرجه، وعمي، وخرس، واحتبس نفسه، فمات فورًا. فنزل إليه السلطان، وترضاه، ولما أراد ابن أبي الفرج تربيع جنينته، حكم التربيع على إدخال زاوية الشيخ فيها، فقال لخادمه: انقله إلى محل كذا، وأنا أبني عليه زاويته، فرآه الخادم في النوم وقال: قل له لا ينقلنا ننقله. فأخبره فقال: هذه أضغاث أحلام، وشرع في نقله، فمات حالاً. مات سنة سبع وتسعين وسبعمائة، ودفن بزاويته بقنطرة الموسكي على الخليج. وانظر: الطبقات الكبرى (66/2)، والكواكب الدرية (598).

فعل سيدي علي المرصفي وغيره، فهكذا كان السلف الصالح ﷺ فالصادق من اقتدى بهم، ولم يظهر من كماله شيئًا إلا بالميزان الشرعي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة محبتهم للسادة الأشراف ﷺ إكرامًا لجدهم ﷺ من حيث أنهم بضعة من ﷺ، ومن إجلالهم ألا يجلس أحدنا فوق صفة أو طراحة وهم تحتها، وألا يتزوج أحدنا شريفة منهم إلا إن كان يعد نفسه عبدًا لها، ويقدم لها نعلها كلما أرادت تمشي، ويقوم لها كلما جاءت بعد تواريها بجدار أو ستار، ومن إجلالها ألا يتزوج عليها، ولا يتسرى عملاً بقوله ﷺ: «**أما إني لا أحرم ما أحل الله تعالى، ولكن إن كان ابن أبي طالب يتزوج على ابنتي فليطلقها، فإن فاطمة بضعة مني يسوءني ما يسوءها، ويسرني ما يسرها**»[1] فرجع علي عن خطبته لابنة أبي جهل، وكان على قد خطبها على السيدة فاطمة - عليها السلام - .

وكذلك من إجلال الشريفة ألا يقتر أحدنا عليها المعيشة إلا إن اختارت هي ذلك ولا تسأله شيئًا هو قادر عليه من أمور الدنيا فيمنعها منه، ولا ينظر إليها إذا كانت أجنبية لشهادة أو معالجة إلا وهو في غاية الخجل من رسول الله ﷺ، ولا ينظر إليها في الإزار إذا مرت أو جلست عنده إلا لغرض صحيح شرعي، وتأمل أنت إذا رأيت أحدًا يرمق لما يظهر من ابنتك وهي في الإزار كيف تتكدر منه فكذلك رسول الله ﷺ.

وقد ذكر الجلال السيوطي وغيره أنه كان يحرم نظر زوجاته - رضي الله عنهن - وبناته في الإزار، وما ثبت للأصل ثبت للفرع وإن تفاوت المقام.

وكذلك من إجلال الشريف ألا يمر أحدنا عليه، وهو جالس في الطرقات يسأل فلسًا ورغيفًا إلا ويعطيه ما طلب أو فوقه ولو أننا أعطيناه عمامتنا أو ثيابنا لكان أفضل لاسيما إن كان يقول: أعطوني كذا لأجل الله تعالى، أو لأجل جدي ﷺ، وكذلك من إجلاله إذا كان لنا عليه حق، وهو يماطل فيه ألا نشتكيه من حاكم ولا نحبسه ولا نوبخه ولا نقول له: حاشا أن تكون شريفًا ونحو ذلك من الألفاظ، ولا نطالبه قط بعنف، وإذا ضربنا أو أخذ مالنا نرى ذلك من باب إجراء المقادير عن الله تعالى علينا بلا واسطة أحد من الخلق، فإما نرضى وإما نصبر لا أنزل من ذلك فإن ما بعده إلا السخط وذلك في غاية سوء الأدب.

وتقدم أن من جملة الأدب مع الشريف: أن نعزم عليه بأنه يفتتح بنا مجلس

---

(1) رواه البخاري (1361/3) بنحوه، ومسلم (1902/4) بنحوه.

الذكر، وألا يفتتح مجلس الذكر إلا بحضرته ولو كان أصغر سنًا منا، أو معدومًا من العوام أدبًا مع جده ﷺ، وكذلك لا نتخذه تلميذًا لنا فنستخدمه كما نستخدم المريدين كما يقع فيه من لا أدب له من المتمشيخين، بل ننصحه بشريعة جده من غير رؤية نفوسنا من جملة أشياخه، وقد بسطنا الكلام على حقوق الشرفاء في «المنن» وفي «مختصر الفتوحات المكية» فراجعهما، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حفظ حرمة أشياخهم بعد موتهم فضلاً عن حياتهم، فلا يتزوجون لهم مطلقة ولا من توفوا عنها، فإن حرمة الأشياخ في الإفادة كحرمة الآباء في الولادة، وربما قتله الشيخ بالحال كما وقع لسيدي محمد الشويمي، وسيدي محمد بن عنان، وسيدي بهاء الدين المجذوب فطعنوا من تزوج امرأتهم فماتت في المنام، وهذا الفعل وإن كان جائزًا في ظاهر الشرع فما كل جائز يكون فعله أولى، ويكفينا في النفرة من مثل ذلك التجربة، وما نقل عن بعض الشاذلية من أذنهم لتلامذتهم في تزوج حلائلهم من بعدهم أو بعد طلاقهم لهن، فإنما ذلك غيرة للجناب المحمدي أن يشاركه أحد في خصوصيته، وذلك خارج عن ما نحن فيه، ولا يقدح في أدب المريد، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم المزاحمة لمشايخ عصرهم على تلقين الذكر وأخذ العهد لاسيما إن كانوا أقدم منهم هجرة في الطريق إلا إن جاءهم إذن من سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ مثلاً، فحينئذ يزاحمون مشايخ عصرهم امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ أو غيره من الأكابر.

فإن لم يقع لهم منه إذن صريح فمن الأدب أن يحولوا من طلب منهم التلقين مثلاً إلى المشايخ الذين هم أقدم منهم هجرة، وإن رأوا من الطالب قلة اعتقاد في مشايخ العصر حسنوا فيهم اعتقاده بحسب الطاقة، ولم أجد لهذا الخلق في مصر فاعلاً إلا القليل، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يتلمذوا لكل من طلب أن يكون شيخًا عليهم، ولو كانوا مأذونًا لهم في المشيخة من أستاذهم، وكل من أبى يتلمذ لهم طلب منه ذلك فهو دليل على عدم صدقه في الطريق وبقاء رعونة نفسه، ومن كان كذلك فهو لا يصلح للمشيخة.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا يتوقف أحدكم في التتلمذ لكل شيخ طلب منكم ذلك، بل أجيبوه إلى ما طلب منكم، ثم لا يخلو حاله من أمرين

إما أن يكون ناقصًا أو كاملاً، فإن كان كاملاً فتعلموا منه، وإن كان ناقصًا فكملوه من حيث لا يشعر هو بذلك ولا جماعته، وذلك بأن تسألوه السؤالات في الطريق، فإذا لم يعرف الجواب عنها تقولون له: فماذا تقول في هذا الجواب؟ وتذكرونه له فيستفيده منكم من غير أن يلحق أذى بذلك من جماعته، انتهى.

وقد فعلت أنا بحمد الله تعالى ذلك مع جماعة من فقراء مصر، وقبلت أعتابهم وجلست بين أيديهم كأحد تلامذتهم، وأفيدهم فوائد لم تكن لهم على بال، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا ورد عليهم فقير يدعي المشيخة وتفرسوا منه أنه لا يواظب على مجلس الذكر معهم إلا إن جعلوه يفتتح عليهم الذكر، فمن الأدب أن يعزموا عليه بأن يبتدئ الذكر، ولو عزم هو عليهم ردوا عليه الأمر، ثم لا يزالوا يسارقونه في تبغيضه في حب الرياسة، حتى يصير يكرهها إن شاء الله تعالى، وكأن لسان حال هذا الشخص يقول: إن لم تدعوني أفتتح المجلس لا أحضركم، وقد فعلت أنا ذلك مع ثلاثة طلبًا أن يكون كل واحد منهم شيخًا، فصاروا يفتتحون واحدًا بعد واحد، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم أخذهم العهد على مريد نكث عهد شيخه في حياته وجاء إليهم؛ لأنه لا خير فيه، وهذا الخلق صار عزيزًا في هذا الزمان، وقد كان سيدي محمد الشناوي-رحمه الله تعالى - إذا أتاه فقير يطلب التلقين يقول له: هل سبق لك صحبة بأحد؟ فإن قال:نعم، قال له: فلم فارقته؟ فإن قال: ما حصل لي على يديه خير، حسن اعتقاده فيه وأبى أن يلقنه، عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم :عدم أخذهم العهد على مريد بأنه لا يفعل كذا في المستقبل؛ خوفًا عليه من نقض العهد، فإن خلق الأفعال ليس هو إلى العبد وإنما هو إلى الله تعالى، وإنما الأدب أن يعلمه التوبة من كل ذنب وقع فيه على الفور لا غير، هذا ما عليه المحققون، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم البشاشة في وجه أحد من مريدي مشايخ عصرهم؛ خوفًا عليه أن يميل إليهم بالمحبة ويترك شيخه، فيحصل عدم الوفاء بحقه اللهم إلا أن يكون ذلك المريد ثابت القدم في محبة أستاذه فهذا لا تضر البشاشة له ولا إطعامه الطعام؛ لعدم المحذور الذي ذكرناه، وهذا الخلق ما رأيت له فاعلاً في مصر غيري، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يحمي أحدهم الخرقة من الطعن في أهلها، وذلك بالاستقامة فلا ينبغي لأحدهم أن يلبس الصوف، ويُرخَى له العذبة إلا بعد كمال رياضة نفسه، وزوال سائر رعوناتها، وذلك بالخروج عن محبة الدنيا وشهواتها ومناصبها، بحيث لا يصير يسترقه شيء منها. فإن الفقير مادام يميل إلى شيء من الدنيا، فلبسه للصوف، وإرخاؤه العذبة نفاق ورياء.

وقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي - رحمه الله تعالى - إذا رأى على فقير جبة صوف قبل خمود نار بشريته يقول له: يا ولدي استعجلت لباس الصالحين قبل استحقاقك له، فإن الصوف لباس الأنبياء، وحلية الأصفياء فانزعه حتى تكمل رياضتك لنفسك وتلتحق بالصالحين عند الناس، ثم ألبس لبستهم، فاعلم يا أخي ذلك وأعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يبادروا إلى تلقين الذكر لكل من سألهم ذلك؛ إظهارًا لعزة الطريق، وكذلك من أخلاقهم ألا يبادروا إلى تلقين أحد من العلماء؛ إجلالاً لهم وتعظيمًا لجناب العلم إلا أن يكون أحدهم صاحب حال مع الله تعالى وتصريف، وقد يكون ذلك العالم أعلم من ذلك الشيخ بالشريعة، وقد بلغني أن الشيخ [نور الدين الشوني] لقن شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسي، فعبت ذلك عليه وأرسلت له أوبخه على مثل ذلك، فتاب إلى الله ﷻ وقال: إني كنت جاهلاً بمثل ذلك.

وكذلك وقع لشخص آخر أنه لقن الشيخ عبد الحليم بن مصلح، فوبخته على ذلك غاية التوبيخ؛ لعلمي بأن ذلك الشيخ لا يصلح تلميذًا للشيخ عبد الحليم، وإنما أجراه على ذلك كثرة التواضع من الشيخ عبد الحليم.

فعلم أنه لا ينبغي لفقير أن يبادر إلى تلقين أحد من طلبة العلم إلا إن وثق بصدق حبه للطريق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تعريضهم لأحد من الناس أن يصحبهم، أو لأحد من الإخوان ألا يتخلف عن حضور وردهم، أو لا يصلي الجمعة إلا عندهم، ونحو ذلك من التقيدات التي لم تصرح بها الشريعة إلا لغرض شرعي بشرط الراحة في ذلك اقتداء برسول الله ﷺ فإن للناس أعذارًا.

وقد قالوا: كل من ضيّق على أصحابه لرعونة نفس نفروا منه بقلوبهم، فعدموا النفع به كما عليه بعض مشايخ هذا الزمان الذين ظهروا بغير حق وجلسوا بغير إذن، وقد شكى لي جماعة من أصحابهم مرارًا ما يقاسونه من شدة التضييق عليهم، وما

هكذا درج الأشياخ الذين أدركناهم، والاجتماع مقدر وليس المقصود من الشيخ إلا أنه يجيب المريد كلما سأله عن مرض من الأمراض لا غير، ولو أن هؤلاء الأشياخ كانوا صادقين مع الله تعالى لكانوا يرون نفوسهم أحقر الناس، وكانوا يستحيون من دعاء الناس لمجالسهم؛ خوفًا من الوقوع في حب الرياسة والعجب.

فإياك يا أخي والتضييق على إخوانك إذا عملت شيخًا، وسهِّل عليهم الطريق بإطعامهم الطعام تارة، وبشكرك لهم في المجالس تارة، وبخدمتك لهم تارة، ولا تتكبر عليهم، فإن سيد القوم هو خادمهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تعاطي الأمور المفسقة في مقام العارفين كأكل الشهوات، وكثرة النوم، واللغو، والاعتناء بالملابس والمناكح والمراكب، فإن القوم قالوا: من فسق العارف تناوله الشهوات الحاجبة له عن حضرة الله تعالى.

وقال الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى - : من شارك الفسقة في الشهوات فقد انخرط في مسلكهم من حيث المؤاخذة بها والعتاب عليها وذلك بتفاوت المقام، فإن معنى الغرور في الحياة الدنيا: إيثار العبد الدنيا على الآخرة، ومن تناول الشهوات وأكثر منها فقد صدق عليه أنه آثر الدنيا على الآخرة، وليس ذلك من صفات القوم الذين يحبهم الله ﷻ، ومن كان عدو الله تعالى كيف يدعي الصلاح؟! وفي الحديث: «**إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه**»[1] انتهى.

وقد ذم الله تعالى الكفار بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف:20]، وما ذم الله تعالى الكفار على فعله، فنحن أولى بتركه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الغفلة عن استحضار زلاتهم ونسيان حسناتهم، فيستقلون طاعاتهم ويستكثرون سيئاتهم، وعلى ذلك درج السلف الصالح كلهم - رضي الله عنهم - حتى إن مالك بن دينار، والحسن البصري كانا يقولان: لو حلف حالف أن أعمالنا أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب لقلنا له: صدقت لا تكفر عن يمينك، انتهى.

---

(1) رواه أحمد في «المسند» (427/5) بنحوه.

وفي الحديث مرفوعًا: **«المؤمن يرى ذنوبه كأنه تحت جبل يخاف أن يقع عليه فيهلك، والفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال بيده هكذا ينشه عنه»**[1] انتهى.

ويقرب من هذا من اغتر بكثرة علمه دون عمله، فصار يرى علمه كالجبال مع أن عمله به كالذر، وذلك من أعظم الغرور لاسيما إن كان كبير النفس كثير الجدال لا يتجرأ أحد أن ينصحه فإنه يهلك بالكلية، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا رأى أحدهم حاله فاق على إخوانه حتى كاد أن يطفئ نورهم أن يتظاهر بضد ذلك؛ إيثارًا لإخوانه بالشهرة بالصلاح، فإذا اشتهروا وانطفئ هو فرح بذلك أشد من ظهور نوره، وأقبل على عبادة ربه وقال: الحمد لله كفانا أخونا فلان المؤنة فجزاه الله خيرًا.

فإن من شرط الفقير الصادق أن يقوي نور أخيه ويختفي هو، ثم يسأل الله تعالى لأخيه أن يحفظه من الآفات كالعجب وحب الرياسة ونحو ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يقنعون بالأخذ من أحكام الشريعة على الوجه الظاهر دون مطالبة نفوسهم بالحقائق، وتفتيش قلوبهم، وانقاء ما فيها من الصفات المذمومة من غير إزالة له كالكبر والرياء، والحمد والعجب، والنفاق وحب الرياسة، وإرادة التسوية بين الأقران، والسرور بظهور نقائصهم، ومحبة الإنفراد باسم الصلاح دون الأقران ونحو ذلك من صفات المغترين، وسبب هذا الغرور نسيان ما ورد من الوعيد لأصحاب هذه المعاصي الباطنية كقوله ﷺ: **«الرياء هو الشرك الأصغر»**[2]، وكقوله ﷺ: **«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**[3]، وكقوله ﷺ: **«حب المال والترف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»**[4] وغيرها من الأحاديث.

ولو نظروا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:89] لعرفوا

---

(1) رواه أبو يعلي الموصلي في «المسند» (108/9) بنحوه.

(2) رواه أحمد في «المسند» (428/5) بنحوه.

(3) رواه أبو داود في «السنن» (276/4)، وابن ماجه (1408/2).

(4) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (103/2) بنحوه.

أن الله تعالى يؤاخذهم بجميع الصفات المذمومة؛ لأن من ارتكب صفة منها، ولم يتب لم يأت ربه بقلب سليم.

وقد قال الإمام الغزالي: من لم يصلِّ وقلبه مع جوارحه لم تصح صلاته كما عليه طائفة المتوسوسين، وهو كالمريض ظهر به الجرب فأمره الطبيب بالطلاء وشرب الدواء فترك شرب الدواء القاطع لمادة الجرب وصار يطلي ظاهره، فكلما برئ من شيء طلبه له من الباطن جرب آخر، ولو أنه أزال مادة الجرب من باطنه لاستراح من علاج الظاهر وصار سليمًا من الجرب ظاهرًا وباطنًا فهكذا الخبائث إذا كانت كامنة في القلب فلا بدّ أن تظهر على الجوارح.

فعلم أن العبد لا يخرج عن الرياء والنفاق إلا لمن تساوت سريرته وعلانيته، ولم يصر فيه صفة يفتضح بها في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة اتهامهم لنفوسهم إذا ادعت أنها سلمت من الأمراض الباطنة إذ لا يلزم من الإطلاع على الدسائس الباطنة عدم الوقوع فيها، وأكثر من يقع في مثل ذلك المتمشيخون بأنفسهم، ومن جلس للوعظ من غير سلوك على يد الشيخ صادق فيظن بنفسه أن مثله لا يبتلي بتلك الأمراض، وإنما يبتلي بها العوام وذلك غاية الغرور، وإن قدر أنه ظهر منهم كبر على أحد من المسلمين لا يرونه كبرًا وإنما يقولون: ذلك من عز الدين، ولو أنهم كانوا صادقين في أن ذلك من عز الدين لهضموا نفوسهم وتواضعوا كما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وقد عوتب الإمام عمر بن الخطاب ﷺ حين فتح بيت المقدس وعليه مرقعة، فقال: إنا قوم أعزنا الله تعالى بالإسلام فلا نطلب العز في غيره.

وقد رأيت قومًا يلبسون الثياب الرفيعة الغالية الثمن من حرام وشبهات، ويزعمون أن لبسها من إعزاز الدين، وذلك من أكبر الغرور مع إطلاق أحدهم لسانه بالغيبة والحسد في أقرانه، فأين إعزاز الدين؟ وإنما إعزازه بالعمل بأحكام الشريعة وآدابها على وجه الإخلاص هذا هو إعزازه.

وكذلك رأيت بعضهم يدعى مقام التواضع وأنه من أقل الناس، وإذا نبهه شخص على شيء من نقائصه أو رد عليه تقريره في مسألة يكاد يتميز من الغيظ، ولو أن مثل ذلك وقع لأحد من أقرانه لربما فرح، فأين إعزاز الدين؟ إنما ذلك إعزاز النفس ونصرة

لها وإظهار للكبر كما ورد في الصحيح مرفوعًا: **«الكبر بطر الحق وغمط الناس»**[1] أي: رد الحق وعدم قبوله، واحتقار الناس؛ أي: عن أن يكون أحدهم ناصحًا له أو واعظًا له، فهذا في أعلى درجات الكبر ولا يشعر بنفسه، فليتنبه لمثل ذلك من عمل شيخًا في هذا الزمان، وكذلك رأيت بعضهم أحكم العلم والعمل، ويدرس الناس العلم ويعظهم ويزعم أن ذلك خالص لوجه الله ﷻ، ولو أن شخصًا ظهر وصار يعلم الناس العلم ويعظهم، وانقلب إليه جماعته لتميز من الغيظ.

فليمتحن العبد نفسه فإن تكدر فهو مرائي، وإن لم يتكدر فهو مخلص فليشكر الله تعالى على ذلك، وبالجملة فمتى رجح في نفسه محبة أن يكون صلاح الناس على يده دون يد غيره فهو لم يشم من الإخلاص رائحة.

وكذلك رأيت بعضهم يشفع عند الحكام والكشاف ومشايخ العرب وغيرهم في المظلومين، ويزعم أن ذلك خالص لله تعالى، ولو أنه ظهر شخص يشفع عندهم وقبلوا شفاعته وصاروا يردون شفاعته هو لتكدر.

فليعرض الشيخ ذلك الأمر على نفسه، فإن رآها فرحت بذلك الشخص الذي قبل الولاة شفاعته أكثر من فرحها بقبول شفاعته هو فهو صادق وإلا فهو لم يشم من الإخلاص رائحة، ورأيت بعضهم يأخذ من مال الأمير وإذا توقف في حله يرجع إلى قول ذلك الأمير مثلاً: إن هذا من المصالح ومثلك يستحقه؛ لأنك حامل للشريعة وقائم بنصرة الدين، ولا يخفى أن ذلك كله غرور، ولو عمل بما علم من الشريعة لتورع عن قبول مثل ذلك.

وقد كان الإمام عبد الله بن المبارك يقول: ما أكل حامل القرآن من مال الولاة الذين لا يتورعون إلا ناداه القرآن العظيم من جوفه: أضاعك الله تعالى كما ضيعتني أين مواعظي وزواجري وأنت تأكل من مال هؤلاء الولاة، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تفتيشهم على عيوبهم الكامنة التي لم تظهر لهم، وعدم قناعتهم بتطهير الجوارح الظاهرة والباطنة من المعاصي الظاهرة والباطنة فإن للشيطان والنفس في مثل ذلك خدعًا ومكائد تغمض على غالب الناس، ومثال من يقنع بتطهير جوارحه مما يظهر بها من الصفات دون ما لم يظهر مثل من أراد تنقية زرعه من الحشيش فدار عليه وقلع كل حشيش ظهر من الأرض، ولم يفتش على ما لم تخرج

---

(1) رواه مسلم (1/93)، والترمذي (4/361).

رأسه من الأرض بعد فبينما هو مطمئن من ظهوره إذ أخرج رأسه من الأرض وأفسد الزرع.

وكذلك رأيت بعضهم إذا نجاه الله تعالى من الأمراض الظاهرة والباطنة يصير يرى نفسه على غيره وذلك من أعظم الكبر، فلينتبه الفقير لمثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: إذا وعظوا الخلق ألا يدعوا الناس إلى شيء إلا بعد عملهم به كما كان عليه الحسن البصري ومالك بن دينار وغيرهما؛ وذلك خوفًا أن يرد المدعون عليهم دعوتهم حين لا يرونهم يعملون بها، وهذا خلاف ما عليه بعض الوعاظ، فيظن أحدهم بنفسه إذا عرف الصفات المنجية ودعا الناس إليها، فهو ناج بمجرد دعوتها والحال أنه هالك شرعًا؛ لمعرفته للصفات المهلكة من غير أن يجتنبها، وربما قال أحدهم في نفسه: إن الله تعالى ما أطلعك على صفات المحبين إلا وهو يحبك ولا على صفات المخلصين إلا وأنت مخلص، ولا على عيوب النفس إلا وأنت منزه عنها وكذلك القول في سائر الصفات.

وربما كان أحد هؤلاء أشد الناس حبًا للدنيا والرياسة، وأقل صبرًا على التقشف وأكل الملح والخل وربما كان طعامه كل ليلة اللحم الضاني والحلوى مما لا يجده غالب أقرانه، وربما أظهر أحدهم الزهد في الدنيا لشدة حرصه عليها، وجعل الزهد فيها حرفة يحترف بها القمح والعسل والأرز والثياب من أبناء الدنيا، وربما حث أحدهم الناس إلى الإخلاص وهو غير مخلص، وربما أظهر أحدهم الدعاء إلى الله تعالى وهو من جملة الفارين عنه، وربما خوَّف الناس من الله تعالى وهو منة آبق وآمن، وربما أمر الناس بذكر الله تعالى وهو له ناسٍ، وربما دعاهم إلى القرب من الله تعالى وهو منه متباعد، وربما ذم لهم الصفات المذمومة وهو بها متصف، وربما حث الناس على الزهد في الخلق وهو أشدهم رغبة فيهم، ولو امتنع أحد من حضور مجلسه الذي يعظ الخلق فيه واجتمع بواعظ آخر لضاقت عليه الأرض، وربما قالت له نفسه: إنما ضاقت عليك الأرض محبة في الله تعالى لا حبًا في الرياسة.

فليمتحن نفسه بما لو أقبلوا على واعظ آخر وانتفعوا على يديه فإن فرح بذلك وانشرح فهو صادق في محبة الخير للمسلمين، وإن انقبض خاطره فهو محب للرياسة بوعظه خارج عن طريق أهل الله ﷺ.

وقد رأيت بعض المترددين إلى بعض الوعاظ ترك ذلك الواعظ وصار يتردد إلى

واعظ آخر، فصار كلما رآه يعرض عنه فقلت لذلك الواعظ: لا ينبغي لك الإعراض عنه إلا إذا ترك طريق الشريعة جملة ولم يجتمع بمن يرشده أما من اجتمع بمن يرشده فلا ينبغ لك هجره، فلم يدر جوابًا فقلت له: فاستغفر الله تعالى يا أخي من وعظك للناس من حيث نيتك الخبيثة، فاشتد غضبه علي، فمثل هذا بعيد عن طريق الرشاد، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا وعظوا الناس ألا يخرجوا عن الأمور التي كلف الله تعالى بها عباده بذكر المقامات والشطح، والسجع وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع، والعدل طلبًا للإغراب، بل ويكون عمدة مجلس وعظهم في تطميع الناس في رحمة الله تعالى، وتخويفهم من عذابه.

فليحذر الواعظ الذي يتشبه بهم فيتحدث بشعار الوصال والفراق والهجر وغير ذلك مما يدعو الناس القوية إلى التعشق بما لا يحل من النساء والمردان، وربما صعق في مجلسه صاعق، فيظن من لا فراسة له أن تلك الصعقة ربانية، والحال أنها شيطانية، فيصير الناس يقولون: كان مجلس الواعظ اليوم عظيمًا صعق فيه جماعات، والحال أنه كان مجلس سوء لما وقع فيه من جر الخلق فيه إلى الأغراض الفاسدة، وتضليلهم عن سواء السبيل: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:213] والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الإقبال على الله تعالى في صلاتهم، وعدم الوسوسة في المبالغة في الطهارة، ومخارج الحروف والنية والتكبير؛ وذلك لكثرة رياضة نفوسهم قبل ذلك، وغلبة الحضور عليهم بخلاف من لم يرض نفسه، فإن هذا ربما توسوس حتى فاتته الصلاة في أول الوقت أو فاتته ركعة مع الإمام أو الصلاة كلها، وربما توسوس في التكبير حتى أخرجه عن حقيقته، وربما توسوس في مخارج الحروف حتى فرغ من القراءة وهو غافل عن معانيها وغاب عن هؤلاء أن الله تعالى لم يكلف العباد في تلاوتهم القرآن إلا بما جرت به العادة العرفية في الكلام.

وكان الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى - يقول: مثال من اشتغل بمخارج الحروف والفرق بين الظاء والضاد ونحو ذلك مثال من حمل رسالة إلى مجلس السلطان، وأمر أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدي الرسالة، ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها، ويعيدها المرة بعد الأخرى بالتمطيط والفصاحة الزائدة فمثل هذا ربما أقيمت

عليه السياسة ورد إلى دار المجانين؛ لغفلته عن مقصود الرسالة، وعدم مراعاته حرمة المجلس، انتهى.

فالحذر الحذر يا أخي من ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مطالبة نفوسهم بإلقاء الذهن إلى فهم معاني القرآن الكريم ومواعظه وزواجره إذا تلوه، ولا يقنعوا بمجرد تلاوته وهزّ جسده حتى إن بعضهم يقرأ كل يوم ختمة ويظن أنه صار بذلك من المقربين مع أنه يحب الدنيا، وينازع عليها، ويتمنى أن يكون في يده جميع ما في أيدي الناس، وربما صارت ألسنة هؤلاء تجري بألفاظ القرآن العزيز وقلوبهم تتردد في أودية الآمال والتفكر في أمور الدنيا لا يتعظون بمواعظه، ولا ينزجرون بزواجره، ولا يقفون عند حدوده، ولا يعتبرون بمواضع الاعتبارات منه، ولا شك أن من ترك أوامر الله تعالى ووقع في نواهيه يستحق العقوبة ولو قرأ القرآن كل يوم ألف مرة.

وربما يكون الحامل لبعضهم على حب تلاوة القرآن حسن صوته عنده أو عند الناس فهو يقرأ أو يتلذذ بذلك ليلاً ونهارًا، ويظن أن تلك اللذة إنما هي بمناجاة الله ﷻ وتلاوة كلامه من حيث هو كلامه تعالى، والحال بخلاف ذلك إذ لو نظرت إلى لذة كلام الله تعالى لغاب عن حسن صوته ونغمته ولم يعلق خاطره بسواه؛ لأن لذة كلام الله تعالى إنما تكون من حيث المعنى، وقد ذكرنا في كتاب «**تنبيه المغترين**» أن السلف الصالح كانوا يبكون كلما قرؤوا القرآن الكريم، ويقولون: نقرأ شيئًا ولا نعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الاعتماد على شيء من أعمالهم الشاقة كالصوم والحج الكثير هذا إذا سلمت الأعمال من الآفات فكيف إذا اختُفَّتْ بالآفات؟ كالذي يقوم الدهر أو الأيام الشريفة ولا يحفظ لسانه عن الغيبة، ولا بطنه عن الحرام، ولا جوارحه عن المخالفات، ولا خواطره عن الرياء، وكالذي يحج مع عدم رد المظالم إلى أهلها قبل الحج، ويخرج بمراده الذي عمله من حرام أو شبهات، وربما أخذ مال الولاة ينفقه على المحتاجين في الطريق، فأنفقه كله على نفسه وخزن ماله الذي هو أحل من ذلك، وربما أخذ المال الحرام من الولاة، وأنفقه وأوهم الناس أن ذلك من ماله رياء أو سمعه، وهذه كلها ظلمات بعضها فوق بعض؛ لأنه عصى بأخذه الحرام أولاً وبإنفاقه ثانيًا وبريائه بذلك ثالثًا، ثم دخل إلى مكة بقلب ملوث بالرذائل، وخبث الصفات ظانًا أنه على قدم عظيم، وأن أحدًا لم يؤد المناسك مثله، وذلك غاية الغرور، وربما رجع

إلى بلاده ممقوتًا من بعض الأولياء برؤيته نفسه على الناس في حضرة الله تعالى الخاصة كما وقع لإبليس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا جاوروا بمكة أو المدينة أن يراعوا حقوق الله تعالى وحقوق نبيه ﷺ، وإن علموا من نفوسهم عدم حفظ الحقوق رجعوا إلى أوطانهم من غير مجاورة إذ المجاورة مأخوذة من مجاورة الإنسان لجاره، ومن أقام بمكة فهو جار الله تعالى، ومن أقام بالمدينة فهو جار سيدنا رسول الله ﷺ، وإن لزم من مجاورة رسول الله ﷺ مجاورة الله تعالى، وعكسه.

وقد أمر الله تعالى بإعطاء الجار حقه في عدة آيات وأخبار، ولا شك أن الله تعالى أو رسوله ﷺ أعظم جار فحقه أعظم الحقوق، وقد تقدم أن من حقوق الله تعالى في مكة ألا يخطر لمن جاور بها معصية، ولا سب على طعام، ولا ثياب، ولا مال زائد عن ضرورته في ذلك اليوم إلا إذا لم يكن بمكة أحد محتاج لذلك، وكذلك لا يشتاق إلى وطنه مدة إقامته إذا المشتاق إلى وطنه يصير قلبه فيه وجسده بمكة فكأنه لم يجاور، ومن هنا كره الأكابر من الصحابة والتابعين الإقامة بمكة لعظم حقوقها حتى كان الشعبي يقول: كان الإمام عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: يكثر الحجاج في آخر الزمان بلا سبب يهون على أحدهم السفر، ويبسط له في الرزق، فيرجع محرومًا مسلوبًا لاتخاذه الحج للتنزه في الجبال والرمال مع أن جاره الذي إلى جنبه محتاج فلا يتفقده ولا يواسيه لا سفرًا ولا حضرًا، انتهى.

وكان الشعبي يقول أيضًا: لأن أجلس حمام أحب إلي من أقامتي بمكة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الاحتفال ببناء المساجد إلا إن وسع الله تعالى عليهم من الكسب الحلال، وأما بناؤها من أموال الولاة وأعوانهم فهو عندهم في غاية القبح، وهذا الأمر قل من يتفطن له من الفقراء، فيعمر أحدهم المساجد من الأموال التي يغلب فيها الحرام والشبهة، ويفرحون بإضافة ذلك المسجد إليهم وقول الناس إن سيدي الشيخ عمّر عدة جوامع مع أنه ليس له مال ولا كسب وأنه ينفق من الغيب.

ولما عمّر سيدي أحمد الزاهد جامعه بخط المقسم[1] بمصر لم يدع أحدًا من

---

(1) في المطبوعة (جماعه .. والمقسيم)، والصواب المثبت، كما في الأصول والمصادر، وانظر: الطبقات (1/128).

الولاة يساعده فيه بحجر واحد، وكذلك سيدي محمد الغمري، فمن وصل إلى مقام هذين الشيخين فليعمر له زاوية فيبعد بيت الله تعالى عن الحرام والشبهات، والمساجد كثيرة وغالبها الآن مهجور، وقد قال الإمام الغزالي: من علامة الرياء في بناء المساجد أن يكون في بلد الباني لها فقراء ومساكين وأيتام محتاجون فلا يهون عليه الإنفاق عليهم ويسهل عليه صرف ذلك في الماء والطين.

ولا شك أن صرف ذلك إلى من ذكر أفضل، ولو أنه طلب الأجر والثواب فما جعله ينفق المال على ذلك المسجد إلا محبته لثناء الناس عليه وذلك لا أجر فيه، بل فيه الوزر لاسيما إن زخرف المسجد وزَوَّقَهُ بالرخام الملون، فإنه يشغل قلوب المصلين عن الخشوع في صلاتهم الذي هو المقصود الأعظم من الصلاة ويكتب ذلك في صحائف الباني.

وقد قال الحسن البصري ﷺ: لما أراد النبي ﷺ أن يبني المسجد بالمدينة أتاه جبريل - عليه السلام - وقال: ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه، انتهى.

قال: وغرور هذا الباني للمسجد من حيث أنه رأى المنكر معروفًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: النصح لإخوانهم من الأغنياء، فلا يقنعون منهم بحضور مجالس ذكرهم ووعظهم من غير صدقة على الفقراء، وعدم إقراء الضيوف، ومساعدة أرباب الديون، وكسوة الأرامل والأيتام والعميان، فإن المطلوب الأعظم من صاحب المال إنفاقه على نفسه، وغيره من المحتاجين.

وربما كان ذلك الشيخ يقبل زكواتهم لنفسه، فيستحي أن يأمرهم بإخراج زكاتهم كاملة، ويقنع منهم بما يعطونه له ولا عليه بعد ذلك من الفقراء، وكثيرًا ما يمسك الغني بالمال بخلاً وحرصًا وشحًا، ويشتغل بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها نفقة مال، كصيام النهار، وقيام الليل، وختم القرآن، ويظن أنه صار من عباد الله الصالحين مع أن البخل المهلك قد استولى على قلبه وهو مناف للصلاح، وفي الحديث: **«ما جبل ولي لله تعالى إلا على السخاء وحسن الخلق»**[1] انتهى.

فعلم أنه لا يبرأ من ذلك إلا بإخراجه المال في مرضاة الله تعالى، وأما العبادات

(1) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (259/3).

من صوم وصلاة فإنها لا تشفيه من هذه العلة.

وقد قيل لبشر الحافي - رحمه الله: إن فلانًا الغني كثير الصوم والصلاة، فقال: هذا مسكين ترك الأمر الأهم وفعل غير المهم، ولو انه أطعم أحدًا من الفقراء لقمة أو تصدق بدرهم لكان أفضل له من ذلك الصوم؛ لأن غايته تعذيب نفسه بالجوع اختيارًا وذلك غير مطلوب.

قال: وإنما سامح العلماء في تعذيب النفس بالجوع في الصوم المشروع فقط بخلاف ما زاد على المشروع، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم القناعة بمجلس الذكر صباحًا ومساء مع الغفلة عن الله تعالى فيما بينهما كما يقع فيه بعض المغرورين، ويحتج بحديث: «**إذا ذكر العبد ربه أول النهار ساعة وآخر النهار ساعة غفر الله له ما بينهما**»[1] إذ المغفرة لا ترقى فيها، ونهايتها أن تلحق المذنب بمن لم يذنب ذلك الذنب لا أن تلحقه بمن فعل الطاعات فافهم.

ومراد القوم في هذه الدار دوام الترقي مع الأنفاس في المقامات، ومع ذلك فلا يرون أنهم قاموا بواجب حق الله تعالى كما هو معروف عند أهل الطريق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الاغترار بمراسم الصالحين الظاهرة والوقوف معها كلبس الصوف، وإرخاء العذبة، وحف الشوارب، والتكلم على الخواطر من غير معرفة المجال التي تنبعث الخواطر منها من حضرات الأسماء الإلهية، بل بعضهم يتكلم على الخواطر مع جهله بالشريعة وهذا كله غرور.

وقد ذكر الإمام الغزالي في كتابه المسمى بـ«**الكشف والتبيين عن غرور الخلق اجمعين إلا الأنبياء وكمل الصالحين**»: اعلم يا أخي أن المغترين من المتصوفة على فرق كثيرة لا تنضبط، ولكن نذكر لك طرفًا صالحًا منها ونبدأ بمتصوفة زماننا فتقول وبالله التوفيق:

قد اغتر متصوفة زماننا إلا من حفظه الله تعالى بالزي والمنطق والهيئة فساعدوا الصادقين من الصوفية في هيئتهم وزيهم، وألفاظهم وآدابهم، ومراسمهم واصطلاحهم، وأحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة، والجلوس على السجادات

---

(1) ذكره ابن رجب «جامع العلوم والحكم» (1/170) بنحوه.

مع إطراق الرأس وإدخالها في الجيب كالمتفكر في أمر، وتنفس الصعداء، وخفض الصوت في الحديث وغير ذلك، وظنوا أن ذلك ينجيهم ويكفيهم، وغاب عنهم أن ذلك لا يكفيهم إلا مع شدة المجاهدة للنفس، والصبر على رياضتها، ودوام ربط القلب مع الله تعالى في عموم الحالات، وطهارة الظاهر والباطن من سائر الخبائث والزلات وغير ذلك من منازل التصوف.

قال: وقد رأيت من تحقق بمراسمهم الظاهرة وهو متكالب على الحرام والشبهات وأموال الولاة وأعوانهم، ويشاحح على الحديد والرغيف في وظيفة، ويحسد أقرانه على النقير والقطمير، ويمزق عرض كل من خالفه في شيء من أغراضه الفاسدة، فقلت له: هذه الأمور تخالف ما تظاهرت به من مراسم الصالحين، فلم يلتفت لقولي، فمثل هذا هالك من حيث يظن النجاة.

قال: ورأيت فرقة أخرى زادت على هؤلاء في الغرور لما صعب عليها الاقتداء بالصادقين في بذاذة الثياب، والرضا بالدون في الملبس والمطعم والمنكح والمركب والمسكن، فأخذت تلبس المرقعات النفيسة، والجبب الرفيعة، والسجادات المصبوغة، وقيمتها أغلى من قيمة الخز والإبريسم، فإن جالسوا الأغنياء نظروا إلى قيمتها وإن جالسوا الفقراء نظروا إلى لونها، وقالوا: هي جبة صوف، وذلك حتى لا يعترض عليهم الفقراء، ولا تزدريهم أعين الأمراء فلبسوا على الفريقين الفقراء بظنهم أنهم منهم والأمراء حتى مالوا إليهم وأخذوا أموالهم، وربما كانوا مع ذلك مرتكبين جملة من المعاصي الظاهرة والباطنة مما لو اطلع الناس عليه لم يجالسونهم ولم يعتقدوهم.

قال: ولا شك أن ضرر مثل هؤلاء على المسلمين أشد من ضرر اللصوص؛ لأن هؤلاء يسرقون القلوب بالزي وإظهار الصلاح فيقتدي الناس بهم في الأفعال الناقصة فيكونون سببًا لهلاك الناس، وإن اطلع على فضائحهم أحد قالوا: نحن من الملامتية الذين يظهرون القبيح ويخفون المليح، أو: لنا حال مع الله تعالى خلاف ما يظهر لكم منا، وقد كذبوا والله فإن الملامتية هم أكابر الأولياء، والأكابر محفوظون من كل فعل يسيء إليهم، أما هؤلاء فإنه يظن من اطلع على فضائحهم الباطنة أن السلف الصالح كانوا كلهم كذلك فيسيئ ظنه بالصوفية على الإطلاق.

قال: ورأيت طائفة أخرى من هؤلاء المغترين ادعت علم المكاشفة ومشاهدة الحق تعالى، ومجاوزة المقامات والأحوال، والملازمة في عين الشهود، والوصول والقرب، وهم كاذبون في دعوى ذلك وليس معهم منه إلا الاسم، فلفقوا من ألفاظ

القوم كلمات شطح تنبوا عنها الأسماع، وظنوا أنها من علوم الأولياء أصحاب الأسرار والمعارف، وربما ظن بعض الجاهلين صدقهم في ذلك.

قال: وعلامتهم أنهم ينظرون إلى أئمة الشريعة بعين الازدراء مع أن أحدهم لا يصلح أن يكون خادم حمار، وربما كان ذلك الشخص الذي ازدراه معدودًا من أكابر العلماء.

قال: ومن علامة خروج هؤلاء عن الشريعة أن أكثر أتباعهم الفلاحون والحياكون دون أحد من طلبة العلم، وكثيرًا ما يقول العوام: إن هذا يتكلم بالعلم اللدني، والحال أنه من وسوسة إبليس له في قلبه؛ لأنه باض فيه وفرخ.

قال: ورأيت فرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء في الغرور فاستحيت من الخلق، ولم تستح من الله تعالى، فتراها تعمل أعمالاً بينها وبين الله تعالى ولا تستحي منه، وتستحي أن تفعلها بحضرة الخلق مع أن أحدهم يدعي محبة الله تعالى، ولو أنه كان صادقًا في محبته لم يتعد حدوده، ولو أنه كان عارفًا به لفر مما يسخطه.

قال: ورأيت فرقة يقعون في المحرمات بالإجماع فيما بينهم وبين الله تعالى ويتورعون عن فعل المكروه، إذا رآهم الناس والحال في ذلك، ثم قال: وبالجملة فما ثم مقام من المقامات المنجية إلا ويمكن أن يدخله الغرور.

قال: ورأيت فرقة أخرى تميل إلى القناعة والتوكل من غير سلوك طريق الشريعة، فتراها تدخل البراري بلا زاد بقصد تصحيح توكلها على الله تعالى، وما علمت إلا أن مثل ذلك بدعة لم تنقل عن أحد من السلف، وقد كانوا أعرف بالتوكل منا، ومع ذلك فما فهموا من التوكل انه المخاطرة بالروح، ولا السفر بلا زاد؛ لأن ذلك لم يرد به شرع، وإنما ورد الشرع بضده قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، وقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197] أي: خذوا معكم الزاد، واتقوا أن يكون من حرام كأن السبب في ترك هؤلاء الزاد اعتمادهم على سؤال الناس نظرًا لاعتقادهم فيهم التجرد عن الدنيا، فهو يعلم أنهم لا يتركونه من غير افتقاد، واتباع الشرع هو الدين، وترك الاتباع خروج من الدين لمن تأمل.

قال: ورأيت طائفة أخرى ضيقت على نفسها في القوت حتى اقتصرت منه على الحلال عندها، ولكنها مع ذلك تهمل تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة، ومن تعمق في بعض المأمورات وترك التعمق في بعضها تساهلاً فهو مغرور.

قال: ورأيت فرقة أخرى ادعت السخاء وحسن الخلق، وخدمة الفقراء والعميان والضيوف الواردين، فجمعوا لهم جماعة في زاويتهم، وصاروا يتكلفون لهم الطبخ والعجين والكسوة، ولعلهم إنما فعلوا ذلك شبكة لجمع حطام الدنيا من التجار والولاة تكثرًا وتبسطًا، فترى أحدهم يبالغ في خدمة الفقراء، ومهما حصل من الأغنياء والولاة يفرقه على الفقراء، ولا يلحس منه لحسة، ثم بعد ذلك يرفع القواعد، ويصير يختص بما نصبه، وأخذه على اسم الفقراء حين شاع اسمه بالإيثار والسخاء، وربما أنه لو جاءه شيء سترًا لم يعط الفقراء منه شيئًا، فمثل هذا شيطان في صورة إنسان.

قال: ورأيت طائفة أخرى أشغلت نفسها بالرياضة، وتهذيب الأخلاق، وتطهير النفوس من العيوب، وتعمقوا في البحث عن العيوب، واستنباط الدقيق من دسائسها الكامنة فيها، وقطعوا عمرهم كله في ذلك، فمثل هؤلاء اشتغلوا بأنفسهم عن ربهم، ولو أنهم أنصفوا لاتخذوا لهم شيخًا فأغناهم عن مثل ذلك فأشغلهم بالله ﷻ.

قال: ورأيت طائفة أخرى اشتغلت بمطالعة كتب الرقائق، ولفقوا لهم منها بعض كلمات، وصاروا يذكرونها للناس، ويهزون رؤوسهم كالمتعجبين منها، وصار معهم من كل مقام من مقامات الطريق بعض كلمات حتى ربما ظن بعض السامعين بهم أنهم سلكوا الطريق، والحال أنهم لم يشموا منها رائحة، وبعضهم أفنى عمره في سماع حكايات القوم وكتابتها ولم يتخلق بشيء مما قالوه فيها، وهم يظنون بأنفسهم أنهم صاروا من الصوفية، ومثالهم مثال من سافر إلى ملك ليجتمع به ويصير من جلسائه، فلما وصل إلى باب الميدان رأى روضة ذات أزهار فوقف يتعجب بها ومن روائحها حتى جاءه الموت ولم يجتمع بالملك.

وقال: ورأيت طائفة وقفت في مبادئ الطريق حين تجلى نور الطريق الحق، فظنوا أنهم وصلوا إلى مقامات العارفين التي ينتهون إليها في سلوكهم، والحال أن بينهم وبين حضرة الحق تعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب إلا وظن أنه ليس بعده حجاب، ولعل ذلك النور الذي تجلى لهم إنما هو نور من أنوار القلب، فإنه إذا ظهر أدركوا فيه الوجود كله على ما هو عليه فظنوا أن ذلك إشراق نور الله تعالى عليهم، وربما دهش أحدهم من حال ذلك النور، وسمع النداء منه أنا الحق لا إله إلا أنا، والحال أنه شيطان تجلى في قلبه حين رأى الوجود كله مرتسمًا في قلبه، ومن جملة الوجود إبليس، فإن لم يتدارك الحق تعالى هذا الشخص وإلا هلك في دينه، وبهذه العين كان نظر النصارى إلى المسيح ﷺ فإنهم لما

رأوا إشراق نور الله تعالى عليه أكثر من غيره ظنوا أنه هو الله تعالى فعبدوه فهم كمن رأى كوكبًا في مرآة أو في ماء فظن أن الكوكب في المرآة أو الماء، فصار يمد يديه إليه لياخذه، فهكذا غرور من دخل الطريق بلا شيخ فإنه يَضِل ويُضِل غيره انتهى كلام الغزالي - رحمه الله تعالى - والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم التقيد على أحد من مشايخ العرب أو الأمراء إذا صحبهم بألا يصحب غيرهم؛ لأن التقيد إنما يكون للمريد الصادق الذي يطلب طريق القوم، وأما هؤلاء الأمراء ومشايخ العرب، فإنما هم معتقدون من خارج الطريق.

وما رأيت قط أميرًا ولا شيخ عرب، صار شيخًا يسلك الناس في الطريق، كمشايخ القوم أبدًا ما دام كل منهما باق على وصفه، وإنما يصح منهم طلب الطريق لو خرجوا عن مناصبهم، وأرضوا خصومهم كما هو مقرر في رسائل القوم، وقد حدث في زماننا هذا جماعة تمشيخوا من غير إذن من احد، وصاروا يصطادون كل من حوله بر وإحسان من الكشاف، ومشايخ العرب وغيرهم، ويرسلون نقبائهم لاستجلابهم إليهم، ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك بقصد ائتلافهم عليهم؛ ليشفعوا في المظلومين عندهم لا بقصد علة أخرى، ولو أنهم صحبوا غيرهم من أقرانهم لتميزوا من الغيظ.

فليمتحن من عمل شيخًا في النصف الثاني من القرن العاشر نفسه إذا استجلب صحبة أمير، فربما يكون ذلك لغير الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إجلال أشياخهم في غيبتهم وعدم الوقوع في شيء يكدر قلوب أشياخهم عليهم عادة، فإنهم بذلك يدوم عليهم الترقي على يدهم، ومن غير قلب شيخه فقد قطع حبله منه، وقد ورد مرفوعًا: «**رضا الله تعالى في رضا الوالد، وسخط الله تعالى في سخط الوالد**»[1] ولا شك أن أبا التربية يلحق بأب الولادة في ذلك، وأجمع القوم على وجوب التأديب مع الوسائل، وقالوا: من لم يتأدب مع الوسائل لا يصح له الدخول إلى المقاصد، فإن الوسائل كالطهارة للصلاة، وقالوا: من تهاون بغضب شيخ عليه مقته الله ﷻ وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم تكدرهم من مريدهم إذا زار شيخًا آخر لا إذا علموا من طريق كشفهم أنه ليس لذلك المريد نصيب عندهم، فهم يظهرون لهم التكدر فيحصل

---

(1) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (14/1)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (177/6).

لهم وله الخير.

فمن منع مريده من زيارة غيره من غير كشف فهو غارق في حظ نفسه، وعلى ذلك يجعل أحوال الأشياخ من السلف الصالح، ولا يجوز حملهم على أنهم إنما منعوا مريدهم رغبة في الرياسة كما بسطنا الكلام عليه في كتاب «العهود» وغيره، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: انشراح صدرهم لكل شيخ عقد له مجلس ذكر تجاه مجلسهم الذي علموه في الجامع مثلاً؛ وذلك لعدم محبتهم في الرياسة، وكيف يليق بمن يدعي محبة الله تعالى أن يتكدر ممن يذكره تعالى؟.

وقد وقع لبعض الصادقين أنه كان يذكر الله تعالى في جامع، فجاء شخص بجماعته وجلس تجاهه يذكر الله تعالى فقام بجماعته وجلس في حلقة الشيخ الجديد وقبّل رجله وأمر جماعته بذلك، وهذا خلق غريب لا يوجد إلا في أفراد من الفقراء، بل ربما غضبوا من ذلك الشيخ الطارئ، وربما ترافعا للحكام كما وقع لبعض المتمشيخين ممن يذكر الله تعالى، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم التميز في الجلسة بفرش سجادة تحتهم إلا لضرورة شرعية، ثم إن جلسوا بالشرط المذكور أعلموا أصحابهم بذلك؛ خوفًا أن يقعوا في عرضهم ولو في نفوسهم إذ من شأن البشر كراهة شفوف نفس غيره عليه إلا من حفظه الله تعالى.

وكذلك من العذر تمييزهم في الجلسة ليعرفهم الغريب فيسألهم عن أمور دينه اقتداء بسيدنا رسول الله ﷺ ولا يحتاج أن يقول الشيخ.

وتقدم أول هذه الأخلاق أن الأعراب كانوا يأتون النبي ﷺ، ليتعلموا منه أمور دينهم فلا يعرفونه حتى يسألوا عنه، فتلكم الصحابة في أن يجعلوا له ﷺ مكانًا مخصوصًا يميزه عن أصحابه فعملوا له دكانًا من طين، وفرشوا له فيه حصيرًا من خوص، فصار يجلس عليها، فللفقراء الأسوة في ذلك برسول الله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم لأكل طعام مريديهم قبل أن يتمكن أحدهم من محبتهم ويرى أن جميع ما هو فيه من فضل أستاذه؛ وذلك لأن الأكل من طعام المريد المذكور وقبول الإحسان منه يورثه إدلالاً على الشيخ، فيقل نفعه على يديه، وهذا خلق غريب في هذا الزمان فلا يكاد أحد يفتش على مثل ذلك.

وكان سيدي محمد الشناوي يقول: مال المريد حرام على الأشياخ قلت: وهو محمول على التفصيل الذي ذكرناه وعليه يحمل حال من امتنع من السلف من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: فرحهم بتحويل من صحبهم من الولاة إلى غيرهم من الأقران وإن رأوهم قليلوا الاعتقاد فيمن انتقلوا إليه حسنوا اعتقاده فيه حسب الاستطاعة، وهذا خلق غريب لا يصح وقوعه إلا ممن فطم عن الدنيا وشهواتها، وزهد في حلالها فضلاً عن شهواتها، وقد تخلقنا بذلك والحمد لله، ولم أجد له ذائقًا من الأقران إلا قليلاً، بل بعضهم يفسد ذلك الأمير على ذلك الفقير، ويقع في عرضه حتى يتركه ويصحبه هو، وذلك خروج عن آداب أهل الطريق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: رجوعهم باللوم على أنفسهم إذا خالف أحد أغراضهم من زوجة أو خادم أو ولد أو صاحب، ويقولون في أنفسهم: لو استقمنا مع الله تعالى لاستقام الناس معنا، ولو أطعنا الله تعالى في امتثال أمره لأطاعنا الناس، وإن لم يكن ذلك قاعدة كلية.

وقد كان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: إني لأعصي الله تعالى فأعرف أثر ذلك في خلق حماري وخادمي وزوجتي، فيشمص الحمار، ويخالف الخادم، وتنشز الزوجة، فإذا رجعت إلى نفسي وشرعت في تقويم عوجها رجع الحمار عن شموصه، والخادم عن مخالفته، والزوجة عن نشوزها، انتهى.

وقد تقع مثل هذه الأمور للمستقيم من الأولياء؛ ليقتدي الناس به في الصبر لا لاعوجاج يكون هناك، أو يبتلي بها ليعرف صبره أقوى هو أم ضعيف حين ادّعى أنه من الصابرين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: صبرهم على تحمل الأذى لهم من الناس، وعدم صبرهم على من آذى أحدًا من أصحابهم؛ لأن غالب أصحابهم إنما يصحبهم ليحموه من الأذى اللهم إلا أن يكون أصحابهم في مقام الرياضة لنفوسهم فهناك يأمورنهم بالصبر كما يأمرون نفوسهم.

وكثيرًا ما يأخذ الله تعالى لأصحابهم ثأرهم ممن آذاهم من غير سؤال من الشيخ انتصارًا من الحق تعالى له، وذلك إما بعزله من وظيفته التي بها معاشه عادة، أو مرض شديد، أو بمصادرة من الحكام، ونحو ذلك.

فالعاقل من لم يؤذِ للفقراء صاحبًا، وقد سمعت سيدي محمد السروي يقول:

الفقير إذا غلب عليه الحال كان كالسبع الضاري الذي تغلب من صاحبه فربما كسر صاحبه وولده، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تبجيل كل من آذاهم في غيبته وحضوره، وذكر محاسنه دون مساوئه، وقد تخلقت بذلك ولله الحمد، فذكرت مناقب الجماعة الذين آذوني ودسوا في كتبي العقائد الزائفة حتى أتلفوها في كتاب «الطبقات» فلله الحمد على ذلك، ولم أر له فاعلاً من أهل عصري إنما يذكرون في كل من آذاهم العجر والبجر، ولا تكاد نفوسهم تسمح بذكر شيء من محاسنهم للناس، وذلك دليل على بقاء الرعونة في النفس، واقتدِ يا أخي بالسلف الصالح في ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تساهلهم كلما طعنوا في السن في الأكل من هدايا الولاة، ومن لا يتورع في مكسبه ليفارقوا القوم؛ لأنه من كمال الورع، وهذا يقع في الإخلال به خلائق من الفقراء.

وقد تساهلت مرة في أكل بعض حبات من عنب أرسله لنا عيسى شيخ العرب بالبحيرة لما اشتهر عنه من الدين وكثرة الكرم، فرأيت تلك الليلة كأني راكب جملاً عظيمًا وأنا طالب أرض مكة، فرجعت من الطريق وحولت وجهي إلى بحري مصر طالبًا ناحية برشوم التين، وأنا جنب أريد أن أغتسل من ساحل بحرها، ثم استحال الجمل بغلة، فمررت على أرض فيها برسيم رِبّة[1] فسمحت لها بالأكل من ذلك البرسيم، فأكلت منه شيئًا يسيرًا، ثم تذكرت الحساب عليه فكففتها عنه، ثم رجعت إلى مصر قبل أن أصل إلى برشوم وأنا جنب، ثم أركبت البغلة ولدي عبد الرحمن ورجعت ماشيًا، ثم استيقظت فتقيأت تلك الحبات العنب حتى خرج معها ما أكلته أمس، فكأنه خرج من بطني حجر مظلم مسموم، وكأن أعطاني البغلة لولدي عبد الرحمن كناية عن إذني له في الأكل من العنب، فانظر يا أخي في هذا المنام الغريب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يسكتوا الجماعة إذا كانوا في مجلس الذكر إلا بعد أن يستأذنوا الحق تعالى بقلوبهم، أو يستأذنوا رسول الله ﷺ أن يستأذن لهم ربهم أن يسكتوا الجماعة بعد أن يأخذوا من الذكر حظهم ويظهر للشيخ مللهم من ذلك ليشغلهم في مهم آخر من أمر دنياهم ودينهم أو آخرتهم، فإن الله تعالى ما نوَّع لعباده المأمورات إلا

(1) رِبّة: أي نَبتُ البرسيم.

لما سبق في علمه من مللهم من نوع واحد، وإلا فإذا حصلت مجالسة الحق تعالى بنوع من المأمورات فماذا يطلب العبد بعد مجالسة سيده، فإنها محط رجال الأولين والآخرين، وأشرف حالة تكون، وأعظم ثمرة تحصل لهم من سائر أعمالهم فافهم.

فعلم أنه لا ينبغي لشيخ المجلس أن يسكتهم غافلاً عن الاستئذان، فإنه معدود من سوء الأدب عند العارفين، وما وجدت لهذا الخلق فاعلاً من أقراني إلا قليلاً، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يظهروا للناس من إخوانهم من آداب الطريق إلا ما يعلمون من الناس القدرة على العمل به إلا لغرض صحيح، وذلك أن يكون لهم عذرًا عند الله بنحو قولهم: يا ربنا ذلك خير لنا ولو علمناه خيرًا لنا لاتبعناه، ويؤيد ذلك قول القائل: «**إن من البيان لسحرا**»[1] قال سفيان: ولا ترى السحر إلا حرامًا انتهى.

وقد كان المريدون في الزمن الماضي لا يقنعون بالآداب القليلة لعلو همتهم، فصار أحدهم اليوم إذا سمع من شيخه بعض آداب يقول: يكفيني هذا، فللناس حال في حال إدبارهم وحال في حال إقبالهم.

وتأمل يا أخي الناس حين يسافرون إلى الحج كيف يكرهون التقطير، ولو أن شخصًا طلب أن يقطر جمالهم يبذلون المال لمن يقطرهم، وإذا رجعوا وأشرفوا على أوطانهم كيف يكرهون التقطير، ولو أن شخصًا طلب أن يقطر جمالهم كرهًا لبذلوا له المال على عدم التقطير، فهكذا حال الناس اليوم، فإن الدنيا الآن كأنها مركب موسقة أشرفت على أن ترسي على بَر الآخرة، وما يقع لنا من الأهوال في هذه الدار، فهو كالإدمان لأمر الآخرة والتمهيد لطريق مقاساة أهوالها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا ظلم حكامهم رعيتهم أن ينصحوا الرعية ليرجعوا عن معاصي الله تعالى، ويأمروا الولاة بالرفق بالرعية والرحمة لهم حسب الطاقة، ولا يشتغلوا قط بسبب الولاة كما عليه المحجوبون عن معرفة أسرار الله تعالى في خلقه، فالظلم أمر مركب من الرعية، والولاة فيقدر الله تعالى على الرعية الوقوع في ما سبق به علمه من المعاصي، ثم يسلط الولاة عليهم على حسب ما سبق في علمه، ولا سبيل لترك الرعية ما سبق في علم الله تعالى من المعاصي، ولا سبيل إلى ترك الولاة مجازاة العصاة باستخلاص ما بأيديهم من نعم الدنيا، وعزلهم عن وظائفهم جزاء وفاقًا.

(1) رواه البخاري (1976/5)، والترمذي (367/4).

فمن أراد من فقراء الزمان عدم جور الحكام فلينادي في رعاياهم: معاشر الناس لا يعصِ أحد منكم ربه لا سرًا ولا جهرًا، فإن سمعوا وتركوا المعصية كما ذكر، فإن الحكام يرجعون عن جورهم، فإن قالت الرعية للولاة: ارجعوا عن ظلمنا، قالوا لهم: استقيموا ونحن نرجع عنكم، فإذا قالوا: ليس ذلك بأيدينا، قال لهم الولاة: وكذلك رجعونا عن ظلمكم في هذا الزمان ليس بأيدينا.

وبالجملة فهذا أمر ما بقي يرجى تركه ما بقيت الدنيا إلى ظهور المهدي ﷺ بحكم الوعد الصادق من رسول الله ﷺ، ومع ذلك فاللوم على كل الرعية والولاة شرعًا.

وتأمل يا أخي الحكام تجدهم كاللجام للدابة الحرون، وإذا كان الناس يتعدون الحدود مع هذا اللجام فكيف لو ترك الحكام مؤاخذتهم على ظلمهم؟! ولعلهم كانوا يأخذون أموال بعضهم بعضًا، ويفسقون في حريمهم جهرًا، ويقتلون بعضهم بعضًا.

فعلم أن وقوع المصلحة بوجود الحكام أعظم من مفسدة جورهم مع أنهم نواب للقدرة في تنفيذ أحكامها في الخلق، فارجع يا أخي باللوم على نفسك إذا ظلمك حاكم قبل أن تلوم الحاكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تعظيم أولاد مشايخهم في العلم والطريق، والقيام لهم في المحافل وغيرها ولو كانوا عوامًا إجلالاً لوالدهم، وممن أدركته على هذا القدم سيدي محمد الشناوي، وسيدي علي المرصفي، والشيخ سليمان الخضيري، والشيخ شهاب الدين الرملي، والشيخ ناصر الدين الطبلاوي[1] ﷺ فما رأيت أحدًا يعظم أولاد

---

(1) هو سيدي محمد بن سالم بن علي الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام، بقية السلف الكرام الشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي، أحد العلماء الأفراد بمصر أجاز شيخنا العلامة الشيخ محمود البيلوني الحلبي كتابة في مستهل جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة قال: تلقيت العلم عن أجلة من المشايخ منهم قاضي القضاة زكريا، وحافظ عصرهم الفخر بن عثمان الديلمي، والسيوطي، والبرهان القلقشندي بسندهم المعروف، وبالإجازة العالية مشافهة عن الشيخ شهاب الدين البيجوري، شارح جامع المختصرات، نزيل الثغر المحروس بدمياط بالإجازة العالية، عن شيخ القراء والمحدثين، محمد بن الجزري.

وقال الشعراوي: صحبته نحو خمسين سنة ما رأيت في أقرانه أكثر عبادة لدينه لا تكاد تراه إلا في عبادة، إما يقرأ القران، وإما يصلي، وإما يعلم الناس العلم، وانتهت إليه الرئاسة في سائر العلوم بعد موت أقرانه قال: ولما دخلت مصر في سنة إحدى عشرة وتسعمائة، وكان -رضي الله تعالى عنه- مشهوراً في مصر برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عليه الخلائق إقبالاً =

مشايخهم وأصحابهم مثلهم، وذلك دليل على موت نفوسهم وفلاحهم، فإن أصحاب الرعونات لم يزل بينهم الوقفة وبين أولاد مشايخهم؛ وذلك لأن كل واحد يطلب أن يكون شيخًا على الآخر فالتلميذ يقول: أنا صرت في رتبة الشيخ وولده بالنسبة إليّ كالمريد، وولد الشيخ يقول: أنا مكان والدي فأنا شيخ على جميع تلامذته، ولو أن هؤلاء فطموا عن الرعونات على يد شيخ ما وقعوا في ذلك، فالحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: شهود فضل تعلمهم عليهم في حياته وبعد مماته فلا يرون أنهم شموا رائحة مقامه فضلاً عن مساواته حتى إن بعضهم سمع شخصًا يقول: إن فلانًا خليفة شيخه فزجره عن ذلك، وقال: لست بخليفة له، وإنما أنا من معارفه؛ لأن شرط الخليفة أن يكون على قدم من استخلفه في الورع والزهد وقيام الليل وعدم وضع جنبه إلى الأرض.

وقد كان شيخي على هذا القدم ولم أتبعه في واحدة من هذه الخصال فكيف تسميني خليفة له؟ انتهى.

وهذا الخلق قد صار غريبًا في فقراء هذا الزمان، بل سمعت بعضهم يقول: أنا بحمد الله أعلم من شيخي بالكتاب والسنة وبأحوال الطريق، ومثل ذلك لا يقع إلا ممن

كثيراً بسبب ذلك، فأشار عليه بعض الأولياء بإخفاء ذلك، فأخفاه قال وليس في مصر أحد الآن يقرر في بيان العلوم الشرعية، وآلاتها إلا هو حفظاً، وقد عدوا ذلك من جملة كراماته، فإنه من المتبحرين في التفسير والقراءات والفقه والحديث والأصول والمعاني والبيان والطب والمنطق والكلام والتصوف، وله الباع الطويل في كل فن من العلوم، وما رأيت أحداً في مصر أحفظ لمنقولات هذه العلوم منه، وجمع على البهجة شرحين، جمع فيهما من شرح البهجة لشيخ الإسلام، وزاده فيها ما في شرح الروض، وغيره وولي تدريس الخشابية، وهي من أجل تدريس في مصر يجتمع في درسه غالب طلبة العلم بمصر، وشهد له الخلائق بأنه أعلم من جميع أقرانه، وأكثرهم تواضعاً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم نفساً. لا يكاد أحد يغضبه لما هو درس التمكين إذا حضر ولده يجلس بجانب النعال، فيكون هو صدر المجلس، وله صدقة كثيرة لا يكاد يبيت على دينار ولا درهم مع كثرة دخله تبعاً لشيخه الشيخ زكريا قال: وقد عاشرته مدة سنين أطالع أنا وإياه لشيخ الإسلام المذكور، فكنت أطالع من طلوع الشمس إلى الظهر، ويطالع هو من الظهر إلى غروب الشمس، فما كنت أظن أحداً بمصر أكرم مني مجلساً، فكنت إن نظرت إلى وجه شيخ الإسلام سررت، وإن نظرت إلى وجه الشيخ ناصر الدين سررت، وكأنما النهار الطويل يمر كأنه لحظة من أدبه وأدب شيخه، من حلاوة منطقهما وكثرة فوائدهما، لا سيما في علم التأليف والوضع وضم الألفاظ انتهى. [الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (1/ 218)].

مقته الله ﷻ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: هدايتهم من جاءهم يسألهم في أن يحملوا حملته من الأمراء والمباشرين لما دارت رحاتهم شمالاً إلى التوبة والاستغفار من كل ذنب فعلوه إلى وقتهم ذلك قبل أن يدخلوا في جملتهم، فكم ضرب أحدهم مسلمًا حتى دمي لحمه؟ وكم حبسوه ظلمًا؟ وكم شربوا الخمر؟ وكم زنوا؟ وكم لاطوا؟ وكم تعاونوا في الناس عند الظلمة؟ وكم وكم وكم؟

وهذا أمر قد أغفله غالب المتمشيخين في هذا الزمان، فيدخل أحدهم في حملة من عزل من ولايته أو وظيفته مثلاً، وربما كان ذلك عقوبة له على ذنوب مضت ظن أن الله تعالى قد غفرها والحال أنها لم تغفر.

فالعاقل من أمر صاحب الحاجة بكثرة الاستغفار والندم، ثم بعد ذلك يدخل في حملته بشرط أن يكون الشيخ الآخر تائبا من كل ذنب يعلمه الله، وليس له سريرة سيئة يفتضح بكشفها في الدنيا والآخرة، ومتى كان الشافع أو المشفوع له مرتكبًا ذنبًا فليس هما من أهل هذا المقام، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ملاحظة مريديهم إذا سافروا أو إذا أقاموا في بيوتهم، فلا يزال أحدهم يراعي مريده ويحفظه عن الوقوع في المعاصي المعلقة علي ملاحظة الشيخ ودعائه، وأما الأمور المبرمة فلا قدرة للشيخ نفسه على دفعها عنه فكيف يدفعها عن غيره؟.

فعلم أن كل من عمل شيخًا على مريد، وغفل عن حفظه كان خائنًا للعهد، والله لا يحب الخائنين، وكذلك إذا راسل أحدهم أميرًا في قضاء حاجة لمكروب لا يزال أحده يلاحظ حامل الكتاب حتى يجتمع بالأمير وتقضي حاجته، ومتى غفل أحدهم عن القاصد، وربما لم تقض له حاجة، وكثيرًا ما أقول لمن طلب مني كتابًا يسافر به للكاشف أو شيخ العرب بعد ثلاثة أيام مثلاً اصبر حتى تريد الخروج للسفر فإني لا أقدر على ملاحظتك ثلاثة أيام، وهذا سر قل من يعرفه فضلاً عن أن يعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: اتهام نفوسهم في إمكان الوقوع في سائر الكبائر فضلاً عن الوقوع في الصغائر، فلا يخلو أحدهم قط بامرأة أجنبية ويقول: بعيد على مثلي بأن أقع

في الزنا بها، فإن في الحديث: **«ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»**[1]، ومن كان الشيطان معه خيف عليه من الوقوع في كل معصية، بل العاقل لا ينبغي له أن يفعل شيئًا يكون إبليس جليسه فيه أبدًا، بل يفر من مجالسته من حيث أنه عدو الله ملعون، فإن مجالسته مذمومة، ولو لم يقع مجالسة في معصية أخرى، ويتعين اجتناب مثل ذلك على أمثالنا ممن نفسه لا ترتد عن المعاصي إلا إذا لم تجدها، وقد خالف في ذلك أقوام وقالوا للعجوز: أنت أختنا، وللصغيرة: أنت بنتنا، فوقعوا في مالا ينبغي، فالعاقل من بعد عن مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يتزوجون لشيخهم زوجة سواء طلقها في حال خيانة أو توفى عنها ولو موطوءة بملك؛ أدبًا معهم أو خوفًا من قتلهم كما وقع لسيدي محمد الشويمي، وسيدي بهاء الدين فطعنا ذلك الزوج في المنام فاستيقظ وأخبر الناس، ثم مات لوقته.

وأما سيدي محمد بن عنان فطعن الذي عقد على زوجته أم أبي العباس فاستيقظ والطعنة في جنبه كالكبد المشوي، فحمل من جامع المقسم إلى بلاده بالشرقية، فمات في الطريق.

وكذلك وقع لسيدي نور الدين الشوني؛ ولكن حصل فيمن أخذ امرأته شفاعة من سيدنا رسول الله ﷺ؛ لكون التي تزوجها من المكثيرين من الصلاة عليه ﷺ، ثم إن المعول في الزجر عن مثل هذا الأمر التجربة بحصول الضرر من الأولياء إذا حصل عندهم غيرة على عيالهم وإلا فذلك جائز في الشرع، ومن شك فيجرب لاسيما في حق أرباب الأحوال.

وقد تقدم أن سيدي محمد المغربي الشاذلي كان يوصي أصحابه أن يتزوجوا حلائله بعد موته ويقول: لا أحب أن أشارك رسول الله ﷺ في هذه الخصوصية أدبًا معه ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا دخلوا محفلاً وجلسوا عند النعال لا يرون نفوسهم بذلك على المتعذرين في المجلس من حيث مواضعهم أو غيره، ولو أنهم كانوا في صدر المجلس فدخل شخص من أراذل الناس فزحزحهم صاحب الدار إلى أسفل المجلس لا يتأثرون؛ وذلك لأن نفوسهم قد ماتت إلا فيما يرضى المولي ﷻ، وتقدم أن من

(1) رواه أحمد في «المسند» (18/1) بنحوه، والبيهقي في «شعب الإيمان» (374/4) بنحوه.

شأنهم أنهم يرون نفوسهم أقل الناس، وأن حكمهم مع الناس كحكم التلامذة مع شيخهم، فلو زحزحهم أحد من مكانهم لأجل شيخهم لا يتكدرون، بل يفعلون ذلك اختيارًا وينشرحون له، فكذلك الحكم مع جميع المسلمين.

وسمعت سيدي علي الخواص ﷺ يقول: ليس التواضع أن يثبت الفقير له مقامًا عاليًا، ثم يتنزل منه للناس كما قد يشعر لفظ التواضع ألا يرى له مقامًا على أحد من المسلمين يتنزل منه، ولو أن أحدًا رفعه على أقرانه في مجلس أو غيره لا يرى أنه ارتفع، بل هو دائمًا تحت نعال أقرانه وأعدائه فضلاً عن غيرهم، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا قرءوا القرآن أو سمعوه أن يجعلوا جميع مواعظه وزواجره في حق أنفسهم، وكذلك إذا سمعوا خطيبًا أو واعظًا يأخذون جميع ما ويخ به الناس في حق أنفسهم دون غيرهم، وقليل من يتخلق بهذا الخلق، وإنما يأخذون الكلام الصعب في حق غيرهم، ثم ينصرف أحدهم، ويقول: أفلح الخطيب أو الواعظ اليوم في حق هؤلاء الفسقة والظلمة، ولا يكاد يأخذ له في حق نفسه كلمة واحدة، وغاب عنه كونه فاسقًا أو ظالمًا؛ لأن الفسق هو خروج عن السنة، والظلم هو ظلم النفس بارتكاب المخالفات سرًا وجهرًا.

فأي عاقل يدعي سلامته من هذا الفسق والظلم؟ فعلم أن من كان همه الفهم في معاني القرآن وما فيه من الزواجر والقوارع فهو غائب عن الوسوسة في مخارج الحروف، وعن الإدغام، والإقلاب، والترقيق، والتفخيم إلا بقدر ما جرت العادة، إذ إلقاء الذهن إلى مثل ذلك يغيب به العبد عن كمال الحضور مع الله تعالى.

وقد قالوا: ليس من قدرة النفس أن تشتغل بشيئين معًا في آن واحد إلا إن أمكنها الحق تعالى بقوة إلهية؛ ولذلك كانت قراءة السلف الصالح ساذجة خالية عن الأنغام التي ابتدعت، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الاحتجاب عن كل من أتاهم لغير غرض شرعي، فلا يفتحون له الباب عملاً بالاحتياط في ذلك، وأعرف جماعة يأتوني كل قليل ولا يحفظون لسانهم عن وقائع الناس وزلاتهم، ثم يجيء يحكي ذلك لي، وعجزت عن أن أردهم فكأنهم رسل إبليس إليّ.

وقد كان سيدي يوسف العجمي مع تمكنه في الطريق لا يفتح باب الزاوية إلا لمسترشد أو مكروب أو لمن معه بر للفقراء ويقول: إن أعز ما عندنا وقتنا، وأعز ما

على أهل الدنيا دنياهم من مال وطعام وكلام في غير ضرورة، فما كان عندهم حسنًا فهو قبيح عندنا، وإنما فتحنا الباب لمن أتى ببر للفقراء جبرًا لخاطره ومجابرة لبره؛ لكونه بذل لنا أحسن ما عنده، فتنزلنا لعقله وإلا فالفقراء في غنى عما أتى به.

وقد قدمنا أنه لا ينبغي دق الباب على فقير؛ لأنه ربما كان في جمعية قلب مع الله تعالى لا وجهة له إلى الخلق فينشئ الداقّ عليه الباب الأدب معه، وربما غارت عليه القدرة، فأدبته بمرض أو زوال وظيفة ونحو ذلك، وفي القرآن العظيم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات:5]، وفي الحديث: «**لي وقت لا يسعني فيه غير ربي**»[1] أي: لا يسعني من الله تعالى أن اشتغل بغيره فيه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم لقيام الليل قبل أن يصطف كبراء الحضرة الإلهية، بل يصير أحدهم حتى يصطف الجماعة الذين هم أكبر منه عادة، وعلى ذلك أهل حضرة ملوك الدنيا، فلا يقف الأدون إلا بعد وقوف الأكبر، وقد وقع لي أنني قمت أتهجد ليلة قبل دخول النصف الثاني فما كنت إلا هلكت، فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه ولا تغتر بمن تراه يقوم من العباد قبل نصب المركب الإلهي، فليس من يعلم كمن يجهل، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبة مناجاة الله تعالى في الأسحار من حيث مجالسته فيها لا لعلة أخرى من حصول أنس، وانتعاش قلب وانفساحه، فمن قام الليل لأجل ذلك فإنما قام لحظ نفسه، وقد أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: قل لفلان العابد أخلص عبادتك لله تعالى فإنك إنما تقوم في الأسحار لما تجده من لذة مناجاتي، وأنا لا مجانسة بيني وبينك حتى تستلذ بي، أو تأتسي فلنفسك قمت لا لي، انتهى.

وسيأتي ذلك بأبسط مما هنا قبيل الباب السابع إن شاء الله تعالى، وقد قال الشيخ في «الفتوحات»: لا تكون إلا بالمناسب والمشاكل، والحق تعالى لا مناسبة ولا مشاكلة بينه وبين خلقه، وما حصل له من الأنس في عباداته ليس هو في عباداته ليس هو بالله تعالى، وإنما هو بما من الله تعالى لا بالله تعالى، قال: وهذا سر يغلط فيه كثير من الناس، انتهى.

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (226/2).

فعلم من باب أولى أن الفقراء الصادقين غائبون عن طلب الثواب بعباداتهم إذ لا يطلب الأجر على عبادته لربه تعالى إلا كل محجوب عن حضرة الأدب مع الله تعالى، وما طلب أحد من الأكابر الأجر إلا من باب المنة والفضل.

وقد قدَّمنا أن الله تعالى قال في بعض الكتب الإلهية: ومن أظلم ممن عبدني لجنة ونار، ولو لم أخلق جنة ولا نارًا ألم أكن أهلاً لأن أطاع، انتهى. فالحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: أن لا يزوروا وليًا أو عالمًا حيًا أو ميتًا إلا بقصد أن يمدهم بمدده، أو لغرض شرعي صحيح دون أن يروا نفوسهم عليه بالزيادة، وكذلك كانوا لا يخرجون من عند من زاروه إلا بمدد وخير بخلاف من يروا نفوسهم على من يزوروه من جهلة الزائرين فإنهم إما يمقتوا، وإما يخرجوا بلا مدد، وممن رأيته في عصرنا هذا يزور الفقراء بقصد الاستمداد من مددهم الشيخ ناصر الدين الطبلاوي، وسيدي محمد الرملي، والشيخ نور الدين الطندتاوي [1]، والشيخ شمس الدين الخطيب، والشيخ نجم الدين الغيطي [2]، والشيخ سراج الدين الحانوتي ﷺ فاقتدِ يا أخي بهؤلاء الأشياخ، وكان

(1) في المطبوعة (الطنطاوي)، قال المصنف: ومنهم الأخ الصالح العالم الزاهد الكامل الراسخ المحقق، صحبته نحو سبعة وأربعين سنة، فلم أر عليه شيئًا في دينه، وهو أول من صحبته بجامع الأزهر من أهله، لم يذل لأحد من حين صحبته .. وانظر: الطبقات الصغرى (ص82).

(2) قال الغزي: هو الشيخ محمد بن أحمد بن علي بن أبي بكر الشيخ الإمام العلامة، المحدث المسند اللهامة صاحب كتاب المعراج، شيخ الإسلام نجم الدين الغيطي الإسكندري، ثم المصري الشافعي، ولد في أثناء العشر الأولى من القرن العاشر كان رفيقاً لوالدي على والده، وعلى القاضي زكريا قرأ عليه البخاري كاملاً، وسمع عليه جميع صحيح مسلم، وقرأ عليه سنن أبي داود إلا يسيراً من آخرها، ومات قبل إكماله، وقرأ عليه شيئاً من القرآن العظيم جمعاً للسبعة إلى قوله " وأولئك هم المفلحون " ولبس منه خرقة التصوف، وسمع على الشيخ عبد الحق السنباطي سنن ابن ماجة كاملاً، والموطأ وقرأ عليه مجالس عديدة من أوائل سنن أبي داود، والترمذي، وقرأ عليه من شرح المنهاج للمحلي، إلى باب شروط الصلاة بحق أخذه له عن مؤلفه سماعاً عليه لكتاب البغاة منه، وقرأ عليه من شرح التصوف للتفتازاني، وسمع عليه بحق أخذه له عن التقي الحصكفي عن عالم هراة منلا شمس الدين الحاجري عن مؤلفه، وسمع عليه دروساً من التفسير والشاطبية، وألفية ابن مالك، وأذن له بالإفتاء والتدريس، وأخذ عنه النحو عن الشمني بسنده، وقرأ بسمع غالب المنهاج تقسيماً على السيد كمال الدين بن حمزة الشامي لما قدم عليهم مصر في سنة خمس وعشرين وتسعمائة، وقرأ على الكمال الطويل كثيراً منه جزء في فضائل ليلة القدر للؤلؤي العراقي قراءة عليه بسماعه له عن الشرف المناوي عن مؤلفه، وأخذ
=

بعضهم إذا زار وليًا، ورآه ناقصًا في مقام كمّله له في البرزخ، ووقع لي مع سيدي عمر بن الفارض ﷺ ذلك وشكرني على ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تصديقهم للفقراء فيما يخبرون به عن أنفسهم من الأمور التي تحيلها العقول عادة، وقد وقع لسيدي على المرصفي أنه قرأ القرآن الكريم في يوم وليلة ثلاثمائة ألف مرة وستين ألف مرة كل درجة ألف ختم كما سمعته منه مرارًا، ووقع أن أخي الشيخ أبا العباس الحريثي صلى المغرب في خلوتي في رمضان، وتعشيت أنا وإياه، ثم افتتح القراءة فقرأ القرآن قبل مغيب الشفق خمس مرات، ووقع

-

عنه ألفية العراقي، وأجازه بالتدريس، والإفادة والإفتاء، وسمع على الشيخ أمين الدين بن النجار جميع الموطأ رواية يحيى بن يحيى وأخذ عن البدر المشهدي كثيراً وسمع عليه الموطأ رواية أبي كاملاً، وقطعة من مسند الطيالسي وأخذ عنه شرح النخبة، ومجالس من ألفية الحديث، وقرأ جميع البخاري على أبي السعودي أحمد ابن العلامة عز الدين السنباطي، وأخذ عن الشمس الدلجي القرآن العظيم، وغيره، وأخذ التفسير والحديث، والفقه عن الشيخ أبي الحسن البكري، وذكر الشعراوي أنه أفتى ودرس في حياة مشايخه بإذنهم، وألقى الله محبته في قلوب الخلائق، فلا يكرهه إلا مجرم أو منافق، وانتهت إليه الرئاسة في علم الحديث، والتفسير، والتصوف، ولم يزل أماراً بالمعروف ناهياً عن المنكر يواجه بذلك الأمراء، والأكابر لا يخاف في الله لومة لائم ثم قال: ولما وقعت فتنة أخذ وظائف الناس بغير حق من بعض المفتنين انتدب لها، وواجه الباشا والأمراء بكلام لا يقدر أحد من أقرانه أن يتلفظ به، وكان خمود الفتنة على يديه، ووصل خبره إلى الروم، والحجاز، والشام، وشكره المسلمون على ذلك قال: وتولى مشيخة الصلاحية بجواذ الإمام الشافعي، ومشيخة الخانقاه، والسرياقوسة، وهما من أجل وظائف مشايخ الإسلام من غير سؤال منه وأجمع أهل مصر على جلالته.

قال: وما رأيته قط يغتاب أحداً وآذاه بعض الناس أشد الأذى فلم يقابله بكلمة واحدة فازداد بذلك هيبة، ومحبة في قلوب الناس، وازداد عدوه مقتاً.

قال: وما رأيت أحداً من أولياء الله تعالى من مصر إلا يحبه، ويجله، لا سيما الشيخ نور الدين الشوني لأن والده كان من أجل أصحاب الشيخ نور الدين، وذكره شيخنا القاضي محب الدين الحنفي في رحلته إلى مصر فقال: وإما حافظ العصر وحيد دهره، ومحدث مصره الرحالة الإمام، والعمدة الهمام، الشيخ نجم الدين الغيطي فإنه محدث هذه الديار على الإطلاق، جامع للكمالات الجميلة، ومحاسن الأخلاق، حاز أنواع الفضائل والعلوم، واحتوى على بدائع المنثور، والمنظوم، إذا تكلم في الحديث بلفظه الجاري، أقر كل مسلم بأنه البخاري، أجمعت على صدارته في علم الحديث علماء البلاد، واتفقت على ترجيحه بعلو الإسناد، ووقفت له على مؤلف سماه القول القويم، في إقطاع تميم ، توفي في سنة ثلاث أو أربع وثمانين وتسعمائة رحمه الله تعالى. [الكواكب السائرة (1/379)].

لي أنني صليت خلف الشيخ عمر الإمام عندنا بالزاوية في صلاة الصبح فافتتح بسورة المزمل فسهوت عن سماعه وافتتحت من سورة البقرة فوصلت إلى الآية التي هو فيها في الركعة الأولى هذا أمر شهدته من نفسي وآمنت به، فإنه كما يجب الإيمان بكرامات الأولياء كذلك يجب على العبد الإيمان بكرامة نفسه التي أكرمه الله تعالى به؛ لأن كلا الكرامتين بأقدار الله تعالى للعبد لا مستقلاً.

وإذا نظر العبد إلى كون الكرامة فعل الله تعالى وخلقه لا يقع في تعجب يعني استبعادًا على القدرة، فإن القدرة لا يعجزها شيء، والله على كل شيء قدير، وإنما تعجب الناس من مثل ذلك؛ لوقوفهم مع نسبة ذلك للولي وهو حجاب عظيم إذ لو كانت الكرامة من قدرة العبد مستقلاً لم يمت إذا حضر أجله، وكان يحيى نفسه إذا مات ويفعل كل ما يريده فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: أنهم يكرهون من يقبل يدهم أو يقوم لهم أو يمشي معهم من غير غرض شرعي، كما أنهم يحبون من لم يقبل يدهم ولم يقم لهم، ولم يعتقدهم أكثر من كان بالضد من ذلك، وهذا خلق غريب في هذا الزمان لا يوجد إلا في أفراد من الناس، وكان هذا الخلق من أخلاق سيدي علي الخواص، وأخي الشيخ أفضل الدين - رحمهما الله تعالى - ولا يقدر على المشي عليه إلا من غلبت عليه مراقبة الله تعالى من يعظمه بحضرة الله تعالى فيكاد يذوب من الحياء والخجل لاسيما إن كان ذلك الوقت مشهوده زلاته السابقة، وهو يطلب من الله تعالى أن يعفو عنه ويسامحه، فإنه يهلكه بالكلية كما جربنا ذلك، وما يعقلها إلا العالمون، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: إكرام أهل الحرف النافعة، كالقنواتي والفران والمعداوي والجزار والطباخ ونحوهم، فإنهم من أهل الفضل علينا، وإن قال العلماء بكراهة كسب بعضهم، أو كانوا عوامًا ونحن علماء.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقوم للقنواتي والزبال والحمام ويقول: إن هؤلاء لهم الفضل علينا في نزحهم قاذوراتنا، وتسخينهم الماء في الشتاء لطهارتنا، والقيام لأهل الفضل محمود، وهذا خلق غاب أصحاب الأنفس عنه، ولو نظر أحدهم إلى نفسه هو في الكون لوجده كلاً نفع منه، وأين هو من الطباخ الذي يقوم من نصف الليل يهيأ الطعام للعزاب الذين ليس لهم أحد يخدمهم فكم يأكل من طعامه فقير ومسكين وعاجز بفلوس، وغير فلوس كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تصبرهم على المرض وعدم الضجيج من الألم في حال بدايتهم، وعدم الصبر، وإظهار الضجيج أيام نهايتهم، فإن الكمل من شدة لطافة أبدانهم بالرياضة والمجاهدة صاروا يتألمون من قرصة برغوث، ولا هكذا حاله أيام بدايتهم لشدة كثافتهم، وكثرة دعوى نفوسهم للقوة كالفراعنة إذ النفس تريد بتصبرها مقاومة القهر الإلهي، والكامل ظهر له ضعفه، وألقى سلاحه، وما بقي معه قوة تقاوم بها القهر الإلهي.

فكان من فضل الله تعالى على العبد أنه يحبسه في مقام الصبر والتجلد وتحمل المرارة، ليحصل له أجر الصابرين، ثم ينقله أواخر عمره إلى مقام الرضا؛ ليجعل له أجر الراضين ليحوز الكمال في المقامين، وقد سئل أبو عبد الله الحكيم الترمذي عن صفة الخلق فقال: ضعف الظاهر ودعوى عريضة، انتهى.

ولما علم العارفون ذلك من نفوسهم طلبوا من الله تعالى التخفيف عن مرضهم، فإن مثالهم إلى ذلك السؤال كما وقع للسيد أيوب ﷺ بقوله أواخر المرض: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83] والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يقبلون هدية من لا يتورع في مكسبه، ثم إن قبلوا هدية من يتورع كافأوه على هديته، وإن علموا أنه لا يقبل مكافأتهم ردوا هديته عليه؛ هروبًا من تحمل منن الخلق في الدنيا والآخرة.

فعلم أن كل فقير قبل هدية من لا يتورع كبعض الولاة والقضاة والتجار الذين يبيعون على الظلمة فهو لم يشم لطريق القوم رائحة.

وكان سيدي علي الخواص لا يبتدئ أحدًا بهدية إلا إن كان فقيرًا فيهديها إليه ويسامحه بالمكافأة عليها، وإن أهدى أحدًا له ممن لا يقبل مكافأة لغناه أو تكبره مثلاً يردها عليه ويقول للرسول: قل له أن يهديها إلى من هو أحوج إلى ذلك مني، كما أوضحت ذلك في كتاب «العهود» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: هروبهم من تحمل منن من زارهم من الأكابر لاسيما العلماء والأولياء، فإن جميع رأس مال الفقير من أعمال لا يجيء حق طريق أحدهم هذا مع ازدرائهم نفوسهم، وعدم رؤية استحقاقهم ليمشي أحد إليهم، وكثيرًا ما أسأل الله تعالى أن ينسى إخواني من طلبة العلم أن يزوروني؛ خوفًا أن ينقص أجر زيارتهم لي عن أجر اشتغالهم بالعلم الذي فوتوه بمجيئهم إليَّ، وكثيرًا ما أجعل ثواب عملي ذلك اليوم إن

كان سبق في علم الله تعالى أن فيه ثوابًا في صحائف من زارني ذلك اليوم من العلماء الصالحين، وهذا خلق لم أرَ له فاعلاً إلا قليلاً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الإكثار من الأعمال الصالحة، ثم لا يرون أنهم قاموا بشيء من واجب حقوق الله ﷻ، ولو صام أحدهم وصلى وتورع وزهد حتى صار كالشن البالي، وقد غاب عن مثل هذا غالب أولاد المشايخ فاكتفوا عن العمل بالاتكال على أعمال سلفهم، وشهرتهم بالصلاح ففاتهم خير كثير.

وقد أخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي - رحمه الله تعالى - أن شريفًا دخل على سيدي ياقوت العرش، فرأى الناس يقبلون رجل سيدي ياقوت ولا يلتفت إليه أحد فتكدر الشريف في نفسه، فقال له سيدي ياقوت: يا شريف أنا كلي بأكارعي وجميع أعضائي الناشفة الهزيلة لو وضعوني في السوق ما أقبل أحد على شرائي بعشرة دنانير، ولكن لما تبعت أخلاق سلفك الطاهر اكتسبت الشرف والعز، وأنت لما خالفت أخلاقهم، واتبعت أخلاق الأراذل اكتسبت الذل، فتنبه ذلك الشريف لنفسه وتاب إلى الله تعالى، وأخذ الطريق عن سيدي ياقوت، انتهى.

وتقدم بعض ذلك، فعلم أن كمال مروءة الفقير أن يكون في حرز أعماله الزكية لا في أعمال سلفه الذين ماتوا.

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: أكثروا من الأعمال الصالحة على نية أن تعطوها لخصمائكم يوم القيامة، ولا تطعموا نفوسكم منها بشيء إلا بعد استيفاء الخصوم منكم الحقوق، ولعله لا يفضل عنهم شيء لكم، وربما أعمالكم الكثيرة لا تكفيهم، فيضع الملائكة من أوزارهم على ظهوركم، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مراعاة حق الجار حتى إن أحدهم يود أن يتحمل عن جاره كل بلاء نزل عليه ويود أن يدخل عليه كل شيء يسره، وإذا كان ساكنًا على الخليج، وطلب جماعة الوالي منه أن ينزح ماء خرارته، فمن المعروف أن يجعلها الفقير خرارته، ويقول: هذه خرارتي وينزحها عنه لاسيما إن كان الجار في كدر من ولد مات أو مال ضاع، أو عنده مريض أو ضيوف يستحي منهم أو طلبوه للتفتيش ليعمل حسابه في الوقف الذي تحت نظره أو جبايته، فإنه يكون في أعلى طبقات النكد.

وقد عملت ذلك مرة ونزلت بالمجاورين فنزحنا خرارة الحمام والجامع الذي بجوارنا، ونزل معنا الشيخ رضي الدين قاضي قليوب - نفع الله به المسلمين - كل

ذلك خوفًا من أعوان الوالي أن يرعبوا صاحب الحمام، وناظر جامع الميدان من جماعة الوالي، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: اشتغالهم بتوديع الدقائق والدرج والساعات، وخروج أوقات الصلوات، وتوديع الأيام والليالي، والجمع والشهور والسنين بالأعمال الصالحة، فلا يصير لهم وجهة لأحد من الخلق وكيف حال من تشهد عليه هذه الأوقات كلها بما عمل فيها من السيئات؟.

فإن حكم العبد حكم مجرم اجتمعت عليه شهود عدول عند ملك جبار يشهدون عليه بتعدي حدوده التي نصبها ونهاه عن تعديها، وقالوا له: إنه استهان بنظرك إليه، وخاف من نظر عبيدك، وذكروا فيه العجز والبجر حتى اشتد غضب ذلك الملك عليه، ولله المثل الأعلى، فإن نظر لعدد مفاصله التي تشهد عليه وجدها ثلاثمائة وستين شاهدًا في كل وقت عصى الله تعالى فيه، وإن نظر للأيام والليالي وجدها عند قرب انسلاخ السنة كأنها سبعمائة وعشرون شاهدًا، وإن نظر إلى الكرام الكاتبين في اليوم والليلة وجدهم ألفًا وأربعمائة وأربعين شاهدًا، وهكذا القول في المفاصل والدقائق والثواني والساعات، وإذا ضربتها صارت كذا كذا ألفًا يشهدون عليك، وهذا الخلق ما رأيته إلا في أفراد قليلة، ومن عرف عذر الفقير في هروبه من الناس في وقت من الأوقات من الدقائق إلى السنين، فربما يكون مشغولاً بتوديع ما فارقه من الزمان في ذلك الوقت؛ لأن كل وقت ورد عليه رسول من عند الله ﷻ فإما يرجع شاكرًا وإما كفورًا لاسيما أواخر السنة، فإن الفقير يكاد يذوب من الخجل والحياء من الله تعالى حين تصعد رسل جميع الأوقات المذكورة إلى حضرة الله تعالى ذامة أفعاله وأقواله.

وقد دخل عليّ أواخر سنة أحدى وستين وتسعمائة الأخ الصالح الورع الزاهد الشيخ بدر الدين الشهاوي الحنفي[1] زائرًا، فما وجدت لي وجهة إليه، فلولا أنه يعرف أحوال الفقراء لخرج نادمًا على زيارته لمن لا يلتفت إليه ولا أنصفه في السلام، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) قال المصنف: هو الشيخ الأخ الصالح الورع الزاهد، صحبته نحو ثلاثين سنة، فما زاغ عن الشريعة في شيء من أفعاله وأقواله وقواعده، أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام كالشيخ نور الدين الطرابلسي شيخ الإسلام، والشيخ شهاب الدين الحلبي.. وأخذ التصوف عن سيدي أبي السعود الجارحي .. وانظر: الطبقات الصغرى (ص67).

ومن أخلاقهم: زيادة العمل للطاعات بحضرة مريدهم؛ لينهضوا همتهم حتى يصير المريد يجتهد في أثرهم فلا يلحقهم بحكم الإرث لرسول الله ﷺ فقد قام حتى تورمت قدماه.

ووالله إني لأخرج إلى الزاوية في الليل ليس لي حاجة إلا أن أعلم الفقراء أني مستيقظ؛ خوفًا أن يظنوا أنني نائم فيناموا.

فعلم أنه متى كان المريد أكثر عملاً من الشيخ ربما رأى نفسه على الشيخ فلا يفلح بعد ذلك على يديه، قال الجنيد ﷺ: ما رأيت أعبد من السري السقطي أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما روئي مضجعًا إلا في علة الموت، قال: وكان يقول لنا اعملوا يا أولادي قبل أن يصير أحدكم عاجزًا مثلي، قال الجنيد: وكنا نجهد أن نعمل مثل عمله في ذلك السن فلا نلحقه، انتهى.

وهذا الخلق قد أخل به مشايخ الزوايا، فإنهم في النهار مع الناس، وفي الليل مع النساء والنوم، ومع ذلك فربما يزعم أحدهم أنه في مقام لا يشغله الخلق عن الله تعالى، وربما كان كاذبًا كجلوسه للمشيخة بلا إذن من شيخه، وقبل خمود نار بشريته ورعوناته، ويؤيد ذلك تكديره إذا سمع أحدًا يذمه ويمدح أقرانه، وتكدره إذا كان الباشا والدفتدار وقاضي السكر يزورونه ويعتقدونه، ثم فارقوه إلى أحد من أقرانه، وصاروا ينكرون عليه ويذكرون نقائصه في المجالس فإن علامة الصادق الذي لا يشغله عن الله تعالى شيء أن ينشرح صدره إذا أنكر عليه الولاة وذموه، واعتقدوا أقرانه ومدحوهم وهذه ميزان تطيش على الذر، فليمتحن المدعي نفسه، ثم بعد ذلك يدعي أنه لا يشغله عن الله تعالى شيء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إكرامه لحملة القرآن والشريعة المطهرة، وإن لم يعملوا بما حملوا كما مر، فيكفينا منهم كون الحق تعالى جعلهم عرشًا بكون القرآن العظيم، والعلم الشريف في قلوبهم، وإن كان غير حال في القلوب كما هو مقرر في كتب قواعد العقائد، ولم يزل علم الناس في كل عصر أكثر من عملهم، ومن توقف في إكرام عالم على عمله بكل ما يعلم فإنه خير كثير.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: ينبغي للعبد أن يعظم حملة شريعة رسول الله ﷺ من حيث كون الحق تعالى أهلهم لحملها، فمتى خرج للدين مبتدع قاموا عليه وقطعوه بالحجج، وهذا القدر كان لنا في الحث على إكرامهم، فعلم أن أهل الله تعالى لا يتوقفون في محبتهم لعالم على إحسانه إليهم أو مصاحبته لهم،

ونحو ذلك من الأغراض الدنيوية، بل يحبونه ولو لم يجالسهم قط محبة في رسول الله ﷺ لا غير، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة سترتهم لطالب العلم إذا دخل عليهم وهم يقرؤون في كلام أهل الطريق، فلا يعزمون عليه أنه يقرأ إلا إذا علموا منه باصطلاح القوم خوفًا عليه أن يضحك عليه المريدين وهو يقرر الكلام على خلاف مراد القوم، ثم إذا خفنا عليه ما ذكروا قرأنا نحن، فمن الأدب أن نصير نستشيره في المعاني التي نبديها، فإن قال: هي حسنة، كان وإلا رجعنا إلى ما فهمه هو، ثم إذا خرج من عندنا قرأنا للفقراء الكلام على مصطلح القوم؛ وذلك لأن بعض طلبة العلم الآن علمهم موضوع في نفوسهم لا في أرواحهم، فلا يزدد أحدهم بكثرة العلم إلا تكبرًا ودعوى، فهو الشجر الحنظل كلما ازداد ريًا من الماء كلما ازداد مرارة بخلاف من كان علمه موضوعًا في روحه فإنه يزداد تواضعًا، ويدعي الجهل كما درج عليه السلف الصالح، فكان من حسن سياسة الفقراء العمل مثل هؤلاء القوم، وإلا خرج أحدهم يمزق في أعراض أهل الطريق ويدعي أنهم خارجين عن الشريعة بحسب فهمه السقيم، ولو أنه اهتدى لتلمذ لأهل الطريق حتى عرف مصطلحهم، ثم بعد ذلك جالسهم وحضر دروسهم.

قال سيدي عمر بن الفارض ﷺ ونفعنا به:

دَعْ عَـنْكَ تَعْنِيفِـي وَذُقْ طَعْـمَ الهـوَى   فَـإذا عَـشِقْتَ فَـبَعْدَ ذَلِـكَ عَـنِّفِ

أي: فإنك إذا ذقت طعم الهوى لم تعنف أحدًا من أهل الطريق عن طريقه، وإنما يعنف من اعترض عليهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة كراهتهم للتقدم للإمامة في الفرائض والجنائز والاستسقاء ونحو ذلك؛ حياء من الله تعالى، وأخذًا لأنفسهم بالاحتياط، ويقولون: يكفي أحدنا وزر صلاة نفسه، وكان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: لا ينبغي أن يتقدم للإمامة في الفرائض والجنائز إلا من كان ظاهره مثل باطنه، وليس له سريرة يفتضح بها في الدنيا والآخرة أما من كان مرتكبًا في الباطن شيئًا بحيث لو أطلع عليه المأمومون لكرهوا الصلاة خلفه فلا ينبغي له التقدم.

فليعرض من يطلب التقدم على الناس في الإمامة ذلك على نفسه، ويقدر أنه لو أظهر المأمومين على جميع زلاته التي عملها طول عمره هل كانوا يصلون خلفه أو يمتنعون؟ ويفعل بمقتضى ذلك، وأظنه لو أطلعهم على جميع زلاته لم يكن أحد منهم

يحب أن يصلي خلفه.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: لا ينبغي أن يزاحم على الإمامة في الجنائز إلا من لم يكن عليه ذنب حتى يقبل الله شفاعته، فإن من عليه ذنب يحتاج عادة إلى من يشفع فيه، فكيف يكون شافعًا لاسيما الصلاة على المكاس، ومقدم الوالي، وغيرهم من الظلمة؟! فإنه يحتاج إلى جاه عريض عند الله تعالى حتى يرضى عنهم جميع خصمائهم.

فقلت له: فإن كان ذلك مشهد جميع الكافرين، فقال: يتقدم أحد المذنبين منهم، ويدعو لنفسه، ولذلك الميت قيامًا بحق الشرع وبفرض الكفاية وبحق أخيه المسلم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مبادرتهم للشكر لله تعالى إذا قدر لهم طاعة، ومبادرتهم للاستغفار إذا قدر عليهم معصية، ولا يقولون: هذا قدره الله تعالى علينا إلا بعد الندم والاستغفار، ومن أين لأمثالنا أن يأذن الحق تعالى له في الوقوف بين يديه ولو لحظة؟ فلذلك بادروا إلى الشكر، وإن كانوا يستغفرون من طاعاتهم من حيث نقصها، وعدم خشوعهم فيها، ويرضون عن الله تعالى من حيث قضائه عليهم المعصية لا من حيث المقتضى الذي هو من كسبهم فافهم.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: ينبغي للعبد أن يشكر الله تعالى على يسير الطاعات ويحمده على يسير المعاصي التي لم تكن أكثر مما وقع له، فيقول: الحمد لله الذي قسم لي شيئًا من الطاعات، ولم يحرمني منها بالكلية، الحمد لله الذي لم يقدر علي من المعاصي أكثر مما وقعت فيه، ويحتاج صاحب هذا المقام إلى منزع دقيق بحيث لا يكون له رغبة في المعاصي شيء من المعاصي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: المبادرة للشكر إذا غلا السعر، ويقولون: الحمد لله الذي لم يقدر علينا غلاء أعظم من هذا، ثم بعد ذلك يكثرون من الاستغفار؛ لأن الغلاء لا يقع بالعماد إلا بعد إغضاب خفي للحق - جل وعلا - وأقل ما هناك استعانة العباد بنعم الله تعالى على معاصيه، وقلة الاعتراف بأنهم لا يستحقون من تلك النعم ذرة واحدة لكثرة عصيانهم ومخالفتهم، وقد وقع غلاء على عهد سيدي أحمد الرفاعي ﷺ فأتوه يسألونه

عن سبب ذلك، فقال سببه الاستهانة بالقمح والدوس عليه بالإقدام، انتهى.

وقد وقع في زمن السلطان شعبان[1] أن الناس أكلوا الكلاب، وحفروا على الأموات وأكلوهم، وأكلوا أولادهم، فصار الأب والأم يذبحون ولدهم ويأكلونه، فكل غلاء لم يصل إلى مثل ذلك، فينبغي لنا الشكر عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يخرجون من بيتهم إلا بعد أن يقول أحدهم بقلبه: اللهم إن كان أحد قد عزم على زيارتي وخرج في الطريق عوقني له حتى يجيء، وإن لم يكن خرج فعوقه في بيته أو في الطريق حتى أرجع من حاجتي هذه، وذلك شفقة على أخيهم؛ خوفًا أن يتكلف أو يجيء إلى بيتهم فلا يجدهم لاسيما إن جاء من موضع بعيد بنية خالصة، وهذا خلق غريب قل من يفعله الآن، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: فعل الأمور التي أخبر الحق تعالى أنه يحبها، وتقديمها على ما لم يرد فيه شيء بخصوصه فيأتونها من حيث كون الحق تعالى يحب ذلك الأمر لا لعلة أخرى، فيحبون العفو عن عباده ولولا ذلك ما أحبوا العفو عنهم والعافية لأبدانهم حيث كون الحق تعالى أخبر أنه يحب العفو عن عباده، ولولا ذلك ما أحبوا العفو عنهم، وهذا خلق غريب لم أجد له ذائقًا من أهل عصري إلا قليلاً، وأكثر الناس إنما يحب الطاعات لما فيها من الثواب، أو لما فيها من مجالسة الحق - جل وعلا - وربما رجع ذلك لحظ النفس، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مؤاخذة أحد بجنايته عليهم، بل يرجعون على نفوسهم باللوم، ويقولون: لو أننا وافقناه على طلبه منا من الأغراض المباحة ما أذانا ولا جنى علينا لاسيما إن كان من أذاهم يحضر إكرامه لله تعالى، ثم لرسوله ﷺ لمجالسته لربه تعالى أو نبيه ﷺ.

---

(1) قال المقريزي في السلوك لمعرفة دول الملوك (115/2): ولما طلع السلطان شعبان الإيون والأمراء بين يديه، جلس على كرسي السلطنة وباس الأمراء له الأرض، وأحضروا المصحف ليحلفوا، فحلف لهم أولاً أنه لا يؤذيهم، ثم حلفوا بعده، وذلك في يوم الخميس رابع ربيع الآخر، سنة ست وأربعين وسبعمائة.

ولقب بالملك الكامل، ودقت البشائر، ونودى بسلطنته في القاهرة ومصر، وخطب له في الغد على منابر ديار مصر، وكتب بذلك إلى الأقطار مصرا وشاما.

وفي يوم الإثنين ثامنه: جلس السلطان شعبان بدار العدل من القلعة، وجدد له العهد من الخليفة، بحضرة القضاة والأمراء، وخلع على الخليفة والأمراء والقضاة.

وتأمل يا أخي لو أذاك شخص ممن يجالس السلطان، لأكرمته غاية الإكرام، وسامحته تعظيمًا له فالله تعالى ورسوله أحق بذلك، وربما غفر الله تعالى لذلك الشخص الذي جالسه في ذكره جميع ذنوبه، وأرضى عنه جميع خصمائه، وأذن بالحرب كل من أذاه، فإن الذكر منشور الولاية؛ أي: مرسوم من الله تعالى بها كما قاله أبو علي الدقاق ﷺ، فمن وفق لمجالس الذكر فقد أعطي ذلك المرسوم، فإياك يا أخي أن تؤذي ذاكرًا ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم دعائهم على شريف أذاهم، بل يرون أذاه لهم من جملة المقادير الآتية إليهم من قبل الحق بلا واسطة فإما الرضا وإما الصبر لما أنزل من ذلك، وكيف يدعو مؤمن على بضعة من رسول الله ﷺ؟! وإذا تخاصم الشرفاء مع بعضهم بعضًا لا ينتصرون لأحد منهم على الآخر، بل يتوجهون إلى رسول الله ﷺ، ويقولون: يا رسول الله نسألك أن تصلح بين أولادك، فعلم أن من أذى الشريف أو اشتكاه من بيوت الحكام فقد مرق من الأدب من رسول الله ﷺ.

وقد جاءني شرفاء يسألوني أن أتوجه إلى الله تعالى في ولد عمهم، فقلت لهم: ليس لفقير توجه إلى الله تعالى إلا بواسطة المصطفى ﷺ، وكيف يقول أحدنا: يا رسول الله سل ربك أن يميت ولدك فلان لأجل ولدك فلان، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: فرحهم بنفرة أبناء الدنيا عنهم من المباشرين، والتجار والأمراء، ومشايخ العرب والفلاحين، وكل من لا يرجى منه خير أخروي، ويحبون كل من نفر مثل هؤلاء عنهم، ويكرهون من يرغب مثلاً هؤلاء فيهم عملاً بالاحتياط لأنفسهم؛ لعجزهم عن القيام بواجب حق المستقيم من إخوانهم، فكيف بالمعوجين منهم؟!.

وكل فقير لا يعزم على تحمل بلاء كل من أراد التعرف به جميع عمره فلا ينبغي له التعريف به، وفي الحديث: «**خص البلاء من عرفه الناس**»[1] يعني من غير تعرف منه، فكيف بمن يتعرف هو بهم؟ فكل يوم لا يرى الفقير الصادق فيه أحد من أبناء الدنيا فذلك عنده يوم عيد.

وقد رأيت من ادَّعى الانقطاع إلى الله تعالى، وصار يعتب على الناس في عدم ترددهم إليه، وصلاتهم الجمعة عنده، قلت له: عتابك هذا يخالف دعواك لمحبة العزلة والانقطاع إلى الله تعالى، فما درى ما يقول، فليمتحن كل من ادَّعى الصدق في التوجه

(1) رواه العجلوني في «كشف الخفاء» (453/1)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (439/3).

إلى الله تعالى نفسه، فإن رآها تفرح إذا نسيها الناس حتى كأنهم لم يعرفوها، وصاروا ينسبونها إلى عمل الزغل مثلاً، فليعلم أنه مخلص وأنه صادق فيه فليشكر الله تعالى، وإن لم يجدها كذلك فليعلم أنه كاذب مرائي مخادع لله تعالى ولعباده، وقد كان الفضيل بن عياض يقول لنفسه: كنت فاسقًا في شيبتك، ثم صرت مرائيًا في كهولتك، ووالله للمرائي شر من الفاسق، انتهى والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الاعتزاز بكثرة المعتقدين فيهم من الأمراء والأكابر، والفلاحين، ومشايخ العرب وغيرهم، ولو صاروا يحلفون بحياة أحدهم فإن غاية أحدهم حسن الظن بالفقراء فهم مأجورون بذلك، وقد يكون الفقير على خلاف ما ظنوه فيه من الصفات، وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ: أجهل الناس من ترك يقين ما عنده الظن ما عند الناس، انتهى.

لكن ينبغي لأحدهم الشكر لله تعالى إذ ستر عليهم نقائصهم بين الناس، حتى صاروا يعتقدون، ويحلفون بأسمائهم[1]، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) فائدة مهمة: قال الشيخ الشعراني في تطهير الزوايا: ومن علامة كمال الشيخ أيضًا: أن يكون حمّالاً لأعباء المملكة كلما تنشأ خواطره أشخاصًا على صورة ذلك الخاطر على الكشف والشهود، قائمًا بالحق تعالى في جمعيته، نافذ الهمة، مؤثرًا في الوجود على الإطلاق بإذن الله تعالى؛ لشدة كرامته عليه، هو مجهول النعت والوصف عند الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات؛ لعلو مقامه لا يعرف له مقام يوصف به لعدم وقوفه مع مقام: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب:13]، فلا يفارق الأفعال العادية فيتميز بها عن غيره، هو خامل الذكر مستور الحال، إذا وقع منه رحمة لأحد من الخلق يفرق في رحمته لهم بين من أمره الله برحمته وبين من لم يأمره بها؛ وذلك ليجعل لمن أمره الله تعالى برحمته خصوص مزية، لا يستر قط عيوب إخوانه عنهم إذا اطّلع عليها من طريق الظاهر أو من طريق الكشف، يرشد كل من استرشده إلى طريق الحق تعالى سواء رأى المحل قابلاً لذلك أم لا، أحب الناس إليه من يخبره بعيوبه لأنه ظهير له ومعين، إذا خالفه أحد من إخوانه في اللفظ زجره زجرًا قاهرًا لمثله، وإذا خالفه بالفعل سكت عنه حتى يقضي الله تعالى فيه بما يشاء؛ لكن مع نهيه عن فعل ذلك المحظور لا يرغب في شيء ولا يزهد في شيء إلا لغرض شرعي، يكره كل من نقل إليه مساوئ الناس فتنقص محبته له بذلك، ولو كان من أعزّ أصدقائه قبل ذلك؛ لأنه دائر مع رضا الله تعالى لا مع حظ نفسه، لو لم يكن في ذلك إلا خطور سوء الظن بالناس واحتقاره لهم بما سمع من نقائصهم.

ومن علامة كماله أيضًا: أن يصحب الناس على قدر أخلاقهم ومقاماتهم، ولا يصحبه هو أحد لجهلهم بمقامه ولما هو عليه من الجدّ والاجتهاد ليلاً ونهارًا، فإن سكت ظاهره، فباطنه عمال لا يسبق قوله فعله قط، ولا يبدأ بالصلح من غاضبه بغير حق إلا لغرض شرعي؛ لأنه يكبر نفسه

ومن أخلاقهم: عدم اعتناؤهم واهتمامهم بشيء من أمور الدنيا إلا بنية صالحة، وذلك كحضور مطبخ عرس أو وليمة أو إنشاء مركب أو غرس بستان أو بناء دار ونحو ذلك من ما هو من شأن الغافلين عن أمور الآخرة، فإن الدنيا ليس لها حكم إلا على أبنائها، وأما من كشف له عن أهوال يوم القيامة فهو في غفلة عن الاهتمام بشيء من أمور الدنيا. وقد نزلت درجة من غرف رسول الله ﷺ برجل رسول الله ﷺ فانفكت فأرادوا أن يلصقوها بالطين فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك وقال: «**الأمر أسرع من ذلك**»[1] انتهى.

وفي الحديث: «**فإني بعثت بخراب الدنيا ولم أبعث بعمارتها**»[2] رواه البيهقي وغيره، وهذا الخلق قد صار غريبًا حتى بلغني أن بعض من ينسب إلى المشيخة اشتغل بطعام عرس ولده حتى عدوا عليه تفويته لثلاث صلوات، فإياك يا أخي من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا استوى طعام وليمة العرس أو غيره أن يأذنوا للناس في أكله، ولا يتوقفون على نظام، ولا مد سماط، ولا يعدون أحدًا من الأكابر، بل كل من حضر أكل، وحمل لعياله ما شاء إلى أن يفرغ الطعام، وقد أغفل هذا الخلق غالب الفقراء، فدعوا الأكابر وحجروا على الفقراء، وصار المسكين المعيل يحضر بإنائه يطلب لهم شيئًا فيمنعونه، وربما دفعوه فوقع على وجهه، وكسروا وعاءه وذلك خروج عن الطريق.

ورأيت شخصًا يدعي المشيخة هجر نقيبه الذي أعطى فقيرًا مأمونية أو شيئًا من أطايب الطعام وقال: هؤلاء لا يستحقون ذلك، وإنما عملناه لوجوه الناس، فقال

أي: نفس أخيه بغير الحق، وبذل هو نفسه بغير محل قابل، ولا يزور أحدًا من إخوانه إلا ومعه شيء من المأكول والملبوس أو المشموم ولو زبيبة أو فلسًا لا يتخلف قط عن حضور مجلس علم ولا وعظ؛ اكتفاء بما معه هو من العلم والأسرار، فقد يجري الله تعالى على لسان ذلك العالم من العلوم والأسرار ما لم يخطر لذلك الكامل على بال، وقد كان الخضر ﷺ مع جلالته وغزارة علمه يحضر مجلس الشيخ عبد الرزاق الواعظ ويقول: إنما يسمع أحدنا من الله تعالى...

(1) رواه البخاري في «الأدب المفرد» عن عبد الله بن عمرو قال: ثم مر النبي ﷺ وأنا أصلح خصًا لنا، فقال ما هذا قلت أصلح خصنا يا رسول الله، فقال: «الأمر أسرع من ذلك» (162/1).

(2) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (301/22)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (130/8).

النقيب: أنا قصدت بذلك عظيم الأجر لكم، فقال: أنا قلت لك إنني محتاج إلى أجر؟ انتهى.

ونعوذ بالله تعالى من الوقوع في مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهة من يرفعهم على أقرانهم، وزجرهم له وعدم اتخاذه صاحبًا فإن في تقريبه مفاسد كثيرة: منها تكدير الأقران الذين لم يفطموا على يد شيخ، ومنها تعاطي أسباب شهرته بالصلاح حتى تكثر أتباعه فينفيه الولاة بحكم قانونهم، ومنها ميل النفس سرًا إلى ذلك، ومنها عماه عن عيوب نفسه بكثرة مدح الناس له واعتقادهم فيه حتى يهلك ولا يشعر، وربما قال في نفسه: لولا أنني عند الله من الصالحين ما أكب الناس على اعتقادي هذا الانكباب، وهذا شيء من الله تعالى ما هو منك ولا أنت تعاطيت أسبابه، وغير ذلك من المفاسد التي ذكرناها في كتاب «المنن الكبرى» وهذا خلق غريب قل من يتنبه له من فقراء عصرنا، وممن أدركته عليه أخي الشيخ أفضل الدين كان إذا ذمه أحد وأنكر عليه ونفر الناس عنه يقول: والله إن قلب هذا غير الذي عرف حالي الذي أنا منوط عليه، وسبقه إلى ذلك مالك بن دينار، والفضيل بن عياض كانا يقولان: والله لو علم الناس منا ما نفعله في بيوتنا لرجمونا ولم يجالسونا كل ذلك؛ سدًا لباب الشهرة عنهم، وإلا فهم منزهون عن ما أشاروا إليه فافهم.

وقد قال شخص لمالك بن دينار: رأيتك الليلة وأنت تتبختر في الجنة، فقال: أما وجد إبليس أحد يسخر به غيري وغيرك، وكان كثيرًا ما يقول: والله لو أن الناس يشمون رائحة ذنوبي كما أشمها ما استطاع أحد أن يجلس إليّ لنتن ريحي ﷺ، فاعلم ذلك واهضم نفسك ما استطعت، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهة سماعهم للغناء والآلات المطربة؛ خوفًا أن يتبعهم الناس على ذلك من غير ذوق مشاهدهم في ذلك فيهلكون، ويصير وزر ذلك عليهم كما عليه بعض جماعة ممن يدعون الفقر في هذا الزمان.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين يقول: من ادَّعى أن سماع الآلات المطربة لا تُورث عنده غفلة عن الله تعالى فأغضبوه على غفلته، فإن ملك نفسه عند الغضب فهو يملك نفسه عند سماع الآلات، انتهى.

وبالجملة فلا يسمع آلات اللهو والغناء في هذا الزمان إلا كل مطموس القلب عن مصالح الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم المبادرة إلى الإنكار على أحد من الفقراء بحكم العموم والإشاعة فإنه ما من طائفة من طوائف الفقراء من الأحمدية والبرهانية والمطاوعة مثلاً إلا وفيهم الجيد والرديء، فالحكم على الجميع بما تراه وقع من واحد منهم جور وتهور في الدين، وإن كان ولا بدّ لك يا أخي من الإنكار فخالط هذه الطوائف ومهما تراه منهم يخالف الشريعة فأنكره على فاعله، ولا تقس بقية خرقته عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم عتابهم لأحد في عدم التردد إليهم؛ لأنه نوع من الكبر إلا لغرض شرعي، وهذا يقع فيه كثير من المتمشيخين بغير إذن من أشياخهم فنرى أحدهم لا يتردد إلى أحد من إخوانه ويعتب عليهم إذا لم يترددوا إليه، ولولا ما عنده من الكبر ما تجرأ على النطق بمثل ذلك كأنه يقول: أنا كبير وأنتم صغار.

فليتنبه الغافل لمثل ذلك ولا يعاتب أحدًا في وجهه ولا يقول: أوحشنا فلان، ولنا زمان ما رأيناه، فإنه إذا سمع بذلك ربما تكلف المجيء وجاء وما كان في عزمه أن يجئ، وربما كان وراءه حاجة أهم من مجيئه إلى يد الشيخ الذي يأكل من قتة محالة على اسم دينه وصلاحه.

فإياك يا أخي إذا عملت شيخًا أن تعتب على أحد في عدم زيارته لك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يتكدروا من تلميذهم إذا تركهم ومضى إلى الاشتغال بالعلم في مثل جامع الأزهر، بل يفرحون له لأنه مشى على قواعد الصوفية، وهو تفقههم قبل طلب الطريق، فمن أنكر على تلميذه الاشتغال بالعلم فهو مبتدع كذاب لم يشم رائحة الإخلاص، ولو أن تلميذه رأى عنده من علم الشريعة ما يكفيه ما فارقه، واللوم عليه الذي عمل شيخًا من غير تبحر في الشريعة وأحوج مريديه أن يذهبوا إلى غيره.

وكذلك ينبغي للفقيه إذا رأى صاحبه في الفقه اجتمع بأحد من مشايخ الصوفية ألا ينكر عليه إلا إذا رآه وقع في بدعة.

وهذا خلق غريب؛ لأن غالب المتمشيخين يكرهون من ينتقل عنهم إلى غيرهم حتى ربما قالوا: إن فلانًا ارتد عن دينه، وذلك يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله تعالى، وكيف يكون مرتدًا من يتعلم علوم الشريعة أو يجلس في مجالس الذكر ويجالس ربه ﷻ؟.

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا يجوز المبادرة إلى

الإنكار على الصوفية إلا بعد أن يشاهد منهم أمرًا يخالف ظاهر الشريعة.

قال: وما بلغنا عن أحد منهم أنه نهى أحدًا عن الوضوء أو الصلاة مثلاً أبدًا إنما يتكلمون في أمور دقيقة عن الأفهام، فأحسن أحوالهم فيها الوقف عنهم، ووكلوا أمرهم إلى الله ﷻ، انتهى.

فإياك يا أخي ثم إياك من الوقوع في مثل ذلك وكل من جاء يجيء، وكل من راح يروح.

وقد ذكر النووي في أدب العالم من مقدمة «شرح المهذب» ما نصه: ومن أهم ما يؤمر له المعلم ألا يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره، وهذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم، وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعلم وجه الله تعالى، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حفظهم لمن أكلوا عنده خبزًا، أو ذاقوا عنده ملحًا، أو شربوا عنده ماءًا ولا يخونونه ولو بالغيب حفظًا للخبز والملح، وهذا الخلق من أغرب الغرائب في الفقراء، فربما أكل الواحد عند صاحبه أردب من العيش، ثم إذا وقع بينهما تنافر يصير كل واحد يحط في الآخر لا بكيل ولا بميزان، وقد كان هذا من جملة أخلاق اللصوص من أيام السلطان قايتباي - رحمه الله تعالى - فحكي لي سيدي علي الخواص: أن الشاطر حمور كبير اللصوص دخل على تاجر كبير بمصر وهو نائم مع سريته على السرير، ففتح عينيه فنظر فقال له حمور: لا تخف يا خواجه على نفسك فإن الصبيان إنما يطلبون منك الغذاء فقط، فقال: كم أنتم، فقال: عشرة أنفس فأخرج لهم ألف دينار لكل واحد منهم مائة دينار، وزاد الشاطر من ورائهم أربعمائة دينار، قال له حمور: عداك العيب يا خواجه ما كان أملنا فيك هذا كله، فوضع كل واحد نصيبه في عبه، ثم شرعوا في الخروج، فرأى واحد منهم حقًا أبيض يضيء على رف البيت فأخذه ووضعه في عبه، ثم حدثته نفسه وهو خارج في مجاز البيت أنه يفتحه وينظر ما فيه، فرأى فيه شيئًا أبيض ناعمًا، فقال: أن هذا الملح فسمع بذلك الشاطر حمور، فقال: ردوا ما معكم حيث ما ذاق صاحبنا الملح عند أهل الرجل فما بقي ينظر منا سوءًا مدة حياتنا، فردوا المال كله فحلف عليهم أن يأخذوا منها مائة دينار فأبوا، انتهى.

فانظر يا أخي أحوال زمانك، ولا تقتدِ بأهله الخارجين عن الاستقامة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة زجرهم لمن ينقل إليهم نقائص الناس، وما قاله الناس

فيهم فإنه رسول إبليس، ولم يزل الناس يقعون في حق بعضهم بعضًا من ورائهم حتى السلطان، ثم إذا واجهوهم مدحوهم وعظموهم، فشيء لا تصح سلامة السلطان منه من ورائه، فكيف يطلبون منه؟.

وكان مالك بن دينار إذا قال له شخص: إن فلانًا يذكرك بسوء، يقول له: أما وجد إبليس أحدًا أحقر في عينيه منك حتى استعملك في هذه القاذورة، ثم يزجره، ويقول: لا تعد تأتيني أبدا بشيء من ذلك، وهذا الخلق غريب قل من يعمل به من الفقراء، بل رأيت بعضهم يستجلب من الداخل عليه مثل ذلك، ويقول: إيش أخبار الناس اليوم؟ فيقول: إنه وقع لفلان كذا مع قاضي العسكر، ووقع لفلان كذا مع الدفتدار، ووقع لفلان كذا مع أهل جامع الأزهر، وكبسوا اليوم فلان، وذكروا عن فلان أنه يعمل الزغل، ليقول له شيخ الزاوية: هيه ما أنت إلا حكيت لي، ثم يصير يشخص نقائص الناس في ذهنه ويزدريهم بقلبه، ويقع في أعظم الذنوب بعد الشرك بالله تعالى؛ لأن فيه إضرار الناس حتى لو أراد أن يجعل من حكي عنه النقائص مثل ما كان قبل أن يحكى له لا يقدر، بل يحكم عليه الازدراء له، وفي الحديث الصحيح: **«لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»**[1] فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى جميل يحب الجمال»**[2] وفي رواية: **«إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده إنما الكبر بطر الحق وغمط الناس»**[3].

قال العلماء: بطر الحق: رده، وغمط الناس: استحقارهم وازدراؤهم، فيكفي شيخ الزاوية من الإثم أنه يصير بسماع نقائص الناس يرى نفسه أحسن حالاً منهم فيستحق بذلك اللعنة ودخول النار كما وقع لإبليس في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص:76].

فاعلم ذلك وإياك وتقريب من ينقل إليك أخبار الناس وتواريخهم، فإنه عدو في صورة صديق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن سياستهم وتأليفهم بين المتشاحنين معًا، أو بين من وقع

---

(1) رواه مسلم في «الصحيح» (93/1)، والترمذي في «السنن» (361/4).

(2) رواه مسلم (93/1)، والترمذي (361/4).

(3) رواه الترمذي (123/5)، وأحمد في «المسند» (311/2).

في حق أحد من العلماء والصالحين، فيقولون للعالم أو الصالح: أنتم بحمد الله تعالى كالبحر تحملون الرمم والجيف، وإن لم تحملوا أنتم مثل ذلك فمن يحمله، ويقولون للفاسق الذي وقع في حق من ذكر: يا ولدي إن لحوم الأولياء والعلماء سم وإنا خائفون عليك من المقت، ولا يقولون قط للعالم أو الصالح: مالك ولفلان تشاحنه، أو اصطلح أنت وإياه، فإن ذلك يؤذن بأنه مشاحن يقع في عرض الناس كما يقع فيه الفاسق، وفيه ازدراء للعالم أو الصالح بين الناس، وربما يسمع بعض الساذجين كلام من أمره بالصلح مع الفاسق فيكشف رأسه له ويصالحه، فيخالف قول الإمام الشافعي: لا تبدأ بصلح من خاصمك بغير حق فتذل نفسك في غير محل، وتكبر نفسه بغير حق، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم موافقتهم لغرض صاحبهم فيما يضره، وصبرهم على جفاه لأجل ذلك، فإن كان داؤه يحب القيام له، ولو لم يقوموا له لمزق أعراضهم، فيصبرون على تمزق أعراضهم ويسامحونه بما وقع فيه من عرضهم خوفًا عليه أن يتبوأ مقعده من النار، اللهم إلا أن يترتب على عدم القيام له مفسدة هي أعظم من مفسدة قيامنا له، فتقوم له مشيًا على قواعد الشريعة، ثم لنسأل الله ﷻ ألا يؤاخذه بذلك، وأن يكشف حجابه حتى يرى نفسه أحقر خلق الله تعالى، وأنه لا يستحق القيام له من أحد من العوام فضلاً عن غيرهم، بل يصير يتكدر كلما دخل مجلسًا وقام له منهم أحد.

فإياك يا أخي أن تبادر إلى الإنكار على أحد من العلماء إذ رأيته قد قام لظالم أو ذي لسان يتقى كالشعراء أو نحوهم، فإن ذلك القيام إنما هو لغرض صحيح لا تعظيمًا له من حيث كونه من أبناء الدنيا، وربما يقومون لذلك الظالم لكونهم رأوه من أهل الفضل عليهم في الدين، كما هو الغالب عليه، فإنهم يرون نفوسهم من أفسق الناس، وإن ذنوب الناس كلهم مغفور بخلاف ذنوبهم، فإنها باقية إلى يوم القيامة هضمًا لنفوسهم لا سوء ظن بالله ﷻ كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين[1].

---

(1) قال المصنف في «الكوكب»: ومن أخلاقهم: سد باب الإنكار على شيخهم جملةً، وذلك بالعمل على تنظيف باطنهم من سائر الأدناس والخواطر الرديئة، فإن المريد ما دام في قلبه شيء من الأدناس فهو يحمل على ذلك شيخه ظنًا أو حضورًا، ولا ينفك عن مثل ذلك إلا إن أشرف على مقام الكمال، ودخل أوان الفطام، ومن هنا طالت الطريق على غالب المريدين في كل زمانٍ، فظنوا بأشياخهم الشر، فعدموا النفع بهم، وكل شيخ حق له قدم المشيخة، فهو يعلم من ذلك

الباب السابع

في جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم: عدم المبادرة إلى تزكية الولاة بالكتابة في المحاضر إلا إن اضطروا إلى مثل ذلك بطريقه الشرعي إذ لا يبادر إلى الكتابة إلى مثل ذلك إلا من خبر الناس، ونظر إلى عيوبهم ومساوئهم، والفقراء ليس لهم خلطة بالناس في العادة، ولا نظر لهم إلى مساوئهم؛ لأنهم يلحظونهم بعين الوداد والتعظيم، فلا يكادون يرون فيهم عيبًا، ولا فعلاً مفسقًا، وذلك يخالف الحال الغالب على الناس اليوم.

وقد صحب رجل سيدي إبراهيم بن أدهم فلما أراد فراقه قال له: إنك لم تنبهني على شيء من عيوبي مدة صحبتك، فقال: يا أخي إني ألحظ إخواني بعين التعظيم والوداد فلا أرى فيهم عيبًا فاسأل عن ذلك غيري، انتهى.

فإن اضطرك الأمر يا أخي إلى تزكية أحد من الولاة أو غيرهم فاستخر ربك في ذلك، ثم زكه بطريقه الشرعي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا كان لهم خراج أن يوصوا الجابي أن يرفق بالفلاحين، ويطالبهم بسياسة من غير عنف، فإن العنف إنما يكون من جماعة جبابرة العمال، وأما الفقراء فلا يليق ذلك بهم، وإذا عملوا للجابي ضيافة بطيب نفوسهم فليأكل منها وإلا تركها، وأكل من غلة الوقف بالمعروف حتى يرجع، ثم إن في أكل جابي الفقراء من ضيافة الفلاح تضييع لمال الوقف غالبًا فكل من أكل من طعامه يستحي أن يطالبه بحكم الطبع، فليحذر الجابي من مثل ذلك.

ولو تبرأ منه المريد.

فاعمل يا أخي على تطهير نفسك من الأدناس لتنتفع بشيخك، ويرقيك في مراتب القرب من حضرة الله تعالى، فإنه ما دام في باطنك شهوة لحرام أو مكروه فلا يقدر شيخك على إدخالك حضرة الله تعالى أبدًا، ولو كنت على عبادة الثقلين.

فاعرض يا أخي هذا الخلق على من يدَّعي الصدق من مريدي عصرك تعرف هل وفي به، أو وقع في شيخه إذا رآه في محل ريبة كخلوته بأجنبية، ونحو ذلك. ولا تنسَ نفسك، والحمد لله رب العالمين.

وكان عندي جابي اسمه الشيخ إبراهيم النوبة، وكان على قدم العفة عن طعام الفلاحين والولاة، فكان يأخذ معه من مصر ما يأكله، وإن فرغ اشترى له ما يأكله، ولا يأكل لفلاح طعامًا أبدًا، وهو نادر في جماعة الفقراء.

وقد بلغني من شيخ من أولاد مشايخ مصر أنه كان ينزل معه بجنازير للفلاحين فيجنزر كل فلاح عجز عن الخراج ويمشيه معه في الحر حافيًا اليومين والثلاثة، وإذا جاء الفلاح بطعام قليل الدسم أو بعسل رديء يصب الطعام أو العسل على وجهه ورأسه ويصير الذباب يعف عليه، وهذا أمر لا يجوز فعله، فليحذر الفقير أو المسلم أن يفعل ذلك مع من له عليه خراج، فإنه خروج من حدود الشريعة، ولو أن جابي الفقراء كان عنده سياسة لهم لقامت سياسته مقام الجنزير والحبس، وغير ذلك وحماه ذلك من الوقوع في الإثم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حسن سياستهم لفقراء الزاوية إذا تركوا قراءة الأوراد والعبادات واتخذوها مقيلاً ومراحًا، وطالبوا ناظرهم بما يقوم بهم من الخبز والطعام فيسوسون الرجال بحسن الكلام والترغيب في مجالسة الله ﷻ في الأوراد، والأطفال بقطع خبزهم وطعامهم حتى يرجعوا فيحضروا مجالس الأوراد، ويشتغلوا بالعبادة لأجل أن يصرف لهم الطعام والخبز، وذلك نظير من يعبد الله تعالى لأجل الثواب الأخروي على حد سواء، وما أقبحها من خصلة تقع ممن طلعت لحيته من فقراء الزاوية، فيحضر الحزب خوفًا من قطع خبزه لا محبة في الخير ومجالسة الله ﷻ، ومن فعل مثل ذلك فهو أغلظ حجابًا من الحمار حيث احتاج في جذبه إلى مجالسة ربه لقطع خبزه، ثم إذا قطع الشيخ خبز كبير أو صغير للتأديب فليس لكبراء الزاوية أن يعترضوا على الشيخ في ذلك، فإنه سعى في الفساد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:64] فإن خبز الزاوية وطعامها بالأصالة إنما جعل للمقبلين على عبادة ربهم - جل وعلا - فالمريد لا حق له في خبز الزاوية وطعامها، وما يأكله من ذلك حرام لكن ينبغي للشيخ أن يعطي ما توفر من خبز المريدين للمقبلين في الزاوية، ويؤخره عنده على اسم من يحدث من المجاورين المقيمين في الزاوية إلا أن يكون ذلك لجماعة معينين في كتاب الوقف، وذلك يكون واجب الناظر إن كان له الإدخال والإخراج، والتغيير والتبديل.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وكونوا أعوانًا لكم لإخوانكم على الأدب دون الغضب مع أحد بالباطل يرجع وبال ذلك عليكم في دينكم وقد نصحتكم، والحمد لله

رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا ضيق الله تعالى على أحدهم الرزق الذي ينفق منه على إخوانه أن يكتسب لهم بالحرفة والزراعة وسؤال السلطان، فإن الفقير كالأمير إن لم ينفق على غلمانه فروا منه إلى غيره ممن يقوم بمطاعمهم، فعلم أنه لا اعتراض على من سافر إلى الروم مثلاً في طلب رزقه أو جوالي لينفق على جماعته فإن في الحديث: **«إن كان أحدكم ولا بدّ سائلاً فليسل الصالحين أو ذا سلطان»**[1] انتهى.

فأما الصالحون الآن في العرب فقد تودع من صبرهم لإخوانهم غالبًا أو مقاسمتهم في ما بأيديهم، بل كل واحد يقول: نفسي نفسي، فلا هم يقاسمون إخوانهم، ولا هم يسكتون عن الاعتراض عليهم فما بقي للفقراء ملجأ إلا باب السلطان نصره الله تعالى؛ لكونه يعطي، ولا يمن بما يعطي كالصالحين الكرام على حد سواء، ولا يقال الواجب على الفقير إنما هو الاشتغال بالعبادة والإقبال على الله تعالى حتى تصير الدنيا تتبعه، فإن ذلك أمر قد تودع منه ما بقيت الدنيا؛ لقلة صبر الناس اليوم، وقلة صدقهم في طلب الطريق بخلاف السلف الصالح كان أحدهم يشتغل بالله تعالى حتى تأتيه الدنيا، وهي راغمة فإن شاء أخذ منها كفايته، وإن شاء ردها، فينبغي لكل من ليس عنده صبر الآن على ضيق المعيشة ألا يسأل الناس إلا بعد عجزه عن عمل الحرف والصنائع، فإن تحصيل القوت مقدم على نوافل العبادات في كل زمان، وإنما ذم أشياخنا من يسافر إلى الروم مثلاً في طلب الرزق؛ فتحًا لباب رفع الهمة لأصحابهم فإن علو الهمة من الإيمان، وقد يكون الشيخ الذي سافر من مصر إلى الروم مثلاً إنما يسافر بعد اطلاعه من طريق كشفه على ما قسمه الله له من الرزق في الروم فسافر إليه على كشف وبصيرة، وفي الحديث: **«ومن يستعفف يعفه الله تعالى»**[2].

فارفعوا هممكم أيها الإخوان عن طلب ما زاد على ضروراتكم فإنكم لو ترفعتم عن جمع المال للاستمتاع به في المأكل والملبس، وسعيتم لكسب الخيرات على وجه الإخلاص لا غير، ولم تسيئوا في حق أهل الحرف جهدكم، فإنه لولا استغناؤكم بوقف أو قناعة لكنتم أشد سعيًا في الدنيا منهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا صحب أحد من أشياخ الطريق أحدًا من الأمراء فمن الأدب

---

(1) لم أقف عليه.

(2) رواه البخاري في «الصحيح» (518/2)، ومسلم (729/2).

عدم مزاحمتهم لذلك الشيخ في صحبة ذلك الأمير، بل يحسنوا اعتقاد الأمير في ذلك الشيخ، وإن دعاهم الأمير إلى صحبته تعللوا بالعلل المقبولة، واستخفوا خوفًا من تكدير ذلك الجزء البشري الذي في الشيخ إذا نقص إقبال ذلك الأمير عليه، وصار يقبل على أقرانه لاسيما إن كان الأقران حديثي عهد بالطريق، وذلك الشيخ في رتبة أشياخهم.

وقد فعلت أنا مثل ذلك لما عزم الباشا اسكندر على زيارتي بعد زيارة الشيخ سليمان الخضيري حتى لا أشاركه في نزول الباشا له فوعدته بأني أطلع له، وأسلم عليه في القلعة، فرضى مني بذلك حتى تناسى العهد، وكان ذلك الوعد مني صوابًا من وجوه منها: أو الواسطة لما سأله الباشا المذكور عن الصلحاء والزهاد ليزورهم ذكرني من جملتهم فما كان الباشا يزورني إلا لكوني صالحًا زاهدًا، وأنا أعلم من نفسي ضد ذلك الصلاح والزهد بخلاف الشيخ سليمان الخضيري - فسح الله تعالى في أجله - فإنه أسن مني بنحو خمسين سنة، وأكثر عبادة مني بيقين، وإن لم يكن هذا الشيخ صالحًا فما بقي في مصر صالح، ثم الذي ينبغي للفقير إذا آثر أصحابه بصحبة ذلك الأمير ألا يكون عنده حزن، ولا تأسف في الباطن على ذلك، بل يرى الفضل لله تعالى عليه الذي أبعده عنه، ثم يسأل الله تعالى لذلك الشيخ الذي صحبه أن يحميه من الآفات، ولم تكن المزاحمة على صحبة الأمراء في أحد من أشياخ الطريق الذين أدركناهم في النصف الأول من القرن العاشر إنما حدث ذلك فيمن بعدهم، وهو عنوان على عدم فطامهم عن محبة الدنيا، فصار الشيخ إذا اجتمع بأمير واعتقد فيه يود أنه لا يجتمع على غيره، وإنما تليق المزاحمة على العلماء الذين يرشدون الطالب إلى ما يقربه إلى الله تعالى، وأما الأمراء فإنهم يبعدون الفقير عن حضرة الله تعالى لاسيما إن أكل من طعامهم وأخذ من مالهم.

وقد كان الشيخ جلال الدين السيوطي - رحمه الله تعالى - يقول: لولا علمي بسيدي رسول الله ﷺ يكره اجتماعي على الأمراء والملوك لاجتمعت بهم، وقد اجتمعت به في اليقظة خمسًا وسبعين مرة، انتهى.

وبلغنا عن سيدي محمد بن زين النحراوي[1] - رحمه الله - أنه كان يرى النبي ﷺ كثيرًا، فأخذه أهل النحارية في شفاعة إلى حاكم البلد وأجلسه على بساطه فانقطعت

---

(1) انظر: مشيخة أبي المواهب (ص14)، وخلاصة الأثر (1/197، 217).

عنه الرؤية، ثم أنه رأى النبي ﷺ وهو يمر بعيدًا عنه فتبعه وقال: يا رسول الله ما ذنبي؟ فقال: تجلس على بساط الظالمين، وتطلب رؤيتي لا سبيل إلى ذلك، فلم يرَ رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى أن مات، انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، ولا تميلوا إلى القرب من الأمراء، فإنه سم قاتل، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يأمروا إخوانهم ألا يجلس أحد منهم عند شيخ من أشياخ الطريق إلا على طهارة من الحدث الظاهر والباطن، فإن حضرة الفقراء هي حضرة الحق تعالى؛ لغلبة مشاهدتهم للحق - جل وعلا - وربما نزلت على أهل المجلس الأمداد الإلهية فلا تجد محلاً يصلح لنزولها فيه فتصير واقفة بين السماء والأرض حتى تجد أحدًا خاليًا من الحدث الظاهر والباطن، فإن حكم الإمداد كالمسك، وحكم الحدث الظاهر والباطن كالقذر، فإياكم أيها الإخوان من الجلوس عند الأشياخ على حدث، وأصلحوا قلوبكم، وطهروها كما تطهروا أجسامكم للصلاة، فإن نفحات الحق - جل وعلا - لعباده لا تنقطع في الليل والنهار.

وقد رأيت سيدي الشيخ علي النبتيتي - رحمه الله تعالى - لم تزل يده ممدودة إن جلس أو مشى أو ركب، فقيل له في ذلك، فقال: إن أمداد الحق تعالى لم تزل نازلة في الليل والنهار، فأنا أتعرض لأن ينالني منها شيء، انتهى.

فعلم أن من جالس شيخًا على حدث ظاهر أو باطن حُرِمَ مدده، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يزجروا كل من رغَّب أحدًا من الأمراء في زيارتهم، ويحبوا كل من نفرهم عنهم، ثم إن وقع أن أحدًا من الأمراء زارهم باستجلاب أحد من أصحابهم أو غيره، قالوا له: يا أمير نحن لا نستحق زيارة مثلك، ولكن إن كان لك ولا بدّ لك من زيارة الصالحين فزر فلانًا وفلانًا من الصالحين، ويذكرون له من في بلدهم أو إقليمهم من أقرانهم، ويقولون له: من دلَّك علينا قد غشك وغشنا فالله تعالى يغفر لنا وله.

وقد فعلت أنا مثل ذلك مع الدفاتر والصناجق الذين يزورونني، فبحمد الله تعالى انقطعوا عني، وصاروا يزورون أقراني إلى وقتي هذا، ولم أجد لهذا الخلق فاعلاً في مصر إلا القليل كسيدي علي الخواص، والشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ شهاب الدين بن الشلبي ﷺ فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يتنزلوا لعقل نسائهم، فإذا غارت زوجتهم من كلامهم لجاريتهم أو التبسم لها مثلاً فمن العقل ترك ذلك وإلا خربت الدار، وضاعت مصالحها، وقد فعلت أنا مثل ذلك مع أمتي وزوجتي، وذلك أني شممت من فم الجارية لما طأطأت تصب على يدي الماء رائحة ثوم أو بصل، فقلت لها: اغسلي فمك من ذلك، فقالت زوجتي: لأي شيء تقول لها اغسلي فمك، فمن ذلك الوقت وهي عندي كالحرة الأجنبية مراعاة لخاطر زوجتي المذكورة، ولو أنني لم أوافقها لربما غلبت عليها الغيرة حتى ظن الناس أنه لولا رأتني أقبلها مثلاً ما غارت مني، فاتبعني يا أخي في ذلك ولا تراعِ ناموسك وتقول: أنا شيخ مشايخ وكيف يظن بي سوء؟! فتخرب دارك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يرشدوا فقراء الزاوية إلى كمال الأدب في المشي، وفتح الخزائن بلا صوت، فيفعلوا ذلك بالهوينى، ولا يصوتوا بالدك على الأرض بأقدامهم، ولا يلقلقوا الضبة بالمفتاح بالقوة، فإن ذلك يشوش على قلوب الفقراء حال جمعية قلوبهم لاسيما في وقت إحرامهم بالصلاة أو قراءة الأوراد، وممن أدركته يزجر أصحابه عن التصويت بأقدامهم إذا مشوا في الزاوية الشيخ تاج الدين الذاكر - رحمه الله - ثم إنه فرش الزاوية كلها بلبابيد سود حتى لا يسمع وقع الأقدام من أحد منهم، وهذا من محاسن آداب الفقراء، فإن أصعب ما على الفقير إذا كان في جمعية قلب مع ربه تعالى أن يسمع صوتًا يفرقه عنه، وكثيرًا ما أحس بتعب في كبدي وقلبي إذا دق أحد من الجهلة على الباب، فاحذروا أيها الفقراء أن تفعلوا مثل ذلك مع احد من الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا جاءهم أحد يطلب على يدهم الطريق أن يعلموه بما يستقبله فيهم من أنواع الامتحان، فإن كل مدَّعٍ ممتحن بخلاف من سبق له من الله تعالى المحبة، فإنه لا يحتاج إلى امتحان إذ لا يمتحن إلا المحب لا المحبوب، وقد جاءني أخونا الشيخ محمد الغوي يطلب طريق الخواص، فقلت له: أنت الآن في راحة وخير بتأديبك الفرض، وفعلك ما تقدر عليه من الطاعات، فإن طريق الخواص لا بدّ لك فيها من الجذام والبرص، وتحويل النعم مع قساوة قلوب العباد عليك ونحو ذلك، فعرض ذلك على نفسه فرجع عما كان طلبه.

فإن قلت: إن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قد ابتلوا مع أنهم محبوبون بالاختصاص الإلهي فلا يحتاجون إلى امتحان، قلنا: كل نبي محب من وجه، ومحبوب

من وجه، ففيه جزء بشري يطلب الحق تعالى، ومنه ابتلى اختبارًا له كما قال تعالى في السيد أيوب ﷺ بعد ابتلائه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[ص: 44] ففي قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ رائحة من الاختيار بالنظر لمقام النبوة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: في ابتلاء الأنبياء أمور كثيرة: منها اختبار أحدهم من حيث الجزء البشري المشار إليهم بحديث: **«إنما أنا بشر مثلكم اغضب كما يغضب البشر، وأرضى كما يرضى البشر»**[1] لا الوهبي، ومنها اقتداء قومهم بهم في الصبر والتجلد، ومنها رفع درجاتهم اللائقة بهم، انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، ولا تدخلوا في عهد شيخ إلا إن وطنتم نفوسكم على تحمل البلايا والمحن، فإن الله تعالى يحب من عباده الراضي بما أعطاه حتى يكون الحق تعالى هو الذي يبتديه بالمقامات، والأرزاق المحسوسة والمعنوية، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الخروج عن محبة أولادهم بالطبع إلى المحبة الدينية حتى تصير أولادهم عندهم بمثابة الأجانب على حد سواء، فكل من كان أكثر طاعة لله ﷻ قدموه في المحبة، وقد تحققت بذلك ولله الحمد، فربما يترك ولدي الشيخ عبد الرحمن حضور درس أو مجلس ذكر فأقدم عليه في المحبة جميع من كان حاضرًا في المجلس من الرجال والأطفال، وأريد أن أرجحه بحكم الطبع فلا أقدر، وهذا من أفضل نعم الله على العبد فإنه من أوثق الإيمان فيحب العبد أخاه لله تعالى لا لحاجة إليه، ولا لكونه والدًا له، ويبغضه كذلك إذا عصى ربه حتى لو كان من المحسنين إليه، وفي القرآن العظيم: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم:29] إذ الإعراض عادة لا يكون إلا عن مبغوض.

فاعلم ذلك يا أخي وكن دائرًا مع مرضات الله تعالى لا تحب ولا تبغض إلا تبعًا لقواعد شرعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا صار أحدهم موردًا للإخوان ومقصودًا في قضاء حوائجهم

---

(1) رواه مسلم في «الصحيح» (2009/4)، وابن حبان في «الصحيح» (444/14).

وأهلاً لزيارة الناس له من الأكابر والأصاغر أن يقدم العكوف في بيته على زيارة إخوانه أو عيادتهم، فلا يذهب إلى زيارة أحد، ولا إلى عيادته إلا إن كان فارغًا وغلب على ظنه أن أحدًا لا يأتي إليه من الأكابر، فيكون عمله الترجيح دائمًا، وقد خرجت مرة إلى عيادة شخص كان به وجع في رأسه فجاءني الدفاتردار وجماعة من الأمراء فلم يجدوني، فلا تسأل يا أخي ما جرى من التشويش، ثم خرجت إلى زيارتهم في بيوتهم مكافأة لهم لبعض ما فعلوا معي، ومن ذلك اليوم ما عزمت على خروج من الزاوية إلا بعد قولي: اللهم إن كان أحد خرج لزيارتي وهو في الطريق فعوقني له حتى يحضر، أو كان عازمًا على الخروج لي فعوقه في بيته حتى أرجع، انتهى. ووجدت بركة ذلك.

فاعملوا بمثله أيها الإخوان إذا صار أحدكم موردة للإخوان والزوار، وأعلموا إخوانكم بعذركم في عدم زيارتهم؛ ليقل عتبهم عليكم ولا يحملوكم على التكبر عليهم، ويقولوا: إنما يترك فلان زيارتنا استهانة بحقوقنا، وربما قالوا: إن فلانًا يقدم الأمراء على الفقراء في الاعتناء والإقبال ولو كان من الصالحين لعظم الفقراء أكثر كما أوضحنا ذلك في «المنن الكبرى».

وقد كان الشيخ عبد القادر الدشطوطي إذا سلم عليه فقير لا يعتني به كل ذلك الاعتناء، وإذا سلم عليه أمير أو جندي يعتنقه ويقبله في عنقه ويظهر له المحبة، فقيل له في ذلك، فقال: إن الفقير لا يظلم أحدًا، ولا أشفع عنده في مظلوم بخلاف هؤلاء الأمراء فنحن نحملهم على المحامل السيئة، ثم إياك واتباع الهوى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: [مشيهم إلى] الذي أرسل لهم السلام، ثم لا يرون أنهم كافئوه بالمشي إليه، فإن خطورهم على قلبه أكثر فضلاً من مشيهم إليه، ومن هو ذلك الفقير حتى يخطر على قلب ذلك الأمير هذا ما علمنا أشياخنا من الأدب مع الأكابر في هذه الدار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا كان طعام زاويتهم لكل وارد عليهم بشرط الواقف أو بإشارة الناظر الذي له الإدخال والإخراج ألا يردوا من جاء بطلب المجاورة عندهم؛ توفيرًا لطعام الزاوية عليهم، بل يقروا كل من جاور عندهم على المجاورة إلى حد يبلغوا به إلى أوائل مرتبة الاضطرار فهناك يمنعون من يجاور خوف الإضرار به وبهم فلا هم يصبرون على الجوع الشديد، ولا هو يرجع عن طلب الخبز والطعام هذا كله فيما إذا لم يكن للمجاورين عدد معلوم، وقد كان المجاورون عند سيدي الشيخ أبي الحسن

الغمري فعزم على إخراج بعضهم، فقال له الشيخ يوسف الحريثي[1] - رحمه الله تعالى - : انظر فكل من رأيت رزقه عليك فأخرجه إن شئت، وأما من رزقه على الله تعالى فدعه في بيته يعبده، فرجع الشيخ عما كان عزم عليه، وبالجملة مرتبة الفقراء في كل عصر الإيثار والقناعة، فإذا فعل كل واحد منهم ذلك أسبغ الله تعالى عليهم النعمة، ورزقهم من حيث لا يحتسبون، وحماهم من المخاصمة على الطعام ومن الشرور الواقعة بسبب ذلك عادة.

ومن تأمل وجد سدا الفقراء ولحمتهم تحمل شدائد وكروب ماداموا في هذه الدار إلى من شاء الله تعالى كسيدي محمد الحنفي، وسيدي علي بن وفا، وسيدي مدين وأضرابهم، فإن هؤلاء رباهم الله تعالى على وصف الدلال.

وكان سيدي علي بن وفا يقول[2]:

فمــا عــرفنا ولا ألفــنا ... ســوى المــوافاة، والوصــال

وكان سيدي محيي الدين بن عربي - رحمه الله - يقول: ما تجلى الحق تعالى لقلبي بمظهر قهر قط، وما سمعت بالقهر إلا من غيري فما قهرني تعالى قط، انتهى.

وفي عصرنا هذا جماعة على هذا القدم الشريف في سعة الرزق منهم: سيدي محمد البكري[3] - فسح الله في أجله - فإن ملبسه ومأكله ومسكنه

---

(1) هو يوسف الحريثي، من جماعة الشيخ ابن عنان. مشهور بالديانة والخير، معروف بالاجتهاد في السُّرى والسير، حسن وصفه وسمته، وطال عمّا لا يعنيه صمته، وكان على قدم عظيم في اتباع السنة والتهجد، ويميل إلى إخفاء العبادة. أقام بجامع باب البحر حتى عمّر له ابن الجيعان جامع البشيري ببركة الرطلي فانتقل إليه، ولما حصل الإذن لولده أبي العباس من المرصفي بأنه يلقن ويربي، تشوش وقال: ليس لنا حاجة بهذا، فإن الطريق في هذا الزمان قليلة النفع، وهتيكة للفقير، وليس معه رأس مال يحمي نفسه من أهل الظاهر ولا من أهل الباطن. فقال ولده: أنا عبدٌ مأمور. ومن كراماته أنه أخرج لعياله ملء قفة قمحًا، فأكلوا منها شهرين. مات سنة أربع وعشرين وتسعمائة. انظر: الكواكب السائرة (93/2)، الشذرات (261/8)، كرامات الأولياء (296/2).

(2) ذكر هذا البيت سيدي المصنف في «الطبقات» (417/1)، وقد ذكر في المطبوعة كلام نثري، والصواب ما أثبت.

(3) هو محمد البكري الصديقي، شيخ الإسلام، عالم الحرمين ومصر والشام. أخذ علوم الشرع والتصوف عن أبيه شيخ الإسلام أبي الحسن المارّ. وتفقه على جماعة غيره أيضًا، منهم الشهاب عميرة البرلسي، هكذا سمعته منه. ورزق من القبول والحظ التام عند الخاص والعام ما لا تضبطه الأقلام. وكان فصيح اللسان، زكي العصر والأوان، يلقي دروسًا في التفسير محررة =

ومنكحه كالملوك مع عدم حصول ذل في طريق ذلك الغنى، ومن أراد من فقراء العصر أن يتبعه في ذلك هلك ولم ينله من ذلك إلا التعب والعناء والله ينفعنا ببركته، ويمدنا بإمداده، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا هجر أحدهم مريدًا بطريقه الشرعي ألا يكون في باطنه له حقد ولا غل ولا مكر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل:10] أي: هجرًا لا حقد فيه، وإيضاح ذلك: أن الكمل لا ينظرون من الخلق بالأصالة إلا حقائقهم، وهو القدر المدبر لأرواحهم من سر الحق - عز وجل - فهو خاص بمن غلب عليه شهود الحق قبل الخلق، وهو مقام السيد أبو بكر الصديق ﷺ كان يقول: «ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله»، انتهى.

وسمعت سيدي على الخواص - رحمه الله - يقول: من شرط الكمال ألا يكون عنده حقد ولا مكر ولا استهزاء؛ لأن عبوديته كشهوده له، وأما وجه سيادته المعبر عنه برياسة الروح، فهو مستور عنه؛ لأنه يؤدي إلى الزهو والعجب والكبر، وذلك ينافي

موشحة بمناقشات كبار المفسرين كالزمخشري وأضرابه، ويأتي في ذلك بما تقر به العيون، وتنشرح له الصدور.

وقسم مرة «صحيح البخاري» فأتى في تقديره بما يدهش الناظر ويجبر الخاطر، واختص في زمنه بإلقاء دروس التصوف الحافلة البديعة.

ولم أر أحدًا من علماء عصره مثله في صيانة مجلسه عن اللغط واللغو والغيبة. فكان مجلسه لا يذكر فيه شيء من ذلك البتة، بل كله فوائد علمية، إما تفسير آيات قرآنية، أو كلام على أحاديث نبوية.

وسمعته يقول: هذا القطُّ الواقع من وعاظ زمننا يستحق القص، ولولا أني لا أحب جرح أحد لكلمت الباشا في إبطالهم؛ فإن ما يفسدون أكثر مما يصلحون. وكان الباشا وقاضي العسكر فمن دونهما من الأمراء والكبراء يأتون إليه وبالجملة من بين أقرانه بالزيارة مرارًا وتكرارًا كثيرة. وكان عظيم الاعتقاد بالمجاذيب، يحبهم ويحبونه، ويألفهم ويألفونه.

وبالجملة فقد كان فريد عصره ووحيد دهره. وكان عظيم الحلم، واسع الصدر، حسن الخلق جدًا، لا يقابل من يؤذيه، ولا ينتقم ممن يعاديه، وما ذاك إلا بمدد رباني. سمعته يقول: إن لله عبدًا بين أظهركم حاضر معكم في مجلسكم هذا، ينزل إليه كل يوم ملك صبيحة اليوم يأمره بمحاسن الأخلاق، وينهاه عن مساوئها. وكم له من فضائل وفواضل رحمه الله، ونفعنا ببركاته.

انظر: النور السافر (369)، الكواكب السائرة (67/3)، الكواكب الدرية (833).

الكمال وفي الحديث: «**من تواضع لله رفعه الله ﷻ**»[1] فجعل الحق تعالى رفعة عبده بذله وانكساره وملازمته عبوديته لا تكبره ودعواه، ومن حقد على أخيه المسلم أيام هجره، وقال: ما حقد مني عليه إلا سوء الخلق القائم بي فسر الحق حقد على سر الحق كما يقع فيه بعض أهل الشطح الخارجين عن الأدب.

قلنا له: هذا جهل منك بوجه الأدب، ولو كنت كاملاً لشهدت ذُلَّك وانكسارك يقينًا بلا حجاب، وشهدت كمالاتك إيمانًا مع الحجاب هذا حكم هذه الدار، وفي الدار الآخرة ينعكس هذا الحكم فيكون وجه سيادته مشهودًا ووجه عبوديته إيمانًا، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «الجواهر والدرر» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا دخلوا على سلطان أو وزير أن يسلموا عليه باللفظ الوارد في السنة، فيقول أحدهم: السلام على مولانا السلطان مثلاً ورحمة الله وبركاته، وليحذر من الخضوع له بالصدر أو العنق كما عليه جهلة المتصوفة من إدمانهم حب الدنيا وتعظيم أهلها فيكاد أحدهم يركع للوزير إذا رتب له جوالي أو رزقة ونحو ذلك.

وقد نقل الحافظ الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في كتاب «التحيات» له أنه كان يقول: تحية العرب [السلام][2] وهي أشرف التحيات، وتحية الأكاسرة السجود قدام الملك، وتقبيل الأرض، وتحية الفرس طرح اليد على الأرض قُدَّام الملك، وتحية الحبشة [عقد][3] اليدين على الصدر بين يدي الملك بسكون، وتحية الروم كشف غطاء الرأس من بعد مع تنكيس الرأس، وتحية النوبة إيماء الداخل بالدعاء بالإصبع كأنه يقبله مع جعل يديه جميعًا على رأسه ووجهه، وتحية حِمير إيماء الداخل بالدعاء بالإصبع، وتحية [البجا][4] وضع يد الداخل على كتف الملك فإن بالغ في الخدمة رفعها ووضعها مرارًا، انتهى.

قال الجلال السيوطي - رحمه الله - وقد تأملت في هذه التحيات فرأيت غالبها مجموعًا في الصلاة التي هي خدمة ملك الملوك سبحانه تعالى، فلهذا ناسب أن يقال في آخر جلوسها: التحيات لله إشارة إلى أنه المستحق لجميع التحيات، انتهى.

---

(1) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (172/8) بنحوه، والبيهقي في «شعب الإيمان» (276/6).

(2) أُشير في المطبوعة إلى طمسها في الأصل، وتم استداركها.

(3) في المطبوعة (عند) والمثبت هو الصواب.

(4) في المطبوعة (البحة) والمثبت هو الصواب.

فاعلم يا أخي ذلك وسلم على الملوك فمن دونهم بسلام أهل الإسلام فإنه هو المشروع، وإياك وفعل الأعاجم وغيرهم مما ابتدع أو خالف السنة فإنه لا يحث بمن يدعي طريق القوم أن يخالف السنة، ولا يغتر بما يفعله مشايخ الروم والعجم مما يخالفها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الخوف من الله تعالى كلما دني أجلهم، فإن ما قارب الشيء أعطى حكمه، ومعلوم أن الدار الآخرة هي محل الخوف؛ لأنها دار كشف السوءات على رؤوس الأشهاد فيا فضيحة من كانت له سريرة سيئة بينه وبين الله تعالى وظهرت في الآخرة بين يدي من كان يعتقد فيه الولاية والصلاح في دار الدنيا، وبلغنا أن من الناس من يسقط لحم وجهه هناك من الخجل من الله تعالى ومن الخلق.

وسمعت الأخ العزيز سيدي شرف الدين [1] - شيخ جامع أمير الجيوش بمصر - يقول: مما يدل على شدة كرب يوم القيامة، وأنه أكثر من كرب الدنيا بدرجات أن الواحد منا في هذه الدار كلما تأخر الزمان ازداد كربًا، فلو كان يوم القيامة يوم راحة؛ لكنا كلما دنى أجل الواحد منا ازداد راحة، انتهى.

فأعجبني حذقه وإدراكه لهذا السر العظيم، وهذا خلق قل من يتنبه له من الفقراء فضلاً عن غيرهم، بل المشهود منا أننا كلما دنى الأجل وقرب قل خوفنا وورعنا وزهدنا وتقوانا.

وسمعت سيدي علي الخواص يقول: الخوف حقيقة إنما هو في هذه الدار حتى إن كل عبد لا يمشي على الصراط يوم القيامة لا بحسب مشيه هذا على قواعد الشريعة، ومن زاغ عن الشريعة هنا زاغ وزلق على الصراط هناك، فزلقه هناك بعد زلقاته هنا، فالعاقل من جاهد نفسه هنا حتى استقامت، ولم يقل: لكل شيء وقت ورحمة الله واسعة، وإن كان ذلك صدقًا، انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) هو سيدي الشيخ شرف الدين الصعيدي-رضي الله عنه- كان رضي الله عنه صاحب كشف واجتهاد، وقيام، وصيام وطي، وكان يطوي الأربعين يوماً، وأكثر، وامتحنه السلطان الغوري، وحبسه في بيت أربعين يوماً مقفلا عليه الباب ثم فتحه فوجده قائماً يصلي. صحبته نحو ثلاث سنين آخر عمره ثم مات، ودفن بالقرب من الإمام الشافعي رضي الله عنه في تربة شرف الدين الصغير رضي الله عنه. [الطبقات الكبرى للشعراني (1/ 378)].

ومن أخلاقهم: اتخاذ المؤذن في سفرهم كإقامتهم ولو كان عبدًا حبشيًا، بل هو مستحب فإن بلال مؤذن رسول الله ﷺ كان حبشيًا، وبلغنا أنه كان يقول: أشهد أن لا إله إلا الله بالسين المهملة فقال له رسول الله ﷺ: «**سينك عند الله شين**»[1].

وفي حديث الطبراني مرفوعًا: «**اتخذوا السودان فإن فيهم ثلاثة من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن**»[2] انتهى.

قال الطبراني: المراد بالسودان: الحبش، وفي حديث أبي هريرة من رواية الترمذي، ورفعه بعضهم: «**الملك في قريش، والقضاء في الأنصار، والأذان في الحبشة**»[3] انتهى.

واستدل به الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في «المهذب» على استحباب كون المؤذن حبشيًا، وأقره النووي في شرحه.

وفي رواية لعبد الله بن الإمام أحمد ﷺ مرفوعًا: «**الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الحبشة**»[4] والدعوة: هي الأذان، فإن قيل: كيف نقضتم هذا الحديث، فقلتم بوجوب كون الإمام قرشيًا، وباستحباب كونه مؤذنًا، فهلا قلتم بوجوب كل منهما أو ندبه؟ فالجواب من عشرة أوجه أحسنها: أن النبي ﷺ أقام في الأذان غير الحبشة فدل على أن الحديث في الندب، وأما الخليفة فإنه قائم مقام رسول الله ﷺ في تدبير أمور المسلمين فوجب أن يكون من أقاربه، وما روي من قوله ﷺ: لأبي

---

(1) قال السخاوي في «المقاصد الحسنة للسخاوي» (397/1) حديث «سين بلال عند الله شين»: قال ابن كثير إنه ليس له أصل ولا يصح وكذا سلف عن المزي في إن بلالا من الهمزة ولكن قد أورده الموفق ابن قدامة في «المغني» بقوله روي أن بلالا كان يقول أسهد يجعل الشين سينا والمعتمد الأول، وقد ترجمه غير واحد بأنه كان لدى الصوت حسنه فصيحه وقال النبي ﷺ لعبد الله بن زيد صاحب الرؤيا (ألق عليه أي على بلال الأذان فإنه أندى صوتا منك) ولو كانت فيه لثغة لتوفرت الدواعي على نقلها ولعابها أهل النفاق والضلال المجتهدين في التنقص لأهل الاسلام نسأل الله التوفيق.

(2) ذكره السيوطي في «اللآلي المصنوعة» (410/1)، والكناني في «تنزيه الشريعة المرفوعة» (32/2).

(3) رواه الترمذي في (727/5)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (546/7) وأحمد في «المسند» (19/ 26).

(4) رواه أحمد في «المسند» (185/4)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (336/1).

ذر: «**اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ لِعَبْدٍ حَبَشِيٍّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»[1] [2] وليس المراد منه أن الإمام يكون عبدًا حبشيًا، وإنما المراد منه مبعوثه من عبيده، قال الرافعي: هو من باب المبالغة.

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن عليّ في قول الله تعالى:﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:78] قال: فمما لم يقصص الله على نبيه ﷺ أن الله تعالى بعث عبدًا حبشيًا نبيًا أبدًا، وفي رواية أخرى لابن أبي حاتم: بعث الله تعالى نبيًا من الحبش، فهو ممن لم يقصصه على نبينا ﷺ، قال أبو عبيد: وجد الحبشة اسمه (أَرْفَده) بفتح الهمزة، وسكون الراء، وفتح الفاء وكسرها أشهر، ولما لعب الحبشة بين يدي رسول الله ﷺ في المسجد فزجرهم عمر قال رسول الله ﷺ: «**دعهم، أمنًا بني أرفده منا**»[3] يعني من الأمن أي: العبوا عليكم الأمان منا.

فاعلم ذلك يا أخي، واتبع سنة نبيك ﷺ في سائر الأحوال تفلح، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إرشادهم إخوانهم من الولاة إلى العمل بشروط الولاية؛ لينصح حالهم فيما إذا كان أحدهم معوجًا أو يدوم فيها إذا كان مستقيمًا، وهي شروط عزيزة قل أن يعمل بها أحد من فقراء الزمان فضلاً عن غيرهم، ومن عمل بها صارت ميزان ولايته معتدلة كالميزان التي تكون بيد البهلوان إذا مشي على الحبل.

وقد تلقيت هذه الشروط عن سيدي على الخواص عن سيد إبراهيم المتبولي ﷺ وعن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ من طريق كشفه روحانيته، وقد علمها سيدي إبراهيم للسلطان قايتباي فدامت ولايته تسعًا وعشرين سنة، وكذلك علمتها أنا لبعض الولاة من الوزراء والأمراء، فدامت ولايته حتى مات، فإن ادعى أحد أنه عمل بها، وعُزِلَ من ولايته فهو غير صادق؛ لأن من عمل بها صار عدلاً مرضيًا، والعدل لا يعزل، وإنما يعزل بالموت مثل ما وقع لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ.

وقد قال بعض المحققين: إنه لا يلزم من السبق لولاية أحد من الأئمة أن يكون

---

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (247/1)، وأحمد في «المسند» (171/3).

(2) وقع طمس في المطبوعة، من الأصل، واضطراب تم استدراكه.

(3) رواه البخاري في «الصحيح» (335/1)، ومسلم في «الصحيح» (609/2) بنحوه.

أفضل ممن تأخر قطعًا؛ لأن رسول الله ﷺ أفضل من سائر المرسلين، وقد تأخرت رسالته حتى كان خاتم النبيين، ولكن لما سبق في علم الله تعالى أنه لا بدّ لكل من الخلفاء الأربعة أن يلي الخلافة بعد رسول الله كانت ولايتهم على حسب أعمارهم، فإن كل واحد منهم عدل مرضي بالإجماع، وإذا تولى لا يصح عزله، فلو قدمت ولاية عمر مثلاً على أبي بكر لكان لا يعزل إلا بالموت وكان أبو بكر يخرج من الدنيا من غير ولاية، وكذلك القول في عثمان وعلي فإن كلاً منهما لزم أن يخرج الآخر من الدنيا من غير ولاية، ويتبدل ما سبق به العلم الإلهي وذلك محال، ولم يأت نص صريح لنا بالترتيب في الفضل.

قال: وإنما أخذ العلماء ذلك من ظواهر الأدلة وقرائن الأحوال، فالمقلد للأئمة يلزمه اعتقاد تفضيلهم على الترتيب، وغير المقلد يفوض الأمر إلى الله تعالى العالم بمراتبهم فكل له عنده فضل وحرمه، انتهى.

قلت: وهذا القول وإن مال إلى الأدب في نفس الأمر لكان اعتقاد بما عليه الأئمة في ترتيبهم في الفضل أولى؛ لئلا يتمسك بذلك الروافض بغير علم، والله سبحانه أعلم.

إذا علمت ذلك فأقول وبالله تعالى التوفيق شروط دوام الولاية:

منها: أن يحرر صاحبها نيته، ويقوم فيها بنية نفع العباد لا بنية نفع نفسه، وهو بالثواب الأخروي أو الدنيوي، فيقف في ولايته بنية نفع العباد أولاً، ويجعل نفع نفسه بحكم التبعية لا بالقصد الأول، فإن كل من قام في نفع العباد كان الوجود كله يمده بالقوة والنصر والدوام.

ومنها: ألا يخون من ولّاه وهو الله تعالى بحكم الأصالة، ثم السلطان أو الوزير مثلاً، فلا يعصي ربه لا سرًا ولا جهرًا، ولا يعصى إمامه كذلك سرًا ولا جهرًا، فإن من عصى إمامه انقطعت وصلته به وانقطع استمداده من الله تعالى؛ لأنه سند متصل إلى حضرة الله تعالى، فما دام لم يخن فحبل استمداده متصلاً يمده بالتأييد.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: متى خان الأمير من ولّاه بأخذ مال من رعيته مثلاً بغير حق بحيث لو عرضه على السلطان لتكدر منه، ولم يسمح له به وعزله، فقد استحق العزل، وصار كالعمود الذي تزلزلت قاعدته وصار يرتج فلا بدّ أن يقع ولو على طول.

ومنها: ألا ينفذ غضبه في عدوه إذا قدر عليه، بل يعفو عنه ويصفح، فإن كل من

نفذ غضبه في عدوه ذهبت حماية الحق تعالى له واستحق أن يسلط عليه من هو أقوى منه فيعزله ويشومه شوم الهوان.

وسمعت سيدي محمد المنير - رحمه الله - يقول: حكم من نفذ غضبه في عدوه حكم من أخذ فأسًا وصار يهد بها جدار نفسه حتى يرميه إلى الأرض، وأصلح حكم من صار يلطخ جدار نفسه كل قليل بالجبس حتى يصير متين بنيان نفسه.

ومنها: أن يحسن إلى حاشيته وحاشية من كان قبله في بلده، فإنه إذا أحسن إليهم صاروا من جنده ولا يباطنوا عليه، فإن غالب الخلق الآن عبيد من أحسن إليهم فإذا لم يكرم حاشية من كان قبله عملوا له المكائد والحيل عند من ولّاه، وكشفوا له أمورًا في الولاية تضر المتولي حين ايسوا[1] من إحسانه إليهم كما جرب، فإذا أحسن إليهم ولو بلقمة كانوا كالدعائم لجداره، أما لو إذا أسى عليهم كانوا لجداره كالفأس التي يعرقبون بها جداره.

ومنها: ألا يغفل عن كف الظالم من رعيته عن المظلوم، فلا يدع أحدًا يسعى عنده إلى أخذه وظيفة أخيه، ولا يقبل على ذلك رشوة، وهذا الشرط من أعظم الشروط، فإن به درئ الفساد عن العالم، وذلك هو المقصود الأعظم بالولايات، ومتى ترك الأمير الناس يسعى بعضهم على وظائف بعض فقد تسبب في وقوع الفساد في العالم، واستحق من الله تعالى المقت والعزل وخراب الديار كما هو مشاهد فيمن أدركناهم من المفتشين والقضاة.

ومنها: أن يكون تائبًا إلى الله تعالى من سائر الذنوب، فلا يقع في شرب خمر، ولا لواط ولا زنا، ولا غير ذلك من الفواحش، ومتى وقع في شيء من ذلك فهو عدو الله تعالى، وعدو الله تعالى لا يكون إمامًا على المسلمين ولا حاكمًا بينهم، وقد بلغني عن شخص أنه يأتي الفواحش في الموضع الذي يحكم فيه فمشيت إليه، وعرَّضت ببعض ما هو مرتكبه فلم يسمع، فحصل له جنون وطلع عليه الحب الفرنجي حتى أرمي ذكره وأنفه، وعُزِلَ وصار عبرة للناس، فأنزلوه البيمارستان فكان يقول: احملوني إلى فلان فكان يسألني الخلاص مما هو فيه، فأقول له: سهم الله نفذ في العبد فما بقي فيه رجوع، ثم مات على سوء حال، وكذلك وقع لي مع بعض الدفاتر، فالعاقل من اعتبر بغيره، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) أيسوا من: أيس بمعنى يئس.

ومن أخلاقهم: ألا يتكدروا من الولاة إذا أخذوا أحدًا من زاويتهم ممن لهم عليه تبعة واحتمى بهم؛ لأن الفقراء ولو ارتفعت درجة أحدهم فهو معدود من جملة الرعية لولاة الأمور وعليه السمع والطاعة لهم سواء ولاة السياسة أو ولاة الشريعة، وليس للفقير أن يتكدر من مثل ذلك، ولا يظن أن في هذا بهدلة للفقراء وخرقًا لناموس الخرقة، فإن ناموس [الوالي في] الدار أعظم من ناموس الفقير فيها، ولكن إن كان ولا بدّ له من التكدر فليتخذ طريقة الطاعة لله تعالى ظاهرًا وباطنًا بحيث لا يبقى له حال - في باطنه فضلاً عن ظاهره - إلا ويوجهه لحماية ذلك الفقير وربه يحميه إن شاء إما بواسطة الحال المؤثر في الولاة من عزل ومرض وحبس بول ونفخ ونحو ذلك، وإما بكفهم عنه وعن جماعته فلا شيء من ذلك، فإن من أطاع الله تعالى أطاع له الخلق من الإنس والجن والوحوش، ومن يطلب الحماية من الله تعالى وعليه ذنب من الذنوب فقد رام المحال.

وقد خطف تمساح صبيًا في بلد سيدي إبراهيم الدسوقي فجاءته أمه وقالت: يا سيدي إبراهيم أخذ التمساح ولدي، فأرسل معها النقيب ينادي على شاطئ البحر بأعلى صوته: معاشر التماسيح حسب ما رسم سيدي إبراهيم أن كل تمساح ابتلع صبيًا فليطلع به فطلع تمساح عظيم ومشي مع النقيب إلى باب مقام سيدي إبراهيم فأمره الشيخ بأن يلفظه من بطنه فأخرجه حيًا سليمًا، ثم قال للتمساح: مت بإذن الله تعالى، فمات ودفنوه تحت عتبة مقام سيدي إبراهيم، وكذلك حكى لي خادم الفرغلي بن أحمد أن التمساح أخذ أخته، فأتى إلى الفرغلي وأخبره بذلك، فقال: نادِ في الموردة: معاشر التماسيح كل تمساح أخذ أخت نقيب الفرغلي فليأتِ بها، فطلع تمساح أبيض كبير فهاجت الناس والأطفال منه، ومشى حتى وقف على باب زاوية الفرغلي ولفظ الصبية سالمة، فأمر الشيخ بقلع أنيابه، فقطعها الحداد كلها وهو صابر له، ودموعه تفرفر من عينيه، ثم قال له: أمضِ إلى البحر ولا تؤذِ أحدًا ففعل.

فانظر يا أخي كيف أطاع الحق تعالى لأوليائه وحوش البحر لما أطاعوه وطهروا سرائرهم، واعلم يا أخي أن لله عبادًا أعطاهم التصريف في الولاة وغيرهم، وتركوا التصريف فيهم لما جبلهم الله تعالى عليه من الرحمة، وبعضهم تصرف في الظلمة بالإذن، فلا يلزم من مسك الولاة أحدًا من زاوية الشيخ نقص مقام ذلك الشيخ، بل الواجب عليه تقديم ناموس السلطنة على ناموس نفسه.

وقد كان سيدي محمد بن عنان من أكابر الأولياء، ورأيت السلطان الغوري

أرسل الوالي فحبس زاويته، وأخذ منها بعض فقراء الشيخ، وممن كان يتصرف في الولاة بالحال سيدي إبراهيم الجعبري وسيدي إبراهيم المتبولي، وسيدي محمد الحنفي، فقتل كل واحد والحال بإذن الله ما لا يحصي من الظلمة، فكانوا آلة لموت الظلمة عند انتهاء آجالهم لا أنهم قتلوهم قبل انتهاء آجالهم بغير إرادة الله تعالى، فافهم.

وممن كان يحبس بول لظالم حتى يقاسي الشدة العظيمة، ثم يفرج عنه سيدي محمد الحنفي، وحبس بول السلطان شعبان ابن السلطان حسن كذا كذا مرة، ثم يرسل له رغيفًا بزيت ويأمره بأكله فيفرج عنه.

وكان سيدي إبراهيم الجعبري[1] يفعل بالأمراء والملوك كذلك، ولكن يرسل

(1) هو سيدي إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبري. الشافعي الشيخ الصالح العالم العامل، المتصرف في التصوف بأطراف الأنامل. زاهد موصوف، وعابد علا فضله معروف. كان قدوة في القول والعمل، وإمامًا يُنيل من أمّه غاية الأمل. حلو العبارة، لطيف الإشارة، غزير الفضيلة، ذا مناقب جميلة، له ميعاد وأي ميعاد، جزيل الإسعاف والإسعاد، يشتمل على وعظ مفيد، ولفظ يرد به القلب الشريد، ويستجلب العاصي، ويأخذ بالنواصي، يجتمع إليه مالا يكاد يحصى من الخلائق، وتحوم عليه أطيار الحقائق، وقد أثنى عليه البعيد والقريب، وأطبق على ذلك معاصروه، ومنهم ابن حبيب، حيث قال في التقريب: إمامًا علا مقاله ومقامه، ومتكلم عذب منهله وكلامه، وعارف تأرج الكون بعرفه، ومحقق تظهر الأسرار على لسان كشفه، كان مقوله محط الرجال، وملجأ أرباب القال والحال، ينثر على الناس جواهره الفاخرة، ويعظهم بالزاوية المنسوبة إليه بحسينية القاهرة. ملك القلوب بحسن الأوصاف والشيم، وسلك طريق والده في العلم والعمل، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ولد بجعبر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان على مذهب الإمام الشافعي، سمع الحديث من السخاوي وغيره، وعنه أبو حيان وغيره، وكان يرشد الناس ويتكلم عليهم، ويحصل في مجلسه أحوال سنية، وأمور غريبة عليه، ومكاشفات خارقة، وكرامات فائقة، وكان مريدوه يسمعون وعظه على الكرسي بمصر، وهم بالريف. ثم حج ورجع، فوجد الناس بنوا هناك رباطًا، فأقام به حتى مات بفنائه سنة ست وخمسين وستمائة، وقبره يزار، ودفنت زوجته بقربه، وقد جُرّب أنه من وقف بين قبريهما ودعا، استجيب له، وكان مقيمًا بزاويته خارج باب النصر، وبها دفن.

وكان كالنار الموقدة على الظلمة، يكتب للسلطان: من إبراهيم الجعبري إلى الكلب الزويري، فلا يتشوش السلطان بل يقول: هو كان اسمي في بلادي، فمن أعلم به الشيخ؟.. فانتصر القضاة للسلطان، وأفتوا بتعزيره، فحُبِس بَولُهم ثلاثة أيام حتى أشرفوا على الهلاك، وجاءوه، فاستعفوا، فأعفاهم.

وشكا إليه ناس من نصراني الطور، فأحضره وهو يبري قلمًا، فقال له: إن عدت تشوش عليهم

لأحدهم إبريقًا يستنجي منه فينطلق بوله، فالولاة عند كمل الفقراء كالأطفال في يد مربيهم يؤدبونهم كما يرونه يردعهم عن أذى الناس، ولما عمَّر سيدي أحمد الزاهد جامعه بخط المقسم أخذ الجمالي حمير التراب الذي عند سيدي أحمد ينقل له التراب الذي بمدرسته التي يرأس الركن المخلق أرسل له سيدي أحمد، فقال كلاهما: مسجد الله تعالى، ولم يرسل له حمير التراب، فتوجه سيدي أحمد إلى الله تعالى، فنقم السلطان علي الجمالي في ذلك اليوم وحبسه، وبطلت العمارة مدة تسعة أشهر حتى فرغ سيدي أحمد من نقل التراب، وقال: قد استحق جمال الدين الإطلاق، فأطلق السلطان ذلك اليوم.

فإن كان لك يا أخي حال فاحم نفسك وإخوانك، وإلا فاسكت فإن اللسان والتوسل بأمير آخر في الحماية لا يكفي عند الفقراء إنما ذلك من شأن العوام، وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله - يقول: الفقير لا يعمل إلا بقلبه، وأما يده ولسانه فأمرهما سهل، وقد ذكرنا في كتاب «العهود المحمدية» عدد من سلبهم الفرغلي من العلماء، ومن عزلهم من الأمراء فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا ولي السلطان على بلدهم ناسًا من أمير أو قاض أن يتوجهوا إلى الله تعالى في هضم نفسه ولين كلمته للرعية رحمة به وبالرعية.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا بدّ لكل أمير أو قاض ولي من بلاد الروم على مصر أن يخرج إليه أصحاب التصريف بمصر إلى ناحية العريش في طريق الشام؛ لأنه أول درك فقراء مصر، فإن جاء من البحر تلقوه من إسكندرية، فيهضموا نفسه ويميلوا قلبه إلى الرحمة بالخلق والرعية قياسًا على ما ذكره أهل الكشف من أن الأمر الإلهي إذا نزل بالهلاك يمكث نازلاً ثلاث سنين فلا يصل إلى أهل الأرض إلا بعد انسحاق صولته في السماوات وما بينهما إلى الأرض.

أقط هذا القلم، قال قطه، فقطه، فسقطت رأس النصراني فورًا. وقال: كل فقير لا يقتل عدد شعر رأسه من الظَلَمة، ما هو بفقير. وله نظم ونثر كثير في أحوال الطريق، وهو الذي حضر وفاة ابن الفارض لما سأل أن يرسل الله له وليًا يحضر موته، ليساعده في ذلك الهول. مات سنة سبع وثمانين وستمائة، عن نحو سبع وثمانين سنة.

انظر: الوافي بالوفيات (147/6)، طبقات الشعراني (203/1)، طبقات السبكي (123/8)، الكواكب الدرية (455)، قلت: وله كتابه: «بهجة الأسرار» طبع بتحقيقنا، دار الكتب العلمية.

قالوا: ولولا ذلك ما طاق أحد من الخلق حمله؛ لشدة قبوله الخطاب بالأمر الإلهي، انتهى.

وكذلك القول فيما خرج من حضرة السلطان سليمان بن عثمان مثلاً له صولة عظيمة؛ لأنه برز من حضرة من حكمة الحق تعالى في بعض أقاليم الأرض، فيتوجه أولياء مصر في بطو[1] ذلك الباشا أو ذلك القاضي أو ذلك الدفتردار[2] في الطريق، فلا يصل إلا بعد شهرين أو أكثر، ويصير العوام يستبطئونه ولا يعلمون أن ذلك رحمة لهم، فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولوذوا بأولياء عصركم إذا خفتم من ظلمة ولاتكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يرشدوا من يطلب منهم قضاء حاجة من الولاة والقضاة وغيرهم ويقولوا لهم: لا نعرف قضاء الحاجة الفلانية إلا منكم [يرشدوهم] إلى صحة الالتجاء بهم، وعدم الإشراك لهم، فلا يشرك أحدًا من الخلق الفقراء الأحياء أو الأموات؛ لأن الأمر مبني على التوحيد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] كما هو مبسوط في كتب أصول الدين في «برهان التمانع» وقد حققت أنا هذا الباب، وخبرته كل الخبر مع الولاة الذين يترددون إليّ من الكشاف ومشايخ العرب، فلم أقدر آخذ بيد أحد منهم في شدة وهو يشرك معي غيري، وكذلك الحكم في غيري من الفقراء لو استند أحد إليه مع استناده إليّ لا يقدر يأخذ بيده كذلك، وما رأيت في الولاة الذين يترددون عليّ أحدًا راعى هذا الأمر معي مثل مراعاة شيخ العرب عيسى أمير الحاج في سنة ثلاث وستين وتسعمائة، فإنه إذ اعتقد شيخًا لا يكاد يشرك معه أحدًا، ويصير يتخيله بين عينيه إذا مشي وإذا جلس وإذا نام، ولما دعا الباشا اسكندر وجاء إلى مصر من بلاده سمعه شخص من الناس وهو يقول عند ركوبه من المعدية: يا بركتك يا فلان، وأنا غائب وبيني وبينه نحو فرسخ، ثم إن هذا الأمر الاعتقاد في الولي الصالح [ولاية] في نفس الأمر، بل هو عامّ في كل من اعتقد ذلك [الأمر]، ولو [لم ينطق به يكفيه أنه] يعتقده، فاعلموا ذلك واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يسوسوا الولاة بالترغيب تارة، والترهيب أخرى بحكم

---

(1) ربما يقصد العمل على تبطيئه.

(2) (الدفتردار): هو الموظف المالي المكلف تنظيم الوارد والمنصرف من أموال الحكومة (تركية).

الاقتداء بالرسول ﷺ، فإنه كان يدعو أمته تارة بالترغيب وتارة بالترهيب.

فإن رأى الفقير الأمير مثلاً متخوفًا من العزل وشرع في خراب البلاد، وقال: لا أعمرها لغيري، وعده بدوام الولاية، وقال: يكذب من قال إنك معزول، وإذا رآه آمنًا من العزل ومد يده في الظلم هدده بالعزل.

وقد وقع لي ذلك مع بعض الولاة، فشرع في خراب البلاد لما أشاع الناس أن الباشا وعد غيره بالولاية بعد عزله هو، فقلت له: إن بعض الفقراء قال لي: إنه كشف له عن دوام ولايتك ثلاث سنين؛ لأنه الحد الذي يكشف لأولياء الدائرة الصغرى عنه، وإذا مضت الثلاث سنين إن شاء الله تعالى نرى آخر ولايتك ثلاث سنين أخرى وهكذا فرجع عن ظلمه، فلما ركن واطمأن رجع إلى الظلم ثانيًا، فقلت له: إن ذلك الفقير قال لي: أنا كنت أكلت تلك الليلة طعامًا حجبني عن الكشف الصحيح، فشك وتردد ووقف عن الظلم، وبالجملة فالفقير مع الولاة الآن كالحاوي مع الحيات لا يكاد الأمير يسمع نصح الفقير أبدًا، والفقير قد كُلِف بالنصح للأمير فيحتاج إلى سياسة تامة، وعفة زائدة عن هداياه وطعامه، فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إظهار الكرامات إلا لغرض شرعي كما جرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وكم أعطى الحق سبحانه الكمل من الكرامات، وكتموها؛ وذلك لضيق هذه الدار عن أن تسع كراماتهم فادخروا ذلك للدار الآخرة؛ لوسعها وبقائها.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رحمه الله - يقول: لو أظهر العارف كراماته لخيف عليه أن يُعبد من دون الله تعالى.

وسمعت سيدي محمد المنير[1] - رحمه الله - يقول: إنما يكتمون كراماتهم

---

(1) هو سيدي أحد أتباع الشيخ إبراهيم المتبولي. كان صالحًا نحريرًا على طريق التصوف قديرًا. وكان مقيمًا ببلبيس، ثم عمّر زاويته المعروفة لما قيل: إنه عطشت امرأة وولدها من المارة في ذلك المكان، فمات الولد عطشًا، فاجتمعت عليه الفقراء. ووقف خاير بك رزقه على سماط زاويته. وحج بضعًا وستين حجة. وكان يقول: ما دامت اللقمة في زاويتي، فالبلاء عن أهل مصر من جهة المشرق مدفوع، فإذا فرغ الطعام منها أتاهم. وكانت عمامته من صوف أبيض، وله شعرة، ويلبس بشتًا مخططًا بأحمر، ويقول: أنا أحمدي. ولا يركب في طريق الحج إلا نادرًا، ولا يحلق رأسه إلا لنسك.

وكان ممن يشفع بعرفة في الموقف في عصاة الحج. وكان سريع العطب لمن يؤذيه. أنكر عليه
-

غالبًا؛ لأنهم يدعون الناس إلى شرع مقرر واضح كالشمس بخلاف الأنبياء يؤمرون بإظهار المعجزات؛ لأنهم يدعون إلى شرع جديد ناسخ لشريعة من تقدم، فاحتاج أحدهم إلى إظهار المعجزة؛ لينقاد له من في قلبه مرض لما جبل الله تعالى الأنبياء عليه من كثرة الشفقة والرحمة على قومهم، فهم يودون لكل واحد من قومهم الهداية بأي وجه كان كما سأل السيد صالح ﷺ ربه أن يخرج الناقة من الجبل حين طلب قومه معجزة ووعدوه بالطاعة إن أخرج لهم ناقة بالوصف الذي طلبوه، انتهى.

وكان الشيخ محيي الدين بن عربي ﷺ يقول: نحن لا نشترط المعجزة في حق النبي؛ لأن من أجاب الدعوى إنما أجاب لما كان متوفرًا عنده من الإيمان، ولولا ذلك التوفر لم يستجب لرسوله بالمعجزات ولا غيرها كما وقع لأبي جهل وأبي لهب وغيرهما، انتهى.

فاكتم يا أخي ما أعطاك الله تعالى من الكرامات جهدك، فإن عند الحنفية قول بأن إظهار الكرامات لا يجوز للأولياء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تحرير النية الصالحة في سفر الحج أو زيارة الأولياء الذين في بلدهم أو في الريف أو البراري ونحوها، وذلك بأن يكون الباعث للعبد على السفر والزيارة امتثال أمر الله تعالى، والاشتياق إلى شعائر الله من رؤية البيت الحرام والمقام أو رؤية قبر النبي ﷺ، أو رؤية ذلك الولي من حيث خصوص النسبة الخاصة إلى الله لا من حيث رؤية الأماكن على سبيل التفرج عليها وعلى حسن صنعتها أو بنائها، ولا من حيث رؤية الجبال والبراري والقفار كما عليه طائفة السواح.

وقد وقع أن عابدًا من عباد بني إسرائيل مر في سياحته على مرج أخضر فأعجبه، فقال في نفسه: أصلي في هذا الموضع ركعتين فصلاهما، فأوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: يا داود قل لفلان العابد: إني لم أتقبل منك هاتين الركعتين اللتين صليتهما في

=

الشيخ محمد بن عراق قبوله لصدقات الأمراء للفقراء، فكشف رأسه، وجعل عمامته تحت إبطه، ووقف بباب خلوة ابن عراق، وقال: قولوا له: المنير. فلم يخرج إليه، فشكاه للمصطفى ﷺ فمرض ذلك اليوم، فمات بعد العشرين يومًا، وكانت هذه عادته، ما كشف رأسه لأحد إلا قتل. ويقال: إنه كان يحفظ «الروضة». وإنه كان يأتي كل يوم من زاويته إلى القاهرة يحضر درس ابن إمام الكاملية، ويرجع إلى زاويته من يومه. مات سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته. انظر: طبقات الشعراني (130/2)، الكواكب السائرة (95/1)، والدرية (808).

المرج الأخضر؛ لأنك أشركت معي نزهة نفسك حين مكثت في «المرج»، وأنا أغنى الشركاء عن الشرك، انتهى .

ثم مما يخفى على العبد خفة سفر الحج أو الزيارة مثلاً عليه؛ لأجل سفر صديق معه تلك السنة، وإذا رجع عن سفره معه تلك السنة ثقل عليه ذلك، فمثل ذلك كالشرك الخفي في العبادة، ولا يشعر به كل أحد.

ولما حججت أنا وصديقي سيدي محمد الحنفي الشاذلي نفعنا الله ببركاته، قلت له: لما قرب السفر إيش حالك في همة السفر؟ فقال: أنا معك إن حججت حججت معك، وإن تركت السفر تركته، فنظرت أنا الآخر في نفسي فوجدت نفسي كذلك، فقلت له: يا سيدي إن حجنا شبه حج الأطفال، وربما اطلع الحق تعالى على نيتنا فوجد الباعث لنا على الحج هو صحبة كل منا بالآخر فلم يقبل لنا حجًا؛ لأننا لم نخلص النية له مما خلصت النية في حج السنة لأجل الله تعالى إلا بعد مجاهدة طويلة، فإن من شرط الذهاب للحج أن يصير كل واحد يخف عليه الحج ولو ترك صاحبه الحج، فليتنبه الفقير لمثل ذلك.

ونظيره المواظبة على صلاة الجماعة في صلاة الصبح والعصر وغيرهما؛ لأجل التحدث مع الأصحاب الذين يحضرون في المسجد قبل الصلاة، وكذلك زيارة مثل قبر الإمام الشافعي ﷺ فقد يكون الباعث عليها تفرج النفس على الناس المجتمعين، أو على الأنس الذي يجدونه في قبته، ولولا ذلك لثقل عليه الزيارة، فليفرض الزائر أن لو هدمت قبة ذلك الولي، وصار في خرابة ولا أحد يزوره هل كانت نفسه تخف عليها الزيارة مثل ما هو الآن أم لا يعرف حال نفسه؟ والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تعظيمهم لإخوانهم المسلمين لاسيما العلماء والصلحاء، فلا يمر أحدهم راكبًا على إخوانه إلا لعذر، وإذا سافر إلى بلاد الريف ومر على بلد ينزل عن دابته، ويسوقها أمامه حتى يجاوز البلد، وإن لم يكن أحد من أهل البلد جالسًا في ناديها كما يفعل أهل الذمة إذا مروا على المسلمين كل ذلك أدبًا مع أهل البلد وإكرامًا لهم، فقل بلد من بلاد المسلمين تسلم من ولي أو أولياء فيها.

وقد كان الشبلي - رحمه الله - يقول: ذلي عطل ذل اليهود يعني: أنه بلغ من الذلة في نفسه أكثر من الذل الواقع من اليهود؛ لأن ذل الذليل يكون على قدر معرفته بعظمة من ذل له، ولا شك أن الشبلي أعرف بعظمة الله تعالى، وبعظمة المسلمين من معرفة اليهود.

قلت: وما رأيت في عصري أحدًا يراعي هذا الأمر كمراعات سيدي علي البحيري - رحمه الله تعالى - كان ينزل عن دابته ويسوقها أمامه كلما مر على ناس يتحدثون، وكان إذا سافر ومر على رعاة الغنم والبقر والجاموس ولو أطفالاً ينزل لهم، وإن كانوا لا يهتدون لما يفعل ولا يعرفون تعظيمًا، ويقول: نراعيهم من حيث أرواحهم الشريفة التي لم تتدنس بالمعاصي، انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا به يرفع الله قدركم في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: أن يكون مطمح بصرهم ببادئ الرأي إلى أن الحق تعالى هو الذي يولي ويعزل بواسطة خلقه وبلا واسطة، وإذا سألوا السلطان فمن دونه في حاجة ولم يقضها لم يتكدروا منه، بل يراعون قضاء الله ويلتزمون الحكمة في تفسيرها أو عدم قضائها أصلاً، ثم لا يخفى عليك يا أخي أن أصحاب المراتب يجب عليهم مراعاة خاطر بعضهم ورد الأمور إلى بعضهم بعضًا كما نرى نحن المراسيم التي تبرز من باب السلطان ابن عثمان إلى نحو مصر والشام مثلاً فإنهم يولون الإنسان في الوظيفة، أو يعطوه جوالي ويردون الأمر بعد ذلك إلى نائبهم في تلك المدينة أو ذلك الإقليم.

وكذلك أصحاب التصريف من الأولياء بالروم يردون الأمر إلى أصحاب التصريف بمصر، فإن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، ولو كان الغائب من أهل الكشف فافهم، فالعاقل من طلب قضاء حاجته من باب الولاة وأصحاب التصريف معًا دون أحدهما.

وقد أرسلت أنا أصحاب التصريف بالروم في شمول الأمير جانو الحمزاوي بمصر بنظرهم حين نقم عليه السلطان، وظن بنفسه الهلاك بكتابة ورقة بخط لا يعرفه إلا أهل الكشف، فأرسل الشيخ محيسن البرلسي[1] يقول لي: وكان من أصحاب النوبة:

---

(1) محيسن البرلسي المجذوب، ولِّي نور جماله باهر، وصالحٌ نجم كماله زاهر. كان مقيمًا ببولاق، ثم أقام بالرميلة. قال الخواص: وكان معه درك بحر الهند بعد الشربيني. وأتاه فقير يثاقله، فقال له: قم، مسكت امرأة جارك فوق الفرن، وجئت تُثاقلني. فقال: وقع لي ذلك من نحو سبع وخمسين سنة بدمياط وأنا شاب. وكان يربط عنده عنزًا وديكًا بحبل. وكان أن كان عام جدب أو فتنة أوقد عنده نارًا. وكان الخواص إذا شك في نزول بلاء على أهل مصر أرسل ينظر، فإن رآها متقدة عرف أنها سنة شدة عظيمة. وأرسل مرة فوجدها، فقال: الله لا يبشره بخير. فوقع للناس في ذلك العام شدة عظيمة في أخذهم لبلاد الهند. وكان يقول: إذا أردت فعل شيء يتعلق بالولاة بمصر =

أما كان من الأدب أن تشاوروا أصحاب النوبة بمصر قبل أن ترسل السؤال إلى أولياء الروم، فمن ذلك اليوم ما كتبت أولياء الروم حتى استأذن أولياء مصر، وببركة استئذان أولياء مصر قضيت حاجته ورجع إلى مصر سالمًا، ووصلت تلك الورقة إلى السلطان سليمان فقبلها، ووضعها في عمامته، فالحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: ألا يزاحموا على صحبة الولاة إلا لأجل منافع الناس مع العفة عن أموالهم جملة واحدة، وما نهي السلف الصالح عن المزاحمة على صحبة الولاة إلا إذا كانت الأغراض فاسدة فاتنة يتولد من المزاحمة البغضاء والشحناء ضرورة، ويود كل واحد أن تكون هدايا ذلك الأمير، وعطاياه له وحده دون غيره، وأما من يصحب الأمير لله تعالى فلا حرج عليه، بل ربما كان ذلك واجبًا على الفقراء في بعض الأوقات؛ لأن القاعدة أن كلما يتوصل به إلى الواجب فهو واجب، وكلما يتوصل به إلى المستحب فهو مستحب، فإياك يا أخي أن تعتقد في فقراء بلدك إذا زاحموا على الأمراء أنهم يفعلون ذلك لحظ نفس، بل احملهم على محامل صحيحة، وفوّض الأمر في ذلك الذي رأيته إلى الله تعالى إلا إذا ظهرت منهم أفعال تفصح عما في بواطنهم كأن يخوض أحدهم في عرض أحد ويذكره بالنقائض عند الأمير أو عند من يبلغه ذلك، فإن مثل ذلك يوجب على الفقير الخالي من صحبة ذلك الأمير أن ينكر على أولئك الفقراء الذين يمزقون عرض بعضهم بعضًا لأجل ذلك الأمير تقبيحًا لفعلهم.

وهذه ميزان تطيش بالذر، فإذا رأيت يا أخي طائفة العلماء أو الصلحاء مزدحمين على صحبة أمير، وكل واحد يعظم الآخر في غيبة وحضورا فاعلم بأنهم صحبوه لله تعالى أو للدار الآخرة، فلا يجوز لك الطعن عليهم، وحكم الضد بالضد.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إذا رأيتم أحدًا من إخوانكم صحب أميرًا، وهو يعتقد فيه الصلاح جزمًا فلا يزاحموه عليه؛ لأنه يكفيه في صحة استفادة النية في قضاء حوائجه عند الله تعالى، وإن رأيتموه غير جازم فيه بالصلاح فلكم صحبته؛ لأنه لا يكفيه ولا يقدر على تمشية الشفاعات في الناس عنده.

-

فشاور أصحاب النوبة بها أدبًا معهم، ثم افعل ما تريد، فإنهم يكرهون قلة الأدب معهم. مات سنة نيف وأربعين وتسعمائة، ودفن بتربة جانم الحمزاوي، بجوار قبة الإمام الشافعي.

انظر: طبقات الشعراني (143/2)، الكواكب الدرية (831)، الكواكب السائرة (249/2).

ولما صحبت محمد بن الأمير حجازي بلغني أنه يقول: إن كان لله تعالى قطب على وجه الأرض الآن فهو للشيخ الفلاني فحسنت اعتقاده فيه، وتركت الانكباب على صحبته، فلما وقع محمد في شدة، ولم يجر الله تعالى على يديه تفريجًا له ترك صحبته ورجع إليَّ فصحبته، وكذلك وقع لأخيه الأمير عبد الله مع شخص آخر لما صحبه فتركته له، فلما مسك عبد الله وأودعوه في البرج وولوا غيره ولم يجد من ذلك الشخص تفريجًا رجع إلي فصحبته.

وكذلك ينبغي لي إذا تغير اعتقاده في واعتقد غيري ألا أتكدر، فإن تكدرت فهو دليل صحيح على صحبتي كانت لغير الله تعالى، ثم من علامة الاعتقاد الجازم للأمير في الفقير أن تصير كل شعرة في الأمير تعتقد أن الله تعالى لا يرد لذلك الفقير دعاء في شيء يسأل ربه فيه، ومتى كان عند الأمير شك في ذلك فهو غير جازم، ولا نقضي له على يديه حاجة فاعلم ذلك واعمل به يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يتوجهوا إلى الله تعالى في صحبة الأمراء، فلا يركنوا إلى الأمراء، ويعتقدوا دوام الصحبة، وأنها تنفعهم فربما يتكالب الفقير على الأمير، ثم لا يزداد الأمير منه إلا نفرة لاسيما إن جرحه أحد من الأعداء عند الأمير بخلاف من يهضم نفسه ولا يزكيها، فإنه يزداد فيه اعتقادًا.

ومن حين فوضت أمري إلى الله تعالى وما جرحني قط احد عند أمير صحبته إلا وألقى الله تعالى في قلب ذلك الأمير النفرة منه، وقيض له من يجرحه عنده حتى كخرقة الحيض، ومما جربته أنا أنه ما ذكر أحد من أقراني عند أمير صحبته إلا وبجلت به وعظمته عنده، فأخرج من صحبته سليمًا مستور العورة جزاء وفاقًا، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يزور أحدهم أخاه إلا إذا وجد عنده داعية لذلك، والداعية هي رؤية الزائر نفسه بعين الحقارة والذل، والنقص وكثرة المعاصي الظاهرة والباطنة، ورؤية المزور بعين الكمال والعز، والطهارة من سائر المعاصي وطلب الإمداد منه، ومن هذا قالوا: إذ قل رأس مالك فزر إخوانك، فإن لم ير الزائر كما ذكرناه، والمزور كذلك فالزيارة تكلف ونفاق، ثم لا يقابله المزور إلا على صورة نيته وما شاكلها.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ما بقي عند غالب الزائرين عقيدة فيمن يزوروه، ولا عند المزور مدد يفيض منه إلى غيره، فزيارة غالب الناس اليوم عناء وتعب من غير ثمرة إذ الثمرة إنما تكون في الأعمال الخالية من العلل، فحرر

يا أخي نيتك و«زُرْ أخَاكَ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»[1] كما ورد، ثم لا فرق في هذا الحكم بين زيارة الأحياء والأموات، فإن الميت يقابل زائره كذلك بشاكلة حاله ونيته، فاخرج يا أخي من زيارة العادة إلى زيارة العبادة، ولا تكن من الغافلين، فإن لم يظهر لأخيك الحي أو الميت كمال عندك فلا تزره، وإن ظهر لك كماله فإياك أن تحتقر غيره، فربما ذلك الأخ الخفي أعلى مقامًا ومرتبة من ذلك المشهور بالصلاح والدين.

وقد بلغنا أن شخصًا نام عند قبر الإمام الليث بن سعد ﷺ فطرقه البول فبعد عن قبر الإمام الليث بن سعد إكرامًا له وجلس بجنب جدار يبول، فسمع صوتًا من تحت الحائط يقول: إن هذا الذي تبول عليه أعظم مقامًا عند الله من الإمام الليث، فغُشِي على ذلك الشخص من ذلك الصوت، وقبض على فرجه وصار حائرًا محصورًا في غاية الضيق، انتهى.

فخفف يا أخي الأكل والشرب إذا طلبت زيارة القرافة؛ لئلا تحتاج إلى البول أو غيره، واعتقد في إخوانك المسلمين الصلاح أحياء وأمواتًا، وكل سرائرهم إلى الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يشكروا أحدًا بين الناس إلا إن كانت صفاته المحمودة تغلب على المذمومة، فإن تساوت صفاته المحمودة والمذمومة وقفوا عن الشكر؛ لئلا يدخل أحدهم في تزكية من لم يزكه الشارع ﷺ؛ إذ لا يزكي إلا من فاضت صفاته المحمودة حتى لا يكاد يظهر للمذمومة عين، وقد قال أئمتنا: إن العدل في الشهادة هو من غلبت طاعاته على معاصيه.

وقالوا: لا تكره إمامة من تكرهه الناس إلا إن كان ممن يكرهه أكثر ممن يحبه، هذا كان في حق من كرهه الناس بغير حق أما من كرهوه بحق فإمامته مكروهة على أن كلامنا في حق عامة الناس دون الولاة، فإن من يمدحهم إلى الإثم أقرب، وإذا كان الناس كلهم يذمونهم ولا يرجعون عن الظلم، فكيف فيمن مدح ظالمًا غش نفسه، وغش الأمير، وغش الناس؟.

وما أقبح فقيرًا يقبل من مشايخ العرب والكشاف، الهدايا والصدقات، ويصير يمدحهم في المجالس، حتى ربما رفع مقامهم على مقام بعض العلماء الصالحين كما

---

(1) رواه الطبراني (4/21، رقم 3535)، وفي الأوسط (3/248، رقم 3052)، وفي الصغير (1/18، رقم: 296)، والحاكم (3/390، رقم 5477)، وتمام (1/35، رقم 64).

سمعت ذلك عن بعضهم في حق شيخ العرب عيسى، وفي حق محمد بن داود بن عمر، وفتشنا عن سبب ذلك فوجدت سببه أنهما رتبا له كل سنة شيئًا من القمح، والعسل، والأرز، فالعاقل لا يمدح أحدًا إلا إن قال الحق تعالى له: صدقت، وتعرف ذلك بموافقة المدح لقواعد الشريعة، فاعلم ذلك يا أخي ونزِّه نفسك عن الإفراط في المدح كما تنزهها عن الذم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يركنوا قط للولاة، ولا يثقوا بدوام صحبة أحد منهم، فإنهم يظنون أن العقيدة في الفقراء تقتضي البقاء على صحبتهم لا أنهم هم المحتاجون لهذه الصحبة بينهم وبين الفقراء، وقد تلمذ عليّ أمير منهم، وفي يوم آخر تركني وأصبح يتلمذ لفقير آخر في يوم انتقد عليّ، فاعتقاده وانتقاده لهوى.

وقد صحبني شخص من الأكابر وعرض عليّ مالاً جزيلاً، فرددته فأنكر عليّ أشد الإنكار، وأصبح عند شخص جاهل بالشريعة لا يعرف شروط الوضوء، ولا يراه أحد يصلي، فاتخذه شيخًا وصار يتردد إليه وتركني كأنه لم يعرفني، وصار يقول عن ذلك الشخص: إنه يصلي بمكة، ولعمري إن صحة العقيدة في شخص إنما يكون متبعًا للشارع ﷺ، فمن أظهر لنا اتباعه للشريعة اتبعناه، ومن تظاهر لنا بمخالفة أحكامها وآدابها أنكرنا عليه كل الإنكار؛ غيرة على شريعة سيدنا ومولانا محمد ﷺ أن ينصر من خالفها، أو يعتقد ولم ينقل لنا عن أحد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أنه كان يتظاهر بترك الصلاة ويقول: أنا أصلي بمكة أبدًا، فالعاقل من اتبع سلفه في الدين، وأظهر عقيدته للعلماء والصالحين؛ ليردوه إلى طريق الصواب ويخرجوه عن الخطأ.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل إمام السنة ﷺ يقول: كل من رأيتموه يسارر الناس بأمر فاعلموا أن عقيدته فيها دغل[1] وليست العقيدة الصحيحة إلا ما أعلن بها صاحبها على رؤوس الأشهاد، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وافرحوا إذا أنكر عليكم الأمراء، وتعاطوا أسباب التنفير عنكم، ولا تغتروا بمن يتزاحم عليهم من متصوفة زمانكم فعن قريب يندموا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يحذروا إخوانهم الذين أقاموهم في جمع الدنيا وإنفاقها على الفقراء من الطمع، ومن ترجيح نفوسهم بشيء على الإخوان إلا بقدر ما يعينه لهم الشيخ لا غير، ومتى تخصص أحد منهم بشيء عن إخوانه فقد خان الله تعالى، ورسوله،

(1) دَغَلٌ: أَيْ فَسَادٌ وَرِيبَةٌ.

والشيخ، والفقراء، ونفسه، ولولا أن للدنيا قدرًا في قلوب غالب الناس ما حذر رسول الله ﷺ منها، وقد أقمت عندي في الزاوية شخصًا لشئون الدنيا فلم يتورع حتى عزلته ووليت غيره فاحذروا أيها الإخوان ولا تخونوا فترتفع البركة، واحذروا من التخصيص بشيء لو عرضتموه على الشيخ والفقراء لم يسمحوا لكم به، وإياكم والاعتذار بأن لكم أولادًا وعيالاً، فإن ذلك عذر غير مقبول عند الله تعالى، ولم يأمركم الله تعالى أن تطعموا عيالكم حرامًا، فخذوا ما أحل لكم، واعملوا لكم حرفة، أو خيّروهم بين الإقامة معكم على الضيق أو الفراق كما خيّر رسول الله ﷺ نساءه حين ضاقت عليهم الدنيا، ثم إن في تخصيص النقيب غاية الفضيحة له إذا تخاصم مع أحد من الفقراء وقاموا عليه وقالوا له: احلف لنا بالطلاق أنك ما تخصصت عنا قط بشيء كما وقع ذلك لخدام بعض المشايخ حين قام عليهم أهل الزاوية وأخرجوهم وعزلوهم فما قدر أحد يحلف منهم فافتضحوا في الدنيا قبل الآخرة أكبر فضيحة؛ لكونها على رؤوس الأولين والآخرين.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان النقباء، ولا تغتروا بحكم الله تعالى عليكم، وتخونوا فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47] والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يعاملوا إخوانهم بكثرة الإيثار إذا سافروا إلى الحجاز، زيادة على إيثارهم الذي كانوا عليه في الحضر أدبًا مع الله تعالى، فإنه مصاحبهم في السفر صحبة خاصة قال ﷺ: «**اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**»[1].

وليحذر الفقير كل الحذر من أن يكون عنده في طريق الحج عجب بشيء من أحواله، أو كبر على أحد من إخوانه؛ خوفًا أن يرجع من الحج ممقوتًا، وقد يطرق الإنسان من استحسان حاله إذا حج، وظن أن الله تعالى غفر له ذنوبه، فإن ذنب العجب والكبر هما اللذين أخرج لأجلهما إبليس من الحضرة ولعن وطرد حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص:76] ومن علامات عدم الكبرى : أن تفرض على نفسك أنها تتلمذ لأقرانها من مشايخ العصر الذين يحجون تلك السنة

(1) سبق تخريجه.

وتلقن عليهم الذكر، وتصير تخدم أحدهم وترضيه وتمشي في ركابه إن استطعت حتى تنسلخ من اسم المشيخة، وتصير معدودًا من جملة خدام ذلك الشيخ لا يرفعك الناس عن ذلك، فإن انشرحت نفسك لذلك فأنت متواضع تستحق نزول الرحمة عليك، وإلا فأنت متكبر تستحق نزول المقت عليك هذا في حق المشايخ الذين يربون الناس ويأخذون عليهم العهود فما بالك بأخذ المريدين.

وقد طلب شخص من إخواني الحج في سنة كان شيخ العرب عيسى أمير الحاج، فقلت له: إني أخاف عليك المقت برؤيتك نفسك على أحد من عباد الله تعالى في تلك المواقف الشريفة فقال: أنا بحمد الله تعالى نفسي تراب، فقلت له: لا تكون نفسك ترابًا حتى تخدم الشيخ الفلاني - وعينت له شخصًا من المشايخ الذين حجوا في تلك السنة - وتبالغ في خدمته بحيث تنسلخ عن كونك من أصحابي، ويصير الناس يقولون عنك أنك من أصحاب ذلك الشيخ، فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هذا أمر لا يقدر على فعله أشياخ الطريق الذين يسافرون في هذه السنة، فكيف أقدر أنا على ذلك؟ فقلت له: إن حضرة الحق تعالى محرم دخولها على من في قلبه كبر على أحد من المسلمين، فقال: لا أقدر على نفسي تنكبس لخدمة ذلك الشيخ، فقلت له: امكث في مصر فإنه أولى بك خوفًا من حصول المقت، فإنك إذا كانت نفسك تنفر من خدمة من أشهرهم الله بالصلاح، واعتقدهم الأمراء وترى نفسك عليهم، فكيف بالعوام الذين لا يؤبه لهم؟

وهذه مصيبة يبتلى بها غالب المتصوفة وطلبة العلم فضلاً عن غيرهم، فلا تكاد تجد شيخًا يرى نفسه دون شيخ آخر إلا نادرًا، بل كل واحد يقول: أنا صاحب المقام وفلان هو المتفعل في المشيخة، وإن شككت في قولي فاعرض ما قلته لك على مشايخ عصرك تعرف صدقي، وقد كان الفضيل بن عياض مع سفيان الثوري يعرفه، فقال له سفيان الثوري: كيف ترى الموقف؟ فقال له الفضيل: ما أجمله لو لم يكن مثلي ومثلك فيه، وأخذا يبكيان حتى بلا الثرى.

فإن كنت يا أخي وإخوانك الذين حجوا على هذا القدم فهي سنة مباركة بحجكم فيها، وإلا فربما كان سببًا لنزول البلاء على الناس، وما رأيت في العلماء بمصر في هذا العصر أكثر تواضعًا من الشيخ ناصر الدين الطبلاوي، والخطيب الشربيني، وبقي جماعة لم يتمكنوا في مقام التواضع فخفت عليهم العجب إذا عنفتهم.

وقد طلعت مرة مع الشيخ ناصر الدين الطبلاوي للباشا اسكندر حين كان بمصر

فعمل نقيبًا وأمرني بالسكوت، وصار ينصح الباشا ويعظه ويخوفه ويقول: سيدي الشيخ هذا يقول لك: كذا وكذا، وعجزت أن أظهر مقامه للباشا، فأقسم على الله تعالى ألا أفعل، وكان سبب طلوعي معه الباشا المذكور أنه أرسل يستأذن في أن ينزل للزيارة، فخفت أن ينزل فيترتب على ذلك حقوقًا لا نقدر على القيام بها فرأينا طلوعنا له أخف من نزوله ومع ذلك لاث الناس بنا، وقطعوا في عرضنا، وقالوا: هؤلاء ينحشرون في الولاة، فالله تعالى يغفر لهم ما جنوه آمين.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: لا يبلغ العبد مقام التواضع الكامل حتى يرى أن جميع إخوانه العصاة أحسن حالاً منه، فيرى أن الله تعالى يؤاخذه ويغفر لهم جميع ذنوبهم، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: ألا يبادر أحدهم إلى الأكل من طعام إخوانه المشهورين بالصلاح في عصره حتى يفتش ذلك الطعام ينظر من أي طريق وصل إلى ذلك الصالح، هل هو من كسبه الشرعي، أو من غيره أم من هدايا الولاة أو غيرهم، فإن رآه من الكسب المذموم امتنع، وإن رآه من الكسب المحمود أكل.

ولا ينبغي لفقير في هذا الزمان أن يأكل من طعام أحد من أهل زمانه من غير تفتيش، فربما كان يأكل بدينه وزهده وصلاحه، أو ربما كان يقبل هدايا العمال وولاة الجور، أو ربما كان يبيع على المساكين وأكلة الرشا، ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:29] كما عليه بعض المتصوفة في هذا الزمان.

وقد دخلت على شخص منهم له عمامة صوف وعذبة وله شهرة بالصلاح عند الأمراء، فقدم لي دجاجة فأكلت منها، فرأيت إمارة الحرام فألقيتها من بطني على باب ذلك الشخص، فقد تقدم إليَّ أنه لا يرد شيئًا يأتيه من الولاة ويقول: إنه قد أتى من عند الله تعالى، فعلمت أنه لم يشم من طريق الشريعة شمة، فإن المالك الحقيقي سبحانه هو الذي حرم عليه ذلك الطعام، فنعوذ بالله من هذا المذهب الذي يهدم أركان الشريعة.

وقد ذكرنا للأصحاب مرارًا أن من علامات الحرام:

إذا أكله العبد أن تلعب نفسه فيلقيه من ساعته كما هو شأن من طهرهم الله تعالى من أن يستقر في بطنهم طعام حرام.

ومن علاماته أيضًا: حصول الثقل في المعدة والظلمة في البصيرة والقساوة في القلب حتى لا يكاد تدمع له عين ولا يحن إلى موعظة.

ومن علاماته أيضًا: أن يقوم من النوم كالمدهوش مخبط العقل، فلا يصحو إلا بعد ساعة.

فإن أخطأك يا أخي معرفة الحرام بالميزان الشرعي قبل أكله فلا تخطئك العلامات بعد أكله، فعلم أن من الواجب على الفقير في هذا الزمان ألا يأكل إلا عند الاضطرار إن أراد أن يستبرئ لدينه؛ لأنه إذا كان صلحاء الزمان لا يتورعون فكيف بغيرهم؟ وهذا أمر قد يخفي على كثير ممن يعتقد الفقراء بحسن الظن من غير دليل، وربما يشبع من طعامهم الحرام أو الشبهات، ويقول: طعام الفقراء شفاء، وغاب عنه أنه سم قاتل.

وقد كان الإمام سفيان الثوري إذا دعاه من لا يتورع إلى طعامه يأخذ معه رغيفًا في كمه، ويأكل منه، فليحذر العبد من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: كتمان أحوالهم وكمالاتهم إلا لمصلحة شرعية، فلا ينبغي لأحدهم أن يقول: دخل علينا البارحة فلان بعد أن فرغنا مجلس الذكر، أو: ونحن نقي مع الفقراء القمح، أو: ونحن نفلي للعميان ثيابهم، أو: ونحن نجمع للفقراء الوقيد ونحو ذلك؛ لأن في مثل ذلك إظهار أنه يخدم الفقراء، أو أنه له مجلس الذكر فيخبر بذلك من لا يعرفه، بل يذكر الحكاية التي يحكيها من غير ذكر إمارة الذكر أو تنقية الطحين ونحو ذلك[1].

وهذا الخلق يقع في خيانته كثير من الفقراء الذين يحبون الظهور في هذه الدار، فليحذر الفقير من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) قال الشيخ المصنف في الكوكب الشاهق: ومن أخلاقهم: أن يكتم أحدهم أعماله الصالحة من النوافل عن الناس، ولا يظهر شيئًا منها حتى يتمكن في الطريق، وقد أجمع الأشياخ كلهم على أن كل مريدٍ أحب الظهور ونشر الصيت بين أقرانه فهو كاذبٌ في محبة طريق أهل الله تعالى، والكاذب لا يصلح للطريق. وقد أجمعوا على أن مريد بنى أمره على الكذب، لا يصلح له أن يشم من الصدق رائحة، كما أن من بنى أمره على الصدق فهو محفوظٌ من الدعاوى الكاذبة إلى أن يموت، وذلك أن شجرة الكذب لا يمكن لفروعها أن تخرج عن أصولها. وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: من أقوى سلاح الشيطان على المريد أن يتغير من الناس إذا اتهموه، فإذا فعل ذلك وقد أعطى الشيطان سلاحه الذي يقتله به، وكفاه المؤنة انتهى. فعلم أن كل مريدٍ رمى بفاحشةٍ أو رياءٍ أو زندقةٍ وتغيرت منه شعرة فهو كاذبٌ في محبة أهل الطريق؛ لأن الصادق لا يراعي إلا الله ﷻ، ولا يلتفت إلى ذم الخلق ولا إلى مدحهم. فاعرض يا أخي هذا الخلق على من يدّعي الصدق من مريدي زمانك تعرف حالهم، ولا تنسَ نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا سافروا إلى الحجاز للحج فدوا أمير الحج بأرواحهم، فيحوطوه ويحوطوا ركبه ويحرسونه ويحافظون عليه من كل سوء، فإنه إذا هلك هلك الركب كله، فلا أحد أتعب فيه القلب من الفقير الصادق إذا سافر إلى الحجاز؛ لأنه يرى كل آفة نزلت في الحج بسبب ذنوبه أو تفريطه في تحويطهم بالآيات والأذكار التي وردت في مثل ذلك، ويرى أنه مؤاخذ يوم القيامة بكل من سُرِقَ جمله أو متاعه أو رقد من التعب، وكذلك يرى أنه مؤاخذ بكل من سأله شيئًا من الطعام أو الماء أو المال الذي هو في غنى عنه حال ذلك السؤال، ويرى أنه لا يجوز له ادخار شيء عن المحتاج إليه، ولو احتاج هو إليه في المستقبل، ويرى أيضًا أن من الواجب عليه إيثار الإخوان على نفسه في إركابهم دابته ويمشي هو.

وهذه الأمور قليل من الفقراء من يقوم بها في طريق الحج، وما رأيت ولا سمعت أحدًا من أمراء الحج قام بهذه الأمور إلا الأمير عيسى بالبحيرة حتى سافر أميرًا بالركب المصري والرومي، فكان لا يتقدم الركب ليلاً ولا نهارًا، بل هو مقيم بالساقة يحمل العميان، ويسقي العطشان، ويحمل العجوز على بغلته ويمشي، وما يأتي للمنزلة التي يحط بها الحجاج إلى نصف الليل بعد أن نزل الناس واستراحوا وأكلوا وشربوا، وربما وصل إلى المحطة، فقالوا له: إن في ذروة الجبل الفلاني أو الشجرة الفلانية جماعة منقطعين فيأخذ الجمال والماء ويرجع إليهم ثانيًا، فلا يصل إلى المحطة إلا وقد سار الحج فيداوم على السير من غير استراحة ﷺ، وذلك في سنة ثلاث وستين وتسعمائة.

وقد كنت بحمد الله تعالى أحوطه وأحوط الركب في كل مرحلة أول ما يسير الركب بقولي ألف مرة وأنا أُحلق بأصبعي على الركب كله: «بسم الله الرحمن الرحيم وآية الكرسي، ثم أقول: اللهم إني أسألك بك أن تصلي وتسلم على سيدنا ومولانا محمد، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، وأن تقوى هذه الجمال والدواب على حمل أثقالها، وأن تحفظها وأصحابها من الآفات حتى تدخل إلى أوطانها إنك على كل شيء قدير» ألف مرة كذلك بتوجه تام بحسب المقام، فلا أفرغ من الألف إلا وجسمي ذائب من شدة التعب، فكنت أتعب بدنًا من الماشي، وواسيت المحتاجين بجميع ما كان معي من الثياب والعمائم حتى لبست ثوب العيال بقلنسوة من غير عمامة، وقطعت الخيمة وفرقتها على المحتاجين؛ ليستدفوا بها حين فني ما كان معي من المال والثياب، ثم لما كساني الله تعالى العمامة والثياب في الطريق

ثانيًا وثالثًا أعطيتها للسائل، فبذلتها ثلاث مرات في الطريق، وكان آخر عمامة أعطيتها للسائل من حين ودعت رسول الله ﷺ، فسألني فقير شيئًا يتقوت به وأنا خارج من باب السلام، فأعطيته العمامة كلها دون أن أقطع له منها قطعة كما هو شأني دائمًا؛ تعظيمًا لجناب سيدي رسول الله ﷺ وقربي منه، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا دخلوا مضيقًا أو نزلوا في المحطة أن يقدموا جمال جارهم على جمالهم، ويتخلفوا إلى ساقته، ويدخلوا جمال جارهم وأمتعته إلى داخل الركب، ويجعلوا جمالهم وأمتعتهم إلى خارج جمال الجار، وأمتعته كالسور عليه والوقاية له، ولا يقولون: أبدأ بنفسك في الحفظ على الوجه الذي يتبادر إلى الفهم، بل يرون أن بدأتهم بحفظ نفوسهم وأمتعتهم هي بإيثارهم للغير على أنفسهم من حيث أن الله تعالى يجازيهم على حفظهم لأمتعة جارهم، ويحفظهم كذلك، ويرسل لهم ملائكة يحفظونه من سائر الآفات كما شاهدنا ذلك في منزلة بندر الأزلم[1]، فخرجت بجمالي وجعلت جمال جاري سيدي محمد الحنفي داخل جمالي، فرأيت تلك الليلة الملائكة وهي محيطة بجمالي تحفظها من السارق، وجاء شخص من العرب ليسرق من جوارنا فقطعت رأسه.

وهذا الخُلق قلَّ من يتخلق به من الفقراء، بل رأيت بعضهم يدفع جمال جاره إلى الوقوع في الوادي، ويحمي جمال نفسه ويزاحم جاره الداخل ليجعله خارجًا وجمال نفسه داخلاً، وربما تخاصما، وذلك مخالف لأخلاق الفقراء، فليحذر الفقير المتشبه بالفقراء من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يخففوا عن الجمال أثقالها سواء أكانت الجمال ملكًا لهم أم كانت عارية، وذلك بأن نجعل ركوة الماء التي يشرب منها ويعلقها في رجل الجمل نحو رطل أو رطلين من الماء، ولا يحمل في الأسقية من الماء إلا بقدر الحاجة الشرعية، وإذا أشرف على منهل الماء ورآه بالعين فمن المعروف أن يسقي ذلك الماء الذي في الأسقية للحيوانات أو يصبه في الأرض؛ تخفيفًا عن الجمال إن لم يجد من يشربه، ولا ينبغي أن يحمل الجمال فوق ما يحتاج من المنهل الأول إلى الثالث إذا ما كان منهل الثاني مالحًا، بل يخفف عن الجمال، ويشرب من المالح كما يفعله المترفهون، فيحملون ماء بحر النيل من مصر إلى العقبة أو من العقبة إلى بركة الحاج

(1) الأزلم والأزنم: يراد به ما يتعلق به من الحوادث بممره ومتصرفاته.

لأجل ملوحة ماء عجرود ونخل، وكان الأولى لهم أن يحملوا الجمال من الماء بقدر ما يكفيهم إلى الماء المالح فقط، ووالله إني كنت أطعم الجمل الذي كنت راكبه السكر والكعك، وأوثره على نفسي، وكنت أقبل رجله كلما أردت ركوبه أو النزول عنه، وأقول له: جزاك الله عني خيرًا في حملك لهذه الجثة القذرة، فإن الدواب تفهم ما يقال لها، ولكنها عاجزة عن النطق كما يعرف ذلك أهل الكشف، وكان لي قمقمة أشرب منها وأعلقها في قتب الجمل تسع نحو رطل من الماء فقط، وكان صاحب الجمل يقول لي: مع الأخ الإذن في تعليق القلص الذي يسع عشرة أرطال، فلا أطيعه فكنت أنا أشفق على الجمل من صاحبه، وكنت أرى أن الكرى الذي أعطيته له في الذهاب والإياب لا يجيء كرى جملي مرحلة واحدة، وكثيرًا ما كنت أقول له ذلك فيفرح ويصير يخدمني أشد الخدمة عكس من كان يقول له: يا أخي ما حملتنا بلا شيء، وإنما حملتنا بأجرتك وليس لك علينا جميلة، فإنه يقسى عليه أو يصير يخدمه كرهًا عليه.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا به تجنوا ثمرته، ولا تخالفوا تتعبوا وتندموا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يتفقدوا إخوانهم في بندر الأزلم والعقبة إذا وصلت إليهم هدية من مصر من جبن وعسل وفول وغير ذلك، فإن نفوس الإخوان الذين لم يرسل أحد إليهم شيئًا يستند إلى التطلع لمثل ذلك أكثر مما تتطلع إليه في الحضر، إذ الحلاوة أو البطيخ مثلاً مفقود في غالب طريق الحجاز، وهذا من محاسن الأخلاق فليتنبه الفقير له ولا يأكل الهدية وحده فيسقط من عين رعاية الإخوان والجيران، ومن شك فليجرب.

[وقد رأيت شخصًا من الفقراء أشرف على الموت من الجوع والعطش والتعب فجاء إلى شخص في محمل عظيم فقال: اسقني لله أو ركبني لله فقال: يفتح الله عليك، فقال: أعطني دينارًا أركب به فقال: ما معي شيء فصدقته لكونه مشهورًا بالدين، فرد الفقير وهو يقول في سبيل الله دورانك في هذه الجبال والله للقمة أو شربة ماء لفقير أرجح من طبل خاناتك، ولو أن هذا الراكب في المحمل كان عنده بصيرة لحسب حساب الفقراء والمساكين وأبقى لهم بقية نفقة وإلا ركب مقتبًا، فإن المحمل مشهورًا، ويقصد الناس الراكب فيه، فإن لم يقم بواجبه وإلا فليركب في شيء مستور، ثم إن راكب ذلك المحمل تخاصم مع زوجته تلك الليلة فسمعته يقول لها : لك معي سبعين بندقيًا قم يا فلان عدها من كيسي فتعجبت من رده ذلك السائل في وادي النار قبيل

الأزلم بمرحلة مما يلي الينبوع وقد بلغني أن ذلك الفقير مات تلك الليلة، فمثل هذا حجه إلى الإثم أقرب].

وقد شاهدت شخصًا يدفع جملي إلى المضيق قبل ذلك فلما أطعمته صار يقدم جملي في المضيق ويؤخر جمله هذا أمر شهدته أنا منه، فاعمل يا أخي بهذا الخلق تفلح، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا وصلوا إلى مكة المشرفة ألا يغفلوا عن الدعاء في مواطن الإجابة لأنفسهم وإخوانهم، وهم في تقديم نفوسهم وإخوانهم على مشهدين أو مشاهد، فتارة يقدمون نفوسهم في الدعاء إذا شهدوا أنهم أكثر خطايا من غيرهم، وتارة يؤخرونها إيثارًا لإخوانهم بقطع النظر عن كثرة خطايا الناس، وتارة يقدمون الغير على نفوسهم رجاء الإجابة ويؤخرون نفوسهم ليغفر لهم بحكم التبعية لهم، وتارة يستحيون من الله تعالى أن يتلفظوا بسؤال المغفرة لاستلزامها استحضار تلك الذنوب القذرة في تلك الحضرة الشريفة، وتارة يقولون: اللهم اغفر لجميع هذا الجمع، ولا تردهم من أجلنا، وتارة يقول أحدهم: اللهم إني قد دنست هذا الجمع بدخولي بينهم فاغفر لي حتى لا يتدنسوا بي صدقة من صدقاتك عليّ يا أرحم الراحمين، وكان هذا دعائي في أكثر طوافي بعد الأذكار الواردة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: كل من كان أكثر ذلاً في أيام الحج كان أكثر مغفرة، وربما شفعه الله تعالى تلك السنة في جميع أهل الموقف، انتهى.

قلت: وقد جمعني بعض العارفين في سنة ثلاث وستين وتسعمائة على الثلاثة الذين شفعهم الله تعالى تلك السنة في أهل الموقف، وكانوا زمناء[1] واحد منهم يمشي بعصاتين من تحت إبطه، والآخران يزحفان على الأرض، والثلاثة من أهل اليمين، وكسوت واحد منهم قميصًا فقبله مني ودعا لي الله تعالى، فانظر يا أخي كيف شفع الله تعالى هؤلاء الزمناء الثلاثة في أهل الموقف وفي المتكبرين، وأهل الدعاوي حين نزلوا بنفوسهم إلى العجز الشديد ﷺ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا على تحصيله، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) (الزمانة) مرض يدوم (الزمن) وصف من الزمانة ويقال: هو زمن الرغبة: ضعيفها فاترها (جمع) زمنى (الزمين) الزَّمِن (جمع) زمناه وزمنى وزمنة.

ومن أخلاقهم: إذا سافروا إلى الحج وحفظ الركب تلك السنة من قطاع الطريق ومن الغلاء وموت الجمال بدعائهم وتحويطهم للركب ألا يصغوا لقول بعض الناس: وكيف لا تكون هذه السنة مباركة وفيها سيدي الشيخ فلان؟ فمن صغى لمثل ذلك بال الشيطان في أذنه، وربما أدركه العجب والكبر فهلك مع الهالكين، فيكون على علم الإخوان أن الله تعالى يقيم كل سنة رجالاً عليهم درك الحج ذهابًا وإيابًا لا يكاد أحد يعرفهم، وأما الفقراء الظاهرون فربما كان أحدهم عبد بطنه وفرجه، ومثل ذلك لا يحفظ الله تعالى به الركب فإياكم والغلط، واعلموا أن من شرط الفقراء الصادقين أن يروا كل خير حصل للناس من الله تعالى لا بواسطتهم، ويروا كل بلاء نزل على الناس بواسطتهم.

ولو تأمل الفقير الصادق في هذا الزمان لوجد نفسه قد استحقت الخسف بها لولا عفو الله تعالى، فكيف يكون مثله سببًا لجلب خير إلى أحد من العباد؟! هذا ما درج عليه الخاصة من أولياء الله تعالى، فالحاذق من تبعهم على ذلك ولو تقليدًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الاعتناء بمن تغير عليهم من الأصحاب وجفاهم بعد المحبة والقرب منهم ويجعلون اللوم على أنفسهم في ذلك، ولا يقولون: إن فلانًا ليس له عندنا حق حتى يتغير علينا لأجله إنما ذلك حسد منه، فإن ذلك ليس من أخلاق الفقراء ومن سلك هذا المسلك كثر أعداؤه.

وقد كان ﷺ يتفقد من انقطع عن مجلسه من أصحابه، ويسأل عن سبب تخلفه، وكثيرًا ما كان يذهب إلى الرجل ويقول: **«يا أخي لعل أحدًا ابلغك شيئًا تكرهه»**[1] انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من شرط الكامل أن يقدر على سياسة الوجود كله والأخذ بخواطر جميع الناس، ولا يتساهل في قلة سياسة أحد منهم فتفوته هدايتهم وهو مطالب بهداية جميع العالم بحسب الإرث للمقام المحمدي.

قال بعضهم: ومما وقع لي أن بعض الأقران هجرني نحو سبعة عشر سنة، وأنا غير مكترث به، وأقول: ليس له عندي حق شرعي تصح له المطالبة به في الدنيا والآخرة.

---

(1) ذكره ابن قدامة في التوابين (ص12).

قال: ثم تأملت فإذا في قلبي له نوع من البغضاء والشحناء، وأردت أجعله كمن يحبني، ويوادني فما قدرت.

قال: فلو إني كنت سارعت لإزالة ما عنده مني أوائل الهجر لما تربى له في قلبي بغضاء ولا حقد قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:10]، والجميل هو الذي لا حقد فيه، فإياك يا أخي والتساهل في سياسة الناس فيتربى في باطنك الحقد، والعداوة، وغالط الناس الذين يؤذونك ويكرهونك، وإذا بلغك كراهة أحد منهم لك، فقل للناس: أنا ما رأيت من فلان إلا خيرًا، ويظهر لي منه المحبة فجزاه الله تعالى عني خيرًا، فإذا بلغه عنك ذلك ترك عداوتك، وأظهر المحبة، والسكوت عن ذكرك بالنقائص، ثم إذا سست من هجرك بغير حق، وتوقف الأمر على الذهاب إلى داره وتقبيل يده وأرجله فافعل، ولا تطلب منه أنه يذهب إليك أو يقبل يدك، فإنه في حجاب عن ذلك لما هو عليه من الرعونة وغلبة نفسه عليه.

فالله الله أيها الإخوان في العمل بهذا الخلق العظيم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إخلاص العمل لله ﷻ لا للثواب في الآخرة كما عليه أصحاب الهمم المنحطة عن همم الرجال، ثم إن قصرت هممهم عن العمل لله تعالى وعملوا لثواب الآخرة لا يكون مقصودهم بثواب الآخرة إلا مشاهدة الحق سبحانه ومجالسته في تلك الدار لا غير ذلك، ومتى كانت همتهم التمتع بالحور، والأكل والشرب، وطيب الروائح، فليس هم من فحول الرجال أصحاب الهمم؛ لقربهم من صفات النساء، وأصحاب الحجاب بمحبة الدنيا وشهواتها، وإن كانت الآخرة ليست بدار حجاب كان من طلبها لغير مشاهدة الحق تعالى فيها محجوب عن الله تعالى بذلك الغير.

وكان سيدي علي بن وفا ﷺ يقول: من طلب الجنة لهوى النفس وشهوتها من الشرب والجماع فهو امرأة، وأما من عمل لغير الله تعالى فعمله جاحد من أصله لا يصل إلى الدار الآخرة منه شيء ليثاب عليه أو يعطى منه أصحاب الحقوق التي للخلق عليه، بل يفنى بفناء الدار الدنيا.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول مرارًا: من عمل عملاً من الأعمال وأراد به صرف وجوه الناس إليه، والإصغاء إلى محمدتهم له عليه فعمله حابط يفنى تبعًا للدار التي عمل فيها عكس من عمل للدار الآخرة، فإن من لازمه البقاء والإخلاص والوصول إلى الدار الآخرة ليثاب عليه ويعطي منه أصحاب

الحقوق، انتهى.

فيا خسارة من عمل عملاً لغير وجه الله تعالى؛ لأنه إما يحبط عمله بالكلية، وإما ينقص ثوابه، فعلم أن كل عمل دخله الرياء، فليس هو من أعمال أهل الله تعالى ولا الدار الآخرة، وإنما ذلك من أعمال أبناء الدنيا الذين قصروا بصرهم عليها وحجبوا عن معاملة الله ﷻ والدار الآخرة.

وسمعت سيدي محمد المغربي الشاذلي ﷺ يقول: لا يصح للعبد الإخلاص في العمل إلا بعد زهده في نعيم الدارين، وهنا يعمل لوجه الله تعالى خالصًا، وهناك يصطفيه الله تعالى ويحبه؛ لأنه خرج من العلل، انتهى.

وبالجملة فالكامل من يقلب الأعمال الدنيوية عادة بالنية إلى العمل لوجه الله تعالى، ويعطي كل ذي حق حقه على الكشف والشهود، ولا يحجب بذلك عن الله تعالى كما أوضحناه في كتاب «العهود» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل معرفة الله تعالى المعرفة المعروفة بين القوم، وهو قدر زائد على المعرفة عند علماء الكلام، فإن المعرفة عند هؤلاء تتزلزل بالأدلة المتجددة لهم من الأنات، ولا هكذا معرفة العارفين بالله ﷻ فإن ما عرفوه به في دار الدنيا لا يتغير ولا يتبدل، فعين ما عرفوه به في الدنيا هو عين ما يكون لهم في الآخرة، فكما يكونون معه في الدنيا كذلك يكونون معه في الآخرة كل ذلك بحسب الإرث لرسول الله ﷺ، فإنه لما أُسْرِيَ به ورأى من آيات ربه الآية الكبرى لم يزدد علمًا عما كان عليه في الأرض، بل رأى عين ما كان يعرفه، وكذلك السيد موسى ﵇ قيل له: كيف رأيت ربك؟ قال: رأيت في التجلي ما كنت أراه قبل ذلك، فكنت أراه ولا أعلم أنه هو، فلما تجلى عليّ التجلي العام علمته في كل شيء، ومع كل شيء كالسلطان إذا خرج بين قومه متنكرًا ومشى بينهم فقد رأوه وما رأوه؛ لأنهم لم يعلموا أنه هو السلطان، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من علامة الكامل في المعرفة أنه يفهم مشكلات الكتاب والسنة، ويحل معضلاتها، ويفتح مغاليقها، ولا يحتاج إلى نظر في كلام أحد من العلماء، فمن ادعى كمال المعرفة وهو يجهل شيئًا من فروع الشريعة فهو مفترٍ كذاب في دعواه، وربما يبدو له آخر النهار دليلاً آخر خلاف ما كان عليه أول النهار فيحكم على نفسه بالخطأ في الاعتقاد الأول وقد قال تعالى: ﴿قُلْ

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 18] فلم يحكم بالبصيرة إلا لمن صح له قدم الاتباع، وكل من تزلزل بالأدلة فما هو على بصيرة من أمور ربه، فإن البصيرة لأهل الله تعالى، فالضروريات لأهل العقول، فافهم.

وأكثر من ذكر الله تعالى بشروطه على يد شيخ صادق حتى يرق حجابك، وتتكشف لك الحجب وإلا خيف عليك أن تموت على شك في الله تعالى نسأل الله العافية، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: فرحهم بالبلاء إذا نزل بهم، وحزنهم إذا نزل بالعامة؛ خوفًا عليهم من الوقوع في السخط على مقدورات الله ﷻ عليهم، وإنما كانوا يفرحون بالبلاء إذا نزل عليهم مسارعة إلى ما يكون به محبة الله ﷻ لهم عملاً بحديث: «**إذا أحب الله عبدًا ابتلاه**»[1] وإن وقع أن أحدًا من العارفين حزن إذا نزل عليه بلاء فإنما ذلك خوفًا أن يقع منه ضجر أو سخط حين تتخلف عنه عناية الله ﷻ كما يقع للعامة.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: ما ثم ولي حق له قدم الولاية إلا بعد وقوع الابتلاء والامتحان.

فلا بدّ للولي من بلاء في جسده أو في ماله أو أولاده أو أصحابه أو في عرضه، فإذا صبر ورَضِيَ فيه نقله الله تعالى إلى مقام المحبوبين، ورجع عن أن ينزل بهم البلاء إذ العبد يبتلي من حيث كونه محبًا، وينعم من حيث كونه محبوبًا كما أنه لا بدّ له من التألم بالبلاء، ثم التنعم به ليحوز الرضا كما هو شأن كمل العبيد.

وقد كان من سرة الشيخ أبي الحسن الشاذلي إلى ركبته سبعة عشر مرضًا منها الفتاق، وحصر البول، والحصاه، والباسور، والناصور، والقولنج، وكان إذا داوى مرضًا بشيء تحرك منه المرض الآخر واشتد ألمه، وكان يقول: الحمد لله على ذلك فإن فيه عدم الغفلة عن الله ﷻ وبيان عجز العبد وافتقاره إلى ربه، ولولا المرض لكنا كالبهائم السـاذجة.

وقد قال ﷺ يومًا لأصحابه: «**أيكم يحب الا يمرض؟**» فقالوا: يا رسول الله كلنا نحب ذلك، فقال ﷺ: «**أتحبون ان تكونوا كالحمر؟**»[2] انتهى.

---

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (145/7)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (80/1).

(2) رواه الروياني في «المسند» (512/2)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (260/2).

وكان الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: ما من ولي حق له قدم الولاية المحمدية إلا بعد أن ابتلاه الله في جسمه، وضنَّك في معيشته، ثم بأن يرضوا بالبلاء وضيق المعيشة إلا حبًا لله ﷻ، ومتى لم يزدد محبة بذلك فقد عزل عن الولاية، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا على تحصيله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إرشاد الناس إلى طريق التصبر والصبر، فإن لم يتصبروا ولم يصبروا، وأرادوا دفع البلاء عنهم فليأمرهم بأن يرسلوا مناديًا ينادي في الناس: معاشر الناس إن أردتم ألا ينزل عليكم بلاء، فتوبوا إلى الله تعالى عن كل معصية ظاهرة أو باطنة، والبلاء يرتفع عنكم لاسيما البلايا النازلة على أهل النصف الثاني من القرن العاشر، فإنها تترادف جدًا على الناس، ولا يهتدي غالبهم لسد الباب الذي وصل منه تلك البلايا.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: من أراد رفع البلاء عن أهل زمانه، فليناد فيهم: أن توبوا إلى الله تعالى ولا تتعدوا حدوده، فإنهم إذا فعلوا ذلك ارتفع البلاء ضرورة قال الله تعالى:﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال: 33] وأما طلب رفع البلاء مع تمادي الخلق في الذنوب والخطايا فإن ذلك لا يحدث رفعه على يد ولي، ولو كان القطب نفسه وكان ذلك كإتيان الأمور من غير أبوابها، انتهى.

فإن من يذنب ومع ذلك يطلب رفع البلاء عنه كمن زرع شوكًا ويريد أن يثمر له رطبًا، أو كمن يزرع الحنظل ويريد أن يثمر له عسلاً، وفي ذلك طلب قلب الحكمة الإلهية أيضًا وهو محال.

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي - رحمه الله - يقول: كيف يقدر ولي في هذا الزمان على رفع البلاء عن الناس، وهو يرى كثرة المنكرات، وتعدى حدود الله تعالى في زمان، وصار فيه الإسلام غريبًا، وذهبت فيه الأخيار، وغلبت فيه الأشرار، وصار المؤمن فيه كالشاة الضعيفة، وقد تقادم عصر النبوة واقتربت الساعة، وقد قال أرباب البصائر لا ينقضي عصر إلا وينقضي إيمان أهل العصر الذي بعده ويقينهم وورعهم وزهدهم وخوفهم من الله تعالى وخشيتهم منه بحكم الوعد السابق من رسول الله ﷺ في نحو قوله: «**لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس**»[1] فكيف يصح من ولي

---

(1) رواه مسلم في «الصحيح» (2268/4)، وابن حبان (264/15).

معارضة الشارع باطنًا؟ فيما أخبر وإنما ينهى الناس باللسان قيامًا بحق الشريعة مع علمه بالأمر عليه.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله عليه - يقول: ما ضل من ضل من أهل زماننا إلا بدعواهم العلم والصلاح بغير حق، فعاقبهم الله تعالى بالجهل وحرمان الوصول إلى شيء من مقامات الصادقين عقوبة لهم،وصارت أفعالهم تكذب دعاويهم، فيتكلم أحدهم في الورع، وهو يأكل الحرام ويتكلم في الزهد، وهو يجمع الحطام، ويتكلم في قيام الليل، وهو ينام، ولو أنه عكس الأمر، ولم يدع شيئًا من المقامات لربما ستره الله تعالى، ولم ينكشف عيبه للناس.

وسمعته مرة أخرى يقول: من علامة الولي كثرة ذكر الله تعالى بالغداة والعشي وخفة مؤقتة على الناس، وشهود ثقل مؤنته هو عليهم، وحفظه حدود الله تعالى، والإخلاص في العمل، وعدم رؤيته به عن الناس أو شهود أن له مقامًا عند الله العظيم لعلمه بأن الله تعالى غني عن عبادة الأنبياء والصالحين المخلصين فكيف لا يكون غنيًا عن عباده المخلصين؟! انتهى.

وسمعته أيضًا يقول: لا يصدنكم عن الولي إنكار بعض الناس عليه، فذلك حال الأولياء في كل زمان غيرة مِنْ مَنِّ الحق تعالى عليهم أن يلحقهم عجب من تواضع الناس لهم واعتقدوهم، فيكون الإنكار عليهم كالمدح في حقهم، وما بعث الله تعالى نبيًا إلا وجعل له عدوًا من الجن والإنس يبعد أتباعه عنه ويكرههم فيه، ويصد الناس عنه.

وكذلك ما أظهر الله وليًا بحجته في عصر من الأعصار إلا وجعل له منافقًا يكذبه فيما يدعيه، ويؤذيه بغير حق.

وكذلك الحكم في آحاد المؤمنين المتقين لا بدّ لأحدهم من مؤمن آخر يحسده وينقصه بين الناس ابتلاء له كما سبق في علم الله تعالى فاعلموا ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تجوعهم أوائل دخولهم الطريق مع وجود الطعام مجاهدة لنفوسهم، ثم جوعهم حال كمالهم إذا فقدوا الطعام، فلا يجوعون مع وجود الطعام أبدًا؛ لأنهم مطالبون بإعطاء كل ذي حق حقه من جوارحهم، ويؤاخذون على ظلمهم لنفوسهم في مرضاة الله تعالى عكس ما كانوا عليه في بداية أمرهم، ومن هنا قالوا: جوع الأكابر اضطرار لا اختيار بخلافهم في بدايتهم يجوعون اختيارًا مع وجود الطعام

تعذيبًا لنفوسهم لتنقاد لهم إذا دعوها لمرضاة الله ﷻ؛ لأنها قبل الرياضة تشبه الدابة الحرون أو العجل الذي يعلمونه الطحين في الطاحون فتراهم يجوعونه، ويغمون عينيه بخرقة ويدورونه بالضرب في الطاحون أو غيرهما على الفارغ فلا يزال كذلك حتى يظهر لهم منه كمال الانقياد فهناك يطعمونه، ويفكون الغماء عن عينيه، ويدورونه على الطحين، ثم يصبرون عليه مدة وهو يدس القمح ونثره يمينًا وشمالاً حتى يطمئن.

وقد قالوا في «المثل السائر» لمن لا إخلاص له: يا هذا إن عملك كطحين العجول لا بركة ولا زكاة ولا نعومة، انتهى.

وقد ورد أنا لله تعالى لما خلق النفس أوقفها بين يديه وقال لها: من أنا؟ فقالت له: من أنا؟ فغمسها في بحر الجوع خمسة آلاف سنة، ثم قال لها: من أنا؟ فقالت: أنت الله الذي لا إله إلا هو، وفي بعض الكتب: أبى الله ﷻ أن يعطي الفهم في كتابه لمن شبع من الطعام أو أعطى النفس حظًا، انتهى.

فليس للنفس في بداية أمرها شيء أسرع لانقيادها من الجوع أبدًا؛ لأنه يذل الملوك فكيف بالنفس وعن طريقه أعرف المراتب الكمل من الناقصين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عملهم على مناجاة ربهم في كل وقت وحين، فالله ﷻ أقرب إلى الشخص من جاره وأخيه وصديقه، فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وحينئذ يعطي الحق تعالى والخلق كلهم حقهم من الحياء، والأدب، والإيثار، والصدق، والتواضع، وغير ذلك عكس من غلظ حجابه وكشف طبعه، فتراه يقل أدبه وحياؤه مع الحق تعالى ومع الخلق ويؤثر حظ نفسه على جناب الحق تعالى وعلى أخيه المسلم ويكذب عليه ويراعي للخلق غفلة عن الله ﷻ ولو أنه عمل على رقة الحجاب لانقلبت صفاته السيئة حسنة، وكان يجد الحق تعالى أقرب إليه من الخلق فكان يراعي له ويثاب على ذلك؛ لأنه امتثل أمر الشارع في حديث: «**أروا الله من أنفسكم خيراً**»[1]، انتهى.

وصاحب هذا المشهد يناجي الحق تعالى في هياكل الخلق من حيث أن سره تعالى هو القائم بهم، ولولا إمداده لهم بالقوة والبقاء لاضمحلوا في لمح البصر.

---

(1) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (142/3)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (60/2).

وقد كان سهل بن عبد الله التستري - رحمه الله - يقول: لي منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالى، والناس يظنون أني أكلمهم، فاعمل يا أخي بهذا الخلق تفز بخير الدارين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يأكلوا من هدايا الفلاحين الزراعين في طين تحت نظرهم إذا قدموا من سفر الحجاز مثلاً؛ لأن هدايا الفلاحين المذكورين من هدايا العمال فهي حرام، ولو طابت بها نفس المهدي بدليل أن أحدهم لو عزل من النظر على ذلك الوقف لم يهد أحد من أولئك الفلاحين إليه شيئًا، وقد قال بعض العمال: يا رسول الله إن بعض الناس يهدي إلينا شيئًا بطيبة نفس أفنأكل منه؟ فقال ﷺ: لا، فقال: يا رسول الله إن نفسه بذلك طيبة، فقال ﷺ: «**إن ذلك غلول**» فردّد عليه الكلام ثالثًا، فقال ﷺ: «**هلا جلس أحدكم في بيته بلا عمالة لينظر من يهدي إليه**» فرجع ذلك الصحابي، وقال: استغفر لي يا رسول الله، فقال ﷺ: «**غفر الله لك**»[1] انتهى.

وقد أوضحنا الكلام على مثل ذلك في خلق شياخة الأوقاف، فإن قال لنا ناظر: أن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية قلنا له: كان يقبلها، وكان يكافئ عليها فكافئ يا أخي على الهدية، ثم خذها إن شئت.

فحافظ يا أخي على هذا الخلق، فإنه خلق غريب لا أظن أحدًا تخلق به في هذا الزمان إلا الكامل من الرجال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل الصفا وزوال الجفاء حتى لا يصير أحدهم يكره أحدًا من خلق الله تعالى بحظ نفس، بل يذهب الحقد والشحناء من العبد جملة واحدة ما عدا الجزء البشري، وهناك يكتفي أحدهم بالاجتماع القلبي بأخيه، فربما لم يجتمع أحدهم بأخيه بالجسم السنة وأكثر، وربما مرق تحت زاويته، ولا يطلع له فيظن بعضهم أن بينهما عداوة فيقع في حقهما، والحال أنهما متحابان وروح أحدهما ملتفة بالأخرى، وربما زار أحدهما أخاه في الأسحار، وربما اكتفى أحدهم في زيارة أخيه كلما اجتمع هو وإياه في حضرة الله تعالى في الصلوات الخمس وغيرها، فإياك والمبادرة إلى الطعن في فقراء عصرك إذا لم تر أحدهم بالآخر ظاهرًا للناس فتقع في الإثم، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) ذكر الهيثمي في «مجمع الزوائد»: عن أبي حميد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «هدايا العمال غلول» وعزاه للطبراني من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين وهي كمال (249/5).

ومن اخلاقهم: أن يفرحوا إذا ولد لهم مولود من حيث كونهم رحمة من الله تعالى عليهم، لكن ينبغي أن كما يفرحوا به كذلك يحزنوا من حيث كونه فتنة، ويكون حزنهم أشد[1]؛ وذلك لأن عصيان الولد أكثر من طاعته لله تعالى عادة، وقد حذرنا الله تعالى من فتنة الأولاد في عدة آيات، وكذلك الشارع ﷺ في عدة أحاديث نحو حديث: **«الولد مبخلة مجبنة»**[2].

ومن فتنته أيضًا الميل إليه بالطبع دون تحبيب الله تعالى له فيه، ومما يحزن الوالد العاقل أيضًا وجوب مراعاة الولد ليمشي على الصراط المستقيم، ثم الأخذ بيده في أهوال يوم القيامة حتى يجاوز الصراط كما يلاحظ الشيخ المريد، وكذلك إلى دخول الجنة، بل الولد بذلك أولى، وكما يلاحظ الأمير أو القاضي نائبه إذا ولاه نائبًا عنه حتى لا يزيغ عن الشريعة فيلاحظ في أهوال يوم القيامة إلى أن يجاوز الصراط؛ وذلك لأن جميع ما يقع من الفرع أصله من الأصل، فهو ممتد منه ومعدود من جملة كسبه حتى كان بعضهم يقول: الولد حسنة من حسنات والده أو سيئة من سيئاته، انتهى.

فمن فهم ما ذكرناه هرب من الأولاد، ومن تولية أحد من النواب، ومن أخذ العهد على مريد، وحزن لذلك لما في ذلك من شدة التعب، ومن فعل ما ذكرناه وقال: ليس عليّ من وزرهم شيء فخرج عن طريق أهل المروآت، وقد جاءني قاض يطلب نيابة عند قاضي الخانقاه فأبيت أن أكاتب القاضي عليه فساق عليّ وجوه الناس، فكتبت

---

(1) قال الشيخ المصنف في «الكوكب الشاهق»: ومن أخلاقهم: كثرة محبتهم لكل من بالغ في إيذائهم من حيث أنه كان سببًا لحصول الثواب العظيم لهم، وإذا مات حزنوا عليه أكثر من حزنهم على ولدهم وزوجهم وذهاب مالهم؛ لأن الزوجة والولد والمال قلَّ أن يحصل للإنسان من جهتهم ثواب، بل هم إلى الفتنة أقرب.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: من كان له عدو يؤذيه فليفرح به، وليحسن إليه، فإنه أنفع من أصدقاء هذا الزمان الذين يمدحونه ويغشونه ويداهنونه، وكان إذا مات لهم عدو يحزن عليه أشد الحزن ويقول: لا إله إلا الله، مات من كان يحصل لنا بسببه الخير، رضا الله ﷻ ورضا لرسوله ﷺ، فقلت له مرةً: كيف ذلك؟ فقال: كان يؤذينا فنحتمله، ونكرمه من حيث أنه عبد الله، ومن حيث أنه من أمة محمد ﷺ، فيحصل لنا الرضا من الله ورسوله إذا اطّلع على قلوبنا، إننا ما احتملناه وأكرمناه إلا لأجل كونه عبده أو من أمة نبيه. فاعرض يا أخي هذا الخلق على المريدين من أهل عصرك تعرف صدقهم أو كذبهم، ولا تنسَ نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(2) رواه ابن ماجه في «السنن» (1209/2)، والبيهقي في «الكبرى» (202/10).

للقاضي كتابًا من جملته إن كان مولانا يعرف من نفسه القدرة يأخذ بيده في الدنيا والآخرة إذا زاغ عن الشريعة أو تحمل عنه أوزاره، وإلا فالأمر راجع إلى الله، ثم إلى مولانا، وقلت له: لا تفتح الكتاب، فخالف وقرأ ما فيه، وجاء به لي بعض فقراء الزاوية، وقال له: قل لعبد الوهاب: ما لفلان خلاص بهذا الكتاب، انتهى. ولعمري أن فيه خلاصه ولكن لا يشعر.

فهذا كان شأن الأولياء والأمراء والقضاة الذين مضوا كانوا لا يتولون على أحد أو يولونه إلا إن رأوا طريق الخلاص لهم وله في ذلك ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل مقام الحضور مع الله تعالى في كل عبادة حتى لا يكون عند أحدهم ترجيح للاشتغال بعبادة دون أخرى، بل كل عبادة يفعلونها يدخلون بها حضرة الله تعالى، ومن تحقق بهذا المقام تساوى عنده الاشتغال بالعلم والذكر وتلاوة القرآن، والاشتغال بقراءة النحو والمنطق على حد سواء؛ لأن صاحب هذا المقام يشهد الحق تعالى غير متحيز في جهة ذاتًا وصفة، ويعلم أنه بين يدي الله تعالى في كل مكان، وعند كل فعل أو قول أو خاطر، بخلاف من لم يتحقق بهذا المقام، فإنه يلحقه ضيق وحصر في قراءة علم النحو مثلاً لاسيما إن كان ذلك عقب مجلس ذكر حصل فيه حضور وسكر، فليسع صاحب هذا الحال وجوبًا في الترقي إلى التحقق بالمقام حتى يصير يحضر مع الله تعالى في كل شيء قرأه من علوم الشريعة وآلاتها وتوابعها فإنها كلها مطلوبة شرعًا.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ يدرس في علوم الشريعة من فقه، وحديث، وأصول، ونحو، ومعانٍ، والقراءات السبع، وهو قطب الوجود إلى يوم وفاته ﷺ، وتبعه على ذلك الكُمّل من أهل الطريق.

فإن من شرط الشيخ أن يكفي تلامذته في كل علم قرؤوا عليه فيه ولو صاروا من مشايخ الإسلام، وأما من يقول لمريده: اقرأ على غيري مالي فراغ إلى الاشتغال بما تقرؤه عليَّ فهو ناقص لا يصلح للتعبد، فاعلم ذلك واعمل على تحصيله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يتوقفوا أن يجيبوا أحدًا إلى خِطبة كريمتهم إلا بعد أن أطلعهم الله أن الله تعالى قد قسم تزويجها لذلك الخاطب، فإن لم يطلعهم الله تعالى على ذلك توقفوا في إجابتهم للخاطب حتى تحتاج كريمتهم إلى التزويج بالطريق الشرعي كل ذلك خوفًا منهم أن يخطبها أحد، ولم تقسم له ثم يخطبها آخر فتقسم له،

فتحكم الشريعة بالإثم على من خطب ثانيًا، وعلى من زوج بعد خطبة الأول، وهذا الأمر يقع كثيرًا من بعض الناس والأخذ بالاحتياط في الدين أولى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة حذرهم من سحر الدنيا لقلوبهم كما يحذرون من ضرر سحر من جربوا صحة سحره بل أشد؛ لأن غاية سحر الساحر أن يفرق بين الإنسان وأشكاله بخلاف سحر الدنيا للقلوب، فإنها تفرق بين العبد وبين شهود ربه.

وقد قال الفضيل بن عياض لسفيان الثوري: يا سفيان إياك أن تميل إلى الدنيا، فإنها تميل تسحر قلوب العلماء، وانظر يا سفيان إلى النسر عزيز في مطاره لا يصل إليه أكبر ملوك الدنيا، فإذا أراد الله أن يذله نصب الناس له ذمة في الأرض من لحم الميتة، فانقض إليها في جو السماء، فيصل إليه أصغر الأطفال ويقبض عليه، وينتف ريشه وتصير الأطفال يلعبون به لا يقدر على الطيران إلى المحل الذي كان فيه، ولا يقدر يمنع نفسه منهم بالعدو، فكذلك حكم العالم إذا مال بقلبه إلى الدنيا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:44].

وهذا الخلق صار غالب الناس لا يقدر على التخلق به، وربما فعل للدنيا كل مرصد، وجمع من المال ما لا حاجة له به، ثم يبسط في مأكله وملبسه، وإذا لامه إنسان على ذلك قال: إنما فعلت ذلك إظهارًا لنعمة الله تعالى، وينسي أن ذلك المال حرام من حيث النصب على الناس؛ لأنه لو كان حلالاً من أصله فهو حرام من جهة إظهاره النسك والعبادة والزهد حتى أعطوه له، ولو أنه كتم عباداته لربما كان الناس لا يعطونه شيئًا من ذلك.

وقد كان الفضيل بن عياض ﷺ يقول: لأن آكل الدنيا بالطبل والمزمار أحب إلي من أن آكلها بديني، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة تواضعهم لأقرانهم بطريقة الشرع، فلا يبالغ أحدهم في التواضع لهم، ويرفعهم إلى مقام ليس هو لهم فيفترون بذلك ويترفعون عليه ويضر نفسه، بل يحتاط في تواضعه غاية الاحتياط لاسيما إذا نالهم شيء من الإعجاب والكبر بسبب ذلك كما هو الغالب على بعض فقراء هذا الزمان فإنه يهلكه.

وقد دخلت مرة عليَّ نية زيارة شيخ منهم، فدخل عليه أمير كان يزورني ويعتقدني غاية الاعتقاد، فقلت في نفسي: أقبل رجل هذا الشيخ؛ لأقوى اعتقاد الأمير

فيه فقبلتها فسقطت من عين ذلك الأمير من ذلك الوقت، وانقطع عن زيارتي، وصار يرد شفاعاتي، فلا ذلك الشيخ قام مقامي في الشفاعة عنده، ولا أنا دامت لي شفاعة فكان عدم تقبيلي رجله أولى، لما ترتب على ذلك من فوات زوال تلك المظالم وتفريج الكروب، ولا ينبغي لأمثالنا أن يتشبه بأرباب الأحوال الذين يقبلون نعال أقرانهم، وحرمتهم وتعظيمهم باقٍ في القلوب؛ لضعف مثلنا عن حفظ حرمتنا في القلوب إذا قبل رجل أحد من أقرانهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا كثرت تبعات الخلائق عليهم يقينًا أو شكوا في ذلك أن يتوجهوا إلى الله تعالى في تمكين أصحاب الحقوق منهم في الدنيا ليصلوا إلى نظير حقوقهم في المال والعرض، أما المال فبالمسامحة لهم أو الغضب أو السرقة كما هو مقرر في مسألة الظفر، وأما العرض فبتسليط صاحب الحق أو غيره عليهم فيقطع في أعراضهم في المجالس.

ومن علامة صدقهم ألا يقتص لهم أحد، ولا يرد عن عرضهم، وأن يتكدروا ممن يرد عليهم؛ لأن من رد عنهم كأنه يقول: دعوا التبعات عليهم من غير وفاء، أو من غير مقابلة إلى يوم القيامة حتى يصلوا إلى محل تشح فيه النفوس على والديها وولدها وتعز أصحابها، وهذا يقع فيه بعض من لا قدم له في كمال الإيمان بيوم الحساب، وربما يفرح أحدهم بمن يرد عنه، ويجد لذلك راحة.

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: كل من لم ينشرح صدره بكلام الأعداء فيه، ويحصل له السرور الكامل بذلك فهو ناقص الإيمان، والواجب عليه العمل على تحصيل مقام كمال الإيمان بأهوال يوم القيامة حتى يشاهدها رأي عين، فإن الدين كله مبني على كمال الإيمان فإن دخل إيمان العبد ضعف أن ثلمه [1] دخل له الشك في أحوال يوم القيامة.

وقد كان السلف الصالح يتهمون أنفسهم في كمال إيمانهم، وينفون عن أنفسهم الإيمان الكامل لهم حتى كان الحسن البصري ﷺ يقول لمن قال عنه: إن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب: «صدقت لا تكفر عن يمينك» انتهى.

---

(1) الثُّلْمَةُ: الخلل في الحائط وغيره، وقد ثَلَمَهُ من باب ضرب فانْثَلَمَ وتَثَلَّم، وثَلَّمهُ أيضًا مشددًا للكثرة، وفي السيف ثُلَمٌ، وفي الإناء ثلم إذا انكسر من شفة شيء، وثَلِمَ الشيء من باب طرب فهو أَثْلَمُ.

وأحسن ما قالوا في كمال الإيمان: أن يكون الغائب عنده كالشاهد على حد سواء من غير فرق في جزاء المأمورات والمنهيات حتى لا يتخلف عن مأمور، ولا يقع في محظور إلا من حيث عدم القسمة، فهو يود أن ذلك يقسم له حتى يفعله، ومثل هذا يرجى بخلاف من ترك ذلك لعدم الداعية الإيمانية.

وسمعت سيدي محمد المنير - رحمه الله - يقول: من تهاون بهدم مقدار لبنة واحدة من بناء إيمانه تبعها لبنة بعد لبنة حتى يتهدم إيمانه كله ولو على طول.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واصبروا على من يؤذيكم إن لم تنشرحوا لذلك، ولا تقابلوه قط بنظير فعله تصيروا مثله في البذاءة والفحش، فإن من يؤذيكم لا يخلو إما أن يكون له حق عليكم فيستوفيه منكم، أو لا حق له فيكفر عنكم من سيئاتكم، ويعطيكم حسناته يوم القيامة، وما تكدر من كلام قيل فيه إلا جاهل أحمق قليل الإيمان بيوم الجزاء، فإياكم ثم إياكم، والحمد لله رب العالمين[1].

ومن أخلاقهم: إذا طلب أحد من العلماء أن ينظر في رسائلهم ألا يجيبوه إلى ذلك حتى يتوجهوا إلى الله تعالى بأن يزيل ما في قلب ذلك العالم من الحسد والكبر والدعاوي والعجب، فإن من أعطى فقيهًا من أقرانه شيئًا من كلام القوم عرضه للمقت إلا أن يثق برياضة نفسه بالمجاهدة أو بالفطرة، فإن من لازم أصحاب الرعونات عدم الانتفاع بكلام أحد من أهل الطريق لما عندهم من الكبر، ومن شك من الفقراء في ذلك فليأمر الفقيه الذي طلب أن يطالع في رسالته مثلاً أن يتصدق بعمامته، أو ينزل لفقير عن وظيفته، فإن أجابه بانشراح صدر إلى ذلك فهو ينتفع بكلامه.

فإن آداب الفقراء كلها ترجع إلى الزهد في الدنيا، ومخالفة هوى النفس، فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تعطوا رسالة شيخكم بعد موته لأحد من أصحاب الدعاوي إلا بعد الامتحان، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على زوال الظن من قلب أحدهم وذلك إذا لاحظ الشر فيه، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن أدنى المؤمنين من خلط في أعماله فعمل

---

(1) قال المصنف: فعلم أن كل من تكدر من كلام الناس فهو لا يشم رائحة لأهل الطريق، فضلاً عن كونه يقع في أعراض من اغتابوه. وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول إذا مات له عدو يحزن عليه، ويدعو له بالمغفرة والرحمة، ويقول: لا إله إلا الله، مات من كان يحصل لنا على يديه الخير من حيث حملنا الأذى منه، وإن لم يقصد هو ذلك. فاعرض يا أخي هذا الخلق على مريدي عصرك تعرف حالهم، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

صالحًا تارة وعمل سوءًا تارة أخرى.

وقد رأيت في كلام بعض العلماء أن مذهب أهل السنة والجماعة أن من يجتمع فيه الخير والشر في وقت واحد، فيكون وليًا لله تعالى من وجه كما أنه عدو لله تعالى من وجه آخر.

قال: وهذا هو الحق الواضح الذي شواهده كثيرة من الكتاب والسنة بخلاف من قال بالإحباط، وكفر المؤمنين بالمعاصي والذنوب كما فعلت الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: الإنسان جامع لصفات الملائكة، وصفات الشياطين، وصفات البهائم، وصفات الجمادات، فإذا كان في أعمال خالصة فهو في حضرة الملائكة، وإذا كان في أعمال طالحة فهو في حضرة الشياطين، وإذا كان غافلاً في أعمال الدنيا فهو في حضرة البهائم، وإذا كان فارغًا من أعمال الدارين فهو في حضرة الجمادات، انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي واعمل على تحصيل أعمال الملائكة فقط، أو صفة الجمادات فقط من حيث ترك التدبير مع الله تعالى والتسليم له، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل مقام الصبر والتقوى معًا، ولا يقنعون بحصول أحدهما دون الآخر؛ وذلك لأن الله تعالى جمعهما في القرآن في آيات كثيرة نحو قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران:125] ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران:120] ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186]، وقال السيد يوسف ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف:90].

فالتقوى والصبر ملاك الأمر كله؛ لأن الصابر إذا لم يلزم طريق التقوى فقد يكون حاله مثل حال كثير من جهال أهل الجبال والقوى الذين يصبرون على المصائب والعقوبات، ويسلخ الوالي جلد أحدهم في غير طاعة الله تعالى، فلا يقول آه إظهارًا للشجاعة والتجلد والتفاخر لا رضى بقضاء الله تعالى، ونظير هؤلاء في الصبر المذكور الرهبان وعباد أهل المال كالخوارج الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «**يحقر أحدكم**

صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم أو قال فقاتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة، لئن أدركتهم لاقتلنهم قتل عاد وثمود»[1] فقتلهم الإمام علي بن أبي طالب ﷺ بأمر رسول الله ﷺ وكانوا أربعة آلاف في غداة واحدة.

فعلم أن الصبر إذا وجد بلا تقوى كان حال صاحبه كحال هؤلاء الخوارج والرهبان، وأما التقوى بلا صبر فتوجد كثيرًا في ضعاف الناس كالذي له صبر على العلم، وليس له صبر على العمل به مع أنه لا يستقيم أحدهما إلا بالآخر، فاعلم يا أخي ذلك واعمل على تحصيله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة التباعد عن الوقوع في مظالم العباد مطلقًا، فإن للمظالم ثلاثة دواوين:

ديوانٌ لا يغفره الله تعالى وهو الشرك، ثم هو قد يرجع إلى ظلم النفس التي هو من جملة العباد.

وديوانٌ لا يتركه الله تعالى وهو مظالم العباد من مال وعرض.

وديوانٌ لا يعبأ الحق به شيئًا وهو ظلم العبد لنفسه بارتكاب المعاصي دون الشرك بالله تعالى الذي يغفره الله تعالى بالتوبة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: مظالم العباد ثلاثة: قسم يتعلق بالنفوس، وقسم يتعلق بالأموال، وقسم يتعلق بالأعراض.

فأما النفوس فلها أحكام عديدة في مثل: قتل العمد والخطأ، ووجوب العقود والدية والكفارة وغير ذلك مما هو مذكور في كتب الفقه.

وأما الأموال: فإنه لا بدّ من ردها إلى المظلوم، أو وارثه وإن تعذر ذلك لم يبق غير التصدق بها عن صاحبها على مذهب من يرى ذلك، فإن عجز عن رد المظالم فليستكثر من الحسنات التي يوفي منها الغرماء عند الميزان، وإلا فليتأهب لتحمل أثقال المظلوم وأوزاره يوم القيامة كما ورد في الصحيح: **«إن من كانت له حسنات أخذ**

---

(1) ذكره الشيخ الكتاني في «نظم المتناثر» (ص32) ورواه أحمد 224/3(13371)، وأبو داود (4765)، بنحوه.

من حسناته وأعطي المظلوم، ومن لم يكن له حسنات طرح عليه من سيئات المظلوم، وكتب له كتاب إلى النار»[1].

وأما الأعراض: فقد ذكر بعض محققي الأئمة فيها تفصيلاً حسنًا لعله أحوط الوجوه في هذا الباب وهو أن تلك المظلمة وإن كانت غيبة أو نميمة أو نحوهما فلا يخلو الأمر من حالين إما أن يكون قد بلغت المظلوم أو لم تبلغه، فإن تكن قد بلغت فإن الطريق هو التحلل منها، وإن لم تبلغه كان تبليغها له إذا جد جديد ويؤدي إلى الخصام وانقطاع المودة ونحو ذلك ما هو أصعب من تلك المظلمة، فالطريق في ذلك كثرة الاستغفار له دون تبليغه، وطلب التحلل منه.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن من الذنوب ما يشتبه أمره على صاحبه من جهة كونه من مظالم النفس ومظالم العباد كالزنا والتلُّوط مثلاً، فإن الأمر في ذلك يحتاج إلى تفصيل؛ ليظهر بواسطته وجه الصواب، وهو أن يقال: إن كان المفعول به مبذولاً كانت تلك المعصية من مظالم النفس، وإن كان الفاعل قد راوده وعاوده واستنزله كان ذلك من مظالم العباد الصعبة؛ لأنه أذى تلك الصورة وقهرها وجرأها على المعصية، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، وأيضًا فإنه هتك عرضها وأذى أهلها وحملهم العار، وأوجب لهم الحرص على استيفاء الثار بقتله ولو بعد مدة طويلة مع ما في ذلك من تورث الأحقاد والضغائن في النفوس بسبب ذلك الفعل ولو بالإشاعة، وقد وقع في الوجود من أمثال ذلك مالا يحصى كثرة، وهو من أعظم المظالم المؤثرة في النفوس، فيجب إخراج فاعل ذلك من الحارة والمكان الذي هو مسكنه؛ خوفًا أن يقتله أهل ذلك المفعول به من امرأة أو غلام؛ لأن غالب الناس لا يملك نفسه أن يردها عن قتل من رآه يفسق في ولده أو كريمته أو زوجته، بل بعضهم قتل من يراه نزل داره فقط من غير فسق في أحد، بل ينبغي لصاحب تلك الفعلة أن يرحل هو حياء من أهل حارته ولا يرجع إليهم، فإن قلت: فهل يغفر الحج مظالم العباد؟ فالجواب: لا تغفر مظالم العباد بذلك، بل ولا يغفرها الجهاد الذي هو أعظم من الحج، وقد ثبت في الصحيح: أن رجلاً قال: يا رسول الله إن قاتلت في سبيل الله هل يغفر لي كل شيء؟ فقال له: «**إن قتلت في سبيل الله مقبلاً غير مدبر وأنت صابر محتسب غفر لك كل شيء**» ثم ذهب الرجل، ونزل الوحي فلما سرى عنه ﷺ قال: «**غفر لك**

---

(1) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (258/6) بنحوه.

كل شيء إلا الدين بهذا جاءني جبريل»[1].

وهذا يعلم به فضل الجهاد على جنس الحج قوله تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝ ﴾ [التوبة: 19 - 20] وقد تمسك طائفة من الناس في هذا الباب بحديث لم تثبت صحته عند الحفاظ.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: حقوق الله تعالى تغفر بالتوبة بحكم الوعد منه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:9].

وأما حقوق العباد فإن فيها حقًا للحق وحقًا للخلق، فالتوبة يغفر حق الحق منها ويبقى حق المظلوم إلى أن يُسْتَوْفَى أو يزول بطريقه الشرعي، انتهى.

وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: الوصول إلى مقامات اليقين التسعة واجبة على المكلفين إلا الرضا فإنه مستحب عند أكثر العلماء وليس بواجب، فقلت: وما هي التسعة؟

فقال: الصبر، والتوبة، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والرضا، والتوكل، والمحبة.

فقلت له: إن الرضا أفضل من الصبر، وأعلى وأشرف فكيف يكون الفاضل مستحبًا والمفضول واجبًا مع أن في الحديث الصحيح: **«ما تقرب إليَّ المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم»**[2].

فقال - رحمه الله تعالى - : إن الله خفف عن عوام هذه الأمة أمور منها الرضا فجعله مستحبًا؛ لعجز أكثر الناس من الخلق عن الوصول إلى مقامه إذ هو موهبة من الله تعالى يقذفه إلى قلب من يشاء من عباده، بخلاف الصبر فإنه يجب على النفوس التصبر، ثم الصبر مع الكراهة في مقامات الصبر الثلاثة:

---

(1) رواه أبو عوانة في «المسند» (469/4).

(2) رواه البخاري (2384/5 ، رقم 6137) وابن حبان (58/2 ، رقم 347)، والبيهقي (219/10، رقم 20769) ، وأبو نعيم في الحلية (4/1)، وذكره الآمدي في «الإحكام» (200/2).

وهو الصبر على الطاعات حتى تؤدى.

وعن المعاصي حتى تترك.

وعلى المصائب عند نزولها.

ثم إن النفس إذا اطمأنت فإن الحال يتغير عليها في ذلك حتى كان بعضهم يقول: مازلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي حتى صارت لتسوقني وهي تضحك، ومن هنا يتمكن العبد في مقام الرضا المشار إليه بحديث أنس بن مالك: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف يومًا قط، ولا قال لشيء لم أفعله: هلا فعلته، وكان إذا سمع بعض أهله يعاتبني يقول ﷺ: «ذروه ما قدر شيء لكان»[1] انتهى. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يشعرون أن لهم فضلاً مع أحدهم إذا أحسنوا إليه بأن يفعلوا الخير له ولا يطلبون عليه جزاء، وميزان التحقيق بذلك ألا يكون لهم إذلال على من أحسنوا إليه، ومتى كان عندهم إذلال عليه فإحسانهم معلول، وصاحب العمل المعلول لا حرمة له به عند الله تعالى؛ لإحباطه بتلك العلة، وربما رأى له بذلك منة على الفقير، فعطية الفقير بعزل أو مرض.

وقد وقع أن الشيخ عبد القادر المغازلي بنى لشيخ شيخنا زاوية، وعمل له فيها ضريحًا، ودفن الشيخ فيه، ثم إن ولده العزيز عنده مات، فدفنه بجنب الشيخ فما فرغ من دفنه حتى جاءت لمن ألحده لطمة غاب عقله منها، فأطلعوه من قبر الشيخ محمولاً، فبقي تسعة أشهر ضعيفًا يبول ويتغوط على نفسه حتى قذرته نفوس أهله، فرموه في محل المزابل، فأتاه الشيخ وقال: تب إلى الله تعالى إنك ما عدت تدخل أحدًا على فقير في القبر، وأنت تطيب من هذا المرض فتاب إلى الله تعالى وطاب من وقته، انتهى.

فينبغي لمن بنى لشيخ ضريحًا أن يوصي أهله بألا يدفنوه إذا مات إلا بعيدًا عنه مع استئذان الشيخ أيضًا، فيقولون له: دستور يا سيدي ندفن بجنبك فلانًا، فإنه يسمع في القبر، وقد أوصيت أنا أصحابي إذا أنا مت ألا يدفنوني بجانب قبر الشيخ نور الدين الشوني إلا بعد استئذانه، ولو كنت أنا الذي دفنته عندي ابتداء؛ لأني لم أرَ فضلاً عليه بذلك، بل الفضل له الذي أجاب للدفن عندي لما سألته في مرض موته، فاعلموا ذلك

(1) لم أقف عليه.

أيها الإخوان، واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تعظيم حرمات الله تعالى، والتباعد عن تعدي حدوده، ثم إن أحدهم إذا وقع في أصغر الذنوب عادة في رأي العين رأى ذلك الذنب من الكبائر بجامع المخالفة، والعلم بأن الله تعالى نهى عن ذلك، وقد يسامح الحق تعالى في الذنب الكبير، ويؤاخذ بالصغير عند فاعله كل ذلك إجلالاً لله تعالى، فلا يزال أحدهم كذلك حتى يرى الغفلة عن الله لحظة أشد عليه من كل بلاء، ويقع له من الخوف بسبب ذلك أشد من الخوف الواقع عليه من أكبر البلايا، وذلك من علامات الكمال في مقام الإجلال، وقد تخلقت بذلك ولله الحمد، ثم رجعت إلى الكمل من ذلك وهو تعظيم حدود الله تعالى على حسب ما وردت بحكم التبعية للشارع في ذلك، فأعظم الكبيرة على الصغيرة، والصغيرة على المكروه، والمكروه على خلاف الأولى، فإن العبد تابع ما هو مشروع، وما بيّن الشارع مراتب الحدود إلا ليعلمنا بتفاوتها؛ لتعظمها بحسب مراتبها، وكذلك القول في قسم المأمورات فنعظم فعل الواجب أكثر من المندوب، ونعظم المندوب أكثر من الأدب، ونندم على ترك كل واحد بحسب تأكيد الشارع عليه، فرجع حال السالك في حال نهايته إلى صورة بدايته.

والقصد مختلف من حيث تفاوت المأمورات والمنهيات في الدرجة، وكانت مساواة الأوامر والنواهي في التوسط للسالك من شدة تعظيمه لله تعالى، فاستعظم مأموراته ومنهياته جملة خوفًا من الله تعالى، وسدًا لباب المخالفة بقطع النظر عن مشاهدة حكمة تفاوتها كما ورد عن الشارع، وثم مقام رفيع ومقام أرفع، وعلى ما قررناه يحمل قول الجنيد: ما ثم عندي ذنبًا أعظم من الغفلة عن الله ﷻ، وأنه قال ذلك حال توسطه في الطريق، فإن الشرك وقتل النفس أعظم من الغفلة عن الله ﷻ كما قال المسيح ﵇ في حب الدنيا: «إنه رأس كل خطيئة»[1] انتهى.

أي: محبة شهواتها مع الغفلة عن الله ﷻ فإنه لولا شهوة القتل للنفس مع الغفلة عن الله تعالى ما قتل، ولولا شهوة الزنا ما زنى، ولولا شهوة شرب الخمر ما شرب وهكذا، فاعلم ذلك، وتقيد بالشريعة في كل فعل وترك واعتقاد، والحمد لله رب العالمين.

(1) رواه البيهقي في الشعب (338/7).

الباب الثامن

في جملة أخرى من الأخلاق

ومن أخلاقهم: عدم حكايتهم للناس أعمالهم الصالحة التي وقعت منهم في أزمان مضت ولم يشعر بها أحد إلا لغرض شرعي، فإن حكايتها بغير غرض شرعي تردها إلى صورة الرياء بها حال عملها وهذا من دسائس إبليس على المتعبدين الذين لم يسلكوا على يد شيخ، فيعملون الأعمال الصالحة سرًا، فلا يزال إبليس يزين في عينهم ذكرها للناس حتى يخرجها من عمل السر الذي يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفًا ويردها إلى حكم الرياء بها، ويصير كأنها رياء بها.

ومن وصية سيدي علي الخواص لأصحابه: احذروا من التسميع بأعمالكم، فإنه يبطلها كالرياء على حد سواء، ولهذا أتت هذه الكلمة مقرونة بالرياء في نحو قوله ﷺ: «**ويبقى الذي كان يسجد رياء وسمعة**»[1] إذ الرياء له اشتقاق من الرؤية، والتسميع من السمع، ومن المعلوم أن التسميع الآجل كالرياء العاجل حيث أراد نظر المخلوقين وتعظيم نفسه عندهم بأعماله، والإخلاص مغاير لهذا كله.

وقد سمعته ؓ ينهي عبدًا عن صلاته بجنب أمير في صلاة الجمعة حين قال له: يا سيدي مقصودي أصلي بجنب الأمير لأسأله عن حاجة كذا وكذا، فقال له: يا ولدي أخاف عليك الرياء بخلطك أعمال الدنيا مع أعمال الآخرة؛ ولكن صلِّ حيث شئت، فإذا فرغ الأمير فسله في أي مكان كان.

وسمعته أيضًا يقول: قد يخلص العبد في أعماله، ويرفع ذلك العمل خالصًا مخلصًا من شوائب الرياء، فلا تزال النفس تضطرب بطبعها، والشيطان يوسوس لها، ويحتال على إفساد ذلك العمل الصالح على عادته مع العبد، وإبطاله بالكلية إلى أن يتحدث به العبد، ويخبر به الناس وحينئذ تسكن نفسه عن ذلك الاضطراب؛ لأنها وصلت إلى حظها من الرياء، وقنعت بثناء الناس عليها حتى أنها لم تخف من سخط الله تعالى عليها حيث أخرجت عبادتها عنه تعالى إلى عبد من عبيده لا يضر ولا ينفع في دين ولا دنيا وذلك هو الخسران المبين، وكثيرًا ما يخبر المغفل بأعماله الصالحة

---

(1) ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (11/451).

من لا يحتفل بالثناء عليه بسبب تلك العبادة، ولا يرفع قدره بها فهذا خسر حظه العاجل أيضًا، فنعذ بالله من ذلك.

فإذا قلت: إذا منَّ الله تعالى على عبد بأعمال صالحة من عدة سنين، وطويت صحائفها على ذلك، ثم إنه سمع بها الناس حتى حبطت كما صرح بذلك في الحديث فهل لذلك من دواء؟ فالجواب: نعم لذلك دواء، وهو أن يندم العبد على ذلك، ويتوب من مثله توبة صادقة جازمة بأنه لا يعود يُسْمِع أحدًا من الناس بعمل من أعماله إذ التوبة الصادقة تمحو تلك الزلة، فإذا تاب كذلك رجع العمل صحيحًا بمشيئة الله تعالى وحسن توفيقه.

ومثل ذلك كمثل رجل كان صحيحًا، ثم طرأ عليه مرض أفسد صحته، فاستعمل دواء نافعًا، فأزال الله به ذلك المرض، وعاد المريض بفضل الله ورحمته إلى حال صحته، فعلم أن التسميع له دواء بخلاف الرياء؛ لأنه يفسد العمل من أصله، فاعلم ذلك يا أخي، واعمل على تحصيل الإخلاص في أعمالك الظاهرة والباطنة.

وقد دخلت مرة على سيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي - رحمه الله - فقلت له: أوصني، فقال: عليك بإخلاص القصد لله ﷻ، ولا تتهاون في ذلك وتُرضى بتلبيس نفسك تهلك، فقلت له: ما مثل ذلك؟ فقال: أن يكون الباعث لك على فعل العبادة أمران: فانٍ أو باقٍ، فقلت له: فإن غلب الباقي على الفاني؟ فقال: هو رياء، فقلت: إن بعضهم يقول: إذا غلب الباعث الباقي كان الحكم له، فقال: هذا في حق العوام الذين لا يقدرون على سلوك طريق العلماء العاملين أما من يقدر على سلوك الطريق فلا يسامح بمثل ذلك، ثم قال لي: إن العلم من أصعب طرق الرياء على المبتدئين في الطريق أن يكون عمل أحدهم لله تعالى ولشيء آخر، فإن مثل هذا يشتبه على المريدين، ويعسر عليهم الخلاص منه بخلاف الرياء المجرد فإنه قد يفهم بأدنى تأمل، وأطال في بيان طرق الرياء بما لم يخطر على بالي قبل ذلك، ثم قال: ومن غريب ما يقع لبعض الناس أن يكون للواحد منهم حاجة عند حاكم أو أمير أو كبير، وذلك المعظم يصلي الجمعة أو غيرها في الصف الأول أو في مكان معروف به، فهو مجتهد في الصلاة إلى جانبه؛ ليحصل مراده منه لا ليؤدي فريضة الحق تعالى في ذلك المكان على تلك الصفة، ومن المعلوم أن الباعث على ذلك العمل هو ذلك القصد الأول لا قصد إتقان أمور الصلاة.

قال: وهذه علة دقيقة يجب التفطن لها؛ خوفًا من ضياع الأجور وظلمة القلب

لأجل فساد المقصود، فإن بُلي العبد بمثل هذه الأمور ولا بدّ كان له في التخلص منها عدة طرق:

منها: أن يعقد تلك الصلاة نفلاً، ثم يجتهد على أداء الفرض بطريقه الشرعي في مكان آخر أو جماعة أخرى، وقصده مخلص، واجتهاده على الخير الكامل.

ومنها: أن يمسك أنفه موهمًا للرعاف، ثم ينصرف موهمًا لتجديد الوضوء، ثم يصلي في مكان ليس فيه شائبة الرياء، ويعود إلى الأمير يحدثه في أمر دنياه التي يؤملها لا يحول بينه وبينه شيء، ولو فعل غير ذلك إذا قسم له منها لا يتهيأ له حصوله، ولو ضيع في تحصيله أمور دينه، والغفلة في هذا الباب شاملة جدًا لأكثر الناس، فيقدمون طلب تحصيل الدنيا على طلب الأجور في الآخرة.

ومن طرق الخلاص أيضًا: أن يحاسب نفسه بصدق إن خشي خروج الوقت أو فوات الجماعة ونحو ذلك من الأمور العارضة فيفكر في نفسه، فإن امتلكه الانصراف انصرف بحيث لا يوهم نفسه ما ليس له حقيقة من رعاف ونحوه، وإن أمكنه أن يعقدها نافلة فعل، فيجدد النية بطريقه الشرعي، ويصلي في ذلك الموضع على وجه شديد، هذا كله في الأمور المقطوع بها من النوافل.

أما كون العبد يجعل الفريضة التي هي أفضل عبادات البدن ترسًا بين يدي حظوظه، ووسيلة إلى تحصيل مقاصد دنياه الفانية، فإن ضرر ذلك لا يخفى على أدنى أهل الإسلام، وإن وقع أن أحدًا ألبس على نفسه، ورضي بدوام التدليس فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولما حضرت الوفاة الإمام ابن عمر ﷺ أثنى الصحابة عليه وقالوا: أبشر بخير فقد سهلت طريق مكة، وبنيت المصانع، وفعلت وفعلت، وعبد الله بن عمر ساكت، فقالوا له: ما تقول؟ فقال: أقول كما قلتم، ولكن إذا صحت النية، وطابت النفقة، انتهى.

ثم قال سيدي عبد القادر: هكذا سمعت ذلك من لفظ سيدي إبراهيم المتبولي، فقلت له: وسمعت نحو ذلك من سيدي علي الخواص.

فقال: ماكان حاضرًا معي في ذلك المجلس، فقويت الزاوية بذلك، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: في كل عصر الحذر من الاغترار بأعمال أهل عصرهم، والاكتفاء بالأعمال على صورتها من غير تفتيش فيها، فإن الغالب عليهم قلة التحشم

والإخلاص وعدم التخليص من دقائق الرياء، وقد كان الفضيل بن عياض ﷺ يقول: اقتدِ بالأموات من السلف الصالح، وإياكم والاقتداء بأهل زمانكم، ثم يقول: وما أشدها من خصلة في العيش مع الأحياء والاقتداء بالأموات.

وسمعت سيدي محمد بن عنان - رحمه الله - يقول: عليك بحسن الاتباع للسنة الثابتة، فإن لذلك ثمرة عظيمة لا تحيط العقول بفضلها وبعظمة درجتها، فالعاقل من وزن أفعاله وأقواله وأحواله، فإذا سار على هذا المنوال فهو المقبول، وما خالفها فهو المردود.

قال: وقد دخل على بعض ممن يدعي السلوك دواخل عظيمة من اتباع البدع ذهب توحيد بعضهم، فأوجبت لهم الشرك والإلحاد والخروج عن حقائق دين الإسلام بالكلية.

فإياك يا أخي ومعاشرة هؤلاء، وعليك بمطالعة كتب الحديث كالبخاري ومسلم، والسيرة النبوية، والآثار السلفية تخلص من الضلال، وإن كنت قاصر الفهم من استخراج الأحكام من الأحاديث فجالس الفقهاء، ولو كانوا غير عاملين بعلمهم؛ لتستفيد منهم الآداب والأخلاق والسنة مستمرة الوجود في الوجود إلى مقدمات الساعة، فاطلب ذلك، وعلق قلبك بمعاني النصوص الشرعية المتعلقة بالتوحيد الصحيح الخالص عن الشوب، فإن فروع التوحيد الغالبة والحالية حقيقة هي المستندة إلى طريق السلف من الصحاب، والتابعين، وتابعيهم، والأئمة المشهورين كالإمام أبي حنيفة، وسفيان، ومالك، والشافعي، وأحمد، ومن تبعهم من المشايخ كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وذو النون المصري، وأبي سليمان الداراني، ومعروف، والجنيد ونحوهم من أهل الاهتداء والاقتداء.

وسمعت سيدي محمد المنير - رحمه الله - يقول: الزموا طريق السلف الصالحين، واحذروا من طريق المتأخرين، فإنهم قلبوا كثيرًا من القواعد الشرعية، وغيروا كثيرًا من المقاصد الصحابية، واكتفى أحدهم بالقال عن الحال، وتركوا المجاهدات لنفوسهم بالكلية، وصارت لهم مسالك، وعبارات ورياضات وعبادات كثيرة التعب قليلة المنفعة جعلوها بجهلهم نهاية التحقيق وغاية التدقيق فهي في نفس الأمر: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور:39] ومن تصفح السنة عرف

صدق ما أقول، انتهى[1].

وسمعت سيدي علي الخواص ﷺ يقول: قد أعرض أهل هذه الزمان عن اتباع سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ في أكثر الأعمال والأقوال والأحوال، واشتغلوا بعلم القال، والخوض في علم الكلام، وقد ذم جمهور الأئمة علم الكلام، فإن بعضه ينقض بعضًا، وكل طائفة تدعي أن الحجج القطعية العقلية معها دون جميع المخلوقات.

وقد كان الإمام مالك ﷺ يقول: ليت شعري بأي عقل نترك اتباع السنة كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تبعناه لتركنا العمل بما أتى به جبريل إلى النبي ﷺ.

---

(1) فائدة لطيفة: قال الشيخ الشعراني في تطهير الزوايا: وكان سيدي عليّ الخواص -رحمه الله- يقول: قد قامت الشريعة لمجموع الفقهاء والصوفية في دولة الباطن والظاهر، ولا يخلو الوجود من طائفة من كل من الفريقين، وتقدم في هذا الكتاب أن حقيقة الصوفي: هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص، فلو كان كل فقيه متصفًا بذلك؛ لكان الناس كلهم لهم لقب واحد، ولم يختلف تلقيبهم بفقهاء وصوفية، لكن لما كان الجامع بين العلم والعمل بكل ما علم قليلاً، فرق الناس بين الفقهاء والصوفية؛ فسموا من يراعي العمل بما علم صوفيًا، ومن لم يراع العمل بما علم كل تلك المراعاة فقيهًا؛ أي: فهيمًا يفهم العلم فقط، ومعلوم أنه لا يسمى عالمًا إلا من عمل بعلمه؛ كما جرى عليه السلف الصالح. وسمعت سيدي عليًا المرصفي -رحمه الله- يقول: كن فقيهًا وصوفيًا، ولا تكن أحدهما فقط، وقدم ما هو أقرب إلى حضرة ربك، واستغنم الفضائل بقية عمرك، ولا تصغ إلى من يعزلك عن الاشتغال بالأفضل في ذلك الزمان، فإنه قد يغشك؛ إذ الفقيه يود أن الناس يكونون كلهم فقهاء، والنحوي يود أنهم يكونون كلهم نحاة، والمنطقي كذلك، والمتكلم كذلك، والأصولي كذلك، وقد حبب الله كل طائفة فيما أقامها فيه، فلو قلت للفقيه أو النحوي: اترك المطالعة، وتعال جالس ربك في ذكره لحظةً ما وجد عند نفسه داعية، وبالعكس، فليقلّ طريق من طرق الشريعة وآلاتها أقوام، وقد كانت الأشياخ الماضون من الصوفية يدرسون العلوم الظاهرة، حتى ماتوا، وكانوا يقولون: ألذ ما تقرأ كتب الشريعة وآلاتها على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، وعلى الأئمة الأربعة وغيرهم، فيقرأ العلم على صاحبه؛ كأنه يعرضه عليه ليقر عينه بذلك، وقد تقدم أننا ذقنا ذلك -ولله الحمد- وهذا بعكس حال بعض المتصوفة؛ فإن أحدهم لا يقدر على تقرير درس في الفقه أو النحو، ويقول: إن ذلك حجاب، والنفس تنفر مما يحجبها عن ربها، انتهى.

وذلك جهل منه، كيف يكون العلم المشروع حجابًا؟ ولكن النكتة في جعله حجابًا: عدم إخلاص النية فيه، وطلبهم به الرئاسة والتقدم على الأقران؛ فإن صدق أحدهم في قوله: لأن العلم حجاب، فهو لما يدخله، ويطرأ عليه من الآفات لا لذاته، وقد عز هذا المقام في متصوفة هذا الزمان، حتى صار الناس لا يكادون يقولون عن أحد من جماعة مشايخ القصر: إنه من طلبة العلم أبدًا؛ لقلة اشتغاله بالعلم، فاعلم ذلك، واعمل على تحصيل مقام العلم والعمل؛ حتى يستنير باطنك، وتصير تعرف أسرار الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

وقد ألف بعض السلف كتابًا في هذا الموضوع يبين فيه أن العقل لا يعارض النص الصريح أبدًا، وأنه إن فرض دليلين قطعيين متعارضين فهو من فرض المحال.

وربما يقول بعضهم: إن رسول الله ﷺ مات ولم يبين لأصحابه حقائق التوحيد، وذلك كذب به وافتراء فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: **«ما تركت شيئًا يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، ولا من شيء يباعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به»**(1).

وقال أبو ذر ﷺ : لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر في الجو يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا، وكان الإمام الشافعي وغيره يقولون: الصحابة ﷺ فوقنا في كل شيء، وكيف يصح قول من قال:إن رسول الله ﷺ خرج من الدنيا ولم يبين لأصحابه حقائق التوحيد الذي عليه أساس الدين، مع أنه يبين لهم الخراة، وكيفية الاستنجاء؟! هذا كالمحال.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: إنما ترك بعض الخلف هدى السلف حين عجزوا عن اتباعهم في حقائق الورع والزهد والعبادة، فصاروا يطعنون في سلفهم؛ ترويجًا لأحوالهم، ولو عرفوا مقدار علم سلفهم ودقته لرأوا أن أحوالهم أشرف الأحوال، وعلمهم أشرف العلوم.

وكان الإمام عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: كان أصحاب رسول الله أبرأ الناس قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وكان محمد بن سيرين يقول: والله لو أردنا فقه الصحابة لما أطاقته عقولنا، فاعلم ذلك يا أخي، واقتدِ بالسلف الصالح في الأقوال والأفعال والعقائد تفز بخير الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يرشدوا إخوانهم ألا يبادروا إلى الإنكار على من يرونه قليل الأعمال الصالحة من النوافل، بل يتربص أحدهم حتى يخالطه وينظر حاله، فإن رأى لسانه مكفوفًا عن أعراض الخلق ويده وفمه مكفوفان عن الحرام والإساءة، فلا حرج عليه في ترك النوافل؛ لعدم تبعات الخلائق عليهم، ولكن إن رآه مطلق اللسان واليد والفم في أعراض الناس ومكثرًا من النوافل، فإن هذه النوافل ليعطي منها أصحاب التبعات يوم القيامة، ولكن إن لم يكن عليه شيء من تبعات الخلائق من الأعمال الصالحة فذلك خير على خير.

(1) ذكره ابن كثير في تفسيره (3/76) بنحوه.

فاعلم ذلك وعليك بنفسك أولاً، فإذا رأيتها نجت فعليك بالإقبال على غيرك، وإن كان كل منهما واجبًا في الأصل، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا رأوا فقيهًا قد برع في علم الفقه، ونفع الناس بإفتائه وتدريسه أن يرغبوه فيما هو فيه، ولا يفتحوا له باب علاج الأمراض الباطنية التي فيه خوفًا أن تفتر همته عن الاشتغال بعلم الشريعة لاسيما إن كان قد انفرد في إقليم بالعلم، وصار مرجع أهله كلهم إليه، فإن الخير المتعدي نفعه إلى الأمة مقدم على الأمور القاصرة على نفس العبد شرعًا مع أن في ضمن علاج الأخلاق الباطنة ورياضة النفوس نفع الناس أيضًا فتأمل.

اللهم إلا أن يعلم من ذلك العالم ثبوت قدمه في الأعمال الصالحة بحيث لا تفتر همته عن الاشتغال بالشريعة إذا اشتغل بعلاج أمراضه الباطنة فهذا لا بأس بفتح باب العلاج للنفس ورياضتها له؛ ليجمع بين طريق الشريعة والحقيقة كما كان عليه الأئمة المجتهدون والوارثون لهم في أحوالهم، وكذلك إذا علمنا من فقير براعته في أحوال الطريق ومعرفته بدسائسها أن نرغبه في ذلك مادام العلماء قائمون بأمور علم الشريعة حفظًا وتدريسًا، والعامة مستغنون عن مثل هذا الفقه، فإن رأينا الشريعة قد مات علماؤها، واحتاج الناس إلى العلماء، فمن المعروف أن نرغب الفقير في الاشتغال بعلم الشريعة حفظًا وتدريسًا وإفتاء ويترك كل ما هو فيه.

وقد كان السلف الصالح لا يشتغلون بالطريق إلا بعد تبحرهم في علوم الشريعة كما مر بيانه أوائل الكتاب، فلما تقاصرت الهمم قل الجامع بين الشريعة والحقيقة، وكثر المنفرد بعلم أحدهما دون الآخر.

ولما خفت على أخي العبد الصالح سيدي علي بن الشيخ محمد المنير أن تفتر همته عن علم الشريعة، ويقل نفع أهل بلاده به إذا اشتغل بعلم الحقيقة لم أكشف له عن قناع شيء من علم الحقائق؛ لأن نفع الناس بالشريعة أعظم من نفعهم بعلم الحقيقة؛ لقلة من يعرف علم الحقيقة فضلاً عن حاجة الأمة إليه، ولكن سألت الله تعالى أن ينور قلبه حتى يعرف جميع أمور الحقيقة بالرياضة؛ لأن المجاهدة والرياضة والعبادة مع الاشتغال بالفقه أنور قلبًا من متصوفة هذا الزمان الذين هم طول عمرهم في الاشتغال بالرياضة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: ألا يبادر أحدهم إلى جواب من سأله عن شيء من أحوال الطريق من الفقهاء والمتكلمين والأصوليين، بل يتربص أحدهم وينظر في أمر ذلك

السائل، فإن رآه مسترشدًا قاصدًا بعلمه وجه الله تعالى أجابه بعبارة يقبلها عقله، وإن رآه متعنتًا في سؤاله غير مخلص فيه سكت عنه، ولم يجبه سواء أعلم تعنته بطريق الكشف أو بالقرائن كأن يعرف من ثقته به أن نفسه لا تطيب بأن يتلمذ للقوم ولا يراهم أعلم منه.

وقد كان سيدي علي بن وفا - قدس الله سره - يقول لأصحابه: إذا سألكم فقيه عن مسألة تتعلق بطريق القوم فخذوا عليه العهد بأنه يعتقد فيكم أنكم أعلم منه، ثم أجيبوه عن تلك المسألة، ثم إذا خالفكم بعد ذلك فقد خان العهد واستحق التأديب، فأعرضوا عنه أو لا تطلبوا رجوعه إليكم بإقامة الأدلة والبراهين عليه، فإنكم في طريق وهو في طريق.

وكان يقول: إذا جادلكم أهل الطروس[1] فأجيبوهم بالنقول الصحيحة المعزوة إلى أصحابها وإياكم أن تجيبوهم بالأمور الذوقية من وجدانياتكم فإنهم يردون ذلك عليكم، فإن بين علم الذوق والعلم المجرد عن الذوق في البعد كما بين السماء والأرض، انتهى.

ولما ورد مُلا أفضل العجمي مصر في سنة أربع وستين وتسعمائة أرسل إلى علماء مصر عدة أسئلة يسألهم فيها عن قول الشيخ محيي الدين في أول «الفتوحات المكية»: الحمد لله الذي خلق العالم من عدم وعدمه، ما معنى ذلك؟

وعلمت بقرائن أحواله: أنه متعنت، فلم أجبه عن ذلك، وقلت له: إن أردت علم ذلك ذوقًا فتلمذ لأحد من أهل الطريق يخليك خلوة صالحة فيطلعك على أحوال القوم، فإن من خصائص الصادق في طلب الطريق أنه يصير يطلب شيخًا يضعه في طريقهم من غير أن يقف على اصطلاحهم أولاً، ثم بعد ذلك يطلعه على مصطلحهم، فلم يرد عليّ جوابًا، ثم إنه أخذ ينقض كلام جميع من كتب على ذلك من العلماء على ما بلغني فما أخطأت فراستي بحمد الله فيه، فاعلموا ذلك أيها الإخوان وأعزوا الطريق يعزكم الله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذ كانوا من مشايخ الخرق التي لا ينضبط أهلها على القانون الشرعي أن يأمر الشيخ بجمع الفقراء في كل ثلاثة أيام أو أسبوع مثلاً وينادي فيهم: من له حق على أخيه فيأت هو وإياه، فيقومان بين يدي الشيخ كما يقفان بين يدي القاضي،

---

(1) كتب في الطرس وفي الطروس: وهو الصحيفة، وطرس الكتاب تطريسًا: أنعم محوه.

فإما يطلب أحدهما أو كلاهما حقه، وإما يقع الصفح والمسامحة.

وكان على هذا القدم سيدي محمد الغمري بالمحلة الكبرى، ومشايخ السادة الأحمدية والبرهانية والقادرية والرفاعية إلى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة، فمات الأشياخ الذين كانوا يحكون بالعدل، ومات المريدون الصادقون الذين كانوا يرضون بحكم الشيخ فيهم.

وكان خليفة سيدي أحمد البدوي يجمع الفقراء في زاوية سيدي مبارك خارج باب النصر، ويجلس خلف ستارة بحيث لا يرى أحد وجهه والنقيب يحكي له ويبلغهم ما قضى به من صلح أو هجر أو قصاص، وكان الخصمان يجلسان منكسين الرأس لا يشير أحدهما بيد، ولا رأس ومتى أشار أحدهما بيده صار تحت الطريق، وسبق في هذا الكتاب ذكر أدلة الفقراء في كشف رأسهم ووقوفهم عند النعال ورضاهم بحكم شيخهم فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: اتباع أخلاق شيخهم في أقواله وأفعاله وجميع أحواله، وإن كان له رسالة فليطالعوها ويتفهموا ما فيها، ويشاورونه على كيفية العمل بذلك، وإن كتبوها أو استكتبوها فهو أولى؛ لأنه ربما احتاج الناس إلى سؤالهم عن معنى كلمة منها، وربما دس الأعداء في كلام شيخهم ما يخالف الشريعة؛ لينفروا أتباعه عنه كما وقع لي ذلك في كتاب «العهود الوسطى» وغيره، ولا يتعلل الفقير بعدم قدرته على أجرة الكتابة وله جوخة أو صوف أو ملبوس غال فإن بيع ذلك وصرفه في أجرة كتابة الرسالة أولى عند أهل الطريق، ومن قدم ثوبه الصوف مثلاً على تربيته ونصحه فما عرف طريق ربه فهو ممن باع آخرته بدنياه، فلا يُرجى له فلاح، وهذا وقع في مريدي مشايخ هذا الزمان، فليحذر الناصح لنفسه من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: توطين نفوسهم على كثرة التعب والعلاج في المريد الذي تقدمت له صحبة بالفقراء الذين لا قدم لهم في الطريق كالذين جلسوا بأنفسهم من غير إذن من شيخ صادق، وكمشايخ الأحمدية والرفاعية والبرهانية ممن اعتمادهم في طريقهم على لبس الزِّي، والمراسم الظاهرة، وأحدهم جاهل بالكتاب والسنة وآداب أهل الطريق، فإن الحكم غالبًا للداعي الأول والداعي الثاني طارئ فهو كالعارض الذي لا نبات له[1].

---

(1) قال الشيخ في الكوكب: قال: وإيّاك أن تصحب أحدًا من المدّعين للطريق بلبس الزي، أو تدعهم =

وقد صحبت من مريدي هؤلاء الأشياخ جماعة بعد جماعة، فذاب قلبي من التعب فيهم لاسيما من رباه فقراء المطاوعة، فإن عداوة الفقهاء والصوفية قد تشربت قلبه على حكم ما وسوس به إليهم إبليس، وقال لهم: أنتم الفقراء حقًا والفقهاء والصوفية، وما هم على حق، ولذلك أنكروا عليكم، وهذه من أكبر ما ضلهم به إبليس، فألقى بينهم وبين حملة الشريعة العداوة حتى لا يسمعون منهم ما ينصحونهم به، فلا هم يسمعون من علماء الشريعة، ولا معهم شرع يستضيئون بنوره فضلوا وأضلوا، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وانصحوا المطاوعة برحمة وشفقة إن أردتم هدايتهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا كان أحدهم ناظر على وقف زاويته، ولم يجد أحدًا يصلح لإسناد النظر إليه بعده بأن خاف منه بأن يخص نفسه وأولاده بشيء من وقف الفقراء باليد العادية، فمن المعروف أن يوصي الذي أسند إليه النظر من ولد أو تلميذ بأن يتقي الله تعالى في ذلك، ويحذر جباة الوقف الذي يخاف البالوعات والكاتومات، وألا يمكنوا ولدهم أو تلميذهم من أخذ شيء لا يخصهم من وقف الفقراء، فإن الدنيا حلوة خضرة وربما وسوس الشيطان وعظم أحد أبناء الشيخ أو خليفته كل التعظيم، ويقول له: كل ما يأكله من مالي الوقف يكون له حلال؛ لأنه لولا جاهه ما وصل الفقراء إلى خراجهم، ولا حصلوا على أي حق لهم في الأوقاف، فإذا مهد الشيطان لهم هذه الأكاذيب سرت في الشيخ أو خليفته العداوة في أسرع من لمح البصر، وتصير الجباة يأكلون مال الوقف جهارًا، وإن تكلم ولد الشيخ أو خليفته قالوا له: أخرج أنت الآخر مما أخذته منا بغير حق لترده على الفقراء، فلا يقدر على إعطائه؛ لعجزه عنه، فلا يسعه إلا السكوت، فتخرب الزاوية ويضيق رزقها، وترتفع البركة من الزاوية، ويكتب خرابها في صحائف الجباة والناظر، ويصفق إبليس ويفرح لذلك، فإياكم أيها الإخوان من

-

يأخذون عليك العهد؛ فإنهم أكثر أذى من الثعبان، وذلك لأنك تشهد الأذى من الثعبان فتأخذ منه حذرك، ولا هكذا من تظاهر بالصلاح وهو في الباطن شيطانٌ في زي إنسان.

قال: وذلك كالجماعة الذين سمُّوا نفوسهم بأسماء المشايخ الصادقين، أو أنه من أتباعهم كالملامتية والقلندرية والحيدرية والبسطامية وأشباههم.

فإن الغالب على هؤلاء مخالفتهم لطريق من تلقبوا بلقبه أو انتسبوا إليه، فإن المنقول عن جميع أشياخ الخرق كلها التقيُّد بالكتاب، كسيدي عبد القادر الجيلي.

مطاوعة إبليس في مثل ذلك فإنه عدو مبين وقد نصحتكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة اعتنائهم بأمر الصلاة أكثر من سائر أعمالهم؛ وذلك لأنها جامعة لسائر المعاريج المتفرقة في عبادة أهل السموات وأهل الأرض في الأجر والثواب، فمن صلى الصلاة كاملة بحضور شارك أهل السموات وأهل الأرض في الأجر والثواب، فهو في حال طهارته موافق للملائكة والأصفياء المتطهرين من الذنوب، وفي حال قراءته أذكار الوضوء التي فيه، والتي بعد الفراغ منه واقفًا لأهل تلك الأذكار من الملائكة المستشهدين والداعين والمسبحين والحامدين والموحدين والمستغفرين والتوابين، وفي حال الصلاة موافقًا للملائكة القائمين القانتين الناوين للخيرات المكبرين لله تعالى الحامدين له المسبحين له بكرة وأصيلاً الذاكرين الله ببسم الله الرحمن الرحيم، الحامدين الله رب العالمين، المحمدين الله المخلصين له العبادة السائلين الله تعالى الاستعانة في جميع أحوالهم، والهداية للصراط الذي عليه الأنبياء والأصفياء كما أوضحنا ذلك مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا دخل أحدهم محفلاً فيه أحد من رءوس العلماء والصوفية كالاجتماع في وليمة أو انتظار جنازة ألا يدخل أحدهم ذلك المحفل إلا إذا علم أن أهل ذلك المحفل لا يرفعون رتبته في التعظيم والإجلال فوق من كان حاضرًا هناك من العلماء والصالحين.

فمتى علموا ذلك أو غلب على ظنهم فمن الأدب عدم الدخول لما قد يترتب على ذلك مفسدة أعظم من مفسدة الدخول، ولا يجوز للممتنع من الدخول بشرطه أن يظن بذلك العالم أنه قد يتأثر من ترجيح غيره عليه في تقبيل اليد والإجلال، ويقول: إنه فعل ذلك مراعاة لخاطره، فإن ذلك سوء ظن به فإنما يفعل ذلك قيامًا بواجب حقه وإيثاره على نفسه، ولو رضي هو بذلك، وربما ظن بعض الناس بالممتنع أنه ما امتنع من الدخول إلا لغلبة ظنه أنه لا يقوم له ناموس مع وجود ذلك العالم أو الصالح الذي هناك وهو ظن فاسد.

فليكن الفقير في هذا الزمان يلحق بلاحق اللاحق يخلص نفسه أول وأخاه ثانيًا، والحاضرين في ذلك المحفل ثالثًا ولا أراه ناجيًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يشتغلوا بسب من وقع في شيء مما أخبر به الشارع ﷺ أنه يكون بين يدي الساعة، بل يشتغلوا بالصلاة والتسليم على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ الصادق المصدوق، ويزدادوا بذلك محبة له وإيمانًا له، ثم يشكرون الله ﷻ الذي لم

يجعل تلك المعصية مثلاً على يدهم، ثم يدعون لمن وقعت على يديه ويستغفرون له، هذا أدب الفقراء الصادقين في هذا الزمان، فليحذر الشيخ الجاهل في أواخر القرن العاشر من أن يشتغل بازدراء من وقع في شيء من علامات الساعة أو احتقاره، ويترك ما أمرناه به من الصلاة والتسليم على سيدنا رسول الله ﷺ وغيرها، ولو أمعن النظر في حال نفسه لوجد نفسه أسوأ حالاً من ازدرائه وأكثر معاصي، فاعلم ذلك يا أخي واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يتمثل أحدهم بقول رسول الله ﷺ بنحو قوله ﷺ:

«أرحنا بها يا بلال»[1] **«وكرائم اموالهم»**[2] أو **«زادك الله حرصًا ولا تعد»**[3] ونحو ذلك إلا بالحضور والتعظيم مع ملاحظة المعنى الذي أراده رسول الله ﷺ وقصده من مراعاة امتثال أمر الحق والقيام بواجب حقه، ويكون ذلك لله تعالى خالصًا مخلصًا لا رياء فيه ولا سمعة، فلا ينبغي لعبد أن يقول ذلك وهو غافل عما ذكرناه، فيكون كالمتلاعب بكلام رسول الله ﷺ.

وقد قلت مرة للشيخ حسن الطريني: لما تمثلت مرة بقول رسول الله ﷺ: **«أرحنا بها يا بلال»**[4] فنوديت في سري: أما تستحي من الله تعالى وأنت تقول مثل ذلك، فإنه لا يرتاح بالصلاة وبمناجاتنا فيها إلا حضر فيها محمد ﷺ، فبالله عليك هل أنت كذلك؟ فكدت أن يغشى علي، ومن ذلك اليوم ما قلت مثل ذلك إلا بإذن ونية صالحة، وإن لم أجدهما سكت.

فعلم أن من كان صادقًا في قوله: **«أرحنا بها يا بلال»**[5] فهو مأجور وله ثواب من أثنى على الله تعالى ومدحه بين عباده، فإن حصول الراحة بالصلاة نعمة عظيمة أعظم من حدوث ولد أو زوجة صالحة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يمد أحدهم رجله في ساعة من ليل أو نهار مع قوله: دستور يا الله إلا بعد أن نوى بضمها تعظيم جناب الحق - جل وعلا - ولم يزل منه التعب،

---

(1) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (277/6).

(2) رواه مسلم في «الصحيح» (51/1).

(3) رواه البخاري (271/1) .

(4) تقدم تخريجه.

(5) تقدم تخريجه.

وقد وقع لي أنني مددت رجلي في مجلس الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ مرة مع قولي: دستور يا الله فرأيت تلك الليلة شيخي الشيخ نور الدين الشوني - رحمه الله - وهو يقول لي: إذا أحسست بوجع في رجليك إذا أضممتهما فانوِ بذلك الضم تعظيم جناب الحق تعالى، فإن لم يزل التعب فاستأذن حينئذ ربك ومد رجلك، فإن الأدب مع الله تعالى شفاء من كل داء، فإن ضمت رجلك على نية التعظيم والإجلال لله تعالى ولم يزل التعب، فذلك من خلل في الإخلاص، أو عدم صدق في الكلال أو شروط الرخصة، انتهى.

فشكرت الشيخ على ذلك، وقلت: رحم الله الشيخ يؤدبنا ويربينا حيًا وميتًا، وذلك بعد موت الشيخ بنحو عشرين سنة، فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يخادعوا من خادعهم بحيث لا يشعر بذلك مخادعهم، وذلك من كمال الرجل، وقد كان الإمام عمر بن الخطاب ﷺ يقول: من خدعنا في الله انخدعنا له، انتهى.

مثال ذلك: أن يقول لك عدوك: أنا أحبك، فمن كمال العبد أن يقبل ذلك منه ظاهرًا بحيث لا يلحق بك أنك تظن كذبه في ذلك، بل تظن في نفسك أنه ما نصحك إلا خوفًا عليك، وتقول له: جزاك الله خيرًا، وتعامله معاملة الناصح الأمين الذي يخاف على دينك وإن توفرت القرائن على ضد ذلك من شدة عداوته.

[ولا أعلم بهذا الخلق] أحدًا من أهل عصري إلا القليل: كالأمير جانم، والأمير محمد الدفتردار، والأمير محيي الدين بن أبي أصبع، وتقول الناس في حق صاحب هذا المقام: فلان يقتل القتيل ويمشي في جنازته، وليس ذلك من قسم اللوم والخيانة وإنما ذلك من وسع دائرة العقل.

فاعلم ذلك واعمل به، فإنه لا بدّ من ذلك لكل من خالط الناس في هذا الزمان.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: من كمال عقل الرجل إذا رأى من يخدعه في الله تعالى أن ينخدع له، ولا يعرفه بفهمه أنه عرف خداعه، بل يتباله له حتى يغلب على ظنه أن خداعه قد أثر فيه، ويسمى ذلك معاملة الصفات التي ظهر بها أخوك، ومعلوم أن الإنسان لا يعامل الناس إلا من حيث صفاتهم لا من حيث أعمالهم، فلا تفضح يا أخي من خدعك في خداعه، وتجاهل وانصبغ له كاللون الذي أراد منك أن تنصبغ له به، وادعُ له وارحمه عسى الله أن يتوب عليه من نفاقه، والحمد

لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الاستقامة في التوبة؛ لأنها أسس لكل مقام يرقى إليه العبد حتى يموت، ومتى كان في التوبة اعوجاج انسحب حكمه إلى الاعوجاج في كل مقام بعده، فيصير بناؤه متهلهلاً كمن يبني حائطه من اللبن اليابس بغير طين.

وقد أمرنا الله تعالى بالتوبة النصوح، وهي المراد بالاستقامة في التوبة؛ وذلك ليتولد منها نتائجها من الزهد في الدنيا، والإقبال على الأعمال الصالحة ليلاً ونهارًا، وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من استقام في توبته وزهد في الدنيا فقد انطوى فيه سائر المقامات والأحوال الصالحة، قلت له: وما علامة الاستقامة في التوبة؟ فقال: ألا يجد كاتب الشمال شيئًا يكتبه أربعين سنة، ولا يكون في باطنه شيء يكرهه الله أبدًا مدة حياته، فقلت له: وما علامة الزهد في الدنيا؟ فقال: ألا يلقي بالاً إلى الدنيا من مؤمن وكافر، وعدو وحاسد، وكلما حقره أحد من الناس يزداد فرحًا وسرورًا.

وسمعته - رحمه الله - يقول: إذا ظن المريد أن ترك الدنيا والزهد فيها شيئًا كبيرًا عند القوم فإن غايته أن العبد يزهد فيما لا يزيد عند الله عن أقل من جناح بعوضة.

وسمعت سيدي محمد المنير - رحمه الله - يقول: من علامة الاستقامة في التوبة كثرة المراقبة لله ﷻ فإن كل توبة لا مراقبة فيها للحق - جل وعلا - فهي خداع[1].

وسمعت سيدي محمد بن عنان - رحمه الله - يقول: من استقام في توبته عن المعاصي ارتقى إلى التوبة[2]، ومن لم يستقم فيها لا يشم من التوبة عن الفضول رائحة،

---

(1) قال الشيخ المصنف: وينبغي لجميع فقراء الزاوية: ألا يبيت أحدهم كل ليلة، حتى يعرض على شيخه صحيفة عمله في ذلك اليوم؛ وذلك إما ليرشده إلى طريق التوبة النصوح من تلك الأعمال السيئة أو الناقصة، وإما ليستغفر الله تعالى له فيغفر له، وإما ليناقشه عليها فيخفف عليه الوقوف للحساب في الآخرة؛ فإن الحساب يوم القيامة لا يقع إلا في أمور أهمل العبد نفسه فيها في توبيخها من أجلها، فمن أتقن في مناقشة نفسه هنا؛ بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وناقشها عليها لم يوقف للحساب أبدًا؛ ومن ناقش نفسه في بعض، وأهمل البعض وقف بقدر ما أهمل، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واطلعوا شيخكم على جميع ما في صحيفتكم، ولا تخفوا منه شيئًا منها؛ تغشوا نفوسكم أولاً، وشيخكم ثانيًا، وتعرضوا نفوسكم لشدة الحساب ثالثًا، فقد ورد أن بعض الناس إذا وقف للحساب بين يدي الله تعالى يقع لحم وجهه من شدة الخجل من الله ﷻ، والحمد لله رب العالمين.

(2) وقع اضطراب في النسخة وتم استدراكه.

ولا يقدر على رعاية خاطره أبدًا، بل يغلب عليه خواطر المعاصي حتى في صلاته، وتأمل قوله تعالى للمعصوم الأكبر ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: 112] فأمره الله تعالى بالاستقامة في التوبة، ومن تاب معه من جميع أتباعه وأمته.

وسألت سيدي علي المرصفي - رحمه الله تعالى - : عن معنى قولهم: لا يكون المريد صادقًا حتى لا يكتب عليه ملك الشمال ذنبًا عشرين سنة هل المراد أنه لا يقع في معصية أصلاً أم المراد أنه لا يصر على الذنب، بل يتوب ويستغفر على الفور؟.

فقال: المراد الثاني فإن المريد الصادق إذا وقع في ذنب بادر إلى التوبة، وندم فانمحى عنه ذلك الذنب على الأثر فلا يجد الملك شيئًا يكتبه؛ لأنه يمكث ساعة وساعتين ينتظر لعل العبد يتوب ويستغفر، فإذا ندم العبد واستغفر ترك كتابة الذنب، انتهى.

وقد قررنا مرارًا أن الملكين لا يكتبان إلا المعاصي القولية أو الفعلية إذا تلفظ بها صاحبها وقال: فعلت كذا وكذا لقوله تعالى:﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 12] ولم يقل: يكتبون فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: صدق التوبة وهو أن يتوب من رؤية نفسه صَدَق فيها، وهو معنى قول رابعة: أستغفر الله تعالى من قلة صدقي في استغفاري، وقد كان رويم ﷺ[1] يقول: حقيقة التوبة هو التوبة من رؤية التوبة، وكان سهل بن عبد الله ﷺ يقول: لا ينبغي للفقير أن يقف في مقام توبته على ما دون المقام الأعلى الذي هو مقام الاستجابة، وذلك بأن يتوب من كل خاطر يخطر له في غير مرضاة الله تعالى سواء أكان [في معصية أو] في غيرها كما هو شأن أهل القرب من حضرة الله تعالى فهم يتوبون من كل

---

(1) هو من أهل بغداد من جلة مشايخهم، وجده رويم بن يزيد حدث عن ليث بن سعد وغيره، وقيل: كنيته أبو بكر. وكان فقيهًا على مذهب داود الأصبهاني، وكان مقرئًا قرأ على إدريس بن عبد الكريم الحدّاد.

قال محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان: سمعت رويمًا وقد سئل عن أدب المسافر؟ فقال: لا يجاوز همه قدمه، وحيثما وقف قلبه يكون منزله.

وكان يقول: لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإن اصطلحوا هلكوا.

انظر: حلية الأولياء (296/10)، وتاريخ بغداد (430/8)، وطبقات الصوفية (5) والطبقات الشعرانية (103/1)، والكواكب الدرية (337).

خاطر خطر لهم مع الغفلة عن الله. **وسئل** ﷺ عن الشخص يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة في نفسه هل يقدح ذلك في كمال توبته؟ **فقال** ﷺ: وجود الحلاوة لازم لطبع البشرية ولا بدّ من الطبع، وليس للعبد حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى ويلزم نفسه الأذكار، ويسأل الله أن ينسيه ذلك ويشغله بذكره وطاعته.

قال: ومتى غفل عن الأذكار خيف عليه العطب أن تسكن الحلاوة قلبه، وأعظم دوائه إذا وجد الحلاوة أن يلزم قلبه الأذكار والحزن فإذا فعل ذلك لم يضره وجود تلك الحلاوة إن شاء الله تعالى.

وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: إذا تمكن العارف لم يسكن في قلبه حلاوة شيء تاب عنه، بل تزول منه الحلاوة بمجرد التوبة، وإنما كلام سهل في حق المريدين، فإن حب الله تعالى في قلب العارف يمنع أن يسكن فيه محبة لغيره تعالى، وكل من وجد في نفسه حلاوة الذنب الذي تاب منه فهو لم يتمكن من قلبه حب الحق فليبكِ على نفسه، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من كمال التوبة ألا يكون في جوارحك الظاهرة والباطنة شيء يكرهه الله أبدًا، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل مقام الورع الكامل والزهد الكامل، وذلك بأن يتورع أحدهم عن كل شيء يشتت قلبه عن ربه تعالى طرفة عين، ويزهد كذلك في كل ما يشغله عن ربه ﷻ، وقد توضأ ﷺ من إناء على طرف نهر، ثم صب ماء الإناء في النهر، وقال: «ينفع الله تعالى به قومًا آخرين» فكان صبه ﷺ ما في الإناء في النهر من الورع.

وكان الإمام عمر بن الخطاب ﷺ يقول: من ادعى الورع ومال بقلبه إلى أحد من أبناء الدنيا فقد خرج عن الحد، وكان الإمام سهل ﷺ يقول: من لم يحفظ لسانه في حق عباد الله من الذم فليس له في مقام الورع نصيب.

وسئل الشبلي عن الزهد، فقال: لا زهد في الحقيقة؛ لأنه إما أن يزهد فيما ليس له وليس ذلك بزهد، وإما أن يزهد فيما هو له فكيف يصح الزهد فيما هو فيه وعنده؟! انتهى.

قلت: وفيه نظر؛ لأن ذلك لو أطرد لهدم قاعدة الاجتهاد والكسب، ولعل مراد الشبلي أن يقل: الزهد في عين الزاهد؛ لئلا يغتر بالزهد، وفي الحديث: «إذا رأيتم

الرجل قد أوتي زاهداً في الدنيا ومنطقاً، فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة»[1] وقد سمّى الله تعالى الزهد علمًا في قصة قارون في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص:80] قيل: هم الزاهدون، وفي الحديث: **«العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا فاحذروهم على دينكم»**[2].

وسئل الشبلي أيضًا عن الزهد، فقال: الزهد غفلة؛ لأن الدنيا لا شيء، والزهد في لا شيء غفلة، وقال بعضهم: لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في زهدهم في الدنيا لهوانها عندهم.

وسمعت سيدي علي الخواص يقول: ثم مقام في زهد الزاهد أعلى من هذا وهو أن يأخذ العبد الدنيا بإذن من الله تعالى كما تركها بإذن، فيستوي عنده الأخذ والترك؛ لفناء اختياره مع الله تعالى، وثم مقام أعلى من هذا أيضًا وهو من اختار ألا يكون له اختيار، فرد الحق تعالى عليه اختياره؛ لطهارة نفسه وسعة علمه، فيزهد زهدًا بالغًا ويترك الدنيا بعد أن تمكن من أخذها وأعيدت له موهبة من الله تعالى، فيكون ترك هذا المقام باختياره، واختياره من اختيار الحق تعالى، فقد يختار تركها حسًا تأسيًا بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وبالسلف الصالح، ويرى أخذها في هذا المقام الذي هو مقام الزهد في الزهد رفقًا أدخل عليه من الله تعالى لموضع ضعفه عن درك مقام الأقوياء من الأنبياء والصديقين، فدرك من بالحق للحق، وقد يتناوله باختياره رفقًا على وجه تدبير يسوسه فيه صريح العلم، ولا يمكث فيه إلا الأقوياء العارفين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة محبتهم لمن أحسوا فيهم زوال رعوناتهم وأغراضهم النفسانية، ومن أدركته على هذا الخلق سيدي محمد بن عنان، والشيخ محمد المنير، والشيخ أبو بكر الحديدي، والشيخ عبد الحليم بن مصلح، وسيدي محمد الشناوي،

---

(1) رواه ابن ماجه في «السنن»: عَنْ أَبِي خَلاَّدٍ - وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِيَ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّى الْحِكْمَةَ»** (12/ 276).

(2) ذكره ابن أبي حاتم في «علل الحديث»: عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ عَلَى عِبَادِ اللهِ مَا لَمْ يُخَالِطُوا السُّلْطَانَ وَيَدْخُلُوا فِي الدُّنْيَا ، فَإِذَا خَالَطُوا السُّلْطَانَ وَدَخَلُوا فِي الدُّنْيَا فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَاحْذَرُوهُمْ وَاجْتَنِبُوهُمْ»** فَقَالَ أَبِي هَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ ، يشبه أن يكون في الإسناد رجل لم يسم وأسقط ذلك الرجل (1 /1950).

فكان كل واحد منهم يبجل أخاه، ويرفع مقامه غيبة وحضورًا، فلا تكاد تسمع من أحدهم في حق أخيه كلمة يستحي أن يواجه أخاه بها عكس ما الناس عليه اليوم، وذلك من أعظم دليل على بقاء رعونات نفوسهم، وعدم زهدهم في الدنيا ومناصبها وشهواتها، ولو صدقوا في محبة الله لأحبوا كل عبد لله تعالى.

وقد ظفرت من العلماء والصالحين طول عمري بعشرة أنفس على أخلاق السلف الصالح، فلا تكاد تسمع من أحدهم كلمة فيها تعريض بنقص لأحد من أقرانهم وهم:

الشيخ سليمان الخضيري، والشيخ إبراهيم الذاكر، والشيخ شهاب الدين الرملي، والشيخ شاهين[1]، والشيخ شهاب الدين الوفائي، وسيدي إبراهيم المتبولي، والشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني، والشيخ سراج الدين الحانوتي، والشيخ نور الدين الطندتاي، والشيخ أحمد الزاهد[2] ﷺ فهؤلاء الذين رأيتهم محفوظين من الرعونات من أصحابي ،وأما من لم يقع بيننا وبينهم صحبة فلا كلام لنا فيهم، فابحث يا أخي على مثل هؤلاء واصحبهم ولا تصحب من كان بالضد من ذلك، فإن صحبته تغم وتكدر في الغالب، وتصير أنت وإياهم في علاج ونفاق وملق فهي إلى الإثم أقرب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا رأوا فقيرًا يتكرم على الناس بماله وثيابه وطعامه وكل شيء دخل يده أو يمدحوه على ذلك، ولا يأخذوا في معارضة الناس في مدحه ورد خصوصيته عليهم، ويقولون: إن فلانًا يفعل ذلك بحظ نفسه لا لله تعالى كانوا على

---

(1) ترجم له المصنف في الكبرى بقوله: منهم الشيخ الصالح العابد شاهين المحمدي -رضي الله عنه- أحد أصحاب سيدي الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عمر روشني بناحية توريز العجم رضي الله عنه، كان من جند السلطان الأعظم قايتباي رحمه الله، وكان مقرباً عنده فسأله أن يتركه، ويخليه لعبادة ربه ففعل، وأعتقه فساح إلى بلاد العجم، وأخذ عن شيخه المذكور ثم رجع إلى مصر فسكن الجبل المقطم، وبنى له فيه معبداً، وحفر له فيه قبراً، ولم يزل مقيماً فيه لا ينزل إلى مصر نحو ثلاثين سنة، وكان له الشهرة العظيمة بالصلاح في دولة السلطان ابن عثمان، وتردد الأمراء، والوزراء إلى زيارته، ولم يكن ذلك في مصر لأحد في زمنه وكان كثير المكاشفة قليل الكلام جداً تجلس عنده اليوم كاملا لا تكاد تسمع منه كلمة، وكان كثير السهر متقشفاً في اللبس معتزلا عن الناس إلى أن توفاه الله تعالى سنة نيف، وتسعمائة. [الطبقات الكبرى للشعراني (1/ 419)].

(2) في المطبوعة: (الهنيدي)، وفي الأسماء المذكورة هذه اضطراب وأخطاء تم تصويبها.

الضد من صفاته، وكان على هذا القدم سيدي محمد بن عنان، والشيخ عبد الحليم بن مصلح كانوا يتكرمون بكل شيء دخل في بيوتهم وجيوبهم على الفقراء والأغنياء، وإذا سمعوا بأحد من إخوانهم يذم فيه الناس جعلوا درجته فوق درجتهم، ويقولون: إن تكرمنا لا يجيء عُشر ما يحصل من كلام فلان، ولكنه يعطي الناس سرًا، ويقصدون بذلك ستر أهل الخرقة ومن تزيّ بزيهم.

وقد ذكروني بالكرم عند بعض مشايخ العصر ممن ليس هو مشهور بالكرم، فقال: هذا كله لحظ نفس ليقال، فقال له قائل في المجلس: هذا أمر لا يطلع عليه إلا الله تعالى، ونحن مأمورون بحسن الظن بالمسلمين، ورضينا منك أن تتبعه في مثل فعله، فما درى ما يقول وافتضح، وكان الأولى به أن يحسن الظن بي، فإن هذا هو الذي كلفنا به، وأما البواطن فهي إلى الله تعالى قال ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس..»** إلى أن قال ﷺ: **«...وحسابهم على الله تعالى»**[1].

فإياك يا أخي أن تسلك مسلك هذا الشيخ فتقع في الإثم، بل اتبعه في الكرم، وكثر سواد القوم الذين تزعم أنك منهم وعلى طريقهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبة القرب من العلماء العاملين ولو وقع منهم بعض إنكار عليهم إذ لا بدّ للمتشرع من بعض إنكار على أهل الطريق؛ لقلة علم الحقيقة عندهم على علم الشريعة، فلا يزالون كذلك،حتى يحصل للفقراء الكمال، فهناك يكتم علوم الحقيقة؛ لأن سلطانها إنما هو في الدار الآخرة، وأما دار الدنيا فهي محل سلطان الشريعة وكل من تعداها أخطأ، وربما ضربت عنقه، وتتخلف الحقيقة عن نصرته وعن كف الولاة عنه، وإن وقع أن وليًا خرق سور الشريعة، وحفظ من القتل والحبس والتعزير فذلك نادر.

وقد روى ابن حبان والبيهقي مرفوعًا: **«خمس من العبادة: قلة الطعمة، والقعود في المساجد، والنظر إلى الكعبة، والنظر إلى المصحف، والنظر إلى وجه العالم»**[2] انتهى.

---

(1) رواه مسلم في «الصحيح» (1/39).

(2) ذكره المتقي في «كنز العمال»: قال ﷺ: «خمس من العبادة: قلة الطعم، والقعود في المساجد، والنظر إلى الكعبة، والنظر في المصحف، والنظر إلى وجه العالم» (15/1332)، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» برقم (3966) والمناوي في «الفيض» (3/ 359).

وبلغنا أن امرأة وقفت تجاه وجه بشر الحافي تنظر إليه، فقال لها: ما حاجتك؟ فقالت: حديث بلغني، فقال لها: وما هو؟ فقالت: النظر إلى وجه العالم عبادة، فخر بشر مغشيًا عليه.

وقال: أولئك العلماء الذين درجوا في محبة الله ﷻ اذهبي إلى مقبرة بغداد فانظري إلى ألواح الموتى خير لك من رؤية وجه بشر، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: المواظبة على صلاة الجماعة، فربما مكث أحدهم أربعين سنة لم يصلِّ صلاة واحدة منفردًا، والسر في ذلك صدق اليقين لديهم في صلاة الجماعة، فقد أجمع أهل الكشف أنه ما اجتمع ثلاثة قط إلا ومنهم ولي لله تعالى يحب الله ويسعفه في رفقته في الدارين وفي الحديث: «**الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة ركب**»[1] يعني: في السفر، فانظر كيف جعل الاثنين شيطانين أي: مبعودين عن حضرة مجالسة الله ﷻ.

فعلم أنه من كشف الله عن بصيرته لا يقيده عن حضور الجماعة مفند من شياطين الإنس والجن ولذلك قالوا: إذا رأيتم المريد يتهاون في الحضور لصلاة الجماعة حتى تفوته تكبيرة الإحرام فاعلموا أنه لا يجيء منه شيء في الطريق؛ أي: فإن من لم ينهضه للحضور مجالسة الله ﷻ التي هي أعز ما يطلب في الدارين، فما بقي شيء ينهضه إلا علل النفوس وحظوظها، وتلك عادة لا عبادة، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والصلاة فرادى، فإنه الخسران العظيم في الدارين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يمدحوا كل من أحسن إلى غيره مع حرمانهم من إحسانه عكس ما عليه غالب الناس اليوم فلا يكاد أحدهم يشكر إلا من أحسن عليه هو ولو أحسن إلى غيره دونه لا يقدر ينطق بمدحه.

وقد جاءني شخص من طلبة العلم يشكر في شخص يبيع الورق ويطنب في مدحه فوق ما يستحق، ثم بعد مدة جاءني يذم فيه، ففتشت عن سبب ذلك فوجدته كان يحسن إليه بالورق الذي يكتب فيه كتب العلم فأرشده شخص إلى شخص آخر من طلبة العلم وقال: إنه أفقر من فلان فحول الورق الذي كان يعطيه له إلى الثاني، فقلت: يا أخي ما هكذا المؤمنون إنما المؤمن من يدور مع الحق حيث دار، فإذا رأيت من

(1) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (266/5)، وأبو داود (52/8).

يحسن إليك حوّل إحسانه إلى من هو أولى منك، فمن الواجب أن تحب له ذلك؛ لكونه أكثر حاجة منك إذ من الواجب عليك أن تفتش أنت على من هو أحوج إلى إحسانه وتسعى به إليه؛ لئلا يكون سببًا في نقص أجره، وهذا الخلق عزيز هذا الزمان وقليل من يقدر على تحصيله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يكون فيهم مقام الإتحاد بينهم وبين إخوانهم في المال فيكون ماله مال أخيه وحاجته حاجة صاحبه، وإذا أرسله صاحبه يشتري له حاجة فوجد الثمن الذي معه دون حق نصفها مثلاً فمن حق الإخوة أن يزد نصف ذلك الثمن من مال نفسه، ولا يعلم أخاه بذلك، بل لو حدث نفسه بإعلامه إذا استحلى ذلك في نفسه خرج عن الأخوة.

وقد ربيت شخصًا اسمه محمد السندبسطي، فكان على هذا القدم، فما أخبرني قط بما وزنه من عنده بالغًا ما بلغ، وكان يحمل أولادي ويخرج السوق فيشتري لهم كل شيء اشتهوه، ولا يعلمني بذلك، وإنما يخبرني به الأولاد، فقلت له في ذلك، فقال: الفضل لأولاد سيدي الشيخ الذين يقبلون مني ما أهديه لهم من مالهم الذي تفضلوا عليّ به، ومن بعده ما صح لي ذلك مع أحد ممن ربيتهم إلى الآن.

وكان كثيرًا ما يرهن عمامته ورداءه في السوق إذا لم يكن معه شيء ويشتري للأولاد شهوتهم، ثم يخلص رهنه بعد ذلك، فأسأل الله أن يعامله بفضله في قبره ويوم القيامة آمين اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يرشدوا النقيب إلى أن يلقي باله إلى الشفقة على الفقراء في أمر قوتهم، فلا يجيب أحدًا منهم إلى تخصيص نفسه على إخوانه بشيء، وإذا سافر أحد من الفقراء لمصلحة الفقراء فمن المعروف أن يعطيه الزاد ذهابًا وإيابًا، وإن سافر لمصلحة نفسه، وكان فقيرًا أعطاه كذلك، وإن كان معه ما يشتري به زاده لا يعطيه شيئًا إذ لا حق لمثله في طعام فقراء الزاوية، وما يأخذه من ذلك يورثه الأمراض والأسقام في جسمه كما جرب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يقيموا نقيبًا يدروز[1] للفقراء العاجزين عن الكسب في الزاوية، ويعلموهم الإخلاص في ذلك ليحل بحسن نيته عقد البخل التي في نفوس

---

(1) درز درزًا: تمكن من درز الدنيا (الدرز) موضع الخياطة، ونعيم الدنيا ولذاتها (جمع) دروز، وأم درز كنية الدنيا.

البخلاء، ويسحب للفقراء ما قسمه الله تعالى لهم بسهولة، فإن النية الصالحة تحل العقد، والنية الفاسدة تعقد المحلولات كما جرب، وإن كان النقيب غير جابي لوقف الزاوية فهو أولى.

ويجب عليه أن يعلم الفقراء أنهم إذا أخذوا شيئًا أخذوه من الناس بعزة النفس بحيث لا يصير المعطي يرى له منة عليه ولا عليّ، بل يرى الفضل لنا الذي قبلنا ذلك منه، وقل من النقباء من يقدر على ذلك، بل يحملوا شيخهم وأنفسهم منن الخلق، ويكونوا سببًا لتقصير كلمتهم عندهم لاسيما الأكابر والأمراء، فأسأل الله تعالى من فضله أن يرحم الشيخ إبراهيم رحمة واسعة، وأن يجزيه عن الفقراء خيرًا.

وقد كان من أخلاقه أنه إذا دروز للفقراء ألا يلحس مما يأخذه لهم من الفقراء شيئًا لنفسه، ولا يحدث نفسه بذلك، بل يأكل منه أسوة بغيره ممن لم يتعب فيه، وكان لا يأكل لمن له عليه خراج طعامًا، بل يأخذ معه زوادته، ويقول: إن أكلت لمن لي عليه حق طعامًا ضيعت المال الذي عنده للوقف حياء منه، ويعث الشيخ بلقمة لاسيما الولاة، وكان إن رأى الأمير متعززًا بالباشا مثلاً يقول لذلك الأمير: إن الباشا يعتقد الشيخ اعتقادًا عظيمًا، وطلب أن ينزل من القلعة لزيارته فما رضى الشيخ، وإن رآه متعززًا بشيخ استند إليه قال له عن ذلك الشيخ: إنه يعتقد سيدي قوي، ويقول: إنه يود أن لو كان من فقرائه في الزاوية فيبجل بي حتى لا يصير لذلك الأمير توجه للباشا ولا لذلك الشيخ، ثم يقضي ما شاء من الحوائج عند ذلك الأمير، فليعلم ذلك كل من عمل نقيبًا، ويعمل به بشرط الإخلاص، وأنا أضمن له أن جميع العقد التي بين يديه يحلها الله تعالى له مع محبة الفقراء له، وعدم سبهم لكونه يصطاد لهم دون نفسه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا كان طعامهم في الزاوية واحدًا ومهما دخل الزاوية فهو بينهم ألا يتعاطوا أسباب التخصيص للزراعة والتجارة، ثم يشاركوا الفقراء في الطعام وغيره، فإن ذلك ظلم وحيف، بل الواجب إذا وسع الله تعالى عليهم جعلوا ذلك القمح مثلاً في حال الفقراء لتكون لهم المنة على بأن أحدهم يأكل حلالاً، فإن طعام الزاوية إنما هو موضوع لمن هو عاجز عن الكسب، أو قادر عليه لكنه مشتغل بتحصيل ما يتعدى نفعه إلى غيره من الناس في مصالح دينهم كـ(الفقيه والمتصوف) وكل شيخ أقر جماعته على النقيب وجميع ما يحصلونه، ثم يشاركون الفقراء في طعامهم الموقوف عليهم فهو غاش لنفسه وللفقراء.

وقد سلك شخص من جماعتي هذا المسلك قهرًا على الأعذار يطول شرحها فهلك عن مال جزيل فحضره إبليس وقت طلوع روحه فما كان إلا فتنه عن دينه، وصرنا نقول له: قل: لا إله إلا الله، فصار يقول: يا مالي يا روحي كيف تأخذون المال والروح معًا؟ وخلف بعده جماعة فلم يعتبروا به، وطلبوا أن يسلكوا مسلكه، وأنا أحجزهم ليلاً ونهارًا عن ذلك، وهم يتفلتون من يدي إلى اتباع هذا الشخص، فالله تعالى يأخذ بيدنا ويدهم آمين.

فليحذر فقراء الزاوية من سلوك طريق الزراعة والتجارة إلا إن امتنعوا من مشاركة فقراء الزاوية في طعامهم وأكلوا من تجارتهم وزراعتهم، فإن ذلك يورث قلوبهم الظلمة والحجاب لاسيما إن جمع كل واحد في بيته من العيال، وكثر ما استفاده، ومنع نفسه وغيره، فإنه يضيق على الفقراء ضرورة، ويعثر طريق أرزاقهم؛ لعدم استحقاقه لتسخير الوجود له.

وقد سلك جماعة في بعض الزوايا ذلك، وصار أحدهم يعامل ويقارض الألف دينار، وأكثر فمحي الله بركة رزق الزاوية، وصاروا يأخذون الخراج عن السنة الآتية، فإياكم أيها الإخوان من مثل ذلك ثم إياكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة امتحانهم لنفوسهم إذا ادعت الإخلاص ومحبة الخمول، ومن أعظم امتحان يكون لها أن يعرض الفقير عليها ما لو ذمها إنسان عند الأكابر الذين يعتقدونه ويحسنون إليه، فإن انشرحت بذلك فهي صادقة في دعوى الإخلاص ومحبة الخمول، وإن تكدر منها شعرة فهي منافقة مرائية مشركة بالله تعالى الشرك الخفي عندها الجلي عند الله تعالى، فيجب عليها المبادرة إلى التوبة من مثل ذلك على الفور؛ خوفًا من دوام سخط الله عليها فإن لم ينشرح الفقير بتنقيصه عند من يعتقده فلا أقل من التسوية بين الذم والمدح عنده الذي هو موقف السواء.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: أقل علامات أوائل دركه: أن يتساوى عنده مدحه أو تنقيصه عند من يعتقده، ولا يفرق بين سماع الأمير ذلك، وبين سماع الحمار أو حائط ومجنون، ومتى وجد ترجيحًا لتنقيصه أو مدحه عند الأمير دون الحائط والحمار فهو مرائي خالص، انتهى.

فليعرض سيدي الشيخ في هذا الزمان ذلك على نفسه ليعرف إخلاصها أو رياءها، ولو أن الواحد منا فتش نفسه عند دخول الباشا أو قاضي العسكر أو الدفتردار مثلاً لوجد نفسه مرايا دق المطرقة، ومن هنا كان الناصحون لأنفسهم من الفقراء لا

يتعاطون قط أسبابًا تميل نفوس الولاة إليهم، ولا يرون نفوسهم أهلاً لأن يمشي إليهم زبال الحمام فضلاً عن أحد من الولاة.

وقد أوصاني سيدي علي الخواص مرارًا وقال لي: إياك أن تمكن أحدًا من الولاة أن يأتي إلى زيارتك، فإنك لا تقدر على الوفاء بحق طريقه، ولكن إذا علمت منه أنه عازم على زيارتك ولا بدّ فأرسل أستأذنه في الزيارة وأمضِ أنت إليه، فإن الملك في هذا الزمان يحتاج إلى قيام ناموس، ومجيئه إلى مثل ذلك إخلال بناموسه، انتهى.

ولما صار الباشا اسكندر بمصر يزور الفقراء بالليل في سنة ثلاث وستين وتسعمائة صحب ولد شيخنا أبي اللطف أرسلت أقول له: زيارة الفقير إنما تكون بالقلب وتعظيمهم إنما هو بالقلب، فأرسل السلام كل قليل، وإذا ورد أحد منهم في شفاعة فاقبلها فإن ذلك فيه قلة ناموس الفقراء للملك وناموس الفقراء، فأجابني إلى ذلك، ثم أرسل لي صرة دراهم مع خازنداره وطلب الدعاء له، فقلت له: نحن لا ندعو لولاتنا بفلوس، فلما رد خازندراه وأخبره بما قلت له طلب مني الإذن له في الزيارة مثل غيري فأبيت ورددت الدراهم على الخازندار، وقلت له: أنا لا آخذ الدراهم إلا بحضرة مولانا الباشا لما أطلع له، ثم أرسلت أستأذنه في طلوع القلعة فأذن لي بالطلوع، قلت له: يا مولانا إنا لا نصحب مثلكم إلا للمصالح الأخروية، ولا نصحب أحد من أجل هدية، ولا نأكل له طعامًا؛ رحمة به ورجاء لقبول عناية الله إذا نزلت، فإن من يأكل طعام الولاة يتوقف دعاؤه لهم عن القبول لما فيه من المجاملة، فإذا وقع له مصيبة وتوجهنا إلى الله تعالى لا نقدر على صحة التوجه، فارتضى مني بذلك، فقال: فأعطِ هذه الدراهم للفقراء الذين عندك، ولا تأكل أنت منها شيئًا، فقلت له: الفقراء أجنحتي يؤمّنون على دعائي لكم، فإذا أكلوا من ذلك وقف تأمينهم، فقال: قد خرجت هذه الدراهم للصلحاء والزهاد في مصر، فقلت له: فإذا ليس لي أخذها؛ لأني لست صالحًا ولا زاهدًا، فهز رأسه، فقلت له: إن من مقام الفقراء أن يساعدوا الولاة بأموالهم ودعائهم؛ لأنهم يأكلون أموالهم، وينسون الدعاء لهم، فقال الترجمان: قال له: هذا أمر عجيب ما ورد علينا مثله، فقلت: الحمد لله رب العالمين وانصرفت في عز وإكرام وحماني الله تعالى من وقوع التزين له، وما قصدت بالكلام الذي قلته له إلا إعلامه بمقام الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل مقام كون أحدهم يصير صبارًا لا صابرًا ولا متصبرًا، والفرق أن من شرط الصبار أن لو اجتمعت عليه بلايا الدنيا كلها يتحملها،

ولا يشتكي ولا يجزع ولا يشمئز بخلاف أهل القسمين الآخرين.

وقد كان أبو القاسم الجنيد - رحمه الله - يقول: المتصبر: هو من صبر في مرضاة الله تعالى لكن يجزع تارة ويصبر أخرى، والصابر: هو من تصبر في الله تعالى، وبالله تعالى، ولا يجزع، ولكن يتوقع منه الشكوى والجزع، وما خلص في قصده إلا من كان صابرًا؛ لأنه يصبر في الله ولله وبالله، وهو مقام سيدنا رسول الله ﷺ المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 127] فجعل تعالى صبره بالله تعالى لا بنفسه، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا على تحصيله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يكنوا عما يستقبح عرفًا؛ تخلقًا بأخلاق الله تعالى كما كني عن الجماع بالمس والمباشرة، وكما كني عن قبلة الأجنبية والزنا بها أو اللواط في آية: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:30]، فما قال: إن الله خبير بتقبيلهم الأجانب وأنا أنظر وإنما قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: 10] وأن المراد إنما هو النظر إلى ما حرم الله والزنا بالفرج، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا عليه فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا ثقل عليهم قيام الليل وترادف عليهم الكسل أن يفتشوا أنفسهم فربما يكون ذلك من وقوعهم في المعاصي الخفية، كالرياء والحقد والعجب والكبر ونحو ذلك، فيبادر أحدهم إلى التوبة من ذلك وفعل الأمور المكفرة للذنوب، كسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، وكثرة الاستغفار، والصلاة والتسليم على سيدنا رسول الله ﷺ، فإن الذنوب إذا كفرت عن العبد فقد طهرت ذاته، وما بقي لها منع من الوقوف بين يدي ربها في تلك المواكب الشريفة إلا عدم القسمة.

ومن أعظم مكفرات الذنوب صلاة التسبيح الواردة في السنة، فإن رسول الله ﷺ قال لعمه العباس ﷺ: «**إنك إن فعلتها غفر الله تعالى لك ذنوبك أولها وآخرها، دقها وجلها، سرها وعلانيتها**»[1] فاطلبوا أيها الإخوان معرفة كيفيتها، واعملوا بها كلما تجدوا في قلوبكم قسوة تمنعكم من دخول حضرة ربكم مع الأنبياء والملائكة والأولياء.

---

(1) رواه الخليلي في «الإرشاد» (1/199).

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - إذا وجد في قلبه شيئًا من الأمراض الباطنة يترك قيام الليل ويقول: استحيي أن أقف بذاتي المتلطخة بالقذر بين الأنبياء والملائكة والأولياء، وربما دخلت متلصصًا فأخرجني خدام الحضرة، وجروني برجلي، وقالوا: إيش دخُلك بين أصفياء الله تعالى في حضرته أما تخشى من مقت الله تعالى بك؟! انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يسوسوا كل عدو يكون لهم عند الأمير الذي يشفعون عنده في المظلومين، فتارة يسوسونه بالهدية، وتارة بإرسال السلام له وإظهار المحبة له، وتارة بمدحه في المجالس، وتارة بوصفه بأنه واسطة خير عند الأمير ويغالطونه، وهذا خلق يحتاج إليه الفقير إلى هذه الأيام حيث فقد الحال التي كانوا يدخلون على الحكام، وبيوت الحكام في قديم الزمان لا تخلوا من واسطة إلا في حالة الفقير، فصارت الآن بالضد من ذلك لا يوجد فيها إلا من ينفر الأمير من الفقير إما لعدم استحقاق الفقير لذلك الأمر، وإما لعدم استحقاق المشفوع فيه ذلك.

وكان سيدي أحمد الزاهد - رحمه الله - يقول: من لم يكن له حال يحميه من المعارضين له في بيوت الحكم فشفاعاته ناقصة؛ لأن ذلك العدو الذي عند ذلك الأمير يعارضه في كل شفاعة ويحمله على المحامل السيئة، انتهى.

ثم لا يخفى أن العدو الذي لا يتظاهر بعداوته أشد من العدو الظاهر لكونه يلبس على الأمير الأمر في صورة النصح حتى ينفره من ذلك الفقير، ويعتقد الأمير أن ذلك إنما هو نصح له بخلاف العدو الظاهر فربما يظهر للأمير عدوانه للفقير، فيصير لا يصغى له في حق الفقير أبدًا.

وقد ابتليت أنا بعدو خفي في بيوت الحكام لم يزل عند القضاة والدفاتر ومشايخ العرب، فلا أرسل للأمير شفاعة إلا ويأخذ في معارضتها بالقلب والتعريض بتنقيصي وتكميل أقراني، ورفع درجتهم عليَّ ويقول: أجمعت الناس أنه ليس في مصر الآن أحد أعلى مقامًا في الطريق من فلان الفلاني؛ ليحول قلب الأمير عن الاعتقاد فيَّ ورد شفاعاتي، فأسأل الله تعالى أن يتوب عليه من ذلك، وأن يجزيه عليَّ خيرًا من حيث كونه سعي في صرف قلوب الأمراء عنِّي؛ لكون ضررهم على الفقير يغلب على نفعهم له، ولما تمادى في المعارضة في الشفاعات التي أشفعها أرسلت أغالطه وأقول له: يا أخي لا تتعب نفسك في المساعدة لي عند الأمير في الشفاعات إلا إن ظهر لك أن

ذلك مصلحة للأمير وكل شيء رأيت مصلحته وعلى إذن[1] الأمير، فإني أذنت لكل معارض أن يعارض في ذلك واشكره عليه، وليس لي على الأخ إلا المساعدة في كل أمر ترجع مصلحته للأمير في الآخرة، فإن ذلك لا يجوز لمحب الأمير أن يعارض فيه، انتهى.

فمن ذلك اليوم أخفى معارضته بالكلية، وصار يستحيي أن يُخالف، مخافة أن يظن فيه من المساعدة لي، ولو أني قلت له: بلغني أنك تعارضني، وتحرك الأمير ضدي، تحركت نفسه عليه وصار يحقق الأمر في المعارضة، فعلى الفقير أن يسوس الذي عند الأمير، وليصير على ما شفع فيه، وللأمير والمشفوع فيه ويصير صديقًا لكم لو احتجت لصديق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يرشدوا إخوانهم إلي على أن يجعلوا كلمتهم متوجهة إليهم؛ وذلك ليسهل على الفقراء قضاء حوائجهم على يدهم، فإن الفقراء في كثرة الإقبال عليهم والإدبار عنهم حكم طريق أهل الله تعالى إذا أعطاه العبد كليته أعطته بعضها، وإن أعطاها العبد بعضه لم تعطه شيئًا، فاعطِ يا أخي كليتك لشيخك إن طلبت أن يكون لك في الشدائد، ويرد عنك الأقدار المعلقة على شفاعته فيك عند الله تعالى أو عند الخلق، وإلا فلا يقدر شيخك أن ينفعك بشيء؛ لأن العمدة على صحته توجهك إلى شيخك لا على شيخك، فإن ظننت فيه أن الله تعالى لا يرد له شفاعة صحت شفاعته فيك، وإن شككت في ذلك توقف قبول شفاعته فيك، وقد جهدت كل الجهد أن أواصل إلى من هو مستند إلى غيري من الفقراء منفعة فلم أقدر، ولما مرضت أم سيدي محمد العبادي وطلبت مني النجدة لم أقدر على إيصال شيء إليها بدعائي، وكذلك ولدها سيدي يحيى؛ لكونهما كانا مستندين إلى شخص من الفقراء غيري، فلما ألحوا في كتابة ورقة لهما كتبت لهما: اللهم ببركة فلان، وبركة اعتقادهما فيه عافهما، واشفهما إن كان ذلك معلقًا، وإن كان مبرمًا فأغفر لهما وارحمهما.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وأعطوا شيخكم كليتكم، ثم طالبوه بالوفاء بجميع مهماتكم في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يذكروا إخوانهم كل قليل بنعمة الله تعالى التي أسبغها عليهم، ويعلموهم بأنهم لا يستحقون تلك النعمة، ولا يقدرون على القيام بشكرها،

---

(1) في المطبوعة: (دن) وهو خطأ ظاهر.

وإن كان لأحدهم عيال زائد على عيال أقرانه، ويأكلون من طعام الفقراء بأمره بالخدمة في الزاوية أكثر من غيره إذ النفوس تكره شفوق غيرها، فإذا أكثر من تميز عنهم بكثرة الطعام مثلاً الخدمة لم يستكثروا عليه ذلك [السعي] في خدمة الفقراء.

وإن رأى شيخ الزاوية كفر المجاورين لما عندهم من الخير، وكونهم واسطته وأمرهم بشكره ليقوموا بشكر الله تعالى على النعمة بخلاف ما إذا كفروا نعمة الواسطة فكما يكون الواسطة وهو الشيخ سببًا للنعمة يكون سببًا لزوالها بت وجهه إلى الله تعالى في ذلك.

وليحذر الفقراء أن يظنوا بالشيخ أنه إنما يذكرهم بنعمة الله تعالى التي كان واسطة فيها على سبيل المنّ عليهم، فإن ذلك بعيد عن الأشياخ إنما يحذرون إخوانهم من الوقوع في كفران نعمة الوسائط من حيث هي وسائط، ولا يقصدون تخصيص أنفسهم بذلك الشكر، وهذا يقع فيه كثير من جهلة المريدين، ويظنون أن الشيخ يمنُّ عليهم بتذكيرهم الشكر له من حيث كونه واسطة في جر أرزاق الفقراء إليه، وليس هناك أحد يجر لهم أرزاقهم غيره، والأشياخ منزهون عن طلب الشكر لهم لحظ نفس، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وقوموا بواجب حق نعمة الله التي عليكم بواسطة شيخكم بحكم العادة في ذلك، ونزهوا الشيخ عن قصد المنة بذلك عليكم، وإن كانت صورة لفظه صورة لفظ من يمنُّ، والحمد لله رب العالمين[1].

---

(1) قال المصنف في تطهير الزوايا: وينبغي للشيخ: أن يبالغ في زجر من يخرج عن طاعته من المجاورين، ولا يتأهل في ذلك؛ لا سيما إن عاد من ذلك ضرر على غيره من المجاورين؛ كعدم تقرب أحد منهم بعد ذلك، قياسًا على ما جرى له مع ذلك المجاور الذي خرج عن طاعته، وأكثر الفساد أن يفتح أحد على إخوانه باب المقاصرة في الخبز والطعام، وكفران نعمة الله التي أجراها على يد الشيخ؛ فإن الله تعالى يحول النعمة حين تكفر، وما دام الفقراء معترفين بنعمة الله تعالى عليهم؛ فالنعمة مخلدة عليهم، ولكن إبليس بالمرصاد لكل مكان رأى فيه خيرًا كثيرًا وسماحةً عظيمة، فيوسوس لأحد الفقراء بالطعن في الشيخ والجابي مثلاً، ويتهمونهما بأنهما يأكلان حق الفقراء؛ والحال أنهما بريئان من ذلك، فيحول الله تعالى تلك النعمة عنهم، تشتت شملهم، وتبطل تلك المجالس التي كانت لهم في الذكر، والعلم، والمناقشة، وتصير همتهم كلها لبطنهم وفرجهم؛ فاعلموا ذلك أيها الإخوان وسدوا باب الاعتراض على شيخكم، وعلى كل من أقامه عليكم من جابي وغيره، واستغنموا مجالس الذكر والنصح وهدوء السير في حياة شيخكم؛ فإن الخيرات اليوم قد قلت من زوايا الفقراء كما هو مشاهد، ووالله إن حكم الخير الذي في زاويتنا الآن كالتيغار الماء، الذي تصدّع وتكسّر من سائر الجوانب، وهو يخر الماء منها الذي هو كناية عن خروج دين الإنسان من قلبه وجسده، فيحتاجُ من يريد جمع فقراء الزاوية كلهم على

ومن أخلاقهم: إذا حجوا ألا يخصوا نفوسهم عن إخوانهم بشيء من المنافع إلا لعذر شرعي هذا وإن كان من شرط الفقراء في كل وقت، لكنه في الحج آكد منه في غيره، فليحذر الفقير كل الحذر أن يحج في محفة أو محارة، أو يصير يأكل الطعام اللذيذ، ويرى الفقراء والمساكين مشاة حفاة يعرجون أو مرضى، فلا ينزل من محفته أو محارته ويركبهم مكانه ويمشي، أو يركب على الراحلة بلا محارة، أو يصير يأكل اللحم القديد والسمن والعسل النحل ويقف عليه السائل فلا يدعوه يأكل معه، أو لا يعطيه كسرة يابسة، فإن ذلك خروج عن طريق الفقراء، وما رأت عيني في الحج أكثر فتوة من الأخ الصالح الشيخ أحمد الهنيدي المقيم بناحية منبوبة كان يعطي غداه للسائل ويطوي، ويُركِبُ الفقراء جماله ذهابًا وإيابًا، ولقد رأيته في صباح ليلة باردة لما ماتت جماله وبقي معه حمار واحد، فصار يُركب عليه العجوز، أو الرجل العاجز ويؤثر على نفسه مع أنه لا يقدر على المشي، فكان يقبض على مقود الحمار بفمه ويحبو على يديه ورجليه، فلما رأيته على هذا الحال بكيت عليه وعرفت مقامه في الفتوة، وكان قد قال لحماره: أنه عندما يدعو العجزة ثم لأركبهم على ظهرك وهم غير صادقين فمن رأيته غير صادق منهم فابرك به، وإن كان صادقًا فاحمله، فكان الحمار يطيع هذا الحكم حتى وصل إلى مصر، فمثل هذا هو الذي يجوز بكلتا يديه.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من أدب الفقير إذا حج ألا يرى نفسه بماله وزاده من إخوانه المسلمين، وإذا وقع عطش أن يشرب كأحدهم من غير زيادة، ومتى شرب أكثر منهم فقد خان الصحبة، انتهى.

وسمعت سيدي محمد المنير - رحمه الله - يقول: ليس الفقير إذا وقع موت الجمال، وغلت الأسعار أن يخص نفسه عن إخوانه بركوب أو طعام أو شراب زيادة على إخوانه المسلمين من عرفه ومن لم يعرفه حتى إنه لا يرجع من سفر الحج وعليه أوقية لحم.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: من أدب الفقير إذا حج أن يؤثر إخوانه المسلمين عليه في المناهل، والمضايق، فلا يسابق على ملئ الماء والخروج من المضايق، أو يؤخر أخاه، حتى يفنى الماء، ويصير يملأ من الوحل، أو

-

الخير إلى صبر شديد؛ فإن جميع ما يفعلونه من الخير إنما هو أمور مستعارة لا دوام لها.

يؤخر جماله في الزحمة حتى يقع أحمالها، وتنعصر أضلاعها، ومن فعل ذلك فهو لم يشم من فتوه الفقراء رائحة، انتهى.

ولما حججت سنة ثلاث وستين وتسعمائة شرطت على إخواني المجاورين الذين يسافرون معي في تلك السنة ألا يتخصص أحد منهم عن أخيه بطعام ولا نقد ولا ركوب إلا لعذر يعذره فيه صاحبه، وقلت لهم: إن لم تحجوا على هذه الصفة، وإلا لم أسافر بصحبتكم فبايعوني على ذلك ووفوا بذلك ذهابًا وإيابًا، فأسأل الله تعالى أن يزيدهم من فضله في الدنيا والآخرة، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: كل فقير لا يوطن نفسه في سفر الحج على مشاركة جميع من في الركب من أمير الحاج إلى آحاد المشاة من الفقراء في همومهم فعدم حجة النقل أولى له صيانة لخرقة الفقراء عن الطعن في أهلها، انتهى.

ولما حججت سنة ثلاث وستين مع عيسى أمير الحاج شرطت على نفسي ألا أتهنأ بنوم ولا بأكل ولا شرب حتى يرجع أمير الحاج والناس كلهم له شاكرون، فإن من عيب الفقير ألا ينظر إلا إلى نفسه، وهو من هموم أميره غافلاً عن سؤال الله تعالى أن يبيض وجهه عند السلطان وعند سائر الحجاج لاسيما إن كان أمير الحج محسنًا، وإن كانت عليه نوبة الغفارة فعليه أن يرد الغارة، ومما ينبغي لكل فقير أن يعوذ الركب صباحًا ومساء بالآيات والأذكار الواردة في القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأوراد المشايخ وإذا رأى جملاً قد تعب يتوجه إلى الله تعالى أن يمد ذلك الجمل بالقوة حتى يرجع إلى بلاده.

وبالجملة فمن شرط الفقير أن يكون في جهد وتحمل هموم من حين يخرج من داره إلى أن يرجع إليها، وإذا كان يوم عرفة لا يأكل ولا يشرب، إلا أن ألقى الله تعالى في قلبه أنه تعالى غفر لجميع أهل الموقف، وإذا كان بمكة فليجعل معظم دعائه لإخوانه ويؤخر نفسه، وكذلك يشرب من ماء زمزم على نية الشفاء لأبدانهم من جميع العلل والأمراض، وعلى نية الري يوم العطش الأكبر ونحو ذلك فقد لا يقسم الله للفقير العود ثانيًا إلى تلك الأماكن الشريفة المستجاب فيها الدعاء، فكان من فتوته إيثار غيره عليه من الدعاء وغيره وأجره على الله تعالى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: يخلع على الحاج خلعتان أحدهما: عند الحجر الأسود وقت الطواف من طواف الوداع، والثانية: تجاه وجه سيدنا

رسول الله ﷺ لتقر عينه ﷺ بأمته.

وعلامة صحة الخلعة الأولى: أن يزداد العبد إيمانًا بأحوال يوم القيامة حتى كأنها رأي عين.

وعلامة الخلعة الثانية: أن يصير العبد متخلقًا بالفضائل والأخلاق المحمدية حتى لا يكاد يخل بشيء منها إلا من عدم قسمتها له لا غير، ويود لو أنها قسمت له فتخلق بها، وما احتاج فقير إلى شيخ يسلكه بعد أن حج إلا لإخلاله بآداب الحج وعدم كمال خلعته، ولو كانت خلعته كاملة لاستغنى عن الأستاذ.

فعلم أن من حج مع شيخه وخالفه فيما يأمره به من الإيثار والمواساة والآداب، فقد تعرض للمقت، وغاية حجه بذلك الدراهم من حلال أو حرام وشبهة، والتفرج على الأودية والجبال مع حرمانه من المواهب، فاحذروا من مثل ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

الباب التاسع

في جملة أخرى من الأخلاق

ومن أخلاقهم: إذا كان في ركب الحج شخص من أقرانهم أن يعظموه في عين أمير الحاج، ويظهروا ترددهم إليه المرة بعد المرة حتى يقول أمير الحج وجميع أهل الركب ألا إن فلانًا أعظم مقامًا من فلان، وكان فلان وجماعته يترددون في ذلك فأكلم أحدًا منهم ثم أناصح الناس تعظيم ذلك الشخص الذي ناصحتهم عليه، وصار الناس يسألونه الدعاء وقت خوف أو عطش مثلاً فكنت أتوجه إلى الله تعالى أن يستره مع أمير الحج وغيره فما كان لهم حاجة إلا قضيت حماية للخرقة.

وليحذر المفضول كل الحذر أن يشمت بذلك الشيخ المدعي الولاية إذا سأله أمير الحج أو غيره في حاجة ولم تقض وفروا عنه وقل اعتقادهم فيه، فإن الشماتة بالمسلم ليست من شأن الفقراء وإنما هي من شأن الفسقة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من شرط الفقير إذا حج أن يخفي نفسه ولا يدعي قط أنه من الفقراء خوفًا أن يفتضح إذا عطش الناس مثلاً وسألوه المطر، وإن علم أن الله تعالى يجيبه إلى سؤاله، وينزل المطر بدعائه فليرسل الناس إلى

أحد من الفقراء الذين في الركب يسألونه الماء من المطر، ثم يتوجه هو إلى الله تعالى التوجه الكامل بحيث لا يشعر به أحد فإذا أنزل المطر بدعائه أظهر أن ذلك من دعاء ذلك الفقير الذي أرسل الناس إليه، ثم يأخذ أصحابه، ويذهب إليه يشكر من فضله، ويقبل يديه بحضرة الناس حتى يتحققوا أن نزل المطر إنما كان بدعائه، انتهى[1].

---

(1) فائدة ملحقة بالمذكور: ومن أخلاقهم: إذا حج أحدهم ورجع إلى بلاده أن يبدأ بإخوانه بالسلام، ويذهب هو إلى بيوتهم ويسلم عليهم، ولا يحوجهم إلى الذهاب إليه، ولو كانوا دونه في المقام عادةً، وفي ذلك من التواضع ورياضة النفس وتهذيب أخلاق الإخوان. وقد دخل أبو حفص النيسابوري بغداد فبدأ بمنزل أبي القاسم الجنيد، فسلم عليه؛ لئلا يحوجه بالمشي إلى المشي له، فتعانقا وتحادثا مليًا، ثم خرج أبو حفص إلى مكانه، فما استقر إلا والجنيد عنده، فسلم عليه ثانيًا، ثم قال: ذلك فضلك وهذا حقك انتهى. فليحذر الفقير إذا حج أن يحوج أحدًا من أكابر العلماء والصالحين أو الأمراء أن يأتوا إليه، بل يبدأهم هو بذلك، إلا أن يترتب على ذهابه إليهم لوث بعرضه يرجح ضرره على ضرر عدم الذهاب، فهناك يعمل بالأرجح، ولا يذهب إلى أحدٍ منهم.

وقد سمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: إياك أن تلتفت إلى مجيء أحد يسلم عليك إذا رجعت من سفر الحج، لاسيما أكابر الناس، فإن ثواب حجك لا يجيء من حق طريق واحد منهم، فيجب عليك رد النفس عن طلب زيارتها ما أمكن، فإن كل من لم يأته فقد عتقها من منته عليها، ولكن إن جاءه أحد مع غير قصدٍ فأشكر الله تعالى، وكافئه على ذلك بقضاء حاجة له، أو تودد لزيارته، أو هدية ترسلها إليه ونحو ذلك، وهذا الخلق يخل به كثير من أصحاب الرعونات المتمشيخين بأنفسهم، حتى أن شخصًا من تلامذة سيدي علي المرصفي(1) حج فلم يأتِ إليه سيدي علي، فانقطع عن زيارته إلى أن مات، وهذا الأمر واقع في غالب فقراء هذا الزمان، فيعادي أحدهم من لم يسلم عليه ويهجره إلى أن يموت، وربما كان أحدهم أكبر نفسًا من الأمراء، أو هو يظن بنفسًا نيته من الصالحين، وقد وقع أن الأمير حمزة كاشف الغربية، والأمير خضر كاشف الشرقية والقليوبية لما حجا سنة اثنين وستين وتسعمائة أتيا إلى زيارتي، قبل أن آتي إليهما، فعلماني بذلك التواضع من كونهما من الولاة، ولم يروضوا أنفسهم، ولم يدعيا الصلاح، فإذن هما أحسن من كثيرٍ من مشايخ الزمان، الذين تأنف نفوسهم أن يبدءوا بزيارة أحد من الولاة والفقراء إذا رجعوا من الحج، وربما ظن أحدهم بنفسه الصلاح، وأنه غفر للحاج تلك السنة بسببه، وربما سمع من يقول بذلك في حقه فيسكت ولا ينكره، فيرجع من مكة ممقوتًا، ولذلك قالوا: إذا حج جارك فحول باب دارك: أي لأنه لا يرجع من الحج يرى نفسه عليّ، ويقول: ذنوبي قد غفرت كلها بالحج بخلاف جاري، فيُقال لمثل هذا: فإذا غفرت ذنوبك قدم على احتقار نفسك، ورؤية عيوبك، خوفًا أن تموت في تلك السنة، فلا يقع لك بعدها حج، فتذهب إلى الآخرة بكل ذنبٍ يعادل ذنوبك السابقة.

ولما حجَّ سيدي علي بن وفا ﷺ عطش الحاج حتى أشرفوا على الهلاك فأتوا إليه، فأنشد موشحه الذي أوله:

اســــقِ العطـــــاش تكـــرمًا فالعقـــل طـــاش مـــن الظمـــا

فنزل المطر في الحال كأفواه القرب، فإن كنت يا أخي مثل سيدي علي هذا - قدس الله سره - فلك أن تظهر أنك من الصالحين في الحج وإلا فأخفِ نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا مات لأحدهم والد أو ولد ألا يكثروا من ذكر صفاته الحسنة وكشوفاته الصحيحة، فإن أحدهم متهم في ذلك مع ما فيه من تزكية النفس، فكأن لسان حاله يقول: نحن كلنا من بيت صلاح، وليس الصلاح طارئ علينا وهذا الأمر يقع فيه كثير من المتمشيخين بأنفسهم الذين لا سلف لهم في المشيخة ولا ضريح لوالد ولا لجدهم، فليحذر الفقير من مثل ذلك فإنه من علامات الرياء، وقد قالوا: من أكمل كمالات الصوفية كتمان كمالاتهم عن الناس إلا إن أمروا بإظهار ذلك في بواطنهم، فإنهم في هذه الحالة لهم أن يظهروا الإلهام الصحيح، وقد مر السيد علي بن أبي طالب يومًا على الناس بغير أمر دعاه إلى ذلك، فقال السيد علي: اعرفوني أنا فلان العالم، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا اعتقدهم الباشا أو غيره من الأكابر، وأرسل يستأذنهم في زيارته لهم أن يكتموا ذلك عن الأجانب ولا يذكروا ذلك إلا لإخوانهم بغرض صحيح، وهذا الخلق يخل به كثير من المتمشيخين، فيصير أحدهم حكويًا يذكر ذلك لكل من دخل عليه، وذلك دليل على الإفلاس من أحوال الفقراء، ولو أن أحدًا من الأشراف أو الفقراء الذين لا يؤبه لهم ممن لو أقسم على الله لأبر قسمه زاره لم يحك ذلك لأحد ولا افتخر به.

وقد تقدم عن سيدي علي الخواص أنه كان يقول: إذا علم أحدكم أن أحدًا من الأكابر عازم على زيارته ولا بدّ، فليأت هو إلى ذلك الأمير، ويقول له: أنا فلان الذي بلغني أنكم كنتم عازمين على زيارتي، ثم إن أعطاكم شيئًا من الدنيا فردوه عليه وقولوا له: قد أخذ علينا مشايخنا العهد ألا نقبل من أحد شيئًا من الدنيا إلا عند الجوع الشديد، فإن قال لكم: فرقوه، فقولوا له: من جمعها فهو أحق بتفرقتها، ولو كانت من كسبنا

لفرقناها، انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يمتحنوا من أراد صحبتهم من الولاة قبل أن يدخلوا في صحبتهم ويتبعوا نفوسهم معهم، وذلك كأن يحسنوا في عينه حال أحد من أقرانهم، فإن مال بقلبه إليه فقد أراحهم من التعب، وإن لم يمل عنهم بقلبه، فهو صادق في محبة الفقراء وصحبتهم، وهذا الأمر يخفى على كثير من الولاة وهو يبين صدقهم في محبة الفقير من كذبهم.

وقد بلغنا أن شخصًا من العباد نزل من صومعته إلى عين ماء ليتوضأ منها فرأى هناك امرأة شابة من أجمل النساء فشخص ببصره إليها، فقالت له: ألا تتوضأ؟! فقال: حبك قد أشغلني عن الوضوء، فقالت له: فلو رأيت أختي هاتيك لرأيتني لا أصلح خادمة لها، فالتفت فصفعته وأسقطت عمامته، وقالت: آه يا كذاب، ثم اختفت عنه في الحال فلم يدر أين ذهبت، انتهى.

هذا الامتحان يتعين على الفقير الصادق الذي يشارك الولاة في همومهم ومصائبهم، فاعلموا ذلك أيها الإخوان إن عملتم مشايخ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إظهار التقشف والرضا باليسير من الدنيا في الأمور الدنيوية والأخروية تعرضنا لمحبة الله ومحبة خلقه لهم بخلاف من كان بالضد من ذلك من الشراهة، فإن القلوب تمقته، ومقت قلوب المؤمنين لعبد عنوان على حصول المقت له من الله تعالى.

وفي بعض الكتب الإلهية: إن الله يحب من عبيده الحامدين له على اليسير.

وفي مناجاة السيد موسى ﷺ: إذا جاءتك باقلاية مسوسة فاشكرني عليها، فإني مهديها إليك، انتهى.

وقد ذكرنا في كتاب «منهج الصدق والتحقيق» أن من عباد الله تعالى من لو أعطى الدنيا بأسرها لم يقنع بها إظهارًا للفقر والفاقة، ولا يقنع إلا برؤية الله ﷻ، وإن من الرجال من يزداد محبة في الحق تعالى كلما اتسعت عليه الدنيا، وإن منهم من يزداد فقرًا إلى الله تعالى كلما وسع عليه الدنيا، وإن من قنع باليسير من الدنيا فهو دني الهمة

قليل المروءة، فلكل رجال مشهد وحدود وشروط كما يعرف ذلك أهل السلوك إذ الوجود كامل وكماله إنما يكون بتقرير مراتبه كلها في يد أهلها، ومتى نقص الوجود مرتبة واحدة في مشهد ولي فهو علامة على نقصه أي الولي، وسمعت سيد علي الخواص - رحمه الله - يقول: لأهل البدايات أحكام، ولأهل التوسط أحكام، ولأهل النهايات أحكام، فلا يكلف الأدنى بشروط الأعلى، ولا يؤمر الأعلى بالنزول إلى مقام البداية إلا لتعليم ونحوه، وكان ﷺ يقول: أكره للمريدين سؤال الأكابر شيئًا من الدنيا، ومن فتح هذا الباب عليه لم يفلح، انتهى.

وقد أدركنا بحمد الله تعالى نحو مائة وخمسين شيخًا فما رأينا أحدًا منهم سأل أميرًا ولا غيره شيئًا من الدنيا لا قمحًا ولا عدسًا ولا عسلاً ولا دراهم إنما كان أحدهم يشد على بطنه بالمنطقة، ويقنع كل يوم بزبيبه أو ثمرة منهم الشيخ مرشد القادري، والشيخ تاج الدين الذاكر والشيخ يوسف الحريثي، وولده سيدي أبو العباس[1]، وبطن الشيخ عبد الحليم بن مصلح لا جوف لها ملتصق البطن بالظهر وهذا بخلاف حال هؤلاء الذين نراهم في النصف الثاني في القرن العاشر، فإن بطونهم منتفخة مع السمن مع أن لحسبهم من سؤال الأغنياء، ومشايخ العرب وغيرهم من الولاة، فصار الشيخ منهم كرش ككرش الظلمة حتى صار الحمار لا يحمل أحدهم كما أخبرني به بعضهم

(1) هو أبو العباس الحريثي، شيخ زاهد ديّن، فضله ظاهر بيّن، وصوفي صادق، محدث بالحق ناطق، وافر التواضع، لين الكلام، محب لحديث المصطفى ﷺ، يجتمع بأهل العلم، ويلازم أهل الفضل والحلم، جمع المحاسن، ما تعبّده غير آسن. أخذ الفقه والحديث عن والده، ثم القسطلاني، والطريق عن ابن عنان رحمه الله، ثم المرصفي، وأذن له في التربية، فلقن بمصر وقُراها، نحو عشرة آلاف رجل.

وعمّر عدة مساجد، وكان له قبول تام بحيث يزدحم الناس على غسالة يديه. مكث أربعين يوما في الخلوة، ولم يكن عنده دعوى لمقامات الطريق، بل إذا ذكر له شيء من ذلك، يقول: استراحت العرايا من شر الصابون. وعارضه أحد أرباب القلوب من فقراء مصر وأخرجوه منها، واتهم بعمل الكيمياء، ولما رأوه يعمّر الجوامع، تحاشوه.

ومن كراماته أن الشيخ الشعراني رحمه الله طلع به بواسير، فشكا إليه فقال: غدًا تزول في صلاة العصر، فكان كذلك. مات بدمياط سنة أربع وأربعين وتسعمائة، ودفن بزاويته بها. انظر: الطبقات الشعرانية (170/2)، الكواكب السائرة (93/2)، الشذرات (261/8)، جامع الكرامات (927/1).

حين رأيته راكبًا فرسًا، فقلت: الفرس يحتاج إلى عليق وخدمة، فقال: الحمار لا يقدر يحمل جثتي، فقلت له: خفف الأكل وأنا أضمن لك أن جسمك يخف حتى يصير الحمار الهزيل يحملك فلم يدر ما يجيبني به.

وطلع شخص من هؤلاء في شفاعة عند الوزير على فردّ شفاعته، فقال الناس: لا تردوا شفاعة الشيخ، فقال: ليس هذا بشيخ إنما هو ممن يكرهه الله تعالى، فقالوا له: كيف؟ فقال: إن في الحديث: «**إن الله تعالى يكره الحبر السمين**»[1] والحبر هو العالم، وإنما كرهه الله تعالى؛ لأنه لم يعمل بعلمه في الورع، ولو أنه تورع لم يجد من الطعام ما يسمنه، انتهى.

فانظر يا أخي فراسة الولاة، وإياك أن تجمع عندك فقراء وتصير تسأل الناس من الأمراء وغيرهم مع قدرة أحدكم على الكسب بالحرف والصنائع، فإن ذلك ممحقة للدين، ولا تغتر بمن كان على هذا القدم من السلف الصالح كسيدي يوسف العجمي، وسيدي عثمان الخطاب[2]، فإن أولئك كانوا أصحاب كشف، فكان يكشف لكل واحد عما عند الناس من رزقه ورزق جماعته حتى ربما قال: كشف لي الليلة أن عند فلان للفقراء كذا وكذا يأتي به في وقت كذا وكذا، فيأتي به فلان في ذلك الوقت، وكانوا يحمون نفوسهم وأصحابهم من ذل السؤال، بل يزداد احدهم عزًا عند الناس كلما سألهم ويصير ذلك الأمير يفرح بسؤالهم، ويقول: أرسل لي سيدي الشيخ يطلب كذا وكذا وجبر خاطري، فالله ينفعنا ببركاته، فاين أنت منهم يا من هو أعمى القلب وبطنه كالمرحاض الذي فاض، وتنقبض وجوه الناس من كثرة سؤاله ويحتقرونه، ولا يصير له جاه عندهم ليشفع عندهم به في مظلوم، وقد أرسل لي واحد من هؤلاء المدعين يقول

---

(1) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» وقال: رواه البيهقي في «الشعب» من حديث محمد بن ذكوان عن رجل عن كعب من قوله بلفظ (يبغض) وزاد (وأهل البيت اللحمين) وقيل في تأويل الجملة الزائدة: هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس، قال البيهقي: وهو حسن لكن ظاهره الإكثار من أكل اللحم وقرانه بالجملة الأخرى كالدلالة على ذلك، ولأبي نعيم في «الحلية» من جهة سيار حدثنا جعفر سمعت مالك بن دينار يقول: قرأت في الحكمة «إن الله يبغض كل حبر سمين» (1/ 207).

(2) ذكره سيدنا المصنف في الطبقات الكبرى (1/333، 334)، وأثنى عليه ثناءً عظيمًا.

لي في ورقة: حصل عندي طارئ ورجائي أن ترسل لي عشرة أرداب قمح، فقلت له: وأنا حصل عندي ما دعاني ألا أعطيك، فتكدر ثم قال: إنما سألتك؛ لأني رأيتك بابًا من أبواب الخير، فقلت له: لو كنت صادقًا لم تتكدر؛ لأني إذا منعتك فأنا أيضًا باب من أبواب الحق، ففارقني وأرسل لعيسى شيخ العرب يطلب منه قمحًا فأمر له بشيء من الدنيا، فقال الحاضرون له: أنت عازم على سفر الحج في هذه السنة، وتحتاج إلى زيادة النفقة، فقال: فماذا أصنع؟ هؤلاء ذهب ماء الحياء من وجوههم وأنا أستحي أن أردهم، انتهى.

فقد علمت إن أكل الفقير مما يعطيه هؤلاء الولاة له يستحيل نارًا يوم القيامة من جهة عدم حله في أصله، ومن جهة كونه يؤخذ ذلك بسيف الحياء، وقد أشار إلى ذلك الحديث أن رسول الله ﷺ كان يعطي العطاء ويقول: **«يذهب أحدهم بعطيته من عندي يتابطها نارًا»** فقال له عمر: يا رسول الله فلما تعطيهم نارًا، قال: **«فما أصنع يا عمر؟ يأبون إلا أن يسألوني، ويأبى الله لي البخل»**[1] انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك، واحم خرقة الفقراء الذين تزعم أنك على طريقهم بالعفة والقناعة، ولو أتوك به من غير سؤال لأجل توقع قبول شفاعتك عندهم في مظلوم ونحو ذلك، فإن كل من يشفع عندهم يجب عليه الرد إلا لضرورة شرعية مرجح نفعها على قبول ذلك الشفاعة.

وقد كان الشيخ نور الدين الخضري بجامع يرد كل ما يعطيه له الولاة، ويقول: قبولي ذلك ولو بقصد تفرقته على غيري من المحتاجين يسقط جاهي عندهم، فلا يصير أحدهم يقبل لي شفاعة،ووالله إن كل شفاعة قبلت أرجح عندي من أن أتصدق بألف قنطار ذهبًا من مال هؤلاء، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

---

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي سعيد الخدري قال : دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه في ثمن بعير فأعانهما بدينار، فخرجا من عنده، فلقيا عمر بن الخطاب وأثنيا وقالا : معروفًا وشكرًا على ما صنع بهما رسول الله ﷺ فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالا، فقال رسول الله ﷺ : «لكن فلانًا أعطيته ما بين عشرة إلى مائة فلم يقل ذلك إن أحدكم يسألني فينطلق بمسألته يتأبطها وهي نار» فقال عمر : يا رسول الله فلم تعطنا ما هو نار ؟ قال : «تأبون إلا تسألوني ويأبى الله لي البخل» (519/6).

ومن أخلاقهم: معرفة زمانهم ولا يطلبون أن يبرز فيه إلا ما يشاكله عملاً بحديث: **«إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة»**[1] انتهى.

ولا بدّ من وقوع كل ما أخبر به ﷺ، فإذا ارتفع تلميذ أحدهم وعظم شأنه وعظمه وزاره الأمراء، وقدموه على شيخه لا يتكدر شيخه، بل يعول على حديث الصادق الصدوق ﷺ ولا يشغل بسبب ذلك المريد ولا بإظهار نقصه بين الناس إلا لغرض صحيح، وكذلك لا يتلفظ بنحو قوله: فلان من تلامذتنا؛ لأن في ضمن ذلك إظهار مقامه على ذلك التلميذ من غير فائدة؛ لأن الله تعالى لو كان أراد ارتفاع الأكابر ما رفع الناس التلامذة على أشياخهم، ولو أن الشيخ في هذا الزمان أقام البرهان على أفضليته على مريده الذي رفعوا مقامه عليه لم يقبل الناس منه ذلك.

ومما وقع لي أنا أنني أعرف من بعض أصحابي الآن رفعهم مقامي على مقام أشياخي، كالشيخ سليمان الخضيري، وسيدي الشيخ شهاب الدين الوفائي[2]، والشيخ جمال الدين بن الشيخ شاهين وأضرابهم مع أني لا أصلح تلميذ لواحد منهم كما يعلم الله ذلك، فكلما أرى ذلك من أصحابي أستغفر الله تعالى وأصلي على سيدنا رسول الله ﷺ الذي أخبر بذلك، وأود أن الأرض تبتلعني، وأصل ذلك كله بُعد الناس عن طريق الفقراء، واعتمادهم على الزي والمنطق، ولو أنهم شموا رائحة الطريق رفعوا مرتبة الأشياخ على مريدهم، ولم يغتروا بلبس الصوف، ولا إرخاء العذبة، ولا بطول شعر الرأس، ووالله إن كل ذرة من أعمال سيدي الشيخ سليمان الخضيري، أو الشيخ شهاب الدين الوفائي أرجح من القناطير من أعمالي، وما أعد ترجيح أصحابي لي على أحد من الأكابر إلا فتنة لي، ورفعًا لمقام الأشياخ في الآخرة، فالله يلطف بنا في هذا الزمان، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن».

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من علامة الولي البراءة من الدعاوي للأحوال، فلا يرون النجاة من النار إلا بفضل الله تعالى ورحمته.

وسمعته يقول أيضًا: من علامة الولي مراعاته للأنفاس والخطوات والتسليم

---

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (1/33)، وذكره ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (1/123).

(2) ذكره الشيخ الشعراني في الطبقات (1/231)، والغزي في الكواكب السائرة (1/231).

لمجاري الأقدار، وسلامته من البدع، والأهواء المضلة، والكسل والفشل.

وسمعت سيدي محمد المنير - رحمه الله - يقول: ما خلق الله تعالى وليًا إلا ووفقه لإصابة السنة بالاتباع وحماه من الركون إلى الدنيا، وألهمه الصبر عند البلاء، ومنعه من الشهوات التي تحجبه عنه تعالى، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وزنوا هؤلاء التلاميذ الذين راج أمرهم عند العوام فرفعوهم على أشياخهم بهذه الميزان يظهر لكم نقصهم عن أشياخهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل مقام التباعد عن الشيطان في حال صلاتهم وغيرها من سائر العبادات، وقد رأى سيدي محمد المنير - رحمه الله تعالى - شخصًا يتثاءب في صلاته فقال له: إذا كان الشيطان ينفخ في وجهك يا أخي في صلاتك وأنت تناجي الله ﷻ فكيف حالك في غيرها من العبادات أو العادات؟ انتهى.

وقد صلى خلفي مرة صف طويل فرأيتهم تثاءبوا كلهم، فقلت: هذا من شؤم حالي أنا فلو كنت محفوظًا من الشيطان لسرى الحفظ مني إلى سائر من اقتدى بي؛ لوجود الارتباط الذي بين الإمام والمأموم حتى ورد في السنة ما يؤيد ذلك حين توقف على سيدنا رسول الله ﷺ القراءة في الصلاة فقال: **«إذا صلى أحدكم فليحسن طهارته، فإني إنما لبس عليّ القراءة لعدم إحسانكم الطهارة»**[1] الحديث بمعناه عن مذهب من يرى رواية الحديث بالمعنى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وأكثروا من ذكر الله تعالى حتى يصير الشيطان يفر من ظلكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: التربص وعدم المبادرة إلى الإنكار على من سمعوه يقرأ القرآن بالروايات المغربية التي لا يعرفها غالب الناس ممن لا يقرؤوه إلا برواية واحدة مثلاً لاسيما إن كان أحدهم في وليمة فيها جمع كثيرًا من العلماء فإن من أنكر على ذلك القارئ قراءته الجائزة، فكأنه نادى على نفسه بالجهل في ذلك الجمع العظيم فيفتضح، فعلم أنه لا ينبغي أن ينكر على قارئ قراءته إلا من أحاط علمًا بالقراءات.

وقد حضرت مرة في وليمة كان القارئ بها العالم العلامة الشيخ أبو القاسم

(1) لم أقف عليه.

البساتيني - نفعنا الله ببركاته - فقرأ (عليهم)[1] بضم الهاء فأنكر عليه شيخ كان هناك من المتصوفة فافتضح، وقالوا له: هذه قراءة من السبع وخجل خجلاً شديدًا، فإياك يا أخي أن تنكر شيئًا إلا بعد تبحرك في العلم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا كانوا في وليمة وفقد أحدهم نعله النفيس أن يخرج ساكتًا ولا يعلم صاحب الوليمة بذلك؛ خوفًا أن يكدر عليه وقته، وإن لم يجد من يعيره نعله خرج حافيًا لاسيما إن كان عتيقًا أو حلفاية، فإن مثل ذلك مما يتجاوز عنه؛ لأن الفقير ما حضر إلا لجبر خاطر صاحب الوليمة فإذا أخبره بذهاب نعله فربما جرح قلبه، ورجع ذلك الجرح على جبران الخاطر فكان عدم حضوره أولى، بل الذي ينبغي لصاحب المروءة أن يسكت إذا ضاعت جوخته النفيسة ولا يتكلم، فإن إدخال الغم على صاحب الوليمة يرجع على ذهاب الجوخة إذا الدنيا كلها لا تزن عند العاقل جناح بعوضة، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم قبول شيء من مال الولاة في مساعدتهم في سفر الحج؛ لأن مال الولاة لا يسلم غالبًا من الشبهة، ولا ينبغي للفقير إلا التحرر من مثل ذلك؛ لأن الحق تعالى يؤاخذه بما لم يؤاخذ به غيره، لكن يكون عدم القبول بسياسة وتقديم مقدمات؛ لأن ذلك غريب في فقراء الزمان، وغالب الولاة ربما يعتقد حل ملكه على

---

(1) وقع في المطبوع: (إليهم) والصواب ما أثبت، واعلم أن وفي ((عليهم)) عشر لغات؛ قرئ بعامتها:

((عليهُمْ)) بضم الهاء وإسكان الميم.

و((عليهِمْ)) بكسر الهاء وإسكان الميم.

و((عليهِمِي)) بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة.

و((عليهِمُو)) بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة.

و((عليهُمُو)) بضم الهاء والميم كلتيهما وإدخال واو بعد الميم.

و((عليهُمُ)) بضم الهاء والميم من غير زيادة واو.

وهذه الاوجه الستّة مأثورة عن الائمة من القرّاء.

وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القرّاء: ((عليهُمِي)) بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم، حكاها الحسن البصري عن العرب.

و((عليهُمِ)) بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء.

و((عليهِمُ)) بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو.

و((عليهِمِ)) بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم. وكلها صواب، قاله ابن الانباري.

قاعدته هو ويظن أن رد الفقير عليه المال إنما هو عدم محبته لصاحبه، فينبغي للفقير أن يكون له نقيب شرب من مسقاته؛ ليصير يبين لذلك الأمير مقام الشيخ، وإلا فالنقيب الذي ليس بينه وبين الشيخ اتحاد بالباطن فساده أكثر من صلاحه، وإذا لم يكن للفقير نقيب كذلك احتاج الفقير ضرورة إلى ذكر الألفاظ التي فيها تزكية للنفس؛ ليطيب خاطر ذلك الأمير، ويقيم العذر للفقير، ولو أنه كان يعرف مصطلح الفقير، وذكر للأمير زهد الفقير وورعه وتعففه عن جميع مال الولاة من غير تخصص لكان لذلك حلاوة عظيمة، ويزداد الأمير فيه اعتقادًا، ويصير يقبل شفاعاته لا يكاد يرد منها شيئًا، وكان لي نقيب اسمه الشيخ إبراهيم السنديصطي رزقه الله الاتحاد بي، فكان يمهد للأمير عذري حتى يصير الأمير يقيم العذر لي في رد هداياه، ولا يتكدر منه شعرة عليَّ إذا رددت عطاءه، فرحمه الله رحمة واسعة، ولم أظفر بعده بمثله إلى وقتي هذا، ولما أردت الحج سنة ثلاث وستين وتسعمائة عرض عليَّ الأمير عيسى أمير الحج أن يزن عليَّ أجرة أعمالي كلها، وقدروا ذلك بعشرة آلاف فرددتها عليه فأبى أن يأخذها، فقلت له: معنى قولك خذ هذه الفلوس أي: اجعل نفسك عبدًا لي وأنا سيدك ما دمت أعيش، فإن المعطي له السيادة، والأخذ منك له العبودية، ولا أرضى أن أكون عبدًا لك، فتكدر غاية التكدر؛ لكونه من العرب وكرماتهم، وعادة الناس يسألونه في مثل ذلك، فاحتجت إني ذكرت له شروطي في الحج، وأن ماله الذي يعتقد حله على قاعدته هو ليس بحلال عند الفقراء على قاعدتهم فتطور كل التطور، وخرج يعثر في أذياله من غير دستور ولا استئذان، فلا تسأل يا أخي ما حصل على بسبب تكدره لعدم معرفته بمصطلح الفقراء، فلو أنه كان لي نقيب متحدًا بي لعرفه بمصطلحي من غير علمي، ولم يحوجني إلى تزكية نفسي، ثم لا يخفى عليك يا أخي أن الفقير إذا رد على الولاة المال دون أقرانه تميز عند الولاة عن أقرانه بشدة الاعتقاد فيه، وصار عدوًا لجميع أقرانه من الناصبين، ولا يقدر أحد منهم ينطق في حقه بكلمة مدح أبدًا، بل يأخذون في تجريحه وتنقيصه؛ طلبًا لقبول الناس ذلك منهم، وأن يحملوه على أنه ما رد المال إلا رياء وسمعة، لا خوفًا من الله تعالى، وكان الواجب عليهم مدحه على ذلك حفظًا لخرقة الفقر.

ولما ردت على مولانا الباشا اسكندر، وعلى عيسى أمير الحاج مالهما، فلا يعلم عدد من اغتابني من أقراني إلا الله تعالى على ما بلغني، فالله تعالى يغفر لنا ولهم آمين.

وبالجملة: فقد صار التعفف عن مال الولاة اليوم عزيزًا في هذا الزمان، بل بعضهم صار يسأل الولاة من غير حاجة إنما ذلك للتنعم بالمطعم والملبس والمنكح، وكان الأولى لهم رده ولو أعطوه بغير سؤال، فكان الذي يرد الآن مال الولاة ماشٍ في أرض قفر لا رفيق له فيها، فأسأل الله تعالى أن يمد كل متعفف بالقوة على التعفف حتى يلقى الله تعالى، فإن الماشي على آثار الشريعة اليوم كالماشي بقبقاب على حبل، أو كالقابض على الجمر، فيوشك أن يقع من الحبل، أو يرمي دينه من يده، ومن هنا تمني العقلاء الموت؛ خوفًا من الفتنة في الدين، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا على تحصيل التعفف جهدكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم أكلهم من فراخ الحمام الذي في أبراج الريف، أو شربهم من لبن الجاموس؛ لعدم طيبة خاطر الناس بأكل الحمام من زرعهم، وعدم انضباط الجاموس على الأكل من زرع صاحبه غالبًا، وكان على هذا القدم جدي الشيخ علي، والشيخ نور الدين الخضري، وجماعة ذكرناهم في «الطبقات» فمنهم من حماه الله من الأكل من ذلك، ومنهم من حماه من مكوثه في بطنه.

وكان جدي محمد - حماه الله تعالى - من الأكل من ذلك دخوله جوفه، وكان ﷺ لا يأكل لأحد يمسك الميزان طعامًا إلا أن يعلم منه أنه يرجح الميزان لكل من اشترى منه، وكان لا يأكل طعامًا لشيخ بلد ولا لمباشر، ولا لقاضي ولا لجندي، ولا طعام من لا يصلي، ولا طعام فقير لا حرفة له، ولا يأكل من هدايا الناس، وإذا وصل إليه هدية من بعض الأمراء أو المباشرين وتعذر ردها عليه يفرقها على أيتام بلده وفقرائها، ولم يتناول هو ولا أهل بيته منها شيئًا، وكان إذا زرع قمحًا جعل بينه وبين الجار خطًا من قمح وهكذا في سائر الحبوب؛ خوفًا من اختلاط شيء من زرع الجار بزرعه، وكان إذا طحن يقلب الحجر ويكنس الدقيق الذي تحته من دقيق الناس فيضعه في وعاء في الطاحون، ثم يطحن قمحه ويخلي بقية دقيق لمن بعده ويسامحه به، ويبالغ في الورع حتى كان لا يأكل من عسل نحل بلده حين أخبره بعض أهل البلاد التي فيها الفواكه أن نحل بلده يعدي البحر، ويأكل زهر فواكههم، وأتاه والده بفتاوى العلماء في الحل فقال: ولو كان حلالاً فلي تركه، وكان يقول: من أحكم الحلال لا تأكل الأرض له لحمًا، فدفنوا والدي بجانبه بعد إحدى وعشرين سنة فوجدوه كما وضعوه طريًا لم

يتغير منه شيء كما أخبرني بذلك الشيخ علي بن خطاب أحد جماعته، وهو الذي ألحد الجد - رحمه الله تعالى - وألحد الوالد، وكان يقول: جميع ما يؤاخذ الله تعالى عليه العبد من الأفعال والأقوال والخواطر إنما هو متولد من الأكل، فإن أكل حرامًا حدث منه أقوال وأفعال وخواطر حرام، وإن أكل مكروهًا حدث منه أقوال وأفعال وخواطر مكروهة، وإن أكل خلاف الأولى حدث منه كذلك أفعال وأقوال وخواطر كان الأولى تركها، انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا على تحصيل مقام الورع، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الفتور عن طلب العلم ليلاً ونهارًا، فيستفيدون العلم أولاً من الصدور والسطور، ثم من واردات الحق تعالى على قلوبهم بواسطة الإلهام كما هو ﷺ ومن تأمل في قوله تعالى لسيدنا ومولانا محمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] يجد أن طلب العلم واجب على العبد حتى يلقى الله تعالى، فليس للعلم قرار يقف العبد عليه سواء أكان مستمد العبد من الصدور أو السطور أو من الإلهام، فلم يزل يبدو للعبد في كل وقت علم جديد لم يخطر له قبل على بال، فعلم أن من قنع بما علم فهو جاهل كما ورد: «من قال: أنا عالم فهو جاهل» فأول مراتب العلم: حفظ نقول الناس، ثم استخراج الأحكام من الكتاب، والسنة، وأقوال المجتهدين، ثم علم رياضة النفس، وتطهيرها من سائر الرذائل، ثم ورود المواهب عليه من الحضرة الإلهية، فغاية علم التصوف تطيب القلب حتى يصلح لنزول الواردات الإلهية عليه حتى فلاح الأرض للزراعة.

ومثال من يطلب العلم مع رعونة النفس والرياء والسمعة، ونشر الصيت، والفرح بالتقدم على الأقران مثال الفلاح الذي يبدر الحب على الأرض الغلتة اليابسة من غير حرث ولا سقي ولا طراوة فيها، فلا ينبت منه حبة، وإن وقع شيئًا من ذلك نبت فهو بقدر ما في الأرض القلب من الطهارة، فكان كالأرض الندية التي لا تكفي الحب شربًا ولا نمو، فينبت نباتًا ضعيفًا لا ثمرة له أو له ثمرة مبصوصة لا تسمن ولا تغني من جوع.

فإياك أن تقول: إن علوم الصوفية لا يحتاج إليها في طريق تحصيل ثمرة العلم في الدنيا والآخرة، فإن الحسن يكذبك في ذلك كما هو مشاهد في بعض المجادلين الذين يتعلمون لغير العمل فترى أحدهم لم يزل طالبًا يقرأ على غيره إلى أن يموت ولا يصل إلى درجة إفادة غيره.

وأعلم يا أخي أن علوم الأسرار غريبة لم يزل الناس ينكرونها في كل عصر لغرابة طريقها، ولا يعهدون إلى التعلم من أفواه الرجال ويكون الكتب، أو يكون نبيًا يوحى إليه بالعلم أما حصول العلم من غير هذه الطريق، فينكره غالب الناس وغاب عنهم أن العلماء ورثة الأنبياء في العلم من طريق الإلهام لا من الوحي إليهم على لسان ملك فعلمهم يشبه وحي الأنبياء؛ لعجز العقول عن الوصول إليه ويسمى أيضًا علم الفتح الإلهي، وعلم الكشف، فيخلع على العارف العلوم الربانية من غير طريق البحث والفكر، فيتحير الفقيه من مثل ذلك، وربما قال: هذه العلوم من الزندقة، ولو أنه جلى مرآة قلبه من الصدأ أو الغبار؛ لقرب قلبه من الحضرة الإلهية ورأى علومها وهي مفاضة على قلوب الأصفياء.

فعلم أن من الفرق بين علوم الكشف والفهم أن علوم الكشف تأتي بلا واسطة الفكر، بل تخلع على العارف حالة تلاوته فتكون عين التلاوة تلك العلوم بخلاف علوم الفكر لا تأتي إلا بعد النطق والتفكر، ولذلك كان غايتها الظن لا اليقين.

وقد روى الترمذي وغيره من «نوادر الأصول» مرفوعًا: «**إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله ﷻ فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله ﷻ**»[1] انتهى.

وفي كلام بعض المحققين: علامة العلم اللدني أن تمجه العقول من حيث أفكارها، ولا تقبله إلا بالتسليم دون الذوق، وإنما كانت العقول تمجه؛ لأنه أتاها من غير الطريق المعروف لها.

وقد سمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول مرارًا - في تقرير منام الإمام أحمد ابن حنبل حين قال: يارب بما يتقرب إليك المتقربون؟ فقال: يا أحمد

(1) رواه الديلمي في الفردوس (210/1)، وذكره المنذري في الترغيب (58/1)، والمصنف في «العهود المحمدية» (ص7).

بكلامي، فقال: يا رب بفهم أم بغير فهم ،فقال: بفهم وبغير فهم - : إن المراد «بغير فهم» حصول العلم من طريق الكشف، فهو علم يرتقي عن مرتبة الفهم لا أنه المراد به الجهل إذ الجهل لا يتقرب به إلى الله تعالى، وإن حصل للتالي أجر من حيث التلاوة، انتهى.

وهو كلام نفيس لا تكاد تجده في كتاب، وقد جمعت كتابًا في علوم أهل الكشف التي استخرجوها من القرآن من طريق الكشف ذكرت فيه نحو ثلاثة آلاف علم، وكتب عليه علماء مصر على وجه التسليم لأهل الله ﷺ، وعبارة الشيخ ناصر الدين اللقاني - رحمه الله تعالى - : وبعد، فقد اطلعت على هذا الكتاب الغريب، والأسلوب العجيب الذي لم ينسج على منواله، ولم تسمح قريحة بمثاله، فرأيت كنزًا مملوء بالجواهر والأسرار، وبحرًا يضيق نطاق النظر عن وصفه، ويكل لسان الشكر عن إدراك كنهه وكشفه ولا غرو، فإن المفيض كريم جواد وهاب أفاض على عبد منيب أواب أيدنا الله بمدده، وجعلنا من جملة حزبه وجنده... إلى آخر ما قال.

وذكرت في خطبة هذا الكتاب المشتمل على علوم القرآن أن من مقام العارف عدم الرسوخ في العلم، فلا يثبت على علم أكثر من آن واحد، فهو راسخ في السير في العلوم لا واقف مع علم كأهل النقول، وأن الكامل لا يبلغ مقام الكمال التام حتى يقدره الله تعالى على استخراج جميع علوم الشريعة من سورة الفاتحة، ثم يستخرج من الفاتحة جميع أقوال المجتهدين ومقلديهم، ثم يستخرج جميع ذلك من أي حرف شاء من حروف الهجاء، وإن أخي الشيخ أفضل الدين استخرج من سورة الفاتحة مائتين ألف علم وسبعة وأربعين ألف علم وتسعمائة تسعة وتسعين علمًا فراجعه، وطالع الكتاب تسمع علومًا لم تخطر أسماؤها قط على بالك فضلاً عن الخوض فيها.

وكان السهروردي - رحمه الله تعالى - يقول: قلدوا الصوفية كما تقلدوا أئمتكم المجتهدين، فإنهم أحكموا أساس التقوى، وعملوا بما علموا فأورثهم الله تعالى علم ما لم يعلموا من غرائب العلوم، ودقائق الإشارات لاسيما استنباطاتهم من الكتاب والسنة، فإنهم استنبطوا منها عجائب الأسرار التي لا تكاد تخطر على قلوب العلماء.

وكان أبو سعيد الخراز - [1]رحمه الله - يقول: أول الفهم لكلام الحق تعالى

---

(1) قيل: إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء. أخذ عن إبراهيم بن بشار الخراساني ومحمد بن منصور الطوسي، روى عنه علي بن محمد الواعظ المصري وأبو محمد الجريري وعلي بن =

العمل به؛ لأن فيه العلم والفهم والاستنباط، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]

وكان أبو بكر الواسطي - رحمه الله - يقول: العلماء بالله هم الذين رسخت أرواحهم في غيب الغيب وفي سر السر، فعرفهم الله تعالى علومًا لم يعرفها لغيرهم، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرده من غيرهم، فخاضوا بحر العلم بالفهم، ثم بالكشف الذي كشف لهم عن مدخول الخزائن والمخزون حتى شهدوا ما تحت كل حرف وكلمة وآية من عجائب النصوص، واستخرجوا من بحارها الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة.

وكان أبو عبد الله القرشي - رحمه الله - يقول: هي أسرار الله تعالى يبديها إلى أمناء أوليائها من غير سماع ولا دراسة فهي خاصة بخواص الخواص.

وكان أبو سعيد الخراز - رحمه الله - يقول: إن الأولياء خزائن أودعوها علومًا غريبة وأشياء عجيبة يتكلمون فيها بالعلوم الأزلية؛ أي: إنهم ينطقون بالله تعالى كما قال في الحديث القدسي: «ولسانه الذي ينطق به»[1] وهو العلم اللدني الذي أوتيه الخضر ﷺ.

قال السهروردي - رحمه الله تعالى - : وهي العلوم التي سموها بأسماء غريبة اصطلحوا عليها نحو الجمع أو التفرقة والبوادة والهجوم والتجلي والاستتار، والتجريد، والسكر والصحو، والمحو والإثبات، والفناء والبقاء ونحو ذلك مما هو مذكور في «رسالة القشيري» وغيرها وحاصلها أنها إشارة إلى أحوال يجدونها، ومعاملات قلبية يعرفونها لا يعرفها إلا من ذاق فافهم، وكان من الحزم رمزها؛ لأنها من أسرار الله

حفص الرازي ومحمد بن علي الكتاني وآخرون. وقد صحب سريًا السقطي وذا النون المصري، قال أبو القاسم عثمان بن مردان النهاوندي: أول ما لقيت أبا سعيد الخراز سنة اثنتين وسبعين فصحبته أربعة عشر سنة. وانظر: الحلية (246/10)، وسير أعلام النبلاء (421/13)، وطبقات الصوفية (ص228)، والطبقات الكبرى للشعراني (117/1)، وتاريخ بغداد (276/4).

(1) أشار في المطبوعة إلى طمسه، والمثبت هو الصواب، والحديث رواه الطبراني (221/8، رقم 7880).

تعالى، ومن خصائص أهل الطريق التي لا توجد في غيرها، واعلم أن المريد الصادق من أول قدم يضعه في الطريق يعرف إشارات القوم التي رموزها وإشادتهم ومراداتهم بها حتى كأنه الواضع لها، فإن ادَّعى دخول الطريق، ولم يفهم المراد بها إلا بتفهيم أحد له أو مطالعته في كتاب فهو غير صادق في طلب الطريق، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وتأملوا في هذا الخلق فإنه نافع جدًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل الجمع ثم جمع الجمع؛ وذلك لأن الإنسان قد فتح عينه على التفرقة بعد أن كان مجموعًا، فأمر بالرجوع إلى الجمع من طريق التكسب؛ لينال أجر الاكتساب أو الأعمال، فإذا رجع إلى حالة الجمع أمر بالانتقال إلى جمع الجمع، وذلك يميز الفقراء عن أبناء الزمان، فإنهم ما برحوا في التفرقة حتى يأتيهم الموت كما هو مشاهد في العوام.

وكان سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: رؤية الكون تفرقة أو رؤية الصفات جمع، ورؤية الذات بالقلب جمع الجمع ما دام العبد لم يبلغ إلى مقام الكمال المراد عند القوم، فإذا بلغ ذلك صار الوجود كله جمعًا لا يفرقه شيء منه عن ربه ﷻ، انتهى.

وكان الجنيد - رحمه الله - يقول: الجمع أصل والتفرقة فرع، وكل جمع بلا تفرقة زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: مراد القوم بالجمع تجريد التوحيد، ومرادهم بالتفرقة الاكتساب، فعلى هذا لا جمع إلا بتفرقة؛ ولذلك يقولون [الفرق هو] عين الجمع، ويعنون بذلك استيلاء مراقبة الحق تعالى على قلبه، فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة، فصحة الجمع بالتفرقة وصحة التفرقة بالجمع، ومن فهم من الجمع أنه صار عين الحق تعالى، ومن ادعى أنه قائم بنفسه فهو مشرك، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم أخذ العهد على مريد عاق لوالديه سواء في حياتهما أو بعد موتهما، فإن العاق لوالديه أو أحدهما الله غضبان عليه، ومن كان الحق تعالى غضبانًا عليه فلا ينفعه عمل، فيجب على الشيخ أن يقول للعاق لوالديه: اذهب فأرضهما، ثم تعال، وإن كانا ميتين فليتوجه الشيخ إلى الله تعالى في إرضائهما عنه وهما

في البرزخ، فلعل الله تعالى يرضيهما عنه.

وقد وقع أن فقيرًا كان عند سيدي إبراهيم المتبولي على أعمال كالجبال، فدعاه الشيخ يومًا فقال: يا ولدي مالي أراك كثير الأعمال ناقص الدرجة لعل والدك غضبان عليك، فقال: نعم قد مات وهو غضبان عليّ، فقال: امشي معي إلى قبره، فلما وقف سيدي إبراهيم على قبره، قال: يا حج أحمد، قم بإذن الله تعالى، فانشق القبر وخرج منه وجلس على شفيره، فقال: هذا ولدك، فقال: نعم، فقال: ارضَ عنه، فقال: أشهدك يا سيدي أني قد رضيت عنه، فقال له: ارجع إلى لحدك بإذن الله، فرجع إليه، انتهى.

هكذا حكي لي سيدي علي الخواص، والشيخ يوسف الكردي عن سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ.

فاعلم ذلك وإياك أيها الشيخ أن تأخذ العهد على عاقٍّ إلا إن كان لك قوة، وجاه عند الله تعالى ترضى به أرباب الحقوق على المريد، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا طلب أحدهم علو المقام عند الله تعالى أو عند خلقه أن يبالغ في الخدمة لله تعالى أو لذلك الأمير مثلاً، فإن الله تعالى أو ذلك الأمير يقدمه ويقربه من حضرته، ويرفع قدره على سائر أقرانه ويعطيه أفضل مما سأله كما جرب.

فعلم أن من تخلف عن الخدمة وراء الناس كلهم، وطلب التقدم عليهم فهو قليل العقل ولا يؤهله الله تعالى لمقام الرئاسة على عباده، ولو رفع مقامه من ناحية أو نواحي لطلب الرئاسة من غير طريقها المعتاد، وكذلك حال ولد الشيخ إذا طلب أن يكون شيخًا على فقراء زاوية والده بعده أن يكون أكثر الفقراء كلهم في العبادة والزهد والورع، فلا يقوم أحد من الفقراء لصلاة الليل إلا ويجده سبقه، ولا يزهد ولا يتورع إلا ويجده قد سبقه وهكذا في سائر العبادات والأخلاق الحسنة، وهناك يرجى له انقياد فقراء الزاوية كما كانوا مع والده.

وأما نومه أو غفلته عن الأوراد، وعدم زهده وورعه فلا يصح معه رئاسة على أحد، فليتنبه ولد الشيخ لمثل ذلك، وإلا حرم رئاسته، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يقبل أحدهم من الأمراء أو غيرهم شيئًا من المال إلا لمصلحة ترجح على مصلحة الرد لاسيما إن صرح الأمير لوكيله في التفرقة بأن يفرق ذلك على الصلحاء والزهاد أو علم ذلك بالقرائن فإنه يتعين الرد؛ لأنه ليس لفقير أن

يرى نفسه من الصلحاء والزهاد حتى يقبل ذلك أو شهادة الناس فيه الصلاح والزهد لا يكفي؛ لأنه ربما يعلم من نفسه أمورًا لو ظهرت للناس لشهدوا فيه بالفسق، وقد قالوا: أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس، انتهى.

فإياك يا أخي أن ترخص في قبول مال لنفسك أو غيرك إلا عند وجود الضرورة التي تبيح لك أكل الميتة، بل ربما كان أكل الميتة أخف من تبعات الآدميين، وقد رأيت بعيني شخصًا من أرباب الأحوال ينهش في دجاجة ميتة وهو مار في الخليج، فخاف من إنكاري عليه، فسابقني بقوله: كيف يطلب المؤمن الحياة في زمان صار الفقراء يقدمون فيه أكل الميتة على ما بأيدي الناس؟ انتهى.

وقد تقدم قريبًا أن من يرد الآن ما يأتيه من الولاة قد صار كالكبريت الأحمر يتحدث به ولا يرى، وإن جميع أقرانه الذين يأخذون ما يعطونه من الأمراء لو أمكنهم أن يسعوا في قتله فعلوا كما وقع لي ذلك مرارًا، وإن لم يقدر أحد منهم على القتل أخذ في الغيبة والتنقيص جهده، وكان الواجب عليهم أن يحمدوا من يرد ويشكروه على حماية الخرقة من أن يرمي أهلها بأكل الحرام والشبهات فتقتدي الناس بهم في ذلك، ويقولون: إذا كان سيدي الشيخ يقبل من الأمراء ولا يرد فإيش قدرنا نحن؟!.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: يجب على الفقير عدم الاعتراض على كل من يرد الشبهات؛ لأنه قام بركن من أركان الدين وهو تورع، ومن اعترض عليه كأنه يريد هدم ذلك الركن، وسمعته أيضًا يقول: يجب على كل فقير الخوف في هذا الزمان من الوقوع في الحرام والشبهات أكثر من غيره؛ لأن طينته وطينتهم واحد؛ لخوف الفتنة في الدين، وكثيرًا ما يقول الجهال من أصحاب الفقير وغيرهم: لو أن فلانًا قبل ذلك وفرقه على الفقراء لكان أولى، وذلك لما في قلوبهم من محبتها، ونسيانهم يوم الحساب.

وقد أرسل الإمام عثمان بن عفان مالاً جزيلاً إلى الإمام أبي ذر - رضي الله عنهما - وقال لعبده: إن قبل ذلك منك فأنت حر، فرده أبو ذر، فقال: اقبله؛ لأن فيه عتقي، فقال: إن كان فيه عتقك فإن فيه رقي، انتهى.

فليحذر شيخ الزاوية مثلاً أن يصغى إلى قولهم فيهلك في دينه ويهلك غيره، ويقال لهؤلاء الجهلة لا يعترض على الأشياخ إلا من هو فوقهم في الدين والورع فهل

أنتم فوقهم، وهم في حجر تربيتكم أم الأمر بالعكس؟ ولم يزل هذا الأمر يقع لي كلما أرد شيئًا من مال الولاة فيكثروا عليّ القول ولولا حماية الله تعالى لي لرجعت إلى قولهم، فالله يحفظ الإخوان من فتنة الرد والقبول آمين اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يشكروا الله تعالى على ما يرونه لأنفسهم من المنامات الرديئة، فإن ذلك من جملة نعم الله تعالى عليهم، فإنه تعالى إنما أراهم ذلك؛ لينبههم على أحوالهم الناقصة التي جهلوها في اليقظة ليجدوا في العبادة، ويكثروا من الاستغفار على ذنوبهم السالفة، ثم مما يخفى على كثير من الفقراء علمهم بأن أحدهم لا يرى أنه مع قوم أو حيوان إلا وهو متخلق بأخلاق ما رأى سواء أكانت محمودة أو مذمومة، ثم إن رؤيته لهم يكون على حسب ما تخلق به من أخلاقهم كثرة وقلة عميًا وإبصارًا، فمن رأى نفسه مصاحبًا لمن يعمل عمل قوم لوط فهو على شاكلته، ومن رأى نفسه مع من يفعل لشيء من البهائم فهو على شاكلته، أو أحدًا من العميان فهو على شاكلته في العمى الظاهر، وقد يكون الأعمى في الظاهر منور البصيرة في الباطن كالولي فإن هذه لا يلزم منها النقص في الدين فافهم.

وسمعت سيدي محمد المنير - رحمه الله تعالى - يقول لشخص رأى أن ثوبه عف عليه الذباب فقال: هذا يدل على إنك يا أخي تقع على الشهوات، ولا تقدر على منع نفسك منها كما لا يقدر الذباب على رد نفسه عن العسل، فقال له: وكثيرًا ما أرى نفسي معانقًا حمارًا، فقال: هذا يدل على غلظ حجابك، انتهى.

وقس يا أخي على ما ذكرناه سائر الحيوانات فلا ترى نفسك مصاحبًا لشيء منها إلا وأنت متخلق بأخلاقه، فاشكر الله تعالى في المحمود، واستغفر الله في المذموم، كما أوضحناه في بيان «الطبقة الأدبية» وملخصها: إن في الإنسان مجموع أخلاق الحيوانات كلها من محمود ومذموم، وما خرج عن هذا الحكم سوى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإن الله تعالى طهر طينتهم من سائر الصفات المذمومة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تدريج المريدين في مقامات الإخلاص شيئًا بعد شيء، ولا يأمرونهم بمقام إلا بعد إحكام المقام الذي قبله، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا

لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[الكهف:110] والعمل الصالح هو ما يشمله الإخلاص ولم يشرك العبد فيه مع الله تعالى أحدًا ولا نفسه، فيرى كشفًا ويقينا أن عمله خلق لله تعالى، وليس للعبد فيه سوى نسبة التكليف والإسناد فقط، فهذا هو الإخلاص المشهور بين العلماء.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا يقدح في إخلاص العلم لله رؤية العبد نسبة العمل إلى نفسه، فإن الله تعالى أمره أن يقول:﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] فشركهم الله تعالى في العمل معه، فمن رد تلك النسبة فكأنه كذب الرسل فيما أضافوه إلينا على لسان الحق تعالى في نحو قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:96] فذكر تعالى أنه خلقنا وخلق عملنا فنفى عنا العمل وأثبته في هذه الآية.

ومن الأدب أن نضيف إلى أنفسنا ما أضافه الحق تعالى إلينا مع علمنا بما تحته من السر المشار إليه بحديث: «**الإخلاص سر من أسراري أودعته قلب من شئت من عبادي**»[1] أو كما قال، فلم يصرح الحق تعالى به؛ لأنه من جملة الحقائق التي هي أحسن ما يعلم وأقبح ما يقال فافهم.

وسمعت سيدي محمد المنير - رحمه الله - يقول: مراتب الإخلاص أن يخلص العبد عمله من شركة نفسه، ويجعل نفسه لله خالصًا، ولا يطلب على ذلك أجرًا، وهو نقص بالنسبة للمقام الذي فوقه كمال بالنسبة لمن يرى له شركة في الفعل مع الله تعالى، وطلب على ذلك أجرًا، ثم إنه يترقى من هذا المقام الأوسط مقام أعلى وهو الدخول إلى الله تعالى من باب الفضل والمنة ليخرج من صفة الفناء التي أظهرها بعدم طلبه الأجر ويتخلق بالفقر والمسكنة كما عليه الأنبياء وكمل ورثتهم من الأولياء، وقد قالت الرسل: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس:72] فطلبوا الأجر الموعود به في نظير الأعمال الجارية على يدهم من باب الفضل والمنة لا بحكم الاستحقاق.

---

(1) ذكره الحجة الغزالي في الإحياء (464/3).

فعلم أن صورة الكامل في طلب الأجر على عمله صورة من يطلب الأجر من الله على عمله الذي أشرك فيه نفسه، والقصد مختلف فإن من أشرك نفسه في العمل يرى استحقاقه للأجر، فلو منعه الحق تعالى من الأجر لتكدر بخلاف الكامل الذي يرى العمل لله تعالى خلقًا.

وقد أشار إلى القسم الأول حديث العابد الذي يقول له الحق تعالى: «**ادخل الجنة برحمتي**»[1] فيقول: يا رب بل بعملي.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: محال أن يقبل الحق تعالى عملاً ممن يرى نفسه فاعلاً كالمعتزلة؛ لأنه تعالى لا يقبل من العبد إلا ما رآه فعلاً لربه، وأما رؤية العبد فعلاً لنفسه فهو عدم، والعدم لا وجود له حتى يقبل من صاحبه بحكم الوهم.

وسمعته يقول أيضًا: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27] أي: المتقين نسبة العمل إلى نفوسهم إلا بقدر نسبة التكليف فقط، ومن تخلق بهذه التقوى فهو الذي ينجو من آفات الأعمال كالكبر والعجب والرياء ونحو ذلك.

وأما شهود العبد كونه فاعلاً مع الغفلة عن شهود العمل لله تعالى كشفًا، ثم يريد أن يحفظ نفسه من الآفات فذلك محال لا يصح له، بل يدخله الكبر والعجب والرياء وغير ذلك، انتهى.

وبالجملة فلا يصح لأحد الإخلاص إلا مادام مقيمًا في حضرة الإحسان يعبد الله تعالى كأنه يراه، ومتى حجب عن هذه الحضرة دخله الشرك في العمل وفي القصد.

فاعكف يا أخي بقلبك في حضرة الإحسان تحفظ من الآفات، وترى الفعل لربك وحده لا ترى معه فاعلاً حقيقيًا أبدًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل مقام التواضع الكامل النسبي بحيث يصل إلى حد لا يخطر في باله أن له قدرًا في الناس، وإذا دخل محفلاً لا يخطر في باله قط أن أحدًا لا يقوم له لا سوء ظن بالناس ونسبتهم إلى الكبر، وإنما هو لحقارته في نفسه.

وقد دخل شخص من المتغفلين في الفخامة ونحن في وليمة عظيمة، فقال: والله

---

(1) ذكره المصنف في «العهود المحمدية» (1/55).

لا يقوم لي أحد منكم، فقلت للحاضرين: هل عزم أحد منكم على القيام له؟ فقالوا: لا، وإنما حلف علينا لظنه أن مثله يقام له، فقلت له في أذنه: يا أخي اعمل على هضم نفسك حتى تصير بحيث لا تظن أن أحدًا يقوم لك فتستريح من هذه الغلبة وتصير تتغير من القيام لك بالباطن، وإنما تحليفك الناس ألا يقوموا لك في الظاهر إظهارًا للكراهة فقد يكون الباطن بخلاف ذلك كما يشهد له القرائن، فاستغفر الله تعالى وشكرني على ذلك، فحمدت الله أنا الآخر على ذلك فإنه قل من يقبل النصح في مثل ذلك.

وكثيرًا ما تقوم القرائن على محبة الإنسان للقيام له ويُظهر هو الكراهة، فلا يقبلونها منه، وربما ظهرت العبوسة على وجهه لما لم يقم له أحد وكلح فيفتضح في دعواه، فاحذروا من مثل ذلك أيها الإخوان وكونوا متواضعين مع إخوانكم لا تروا أنكم تستحقون رد السلام عليكم فضلاً عن القيام لكم.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين-رحمه الله - يقول: ما دام العبد يخطر له في نفسه أن الناس يقومون له فهو متكبر، ولا يبلغ أحد التواضع حتى يصير لا يخطر ذلك على باله كما لا يخطر على باله أن يكون سلطانًا أو يقوم له السلطان، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا خزنوا قوت أهل الزاوية على عادتهم كل سنة، ثم حصل غلاء مثلاً فزادت الفقراء في الزاوية في العدد، فمن الأدب أن يصغروا الخبز ليكثر العدد، فيفرق على عدد الرءوس فينقص كل واحد من رغيفه لقمه، ثم لقيمة وهكذا حتى ينتهي الأمر بفقراء الزاوية إلى أوائل مرتبة الاضطرار وهو لذع الأمعاء المسمى كلب الجوع، لكن لا يخفى أنه لا يطالب بالجوع لأجل إخوانه إلا من رضى بذلك من الرجال اختيارًا، أما الأطفال والعميان ونحوهم فلا يكلف أحدهم بالجوع وتصغير الرغيف[1].

---

(1) ومما يفيد ذكره ما أورده المصنف في تطهير الزوايا بقوله: وينبغي لفقراء الزاوية: ألا يخرجوا عن إشارة شيخهم؛ لأنه أمين على أديانهم، فضلاً عن دنياهم؛ فإذا نهاهم عن جمع الدنيا الزائدة عن حاجتهم في يومهم، وجمعتهم، أو شهرهم، أو عامهم فمن الأدب اجتناب ما نهاهم عنه.

وسمعت سيدي عليًا الخواص -رحمه الله- يقول: كان سيدي إبراهيم المتبولي يقول: أكثر ما بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه أدخر قوت عامه؛ تشريعًا لضعفاء اليقين من أمته، فينبغي لفقراء =

وقد كان الفقراء في الزمن الماضي إذا كان في حاصلهم قمح وحصل غلاء يفرقون ذلك القمح على المسلمين ببيع أو هدية أو هبة أو إباحة؛ لئلا يتحيزوا عن غيرهم بالرفاهية أيام المخمصة، ومن فعل ذلك من المشايخ سيدي إبراهيم المتبولي، وسيدي محمد بن داود، وسيدي أحمد بن مصلح[1]، وسيدي محمد الغمري، وسيدي محمد الشناوي ﷺ فلما ضعف اليقين، وقل بر الأغنياء للفقراء أمسك الأشياخ القوت في الحاصل؛ تقوية لقلب فقرائهم ليقبلوا على عبادة ربهم فإن العدم يشتت البال، وقد

-

الزاوية: أن لا يخزن أحدهم من الدنيا ما يزيد على نفقة سنة؛ لشبههم بأهل الصفة، بل ورد أن رسول الله ﷺ وجد في حجرة إزار شخص من أهل الصُفَّة دينارين، فقال: *«كيتان من نار».

وكان سيدي عليّ الخواص يقول: ينبغي لفقراء الزاوية: ألا يدبروا عن عبادة ربهم في ساعة من ليل أو نهار؛ فإن إدبارهم عن العبادة يعسر عليهم أرزاقهم؛ لأن الحق تعالى ما ضمن تسهيل الرزق إلا لمن كان مقبلاً على عبادته.

وسمعت أخي أفضل الدين -رحمه الله- يقول: إن رزق الزاوية ووقعها ينقص منه كل سنة بقدر ما أخلُّوا به من شعائرها ووظائفها، فمن طلب من النظار أن ريع وقفه يأتي إليه كاملاً؛ فليأمر المستحقين بأن يسدّوا في وظائفهم كلها، أو يأتي إليه من ريعه النصف، قلنا: فإن ساروا فيها بحكم النصف، وهكذا إلى العشر؛ ولهذا كان ريع غالب الأوقاف إلى الآن يذهب على الكشاف، ومشايخ العرب، وغيرهم، فلا يسلم للمستحقين إلا بقدر ما باشروه من وظائفهم، مع أن خراج رزق الأوقاف الآن في زيادة، ولا نرى لتلك الزيادة أثر في جوابك المستحقين، بل يأكلها النظار والمباشرين وغيرهم، وقد رأيت بعض فقراء الزوايا شرط الواقف عليهم، كل يوم ختمًا يقرؤونه، ويختمونه كل ليلة عند الغروب؛ فاختصروه إلى أن صار واحد يقرأ عنهم الختم كل يوم؛ ثم جعلوه ربعة تقرأ بعد العصر، ثم جعلوه قراءة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:1] كل ليلة ثلاث مرات، وقالوا: إنها تعدل ثلث القرآن فمنع الله تعالى البركة من رزق الزاوية، مع أني رأيت شخصًا استأجر جهة من وقفها بأربعين ألف نصف في سنة واحدة، ولا تجد الآن فيها شخصاً واحدًا جالسًا يقرأ القرآن أو العلم، أو يذكر الله مجلسًا، فبالله عليكم أيها الإخوان قوموا بوظائفكم، وعبادة ربكم، ولا تختصروا الأسباع ولا نوبة الأذان، ولا تسرقوا من زيت الوقود، ولا من قمح الفقراء، ولا تعلفوا منه دجاجكم، ولا تخزنوا في شيء من وقفها؛ فإن ذلك ممحق للبركة كما جرب.

(1) ابن طاشكُبري: أحمد بن مصلح الدين. العلامة المصنف المحقق عصام الدين أبو الخير القاضي الرومي. صاحب الشقائق النعمانية. وغيره من المؤلفات الحسنة. توفي سنة 968 هـ، [ديوان الإسلام (61/1)].

كان الإمام الشافعي - رحمه الله - يقول: لا تشاور من ليس في بيته دقيق، انتهى.

وقد شاورت أنا فقراء الزاوية في سنة ثلاث وستين أن أفرق حاصل قمحهم على المحتاجين ونصير نشتري القمح ونجوع مثل الناس، فقالوا: لا طاقة لنا بذلك فتركته، لكن لا يخفى أنه ينبغي لكل من قدر على الجوع الشرعي أن يوافق إخوانه المسلمين في الجوع، ويطعم الفاضل لمن لا يصبر على الجوع كما فعل الإمام عمر بن الخطاب ﷺ عام الرمادة [1]. وهذا الخلق من محاسن أخلاق القوم وفاعله الآن قليل، بل رأيت بعضهم يأكل الخبز النخول، واللحم الضاني والدجاج، وجاره لا يجد النخالة يأكلها مع تظاهره بالصلاح، وكان الأولى له محو اسمه بذلك من ديوان الفقراء؛ صيانة للخرقة أن يظن بأهلها أن حالهم كحاله.

فعلم أن أقبح القبيح رد الفقراء كل من طلب المجاورة عندهم زيادة عليهم مع قدرتهم على الجوع، ثم إن كان ولا بدّ لهم من الرد فيكون ذلك برق ورحمة، وبعد بلوغهم أوائل درجة الاضطرار لاسيما إن كان وقف زاويته ليس هو على أسماء معينة، بل لكل وارد، فليس لأحدهم أن يذكر من طلب المجاورة بالكلام الجافي طلبًا لزيادة التوسع والترفه لأجل حظ نفسه.

ولما طلب سيدي أبو العباس الغمري - رحمه الله تعالى - تخفيف الفقراء من جامعه بمصر أيام الغلاء رأى سيدي يوسف الحريثي يقول له: انظر فكل من وجدت رزقه عليك فأخرجه، ومن وجدت رزقه على الله تعالى فليس لك إخراجه؛ لأنه جالس في بيت ربه، انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان وواسوا إخوانكم في الغلاء وغيره حسب طاقتكم ليعاملكم الله تعالى بنظير ذلك، وبيعوا كل ما زاد على ضرورتكم من ثيابكم وغيرها، وأطعموا الناس بثمنه تفلحوا، ولا تخالفوا تندموا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يقدموا إقامتهم لخدمة الفقراء، وتعليمهم الأدب، وتهيئة ما يأكلون، ويشربون على السفر لحج النفل، لكن بمشاورة سيدي رسول الله ﷺ في ذلك إن كانوا من أهل هذا المقام، أو يعرض سفرهم وإقامتهم على أدلة الشريعة، فكل ما

---

(1) وسُمِّي عام الرَمادَةِ؛ لأنّه هَلَكَتْ فيه الناس وهلكت الأموال وهي أعوام جدب تتابعت على الناس في أيام عمر بن الخَطّابِ ﷺ.

شهدت له بأنه أرجح قدموه، فهم دائمًا مع الأرجح في الشريعة لا مع حظوظ نفوسهم.

وقد تهيأت لسفر الحج نفلاً في سنة ثلاث وستين فشاورت بعض الفقراء في ذلك، فقال: حتى أشاور لك رسول الله ﷺ وأرد لك جوابه، فرد عليَّ الجواب بأن التخلف لخدمة الفقراء،وجمع شملهم، والسعي في جلوسهم في مجلس ذكر الله تعالى، والصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ أفضل لي، وإن اشتقت إلى الطواف وزيارة رسول الله ﷺ فيكون ذلك بالقلب، انتهى.

فقلت: سمعًا وطاعة إلا أن يشاء الله تعالى غير ذلك، وعلمت أن من كان بعيدًا عن مكة والمدينة، وهو في خير يتعدى نفعه إلى الأمة في دينهم ودنياهم الضرورية، فهو أفضل ممن كان قريبًا من الحرمين وخيره قاصر على نفسه، ومثاله من أرسله رسول الله ﷺ أميرًا في الجهاد فبينما هو في وسط الجهاد للكفار إذ ترك ذلك وجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: قد اشتقت إلى رؤيتك فاستأصل الكفار المسلمين وقتلوهم وسبوهم وساموهم سوم الهوان، ولو أنه أتم الجهاد مع اشتياقه لرؤية رسول الله ﷺ لكان أفضل له، وأحب إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﷺ.

فافهموا ذلك أيها الإخوان، وقدموا خدمتكم للفقراء مع البعد على السفر لحج النفل إلا أن تسحبكم القدرة الإلهية للسفر من غير اختيار نفوسكم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا حجوا وزاروا رسول الله ﷺ أن يمشوا حفاة من مساجد عائشة - رضي الله عنها - ومن آبار الإمام علي ﷺ، وعند رؤيتهم أشجار المدينة أو منارات مسجده ﷺ؛ أدبًا مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ، وقد فعل مثل ذلك من أشياخنا جماعة منهم الشيخ عبد القادر الدشطوطي، والشيخ محمد الشناوي، والشيخ محمد المنير، والشيخ أبو بكر الحديدي ﷺ.

ولما نزل السلطان قايتباي إلى زيارة سيدي أحمد البدوي، وإلى زيارة سيدي إبراهيم الدسوقي نزل عن فرسه حين رأى مقامهما ومشى حافيًا حتى دخل المقام قلعوا له من رجله كذا وكذا شوكه، فانظر يا أخي أدب الملوك مع أولياء الله تعالى فضلاً عن سيدنا رسول الله ﷺ سيد الخلق على الإطلاق.

ولما زار الشيخ علي النبتيتي - رحمه الله تعالى - سيدي أحمد البدوي نزل عن

دابته ومشي من ناحية نفيا، فلما زار ورجع ركب من عتبة مقام سيدي أحمد البدوي، فقالوا له في ذلك، فقال: إن سيدي أحمد البدوي ﷺ خرج فتلقانا من نفيا وهو ماشٍ فلم أكن أركب وهو ماشٍ، فلما زرناه خرج معنا إلى عتبة المقام، وأقسم علينا بالركوب من العتبة فلم يسعنا مخالفته، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص يقول: رسول الله ﷺ يرسل رسله كل سنة يتلقون القادمين من الحجاج من آبار الإمام علي ﷺ معهم الخلع، فيخلعون على كل إنسان بحسب مقامه، ويسر ﷺ غاية السرور، فإذا وقفوا بين يديه أمدهم بالأمداد اللائقة بهم، وربما هابه بعض الفقراء أن يقف بين يديه ﷺ، فيرسل له رسول الله ﷺ الخلعة ويمده أكثر ممن يحضر عنده بلا كثير هيبة.

ولما حج سيدي عبد القادر الدشطوطي - رحمه الله تعالى - ماشيًا حافيًا لم يدخل حرم المدينة، وإنما وضع خده على عتبة باب السلام مدة إقامة الحجّاج حتى رحلوا، ولم يدخل المسجد هكذا أخبرني به شيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري، وكان قد حج معه في تلك السنة.

وذكروا أن أحد أرباب القلب سمع شخصًا من خدام سيدنا رسول الله ﷺ يقول لرسول الله ﷺ: إن الشيخ عبد القادر واضع خده على باب السلام فأذن له يدخل، فقال ﷺ: هو أقرب عندنا ممن وقف وهو مغطى بالذنوب، فاعلموا ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يدعون أحدًا من الأكابر العلماء والأمراء ليمشي في زفة ختان أو زواج؛ تعظيمًا لخرقة العلماء عن مثل ذلك وأدبًا مع الأمراء، فإن منصبهم يجل عن أن يمشي أحدهم مع الصغار والطبل والمزمار، واللغط وخلطة من لا يصلح من الزوالق والعياق وأهل السخريا، ولم يكن يمشي في الزفاف في العصر الأول إلا النساء، لكن لا بأس بتهنئة الرجال بعضهم بعضًا، وأقبح مما ذكرناه دعاء شيخ الزاوية المنقطع عن الناس ليحضر ذلك، وأقبح منه غضب صاحب الزفة عليه إن لم يحضر.

وقد دعا شخص من أصحابي من غير علمي سيدي محمد البكري إلى زفة ختان ولده فحضر، فلما رأيته كدت أن أذوب من الخجل، فعلم أن كل فقير دعا أحد العلماء والصالحين والأمراء إلى زفة ختان ولده فهو قليل الأدب جاهل بمراتب الناس،

والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تصد أحد منهم للرد على أحد من أهل الفرق الإسلامية إلا بنص أو إجماع، فإن كل ما لا نص فيه عن الشارع ولا أجمعت عليه الأمة، الأمر فيه واسع ومرجعه إلى الفهم والأفهام مختلفة، فليس لصاحب فهم أن يقول لمثله: ارجع عن فهمك إلى فهمي، ولو أنه خاصمه لم يرجع إليه لاعتقاده الصواب في فهمه دون فهم غيره.

فعلم أن من خالف نصوص الشريعة أو إجماع الأمة وقواعدها، فلا لوم على من تصدر للرد عليه، بل ذلك واجب، وكلامنا إنما هو في مثل انتصار الإنسان لمذهبه، وادحاضه أدلة غيره من غير مخالفة القواعد كلها، فيرد ذلك الكلام من حيث هو بقطع النظر عن نسبته إلى قائله إلا إن ثبت ذلك بطريق شرعي، وإنما نبهنا على ذلك؛ لأننا رأينا من يتصدر للرد على من نسب إليه ذلك الكلام ويصرح باسمه من غير ثبوت ذلك عنه.

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا - رحمه الله - يقول كثيرًا في مثل ذلك: كل من ثبت عنه هذا الكلام فهو مخطئ، ولا يقول: فلان مخطئ، بمجرد عزو ذلك الكلام إليه لقلة ورع الناس في المنطق كما أوضحنا ذلك في كتاب «العهود المحمدية» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: منعهم أصحابهم من مطالعة كتب التوحيد المغلقة؛ خوفًا عليهم أن يفهموا منها شيئًا مخطئًا بالتقليد فيضلوا ويضلوا غيرهم لاسيما كتب محيي الدين بن العربي وأتباعه، وليس مراد القوم من المريد حفظ مقالاً أو كتابًا، وإنما مرادهم الاشتغال بالله تعالى حتى يذوق أحوال الطريق كما ذاقها القوم، ويصير يستشهد ذوقهم ومقالاتهم؛ طلبًا للاستئناس بهم لكراهة القوم للانفراد بالمقالات في الطريق، وخوفًا من الإسراع إلى الإنكار عليه حيث انفرد بخلاف ما إذا رأوه جمهور الصوفية معه فإنه يضعف إنكار المنكر ضرورة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: التسليم لمقالات أشياخ الطريق فإنهم كالمجتهدين، فكما يسلم الفقيه لإمام مذهبه كذلك يسلم الفقير لأئمة مذهبه في علم الطريق.

وقد كان الشيخ محيي الدين بن عربي - رحمه الله تعالى - لم يزل يخرج على

أهل الطريق في بداية أمره ويطالبهم بالأدلة على أقوالهم حتى اجتمع بالخضر - عليه السلام - تجاه الحجر الأسود، فأخذ عليه التسليم لمقالات الشيوخ، فمن ذلك اليوم ما أنكر على أحد منهم إلا بطريق شرعي.

وأقل ما في الإنكار أن المنكر يحرم من بلوغ ذلك الأمر الذي أنكره سواء كان ذلك حالاً أو مقامًا عقوبة له على إنكاره، ومن نظر كلام العارفين بعين الإنصاف لم يجد شيئًا ينكره عليهم؛ لأن طريقهم محررة على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجواهر، وقد حث الأشياخ كلهم على اتباع الكتاب والسنة، فكيف يخالفونها هم؟

وقد ذكر الشيخ في «الفتوحات» أن جميع المحققين أجمعوا على أن الكامل منزه عن الوقوع في الشطح إذ الشطح رعونة لا تصدر من محقق[1].

قال: ومن أراد ألا يضل عن طريق الحق فلا يرم ميزان الشريعة من يديه عند قول

---

(1) قال سيدي مصطفى البكري ﷺ: قال سيدي محيي الدين - قدس الله سره - في «الباب في معرفة مقام الفتوة وأسرارها» بعد كلام طويل: فالتوفيق في الإطلاق، و(ألم)، أي: إطلاق أسماء لم يُسم الحق بها نفسه، وما فعل هذا سبحانه كله إلا ليُعلم الخلق الأدب منه؛ إذ قد علم أن من أهل الله من له شطحات، ليتأدبوا فلا يشطحوا؛ فإن الشطح نقص بالإنسان؛ لأنه يلحق نفسه فيه بالرتبة الإلهية، ويخرج عن حقيقته؛ أي: لأن الشطح إطلاق من وثاق قيود، وخروج عن دائرة حدود، وبذا يخرج عن حقيقة عبوديته، ويغفل عن شهود نقصه وكمال سيده، وأحديته، فيلحقه الشطح بالجهل بالله وبنفسه، وقد وقع من الأكابر، ولا أسميهم؛ لأنه صفة نقص، وأما رعاع الناس فلا كلام لنا معهم؛ لأنهم رعاع بالنسبة إلى هؤلاء السادة، وإذا وقع مثل هذا من السادة، فعليهم يقع العتب منا، وقد شطح الأدنى على الأعلى؛ كمثل الشطحات على مراتب الأنبياء، وهي أعظم عند الله في المؤاخذة من شطحهم؛ فإن مرتبة الإله تكذبهم عند السامع؛ وأما شطحهم على الأنبياء فموضع شبهة، يمكن أن تقبل الصحة في نفس الأمر فيعتبر السامع الحَسَنِ الظن به الذي لا معرفة له بمراتب أصناف الخلق عند الله، فيغار الله لذلك، من حيث هو حق للغير، وما يؤثر من الضلال في الناس والنفس، فيؤاخذ صاحب الشطحة بها، ولا سيما إن ظهرت منه في حال صحو، وكذلك الشطحات المنقولة عن السادة من رؤية فضيلة جنسها من البشر عن الملائكة جهلاً منهم، وهم مسئولون، أو مؤاخذون بذلك عند الله، والعالم بالله المكمل هو الذي يحمي نفسه أن يجعل الله عليه حجة من الوهب، زاد من زال أن يسلم من ذلك، فليتق عند الأمر والنهي، وليرتقب الموت ويلزم الصمت إلا عن ذكر الله من القرآن خاصة، فمن فعل ذلك لم يدع للخير مطلبًا، ولا من الشر مهربًا، وقد استبرأ لنفسه، وأعطى كل ذي حق حقه؛ كما أعطى الله كل شيء خلقه، وهذا هو العاقل مقصود الحق من العالم، وما فوق هذه المرتبة مرتبة المخلوق أصلاً، انتهى. [الضياء الشمسي 240/2] بتحقيقنا.

وفعل واعتقاد هذا لفظه بحروفه.

وقد أخبرني الثقات عن الشيخ بدر الدين بن جماعة أنه كان يقول: جميع ما وجد في كلام الشيخ محي الدين مخالف لظواهر الشريعة مدسوس عليه؛ لأن الكامل يجب عليه بعد كماله أن يحق المحق ويبطل الباطل، والشيخ محيي الدين شيخ كامل، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إخلافهم الوعيد لا الوعد عملاً بحديث: «**فمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه**»[1].

قال الشيخ محي الدين بن عربي: وهنا دقيقة ينبغي التفطن لها وهي أن من أساء علينا فقد أعطانا حسناته في الآخرة في محل الحاجة، فكيف ينبغي لنا مقابلته بالإساءة عملاً بما توعدناه به؟! ولو كشف للعبد لم يجد أحدًا أحسن إليه مثل من أساء إليه، ومن كان هذا مشهده فمن الواجب عليه عند أهل الطريق أن يجازيه بكل إحسان في الدنيا، ثم لا يرى أنه كافئه على إحسانه.

ولما أراد أبو بكر الصديق ﷺ أن ينفذ غضبه في مسطح شفع الله تعالى عنده بقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النور: 22]، فقبل ﷺ شفاعة الحق - جل وعلا - وعفا عنه وصفح رجاء المغفرة من الله تعالى، وترك أبو بكر ما كان توعد به مسطحًا.

ثم إن هذا الخلق لا يصلح العمل به إلا لمن خرق ببصره الإيماني إلى مشاهدة أحوال الدار الآخرة حتى صارت عنده كأنها شهادة، وأما من لو خرق ببصره إلى ما ذكرناه فمن لازمه مقابلة المسيء بإساءته؛ لحجابه عن شهود الآخرة.

فاسلك يا أخي على يد شيخ صادق حتى تلطف كثائفك وترقق حجابك، وإلا فلا تشم من التخلق لهذا الخلق رائحة، انتهى.

فعلم أن كل فقير إذا آذاه من آذاه فقد خرج عن طريق الاستقامة الحقيقية، فإن الله تعالى ما أباح المجازاة إلا مداوة للضعفاء، وأما الأقوياء فعوض لهم بترك المجازاة بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:40] على أن سيئة

---

(1) رواه مسلم في «الصحيح» (1271/3)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (232/9).

المجازاة يشترط فيها أن تكون مثل السيئة الأولى، وتحرير المثلية عسر جدًا، لأنه يشترط أن يكون تأثير البادئ ونكايته بسيئة المجازاة مثل تأثير المجازي على حد سواء.

وأيضًا فإن الحق تعالى خلع على سيئة المجازاة اسم الشبهة وأكدها بمثلها ففهم أهل الله تعالى أنهم إذا جازوا كانوا مثل أهل البداة في الذنب فلم يرضوا ذلك لأنفسهم هذا ما درج عليه الكمل من الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: مدح أشياخهم في كل موضع يعتقدوهم الناس فيه، والسكوت عن مدحهم إذا كان هناك من ينكر عليهم؛ خوفًا أن يقع في سبهم، كما لا ينبغي مدح الإمام أبي بكر وعمر عند الروافض إلا إن رجي رجوعهم عن بغض الشيخين إلى محبتهما.

وهذا أمر قد أغفله غالب مريدي هذا الزمان، فيمدحون شيخهم ويصفونه بالقطبية الكبرى بحضرة من ينكر ذلك عليهم، فيسخر به الحاضرون، فاعلم ذلك وإياك أن تسامح أصحابك في المبالغة في مدحك إذا كثرت أتباعك فنفوك خوفًا على المملكة، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم الاهتمام بأمور الدنيا بقدر الضرورة، فلا يذهبون إلى السوق مثلاً لأجل شراء جوخة أو صوف، ولا يرسلون رسلهم لأجل ذلك يردونه مرات عديدة، فإن ذلك مشعر برؤيتهم الحظ الأوفر لأنفسهم دون من يشترون منه، وما هكذا تكون الفقراء إنما شأنهم أن تكون لهم المنة على من يشترون منه فيبيعون برخص ويشترون بغالٍ، وكذلك لا يبالغون في حسن الهندام في التفصيل والخياطة والسجاف، ولا يبالغون في نظافة الثوب وحسن بياض الجبة أو سوادها أو حمرتها، بل يلبسون بحكم الاتفاق، ويغسلون بحكم العادة؛ وذلك لأن شرف الفقير ليس هو بالثياب والهيئة، وإنما هو بحسن الأخلاق والسماح.

ويقبح على فقير جعله الله تعالى قدوة للناس أن ينزل بنفسه إلى دناءة الأخلاق، وطلبه الحظ الأوفر لنفسه دون أخيه المسلم، وكذلك لا ينبغي لفقير أن يشتري شيئًا من معارفه؛ خوفًا أن يحاسبوه بسيف الحياء لا بنية صالحة.

وقد كان الشعبي ﷺ إذا قالوا له : ألا تغسل ثوبك؟ يقول: ليت قلبي في القلوب مثل ثوبي في الثياب، فعلم أن كل فقير ذهب إلى السوق لأجل شراء شيء لنفسه فقد

أعتني بالدنيا، وكذلك إذا أرسل رسوله في الصوم إلى السوق البعيد، ثم صار يرده مرات، وكل من قال هذا لا يقدح في الفقير فهو من باب حسن الظن بالفقراء فجزاه الله خيرًا، وإنما الشأن مشي الفقير على مشي سلفه في عدم المبالاة بأمور الدنيا، فإنهم أجمعوا على أن طعام الفقير ما وجد ولباسه ما ستر، وكل من طلب فوق ذلك فقد خرج عن الطريق.

وكان سيدي يوسف العجمي يقول: من رأيتموه في زيه لبق، فاعلموا أنه عن الاستقامة زلق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حمل كلفتهم عن الناس منه ما أمكن فإن ثقل كلفة الفقير ينفر الناس منه بقولهم، وإن عظموه بظاهرهم حقروه بباطنهم، فإذا دعاهم أحد إلى بستانه أيام المشمش أو العنب مثلاً لا يذهبون إلا بعزة وجماعة قليلة، وهذا خلق قد أغفله غالب الفقراء اليوم فربما سألوا فضل صاحب البستان في التفرج بحضرة من يستحيل منه فلا يسعه إلا أن يقول: أنا في خدمتكم أي وقت طلبتم، فيذهبون إليه بما هب ودب، فيقطعون رمانهم الأخضر وحصرمهم، ويفسدون ويصير صاحب البستان في غاية الحسرة والندم، وربما قالوا له: وايش تطعمنا هناك؟ فيكلفونه الطبيخ لهم بسيف الحياء كرهًا عليه في الباطن، ثم لا يفارقونه حتى يقولون له: قد حصل لك الخير بمجيء سيدي الشيخ، وكل هذا خروج عن طريق الشرع كما أوضحنا الكلام عليه في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ملازمة المراقبة لله تعالى إذا خرجوا من بيوتهم لسفر أو غيره حتى يرجعوا، وذلك ليحيطهم الله تعالى من الآفات، ولا شك أن مراقبة الله تعالى شديدة لما فيها من شدة الهيبة والتعظيم، ولذلك كره رسول الله ﷺ للرجل أن يسافر وحده، واستحب له السفر مع الجماعة وقال: **«واحد شيطان والاثنان شيطانان وثلاثة ركب»**[1] انتهى.

فطلب لأمته ما فيه الرحمة لهم، فإن الإنسان إذا وقف وحده بين يدي ملك عظيم أرعد من هيبته ضرورة حتى تكاد مفاصلة تنقطع، وإذا وقف مع غيره بين يديه

---

(1) تقدم تخريجه .

خفت الهيبة عليه لأنسه بأشكاله.

ومن فوائد السفر مع الجماعة أنه إذا حصل له مرض كان واحد يخدمه ودابته وآخر يبلغ خبره إلى أهله، فصلى الله وسلم على معلم الخير ﷺ.

وقد ورد في بعض طرق حديث الإسراء ما يؤيد ما قلناه من الهيبة أن رسول الله ﷺ لما أفرده جبريل بزجه في النور أخذته هيبة عظيمة، فسمع صوتًا يشبه صوت أبي بكر يقول له: قف إن ربك يصلي، فزالت هيبته ووحشته إذا الهيبة من لازم المقربين، وكل من ادعى القرب مع الادلال فلا ذوق له في مقام المقربين، ولذلك قال ﷺ: **«انا أعرفكم بالله تعالى، واخوفكم منه»**[1] فعلم أنه لا ينبغي لأحد المبادرة إلى الإنكار على من رآه لبس الطيلسان من الفقراء، فربما أرخاه على عينيه حياء من الله ﷻ.

وقد قال الإمام مالك: أول من ضرب الخبأ في طريق الحج من الخلفاء عثمان بن عفان ﷺ، فقال لأصحابه: أحجبوني عن الناس، فإني أستحي من نظري إليهم، وكذلك لا ينبغي له الإنكار على من يراه يسافر وحده؛ لأنه ربما يكون قد أمن نفسه عن الخوف من الخلق لا يخاف إلا الله تعالى بل يتربص، فإن رآه ألقى بنفسه إلى الهلكة مع الصحو أنكر عليه؛ لأن الله تعالى قد أمنه على نفسه، فلا يتعاطى ما يضره في الدنيا والآخرة.

وكان سيدي علي الخواص لا يسافر بليل ويقول: أخاف أن يقع أحد من اللصوص في الإثم بسبب ضربي على غفلة لأجل أخذه ثيابي وعمامتي، فلم يمتنع من السفر وحده خوفًا من الخلق أن يأخذوا ثيابه لطيبة نفسه بها، ولو أنهم سألوه فيها لأعطاها لهم من غير أن يرتكبوا إثمًا، وإنما امتنع من اللصوص؛ خوفًا على اللصوص أن يقعوا في معصية بسبب ضربه، فالناس على أقسام في المشي في الليل.

فمنهم من يكره ذلك حياء من الله تعالى، ومنهم من يكره ذلك؛ خوفًا على أخذ اللصوص ثيابه وضربه مثلاً، ومنهم من يكره ذلك؛ خوفًا من وقوعه في عدم حفظ ما أمنه الله تعالى عليه من جسمه من حيث كونه عبد الله تعالى لا لحظ نفسه كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (200/1)، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (53/1).

ومن أخلاقهم: أن ينصحوا إخوانهم المترددين عليهم المحترفة ألا يأتوا إليهم إلا بعد تحصيلهم ما يقوم بعيالهم، ومتى أقروا أحدًا على ترك حرفته لأجل حضور وردهم مثلاً فقد غشوه وخانوه، والله لا يحب الخائنين.

وقد سئل الحسن البصري عن رجل يكتسب ما يقوم بعياله، ويصلي منفردًا ولو حضر صلاة الجماعة لم يف كسبه بعياله، فقال: يكتسب ما يكفي عياله ويصلي منفردًا، وهذا الخلق قد أغفله غالب المتمشيخين بغير حق فيقر أحدهم التاجر أو المحترف على ترك الحرفة التي تستره ذلك اليوم لأجل حضور نظام قراءة ورده مثلاً، وإذا تأخر عن حضور مجلسه لأجل كسبه ما يقوم بعياله ينكدر منه ويصير ينظر إليه نظر الغضب، وكان الأولى لسيدي الشيخ أن يفرق مسموحه أو جواليه مثلاً على جماعته الذين يطلب منهم الحضور في قراءة ورده، ويأكل كأحدهم فإن ذلك هو العدل، وأما كونه يأكل الدجاج واللحم الضاني، والأرز المفلفل، والحلوى من جواليه، أو مسموحه أو رزقته مثلاً وما عليه من إخوانه فهذا خروج عن الطريق.

وقد رأيت من يحجر على إخوانه ألا يغيبوا عن الوقت الفلاني لأجل حضور الدفتردار أو قاضي العسكر مثلاً ليوهم ذلك الزائر أن عنده جماعة كثيرة، وأنه في حمله ثقيلة من جهة كلفتهم إما ليشكروه أو ليحسنوا إليه زيادة على ما عنده من الرزق أو غير ذلك، وما للفقير وللأمير حتى يدعوه إلى حضوره لزاويته مثلاً، وإذا صدق الفقير مع الله تعالى صارت الأمراء وغيرهم يترددون إليه من غير سؤال ولو أنه منعهم من زياراته تشوشوا، وقد رأيت من دفن في زاويته شيخًا، وصار يذكر له كرامات وخوارق، ويدعو الأمراء إلى زيارته؛ لينصب عليه.

فقلت له: مالك ولدعاء الأمراء إلى زيارة هذا الشيخ، ولما لا تدعوهم إلى شيخ آخر، فقال: إنما دعوتهم ليحضروا درسي في الطريق في حجة زيارة هذا الشيخ، فقلت له: إن الأمراء ليس لهم وعاء يحملون فيه علمك وما رأينا قط أحدًا من الأمراء جالسًا يسلك الناس في الطريق أبدًا، فما لقى في دعائه إلى حضور الدرس أو الختم مثلاً إلا العلة النفسية في الغالب.

وقد كان السلف الصالح يفرون من الشهرة وإظهار مقامهم عند أحد من الأمراء إلا لغرض شرعي حتى كان الفضيل بن عياض ﷺ يقول: لو أن أحدًا قال لي إن أمير

المؤمنين واقف على بابك يريد الدخول فسويت لحيتي بيدي لخفت أن أكتب في جريدة المنافقين، انتهى.

فليحذر الفقير مما ذكرناه من إظهار النظام وتعاطي أسباب الشهرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: كثرة ذكرهم لله تعالى في زواياهم، وعدم الخروج إلى عمل مجلس الذكر في الجوامع المشغولة بالعبادات، وكثرة دخول الخلق لها كجامع الأزهر ونحوه كما درج عليه السلف الصالح ﷺ.

وقد خالف بعض أهل عصرنا في ذلك فصار يترك زاويته ويذكر المجلس يوم الجمعة في جامع الأزهر، فحصلَ بذلك شرور وترافع إلى الحكام، فكتب الباشا مرسومًا لذلك الشيخ بأنه يذكر في الجامع على رغم أنف أهله، فضربوا جماعته ضربًا شديدًا، وهدموا عمامته وبهدلوا الخرقة، وما كان ينبغي له ذلك هذا مع وقوع الناس في غيبته بنحو قولهم: فلان يحب المشيخة والشهرة فجلس زمانًا في زاويته فما وجد أحدًا يعظمه ولا يعرف مقامه فجاء إلى الجامع لتعرفه الناس، وكأنه بذلك يقول: اعرفوا أني شيخ من الذاكرين لاسيما إن كان ورده في الليل وليس في زاويته أحد غيره وغير جماعته، فإن ذلك ربما كانت النفس تكرهه لعدم من يشكرها على تلك العبادة.

وسمعت الشيخ شمس الدين اللقاني المالكي[1] يقول للشيخ نور الدين الشوني: إني خائف عليك من تصدرك في مجلس الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ في جامع الأزهر مع كثرة من يراك من الأمراء والأكابر، فربما أعجبت النفس بذلك فيصير تعبك هباء منثورًا.

فقال له الشيخ نور الدين: ما جلست في جامع الأزهر إلا بإشارة سيدي رسول الله ﷺ.

فسكت الشيخ شمس الدين، ثم قال: لا يلزم من كونه أشار عليك يجعل المجلس في الجامع أن يكون عملك فيه خالصًا، فامتحن يا أخي نفسك بما لو نقلت

(1) قال المصنف: كانت له مكاشفات عظيمة غريبة، وكان كريمًا سخيًا حافظًا لنقول المذهب كأنها كلها نصب عينيه، وكان يواجه الأكابر والأصاغر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم، وكان لايبيت على درهم ولا دينار. وانظر: الطبقات الصغرى (ص57).

مجلس الجامع إلى محل مهجور ليس فيه أحد غير جماعتك ولا يعلم به أحد، فإن خف عليها السهر فيه، وانشرحت لذلك في مخلصة وإن انشرحت للمجلس في جامع الأزهر أكثر فاعلم أن ذلك رياء، فلا يلزم من كون المجلس بإشارة رسول الله ﷺ أن يكون صاحبه مخلصًا، فإن سائر الطاعات قد أمر بها رسول الله ﷺ ومع ذلك قد يدخل فيها الرياء كما هو معلوم من أحاديث الشريعة، فليحذر الفقير من مثل ذلك.

وقد سمعت سيدي عليًا الخواص - رحمه الله - يقول: ربما استحلى العبد ما هو فيه من الطاعات ومكث طول عمره فيها، فتقول له: إن ذلك من علامة إخلاصك، ولو أنك مخلص مادام عليك هذا الخير، فيصغى لذلك فيهلك وهو لا يشعر إذ لو فتش نفسه لربما وجدها مرائية خالصة في الرياء، وقد أجمع العارفون على أن من علامة الرياء استحلاء العبادات؛ لأن النفس لا تستلذ بعبادة إلا إن وافقت هواها، ولو خلصت من الهوى لثقلت عليها، فإن النفس من أصلها رئيسة، فلا تكاد تخضع لربها إلا بكلفة، فمن وجد من الصالحين في نفسه كلفة للطاعات فذلك من علامة إخلاصه، ومن هنا قام ﷺ حتى تورمت قدماه؛ لثقل التكاليف عليه، ولشدة معرفته بعظمة الله ﷻ وكان يخفف في الصلاة رحمة بأمته؛ لأن الوقوف بين يدي الله تعالى يقدر على تطويله.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله يقول: استحلاء العبادة سم قاتم محبط للعمل، ولولا شهود الضعفاء تعظيم مقامهم عند الناس بسهر الليالي مثلاً ما استطاعوا سهر ليلة كاملة فضلاً عن مقام الصبر.

فليمتحن العبد نفسه في المجالس التي يحدثها، فربما كانت طريقة يكتسب فيها معاشه في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب سوى العقوبة عليها كما ورد في الصحيح، وربما كتب اسم الشيخ الذي أنشأ مجلس الذكر في ديوان المنافقين في السماء، وهو يحسب أنه يحسن صنعًا، ولم يكن عقد مجالس الذكر في الزمن الماضي إلا لكمل الأشياخ الذين تطهروا من رعونات النفس دون آحاد الناس من المريدين، فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم التخصيص على الفقراء بشيء من وقف زاويتهم، ولا يفرشون في بيوتهم شيئًا من حصر الزاوية، ولا يوقدون فيها مصباحًا من الزيت الموقوف عليها، ولا يتخصصون سرًا ولا جهرًا بهدية ولا زكاة، كما يفعله بعض

النصابين فينصبون على اسم الفقراء ولا يعطونهم منه إلا البعض، ولولاهم لما أعطاه الناس مثل خمس قناطير عسلاً، فليكن النصاب منصفًا وإلا افتضح بين الناس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: منع عيالهم من حضور الولائم التي يجتمع فيها من لا ينضبط على قواعد الشريعة من الرجال والنساء، بل يضربون العود، ويتكلمون بالكلام الذي تستحي أهل المروءات من النطق به في حق النساء والرجال، كذكر الفروج، وصورة الوقاع والغناء، والرقص، وغير ذلك مما يفعله المخبطون ونحوهم.

وقد ترك العمل بهذا الخلق كثيرًا من فقراء الزمان، وحصل لعيالهم التغيير بسبب سرقة طباعهم مما يسمعون في الأعراس، كما لا ينبغي للفقير أن يمشي في زفة الختان، فكذلك لا ينبغي له حضورهن في الأعراس المشتملة على مفاسده، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تعظيم الأشراف وزيارة قبورهم لاسيما الأقربين إلى سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ كالأئمة الإثنى عشر، وفي مصر منهم جماعة نحو:

السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ورقية ابنة الإمام علي، وسكينة أخت السيد الحسن، وزينب ابنة السيد الحسين، ورأس الإمام زين العابدين، ورأس الإمام زيد، ورأس الإمام الحسين[1]، ووالد السيدة نفيسة، وعائشة بنت

---

(1) قال الجمزوري الخلوتي: فحق عليّ كل من ادعى محبه آل البيت المكرمين، ومودة أبناء فاطمة الطاهرين؛ أن يواظب على زيارة هذين المشهدين العظيمين، والمقامين المتبقين أعني: مقام الإمام زيد، ومقام الإمام الحسين -رضي الله تعالى عنهما- إذ هما قرة عين الرسول، وثمرة كبد فاطمة البتول، ولو بعد عنهما داره وشط في ذلك مزاره، فإنه لو لم يمكنه ذلك إلا على الأبصار؛ لكان قليلاً عند أهل الاستبصار، فإن المحب للحبيب زوار، كما قال بعض من شط في المزار، فخرق الحجب والأستار، وقطع في محبة محبوبه الغبار، والقفار، وسلك في هواه السهل والأوعار.

زُرْ مَن تُحبُّ ولو شَطَّتْ بِكَ الدَّارُ   وحَالَ مِن دُونِهِ حُجُبٌ وأَسْتَارُ
لا يَمْنَعنَّكَ بُعْدٌ مِن زِيارتِهِ   إنَّ المحِبَّ لمن يَهْواهُ زَوَّارُ

فأسأل الله تعالى أن يحيينا على مودتهم وأن يميتنا على محبتهم، وأن يحشرنا في زمرتهم تحت أوليتهم.

ثم اعلم؛ أنه ينبغي للزائر أن يتأدب بآداب الزيارة، فمن آدابها أن يحضر قلبه عند خروجه من
-

الإمام جعفر الصادق، وجماعة كثيرة بالقرافة - رضي الله عنهم - والمطلوب لكل مؤمن أن يزور هؤلاء كل قليل؛ لأن فيه صلة لقربته منه ﷺ، والاعتناء بزيارة هؤلاء كما يعتني بزيارة الإمام الشافعي ﷺ، وقد منَّ الله تعالى عليَّ بزيارة هؤلاء كل ثلاثة شهور، وجاءوني في المنام مرات وشكروا من فضلي، ورأى بعض صالحي الشام الأئمة الاثنى عشر وهم خارجون من الشام، ووجوههم كالأقمار فقال لخادمهم: إلى أين؟ فقالوا: إلى مصر نزور عبد الوهاب، فإنه من المحبين لأهل البيت، انتهى. فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهة إقامتهم في هذا الدار خوفًا من عدم القيام بآداب أهل البلاء كلما تقارب الزمان لكثرة ما ينزل فيه من البلاء أو من الوقوع في الآثام، فإنها دار ابتلاء في البدن والمال، وكلها مملوءة بحقوق الله تعالى وحقوق عباده، ولذلك لا يطيق غالب الناس الوفاء به.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: حكم هذه الدار حكم قوم جالسون في خرابة في الحر والبرد، وفي تلك الخرابة سائر المؤذيات من سباع وتماسيح وعقارب وحيات وكلاب عقورة وغير ذلك من سائر الأعداء من الأنس والجن، وهي مسلطة على كل عبد أقام في تلك الخرابة، وقد أمرهم الله تعالى بقتال جميع هذه المؤذيات ليلاً ونهارًا لا يتهنون بأكل ولا بشرب، ولا نوم، فأرسل لهم الحق تعالى رسولاً يدعوهم إلى جنته في ظل ظليل، ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ * لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ * وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ [الواقعة:32. 34] ويستريحوا من مقاتلة هذه المؤذيات فأبوا، وقالوا: لا نخرج من هذه الخرابة، فهم مخطئون بإجماع العقلاء، وكل من وزن اليوم

منزله، وينوي الزيارة؛ ليحصل له ثواب السعي لقوله: ﷺ «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

ومنها: أن يقصد زيارته وجه الله تعالى وإصلاح فساد قلبه بالتذكرة للموت، والاعتبار به ونفع المزور بما يتلوه عند قبره من كتاب الله تعالى، والدعاء بالرحمة والرضوان، وغير ذلك ولا يحمل حظه من الزيارة الطواف بالقبول، والنظر إلى أبنيتها، وما فيها من الستور، والقناديل، والفرش وغير ذلك.

أحواله على الكتاب والسنة وجدها خارجة، وما يفعله من الأعمال الصالحة إنما هو صالح بالاسم فقط، فهو في أوزار يكسبها ليلاً ونهارًا، فيجب على العبد أن يسلم لله تعالى من حيث تقديره عليه وله ويستغفره من حيث كسبه، كما درج عليه السلف الصالح، ولكن يحتاج الإنسان إلى عينين عين ترضى بإقامة الله تعالى له في هذه الدار ولا يطلب الانتقال منها وعين تطلب الهروب منها كل ساعة خوفًا على نفسه من ارتكاب الأوزار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يقروا من يريد الصحبة لهم على حرفته التي أقامه الله تعالى فيها بطريقه الشرعي، ثم يسلكونهم وهم في حرفهم كما أقر النبي ﷺ الصحابة على ما هم عليه من حين دخلوا في الإسلام، ومن هنا كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: الكامل من يسلك الناس وهم في حرفهم لا من يأمرهم بترك حرفتهم حتى يسلكهم، فإنه ما من أمر مشروع إلا ويمكن العارف أن يوصل صاحبه إلى حضرة الله تعالى منه بخلاف الأمور التي لم تشرع، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى»، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يبدؤون أحدًا من طلبة العلم إلا إن كان يكفونه في القراءة عليهم في كل علم طلبه من آلات الشريعة، وإنما يرغبونه فيه ويأمرونه بالإخلاص فيه فإنه لا بدّ من قائم بالشريعة وحفظها عن الاندراس كما أنه لا بدّ من قائم بالطريقة، وحفظها كذلك عن الاندراس، فالجامع بين الطريقين على وجه القيام بهما معًا عزيز في كل عصر، فلذلك كان من الأدب تسليم الفقيه للصوفي طريقه، وتسليم الصوفي كذلك للفقيه طريقه حتى يغلب على الفقيه من نفسه طلب الطريق، ومادام متعشقًا لزيادة العلم،فلا يجيب إلى طريق القوم؛ لأن مبناها على مخالفة النفس في سائر الحظوظ، وما كل أحد يقدر على ذلك.

ومن هنا كان من كرامة سيدي أبي العباس المرسي، التي انفرد بها عن غالب الأولياء تسليكه لجماعة من القضاة، فقد بلغنا أنه سلك ثلاثين قاضيًا، ولم يبلغنا وقوع ذلك لغيره.

وقد كان يقول لسيدي ياقوت العرشي: ليس الشأن أن تسلك كل يوم ألفًا من العوام، وإنما الشأن أن تسلك فقيهًا واحدًا في مائة عام، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم رؤيتهم الكمال في شيء من مقامات إسلامهم أو إيمانهم أو إحسانهم لاسيما في هذا الزمان الذي نقصت فيه الأمور.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: كان لأهل القرن الأول كمال الإيمان، وكان لأهل القرن الثاني كمال العلم، وكان لأهل القرن الثالث كمال العمل، ثم أخذت الأمور كلها في النقص بالنسبة لمن بعدهم كما أشار إليه حديث: «**ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»[1] انتهى.

وسمعت سيدي محمد الشناوي يقول: من ادَّعى كمال مقام الإسلام في هذا الزمان فهو مغرور، ورأى فقيه مرة منامًا فقصه على سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - وقال له: قد خفت أن أكون قليل الدين، فقال له: يا ولدي إن هذا يشاركك فيه ألوف من الناس، قال: وقد كان من سنة السلف الصالح:

إن من شرط كمال الإسلام أن يسلم المسلمون من لسانه ويده[2].

ومن شرط المؤمن: أن يكون الغيب عنده كالشهادة كأنه يعاين أهوال يوم القيامة.

ومن شرط المحسن: أن يعبد الله كأنه يراه على الدوام، فأي شخص يدعي أنه كامل في هذه المقامات الثلاث، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة حرصهم على فعل الآداب المحمدية التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته وأذن لهم في استنباطها من الكتاب والسنة لاسيما إن كان هناك من يقتدي بهم فيها، كما أنهم يحرصون على ترك كل ما خالف السنة أو آداب السلف الصالح، وذلك كأن يكبر اللقمة ويتبع اللحم أو القلقاس من حوالي القصعة أو ينقي الرطب أو العنب أو التين، ويدفع لغيره الرديء ونحو ذلك سواء أكان ذلك في طعامه أو طعام غيره، وسواء أكان يأكل وحده أو حيث يراه الناس، فيداوم على ذلك حتى يصير ذلك عادة له سرًا وجهرًا، ويتأكد على الشيخ أن يتبع السلف في ذلك، ويصغر اللقمة، ويطول المضغة، ويؤثر رفيقه بكل ما يراه حسنًا من الفواكه وغيرها؛ وذلك ليفعل معه رفيقه الآخر مثل فعله، فيؤثره بأطايب الطعام والفواكه، وربما اقتدى به جليسه ومن يراه

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) يُشير إلى ما رواه مسلم (66/1، رقم 42) ، والترمذي (661/4، رقم 2504): «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ».

في شراهة النفس كذلك وإن لم يكن من عادته الشره قبل ذلك، فيرجع تبعة سوء الأدب في ذلك على من سبق به، فإن سرقة الطباع غالبة، فإذا سرق الإنسان ما قدام جاره من اللحم سرق الآخر ما قدامه، وإن آثره بذلك آثره الآخر.

فليحذر الفقير من مثل ذلك كل الحذر، ويوصي كذلك جماعته ويحذرهم من كثرة الأكل، وشره النفس؛ لئلا يلوث الناس بالخرقة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الصدق في ادعاء المقامات، وعدم ادعاء مقامًا لم يبلغوه ولا مقامًا بلغوه ولم يؤذن لهم في إظهاره، فإن ذلك المدعي ربما يعاقب بحرمان ما ادعاه فلا يناله بعد ذلك أبدًا كما جرب، وهذا الخلق قد صار عزيزًا في هذا الزمان حتى أن أربعة من أهل العصر ادعوا القطبانية الكبرى فقلت لهم: إن القطب لا يكون إلا واحد والثلاثة منكم كاذبون وأنتم على خلاف، وهذا كله استهزاء بالطريق؛ لعدم وجود من ينكر عليهم، فإن الصادقين استتروا وغير الصادقين يرفع بعضهم لبعض لعلم أحدهم بأنه إذا أنكر على أحد أنكر الآخر أحواله وأخرجه عن الدائرة، فحكم الظاهرين بالدعاوي الكاذبة الآن حكم خلبوص المغاني إذا أخرج ثيابه في صورة قاض أو أمير وغير ذلك فيضحك الصغار عليه، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أنهم لا يأمرون تلامذتهم أولاً إلا بما صرحت به الشريعة، فإذا عملوا بذلك أمروهم بما استنبط منها، وهيهات أن يعمل مريد في هذا الزمان بالمنطوق به فضلاً عن المفهوم، ثم إن الأمور التي تفرعت بالفهم من الشريعة قد لا يعان العبد على الوفاء بها بخلاف ما أمره الشرع به، فإنه ما أمره بشيء إلا وهو تعالى يريد إعانته عليه إلا إن سبق له الشقاء.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول لنا: اتبعوا ولا تبتدعوا، فإن الوقوف على حدود ما ورد أولى من الابتداع ولو استحسنه العلماء؛ لأن ما استحسنوه قد خلع عليه اسم البدعة على كل حال، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبة العزلة في بدايتهم وكراهتهم للعزلة في نهايتهم؛ وذلك لأن المبتدئ لضعفه أدنى شيء يشغله عن الله تعالى ولا هكذا المنتهى؛ لأنه من حين عرف الله تعالى المعرفة المطلوبة بين القوم صار لا يشغله عن الله تعالى شاغل، ولا

يخلو الخلق من حالين إما أن يكون أحدهم أعوج، فيجب عليه القرب منه حتى يقوِّم عوجه، وإما مستقيمًا فيستفيد منه العلم والأدب.

وإنما لم نقل: لا يخلو الخلق من ثلاثة أحوال، ونعد منها المساوئ له من الأقران؛ لعلمنا بأنه ليس في الوجود شيئان متساويان من كل الوجوه وما بقي إلا الزائد أو الناقص، فتارة يشهد الإنسان نقصًا في أخيه فينصحه، وتارة يشهد فيه كمالاً.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي - رحمه الله - يقول: المخالط للناس الصابر على أذاهم أولى وأفضل من الهارب منهم، فربما اعتزل الناس وظن بنفسه السلامة من الآفات والحال بخلاف ذلك بخلاف الذي لا يخلو من عدو وحاسد يظهر فيه العجر والبجر، فيا سعادة من كان له جيرانًا ينكرون عليه، انتهى.

فعلم مما قررناه أنه لا يقال العزلة أفضل مطلقًا ولا الخلطة أفضل مطلقًا، وقدمنا أن العارف أواخر عمره يحن إلى العزلة كالبداية حين انتهت تربيته لأصحابه، فلا يصير له وقت يسع الناس كما وقع له ﷺ أواخر عمره حين نزلت عليه سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:1] خوفًا أن يكون ذلك استدراج، فلا يزال أحدهم خائفًا حتى يجاوز الصراط، ثم بتقدير أنه لم يكن استدراجًا فهم لا يعلمون هل فعل ذلك خير لهم أو تركه؟ ولا هل أعطاهم الحق تعالى ذلك بطريق الاستحقاق كما سبق به العلم أو بطريق الوعد؟ ولأجل يدوم ذلك معهم حتى يموت أو يذهب، والعاقل لا يفرح بشيء لا يدري هل يدوم عليه أم لا؟ بل لا يركن إلى الاعتماد على فضل ربه تعالى، فهو دائمًا مفتقر إلى الله تعالى في كل نفس، وذلك غاية الكمال، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهودهم ببادئ الرأي أن الحق تعالى حكيم عليهم وأنه أشفق عليهم من أنفسهم؛ ولذلك تركوا التدبير معه ولولا ذلك المشهد لدبروا لنفوسهم ضرورة، وهذا خلق قد صار غريبًا في بعض فقراء هذا الزمان؛ لقلة اشتغالهم برياضة نفوسهم قبل التصدر للمشيخة فصار أحدهم بمجرد ما يلوح له بارقة من أحوال الطريق يتميز بها عن العوام يجلس يعمل شيخًا، وربما راج أمره عند الناس أكثر من الصادقين كما عرفت ذلك من نفسي فإني أعرف جماعة يعتقدوني ويرجحوني على بعض العارفين الذين لا أصلح أن أكون مريدًا لهم، ويرمون عليَّ حملاتهم، وإذا قلت لهم:

اذهبوا إلى فلان خذوا خاطره لا يسمعون لقولي.

فعلم أن كل من دبر مع الله تعالى فهو محجوب عنه بسبعين ألف حجاب كما أوضحنا في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الصبر على الجوع والعري ولا يأكلون، ولا يلبسون شيئًا بالدَّين كما يقع فيه أولاد المشايخ الذين لم يدخلوا تحت تربية الأشياخ، فيظهر أحدهم نفسه بالكرم ولا يقوم برد نفسه عن شهواتها، فيصير يأكل ويشرب ويلبس، ويضيف الناس وينزلق إلى الأخذ بالدين حتى ترتكبه أرباب الديون يطالبونه فيستخفي، وإن قدر أن أحد اشتكاه من بيت حاكم ليعطيه حقه قام عليه زبانية ذلك الشيخ، وقالوا لصاحب الحق: استحِ مثلك يشكي سيدي الشيخ أما تكرمه لوالده؟! ونحو ذلك، وهذا كله خروج عن الطريق.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إياكم أن تجيبوا نفوسكم إلى كل ما اشتهت مع ضيق مكاسبكم، وإن عاقبتكم إلى حبس الدنيا أو حبس الآخرة، انتهى.

ويؤيد ذلك قول سفيان الثوري ومالك بن دينار: وينبغي للمؤمن أن يصبر نفسه عند الضيق ولا يجيبها إلى كل ما تشتهي، فإن أحدنا لو أجاب نفسه إلى ذلك لخيف عليه أن يعمل شرطيًا أو مكاسًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إقامة المعاذير للناس بطريقه الشرعي تخلقًا بأخلاق الله تعالى، فقد ورد في الصحيح: **«لا أحد أكثر معاذير من الله تعالى»**[1] انتهى.

ومن عقل العاقل أن يعذر إخوانه بما يعذر به نفسه، فإنه ليلاً ونهارًا يود لنفسه الخير، ويقع في ضد ذلك مع أن نفسه أقرب الأقربين إليه، فليوطن الفقير الصادق نفسه على سماع كل ما يكره في حق جماعته أو حقه من غير أن يقابل الناس بشيء من ذلك.

---

(1) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (1/358)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: « التأني من الله ، والعجلة من الشيطان، وما شيء أكثر معاذير من الله وما من شيء أحب إلى الله من الحمد» (9 /397).

وقد كان الإمام الشافعي ﷺ يقول: كثرة الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط، انتهى.

قلت: وذلك لئلا يعرض عن الناس تكبرا، وإنما يتبسم لأحدهم عند اللقاء ويخاطبه بيا حبيبي، فمن فعل ذلك أحبه الناس ولو لم يخاطبهم.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إذا ابتليتم بصحبة من لا غنى لكم عن صحبته فناصحوه تارة، وسالموه تارة، وادعوا له بالصلاح تارة، واسألوا الله الخلاص من صحبته على سلامة تارة، فلا بدّ لكل إنسان من محب ومن مبغض، ولو كان في فضل الإمام علي ﷺ، انتهى.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا - رحمه الله - يقول: من طلب من الناس يكونون في حقه كما يريد غيبة وحضورًا فقد طلب المحال؛ لأن ذلك لا يصح لأحد من الملوك فضلاً عن آحاد الناس.

وكان من قول نبي الله داود ﷺ: «اللهم إني أعوذ من خليل عينه ترعاني، وقلبه يشنأني، وإن رأى خيرًا أخفاه، وإن رأى شرًا أفشاه» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مشاركة المسلمين في البلاء النازل عليهم في سائر أقطار الأرض إذا بلغهم ذلك عملاً بحديث الطبراني مرفوعًا: **«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»**[1] وعملاً بحديث: **«المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»**[2] فلا يمسي أحدهم ويصبح إلا وبدنه ذائب كأنه شرب رطلاً من السم، وكيف حال من يشارك سائر المعاقبين في بيوت الحكام في سائر أقطار الأرض في ضرب المقارع والكسارات، والسلخ والخوزقة والشنكلة وتقطيع الأيدي وإلباس الخوذة المحماة على رأسه وغير ذلك من أنواع العقوبات وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاقه.

وقد وقع لي أنني شاركت مرة شخصًا عوقب في بيت الوالي بوضع الخوذة المحماة على رأسه، فصرت أحس بدن رأسي سائحًا لها الجمر بين الجلد واللحم حتى

---

(1) ذكره المصنف في «العهود المحمدية» (1/140)، وقد تقدم تخريجه .

(2) رواه البخاري في «الصحيح» (20/121)، ومسلم (16/471) .

إني صرت أمسح الدهن عن خدي أحسب أنه خرج إلى ظاهر الجسد فما كنت إلا هلكت، وشاركت مرة امرأة في الولادة لما تعسرت عليها، فصرت أطلق وكأن في مقعدتي قنطار حديد يريد أن يخرج فما كنت إلا أشرفت على الهلاك، ولي في هذا الأمر وقائع كثيرة، وهذا الأمر ما رأيت له فاعلاً بعد سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - إلا قليلاً وهو علامة على كمال الإيمان، والحمد لله الذي حصل لنا منه نصيب.

وقد وقع للشيخ عليّ مرة أنه مكث من بكرة النهار إلى المغرب لم يأته خبر من أحد في ذلك النهار، فقال: الحمد لله، فدخل عليه شخص بعد الغروب فقال: إن حمارتي ولدت ولدًا بلا ذنب ولا آذان، فصار يدور في البيت إلى الصباح، ويقول: إذا وحل هذا الجحش يسحبونه من الوحل بأي شيء ﷺ.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: كل فقير أكل أو شرب أو جامع أو ضحك ونزل البلاء بأحد من المسلمين من غير ضرورة شرعية فهو ناقص الإيمان، ولا يقدم ما هو مفروض في حق الله تعالى، فإن من شرط الشيخ أن يصل إلى مقام الإحسان، ويترقى فيه إلى مقام الإتقان، وقد ذكرنا في كتاب «المفاخر والمآثر» شروط من تحمل البلاء عن الناس فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مساعدة الناس في بلادهم وغيرها في حفظ أماكنهم من براري وقفار وبحار ومدائن وجبال، فيطوف أحدهم بقلبه سائر أقطار الأرض في نحو ثلاث درج، ويقع لي بحمد الله تعالى أنني أطوف مدائن الأرض وقراها بقلبي في مقدار درجة رمل، ولا ينبغي لأحد استبعاد ذلك؛ لأنه أولاً بأقدار الله تعالى للعبد لا مستقلاً، وثانيًا إنه بالروح، والأرواح لها سرعة السير، فربما صعدت للعرش في مقدار لمحة، ونزلت للأرض السابعة كذلك في مقدار لمحة.

ووقع لي مرة مثل ذلك مع الشيخ أحمد السطيح فبينما هو يكلمني إذ سقطت للبهوت، فرأيت قدمي على قحف الحوت، فقال لي فورًا: أبعدت عني قوى، وكان من أهل الكشف، ومرة أخرى كلمني في حاجة، فرأيت نفسي على باب الكعبة، فقال: انزل الملتزم وادعُ لي.

فعلم أن مثل ذلك يكون للفقراء بحكم الإرث لرسول الله ﷺ في المقيلة لما

أسرى به إلى السماء، وإن تفاوت المقام فإنه صعد إلى العرش ونزل في لحظة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:284] ويحتاج صاحب هذا المقام إلى صفاء عظيم، ولا يكون في قلبه تكدير بحال من الأحوال، وربما أعطى الله تعالى هذا المقام لبعض الفقراء من غير طواف، بل يرتسم الوجود كله في قلبه فيراه من قلبه.

وإيضاح ذلك أن القلب إذا انجلى صار كالمرآة الكرة، فإذا قابلها بالعالم العلوي والسفلي ارتسم كله فيها، وإن كان جرمها صغيرًا فالمدار على صحة البصر وقوته، أو ضعفه كما أوضحنا ذلك في كتاب «المنن الكبرى» في الباب الثاني فيها.

وقد ورد عليّ شخص من أرض الحبشة، فأخبرته بالزقاق الذي فيه داره، وبشجرة النَّبق التي في دار جاره، وبالكنيسة التي في أطراف الزقاق فصدقني على ذلك، فعرفت صدق طوافي، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: استئذانهم لأصحاب النوبة كلما خرجوا من دارهم لسفر أو غيره، وكلما دخلوا دراهم من سفر أو غيره؛ لأنهم حفاظ الأرض بإذن الله تعالى وحكامها ويحبون من يراعي معهم الأدب، فلا يبلغ أحد منهم القلعة مثلاً في شفاعة حتى يستأذن أصحاب النوبة وهو على عتبة الباب الأول من القلعة أو بيت الأمير مثلاً، فمن راعى ذلك الأدب معهم قضيت حاجته إن شاء الله تعالى، ورجع سالمًا من الآفات.

وإيضاح ذلك أنه لا يسلم بيت حاكم من سلطان أو أمير من واحد أو جماعة تكون فيه، ويكون حكم ذلك السلطان أو ذلك الأمير تبعًا لحكم أصحاب النوبة، وهذا الأمر لا يعرفه كل فقير، وإنما هو لأفراد من أهل الطريق، بل بعضهم أنكر وجود أصحاب النوبة أصلاً، ومن شأنهم الاطلاع على أسرار العباد وما يفعلونه في قعور بيوتهم بإذن الله تعالى، ويحبون من كل من مشى في دركهم أن يكونوا على طهارة، وألا يكون قلبه غافلاً عن الله تعالى.

وقد أخرجت مرة ريحًا وأنا ماشي في مصر العتيقة، فناداني شخص منهم كان يحيك السدود: وما كان لنا حاجة في مشيك في دركنا إلا أن تفسو فيه فمن ذلك اليوم ما مشيت في شوارع مصر إلا متوضئًا، وإذا اضطرني الأمر إلى إخراج ريح استأذنت

صاحب الخط فيه.

ووقع لي أيضًا تجاه «البيمارستان»[1] بمصر أنني أحسست تمساحًا طلب يبلعني وأنا ماشي، فقامت كل شعرة في جسدي من الرعب، فالتفت ورائي فإذا بشخص من أرباب الإدراك محلوق اللحية أحمر العينين، فقال لي مشافهة: لا تعد تمشي في دركي غافلاً عن ذكر الله تعالى أبدًا، فقلت: سمعًا وطاعة، ومن ذلك اليوم وأنا كلما مررت من ذلك المكان آخذ حذري من الغفلة فيه فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة توجيه كلام الأئمة والفقهاء والصوفية وغيرهم وحمل كلامهم على أحسن الأحوال ولا يبادرون لتخطئة أحد بغير دليل صريح.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: ليس الفقير من يرد كلام الناس، وإنما الفقير من يبحث على منازع أقوالهم، وينظر من أين أخذوا ذلك الكلام، ويبين هل يؤثر ذلك في سعادتهم أو لا يؤثر؟ هذا حظهم ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يعبدوا الله تعالى امتثالاً لأمر الله تعالى في مجالسته في تلك العبادة لا رغبة في الثواب ولا خوفًا من العقاب السوء أو أجره السوء، فإن لم يتيسر له ذلك فليستغفر الله من حيث قصده هو ويسأله الصفح عنه.

وقد قال الله تعالى في بعض كتبه: **«ومن أظلم ممن عبدني لجنتي أو ناري لو لم أخلق جنة ولا نارًا ألم أكن أهلاً لأن أطاع»**[2] انتهى.

وهو مقام يصله المريد في بداية الطريق، والله أعلم.

---

(1) (البيمارستان) المستشفى (فارسي معرب).

(2) ذكره المصنف في «العهود المحمدية» (32/1)، وذكره بلفظ آخر في نفس الكتاب في ثنايا كلامه فقال: وكامل العقل لا يحتاج إلى تخويف في الدنيا والآخرة لعلمه بأن جميع ما يحوله الله عنه مما بيده ليس له منه إلا ما استمتع به قبل التحويل، والملك في جميع الأشياء لله تعالى فلا يتأثر على فوات شيء؛ لأنه ما فاته إلا وهو ليس من رزقه، ومن لازم كامل العقل أيضا حسن ظنه بربه فلا يحمل هم الرزق فهو مرفوع الهمة على أن يحمد ربه أو يعبده لعلة ثواب أو خوف من عقاب، وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله ﷻ: «ومن أظلم ممن عبدني لنعيم جنة أو لخوف من نار لو لم أخلق جنة ولا نارا لم أكن أهلاً لأن أطاع» (1 /172) .

وليس ذلك من مقام الخواص كما يتوهمه من لم يسلك الطريق لكن لا يخفى أن في ذلك إظهار الغنى عن فضل الله تعالى في الصورة، وكذلك كان من مقام خواص الخواص أن يطلبوا من الله الأجر والثواب من باب المنة والفضل لا بحكم الاستحقاق ليخرجوا بذلك عن صورة الفناء من فضل الله تعالى ، ويدخل في مقام الفقر والذل، والحاجة بين يديه ﷺ فصورته صورة المبتدئين والقصد مختلف، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم طلب أحدهم مقامًا عند الخلق، وإنما يطلبون المقام عند ربهم تعالى فقط سواء أكان مشهد أحدهم معية الحق تعالى مع الخلق أم لا، اتهامًا لنفسه أن يغلب عليهم مراعاة الحق.

فإن من طلب المقام عند الخلق فمن لازمه محبة الرياء له والنفرة من كل ما يهضم مقامه عندهم لكن يستثنى من طلب التعظيم عند الخلق لغرض شرعي كمن يقول لمن سأله في قضاء حاجة عند أمير: اذهب فكبرني وعظمني عند الأمير قبل أن أحضر، إذا كان ذلك الأمير لا يعرف مرتبة الشافع، فإن ذلك غرض صحيح وفعله سيدي أحمد وغيره، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الشفقة على السلطان وولاة الأمور، فيودون أن لو كان مع أحدهم جبل من ذهب، وساعد به السلطان على نفقة المجاهدين، والمسافرين في التجاريد، ولو عرضوا على أحدهم أن يعملوا له مرتبًا من بيت مال المسلمين أو مسموحًا أو جوالي لا يقبل ذلك ويقول: مال بيت المسلمين إنما هو معد لإنفاقه على ما فيه نفع للمسلمين كمن يسافر في التجاريد، ويحمي بيضة الإسلام أو من يسلك طريق القوم، وليس له ما يكفيه، وأنا بحمد الله مكفي وليس في جعبتي أي مال إلا وجعلته في نفع المسلمين، فقد اخترت أن يكون أجري على الله تعالى.

ولم أطلب من أحد الأمراء بمصر أن يجعل لي مسموحًا أو جوالي أو مرتبًا، وقد رأيت بعض المشايخ يرفض أن يأخذ مرتبًا إلى أن مات وهكذا كان السلف الصالح، وأما من يطلب من الحكام أن يجعلوا له مسموحًا أو جوالي مع وجدان الحرقة والكسرة، فهو دنياوي لم يشم من طريق القوم رائحة.

وقد سمعت بعض الولاة يقول: نحن لا نعتقد إلا من يتعفف عن ما بأيدينا وأما

من يسألنا الدنيا فلا نعتقده، وسيأتي في الباب الحادي عشر أن الولاة ما أعطوا فقيرًا شيئًا إلا بعد زهدهم فيه فكيف يليق بالفقير أن يقبل ما زهد الولاة فيه، ويكون أقل ورعًا منهم؟! فإنه نصاب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم قبول هدايا الكشاف ومشايخ العرب، وكل من لا يتورع في مكسبه وعدم الأكل من ذلك هذا إذا جاءهم بغير سؤال، فكيف ممن يسأل الولاة في ذلك بنفسه أو قاصده تعريضًا أو تصريحًا؟ وفي ردهم ذلك فوائد:

منها: عدم الركون إلى الظلمة، فإن من قبل هداياهم وأكل من طعامهم ركن إليهم ضرورة فوقع في النهي، وعرض نفسه بأن تمسه النار كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: 113] وهذه الآية وإن كانت وردت في الكفار فإنها تشمل من ظلم أحدًا من المسلمين.

ومنها: عدم انتفاع الولاة بالفقراء؛ لأنه إذا قبل هديتهم صار معدودًا من عائلتهم ولاستهانوا به ولم يقبلوا له شفاعة لعدم استحقاقه لذلك.

وأيضًا فإن باطنه قد تلطخ بطعامهم المختلط بالحرام والشبهات، وذلك يحجب العبد عن ربه، فلا يصير يقدر على أن يحمل شيئًا من البلايا النازلة بهم إذا سألوه في ذلك.

ومنها: فتح باب غيبة الناس فيه بقولهم: كيف يكون هذا صالحًا، وهو يأكل طعام الظلمة؟! فيقل الناس اعتقادهم في أقرانه، ولو كانوا محفوظين من مثل ذلك.

وقد قال معروف الكرخي يومًا لأصحابه: اشتهى أن أموت ببلد غير بغداد، فقالوا له: كيف؟ فقال: خوفًا ألا يقبلني قبري فافتضح ويسيء الناس ظنهم بأقراني من الفقراء.

فعلم أن كل فقير أكل من طعام ظالم وقبل منه مرتبًا أو معلومًا فإنه شيطان ولو كان له شعرة، وعمامة وعذبة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: جعلهم الحظ الأوفر لكل من عاجلهم ببيع أو شراء أو استئجار رزقه أو معصرة أو مركب، وذلك هروبًا من تحمل منة الخلق عليهم.

فإن باعوا شيئًا اسقطوا عن المشتري شيئًا من الثمن لاسيما إن كان الآخر يتاجر

فيه، وإن اشتروا شيئًا يزيدونه عن الثمن الواقع ويسامحونه به، وإن أجروا رزقتهم يؤجرونها بأنقص الأجر، وكذلك القول في إجارة المعصرة والمركب عن الانتفاع بها لعدم الحب الذي يعصر، أو لعدم من يسافر في المركب لا يأخذون لذلك أجرة.

وقد فعلت أنا مثل ذلك في رزقتي ومعصرتي ومركبي، ولم أجد لذلك فاعلاً من أقراني غيري إلا قليلاً، ولذلك لا أقبل شيئًا من الأجرة التي يدفعها المستأجر قبل الانتفاع بتلك المركب أو المعصرة أو الرزقة مثلاً؛ لأنه ربما مات قبل انتفاعه أو مت أنا قبل ذلك، فتقع الخصومة بين ورثته وورثتي، وكذلك لا أضع في عيني لبن امرأة أجنبية إذا رمدت إلا إن وزنت لها ثمن ذلك اللبن لما فيه من رائحة استلاب حق الولد لاسيما إن كانت ترضع بأجرة، أو كان لبنها قليلاً.

فعلم أن كل فقير طلب الحظ الأوفر لنفسه فهو يتاجر في الدنيا دون الآخرة، والفقراء إنما دخلوا هذه الدار ليتاجروا في أعمال الآخرة في كل شيء يتقلبون فيه، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم قبول هدية على سؤالهم ربهم في قضاء حاجة فقضيت، وقد أرسل بعض قضاة العساكر مالاً له صورة لادعوا لولده أيام الفصل، فرددته وقلت لقاصده: ألا يخلو إما أن يكون قد سبق في علم الله موت ولده فعلى أي شيء آخذ ماله، وإما ألا يكون سبق في علم الله موت ولده فما فعلت شيئًا استحق به مالاً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: التخلق بالشفقة والرحمة على المحترفة، ووزنهم ثمن السلعة التي يشترونها منهم من قماش أو سمن أو جبن ونحو ذلك لاسيما إن كانت السلعة سالمة من الغش، فكل ما انتفعنا بالبضاعة الجيدة كذلك تنفعه بالثمن الوفي، ونزيده على ثمن سلعة الغشاش، ولو طلب هو منا مثل ثمن سلعة الغشاش لا نجيبه، بل نزيده عملاً بالعدل والإنصاف.

وهذا ما درج عليه أشياخنا ﷺ، فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: زيادة التورع في شهر رمضان على غيره من الأوقاف، فلا يفطرون فيه عند مكاس ولا ظالم، ولا عند من في ماله شبهة، وقد عملوا على حيلة في إفطاري عند مباشر من مباشري الديوان، فأكلت عنده ثلاث لقم بورقة فجل فقط،

فنمت تلك الليلة، فرأيت القيامة قد قامت، وملك من الملائكة يقول لي: استعذ لمن يجاذبك على الصراط لأجل الثلاث لقم التي أكلتها في رمضان عند فلان، فاستيقظت مرعوبًا فعالجت نفسي أن أخرجها بالقيء من بطني، فلم أقدر فأنا مستغفر منها إلى وقتي هذا.

فعلم أن كل من ادعى الولاية، وأكل عند الظلمة في رمضان أو غيره، وقال: أنا بحر ولا تكدره الدلاء، فهو كذاب نصاب.

وقد أجمع القوم على أن اللقمة التي للشرع عليها اعتراض تؤثر في القطب فكيف بغيره؟! والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يفرقوا ما دخل في يدهم على مستحقه من نقود وثياب وطعام وغير ذلك، وهو خلق غريب لا يصح إلا لمن أحكم مقام الزهد في الدنيا بحيث صار ينقبض للدنيا إذا دخلت عليه، وينشرح لها إذا تحولت عنه، وقد أعطاني الله تعالى ذلك من حين كنت أمرد فلا أبقي من ثيابي ولا طعامي ولا مالي إلا لغرض شرعي تخلقًا بأخلاق الله تعالى، فإن من أسمائه تعالى المانع فيمنع من يشاء من عباده بحكمه لا لبخل - تعالى الله - عن ذلك.

وقد دخل يدي مرة مائة دينار ذهبًا وأنا صغير ففرقتها على الحاضرين، ولم أبقِ لنفسي منها درهمًا واحدًا مع أنه لم يكن عندي ذلك الوقت رغيف ولا ثمنه، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم قبول وصية لهم بها أحد ولو كان مكسبه حلالاً؛ وذلك لأن جميع ورثة ذلك الميت ناظرون إلى ذلك المال غالبًا لاسيما إن كانت الوصية لأحدهم بمال عظيم نحو الثلث، فإن الورثة يتكدرون من مثل ذلك أشد التكدر؛ لأنهم يريدون أن يأخذونه كاملاً،ولا يشاركهم فيه أحد، فلأجل تلك المزاحمة الباطنة تركوا قبول الوصايا لا لعلة أخرى.

وقد أوصى لي قاضي إسكندرية شمس الدين بن محاسن بثلث ماله وكان أربعة آلاف دينار ووصلت إليّ فرددتها من أجل نظر ورثته إليها، ولأجل كون ذلك مال قاض لا لعلة أخرى، وهذا خلق لم أجد له فاعلاً من أهل عصري، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا رأوا في حارتهم منكر وعجزوا عن رد أصحابه عنه، فإنهم

يتوجهون إلى الله بالدعاء لهم بالتوبة، وتحويطهم بالآيات والأذكار خوفًا أن ينزل عليهم بلاء وهم غافلون في لهوهم ولعبهم فيعم فاعل المنكر ومن سكت عليه من أهل الحارة.

وقد سكن بجوارنا نساء من بنات الخطأ مرة، فكنت أحوطهم بالقرآن؛ لئلا ينزل علينا وعليهم البلاء إلى الفجر حتى رحلن، وقد عمل المحيطون بجانب دارنا ليلة في الخليج، فسهرت أحوطهم إلى الصباح لم يأخذني نوم وذلك لما جبل الله تعالى الفقراء عليه من الشفقة والرحمة على جميع خلق الله تعالى، وربما كان المحيطون والسامعون لا يعدون ذلك ذنبًا.

وأخبرني سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - : إن لله تعالى رجالاً لا يفارقون مغاني العرب، ومواضع للظلم والمكوس والمعاصي يبتهلون إلى الله تعالى في عدم نزول البلاء عليهم، ويقولون: يا رب إنهم من جملة عبيدك، قال: ولولا ذلك لربما خسف الله تعالى بهم الأرض.

فإياك يا أخي والمبادرة إلى الإنكار على من تراه من الفقراء يسمع المحيطين أو حاضرًا عندهم ربما كان من هؤلاء الرجال الذين يشفعون عند الله تعالى في أهل المعاصي في دار الدنيا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إقامة العذر لزوجتهم في شدة الغيرة إذا تزوجوا عليها، ولا يطالبونهم بالصبر كما تقدم بيانه مرارًا، فإن في الحديث: **«إن المرأة المغيرة لا تبصر السماء من الأرض»**[1] انتهى.

وقد أبصرت عائشة يومًا سودة ومعها إناء فيه طعام جاءت به لرسول الله ﷺ، فقامت وكسرته بحجر فطار ما فيه في الأرض، فصار رسول الله ﷺ يجمعه من الأرض في الإناء، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: غلبة الحياء من الله تعالى ومن خلقه حتى يستحي أحدهم أن يظهر وجهه، ولذلك يرخون على عمائمهم في جل الأوقات لأجل ذلك، ولكف بصرهم فضول النظر، ويرخون الطيلسان حياء من الله تعالى، وتقدم أن أول من ضرب

---

(1) لم أقف عليه.

الخباء في الطريق الإمام عثمان بن عفان، وقال لخدامه: استروني، فإني استحيي من رؤيتهم لي.

وسمعت سيدي محمد بن عنان - رحمه الله - يقول: الفقير كالمرأة المخدرة لا تكاد تكشف من بدنها ما يكشفه غيرها من النساء، وكان يقول: ينبغي للفقير ألا يغتسل إلا في ثوب خلق كما يفعل بالميت، قال: ومن هنا عمل أهل الأدب لهم طوقًا يستر عنقهم وأدمنوا لبس الخف حتى لا تظهر أقدامهم وضيقوا الأكمام حتى لا يظهر من ذراعهم شيء.

فإياك أن تعترض على من رأيته يرخي الطيلسان وتقول: إنه يتمشيخ، فربما كان سبب ذلك الحياء كما ذكرنا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم الأكل من ضيافة الوقف الذي تحت نظرهم ولو جعل لهم ذلك إلا إن علموا طيبة نفس الفلاح بها، وإن شكوا في ذلك تركوا الأكل منها؛ وذلك لضيق حال الفلاحين في هذا الزمان وكثرة المغارم التي عليهم من الكشاف ومشايخ العرب والعصاة وغيرهم، وما جعل الناس الضيافة من قديم الزمان إلا لما كانوا يجدونه من الراحة من جهة أستاذهم من مسامحتهم لبعض الخراج وكسوتهم وكسوة نسائهم وضيافتهم بطبيخ الحُلو والأُرز المفلفل، ويعدون تلك الأيام أيام عيد، وهذا أمر قد تورع منه ما بقيت الدنيا.

ومن جملة نعم الله تعالى أن ضيافة الفلاحين لا تقيم في باطني أبدًا لو عملوها بغير علمي لاسيما الأوز، فإنه إنما تربيه نساء الفلاحين، فيصير مذمومًا من وجهين كونه من كسب النساء، وكونه بغير مقابل من الأستاذ.

وهذا خلق لم أجد له فاعلاً من أهل عصري إلا القليل، بل رأيت بعضهم أتاه الفلاح بالضيافة فرأى فيها أوزة صغيرة فردها على الفلاح، فقال: إنها أوزة يتيمة، فقال: أقل لو لي اليتيم يبدلها لنا، وردها إلى بلاد الريف، فالضيافة وإن كانت حلالاً لنا من جهة شرط الواقف قلنا: ترك أخذها وترك الأكل من طعامها أولى، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا كان تحت نظرهم وقف من الأوقاف فأسكنوا بيوته أو زرعوا رزقة من رزقه أن يعطِ كل ذي حق حقه من مال الوقف، فإن زرع في أرض

الوقف وبارك الله تعالى تلك السنة في قمحها مثلاً حتى صار الخراج قليلاً عادة فمن الورع أن يزيد في الخراج؛ ليشاكل عادة الزرع، وإن كان لهم رزقة وأجروها وهاف قمحها وأكلته الدودة مثلاً، فمن الورع إسقاط الخراج كله أو بقدر ما هاف أو أكلت الدودة، وقد عملت بهذا الخلق في رزقتي مرات، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا دفع لهم أحد خراج رزقتهم مثل ضربة خراج السلطان زيادة على خراج الرزق عادة، فمن الأدب للسلطان يرد ما زاده الفلاح، ولو أن الفلاح قال لهم: خاطري بذلك طيب اعتقادًا فيهم يقولون له: نحن خاطرا بذلك ما هو طيب.

وقد فعلت أنا في رزقتي ذلك مرات أدبًا مع السلطان، وإن كان السلطان لا يعلم مني ذلك.

فليحذر الفقير في هذا الزمان من أن يزرع في طين الوقف الذي هو تحت نظره بأنقص من أجرة المثل ويخاصم المستحقين، فإنه يخرج بذلك عن طريق القوم وعن العرف.

وكذلك الحذر من تسخير الفلاحين في حرث زرعه أو حصاده مثلاً؛ تشبها بالولاة والملتزمين فإن ذلك خروج عن أدب الدين، وربما قالوا لسيدي الشيخ: خاطرنا بذلك طيب، والقرائن تعطي أنهم ما فعلوا ذلك إلا خوفًا من مباشري الشيخ أو الجابي أن يغمزهم الشيخ على عمل حسابه بالمقلوب فيغرموه مالا يطيق، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا أكلوا رطبًا أو بسرًا[1] أو تينًا أو عنبًا أن يبدأ كل واحد منهم بأكل الحامض أو العفن مثلاً؛ إيثارًا لبعضهم بعضًا فيفضل أطايب الفاكهة آخر أكلهم ومتى أكلوا وفضل خبث الفاكهة فهو دليل على أن أحدًا منهم لم يشم لطريق الفقراء رائحة، فامتحن بذلك من يدعي الفقر فإنه ربما يأكل الطيب ويعزم على غيره بفضل الخبيث ويكلحون.

وقد أكل سيدي محمد بن عنان، والشيخ محمد المنير، والشيخ محمد بن داود رطبًا في الليل، فعدوا نواهم فلم يزد واحد نظرًا لكراهتهم لقبول الصدقة أو الهدية، أو

(1) والبُسْرُ من التَّمر قبلَ أن يُرْطِبَ، والواحدة بُسرةٌ، وأَبْسَرَ النَّخْل صارَ بُسْرًا بعدَ ما كان بَلَحًا، وفي الحديث: «لا تَبْسُروا» أي: لا تَخلِطُوا البُسْر بالتَّمر للنَّبيذ، وقد بَسَر بَسْرًا.

أكلهم منها إذا علموا أن هناك من جيران أهل المهدي وحارته من هو أحوج إلى ذلك منهم، وخوفًا من مخالفة السنة، ونقص الأجر؛ لأن الشارع ﷺ أمره أن يبدأ بالأقرب والأحوج فالأحوج، فكما قصد المتصدق نفعًا بصدقته أو هديته، فكذلك ينبغي لنا نفعه بإرشاده لفعل السنة وإلى ما فيه كمال الأجر، ثم إذا قبلنا شيئًا بشرطه لا نقبله إلا على نية نفع ذلك الشخص أولاً، ونجعل نفعنا بحكم التبع لا بالقصد الأول.

وقد رددت بحمد الله تعالى كثيرًا من الذهب والفضة؛ خوفًا من تعد المهدي جيرانه، أو المحاجير في جارته، ودفعها إلي ولم أجد لذلك فاعلاً من أقراني إلى وقتي هذا إلا القليل، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهتهم لإقامة شيء من محبوبات الدنيا وشهواتها في قلوبهم سواء أكان ذلك المحبوب ولدًا أو زوجة أو مالاً أو طعام أو ثيابًا ونحو ذلك، ومتى أقام ذلك في قلوبهم لحظة بادروا إلى التوبة والاستغفار، فلا يدعون شيئًا يقيم عندهم إلا بقدر تحققهم بقبول ذلك من فضل الله تعالى، ثم يخرجونه من قلوبهم أسرع من لمح البصر، ثم إذا بلغ أحدهم مبلغ الرجال خرج من قلبه حب كل شهوة في الدنيا، ورأى نفسه عبدًا يأكل من مال سيده، ويلبس منه، ويسكن داره، وليس معه ملك في الدارين، فالحمد لله الذي حققنا بذلك، ولذلك كنت أرد الذهب والفضة إذا عطاهما لي أحد بسهولة، ولو أن مولانا السلطان رسم لي بألف دينار مثلاً فصدها عني شخص من الحسدة، وحال بيني وبينها فرحت لذلك؛ لأني أغار على الحق تعالى أن أملك معه شيئًا ولو بقدر وقت القبول فقط، وأرى فراغ اليد من ذلك أفضل، وكلما جروني عن الدنيا وملابسها ومطاعمها كلما ازددت فرحًا وسرورًا.

وهذا خلق لم أجد له فاعلاً من أقراني إلا القليل، وعليه درج كمل الأنبياء وأتباعهم، وقد نقل الشيخ محي الدين الإجماع من أهل كل ملة ونحلة على أن فراغ اليد من الدنيا وإخراج ما كان بيده منها أفضل عند الله تعالى، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إضافة أفعال العباد المذمومة إلى إبليس ببادئ الرأي لا إلى الفاعلين لتلك المعصية مثلاً؛ خوفًا أن يقع لهم ازدراء لأحد من الخلق، وإيضاح ذلك أنه لا يقع أحد في معصية إلا بوسوسة إبليس فإضافة الفعل إليه أولى؛ لأنه منديل الدار تمسح فيه أوساخ الناس، وإن كان ليس له من الأمر شيء، وهذا خلق غريب في غالب

الناس لا يكاد يوجد وأكثرهم يضيف الفعل المذموم إلى الخلق ببادئ الرأي، فيحتقرون العصاة ويزدرونهم، ولا يكادون يقيمون لهم عذرًا في الباطن، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مبادرتهم إلى سوء الظن بأحد من المسلمين، وكثرة سترهم لعوراتهم التي شهدوا منهم وتحققوا فعل ذلك منهم جازاهم الله تعالى بنظير فعلهم، فمن أساء الظن بأحد أساء الله به الظن، ومن أكثر من ستر عوراتهم ستر الله عورته، والعكس بالعكس.

واعلم يا أخي أن أحدًا لا يصل إلى مقام حسن الظن بالناس إلا إن كان باطنه مطهرًا من سائر الرذائل إما بالفطرة وإما بالعلاج والرياضة، ومادام فيه شيء من الرذائل فمن لازمه غالبًا سوء الظن قياسًا على نفسه.

وتأمل يا أخي من خلقه الله تعالى عنينًا لا قوة له في الجماع ولو رأى رجلاً يكلم امرأة في طريق مثلاً لا يسيء به الظن أبدًا قياسًا على حاله هو، بخلاف من كانت الشهوة غالبة عليه، ولا يترك الزنا إلا عجزًا فإنه يظن بذلك الرجل السوء قياسًا على نفسه.

فعلم أن من ادعى الصلاح وأساء الظن بمسلم فهو لإخلال في كمال الصلاح، وقد بسطنا الكلام على ذلك في «العهود» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم مطالبتهم بالوفاء بعهودهم التي يأخذونها على الناس بسلوك الأدب معهم مثلاً لقضاء حوائجهم، وعدم بدأتهم بالسؤال ونحو ذلك، وإنما يطلبون منهم القيام بعهود رسله قيامًا بواجب حق الربوبية، فإن وفاء الحق بعهود عباده إنما هي تبع لوفائهم بحقوق ربهم، فمن آثر القوم مثلاً على عبادة ربه فما وفى بعهده، فلا يعينه الحق على الوفاء بما وعد به الناس جزاء وفاقًا، انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن والأخلاق» فعلم أن من أعظم أخلاق القوم مسامحتهم بحقوقهم، وعدم مسامحتهم في حقوق الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبتهم لكل شيء ينكس رءوسهم في الدنيا، ويزيل عنهم العجب والكبر إما في الطاعات فظاهر، وإما في غيرها فيرضون بتقدير الله تعالى

عليهم، ويسخطون على نفوسهم من حيث كسبها تلك المعصية.

وكان بعضهم يقول في دعائه: اللهم اغفر لي ما جنيته من حيث كسبي، وأما من حيث تقديرك على فأسألك التدبير فيه واللطف، وفي كلام ابن عطاء الله - رحمه الله تعالى - : معصية أورثت ذلاً وانكسارًا خير من طاعة أورثت عزاء واستكبارًا يعني: من حيث الأثر لا من حيث الأصل فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة شكرهم لله تعالى إذا لم يجدوا لذة في قيام الليل أو غيره من العبادات؛ خوفًا أن يكون الباعث لهم على تلك الطاعة ما يجدونه فيها من اللذة دون أن يكون الباعث لهم امتثال أمر الله تعالى ومجالسته؛ لأن العبادات من حيث هي تكليف لا لذة فيها إذ لا مجانسة بين العبد وبين الله تعالى بوجه من الوجوه.

وقد كان في بني إسرائيل عابد يقال له «أبرخا» كان لا ينام الليل، فأوحى الله تعالى إلى سيدنا داود ﷺ: نعم العبد «أبرخا» لو كان يقوم بين يدي ربه خالصًا، وإنما يقوم لما يجده في نفسه من الإنس لا محبة في، انتهى.

وأما ما ورد في الآخرة من وقوع اللذة برؤية الله تعالى، فهي لذة غير مكيفة لا نتعقلها الآن، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الخشوع في الصلاة وقراءة القرآن؛ لأنهم في حضرة الله تعالى فلا يكاد أحد من أهل الحضرة ينطق لغلبة الهيبة عليه، فعلم أن الجهر القوي مع الحضور مع الله تعالى للأقوياء من الأولياء بطريقه الشرعي[1]، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) قال الشيخ المصنف في تطهير الزوايا: وسمعت سيدي عليًا الخواص -رحمه الله- يقول: أول ما في عقوبة العبد إذا أكل حرامًا أو شبهة أن تمنعه الملائكة من دخول حضرة الله تعالى في صلاة أو غيرها، ومعلوم أنه لا يقدر أحد على قلبه إذا أكل حرامًا أو شبهة يمكث في حضرة الله تعالى من يعبد الله كأنه يراه أو يستصحب نظره به إليه حال عبادته أبدًا، ولا يصح عند القوم صلاة إلا في الحضرة وأما خارجها فلا فرق بين العبادة والعادة، ومن لازم ذلك عدم حصول الثواب وعدم القيام بما كلف به.

وسمعت أخي أفضل الدين -رحمه الله- يقول: من أكل حرامًا أو شبهة حرم الخشوع في عبادته ومعلوم أن الصلاة لا تصح عند القوم إلا مع الخشوع، ومتى خطر في بال المصلي حين يحرم إلى أن يسلم من الصلاة غير الله تعالى فلا يصح له صلاة، انتهى.

ومن أخلاقهم: شهود الرياء في جميع أعمالهم، ولا يرون أنهم خلصوا لله تعالى في عمل من الأعمال، وفي رسالة الشيخ رسلان الدمشقي: «**كلك شرك خفي..**»[1].

وفي كلام الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ: إذا كان من يعمل على الوفاق لا يسلم من النفاق، فكيف بمن يعمل على الخلاف؟

وفي كلام الفضيل بن عياض: متى شهدوا في أعمالهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: أيضًا لا يبادروا بالرقة والرحمة على من رأوه عريانًا أو جوعانًا، بل ينظرون أولاً إلى حكمة فعل الله معه ذلك فإنه حكيم عليم، ثم بعد ذلك يرقون له ويسعون في إزالة عريه أو جوعه، فإن الله تعالى أرحم بعبده من والدته والأم لا تشك ولدها بالإبرة مثلاً إلا لمصلحة أعظم من غرز الإبرة فيه.

وقد مر الشيخ ياقوت العرشي على جماعة من المساكين يسألون الناس، فبادر إلى الرقة عليهم، فسمع قائلاً يقول: لا الله أرحم بهم منك، ولو شاء لأشبعهم، فتب من ذلك، وتأدب مع الله تعالى، انتهى.

واعلم يا أخي أنه لا بدّ لأهل الله تعالى من المحن والشدائد؛ ليتبين لهم صدقهم مع الله تعالى أو كذبهم، فإن ثبتهم الله تعالى خرجوا ذهبًا خالصًا وإلا خرجوا نحاسًا.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: للرحمة حد فإذا أمره الله

وسمعت سيدي عليًا المرصفي -رحمه الله- يقول: لولا وقوف المعارضين بين يدي الله تعالى في صلاتهم لانفطرت سرائرهم من حجاب العبد، قال: ولا يعرف ما قلناه إلا من كان مقربًا عند أحد من الملوك يطلعه على أسراره ويفعل له كلما أراد ثم جفاه الملك وطرده عن حضرته وتوسل إليه بكل حيلة فلم يرض عنه، وقد منّ الله تعالى علي بجماعة من الإخوان في الزاوية لا تطيب نفس أحدهم أن تأكل شيئًا من الشبهات في غيبتي وحضوري فلنسأل الله تعالى من فضله أن يديم ذلك عليهم إلى الممات، وقل أن يوجد ذلك اليوم في زاوية بل ربما تخاصموا على هدية الأمراء إذا دخلت الزاوية مع شيخهم، انتهى.

(1) شرحها جمع من العلماء منهم: سيدي عبد الغني النابلسي.

بذبح ضحيته فليقدم أمر الله تعالى على رحمتها وعدم ذبحها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة قربهم الباطن من سيدنا رسول الله ﷺ في غالب أوقاتهم، فتطوى لهم المسافات بينهم وبينه نحو ذراع، ويخاطبونه ويسألونه في الفقه والغامض من الأحاديث كما مر بيانه في أوائل هذا الكتاب.

وكان بعضهم يقول: لو احتجبت عليّ رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من جملة المسلمين، انتهى.

كل ذلك لهم من طريق الكشف لكن يجب عرض ذلك العلم الذي حصلوه من طريق كشفهم على الكتاب والسنة، ولا يجوز العمل به إلا بعد عرضه عليهما؛ لأنه ربما حصل للمكاشف تلبيس في كشفه من إبليس، وإلا فالكشف الصحيح لا يأتي قط إلا موافقًا للكتاب والسنة؛ لأنه إخبار بالأمور على ما هي عليه في نفسه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تعويلهم في جميع مهماتهم في الدنيا والآخرة على الله تعالى ثم على رسوله ﷺ دون بقية الخلق؛ وذلك لأن الله تعالى بيده ملكوت كل شيء، وما ثم واسطة من الخلق أعظم من محمد ﷺ، فمن الأدب ألا نسأله أن يشفع لنا عند الله تعالى في جميع ما نطلبه من خيري الدنيا والآخرة، لكنه ﷺ أعلم الخلق بالآداب المتعلقة بالله تعالى، ومثلنا جاهل بالأدب مع بعض العبيد، فكيف بالأدب مع رب الأرباب؟.

وكان سيدي علي الخواص إذا كان له إلى رسول الله ﷺ حاجة يسأل فيها أبو بكر الصديق يسأل له رسول الله ﷺ فيها، فإن لم يجبه سأل عمر بن الخطاب ﷺ، فإن لم يجبه سأل الحسن والحسين.

قلت: وإنما خص أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - لأنهما ضجيعاه، وأما الحسن والحسين - رضي الله عنهما - فلكونهما بضعة منه، والله أعلم.

وكان ﷺ يتوجه بقلبه إلى أحدهم ويعتقد أنه يسمعه فإنه أحد هؤلاء الصحابة أعظم من سائر أشياخ الطريق، وإذا كان الشيخ يجيب مريده وبينه وبينه سفر سنة فأكثر، فالإمام أبو بكر أو الحسن مثلاً أولى بذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا كان أحدهم يقرر في علوم القوم ودخل عليه فقيه لا يقول له قرروا أنتم للفقراء إلا إن علم منه أن له إلمامًا بطريق القوم؛ لئلا يقرر للمريدين

حرمة طريق القوم فيردون عليه فيفتضح، أو يجادلهم بغير علم ويمزق كتبهم وعلومهم.

ومن أخلاقهم: ألا يقولوا لفقيه مصلح القوم إلا إن علموا بالقرائن أن ذلك لا يورث عنده عجب وذلك يكون منهم خوفًا عليه ورحمة به.

وقد دخل شخص على سيدي أبو العباس المرسي - قدس سره - فصار يزاحم الشيخ في درسه، ويحاول أن يجادله ويرد على الشيخ، فقال له الشيخ: اخرج يا ممقوت، فخرج مسلوبًا من جميع ما كان معه من القرآن والعلم، وصار دائرًا في أزقة البلد كل من رآه يقول له: يا ممقوت ابعد عنا، فدله الناس على سيدي ياقوت العرشي – قدس سره – فشفع له عند سيدي أبي العباس قدس الله سره.

فقال: قد رددنا عليه الفاتحة والمعوذتين ليصلي بهن، وكان قد حفظ القرآن وثمانية عشر كتابًا في العلم، ولم يزل مسلوبًا إلى أن مات كما مر تقريره مرارًا، فإياك يا أخي من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إجلال بنات أشياخهم عن أن يتزوجوهن إلا إن علم أحدهم من نفسه القدرة على القيام بحقها والعمل على مرضاتها كما مر تقريره في تزويج الأشراف.

وكما تزوج سيدي ياقوت العرشي ابنة شيخه أبو العباس المرسي بإذن الشيخ له في ذلك وسؤاله له فيها مكثت عنده ثمانية عشر سنة لا يقربها حياء من والدها ومنها، وفارقها بالموت وهي بكر، وكان إذا دخل عليه أحد من الأكابر وهو يكلمها لا يقطع حديثه معها لأخيه، ويقول: إنها ابنة شيخي فلان فلا تؤاخذني يا أخي، فيعذر ذلك الجليس، فعلم أن من تزوج ابنة شيخه بعد موته أو بغير سؤال من شيخه حال حياته فهو متهور ليس عنده رائحة من الأدب مع شيخه، فكيف يكون خليفته من بعده؟! وقد تقدم في هذا الكتاب مرارًا نهي الفقراء أن يتزوجوا زوجات أشياخهم من بعدهم سواء المطلقة أو المتوفي عنها أو من كتب الشيخ كتابه عليها ولم يدخل بها، وإن سبب النهي عن ذلك ما وقع للمريدين الذين تزوجوا زوجة شيخهم من الضرر والقتل في المنام، والنهي عن ذلك على التجربة لا على دليل من جهة الشارع، وإن البعض يطلب من مريديه أن يتزوجوا زوجته من بعده ويقول: هذه سنة رسول الله ﷺ، فلا أحب أن أشاركه فيها فلكل شيخ وجهة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهود أحدهم أن فضل الله تعالى عليه من المال وسعة الرزق إنما هو بواسطة شيخه، فإن كان أحدهم بخيلاً في ماله وكان شيخه لم يطعم الطعام على عادة الفقراء، وهذا أمر يقع فيه كثير من الفقراء فيرى أحدهم: الغمسة أكبر حالاً من شيخه أو أكرم منه، وغاب عنه أنه محبوس في دائرة شيخه لا يصح له استمداد من غيرها في علم أو عمل أو رزق مادام شيخه يترقى، فلا يتسع حال مريد إلا من اتساع حال شيخه ونفس الأمر، وإن لم يظهر للمريد ذلك ولا يلحق درجة شيخه إلا إذا حصل لشيخه سلب أو وقفة وخروج عن الطريق.

وكذلك الحكم في الشيخ الآخر مع شيخه، هو محبوس في دائرته إلى أن ينتهي الأمر إلى دائرة رسول الله ﷺ أبدًا لا من تقدمه ولا من تأخر عنه، لا يتعدى كشف ولي دائرة كتاب فقيه ووجيه أبدًا، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وسقي الماء، وإغاثة الملهوف، ولا يمتنعون من تقديم الكسرة اليابسة للضيف، وإن لم يجدوا إلا الماء أسقوه له، فكل فقير ادعى أنه من أهل الطريق وأخل بهذه الآداب فهو ناقص عند الناس، وأما عند الله فقد يكون الحق تعالى جعله من أهل حضرة الاسم المانع شفقة عليه أن يخطر في باله أن له فضلاً على أحد من عباد الله في الدنيا والآخرة.

وقد يكون ذلك الفقير من أهل الكشف، فلم ير لذلك الضيف عنده رزقًا قسمه الله له، فإياك والمبادرة إلى الإنكار على فقير لم يطعم الضيف، ويقول: ما جبل ولي الله تعالى إلا على السخاء وحسن الخلق، فإنه ما من عام إلا يصح أن يخص، فإن السخاء راجع إلى القلب، وكل من حق له قدم الولاية لا يمنع أحدًا من طعامه عن بخل، ويود أن لو قسم الله الخلق على يديه شيئًا فيطعمه لهم، فهذا سخي وإن لم يطعم أحدًا شيئًا فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يطلب أحدهم منزلة هي أعلى من منزلته، وهذا هو أحد الأوجه في معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات:1] أي: لا تحدثوا نفوسكم بطلب منزلة فوق منزلة رسول الله ﷺ، وهذا من محاسن الآداب التي أدب الله تعالى بها الصحابة مع رسول الله ﷺ في أمور خصوصياته، وكذلك يجب على المريد مع شيخه كذلك، فلا يطلب منزلة فوق منزلة الشيخ ويتأدب

معه في كل أمر من الأمور، ويراعيه في جميع خصوصياته وعمومياته لا يرفض له طلبًا ولا يتعاظم عنده في مسالة فيسيء معه المقام فيسئ الأدب.

كما لا يجب لأحد من المقربين أن يشارك الحق في مسمى مقام من المقامات العالية، وبذلك يظهر للمريد الجواهر التي في قلب شيخه على لسانه الموضح أدبه، وحكم العكس بالعكس، فلو أراد الشيخ أن ينطق لمن أساء معه الأدب بشيء من المعارف بل ينعقد عليه لسانه؛ لعدم استحقاق المريد لذلك.

وكان سيدي علي المرصفي - رحمه الله - يقول: من أعذب أدب المريد أن يتمنى أحدهم لشيخه المقامات العالية لينالها منه بحكم الإفاضة، وهناك يعطي الله المريد فوق ما تمنى لشيخه مع قيامه بأدب الإرادة.

وقد كان الإمام الشافعي ﷺ يقول: قال لي مالك - رحمه الله - : يا محمد اجعل عملك ملحًا، وعلمك دقيقًا، وفي رواية علمك ملحًا[1] انتهى.

وقد أجمع أشياخ الطريق على أن أحدًا لا ينال الرتب الرفيعة إلا بقيامه بالأدب مع الوسائط، فمن أساء الأدب معهم فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول.

وقد بلغنا أن الصحابة ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2] كانوا يتكلمون بحضرة سيدنا رسول الله ﷺ همسًا، وكان عمر إذا كلم رسول الله ﷺ يخفض صوته فلا يسمع أحد كلامه حتى يستفهم، وحلف أبو بكر ألا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار.

فعلم أن كل من رفع صوته على شيخه فقد ألقى جلباب الحياء والوقار والحرمة، وكان الصوفية فيما مضى كان إذا مرض أحدهم، وطلبوا له العرق يطلبون من شيخه أن يحضر لزيارته، فبمجرد ما يحضر الشيخ يعرق المريد من هيبته وما ذلك إلا من شدة احترام المريد لشيخه، وقد حدث ذلك للسهروردي مع عمه وشيخه.

---

(1) ورويت عن رويم :اجعل علمك ملحًا، وأدبك دقيقًا.

وكان سهل بن عبد الله ﷺ يقول في معنى قوله تعالى: ﴿لا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:1] أي:لا تخاطبوه ﷺ إلا مستفهمين، ولا تبدؤه بالخطاب، لا تجيبوه إلا على حلول الحرمة، ولا يغلظوا له في الخطاب ولا ينادوه باسمه يا أحمد يا محمد كما ينادي بعضكم بعضًا، ولكن فخموه، واحترموه، وقولوا: يا نبي الله يا رسول الله، وكذلك ينبغي للمريد أن يفعل مع شيخه كذلك، فيقول: يا ولي الله أو يا مولانا ونحو ذلك؛ لأنه نائب عن رسول الله ﷺ في إرشاد الأمة إلى طريق الهدى، وإذا سكن الوقار قلب المريد علم اللسان كيفية الخطاب، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ينبغي للمريد أن يتأدب مع شيخه، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتأدبون مع رسول الله ﷺ لأن الشيخ باب رسول الله ﷺ ولا ينصح المريد إلا بما ينصح به رسول الله ﷺ وأصحابه، فمن اعتقد على نصح شيخه، فكأنه كان في زمن رسول الله ﷺ وقبل منه نصحه، ومن قام بواجب أدب شيخه دخل في ثناء الله ﷻعلى الصحابة بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [الحجرات:3] أي: اختبر قلوبهم، واستخلصها كما امتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه(1).

---

(1) قال سيدنا الشيخ المصنف في الكوكب الشاهق: ومن أخلاقهم: حفظ أحدهم قلبه مع شيخه من حين يدخل في عهده إلى أن يموت، لا يدبر عن محبته طرفة عين، ولو هجره أو طرده لا يحول عنه أبدًا، فإن الإعراض عن الشيخ كالردة من آداب الطريق، وقد قال شيخ أهل الطريق أبو القاسم الجنيد ﷺ: لو أقبل عارف على ربه ﷻ ألف سنة ثم أدبر عنه لحظة كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر مما ناله قبلها انتهى. وكذلك القول في الإدبار عن الشيخ؛ لأنه مرتبة إدمان دون الله ﷻ، فمن تمّ إقباله على شيخه فقد استحقّ الترقي إلى مقام الإقبال على ربه، ومن لا فلا. فإياك يا أخي أن تتكدر من شيخك إذا طردك عن بابه بغير طريق تعرفها أنت، وتصير تحقد في لبك على شيخك، أو تشكوه في نفسك، فضلاً عن الناس الأجانب، وفضلاً عن أعداء الشيخ، فإنك تمقت مقتًا لا تفلح بعده أبدًا، كما وقع ذلك لبعض من يدّعي أنه من جماعتنا. فاعلم ذلك، واعرض هذا الخلق على مريدي زمانك، ولا تنسَ نفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يجعل أحدهم نفسه شيخًا له مع شيخه، فيصير يعرض عليها كل شيء أمره به الشيخ أو نهاه عنه كالمستشير لها، هل أوافق شيخي في ذلك أم أخالفه. وقد أجمع الأشياخ على أن من لم يبادر إلى امتثال أمر شيخه أو نهيه فورًا فيفعل ما أمره به، وينتهي عما نهاه عنه من غير

=

وكان الجنيد - رحمه الله تعالى - يقول: مما أدب الله به الصحابة إذا كان لهم عند رسول الله ﷺ حاجة أنهم لا ينادونه من وراء الحجرات ولا يدقون عليه الباب، بل يصبروا حتى يخرج إليهم، وكذلك المريد مع الشيخ لا ينبغي له أن يناديه من خلف باب داره أو خلوته ليخرج إليه، بل يصبر حتى يخرج إليه الشيخ ومع بطء بحسب صدق المريد.

وبلغنا عن الشيخ عبد الحليم بن مصلح ﷺ أنه كان إذا جاءه فقير زائر أو علم به قام إليه، ويفتح له جانب الباب، ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه، بل يرجع إلى بيته أو خلوته، وإذا جاءه أحد من أبناء الدنيا يخرج إليه، ويجلس معه، فقيل له في ذلك، فقال: أنا لا أجلس مع الفقير؛ لأن رابطتنا مع الفقراء قلبية فهي سبيل الحديث بيننا ونقنع هنا بملاقاة هذا القدر من الظاهر، وأما أبناء الدنيا فهم واقفون مع العادات والظاهر وليس بيننا وبينهم رابطة قلبية، ومتى لم نوفِ لأحدهم حقه مع الظاهر استوحش. فلو كان هذا المريد الذي اعترض على الشيخ بقلبه صادقًا لألهمه الله تعالى هذا الجواب الذي أجاب به الشيخ عن نفسه ولم يحوج الشيخ إلى جواب.

وسمعت سيدي علي المرصفي ﷺ يقول: ينبغي لكل مريد إذا أشكل عليه من حال شيخه أن يتذكر قصة سيدنا موسى والخضر - عليهما الصلاة والسلام - ويتأمل كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها عليه موسى، ثم إذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره، ومن هنا تعلم أن كل ما ينكره المريد على الشيخ إنما هو لجهله

تهاون ولا تروي فيه، فهو مخدوعٌ لا يجيءُ منه شيء في طريق أهل الله ﷺ. وقد قال الأشياخ: لا يجوز لمريدٍ أن يكون له شيخان؛ لأن أمر الطريق مبني على التوحيد، فكما أنه لم يكن وجود العالم عن إلهين، ولا التكليف بين رسولين، ولا المرأة بين زوجين، فكذلك المريد لا يكون بين شيخين، وينبغي أن يستثنى من كلامهم رسالة موسى وهارون عليهم الصلاة والسلام؛ فإن تكليف قومهما كان بين رسولين بنص القرآن، ثم إن كلامنا إنما هو في حق الشيخ الحقيقي والمريد الحقيقي، ومن لم تجتمع فيه الشروط منهما فلا حرج عليه في اتخاذه عدة أشياخ يرشدونه إلى الخير، كما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، فعلم أن كل من مال عن قول شيخه الحقيقي إلى قول نفسه أو قول غير شيخه سرًا أو جهرًا، فهو كاذبٌ في محبته الطريق، لا يجيءُ منه شيء. فاعرض يا أخي هذا الخلق على مريدي زمانك تعرف هل وافق به أم لا، ولا تنسَ نفسك، والحمد لله رب العالمين.

بحقيقة ما الشيخ فيه، فإن للشيخ في كل شيء عذرًا بلسان العلم والحكمة.

وقد كان الجنيد - رحمه الله - إذا ألقى على أصحابه علمًا وأشكل على بعضهم يقول: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان:21].

وكان الشيخ عمر السهروردي - رحمه الله - يقول: من أدب المريد: ألا يجلس على سجادة بحضرة الشيخ إلا للسجود عليها في الصلاة؛ لأن من شأن المريد التبتل للخدمة، وفي الجلوس على السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز.

وكذلك من أدبه: ألا يتحرك للسماع بحضرة الشيخ إلا إن خرج عن حد التميز، ومن كان يهاب شيخه منعته هيبته عن الاسترسال في السماع.

وكذلك من أدبه مع شيخه: أن لا يكتمه شيئًا من أحواله، ولو مما يستحي منه عادة، فإن شاء تصريحًا وإن شاء تلميحًا، فإنه متى كتم المريد عن الشيخ صار على باطنه عقدة لا تنفك، ولا يحل تلك العقد إلا إذا ذكرت لذلك الشيء وحكمه فيه أن يخبر شيخه بذلك الشيء فيقرر له الحكم والعقوبات.

ويحتاج المريد إلى تحصيل مقام المحبة الصادقة للشيخ حتى يستطيع أن يمر بمرحلة كما يخبر الطبيب، وما لم يحصل له مقام المحبة فإن حاله يكون الكتمان غالبًا.

وكان سيدي عبد الحليم بن مصلح - رحمه الله تعالى - يقول لمن أحب المزيد ألا يقدم على مشاورة شيخه على أمر ديني أو دنيوي إن تبين له من حال الشيخ أنه مستمد له، ولسماع كلامه، فكما أن لسؤاله الله تعالى الذي هو الدعاء شروط وأوقات، فكذلك لسؤال الشيخ فإن الأدب مع الوسائل يرجع إلى الأدب مع المقاصد.

وكان سيدي عبد القادر الجيلي - رحمه الله - يقول: ما سألت شيخي قط عن مسألة حتى سألت الله تعالى أن يلهمني الأدب مع شيخي والألفاظ التي تناسب خطابه، وكثيرًا ما كنت أتصدق قبل أن أناجيه ﷺ ونفعنا به عملاً بقوله تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة : 12] فإن الشيخ واسطة بين المريد وبين الله تعالى بحكم النيابة عن سيدنا رسول الله ﷺ، انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل مقام التواضع الخالص بحيث يصل

أحدهم إلى موضع حد يصير يخطر في باله أنه [ليس][1] له حقًا على أحد من خلق الله تعالى، ولا أنه أهل لأن يقصد لتفريج كرب أحد من الخلق، بل يرى نفسه أكثر ضررًا من الثعبان أو الكلب العقور، وكان الرقي[2] - رحمه الله - يقول: من وظيفة الشيخ وحسن أدبه مع أهل الإرادة والطلب أن ينزل من حقه فيما يجب له من التبجيل والتعظيم الذي يكون للأشياخ عادة، ويكثر من التواضع للمريدين؛ ليقبلوا على الاستماع له فيما يرشدهم إليه من الخير.

قال: وقد كنا في مسجد بمصر جلوسًا، فدخل أبو بكر الرقاق، فقام عند اصطوانه يتركع، فقلنا: نصبر عن السلام عليه حتى يفرغ من صلاته، فلما فرغ جاء هو إلينا فسلم علينا، فقلنا: كنا نحن أولى من الشيخ، فقال: ما عذب الله تعالى قلبي بمثل هذا قط، ولكني أخاف أن يظن بأني أحترم وأقصد، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: إذا رأى أحدهم من بعض المريدين سوء أدب، أو علم بحاله اعوجاجًا بدعوى أو مداخلة عجب ونحو ذلك ألا يصرح له بذلك، بل يتكلم على الأصحاب، ويشير إلى المكروه الذي علمه من ذلك المريد، ويكشف عن وجه المذمة لذلك الشخص على وجه الإجمال، فيحصل لكل واحد الفائدة والمقصد من غير تصغير وجه أحد، وذلك أقرب إلى المداراة وأكثر أثرًا في تأليف القلوب.

وقد بلغنا أن عمر بن الخطاب ﷺ شم من أهل مجلسه ريحًا، فقال: عزمت على من أخرج هذا الريح إلا قام فتوضأ، فقال له جرير بن عبد الله البجلي أن نتوضأ كلنا يا أمير المؤمنين، فقال: توضئوا كلكم، وأعجبه ذلك من جرير لما فيه من الستر لمن أخرج الريح.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ينبغي للشيخ إذا رأى من المريدين تقصيرًا في الخدمة أن يحتمله ويعفو عنه، ويحرضه على الخدمة لإخوانه مطلقًا من غير عنف، ولو تكرر ذلك التقصير من المريد في اليوم الواحد مرات.

وقد ورد أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟

---

(1) سقطت من المطبوع، وتم استدراكها.

(2) في المطبوع، صحفت للدقي، والصواب المثبت.

قال ﷺ: «كل يوم سبعين مرة»[(1)].

وأخلاق الفقراء تابعة لأخلاق رسول الله ﷺ، وهم أحق من عمل بسنته؛ لعدم شواغلهم الدنيوية غالبًا.

وسمعت سيد علي الخواص - رحمه الله - يقول: ينبغي للشيخ أن يكتم سر المريد كما يكتم المريد كذلك سر شيخه، فلا يعلم بذلك إلا ربه وشيخه، أو ربه ومريده.

وقد قالوا: أصل إذاعة الأسرار ضيق الصدر، وأصل ضيق الصدر ضعف العقل، انتهى.

وإيضاح ذلك أن ابن آدم فيه قوتان وكلاهما مشوق إلى الفعل المختص به ولولا أن الله تعالى وضع في النفس حب إظهار ما عندها ما ظهرت الأسرار، فالكامل في العقل هو من حرص على الكتمان ولذلك كان من شأن الأشياخ عدم إذاعة الأسرار ﷺ فاعلم ذلك يا أخي واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: صحبة الأخيار دون الأشرار ما داموا قاصرين من بلوغ مقام الكمال، فإذا بلغوا ذلك أمروا بصحبة الأخيار والأشرار، وأما الأخيار فظاهر، وأما الأشرار؛ فلكي يستقيم عوجهم إذا صحبوهم.

وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى السيد داود ﷺ لما نفر من مجالسة عصاة بني اسرائيل: يا داود، المستقيم لا يحتاج إليك، والأعوج نفرت من مجالسته فلمن إذاً أرسلت، انتهى. ولكن يحتاج من يصحب الناس في هذا الزمان إلى علم وافر، وعقل عظيم، وسياسة تامة، وإلا حصل له غاية الأذى، وربما ظن كل من المتصاحبين أنهما اصطحبا لله تعالى، والحال أن ذلك لغير الله تعالى؛ ولذلك قالوا: لا يفرق بين الصحبة لعلة الجنسية إلا العلماء الغواصون على دقائق النفوس، فقد ينفسد الإنسان بصحبة أهل الدعوى للصلاح أكثر مما ينفسد بصحبة أهل الفساد، ووجه ذلك أن الإنسان يعرف فساد أهل الفساد فيأخذ حذره منهم، وأهل الصلاح غره صلاحهم فمال إليهم لجنسية الصلاحية، ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين حقيقة

(1) رواه أبو داود (763/2)، والترمذي (336/4).

الصحبة لله تعالى، واكتسب من طريقهم الفتور في الطلب، والتخلف عن بلوغ الأدب، فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة؛ ولهذا رجح طائفة من السلف الصالح العزلة والخلوة على الصحبة، وقالوا: إن العزلة أكثر فائدة منهم: سيدي إبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفضيل بن عياض، وسليمان الخواص.

ولما قدم إبراهيم بن أدهم بلد إبراهيم الخواص قالوا له: ألا تلقى إبراهيم ابن ادهم؟ فقال: لأن ألقى سبعًا ضاريًا أحب إليَّ من أن ألقى إبراهيم، قالوا: ولم؟! قال: لأني إذا لاقيته أحسن له كلامي وأحوالي، وفي ذلك ما لا يخفي من الفتنة، انتهى.

وهو كلام من عرف نفسه وأخلاقها، ويؤديه حديث: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع به شعاب الجبال، ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن**»[1].

وفي القرآن العظيم حكاية من السيد إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم:48] فاستظهر بالعزلة على قومه، وكان أبو بكر الوراق يقول: من عهد السيد أدم ﷺ إلى وقتنا هذا من اعتزل من جانب الناس كان إلى السلامة أقرب.

وسمعت سيدي علي الخواص يقول: قد يكون للمخلطة فائدة أكثر من العزلة والخلوة؛ لأن الخلطة تفتح مسام الباطن، ويكتسب الإنسان بها التمرن على حسن الخلق، ويتطلع على علم الحوادث والعوارض، ومن منافعها أيضًا التعاضد، والتعاون على الخير، وتقوية قصور القلب، واسترواح الأرواح بالتسامي، وفي الحديث: «**المؤمن كثير بأخيه**»[2] وتأمل الأصوات إذا اجتمعت كيف تخرق الأجرام[3] وإذا انفردت

---

(1) رواه البخاري في «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن** ». (يوشك) يقرب، (غنم) اسم جنس يقع على الذكور والإناث جميعًا وعلى الذكور وحدها والإناث وحدها (شغف الجبال) رؤوس الجبال والمفرد شعفة، (مواقع القطر) مواضع نزول المطر، (يفر بدينه من الفتن) يهرب خوفًا من أن يفتن في دينه ويخوض في الفساد مع الخائضين (15/1).

(2) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (178/2).

(3) وذكرت في المطبوع(الأجران).

كيف يقصر مداها.

وكان سعيد بن المسيب وعبد الله بن المبارك لا يرون العزلة، ويقولان: إن الله امتن على المؤمنين بالتآلف، فقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: 63] وقال النبي ﷺ: **«المؤمن الف مالوف، وإن أحبكم إلى الله تعالى الذين يولفون ويألفون»**[1] انتهى.

وقد سألت سيدي علي الخواص عن الفرق بين العزلة والخلوة؟ فقال: الخلوة تكون عن الأغيار الذين يشتغلون عن الله تعالى، والعزلة تكون عن النفس وما تدعون إليه.

فقلت له: فإذا الخلوة كثيرة الوجود، والعزلة قليلة الوجود؟

فقال: نعم؛ لأن التباعد عن النفس عسر جدًا، ويفرق أيضًا بأن العزلة ليس من لازمها الاشتغال بالله بخلاف الخلوة، انتهى.

وكان سيدي محمد المنير - رحمه الله تعالى - يقول: إذا بعد الفقير عن الناس خرج عن وصف كون المؤمن ألف مألوف، والحال أنه أولى بمقام الألفة؛ لأنه إذا اعتزل عن الناس صفت نفسه، واشتاق الناس إلى رؤيته، فألفوه أكثر من المخالط، وأصل الائتلاف إنما هو بالأرواح لحديث: **«الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف»**[2] انتهى.

فعرف مما قررناه أنه لا يقال: العزلة أفضل مطلقًا، والخلطة أفضل مطلقًا، فربما يكون الخلطة بهواء نفسه، والعزلة تكبرًا عن الخلق.

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (2/295) بنحوه.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ -رَحِمَهُمَا اللهُ- عَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ آلِفٌ مَأْلُوفٌ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ، وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا يَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ» وَكُلُّ ذَلِكَ حَثٌّ مِنْهُ ﷺ عَلَى الْأُلْفَةِ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: (مَنْ قَلَّ ذَلَّ) وَقَالَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ: إِنَّ الْقِدَاحَ إِذَا اجْتَمَعْنَ فَرَامَهَا بِالْكَسْرِ ذُو حَنَقٍ وَبَطْشٍ أَيِّدِ عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَإِنْ هِيَ بُدِّدَتْ فَالْوَهْنُ وَالتَّكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ.

(2) رواه البخاري في «الصحيح» (11/495) بنحوه، ومسلم في «الصحيح» (17/128) بنحوه.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: وإذا أردت صحبة إنسان أو انفردت نفسك من صحبته، فانظر في أفعاله وأقواله، فإن رأيتها محبوبة لله تعالى فاصحبه، وإن رأيتها مكروهة لله تعالى فاجتنب صحبته إلا بنية صالحة؛ لكي تحبه بهواك وتبغضه بهواك، فكم ممن يزعم أنه يكره لله تعالى وإنما ذلك لحظ نفسه، وكذلك القول فيمن يحب.

وكان يقول: صحبة الأشرار لبعضهم بعضًا أشر ما يكون؛ لأنهم يزدادون بها شرًا واعوجاجًا بسرقة طبع كل واحد منهما الآخر. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: وإذا وجد أحد منهم في نفسه وحشة من الخلق حين نفروا عنه أن يتفكر في نفسه، فلعل ذلك بمعصية وقع فيها كما قاله بعضهم.

وكان بشر بن الحارث ﷺ[1] يقول: وإذا قصر العبد في طاعة الله تعالى سلبه من يؤنسه، فتنافر منه الأشياخ إن كان مريدًا، وتنفر منه المريدون إن كان شيخًا.

وكان علي بن سهل[2] - رحمه الله تعالى - يقول: من أطاع الله تعالى

(1) هو المكتفي بكفاية الكافي، اكتفى فاشتفى، وقد قيل: إن التصوف الاكتفاء للاعتلاء، والاشتفاء من الابتلاء. كان كبير الشأن، عظيم المقدار عليّ المنزلة، رفيع المنار، لطيف الإشارة، عذب الكلام، طلق العبارة، عديم النظير زهدًا وورعًا وصلاحًا، كثير الحديث، لكنه كره الرواية آخرًا. قال الدارقطني: وهو ثقة، لا يروى إلا حديثًا صحيحًا. وأصله من رؤساء مرو، ثم سكن بغداد وأخذ عن الفضيل، وتلك الطبقة. وكان أسفل قدمه أسود من التراب من كثرة المشي حافيًا، وسبب حفائه أنه كان في ابتدائه في لهو ولعب فجلس مع رفقائه لذلك، فدقّ رجل بابه فخرجت الجارية، فقال: صاحب هذا الدار حر أم عبد؟ قالت: حر، قال: صدقت لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو، ثم ولى، فدخلت الجارية فأخبرته فخرج يعدو خلفه حافيًا حتى أدركه، وقال: أعد الكلام، فأعاده فهام على وجهه حافيًا حتى عرف بالحفاء، فقيل له: لم لا تلبس نعلاً؟ فقال: ما صالحني مولاي إلا وأنا حاف فلا أزول عن هذه الحالة. وقيل: إنما سببه أنه انقطع أحد نعليه، فطلب من إسكاف شسعًا، فقال: ما أكثر كلفتكم على الناس! فألقاه، وحلف لا يلبس نعلاً أبدًا.

وقال محمد بن الصلت: كان اسمه بين الناس كأنه اسم نبي، وسببه أنه وجد ورقة فيها البسملة بالطريق فرفعها وطيبها بغالية، فقيل له: طيبتها لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة. وانظر: حلية الأولياء (8/336-360)، وطبقات الشعراني (1/84-86)، والكواكب الدرية (236).

(2) هو سيدي ابن الصائغ الدِّينَوري المشهور، كان من صدر الصدور. استند صوفية الآفاق من تربيته

رزقه الأنس به.

قال: ومن الأنس بالله تعالى الأنس بأوليائه ﷺ.

وقد قال الفضيل بن عياض ﷺ: إني لأقصِّر في الصلاة فأرى ذلك في خلق حماري، وخادمي، [وزوجتي][1] وهو يؤيد ما ذكرناه.

وعلامة التنفير المحمود أن ينفر الناس عنه من غير ازدراء ولا احتقار له بخلافهم، إذا نفروا عنه على وجه الازدراء والاحتقار، فإنه يدل على وقوعه في مذموم يسخط الله عليه، فتبعه على ذلك قلوب المؤمنين غيره للحق وموافقة له، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: أن يرى أحدهم الفضل لأخيه على نفسه إذا أحبه واعتقد فيه، وقد كان أبو معاوية الأسود ﷺ يقول: كل إخواني خير مني، قيل: وكيف ذلك؟

قال: كل منهم يرى الفضل عليه، ومن فضلني على نفسه فهو خير مني، انتهى. أي: أنه ما فضله على نفسه إلا لكونه أكثر تواضعًا منه، ورفعه المقام عند الله تعالى بكثرة التواضع فافهم.

وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله تعالى - يقول: قد أخل غالب الناس بآداب الصحبة وهي كثيرة، ولكن نذكر الإخوان منها طرفًا صالحًا:

فمنها: أن أحدهم كان إذا وجد ثقلاً من أحد من المسلمين يتهم نفسه بالنفاق والكبر يسعى في إزالة ذلك من باطنه.

وقد كان أبو بكر الكتاني[2] يقول: صحبني شخص، وكان على قلبي ثقيلاً،

إلى ركن شديد، وعطفوا إلى العكوف عليه كل جِيد، وكان وافر الورع والديانة، قوي التمكن على المكانة، نير الوجه، حسن الأخلاق، سار سيرة سارت فعطرت بأريجها أرجاء الآفاق، أخذ عن ابن الجلاء ومن فوقه. مات بمصر سنة سبع وتسعين ومائتين- ورأيت في كلام ابن الجوزي ثلاثين وثلاثمائة، ودفن بالقرافة تحت الجبل، وأسند الحديث. انظر: طبقات الشعراني (119/1)، وحسن المحاضرة (294/1)،والكواكب الدرية (266).

(1) سقطت من المطبوعة.

(2) هو محمد بن على بن جعفر أبو بكر الكتاني البغدادي ويقال: أبو عبد الله وأبو بكر أصح. أصله من بغداد صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز وأبا الحسين النوري وأقام بمكة مجاورا بها إلى أن

فوهبت له شيئًا بنية أن يزول ثقله من قلبي فلم يزل، فخلوت به يومًا وقلت له: ضع رجلك على خدي فإني مغرور فأبى، فقلت له: لا بدّ من ذلك ففعل، فزال ما كنت أجده في باطني، انتهى.

ولما سمع الرَّقي بهذه الحكاية سافر من الشام إلى الحجاز حتى سأل الكتاني عن هذه الحكاية وسمعها منه.

ومنها: من تقديم كل من يعرفون فضله والتوسعة له في المجلس، وإيثاره بالوضع يكون ذلك لطف وسياسة لاسيما إن كان المعرض يحب الدنيا ويهتم بأمرها كذلك، وليس له من المشيخة إلا الدعوة فقط، وإن كان الواجب علي من ارتكب أمرًا أن ينصح غيره إذا ارتكبه فافهمه.

ومنها: ترك ظهور النفس بالصولة؛ لأن صولة الفقير على من هو فوقه قبيحة، وعلى من هو مثله سوء أدب، وعلى من هو دونه عجز.

ومنها: ألا يصحب أحدهم أحدًا ويعزم على مفارقته لا دنيا ولا آخرة، وكان بعضهم يقول: من صحب شخصًا فليس له صحبة أحد بعهد، ولو كان أعلى من الأول قيامًا بواجب حق صحبة الأول، فمن أخل بحق الأول لم يفلح على يد الثاني.

وكان سيدي إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - يقول: من قال لأخيه أعطني من مالك فقال: كم تريد؟ فما قام بحق الأخوة، ومن دعاه أخوه إلى حاجة، فقال: إلى أين؟ فما قام بحق الصحبة.

ومنها: ترك التكليف للضيف فإنه من تكلف لضيف كره إقامته عنده، وإذا كره إقامته عنده أطعمه بغير طيبة نفس فأساء في حقه، وتسبب في ظلم باطنه، ومن أطعمه ما حضر تساوى عنده إقامته وذهابه، ولما ورد أبو حفص على الجنيد عمل له ألوان الأطعمة، فأنكر ذلك عليه أبو حفص، وقال: صيرت أصحابي كالمخانيق تقدم إليهم

مات.

وكان أحد الأئمة حكي عن أبي محمد المرتعش أنه كان يقول: الكتاني سراج الحرم، مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة. وانظر: حلية الأولياء (357/10)، وطبقات الصوفية (7)، (373)، وطبقات الشعراني (129/1)، والرسالة القشيرية (ص35).

ألوان الطعام.

فقال له الجنيد: إنما فعلت ذلك من باب الإكرام للضيف، فقال: شرط الإكرام ألا يتولد منه ضرر، انتهى.

ومنها: ترك مداهنة إخوانهم دون مداراتهم، ومن الفرق بين المداهنة والمدارت، إن المدارت: ما أردت به صلاح أخيك فتداريه رجاء صلاحه، واحتملت منه ما تكره.

والمداهنة: ما قصدت شيئًا من الهوى من طلب حظ وإقامة جاه ونحو ذلك.

ومنها: أن يعزم أحدهم على أنه إن أدخلها ألا يدخلها إلا أن دخل أخوه المسلم، وإن طال الزمان في الحساب ولو وصل الأمر إلى أن يقوم بمقاسمته في حسناته يوم القيامة.

ومنها: أن يتدارك الأمر بالوعظ والعناية إذا وقع أخوهم في معصية أو فتنة حتى يتوب.

وقد قيل: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته، وتكلفت له إذا ورد عليك خوفًا من تغيير خاطره إذا لم يتكلف له.

وكان سيدي محمد المنير - رحمه الله تعالى - يقول: ليس بأخيك من آثر مراده على مرادك، وليس بأخيك من أحوجك إلى الاعتذار له.

وكان الإمام جعفر الصادق ﷺ يقول: أثقل إخواني عليّ من يتكلف واحتفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معهم كما أكون وحدي، انتهى. فاعلم ذلك، واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة الاعتناء بالأدب في العبادة أكثر من اعتنائهم بها بلا أدب، نظير ما قال العلماء في شروط الصلاة فإن الأدب فيها شرط بصحتها عند العارفين، ويؤيد ما قلناه حديث ابن حبان وغيره: إن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما حق الزوج على زوجته؟ فقال: **«من حقه أن لو كان به قرحة تنبجس دمًا وقيحًا، فاستقبلته تلحسها ما أدت حقه»**[1]، فقالت: والذي بعثك بالحق لا أتزوج

(1) رواه أحمد في «المسند» (482/26)، ونذكر لك ما ورد في قصة ذلك: كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الأَنْصَارِ لَهُمْ جَمَلٌ يَسْنُونَ عَلَيْهِ، وَإِنَّه اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِمْ فَمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ، وَإِنَّ الأَنْصَارَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نُسْنِي عَلَيْهِ وَإِنَّهُ اسْتُصْعِبَ عَلَيْنَا وَمَنَعَنَا ظَهْرَهُ، وَقَدْ عَطِشَ النَّخْلُ
=

ما بقيت الدنيا، انتهى.

فانظره يا أخي كيف أكرهها ﷺ على ترك التزوج مع أنه من سنته ﷺ، فإياك والتساهل في الأدب إن كنت من عبيد الأجر، فإن الأدب في العبادة أرجح من نفس العبادة بلا أدب كما يعرف ذلك أهل الذوق.

وقد وقع لي أنه سابقني ريح في مجلس الذكر، فأحسست بأن عورتي كشفت فذهبت لذة خطابي لله ﷻ فلما قمت وتوضأت فرجعت إليّ لذة الخطاب، ونظرت فيهم فانتهى من الذكر مدة الوضوء فوجدت الوجود أرجح منه، فاعلم ذلك واعمل عليه تجد بركته، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: حسن سيادتهم للمريد والمستقيم، وإذا حصل أنه نظر إلى جارية أو حدث لا يمسكون عليه الميزان الذي كان يمسكه السلف على المريد، فإن ذلك الأمر مضى حكمه وانتسخ.

ومن حسن السياسة أن يبينوا للمريد أنه كان يخشى ويشقى أن يعرف واحد من المخلوقين، فكذلك يجب عليه الحياء من نظر الله إليه، ويحذرون الجارية أو الحدث من أن يجيبوه إلى ما يطلب، ويبينون له أن ذلك الحب الذي يدعيه حبًا شيطاني يورث كل منهما المقت.

وقد سمعت سيدي عبد الحليم بن مصلح ﷺ يقول: من أراد أن يعرف أن محبته للحدث مثلاً لله تعالى أو لغيره فلينظر في نفسه، فإن رآها تود أن تقبله أو تعافه لو وجد خلوة به، أو يخطر ذلك على باله، فليعلم أن محبته لذلك الحدث مثلاً لغير الله ﷻ فإن

=

وَالزَّرْعُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «قُومُوا» فَقَامُوا فَدَخَلَ الْحَائِطَ وَالْجَمَلُ فِي نَاحِيَةٍ، فَمَشَى النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَهُ، فَقَالَتِ الأَنْصَارُ: يَا نَبِيَّ اللهِ إِنَّهُ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْبِ الْكَلِبِ، وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ صَوْلَتَهُ، فَقَالَ: «لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ بَأْسٌ» فَلَمَّا نَظَرَ الْجَمَلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ نَحْوَهُ حَتَّى خَرَّ سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَاصِيَتِهِ أَذَلَّ مَا كَانَتْ قَطُّ حَتَّى أَدْخَلَهُ فِي الْعَمَلِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ بَهِيمَةٌ لاَ تَعْقِلُ تَسْجُدُ لَكَ وَنَحْنُ نَعْقِلُ، فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ؟ فَقَالَ ﷺ: «لاَ يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ وَلَوْ صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا لَوْ كَانَ مِنْ قَدَمِهِ إِلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ قُرْحَةٌ تَنْبَجِسُ بِالْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْهُ فَلَحَسَتْهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ».

من علامة المحبة لله تعالى دون حظ النفس، ألا يشتهي التمتع في جسم ذلك المحبوب، ولو بالنظر، ومتى اشتهى تعشقًا أو تقبيلاً له أو أن يمس جلده بيديه، فهو من قوم لوط ، ولا يخفى سخط الحق تعالى عليهم وخسف ديارهم ومسخهم.

وسمعته أيضًا يقول: لم يزل القوم سلفًا وخلفًا يحذرون العُزّاب من سكان الزوايا والربط من صحبة الأحداث، ويقولون: إن صحبة العُزّاب للحدث من أشر ما يفتن الشيطان به المريدين، فإن مخالطة النساء في الزوايا لا يمكن، ولو أمكن لأمرنا المريدين بالتزويج فكان كلما تحركت شهوة النظر إلى المستحسنات نظر أحدهم إلى امرأته، وقضى وطره لكن لما تعذر ذلك وسوس لهم إبليس في صحبة الأحداث، وأن يظهر أحدهم أنه يحب الحدث لله تعالى وربما يعلم الله تعالى منه خلاف ذلك فأهلكه من حيث لا يشعر.

وسمعته مرارًا يقول: إذا رأيتم المريد يحب القرب من مواطن التهم كحب النساء والشباب فاتهموه في دينه، وإذا رأيتم الشاب الصالح يحب الرجل فظنوا به خيرًا، فإن الشباب يكره بالطبع من يتوهم منه الفاحشة، فأعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا ولا تأخذوا من حظ نفوسكم الخبيثة، وإن ادعت نفوسكم أنها تحب حدث أو جارية لله تعالى، بل عليكم بنفوسكم فامتحنوها بشيخ قد طعن في السن، فإن رأيتم نفوسكم لا تميل إليه فهي كاذبة أما إن رأيتم أنفسكم تميل إلى تقبيل يده والجلوس معه فهي صادقة وإلا فهي كاذبة، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: أن يصفوا مقام قلوبهم، ويصير أحدهم إذا عصى أمر قلبه عصى الله تعالى كما كان عليه الأكابر من أهل الطريق.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: من بلغ مقام الكمال رأى خواطره المحمودة كلها رسل من الله تعالى إليه، ومن عصى رسل الحق تعالى فقد عصاه بيقين.

وكان سيدي أحمد بن الرفاعي ﷺ يقول: بلغت إلى مقام إن عصيت قلبي غضب الله تعالى، انتهى.

لكن هذا لا يسلم لكل من ادعاه، إنما يقبل عن من استقام قلبه من أكل الحلال حتى صار يسف التراب إن لم يجد حلالاً، أن يطوي الشهر وأكثر.

فسمعت سيدي علي المرصفي ﷺ يقول: لا يبلغ العبد إلى مقام استقامة القلب ويصير يعصي بمخالفة خواطره إلا إن اطمئنت نفسه وتمكنت في ذلك إذ الشيطان لا ييأس من قبول النفس وسوسته إلا إن علم أنها اطمأنت ووافقت القلب وإلا من لازمها قبول وسوسته، وتكديرها للقلب كلما تحركت، ومعلوم أن القلب إذا تكدر طمع الشيطان في المريد؛ لعدم النور الذي كان في قلبه يحرقه إذا قرب منه، وما صفى قلب مريد قط إلا وكان قلبه محفوف بالذكر.

وكما يتقى أحدنا النار خوفًا أن تحرقه كذلك الشيطان يتقي من نور الذكر خوفًا أن يحرقه، انتهى.

وسمعت الشيخ أبو السعود الجارحي يقول: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:21].

اعلموا أيها الإخوان أنكم لا تنالوا صفاء الذكر والإخلاص إلا بالبعد عن المعاصي، وبها ينفتح بابه، فلا يزال العبد يتقي حتى يحمي جوارحه من كل فعل يجانب الشريعة، ويتقي ما يعنيه وما لا يعنيه حتى تصير أفعاله وأقواله كلها متوافقة لا تختلف في شيء، فلا يبقى إلا باطنه فيطهر باطنه من جميع المكاره، ثم من جميع ما يخالف أقواله وأفعاله، انتهى.

وهذا الاتقاء بالذكر مثله مثل الكواكب في كبد السماء، وصار القلب بها محفوظًا بزينة كواكب الذكر، وهناك يبعد عنه الشيطان كل البعد، وتبعد كل البعد الخواطر الشيطانية، ولا يصير معه إلا خواطر نفسه، وحينئذ يسعى في قطعها واتقائها بميزان العلم إذ منها خواطر لا تضر العبد كمطالبات النفوس بحاجاتها، ومعلوم أن حاجتها تنقسم إلى حقوق وحظوظ، وحينئذ يتعين التمييز بين الحق والحظ، واتهام النفس بمطالبات الحظوظ.

وقد كان الشيخ أحمد الرفاعي ﷺ يقول: من لم يتهم خواطره، ويناقش نفسه في كل نفس لم يثبت في ديوان الرجال، انتهى.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: الخواطر رسل، فإن كانت من الله وجب عليك العمل بما جاءت به، وإن كانت من النفس أو القلب أو

الروح وجب عليك التفتيش قبل الإقدام على العمل به، ويؤيد ذلك من طريق الإشارة قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات:6] أي: فثبتوا.

وكان سهل بن عبد الله يقول: المراد بالفاسق في الآية: الكذاب كما هو معروف في كتب التفسير، ومعلوم أن الكذب من صفات النفس؛ لأنها على أشياء على غير حقائقها، فيتعين التثبت عند خاطرها وإلقائها، فيجعل المريد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت، ولا يستفزه الطبع، ولا يستعجله الهوى، فقلت لأخي أفضل الدين - رحمه الله تعالى - : فهل السر الذي يشير إليه القلب مرتب بعد القلب أو بين الروح والقلب؟ فقال: من القوم من جعله بعد القلب وقبل الروح، فقال: نفس ثم قلب ثم سر ثم روح، ومنهم من جعله بعد الروح، فقال: نفس ثم قلب ثم روح ثم سر، وقالوا: هو أعلى من الروح والقلب؛ لأنه محل المشاهدة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا تصدر أحدهم لتربية المريدين ألا يغفل عن أمرهم بمحاسبة نفوسهم على جميع ما يقع منهم من أقوال وأفعال وخواطر، فما كان من ذلك محمودًا يأمرهم فيه بالشكر، وما كان منه مذمومًا يأمرهم فيه بالاستغفار، ويكون ذلك على التدريج من سدس درجة إلى درجة، ثم من درجة إلى عشر، ثم من عشر إلى عشرين وهكذا، وبهذه المحاسبة تحفظ الأنفاس، وتضبط الحواس، وتراعى الأوقات.

واعلموا أيها الإخوان أن الله تعالى ما فرق أولاً العبادات في الليل والنهار إلا لعلمه تعالى باستيلاء الغفلة على غالب العبيد كي لا يطول زمن الغفلة ويستعبدهم الهوى، وتسرقهم الدنيا، فالصلوات الخمس كسلسلة تنجذب بها النفوس إلى مواطن العبودية؛ ليؤدي حق الربوبية، فالمريد الحاذق هو الذي يحاسب نفسه بين كل صلاتين، ويسد مداخل الشيطان من الصلاة إلى الصلاة بحسن المراقبة والرعاية، ولا يدخل قط في صلاة إلا بعد حل كل عقد في القلب بحسن التوبة والاستغفار؛ لأن كل كلمة وحركة تكون على خلاف الشرع تنكت في القلب نكتة سوداء ويعقد عليه عقدة.

وسمعت سيدي محمد بن عنان - رحمه الله تعالى - يقول: لا يكمل الفقير في مقام المحاسبة لنفسه حتى يصير يهيئ الباطن لكل صلاة صلاها؛ لضبط جوارحه الظاهرة والباطنة عن الحركة التي لم يشرعها الحق - جل وعلا - ومن فعل ذلك أشرق في كل صلاة صلاها نور على سائر أجزاء الوقت إلى الصلاة الأخرى، فتصعد صلاته

تامة منورة بنور وقته كما أن وقته يصير منورًا بنور صلاته.

وإذا وصل المريد إلى مقام المراقبة فلا يزال يراقب ربه ﷻ حتى يصير ملاحظًا للحق بقلبه في كل لحظة ولفظة.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا عليه تفلحوا، ويصير أحدكم يكلم الله تعالى في جميع ما يكلم به الناس من حيث لا يشعرون إن شاء الله تعالى، كما كان عليه الإمام سهل ابن عبد الله التستري وأضرابه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: زجرهم وتوبيخهم لكل مريد استحسن شيئًا من أعماله، ولا يجوز لأحد السكوت على ذلك إلا لعذر شرعي، وقد أجمعوا على أن كل مريد استحسن شيئًا من أعماله وجب عليه أن يرجع إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانيًا.

وقالوا: من لم يزن نفسه بميزان الصدق فيما له وعليه فهو مبعد عن مقامات الرجال غير قابل لها، وأصل ذلك عدم الصدق في التوبة في الأول، فإنها هي الأساس الذي يبني المريد عليه كل مقام، فكما أن من لا أرض له فلا بناء له كذلك من لا توبة له لا حال له ولا مقام.

وسمعت سيدي علي المرصفي - رحمه الله تعالى - يقول: لا ينبغي للشيخ إرشاد المريد إلى طريق شهود عيوب الأعمال إلا بعد الصدق في التوبة، فتزه يا أخي مريدك عن القاذورات الظاهرة والباطنة، ثم بين له عيوب الأعمال تكن حكيم الزمان، وهكذا القول في كل مقام لا ينبغي لك أن تنقل مريدك عنه حتى يحكم أمره فيه، فإن بناء الجدار يتبع بعضه بعضًا، ومتى بُنِيَ بناء مهلهلاً[1] ثم بُنِيَ فوقه بناء محكمًا تزلزل الأعلى من المهلهل، انتهى.

وسمعت سيدي محمد المنير - رحمه الله تعالى - يقول: من أحكم مقام توبته حفظه الله تعالى من سائر الشوائب التي في الأعمال فهي نظير مقام الزهد يحفظ صاحبه من سائر ما يحجب عن الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) ذكرت في المطبوع:(محكمًا).

الخاتمة الموعد بذكرها في الخطبة

وهي تشتمل على نبذة صالحة مما يقاسيه أهل الله تعالى من احتمال الأذى من جميع الخلق، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

من أخلاقهم: عملهم دائمًا على إزالة الموانع التي تمنعهم من دخول الحضرة الإلهية فلا يصرون على مانع لحظة في ليلة أو نهار، وسائر الذنوب موانع، لكن أعظم الموانع التكبر على أحد من المسلمين، ورؤية الغنى عن الله تعالى، والاشتغال عنه بما أعطاه له، وشهود العز في النفس فمن كان فيه خصلة من هذه الثلاث، فهو ممنوع من دخول الحضرة بإجماع أولياء الله تعالى.

وفي كلام سيدي محيي الدين في «الفتوحات»: خصلتان إذا كانتا في عبد حرم من دخول حضرة الله تعالى مادام متخلقًا بهما وهما: عز النفس، وشهود الغنى.

وقال الشيخ أبو المواهب الشاذلي[1] في كتاب «القانون»: حكم الملك القدوس ألا يدخل حضرته أحد من أهل النفوس، ويجمع ذلك كله شهود العبد في نفسه أنه دون كل جليس من المسلمين في مقام الذل والفقر، وذلك هو المشار إليه بقوله ﷺ: «**من تواضع لله رفعه الله** ﷻ»[2] ولا يكفيه في ذلك أن يشهد ذلك في نفسه ظنًّا، وإنما يكون ذلك يقينًا وكشفًا، فإن التواضع المشهود في العامة هو أن يرى لنفسه مقامًا عاليًا، ثم يتنازل منه إلى الناس، وذلك من جملة الكبر عند أهل الله تعالى، فإن المراد

---

(1) هو سيدي إبراهيم أبو الطيب بن محمود بن أحمد بن حسن الأقصرائي الشاذلي، المشهور بالمواهبي، أحد أتباع الشيخ محمد المغربي، والشيخ أبي المواهب. كان حسن الخلق والخلق، سالكًا من الزهد والورع أوضح الطرق، ومع ذلك كان ينفق نفقة الملوك ويلبس ملابسهم، ولا يعلم له جهة يأتيه منها بعض ذلك. وعمل الموشحات، وشرح الحكم العطائية، ليس على طريقة الشروح بل هو فوائد مجموعة بمعزل عن شرح الكتاب، وحكايات عن الصالحين، ونحو ذلك.
وله كتاب «كشف الجليل عن سر التمويل»، و«بيان مشاهد يا مولاي يا واحد» وكتاب «البارق الأسنى بسر الكني»، وكتاب «الأذكار والدعوات»، وكتاب «التفريد وضوابط عقائد التوحيد»، و«قوانين حكم الإشراق». ولما احتضر أتاه الشيخ محمد المغربي فقال له: ما تشهد؟ قال: وحدة مطلقة. قال: هنيئًا لك؟ فصعدت روحه فورًا .ودفن بزاويته بقرب قنطرة سنقر سنة أربع عشرة وتسعمائة. وانظر: الكواكب السائرة (110/1)، والكواكب الدرية (742).

(2) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (172/8)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (129/7).

أن يرى مقامه دون مقام الخلق أجمعين ببادئ الرأي على الدوام، فإذا ارتفع مقامه شهد حقارة نفسه في حضرة الله تعالى.

فعلم أن من رأى نفسه فوق أحد عن عوام المسلمين على غير وجه حق، فقد شرع في البعد عن الصواب، ومن رأى نفسه دون أحد من المسلمين فقد شرع في ديون الصالحين، ثم انعقد إجماع العارفين على أن من كان عنده شيء من الكبر لا يصح له دخول حضرة الله أبدًا، ولو عبد الله تعالى في الظاهر عبادة الثقلين، وإيضاح ذلك أن أهل الحضرة على ثلاثة أصناف أنبياء وملائكة وأولياء، وليس عند أحدهم شيء من الكبر بإجماع المسلمين.

وهذا الخلق قل من يتخلق به من الفقراء، ولذلك منعوا من دخول حضرة الله تعالى حتى في صلاتهم، وكل من لم يدخل حضرة الله تعالى فصلاته جسم بلا روح كالخشب اليابس.

وكان حمدون القصار ﷺ[1] يقول: من رأى نفسه خيرًا من فرعون فقد أظهر الكبر؛ أي: لأن خاتمته مغيبة، فقد يختم له والعياذ بالله تعالى بالكفر فيكون مثل فرعون، فليس مراده الحالة الراهنة، وإنما المراد النظر إلى ما يؤل إليه أمر العبد، بحكم اليقين في الآخرة وذلك أمر مغيب فليفهم.

وكان الإمام الجنيد ﷺ يقول: لا يبلغ أحد مقام التواضع الحقيقي حتى يرى نفسه أنها ليست بأهل أن تنالها رحمة الله تعالى، وإنما رحمة الله تعالى لها من باب الفضل والمنة.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في أول كتاب «العهود» وأول الخاتمة من كتاب

(1) هو أحد الائمة الكبار، مواعظه سديدة، وكلمته مفيدة، وديانته وافية وافرة، وشمس مناقبه وكراماته باهية باهرة سافرة، وهو شيخ الملامتية صحب النخشبي وغيره.
قال: من شغله طلب الدنيا عن الآخرة ذل في الدنيا والآخرة، ولم يزل على حاله راقيًا في كماله إلى أن غاب بدره فما طلع، وسار على النعش فما رجع، مات سنة إحدى وسبعين ومائتين، ودفن بنيسابور، وقد أسند الحديث عن جماعة من الأعيان، وروى عنه آخرون. انظر: حلية الأولياء (10/231-232)، طبقات السلمي (129،123)، طبقات الشعراني (1/98)، وطبقات المناوي (243).

«المنن الكبرى»، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تحملهم للبلايا الواقعة في أبدانهم وأموالهم وأعراضهم، ويرون أنهم يستحقون أعظم من ذلك كمن استحق النار فعولج بالرماد، ثم إن إنزال الحق تعالى البلايا بأصفيائه لا يخلو إما أن يكون لرفع مقامهم، أو اختبارًا لهم؛ ليريهم صدق نفوسهم فيشكروا، أو كذبها فيستغفروا، أو ابتلاهم وصبرهم؛ ليقتدي الناس بهم، أو تكفيرًا لذنوبهم بالنظر لمقامهم فإنهم يعلمون أن الله تعالى عليم حكيم، وإن فعله تعالى عين الحكمة لا بالحكمة؛ لئلا يكون فعله تعالى معلولاً فافهم.

واعلم يا أخي ذلك واستعد للبلاء إن طلبت أن تكون من أهل الله تعالى، فإنه لا بدّ لأهل الله تعالى من البلاء شاءوا أم أبوا، فكان الكامل منهم يدور عليه البلاء كما تدور الرحى على قطبها فلا ينفك يعيش هذا البلاء وليس له بلاء آخر عاش، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: احتمال الأذى من الخلق وعدم التغير من حصول البلاء لهم اكتفاء بعلم الله ﷻ، فإن أنكر عليهم منكر وذلك يكون في حالتين، فإما إن كان محقًا فالغيظ منه لا سبيل له؛ لأنهم مخطئون وقد كتب في دواوين السماء قبل الأرض أن يتلفظ هذا به.

وإن كان باطلاً فالغيظ كذلك منه حق؛ لأنه لم يكتب في ديوان السماء فلا عقوبة عليه، فالعاقل لا يتغير من كل كلام قيل فيه بكل حال.

وقد تحققت بذلك ولله الحمد، فلم يزل يقوم لي في مصر كل قليل جماعة بعد جماعة يفترون عليّ كلامًا، ويشيعون أن ذلك رأوه في مؤلفاتي، ثم يستفتون على العلماء فيفتون بالحط الشنيع عليّ، وأنا بحمد الله تعالى بريء من ذلك كله، لكن قد حصل لي بذلك إدمان كثير فجزى الله تعالى كل من افترى عليّ كذبًا خيرًا، فإني لو سجدت لله تعالى على الجمر شكرًا لله تعالى ما أديت شكره على ما حصل ممن أذاني من الإدمان، فالحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: قلة ضجرهم وقلة تقلقهم من كثرة ما يقال فيهم من الأذى؛ وذلك لعلمهم كشفًا أو إيمانًا أنهم في حضرة الله تعالى، والإنسان إذا كان في حضرة حاكم عادل لا يخفى عليه ظلم الظالم فمن لازمه قلة التكدر ممن آذاه؛ لأنه يعلم أنه

يأخذ له حقه كاملاً إن كان مشهده أن له حقًا على أحد منهم إكرامًا من عبيد الله تعالى، وإن كان لا يرى له حقًا على أحد منهم إكرامًا لمن هم عبيده أو إكرامًا لمن هم من أمته، فكذلك فما بقي التكدر يصح إلا مع من كان محجوبًا عن هذه المشاهدة، وذلك حكم العوام لا حكم أهل الله تعالى.

ومن المساعدة لهم في قلة التكدر ممن ينقصهم كون أحدهم لا يطلب عند الخلق مقامًا، فلو طلب أحدهم عند الخلق مقامًا لتكدر ضرورة من كل من نقصه عندهم.

فليمتحن الإنسان نفسه، ولينظر إذا حدث أن جميع أهل بلده وإقليمه رموه بالعظائم حتى نفر منه الناس هل تكون نفسه راضية بعلم الله تعالى؟ فإن رآها كذلك فليعلم أنه صادق، وإن رآها تغيرت فليعلم أنه كاذب في دعواه الصدق مع ذلك، فمن الأدب ألا يرى لنفسه مقامًا عظيمًا؛ لأن ذلك مقام إبليس، فإن أهل المكان العلوي والسفلي يلعنه، ومع ذلك فلا يتغير من لعنتهم له، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: بعد إدمانهم على تحمل البلايا والمحن الشكر كلما آذاهم إنسان فيشكرون الله تعالى الذي صبرهم على تحمل أذاه، وجعلهم لا يشتغلون بمقابلته، ثم يقيمون لمن آذاهم العذر في نفوسهم ويقولون: ما آذانا إلا وهو في غفلة عن كوننا نحن وإياه في حضرة الله تعالى، أو عن كوننا عبيد الله تعالى، أو عن كون الحق تعالى نهاه عن ذلك، أو عن كوننا من أمة سيدنا محمد ﷺ، أو فعل ذلك اختبارًا لنا لينظر هل نصبر على ذلك أو نتقلق منه؟ فيفرح بنا في الأول، ويصير يربينا في الثاني؛ لإخلالنا بواجب حقه.

وسيأتي عن سيدي إبراهيم المتبولي ؓ أنه كان يحزن على موت عدوه الذي كان يؤذيه، ويقول: مات الذي كان يحصل لنا الأجر والخير بسببه.

وهذا خلق لم أرَ له فاعلاً من أقراني إلا قليلاً، وغالبهم لا يقيم لمن آذاه عذرًا أبدًا.

فعلم أنه ينبغي لكل من قام عليه قائم أن يتطلب من الله تعالى وجه الحكمة في ذلك، فإن أطلعه الله تعالى عليه فذاك وإلا سلم لمولاه، فإن الله تعالى اعلم بمصالحه منه.

ولما شفعت عند الوزير على الباشا بمصر فقبل شافعتي، وكان قد شفع قبلي جماعة فردهم تحزب الحسدة عليَّ من كل جانب، وكتبوا فيَّ قصصًا بالتجريح؛ ليغيروا قلب علي باشا عليَّ حتى لا يقبل شفاعتي بعد ذلك، فأول ما بلغني ذلك بادرت إلى شكر الله تعالى، ورأيت أن عدم قبول شفاعتي أريح لسري وسره، فإن من شأنه التضييق على عمال السلطان في أخذ الأموال التي عليهم، فلا يسعه من جماعة السلطان أن يقبل شفاعة من شفع فيهم أن يصبر عليهم ولا يضيق عليهم، ولا يسع الفقير إلا أن يشفع فيصير الفقير الباشا في تعب فتارة يغضب الفقير على الأمير، وتارة يغضب الأمير على الفقير، فالحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: صبرهم على رميهم بالزور عند الملوك والأمراء، وعلى عمل الأعداء الحيل على نفيهم وإخراجهم من أوطانهم، وهذا من أعظم أخلاقهم لما سيأتي بيانه قريبًا إن شاء الله تعالى.

وقد بلغنا أن أهل المغرب قاموا على سيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي ورموه بالعظائم، فلما بدأ في الرحيل من بلادهم إلى مصر كتبوا فيه مكاتبات لسلطان مصر بأنه سيقدم عليكم رجل زنديق يأخذ بقلوب الناس من حلاوة لسانه، وقد أتلف عندنا عقائد كثير من الناس فأخرجناه من بلادنا، فإياكم أن تمكنوا أحدًا يجتمع عليه، وإن منعتموه من سكن بلادكم حصل لكم خير كثير، فما وصل الشيخ أبو الحسن إلى الإسكندرية حتى وجد البلد ممتلئة بذكر نقائصه، فأرسل له سلطان مصر جماعة يجادلونه في الدين، فوجدوه على الكتاب والسنة، واعلموا السلطان بأن تلك المكاتبات إنما هي من كلام الأعداء والحاسدين، فاعتقده السلطان غاية الاعتقاد، ثم نزل إلى زيارته من مصر، فتلقاه الشيخ من باب إسكندرية، فبلغ ذلك أهل المغرب، فكاتبوه في حقه بكلام أقبح من الأول وأعانهم جماعة من المغاربة بإسكندرية، أوهموا للسلطان أنه يعمل الكيمياء، فتغير اعتقاده فيه، فوقع أن خازندار السلطان فعل أمرًا يوجب القتل فخاف من السلطان وهرب إلى الشيخ بإسكندرية، فحمل ذلك إلى السلطان، فأرسل له السلطان يغلظ عليه، ويقول له: تتلف عليَّ أصحابي وعمالي، فقال: نحن ممن يصلح ما نحن ممن يفسد، ثم أخرج المملوك من مخبئه، وقال له: خذ هذا، فبال عليه فانقلب الحجر ذهبًا خالصًا، فقال الشيخ: خذوا ذلك للسلطان يضعه في بيت المال، فاعتذر السلطان عن ما كان منه إلى الاعتقاد. ثم نزل لزيارة الشيخ وطلب منه أن

يعطيه المملوك ليبول له على ما شاء من الحجارة، فقال الشيخ للسلطان فاعتذر؛ لأنه في ذلك من الله تعالى، ولم يزل السلطان على اعتقاد الشيخ وعرض الوظائف، والرزق فأبى، وقال: الذي يبول خادمه على الحجر، فيصير ذهبًا بإذن الله تعالى لا يحتاج إلى أحد من الخلق، ثم إن الشيخ أبو الحسن سافر إلى الحجاز من ناحية القصير، فمات في طريق صحراء حميثرة، وقبره هناك ظاهر يزار، وكذلك وقع لتلميذه الشيخ أبي العباس المرسي أن سلطان المغرب كان يعتقده كل الاعتقاد، فوشى الفقهاء بينهما حتى صار ينكر عليه غاية الإنكار، ووضع له دجاجة ميتة بين دجاج مذبوح، وقدمها إلى الشيخ، وقال: إن كان هذا من أولياء الله تعالى فهو يطلعه على الدجاجة الميتة، فلما وضعوا السماط أشار الشيخ إلى الفقراء بألا أحد يأكل من ذلك الطعام، وقال: إن مرقه نجس من الدجاجة الميتة، وأخرجها بعود من بين المذبوحات، فاعتقده السلطان ، ثم مازال أهل المغرب يؤذونه حتى جاء إلى إسكندرية، فعقدوا له مجلس المناظرة، فقطع علماء مصر بالحجج، وسلك على يديه ثلاثون قاضيًا وعدوا ذلك من جملة كراماته.

[واقعة ابتلاء لسيدنا المصنف من ذوي الغفلة والغوغاء]

قلت: وقد وقع لي من الأذى نحو ذلك من جماعة معروفين في مصر، فأخذوا من بعض المغفلين من أصحابي كتاب «العهود» الذي كنت ألفته، وكتب عليه أئمة الإسلام من الأئمة أهل المذاهب الأربعة، وكتبوا منه بعض كراريس، ودسوا فيها كلامًا فخالف ظاهر الشريعة، وسبكوه في أثناء كلامي حتى كأنهم المؤلف للكتاب، ثم أخذوا تلك الكراريس، ودخلوا بها الجامع الأزهر الذي هو قلعة الإسلام، وقالوا للعلماء: انظروا هذا الكتاب الذي ألفه فلان فوقعت فتنة عظيمة، وبادر المنكرون إلى الإنكار، ثم داروا بتلك الكراريس على أكابر مصر من الولاة والمباشرين وأنا لا أشعر، فلما شعرت بذلك أرسلت لهم النسخة التي عليها خطوط العلماء كالشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ شهاب الدين، وشيخ الإسلام الفتوحي[1] وغيرهم من كبار العلماء

(1) هو أحمد بن عبد العزيز بن علي، الشيخ الإمام العلامة، شيخ الإسلام قاضي القضاة شهاب الدين الفتوحي الحنبلي، المعروف بابن النجار قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية. مولده سنة اثنتين

والمشايخ المتثبتين، ففتشوها فلم يجدوا فيها شيئًا من التهم والأباطيل، وانتصر لي غالب العلماء بحمد الله تعالى.

وقد حدث لي أيضًا أن أشاعوا عني أنني ادعيت الاجتهاد المطلق، وانتشر ذلك حتى صاروا نحو ثلاثين ألفًا، ثم كتبوا بذلك للسلطان سليمان بن عثمان، فلما وصلت المكاتبات حصل هرج في اصطنبول، وكان هناك سيدي أبو اللطف ولد شيخنا، فدار على الوزراء والقضاة وبرأ ساحتي عندهم، ثم لم يزالوا يؤذونني إلى وقتي هذا، وما بلغني أنهم كتبوا على خد باب السلطان بقلم غليظ الشيخ عبد الوهاب سلطان البر والبحر بقصد أن السلطان يقرأ ذلك فيتغير، ويسأل عني فيؤذيني فحماني الله تعالى ممن مس ذلك من أصحابي، ثم إن السلطان أرسل لي السلام، ومع ذلك بساطًا أصلي عليه وأدعو له وهو عندي الآن، وحصل بذلك لأعدائي غاية الهم والغم، فالله تعالى يغفر

وستين وثمانمائة ومشايخه تزيد على مائة وثلاثين شيخاً وشيخة، وكان عالماً عاملاً متواضعاً، طارحاً للتكلف. سمع منه ابن الحنبلي حين قدم حلب مع السلطان سليم خان سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة الحديث المسلسل بالأولية، وقرأ عليه في الصرف، وأجاز له، ثم أجاز له بالقاهرة إجازة تامة بجميع ما يجوز له، وعنه روايته بشرطه كما ذكره في تاريخه، وذكر والد شيخنا أنه لما دخل دمشق صحبه الغوري هو وقاضي القضاة كمال الدين الطويل الشافعي، وقاضي القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفي، وقاضي القضاة المالكي، وشيخ الإسلام جمال الدين العباد هرع إليهم جماعة للأخذ عنهم لعلو أسانيدهم، وكان ذلك في أوائل جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، وذكر الشعراوي أن صاحب الترجمة لم يل القضاء إلا بعد إكراه الغوري له المرة بعد الأخرى، ثم ترك القضاء في الدولة العثمانية، وأقبل على العبادة في آخر عمره وأكب على الاشتغال في العلم، حتى كأنه لم يشتغل بعلم قط مع أنه انتهت إليه الرئاسة في تحقيق مقول مذهبه، وفي علو السند في الحديث، وفي علم الطب والمعقولات، وكان في أول عمره ينكر على الصوفية، ثم لما اجتمع بسيدنا علي الخواص وغيره أذعن لهم واعتقدهم، وصار بعد ذلك يتأسف على عدم اجتماعه بالقوم من أول عمره، ثم فتح عليه في الطريق، وصار له كشف عظيم قبل موته. توفي في سنة تسع - بتقديم التاء - وأربعين وتسعمائة، وصلي عليه غائبة بدمشق يوم الجمعة يوم عيد الأضحى منها، وعلى الشيخ شمس الدين الضيروطي، والشيخ شمس الدين الصهيوني جمعاً. قال الشعراوي: وهو آخر مشايخ الإسلام من أولاد العرب انقراضاً. قلت: هذا جار على اصطلاحهم في زمان الجراكسة من تقليب كل من ولي قضاء القضاة شيخ الإسلام، والمراد به آخر قضاة القضاة من أبناء العرب موتًا بالقاهرة.

انظر: [الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (1/ 266)].

لهم آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين[1].

ومن أخلاقهم: كثرة تحملهم للأذى في دار إقامتهم، وعدم محبتهم الرحيل منها فرارًا من الأذى حتى كان أبو يزيد البسطامي ﷺ لا يقيم إلا في موضع الإنكار عليه، وقد وقع لسيدي إسماعيل بمنبوبة تجاه ساحل «بيلاق»[2] بمصر المحروسة أن أهل منبوبة[3] أشتد إنكارهم عليه، فطلب الرحيل عنهم فأناخ جمله وصار يضع عليه من أمتعة البيت، ثم قال: يكفينا بحملة، فقال صبي صغير: هناك ياعم الجمل يحمل أكثر من ذلك، فأخذ سيدي إسماعيل من ذلك معنى، وقال: الجمل يحمل، ورد أمتعته التي كان أخذها للدار، فبينما هو واقفٌ إذ سمع قائلاً يقول: يا إسماعيل قد عرفت تأبى الغياض، ولو مست من القتب[4]، واستمر في تحمله، فأيده الله تعالى به ويكلام الصغير.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: يا ليته بقي معنا كان يحصل لنا على يديه الخير.

وكذلك سيدي محمد الشناوي أخرجوه من بلده الحصة إلى محلة روح، فكان بها إلى أن مات.

وكذلك سيدي إبراهيم المتبولي أخرجوه من متبول فدعى على بعضهم بسواد

---

(1) قلت: وأنا الفقير الحقير- محقق هذا الكتاب- قد تعرضت في هذه الأيام بمصر لحملة شنيعة دوت في الآفاق كذبًا وافتراءً، يكمن سرُّها الذي يعرف جمعٌ غفير من الأحباب وطلبة العلم من السادة الصوفية وغيرهم أن هؤلاء حقدة وحسدة وسابي للشيخين ولمعاوية وغيره من الصحابة، وإن شئت ثار جنونهم وأحقادهم بسبب ثلاثة كتب حققتها مؤخرًا: «الميزان الذرية في عقائد الفرقة العلية» للشيخ الشعراني، اتهمونا فيها بالجسمية- والثاني: «النور الأبهر في الدفاع عن الشيخ الأكبر»، جمعته من رسائل أهل العلم المخطوطة وقليل مطبوعة- والتهمة بالحلولية والاتحادية- والثالث: «القول الرضي بتصحيح حديث الترمذي في فضل معاوية الصحابي» مع دراسة حول الحديث، والتهمة: الناصبية. هذا وما كان أمامي سوى لزوم آداب القوم كما أرشدتنا كتب العلامة الشعراني، خاصة في مثل هذه الأمور، وأن تكون الدعوى: حسبنا الله ونعم الوكيل.

(2) هي بولاق.

(3) هي إمبابة.

(4) القتب: هو ما يوضع على ظهر البعير وغيرها من الدواب.

الوجه، وبعضهم بالهلكة، فلم يزل البعض الأول يلدوا أولاد خدودهم سود والبعض الآخر الثاني يلدوا أولادًا تلوط الناس في ذكورهم ويزنون بإناثهم.

ولم يزل الأولياء على ذلك سلفًا وخلفًا تبعًا للأنبياء في ذلك، فما من نبي إلا وأخرج من بلده إلى غيرها ومات بها، لكن جميع ما نقل من ضجر الأولياء من البلايا إنما هو في بداية أمرهم، ثم إذا أرسخوا ثبتوا للأذى، ورأوا الفضل لمن آذاهم عليهم، ثم سألوا الله تعالى أن يؤاخذ من آذاهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، وبعضهم يصير يتبسم كلما آذوه، ويدعو لهم بالمغفرة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: جميع ما بلغكم من السلف من التقلق والرحيل من كثرة الأذى إنما ذلك كان في مبتدأ أمرهم، وأما حال نهايتهم فحكم من يؤذيهم حكم ناموسة نفخت على جبل تريد تزيله بنفخها، انتهى.

وسمعته مرة أخرى يقول: إنما كان خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة تشريعًا لأمته ﷺ، وإلا فهو ﷺ كان يحمل أكثر مما حصل له من الأذى، بل يقدر على أن يحمل أذى الثقلين؛ لأن بداية النبوة أكمل من نهاية الولاية فافهم.

قال: وكذلك أمره ﷺ حسانًا أن يناضل عنه المشركين بالهجاء إنما كان ذلك تشريعًا لأمته لا عدم قدرته على تحمل أذاهم، انتهى.

وسمعته مرة أخرى يقول: على الولي إذا وصل إلى مرتبة القطب أن يتحمل من البلايا ما لا يطيقه الجبال، فإن بلاء أهل الأرض كله ينزل على القطب أولاً، ثم ينتقل إلى الذي يليه في القطبانية، ثم إلى الأوتاد الأربعة، ثم إلى الأبدال، فلا يزال ينتقل من مرتبة إلى أخرى من أصحاب الدوائر والمقامات، ثم إذا فاض شيء بعد ذلك تحمله عباد الله من خلص المؤمنين، فربما وجد أحد ضيقًا في صدره وقد يشعر أحد الناس بالقبض يلزمه، ولا يعرف سبب ذلك فهذا سببه، انتهى.

وقد بينا ذلك في خاتمة كتاب «المنن الكبرى» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تمكينهم أحدًا من الناس يجيب عنهم من رماهم بزور أو بهتان، وهو من أعظم أخلاق الرجال.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين يحلف أصحابه ألا يجيبوا عنه أحدًا رماه ببهتان

من باب الانتصار له، ويقول: إن كنت ولا بدّ مجيبًا فأجب من حيث أن الشارع أمرك بأن ترد عن عرض أخيك المسلم.

قال: وذلك لأني أزعم أني من جملة المحبين لله تعالى، ولا بدّ لكل محب من الامتحان بالبلايا حتى يعرف صدق نفسه من كذبها، فمن راعى محبة ربه فني في جنبها كل شيء يقاسيه.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا بدّ لمن يطلب أن يكون من أهل الله تعالى من وجود حاسد أو عدو يؤذيه، فإن صبر نال مقام الإمامة، وإلا خرج نحاسًا وتأخر قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:24]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:34].

قال: والنكتة في ذلك هو أن الحق تعالى لا يصطفي قط عبدًا من عباده إلى حضرته وهو يطلب له مقامًا عند الخلق، فلذلك يسلط الله على العبد الأذى حتى يصير لا يركن إلى أحد من الخلق، فإذا تحقق بذلك اصطفاه الله تعالى، وما دام يركن إليهم ويحب اعتقاده فيهم فهو بعيد عن مقام الاصطفاء.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رحمه الله - يقول: جرت سنة الله تعالى في أنبيائه وأصفيائه على كثرة الأذى في مبتدأ أمرهم، ثم تكون الدولة لهم آخرًا إن صبروا.

وقد بسطنا الكلام على من أوذي من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في كتاب «المنن» وذكرنا من قتل من الخلفاء والملوك والأمراء فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: كثرة شكرهم لله تعالى كلما نقصهم عدو أو حاسد ورماهم بالبهتان؛ لعلمهم بأنه ما نقصهم إلا بعد أن شهد علو مقامهم عليه، ولولا ذلك ما أشغل نفسه بتنقيصهم؛ لأنهم ناقصون حينئذ في ذهنه، ثم غالب ما ينقص به الحاسد من فاقه في العلم والعمل والجاه مثلاً أمور باطنية، ككبر وعجب وحسد وحقد ومكر ومحبة رئاسة ونحو ذلك؛ لأن المعاصي الظاهرة لا تكاد تقع من العلماء والمشايخ إلا نادرًا، فلو أن الحاسد رماهم بترك الصلاة أو بشرب الخمر؛ لكذبه الناس وردوا عنهم أشد الرد، فلما عجز عن إيصال الأذى لهم يرميهم بالمعاصي الظاهرة عدل إلى رميهم

بالمعاصي الباطنة لعلها تقبل في حقهم، ثم لا يخفى أن تسليط الناس على الأولياء بالأذى إنما هو تكفير لذنوبهم، أو اختبار لهم، أو رفع لدرجاتهم لا رابع لهذه الأمور، وأما تسليط الخلق على الأنبياء فإنما هو رفع درجات لهم وليقتدي بهم الناس في الصبر إذ ليس لهم ذنوب تكفر كما لنا ولا يحتاجون إلى الاختبار لعصمتهم، فافهم.

وكان الإمام زين العابدين ﷺ[1] إذا أنقصه أحد يقول: اللهم إن كان صادقًا فأغفر لي، وإن كان كاذبًا، فأغفر له.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: اللهم أكثر حسادي وأعدائي، فقلت له: لماذا؟ فقال: لأنهم إذا كثروا لم يكن لذلك معنى إلا كنت في خير ولو أنني كنت في نقمه ما حسدوني، ولكن ليس معنى ذلك عدم الإنكار على الحاسد، بل لا بدّ من الإنكار عليه وبيان حكم الشرع فيه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: رجوعهم إلى الله تعالى بالاستغفار كلما أذاهم أحد والوقوف بين يديه سبحانه وتعالى؛ إذ لا يصح تسليط الخلق على العبد ما دام يشهد أنه بين يدي ربه أبدًا، بل هو في حماية الله تعالى من الجن والإنس وغيرهم، وإنما يقع التسليط إذا غاب عن هذا المشهد، وقد جربنا فما وجدنا شيئًا أسرع لتسكين العدو من الاستطالة بالله تعالى وكثرة الاستغفار، وقد غاب عن هذا المشهد كثير من الناس فدام الأذى عليهم فلا يزال أحدهم يرى نفسه مظلومًا، ولا يتذكر له ذنبًا.

وسمعت سيدي محمد بن عنان - رحمه الله - يقول: إذا اشتغل الناس بك فاشتغل أنت بربك فإن بيده زمام جميع الأمور، ولا تشتغل بمقابلتهم تتعب، ثم لا يزداد الأمر شده.

---

(1) هو سيدنا علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم-وهو علي الأصغر وأما الأكبر فقتل مع الحسين رضي الله عنهم أجمعين، وسيأتي في ترجمة محمد الباقر أن زين العابدين أو الحسينيين كلهم، وكان رضي الله عنه يقول: إذا نصح العبد لله تعالى في سره، أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله، فتشاغل بذنوبه عن معائب الناس.

وكان يقول: كانت المصاحف لا تباع إنما يأتي الرجل بورقه عند المنبر، فيقوم الرجل المحتسب، فيكتب له من أول البقرة ثم يجيء غيره حتى يتم المصحف. [الطبقات الكبرى (1/ 28)].

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إذا بالغ أحد في إيذائك فاسكت فإنه يرجع عنك ولو على طول ويخجل منك، بخلاف ما إذا قابلته، فإن [السفاهة منهم] تعظم بذلك.

وقد أوحى الله تعالى إلى السيد داود ﷺ: يا داود إن طلبت نصرتي لك فلا تبغ عليّ من بغى عليك فإني لا أنتصر إلا لمن رضى بعلمي فيه، ولا تستبطء إجابة دعائك في حق من أذاك فإني إنما أفعل ذلك؛ لأعاملك به إذا ظلمت شخصًا ودعي عليك، فإن طلبت سرعة إجابة دعائك على خصمك فاستعد لسرعة إجابة دعاء خصمك عليك، انتهى.

وفي البخاري أن شخصًا من بني إسرائيل سرق دجاجة، فلما ذبحها ونتف ريشها نبت الريش في جسده وحاول إزالته بكل حيلة، فلما دعت عليه صاحبة الدجاجة سقط الريش، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا آذاهم إنسان ولم يستطيعوا دفع أذاه أن يطلبوا النصرة لأنفسهم.

وسمعت سيد علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: لا يقدح في مقام الكمل انتصارهم بأحد من الخلق؛ لأنهم يشهدون انتصارهم بالخلق من جملة نصرة الله لهم من حيث أن له الفعل بالآلة وبلا آلة قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة:14]، وقال تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 17] انتهى.

ويؤيده انتصار الأنبياء بأصحابهم كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الصف:14] أي: مع الله، فاستعمل الواسطة من غير وقوف معها حتى لا يعطل استعمالها وهو معتمد على الله تعالى لا على الخلق، فعلم أنه لا يقدح في كمال الولي؛ لاستناده إلى الخلق مع غفلته عن كون نصرتهم له من الحق، وسيأتي انتصار سيدنا رسول الله ﷺ بالأنصار وبحسان ابن ثابت قريبًا إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة رحمتهم ومداواتهم لمن يرونه مقراضًا في الناس

فيطعمونه أحسن ما عندهم، ويجلسونه على أوطئ الفرش، ويحلفون عليه أن يأكل أو يجلس كل ذلك حتى لا يقع في حقهم فيأثم، وخوفًا على أنفسهم أن العناية تتخلف عن أحدهم فيصير الآخر يقع في عرض من يقع في عرضه وهذا الخلق قل من يتنبه له من الناس، وإن وقع أنهم أكرموا المقراض، فإنما ذلك خوفًا أن يقع في عرضهم بين الناس فينقص مقام أحدهم لا خوفًا على المقراض من وقوعه في الإثم.

وقد وقع لي مع شخص من أهل الجدال أنه دخل عليّ وأنا مريض فلم أقل له أجلس على الطراحة، فمزق عرضي وصار يقول: عزم عليّ عبد الوهاب عزومة محلولة مع أني كنت في مرض شديد ذلك اليوم وكنت لا أقدر على فعل شيء لدرجة الفطر في رمضان، فكن يا أخي على حذر فإن عندهم لسانًا يروجوا به الباطل ويطلبون من الإكرام ما ليس عند الأمراء والأكابر.

وقد جاءني قاضي العسكر ذات يوم وكان في أدب جم فطلبت منه الجلوس على الفرش فأبى وجلس على الحصير، فانظر الفرق بين هؤلاء وأهل الدعوى من التواضع، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة محبتهم وشفقتهم على كل من أساء إليهم أكثر محبتهم وشفقتهم على من أحسن إليهم، فإن المحب لمن أحسن إليه إنما ينظر إليه بكثرة نفعه له فلا شك ولا ريب أن من آذاك فقد تكرم عليك في الآخرة بدينه وبصالح أعماله وذلك أعظم من حطام الدنيا جميعه؛ لكونه مكنك بأخذ حسناته يوم القيامة، أو من وضع سيئاتك فوق ظهره إن فنيت حسناته كما ورد وهذا خلق غريب قل من يتخلق به من الأقران، وقد تخلقت بذلك ولله الحمد فأنا أجد في نفسي الآن كثرة المحبة والحنو على كل من آذاني أكثر ممن يحبني ويحسن إليّ، وصاحب هذا المشهد لا يرى أحدًا من الخلق مسيئًا إليه أبدًا، إنما يراهم كلهم محسنين إليه، فمن لم يحسن إليه بالإحسان العادي وبالغ في إيذائه فهو محسن إليه بدينه ولا يخلو أحد من هذه الثلاثة أمور.

وقد كان سيدي علي الخواص إذا رأى أحدًا يقرض في عرض الناس يقول له: يا ولدي أكثر من الأعمال الصالحة؛ لتعطي منها أصحاب الحقوق يوم القيامة.

وسمعته يقول لمقراض: لو علمت يا ولدي تحكم المظلومين في أعمال الظالمين ما نمت الليل وكنت تصوم النهار، وهيهات أن يتحصل من أعمالك شيء

يكفي الناس الذين وقعت في أعراضهم[1].

وسمعته مرة أخرى يقول: لا يمكن أن يفرح بكثرة إيذاء الخلق له إلا من لم يطلب له مقامًا في الدنيا؛ لزهده فيها وفي أهلها، وإلا فمن لازمه غالبًا التكدر فإنه يكون بعيدًا عن أن يفرح به، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: النظر بالرحمة على من يؤذيهم، وقد بلغنا أن من أخلاق العارفين أنهم ينظرون بعين الرحمة والإحسان لمن أذاهم قبل من أحسن إليهم وذلك؛ ليزيلوا من نفسه كل حقد وحسد حين يرى مقامهم عند الله، وهذا من أعظم فتوة تكون لهم في الآخرة، فإن المحسن يشفع فيه إحسانه، والمسيء ربما عاقبه الله تعالى بإساءته.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين يقابل من آذاه باللسان فقط دون القلب بقصد تخفيف العقوبة عن عدوه في الآخرة لعلمه بأنه إذا لم يقابله كان خصمه الله، ولا يخفى شدة عذاب من خاصمهم به وكل هذا من جملة تخلق القوم بأخلاق الله تعالى صورة، فإنه تعالى ما ذكر أنه استوى على العرش إلا باسم الرحمن فعمت رحمته جميع من حواه العرش إما رحمة إيجاد، وإما رحمة إمداد، وإما رحمة إمهال، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إتعاب سرهم في تدبير حيلة يقابلون بها من آذاهم بقول أو فعل، فإن كل كلام معنى مضمون وربما أنساه الله تعالى له وقت الحاجة؛ عقوبة له لتدبيره مع ربه تعالى، وهذا خلق غريب وغالب الناس إذا قام عليه عدو أو حاسد يصير يسهر يهد ويبني في الحيل طول ليله، وقد حذرنا الله تعالى تحذيرًا مطلقًا من المكر

---

(1) قال الشيخ في الكوكب: ومن أخلاقهم: احتمالهم الأذى في حق أنفسهم، دون احتمالهم ذلك في حق غيرهم من المسلمين، فإذا آذاهم شخصٌ وبالغ في إيذائهم احتملوه، ولم يصالحوه إلا لغرضٍ صحيحٍ شرعيٍّ، كأن يريد حمايته من الوقوع في الإثم، أو عدم تأذي إخوانك من الأذى، فإن من يحبكَ لا يكاد يحتمل ذمَّك ولا تنقيصك بين الناس، فمن ابتلي بشخصٍ ينقصه في المجالس، ويتأذى أصحابه بذلك فليسعى في مصالحته، دفع أذى عن المحسن له لا يضره لنفسه. ثم إذا بلغ مبلغ الرجال فحينئذٍ يصير يرد عن نفسه من حيث أنها أمة الله، وهي وديعة له عنده، ولا حرج عليه في ذلك، بل هو مأمورٌ به، كما أوضحنا ذلك في كتاب «الأخلاق الكبرى». فاعرض يا أخي ما قررناه في هذا الخلق على مريدي عصرك تعرف حالهم، ولا تنس نفسك، والحمد لله رب العالمين.

بأحد من المسلمين، أو من فتنتنا لأحد منهم سوءًا بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [النحل:45].

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: من أقبح ما يقع فيه العالم أو شيخ الزاوية مقابلته بالأذى لمن يؤذيه، فإنه مثله في الأذى، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى:40] فسمى سيئة المجازاة سيئة كذلك وأكدها بمثلها؛ ليتنبه العارف على ترك المقابلة ولا يفعل فعل أهل السوء، انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» في الخاتمة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا قام عليهم قائم يؤذيهم أن ينظروا في السبب الذي حرك عليهم ذلك العدو؛ لأن يؤذيهم، فإن لم يعرفوا السبب في ذلك استغفروا الله تعالى من كل ذنب يعلمه سبحانه، وسألوا ربهم أن يدبرهم بأحسن التدبير، وأن يسامح من قام عليهم ولو بغير حق.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: ما قام عليَّ أحد قط قائم إلا بذنب أحدثه ولو غفلة، وإن كشف الله عن أحدهم الحجاب وجد الخلق الذي يؤذونه في الدنيا إنما آذوه جزاء على أعماله كالحكم في زبانية جهنم فإنهم على صورتهم، فكما لا يسمى أحد من الزبانية ظلمة يوم القيامة كذلك أهل الله تعالى لا يسمون أحدًا ممن يؤذيهم في دار الدنيا ظالمًا أبدًا يرونه كالمجبور على ما يفعله بهم، لكن لا يخفى أنه لا بدّ مع هذا المشهد من نسبة الظلم إلى من آذاه في دار الدنيا بغير حق لأجل نسبة الفعل إليه بخلاف الزبانية؛ لأنهم ليسوا في دار تكليف هناك فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة محبتهم وتعظيمهم للعالم حتى لو أنكر عليهم أمورًا في الطريق؛ لأن العالم ما أنكر إلا لأنه رأى أبناء هذا الطريق مخالفون لظاهر الكتاب والسنة، فالفقير الذي يحذر أن يكون في أمور طريقه فعل ما يخالف ظاهر الشرع والكتاب والسنة، أما نظر في طريقه ولم يظهر منه شيء يخالف الكتاب والسنة وظاهر الشرع فليحذر أن يخدش حياء هذا العالم.

ومن تأمل بعين العناية لوجد جنود الله تعالى أرسلهم إليه يحذرونه لعله يكون سببًا في مخالفة الكتاب والسنة.

فقد كان الإمام الشافعي ﷺ يقول: ما أمرني فقيه بعمل إلا وضعته في عيني وشكرت فضله، ولو لم أكن وقعت في شيء، فالفقيه مجتهد في الفهم، فلا ينكر إلا ما لم يقبله فهمه، فما أنكر إلا على قدر ما أدى إليه اجتهاده من أن ذلك الأمر الذي أنكره خارج عن الشرع.

فيا سعادة من كان مقيمًا في مثل جامع الأزهر وجامع الغمري، فإن الفقهاء من المجاورين فيهما لا يكادون يغادرون صغيرة ولا كبيرة عملها إلا أحصوها عليه، وناقشوه فيها فلا يتكدر من مثل ذلك إلا المرائي الأحمق، ثم إن هذا الخلق لا يقدر على التخلق به إلا من تخلص من الرعونات النفسية، ورزقه الله تعالى الإخلاص الكامل حتى صار لا يطلب له مقامًا عند أحد من الخلق.

وفي كلام سيد أحمد الرفاعي ﷺ يقول: ما وقف أحد مع الخلق وراعاهم على أعماله إلا سقط من عين رعاية الله تعالى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من علامة المخلص لله تعالى أن ينشرح لمن ينكر عليه؛ لأنه نبهه بذلك الأمر على أن يأخذ حذره عن الوقوع فيه، ومن شأن العاقل أن يهرب من فعل كل شيء أنكروه عليه، فالواجب على من نبهه أخوه على نقص أن يشكر فضله على ذلك، ومتى تكدر من نصحه فهو من عدم الإخلاص، فإن المخلص لم يزل يخاف من أن يكتب مع الأئمة المسلمين؛ لعدم عصمته فربما تمادى على فعل يخالف ظاهر الشريعة فتبعه على ذلك جماعة، فإذا وعظهم في ذلك عالم أنكروا عليه واعتقدوا ذلك.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: على كل من تصدر للمشيخة بين المريدين ووضع بين يديه أمر الطريق أن يحذر من مخالفة الشريعة، وإن وقع في مخالفتها فيجب عليه إذا نصحه عالم أن يعلم الناس بذلك، ولا يصر على المخالفة، فإن ذلك يؤدي إلى الخسران المبين وضياع الطريق فيرتع فيه الشيطان.

وقد حكى القشيري - رحمه الله تعالى - يقول: إن أبا عثمان المغربي كان يعتقد

شيئًا من الجهة فلما تاب نادى في أصحابه قد أسلمت إسلامًا جديدًا فرجع أصحابه كلهم عن ذلك، انتهى.

فأجب يا أخي علماء الشريعة، وجاورهم وخالطهم تفز بمعرفة الطريق المستقيم، وأما قول سفيان الثوري، وذي النون المصري، والفضيل بن عياض: إياكم ومخالطة الفقهاء، فإنهم إن أحبوكم مدحوكم فغشوكم، وإن بغضوكم جرحوكم بما ليس فيكم، وقبل ذلك منهم فمحمول على من لم يكن مشهده ما ذكرناه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مبادرتهم للشكر إذا نقّصهم منقّص عند الأكابر من الملوك والأمراء كما يشكرون الله تعالى إذا كبّروهم عند الأكابر ومدحوهم، بل أعظم؛ لأن السلامة مقدمة على الغنيمة، واللأمة هي نفرة الأمراء من الفقير، فإن كثرة محبته لهم تورثه الركون إليهم، ولا يسلم أحدهم من الظلم غالبًا، فيصير يركن بقلبه إلى الذين ظلموا، ويخالف قول ربه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: 113].

وقد تخلقت بهذا الخلق ولله الحمد، فإني لما طلعت إلى الباشا على الوزير في شفاعة قام لي وأجلسني على كرسيه، وكنت قد خلعت نعلي خارج فرشه، فأمر بإحضاره وأخذه في يده، فألبسه لي في رجلي بيده، وسمع بذلك الحسدة فتقطعت قلوبهم من الغيظ، ثم شرعوا في حيلة تنفره مني فكتبوا فيه أني شيطان نصاب، ومعي أسماء أقرؤها على الولاة فيخضعون لي دون إرادة، وكان الباشا يقرأ القصة تلك وهو ساكت فلما انتهى من قراءته أخذوا يذمون فيّ، ويقدمون له أكاذيب أخرى حتى ندم على ما كان فعله معي من التعظيم والإكرام ولم يعرف حالي، فبلغني ذلك فخررت لله ساجدًا على تلك النعمة حيث لم يجعلني أركن إلى الأكابر أن أنشرح صدري فعلمت أني تخلقت بهذا الخلق يقينًا، ولو أني لم ينشرح صدري لعرفت أني غير متخلق بهذا الخلق ولتكدرت ضرورة، ثم إن الباشا أرسل إلى السلام والقصة وقال: إني أعلم أن كل صاحب نعمة محسود، وإن العالم له عدو والشيخ له عدو، والباشا مثلي له عدو، وقول العدو لا يسمع في عدوه، انتهى.

فالعاقل من يجد المنقص له عند الأمر أريح لسره عندهم ممن يكبره عندهم، فالواجب عدم التكدر منه لما حصل لنا على يده من الراحة وإن لم يقصد هو ذلك،

وقد مر بسط ذلك مرارًا في هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين

ومن أخلاقهم: كثرة صبرهم على أذى جارهم لاسيما تخاصم النساء مع بعضهن، فإن الأذى يطول لكثرة منهن بالباطل من غير تحقق ولا تحرير، وربما سمع كل زوج من زوجته فصدقها، وكذب خصمه، فتنتقل العداوة بين الرجال، ويصل الأمر إلى الشكوى إلى الحكام.

فاعلم يا أخي ذلك واصبر على أذى الجار وكل من أذاك بشيء، وقل الحمد لله الذي لم يكن ذلك أشد من هذا الأذى، وإياك أن تشتكي الزوجة إلى زوجها، أو الأخت إلى أختها أو أخيها، أو الابنة إلى أبيها وبالعكس إلا إن كنت تعلم خروج من اشتكيت إليه عن حكم الطبع، وإلا فمن لازمه المجاملة عن أخيه أو زوجته، أو من يلوذ به لميل كل واحد منهما إلى صاحبه بالطبع لا بحكم محبة الإيمان، والطبع الروحاني لاسيما نساء المجاورين في الزوايا إذا كان الأزواج في جمع واحد فليس شيء أنفع لهم من الصبر والمخالطة لبعضهم بعضًا بجميع صور المحبة، والضبط على كل ما يسمع وتبليغه لكل أذان، فليس كل ما يسمع يقال فأعلم ذلك أيها الفقير واعمل به، والحمد لله رب العالمين[1].

ومن أخلاقهم: صحبة أبناء الدنيا لغير غرض دنيوي فليزهد الفقير في الدنيا؛ ليصير أهلها لغير غرض دنيوي، وإلا فمن لازمه محبة من يجلب أبناء الدنيا إليه، وكراهة من ينفرهم عنه لاسيما في النصف الثاني من القرن العاشر الذي تكالبت

---

(1) قال في الكوكب الشاهق: ومن أخلاقهم: محبتهم لمجاورة الجار السوء، وذلك ليتعلموا بعشرتهم الحلم عليهم إذا خالفوا أغراضهم، ويحوزوا الأجر بالصبر عليهم، ويحفظوا غيرهم من الوقوع في الإثم بسببهم، ممن لا صبر عنده ولا حلم، وهذا ما درج عليه المريدون الصادقون خلاف ما عليه الكاذبون. وكان مالك بن ديناريشتري الرقيق الذي يخالف سيده، والدابة الشموص، ويتزوج المرأة السوء، ويقول: إنهم يذكرونني بحلم الله تعالى عليّ، فأحلم عليهم تخلقًا بأخلاق الله تعالى، فإنه يحلم عليّ ليلاً ونهارًا وأنا سابحٌ في ميدان المخالفات والغفلات، ولو أخذني لأهلكني ثم لم يظلمني شيئًا، وكان إذا بالغ عبده في مخالفة أغراضه يقول: ما أشبهم بمالك مع مولاه جلّ وعلا.

فاعلم ذلك، واعرض هذا الخلق على مريدي زمانك تعرف حالهم، ولا تنسَ نفسك، والحمد لله رب العالمين.

النفوس فيه على الدنيا، وصار كل من بيده شيء من الدنيا عدوًا لكل من ليس معه شيء منها إن لم يقسمه بينه، وبينه فلا من معه المال يقسم ما معه، ولا السائل يرجع عنه بالأذى.

وقد كان السلف الصالح إذا طلب منهم إنسان الصحبة يقولون له: هل تطيب نفسك بقسمتنا لك في مالك؟ فإن قال: نعم، صاحبوه وإن قال: لا، قالوا له: اذهب بسلام.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن الكبرى» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: محبة كل من طلبوه لصحبتهم فأبى؛ لأنه أعتقهم من تعب الصحبة وحقوقها، فإن من حقها ألا يميز نفسه على صاحبه في أكل ولا شرب ولا لبس، ولا محبة، وهذا يكاد يكون مفقودًا لاسيما في هذا الزمان.

ومن شروط الصحبة: أن يتفقد أحدهما عيال أخيه إذا سافر بالأكل والشرب والنفقة، ولا يحوجهم إلى القرض من أحد.

ومن شروطها: أن يقاسمه في حسناته كما سيأتي، فعلم أن كل من تكدر ممن لم يصحبه في هذا الزمان فهو من الجاهلين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كثرة تحملهم هموم إخوانهم، فتجد الفقير امتنع من ابتداء أحد بهدية خوفًا عليه من تهمة أنه ينظر إلى الهدية بعين الاعتبار، ويمتنعون من قبول هدية أحد من إخوانهم خوفًا من تهمة أنهم ينظرون إلى ما في أيدي الناس، فهم يتحملون هموم المسلمين من غير أن يكون عندهم رغبة لأن يكون المتحملين عنه ذو أيادي عليهم.

ووالله إني لأدخل في هم أحد العباد فلا أتركه حتى يزول، وأشعر بأن جسمي غلبه، وكثيرًا ما يجتمع عليَّ هموم كثيرة، فأقول: فلا تبال يا أخي ما أقاسيه، فإني أشارك الكمل في همومهم. ثم لا يخفى عليك يا أخي أن مقام تحمل هموم الناس هو لكل أحد، وإنما هو خاص بأفراد منهم كما مرت الإشارة إليه، وصاحب هذا المقام لا آخذ لقمة منه قلبًا ولا جسمه لا يكاد يأكل ولا يشرب، ولا ينام ولا يجامع، ولا يضحك ولا يدخل حمامًا، ولا يلبس ثوبًا نظيفًا ولا مبخرًا حتى يزول هم أصحابه، فحكمه حكم

من مات له ولد عزيز أو صديق حميم، فإنه لا يكاد يتفرغ لشيء مما ذكرناه، وربما زال هم فاستقبله هموم أخر وهكذا كما بسطنا الكلام على ذلك في خاتمة كتاب «المنن» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: سرورهم بكثرة من يعاتبهم من حيث تحكيم الله لهم في حسناته يوم القيامة لا من حيث وقوعه في تلك الغيبة، فإنه يجب على العارف أن يغتم لذلك من حيث أنه شيء يكرهه الله ﷻ.

وكان سيدي أفضل الدين - رحمه الله - يقول: كلما كثرت فلاحو الأمير كلما ازداد سعة في الرزق، وكذلك من يستغيب الفقير هو فلاحه، فكما يزن الفلاح المشهور الخراج من المال كذلك يزن المستغيب للفقير خراجه من دينه وأعماله الصالحة يوم القيامة، فاللائق بمن كثرت غيبة الناس فيه الفرح لا الغم إن كان يدعي مقام الإيمان والتصديق بأحوال يوم القيامة حتى كأنه رأى عين، فإن من لازم من كان حاله عدم التصديق الغم لا الفرح فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تصديقهم في الناس ما أشاعه عنهم البعض الآخر، وعدم سماعهم شيئًا من الإشاعة من غير ثبوت، فإن غالب الناس اليوم يكذبون على بعضهم البعض، ويرمون بعضهم بأبشع التهم، فهذا يجب عدم قبوله في حق الناس وعدم السكوت عليه، بل يجب النصح.

وقد كذب بعضهم في حق بعض العلماء حتى أخرجه من الجامع الأزهر، وأثار عليه ثائرة الناس والعلماء، فسألت الذين أشاعوا عنه هذه الإشاعة إن كان عندهم دليل أو بينة على ثبوتها، فما حاروا جوابًا، وسألت الناس أكُلُّ شيء أشيع يكون صحيحًا؟! فقالوا: لا، فقلت: وكذلك ينبغي الحكم في حق غيرك، فليس كل شيء أشاعه الناس عن هذا الرجل يكون صحيحًا، فسكتوا ولم يجدوا جوابًا، وظفرني الله على من أشاع بالحجة فرجع.

فإن علمت يا أخي ممن يقع في أعراض الناس الرجوع إليك بإقامة الحجة، فأقم عليه الحجة وإلا ففي المسألة تفصيل لا يخفى على من نوّر الله تعالى بصيرته.

وقد وقع لي أنا هذه الإشاعة مرارًا، وأنا أعلم أني برئ مما أضافوه إليَّ يقينًا، ولولا ما عندي من الرحمة لمن وقع في عرضي بغير حق ما كنت أبرأت ذمته، ولا

رضيت بجميع أعماله الصالحة في غيبة واحدة.

فاحفظ يا أخي لسانك من الوقوع في أعراض الناس مطلقًا إلا بطريقه الشرعي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تبريئهم مما يضيفه الحسدة والأعداء إليهم من سائر النقائص إلا أن يكون فيما أضافوه إليهم حد من حدود الله تعالى، فلهم التبرئ منه دون الاعتراف به؛ لئلا يظلم أحدهم نفسه بإقامة الحد عليها من غير موجب فافهم.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - لا يتكدر ممن نقصه عند أحد من الأكابر ويقول: لا يخلو ما نقصني به من أن أكون وقعت فيه أم لا فإن كنت وقعت فيه، فالغيظ منه حمق، وإن لم أكن وقعت فيه فقد قبحه في عيني وحذرني منه، فإن من شأن البشر أن يظن كل واحد أن النقصان عنه حاجبًا ويعد عن الوقوع فيه.

والفقراء لا يغضبون مطلقًا، فإن الله تعالى مدح الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وهم أحق من يتخلق بذلك، وقد رأيت في واقعة لوحًا مكتوبًا فيه جميع ما احتوت عليه طينة البشرية، ورأيت جميع الصفات الحسنة والقبيحة تغرب وتشرق في كل إنسان من الأمة، وما خرج عن حكم ذلك إلا أهل العصمة.

وقد ذكرت في خاتمة «المنن الكبرى» جميع الكلام الذي كان مكتوبًا في ذلك اللوح فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم شكواهم ما نزل بهم لأحد من الخلق، وأما قوله ﷺ: «**من يعذرني في رجل يبلغني أذاه في أهلي**»[1] فهو تشريع لضعفاء الأمة، فإياك أن تعتمد على نصرة أحد من الخلق لك لاسيما في هذا الزمان الذي اشتغل فيه كل إنسان بنفسه وبتهيئة أمر معاشه، فلا يكاد يتفرغ لتحمل هموم غيره فيه، وغاية أمر غالب الناس أن يقول لمن شكا إليه همًا من دين أو موت ولد أو عزل من وظيفة مثلاً أن يقول له: لا حول ولا قوة إلا بالله الله الله، فيتوجع له باللسان فقط أو بالقلب ساعة ثم ينساه، وما هكذا كان الفقراء الذين أدركناهم إنما كان أحدهم يمكث الأيام والليالي متوجهًا في إزالة ذلك الكرب الذي نزل بأخيهم لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يضحك إلا

---

(1) رواه الإمام أحمد (7357 و7905) وأبو داود (3537) والترمذي (3945 و3946) بنحوه.

ضرورة حتى تقتضي حاجة أخيه.

ومن أخلاقهم: العفو والصفح عن جميع من جنى عليهم من هذه الأمة المحمدية في مال أو بدن أو عرض، ولا يطالبون أحدًا منهم بحق في الدارين؛ إكرامًا لمن هم عبيده سبحانه تعالى، ثم لمن هم من أمته ﷺ لا لعلة أخرى من طلب ثواب أو غيره؛ لأن همتهم قد ارتفعت عن مثل ذلك، وأهل هذا الخلق قد صاروا قليلاً في هذا الزمان، ولم أرَ له فاعلاً بعد أخي الشيخ أفضل الدين غيري.

ولما دسّ الحسدة في كتبي العقائد الزائفة، وأشاعوها عني فلا يعلم عدد من استغابني في مصر وقراها إلا الله تعالى فسامحت الكل، وقلت: اللهم اغفر لهم ما جنوه، وإن لم أكن أعلمهم فأنت يارب تعلمهم، فقال بعض الإخوان: كنت صبرت عن مسامحتهم حتى تنظر حالك في الآخرة، فربما تكون محتاجًا إلى حسنات من اغتابك، فقلت: لو أتيت القيامة خاليًا من سائر الحسنات ما عدا الشهادتين لا أرجع عما سامحت الخلق به.

فإني معتمد على فضل الله تعالى لا على الأعمال، وأستحيي من الله تعالى أن أشاحح عبدًا من عبيده، وأستحيي من سيدنا رسول الله ﷺ أن أشاحح أحدًا من أمته فيصير يشفع يوم القيامة ويحل المربوط وأنا أربطه، فالحمد لله رب العالمين، وقد بسطنا الكلام على ذلك في خاتمة كتاب «المنن» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تنقيص أحد من الناس في غيبتهم بعد موتهم كما يقع من بعض الحسدة فيتهمون المتوفى بأنه استراحت البلاد والعباد منه، ويذكرون فيه من النقائص ما يمنع مدح الناس عليه من العفو والصفح والحلم.

ومما فعله أحد الشخصين اللذين دسا في كتبي ما دسا من العقائد الزائفة، والحط على الأئمة الأربعة ضد ما كنت فعلته في كتبي، فأشاع موتي في جامع الأزهر، وكتب بذلك الإسكندرية والمحلة ودمياط، فأرسلت من طريق بعيدة أنظر ما سبب ذلك، فسمع شيخًا من طلبته يقول: إنما فعل شيخنا لك لينظر ماذا يقول الناس في فلان بعد موته من ذكره بالنقائص؟ انتهى.

فالحمد لله تعالى ما ذكر الناس عني إلا خيرًا، فلا تسل يا أخي ما حصل لذلك الحاسد من الغم، وقد فعلوا مثل ذلك مع برهان الدين البقاعي فأنشد - وهو لسان

حالي أيضًا:

ألا رُبَّ شخصٍ قد غدا لي حاسدًا ... يرجِّي مماتي وهو مثلي فاني
ويا ليت شعري إن أمت ما يناله؟ ... وماذا عليه لو أُطيلَ زماني؟
نعم إنني عما قريب لميت ... ومن ذا الذي يبقى على الحدثان؟
كأنك بي أنعَى لديك وعندما ... سرى فيه صمت لها الأذنان
فلا يبقى حينئذٍ لديك ولا قلى ... فتنطق في مدحي بأي معان

أي: لأن حجاب المعاصرة وقيام الجاه للمحسود مانع للحاسد من أن يذكر عدوه بخير، فإذا مات زال ذلك الأمر، بل بعضهم تكثر الحسدة فيه الغيبة بعد مماته أيضًا، وذلك من جملة عناية الله تعالى به؛ لأنه إما يرفع درجاته بذلك، وإما يكفر عنه سيئاته، وإما ليقضي على ذنوبه السالفة فيخرج من قبره وليس عليه ذنب، ولا يخرج بذنوب أمثال الجبال.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يحث أصحابه على كثرة الأعمال الصالحة، ويقول لهم: اعملوا صالحًا وأكثروا، وليصير أحدكم يعطي منه أصحاب الحقوق التي يطالب بها يوم القيامة، ولعل بعض الناس لا يرضيه جميع أعمالكم في غيبة واحدة وقعتم في حقه بها، انتهى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: بعد مسامحتهم الخلق الذين أذوهم في دار الدنيا أن يتوجهوا بقلوبهم إلى الله تعالى ويشفعون فيهم عنده تعالى لاحتمال ألا يكون الله تعالى قَبِل مسامحتهم لمن اغتابهم مثلاً نصره لأوليائه الذين أكرموا عباده لأجله، فلا يزال أحدهم يشفع فيمن آذاه حتى يلقى الله تعالى في قلبه أنه قَبِل شفاعته في ذلك الشخص.

ولما سامحت أهل جامع الأزهر الذين وقعوا في غيبتي لما دس الحسدة في كتبي ما دسوا رأى الشيخ محمد التلاوي المالكي أنني راكب على فرس عال بسرج مذهب ولجام مكلل بالجواهر، وأهل جامع الأزهر كلهم يمشون خلفي، ورأى العالم الذي كان دس في الكتب ما دس ماسك اللجام يقودني، فقال الشيخ محمد: من هذا؟ فقالوا له: هذا فلان راكب يشفع عند الله تعالى فيمن وقع في عرضه، انتهى. فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: صحة مسامحتهم لمن اغتابهم، وصدق الذي اغتاب فيهم من المتهورين والمستهزئين، فإن بعض الناس يسمعون الغيبة ويضحكون ويصدقون من افترى على الفقير ويضحكهم عليه في مجلسهم كما هو شاهد، ثم بعد التصديق يمضون يحكون لكل من رأوه حاضرًا معهم في المجالس ذلك الأمر، يقول بعضهم: إنه لا يستطيع أن يداري ذنوبه، ويقول بعضهم: والله ما كنا نظن أن فلانًا يقع في هذه المعصية، ويمضي يحكي ذلك الزور كأنه ثبت عند حاكم شرعي، ثم يجلس أحدهم يحكي أنه متبرئ منه وأنه كان يشك فيه.

وإنما سامح القوم من اغتابهم، ومن سمع غيبة الناس فيه من حيث كونهم تعدوا حدود الله تعالى، واستحقوا العقوبة بسببهم، فلا يتمنى الفقراء أن أحدًا يؤاخذ في الدنيا والآخرة بسببهم لعلو هممهم وكثرة فتوتهم.

وهذا الخلق قد صار غريبًا في هذا الزمان، بل بعضهم لا يقدر ينظر من استغابه، ولا في وجه من صدقه، ويود له دخول النار، وذلك خلاف ما جبل عليه الصالحون، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم جوابهم عن أنفسهم حياء من الله تعالى، فإنهم بين يديه على الدوام شعروا أو لم يشعروا، فإن لم يكن ذلك كشفًا كان إيمانًا وفي الحديث أن شخصًا نال من عرض أبي بكر الصديق ﷺ بحضرة رسول الله ﷺ وأبو بكر ساكت، فلما أطال ذلك الشخص الكلام في عرض أبي بكر أجاب أبو بكر عن نفسه، فنهض النبي ﷺ قائمًا، وقال لأبي بكر: **«كان ملك يجيب عنك وأنت ساكت، فلما أجبت عن نفسك ذهب الملك وجاء الشيطان، فلم أكن لأجلس في مكان فيه الشيطان»**[1] فعلم أن من شتمه إنسان بين يدي حاكم عادل فلا ينبغي له الجواب عن نفسه في نقصه، فهم يكرهون الجواب عن أنفسهم بين يديه تعالى إلا إن ترتب على ذلك مصلحة شرعية، ولا يقدر على التخلق بهذا الخلق إلا من دامت مراقبته لله تعالى، ولم يطلب مقامًا عند غيره من الخلق، وإلا فمن لازمه غالبًا الجواب عن نفسه إذا أنقصه أحد؛ خوفًا أن يسقط مقامه عندهم أو غير ذلك.

---

(1) رواه أحمد في «المسند» (436/2) بنحوه، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (190/8) بنحوه.

وعلم أن من شأنهم أيضًا ألا يمكنوا أحدًا يجيب عنهم لما في ذلك من تحمل منته عليهم، وقد يخطئ في الجواب عنه، وربما أجاب أحدهم عنه فقام عليه الحسدة فأقنعوه بضد إجابته ونقلوا العداوة إليه أيضًا، فيصير من أعداء الفقير، وينضم إليهم في عداوتهم، ولذلك فإن عدم الجواب أولى كما بسطنا الكلام على ذلك في خاتمة كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهودهم أن كل ما يؤذيهم به الناس في أعراضهم من جملة المصالح لهم في الدنيا والآخرة، وربما كان عند أحدهم عجب بعلمه أو كبر على أحد من إخوانه، فيذكره ذلك التنقيص بزلاته السابقة، وذلك أنفع له ممن يوجه له أحواله ويذكره بالكمالات، فإنه يزيده عجبًا وكبر فيهلك بذلك من حيث لا يشعر.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رحمه الله - يقول: عدو يطلعك على عيبك بتنقيصه لك خير لك من صديق يمدحك ويستر عنك عيوبك.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: إياك والميل والمحبة إلا لمن لقولك يسمع، ولعلمك ينشر ويعمل، فإنه ربما كان عدو لك في صورة صديق.

وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ: احذر ممن يمدحك أكثر ممن يؤذيك لاسيما إن كان يبالغ في مدحك ويذكرك بما ليس فيك، فإنه إذا غضب كذلك يذمك بما ليس فيك، فإن من لا يتورع عن الكذب في المدح كذلك لا يتورع عن الكذب في الذم، انتهى.

وسيأتي إن شاء الله تعالى أن كثرة المصائب والمحن في هذه الدار مما يهون على العبد تحمل أهوال يوم القيامة؛ لأن كل شيء وقع من ذلك العبد في هذه الدار كالإدمان لتلك المصائب فإنها لا تعادل الإنسان عندما يذوب قلبه وجسمه إذا شهد أهوال يوم القيامة، وعندما يتقدم له إدمان في دار الدنيا فإنه يتحقق له يوم القيامة الإقدام، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة كراهتهم وشدة زجرهم لمن ينقل إليهم أخبار الناس الناقصة التي يستحيون أن يواجهوهم بها وإنما زجروه؛ لئلا يعود إليهم مرة ثانية، ثم إن أحدهم يرجع بعد ذلك على نفسه باللوم الذي تمادى حتى وجد الناقل له عندهم محلاً لنقل أخبار الناس، ويقول: لولا غفلتي عن الله تعالى وعدم إقبالي عليه لكنت محفوظًا

من مثل ذلك، فاللوم على حقيقة لا على الناقل، ونظير ذلك ما قالوه في الزهد في الدنيا من قولهم: اللهم زهد الدنيا فينا، ولا تجعلن ممن يزهد فيها؛ أي: لأن زهدها فيهم، إنما هو لعلمها شدة نفوسهم منها، فتصير الدنيا تنفر منهم بالطبع، ولو طلبوها ما جاءتهم بخلاف ما إذا كانوا ممن يزهد في الدنيا فإنهم ما زهدوا فيها حتى جاءتهم ومكثت عندهم ورأت لها محلاً في قلوبهم[1].

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من عقل العاقل تكذيب النمام ظاهرًا، ولو علم أنه صادق في نميمته سدًا للباب، فإننا جربنا إن كل من أصغى إلى النمام كثرت عليه النمامون، وجمعوا له أخبار الناس وأتوه بها، وربما أشاع تلك الأخبار عن الناس حتى صدق النَّمَّام، فبلغ الناس فاشتغلوا به وأتوه، وكثرت أعداؤه، ثم يتولد من ذلك الحقد فيعجز عن إزالته كما أوضحنا في خاتمة كتاب «المنن الكبرى» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ألا يتساهلوا في سماع النميمة من بعضهم بعضًا في الزاوية فتعرف ولو على طول، بل يسدون الباب أولاً فأول بإرسالهم الناقل والمنقول عنه، وقولهم للمنقول عنه: هذا نقل عنك كيت وكيت، وهناك يضطر للصدق فإما أن يقول: أنا قلت، فيكون هو الخصم، وإما أن ينكر، فيكون معه على ذلك الناقل بالتوبيخ والزجر.

وقد كان سيدي الشيخ أبو الفتح إذا جاءه شخص وقال له: إن فلانًا يقول عنك كذا وكذا يقول: إذا سألته هل يعترف بما نقلته عنه أم لا؟ فيخاف الناقل فلا يعود ينقل

---

(1) وقال الشيخ في الكوكب: ومن أخلاقهم: شدة كراهيتهم وزجرهم لمن ينقل إليهم نقائص الناس، لاسيما إن كان من فقراء الزاوية، فربما ألقى إبليس بينهم النميمة حتى خربت الزاوية، اللهم إلا أن يحكي ذلك الناقل النقص للشيخ ليؤدب من يستحق التأديب فهذا لا بأس به، بل ربما وجب بخلاف نقل النميمة للمريدين من الضعفاء الذين لا يتحملون الكلام في حقهم. فافهم ذلك، واعرض هذا الخلق على فقراء الزاوية تجد لا يسلم من النميمة منهم إلا القليل، وهو من أكبر طريق لتشويش القلوب وتنافرها، وذلك موجب لزوال النعمة عن أهل الزاوية فتبطل أورادهم، أو يصير أحدهم يتكلف لها مع شغل القلب بالحقد والحسد، حتى يتمنى كل واحدٍ زوال نعمة أخيه، فيُجازى بمثل ذلك، فتتحول النعمة عنهم كلهم. فاعلم ذلك، ولا تنسَ نفسك، والحمد لله رب العالمين.

إليه ثانيًا كلامًا أبدًا، وكان يقول: هذا من باب ارتكاب أخف المفسدين.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: من طلب أن الناس لا يقولون من ورائه إلا ما يوجهونهم به فقد رام المحال، فإن السلطان لا يصلح له ذلك، انتهى.

ثم إن المنقول عنه إذا جاء واعترف بما قاله النمام عنه وطلب الإقالة، فمن المعروف قبول معذرته كما قال الإمام الشافعي ﷺ في معنى حديث: **«ومن أتاه أخاه متنصلاً من ذنب فليقبل ذلك منه محقاً كان أو مبطلاً فإن لم يفعل لم يرد على الحوض»**[1] ثم ينشده[2]:

إِقْبَلْ مَعاذيرَ مَن يَأْتيكَ مُعتَذِراً ... إن بَرَّ عِندَكَ فيما قالَ أَو فَجَرا

فَقَد أَطاعَكَ مَن أَرضاكَ ظاهِرُهُ ... وَقَد أَضَلَّكَ مَن يَعصيكَ مُستَتِرا

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: لا بدّ للإنسان من محب ومبغض، ولو كان في فضل الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، فالمحب لا يذكر إلا الخير، والمبغض يذكر العجر والبجر.

قال: ولما اختفى الإمام مالك ﷺ زمن الفتنة قال لابن القاسم: ماذا تسمع الناس يقولون؟

فقال: المحب لا يذكرك إلا بخير، وأما المبغض فحاله معلوم.

فقال الإمام مالك: الحمد لله مازال الناس كذلك لهم محب ومبغض، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها بالذم، انتهى.

وأنشدني شيخ الإسلام زكريا الأنصاري - رحمه الله تعالى - :

اعمل لنفسك صالحًا لا تحتفل ... بظهور قيل في الأنام وقال

فالخلق لا يرجى اجتماع قلوبهم ... لا بدّ من عليك وقال

والحمد لله رب العالمين.

---

(1) ذكره المناوي في «فيض القدير» (319/4) بنحوه، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (218/3) بنحوه.

(2) البيتان من بحر البسيط للبحتري.

ومن أخلاقهم: محبتهم لأن يفدي أحدهم جميع العلماء والعاملين بنفسه، ويحب أن أعداءهم يضيفون إليه سائر العيوب والنقائص، ويذكرونه بسائر ما كانوا يريدون أن يستغيبوا به العلماء العاملين؛ لكونهم أهل المسامحة بخلاف غيرهم، فقد لا يسامح أحدهم من استغابه لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إني أود أن أتحمل عن حملة القرآن والعلم جميع النقائص التي يرميهم بها الأعداء؛ إكرامًا لسيدي رسول الله ﷺ؛ لكونهم حملة شرعه، وإذا جرحهم أحد صار تجريحهم شخصًا في قلوب العوام، فيقل انتفاعهم بالعلماء، ويتجرؤوا على ارتكاب تلك النقائص التي أضيفت إلى العلماء رماهم بها الأعداء، ويقول أحدهم في نفسه: إذا وقع في معصية إن فلانًا أكبر منك قدرًا وقد وقع في مثل ذلك، فيستهين بالذنب.

وهذا الخلق قد صار عزيزًا في هذا الزمان في خواص تلاميذ الأشياخ فضلاً عن غيرهم، وقد وقع لبعض أهل عصرنا هذا أنه نسب إلى عمل الزغل، فمسكه الوالي فتبرأ منه جميع تلامذته، وصار أحدهم يقول: إنما كنت أصحابه من بعيد، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: كل من لم يوطن نفسه على مشاركة صاحبه في بلاء نزل عليه، وإلا فلا ينبغي له أن يصحبه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تكديرهم ممن رفع مقام أحد من أقرانهم عليهم، بل يفرحون لذلك، ويقول أحدهم: الحمد لله الذي جعل الناس يفاضلون بيني وبين العلماء والصالحين، مع أني لست بعالم ولا صالح، ولولا أنهم رأوني بعين التعظيم ما فاضلوا بيني وبين هؤلاء، وقد تحققت بذلك بحمد الله تعالى، فكلما فاضلوا بيني وبين أحد من العلماء بادرت إلى الشكر، وأقول في نفسي: إنهم لولا رأوني قريبًا من مقامهم ما فاضلوا بيني وبينهم، ولو أنهم رأوني بعيدًا عن مقامهم لم يفاضلوا بيني وبينهم، كما لا يفاضلون بين العلماء وآحاد العوام، فعلم أن كل من تكدر ممن فاضل بينه وبين عالم أو صالح، ثم رجح العالم أو الصالح عليه، فهو لم يشم من رائحة الصدق والإخلاص ريحه، ولسان حاله يشهد بأن عبادته وزهده وورعه طول عمره كان لغير الله تعالى، وإن لم يكن الباعث له على تلك الأعمال طلب رضى الله تعالى عنه وامتثال

أمره؛ وإنما ذلك ليعظمه الناس ويرجحوه على أقرانه، وهذا أدق من دبيب النمل، فليتنبه شيخ النصف الثاني من القرن العاشر لمثل ذلك حتى لا يكون في الأموات والحق تعالى ساخط عليه، ونسأل الله تعالى العافية.

وقوله في حالة مدحه أنه أقل من تراب نعال الناس رياء ونفاقًا، أو كان من أصحاب ذلك الممدوح زال منه ذلك التواضع بقرينة تكدره ممن رجح أحد من أقرانه عليه.

وإياك أن تقول: فلان أعلم من فلان إلا بطريق شرعي كإرشاده إلى الأعم؛ ليقرب الطريق على الطالب، ويفيده المسائل المحررة ونحو ذلك، وإلا فهي غيبة محرمة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إجلالهم للعلماء والصالحين والأمراء والأكابر عن أن يدعوهم إلى حضور مولد عملوه، فربما كان العالم مشغولاً بالعلم، والصالح به سلس بول، والأمير وراءه أمور مهمة تعلق بالمملكة أو بمصالح الناس، وربما حضر أحدهم وصار متقلقًا في غاية الكرب، وإذا توضأ يقاسي مشقة عظيمة من الزحمة وغير ذلك مما ذكرناه في خاتمة كتاب «المنن الكبرى».

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - لا يجيب أحدًا إلى مولد، ولو كان معدودًا من مشايخ العصر لاسيما إن كان الطعام مجموعًا من حرام وشبهات كالذي يستعين في عمل وليمته بما يأخذه من الظلمة والمكاسين، ومشايخ العرب، والكشاف وأعوانهم، فإن ذلك من أقبح ما يكون.

وسمعته يقول: لا ينبغي لفقير أن يدعو أحدًا إلى طعامه إلا إن عمله من وجه حلال، ولم ير نفسه بحضور العلماء والأكابر على أقرانه الذين دعوهم فلم يحضروا عنده، وهذا الأمر قد حدث في فقراء هذا الزمان، فصاروا يتفاخرون بكثرة اجتماع الناس عندهم.

وقد أدركنا عدة مشايخ، فما كان أحدهم يدعو أحدًا من الأكابر إلى مولده قط إنما كان يخص بطعامه الفقراء والمساكين، والأرامل والأيتام، كسيدي محمد بن عنان، وسيدي أبي الحسن الغمري.

وأرسل شخص من أعوان الظلمة عسلاً إلى مولد سيدي بن عنان فأرجعه،

وضاق الوقت على شراء العسل، وقالوا للشيخ: لا بدّ من طبخ الحُلو للفقراء، فقال للنقيب: اذهب بهذه الجرار إلى الخليج وسم الله تعالى، واملأها عسلاً وطبخوا الحلو به تلك الليلة هكذا أخبرني بهذه الحكاية الشيخ محمد الزهار - رحمه الله تعالى.

فمثل هؤلاء هم الذين يصلح لهم أن يعمل له ويجمع الناس على طعامه، وأما من يجره الناس ويسلقهم بألسنة حداد إن لم يعطوه فلا يجوز له عمل مولد، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: رحمتهم لعدوهم الذي يؤذيهم طول عمرهم، وشفقتهم عليه إذا أنزل به بلاء؛ لأنه لا يخلو من أمرين: إما أن تكون عداوته لهم بحق أم لا، فإن كانت بحق فهم يرون الشماتة به حمق ورعونة نفس، وإن كانت بغير حق فهو مسكين مبتلى في دينه، فالواجب عليهم رحمته ومسامحته، والدعاء له لا الغضب، والدعاء عليه زيادة على ما هو فيه من المقت.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: لا يكمل الفقير حتى تكون جميع حركاته وسكناته مأجورًا عليها، ومن شمت في عدوه فليس له في ذلك أجر.

وكان يقول أيضًا: لا يكمل الفقير حتى يصير يشهد كل فعل وقع في الوجود من الحق تعالى ببادئ الرأي ومن الخلق بحكم التبع، انتهى.

وقد دخل عليّ مرة الكاشف إسكندر، فشكا من قاضي الخانقاه، فمات القاضي بعد ثلاث أيام، فجاء وقال: ادع للقاضي بالرحمة، فقلت له: إنك كنت أمس تشكوا منه، فقال: شخص أراد أن يؤذيني فما أقدره الحق تعالى على ذلك، فكيف أتكدر منه وأشمت به وهو لا فعل له إلا بإرادة الله تعالى؟! فأعجبني اعتقاده - رحمه الله تعالى.

وتقدم في هذه الأخلاق أن حكم الناس الذين يؤذون العبد في هذه الدار حكم زبانية جهنم في الآخرة من حيث أنهم مسلطون بحسب ذنوب الناس، لكن الزبانية هناك ليسوا في دار تكليف بخلاف الناس الذين يؤذون العبد في هذه الدار، فإنهم مكلفون ويلحقهم الذم بإيذائهم الناس، فمن أراد ألا يسلط الله تعالى عليه أحد بالأذى فليستقم فيما بينه وبين الله تعالى، ولا يكون له سريرة قط يفتضح بها في الدنيا ولا في الآخرة، وإلا فالبلاء والأذى متوجه إليه من سائر الأعداء والحاسدين، ثم إن البلاء والأذى يعظم بعظمة الذنب، فمن جهل المعصية التي أتى بها فلينظر لعقوبتها، فإن

كانت عظيمة فالذنب عظيم وعكسه ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة:15] وما رأينا شيئًا يرد الأذى عن العبد أقوى من كثرة الاستغفار، فإنه يطفئ بإذن الله تعالى غضب الحق - جل وعلا - .

وإذ أطفئ غضب الحق تعالى، ورضي عن العبد قل الأذى من الناس له إلا أن يكون ممن جعله الله تعالى قدوة للناس في الصبر كما بسطنا الكلام على ذلك في خاتمة كتاب «المنن» والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: مبادرتهم إلى إقامة الحجة على أنفسهم إذا ظلمهم ظالم، ولا يقولون: في حكم الله تحمل العبد وهو في أمر التقدير، والله تعالى فعال لما يريد ونحو ذلك مما يشم فيه رائحة إقامة الحجة على الله تعالى، ذلك عندهم مروق من حضرة الأدب.

ثم إن هذا لخلق لا يثبت فيه إلا من تحقق بمقام العبودية ذوقًا لا علمًا فقط؛ لأن العلم قد ينحجب عن صاحبه إذا نزلت به نازلة بخلاف الذوق.

وقد أدركنا من أصحاب الفروق لهذا المقام جماعة: كسيدي الشيخ عبد الحليم المنزلاوي، والشيخ علي البحيري، والشيخ شهاب الدين السبكي، والشيخ محمد الغمري[1] كان إذا نزل على أحدهم بلاء بادر إلى الشكر، وقال: اللهم لك الحمد الذي لم يكن هذا البلاء أعظم من ذلك.

ووقع لسليمان بن مهران أنه لبس الثياب المبخرة للجمعة وخرج للجامع، فصبت عليه جارية من سطوح ماء تنظيف السمك، فعمه من رأسه إلى ذيله فقال على الفور: الحمد لله الذي صالحنا بالماء عن النار، وفي رواية أن الجارية صبت عليه رمادًا باردًا فعمته فقال: الحمد لله من استحق النار صولح بالرماد يجب عليه الشكر، انتهى.

فعلم أن اشتغال العبد بسبب من أتاه البلاء على يديه جهل منه؛ لأنه ما ظلمنا إلا بذنوبنا، وإن كان عليه الوزر في ذلك شرعًا، وهذا الأمر مما يطول به حبس المجرم، فيقول: حبسوني ظلمًا ولا لي شاكي، ولا يكاد له ذنبًا يستغفر الله منه فيطول حبسه، وقد علمت كثيرًا من المحبوسين كثرة استغفارهم ربهم، وكثرة التفكر لذنوبهم التي عملوها

---

(1) في المطبوعة (الوصيف).

طول عمرهم، فيفرج الله عنهم بسرعة، فإن الحبس خزي من الله تعالى للعبد، ولا يكون الخزي إلا من ذنب، وكثيرًا ما يذنب العبد ذنبًا فلا يعاجله الله تعالى بالعقوبة عليه، فيظن أن الله تعالى غفره من سنين والحال أنه لم يغفره، بل أخره رحمة به وحلمًا عليه، وما خرج عن هذه القاعدة إلا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فقد يحبس الله تعالى أحدهم؛ تعظيمًا لأجره ورفعًا لدرجاته كما وقع للسيد يوسف ﷺ؛ وليقتدي الناس بصبره، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: تحمل عناء المملكة على كواهلهم، وحمل الناس بقلوبهم، فإياك يا أخي أن تقول: هنيئًا لأهل الله تعالى، فإن أحدهم يموت في الساعة الواحدة كذا كذا مرة، فهم مستريحون في الظاهر من أمور الدنيا متعبون في الباطن، فتعبهم لا يقاومه تعب، وإن كان ولا بدّ لك يا أخي من أن تغبطهم فأغبطهم على كثرة الطاعات وأما المؤاخذات، فاستعذ بالله تعالى من ذلك، فإن أحدهم ربما عوقب بفعل مالا تعده أنت ذنبًا.

وقد قال بعضهم: وقع لي أنني نمت مرة على جنابة في ليلة عرفة، فما كنت إلا هلكت من الغم الذي نزل على قلبي، وصرت أتمنى الموت فلا أجاب، ثم نمت فرأيت في المنام أنني دخلت زقاقًا لا ينفذ فتهت فيه، ولم أهتد للخروج منه حتى كدت أهلك، ثم أتيت بإناء فيه خمر فشربته وندمت في النوم حتى ذاب قلبي، وصرت أقول في نفسي: كيف تشرب الخمر في ليلة عرفة؟ فلما استيقظت ورأيت أن ذلك في المنام، وفي عيني قطرة، قال: لكني بحمد الله تعالى فرحت بتلك المؤاخذة من حيث اعتناء الحق تعالى بتأديبي، فإن الفقراء في حجر تربية الحق تعالى كالأب الشفيق ولله المثل الأعلى، وربما ضرب الوالد ولده رحمة به وشفقة عليه؛ ليرقه إلى ما هو أرقى مما هو فيه، وربما فرك أذن ولده فركًا عنيفًا إذا رآه واقفًا عند بحر، وخاف عليه من الغرق، وربما شكت الأم ولدها بالإبرة حتى يخرج الدم منه محبة فيه لا بغضًا له؛ لتربيه بذلك فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: زيادة المحبة لكل من أنكر عليهم وقام عليهم، لاسيما العلماء، فإنهم ما قاموا عليهم إلا نصرة لظاهر الشريعة المطهرة لا لحظ النفس وبغضًا لهم، ومن طبّق الشريعة وجبت محبته، ووجب على من خرج عن ظاهرها اللوم على نفسه

والتوبيخ لها، فإن السلطان في هذه الدار للشريعة، وما كمل أحد في الطريق إلا وصار يغار على ظاهر الشريعة أكثر من الطريقة، وأنكر على من خالف الشريعة ممن ادعى أنه من العلماء، فإنما هو جاهل بمراده ﷺ، فإن العلماء أمناؤه على شرعه، فقف يا أخي على ظاهر الشريعة ولا تتعدى عليها، فإنه السيف القاطع بحده كل ضلال وبدعة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حمايتهم من ظهور الحسد لأقرانهم؛ لأن الحسد فرع من محبة الدنيا وهم قد تركوها في بداية أمرهم فلذلك امتنع في حقهم الحسد، وهذا خلق قل من يتخلق به الآن، وغالب الناس يحسد أقرانه إذا أقبلت عليهم الدنيا وأهلها لاسيما الأكابر والأمراء، وذلك دليل واضح على أن أحدًا منهم لم يدخل طريق القوم ولم يشم لها رائحة.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: من أراد إقامة الجاه والعز في الدنيا والآخرة، فليسلك الطريق الحميدة من زهد، وورع، وقيام ليل، وكف جوارح، وغير ذلك من أخلاق الصالحين، فإن المحسود ما حصل له الجاه عند الملوك والأمراء إلا بعد أن تخلق بأخلاق القوم، فاسلك يا أخي مسلكهم يحصل لك من الجاه والدنيا ما حصل لهم، وأما حسدك لهم مع عدم سلوك طريق القوم، فلا يزيدك إلا تأخيرًا، فكلما حسدت تأخرت وتقدم المحسود، انتهى.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله - يقول: إن كنت ولا بدّ حاسد الفقراء فأحسدهم على مجالسة الله تعالى صباحًا ومساء في قراءة أورادهم، فإن ذلك هو الحقيق بالحسد، وأما مجالسة جندي من الأمراء لهم واعتقاده فيهم فهو أقل من أن يذكر.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في خاتمة كتاب «المنن» وذكرنا فيها أن من دخل حضرة الله زال منه الحسد جملة؛ لأن أهلها مطهرون من ذلك، وأن بعضهم كان يذهب إلى أن الحسد لا يزول إلا من معصوم، وأما غيره فتتعطل منه صفة الحسد دون أن تزول منه، وكذلك ذكرنا أن من علامة الحاسد أنه يكرهك وينقصك، ولا يقدر على أن يصور عليك دعوى لا في الدنيا ولا بين يدي الله تعالى في الآخرة، وغاية تصويره الدعوى عند الحاكم أن يقول: ادعى على هذا إنه أكثر مالاً مني، ويحبه الناس

ويعظمونه أكثر مني، وهذه دعوى لا جواب لها، فقال: من رأيته كذلك فأرح نفسك من مداواته فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم تكدرهم ممن نادى أحدهم بيا فاسق أو بيا منافق أو بيا مرائي ونحو ذلك، بل يرون أن من ناداهم صادق في ذلك، وقد كان مالك بن دينار إذا قيل له: يا منافق أو يا مرائي يقول: يا أخي لقد عرفت لقبي الذي نسيه أهل البصرة، انتهى.

فعلم أن من تكدر ممن قال له: يا فاسق فهو مغرور؛ لأن الفسق لغة هو الخروج يقال: فسقت النواة إذا خرجت، ومن خرج عن السنة المحمدية قيد شبر في مأكله أو ملبسه أو في شيء من أحواله وعباداته، فقد صدق عليه اسم الفسق لغة، فأي فقير يدعي سلامته من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: عدم تكدرهم ممن ناداهم باسمهم المجرد من الكنية واللقب والسيادة ونحو ذلك؛ لأنه هو الصدق المحض كما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين ﷺ بخلاف نحو قطب الدين، وشمس الدين، ونور الدين، وسراج الدين، فإنه لا يصح إلا بتأويل بعيد كأنه يريد أنه شمس دين نفسه أو سراج دين نفسه ونحو ذلك.

واعلم يا أخي أنه يستثنى من أولوية نداء الناس بأسمائهم المجردة نداء الوالد والشيخ، وإن الأدب ألا ينادي أحدهما باسمه المجرد كما جرى عليه السلف والخلف.

قال الجلال السيوطي - رحمه الله تعالى: وأول لقب وقع في الإسلام تلقيب رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق بـ«عتيق» لعتاقة وجهه أي: حسنه.

وقال الحافظ بن حجر: إن رسول الله ﷺ كان يلقب أصحابه، فلقب أبا بكر بالصديق، وعمر بالفاروق، وعثمان بذي النورين، وخالد بن الوليد بسيف الله، وحمزة بأسد الله، وجعفر بذي الجناحين، ولقب الأوس والخزرج بالأنصار، فغلب عليهم هذا اللقب، ولقب الحسن البصري ﷺ محمد بن واسع بزين القراء، ولقب سفيان الثوري المعافى بن عمران بياقوتة العلماء، ومحمد بن يوسف بعروس الزهاد، ولقبوا الإمام الشافعي بناصر الحديث، ولقبوا ابن سريج بالباز الأشهب، انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: وممن لقب من الأنبياء

- عليهم الصلاة والسلام - : السيد إبراهيم لقب بالخليل، والسيد عيسى لقب بالمسيح، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم نفرة أحدهم من عشرة المخنثين؛ لأنهم أصحاب أمراض كالصداع والفالج والجذام والبرص، وربما ذمهم أحد فابتلى بمثل مرضهم، ويسمى ذلك المرض بـ«الإبنة»[1]، ودواه أن يغلي له جلود السمك القديد حتى تخرج خاصيته، ثم يحقن به ثلاث مرات، فإنه مجرب للشفاء من الابنة، وهو غليان في الدبر لا يسكن إلا بإدخال شيء في الدبر، والمراد بالمخنثين: هم الذين يتكسرون تكسر النساء، فعدم التكدر منهم يعني بزجرهم ونصحهم بالبعد عن ذلك حتى يزجروهم من مثل ذلك الفعل ويتوبون منه.

ثم إن هذا المقام لا يقدر على التخلق به إلا من رضي بعلم الله تعالى فيه، ولم يطلب له مقامًا عند الخلق فعلم أنه لا ينبغي ذم من به إبنة، فإن غيبته محرمة إلا إذا عمل عمل قوم لوط وثبت ذلك عنه، فإنه ملعون بنص الحديث فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إصغاء أحدهم إلى قول عدو أو حاسد في عرض خصمهم، بل يلوم أحدهم نفسه التي لم تكن دفعت ذلك الحاسد عنها حتى لا يقدر على الوصول إليها باختبارها عن نقائص أحد، ويقول لنفسه: عليك اللوم الذي وجد المنقص للناس عندك له محلاً ينقص الناس فيه، وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - أول ما يتكلم عنده حاسد يقول له: قم عني إلى حاجتك لا تحملني الآثام بذكر الناس بالنقائص، وإذا عرف من الإنسان عدم الانقياد لقوله بدأه بالكلام الحلو وقال: كنت في خاطري البارحة، فإني أحبك لكونك صافي الباطن لا تذكر الناس عندي إلا بخير فيلتجم ذلك الشخص، ويخاف أن يغير اعتقاده فيه بما وصفه، فيخرس في ذلك المجلس عن عيوب الناس.

وهذا الخلق قل من يتفطن له من الناس، بل رأيت بعضهم يبدأ من دخل عليه بالكلام، ويقول له: أيش معك من أخبار الناس؟ فيذكر له العجر والبجر التي جمعها له

---

(1) انظر: الجامع في الأدوية لابن البيطار (452/1).

مدة غيبته عنه، وإن عرف أنه عازم على السكوت يقول له: هل بقي معك شيء من أخبار الناس؟ فإن قال: لا، قال له: ما أنت إلا حكيت لي، ثم بعد ذلك يصير يحكي لكل من دخل عليه ما سمعه من ذلك الفاسق كأنه ثبت عنده بطريق شرعي ولم يتب منه صاحبه.

ومعلوم أن ذكر تواريخ الناس التي مضت وتابوا منها لا يجوز ذكرها بعد ذلك لأحد، ومن الواجب على كل مسلم اعتقاده في أهل المعاصي أن أحدهم يتوب عقب كل ذنب، ولا يجوز حمله على أنه مصر على ذنبه.

ثم من أقل مفاسد الناقل عن الناس تواريخهم أن المنقول عنه ولو تاب يصير الناس يشخصون معاصيه وعيوبه في ذهنهم كلما ذكروه، فيريد السامع أن يجعله كالذي لم يذكره أحد بسوء فلا يقدر، بل يصير يحتقره ويزدريه بباطنه لاسيما إن سمع ذلك أحد من الأمراء والأكابر الذين يشفع ذلك الشخص المجرح عندهم، فإنه يتولد منه مفاسد كثيرة ورد شفاعاته، فيشتد بذلك التحريم، فليتنبه الفقير الساذج لمثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: كثرة إقامة العذر لمن عاداهم وأكثر من حسدهم، ويقولون: إنما وقع في ذلك؛ لضيق نفسه وشراهتها، وعدم قناعتها باليسير، ولو أن الله تعالى كان وسع صدره لما وقع في حسد أحد.

ثم إنهم بعد ذلك يستغفرون الله تعالى من حيث أنه لولا وجودهم، ووجود إظهار النعمة التي عليهم ما وقع أحد في حسدهم؛ لأن من كان في نقمة لا يحسده أحد، وكذلك يشكرون الله تعالى على نعمته التي أسبغها عليهم حتى وقع الحاسد في حسدهم، وكذلك يستغفرون الله تعالى للحاسد، فإن وجودهم سبب لوقوع الحسد في الإثم كما سيأتي بسطه إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن اخلاقهم: كثرة اهتمامهم بعدوهم أكثر من اهتمامهم بصديقهم كما يتحفظون من الغيبة في عدوهم أكثر مما يتحفظون من الغيبة في صديقهم، وكما يكرهون كل شيء يؤذي عدوهم؛ رحمة به إلا أن يكون تطهيرًا له أو كفارة لذنوبه،

فإنهم يحبون له ذلك لا على وجه التشفي والشماتة[1].

وكان سيدي محمد الشناوي - رحمه الله - يقول: كل يوم احتاج إليَّ فيه عدوى فهو عندي يوم عيد، وأقول: الحمد لله الذي أحوجه إليَّ ولم يحوجني إليه، وأذله لي بالسؤال ولم يذلني له، وهذا الخلق لا يتخلق به إلا من ذهبت رعونات نفسه، وتخلق بالرحمة على جميع العالم.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يحذر إخوانه أن يذكروه عند أحد من أعدائه بخير ويقول: إن ذلك يدخل عليهم الغم، وأنا لا أرضى بذلك.

وإنما كانوا يتحفظون من غيبة عدوهم أكثر من صديقهم؛ لأن صديقهم قد يسمح لهم بحقه بخلاف العدو فربما إذا بلغه عنهم شيئًا يدخل خصمه النار لأجله إذا لم يسامحه يتوقف ولا يسامحه فيه بخلاف الصديق فإنه بالضد من ذلك.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: لا ينبغي لفقير أن يلبس الثياب النظيفة المبخرة، ويمر على عدوه، وكذلك لا يطبخ طعامًا في مواضع التنزهات ويدعو الناس إلى ذلك، وكذلك لا يغرس بستانًا، ولا يبني دارًا؛ لأن ذلك كله يكدر نفس عدوه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم توجه أحدهم إلى الله تعالى في هلاك أحد من أعدائه، وأن يأخذ له حقه منه، بل يكرمون عباد الله تعالى لأجل الله تعالى، ثم إن شاء الله تعالى انتصر لهم، وإن شاء لم ينتصر لهم، وهم راضون عنه في كل شيء يفعله معهم، وهو تعالى يحب من عباده كل من كان كثير الاحتمال للأذى، ولم يزل الأعداء والحساد في كل عصر يعملون للفقراء المكائد، ويحفرون لهم المهالك، ويرد الله تعالى كيدهم في نحرهم؛ لأنه تعالى عليم حكيم.

---

(1) قال الشعراني: ومن أخلاقهم: شفاعتهم عند الحق سبحانه وتعالى في كل من آذاهم بغيبةٍ أو غيرها في دار الدنيا بعد مسامحتهم له؛ خوفًا ألا يكون الحق تبارك وتعالى قبل مسامحتهم له، فيسألون الله تعالى ألا يؤاخذه من جهتهم، وأن يعفوا عنه من حيث تعديه حدود الله تعالى بالإذن لعباده من غير طريقٍ شرعيٍ. فإن لكل معصية حقين: حق الله، وحق لعباده، فمسامحة العبد إنما هي في حقه دون حق الله تعالى. وهذا الخلق من أحسن أخلاق المريدين، فاعرضه على مريدي زمانك تعرف حالهم، ولا تنسَ نفسك، فإن من سامح سومح، ومن شاحح شوحح، والحمد لله رب العالمين.

وهذا الخلق قد صار عزيزًا في أهل الزمان، وغالبهم يقابل العدو بالإساءة، وإن عجز عن ذلك توجه إلى الله تعالى فيه، وذلك نقص في الفقير، وما افتخرت الفقراء على أقرانهم إلا بتحملهم الأذى، وعدم مقابلة أحدهم بنظير فعله.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: من تأمل نفسه في هذا الزمان بين أقرانه وجد نفسه كالماشي على حبل البهلوان بقبقاب، والخلق كلهم تحته ينظرون كيف يقع حتى يشمتوا فيه، انتهى.

فالحمد لله الذي جعلنا ممن لا يشمت في مسلم أبدًا، بل نذكر محاسنهم ونسكت عن مساوئهم إذا أطلعنا عليها كما سيأتي بيانه قريبًا إن شاء الله تعالى، ويشهد لذلك ذكرنا في كتاب «الطبقات» مناقب من آذانا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تجسسهم على عيوب إخوانهم المسلمين، فإذا سمعوا شخصًا يذكر كلامًا إجماليًا عن أحد فيه نقص له لا يصغون إلى ذلك ولا يقولون له: إيش الحكاية؟ إلا إن كان أحدهم يقصد رد الأعداء عن عرض أخيه، وأما قصد الإعلام بحكايته فقط فلا يجوز ذلك كما صرح به القرآن العظيم، وهذا الخلق قل من يتنبه له الآن من الفقراء، بل ربما تجسس بعضهم على أخيه، وصار كل من دخل عليه يحكي له، ويقول: ما دريتم ايش جرى لفلان؟ جرى له كذا وكذا، وإن خاف من لوث أحد به قال له: لا تقل ذلك لأحد عني، فلولا أنك عزيز عندي ما أطلعتك على ذلك، وكلاهما قد خالف أمر الله ﷻ.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يزجر كل من رآه من أصحابه يتجسس على أحد ويقول: لا يحب الاطلاع على عورات الناس إلا الشياطين، انتهى.

وقد أدركنا جماعة كثيرة من مشايخ العصر كانوا يغارون على أهل الطريق، ويزجرون كل من تعرض منهم لأحد من أهلها بنقص ولو محققًا، ويقولون إن في الحديث: «**أقيلوا لذوي الهيئات عثراتهم**»[1] قال العلماء: المراد بذوي الهيئات: الذين لم يشتهر عنهم مخالفة، انتهى.

وفي الحديث أيضًا: «**تجافوا عن ذنب السخي فإن الله تعالى آخذ بيده**

(1) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (277/3)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (154/1).

كلما عثر»[1] ولا شك أن الفقراء كلهم أسخياء كرام. بالكفر، وأرسلوه من الشام إلى مصر مقيدًا مغلولاً خرج الشيخ جمال الدين الأسنوي بعد أن تولى القضاء، وكانوا قبل ذلك يسألونه فيأبى، وتلقاه من نواحي الصالحية، وسمع الدعوى عليه وحقن دمه، وقال: والله إني لأكرهك، وأكره والدك من قبلك، وإنما فعلت ذلك صيانة لخرقة العلم، انتهى.

فاحم يا أخي خرقتك عن النقائص جهدك، ولا تظن أنك تعلو أقرانك بذكرهم بالنقائص عند الناس، بل أول ما يحقرونك ويسفهونك على من نقصته، وإيضاح ذلك أن من تعدى حدود الله تعالى أهانه الله تعالى ومن يهن الله تعالى فماله من مكرم، فلا يزداد المهان عند الله تعالى بتنقيصه الناس إلا هوانًا في العيون، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: سماحة نفوسهم بمقاسمة أعدائهم في أموالهم في الدنيا وحسناتهم في الآخرة فضلاً عن من كان يحبهم من أصحابهم، وهذا خلق غريب في هذا الزمان، وقد تحققنا به ولله الحمد، وهو من أعظم أخلاق الرجال.

فأنا بحمد الله تعالى أحب مقاسمة أعدائي لي في جميع أموري وحسناتي على تقدير وجودها من غير توقف ولا رؤية منة لي عليهم، وقد قيض الله تعالى لي جماعة معروفين في مصر لم يزالوا يذكروني بالنقائص،ويؤذوني وأصبر عليهم، ومع ذلك فأحبهم وأذكرهم بالكمالات، وتسمح نفسي بمقاسمتهم في الحسنات لاسيما الذين دسوا في كتبي العقائد الزائفة وأشاعوها عني حتى نفر غالب المعارف مني فضلاً عن غيرهم، ولا أعلم الآن لهذا الخلق فاعلاً في مصر غيري إلا قليلاً، فاسأل الله تعالى دوامه عليّ، وإيضاح شهودي من الأعداء عليّ بكثرة إيذائهم لي أنهم حكموني في حسناتهم يوم القيامة آخذ منها ما شئت حتى كأنها من أعمالي، وذلك أعز من الإحسان إلي بالدراهم والدنانير في دار الدنيا، ثم إنهم كلما أكثروا من إيذائي كلما سمحت نفسي لهم بالمقاسمة في حسناتي؛ لأنهم بكثرة إيذائهم لي بالغوا في إثبات حقي عليهم، وتحكيمي في حسناتهم، فكما أهدوا لي حسناتهم في الآخرة كذلك من باب

(1) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (33/6)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (108/4).

المعروف أهدي لهم حسناتي، وإن كان إهدائهم لحسناتهم كرهًا عليهم؛ لأنه حيث ما حصل نفع الأثر فلا عليّ من القصد، فكان مقاسمتي لهم في حسناتي من باب المكافأة لهم على حسناتهم.

وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: لو عرض أعدائي كلهم عليّ يوم القيامة حسناتهم بطيب نفس لم آخذ منها شيئًا، بل أوفرها عليهم زيادة على ما قاسموني فيه من أعمالي الصالحة؛ لكثرة إفلاسهم، وكثرة الحقوق عليهم، فلا أزيدهم كربًا على كربهم؛ وذلك لأن الرجل هو من يكون له على الناس اليد لا من يكون يد الناس عليه، وإن كان لأعدائي الفضل عليّ من وجوه عديدة من حيث أنهم قد فتحوا لي بذكرهم لي بالنقائص في المجالس باب شهود نقصي، وزوال عجبي بعملي، وحكموني في حسناتهم، ومن إساءتي أنا عليهم أني ربما كنت سببًا لمقتهم، وهتك سريرتهم جزاء لما فعلوه معي غيرة من الله تعالى لعباده، وإن لم يطلبوا منه ذلك كما وقع لي ذلك مع شخص معروف في مصر كان قد أكثر من ذكري بالنقائص وأنا صابر عليه، فابتلاه الله تعالى، وكبسوه حال فعلها، وهتكه الله تعالى عند جميع معارفه في مصر فمثل هذا لو أني أعطيته جميع حسناتي ما جبرت خلله الذي حصل له بسببي، ووالله إني لأستغفر الله تعالى في حقه إلى وقتي هذا.

وكان على هذا القدم جمهور السلف ﷺ كما ذكره القشيري في «رسالته»، فكان أحدهم يلوم نفسه إذا آذاه أحد، ويقول لها: أنت الظالمة ولو أنك وافقته على ما يريده منك ما آذاك.

وقد بلغنا عن ابن الحطاب شيخ سيدي محيي الدين بن عربي - رضي الله عنهما - أنه قال: رأيت ربي في المنام، فقلت له: يا رب علمني شيئًا آخذه عنك بلا واسطة، فقال: يا ابن الحطاب من أحسن إلي من أُسِئ إليه، فقد أخلص لله شكرًا، ومن أساء إلي من أحسن إليه فقد بدل نعمة الله كفرًا، قال: فقلت: يا رب حسبي، انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في أواخر الخاتمة من كتاب «المنن الكبرى» وذكرنا عن الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - أنه تمنى أخًا في الله تعالى صادقًا يقاسمه في حاله وحسناته، فلم يجده، فراجعه فإن فيه نفائس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: صبرهم على بعض الحسدة لهم على الدوام مدة حياتهم؛

ليعظم لهم بذلك الأجر من حيث الصبر عليهم، ومن حيث أنهم يذكرونهم بنقائصهم التي ربما حجبوا عنها في نفوسهم، فلا بدّ لهم من وجود منكر مبغض على الدوام فضلاً من الله تعالى عليهم، وبعضهم سلط الله عليه بحكم المشيئة الإلهية من ينقصه وينكر عليه بعد موته أيضًا سنين عديدة، كأبي بكر وعمر - رضي تعالى الله عنهما - مع الروافض، وكالشيخ محي الدين ين العربي، وسيدي عمر بن الفارض - رضي الله تعالى عنهما - مع بعض الفقهاء كما مر في هذه الخاتمة، فيأخذ أحد هؤلاء حسنات من يحط عليه بغير حق يوم القيامة، فما دام لهم من يحط عليهم بعد موتهم فكأنهم لم يموتوا من حيث نقل أعمال من يحط عليهم إلى صحائفهم، ولو كان أحدهم يحط على الفقراء بحق ما نقلت حسناته في صحائفهم، ولكنهم غالبًا يحطون على الفقراء حسدًا وعدوانًا؛ لأن الفقراء قد خرجوا عن الأعراض النفسانية، ولا يرى أحد منهم يزاحم على وظيفة ولا تدريس علم ولا مجلس وعظ، ولا يذكر أحدًا بسوء، ولا يشح على فقير بما هو محتاج إليه، ولا يتزوج لأحد مطلقة، ولا هو يتظاهر بالمعاصي الظاهرة من ترك صلاة وشرب خمر ونحو ذلك، فما بقي بغضهم إلا حسدًا وعدوانًا كبغض الروافض لأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فإن بغضهما قد توارثه خلف من الروافض عن سلف، وكذلك الشيخ محيي الدين بن العربي، وسيدي عمر بن الفارض قد توارث الناس بغضهما من بعض فترى بعض الفقهاء يسب الشيخ محيي الدين وأضرابه، ولا أحد منهم أدرك زمنه ولا عرفه وخالطه، ولا وصل إليه ما ينسب إليه ببينة.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إن كان ولا بدّ للمتهورين من الإنكار، فلينكروا ذلك الذي يوهم خلاف ظاهر الشريعة بقطع النظر عن من نسب إليه، فيقول: كل من ثبت عنه هذا الكلام فهو مخطئ، أو مبتدع أو كافر ونحو ذلك، فلا يجب الإنكار على إنسان معين إذا ثبت عنه الكلام بسند صحيح، وهذا قل أن يوجد في هذا الزمان، وحينئذ ينكر عليه شفقة عليه ومحبة فيه وخوفًا أن يكون من الأئمة المضلين بحكم التشفي للنفس أو التعصب كما هو الغالب من أصحاب الرعونات النفسانية.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا - رحمه الله تعالى - يقول: ليس لمن يبغض مثل الشيخ محيي الدين بن العربي، أو سيدي عمر بن الفارض - رضي الله عنهما -

دليل صحيح يستندون إليه، وإنما هي نزغات شيطانية وسوس بها إليه؛ ليحصل لهم المقت وموت القلب وخراب السر، انتهى.

وقد ثبت عندنا من طرق صحيحة عن الشيخ عز الدين بن جماعة[1] أنه كان يقول: جميع ما في كتب الشيخ محيي الدين بن العربي مما يخالف ظاهر الشريعة مدسوس عليه دسه الحسدة؛ لينفروا الناس عن مطالعة كتبه، وقد أوضح ذلك الشيخ مجد الدين الفيروز أبادي صاحب «القاموس في اللغة» وأجاب عن الشيخ محيي الدين بأحسن جواب، وقد رأيت أنا كتابًا صنفه بعض الملاحدة، وأضافه للإمام الغزالي ترويجًا لبدعتهم، ورأيت على ظاهره بخط الشيخ بدر الدين: كذب والله وافترى من أضاف هذا إلى حجة الإسلام، فإنه كله مخالف لأهل السنة والجماعة، انتهى[2].

وقد قدمنا لك يا أخي في خطبة هذا الكتاب وغيره ما وقع في كتبي من الدس، ولولا أنه كان عندي النسخة الأصلية التي عليها خطوط العلماء السالمة من الدَّسّ لما برأني أحد من ذلك؛ لعدم تثبت غالب الناس الآن فيما ينقلونه.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف - رحمه الله تعالى - يقول كثيرًا: ربما يكون سبب هذا الإنكار على بعض العلماء والصالحين دقة مداركهم، فينبغي للمتدين التسليم لهم حيث لم يخالف نصًا صريحًا ولا إجماعًا؛ لأن الأفهام تختلف سلفًا وخلفًا فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شدة بغضهم باطنًا لأهل المعاصي، ولو أحبوهم وأحسنوا

---

(1) هو الحافظ الإمام قاضي القضاة عز الدين أبو عمر عبد العزيز ابن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الأصل الدمشقي المولد ثم المصري الشافعي.

ولد في تاسع عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة فأحضر على عمر القواس وأبي الفضل بن عساكر وسمع من الدمياطي والأبرقوهي وأجاز له ابن وريدة وأبو جعفر بن الزبير وأكثر السماع. فبلغ شيوخه ألفاً وثلاثمائة نفس وتفقه على والده وأخذ عن الجمال الوجيزي والعلاء الباجي وأبي حيان وعني بهذا الشأن. وصنف تخريج أحاديث الرافعي والمناسك الكبرى والصغرى وولي قضاء الديار المصرية وتدريس الخشابية. أثنى عليه الإسنوي في الطبقات وكان قصير الباع في الفقه وهو في الحديث أمثل منه فيه. [طبقات الحفاظ (113/1)].

(2) انظر: رسالة المجد اللغوي وغيرها ضمن كتابنا: «النور الأبهر في الدفاع عن الشيخ الأكبر».

إليهم؛ إيثارًا لجناب الله تعالى على جناب أنفسهم، ومع ذلك فيستغفرون الله تعالى لهم، ويدعون لهم بالتوبة النصوح لاسيما أهل المعاصي المستصحبة كالمكاسين، والذين يظلمون الناس في أموالهم أو أعراضهم.

وهذا خلق لا يقدر على العمل به إلا من أعطاه الله تعالى فرقانًا يفرق به بين الحق والباطل، وغالب الناس يحب كل من أحسن إليه،أو اعتقد فيه، ولو كان عاصيًا لله تعالى، كما أشار إليه خبر: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها**»[1].

ومن هنا كره العلماء بالله تعالى قبول هدايا العصاة، والتداوي بإشارة كافر؛ لأن صاحب الطبع يصير يحب ذلك المُهْدِي أو ذلك الطبيب إذا وافق دواؤه انتهاء المرض، ويريد أن يعاديه كما أمر الله تعالى فلا يقدر، بل يصير يحن إليه بالود، ويقول له كلما لقيه: فضلك علينا يا معلم.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بالتخلص من محبة من يعتقدوني من اليهود والنصارى مع اعتقادهم فيَّ، ولم يصدني ذلك عن عداوتهم، وهي وراثة إبراهيمية، فإن سائر الطوائف تحب سيدنا ومولانا الخليل ﷺ، وكثيرًا ما يطلبون مني كتابة الحروز لأولادهم والرقية لهم، فأتعجب من ذلك غاية العجب؛ لكوني مخالفًا لدينهم، ثم أقول: لعل إظهارهم الاعتقاد فيَّ إنما هو نفاق.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: إياكم أن تميلوا بالمحبة إلى كافر حين ترونه يعمل سقاية أو يحفر بئرًا، أو يطبخ لمحابيس المسلمين طعامًا ويرسله إليهم، أو يطب المسلمين، ولا يأخذ على طبه أجرة، أو يوفي ديون المسلمين ونحو ذلك، بل داوموا على عداوتهم تقليدًا لله ﷻ في إخباره لنا بذمهم مطلقًا، واحكموا عليهم بما حكم الله تعالى به عليهم، ولو لم تروا منهم أفعالاً توجب الذم عليهم، فإنه تعالى علم ببواطنهم وظواهرهم، وقد أطلق الذم عليهم أبد الآبدين، ولو لم يكن التظاهر لزي الكفار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: صحبتهم لبعض إخوانهم المسلمين من غير اجتماع، ويصير كل واحد منهما يراعى الأدب مع صاحبه كما يراعيه في حضوره، وهي صحبة برزخية كان

---

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (381/1)، والديلمي في «الفردوس» (111/2).

السلف يقدمونها على الاجتماع خوفًا من آفة الاجتماع، ويقولون: كل أخ يجتمع بأخيه الآن إلا وأخذ في حسناته عند ربه تعالى، ويزكي نفسه بذكر محاسنها وعبادتها السرية، وذلك كما فعل أويس القرني، وبكر المزني، وعبد الله بن غالب وأضرابهم ﷺ.

وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - كثيرًا ما يرسل إلى بعض إخوانه الهدية، ويقول له: [ليس مجيء معك بُد]، ويقول: ربما زكّى أحدنا حاله لأخيه فيقع في ذنب إبليس الذي أخرج به من الجنة، انتهى.

وقد صحبت أنا جماعة من العلماء والصالحين مدة طويلة من غير اجتماع، وكان يحصل لي من المدد ما لم يحصل بالاجتماع، كالشيخ شمس الدين البرهمتوشي الحنفي، والشيخ شمس الدين الحنفي، والشيخ شمس الدين الغزي، والشيخ سليمان الحانوتي، والشيخ أبي النجا السوهاجي وجماعة، وكان من أشدهم مراعاة لحقوق الصحبة المذكورة الشيخ شمس الدين البرهمتوشي[1]، فكان يرعاني في الغيب أكثر من الحضور، ويشاورني عن أموره بالواسطة كما يشاور الولد والده، فلما صحبته صحبة الاجتماع ازداد محبة إلى محبته الأولى، وكذلك ازددت أنا الآخر فيه محبة، ولم يحصل بيني وبينه بحمد الله تعالى تزكية نفس لا مني ولا منه إلى وقتنا هذا نفعنا الله تعالى ببركاته، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: حملهم لمن يكرههم على أنه إنما يكرههم بحق وصدق؛ خوفًا من تزكية نفوسهم وتبرئتها من العيب إذا حملوهم على أنهم كرهوهم بغير حق.

وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - إذا بلغه عن أحد أنه يكرهه وينكر عليه يقول: والله إن قلب هذا غير الذي أدرك نقصى الباطني وما أنا مطوي عليه من الفواحش التي أخدع بها ربي، انتهى.

وكذلك من أخلاقهم: مناقشة نفوسهم إذا كرهت أحدًا من المسلمين، ويقولون: يا نفس إن كراهتك لأخيك بغير حق، ولم لا حملته على المحامل الحسنة،

---

(1) ترجم له في الطبقات الصغرى (ص64)، ومما أثنى به عليه قوله: وبالجملة: فالشيخ شمس الدين هذا فريد عصره ونادرة زمانه في العلم والعمل والإخلاص، وعدم الوقوع فيما يذل نفسه لأبناء الدنيا... وانتفع به خلائق لا يحصون من أهل مصر والحجاز والعجم والروم، وأقبل عليه الطلبة إقبالاً عظيمًا وقدموه على أقرانه لما هو عليه من العلم والعمل والزهد والورع ... إلخ.

فيكون على أحدهم على نفسه فيما إذا كرهها أحد وكرهت هي أحدًا.

وعلى ذلك درج السلف الصالح كلهم، فكانوا يناقشون نفوسهم ويتهمونها في كل شيء ادعت الصدق فيه من مقام أو حال، ويقولون: لها هب أني أكذب عليك في نسبتك الرياء والنفاق مثلاً، فما تقولين في هذا الغريب الذي وصفك بذلك فإنه لا يجوز لك نسبته إلى الكذب إلا بطريق شرعي وليس معك طريق.

وقد كان مالك بن دينار يقول: مكثت سنة ونفسي تنازعني في دعوى الإخلاص، وأنا أقول لها: تكذبي، حتى مررت بامرأة في أزقة البصرة، فسمعتها تقول لأخرى: إن أردتي أن تنظري إلى مراءٍ، فهذا مالك بن دينار فانظري إليه، فقلت لنفسي: اسمعي لقبك القبيح من هذه المرأة الصالحة.

وكان يقول بعد ذلك: من أراد أن ينظر إلى مراءٍ فلينظر إليَّ.

وكان الفضيل من عياض ﷺ يقول: لأن أحلف أني مراءٍ أحب إلي من أن أحلف أني لست بمراءٍ، وكان يعاتب نفسه، ويقول: كنت في شيبتك فاسقًا عاصيًا، وصرت في كهولتك مرائيًا منافقًا، والله للعاصي والفاسق أخف إثمًا عند الله من المرائي المنافق؛ لأن العاصي ينتظر من الله تعالى المغفرة، وكذلك المرائي والمنافق؛ لأنه ذنب قل أن يشعر به صاحبه حتى يتوب الله تعالى عليه، انتهى. فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: ذكرهم لمناقب أقرانهم الذين يكرهونهم ويحسدونهم، ولا يصدهم حسدهم لهم وعداوتهم عن ذكرهم بخير.

وقد كان بين الإمام عمرو بن العاص والإمام خالد بن الوليد بعض شيء، فذكروا عمرو عند خالد يومًا فأثنى عليه خالد، فقالوا: إنه يكرهك، فقال: إن الذي كان بيننا لم يبلغ إلى ديننا، انتهى.

وقد تحققت بذلك بحمد الله تعالى، وذكرت مناقب أعدائي وحسادي من الفقراء والعلماء بالنظر إلى جانبهم لا إلى جانبي، فإني لا أعادي أحدًا من المسلمين لحظ نفس، وإنما هم الذين يعادوني؛ لعدم تظاهري لهم بما يوجب العداوة من ترك الصلاة، أو شرب الخمر، أو تعاون في الناس، أو ذكرهم بالنقائص من ورائهم، أو مزاحمتهم في أمور الدنيا ونحو ذلك هذا مع شدة عدائهم لي، وجعلت ذلك كالبرهان على عناية الحق تعالى لي، فإن غالب الناس لا ينشرح الآن بذكر اسم عدوه على لسانه فضلاً عن

أن ينشر محاسنه.

وقد ذكرنا في كتاب «المنن» جملة من إيذائهم لي، فبعضهم سعى في إخراجي من مصر، وبعضهم دس في كتبي عقائد مخالفة لأهل السنة والجماعة، وأشاعها عني في مصر، وكثيرًا مما أشرنا إليه في خطبة هذا الكتاب، وبعضهم افترى عليّ عند السلطان والوزير نائب مصر، وأمورًا لا ينبغي لمؤمن أن يتلفظ بها، وهذا الذي وقع لي طول عمري من ثلاث أنفس في مصر ممن يدعون العلم والصلاح، وقد درج الثلاثة إلى رحمة الله تعالى، وأبرأت ذمتهم في الدنيا والآخرة، وإنما ذكرت ذلك؛ ليتأسى به الإخوان في تحمل الأذى من أهل عصرهم مع أن هؤلاء أنفس كانوا يكرهون بعضهم بعضًا، ولكن اجتمعوا كلهم على مزاحمتي لهم بالدعوى في اسم الصلاح والعلم لا غير، فصنفوا إلى الأذى على صنوف، وسائر أهل مصر برد وسلام عليّ.

وقد بالغت في ذكر مناقب هؤلاء الثلاثة في كتاب طبقات العلماء والصوفية، وذكرتهم بأحسن الذكر ضد ما فعلوه معي؛ إظهارًا لما منّ الله تعالى به عليّ من الحلم والصفح والمسامحة، وليقتدي بي الإخوان، ولم أعلم أحدًا سبقني إلى مثل ذلك من أقراني، بل المنقول عن بعضهم مقابلة الأعداء بنظير ما فعلوا، فالحمد لله الذي خلّقنا بهذا الخلق المحمدي، وجعلنا ممن لا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: طرح نفوسهم بين يدي الله ﷻ إذا أطلعهم من طريق كشفهم على وقوعهم في شيء من المعاصي في المستقبل، وتبرئهم من حولهم وقوتهم، ويصيرون يقولون في دعائهم في سجودهم وغيره: اللهم إن كان ما أُطْلِعْتُ عليه قد حق به التقدير الإلهي، فاسترنا فيه بين الناس، ولا تؤاخذنا في الدنيا ولا في الآخرة صدقة من صدقاتك علينا إن لم يكن ذلك قد حق به التقدير الإلهي، فنسألك من فضلك أن تزيله من شهودنا، فإنه قد كدر علينا وقتنا، فإن الله تعالى ربما أجاب دعاء العبد وستره وغفر له، أو محاه من ألواح المحو والإثبات الثلاثمائة وستين لوحًا، وإيضاح ذلك أن المخالفات بحكم التقدير الإلهي من غير ميل لشهوة أخف عقوبة ممن أتاها بالميل والشهوة.

وقد كان بعضهم يقول في سجوده: اللهم إنك تعلم عجزي من رد شيء من

أقدارك النافذة في فاغفر لي ما جنيته صدقة من صدقاتك عليَّ يا أرحم الراحمين إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم إتعاب أحد سره في تنميق الألفاظ في تأليفه، وكثرة تحرير ألفاظه إلا بنية صالحة، لا ليمدحه الناس على ذلك ويقولوا: والله ما قصر فلان في هذا التأليف، واعلم يا أخي أن البشر ولو بالغ في تحرير كتابه حتى حرره أشد تحرير فلا بدّ به غالبًا من نسيان شرط للمسألة في بعض الأوقات، أو إطلاق في محل التقييد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

وكان الشيخ محي الدين بن العربي ﷺ يقول: وما صنفت كتابًا قط عن تدبير ولا اختيار إنما كنت أكتب في مؤلفي ما يلهمني الله تعالى به.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: سبب كون كلام البشر لا يسلم من الخطأ أو التحريف أو التناقض عدم اليقظة الدائمة، فلذلك كان يقع في الغفلة والسهو.

وكان سيدي أحمد الزاهد ﷺ يقول: من الأدب ألا يطلب العبد عدم الاعتراض مطلقًا، بل يهرب من مضاهاة كلام الله تعالى ما أمكن، وحتى يجد غيره في كلامه مطعنًا وتوريكًا وإيضاحًا بشرح أو بحاشية، ومن ترك زيادة التنميق والتحرير في الألفاظ كان أبعد من الزهد والعجب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهودهم في نفوسهم بعد مبالغتهم في الاجتهاد في العبادة ليلاً ونهارًا أنهم قد استحقوا الخسف بهم لولا عفو الله تعالى وحلمه عليهم، وأنه تعالى لو خسف بهم الأرض بذنوبهم التي عملوها لكان ذلك في محله، فإنهم يعلمون أن ذنوبهم قد خرجت عن الحصر، فلا تظن يا أخي أن أحدًا من القوم يرى نفسه خيرًا من أحد من المسلمين لما هم عليه من العبادة والزهد والورع وغير ذلك؛ لأنهم ما يشهدون ما عليهم، ولا يشهدون الذي لهم إلا على وجه الشكر لله تعالى فقط.

وإنما ختمنا الكتاب بهذا الخلق العظيم؛ لأنه محط رجال الأولين والآخرين، فما منهم أحد رفع حجابه إلا ورأى أنه قد استحق الخسف به، والمسخ لصورته لسوء ما يتعاطاه من المعاصي والرذائل حتى كان السرى السقطي ﷺ أول ما يقوم من النوم يمسح بيده على وجهه، وتارة ينظر وجهه في المرآة، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف أن

يكون الله تعالى قد مسخ صورتي.

وكان بشر الحافي ﷺ يقول: ما من ولي لله تعالى إلا، وهو يسأل العفو والصفح عنه، وفي الحديث: «**لا يدخل أحد الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[1] وأجمع العارفون كلهم على استحباب ختام جميع الأعمال بالاستغفار لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33] ثم إنهم مع استغفارهم ليلاً ونهارًا لا يأمنون عذاب الله تعالى، فليس عند أحدهم طمأنينة بقبول الحق تعالى استغفارهم، فقد يكون حال الواحد منهم مثل ما قال القائل:

إذا كان المحب قليل حظ ... فما حسناته إلا ذنوب

واعلم يا أخي أن كل من نظر منا إلى كثرة إحسان الله تعالى إليه ليلاً ونهارًا أو عدم معالجته بالعقوبة كلما عصاه خاف من الله تعالى ضرورة، وعد ذلك من الاستدراك، ووالله ثم والله لا أعتقد الآن أن أحدًا من خلق الله تعالى أقل حياء مني ولا أكثر ذنوبًا، وإن ذنوب الناس كلها أقرب إلى المغفرة من ذنوبي، ومن ذاق هذا المشهد في نفسه ذاب جسمه وقلبه من شدة خجله من الله تعالى، ولو لم يكن شيء ما يقع من العبد من استحيائه من الناس حال معصيته دون أن يستحي من الله، فلا تكاد ترى أحدًا يعصى ربه بحضرة أحدًا من الخلق أبدًا، ثم إنه يجاهر ربه بالمعاصي وهو في حضرته في خلوته، فعدم استحيائه من الله تعالى أشد من ذلك الذنب، ولو أن إنسانًا قال لنا: إني أخاف من الناس أكثر من خوفي من الله تعالى أو أستحي منهم أكثر مما أستحى من الله تعالى، لربما كفره العلماء بذلك من حيث الاستهانة الصورية، وكثيرًا ما أشهد ذنوبي قد رجحت على ذنوب الأولين والآخرين، فأقول في سجودي: اللهم إن كنت تعلم أني صادق في اعترافي أن ذنوبي أرجح من ذنوب الخلق أجمعين فاغفر لي.

وكثيرًا ما أقف ساكنًا خجلانًا من شدة الحياء من الله ﷻ وأمثل نفسي أنني واقف خلف كل عاصٍ على وجه الأرض، وأنه لعل الحق تعالى يغفر لأحد من العصاة

(1) رواه أحمد في «المسند» (256/2)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (133/2).

فينالني منه نصيب، وكثيرًا ما اجتنب الدعاء مع الناس خوفًا أن يرد دعاؤهم من أجلي.

وكان على هذا القدم مالك بن دينار ﷺ كان لا يخرج مع الناس للاستسقاء، ويقول: وكثيرًا ما أنظر الجبال الراسيات وأرى جميع ذنوب الناس كالذر الطائر في الهوى، وكثيرًا ما أرى أن جميع البلايا التي تنزل على مصر وقراها إنما ذلك بسبب ذنوبي لا أتعقل غير ذلك، فأهيم على الأرض كالطير المذبوح، وأحس ببدني كأنه ذائب من شدة النار والغم.

وقد درج الأكابر على هضم نفوسهم بين يدي الله ﷻ مع مبالغتهم في الطاعات التي لا يستطيع غيرهم العمل بها لاسيما عند خوف انتقالهم من هذه الدار أواخر أعمارهم، ولكل وقت مقال يليق به، وتأمل قول الإمام الشافعي ﷺ: إن الاشتغال بالعلم أفضل من صلاة النافلة، واعتقد ذلك مقلدوه.

ثم إنك لو سألت أحدهم عن مسألة في العلم وهو محتضر لثقل ذلك عليه بخلاف قول: لا إله إلا الله، وأقول: استغفر الله مثلاً، ولو أن إنسانًا ترك القنوت أو التشهد الوارد في السنة، وجعل بدله قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد:1] لكان ذلك خلاف السنة مع أن قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في نفسها أفضل من ذلك الذكر، وقد قالوا: الاشتغال بالمفضول مع حضور القلب أفضل من الاشتغال بالأفضل مع الملل وعدم الحضور، قالوا: وهذا سبب تنوع الأعمال والأوراد، ولولا ذلك لكان الإنسان إذا تلبس بالأفضل فليس له النزول إلى المفضول لما كان يحصل للعبد الملل من الأفضل، ولم يجتمع له قلب فيه كان الاشتغال بالمفضول مع حضور القلب أفضل، وعلم مما قررناه أن خوف القوم من الله تعالى أن يخسف بهم الأرض أو مسخ صورتهم ليس هو من باب الملق بين يدي الله تعالى، وإنما ذلك من باب العلم واليقين دون التواضع، وهضم النفس، فإن الله تعالى قد خسف الأرض بقوم كانت ذنوبهم أقل عددًا من ذنوبنا وأصغر جرمًا منها.

وقد روى الإمام أحمد والبزار مرفوعًا: **«بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله تعالى الأرض فأخذته فهو يتجلجل**

فيها إلى يوم القيامة»[1].

وفي البخاري عن ابن عباس مرفوعًا: **«بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه إذ خسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»**[2] قال ابن عباس: وذلك بزقاق أبي لهب بمكة قال: وممن رآه حين خسف به العباس ﷺ.

وروى البخاري تعليقًا وأبو داود: **«ليكونن من أمتي أقوامًا يستحلون الخز والحرير يمسخ منهم قردة وخنازير إلى يوم القيامة»**[3].

فأنظر يا أخي إلى هذه الأمور التي خسف الله تعالى بأهلها الأرض تجد ذنوبك أعظم منها بيقين أو مثلها، فكم نظر أحدنا إلى عطفيه لما لبس ثوبًا جديدًا أو مضربة جديدة؟، أو كم نظر إلى عمامته بعد أن عمها؟ وكم أصلح طياتها لا لغرض شرعي؟ وكم تبختر أحدنا في مشيه؟ وكم رفع نفسه على أقرانه؟ وكم بات أحدنا على محبة الدنيا التي هي رأس كل خطيئة وعلى الضحك واللعب واللهو؟ وكم؟ وكم؟ وكم؟ وما يتأمل، ويعتبر منه.

وقد نقل ابن الجوزي أنه وقع في أيام الخليفة المطيع لله تعالى بمصر زلازل عظيمة حتى خربت عدة بلاد وسكن الناس الضجر، ووردت أيضًا محاضر شرعية أن الله تعالى خسف بأرض الرق بمائة وخمسين قرية، وصارت كلها نارًا وتقطعت الأرض، وخرج منها دخان، وقذفت الأرض جميع ما فيها حتى عظام الموتى، انتهى.

ووقع ببلاد تبريز بالعجم زلزلة مات فيها تحت الهدم نحو مائة ألف إنسان، ولبس الناس المسوح، وصاروا يجئرون إلى الله تعالى.

ووقع ببلاد خرسان من السماء قطعة حديد نحو مائة قنطار، ولها دوي أسقطت الحوامل.

وكذلك خسف الله تعالى ببعض جزائر من البحر بأهلها بنواحي عكا في أيام الملك الظاهر أبي الفتوحات بعد أن أمطرت السماء دمًا سبعة أيام، ولم يزل يبلغنا

---

(1) رواه أحمد في «المسند» (467/2) بنحوه.

(2) رواه البخاري في «الصحيح» (1285/3) بنحوه.

(3) رواه أبو داود في «السنن» (64/4).

الخسف والزلازل ببلاد، وجبال في الروم والعراق إلى عصرنا هذا.

وسمعت سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: لا يستبعد وقوع الخسف به في هذا الزمان إلا كل جاهل بمؤاخذات الله تعالى وبحكم الله تعالى.

قال: ومن استبعد وقوع الخسف بمثله، فليعرض على نفسه الكبائر والصغائر التي جمعها العلماء وينظر: فإن رأى نفسه سالمًا منها فذاك يصح له الأمان، وإن كان وقع في بعضها فقد استحق الخسف به وهي كثيرة، ولكن نذكر لك منها طرفًا صالحًا، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

من الأمور التي نهي الشارع عنها نهيًا مغلظًا أو مخففًا نصًا أو استنباطًا: ترك فعل الصلاة في وقتها، وترك الزكاة بالكلية أو ناقصة، والزنا، واللواط، والفرار من الزحف بشرطه، وأكل الربا، ومسائر الحرام، والغش في المعاملات، وترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مع القدرة عليه، وشرب الخمر، ومن لم يسكر، وشرب سائر المسكرات، وشهادة الزور، وقذف المحصنات، والغلول من الأموال المشتركة بين المسلمين كبيت المال والزكاة، وقتل المعاهد، وأكل أموال الناس بالباطل، واليمين الغموس، والحلف بمكة وغيرها من شعائر الإسلام كذبًا، واعتياد الكذب وتحريه، والقضاء بغير علم، وأكل الرشوة، والحكم بغير ما أنزل الله، والديائة وهو المستحسن على أهله، والقيادة وهو المستحسن على الأجنبي، والتخنث في الرجل، والتذكير في المرأة وهي أن يتشبه الرجل بالمرأة وعكسه، وتحليل المرأة لزوجها لحديث: **«لعن الله المحلل والمحلل له»**[1]، واللعب بالنرد والأوتار وسماعها، وعدم التنزه عن البول، وترك غسل الجنابة حتى يخرج وقت الصلاة، وكذلك ترك الوضوء أو التيمم، وخلف الوعد، والفجور عند المخاصمة، والكذب في غالب الأحوال لغير غرض شرعي وكتم العلم عن مستحقه ولو عدوًا، وتعليمه للدنيا أو الرياسة والمال، وتعظيمه دون العمل به، وتعاطي مقدمات القتل إلا بطريق شرعي كأن يصول لص على مالك، والغيبة إلا بطريق شرعي، وأكل مال الغير بغير إذنه إلا في مخمصة، والقذف، واليمين الفاجر، وتقديم الصلاة عن وقتها، وتأخير الصلاة عن وقتها كذلك، وقطيعة الرحم بألا يصلها، وعقوق

---

(1) رواه أبو داود (227/2)، وابن ماجه (623/1).

الوالدين وهو مخالفتهما فيما طلباه من حقوقهما وعدم إكرامهما، وكذلك عقوق الخالة والعم عند بعضهم، وأكل مال اليتيم، والتطفيف في الكيل والوزن والزرع، والمراء بالباطل، والجدال بغير علم، وكتمان الشهادة، والسعاية عند السلطان وسائر الولاة بما يضر المسلمين وإن كان صادقًا، ومحاربة العلماء والصالحين، وإحراق الحيوان بالنار ولو برغوثًا وقملة، ونظر الرجل إلى عورة المرأة الأجنبية لغير حاجة شرعية، وكلها عورة عليه إلا ما استثنى كنظره إلى الوجه والكفين إذا أراد خطبتها، ونظر وجهها للشهادة وموضع الفصد والحجامة، ونظر البالغ إلى ما بين السرة والركبة من المحارم، ومن الأمة والرجل، ونظره إلى الأمرد بشهوة، وإلزام المسلم أو الذمي بما لا يلزمه في العقود والفسوخ والأقوال والأفعال وغير ذلك، أو إيذاؤه بغير حق سواء أكان بقول أو فعل أو سكوت أو ترك قليله وكثيره، أو بأسبابه، ومقدماته، أو المساعدة على ذلك، أو الرضا به، وترك الختان بعد البلوغ لرجل أو امرأة، وترك رد السلام، والمن مما يفعله من الخير ولو في نفسه، والتكذيب للناس بغير حق، وسماع الغيبة من غير ردها، والتجسس على الناس في حديثهم الذي يسرونه عنه، ولعن من لا يستحق اللعن، والجلوس وسط الحلقة، وتصديق الكاهن والمنجم، ونشوز المرأة، وأن تفضي المرأة إلى الرجل ويفضي إليها، ثم ينشر سرها وعكسه.

وسؤال المرأة زوجها الطلاق من غير [بأس][1] وتغيير منار الأرض؛ أي: علامات الطريق، واستطالة المرء في عرض أخيه المسلم، والنياحة على الميت، ولطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور عند المصيبة، والطعن في أنساب الناس، وتبرئ الإنسان من نسبه، أو من والده، وأن يتولى غير مواليه، وهجر المسلم

---

(1) في المطبوعة (باش)، وهو تصحيف. وقال قال الإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى في الزواجر عن اقتراف الكبائر :الكبيرة الحادية والثمانون بعد المائتين: سؤال المرأة زوجها الطلاق من غير بأس.

أخرج أبو داود والترمذي وحسنه ابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما، عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة .والبيهقي في حديث قال: وإن المختلعات هن المنافقات، وما من امرأة تسأل زوجها الطلاق من غير بأس فتجد ريح الجنة أو قال: رائحة الجنة.

فوق ثلاثة أيام بغير طريق شرعي، وتعذيب الحيوان بغير موجب، وخصي عبد مطلقًا وتعذيبه وتكليفه بالخدمة الشاقة وغيرها بغير حق ظلمًا وبغيًا، وأن يشير الشخص إلى أخيه بحديدة أو سلام، والغدر بالأمير والقيام عليه بالسيف، وتكفير المسلم بغير حق.

وعدم الإنكار على المرأة إذا وصلت شعرها أو وشمت يدها، أو حددت معالم جسمها أو نشرت وجهها أي جردته حتى يحمر، والحقوا به أقضى القضاة إلا بتأويل، وتتبع عورات الناس، وإيذائهم بغير ما اكتسبوا، وترك الإنكار على الأمراء الذين يلبسون الحرير، ويستعملون أواني الذهب والفضة في أكل أو شرب أو دهان أو اكتحال وغير ذلك، ومحبة الإنسان أن يتمثل له الناس قيامًا وهو جالس، وسوء الجوار حتى يشكوا جاره منه، وتسبب الإنسان في سب والديه، وإن لم يقع سب، ومسابقة الإمام في الركوع أو السجود، والمرور بين يدي المصلي إلا إذا كان بينه وبينه سترة، وعدم الإنكار على العبد إذا أبق من سيده فضلاً عن إيوائه عنده، والسكوت على من يستحل مكة أو المدينة النبوية أو يحدث فيهما حدثًا، والشفاعة في تعطيل حد من حدود الله تعالى، والإحداث في الدين ما ليس منه، وسوء العشرة للملوك، وعدم الإحسان إلى البهائم، والتطفيف في الكيل أو الوزن، وإفساد المرأة على زوجها، أو العبد على سيده، وسوء الظن بعباد الله تعالى، ووطء المرأة في دبرها، وعدم إنكار المساحقة للنساء، والمفاخذة للرجال، واتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، والطواف بها كالكعبة واستلامها والصلاة إليها، والمخاصمة بالباطل مع علمه بأنه على باطل، وبيع العبد بعد عتقه، واستعمال العامل، وعدم إعطائه الأجرة بعد استيفاء العمل، وبغض الأنصار، والحيلة على إسقاط ما أوجب الله تعالى، وإباحة ما حرم الله تعالى، والتكذيب، وتخطي رقاب الناس يوم الجمعة، والكلام بغير عذر شرعي والإمام يخطب، والتغوط مستقبل القبلة أو مستدبرها في الصحراء، والقُبلة للصائم إن حركت شهوته، والوصال في الصوم على الأرجح والاستمناء بيده، ، أو يد أجنبية مثلاً، ومباشرة الأجنبية من غير جماع، ووطء الرجعية قبل الرجعة، والخلوة بالأجنبية، وعدم الإنكار

على المرأة إذا سافرت بغير زوج ولا محرم، ولا نسوة ثقاة، والخطبة على خطبة أخيه إلا أن يأذن له، وعدم الإنكار على من يتلقى الركبان، أو على الحاضر إذا باع لبادي، والاحتكار والزيادة في السلعة لا لرغبة في شرائها بل يخدع غيره، وبيع المعيب قبل بيانه، وعدم الإنكار على من باع عبدًا مسلمًا لكفار أو باعه مصحفًا، أو كتب علم شرعي، وكشف العورة في الخلوة لغير حاجة، واتخاذ الكلب الذي لا يحل اقتناؤه.

قال العلماء: وتصير الصغيرة كبيرة بالإصرار عليها واحتقارها في عينه، والتهاون بستر الله تعالى على صاحبها وحمله عليه، ويكون فاعلها عالمًا يقتدى به، وتكفر الصغائر باجتناب الكبائر ويفعل الأعمال الصالحة.

قال بعضهم: ويتحقق الإصرار بأن يدخل على صاحب الذنب وقت صلاة أخرى ولم يتب، فهذه جلة من المعاصي التي نهى الشارع عنها كل مكلف ذكرناه لك غير مبينين الصغائر من الكبائر، وإن كان الشارع ﷺ قد بين فالتزم كل ذلك أدبًا مع الشارع ﷺ، وخوفًا عليك يا أخي أن تفعل الذنب إذا قيل إنه غير كبير، ومقصودنا سد الباب، وعدم التعرض لهذه الذنوب، فإن كل واحد منه يوجب أن الله تعالى يؤاخذ عليه بما شاء من العقوبات من خسف ومسخ أو مرض شديد.

ولا تنس يا أخي كبائر الباطن، فإن من كان في قلبه مرض منها لم يلق الله تعالى بقلب سليم، وذلك النفاق بأن يتظاهر بالتوبة وهو مصر على الذنب مثلاً والكبر والفخر، والخيلاء، وسوء الظن، والحسد والغل، والحقد والبغي، والرياء والبخل، وحب السمعة والأعراض عن الأخلاق المحمدية، وازدراء المسلمين والخوض فيما لا ينبغي الخوض فيه مثل الخوض في ذات الله تعالى، والطمع فيما في أيدي الناس، والنظر إلى الأغنياء بعين التعظيم زيادة على الفقراء، والاستهزاء بالفقراء أو بالمعرة إذا كانوا أهله، والحرص على المال، والتنافس في الدنيا والمباهاة بها، والتزين بما نهى الشرع عنه، أو المداهنة وحب المدح بما لا يفعله أو لا يقصده من الطاعات، والاشتغال بعيوب الخلق في المجالس ونسيان الإنسان عيبه هو، ونسيان نعمة الله تعالى عليه حتى لا يكاد يشكره إلا قليلاً، وترك الغيرة لدين الله تعالى، وعجب

الإنسان بحسن عباداته وعقله، وقلة شكر الله تعالى، والاشمئزاز من تقدير الله تعالى، من حيث القضاء لا المقضي، وظنه في الله تعالى أنه لا يغفره، واتباع الأهواء المضلة عن طريق الله تعالى، والإعراض عما يرضى الله تعالى والكنود عنه، والخداع لله تعالى مطلقًا، أو لخلقه بغير طريق شرعي، وحب الحياة الدنيا وزينتها لغير غرض شرعي صحيح، وعدم قبول الحق من الناصح ولو عدوًا له، وفرح العبد بالمعاصي والطمأنينة إلى الإقامة في الدنيا، ونسيان ذكر الله تعالى والدار الآخرة، وغضب الإنسان لحظ نفسه وانتصاره لها بالباطل، وهوان حقوق الله تعالى على قلبه، وسخريته من عباد الله تعالى، واحتقاره لهم بغير طريق شرعي ونحو ذلك فقد أجمع القوم على أن الحق تعالى يذم صاحب هذه المعاصي أكثر مما يذم صاحب المعاصي الظاهرة، كالغضب والسرقة، وشرب الخمر، والزنا؛ وذلك لعظم مفسدتها، ومع ذلك فقد أصبحت هينة على الناس في النصف الثاني من القرن العاشر حتى لا يكاد أحدهم يستغفر منها، فاعرض يا أخي هذه المعاصي على نفسك وإخوانك، وإن الله تعالى لو خسف بأهل الأرض كلهم بسبب ذنب واحد لما كان ذلك غريبًا.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين - رحمه الله تعالى - يقول: والله لو أن ذنوبي قسمت على أهل الأرض كلهم لوسعتهم، واستحقوا بها الخسف والهلاك، فكيف حال من هو حاملها وحده؟! ولكن سبحان من رحمته سبقت غضبه، انتهى.

ويؤيد ذلك أن رسول الله ﷺ صلى على امرأة بعد ما رجمها في الزنا، فقالوا: أتصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟! فقال ﷺ: **«لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم»**[1].

وقال أيضًا في ماعز: **«لقد تاب توبة لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم»**[2] أي: فكما أن توبة شخص واحد لو قسمت تسع أهل الأرض، فكذلك

---

(1) رواه مسلم في «الصحيح» (1324/3)، والنسائي (63/4).

(2) رواه البخاري (2500/6)، ومسلم (1321/3).

تكون معصيته لو قسمت على أهل الأرض قياسًا على توبته.

وقد قال بعض العارفين: من رحمة الله بعباده أنه إذا عصى أحد منهم ألا يخصه وحده بالبلاء، بل يوزعه على الخلائق؛ رحمة به، لولا ذلك لمحق الله تعالى أثره بذنب واحد.

قال: ومن هنا قالوا: الرحمة خاصة والبلاء عام، فإنه إذا توزع على الناس أصاب كل واحد نصيب ضعيف لا يكاد يحس به، وذلك من باب ارتباط المؤمن بالمؤمن، وتحمله همومه كما في الحديث مرفوعًا: «**من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم**»[1] وفي لفظ آخر: «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[2] انتهى.

وفي الحديث أيضًا: «**إذا كثر الخبث عم العذاب الصالح والطالح**»[3] انتهى.

ثم اعلم يا أخي أن شهود العبد أن كل بلاء نزل على بلده أو إقليمه فإنما هو بسبب ذنوبه هو فقط ليس هو لكل فقير إنما هو لأفراد من الفقراء، وقد أدركت من هؤلاء الأفراد جماعة كشيخنا شيخ الإسلام زكريا، وسيدي علي الضرير النبتيتي، وتلميذه سيدي علي البحيري، وسيدي علي الخواص، وسيدي أفضل الدين ﷺ كما مر في هذا الكتاب مرارًا، فكان كل واحد من هؤلاء إذا نزل بالمسلمين بلاء يصير يبكي ويفحص في الأرض كالطير المذبوح، ويقول: يا رب لا تؤاخذ هؤلاء الخلائق بذنوبي، وصاحب هذا المشهد لا تصير له رأس يرفعه بين الناس لا في الدنيا ولا في الآخرة من شدة تواضعه ورؤيته نقائصه.

وقد منّ الله تعالى عليّ برائحة من هذا المقام ولله الحمد حتى صرت لا أقدر على أحد يقوم لي ولا يقبل يدي، ولا على حضور وليمة يجتمع فيها

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) رواه البخاري في «الصحيح» مختصرًا عن زينب ابنة جحش -رضي الله عنهن- ثم إن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «**لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وحلق بإصبعه الإبهام وبالتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**» (1221/3).

الناس، وإن جرى القدر الإلهي بحضوري أصير بين يدي الناس أحس بنفسي كالذي كبسوه بفاحشة أو جرسوه في أزقة بلده حتى إني تركت حضور ولائم الناس وموالد الأشياخ، ولا يكاد يعذرني في تخلفي عن ذلك إلا من ذاق مذاقي وشهد مشهدي، فلا أتعقل الآن بلاء ينزل على أهل مصر وقراها إلا بواسطة ذنوبي وحدها، وإن ذنوب الناس كلها مغفورة اتهاما لنفسي، وحسن ظني بغيري، وكثيرًا ما يغلي رأسي ودماغي من شدة النار، فأصير أحس بدهن رأسي سائلاً على خدي، وأموت موتات ولا يشعر بي جليسي، ومن يشهد هذا المشهد لا يستبعد وقوع الخسف به والمسخ.

وقد قدمنا في هذا الكتاب أن سيدي عبد العزيز الديريني - رحمه الله تعالى - كان يقول لمن طلب منه كرامة: وهل تطلب يا ولدي كرامة لعبد العزيز أعظم من أن الله تعالى يمسك به الأرض ولا يخسفها به، وقد استحق الخسف به من سنين؟ وتقدم أيضًا في هذا المبحث أن مالك بن دينار كان لا يخرج مع الناس للاستسقاء، ويقول: أخاف أن يمنعوا القطر بسبب خروجي معهم.

وكذلك تقدم هنالك عن سفيان الثوري ﷺ أنه كان إذا مرت به سحابة وهو يملي الحديث يسكت، ويقول: اصبروا حتى تمر هذه السحابة.

وليكن ذلك آخر كتاب: «**الأخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية**» جعله الله تعالى خالصًا لوجهه الكريم، وأسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يديم علينا التخلق بما فيه حتى نلقاه، وأن يستر فضائحنا في الدارين، ولا يؤاخذنا بما انطوت عليه سرائرنا، وأن ينبت لنا الزرع، ويدر لنا الضرع، وينزل علينا من بركات السماء، ويلطف بنا في سائر حركاتنا وسكناتنا إنه ولي ذلك والقادر عليه آمين اللهم آمين.

ورحم الله تعالى من نظر في هذه الأخلاق ودعا لمؤلفها، وكاتبها بالعفو عنه، فإنها كلها أخلاق محمدية لا تكاد ترى منها خلقًا واحدًا في رسالة أحد من أهل هذا الزمان، لما أشرنا إليه في خطبة الكتاب، ومن تخلق بها صار من صدور أهل السنة والجماعة في عصره، ووجب الانقياد له والاقتداء به.

فإياك يا أخي أن يقوم بك الحسد وتنحجب بحجاب المعاصرة فلا تنتفع بشيء من هذا الكتاب فيفوتك خير الدارين كما يقع فيه كثير من أصحاب الأنفس الرديئة، فإن

نفع الإنسان كله إنما يكون من أهل عصره، وأما الأموات فقد صار ظهرهم في البرزخ إلى الدنيا، ووجوهم للآخرة، وخرجوا عن التكليف بهداية الناس، كما هو مشاهد وقد سمعت من أحد أهل الدعاوي أنه قال: ما بقي على وجه الأرض الآن أحد من أهل السنة والجماعة، فقالوا له: ولا فلان قال: ولا فلان، فأطلعه بعض الإخوان على كراس من هذا الكتاب فرجع عن قوله بحمد الله.

وقال: إن لم يكن صاحب هذه الأخلاق سنيًا فما بقي على وجه الأرض سني، انتهى.

خاتمة النسخة

فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم، وكان الفراغ من تأليفه في سابع عشر صفر الخير سنة اثنين وستين وتسعمائة بمصر المحروسة وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

استغفر الله وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة في يوم الخميس المبارك ثالث يوم من شهر ربيع الآخر الذي هو من شهور سنة ألف ومائتين وخمسة وثمانين من الهجرة على يد كاتبها الفقير إلى الله تعالى محمد أبو مطاوع السحيمي بلدًا، الحسيني نسبًا، الشافعي مذهبًا، الأحمدي خرقة، المصري إقامة من نسخة كتبها المؤلف بيده.

اللهم ارحم مؤلفها وانفعنا به وبعلومه في الدارين واغفر اللهم لمن كتبها ولوالديه ولكافة المسلمين .... آمين آمين يا رب العالمين.

تـــم الكـــتاب تكاملـــت نعـــم الـــسرور لمالكـــه

وعفـــى الإلـــه بجـــوده وبفـــضله عـــن كاتـــبه

وأودعت في هذا الكتاب من يومي هذا إلى يوم القيامة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله، وحسبنا الله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله وحده.

فهرس المحتويات

AL-ʾAḪLĀQ AL-MATBŪLIYYAH

AL-MUFĀḌAH MIN AL-ḤAḌRAH AL-MUḤAMMADIYYAH

by

Sīdi ʿAbdul- Wahhāb al-Šaʿrāni

Edited by

AL-šayḫ Aḥmad Farīd al-Mizyadi

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban